

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين
للإبداع الشعري



المجلد الأول

قافية الهمزة - قافية الكاف

حققه وصححه وضبطه وشرحه

علي الجارم   محمد شفيق معروف

تقديم

د. جابر عصفور

ديوان البارودي

محمود سامي البارودي

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

ديوان البارودي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

بالتعاون مع

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود - البابطين للإبداع الشعرى

ديوان البارودى

محمود سامى البارودى

المجلد الأول

قافية الهمزة - قافية الكاف

حققه وصححه وضبطه وشرحه

على الجارم   محمد شفيق معروف

تقديم

د. جابر عصفور



١٩٩٢

مدخل إلى شعر البارودى

جابر عصفور

يمكن مقاربة عالم البارودى الشعرى بأكثر من مدخل ، لكن المدخل الذى يستحق تميزا خاصا هو الذى يركز على الوعى الشعرى عند البارودى ، أعنى ما تصوره مفهوما للشعر ومعنى له ، وما استقر فى خلده من أهمية هذا الفن ومكانته ، وماترتب على ذلك من إلحاحه على قدرة الشعر فى تغيير الواقع أو البشر ، وماتدعم به هذا الإلحاح من استعادة لوظائف الشعر الأساسية فى التراث ، خاصة تلك الوظيفة التى ألمح إليها أبو تمام بقوله :

ولولا خلال سنها الشعر مادرى
بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

وتميز هذا المدخل بالقياس إلى غيره يرجع إلى أن المغايرة الفعلية التى ميّزت البارودى الشاعر عن أقرانه الذين لحق بهم من السابقين عليه تعود إلى ماأحدثه من تغيير فى وظيفة الشعر ومهمته ، وتحويل فى مفهومه ومعناه ، وتعديل فى مكانة الشاعر ووضعه داخل شبكة العلاقات الاجتماعية والمعرفية للمجتمع . هذا الوعى المتغير بأهمية الشعر ومكانة الشاعر ، وهو وعى اغتنى بالممارسة وازداد تمكنا بها وتفاعلا معها ، هو العلة الأولى لكل ماقام به البارودى من جهد ، وماخلفه من انجاز ، تميّز به عن أقرانه السابقين عليه أو المعاصرين له ، أمثال إسماعيل الخشاب وعلى الدرويش وعلى أبى النصر وعلى الليثى وغيرهم . إن وعيه الشعرى المختلف كان يدفع به إلى كل ماحاول الوصول إليه ، وذلك فى سعيه لأن يحقق للشعر معناه الذى شوهه صغار المنادمة ، ويبعث وظيفته الجذرية التى أهدرها ملق المتاجرة ، ويسترجع للشاعر مكانته التى تنقله من مهانة «الأدباتى» إلى رفعة زعماء الإصلاح .

لقد كان هذا الوعى ركناً أساسياً فى إيمان البارودى بضرورة النهضة ، وعنصراً تكوينياً من إيمانه المصاحب بقدراته الذاتية على الإسهام فيها . وإذا

كان البارودى ـ رجل الدولة ـ حاول الإسهام فى تحقيق النهضة زعيماً من زعماء الثورة على الظلم والتخلف ، وداعيةً من دعاة الشورى والحياة النيابية ، ووزيراً ورئيساً للوزراء فى حكومة تحاول مقاومة شرور الحكم المطلق للخديوى وإصلاحه ، فإن البارودى ـ الشاعر ـ كان يعمل بما لا يناقض حلم رجل الدولة، وما يبقى بعد ذهاب هذه الدولة ورجالها على السواء ، فصاغ من القصائد ماعدّه وسيلة من الوسائل التى تنتقل بالإنسان من الشر إلى الخير ، وبالمجتمع من التخلف إلى التقدم ، وبالدولة من الديكتاتورية المطلقة للمستبد غير العادل إلى الحياة النيابية التى لا تنفر من «المستبد العادل» ، ما ظل يؤمن بالشورى التى وصفها البارودى بقوله :

هى عصمة الدين التى أوحى بها
رب العباد إلى النبى محمد
فمن استعان بها تأيّد ملكه
ومن استهان بأمرها لم يرشد
أمران ماإجتمعا لقائد أمة
إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم
شورى ، وجند للعدو بمرصد
هيهات يحيا الملك دون مشورة
ويعز ركن المجد مالم يعمد
فالسيف لا يمضى بدون روية
والرأى لا يمضى بغير مهند
فاعكف على الشورى تجد فى طيّها
من بيّنات الحكم مالم يوجد
لاغرو أن أبصرت فى صفحاتها
صور الحوادث فهى مرآة الغد

ومن المهم أن نلتفت لما تنطوى عليه الأبيات السابقة من دلالة على «القائد العسكرى» (البارودى) الذى يؤمن بالشورى ، والذى يسعى إلى أن يعقل سطوة السيف بحكمة الرؤية ، ويسند «الرأى» بما يدعمه من القوة . وإذ تومئ تلك الدلالة إلى الوضع المزدوج للبارودى ، وتصله بقوة «السلطان» صلته بفكر الناصح «الحكيم» الذى يغل سطوة السيف ويوجهه ، فإنها تؤكد العلاقة بين

الوجهين المتقابلين لهذا الوضع فى صيغة الشاعر «رب السيف والقلم» ، ذلك الذى يؤسس لدوره ، من حيث هو شاعر ، وضعاً جديداً ، يرتبط بمرآة الغد التى يتطلع فيها إلى المستقبل ، ولكن من الزاوية التى تفضى إلى ما يسهم فى تطوير الحياة ، وتحقيق رؤية الشاعر لهذا المستقبل .

وتتشكل هذه الرؤية ، بدورها ، فى علاقات لا تفصل «سياسة الشعر» عند الشاعر عن «سياسة الرعية» عند الحاكم ، فالنموذج الشعرى الذى كان البارودى يسعى إلى تجسيده هو نموذج «الشاعر الحكيم» الذى يشيع حضوره مبدأ الخير بين أبناء الأمة بإصلاح مافى داخلهم وتغييره ، وهو نموذج يمكن أن نرى فيه الوجه الآخر لنموذج «المستبد العادل» الذى كان يتطلع إليه البارودى وأقرانه من رواد النهضة ، يقصدون إلى الحاكم الفرد الذى يشيع حضوره مبدأ الحق ، ويعمل على صلاح الرعية بما يشيعه من عدل ، ويستجيب إليه من «الشوري» التى تجمع بين معاصرة الحياة النيابية وأصالة التراث الذى يصل ، بدوره ، بين الموروث الدينى (حيث المعنى المتجاوب للآيتين «وشاورهم فى الأمر» [١٥٩/آل عمران] و «أمرهم شورى بينهم» [٣٨/الشورى]) والموروث الشعرى الذى يسترجع منه البارودى أمثال بيت بشار :

ولاتجعل الشورى عليك غضاضة
مكان الخوافى قوة للقوادم

ترى هل كان البارودى يحلم ، فى هذه الرؤية ، أن يتحد فى شخصه النموذجان: نموذج الشاعر الحكيم والمستبد العادل ؟ إن نصوصه الشعرية قد تومئ إلى حضور هذا الحلم الذى ينسرب فى رؤيته للعالم وتنطقه أبيات من مثل :

- وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت
لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم
لها فى حواشى كل داجية فجر

- وقلدوا أمركم شهما أخا ثقة
يكون ردءا لكم فى الحادث الجلل
ماضى البصيرة ، غلاب ، إذا اشتبهت
مسالك الرأى صاد الباز بالحجل

يجلو البـديهـة باللفظ الوجـيـز إذا
عـز الخطاب وطاشت أسـهم الجـدل

ولكن سواء كان هذا الحلم جانبا من رؤية البارودى أو لم يكن فإن العلاقة بين النموذجين لا تنفصل فى وعيه الشعرى الذى تنطقه نصوصه ، فلاغنى لحكمة الشعر عن قوة الحاكم التى تصون التجسد المادى لرؤياه ، ولاغنى للحاكم عن الشعر فى سياسة الرعية وعمران العالم ، خصوصا حين يغدو الشعر «الحكمة البليغة» التى تضيئ عقل الحاكم بأهمية العدل وحياة الرعية بقيمة الخير . وإذا كان نموذج الحاكم العادل (أو المستبد العادل) يعمر الحياة المادية فإن نموذج الشاعر الحكيم يعمر الحياة الروحية . والدعوة إلى تحقق كليهما ، مجتمعين فى شخص واحد أو منفصلين ، تأكيد لدعوة تغيير العالم الذى واجه البارودى شروره ، وسعى إلى تغييره فعلًا وقولا .

وكما حدث فى الفكر ، عندما حمل جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) الذى تأثر به البارودى مع تلميذه محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) راية الاستنارة ، وأكدا ضرورة التحول عن الأنساق الفكرية القائمة إلى أنساق مغايرة ، ترتبط بمطامح رحبة لنهضة متميزة ، يشترك الاثنان فى التبشير بها والعمل على تحقيقها ، حدث فى الشعر ، عندما حمل البارودى راية النهضة الإبداعية ، وأكّد ضرورة التحول عن الأنساق الشعرية القائمة إلى أنساق مغايرة ، فنبذ المكانة الهامشية لشاعر المنادمة والتسلية فى عصور الانحدار ، واستبدل بها المكانة السامية لشاعر النهضة . وكان فعله بمثابة الوجه الإبداعى الذى يوازى الوجه الفكرى ، فى صياغة المطامح الرحبة التى أسهم فيها مع أقرانه فى مجالات النهضة المتعددة . وإذا كان كل من جمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده قد بدأ من ضرورة إعادة فتح أبواب الاجتهاد وإعمال العقل ، ومن ثم نبذ التقليد لإعادة الوصل بين الحكمة والشريعة من ناحية ، ومتابعة متغيرات النهضة ومشكلاتها من ناحية ثانية ، فإن البارودى بدأ من إعادة فتح أبواب الإبداع ، ونبذ التقليد الذى ينفى الاستقلال عن فاعله ، وذلك لإعادة الوصل بين الشعر ومشكلات الحياة الجديدة من ناحية ، وتأكيدا لمطامح النهضة وأحلامها من ناحية ثانية. وبقدر ماكان الأفغانى وتلميذه يستبدلان بقيود الإظلام حرية الاستنارة ، ويرجعان إلى العقل مكانته التى أضاعها النقل ، وللحكمة دورها الذى قوضه التقليد ، كان البارودى يستبدل تراتبا بآخر على نحو مواز ، فأكد ما ناقض النقل والتقليد ، ودعا إلى ما يعيد للعقل مكانته ، وللإنسان ملكاته التى لا تزدهر بشئ سوى العقل :

إن لم يكن للفتى عقل يعيش به
فإنما هو معدود من الهمل

وكما أصبح العقل حجة الله على خلقه ، وأداتهم الأساسية فى تعرف الحسن والقبيح ، فى طريقهم إلى تحقيق النهضة ، على نحو ما نجد فى كتابات الأفغانى ومحمد عبده ، أصبح العقل مفتاح الإبداع الجديد عند البارودى بكل أنواعه ، وبداية إزدهار دوحة الشعر التى :

إذا نورت أفنانها غب ديمة
من الفكر جاءت بالبديع المفوّف

وقد فرض هذا الوضع على البارودى القيام بعملية تأويلية للتراث من منظور مشابه للمنظور الذى نظر منه الأفغانى ومحمد عبده ، فانحاز لتراث شعرى دون غيره، على أساس من تصوره لدور الشعر فى النهضة التى غدا من رجالها ، وأكدّ ما انحاز إليه بواسطة مختاراته الشهيرة . وأعاد إنتاج دلالة هذا التراث بالاختيار نفسه (واختيار الرجل قطعة من عقله) وإحياء تقاليد ما انحاز إليه والتواصل معه إبداعيا فى آن . وكان ذلك يعنى ، جذرياً ، استعادة النموذج الأصلى للشاعر العربى فى التراث المختار ، أعنى نموذج «الشاعر الحكيم» الذى انطوت عليه قصائد زهير وأبى تمام وابن الرومى والمتنبى والمعرى وغيرهم، والإلحاح على ابتعاث هذا النموذج ، سواء فى علاقته بالقصيدة أو علاقة القصيدة بالعالم ، وذلك من المنظور الذى يبرز دور الشعر فى الارتقاء بالإنسان، فى معنى غير بعيد عن الدلالة التى يتضمنها بيتا ابن الرومى :

أرى الشعر يحيى المجد والباس والندى
تبقيه أرواح له عطرات
وما المجد لولا الشعر إلا معاهد
وما الناس إلا أعظم نخرات

وليس هناك فارق جذرى بين أن يقول أبو تمام :

أنضيت فى هذا الأنام تجاربى
وبلوتهم بمفحصات مذاهبى

وأن يقول البارودى :

ـ حلبت أشطر هذا الدهر تجربة
وذقت ما فيه من صاب ومن عسل

أو :

ـ هذه حكمـــــة كـــــهل خـــــابر
فـاقـتنصـهـا فـهى نعم المقـتنص

فنموذج الشاعر الذى يجسّده البيت الأول هو نفسه الذى يتواصل فى بيتى البارودى ، ويستعيد حضور دلالته فيهما ، بواسطة شاعر يدرك أن الشعر يبدأ من «الفكر» ، ويحقق غايته بواسطة ما ينقله إلى الآخرين من «حكمة» . هذه الحكمة هى خلاصة تجربة شاعر ماضى البصيرة ، يحمى الحقيقة شدّه ، لا تشتبه عليه مسالك الرأى ، حلب أشطر دهره ، وقاوم الشر فى زمنه ، فأخذ ينقل إلى بنى وطنه ماأفادته التجربة ، قائلا لهم :

هذى نصـــيحـــة من لا يبـــتـغى بدلا
بكم ، وهل بعـــد قـــوم المرء من بدل؟

هذه النصيحة كانت من اللوازم الأساسية للمهمة الأصلية للشاعر فى التراث الذى اختاره البارودى ، المهمة التى أدرك أن عليه تأكيدها فى سعيه إلى تحقيق النهضة ، بعد أن آمن وأقرانه من زعماء الإصلاح أن إصلاح النفس هو بداية إصلاح العالم ، وأنه لا نهضة دون وازع أخلاقى ، ولا انتقال بالإنسان من مستوى النقص إلى الكمال إلا بإعمار داخله بالحكمة التى هى غذاء الأرواح وطب النفوس وهدى الجماعات . وعلاقة الشعر بالحكمة علاقة النسغ بالنبات ، فهى أصل نشأته ، وهو نبع تدفقها الأول . وأثرهما فى النفوس واضح فى ذهن البارودى ، يعاود الإشارة إليه نثراً ونظماً ، فيفتتح ديوانه بقوله :

ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس وتدريب الأفهام ، وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق ، لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها لذى رغبة مسرح ، وارتبأ الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمح

ويؤكد معنى ماقاله نثرا فى أبيات متعددة ، منها بيته الذى يقول :

إن فى الحكمـــة البليـــغـــة للرو
ح غـــذاءً كـــالطب للأجـــســـاد

وللشعراء فى هذه «الحكمة البليغة» تقاليد قديمة متواصلة ، تعود إلى أولئك الذين يؤكد البارودى صلته بهم بقوله :

(١) كم غـــادر الشـــعـــراء من مـــتـــردم
(٢) في كل عـــصـــر عـــبـــقـــرى ، لا ينى
(١) ولـرب تـال بـذّ شـــــاو مـــقـــدّم
(٢) يفـــرى الفـــرى بكل قـــول مـــحـــكم

هذا التأكيد ينطق التواصل فى التقاليد ، لكنه يميز اللاحق عن السابق ، ويبرز وعى قائله بالدور الذى ينهض به فى عصره، فهو «العبقرى» الذى يرث التقاليد ليعيد صياغتها بما «يفرى» القصيدة التى تعبّر عن مطامح عصر جديد للنهضة، عصر يستعيد به الحاضر المتخلف ميراث الماضى المتقدم، ويستعين به فى تطلعه صوب المستقبل . ولم يكن فى ذلك ما ينغلق على معنى النسخ أو النقل أو التقليد، فى الدلالة التى تناقض العقل وتنفى الاجتهاد، فقد أدرك البارودى منذ البداية أنه حلقة من سلسلة يكمل فيها اللاحق السابق بالتواصل معه والإضافة إليه . وكان إدراكه للعلاقة التى تربطه بأسلافه ادراكا ينطوى على معنى «المنافسة» أكثر من «المتابعة»، ولذلك كان يلح على «المعارضة» التى تضم المخالفة إلى المشابهة ، والمناقضة إلى الموافقة ، والفصل إلى الوصل . ومن المؤكد أن «معارضات» البارودى تحتاج إلى دراسة تفصيلية من هذا المنظور الأخير، فقد شغل الكثير من الدراسات السابقة بإبراز منطق المشابهة على حساب المخالفة، والتواصل على حساب الإضافة، ذلك على الرغم من أن «المعارضة» لا تكتمل دلالتها إلا إذا انطوت على المفارقة التى تمايز الخلف عن السلف، وإلا إذا كان «المعارض» ـ بكسر الراء ـ داخلا فى نوع من العلاقة التى تبرز فعله بالقياس إلى فعل من يقوم بمعارضته، حيث تقوم القصيدة اللاحقة بالإشارة إلى نفسها على مستوى علاقات الحضور، ولكن بالقياس إلى سابقتها التى ترتفع من الغياب إلى الحضور .

صحيح أن البارودى لا يمارس شعائر قتل الأب التراثى التى أشار إليها أبو تمام بقوله :

فنفـــسك قط أصلحـــهـــا
ودعـــنـــى مـــن قـــديم أب

ولكنه كان يستهل الخطوة الأولى فى تقويض سطوة هذا الأب وسلطته القاهرة بإعلان التفوق عليه ، والمجاوزة لأفعاله . وفى سياق هذا الاستهلال يتحرر دافع التجديد ، وتنبثق بداية واعدة لعلاقة مغايرة بالأب التراثى . وتلك

علاقة لا تكف قصائد البارودى عن الإشارة إليها ضمنا أو صراحة . ولا تتوقف أبياته عن الإيماء إليها أو النص الصريح عليها ، فى عبارات جازمة ، حماسية ، فرحة بوعدها الجديد ، من مثل :

- أسهرت جفنى لكم فى نظم قافية
ما إن لها فى قديم الشعر من مثل
- نَشَأت بطبعى للقريض بدائع
ليست بنحلة شاعر متقدم
- فإن يك عصر القول ولى ، فإننى
بفضلى - وإن كنت الأخير - مقدَم
- فياربما أخلى من السبق أول
وبذَ الجياد السابقات أخير

لكن هذه العلاقة، من ناحية ثانية، جعلت شعر البارودى أشبه بالوتر المشدود بين قطبين متعارضين يتجاذبانه . الأول هو الذاكرة التى تستوعب التراث المختار، وتزدحم به، وتتمثله حضورا أبويا دائما فى كل حين . والثانى هو العين التى ترى عصرها، ويشدها مشهده الخاص، وتجذبها جدة ما فيه من إبداع، فتسعى إلى نفى حضور نقيضها الأبوى . وللذاكرة حضور قاهر من هذه الناحية، بطبعها الذى قد يفسره شطر بيت البارودى الذى يقول :

... ...
إن التذكر للنفوس غرام

وللعين ما يفتنها من طرائف المبتدعات العصرية وموضوعات العصر ومدركاته ومشكلاته التى لا سبيل إلى مقاومتها . وإذا كانت الذاكرة تؤكد الوصل بالماضى ، وتبتعث مدركاته ، فارضةً حضوره بأكثر من طريقة ، فإن العين اللاقطة تقاوم دور الذاكرة ، محاولة تأكيد خصوصية إدراكها لموضوعاتها المغايرة . وذلك فى حال من المجاذبة التى يمكن أن نصف معها شعر البارودى بأنه شعر موزع بين الذاكرة والباصرة .

ولقد وصف البارودى إحدى قصائده فى شبابه (وكان فى الرابعة والعشرين من عمره) بأنه «حبيرة» ليؤكد جدتها ، والحبيرة هى الجديد من الثياب . ووصف القصيدة نفسها بأنها :

حضرية الأنساب إلا أنها
بدوية فى الطبع والتركيب

وكان يعنى بذلك ماتنطوى عليه هذه القصيدة من خاصية مزدوجة ، تربطها بعصرها الحضرى وتراثها البدوى . هذه الخاصية سمة متكررة فى قصيدة البارودى بوجه عام ، فهى قصيدة لا تكف عن الانفتاح على الذاكرة والإشارة إلى تراثها ، ولاتخجل من هذه الإشارة التى تتعمدها تعمداً ، ماظلت حريصة على نسبها ومنافسة سابقاتها . وهى تنتمى إلى عصرها فى الوقت نفسه ، تحاول أن تعكسه كما تعكس المرآة ما يقع على صفحتها من الأشياء التى تواجهها ، وتنقش صورته كما ينقش الرسام فى لوحته ، وتصوّره كما تصور آلة التصوير الموضوع الذى تلتقطه عدستها من هذه الزاوية أو تلك. ولذلك وصف البارودى العلاقة بين قصيدته التى اقتبست منها البيت السابق وموضوعها على أنها علاقة تصوير ، أعنى علاقة تسلط معها القصيدة عدساتها على موضوعها لأنها حضرية النسبة إليه ، فتصور صفاته التى تستجليها :

كزجاجة التصوير شفّت ، فاجتلت
من وصفه ماكان غير قريب

بعبارة أخرى ، إن تأثير الذاكرة يفضى إلى «كل ملساء المتون غريبة» من القصائد التى تصافحنا بأوصاف «شمراخ أرعن باذخ» ، أو «ضرغام خيس مدهس» ، أو «أرقش مرس» ، أو يفضى إلى ذكر «بنى سعد» و «الرباب» و«نجد» و «وادى الفضا»، أو يفضى إلى صياغة مثل هذه الأبيات الشهيرة التى كان يحفظها طلاب المدارس الثانوية :

أنا مصدر الكلم النوادى
بين الحواضر والبوادى
أنا فارس ، أنا شاعر
فى كل ملحمة ونادى
فإذا ركبت فإننى
زيد الفوارس فى الجلاد
وإذا نطقت فإننى
قس بن ساعدة الإيادى

وفى هذا الجانب يؤدى الوزن دوره فى تداعى التراكيب المجانسة لصيغه ، ويفيض بالمجازات والمسكوكات والقوالب المحفوظة التى تجعل من الصورة الشعرية سبيكة مؤلفة من أخلاط سابقة التجهيز ، ومنظومة فى أنساق علائقية لا تغادر الأنساق القديمة فى أصولها الصياغية .

أما تأثير العين فيرتبط بالمنظور الذى ينطوى على فتنة خاصة تجذب البارودى إليه ، فيتوقف عند عناصره البصرية ، متيحا أوسع مجال للإدراك الحسى فى التصوير ، على نحو ما فعل فى نونيته التى كتبها أثناء حرب اقريطش (١٨٦٥م) والتى تبدأ على هذا النحو :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان
وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب
فوق المتالع والربا بجران
لا تستبين العين فى ظلمائه
إلا اشتعال أسنة المرّان

فالمفتتح ينسج مدركاته الحسية - والمجازية - فى صياغة ترد فاعل الرؤية على مفعولها ، وتضعهما فى صدارة العلاقات الدلالية ، وذلك من الزواية التى تؤكد حضور أداة الإبصار (معاقد الأجفان ، العين) إلى جانب مفعولها الذى يبسط صفاته البصرية على المشهد كله .

ولا يقتصر حضور العين على الفتنة بلغة المشهد فى شعر البارودى ، فهناك فتنة أخرى يومئ إليها الحضور الحسى للعين ، حيث ينجذب الحس إلى مخترعات المشهد المعاصر ، تعبيرا عن خبرة العيان المباشر ، وبحثا عن ما يتماز به الخلف عن السلف ، فتستبدل القصيدة بالمجاز القديم مجازا جديدا ، «ينطبع» به المدرك - بفتح الراء - المحدث فى «لوح الفؤاد» ، الانطباع الذى تتولد به صورة من قبيل :

رمت بخيوط النور كهربة الفجر

أو صورة أخرى من مثل :

وحرك أسلاك التراسل بيننا
بسيال ود لفظه لم يحرف

حيث يتولد المجاز من العيان المباشر ، ويقترن بالطرافة التى تبده القارئ بما لم يعهده ، وتشده إلى الاستطراف الذى يؤديه البيتان :

طبعته فى لوح الفؤاد مخيلتى
بزجاجة العينين فهو مصوّر

فسرت بجسمى كهرباءة حسنه
فمن العروق به سلوك تخبر

هذا الاستطراف يعود بنا إلى لغة المشهد ، ومن ثم إلى تأثير العين ، فيفضى إلى دوال بصرية لافتة ، تصل عمل الشاعر بعمل الرسام وآلة التصوير. ولذلك يفتتن البارودى بتشبيه فعل التصوير فى القصيدة بعمل آلة التصوير من مبتدعات عصره ، وذلك بالقدر الذى يلح به على الصلة بين الشعر والرسم . والالحاح على الصلة التى تقرن القصيدة بفن «الرسم» أو «آلة التصوير» كالإلحاح على الصلة التى تجمع بين القصيدة و «المرآة» فى تأكيد أهمية البصر فى تشكيل القصيدة وتلقيها عند البارودى ، فلا تختلف دلالة الإلحاح على بصرية التصوير فى أبيات من مثل :

- شفت زجاجة فكرى فارتسمت بها
عليك من منطقى فى لوح تصوير
- إذا صاغها بهزار فكرى تصورت
لعينى فى زى من الحسن رائق

عن الإلحاح على بصرية المرآة فى أبيات أخرى ، منها :

- نظرت إلى المراة فكشفت لى
قناعا لاح فيه قتير رأسى
- خطرت لها بمرآة قلبى
صورٌ لا تزول كالأحلام

إنه إلحاح مقترن بالدور الذى تلعبه العين الموازية للذاكرة ، فى وصل قصيدة البارودى بمشهدها المعاصر ، وذلك من الزاوية التى تؤكد «استطراف» مخترعات العصر ، ومحاولة وصل القول بقائله ، وذلك بتمييز القول بخصوصية صاحبه ، على نحو غير بعيد عن دلالة البيت الذى يقول :

فانظر (إلى) لقولى تجد نفسى مصورة
فى صفحتيه ، فقولى خط تمثالى

هذه المجاذبة بين العين والذاكرة هى وجه من أوجه إنجاز البارودى وتميزه، فمن الصراع بين ما انطوت عليه الذاكرة من تراث لابد من التواصل معه ، وما أومأت إليه العين من تجارب جديدة لابد من خوضها ، يتحرك الوعى الشعرى للبارودى وتتولد قصيدته . وأحسب أن هذه المجاذبة وذلك الصراع هما اللذان

منحا هذه القصيدة خصوصيتها وحفرا لها دور الريادة فى مجاوزة التراث بالانطلاق منه إلى ما يضيف إليه ، بل إلى ما يمكن أن يكون بداية للتمرد عليه فى أجيال لاحقة . ولذلك لاينبغى توصيف إنجاز البارودى الشعرى أو النظر إليه داخل تصورات جاهزة ، موروثة بدورها ، لا تلحظ الصراع الداخلى الذى ينطوى عليه هذا الإنجاز ، وتكتفى بتلخيصه فى صفة واحدة ، هى صفة «إحياء» أو «بعث» لتقاليد قديمة فحسب ، فذلك تلخيص شائه لوجه واحد من أوجه الموقف فحسب ، ولا قيمة لمعنى «الإحياء» أو «البعث» دون إضافة فردية ، تنطوى على هذه المجاذبة بين التقاليد والموهبة الفردية ، وتجارب الآخرين والتجربة الذاتية .

المؤكد أن هذه المجاذبة كانت تثقلها سطوة من التقاليد وطغيان من ذاكرة جمعية، نرجسية الطابع ، على نحو كان يعكرّ الرؤية على العين اللاقطة لمدركات العيان المباشر. ولكن إرادة الاستقلال والتميز التى كانت تكمن وراء حركة العين ما كانت تتوقف عن المقاومة . حدث ذلك ، على سبيل المثال ، حين أدخل البارودى «القطار» أول مرة إلى دنيا القصائد . وكان قد استقله إلى ضيعته بناحية «قرقيرة» بالدقهلية ، بعد أن استقال من وزارة الجهادية والبحرية ووزارة الأوقاف عام ١٨٨١ م ، حين كان الجو السياسى ملبدا بغيوم التدخل الأجنبى فى مواجهة الثورة العرابية الوليدة : وكتب البارودى قصيدته التى مطلعها :

هجـــرت ظلوم وهجـــرها صلة الأسى

فـــمـــتى تجـــود على المتـــيم باللقى

وهومطلع يكشف عن النسيب (التقليدى) الذى تبدأ به القصيدة ، لتومىء به إلى الموقف إيماء دال «ظلوم» إلى «السلطان» (وهو الخديوى توفيق) . وينتهى النسيب . ويبدأ وصف الرحلة ، فيستبدل الشاعر (الوزير) ، الذى تؤرقه مشكلات السياسة، بوصف الناقة وصف القطار ، مستجيبا إلىٰ ما تفرضه تجربته الخاصة من ناحية ، ومفسحا السبيل إلى عيانه المباشر من ناحية ثانية ، كما لو كان يعى وصية أبى نواس التى تقول :

وإذا وصـــفت الشىء مـــتـــبـــعـــا

لـــم تـــخـــل مـــن غـــلـــط ومـــن وهـــم

فيصف «القطار» وصف العيان . ولكن سرعان ما تسقط الذاكرة عباءتها على لغة العين، فتتحول «الآلة» الجديدة إلى صورة مسقطة من صور «الحصان» ، فلا نرى من «القطار» سوى «سراة أدهم» :

يطوى المدى طى السجل ، ويهتدى
في كل مهمهة يضل بها القطا
يجرى على عجل ، فلا يشكو الوجى
مدّ النهار ، ولا يمل من السرى
لا الوخد منه ، ولا الرسيم ، ولا يرى
يمشي العرضنة ، أو يسير الهيدبى

وعندئذ ، تذهب بجدة القطار تشبيهات الحصان المنثالة من الذاكرة ، ويغدو القطار نفسه مجرد بديل ، لايغير من علاقة العناصر فى بنية القصيدة القديمة التي وصفها ابن قتيبة في مقدمة «الشعر والشعراء» . ويصيب التحات نضارة العين التى تختفى نضارة مدركاتها تحت ركام ما يتساقط من الذاكرة . ولكن العين لاتستسلم تماما ، فتفر من ركام الذاكرة بالمنظور اللافت ، وتحدق فى مشهد النبات (المرئى من نوافذ القطار فى سيره) حيث «القطن بين ملوز ومنور»:

دبّت به روح الحياة ، فلو وهت
عنه القيود من الجداول قد مشى
فأصوله الدكناء تسبح فى الثرى
وفروعه الخضراء تلعب فى الهوا

وللبيتين علاقة شبه خاصة بشعر البارودى ووعيه الشعرى على السواء ، ففى هذا الشعر تدب روح الحياة مقاومة القيود التى توهى قوة اندفاع الحركة ، وفى هذا الوعى تحتبس الأصول الدكناء فى ثرى الذاكرة ، لكن تتلاعب الفروع الخضراء مع النسائم المنعشة لبدايات عصر جديد .

- ٣ -

إن وعى البارودى بأهمية الشعر فى الحياة بوجه عام ، وأهمية شعره بوجه خاص ، هو الذى جعله يلح على الحديث عن «الشعر» فى ديوانه لا يتوقف الأمر هنا على المقدمة اللافتة للديوان بل يجاوزه إلى عديد غيره . ويلفت الديوان انتباهنا ، فى هذا المجال ، إلى القصائد التى خصصها للحديث عن أصدقائه أو تلامذته الكتاب والشعراء ، أمثال حسين المرصفى وعبد الله فكرى وشكيب أرسلان وحافظ إبراهيم وغيرهم ، حيث يجد فى هذه القصائد مجالا لصياغة مفاهيمه الخاصة عن الفن الأدبى وتأثيره ، والكشف عن الصورة المثلى لنموذج الشاعر الذى يبحث عنه لدى أقرانه من المعاصرين . وكذلك يلفتنا الديوان إلى

قصائده ومقطعاته التى نظمها حول فن الشعر دون غيره ، وبعضها أقرب إلى التعريف بنفسه شاعرا ، مثل المقطع الشهير : «أنا مصدر الكلم النوادى» . وبعضها الثانى فخر بشعره ، على نحو ما نجد فى قصيدته التى مطلعها :

ترنم بأشعارى ودع كل منطق
فما بعد قولى من بلاغ لمفلق

وبعضها الثالث أقرب إلى وصف أسلوبه فى النظم ، من حيث علاقته بالقدماء ، مثل قوله :

مضى حسن فى حلبة الشعر سابقا
وأدرك ، لم يُسبق ، ولم يأل مسلم
وباراهما الطائىُّ ، فاعترفت له
شهود المعانى بالتى هى أحكم
وأبدع فى القول الوليد فشعره
على ما تراه العين وشى منمنم
وأدرك فى الأمثال أحمد غايةً
تبذ الخطى ، ما بعدها متقدم
وسرت على أمثالهم ، ولربما
سبقت إلى أشياء ـ والله أعلم

ويعضها الرابع أقرب إلى التعليمات الشعرية التى يوجهها البارودى «وصايا» للشعراء من حوله أو من بعده . وبعضها الأخير يشبه أن يكون «بيانا» شعريا ، يصوغ المبادىء الأساسية للنظم وأهميته التى لا تفارق وعى البارودى . وإذا أضفنا إلى ذلك إشارات البارودى المتكررة إلى شعره داخل قصائده ، مما يدخل فى باب «الشعر الشارح» (قياسا على مصطلح «اللغة الشارحة») والأوصاف التى يصف بها شعره ، من حيث تأثيره فى الآخرين ، وعلاقته بالسابقين عليه وتميزه عنهم ، والهدف من صياغته ، والكيفية التى ينبنى بها ، أو العناء الذى بذله فى كتابته ـ أقول : إذا أضفنا ذلك كله إلى ما سبق وجدنا أننا إزاء شاعر حريص على أن يتأمل أداته التى يصوّر بها الواقع ، وينظّر لها شعريا ، أو يقوم بتأصيلها نقديا فى الوقت الذى يسعى فيه إلى «نقش» صور هذا الواقع فى مرايا قصائده .

وإذا كانت دلالة الوفرة والتكرار ، فى هذا المجال ، تقترن بالاهتمام بالوسيلة التى تستمد قيمتها من الغاية التى تهدف إلى تحقيقها ، فإن الدلالة

نفسها تومىء إلى وعى شعرى متميز ، يحرص على أن يميز إنتاجه عن إنتاج سابقيه من جانب ، ويكشف عن ولعه بهذه الوسيلة فى ذاتها من جانب ثان . فى الجانب الأول ، يمكن أن نعيد النظر فى «معارضات» البارودى بوجه عام ، وما تنطوى عليه من أبيات مثل :

فلو كنت فى عصر الكلام الذى انقضى
لباء بفضلى جرول وجرير
ولو كنت أدركت النواسى لم يقل
«أجارة بيتينا أبوك غيور»
وما ضرنى أنى تأخرت عنهم
وفضلى بين العالمين شهير

حيث نرى فيها اهتماما بالقول فى ذاته ، أعنى «مقاليد الكلام» التى لا تتكشف قيمتها فى وعى صاحبها إلا بمقارنتها بغيرها ، فى سياق لا تتعرف معه الأنا الناظمة هوية نظمها ، أو تعرِّف به ، إلا من خلال المقارنة بذلك الآخر (الأب) الذى تريد «الأنا» أن تبدأ منه وتتفوق عليه . ولذلك تركز هذه الأنا انتباه من يتلقى القصيدة إلى ما تحققه هوية النظم من تميز ، وتضع القصيدة فى علاقة تشابه مجازية بهذا الجواد الذى يعاكس سطوة الزمن ، فينتقل بفعله من صفة «اللاحق» إلى صفة «السابق» ، على نحو ما يومىء هذان البيتان :

كلم أثرت بها جواد براعة
لا يقتفى فى الحضر والتقريب
ترك الوليد ملثما بغباره
ومضى فكفكف من عنان حبيب

والجانب الثانى متصل بالأول من الزاوية التى تعطف الفاعل على فعله ، حيث الاهتمام بالفعل فى ذاته لايقل عن الاهتمام بتأثيره فى المحيط الخارجى ، فنحن إزاء شاعر يدرك أنه لاسبيل له إلى استمالة الآخرين إلا بالمراجعة المستمرة لأداة هذه الاستمالة ، ولا مجال له فى التفوق على سابقيه إلا بمعاودة النظر فى الوسيلة التى تحقق له الاتصال بهم والانفصال عنهم . هل نقول إن ما يحدث فى هذا الجانب أشبه بما يحدث عندما تستدعى «زجاجة التصوير» الاهتمام بها فى ذاتها ؟ إن الأمر على هذا النحو بالفعل فى حالة البارودى ، فالتركيز على «زجاجة التصوير» بحث عن كل ما يؤكد كفاءة أدائها ، وما يفضى بعدساتها إلى المزيد من الدقة والكمال . إن الاهتمام بها وجه آخر من الاهتمام

بغايتها ، فهى نظير الفرشاة التى ترسم هذه المناظر المتقنة التى أشار إليها البارودى فى قوله :

مناظر لو رأى (بهزاد) صورتها
لاعتاده من تمادى الحيرة البله

ولقد تحدث القدماء من أسلاف البارودى عن الشعر ، وجعلوا القصيدة تتحدث عن القصيدة ، على نحو ما نجد عند أبى نواس وأبى تمام وابن الرومى والمتنبى مرة أخرى . وكان ذلك فى سياق لا تختلف دوافعه عن دوافع البارودى جذريا ، فقد كانوا حريصين على تأكيد تميزهم عن السابقين عليهم من ناحية ، وعلى المراجعة الدائمة لاكتمال أدواتهم فى هذا التميز من ناحية ثانية . ومن الواضح أن كل سعى شعرى وراء التميز أو المغايرة لايتحقق إلا بوعى ذاتى بغايته وأداته فى آن . ولا يتحقق هذا الوعى الذاتى - حتى فى تقاليد الاتصال - إلا بأن ينعكس هذا الوعى على نفسه ، ويغدو فاعلا للتأمل ومفعولا له ، فاعلا للمراجعة ومفعولا لها . من هذا المنظور ، كان البارودى يسير فى تقاليد المغايرة التى استهلها هؤلاء السابقون عليه ، أولئك الذين أرادوا أن يتميزوا فى اتصالهم بالسابقين عليهم ، فمضى جاهدا فى إنجاز قصيدة يمكن أن يصفها بأنها :

مخدرة تمحو بأذيال حسنها
أساطير من قبلى وتعجز من بعدى

هذا الحال هو الذى دفع البارودى إلى المعاودة والتنقيح ، فالمعاودة والتنقيح احتفاء بالفن المكتوب ، ورغبة فى الوصول به إلى أقصى درجة من الإتقان . وقد عبر البارودى نفسه عن هذه الرغبة تعبيرا مجازيا ، من خلال الحكم والأمثال التى نثرها فى ديوانه ، عندما أكد أن «الرمح ليس يروق غير مقوّم» ، وأن «السهم منسوب إلى الرامى» ، و«السيف يعرف بالأثر» ، و«السهم منسوب لكل مصيب» . وتلك حكم تنقل خلاصة تجربة صاحبها ، وتدل على اهتمامه بعمله ، وهى أمثال تنطوى على معنى التجويد والتثقيف وتحض عليهما .

لقد كان البارودى من الشعراء الذين تعلموا مغزى ما قاله الحطيئة قديما عن أن «الشعر صعب وطويل سلمه» ، فانتاجه الشعرى الذى خلفه يفسح له موضعا لائقا فى تقاليد مدرسة «عبيد الشعر» وأصحاب «الصنعة» لا الطبع . صحيح أنه يصف نفسه بقوله :

أقول بطبع لست أحتاج بعده
إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر

. . .

إذا جـاش طبـعى فـاض بالدر منطقى
ولا عـجب ، فـالدر ينشـأ فى البـحـر

ولكن المقـصـود من «الطبع» فى هذا السـيـاق ليس الارتجـال أو التـدفق التلقائى بالقصيدة ، كأن يقول الشاعر على البديهة دون إعداد أو مراجعة ، كما لو كان الشعر تدفقا تلقائيا لنبع فطرى لامعاناة فى تدفقه . إن معنى الطبع فى سياقات البارودى الشعرية يفارق معنى «التدفق التلقائى» ويقترن بالملكة التى تكتمل للشاعر من مطالعة القدماء ، فالطبع مرادف للتعلم واستكمال آلات الصنعة فى هذا السياق ، بمعنى لايبعد كثيرا عن ما قصد إليه حازم القرطاجنى عندما وصف الطبع بأنه : «استكمال للنفس فى فهم أسرار الكلام ، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التى من شأن الكلام الشعرى أن ينحى به نحوها ، فإذا أحاطت [النفس] بذلك علما قويت على صوغ الكلام بحسبه عملا» .

لقد كان الشعر عملا من أعمال «الصنعة» عند البارودى ، كأنه «الرمح» الذى لايروق غير مقوّم ، و«السيف» الذى لا يغدو ماضى الغرارين إلا بعد الصيقل والمبرد ، و«السهم» الذى لا يدرك طريدته إلا بعد الاعتناء بتريشه وتفويقه . والأوصاف الملازمة للصنعة المادية المتقنة ملازمة لأوصاف الصنعة الشعرية عند البارودى ، فالقصيدة عمل شاق لا يرد فيض الخاطر ، بل ينحتها الصانع من صخر صنعته ، ولا يثق بكل ما يلقى إليه طبعه ، ويراجع كل ما أدّته إليه قريحته ، ولا يكف عن تقويم القصيدة بل يسهو جفنه فيها إلى أن تكتمل أمامه «حولية» ، فيغدو شعره معروفا بقوة متنه :

لم تبن قـافـيـة فـيـه على خلل
كـلا ، ولم تـخـتلف فى رصـفـها الجـمل
فـلا سناد ، ولا حـشـو ، ولا قلق
ولا سـقـوط ، ولا سـهـو ، ولا علل

وكما نظر البارودى إلى الشعر بوصفه «صنعة» ، لابد من بذل الجهد فيها حرص على إخفاء الجهد المبذول فى هذه الصنعة ، فالصنعة هى إخفاء الصنعة، فيما يؤكد دلالة سعيه وراء ما يناقض «المنهل المطروق والمنهج الوعر» . ولكن رغم هذا الحرص على إخفاء أثر الصنعة ففى الديوان ما يؤكد المعاودة التى ينطوى عليها ، وبوجه خاص القصائد التى وصلت إلينا فى أكثر من صورة ، من مثل القصيدة التى كتبها قبل نفيه ومطلعها :

تلاهيت إلا مـــا يجن ضـــمـــيــر
وداريت إلا مـــا ينـم زفـــيـــر

ثم أعاد صياغتها منقحا ومحككا إلى أن استوت الصورة الأخيرة التى ارتضى إثباتها فى الديوان ومطلعها :

أبى الشـــوق إلا أن يجـن ضـمـيـر
وكل مـــشــوق بالحنين جــدير

وهناك قصيدة

ذهب الصـــبـــا وتـولت الأيـام
فـعلى الصـبـا وعلى الزمـان سـلام

التى تحولت بعد المعاودة والمراجعة إلى الصورة الأخيرة التى رضى لها البقاء فى الديوان ، ومطلعها :

أسل الديار عن الحـبـيب وفى الحـشـا
دار لـه مـــأهولة ومـــقـــام

وأخيرا قصيدته

تصـابيت بعـد الحلم ، واعـتـادنى شجـوى
وأصـبـحت قـد بدلت نسكى باللهـو

التى لها صورة مغايرة فى الديوان هى :

تصـابيت بعـد الحلم ، واعـتـادنى زهوى
وأبدلت مــأثور النزاهة باللهـــو

ـ ٤ ـ

هذه المعـاودة تضـعنا فى وضع لافت من شـعـر البـارودى، أو تضـع هذا الشعر فى وضع متميز . لقد نقح شعره مرات ، وأتاحت له فترة النفى الطويلة (سبعة عشر عاما وبعض عام) معاودة النظر فى هذا الشعر الذى لم يعد له من مـجد الدنيا سواه ، وذلك فى عزلة لم يبق له فيهـا من عزاء سوى الشعر . ويشـبه البـارودى فى ذلك أبا العـلاء المعرى إلى حد مـا ، فقـد كان رهين عزلة المنفى كأبى العلاء الذى ظل رهين عزلة سجونه الثلاثة التى تحدث عنهـا فى شعره . وكمـا أتاحت هذه السجون التوحد لأبى العلاء ، كى يحكك شعره ،

ويخرج لزومياته ، فإن توحد البارودى قد أتاح له إعادة النظر فى شعره وتنقيحه. ودفعه إلى الاستزادة من المراجعة ، بل المضى فى الطريق نفسه الذى سار فيه المعرى عندما آثر النظم فى لزوم مالا يلزم . هكذا ، كتب البارودى قصائد من مثل :

إلام يهفو بحلمك الطرب ؟
أبعد خمسين فى الصبا إرب

وأشباهها كثيرة فى شعر المنفى ، التزم فى بعضها تكرار حرف بعينه قبل حرف الروىّ (الراء فى البيت السابق) أو أضاف إليه حرفا آخر (قبل حرف الردف اللازم بدوره) على نحو ما نجد فى ما كتبه عن الروح بعد مفارقة الجسد:

بلغت مداك من أرب فسيحى
فأنت اليوم فى جو فسيح

وحتى بعد أن عاد البارودى من المنفى وردت إليه أملاكه وتناست سلطة الخديوى تمرده القديم وثورته على الحكم المطلق ، لم يعد للبارودى من دور أساسى فى الحياة سوى معاودة شعره وتنقيحه ، حين لا تجود عليه الصنعة بشىء ، فقد أصبح شيخا لايقبل منه غير الشعر ، ولم يعد يحتفى به سوى الشعراء وأقرانهم من الكتاب . وقد أكمل البارودى المراجعة النهائية لديوانه قبل وفاته بسنوات قليلة ، وأملاه على من كان يقوم بالكتابة له ، وهو أصل الطبعة التى بين أيدينا . وهكذا ، فنحن إزاء الصورة الشعرية النهائية التى ارتضاها الشاعر لنفسه ، بعد تجارب عديدة حذفها ، وبعد تعديلات كثيرة أجراها . مؤكد أن الدافع إلى ذلك هو الخوف من الزلل الذى حدثنا عنه البارودى ، فى مقدمة ما أملاه ، بقوله:

إن المرء وإن كثر إحسانه لا يسلم من الزلة لسانه ، وقل من توغّل فى حرجات القريض فنجا قبل أن يغص بالجريض .

ولكن الأمر لا يقتصر على هذا الدافع وحده ، فهناك العملية التأويلية التى أجراها البارودى على شعره بالحذف والإضافة والتعديل ، أثناء محاولات المراجعة والمعاودة . وقد ارتبطت هذه المحاولات ، فى جانب منها ، بتأكيد صورة بعينها ، هى صورة نموذج الشاعر الحكيم التى حرص الشاعر على إبراز ملامحها فى قصائده ، بالزيادة على ما لم يكن لافتا ، والإطناب فيما كان موجزا، والشرح فيما كان يستلزم الإضاءة . وفى المقابل ، حذف أو تقليص أو

تخفيف أو تعديل ما قد يتناقض والدلالات الأساسية لحضور هذا النموذج ، من حيث ما أصبح يمثله فى وعى الشاعر الذى اتحد به شيخا من ناحية ، ووعى القراء الذين أصبح الشاعر يتوجه إليهم بالخطاب من ناحية ثانية . وكلتا الناحيتين تتجاوب مع الأخرى فى النبرة الاعتذارية التى تتسرب فى المقدمة التى يقدّم بها البارودى شعره ، والتى ترتفع ارتفاعا لافتا حين يتصل الأمر بشكوى الزمان ، فيقول البارودى :

وقد يقف الناظر فى ديوانى هذا على أبيات قلتها فى شكوى الزمان ، فيظن بى سوءًا من غير روية يجيلها ، ولا عذرة يستبينها، فإنى إن ذكرت الدهر فإنما أقصد به العالم الأرضى لكونه فيه ، من قبيل ذكر الشىء باسم غيره لمجاورته إياه .

بعبارة أخرى ، لقد أعاد البارودى النظر فى شعره بعد تجارب حافلة ، ووقع اتهامات مؤلمة ، وكانت الصيغة النهائية التى ارتضاها وأملاها هى الصيغة التى تتناسب وما أصبح يلح عليه من حكمة طوال سنوات المنفى ، ومن جلال الحكيم الذى لا يتردد فى مخاطبة المستمعين إليه بقوله :

فيابن أبى (والناس أبناء واحد)
تقلّد وصاتى فهى لؤلؤة الفكر
فإنى امرؤ جربت دهرى ، وزادنى
به خبرة صبرى على الحلو والمر
بلغت مدى خمسين ، وازددت سبعة
جعلت بها أمشى على قدم الخضر
فكيف ترانى اليوم أخشى ضلالة
وشيبى مصباح على نوره أسرى

لقد أبرزت هذه العملية التأويلية التى أشير إليها نموذج الشاعر الحكيم ، ووضعته فى الصدارة بالقياس إلى كل ما يغايره - أو يناقضه - من نماذج فى شعر البارودى . ومن ثم شحب حضور نموذج الشاعر اللاهى وغيره من النماذج التى تركت الفضاء فسيحا أمام نموذج الشاعر الحكيم . وتولى الحضور الغالب لهذا النموذج تطويع ما عداه وتلوينه فى المنظور الدلالى الذى لايفارق مغزاه هذا البيت :

ولكننى طوفت فى عالم الصبا
وعدت ولم تعلق بفاضحة أزرى

وفى الوقت نفسه ، أردفت هذه العملية صورة النموذج الغالب بصورة الشاعر «الصانع» ، وأدنت بالصورتين إلى حال من الاتحاد ، صار به الشاعر الصانع الوجه الآخر للشاعر الحكيم ، والعكس صحيح بالقدر نفسه . وظهر انتظام عناصر القصيدة وإحكام أجزائها كما لو كان مجلى آخر ، يحاكى به الشاعر الحكيم (بصنعته) النظام المحكم للكون الذى هو منه ، والذى يدل عليه فى آن . ولا شىء يعلو فى هذه القصيدة على «النظام» الذى هو بديع صنع الكون وبديع صنع الشاعر الذى يضم «شتات الكون فى بعض أحرف» ، فيما يقول البارودى . ولا شىء ترجوه هذه القصيدة أكثر من التوازن بين عناصرها ، فهى أشبه ـ فى توازنها ـ بالإنسان الذى فطره خالقه على طبائع أربع :

فإذا تغلب واحد منها على
أقرانه أدّى إلى إقلاقه

وكما تنأى هذه القصيدة عن القلق فى عناصرها بأن تجعل العقل هاديا لها ، فى صنعتها الدالة عليه ، تنجذب بعلاقاتها المجازية إلى الأفق البلاغى المتعقل من «التشبيه» الذى يبقى على السلام الدلالى بين طرفيه ، ويظل كالحاجز المنطقى الذى يصون الأشياء المتمايزة من التداخل أو الاختلاط أو القلق فى مواضعها ، فيبقى على تراتب الدوال فى القصيدة ابقاءه على تراتب المدلولات خارجها .

فى هذا السياق ، تنبىء دلالة الصنعة عن مدلول العقلانية الملازم لها . وإذا كان «كمال العقل» هو جماع الأدوات التى تتميز بها الأضداد فى الصنعة ، فيما قال ابن طباطبا قديما ، فإن تحقق كمال العقل فى قصيدة البارودى يعنى أن هذه القصيدة لا ترخى العنان للخيال الشعرى ، أو تتركه مرسلا طليقا متحررا ، بل تعقله بما يشدّه إلى قواعد الإصابة وأصول اللياقة العقلية . ومن ثم تصف هذه القصيدة نفسها بأنها «هدية فكر» ، أو «صفحة الفكر» ، أو «لؤلؤة الفكر» ، أو «شعلة الفكر» ، فهى «آثار العقول» التى تذكرنا بالتيار الأوسع من التقاليد التى تنتمى إليها فى عالم الشعر الذى هو «صوب العقول» وليس «فيض العواطف» .

فى هذا السياق ، مرة أخرى ، تعلو قيمة العقل الملازم للصنعة ، وتعمل المخيلة بهديه ، فالعقل مرتبط باتزان الحكمة الذى يحدّ من جموح المخيلة المرتبطة بالهوى ، وإذا كانت الحكمة دليل الهداية ، ونبراسها ، فإن الشاعر الحق هو الذى يستضيىء بها ، ويكشف بنورها كل محجوب عن غيره ، فيمكن له أن يقول عن نفسه :

ولست بعـــــلام الغـــيـــوب وإنما

أرى بلحـــــاظ الرأى مـــــا هو واقع

و«لحاظ الرأى» تعنى حكمة العقل التى تعنى ، بدورها، قدرة الشاعر على أن يرى أبعد من غيره بما يتصونّ به من عقل :

فـــالعـــقل كـــالمنظار يبـــصـــر مـــا نأى

عنه قـــريـبـــا دون لمس باليـــد

- ٥ -

كانت الحكمة أصل الشعر ومصدر قيمته عند البارودى الذى آمن بدور الشاعر الحكيم فى اكتشاف مغزى الكون ، والتقاط العبرة من حركة الإنسان بين قطبى الزمان والمكان، كما آمن بدور الشاعر فى هداية الجماعة وقيادتها والتعبير عن مطامحها وأحلامها . ولم ير فى ذلك أمرا هامشيا أو ثانويا ، بل علة وجوده الشعرى ومبرر قيمته . ومن ثم، لم ينسرب إلى وعيه ما رسخ عند غيره من النظر إلى الشعر بوصفه أداة للمجاملة الاجتماعية ، أو بوصفه متجرا يطوف به المادح على طالبى الشراء ، ليكون المدح على قدر العطية ، بل نظر إلى الشعر بوصفه حكمة تتخلق بها المعرفة فى فكر الشاعر الحكيم ، وتنتقل عبر كلماته إلى الآخرين ، فتعرفهم بالحقيقة وتهديهم إلى الحق . صحيح أنه مدح كما مدح غيره من القدماء ، وصحيح أن شعره لم يخل من بعض آثار مراعاة مقتضى الأحوال ومقامات المستمعين ، ولكن مديحه لا يشكّل إلا أقل شعره . ولم ينطو، قط ، على هوان الشاعر الذى انحدرت به مواصفات النفاق الاجتماعى والسياسى أو لوازم العيش التى تلجىء الصدوق إلى المين . لقد طاول ممدوحيه القلائل (اسماعيل وتوفيق وعباس) فى قصائده القليلة ، ولم ينظر إليهم بوصفهم أعلى مكانة منه ، أو إلى شخصه - الذى كان حاضرا فى المدح بما لا يقل عن حضور الممدوح ، إن لم يفقه - بوصفه أقل مكانة . وفى الوقت نفسه ، اقترن مدحه بمغزى أخلاقى ، يرتبط بالدور الذى تلعبه الحكمة فى حياة الأفراد والمجتمعات فنقرأ عنده :

الشـــــعـــــر زين المرء مـــــالم يكن

وســـــيـــلة لـــلمـــــــدح والـذم

قـــــد طالما عــــزّ به مــــعـــشـــر

وربمـــا أزرى بـــأقــــــــــوام

فاجعله فيما شئت من حكمة
أو عظة ، أو حسب نامى
واهتف به من قبل إطلاقه
فالسهم منسوب إلى الرامى

وعندما يقترن «المدح» بالحكمة يفارق سمعته السيئة ، ويقترن بكل ما يقود الحياة إلى الاكتمال ، وذلك فى ظل مبدأ مؤداه :

أيها الشاعر الكريم تدبّر
واجعل القول منك ذا تحكيم
لا تذم اللئيم ، وامدح كريما
إن مدح الكريم ذم اللئيم

هذا المبدأ ينطوى على أحد الأصول التقليدية الأساسية التى تؤكد ضرورة التركيز على «النوع» الذى يغدو مثالا لغيره ، وذلك من الزاوية التى لا تتردد فى التضحية بالتعين الفردى لموضوع القصيدة فى سبيل الوصول إلى المثال العام الذى يغدو نموذجا لغيره . ومن هنا ، لم تكن القصيدة البارودية تتحدث عن كائن بعينه ، هو هذا الرجل أو تلك المرأة فى تفردهما المتعين أو خصوصيتهما المائزة ، بل عن الكائن «الأنموذج» الذى يستوعب كل صفات نوعه ، ويصعد بها إلى مرتبة المثال الذى يختزل كل صفات التحسين (أو التقبيح) الفردية فى إهابه، ويحيلها إلى نموذج من عموم الحسن الذى يدفع الآخرين إلى الإقبال عليه ، ومن ثم النفور من نقيضه ، فالضد يظهر حسنه (أو قبحه) الضد .

وبقدر ما كان البارودى يفاخر بالأثر الذى يحدثه شعره بوجه عام ، كان يتحدث عن الأثر الأخلاقى لهذا الشعر ، ملحا على ما يؤديه التخييل الشعرى من عمليات تحسين أو تقبيح ، فالشعر يمكن أن يكون مناراً للسارى أو نكالاً للأحمق . وما يخلفه فى النفس قد يشبه العسل الماذى أو المرة المقيئة . فى الحالة الأولى ، يخلد الشعر المآثر ، ويتحول إلى ديوان الفضل والنهى ، ويؤكد قيم الحق والخير والجمال ، ويعلو بالأنموذج الذى يجسّد هذه القيم ويحسنها فى النفوس بما يغرى باتباعها ، والعمل بمقتضاها بوصفها مثلا عليا فى الفعل والسلوك . وفى الحالة الثانية ، يجسّد الشعر المثالب ، ويعكس نماذجها فى مراياه بما يقبحها فى النفوس والعقل . ونقرأ فى أبياته:

ـ فلا تحتقر فضل الكلام ، فإنه
من القول ما يبنى المعالى ويهدم

وما هو إلا جوهر الفضل والنهى
يسرّد فى سلك المقال ، وينظم
- هو العسل الماذى طورا ، وتارة
يثور الشجا منه مكان المخنق
يغنّى به شاد ، ويحدو ركابه
به كل حاد بين بيداء سملق
فطورا تراه زهرة بين مجلس
وطورا تراه لهذما بين فيلق
وما كلفى بالشعر إلا لأنه
منار لسار ، أو نكال لأحمق

هذا التخييل الشعرى الذى يفضى إلى التحسين (منار السارى) أو التقبيح (نكال الأحمق) لا يتخذ شكلا واحدا فى علاقته بالقارىء . إن أوجهه تتعدد بتعدد الأغراض التى يتوجه إليها الشاعر من ناحية ، وأحوال المستمعين من ناحية ثانية ، إذ يتصف الشاعر الحكيم بأنه:

له بين مجرى القول آيات حكمة
يدور على آدابها الجدّ والهزل

ولكن الهزل ضرب من الجد فى هذا المقام ، لأنه مخاطبة المتلقين على قدر عقولهم أحيانا ، والقول الذى تستجم به النفس حتى تقوى على الحق فى أحيان أخرى ، ووسيلة تحسين تكتسب بها المعانى مذاقا براقا فى أحيان أخيرة ، فلا يفارق «آيات الحكمة» فى كل الأحيان . ومهما تعددت صوره ، أو كيفيات استقباله ، فإنه يظل دائرا ما بين قطبى التحسين والتقبيح ، وفى إطار الوظيفة الأخلاقية التى لم يكف البارودى عن النهوض بمقتضياتها .

وأحسب أن الوعى الشعرى بهذه الوظيفة هو الذى قرن تأثير الشعر بصورة «النور» فى الحقول الدلالية للصورة الشعرية عند البارودى . والأمر لا يتوقف على «منار السارى» فى هذه الحقول ، بل يتعداه إلى أمثال :

- ملكت مقاليد الكلام وحكمة
لها كوكب فخم الضياء منير

- وشعلة فكر لو بمثل ضيائها
أنار سراج الأفق ما كان ينطفى

فالعلاقة الدلالية بين الشعر وأمثال «المنار» و «الكوكب المنير» و «شعلة الفكر» تؤكد وجه الشبه العقلى الذى يرتبط بالوظيفة الأخلاقية ، من الزاوية التى تعطف فعل التخييل على فعل التخيل ، فتحقق التجاوب بين كيفية إبداع القصيدة عند الشاعر وكيفية تأثيرها فى المتلقى . أعنى أن «التخيل» الذى ينبثق فى «سماوة الفكر» كأنه النور ، إبداعا ، ينقلب إلى «تخييل» ينبثق ، كالنور ، فى وجدان القارئ ووعيه ، تلقيا ، فيضيىء له ما لم يكن منكشفا ، ويهديه إلى الاتجاه الذى يليق به . وقد عبّر البارودى عن ذلك بلغته الخاصة فى مقدمة ديوانه حين تحدث عن الشعر من حيث إبداعه وتلقيه فى آن ، فالشعر عنده :

> لمعة خيالية يتألق **وميضها** فى سماوة الفكر ، فتنبعث **أشعتها** إلى صحيفة القلب ، فيفيض بلألائها **نورا** يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ويهتدى بدليلها السالك .

وإذا كانت هذه العملية تبدأ مع لمعة الإبداع التى تنبثق فى سماوة الفكر نورا ، حيث يبدأ التخيل ، فإنها تنتهى مع إضافة المغزى الأخلاقى الذى يشيع نوره فى سماوة التلقى ، حيث يتحقق التخييل ويكتمل أداء الوظيفة الأخلاقية .

لكن دال «النور» لا ينصرف إلى مدلول المغزى الأخلاقى وحده ، حيث ينبلج بالحكمة الحالك من مسالك القيم ، فهناك : مدلول ثان ، تتضمنه الدلالة السياقية لهذه الصورة ، هو مدلول المعرفة الذى يتصل بمدلول الأخلاق فى حقول متجاورة ، لا تنفصل علاقاتها الوظيفية أو السياقية . إن الشاعر الذى يقول :

فما قيدتنى لفظة دون حكمة
ولا غرّنى قول فملت إلى الدعوى

أو يطرح السؤال المتعجب :

فكيف ينكر قومى فضل بادرتى
وقد سرت فيهم حكمى وأمثالى ؟!

تصل أبياتُه الأخلاقَ بالمعرفة ، فى علاقة يمكن أن تتضمن معنى السببية التى تجعل من كلا الطرفين نتيجة لقرينه دون تفرقة ، كما يمكن أن تتضمن معنى المجاورة الذى يجعل من الأخلاق الجانب الملاصق للمعرفة . وسواء آثرنا

المعنى الأول على الثانى ، أو العكس ، فإن اتصالهما نابع من دلالة «النور» الرمزية التى يلزم فيها مدلول الأخلاق مدلول المعرفة ولا يفارقه .

هذه الدلالة تردنا إلى الأصول التراثية الأولى لمعنى الشعر الذى لم يفترق عن معنى الحكمة فى أصل نشأته ، من حيث اقتران داله بمدلول المعرفة ؛ ولا تفترق عن معنى الشاعر الذى تداخل ومعنى الحكيم ، من حيث اقتران داله بمدلول العارف . وقد قيل إن الشعر سمي شعرا «لأنه الفطنة بالغوامض» ، وإن الشاعر سمي شاعرا «لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، أى يعلم» . وتلك أصول جعلت الحكمة كالشعر ، والشعر كالحكمة ، ضربا من المعرفة ، ينبثق فى سماوة الفكر ، حين يفطن الحكيم أو الشاعر إلى ما لا يفطن له الآخرون ، فيكشف الغامض من العالم والإنسان ، ويبرزه فى مغزى يصون الكون من الفساد ، ويؤسس عمرانه ، وذلك على النحو الذى يتنزل معه الحكيم أو الشاعر منزلة «المنارة» التى يهتدى بنورها ، فى كل أحوال الحق التى لا تنفصل عن الحقيقة . فالحكمة ـ كالمعرفة ـ «نور» . ونورها يغمر صانعها ومحصلها وناقلها والمبشر بها غيره . وغيابها ظلام يغمر كل من تغيب عنه . وذلك هو السبب فى تداخل دوال كلمات الحكمة والشعر والنبوة فى دائرة دلالية واحدة ، من قبل أن يروى العرب عن كعب الأحبار قوله : «إنا نجد قوما فى التوراة أناجيلهم فى صدورهم ، تنطق ألسنتهم بالحكمة ، وأظنهم الشعراء» . أعنى التداخل الذى امتزجت فيه أنوار النبوة بأنوار الحكمة بأنوار الشعر فى دلالة النور (المعرفة) الذى يرى به العارف ما لا يراه غيره ، ويبدد بضوئه ظلام من حوله ، محققا الإنارة أو الاستنارة ؛ فالنور هو المعارف والحقائق واليقين ؛ وهو الكتاب السماوى لأنه يأتى بالهدى والحق ؛ وهو النبى الذى يجيىء بما ينير السبيل ؛ وهو الحكيم الذى تقتبس الجماعة الهداية من نوره ؛ والشاعر هو الوجه الآخر للحكيم الذى يتمم على الجماعة نورها .

وعندما تتجاوب أبعاد هذه الدائرة الدلالية فى الوعى الشعرى للبارودى ، بكل علاقات التناص التى ترتبط بها ، تغدو دلالة الشعر قرينة دلالة النور ، من الزاوية التى يضيء بها الشعر (النور) معالم الطريق الذى تسلكه الجماعة :

فبنوره فى كل جنح نهتدى

وبهديه فى كل خطب نقتدى

ويكشف ، فى الوقت نفسه ، عن المعرفة التى تتجلى بها أسرار الكون :

فثم علوم لم تفتق كمامها

وثم رموز وحيها غامض السر

وتتجاوب أبعاد دينية فى المنطقة التى تصل حكمة الشعر بحكمة الأنبياء فى دلالة «النور» . ويرقى الشاعر إلى مرتبة الكشف ، ويغدو صاحب رؤيا ، يرى مالاعين رأت ويسمع مالا أذن سمعت . ويتحقق اكتمال نموذج الشاعر الحكيم الذى يصف مخيلته بأن :

لها من وراء الغيب أذن سميعة

وعين ترى مالا يراه بصير

أو يصف حضوره بأنه حضور كائن نورانى :

ـ بعيد مجال الفكر لو خال خيلة

أراك بظهر الغيب ما الدهر فاعل

ـ له تحت أستار الغيوب وفوقها

عيون ترى الأشياء لاوهم واهم

ومرة أخرى تبرز « العين» إلى الصدارة ، ولكن من حيث الدلالة على مدركها المباشر، النور الذى يلازم الرؤية والرؤيا لدى كل كائنات الدلالة النورانية.

وإذا كان لكل نبى آية ومعجزة ، فالشعر معجزة الشاعر الذى يدخل دائرة هذه الدلالة، فقصائده «آيات حكمة» ، و«آيات مفصلة» ، و«آية يوشع» فى الإعجاز . وقصيدته الحولية يقر لها بالمعجزات قبيل الإنس ، فهى القصيدة التى يمكن أن يقول عنها :

ـ ألا إنها تلك التى لو تنزلت

على جبل أهوت به فهو خاشع

ـ ولى من بديع الشعر مالو تلوته

على جبل لانهال فى الدو ريده

وهى ، أخيرا ، القصيدة التى :

تفنى النفوس وتبقى وهى ناضرة

على الدهور بقاء السبعة الطول

و«السبعة الطول» دال يجمع مدلوله ما بين «المعلقات» السبع فى الشعر التى قيل إنها علّقت على الكعبة «والسور» السبع الطول فى القرآن الكريم ، فيرد عجز الدلالة على صدرها فى دائرته النورانية .

- ٦ -

لا شك أن قيمة الشعر تغدو قيمة مطلقة فى هذه الدائرة ، فالنور الذى يستضاء على هذا النحو لا يفنى ولايتبدد ، مثله مثل حكمة الحكماء ونبوة الأنبياء . ومن ثم يتحول « الحكم » الذى يصدره الشعر (النور) فى زمن بعينه إلى حكم أزلى مطلق ، يجاوز تعين زمن إصداره ومكانه وشخص مطلقه إلى عموم الزمان والمكان والإنسان ، فيكتسب صفة الثبات التى تتأبى على النقض والتغيير . الإطلاق - بهذا المعنى - صفة متولدة عن نورانية الدائرة الدلالية التى يتحرك فيها الشعر ، فمادامت قصائده قرينة «السبعة الطول» فهو قرين الرؤيا التى تظل حية على الدوام ، لا تمحو الأيام جدتها . و«حُكْمُ» الشعر قرين هذه الرؤيا ، فهو «حُكْمٌ» يعلّق المتعين الذى هو باعثه فى الدولاب الأبدى للدورة الكونية التى تدور بالإنسان والطبيعة ، فلا يتوقف هذا الحكم عن الدوران مع الزمن ، ويكتسب صفة الأبدية رغم فناء فاعله والمفعول به . واذن ، فإن ما يقوله الشعر حق مطلق ، ومايثبته ثابت ، وما ينفيه منفى ، فهو صادق صدقا مطلقا فى هذه الدائرة . ومن ترفعه القصيدة لا يخفضه الزمان . ومن تهوى به يظل سجين معرة النقصان إلى يوم الدين .

ولذلك تقرن أبيات البارودى الأثر الذى يحدثه الشعر فى الآخرين بقدرة الدهر على تغيير مصائر الكائنات ، على نحو يتنزل معه الشعر - فى مرآة المجاز - منزلة قوة كونية ، تجري مع الشمس أو تطارد البرق ، بل تجاوز قوة الدهر نفسه ، وتسيطر عليه لتنطقه آثارها كأنه وسيط من وسائطها . وذلك فى «تخييل» شعرى يؤكد الأثر الأخلاقى للمعرفة الشعرية على سلوك الجماعة والأفراد ، ويوقع الرعب فى قلوبهم إذا انحرفوا عن هدى الحق والحقيقة الشعرية . ونقرأ :

للشعر فى الدهر حكم لا يغيّره
ما بالحوادث من نقص وتغيير
يسمو بقوم ، ويهوى آخرون به
كالدهر يجرى بميسور ومعسور

لـه أوابـد ، لا تـنـفـك سـائرة
فى الأرض مـا بين إدلاج وتهجير

مـن كل عـائرة تستن فـى طلق
يغتال بالبهر أنفاس المحاضير

تجـرى مع الشمس فى تيار كهربة
على إطار من الأضواء مسعور

تطارد البرق إن مَرت ، وتتركه
فى جوشن من حبيك المزن مزرور

صحائف لم تزل تتلى بألسنة
للدهر فى كل ناد منه معمور

يزهى بها كل سام فى أرومته
ويتّقى الباس منها كل مغمور

فكم بها رسخت أركان مملكة
وكم بها خمدت أنفاس مغرور

هكذا ، تدخل صحائف الشعر فى ثنائية متعارضة دالة ، طرفاها الحكم المطلق للشعر وزمانه الأزلى من ناحية ، والنسبية اللافتة للإنسان وزمانه المتعين المحدود من ناحية أخرى . ويقترن الطرف الأول بالثبات والكمال ، فى مقابل النقصان والتغير اللذين يعتوران الطرف الثانى . الطرف الأول قرين الشمس والبرق والرعد من عناصر الطبيعة الفاعلة والباقية ، ولكن فى شبكة من العلاقات الدلالية التى ترد ثبات هذه العناصر وكمالها إلى صفة «النور» التى تصلها بالشاعر ، من حيث هو كائن :

له البلجة الغراء يسرى شعاعها
إذا غام أفق الفهم ، والتبس الأمر

...

إذا اختمرت بالليل قمة رأسه
تفجر من أطراف لمتها الفجر

والطرف الثانى قرين الإنسان الفانى ، وزمانه الزائل ، وشرور مكانه التى لانجاة منها إلا بنور الشعر وهدى صحائفه .

وعندما يقترن الطرف الأول بالثبات والكمال فى هذه الثنائية ، على النقيض من طرفها الثانى الذى ينوشه التغير والنقصان تتجلى صفة الخلود التى تلازم صحائف الطرف الأول . إن هذه الصحائف تبقى فى لوحاتها على كل ما (أو : مَن) تصدر عليه

حكمها ، أيا كان هذا الحكم سلبا أو إيجابا ، وتنقله من الزمان النسبى الزائل إلى الزمان الأبدى الدائم ، ومن الحدث العابر إلى المغزى الباقى . وذلك بالمعنى الذى أبقى به شعر زهير حكيم القبيلة على ذكرى هرم بن سنان سيد القبيلة ، والذى حفظ انكسار الزبرقان الثرى أمام الحطيئة الفقير ، والذى أدام خزى بنى نمير القبيلة بواسطة جرير الفرد ، وضآلة كافور السلطان فى مواجهة المتنبى الشاعر ، فلا شيء يبقى ، فى النهاية ، سوى حكم الشعر الذى لا يغيره ما بالحوادث من نقض وتغيير .

هذه الدلالة التى لا تفارق معنى الديمومة تنتقل من حُكْم الشعر إلى صحائفه ، ومن القول الذى تحتويه الصحائف إلى القائل نفسه ، فيتحول الشاعر إلى كائن تخلّده كلماته ، وينقلب موته حياة حين يتذكره بالشعر كل من لم يلاقه ، وكل من يسترجع عنه صالحات المناقب ، فتظل قصائده باقية على الأحقاب ، تلوح فى وجنة الأيام كالخال ، و :

تبلى العظام ويبقى ذكره أبدا
فى كل عصر له سجع وترنام

وتتأسس على الثنائية المتعارضة السابقة علاقات تعارض موازية تتقابل فيها حكمة الشاعر الذى يحتل المرتبة العليا مع قوة السلطان التى تحتل المرتبة الدنيا ، وذلك فى موازاة التضاد بين الشاعر وأقرانه البشر الذين يمكن أن تشبه علاقته بهم علاقة الراعى بالقطيع . ومن ثم ، تستعيد أبيات البارودى تقاليد الحكيم المتمرد على علاقته بالسلطان ، تلك التقاليد التى تنطق نصوصها أصداء عبارات ابن المقفع التى تقول :

> إن كان للملوك فضل فى ملكها فإن للحكماء فضلا فى حكمتها أعظم ، لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم ، وليس الملوك أغنياء عن الحكماء بالمال .

وإذا كان السلطان العادل يتنزل ، فى صحائف الشعر ، منزلة كل سام فى أرومته ، فإن السلطان الظالم يهبط إلى الدرك الأسفل الذى تخمد فيه هذه الصحائف أنفاس غروره ، فهى منارات عدل يستضيء بنورها المظلومون ، وأسلحة مدمرة تبيد أركان ممالك الشر . وكما يقف الصوت الناطق فى صحائف الشعر من السلطان موقف الناصح من الذى هو فى أمس الحاجة إلى النصح ، يقف من الشعب موقف المعلم من المتعلم . وذلك فى سياق من الدلالات المتناصة التى تنزل الشاعر – في علاقته بالسلطان والشعب معا – منزلة «الحكم الترضى حكومته» فى كل الأحوال . ومن ثم يتخذ الآخرون فى علاقتهم بهذا الشاعر موضع القطيع بالقياس إلى الراعى ، أو موقع طالب المعرفة من قطبها ، فى خطاب يتضمن أبيات من قبيل :

فـاسـمع ، فـمـا كل الكلام بطيّب
ولكل قـول فى السـمـاع مـذاق
نـزل الكلام إلـىّ مـن شـرفـاتـه
وتمـثلـت بـحـديثـى الآفـاق

وذلك وضع يفرض نفسه على الكيفية التى ينظم بها الشاعر شعره ، فيصوغ تراكيبه اللغوية وعلاقاته الدلالية بما يزيد من وقع التأثر فى النفوس ، فيرتفع تكرار «ضمير المخاطب» فى القصيدة ، ولوازمه ، لأن خطابها يتجه بالحكمة إلى خارج الشاعر ، حيث المخاطبين المنتظرين هداه . وتغلب على هذا الخطاب «الصيغ الإنشائية» لتستجيب إلى مقتضيات الأمر والنهى والنداء والتعجب ومايماثلها ، من وسائل يحتاج إليها المعلم فى درسه . وتبرز الصيغ الدلالية الشارحة مع مجازاتها التى تقرن التشبيه بالإبانة ، والتمثيل بالإقناع فى المحاجة ، والأمثولة الشعرية بضرب المثل الذى يؤكد المغزى الخلقى لما يدل عليه . وتتراص كل تقنيات التخييل الشعرى البلاغية ، تترى ، ليتمثل القارىء حكمة الشاعر أبلغ تمثل .

ويعود بنا هذا الوضع إلى صفة «الصانع» التى تلزم عن صفة «الحكيم» فى وعى البارودى ، أو شعره الذى ينطق هذا الوعى . وترتد الصفتان إلى فاعلهما ، العقل الذى هو عيار الأخلاق وأداة الصنعة . ولقد قال البارودى :

والشـعـر ديوان أخـلاق يلـوح به
مـا خطه الفكر من بحث وتنقـيـر

القاهرة ـ أكتوبر ١٩٩٢

تقديم ديوان البارودى

شعر البارودىّ حياته ؛ فكلّ قصيدة فى ديوانه صورة لحالة نفسيّة من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان فى مجموعه صورة للعصر الذى عاش فيه ، وللبيئة التى أحاطت به ، وللنهضة المتوثّبة فى الحياة حوله ، وللثورة التى تمخّضت عنها تلك النهضة ، وللنكسة التى أصابت النهضة والثورة كلتيهما ، والتى نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاماً وبعض عام ، يستأثر الشعر بها جميعاً . وقد اختار البارودىّ فى أثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر فى العصر العباسىّ ، وقال أجود مما اختار ، فبعث الشعر العربىّ خلقاً جديداً . وشعر المنفى كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التى أراد لها القدر أن تكون نغماً من الأنغام ؛ تسمو بها النشوة إلى ذروة السرور والطرب حيناً ، ويدفعها الطموح إلى مضطرب الثورة والمثل الأعلى حيناً آخر ، ثم تصقلها السنّ ويصقلها النفى ، فإذا الحكمة والحنين والحبّ تبعث إلى هذا النغم سكينة تسمو به على المألوف من ألحان الحياة ؛ لا يغيّر من ذلك ما يدفعه النفى إلى نفس الشاعر من ألم تترجم عنه صيحات ثائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من نزوات شبابه وثورة كهولته .

أما وديوان البارودىّ حياته ، فلا بدّ فى تقديمه من وصف هذه الحياة ، ومن تصوير البيئة التى عاش فيها . وليس يتسع التقديم للإفاضة الوصف والتصوير ؛ فلنتناول من جوانب هذه الحياة ، ومن نواحى هذه البيئة ،

ما يجلّى أمامنا الحالات النفسيّة التى أملت على الشاعر شعره . وسنرى أنّ هذا الوصف كثيراً ما يوضح أغراض الشاعر ، فيعيننا على إدراكها كاملة ، ويجلو لنا العمل العظيم الذى أتمّه البارودىّ ، فبعث به الشعر العربىّ واللغة العربية ، ومهّد لنا من ألوان المتاع بهما ، والانتفاع بتراثهما ما يرفع ذكره فى الخالدين .

١

ولد محمود سامى البارودىّ بمصر لأبوين من الجراكسة فى السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٥٥ هجرية (١٨٣٩ ميلادية) . وكان أبوه حسن حسنى (بك) البارودىّ من أمراء المدفعيّة ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة فى عهد المغفور له محمد على (باشا) والى مصر . وكان عبد الله (بك) الجركسى جدّه لأبيه . أما لقبه « البارودى » فنسبة إلى بلدة إيتاى البارود إحدى بلاد مديرية البحيرة ؛ ذلك أن أحد أجداده الأمير مراداً البارودىّ بن يوسف شاويش ، كان ملتزماً لها ، وكان كلّ ملتزم ينسب فى ذلك العهد إلى التزامه .

وكان أجداد البارودىّ يرقون بنسبهم إلى حكّام مصر المماليك . وكان الشاعر شديد الاعتداد بهذا النسب فى شعره وفى كلّ أعماله ، فكان له فيه أثر قوىّ فى جميع أدوار حياته ، وفى المصير الذى انتهى إليه .

ولقد حُرِم البارودىّ العطف الأبوىّ منذ نعومة أظفاره . مات أبوه بدنقلة وهو فى السابعة من عمره ، فكفله بعض أهله وضمّوه إليهم . وقد تلقّى فى بيتهم دراسته الأولى من الثامنة إلى الثانية عشرة من عمره ، ثم التحق

بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة والترك وأبناء الطبقة الحاكمة . فقد كانت الجندية مظهر السيادة والعزّة ؛ ومن ثَمّ كان لزاماً على أبناء هذه الطبقة أن يتعلّموا فنونها لينهضوا بالمناصب الرئيسية للدولة . هذا إلى أن مصر كانت يومئذ فى أوج النشاط الذى بثّه فيها محمد على ، والذى كان الجيش أسّه وقوامه .

وخرج البارودىّ من المدرسة الحربية فى أخريات سنة ١٢٧١ هجرية (١٨٥٤ ميلادية) ، وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولسوء حظّه وحسن حظّ الأدب كانت ولاية مصر قد آلت حينئذ إلى عباس الأوّل ثم إلى سعيد . وكان عباس قد عدل عن الخطة التى بدأها محمد على حين رأى الدولة العثمانية تنظر إلى جيش مصر بعين الريبة والقلق . لذا تعطّلت النهضة التى كانت متّصلة بالجيش فى الصناعة والتعليم ، وبدأ يخيّم على مصر جوّ من الركود وإن دأبت الروح المصرية فى توثّبها بعد الذى رأته من قوّتها على غزو الشعوب وغزو المملكة العثمانية نفسها .

وأظلّ عهد سعيد ، وخرج « الباشجاويش » محمود سامى البارودىّ من المدرسة الحربية فى هذا الجوّ الراكد ، تستجنّ فى حناياه أسباب اليقظة والقلق . ماذا تراه يصنع ؟ لقد سُرّح الجيش ، وأقفرت ميادين القتال من ألوية مصر ، وقُسِر هو وأمثاله من رجال السيف على عيش الخمول والدعة . وكان أكثر هؤلاء رجالاً صغار الأحلام لم يلبثوا أن اطمأنوا إلى سكينتهم ، وسكنوا إلى خمولهم . ولعلّ كثيراً منهم قد سرّهم البعد عن مواطن القتال وخطره ، وطاب لهم عيش الدعة والتنادر بفارغ القول وهُراء النميمة والنفاق . فأمّا هذا الشاب الذى لم يخض بعدُ غمار الحياة والذى يجرى فى عروقه دم الإمارة والمجد ، فقد أحسّ

ثورة الشباب تهزّه هزاً عنيفاً . تطلّع إلى الماضى القريب ، وذكر مسيرة الأعلام المصرية إلى بلاد العرب وإلى سورية وإلى الأناضول ، فتمنّى لو أنه نعم بنعيم هؤلاء الغزاة وشاركهم فى سرّائهم وضرّائهم . وتطلّع إلى ما قبل هذا الماضى ، فارتسمت أمامه صورة أجداده المماليك يحكمون على ضفاف الوادى ، فحنّ إلى عهدهم ، وتمنّى لو كان معهم . والمنى حلم مسعد ما اتّصل بمستقبل يرجو الإنسان فيه مجدًا وسلطاناً . لكنّها ألم لاذع حين يطلب إلينا الماضى أن نحققها فإذا المستقبل أمامنا مظلم عبوس .

كيف يتسلّى الشابّ عن هذا الألم ؟ ألا سبيل إلى ميادين يخلقها ، وحروب يخوض غمارها مع الخائضين ؟ إنّ العرب أجدادنا الأوّلين ـ والعربىّ جدٌّ لكلّ منْ تكلّم العربية ـ قد سجّلوا فى شعرهم وقائع الحرب ، وصوّروا ميادينها ، وبلغوا من قوّة تصويرهم أن أجروا فيها حياة لا تبلَى ، حياة لا تعرف الركود ولا الضعف ولا الاستكانة . فليرجع الشابّ إلى ديوان الحماسة ، وليقرأ الشعراء الذين يطوون الزمن أمام بصائرنا ، ويجعلوننا ، على بعد ما بيننا وبينهم ، نسمع قعقعة السلاح ، ونرى نزال الأبطال ، ونشترك معهم فى المعركة بقلوبنا وأرواحنا ، وإن لم نشترك فيها بدروعنا وسيوفنا .

اندفع الشابّ يقرأ الشعر العربىّ القديم ، فتختزن ذاكرته القوية منه كل ما طاب لها ادّكاره . وألفى البارودىّ فى هذا الشعر روعة وجمالا يأخذان باللبّ ، ويحرّكان اللسان إلى القول . وهذا الشعر لا يقف عند الحروب والميادين وما تخلعه على الأبطال من مجد ، بل يتناول الحياة كلّها : أجدّها وهزلها ، حلوها ومرّها : ففيه الغزل والوصف والحكمة ، وكلّ ما يطمع الإنسان أن يجده فيه ،

وأنت كلّما ازددت إمعاناً فى قراءته وتدقيقاً فى معانيه ، انفسحت لك آماده ، فازددت به متاعاً ، وبحفظه تعلّقاً .

وتحرّكت نفس الشابّ لقول الشعر بعد أن توفّر على مطالعته واستظهاره. لكن ! أىّ شعر يقول ؟ وإلى أى الأغراض ينزع؟ أفيمدح؟ ولكن مَنْ؟ ولماذا؟ أفيدعو؟ ولكن من؟ وإلى أىّ شىء ؟ وهل بين الأغراض أنبل مما يجول بنفسه من آمال وآلام ؟ أليس هو البارودىّ ، سليل المماليك ، الطموح إلى المجد وإلى الفخر بماض مؤثّل ! والدم الذى يجرى فى عروقه ، وإن فقد أباه طفلا وعاش يتيماً ، يسمو به على أمثاله من أرباب السيف جميعاً ، بل يسمو به على كلّ من فى المملكة ، ويجعله وحده الجدير بأن يكون غرض شعره .

هذه النزعة فى شعر البارودىّ بدت منذ شبابه ، ومنذ بدأ قريضه يستقرّ لتحفظه الأجيال . والقصيدة التى رثى بها أباه وهو فى العشرين من سنّه تصرّح بهذا المعنى واضحاً جليّاً[1] ، فهو يقول فيها إنه فرد بين أنداده ، لا نظير له فيهم. وهو يكرر هذا المعنى فى كل شعره طول حياته . وإيمانه بتفوّقه هو الذى سما به إلى الذروة من مناصب الدولة ، كما أنه هو الذى انتهى به إلى النفى ، وبشعره إلى الخلود .

---

(١) اقرأ الأبيات الآتية من القصيدة المذكورة :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى ... طاح الردى بشهاب الحرب والنادى
مات الذى ترهب الأقران صولته ... ويتّقى بأسه الضرغامة العادى
مضى ، وخلّفنى فى سنّ سابعة ... لا يرهب الخصم إبراقى وإرعادى
إذا تلفتّ لم ألمح أخا ثقة ... يأوى إلىّ ، ولا يسعى لإنجادى
. . . .
فإن أكن عشت فرداً بين آصرتى ... فها أنا اليوم فرد بين أندادى

ولقد رضى البارودىّ عن شعره منذ قاله ؛ إذ رآه صورة نفسه ، وما تصبو إليه من مجد. لذلك لم ينصرف عنه حين عيّره أبناءُ طائفته أنه يحاكى النظّامين الذين يلتمسون عطف حاكم أو عطاء أمير . وكيف يسمع لهم ، أم كيف يطيعهم وهو يقول الشعر سموًّا بأغراضه عن أن تصاغ إلا فى أجمل اللفظ وأروع العبارة ! ولقد سبقه من الأمراء فى الدول العربية شعراء مجيدون خلّد الدهر شعرهم ، وأثبت التاريخ فى أمجد صحفه أسماءهم . كان ابن المعتزّ شاعرًا ، وكان الشريف الرضىّ شاعرًا ، وكان أبو فراس شاعرًا ، وكان امرؤ القيس قبل هؤلاء جميعاً شاعرًا . ولقد قرأ البارودىّ شعرهم جميعاً فطرب له واهتزّ لروعته . أفلم يقرأ من يعيّرونه مثل ما قرأ ؟ وما ذنبه إذا قعد بهم جهلهم عن المتاع بجمال الشعر ، وقعدت بهم قرائحهم عن صوغ مثله ! وهو فى هذا المعنى يقول :

تكلّمت كالماضين قبلى بما جرت ... به عادة الإنسان أن يتكلّما

فــلا يعتمدنى بالإساءة غافل ... فلا بدّ لابن الأيك أن يترنّما

كانت دولة الشعر ناشئة إذ ذاك*. فكان عبد الله فكرى ومحمود صفوت الساعاتى وعبد الله نديم وقليلون غيرهم يقولونه فى أغراض شتّى . لكن البارودىّ الناشئ كان من طراز غير هؤلاء جميعاً . كان غيرَهم بنسبه ، وبتفكيره ، وبمثله الأعلى فى الحياة ؛ ثم كان غيرَهم بموهبته فى الشعر . فهو لم يتعلّم النحو والصرف والعروض والقوافى ، وهو لم يقل الشعر يبتغى بقوله مأرباً . إنما سجع به لأنه فى سليقته ، ولا بدّ لابن الأيك أن يترنّم ، وسجع به على عادة الأمراء الشعراء من قبله ليخلق من بحوره ميادين لمجد يعوّضه ممّا فات سيفه فى ميادين

القتال ، بعد أن ردّت الأقدار سيف مصر إلى غمده .

على أنه رأى الجوّ المحيط به لا يتّسع لتحليقه ولا لطموحه . ولعلّه رأى كذلك أنّ هذا الشعر العربىّ الذى اتّصلت أنغامه بروحه قد يضيق على سعته عمّا تصبو إليه روحه . لذلك سافر إلى الآستانة عاصمة الدولة ، والتحق بوزارة الخارجية ، وتعلّم اللغتين التركيّة والفارسية ، وعكف على آدابهما ، فاستظهر شعرهما وتغنّى بأوزانه ، ودعته سليقة الشاعر إلى القول فقال بالتركية وبالفارسية ، كما قال من قبل بالعربية .

على أن السليقة العربية كانت أصيلة فى نفسه ، فلم يفتأ طَوالَ السنين التى أقامها على ضفاف البسفور يقرأ دواوين الشعراء الأمويين والعباسيين ويدرسها ويستظهر منها ما يطيب له استظهاره . فلما كانت سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٣ ميلادية) سافر إسماعيل (باشا) بعد أن تولّى أريكة مصر يرفع إلى متبوعه الأعظم بالآستانة آى الشكر على ولايته ، وألحق سامى البارودىّ بالحاشية التى صحبته فى أثناء مقامه بدار الخلافة ، فتوسّم إسماعيل فيه النجابة والطموح ، فعاد به إلى مصر فى شهر رمضان من تلك السنة .

٢

عاد البارودىّ إلى مصر فى الرابعة والعشرين من سنّه يبدأ صفحة جديدة من حياته . فقد عقد إسماعيل العزم على أن يعيد مصر سيرتها فى عهد جدّه . فيجب أن يكون لها جيش قوىّ وأعلام خفّاقة ، ويجب أن تعود إلى نهضتها فى العلم والصناعة ، بل يجب أن تتطلّع إليها أنظار العالم كلّه إعجاباً بها وتقرّباً

إليها . ويجب لذلك أن تنقل كلّ ما فى أوربا من أسباب الحضارة ، وأن تسير فى ذلك بخطى جبّارة تجعل هذا العاهل المصلح يرى بعينيه ثمرة سياسته ومجهوده .

ورقّى البارودىّ فى رتبته العسكرية أوّل ما نزل مصر وعيّن على قيادة فرقتين من الفرسان (Les Gardes) ففتح رقيّه آفاقاً من الحياة أمامه جعل عابسها يبسم له . وزاد فى ابتسامها أنه لم يلبث فى منصبه الجديد إلا قليلا ، ثم أوفد إلى فرنسا مع جماعة من ضباط العسكرية المصرية حيث شهدوا مناورات الجيش الفرنسى السنوية ، ومن هناك سافروا إلى لندن ، فشهدوا من الأعمال العسكرية ما زادهم بها علماً .

وعادوا جميعاً إلى مصر ، فإذا الحظ يلقى البارودىّ مفتوح الذراعين ليضمه إليه ،فيرقى به فى سنة إلى رتبة « القائمقام » فى فرسان الحرس (Les Gardes) ، ثم إلى رتبة « أميرالاى » ليتسلّم قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاصّ . أىّ شىء هذا إلا أنه المجد الذى طمح إليه صبياً ، فلمّا لم تتيسّر له أسبابه هجر مصر إلى الآستانة . أما وقد بدأ الدهر يعرف له مكانه ، ويهيئ له أسباب العظمة طائعاً مختارًا ، بل مغتبطاً مسرورًا ، فقد بدأت الأمور تطمئنّ والعدل يعود إلى مصر .

أفآن لهذا الشابّ أن يستقر ؟ كلّا ! فقد شبّت الثورة فى جزيرة أقريطش (كريت) على الدولة العثمانية بعد أربعة أشهر من تسلّمه تلك القيادة . وكانت سياسة إسماعيل ترمى إلى مجاملة الخليفة ومعاونته ليبلغ الغاية من أغراضه . لذلك أرسل جندًا يعاون قوّات جلالته على قمع تلك الثورة ، ثم كان البارودىّ « رئيس ياور حرب » فى هذا الجند . ما كان أسعده يوم عيّن ، وما كان

أشدّه سعادة يوم سافر ! لقد شعر بسيفه يهتزّ فى قرابه ، وبيده تمسك مقبض هذا السيف لتضرب به الثائرين ، ورأى مجد الجندىّ يتجلّى أمامه وهو واقف على السفينة يلقى على الموج المصطخب نظراته الهادئة المطمئنة . فلمّا رست به السفينة على شاطئ الجزيرة الثائرة خفّ يتقدّم رفاقه ، مسرّحاً بصره فى الأودية والوهاد حوله ، مشوقاً أىّ شوق للقاء الذين خرجوا على الولاء للدولة وتنكّبوا عن طاعة السلطان .

وأحسن البارودىّ البلاء فى الحرب ، فأنعم عليه السلطان بالوسام العثمانىّ من الدرجة الرابعة . لكن إنعام البارودىّ علينا وعلى نفسه كان أعظم من كلّ وسام . ففى هذه الحرب قال نونيته التى مطلعها :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنّة الفرسان

كما قال أبياته التى استهلّها بقوله :

ولما تداعى القوم ، واشتبك القنا ودارت كما تهوى على قطبها الحرب

من يومئذ بدأت الأنظار تتطلّع إلى البارودىّ الشاعر تطلّع إعجاب وإكبار . لقد ترنّم هذا الشابّ بأنغام فى الشعر لم يألفها أهل زمانه . فهم إنما ألفوا الشعر تجارة ومرتزقاً ؛ كان محمود صفوت الساعاتى ، أسلم معاصريه ديباجة وأقومهم عبارة ، لا يقول إلا ليمدح أمراء الحجاز أحياناً ، وولاة مصر وساداتها أحياناً أخرى ، يبتغى عطاءهم ، ويرجو إحسانهم . وكان ما يعرض فى شعر هؤلاء المعاصرين من حكمة أو فخر قولا معاداً ، سبقهم إليه غيرهم فى ديباجة أمتن ولفظ أكرم . وكانوا جميعاً متأثّرين بشعر المتأخّرين ، فكانت المحسّنات البديعيّة عندهم كلّ شىء ، وكانت معانيهم فى جملتها مطروقة متداولة .

أمّا هذه القفزة التى قفزها البارودىّ فسما بها إلى مكان الفحول من الشعراء الأوّلين فى الجاهلية والعصور الأولى من الإسلام ، فقد أثارت عجب الناس واستثارت إعجابهم . وحقّ للناس أن يعجبوا . فهذا الشابّ الشاعر الملهم هو الرسول الذى بعثته العناية لينفخ فى الشعر العربىّ روحاً تنشره من الجدث الذى انطوى عليه القرون الطوال ، وليمهّد السبيل من بعده لأبناء مذهبه : شوقى ، وحافظ ، وإسماعيل صبرى ، ومن سار سيرتهم ونسج نسجهم .

ما الجديد الذى استرعى الأسماع فى شعر البارديّ ؟ أهو الأسلوب الجزل والديباجة البدوية اللذان تجلّيا فى كثير منه ؟ لكن أسلوب الساعاتى وديباجته كانا لا يخلوان من جزالة وبداوة ، وقد نزع جميع الشعراء إبّان هذه النهضة الأولى ذلك المنزع ، فإن فاقهم البارودىّ ، وسما عليهم ، فلا جديد فى تفوّقه . إنّما الجديد الذى استرعى الأسماع لشعره ، ودعا إلى الإعجاب به ، هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو فى بساطة وسلاسة وقوّة ، دون اعتماد على محسّنات اللفظ البديعيّة من جناس وطباق ونحوهما ، ودون إغراب فى الخيال ، إن أثار العجب لم يثر الإعجاب .

وفى شعر البارودىّ ظاهرة لعلّه لم يفطن لها أوّل الأمر أحد . فهو قد اعتمد فى تصويره الواقع على حاسّة النظر أكثر من اعتماده على سواها . وأنت إذ تقرأ قصيدتيه اللتين أثبتنا مطلعيهما عن حرب أقريطش ترى تصوير المرئيّات واضحاً فيهما كلّ الوضوح ، وترى هذا التصوير سهلاً لا تعمّلَ فيه . فهو فى القصيدة الأولى يصوّر الليل الضارب بجرانه فوق الربى والمتالع ، لا تستبين العين فى ظلماته غير الضوء المنبعث من أسنّة الحراب ، وغير التماع سيوف

الثائرين المختفين فى جنح الظلام ، فإذا أصبح الصبح رأيت هذه الجبال انقلبت أسنَّة وأعنَّة لكثرة العدوّ الجاثم فوقها ، ورأيت الماء أحمر قانياً لكثرة ما يختلط به من دم القتلى .

وتستطيع أن ترجع إلى القصيدة الثانية فى هذا الجزء من الديوان لترى صورة الحرب دائرة الرحى ، والخيل مائجة من الكرّ والفرّ صدورها ، والأرض دائرة بالأبطال كأنهم سكارى من وقع الهول ، والشاعر يرى هذا كلّه ثم يقول :

صبرت لها حتى تجلّت سماؤها ... وإنى صبور إن ألمّ بىَ الخَطبُ

وتصوير المنظور صفة بارزة فى شعر البارودىّ كلّه . وذلك شأنه بخاصّة فيما لم ينزع فيه إلى تقليد المتقدّمين . بل لقد كان هذا التصوير الروائى للمنظورات يغالبه وهو يقلّد . وبائيّته المشهورة التى قالها فى صباه معارضاً قصيدة الشريف الرضىّ « لغير العلا منى القلى والتجنّب » ، والتى مطلعها :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب ... وغيرىَ باللّذّات يلهو ويعجب

فيها من هذا التصوير شىء غير قليل[1].

---

(١) اقرأ منها قوله :

وفتيان لهو قد دعوت والكرى ... خباء بأهداب الجفون مطنب
إلى مربع يجرى النسيم خلاله ... بنشر الخزامى ، والندى يتصبب
فلم يمض أن جاءوا ملبين دعوتى ... سراعاً كما وافى على الماء ربرب
بخيل كآرام الصريم وراءها ... ضوارى سلوق عاطل ومليب
ترى كل محمرّ الحماليق فاغر ... إلى الوحش لا يألو ولا يتنصب
يكاد يفوت البرق شدّاً إذا انبرت ... له بنت ماء أو تعرض ثعلب
فبينا نرود الأرض بالعين إذ رأى ... ربيئتنا سرباً فقال : ألا اركبوا
فقمنا إلى خيل كأن متونها ... من الضمر خوط الضيمران المشذب
فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت ... بزاة ، وجالت فى المقاود أكلب
فما كان إلا لفتة الجيد أن غلت ... قدور وفار اللحم وانفض مأرب

وأنت ترى التصوير واقعيًا فى غير تقليد فى بائيته التى مطلعها :

أَين أَيام لَذَّتى وشــبابى　　　أَتراها تعود بعد الذهاب

وهو يصف فى هذه القصيدة مشهدًا لمصر تراه أعيننا كما رآه هو ، ويصفه وصفاً قويًّا يجعله حيًّا ناطقاً ، كله النشاط والحركة . ولقد قال هذه القصيدة وهو منفىّ فى سرنديب يأسف فيها لذهاب الشباب ، ويحنّ إلى وطنه ، فإذا الوطن صورة منظورة امامه يرسمها رسم مصوّر بارع[١] .

ولقد قوّت البيئة التى عاش فيها البارودىّ هذا الجانب التصويرىّ من شاعريّته . فهو مذ عاد من أقريطش بعد قمع ثورتها ، قد أقام اثنتى عشرة سنة كاملة بعيدًا عن ميادين القتال عيّن أثناءها ياورًا (بمعية) الخديو إسماعيل ، ثم رئيس الياورية ، ثم اصطفاه الخديو كاتم سرّه الخاصّ ، ثم سافر فى رحلتين قصيرتين إلى الآستانة فى مهمّة سياسية تتّصل بفتنة الهرسك ، ثم بفتنة البلقان والجبل الأسود .

فى هذه السنوات الاثنتى عشرة كانت مصر ميدان حياة ونشاط قلّ نظيرهما فى أمّة من الأُمم . نهض بها إسماعيل بعد النكسة التى أصابتها فى عهد سلفيه سعيد وعباس الأوّل ، نهضة هى أدنى إلى الثورة منها إلى النشاط .

---

(١) اقــرأ قوله :

ليت شعرى متى أرى روضة المنـ　　　ـيل ذات النخيــل والأعناب
حيث تجــرى السفين مستبقات　　　فوق نهر مثل اللجين المــذاب
قد أحاطت بشاطئيه قصــور　　　مشرقات يلحن مثــل القبــاب
ملعب تسرح النواظــر منــه　　　بين أفنان جنــة وشعــابه
كلما شافــه النسيم ثـــراه　　　عاد منــه بنفحة كالمــلاب
ذاك مرعى أنسى وملعب لهـوى　　　وجنـى صبوتى ومغنـى صحابى

وأنت ترى من وصف مصر فى شعره الشيء الكثير

أراد لها أن تقف مع الأمم الأوربية فى صفّ الحضارة ، وأن تكاتفها فى الوجود الدولى . وهذه الأمم قد بلغت مكانتها فى أجيال متعاقبة بذلت أثناءها جهودًا جبارة لتبلغ ما بلغته . فليضاعف أبو الأشبال الجهود ، وليجعل الزمن رهن أمره ، وليدفع مصر متضافرة معه ، قوية بقوّته ، ليصل فى سنوات إلى ما وصلت إليه أوربا فى تلك الأجيال . وماذا ينقصه أو ينقص مصر لتحقيق هذه المعجزة ؟ العزم ! الذكاء ! الهمة ! البأس ! هذا كله موفور فيه وفى مصر . وكلّ ما عليه أن يتجنّب ما وقع فيه جدّه الأكبر فلا يناصب الدولة العثمانيّة العداوة ، فينجر من تألّب أوربا عليه . فأمّا المال فالحصول عليه يسير . فمصر غنيّة ، وقناة السويس التى تشقّ خلالها ستزيدها ثراءً ، وتجعلها مركز الحياة فى العالم . ذلك ما يؤكّده ديلسبس ، وذلك ما لا سبيل إلى الريب فيه . فلتقترض مصر المال لتحقّق بنهضتها المعجزة التى تبهر العالم . ومصر الناهضة الفتيّة القوية قديرة على أداء ديونها وعلى مضاعفة ثروتها .

وأوّل ما مرّ بخاطر إسماعيل أن تضارع عاصمته عاصمة نابليون الثالث ، وأن تكون القاهرة باريس الشرق . ولم تك إلا سنوات حتى قامت القصور شاهقة على شاطئ النيل بين الجزيرة والروضة : روضة المقياس . لكن إسماعيل كان أبعد نظرًا وأعمق ذكاءً من أن يكتفى بهذه المظاهر . فلتفتح المدارس . ولتمد السكك الحديدية ، وليعمّ النشاط المعمّر أنحاء الدولة جميعاً ، ولتضارع حكومة مصر شركة قناة السويس فى الجدّ والمثابرة ، وليكن افتتاح القناة بين البحرين الأبيض والأحمر مشهدًا فذًّا فى تاريخ العالم كلّه ، تقع فيه أعين الملوك والساسة على مصر المتحضّرة الناهضة بعبء الحضارة كنهوض فرنسا وإنجلترا بعبئها ، وعلى إسماعيل مليك مصر ذى الأيد قائماً فى أبّهة من السلطان

تَنْوِى أمامها أبّهة أصحاب العروش فى الدول الأوربية كلِّها .

وقد رأيتَ البارودىّ فى معيّة إسماعيل ورأيته أمين سرّه . والبارودىّ شابّ شاعر قوىّ الحسّ طموح إلى العلا ، ابتسم له الحظّ فقرَّبه من صاحب العرش ، وجعل الحياة وسرّها ونعمتها فى ملكه وطوع يده . ماذا يصنع ؟ أقام بحلوان ، وأرخى لشبابه ولهوى الشباب العِنان ؛ فعرف الشراب ومجالسه ، والغوانى وفتنتهنّ ، والطرب بالموسيقى وبالغناء ؛ وقال فى هذه الأغراض جميعاً ، فما تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها . لكنك فى حِلٍّ من أن تسأل : أأمعن فى الحبّ وخضع لسلطانه ؟ أوَبلغ من إدمان الشراب وحياة اللهو ما بلغ الماجنون ؟ أم كان شعره فى الغزل وفى الخمر شعر محاكاة أكثر منه تحدّثاً عن غرام صادق آخذ بمجامع قلبه ، وعن إغراق فى اللهو والخمر وولَعٍ بهما ؟ أحسننا فى حلٍّ من القول بأنه كان مقلِّداً فى غزله وفى خمرياته ، وأنَّ هوى نفسه كان إلى شىء غير المرأة وغير الخمر[1] ، وأنَّ حديثه عن الخمر وعن المرأة إنّما كان تقدمة إلى الفخر والوصف والسياسة وغيرها من الأغراض التى يريد القول فيها ، وأنه فى هذه التقدمة كان ينسج على غرار الأقدمين .

وما أكثر ما نسج البارودىّ على غرارهم ! فهو طالما راضَ القول معارضاً

(١) استمع إليه يقول معارضاً قصيدة أبى فراس التى مطلعها "أراك عصى الدمع شيمتك الصبر" :

فكيف يعيب الناس أمرى وليس لى ... ولا لامرئٍ فى الحب نهى ولا أمر
ولو كان مما يستطاع دفاعه ... لألوت به البيض المباتير والسمر
على أننى كاتمت صدرى حرقة ... من الوجد لا يقوى على حملها صدر
حياء وكبراً أن يقال ترجحت ... به صبوة أو فلَّ من غربه الهجر
وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغرّ الذين سيوفهم ... لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غربه سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

الفحول الأوّلين ، محاولا أن يبذّهم فى ديباجته وفى قوّة معانيه . وقد وُفِّق للتفوّق عليهم فى أحيان ، وقصّر عن مداهم فى أحيان أخرى . وكثيرًا ما كان ينتقل فى معارضاته من بيئته المصرية الحديثة إلى بيئة بدوية جاهلية أو بيئة إسلامية بالشام أو بالعراق فى عهد بنى أميّة أو بنى العباس ، ثم كان يجعل الغزل واللهو بالخمر والنساء ، والحماسة والفخر ، أغراضاً له فى القصيدة الواحدة على طراز من حمل نفسه على معارضتهم : وكانت ذاكرته القوية تواتيه فيما يعارضهم فيه حتى تخاله أحدهم ، ويختلط عليك الأمر إذا أردت أن تميز بين شعره وشعرهم . ومن كانت هذه حاله لم يكن غزله ولم يكن لهوه صادرين عن عاطفة ألهبها الحبّ أو حرّكتها الخمر بمقدار ما حرّكها الحرص على التفوّق فى حلبة الفحول الأوّلين .

وأنت تراه يذكر فى الحبّ ما تكاد تظنه حكاية حال ، كقصيدته عن غرامه بغادة حلوان[1]. وإنا لنميل إلى القول بأنَّ هذا الغرام لايزيد على صورة

---

(١) اقــرأ قوله :

وما كنت أدرى والشباب مطيــة — إلى الجهل أن العشق يعقبه الخبــل
رمى الله هاتيك العيون بما رمت — وحاسبها حسبان من حكمه العدل
فقد تركتنى ساهى العقل ســادراً — إلى الغى ، لا عقد لدى ولا حل
أسير وما أدرى إلى أين ينتهى — بى السير ، لكنى تلقفنى السبل
فلا تسألنى عن هواى ؛ فإننى — وربك أدرى كيف زلت بى النعل
فما هى إلا أن نظرت فجــاءة — (بحلوان) حيث انهار وانعقد الرمل
إلى نسوة مثل الجمان تناسقت — فرائده حسناً وألفــه الشمــل
من الماطلات المرء ما قد وعــدنه — كذاباً فلا عهد لهن ولا إلّ
تكنفن تمثالا من الحسن رائعاً — يجن جنوناً عند رؤيته العقــل
فكان الذى لولاه ما درت هائماً — رود الفيافى ، لا صديق ولا خل
فويلمّها من نظرة مضرحيّة — رميت بها من حيث واجهى الأثل

تخيلها الشاعر ، وأقصى ما يذهب إليه الظنّ أنها صورة رآها فى ليلة أنس فأعجبته فخلع عليها من شعره معانى الغرام ، وإن لم يملكه حبّ ، ولم يقم بنفسه غرام . فالقصيدة التى تقصّ هذه الحكاية تبدأ بالخمر والحديث عنها ، ثمّ تروى حديث هذا الغرام لتنتقل منه إلى الفخر بقومه الذين يدفعون عنه مصارع هواه ، فهم :

رجال أولو بأس شديد ونجدة　　فقولهم قول ، وفعلهم فعل
إذا غضبوا ردّوا إلى الأفق شمسَه　　وسال بدفّاع القنا الحزن والسهل

وأنت ترى تداول هذه الصور فى الكثير من قصائد شبابه : خمر ، وغزل ، وفخر . ولا ريب فى أنه كان يحسّ ما يقوله فى هذه الأغراض جميعاً . لكن الذى لا ريب فيه كذلك أنّ الحبّ لم يفتن يوماً لبّه . وأنّ الخمر لم تذهب يوماً بعقله ، فأمّا الفخر فكان يعبّر عن أمانيّه الخفيّة وآماله المكظومة .

أقام يقول الشعر فى هذه الأغراض وفيما يتّصل بها ، متنقّلا بين حلوان والجزيرة ، سعيداً بمقامه إلى جانب إسماعيل ، مطمئناً إلى حظّه بمصر ، اثنتى عشرة سنة كاملة . وكما اختزنت ذاكرته الشعر صدر شبابه فقد اختزنت فى هذه السنوات المتعاقبة من صور مصر ما زاده حبًّا لها وتعلّقاً بها ، وما جعله يتحدّث فى شعره عنها ، ويصف بديع مناظرها وصفاً لم يسبقه إليه أحد وصف نهرها الفيّاض أبا الخير والنعمة ، ووصف مزارعها الفسيحة تترامى أمام النظر إلى حدود الأفق ، ووصف آثارها الفرعونية على نحو لعلّه أحدث

= لقد علقت ما ليس للنفس دونها　　غناء ولا منها لذى صبوة وصل
فتاة يحار الطرف فى قسماتهـا　　لها منظر من رائد العين لا يخلو
لطيفة مجرى الروح لو أنها مشت　　على ساربات الذر ما آده الحمل

ما جدّد الشعر فى عهده . وصف هذا كلّه مستقلّاً بوصفه حيناً ، جاعلا منه بعض موضوعه فى قصيدة من القصائد حيناً آخر ، مستمتعاً به فى الحالين ، مسبغاً عليه من روعة شعره ثوباً يزيده جمالا ، ويزيد المصرىّ له حبًّا ، وبه تعلُّقاً.

فلمّا كانت سنة ١٢٩٤ هجرية (١٨٧٨ ميلادية) أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وأرسل إسماعيل جيشاً يعاون متبوعه الأعظم . وسافر البارودىّ مع الجيش ، واشترك فى الحرب ، وكوفئ عن مواقفه فيها بإنعام الخليفة عليه برتبة أمير اللواء وبنيشان الشرف (الميداليا) وبالوسام المجيدىّ من الدرجة الثالثة .

ولم تصرفه ميادين القتال عن قول الشعر ، بل لقد بعث منها إلى مصر من عيون شعره ما جرى بعضه مجرى الأمثال . ومن ذا الذى لا يحفظ قوله :

إذا نحن سرنا صرّح الشرّ باسمه   وصاح القنا بالموت، واستقتل الجند[1]

وفى هذه الفترة أضاف البارودىّ الحنينَ إلى الوطن إلى أغراض شعره . فهذا الحنين الذى لم يكن بادياً أيام أقريطش قد بدأ فى حرب البلقان يظهر قويًّا ، كما ترى فى أبيات هذه القصيدة بل فى مطلعها :

---

(١) وأنت تقرأ فى هذه القصيدة :

أدور بعينى لا أرى غير أمـة   من الروس بالبلقان يخطئها العد
جواث على هام الجبال لغـارة   يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
إذا نحن سرنا صرح الشر باسمه   وصاح القنا بالموت واستقتل الجند
. . . .
إذا اشتبكوا أو راجموا الزحف خلتهم   بحوراً توالى بينها الجزر والمـد
. . . .
فهم بين مقتول طريح وهارب   طليح ومأسور يجاذبه القـد
. . . .
إذا القلب لم ينصرك فى كل موطن   فما السيف إلا آلة حملهـا إدّ

هو البينُ حتى لا سلامٌ ولا رَدُّ ... ولا نظرةٌ يقضى بها حقَّه الوجدُ

وظلّ تصوير المنظور واضحاً فى هذا الطور وضوحه فى أطوار شعر البارودىّ جميعاً ؛ بل ظلّ يزداد قوّة ووضوحاً ، وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاصّ . فالبارودىّ إذ كان يسجِّل الصور فى شعره لم يكن يسجلها فى صمتها وسكينتها على ما يولع به عشّاق الطبيعة الصامتة ، بل فى نشاطها وتحرّكها ، حتى يرسم أمامك فيض الحياة فى كلّ ما تقع عليه عينه ، وما تحيط به باصرته .

٣

عاد البارودىّ من حرب البلقان وقد أدرك الأربعين ، وبلغ من الرتب العسكرية أسماها ، فعيِّن مديرًا للشرقية ، فمحافظاً للعاصمة . وبينما هو فى هذا المنصب ترك إسماعيل حكم مصر بعد تدخُّل الدول الأجنبيّة فى شؤونها ، فكان ذلك نذيرًا بتجهُّم الحظّ لبلاده ، وللشاعر الفحل الذى شدا بجمالها وتغنَّى بمجدها .

لكن النهضة التى بثّها إسماعيل فى مصر ، تركت فى نفس الشعب أثرًا لا يسهل التغافل عنه أو القضاء عليه . يستطيع السلطان العثمانىّ أن يصدر فرماناً بتولية توفيق ، ويستطيع إسماعيل أن يغادر بلاده إلى إيطاليا ، ويستطيع توفيق أن يجلس على عرش أبيه ؛ ذلك كلّه يسير ؛ لأنّه يصدر بأوامر رسمية ، وينفذ طوعاً لهذه الأوامر . لكن النبات الذى وضعت بذرته فى التربة المصرية من عهد محمد على ، والذى تعهّده إسماعيل بعنايته ، وبذل الجهد والمال لتقويته ، لا يمكن أن تنزعه الأوامر ، أو يذهب به تغيير الجالس على العرش . فكان طبيعيًّا أن تثير هذه الأحداث عواطف الشعب المصرىّ على

التدخُّل الأجنبيّ ، وأن تُلهب فى النفوس شرارة القوميّة . وأن تدفعها إلى التشبث بالشورى وبالحكم النيابىّ وسيلة لإقامة العدل ومتابعة الإصلاح .

وزاد ارتقاء توفيق عرش مصر رجاء الشعب فى بلوغ هذه المطالب . فازداد بها تشبّثاً . ذلك أنّ توفيقاً كان متّصلا بالسيد جمال الدين الأفغانىّ وبالشيخ محمد عبده وبالدعاة إلى الإصلاح وإلى الشورى[1]. على أنه لم يلبث حين آل إليه الأمر أن أعاد المراقبة الثنائية ، وأصدر قانون التصفية ، وخاصم الحكم النيابىّ ، وأعاد السلطة المطلقة . وهو لم يفعل ذلك تمرّداً منه على المبادئ التى قال من قبل بها ، وإنّما فعله ضعفاً أمام التدخّل الأجنبىّ الذى ازداد فى عهده على ما كان فى عهد أبيه ، فكان للأجانب فى الواقع زمام الأمر ، وإن أرادت المظاهر الرسمية أن يكون توفيق الممسك بهذا الزمام .

وكان سامى البارودىّ من أنصار الحركة القومية ومن المقرّبين لذلك إلى توفيق فى الزمن الأخير من عهد أبيه والفترة الأولى من عهده . ولقربه منه عيّنه مديراً للأوقاف ، فأصلح فيها ما وسعه الإصلاح . على أنّ اطّراد التدخّل الأجنبىّ ومقاومته لفكرة الحكومة النيابية فى مصرحال دون ما يحتاج إليه

---

(١) هنأ البارودى توفيقاً حين جلس على أريكة مصر فكان مما قاله :

سن المشورة وهى أكرم خطة ... يجرى عليها كل راعٍ مرشد
فن استعان بها تأيد ملكه ... ومن استهان بأمرها لم يرشد
أمران ما اجتمعا لقائد أمة ... إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم ... شورى وجند للعدو بمرصد
فالسيف لا يمضى بدون روية ... والرأى لا يمضى بغير مهند
. . . .
فلأنت أول من أفاد بعدله ... حرية الأخلاق بعد تعبد
أطلقت كل مقيد وحللت كـ ... ـل معقد وجمعت كل مبدّد
وتمتعت بالعدل منك رعية ... كانت فريسة كل باغ معتد

الإصلاح من هدوء واستقرار . وقد أحسّ المستنيرون من المصريين بأنّ عليهم واجباً لأنفسهم ولبلادهم أن يقاوموا تيّار هذا التدخّل ، وكان المستنيرون يومئذ هم رجال الجيش كما سبق القول . لذلك انتقلت حركة المطالبة بالشورى والإصلاح من أيدى المدنيين إلى أيدى العسكريين .

آذن هذا الانتقال بإثارة مشكلة جديدة لم تكن بادية للعيان فى عهد إسماعيل ، على رغم ما كان من نشاطها فى أثناء استخفائها. تلك حركة المصريين فى الجيش . فقد كان رؤساء الجيش من الجراكسة والترك ، ولم يكن يرقى إلى الصفوف الأولى من المصريين أحد . وكان هؤلاء الرؤساء على جانب عظيم من الغطرسة والبطش . أما ومصر تريد أن يكون أمرها لبنيها ولا تريد للأجنبيّ سلطاناً ، فمن الحقّ أن تكون رياسة الجيش للمصريين ، وألّا يكون لهؤلاء الرؤساء الأجانب ما لهم من سلطان .

لم تكن هذه الفكرة واضحة فى النفس المصرية هذا الوضوح فى عهد إسماعيل ، ولا أوّل حكم توفيق . ولعلّ التدخّل الأجنبيّ هو وحده صاحب الفضل فى تحريكها وإظهارها من بعدُ بجلاء وقوّة . وإنّما كانت الشكوى قبل ظهورها مقصورة على طلب العدل ورفع الظلم . لذلك كان محمود سامى الباروديّ ، وهو جركسيّ كغيره من الجراكسة ، محبوباً من المصريين محبًّا لهم ، بل كان موضع رجاء العسكريين منهم فى رفع الحيف النازل بهم . وكيف لا يحبّه المصريون جميعاً وقد تغنّى بحبّ مصر ما تغنّى ، وقد وصف من جمال مصر ما لم يسبقه أحد إليه ، وقد صوّر هذا الجمال فى دقّة تدلّ على إخلاصه وصدق محبته !

فلما ثار العسكريون المصريون بناظر الحربية عثمان رفقى فاستقال ، أسند توفيق هذه الوزارة إلى البارودىّ مع ديوان الأوقاف .

على أنّ إسراع توفيق إلى الاتّعاظ بالحوادث وإذعانه للتدخّل الأوربىّ وظهوره بتأييد الحكم المطلق وقف البارودىّ موقف الحيرة : أيظلُّ على ولائه لصاحب العرش ، أم على وفائه للشعب الذى اختصّه بمحبته . ورأى رياض (باشا) ، رئيس الوزارة يومئذ ، إيثار البارودىّ للشعب ، فدسّ عليه عند توفيق ، فاضطره إلى الاستقالة من الأوقاف والحربية ، ودفعه إلى اعتزال الحياة السياسية والعيش بعيداً عن جوّ القلق والاضطراب .

رأى توفيق حركة الجيش تكبر ، فنحّى رياضاً وأسند الوزارة إلى شريف (باشا) ولم يقبل البارودىّ العود إلى الحكم حتى ألحّ عليه توفيق وأقسم له أن ليس فى نفسه منه شىء . واستقال شريف فاضطرّ البارودىّ أن يؤلّف الوزارة ، بعد أن أصبح زمام الأمر فى مصر إلى الضباط الذين يعدّون الجراكسة أجانب كغيرهم من الأجانب .

وكان البارودىّ يرجو أن يتلافى هذه الحركة ، وأن يصل بحسن رأيه إلى إقامة العدل والإصلاح فى مصر على أساس من مبادئ الثورة السلميّة التى انتشرت دعايتها فى البلاد ؛ لكن الأمور سارت على غير هواه ، واندفع الضباط يفكّرون فى خلع توفيق . وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد وتحرّكت فيها أسباب الاعتداد بمكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر . وقصيدته التى مطلعها :

قلّدت جيدَ المعالى حليةَ الغَزَلِ ... وقلت فى الجدِّ ما أغنى عن الهزلِ

لا تبرئه من هذا التفكير[1]، وإن ذكر فى الديوان أنها قيلت فى عهد

(١) فهو فى هذه القصيدة يقول :

لكننا غرض للشر فى زمن — أهل العقول به فى طاعة الحمل
قامت به من رجال السوء طائفة — أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه — بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت — قواعد الملك حتى ظل فى خلل
وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة — بعد الإباء وكانت زهرة الدول
قوم إذا أبصرونى مقبلا وجموا — غيظاً وأكبادهم تنقدّ من دغل
. . . .
بئس العشير وبئست مصر من بلد — أضحت مناخاً لأهل الزور والخطل
أرض تأثل فيها الظلم وانقذفت — صواعق الغدر بين السهل والجبل
. . . .
لم أدر ما حل بالأبطال من خور — بعد المراس وبالأسياف من فلل
. . . .
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت — مس العفافة من جبن ومن خزل
خافوا المنية فاحتالوا وما علموا — أن المنية لا ترتد بالحيل
. . . .
هيهات يلقى الفتى أمناً يلذ به — ما لم يخض نحوه بحراً من الوهل
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم — ولا تزول غواشيكم من الكسل
وتلك مصر التى أفنى الجلاد بها — لفيف أسلافكم فى الأعصر الأول
قوم أقروا عماد الحق وامتلكوا — أزمة الخلق من حاف ومنتعل
. . . .
أخنى الزمان على فرسانها فغدت — من بعد منعتها مطروقة السبل
فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا — شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة — يكون ردءاً لكم فى الحادث الجلل
ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت — مسالك الرأى صاد الباز بالحجل
إن قال بر وإن ناداه منتصر — لبى وإن هم لم يرجع بلا نفل
هيهات، ما النصر فى حد الأسنة، بل — بقوة الرأى تمضى شوكة الأسل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً — لكل منتزع سهماً ومختتل
ولا تخافوا نكالا فيه منشؤكم — فالحوت فى اليم لا يخشى من البلل
لا تتركوا الجد أو يبدو اليقين لكم — فالجد مفتاح باب المطلب العضل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية — ويرفل العدل فى ضاف من الحلل

إسماعيل . لكنه رأى إنجلترا وفرنسا تتدخّلان وتبعثان بمذكّرتهما المشتركة إلى الحكومة المصرية ، فأحسّ الخطر ، ورأى أن لا طاقة لمصر بمواجهة هذا الموقف . ولقد حاول أن يتخلّص منه بالاعتزال فى مزارعه ، وذلك بعد أن نصح للعرابيين ، وصارحهم برأيه . لكن اندفاعه فى حركة الضباط من بداءتها حال بينه وبين التخلُّص منهم ، فلم يكن له بدٌّ من أن يسير معهم ، وأن يربط حظّه بحظّهم (١).

وهذا الموقف الذى وقفه البارودىّ هو الذى جعله لا يبرز فى الصفّ الأوّل من صفوف الثورة العرابية ، ولا يتولّى زعامتها . ولو أنه كان مؤمناً بها إيمان عرابى وأصحابه لكان الطبيعىّ أن يتقدّمهم وأن يدعو بدعايتهم . فهو قد اشترك فى حروب أقريطش والروسيا وأبلى فيهما بلاءً يجعله أقدر ضباط الثورة جميعاً على قيادتها . وهو قد كان – لا ريب – أكثرهم ذكاءً وأعلاهم ثقافة وأعرفهم بشؤون الحياة الدولية . أما وقد سايرهم إذعاناً لحكم الأحوال فقد رجع إلى الصف الثانى من صفوف الثورة . فلمّا أخفقت وحوكم زعماؤها حكم عليه معهم ، لأنّه شجّعهم أوّل أمرهم ، ولأنّه لم يتنصّل عنهم حين لجّوا فى عصيانهم .

ونُفِى مع زملائه زعماء الثورة إلى سيلان فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض

---

(١) وهو فى ذلك يقول :

نصحت قومى وقلت الحرب مفجعة ... وربما تاح أمر غير مظنون
فخالفونى وشبّوها مكابرة ... وكان أولى بقومى لو أطاعونى
تأتى الأمور على ما ليس فى خلد ... ويخطئ الظن فى بعض الأحايين
حتى إذا لم يعد فى الأمر منزعة ... وأصبح الشر أمراً غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمى ومن شيمى ... صدق الولاء وتحقيق الأظانين

عام . ولقد أقاموا جميعاً فى كولومبو سبعة أعوام عاف البارودىّ خلالها بيئتهم إذ دبّت الشحناءُ بينهم وانقلب كلٌّ يلقى على زملائه تبعة ما حلّ به . ولم يكن ذلك ديدن البارودىّ ولا كان من خلاله . لذلك انتقل إلى كنْدِى حيث قضى عشرة أعوام أخر تعلّم خلالها الإنجليزية ، وعلّم بعضَ أهل كندى الدين الإسلامى واللغة العربية ، واستطاع أن يتسلّى ، وإن لم يَسْلُ يوماً وطنه وأهله ومجده .

لمن يبثّ شكواه أو يعلن أساه ؟ ! لا خير فى اصطفاء زملائه وكلّهم طائر اللبّ مروّع القلب . ولا خير فى التحدُّث إلى أهل البلاد ؛ وقلّ منهم من يفهم حديثه ، وأقلّ من ذلك من يعرف قصّته . لا معين له على الشكوى إذّا إلا ربّةُ الشعر . فليشركها معه ؛ وليترنّم رإيّاها بهمومه ، وليستعن بها على التصبّر إن لم يجد إلى الصبر الوسيلة ، وليتّخذ منها رسوله إلى النائين عنه بمصر ممن يذكرونه ، ويتحسّرون على مصابه حسرة على الشعر أن يقسو به القدر كلّ هذه القسوة .

وكانت ربّةُ الشعر نعم العزاء . مدّت إليه قيثارتها ، وألهمته أبلغ آياتها يُوقعها عليها ليصعّد فى أنغامها كربة نفسه وهمَّ قلبه . يراجعه الحنين إلى الوطن فيشكو النوى ويصوّر الوطن أروع صورة فى أبرع عبارة ؛ ويثور على الحنين وعلى الوطن فيلعن مصر ، ويهجو ناسها ؛ ويحزّ الأسى فى نفسه فيتوجع ، وتراجعه جركسيته ، ويثور فى عروقه دم المماليك ؛ فيعود إلى الفخر ؛ وتبلغه الأنباء بوفاة الأهل والأصدقاء ؛ فيرثى ويبكى ويسلم أمره إلى الله ؛ وينخرط فى الأسى وفى الألم ، فيتّخذ الزهد ملجأً من أساه ومن ألمه ، ويقصّر الزهد فلا يأسو جراح نفسه ، فيثور ويبلغ بالثورة أقصى الحدود ؛ ويشعر بذهاب الشباب

وبالأجل المكتوب فى الغربة والنأى عن الإخوان والأهل فيستسلم للقضاء . وربّة الشعر فى هذه الحالات جميعاً مُسلمةٌ إليه نفسَها ، مُسْلِسةٌ له قيادَها ، مادّة إليه قيثارتها ، تلهمه وتقول معه ، وتعينه فى هذا المنفى على أن يعيد إلى الشعر العربىّ جِدّةً لا تبلَى ، ويجعل من آلامه وحسراته وثوراته وحنينه وضعفه وبكائه أداةَ هذه الجدّة ، ومصدرَ هذا البعث ، بعد أن ظلّت اللغة السليمة والأدب الرفيع ملتفين فى أكفانهما قرابة ألف عام .

ونحن نحاول اليوم أن نتلمّس الجديد فى شعر البارودىّ ، ونقصد بالجديد ما أبدع من أغراض لم تكن مطروقة فى عهد الأوّلين ممن بعث لغتهم وشعرهم ، وما كانت ذاتيته قوية واضحة فيه ، وما يتّصل بالحاضر ممّا جعله الشعرُ الأوربىّ أغراضه ، فيأخذ بألبابنا ما فى ديوانه من الشعر السياسى ، ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار المصرية والحياة المصرية . أمّا ما خلا ذلك فلم يعدُ البارودىّ فيه مقاصد المتقدّمين من شعراءِ العرب ، ولم يعدُ أوزانهم وقوافيهم وأغراضهم . لم يفكّر فى الملاحم الكبرى كما فكّر هوميروس فى الإلياذة ، ولا فكّر فى المسرحيات الشعرية كما فكّر شكسبير فى مسرحيّاته ، وكما فكّر دانتى فى الكوميديا الإلهيّة . وهو فى الحقّ لم يتّجه بالشعر العربىّ غير وجهة الأقدمين الذين عارضهم ، وراض القول على مثالهم ، وإن كان من الحقّ كذلك أنه لم يَفْنَ فيهم ، ولم يقصر همّه على النقل عنهم ، بل بدت شخصيته بارزة فى شعره ، وبدا شعره مرآة بيئته وزمانه . فلو أنه عاصر الأقدمين ، وعاش بينهم لكان له ما للأخطل وللفرزدق ولأبى فراس ولبشّار من ذاتية تمتاز بها عن غيره ، ويقف بها فى الصفّ الأوّل من هؤلاء الأقران المبرِّزين .

لكنا يجب أن نعدِّل هذا الرأى إذا أردنا أن نبلغ النَّصَفَة حين البحث

عن الجديد فى شعر البارودىّ ، وأن نقول إن هذا الشعر كان فى عصره جديدًا كلّه . كانت محاكاته الأقدمين جديدة ، وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة . فقد هوى الشعر العربىّ قبله إلى درك من الانحلال جعله بالنسبة إلينا نسيًا منسيًّا ، وجعلنا نكاد نسقط من حسابنا هذا الألف الذى انقضى من السنين بين الشعر العربىّ بدء انحلاله ، وبين هذا الشاعر الذى بعث الشعر العربىّ إلى الحياة من جديد . ونحن جميعاً مقلّدون فى أكثر ما نعرض له من شؤون الحياة : مقلّدون فى الفنّ والأدب والشعر والعلم لأنها من شؤون الحياة . وإنما نجدّد بقدرٍ فى حدود ما يُصلح فساد الماضى ، ويضيف إلى الصالح منه ما يزيد حياته بريقاً وما يزيده على الحياة قوّة . فإذا كان البارودىّ قد بعث الشعر العربىّ واللغة العربية من مرقدهما وردّ إليهما حياة ذوت وذبلت قروناً متعاقبة ، فعمله هذا خَلْق لا ريب فيه ، وهو فى عصره جديد كلّه ، وهو جدير لهذا أن يتسنّم ذروة المجد ، وأن يجلس بين الخالدين .

وإذا كان لم يعرف وحدة الغرض فى القصيدة الواحدة كما نفهمها اليوم ، وكما يفهمها أهل الغرب ، وكان ينتقل من الغزل إلى المدح إلى الفخر إلى الحماسة إلى الحكمة ، كما كان يفعل البحترىّ وأبو تمّام والمتنبى وغيرهم من كبار الشعراء ، فذلك لأنّ رسالته لم تكن تجديد الشعر العربىّ فى حياته المتدفّقة الفيّاضة ، بل كانت بعث الشعر العربىّ من مرقده ، وتمزيق الأكفان التى احتوته مئات السنين . وما وُفّق له البارودىّ من هذا البعث لا يزال حتى اليوم أعظم تجديد تمّ فى حياة الشعر العربىّ منذ نهض البارودىّ به ، لا يُقْرَن إليه إلا ما وُفّق له شوقى حين وضع مسرحيّاته الشعرية الخالدة :

مجنونِ ليلى ، ومصرع كليوبترا ، وما إليهما .

ولعلك لا تعثر فى شعر البارودىّ على فلسفة ظاهرة ، ولقد تعثر فيه على زلات غير قليلة فى اللغة كما يريدها المتزمّتون ، وقد يقع له أحياناً أن يسيء الانتقال من غرض إلى غرض ، أو أن تضمّ القصيدة الواحدة من قصائده أبياتاً بالغة غاية القوّة والجزالة ، وأخرى متخاذلة منحلّة ، أو ضعيفة النسج نابية فى استعمال بعض المفردات ، وقد تراه متناقضاً فى القصيدة الواحدة : زاهدًا فى أوّلها مسلماً أمره للمقادير ، ثائرًا فى آخرها مالئاً ماضغيه فخرًا بنسبه وفعاله وشجاعته وشعره ، كما تراه يغرب فى اللفظ حين يعارض الأقدمين ، ثم لا يمنعه ذلك من أن يسيغ بعض الألفاظ العاميّة التى تأباها المعجمات ويثور بها رجالها ؛ لكنك تجد له العذر عن ذلك كلّه حين ترجعه إلى أسبابه ، وتجد له عذرًا أبلغ حين تذكر أن العبقرية التى تحلّق بصاحبها فى سموات تتعلّق بها القلوب والعقول فى إعجاب وتقدير ، هى التى تستبيح ما يؤاخذ الناسُ المجيدين به ، وما يحذر هؤلاء المجيدون الوقوع فيه ، لأنهم لا يجدون عوضاً عنه فى سموّ صاحب الموهبة بعبقريته إلى حيث لا يلحقه أحد .

وللبارودىّ مع ذلك عذره عن كثير من هذه المآخذ التى يتغاضى عنها كثيرون ويرون بعضها ضعيفاً وبعضها يشوبه الخطأ . فعذره عن أخطائه اللغوية هو عذر الفحول الأوّلين من كبار الشعراء الذين يستشهد بهم فى كلّ خروج على قواعد اللغة . فهم لم يكونوا يتقيّدون بها وقد كانت حديثة الوضع فى عهدهم ، وكانت أقوالهم حجّة لذاتها . وهذا عذر ناهض للبارودىّ ، وهو

كما رأيت لم يتعلّم النحو والصرف والعروض والقوافى ، وهو قد قال الشعر طوعاً لموهبته ، بعد أن قرأ الشعراء الأوّلين وحفظ عنهم كلّ ما اطمأنّ إليه من أقوالهم ؛ وأنت لذلك تستطيع أن تقول إنه عاصرهم وعاش معهم . فلم يكن أبناء زمانه من المصريين يعرفون اللغة العربية ، وإنّما كانوا يتحدّثون بلغة أخرى هى العاميّة . فحياة البارودىّ المتّصلة باللغة العربية كانت بين الشعراء الجاهليين وشعراء العصرين الأموى والعباسىّ . من ثَمّ صارت لغتهم لغته ، وصارت سليقة له كما كانت سليقة لهم ؛ فكان يقولها ويتصرّف فيها كما كانوا يقولونها ويتصرّفون فيها . فإذا هو سما بسليقته فى اللغة كما سَمَوْا ، ولم يتقيّد بما يتقيد به غيره من قواعدها فلا تثريب عليه ، ولا شىء فى ذلك يؤاخذ به ، وإن وجب التنبيه إليه .

أمّا ما يقال عن سرقات البارودىّ فلا ينهض مأخذًا عليه . وهو قد أسلف العذر عن محاكاة الأقدمين ، إذ نصّ فى تقديم بعض قصائده على أنها معارضة لقصيدة قديمة معروفة ، أو أنّها رياضة للقول على طريقة العرب . هذا إلى أنّ رسالة البارودىّ فى الشعر كانت رسالة بعث كما قدّمنا . وقد اتُّهم الفحول من الشعراء الأقدمين قبله بالسرقة ، فاعتذر رواتهم وأنصارهم عنهم بأنّ ما نسب إليهم من ذلك إنما هو من توارد الخواطر . «كما يقع الحافر على الحافر» على حدّ تعبيرهم . والبارودىّ أبلغ عذرًا ؛ فقد كان محفوظه من الشعر القديم ضخماً ، وكان شعره هو ضخماً كذلك ، وأنت تصادف فى ديوانه أبياتاً له مذكورة فى أكثر من قصيدة ، فلا عجب إذا ظنّ بيتاً محفوظاً لغيره بعض ما قاله فأدمجه فى قصيدة من القصائد على أنه له .

والحقّ أنّ البارودىّ ما كان بحاجة إلى السرقة وعبقريّته الشعرية

ما عرفتَ ، وديوانه تربو فيه القصائد على المئات ، والأبيات على الألوف ؛ وما ينسب إليه أنه نقله عن الأقدمين قليل ، كقوله :

عليّ طلاب العزّ من مستقرّه ... ولا ذنب لى إن عارضتْنى المقادرُ

وهو صورة فى لفظه ومعناه من قول أبى فراس :

عليّ طِلاَبُ العزّ من مستقرّه ... ولا ذنبَ لى إن حاربتنى المطالب

وهذا التطابق البيّن على قلّته فى شعر البارودىّ قد أُخذ غيره من الفحول بمثله . وإنّما يفسّره أنّ روح البارودىّ متّصلة بالأقدمين كلّ الاتّصال . وما قاله فى الحكمة وكثير مما قاله فى الفخر ليس إلا ترديدًا لما قالوا ؛ لأنه لم تكن له فلسفة خاصّة كما قدّمنا ، ولأنه كان يبعث معانى الأقدمين كما كان يبعث لغتهم .

وأنا لا أسيغ تسمية هذا البعث سرقة . والشعراء والكتاب فى كلّ أمة وعصر يتداولون المعانى بينهم ، ثم يمتاز المبرِّز منهم بسطوع معانيه وقوّتها ، وبوضوح شخصيته فى أغراضه وأسلوبه . وللبارودىّ من هذا التبريز حظٌّ قلّ نظيره ، وأنت لا تجد هذا التبريز فى قصائد المديح القليلة التى قالها ؛ لأنه قال هذه القصائد مجاملة ، أو نزولا على حكم الأحوال ، فلم تكن متّصلة بنفسه ولا صادرة عن وجدانه الأبىّ المتعالى بفضله ومجده على كلّ مَنْ سواه . أمّا فى الإباء ، وفى الفخر ، وفى الحنين ، وفى الرثاء ، وفى وصف الوقائع ووصف الطبيعة ، فقد سما البارودىّ إلى حيث لا يلحقه إلّا الأقلّون من أكبر الشعراء فحولة ، وأكثرهم تبريزًا .

ويرجع تبريزه فى هذه الأغراض إلى أنه كان يعبّر بها تعبيرًا صادقاً عمّا

تنطوى عليه جوانحه ويتردّد فى أعماق قلبه ، أو عما شارك بنفسه فيه ، وكان له منه نصيب يرضاه . وهذا سرّ قوّته فى وصف الحرب ووقائعها ، وسرّ دقّته فى التصوير السياسىّ لحال بلاده ، وهو السرّ فى عظمة ما قال فى المنفى من مختلف ضروب الشعر فى مختلف الأغراض ، وفى تفرّده بالقول فى أغراض لم يعرفها معاصروه ؛ لأنه لم يكن من طرازهم نسباً ولا ثقافة ولا طموحاً فى الحياة . فهو قد رأى من بهجة الدنيا ومن صروف الحدثان ومن عبرة المنفى ما لم يروا ، وهو قد قال الشعر مخلصاً للشعر ، محبًّا إيّاه ، لا يبتغى به إلا رضا نفسه ورضا الفنّ ، مؤمناً بأنّه وسيلته إلى الخلود فى ضمير الأجيال .

وهذا الإيمان بالشعر هو الذى جعله يتوفّر عليه فى المنفى ويجعله بغية الحياة فيه . فلقد أيس من العود إلى الوطن ، إذ أبت عليه نفسه أن يضعف فيسترحم كما فعل زملاؤه . بل إنّ له فى هذه الفترة لأبياتاً ثائرة لا تقلّ عُنْفاً عن أشدّ الثورات المسلّحة . وليس طبيعيًّا أن يكون هذا الشعر الثائر وسيلة للعفو عنه . من ذلك قوله :

فحتّام نسرى فى دياجير محنة ... يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت ... عليه ، فلا يأْسَفْ إذا ضاع مجده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش ... بها بطلاً يحمى الحقيقة شَدُّه
وإنى امرؤ لا أستكين لصولة ... وإن شدّ ساقى دون مسعاى قِدُّه

بل لقد كانت هذه الأبيات وأمثالها أدنى إلى إثارة حفيظة الإنجليز وحفيظة صاحب العرش فى مصر عليه . وما كان زهده وإسلامه أمره لله ليمحُوَا أثرها ، أو لينهضا حجّةً على أنه ضعف ؛ فتاب عمّا قدّم ، وندم على ما انطوت عليه نفسه من حبّ المجد وطلابه

وطال به النفى سبعة عشر عاماً كان قول الشعر ، كما كان اختيار أجود ما قاله الأقدمون، سلوته فيها. فلما تقدّمت به السنّ ، وطال به الثوى، وتخطّف الموت فى أثناء ذلك ابنته وزوجه وأصحابه ، بدأ بصره يضعف ، وصحّته تضمحلّ ، ونذر الفناء تدبّ إليه . هنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيّون من سيلان إلى بلادهم . وعاد البارودىّ مهيض الجناح محطّماً ليس فيه « غير أشلاء همّةٍ فى ثياب » . لكنّه عاد يحمل معه كتاب الخلود الذى لا يبلى . ذلك هو ديوان شعره الذى نقدّمه للقرّاء .

وللأقدار سخرية يا لها من سخرية ! فهذا الرجل الذى بعث العربية فى أفصح لفظ وأمتن ديباجة ، وخلع عليها من الجلال والجمال ما ردّ إليها كلّ قوّتها وكلّ بلاغتها ، قد عفا عنه خديو مصر بأمر كريم هذا نصّه :

«بناءً على الإنهاء المرفوع لنا من محمود سامى بالتماس الإحسان عليه بالتمتع بالحقوق الوطنية قد اقتضت مكارمنا منح المومى إليه التمتّع بالحقوق الوطنية . وعلى ذلك فيجوز له من الآن امتلاك أىّ ملك من أى نوع كان فى الأقطار المصرية بطريق الإرث أو الهبة أو البيع أو بأىّ طريقة كانت الذى كان محروماً منه بمقتضى الأمر العالى الصادر فى ١٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ (٣٠ من صفر سنة ١٣٠٠) وأصدرنا هذا لعطوفتكم لإجراء مقتضاه » .

عباس حلمى

وتاريخ هذا الأمر ١٨ من المحرّم سنة ١٣١٨ (١٧ من مايو سنة ١٩٠٠) .

فلمّا صدر هذا الأمر وردّته السفينة إلى وطنه ، كان أوّل ما قاله إثر عودته قصيدته التى مطلعها :

أبابل رأىَ العينِ ، أم هذه مصر فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر

ونزل البارودىّ مصر ، فكانت أوبته إليها عيدًا نشر البشر فى عالم الأدب كلّه . أصبح منزله ندوة الأدباء والشعراء وذوى المكانة ، يأنسون إليه ويأنس إليهم ، ويستمتعون بحديثه ، ويرى فى مجالستهم ما يأسو الجراح التى أدمت قلبه سنوات النفى الطوال . فإذا خلا إلى نفسه رتّب مختاراته ، وعُنى بتنقيح ديوانه يريد إعدادهما للطبع . ولقد بذل فى ذلك مجهودًا يدلّ على حبه شعره وإيمانه به . وأصول الديوان تشهد بهذا المجهود . فأنت ترى الأبيات التى حذفها من بعض القصائد ، والأبيات الأخرى التى غيَّرها كلّها أو بعضها ، شهيدة على صدق إيمانه بأن العبقرية مجهود متّصلٌ فى سبيل الكمال .

وقضى فى مصر أربع سنوات ذهب أثناءها ما بقى من بصره ، فإذا ريح الوطن ووفاء بنيه يعزّيانه عن نور البصر وعن كلّ ما فى الحياة . فلمّا كانت الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٤ (السادس من شوّال سنة ١٣٢٢) لبى داعى ربّه تاركاً لمصر وللعالم العربىّ هذا التراث الذى لا يبلَى ، ولا يعدو عليه الموت ، ولا يجنى عليه النسيان .

لبّى نداء ربّه ولم يكن قد طبع المختارات ولا الديوان ، فتولّت أرملته التى تزوّجها بسرنديب(١) طبع المختارات وطبع الجزأين الأوّل والثانى من الديوان (إلى آخرِ قافية اللام) .

وحسب البارودىّ ديوانه آية لمجده وتراثاً للأجيال بعده . فهذا الديوان

(١) ابنة يعقوب سامى أحد زعماء الثورة .

تمثال عبقريّة خالدة ، وهو باق لذلك بقاء الأبد أيًّا كان الشاعر الذى ينسب إليه . فما بالك وهو صورة صادقة لحياة صاحبه ! . . . أوَتستطيع الفنون مجتمعة أن تقيم تمثالا يخلِّد من هذا الشاعر الملهم ما يخلِّده شعره النابض بالحياة وأنغامها ، والذى بعث العربية خلقاً جديدًا ؟

أدع الجواب لأرباب الفنّ ولقرّاء الديوان .

محمد حسين هيكل

شكر

أَمَدَّنا السيد «أشرف البارودىّ» بن «محمود سامى البارودىّ باشا» بالأَصل المخطوط لديوان شعر والده . واهتمَّ بإحياء ذلك التراث الأَدبىّ «محمود فهمى النقراشى باشا» و «جعفر ولى باشا» من الوزراء السابقين لوزارة المعارف (التربية والتعليم) . وقدَّمَه ببحثٍ قَيِّم الكاتب الصحفى والوزير الأَديب الدكتور «محمد حسين هيكل باشا» ، فكان حقًّا علينا أن ننوّه بهم ، ونشكر لهم ، ثم لكلّ من له أثر صالح فى إظهار هذا الديوان .

شارحا الديوان



المرحوم محمود سامى البارودى باشا فى منفاه



المرحوم محمود سامى البارودىّ باشا فى اكتمال شبابه

نموذج
من خط المرحوم محمود سامى البارودى باشا وفنّه الكتابى

انى لما انصت في غوائل الزمن الى مفارقة الاهل والوطن
وحقت كلمة الوداع وانصت كل مجيب وداع سارت باشباحنا
الفلك بتقدير من له الملك فلما توسطنا لجة اليم وغشيتنا ضبابة
الهم اخذ البحر يهدر ويموج والريح تعصف وتروج والدجن
يبرق ويرعد والموت يقرب ويبعد والفلك بين صعود وهبوط
والناس بين رجاء وقنوط فشخصت الابصار وغابت الافكار
واقبل الفزع واستولى الجزع وشغلت الدموع المحاجر وبلغت
القلوب الحناجر فهنالك دعا ربهم الغافلون وكفت اربابهم
الا قلوبهم فلا ترى الا ناكس الطرف لا ينبس بحرف كأنما
اظلتهم الرجفة او غشيتهم الوجبة فهم لفرط الحيرة خمود
تحسبهم ايقاظا وهم رقود فلم يزل يتخبطنا اليم ويأخذ بأكظامنا
الغم حتى كادت الانفس تزهق والظنون بالمنية ترهقه ونكون
ونحن على ذلك ثلاثا لا نجد فيها مباتا
في دعاء لا نملك غير الدعاء وكيف لنا بالخلاص ولات
حين مناص حتى اذن الله ما سكنت فورة الريح وهدأت ثورة
اليم
ورى حدب

ابن بريع وتجلت بنورها السماء واصطبغ الماء والهواء فقرت الانفس في الصدور وتنفس كل مصدور ولم يبق الا سواده الحديث منه قديم وحديث والفلك يمخر البحر بجؤجؤه ويحمل من الشهر في وؤدؤه حتى انتهى بنا الدبيب

ولو هنت لا عينا سر دنيب

منازل لم تألف بها النفس مألفا ... حتى انه فيها كل ما تشتهي النفس

ولا عيب فيها غير انه ليس لي بها ... انيس وفقد الخل في غربة حبس

وكيف يطيب العيش في ظل بلدة ... خلاء من الألاف ليس بها انس

قد خلفها شعوب الاوان حتى الاهل والبنين لا استطيع لما عراني دفعا ولا املك لنفسي ضرا ولا نفعا وما ظنك بمن غاب عنه السمير والتاع بالفرقة منه الضمير فهو بين همومٍ ناصبه واحزان واصبه واشجان يهلك لها الصبر ومرارة يحلو عندها الصبر ان نطق فبصوت لا يدرك السمع او نظر فبعين قد ملأها الدمع

غريب تخطاه الاساة فما له ... سوى عبرات المقلتين طبيب

وما سعى الى غريب عن الحمى ولكني بين الانام غريب
فالتفت يمينا فلم اصب معينا والتفت شمالا فلم اجد ثمالا
فدارت بي محتار الارض واشتبه علي الطول والعرض فبت
وحيدا لا اجد مجيدا وكانت الليلة شاتية والريح صرصر عاتية
والسماء باسرة كاسفة ليس لها من دون الله كاشفة قد كلح
وجهها فاكفهر وعلا رعدها فازمهر واصطكت ركابها فانهال
وصعق رعدها فهال لو كان بدرها ان ينتهي لما شعر ولو سلكها
سالك لا قشعر فلم ازل امارس هولها حتى تم وارقب فجرها
حتى انفجر فلما رقت انفاس النسيم وحسر الصبح عن محياه الوسيم
وتنفس العصفور في سعادة عند بابه وتنفس البعوض في مسارح
شدة بابه صحت بغلامي كافور فاقبل يرعد كالعصفور يكاد
يخرج من جلدته ويرقص كانما بنات جلدته فقلت له ما هذا الطرب
وقد اودى بي الارب فقال انظر يا مولاي الى السماء وكيف
والماء قد تفطر ارقا وسما وسرها فسما ازهارا ترف

وغدران

وغدا ان تشف ومربع يفتن العقول برواته ونسيم يشفي
الاسقام بدوائه فقم لعلك تستريح فقد سكن القطر والريح
ثم يضحك لقوله مني وعلمت انه ليس مني واين يذهب اللهو
بقلب قد عفا رسمه ولم يبق في الشغاف الا وسمه بل كيف يطرب
الغريب او يجد الى الصبوة الحبيب هيهات ما كل شاعر قالا
ولا كل حلقة حلقا لا واين من الصفار من الضمر ومن الخشب التلال
والقفر تا لله ما بعد الوطن دار ولا في غير الكعبة مدار ولكن
من لم يجد مركبا سكن ومن الحجرة الحيلة ركن وما كانت لتقدم
نفسي جلدا ولكن تكل اراجعا ولذا علمت شهرين اطول
من دهرين حتى مسني العلل واخطأني التعلل فدعاني الطبيب
الى ترك المحاضره والتوسل بحق بعض الاصحاب الناظره فقعدت
بعد التوكل بتذى على المسير الى كندي فلما حللت بواديها
وسرت في بواديها تلاهيت عما اجده من الحرقه واتجرعه
من مرارة الفرقه شعر

وعجائبها من بلدة لو ان لي ... فيها اجا ربحي ذمام اقاتي
ضنت بها نفسي كما سمحت بها ... فانظر لقرب ضناتي وسخائي
ومن العجائب انني من غربتي ... ونعيمها في شدة ورخاء

متى اشتدت اوصابي وحان من العلة مصابي خرجت ذات يوم عقب زوال النوم الى بعض هاتيك الحدائق لاتنسم انفاس الحدائق فاذا ايكة مغنية والطيار مرنة ودوحاتها تمس السماء وتعرف عن دراجة العلاء والنسيم يتدرج والعبير يتارج والطير بين رنيم وصفير والريح بين شهيق وزفير

شعر

ارض اذا مرها الذي اقدحه ... بيد النسيم فغصنها مخمور
يترنم الشحرور في عذباتها ... ويقيل في اثلاثها اليعفور
خطر الغمام بها فمسح ذيله ... في كل واد جدول مسجور
فاذا نظرت ففي السماء غمامة ... تدق الجان وفي الفضاء غدير
واذا اصغيت فللبلابل نغمة ... تشجي الخلي وللحمام هدير

وقائل

وحدائق اطلالهن لطيفة ونسائم انفاسهن عبير
فالقطر در والجداول فضة والزهر تبر والنبات حرير
فاحلل بها عقد المشيب ولا تخف اثما فربك للذنوب غفور

ثم ازل انتقل من نجد الى وهد وانوغل من صعود الى نهد حتى اوى المسير الى ربوة تدعو الحليم الى الصبوة فاشرفت بي الى عين اشد صفاء من العين قد انحدرت بسلسال كلسان الصباح او كلسان المصباح في بركة تزري بالهالة عند استوائها وتزهو على الوزيلة بحسن روائها قد افترت عن ثغر حصبائها وتكسرت في ريب احبائها واحاطت بها افنان الشجر احاطة الاهداب بالبصر وانشعبت منها جداول كذوب اللجين تتلوى في جريتها تلوي الايم فكانها مناصل جردتها الكماة او قسي وترتها للنزع الرماة فهي تجري بين غيضة ملتفة واشجار مصطفة اذا داعبتها انفاس الشمال مالت الى اليمين والشمال وان عبثتها ريح الجنوب كما رنت اذ تمس الارض بالجنوب

بيد انى لم اجد فى تلك المناظر مسلاة للقلب والناظر
ولا فى اغاريد البلابل ما يشفى لوعة البلابل ولا الهى
ذات الطوق عما اجد من الشوق ولا انسى نسمات
الاصائل . ما انقطع من خزمات الوصائل بل حسبت
ان قطرات المزن دموع اسالتها زفرات الحزن وتوهمت
ان كل نواره نحلة فى الرداء سواره وخيل الى ان
حمرة الجلنار جمرة ساطعة من النار وظننت الاغصان
رماحا تخطر او صفاحا تشحذ الهام وتشطر ورأيت
من الجداول اساود تنهش ومن الازهار عيونا تبهش
فكلما تلفت ضقت فتكلفت فقصدت ناحية فى مقدم الكاحية
ثم رفعت طرفى الى السماء ودعوت بهذه الاسماء اللهم
يا هادى الضلال فى الليل المدلهم وناصر الابطال فى غمرة
اليوم المسلهم ويا جابر العثرات ويا كاشف الحسرات
الهى

الهمني بفضلك صبرا يعصمني من الجزع والبسني جلباب
امن يقيني هول الفزع وقني بلطفك شر نفسي واجعل
يومي خيرا من امسي وصل يا صاحب الملك ديباجتي ولا
تجعل الا اليك حاجتي فقد انخت بباب مطية الرجاء
وتمسكت من حمايتك باطناب الالتجاء فلا تصرفني من
رحابك خائبا فقد جئتك من ذنوبي تائبا ثم قنعت
قنعة المقرور ونفثت نفثة المحرور واخذت اقلب
الاراء واسال زندي الاراء حتى فاقت الى نفسي
وراجعني بعد لاي هدسي وعلمت ان لكل محنة روعة
ولكل مصيبة لوعة وان الانسان رهن الحدثان ورايت
ان الصبر على الضر اجدر بشيمة الحر واي امرء عاهده
الدهر ولم يغدر او صفا له ثم لم يكدر وكيف لا ينقلب
الحال والزمان قلب ام كيف تصدق مخيلة وهي خلب
هيهات ما وعد الا واخلف ولا اوعد الا واتلف ولا

ولا اضحك الا وابكي ولا اهازله الا وانكى وقل من
صاحب الدهر فنجى من هوله او عانده ولم يصبه من
هوله ولكني بالحوادث لمن تبصر نذيرا ولمن خاف عاقبة
امره حذيرا والعاقل من تأسى بغيره وميز بين نفعه
وضيره فلا تحزن على ما ذهب اذا استرد الدهر ما وهب
اليست الحياة الا عارة فما هذه الدعارة المحبب
الى جهل انه الامر بيده فنسى انه يأخذ منه يوم لغده
هيهات لا ادراك بعد الفوت ولا حيلة بعد الموت
فتمسكوا من اعمالكم بالسبب الاقوى وتزودوا فانه
خير الزاد التقوى

مقدمة الديوان

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى مَحْمُودٌ الْبَارُودِيُّ :

اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْمَدُكَ عَلَى مَا هَدَيْتَ ، وَأَشْكُرُكَ عَلَى جَزِيلِ(١) مَا أَسْدَيْتَ(٢) ، وَأَسْتَعِينُكَ عَلَى رِعَايَةِ(٣) مَا أَسْبَغْتَ(٤) مِنَ النِّعَمِ ، وَأَسْتَهْدِيكَ(٥) لِشُكْرِ مَا أَثْبَتَّ مِنَ الدُّعَمِ(٦) ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَثَرَاتِ(٧) اللِّسَانِ ، وَغَفَلَاتِ(٨) الْجَنَانِ(٩) ، كَمَا أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَدَرَاتِ(١٠) الزَّمَانِ ، وَبَغَتَاتِ(١١) الْحَدَثَانِ(١٢) ،

---

(١) جزيل : عظيم ، كثير .

(٢) أسديت : أوليت ، وأعطيت ، وأحسنت. يقال: أسدى إليه معروفاً: إذا اتخذه عنده . وأسدى إليه : أى أحسن إليه .

(٣) رعاية : حفظ وصيانة .

(٤) أسبغت : أتممت ، وأكملت ، ووسّعت .

(٥) أستهديك : أطلب منك الهداية والرشاد .

(٦) الدعم : جمع دعمة (بكسر فسكون) وهى الدعامة أى عماد البيت ، وما يقوم عليه العريش والسقف ونحوهما ، وما يمسك الحائط أن يميل ، فأساطين المساجد وأعمدة الخيام والسرادقات ونحوها دعائم . والمراد بالدعم هنا : القوى التى يتماسك بها الإنسان كما تتماسك البيوت ونحوها بالدعائم . أو الصحة والجاه ورفاهية العيش ونحو ذلك . وإثبات الدعم : تثبيتها وإحكامها .

(٧) عثرات : زلات ، وأخطاء ، واحدتها عثرة (بفتح فسكون) .

(٨) غفلات: جمع غفلة (بفتح فسكون) ،وهى غيبة الشىء عن بال الإنسان، وعدم تذكره له .

(٩) الجنان : القلب .

(١٠) غدرات : جمع غدرة (بفتح فسكون) : وهى اسم مرة من الغدر .

(١١) بغتات : جمع بغتة (بفتح فسكون) : أى فجأة .

(١٢) حدثان الدهر : حوادثه ونوائبه .

وَأَسْأَلُكَ اللُّطْفَ فِيمَا قَضَيْتَ[١]، والْمَعُونَةَ عَلَى مَا أَمْضَيْتَ[٢] ، وأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ قَوْلٍ يَعْقُبُهُ النَّدَمُ ، أَوْ فِعْلٍ تَزِلُّ[٣] بِهِ الْقَدَمُ ، فَأَنْتَ الثِّقَةُ[٤] لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْكَ ، والعِصْمَةُ[٥] لِمَنْ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْكَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُكَ الأَمِينُ ، وَشَفِيعُكَ[٦]الضَّمِينُ[٧] ، الَّذِى بَعَثْتَهُ بِالنُّورِ الْبَاهِرِ[٨] ، والْبُرْهَانِ الْقَاهِرِ[٩] ، فَقَامَ بِالْحَقِّ صَادِعاً[١٠] ، وَلِلضَّلاَلَةِ رادِعاً[١١] ، حَتَّى ثَبَتَ الدِّينُ ، ووَضَحَ الْيَقِينُ[١٢]. اللَّهُمَّ فَصَلِّ عليه ما أَشْرَقَ النَّجْمُ ، وأَوْرَقَ الشَّجَرُ والنَّجْمُ[١٣] ، وعَلَى آلِهِ بُدُورِ[١٤] الْمَحافِلِ[١٥] ، وأَصحابِهِ صُدُورِ[١٦]

---

(١) قضيت : حكمت ، وقدرت .

(٢) أمضيت : أنفذت .

(٣) تزلّ : تزلق وتسقط ، أو تميل عن الطريق المستقيم ، وكنى بهذا عن مجانبة الحق ، ومقارفة الخطيئة ، وارتكاب الذنب .

(٤) أنت الثقة : أنت الأمين الموثوق بك .

(٥) العصمة : المنع والحفظ والوقاية ، يريد أن الله تبارك وتعالى يعصم من اعتمد عليه ، وسلّم أمره إليه ، ويحفظه من المكروه ، ويقيه السوء .

(٦) الشفيع : الشافع ، وشفاعته صلى الله عليه وسلم معروفة مبينة فى كتب التوحيد ، والسنّة المطهّرة .

(٧) الضمين : الضامن والكفيل ، والمعنى : أنه كفل المؤمنين به الخير والسعادة .

(٨) الباهر : القوىّ الغالب ، من بهر القمر (من باب نفع) : أى أضاء حتى غلب ضوءه ضوء الكواكب .

(٩) القاهر : الغالب .

(١٠) صادعاً : جاهراً ، من قولهم : صدع بالأمر (من باب نفع) : إذا أصاب به موضعه ، وأظهره ، وتكلم به جهاراً .

(١١) رادعاً : اسم فاعل من ردعه (من باب منع) أى كفّه وردّه .

(١٢) المراد باليقين : الإيمان بالله تعالى ، أو دينه الذى لا يرقى إليه الشكّ ، أو اليقين : الحق .

(١٣) النجم من النبات : ما لا يقوم على ساق .

(١٤) بدور : جمع بدر ، وهو القمر التام الممتلىء .

(١٥) المحافل : جمع محفل (كمجلس) اسم مكان من حفل القوم (من باب ضرب) أى اجتمعوا واحتشدوا .

(١٦) صدور : جمع صدر ، وهو الرئيس المقدّم .

الْجَحافِلِ[١] ، صَلاةً يَهْتَزُّ لَهَا الفَلَكُ[٢] ، وَيَتَنَزَّلُ بِرِضْوانِها[٣] الْمَلَكُ ، واحْشُرْنا[٤] فى زُمْرَتِهِمْ[٥] مَعَ الْقَوْمِ الفائزِينَ ، ولا تَجْعَلْنا مِنَ المَغْضوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالِّينَ ، آمِينَ .

وبعدُ فإنَّ الشِّعْرَ لُمْعَةٌ[٦] خَيالِيَّةٌ يَتَأَلَّقُ[٧] وَمِيضُها[٨] فى سَماوَةِ[٩] الفِكْرِ ، فَتَنْبَعِثُ أَشِعَّتُها إلى صحيفةِ القَلْبِ ، فيَفِيضُ بلأْلائِها[١٠] نُورًا يَتَّصِلُ خَيْطُهُ بِأَسَلَةِ[١١] اللِّسانِ ، فَيَنْفُثُ[١٢] بأَلْوانٍ من الحِكْمَةِ[١٣] يَنْبَلِجُ[١٤] بها الْحالِكُ[١٥] ، ويَهْتَدِى بدَلِيلِها السَّالِكُ[١٦] ، وخَيْرُ الكلامِ ما ائْتَلَفَتْ[١٧] أَلفاظُهُ ، وائْتَلَقَتْ[١٨] مَعانِيه ، وكان قريبَ الْمَأْخَذِ ، بعيدَ المَرْمَى ، سَلِيما

---

(١) الجحافل : جمع جحفل (كجعفر) ، وهو الجيش الكثير .

(٢) الفلك : مدار النجوم ، والمراد بقوله : (صلاة يهتز لها الفلك) أنها صلاة مقبولة ، ترتفع إلى الملأ الأعلى ، فيتأثر بها .

(٣) الرضوان : الرضا ، وقد يراد به الثواب . دعا للنبى وأهله وأصحابه بالرحمة ، ورجا أن يكون دعاؤه مقبولا ، وأن يثيبه الله عليه .

(٤) احشرنا : اجمعنا .

(٥) زمرتهم : جماعتهم .

(٦) لمعة (بضمّ فسكون) : بريق ولمعان .

(٧) يتألق : يلمع .

(٨) وميضها : لمعانها .

(٩) سماوة : سماء .

(١٠) اللألاء : الضوء .

(١١) أسلة اللسان : طرفه .

(١٢) ينفث : المراد ينطق ، (وبابه نصر وضرب) .

(١٣) الحكمة : القول السديد الرائع المقبول الذى يفيد أدباً أو عظة ، ويتضمن حكماً صحيحاً مسلّماً .

(١٤) ينبلج : يضيء ويشرق .

(١٥) الحالك : المظلم الشديد السواد .

(١٦) السالك : السائر ، يقال سلك الإنسان وغيره الطريق : إذا ذهب فيه .

(١٧) ائتلفت ألفاظه : لاءم بعضها بعضاً ، وتم بينها الانسجام والمناسبة .

(١٨) ائتلقت : لمعت وظهرت .

مِنْ وَصْمَةِ[١] التَّكَلُّفِ ، بَرِيئًا مِنْ عَشْوَةِ[٢] التَّعَسُّفِ[٣] ، غَنِيًّا عَنْ مُراجَعَةِ الفِكْرَةِ[٤] ، فهذه صِفَةُ الشِّعْرِ الجَيِّدِ ، فَمَنْ آتاهُ اللهُ مِنْهُ حظًّا[٥] ، وكانَ كَرِيمَ الشَّمائِلِ[٦] ، طاهِرَ النَّفْسِ ، فقدْ مَلَكَ أَعِنَّةَ[٧] القُلوبِ ، ونالَ مَوَدَّةَ النُّفُوسِ ، وصارَ بَيْنَ قَوْمِهِ كالْغُرَّةِ[٨] فى الجوادِ الأَدْهَم[٩] ، والبدْرِ فى الظَّلامِ الأَيْهَم[١٠] ، ولَوْ لم يَكُنْ مِنْ حَسَنَاتِ الشِّعْرِ الحَكِيمِ إلَّا تَهْذِيبُ النُّفُوسِ ، وتَدْرِيبُ[١١] الأَفْهامِ ، وتَنْبِيهُ الْخَواطِرِ إلى مَكارم الأَخلاقِ ، لَكانَ قد بَلَغَ الغايَةَ الّتى لَيْسَ وَراءَها لِذِى رَغْبَةٍ مَسْرَحٌ[١٢] . وارْتَبأَ[١٣] الصَّهْوَةَ[١٤] الّتى لَيْسَ دُونَها لذِى هِمَّةٍ[١٥] مَطْمَحٌ[١٦] . ومِنْ عجائِبِهِ تَنَافُسُ النَّاسِ فِيهِ ، وتَغايُرُ[١٧]

---

(١) وصمة : عيب .

(٢) العشوة (بفتح فسكون) : الظلمة والخفاء والالتباس .

(٣) التعسف : الميل عن الطريق ، والضلال ، والتكلف فى القول ، وحمل الكلام على معنى لا تكون دلالته عليه ظاهرة . والمراد سلامة الكلام من التعقيد ، والعيوب التى تخرجه عن حد الفصاحة والبلاغة .

(٤) المراد بغنى الكلام عن مراجعة الفكرة : أن يكون واضحاً ظاهر الدلالة على معناه .

(٥) حظًّا : نصيباً .

(٦) الشمائل : جمع شمال (بكسر الشين) : بمعنى الطبع والخلق .

(٧) الأعنة : جمع عنان (بكسر العين) ، وهو سير اللجام الذى تمسك به الدابّة .

(٨) الغرة : بياض مستحسن فى جبهة الفرس . والمراد : أنه صار مشهوراً ، بعيد الصيت .

(٩) الأدهم : الأسود .

(١٠) الأيهم : الصعب الشديد الحالك الذى لا يهتدى فيه . وليل أيهم : لا نجوم فيه .

(١١) تدريب : تعويد وتمرين .

(١٢) المسرح (فى الأصل) : المرعى ، والمراد به هنا : المجال .

(١٣) ارتبأ : علا وأشرف .

(١٤) الصهوة : مقعد الفارس من الفرس .

(١٥) الهمة (هنا) : العزم القوى .

(١٦) المطمح : اسم مكان من الطموح (بضم الطاء والميم) مصدر طمح البصر إلى الشىء (من باب خضع) : أى استشرف وارتفع .

(١٧) تغاير : اختلاف .

الطِّباعِ عَلَيْه ، وصَغْوُ(١) الأَسْماعِ إليهِ ، كأنَّما هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ ، أو مَطْبُوعٌ في كُلِّ قَلْبٍ ، فإنَّك تَرَى الأُمَمَ على اختِلافِ أَلْسِنَتِهِمْ ، وتَبايُنِ(٢) أَخْلاقِهِمْ ، وتَعَدُّدِ مَشارِبِهِمْ(٣) ، لَهِجِينَ(٤) بِهِ ، عاكِفِينَ(٥) عَلَيْهِ ، لا يَخْلُو مِنْهُ جِيلٌ(٦) دونَ جِيل ، ولا يَخْتَصُّ بِهِ قَبِيلٌ(٧) دونَ قَبِيلٍ ، ولا غَرْوَ(٨) ؛ فإنَّهُ مَعْرِضُ الصِّفَاتِ ، ومَتْجَرُ الكَمالات ، ولَقَدْ سَمِعَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَوْلَ زُهَيْرِ(٩) بن أَبِي سُلْمَى :

فإنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاثٌ : يَمِينٌ ، أَوْ نِفارٌ ، أَوْ جَلاءُ(١٠)

فَجَعَل يَعْجَبُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِمَقاطِعِ الْحِكْمَةِ(١١) وتَفْصِيلِها .

---

(١) صغو : ميل .

(٢) تباين : اختلاف وافتراق .

(٣) يراد بالمشارب هنا : المذاهب والأهواء .

(٤) لهجين به : مغرمين به ، مثابرين عليه .

(٥) عاكفين : مقبلين مواظبين .

(٦) الجيل : الصنف من الناس ، والأمة .

(٧) القبيل : الجماعة من الناس .

(٨) لا غرو : لا عجب (بفتح العين والجيم) .

(٩) زهير بن أبي سلمى المزنيّ : شاعر جاهليّ مشهور ، توفي قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مرضيّ الخلق ، عفيف القول ، غزير الحكمة ، كثير التهذيب لشعره .

(١٠) مقطع الحق : ما يقطع به الباطل ، أو ما يكون به ظهور الحق وتميزه ووضوحه وانقطاعه من كل ما يشوبه ويخفيه . وثلاث : أي ثلاث خصال . واليمين : الحلف . ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البيّنة على المدّعى ، واليمين على من أنكر ». ونفار : أي تنافر إلى حكم (بفتحتين) عادل يتبيّن حجج الخصوم وأدلتهم ، ثم يحكم بينهم بالحق . وجلاء (بفتح الجيم) : وضوح ، أي ينكشف الأمر وينجلي فتعرف حقيقته من غير خصامٍ ولا نفارٍ ولا يمين ، وقد يراد بالجلاء البيّنة والشهود التي تجلو الحق وتكشفه وتوضحه . وقد يراد به الإقرار والاعتراف . أو هي (بكسر الجيم) : مصدر جاليته بالأمر ، أي جاهرته به ، والمراد : الإقرار .

(١١) يراد بالحكمة هنا : الحق والعدل .

وللشعرِ رُتْبَةٌ لا يَجْهَلُها إِلَّا مَنْ جَفا[١] طَبْعُهُ ، وَنَبا[٢] عَنْ قَبُولِ الْحِكْمَةِ سَمْعُهُ ، فَهُوَ حِلْيَةٌ يَزْدانُ بجمالِهَا العاطِلُ ، وعُوذَةٌ[٣] لا يَتَطَرَّقُ إليها الباطِلُ .

ولَقَدْ كُنْتُ فى رَيْعَانِ[٤] الفُتُوَّةِ[٥] ، وانْدِفاعِ الْقَرِيحَةِ[٦] بتيّارِ القُوَّةِ ، أَلْهَجُ[٧] بهِ لَهَجَ الحَمَامِ بهَدِيلِهِ[٨] ، وآنَسُ بهِ أُنْسَ العَدِيلِ[٩] بعَدِيلِهِ ؛ لا تَذَرُّعاً[١٠] إلى وَجْهٍ أَنْتَوِيهِ[١١] ، ولاتَطَلُّعاً إلَى غُنْمٍ[١٢] أَحْتَوِيهِ[١٣] ، وإِنَّما هِىَ أَغْراضٌ حرَّكَتْنِى ، وإباءٌ[١٤] جَمَحَ بِى[١٥] ، وغَرامٌ سالَ عَلَى قَلْبِى ، فَلَمْ أَتمالَكْ[١٦] أَنْ أَهَبْتُ[١٧] ، فَحَرَّكْتُ بهِ جَرْسِى[١٨] ، أَوْ هَتَفْتُ[١٩] فسَرَّيْتُ[٢٠]

---

(١) جفا : غلظ وخشن .

(٢) نبا : تجافى وبعد .

(٣) العوذة : الرقية ، (بضمّ فسكون فيهما) .

(٤) ريعان كل شيء : أوله .

(٥) الفتوّة : الشباب .

(٦) القريحة : الطبع .

(٧) اللهج بالشيء : الولوع به . (وبابه طرب)

(٨) الهديل (فيما تزعم العرب) : أب للحمام مات عطشاً ، أو ضيعة ، أو صاده جارح من الطير ؛ فما من حمامة إلا وهى مولعة به ، تبكى عليه .

(٩) العديل : النظير والمثل والشبيه .

(١٠) التذرّع : التوسّل .

(١١) إلى وجه أنتويه : إلى عرض من أعراض الدنيا أقصده .

(١٢) الغنم (بضمّ فسكون) : ما يفوز به الإنسان بلا مشقّة .

(١٣) أحتويه : أناله ، وأظفر به .

(١٤) الإباء: مصدر أبى يأبى (بالفتح فيهما) : أى امتنع ، والمراد بالإباء (هنا) : النخوة ، وغلبة الطبع .

(١٥) جمح بى : غلبنىْ .

(١٦) لم أتمالك : لم أتماسك ، أى لم أستطع حبس نفسى ، وصرفها عن هذا الأمر .

(١٧) أهبت : تأهّبت وتهيّأت واستعددت .

(١٨) الجرس : الصوت .

(١٩) هتفت : من الهتاف (بضم الهاء) وهو الصوت .

(٢٠) سريت به عن نفسى : أرحت بإنشاد الشعر نفسى ، وكشفت عنها الهمّ .

بِه عَنْ نَفْسِى ، كما قلتُ :

تَكَلَّمتُ كالماضِينَ قَبْلِى بِمَا جَرَتْ   بِهِ عادَةُ الإنسانِ أَنْ يَتَكَلَّمَا
فلا يَعْتَمِدْنِى بالإساءَةِ غافِلٌ   فلا بُدَّ لابْنِ الأَيْكِ أَنْ يَتَرَنَّمَا[١]

وقَدْ يَقِفُ الناظِرُ فى دِيوانِى هذا على أَبياتٍ قُلْتُها فى شَكْوَى الزمانِ ، فَيَظُنُّ بِى سُوءًا مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ[٢] يُجِيلُها[٣] ، ولا عِذْرَةٍ[٤] يَسْتَبِينُها[٥] ، فإنِّى إنْ ذَكَرْتُ الدَّهْرَ فإنَّما أَقْصِدُ بِهِ العالَمَ الأَرْضِىَّ لِكَوْنِهِ فِيه ، مِنْ قَبيلِ ذِكْرِ الشىْءِ باسْمِ غَيْرِهِ لِمُجاوَرَتِهِ إيَّاهُ ، كقولِهِ تعالى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[٦]) أى أَهْلَ القَرْيَةِ ، وكَما قالَ أَبُو كَبِيرٍ عامِرُ بنُ حُلَيْسٍ الْهُذَلِىُّ :

عَجِبْتُ لِسَعْىِ الدَّهْرِ بَيْنِى وَبَيْنَها   فَلَمَّا انْقَضَى ما بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ[٧]

فإنَّهُ أَرادَ بسَعْىِ الدَّهْرِ سَعْىَ أَهْلِ الدَّهْرِ بالنَّمائِمِ[٨] والوِشَاياتِ[٩] ، فلَمَّا انْقَضَى ما كانَ بَيْنَهُما مِنَ الوَصْلِ ، سَكَنُوا وتَرَكُوا السِّعَايَةَ ،

(١) لا يعتمدنى : لا يقصدنى . والأيك : الشجر الملتف الكثير ، الواحدة أيكة ، وكنى بابن الأيك عن الطيور المغردة . ويترنم : يغرد ويغنى .

(٢) رويّة : تفكير وتدبر .

(٣) يجيلها : يديرها .

(٤) العذرة (بكسر فسكون) : المعذرة .

(٥) يستبينها : يتبينها ويستوضحها . وإنما يعتذر البارودى عن ذم الدهر وشكواه لما روى من قول النبى صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله تعالى » .

(٦) الآية ٨٢ من سورة يوسف .

(٧) الذى حققناه أن هذا البيت لأبى صخر عبد الله بن سلم السهمى ، أحد بنى هذيل بن مدركة ، وهو شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية .

(٨) النمائم : جمع نميمة ، اسم من نمّ الإنسان الحديث نمًّا (من بابى قتل وضرب) : أى سعى به ليوقع فتنة أو وحشة . أو رفعه إشاعة له وإفساداً . والنم أيضاً : تزيين الكلام بالكذب .

(٩) الوشايات : جمع وشاية ، وهى النميمة والسعاية والإفساد بين الناس .

ولهذا أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ .

لا أَقُولُ ذلك تَبَرُّؤًا مِنَ الوَهَمِ[١] ، ولا اعْتِمادًا عَلَى صِحَّةِ الْفَهَم ، فإنَّ المَرْءَ وإنْ كَثُرَ إحْسَانُهُ ، لا يَسْلَمُ مِنَ الزَّلَّةِ[٢] لِسَانُهُ ؛ وقَلَّ مَنْ تَوَغَّلَ[٣] فى حَرَجاتِ[٤] الْقَرِيضِ[٥] ، فَنَجا قَبْلَ أَنْ يَغَصَّ[٦] بالْجَرِيضِ[٧] ، وَلَقَدْ ذَكَرْتُ مَرَّةً قَوْلَ أَبِي المِنْهالِ بنِ بُقَيْلَةَ الأَكْبرِ[٨] .

وإنَّما الشِّعْرُ لُبُّ المرءِ يَعْرِضُهُ ... عَلَى المَجالِسِ إنْ كَيْساً وإنْ حَمِقَا[٩]

وإنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قائِلُهُ ... بَيْتٌ يُقالُ إذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

ثُمَّ عَرَضَ[١٠] لى قَوْلُ الْحُطَيْئَةِ[١١] :

الشِّعْرُ صَعْبٌ وطويلٌ سُلَّمُهْ ... إذا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِى لا يَعْلَمُهْ

(١) الوهم (بفتحتين) : الغلط .

(٢) الزلة : الخطأ .

(٣) توغّل : دخل وأمعن .

(٤) الحرجات : جمع حرجة (بفتح الحاء والراء) : وهى المكان الضيق ، الكثير الشجر .

(٥) القريض : الشعر .

(٦) غصّ الإنسان بالطعام والشراب (من باب تعب) : شجى به (وزان رضى) أى اعترض فى حلقه .

(٧) الجريض: الريق . والمراد بقوله « قبل أن يغصّ بالجريض » : قبل أن يصيبه التقصير والعىّ .

(٨) اسمه بقيلة الأكبر أبو المنهال : شاعر أشجعى إسلامى ، كان فى زمن عمر بن الخطاب .

(٩) لبّ المرء : عقله . والمراد : أن الشعر يدلّ على عقل الشاعر ووجدانه وثقافته وتجاربه وذوقه ، ويصوّر نفسه وتفكيره . . . إلخ . وكيس (بفتح فسكون) : صفة من الكياسة (بكسر الكاف)، وهى الفطانة والفهم ورجحان العقل . ومثلها كيس (بكاف مفتوحة وياء مشددة مكسورة) وحمق (بفتح فكسر) : أحمق ، وهما صفتان من الحمق (بضم فسكون) : وهو قلة العقل أو فساده ، فالحمق ضد الكياسة .

(١٠) عرض : ظهر وبدا .

(١١) هو أبو مليكة جرول الحطيئة العبسى : شاعر مشهور من فحول المخضرمين ، كان هجّاءً مداحاً ، وكان جشعاً سئولا ملحفاً ضعيف الدين ، وقد عمّر طويلا ، ومات سنة ٥٩ هـ .

زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهْ   والشِّعْرُ لا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ[١]

* يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ[٢] *

فَعَزَمْتُ عَلَى الإِقْصارِ[٣] قَبْلَ الإِحْصارِ[٤] تفادِياً[٥] مِنْ خَطَايا رُبَّما عَرَضَ[٦] أَو ناقِدٍ رُبَّما اعْتَرَضَ ، بَيْدَ أَنِّي راجَعْتُ المَخِيلَةَ[٧] لِأَسْبُرَ[٨] هذه الدَّخِيلَةَ[٩] ، عالِمًا أَنَّ للنفسِ طَفْرَةً[١٠] ، ولِلْوَهْمِ عِنْدَ التَّوَجُّسِ[١١] نَفْرَةً[١٢] فأَشْفَقْتُ مِنْ هذا العَزْمِ ، بعدَ الإِصْرارِ[١٣] والجَزْمِ[١٤] ، وَلَسْتُ بِأَوَّلِ مَنْ عَدَلَ عَنْ رَأْيِهِ ، وَثابَ[١٥] عَنْ مُتَابَعَةِ وَأْيِهِ[١٦] ، فهذا عُمَرُ بنُ

---

(١) زلت : سقطت . والحضيض : قرار الأرض عند أسفل الجبل . ويسطيعه : يستطيعه ويطيقه . ويظلمه : يتعمَّل فيه ويتكلف ، ويضعه فى غير موضعه ، ويجرى فيه على غير طبعه .

(٢) فيعجمه (برفع المضارع) أى فهو يعجمه ، أو فيقع موقع الإعجام . والإعراب : الإفصاح والإظهار والإبانة ، وضده الإعجام .

(٣) أقصر عن الشىء : كفَّ عنه مع القدرة عليه .

(٤) الإحصار : العىّ والعجز .

(٥) تفادى فلان من كذا تفادياً : تحاماه ، وانزوى عنه .

(٦) عرض : بدا وظهر .

(٧) المخيلة (هنا) : الظن والفكرة ، ويريد أنه راجع نفسه فى هذا الأمر .

(٨) لأسبر : لأختبر .

(٩) الدخيلة : النية .

(١٠) الطفرة : الوثبة .

(١١) التوجس : التسمّع إلى الصوت الخفىّ ؛ من خوف أو نحوه .

(١٢) نفرة : اسم مرة من النفور .

(١٣) الإصرار : مصدر أصر فلان على الأمر : أى عزم عليه وأقام ودام وتعمد .

(١٤) الجزم : مصدر جزمت الشىء (من باب ضرب) ، أى قطعته قطعاً لا عودة فيه ، ولا تردّد .

(١٥) ثاب : رجع .

(١٦) الوأى : (بفتح فسكون) : الوعد الذى يوثقه المرء على نفسه .

أَبِي رَبِيعَةَ[١]، لم يُطِقْ أَنْ يُغالِبَ الطَّبِيعَةَ ، وَقَدْ كانَ رَكِبَ مِنْ قُحْمَةِ[٢] اليمينِ عَقَبَةً ، أَلاَّ يَلُوكَ[٣] بيْتاً إِلَّا أَعْتَقَ رَقَبَةً[٤] ، فلم يَلْبَثْ أَنْ هاجَ بِهِ الْحَنِينُ[٥] ، وعَلِقَ بِمَدارِجِ[٦] أَنْفاسِهِ الْأَنِينُ ، فَقَالَ كَلِمَتَهُ[٧] الَّتِي أَوَّلُها :

تَقُولُ وَلِيدَتِي لَمَّا رَأَتْنِي طَرِبْتُ ، وكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينا[٨]

ثُمَّ أَعْتَقَ لِكُلِّ بَيْتٍ عَبْدًا ، ولم يَجِدْ مِنَ الْمَقَالِ بُدًّا ؛ وَلَا بِدْعَ[٩] فَلِلْإِنسان فُتُونٌ[١٠] بِشِعْرِهِ ، وَوَلُوعٌ بِبَنَاتِ فِكْرِهِ ، وَلَوْلَا ذلك ما دَوَّنَ النَّاسُ أَشْعَارَهُمْ ، ولا اتَّخَذُوا حِلْيَةَ الْأَدَبِ شِعارَهُمْ[١١] ، كَيْفَ لا ؟ وبَقَاءُ الذُّكْرةِ[١٢]

---

(١) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي : من أشعر قريش ، ومن أرقّ أصحاب الغزل ، ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضى الله عنه (عام ٢٣ هـ — ٦٤٤ م) ، وشبّ فى نعيم وترف ، وقال الشعر صغيراً ، فسلك فيه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء فى أسلوب يغلب عليه القصص ، ولسهولة شعره ، وشدة تأثيره تغنى به أهل الخلاعة واللهو ، وقد مات محترقاً سنة ٩٣ هـ .

(٢) القحمة (بضم فسكون) : الأمر الشاقّ .

(٣) يلوك : المراد يقول وينطق .

(٤) أعتق رقبة : منح أحد عبيده أو إمائه السراح والحريّة .

(٥) الحنين : الشوق ، والمراد : توقان نفسه إلى قول الشعر .

(٦) المدارج : جمع مدرجة أو مدرج (بفتح فسكون ففتح) وهو المسلك والطريق . والمراد أن الحنين إلى قول الشعر قد هاج شاعريته ، واستولى عليه ، وغلبه فلم ير بداً من قرض الشعر وإنشاده .

(٧) كلمته : المراد قصيدته .

(٨) وليدتى : جاريتى . والطرب : خفة تصيب من يشتدّ به الفرح أو الحزن . وأقصرت : كففت وامتنعت ، أى عن قول الشعر ، وبعد هذا البيت :

أراك اليوم قد أحدثت أمراً وهاج لك الهوى داء دفينا

(٩) لابدع : المراد لا غرابة ، ولا عجب .

(١٠) فتون وولوع : إعجاب وإغرام وتعلّق شديد .

(١١) الشعار (بكسر الشين) : ما تحت الدثار من اللباس . والشعار أيضاً : العلامة .

(١٢) الذكرة (بضمّ فسكون) : الصيت والثناء .

حَياةُ الأَبَدِ(١) ، وحُبُّ الخُلُودِ(٢) أطْمَعَ لُقْمانَ فى لُبَدِ(٣) ، وإنِّى وإنْ لم أَكُنْ مِنْ فُرْسانِ(٤) هذهِ الغارَةِ(٥) ، ولا مِنْ رُماةِ الحَدَقِ(٦) فى مِثْلِ هذه القارَةِ(٧) ، فالتَّخَلُّقُ بأَخْلاقِ الكِرامِ مَحْمَدَةٌ ، والتَّعَلُّقُ بِأَذْيالِ الخُمُولِ مَفْسَدَةٌ ، ولِلهِ دَرُّ مَنْ قال :

عَلَيَّ السَّعْىُ فى طَلَبِ المَعالِى ... وَلَيْسَ عَلَيَّ إدْراكُ المَرامِ(٨)

واللهُ أَسأَلُ أنْ يُلْهِمَنِى الصَّوابَ ، ولا يَحْرِمَنِى الثَّوابَ ، إنَّهُ أَكْرَمُ مَسْئُولٍ ، وأَفْضَلُ مَأْمُولٍ ، آمين .

---

(١) حياة الأبد : حياة الدهر والخلود .

(٢) الخلود : الدوام والبقاء .

(٣) لبد : آخر نسور لقمان، ظن أنه لبد (من بابى قعد وفرح) أى أقام وخلد فلا يموت . ولقمان هذا : رجل مؤمن من قوم عاد . قيل : إنه عمر طويلا ، واختار أن يبقى فى الدنيا بقاء سبعة أنسر ، كلما هلك نسر خلفه نسر آخر ، وكان لبد آخر هذه النسور ، فكان لقمان يطمع فى خلود ذلك النسر ليبقى حيًّا ببقائه .

(٤) الفرسان : جمع فارس ، وهو راكب الفرس .

(٥) الغارة : الخيل المغيرة المسرعة ، أو القوم يهجمون على غيرهم .

(٦) الحدق : جمع حدقة (بفتحتين) ، وهى من العين سوادها الأعظم . ورماة الحدق هم المهرة فى النضال .

(٧) القارة : الأرض ذات الحجارة السود . وقوم رماة من العرب . ومن أمثالهم « أنصف القارة من راماها » .

(٨) المرام : المطلب والمراد .

/ قافية الهمزة

قال فى النَّسيب* :

صِلَةُ الْخَيَالِ عَلَى الْبِعادِ لِقَاءُ ... لَوْ كانَ يَمْلِكُ عَيْنِيَ الْإِغْفَاءُ[1]
يا هاجِرِى مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ فى الْهَوَى ... مَهْلًا ؛ فَهَجْرُكَ والْمَنُونُ سَواءُ[2]
أَغْرَيْتَ لَحْظَكَ بِالْفُؤَادِ فَشَفَّهُ ... وَمِنَ الْعُيُونِ عَلَى النُّفُوسِ بَلاءُ[3]
هِيَ نَظْرَةٌ ، فامْنُنْ عَلَيَّ بِأُخْتِها ... فالْخَمْرُ مِنْ أَلَمِ الْخُمارِ شِفَاءُ[4]
أَنا مِنْكَ مَطْوِيُّ الْفُؤَادِ عَلَى جَوًى ... لَوْلَا الدُّمُوعُ ذَكَتْ بِهِ الْحَوْبَاءُ[5]
لا أَنْتَ تَرْحَمُنِي ، ولا نارُ الْهَوَى ... تَخْبُو ، وَلَا لِلنَّفْسِ عَنْكَ عَزاءُ[6]
فانْظُرْ إِلَيَّ تَجِدْ خَيالَةَ صُورَةٍ ... لم يَبْقَ فيها لِلحياةِ ذَمَاءُ[7]

---

* نسب الشاعر بالمرأة (كضرب) ينسب نسيباً : شبّب بها فى شعره ، وعرّض بهواها وحبها . وهذه القصيدة على وزن وروىّ قصيدة أبى الطيب المتنبى فى مدح أبى على الأوارجىّ الكاتب ، التى أولها :

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء * إذ حيث كنت من الظلام ضياء

(١) يريد بالخيال : طيف الحبيب . والبعاد(بكسر الباء) : البعد . والإغفاء : النعاس .

(٢) الهوى : الحب . والمنون : الموت .

(٣) أغريت : أولعت . واللحظ : النظر بمؤخر العين ، والمراد النظرة الفاتنة الساحرة . وشفه : هزله وآلمه . والبلاء : الفتنة والعذاب .

(٤) منّ عليه بالشيء : أنعم عليه به . والخمار (بضم الخاء) : ما يصيب المخمور من الصداع وأذى الخمر .

(٥) الجوى : شدة الوجد بالمحبوب . وذكت : اشتعلت وتوقدت واحترقت ، والمراد هلكت ، وأصله من ذكت النار إذا اشتد لهبها . والحوباء : النفس .

(٦) تخبو : يخمد لهبها ويسكن . وعزاء : صبر وسلوان .

(٧) الخيالة : الطيف ، والصورة . والذماء (بفتح الذال) : الحركة ، وبقية النفس .

رَقَّتْ لِىَ الْوَرْقَاءُ فِى عَذَبَاتِهَا وبَكَتْ عَلَىَّ بِدَمْعِهَا الْأَنْدَاءُ(٨)
وتَحَدَّثَتْ رُسُلُ النَّسِيمِ بِلَوْعَتِى فَلِكُلِّ غُصْنٍ نَحْوَهَا إِصْغَاءُ(٩)
كَلَفٌ تَنَاقَلَهُ الْحَمَامُ عَنِ الصَّبَا فَصَبَتْ إِلَيْهِ الْغِيدُ والشُّعَرَاءُ(١٠)
فَبِقَلْبِ كُلِّ فَتًى غَرَامٌ كَامِنٌ وبِعِطْفِ كُلِّ مَلِيحَةٍ خُيَلَاءُ(١١)
فَدَعِ التَّكَهُّنَ يا طَبِيبُ ، فإِنَّمَا دائِى الْهَوَى ، ولِكُلِّ نَفْسٍ داءُ(١٢)
أَلَمُ الصَّبابَةِ لَذَّةٌ تَحْيَا بِها نَفْسِى ، وَدَائِى لَوْ عَلِمْتَ دَواءُ(١٣)
وبِمُهْجَتِى رَشَئِيَّةٌ مِنْ دُونِها أُسُدٌ ، لهَا قَصَبُ الرِّماحِ أَبَاءُ(١٤)
هَيْفَاءُ مالَ بِهَا النَّعِيمُ ، فَخَطْوُها دُونَ الْقَطاةِ ، ونُطْقُها إِيماءُ(١٥)
تَرْنُو بِأَحْوَرَ ، لَوْ تَمَكَّنَ لَحْظُهُ مِنْ صَخْرَةٍ لَارْفَضَّ منها الماءُ(١٦)

---

(٨) الورقاء : الحمامة فى لونها بياض إلى سواد . والعذبات : الأغصان .والأنداء : جمع ندى وهو المطر .

(٩) اللوعة : حرقة فى القلب، وألم من حب ونحوه . و إصغاء : ميل واستماع .

(١٠) كلف : ولوع وعشق . والصبا : الريح تهب من مطلع الشمس عند العرب، وهى أحب الرياح إليهم . وصبت : حنت واشتاقت . والغيد : جمع غيداء : وهى المرأة الناعمة المتثنية ليناً .

(١١) كامن : خفى مكتوم . والعطف : الجانب . والخيلاء : العجب والكبر .

(١٢) تكهن له : قضى له بالغيب .

(١٣) الصبابة : الشوق ، أو رقته ، أو رقة الهوى .

(١٤) المهجة : دم القلب، أو الروح ، والمراد: أنه يفديها بنفسه ، أو أن صورتها وحبها ملء قلبه . ورشئية : نسبة إلى الرشأ (بفتحتين) وهوالظبى : أى الغزال إذا قوى ومشى مع أمه، وتشبه به الحسناء فى جمال العينين والجيد والرشاقة ولطف الحركة . والأباء (كسحاب) : الأجمة .

ومعنى البيت : أن الشاعر ا‌ـت بقلبه محبوبة شبيهة بالظبى ، يحول بينه وبينها حراس أيقاظ شداد كالآساد ؛ يصونونها فى شبه أجمة من الرماح .

(١٥) هيفاء: ضامرة البطن، رقيقة الخاصرة. ومال بها: غلبها . والقطاة: واحدة القطا، وهو نوع من الحمام . وإيماء : إشارة.

(١٦) ترنو بأحور : تديم النظر بطرف أحور . وأحور : صفة من الحور (بفتحتين) وهو شدة بياض العين فى شدة سوادها . وارفض : خرج وترشش .

حَكَمَ الجَمالُ لهـا بِما تَخْتــارُهُ ... فَتَحَكَّمَتْ في الناسِ كيفَ تَشاءُ(١٧)
غَضِبَتْ عَلَيَّ ، وما جَنَيْتُ ورُبَّما ... حَمَلَ الْمَشُوقُ الذَّنْبَ وهْوَ بَراءُ(١٨)
طافَ الوُشاةُ بها ، فكان لِقَوْلِهِمْ ... في مِسْمَعَيْهـا رَنَّةٌ وحُـداءُ(١٩)
لَوْلَا النَّميمَةُ لم يَقَعْ بَيْنَ امْرِئٍ ... وأَخِيهِ مِنْ بَعْدِ الْوِدادِ عِداءُ(٢٠)
أَشَقِيقَةَ الْقَمَرَيْنِ ! أَيُّ وَسِيلَةٍ ... تُدْنِي إليكِ ؟ فَلَيْسَ لِي شُفَعاءُ(٢١)
جُودِي عَلَيَّ وَلَوْ بِوَعْدٍ كاذِبٍ ... فالْوَعْدُ فيهِ تَعِلَّةٌ ورَجاءُ(٢٢)
وَثِقِي بِكِتْمانِ الْحَدِيثِ ؛ فإنَّما ... شَفَتايَ خَتْمٌ ، والْفُؤادُ وِعاءُ(٢٣)
لا تَرْهَبِي قَوْلَ الْوُشاةِ ؛ فإنَّهُمْ ... قَدْ أَحْسَنُوا في الْقَوْلِ حِينَ أَساءُوا(٢٤)
زَعَمُوكِ شَمْساً لا تَلُوحُ بظُلْمَةٍ ... ولِقَـوْلِهِمْ عِنْدِي يَدٌ بَيْضاءُ(٢٥)
فَعَلَامَ تَخْشَيْنَ الزِّيارَةَ بعدَما ... (أَمِنَ ازْدِيارَكِ في الدُّجَى الرُّقَباءُ)(٢٦)
هِيَ زَلَّةٌ في الرأْيِ مِنْهُمْ أَعْقَبَتْ ... نَفْعًا ، كَذلِكَ تَفْعَلُ الْجُهَلاءُ(٢٧)

---

(١٨) المشوق : المشتاق .

(١٩) الوشاة : جمع واش . وهو من يسعى بالفساد والتفرقة بين الناس . والمسمعان : الأذنان . والرنّة : الصوت . والحداء (في الأصل) : غناء الحادي ، وهو من يسوق الإبل ويحثها على السير ، والمراد أنها تأثرت بقول الوشاة .

(٢٠) النميمة : السعاية والوشاية والإفساد ، وهي اسم من نم الرجل الحديث (من بابي قتل وضرب) : أي سعى به ليوقع فتنة أو وحشة . والوداد : المودة والحب .

(٢١) القمران : الشمس والقمر . وتدني : تقرّب . وشفعاء : جمع شفيع ، صفة من الشفاعة .

(٢٢) التعلة : ما يتعلل به الإنسان ، أي يتشاغل به ويتلهّى .

(٢٤) لا ترهبي : لا تخافي . وحين أساءوا : أي حين قصدوا الإساءة إلينا ، والتفرقة بيننا .

(٢٥) الزعم : القول ، والإخبار ، والظنّ . وزعموك شمساً : ظنّوك شمساً . وتلوح : تبدو وتظهر . واليد : النعمة والصنيعة . وبيضاء : ظاهرة مشهورة ، ومعنى لا تلوح بظلمة : أنها إذا ظهرت لا يكون معها ظلام ، لأنها مشرقة مضيئة كالشمس .

(٢٦) الازديار : الزيارة . والدجى : جمع دجية (بضم فسكون) وهي ظلمة الليل . والرقباء : جمع رقيب ، وهو الحافظ والناظر والحارس ، والشطر الثاني مطلع قصيدة أبي الطيب التي أشرنا إليها في ص ٦٥ .

(٢٧) زلة : سقطة ، اسم مرة من الزلل ، وزل في المنطق والطين ونحوهما : زلق (بوزن تعِب) .

كَيْدُ الْغَبِيِّ مَساءَةٌ لِضَمِيرِهِ وَلِمَنْ يُحاوِلُ كَيْدَهُ إِرْضاءُ(٢٨)
والناسُ أَشْباهٌ ، ولكِنْ فَرَّقَتْ ما بَيْنَهُمْ فى الرُّتْبَةِ الآراءُ(٢٩)
والنَّفْسُ إِنْ صَلَحَتْ زَكَتْ ، وَإِذا خَلَتْ مِنْ فِطْنَةٍ ، لَعِبَتْ بِها الأَهْواءُ(٣٠)
لَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الرِّجالِ تَفاوُتٌ ما كانَ فيهِمْ سادَةٌ ورِعاءُ(٣١)
ولقَدْ بَلَوْتُ النَّاسَ فى أَطْوارِهِمْ ومَلِلْتُ حتَّى مَلَّنِى الإِبْلاءُ(٣٢)
فإِذا الْمَوَدَّةُ خَلَّةٌ مَكْذُوبَةٌ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ ، والوَفاءُ رِياءُ(٣٣)
كَيْفَ الْوُثُوقُ بذِمَّةٍ مِنْ صاحِبٍ وَبِكُلِّ قَلْبٍ نُقْطَةٌ سَوْداءُ(٣٤)
لَوْ كَانَ فِى الدُّنْيَا وِدادٌ صَادِقٌ مَا حَالَ بَيْنَ الخُلَّتَيْنِ جَفاءُ(٣٥)
فانْفُضْ يَدَيْكَ مِنَ الزَّمانِ وأَهْلِهِ فالسَّعْيُ فى طَلَبِ الصَّدِيقِ هَباءُ(٣٦)

---

(٢٨) الكيد : الخديعة والمكر . والمساءة : نقيض المسرة .

(٢٩) الآراء : جمع رأى : وهو العقيدة والمذهب والتدبير .

(٣٠) زكت : استقامت أمورها ، وصلحت أحوالها ، وتنعّمت . والفطنة : الفهم والذكاء . والأهواء : جمع هوى ، وهو ميل النفس إلى شهواتها .

(٣١) الرعاء : جمع راع ، اسم فاعل من رعى الرجل الماشية : أى سرحها .

(٣٢) بلوت الناس : خبرتهم، وعرفت أحوالهم . والأطوار : الأحوال ، مفردها طور (بفتح فسكون) . والإبلاء : مصدر أبليته ، بمعنى بلوته وامتحنته .

(٣٣) الخلة : الخصلة (بفتح الخاء فيهما) . والبرية : الخلق (بفتح فسكون) ، والمراد الناس. ورياء : نفاق ، وعمل غير خالص ، وهو العمل يظهره صاحبه للناس ليروه ، ويظنوا به خيراً .

(٣٤) الذمة : العهد والأمان والضمان .

(٣٥) بين الخلّتين : بين الصديقين : مثنى خلة (بخاء مضمومة ولام مشددة) وهو الخليل والصديق . والجفاء : الجفوة والقطيعة .

(٣٦) الهباء : الشيء المنبثّ الذى يرى فى ضوء الشمس .

والمعنى : أنّ السعى فى طلب الصديق كالهباء ، لا يجدى ، ولا يفيد ؛ لعدم وجود الصديق الوفىّ الصادق .

وقال يَمْدَحُ الخديو «عَبّاس حلمى باشا الثانى» * ، ويَشْكُرُهُ عَلَى ما أَوْلَاهُ مِنْ حُسْنِ الرِّضَا ، وذلِكَ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ «سَرَنْدِيبَ» ** سنةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وثلثمائةٍ وألفٍ هجريَّة (١٣١٧هـ أواخر سنة ١٨٩٩م) :

عَبَّاسُ ، يا خَيْرَ الْمُلُوكِ عَدالَةً ... وَأَجَلَّ مَنْ نَطَقَ امْرُؤٌ بِثَنائِهِ(١)

أَوْلَيْتَنِى مِنْكَ الرِّضَا ،وجَلَوْتَ لِى ... وَجْهاً قَرَأْتُ البِشْرَ فى أَثْنائِهِ(٢)

فاسْلَمْ لِمُلْكٍ أَنْتَ بَدْرُ سَرِيرِهِ ... وعِمادُ قُوَّتِهِ ، ونَصْرُ لِوائِهِ(٣)

يأَيُّها الصَّادِى إلَى نَيْلِ الْمُنَى ... رِدْ بَحْرَ سُدَّتِهِ تَفُــزْ بِوَلائِهِ(٤)

هُوَذَلِكَ الْمَلِكُ الَّذِى وَرِثَ الْعُلا ... عَنْ نَفْسِهِ شَرَفاً ، وعَن آبائِهِ(٥)

الْعَدْلُ مِنْ أَخْلاقِهِ ، والْعِلْمُ مِنْ ... أَوْصافِهِ ، والْحِلْمُ مِنْ أَسْمائِهِ(٦)

---

* الخديو «عباس حلمى الثانى» (١٨٧٤ — ١٩٤٤) بن الخديو توفيق بن الخديو إسماعيل ابن إبراهيم بن محمدعلى رأس الأسرة المحمدية العلوية. ولى العرش وسنه ثمانى عشرة سنة بعد وفاة أبيه فى ٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٩ هـ (٧ من يناير سنة ١٨٩٢ م) . وكان طموحاً، مفتزاً بنفسه، متبرماً بالاحتلال البريطانى . ولما نشبت الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى) انتهز الإنجليز فرصة وجوده فى الآستانة «إستانبول» ففرضوا حمايتهم على مصر يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ . وفى اليوم التالى خلعوه ، وولّوا عمه الأمير «حسين كامل» الذى لقّب بسلطان مصر . وفى سويسرا أقام «عباس» أكثر مدة نفيه واغترابه . وبعد وفاته نقل جثمانه إلى مصر سنة ١٩٤٤ .

وفى بعض ما كتب عن البارودى أن الشيخ «محمد عبده» أخذ بيد صديقه الكفيف الضرير «محمود سامى البارودى» ، وصحبه إلى حضرة الخديو «عباس حلمى الثانى» ؛ فشكر له البارودى عفوه عنه ، ونظم هذا الشكر فى هذه القصيدة الهمزية القصيرة (ثمانية أبيات) . وقد فقد البارودى بصره فى أواخر أيامه بالمنفى سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩) م .

** سرنديب «سيلان» : جزيرة من أراضى الهند فى جنوبيها ، وكان الشاعر قد نفى إليها عقب الثورة العرابية فى صفر سنة ١٣٠٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) .

(١) أجل : أعظم .

(٢) أوليتنى : أعطيتنى ، وأوليته الشىء : أدنيته إليه . وجلوت : أظهرت وأوضحت ، والمراد أقبلت علىّ . وأثناء الشىء : تضاعيفه .

(٣) عماد الشىء : ما يقوم عليه ، ويُسند به . واللواء : العلم (بفتحتين) .

(٤) الصادى : العطشان . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) : وهى ما يتمناه الإنسان ويتوق إليه : ورد : أمر من ورد الإنسان الماء : إذا بلغه ووافاه . والسدة (بضم السين ، وتشديد الدال المفتوحة) : باب الدار أو فناؤها ، والمراد قصره الشبيه بالبحر . والولاء : النصرة والنعمة .

لا غَرْوَ أَنْ جَمَعَ المحَامِدَ يافِعاً   وَسَما بِهِمَّتِــهِ عَلَى نُظَــرائِهِ[٧]
فالْعَيْنُ وَهْىَ صَغيرَةٌ فى حَجْمِهَا   تَسَعُ الفَضَــاءَ بِأَرْضِهِ وَسَمائِهِ[٨]

وقال يُهَنِّئُهُ بِوَلَدِهِ الكريم الأَميرِ «محمدِ عبدِ القادرِ» سنةَ تِسْعَ عَشْرَةَ وثلثمائة وألف هجرية (١٣١٩هـ ١٩٠١م)* :

أَهِلالُ أَرْضٍ أَمْ هِلالُ سماءِ   شَمِلَ الزَّمَانَ وأَهْلَهُ بِضِيَاءِ؟[١]
بَدَرَتْ لَوامِعُ مِنْهُ شَقَّ وَمِيضُها   حُجُبَ الظَّلامِ فَماجَ فى لأْلاَءِ[٢]
وَبَدَتْ أَسِرَّتُهُ فكانتْ غُــرَّةً   لِلْمُلْكِ فَوْقَ أَسِرَّةِ الْجَوْزَاءِ[٣]
نُورٌ تَوَلَّدَ بَيْنَ بَدْرٍ طالِعٍ   فى أَوْجِ عِزَّتِهِ ، وَشَمْسِ عَلاءِ[٤]
أَكْرِمْ بِطَلْعَتِــهِ هِلالاً لم يَزَلْ   يَعْنُو إِلَيْهِ هِلالُ كلِّ لِواءِ[٥]
هُوَ مَوْلِدٌ عَمَّ (الْكِنانَةَ) نُورُهُ   فَتَباشَرَتْ بالْيُمْنِ والسَّرّاءِ[٦]
لَبِسَتْ بِهِ الدُّنيا جَمالَ شَبابِها   وتَبَرَّجَتْ كالغادَةِ الحَسْناءِ[٧]

---

(٧) لا غرو : لا عجب (وفعله من باب عَدَا) . ويافعاً : شاباً . وسما : علا وارتفع . وعلى نظرائه : على أمثاله ، ومفرده نظير .

* نظم البارودى هذه القصيدة بعد عودته من « سرنديب » بنحو سنتين .

(٢) بدرت : ظهرت فى سرعة . ووميضها : لمعانها . وماج : اهتز وتحرك أى الظلام . واللألاء : الضوء .

(٣) الأسرة: خطوط الجبهة، ومحاسن الوجه، مفردها سرار (بكسر السين) . والغرة: بياض فى جبهة الفرس ، والمراد : أن طلعة المولود كانت للملك زينة وصباحة وجمالا . وأسرة الثانية : جمع سرير . والجوزاء : برج من بروج السماء . أو نجم يبدو كالمنتطق ، والمراد بأسرة الجوزاء : منازلها فى السماء . وهذا كناية عن الرفعة والعلاء، أو المراد : محاسن وجهها على التشبيه ، وعلى هذا تكون أسرة الثانية جمع سرار أيضاً .

(٤) الأوج : الارتفاع .

(٥) يعنو : يخضع .

(٦) الكنانة (فى الأصل) : جعبة السهام (بفتح الجيم وسكون العين) ، والمراد بها مصر . وتباشر القوم : بشّر بعضهم بعضاً . واليمن : النماء والبركة .

(٧) تبرجت : أظهرت زينتها ومحاسنها . والغادة : المرأة الناعمة الليّنة .

فاهْنَأْ «بعبدِ القادرِ» الشَّهْمِ الذى ... وافاكَ يَرْفُلُ فى سَنًا وسَناءِ[٨]

واسْعَدْ بهِ وأخيهِ يابْنَ محمَّدٍ ... فى ظِلِّ مُلْكٍ وارفِ الأَفْيَاءِ[٩]

ولَسَوْفَ تَنْجُمُ أَنْجُمٌ عَلَوِيَّةٌ ... تَجْلُو ظَلامَ الشَّكِّ بالآراءِ[١٠]

مِنْهـا صُدُورُ مَحافِلٍ وجَحافِلٍ ... فى يومِ أَقْضِيَـةٍ ويومِ لِقَاءِ[١١]

وبَوارِقٌ تَنْهَلُّ فينَا بالنَّدَى ... وصَواعِقٌ تَنْقَضُّ فى الأعداءِ[١٢]

وكَأَنَّنِى بِكَ بَيْنَهُمْ مُتَرَفِّعًا ... كالْبَدْرِ بَيْنَ كَواكِبِ الْخَضْراءِ[١٣]

فانْعَمْ بِعِزِّكَ يامليكُ، ولا تَزَلْ ... تَحْوِى يَدَاكَ مَقالِدَ الْعَلْياءِ[١٤]

لازِلْتَ مَعْمُورَ الفِناءِ مُهَنَّأً ... فى نِعْمَةٍ مَوْصُولَةٍ بِبَقاءِ[١٥]

وقال بذكر أياماً مَضَتْ له بالْجِيزَةِ :

غادِ النَّدَى بالْجِيزَةِ الْفَيْحاءِ ... واحْدُ الصَّبُوحَ بِنَغْمَةِ الْوَرْقَاءِ

(٨) الشهم : الذكى الفؤاد المتوقد ، والسيد النافذ الحكم. ووافاك : أتاك . ويرفل فى ثيابه : أطالها وجرها متبختراً . والسنا (مقصوراً) : الضوء . والسناء (ممدوداً) الرفعة والعلاء .

(٩) ورف الظل (من باب وعد): اتسع وطال وامتد. والأفياء: جمع فىء (بفتح فسكون) وهو الظل.

(١٠) تنجم : تطلع ، (وبابه قعد) . وتجلو : تكشف وتوضح .

(١١) الصدور : جمع صدر (بفتح فسكون) ، وصدر كل شىء : أوله . والمحافل : جمع محفل (كمجلس) ، اسم مكان من حفل القوم (من باب ضرب) أى اجتمعوا فى المجلس . والمعنى أنهم سادة الناس ورؤساؤهم المقدمون فى كل محفل ومجتمع . والجحافل : جمع جحفل (كجعفر) وهو الجيش . والأقضية : جمع قضاء ، وهو الحكم . والمراد بيوم اللقاء : يوم الحرب .

(١٢) البوارق : جمع بارق وهو سحاب ذو برق . وتنهل : تنصب انصباباً شديداً . والندى : أصله المطر ، والمراد به الخير والفضل والعطاء . والصواعق : جمع صاعقة ، وهى نار تسقط من السماء لا تصيب شيئاً إلا دكته وأحرقته . وتنقض : تسقط .

(١٣) الخضراء : السماء .

(١٤) مقالد : جمع مقلد (بكسر فسكون ففتح) وهو المفتاح .

(١) غاد : أمر من غاداه أى باكره . والندى : المطر القليل يسقط آخر الليل ، والمراد بمغاداة الندى : التبكير والمسارعة أول النهار . والفيحاء : الواسعة . واحد : أمر من الحدو (بفتح فسكون) وهو سوق الإبل والغناء لها ، والكلام على التشبيه . والصبوح : الخمر تشرب فى الصباح . والنغمة : الصوت . والورقاء : الحمامة فى لونها بياض إلى سواد .

وَالْمَحْ بِطَرْفِكَ ما وَحَتْهُ يَدُ الصَّبا ... فَوْقَ الْغَدِيرِ تَجِدْ حُروفَ هِجاءِ(٢)

مِنْ كُلِّ حَرْفٍ فيهِ مَعْنَى صَبْوَةٍ ... تَتْلُو بِهِ الْوَرْقاءُ لَحْنَ غِنـــاءِ(٣)

مَيْدانُ سَبْقٍ لِلْخَلاعَةِ ، أَشْرَقَتْ ... فيهِ الْكُمَيْتُ بِغُرَّةٍ غَرَّاءِ(٤)

حَمْرَاءُ دارَ بِها الْحَبابُ ، كَأَنَّها ... شَفَقٌ بَدَتْ فِيهِ نُجُومُ سَماءِ(٥)

هِيَ كَالأَشِعَّةِ غَيْرَ أَنَّ ضِياءَها ... مِنْ ذاتِها ، لا مِنْ ثُقُوبِ ضِياءِ(٦)

وَإِذا رَجَعْتَ إِلى الْيَقِينِ فَإِنَّهـــا ... نارٌ تَحَلَّلَ جِسْمُها فى ماءِ(٧)

تَجْرِى فَتَفْعَلُ بِالْعُقُولِ كُئُوسُها ... ما تَفْعَلُ الأَلْحَاظُ بِالأَحْشاءِ(٨)

خَفِيَتْ عَلَى الأَحْقابِ ، فَهْىَ ذَخِيرَةٌ ... مِنْ عَهْدِ آدَمَ أُودِعَتْ بِوِعاءِ(٩)

مَحَقَ الْفَناءُ وُجُودَها ، فَتَزَايَلَتْ ... إِلَّا نَسِيماً شَفَّ عَنْ حَوْباءِ(١٠)

هِىَ جَمْرَةُ الْفُرْسِ الَّتِى سَجَدَتْ لَها ... أَمْلاكُها فى سَالِفِ الآنَاءِ(١١)

---

(٢) وحته : كتبته . والصبا : الريح تهب من مطلع الشمس .

(٣) الصبوة : جهلة الفتوة . واللحن : واحد الألحان ، وهى الأصوات المصوغة الموضوعة ، ولحن فى قراءته (من باب قطع): إذا طرّب بها وغرّد .

(٤) الكميت : الخمر فيها سواد وحمرة . والغرة : بياض فى جبهة الفرس ، والمراد الرغوة . وغراء : بيضاء مشرقة .

(٥) الحباب : الفقاقيع التى تطفو على الشراب : والشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أول الليل إلى قريب من العتمة .

(٨) الألحاظ : جمع لحظ ، مصدر لحظته ، ولحظت إليه (من باب نفع) أى نظرت إليه بمؤخر العين . ومن كلامهم : فتنته لحظاتها وألحاظها . والأحشاء : جمع حشا ، وهو ما اشتملت عليه الضلوع ، والمراد : القلوب .

يقول : إن الخمر تفعل بعقول شاربيها مثل ما تفعل نظرات الحسان فى قلوب العشاق .

(٩) الأحقاب : جمع حقب (بضم فسكون) وهو الدهر أو السنة . والذخيرة : ما يختاره الإنسان ويدّخره لوقت الحاجة . والمعنى أنها معتّقة جيّدة .

(١٠) تزايلت : تفرقت . وشف : رق فحكى ما تحته . والحوباء : النفس ، ويراد بها (هنا) : جوهر الخمر وقد رق وصفا .

(١١) جمرة النار : القطعة الملتهبة منها ، ويريد بجمرة الفرس : نارهم التى كانوا يعبدونها . والأملاك : الملوك . والآناء : الأزمان . وسالفها : ماضيها .

فانْهَضْ إلى شُرْبِ الصَّبُوحِ ، فَقَدْ بَدَا   شَيْبُ الصَّباحِ بِلِمَّةِ الظَّلْماءِ (١٢)
وَتَرَنَّمَتْ فى وَكْرِها سَحَرِيَّةٌ   تُغْنِى الْمَقَامَةَ عَنْ صَفِيرِ النَّاءِ (١٣)
وَرْقَــاءُ تَسْجَعُ فى سَمَاوَةِ أَيْكَةٍ   مَوْشِيَّةِ الْعَذَبَاتِ بالأَنْداءِ (١٤)
تَبْكِى الْهَدِيلَ وما رأَتْهُ ، فَيالَها   مِنْ ذُكْرَةٍ عَرَضَتْ بِغَيْرِ لِقاءِ (١٥)
قَدْ أَشْبَهَتْنِى فى الْهَوَى ، لَكِنَّها   لَمْ تَحْكِنِى فى لَوْعَتِى وبُكائِى (١٦)
مَالَ النَّسِيمُ بِهَا ، ومَالَ بِىَ الأَسَى   شَتَّانَ بَيْنَ نَعِيمِهَا وشَقَائِى (١٧)
أَنَا يَا حَمَامَةُ مِنْكِ أَعْلَمُ بالْهَوَى   فَدَعِى الْحَنِينَ ،فَلَسْتِ مِنْ أَكْفائِى (١٨)
إنِّى امْرُؤ مَلَكَ الودادُ قِيَــادَتِى   وجَرَى عَلَى صِدْقِ الْعُهُودِ وَفائِى (١٩)
لا أَسْتَرِيحُ إِلَى السُّلُوِّ ، ولَوْ جَنَى   خِلِّى عَلَىَّ ، ولَا أَشِينُ وَلَائِى (٢٠)

---

(١٢) الصبوح : الخمر تشرب فى الصباح . وبدا : ظهر . واللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن .

(١٣) ترنّمت : تغنّت وغرّدت . والسحرية : طائر يغرّد فى السحر (قبيل الصبح) . والمقامة : القوم . والناء : الناى ، من آلات الطرب والغناء .

(١٤) ورقاء : حمامة رمادية اللون . وتسجع : تهدل ، وتردد الصوت . والسماوة : السماء . والأيكة : شجرة ملتفة الأغصان ، كثيرة الفروع . وموشيّة : مرقومة منقوشة مزيّنة . والعذبات : الأغصان ، واحدتها عذبة (بفتح العين والذال) . والأنداء : جمع ندى : وهو البلل والمطر الخفيف .

(١٥) الهديل (فيما تزعم العرب) : جدّ للحمام مات عطشاً ، أو ضيعة ، أو صاده جارح من الطير فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه . والذكرة : اسم من ذكرت الشىء بعد النسيان أذكره ذكراً (بكسر فسكون) وذكرة (بضم فسكون) وذكرى (بكسر الذال) .

(١٦) الهوى : الحب والغرام . ولم تحكنى : لم تشبهنى . واللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حب ونحوه

(١٧) الأسى : الحزن .

(١٨) الحنين : الشوق ، وتوقان النفس . وأكفائى : نظرائى وأمثالى .

(١٩) الوداد : الحب . وملك قيادتى : تغلب علىّ ، وأصله من قاد الرجل الفرس ونحوه يقوده قوداً (من باب قال) ، وقياداً ، وقيادة : وهو أن يكون الرجل أمام الدابة آخذاً بقيادها ، أى حبلها الذى تقاد به . والعهود : جمع عهد ، وهو الموثق ، والحفاظ ، ورعاية الحرمة .

(٢٠) السلو : مصدر سلا حبيبه ، أو سلا عنه : أى نسيه ، وصبر على بعده . والخل : الصديق والحبيب . والولاء : النصرة والمودّة .

لا ذِمَّتِي رَهْنُ انْفِكَاكٍ ، وَلا يَدِي … تُلْقِي أَزِمَّةَ عِفَّتِي وَحَيَائِي (٢١)

لٰكِنَّنِي غَرَضٌ لِأَسْهُمِ حَاسِدٍ … وَارِي الْجَوَانِحِ مِنْ لَهِيبِ عِدَائِي (٢٢)

مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبٍ جَنَيْتُ ، وَإِنَّمَا … بُغْضُ الْفَضِيلَةِ شِيمَةُ الْجُهَلَاءِ (٢٣)

تَعِسَتْ مُقَارَنَةُ اللَّئِيمِ ؛ فَإِنَّهَا … شَرَقُ النُّفُوسِ ، ومِحْنَةُ الْكُرَمَاءِ (٢٤)

أنا في زَمَانٍ غَادِرٍ ، وَمَعَاشِرٍ … يَتَلَوَّنُونَ تَلَوُّنَ الْحِرْبَاءِ (٢٥)

أَعْدَاءُ غَيْبٍ لَيْسَ يَسْلَمُ صَاحِبٌ … مِنْهُمْ ، وَإِخْوَةُ مَحْضَرٍ وَرَخَاءِ (٢٦)

أَتْبِعْ بِهِمْ قَوْماً بَلَوْتُ إِخَاءَهُمْ … فَبَلَوْتُ أَقْبَحَ ذِمَّةٍ وَإِخَاءِ (٢٧)

قَدْ أَصْبَحُوا لِلدَّهْرِ سُبَّةَ نَاقِمٍ … فِي كُلِّ مَصْدَرِ مِحْنَةٍ وَبَلَاءِ (٢٨)

---

(٢١) الذمة : العهد . والأزمة : جمع زمام : وهو المقود ، أى الحبل الذى تقاد به الدابّة . ومعنى البيت : لا أضيع عهدى ، ولا أفرّط فى عفّتى وحيائى .

(٢٢) الغرض : الهدف . ووار : متّقد . والجوانح : الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر . والمعنى : أننى هدف لأذى يصيبنى من حاسد مبغض شديد البغضاء والكراهية .

(٢٣) الشيمة : الغريزة والطبيعة .

(٢٤) مقارنة اللئيم : مصاحبته . والشرق : الشجا ، والغصّة تقف فى الحلق فيشرق بها الإنسان ويغصّ . والمحنة : البلاء .

(٢٥) معاشر : جماعات من الناس ، الواحد معشر (بفتح فسكون ففتح) . والحرباء : دويبة من فصيلة الزواحف ، غريبة الشكل ، تعيش على الأشجار ، وتتلون ألواناً .

(٢٦) أعداء غيب : يتناولون الغائب بأسباب العداوة . ومحضر : مصدر ميمى : بمعنى الحضور والمشاهدة .

يقول : إنهم يضمرون البغضاء والعداوة ، ويظهرون المودّة والأخوّة ، فإذا غاب عنهم الإنسان كانوا أعداء لا يسلم من أذاهم صاحب ، وإذا حضر أو كان فى رخاء أظهروا الإخاء والمودّة .

(٢٧) بلوت : خبرت وامتحنت . والذمة : العهد والأمان .

(٢٨) السبّة (بضم السين) : من يكثر الناس سبّه . والناقم : كاره ساخط . والمحنة والبلاء : البلوى والشرّ والعذاب .

والمعنى : أنّ الناقم على الدهر يسبّ هؤلاء الناس كلما أصابته البلايا والمحن ؛ للؤمهم وغدرهم وتلوّنهم ونفاقهم وعدم وفائهم ؛ لأنهم بهذه الصفات الممقوتة يعينون الزمان على مساءة الأحرار .

وأَشَدُّ مَا يَلْقَى الْفَتَى فى دَهْرِهِ ... فَقْدُ الْكِرام ، وصُحْبَةُ اللُّؤَمَاءِ (٢٩)

شَقِيَ ابنُ آدَمَ فى الزمانِ بِعَقْلِهِ ... إنَّ الْفَضِيلَـــةَ آفَةُ الْعُقَلاءِ (٣٠)

وقال يَصِفُ أَيَّامَ الخريفِ :

تَوَازَنَ الصَّيْفُ والشِّتاءُ ... واعْتَـــدَلَ الصُّبْحُ والْمَساءُ (١)

واصْطَلَحَتْ بَعْدَ طُولِ عَتْبٍ ... بَيْنَهُمَا الأَرْضُ والسَّمَاءُ (٢)

فلا اصْطِحارٌ ، ولا اكْتِنَانٌ ... ولا ابْتِرادٌ ، ولا اصْطِلاءُ (٣)

تَبْتَهِجُ العَيْنُ فى رِياضٍ ... أَنْضَـــرَها الماءُ والْهَواءُ (٤)

---

(٣٠) الآفة : عرض يفسد ما يصيبه ، وهى العاهة. والمراد بالفضيلة : فضيلة العقل ، أو هى الفضل والخير مطلقاً .

والمعنى : أنّ العاقل يكون فى حياته رفيع الهمة ، مرهف الشعور ، دائب التفكير ، يلتزم الفضل والخير ، ويتنكّب النقص والشرّ ؛ ولهذا يشقى بسبب عقله ، وتتكدّر حياته ، ويبتلى بمعاداة الأشرار والجهال .

وقد أكثر الشعراء من التغنى بهذا المعنى ، فقال ابن المعتزّ :

وحلاوة الدنيـــا لجاهلهـــا ... ومرارة الدنيا لمن عقـــلا

وقال البحترىّ :

أرى الحلم بؤساً فى المعيشة للفتى ... ولاعيش إلا ما حباك به الجهل

وقال المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وقال غيره :

وأخو الدراية والنباهة متعب ... والعيش عيش الجاهل المجهول

(١) معنى الشطر الأول : أنّ الصيف والشتاء قد اتّزنا واعتدلا ، فلا يشكو الناس حرًّا ولا بردا . ويريد بالصبح والمساء : النهار والليل ، فهما يعتدلان فى أيام الخريف .

(٣) يريد بالاصطحار : الخروج إلى الفضاء الواسع هرباً من الحر : وهو افتعال من صحر ، ولم نجده فيما بين أيدينا من المعجمات . ويريد بالاكتنان : الاستتار بالمنازل والثياب الثقيلة ونحوها اتقاء البرد الشديد . والابتراد : مصدر ابترد الإنسان الماء ، أى صبّه على جسمه بارداً ، أو شربه كذلك ليبرّد كبده. والاصطلاء : الاستدفاء .

(٤) تبتهج : تقرّ وتسرّ . والرياض : جمع روضة (بفتح فسكون) وهى أرض ذات بقل وعشب وزهر . وأنضرها : جعلها نضيرة جميلة .

مَنابِتٌ زَرْعُهـا بَهِيـجٌ وَغَيْضَةٌ ماؤُها رَوَاءُ(٥)
للطَّيْرِ فى أَيْكِها هَدِيلٌ وللصَّبا بَيْنَهـا مُكَاءُ(٦)
تَوارَتِ الشَّمْسُ عَنْ ذَراهَا وشَبَّ مِنْ زَهْرِهـا سَناءُ(٧)
فالصُّبْحُ والظُّهْرُ والْعَشَايَا والْوَهْنُ مِنْ لَيْلِها سَوَاءُ(٨)
فَـلا ضَبَابٌ ، ولا غَمَامٌ ولا ظَلَامٌ ، ولا ضِياءُ(٩)
فَقُمْ بنا نَغْتَنِمْ شَباباً ولَذَّةً بَعْدَها فَنَاءُ(١٠)
ولا تُطِلْ فِكْرَةَ التَّمَنِّى فإِنَّهُ الْحُكْمُ والْقَضَاءُ(١١)
يُـرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مُنَاهُ (ويَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ)(١٢)

---

(٥) بهيج : حسن . والغيضة : الأجمة ، وهى الشجر الملتف الكثير . وماء رواء (بفتح الراء) : كثير مرو (بضم فسكون).

(٦) الأيك : الشجر الكثير الملتف ، الواحدة أيكة . والهديل : صوت الحمام وسجعه . والصبا (بوزن العصا) : الريح تهب من جهة الشرق . ومكاء (بضم الميم) : صفير .

(٧) توارت : احتجبت. وذراها (بفتح الذال) : شجرها ، والذرا (فى الأصل) : كل ما يستذرى به الإنسان : أى يستتر ويستظل . وشب : توقد واشتعل . وسناء : ضوء .

يقول : إن هذه المنابت والرياض إذا احتجبت عنها الشمس ظلت مضيئة بأنوار زهرها .

(٨) العشايا : جمع عشية ، وهى الوقت من المغرب إلى العتمة . والوهن : نصف الليل ، أو حين يدبر . والمعنى : أن جوها معتدل فى جميع ساعات اليوم.

(٩) يقصد بالشطر الثانى : أن هذه الرياض لكثرة أشجارها ، وامتداد ظلها ، صارت كالليل المقمر ، ليس بالمظلم ، ولا بالشديد الضوء .

(١٠) يحضه على اغتنام فرصة الشباب ، والتمتع بلذات الحياة فى إبانه ، قبل فواتها بفواته.

(١١) ينهاه عن أن يطيل التفكير فى الأمانى البعيدة ، ويشغل قلبه بها ، لأن المرء لا ينال إلا ما يجرى به حكم الله تعالى وقضاؤه.

وهذا البيت متصل بما قبله ؛ لأن التفكير الطويل من شأنه أن يحرم صاحبه لذات الحياة .

(١٢) مناه : أمانيه وآماله ، جمع منية (بضم فسكون) وهى اسم من تمنيت الشىء ، أى أردته ، وقدرت حصوله ، وتاقت نفسى إليه . والشطر الثانى من هذا البيت اقتباس من القرآن الكريم . من الآية رقم ٢٧ من سورة إبراهيم .

وقال يَصِفُ منزِلا نَزَلَه فى بعضِ نواحِي «قَنْدِيَة» بجزيرة «أَقْرِيطِش *»
وهى من لُزُوم ما لا يَلْزَم ** :

وخَمِيلَةٍ بَكَرَتْ سَمَاوَةُ أَيْكِها ... تَحْمِي الْهَجِيرَ عَنِ النُّفُوسِ وتَدْرَا (١)
تَسْتَنُّ فيها الرِّيحُ بَينَ مَنابِتٍ ... خَضْراءَ، يَغْشاها الْجبانُ فَيَجْرُو (٢)
تَسْتَوْقِفُ الأَبْصارَ فى غُدْرانِها ... صُــوَرٌ تَزُولُ مَعَ النَّسِيمِ وتَطْرَأُ (٣)
يَنْسَى بِها الْمَوْتُورُ ما فى نَفْسِهِ ... طَرَباً، ويَنْزِلُها السَّقِيمُ فَيَبْرَأُ (٤)
فالْوُرْقُ تَهْتِفُ، والرَّبارِبُ تَرْتَعِي ... والْعِينُ تَبْغَمُ، والبلابِلُ تَصْرَأُ (٥)

* أقريطش (كريد) : جزيرة عظيمة مشهورة ببحر الروم فى الجنوبى الشرقى من بلاد اليونان . وقندية : من مدن هذه الجزيرة فى شمالها .

** التزم الشاعر الراء قبل روىّ هذه القصيدة ، وهو ما لا تحتمه قواعد القافية .

(١) الخميلة : الشجر المجتمع الكثيف ، أو الموضع الكثير الشجر . وبكرت (من باب دخل) : سارعت من أوّل النهار . والسماوة : السماء . والأيك : الشجر الكثير الملتف ، الواحدة أيكة . وتحمى : تمنع وتدفع . والهجير : شدة الحر . وتدرأ (من باب قطع) : تصدّ وتدفع . والمعنى : أنها خميلة وارفة الظل ، طيبة الهواء ، لا يرى الإنسان فيها شمساً ولا زمهريراً .

(٢) تستن : تقبل وتدبر . ويغشاها : يجيئها .
والمعنى : أنّ هذه الخميلة هواؤها طلق لطيف ، ومنظرها حسن بهيج تطمئن فيها القلوب .

(٣) الغدران : جمع غدير ، وهو (فى الأصل) قطعة من الماء غادرها السيل ، والمراد : قنواتها ومجارى مياهها . وتطرأ (من بابى قطع وخضع) : تحصل وتوجد .
يشير إلى أنّ النسيم إذا هب محا خيال الأشجار من الماء ، فإذا سكن عاد هذا الخيال .

(٤) يريد بالموتور : الحزين ، أو المغيظ المحنق . والطرب (هنا) : خفّة تصيب من يشتدّ به السرور . والسقيم : المريض .

(٥) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة فى لونها بياض إلى سواد (من باب ضرب) : وتهتف : تسجع وتهدل . والربارب : جمع ربرب (بفتح فسكون ففتح) : وهو القطيع من بقر الوحش . وترتعى : ترعى وتسرح . والعين (بكسر العين) : بقر الوحش ، والظباء ونحوها . وتبغم : مضارع بغمت الظبية (كمنع ونصر وضرب) : أى صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها . وتصرأ : تصيح .

فَنَبــاتُها عَمَّا يَعِيبُ مُنَزَّهٌ وهواؤُها مِمَّا يَشِينُ مُبَرَّأُ(٦)
شَجْرَاءُ تَسْلُكُهــا السَّمُومُ فَتَغْتَدِى رَهْوًا ، وِيَسْكُنُها الْهَجِيرُ فَيَمْرَأُ(٧)
فَتَحَ الرَّبِيعُ بِها مَدَارِسَ بَهْجَةٍ لِلْعَيْنِ فيها بَهْجَةٌ لا تَضْرَأُ(٨)
فالرِّيحُ تكتبُ ، والْغَدِيرُ صَحِيفَةٌ والسُّحْبُ تَنْقُطُ ، والحمائمُ تَقْرَأُ(٩)
صُوَرٌ تَدُلُّ عَلَى حَكِيمٍ صــانِعٍ واللهُ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَيَبْرَأُ(١٠)

وقال وهى من لُزُومِ ما لا يَلْزَمُ *

أَلاَ عاطِنِيها بِنْتَ كَرْمٍ تَزَوَّجَتْ عَلَى نَغَماتِ الْعُودِ بِابْنِ سَمَاءِ(١)
أَتَتْ حِقَبٌ مِنْ دُونِها ، فَتَهَدَّمَتْ سِوَى رَدْعِ لَوْنٍ ، أَوْ رَفِيفِ ذَمَاءِ(٢)
إِذا اتَّقَدَتْ فى الْكَأْسِ خِلْتَ وَمِيضَهَا عَلَى وَتَراتِ الْكَفِّ نَضْحَ دِماءِ(٣)
فَهَاتِ وخُذْواشْرَبْ ودُرْواسْقِ وارْتَجِعْ إِلَى الدَّوْرِ مِنْ بَدْءٍ عَلَى النُّدَمَاءِ(٤)

---

(٦) يشين : يعيب (وهما من باب باع) .

(٧) شجراء : كثيرة الشجر . وتسلكها : تسير فيها . والسموم : الريح الحارة . وتغتدى : تصير . ورهواً : معتدلة لطيفة . والهجير : شدّة الحرّ . ويمرأ : يعتدل ويحسن ، وأصله من مرأ الطعام (مثلثة الراء) مراءة ، فهو مرىء ، أى سائغ طيّب هنىء حميد المغبّة .

(٨) بهجة الأولى : معناها الحسن والجمال . والثانية : بمعنى الفرح والسرور . وتضرأ : تخفى .

(١٠) يبرأ : يخلق .

* التزم الشاعر الميم قبل الردف (والردف بكسر الراء وسكون الدال : حرف المدّ الذى قبل الروىّ) فروىّ هذه القصيدة الهمزة ، والردف الألف قبلها ، والتزام الميم قبل الألف لا تحتمه قواعد القافية .

(١) عاطنيها : أى الخمر ، والمعاطاة : الإعطاء والمناولة . وكنى ببنت الكرم عن الخمر . وتزوّجت : خلطت . وكنى بابن السماء عن الماء . يقول : اسقنى على نغمات العود خمراً مزجت بالماء .

(٢) الحقب : جمع حقبة (بكسر فسكون) وهى السنة . ويريد بردع اللون : أثره وبقيّته . والرفيف : النضارة والتلألؤ والبريق . والذماء : (بفتح الذال) : البقيّة .
ومعنى البيت : أنّ هذه الخمر معتّقة ، مرّت عليها السنون فأذهبت غشّها ، ولم تبق منها سوى بقية من لون ، ولمعان من سلافها .

(٣) خلت : ظننت . ووميضها . لمعانها . ووترات : جمع وترة (بفتحتين) وهى جليدة (بصيغة التصغير) بين كل إصبعين . ونضح : رشح (بفتح فسكون فيهما) .

(٤) الندماء : جمع نديم ، وهو المنادم ، اسم فاعل من نادمه : أى جالسه على الشراب .

وَدَعْنِيَ مِنْ ذِكْرِ الْوَقَارِ ، فَإِنَّنِي عَلَى سَرَفٍ مِنْ بِغْضَةِ الْحُلَمَاءِ(٥)
فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا سَاعَةٌ سَوْفَ تَنْقَضِي وَذَا الدَّهْرُ فِينَا مُولَعٌ بِرِمَاءِ(٦)
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَرْءَ يَبْقَى مُخَلَّدًا فَمَا النَّقْصُ إِلَّا بَعْدَ كُلِّ نَمَاءِ(٧)
أَبِي آدَمٌ بَاعَ الْجِنَانَ بِحَبَّةٍ وَبِعْتُ أَنَا الدُّنْيَا بِجَرْعَةِ مَاءِ(٨)

وقال :

لَكَ رُوحِي ، فَاصْنَعْ بِهَا مَا تَشَاءُ فَهْيَ مِنِّي لِنَاظِرَيْكَ فِدَاءُ(١)
لَا تَكِلْنِي إِلَى الصُّدُودِ ؛ فَحَسْبِي لَوْعَةٌ لَا تُقِلُّهَا الْأَحْشَاءُ(٢)
أَنَا وَاللهِ مُنْذُ غِبْتَ عَلِيلٌ لَيْسَ لِي غَيْرَ أَنْ أَرَاكَ دَوَاءُ(٣)
كَيْفَ أُرْوِي غَلِيلَ قَلْبِي ؟ وَلَمْ يَبْـ ـقَ لِعَيْنِي مِنْ بَعْدِ هَجْرِكَ مَاءُ(٤)

---

(٥) الوقار : الحلم والرزانة . والسرف : ضدّ القصد ، وخلاف الاعتدال . والبغضة (بكسر فسكون) البغضاء : وهي شدّة البغض والكراهية . والحلماء : جمع حليم : وهو الوقور العاقل المتحرّج من الإثم .

(٦) الرماء : مصدر راميته مراماة ورماء . يقول : ليست الحياة إلا ساعة ثم تنتهي ، وهذا الدهر مغرم برمي الأحياء وإهلاكهم .

(٧) النماء : الزيادة .

(٨) يشير بالشطر الأول من هذا البيت إلى قصة خروج آدم أبي البشر من جنّة الخلد . قال تعالى :
(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) .
الآية ٣٥ ، والآية ٣٦ من سورة البقرة . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الشجرة هي شجرة الحنطة .

(١) لناظريك : لعينيك .

(٢) لا تكلني : لا تتركني . والصدود : الإعراض والهجران . واللوعة : حرقة في القلب ، وألم من حب ونحوه . ولا تقلّها : لا تحتملها . والأحشاء : جمع حشا ، وهو ما اشتملت عليه الضلوع ، وما حواه الجوف ، والمراد القلب .

(٤) أرويت العطشان : سقّيته ، وأزلت عطشه . والغليل : حرارة العطش . وماء العين : دمعها . يقول : إنه بكى بسبب هجر الحبيب حتى نفدت دموعه ، وهو من أجل هذا لا يجد ما يطفئ به حرارة شوقه .

فَتَرَفَّقْ بِمُهْجَــةٍ شَفَّهَا الْوَجْــدُ ، وعَيْنٍ أَخْنَى عَلَيْهَا الْبُكَاءُ(٥)
أنا راضٍ بِنَظْــرَةٍ منكَ تَشْفِي بَرْحَ قَلْبٍ هاجَتْ بِهِ الْأَدْواءُ(٦)
نَظْرَةٌ ربَّما أَماتَتْ وَأَحْيَتْ وَمِنَ الْخَمْرِ عِلَّةٌ وشِفاءُ(٧)
لا تَخَلْ نَمَّةَ الْوُشاةِ صَلاحاً فَهْيَ داءٌ تَدْوَى به الْحَوْبَاءُ(٨)
ومِنَ النَاسِ مَنْ تَراهُ سَليماً وَبِهِ لِلْحُقُودِ داءٌ عَياءُ(٩)
فاحْذَرِ النَاسَ مااسْتَطَعْتَ ؛ فإِنَّ النَّــاسَ إِلَّا أَقَلَّهُمْ أَعْدَاءُ(١٠)
واخْتَبِرْنِى تَجِدْ صَدِيقاً حَمِيماً لم تُغَيِّرْ وِدادَهُ الْأَهْواءُ(١١)
صادِقاًفى الَّذِى يَقُولُ وإِنْ ضا قَتْ عَلَيْهِ بِرُحْبِهَا الدَّهْنَاءُ(١٢)

وقال وقد نَظَمَ قولَ أعرابىٍّ فى صديقٍ له :

«صَفِرَتْ(١) عِيابُ(٢) الوُدِّ بَيْنِى وبَيْنَهُ بَعْدَ امْتلائها ، واكْفَهَرَّتْ(٣) وُجُوهٌ

(٥) المهجة : الروح والنفس . وشفّها : أضعفها . والوجد : الحبّ . وأخنى عليها : أهلكها ، والمراد أضعف بصرها ، وذهب بمائها .

(٦) البرح (بفتح فسكون) : المشقّة والشدّة . والأدواء : جمع داء .

(٨) النمّ (بنون مفتوحة وميم مشدّدة) : رفع الحديث إشاعة له و إفساداً ، وتزيين الكلام بالكذب ، مصدر نمّ (من باب ردّ) . والنمّة : اسم مرّة منه . والوشاة : جمع واش ، وهو من يسعى بالفساد والتفرقة بين الناس . وتدوى : تمرض ، (و بابه صدى) . والحوباء : النفس .

(٩) الحقود : جمع حقْد (بكسر فسكون) وهو الضغن ، والانطواء على العداوة والبغضاء ، مصدر حقد عليه (كضرب وفرح) أى أمسك عداوته فى قلبه ، وتربّص لفرصتها . وداء عياء : لا يبرأ منه .

(١١) حميماً : قريباً . والوداد : المودة والمحبة . والأهواء : جمع هوى ، وهو ميل النفس ومشتهاها .

(١٢) رحبها (بضم الراء) : سعتها . والدهناء : الفلاة : وهى الأرض الواسعة المقفرة .

(١) صفرت : خلت .

(٢) يراد بالعياب (هنا) : الصدور والقلوب ، وأحدتها عيبة (بفتح فسكون) على التشبيه بعيبة الثياب .

(٣) اكفهرّت : عبست واغبرّت .

كانَتْ بمائِها » (٤) :

لَقَدْ صَفِرَتْ عِيابُ الْوُدِّ بَيْنِى وَبَيْنَ أَحِبَّتِى بعدَ امْتِلاءِ (١)

وَعادَتْ أَوْجُهُ الْمَعْرُوفِ سُودًا وكانَتْ مِنْ نَضارَتِها بِماءِ (٢)

وقال عِنْدَ وُرُودِ نَعْيِ ابْنَتِهِ إِلَيْه ولم يَسْتَطِعِ الْبُكَاءَ ، مِنْ غَلَبَةِ الحُزْنِ عليه* :

فَزِعْتُ إِلَى الدُّمُوعِ ، فَلَمْ تُجِبْنِى وفَقْدُ الدَّمْعِ عِنْدَ الْحُزْنِ دَاءُ (١)

وما قَصَّرْتُ فى جَزَعٍ ، ولكنْ إذا غَلَبَ الأَسَى ذَهَبَ الْبُكَاءُ (٢)

وقال يَرْثِى صديقَهُ « عبدَ اللهِ باشا فكرى »* رَحِمَهُ اللهُ :

أَلَا بِأَبِى مَنْ كَانَ نُورًا مُجَسَّدًا يَفِيضُ عَلَيْنَا بالنَّعِيمِ رُوَاؤُهُ (١)

---

(٤) بمائها : برونقها ، وبشاشتها .

(٢) المعروف : الخير والرفق والإحسان ، والنضارة : الحسن والبهاء والرونق .
ومعنى هذا البيت والذى قبله : أنه كانت بينه وبين أحبائه مودّة تامة ، ومحبة شديدة ، وعوارف حسان ؛ فذهب كل هذا وزال ، ولم يبق بينه وبينهم غير الوحشة والجفاء .

* فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ نُفِىَ البارودى مع ستة من رفاقه قادة الثورة العرابية إلى جزيرة « سرنديب » . وفى سنة ١٨٨٥ توفيت بمصر زوجته « عديلة يكن » عن سبعة وثلاثين عاماً ، ونُعيت إليه فى منفاه ؛ فرثاها بقصيدة دالية من عيون شعره فى سبعة وستين بيتاً (ص ١٨٩ – ٢٠٢) من شرحنا لديوان البارودىّ ، (ج ١ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٠) . وبعدها بقليل نُعِيَتْ إليه ابنتهما « ستيرة » ؛ فلم يزد فى رثائها على هذين البيتين . ولعله يشير « بغَلَبة الأَسَى » إلى توالى هاتين الفاجعتين المتقاربتين .

(١) فزعت إليه (من باب تعب) : لجأت إليه عند الفزع ، وهو الخوف .

(٢) الجزع : حزن يصرف الإنسان عمّا هو بصدده ، ويقطعه عنه ، فالجزع أبلغ من الحزن . والأسى : الحزن .

* عبد الله باشا فكرى : كاتب شاعر أديب ، كان من حاشية سعيد باشا ثم إسماعيل باشا ، وقد تقلّب فى جملة مناصب ، آخرها نظارة المعارف فى وزارة البارودى سنة ١٢٩٩ ﻫ (١٨٨٢م) وبقى بها حتّى زمن الثورة العرابية ، فاتّهم فيها ، وقبض عليه ، ثم ظهرت براءته فأعيدت إليه حريّته ، وكانت وفاته سنة ١٣٠٧ ﻫ (١٨٨٩ م) . وفى بعض أوراق البارودى ما يدلّ على أنّ هذه القصيدة قيلت أولا فى رثاء السيد جمال الدين الحسينى ، ثم حوّلت إلى رثاء فكرى باشا .

(١) ماء رواء (كسماء) : كثير ، للوارد فيه رىّ ، والرواء (بالضم) : حسن المنظر .

ثَوَى بُرْهَةً فى الأَرْضِ، حتى إذا قَضَى ... لُبانَتَــهُ منْهَا ، دَعَتْهُ سَماؤُهُ (٢)
وما كان إلّا كَوْكَباً حَلَّ بالثَّرَى ... لِوَقْتٍ ، فلمّا تَمَّ شالَ ضِياؤهُ (٣)
نَضَا عَنْهُ أَثْوَابَ الْفَناءِ ، ورَفْرَفَتْ ... إلَى الْفَلَكِ الْأَعْلَى بِهِ مُضَوَاؤهُ (٤)
فَأَصْبَحَ فى لُجٍّ مِنَ النُّورِ سَابِحًا ... سَوَاحِلُهُ مَجْهُولَةٌ وفَضاؤهُ (٥)
تَجَرَّدَ مِنْ غِمْدِ الْحَوادِثِ ناصِعــاً ... وَمَا السَّيْفُ إلّا أَثْرُهُ ومَضاؤهُ (٦)
فإنْ يَكُ وَلَّى فَهْو باقٍ بِأُفْقِهِ ... كَنَجْمٍ يَشُوقُ الناظِرِينَ بَهَاؤهُ (٧)
ولَوْلَا اعْتِقادِى أَنَّهُ فى حَظِيرَةٍ ... مِنَ الْقُدْسِ لا سْتَوْلَى على الْجَفْنِ ماؤهُ (٨)
عليكَ سَلامٌ مِنْ فُؤادٍ نَزَا بِهِ ... إلَيْكَ نِزاعٌ أَعْجَزَ الطِّبَّ داؤهُ (٩)

وقال يَهْجُو :

وصاحِبٍ كَهُمُومِ النَّفْسِ مُعْتَرِضٍ ... ما بيْنَ تَرْقُوَةٍ مِنِّى وأَحشاءِ (١)

---

(٢) ثوى : أقام . وبرهة (بفتح الباء وضمها) : زماناً . واللبانة (بضمّ اللام) : الحاجة تدعو إليها الهمة لا الفاقة .

(٣) حلّ : نزل وأقام . والثرى: الأرض . وتمّ : أى الوقت . وشال ضياؤه: ارتفع عنا نوره وغاب . والمراد أنه انتقل إلى العالم العلوى .

(٤) نضا : جرّد . ورفرف الطائر : بسط جناحيه وحرّكهما . والفلك : مدار النجوم . والمراد العالم العلوى : عالم الأرواح . والمضواء : التقدم . والمعنى : أنه ترك حياة الفناء والزوال ، وصعد مسرعا إلى عالم الخلد والبقاء .

(٥) اللجّ (بضم اللامّ) : معظم الماء ، على تشبيه النور بالبحر اللجىّ .

(٦) الغمد : جفن السيف وغلافه الذى يخبأ فيه . وناصعاً : خالصاً نقيًّا . وأثر السيف (بفتح الهمزة وكسرها) : فرنده : وهو جوهره ووشيه ورونقه . ومضاؤه : حدّته وسرعة قطعه .

(٧) ولّى : ذهب . والبهاء : الحسن والرونق .

(٨) القدس : الطهر (بضمّ فسكون فيهما) ، ومنه قيل للجنّة حظيرة القدس . والجفن : غطاء العين من أعلاها وأسفلها ، والمراد العين نفسها ، واستيلاء الماء على العين : ذهاب بصرها من شدة الحزن ، وكثرة البكاء .

(٩) نزا : طمح ووثب . والنزاع : الاشتياق .

(١) الترقوة (بفتح فسكون فضم) : العظم الذى فى أعلى الصدر ، بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين ، وهما ترقوتان . والأحشاء : جمع حشا : وهو المعى ، وما اشتملت عليه الضلوع ، وما حواه الجوف .

إنْ قَالَ خَيْرًا فَعنْ سَهْــوٍ أَلَمَّ بِهِ أَوْ قَالَ شَرًّا فَعَنْ قَصْدٍ وإمْضاءِ[٢]
لا يَفْعَلُ السُّوءَ إلَّا بَعْدَ مَقْدَرَةٍ ولا يُكَفْكِفُ إلَّا بَعْدَ إيذاءِ[٣]
عاشَرْتُهُ حِقْبَةً مِنْ غَيْرِ سابِقَةٍ فَكَانَ أَقْتَلَ مِنْ داءٍ لِحَوْباءِ[٤]
يَبْغِي رِضايَ ، وقَدْ أَوْدَى بِرُمَّتِهِ وكَيْفَ يَحْيَا صَرِيعٌ بَعْدَ إيداءِ؟[٥]
لا بارَكَ اللهُ فيهِ حَيْثُ كَانَ ، وَلَا جَزَاهُ عَنْ فِعْلِهِ إلاَّ بِأَسْواءِ[٦]

---

(٢) ألمّ : نزل . والإمضاء : مصدر أمضيت الأمر ، أى أنفذته ، ويريد الإنفاذ مع التعمّد .

(٣) المقدرة (مثلّثة الدال ، أى بفتح الدال ، وضمّها ، وكسرها) : القُدْرَة والقوّة . ويكفكف : يمنع ، ويكفّ .

(٤) الحقبة (بكسر فسكون) : المدّة والزمان . والحوباء : النفس .

(٥) يبغى : يبتغى ، ويطلب . (وبابه رمى) . والواو قبل « قد » : واو الحال . والجملة الفعلية بعدها : جملة حاليّة . وأودى يودى إيداء : هَلَكَ ، وفنى ، وذهب . وفاعل « أودى » : ضمير « رضاى » . وأودى برمته : أى فنى الرضا كلّه بجملته ؛ فلم يبق منه شىء . والرُمّة (بضم الراء) : قطعة من الحبل بالية . وأصْلُه أن رجلاً باع بعيراً وفى عنقه حبل ، فقيل : ادفعه برُمّته . ثم صار كالمثل فى كل مالا ينقص ، ولايؤخذ منه شىء . تقول : أخذتُ الشىء برمته : أى أخذته جميعه . وأودى بالشىء : أى ذَهَبَ به . والمعنى على هذا : أن ذلك الصاحب المهجوّ أسخطنى كل السخط ، وذهب برضاى كله ، وضيّعه بسوء عشرته . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه النفى . والصريع : المصروع : أى المطروح على الأرض . والمراد الهالك : أى ولن يحيا الهالك بعد هلاكه . يريد أنه لا سبيل إلى عودة رضاه ، والتئام الصدْع بينه وبين المهجوّ .

(٦) الأسواء : جمع سوء (بفتح فسكون) : وهو اسم جامع لكل آفة وداء .

قافية الألف المقصورة

وقال وقد استقال من وِزَارةِ الجِهَادِيَّةِ والبَحْرِيَّةِ ووزارة الأَوْقَافِ ، وسافرَ إلى ضَيْعَتِهِ بناحِيَةِ «قرقيرة» بالدقَهْلِيَّةِ ، وذلك سنةَ ثمانٍ وتِسْعِينَ ومائتين وألفٍ هجرية (١٢٩٨هـ - ١٨٨١م) . وفيها وَصْفُ قِطارِ سِكَّةِ الحديد والمزارع * :

هَجَرَتْ «ظَلُومُ» وهَجْرُها صِلَةُ الأَسَى ... فَمَتَى تَجُودُ عَلَى الْمُتَيَّمِ بِاللُّقَى ؟ (١)
جَزِعَتْ لِراعِيَةِ الْمَشِيبِ ، وما دَرَتْ ... أَنَّ الْمَشِيبَ لَهِيبُ نِيرانِ الْجَوَى (٢)

* فى ٢ من ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ (٦ من فبراير سنة ١٨٨١ م) عين « محمود سامى البارودى » ناظراً للجهادية فى وزارة « مصطفى رياض » على إثر شكوى شديدة اللهجة رفعها الضباط المصريون فى الجيش ، برياسة « أحمد عرابى » إلى الخديو توفيق ، واضطروه بها إلى عزل « عثمان رفقى » ناظر الجهادية .

وفى ٢٥ من رمضان سنة ١٢٩٨ هـ (٢ من أغسطس سنة ١٨٨١ م) استقال البارودى من وزارتى الجهادية والأوقاف لمَّا أحسَّ أن الخديو قد ساء به ظنًّا ، واستمع للوشايات التى تتهمه بمساعدة الضباط الساخطين الثائرين . وفى هؤلاء الواشين قال بعد الاستقالة :

نَفِسُوا عَلَيَّ حَمِيَّتِي ؛ فتَأَلَّبُوا ... حِزْباً عَلَيَّ وَأَجْمَعُوا مَا أَجْمَعُوا
وَسَعَوْا بِفِرْيَتِهِمْ ، فَلَمَّا صَادَفُوا ... سَمْعًا يَمِيلُ إِلَى الْمَلَامِ تَوَسَّعُوا
لا عَيْبَ فِيَّ سِوَى حَمِيَّةِ ماجِدٍ ... والسَّيْفُ يَغْلِبُهُ الْمَضَاءُ ، فَيَقْطَعُ

وهذه الأبيات لم ترد فى ديوانه ، ولكنَّ صديقيه الشيخين : ياقوت المرسى ، وعطية حسنين نسباها إليه فى ترجمتهما له بعد وفاته ، ونشرت فى مقدمة كتاب « مراثى الشعراء » التى جمعها « خليل مطران » وطبعها سنة ١٩٠٥ .

(١) ظلوم : اسم محبوبته . والأسى : الحزن . والمعنى : أن هجر محبوبته وإعراضها سبب حزنه . والمتيَّم : الذى ذلله العشق وعبَّده . واللُّقى (بضم اللام) : اللقاء والوصال .

(٢) الجزع : نقيض الصبر (وفعله من باب تعب) . وراعية الشيب : أوائله . والجوى : الحرقة وشدة الوجد .

وَلَوَتْ بِوَعْدِكَ بعدَ طُولِ ضَمانِهِ ... وَمِنَ الْوُعُودِ خِلابَةٌ ما تُقْتَضَى (٣)

لَيْتَ الشَّبابَ لَنَا يَعُودُ بِطِيبِهِ ... ومِنَ السَّفَاهِ طِلابُ عُمْرٍ قَدْ مَضَى (٤)

والشَّيْبُ أَكْمَلُ صاحِبٍ لَوْ أَنَّهُ ... يَبْقَى ، ولكِنْ لا سَبِيلَ إلى الْبَقَا (٥)

والدَّهْرُ مَدْرَجَةُ الْخُطُوبِ ، فَمَنْ يَعِشْ ... يَهْرَمْ وَمَنْ يَهْرَمْ يَعِثْ فيهِ الْبِلَى (٦)

فاذْهَبْ بِنَفْسِكَ عَنْ مُتَابَعَةِ الصِّبَا ... وارْجِعْ لِحِلْمِكَ ، فالأُمُورُ إلى انْتِهَا (٧)

الْيَوْمَ آنَ لِسابِقٍ أَنْ يَحْتَذِى ... طَلْقَ الرِّهانِ ، ومُغْمَدٍ أَنْ يُنْتَضَى (٨)

وَلَقَدْ عَلَوْتُ سَراةَ أَدْهَمَ لَوْ جَرَى ... فى شَأْوِهِ بَرْقٌ ، تَعَثَّرَ ، أَوْ كَبَا (٩)

(٣) لوت بالوعد : أخلفته . وخلابة (بكسر الخاء) : مصدر خلبه (من باب كتب) : أى خدعة . واقتضى دينه : أخذه . والمعنى : أن وعدها ككثير من وعود الحسان ليس له وفاء .

(٤) السفاه (بفتح السين) : الجهل ، ونقص العقل .

(٥) يشير بالشطر الأول إلى ما يلازم الشيب عادة من الوقار والمهابة والرزانة والاستقامة ورجاحة العقل وكثرة التجارب ونحو ذلك .

(٦) مدرجة : ممرّ وطريق . والخطوب : جمع خطب (بفتح فسكون) وهو الأمر الشديد ينزل بالإنسان . ويهرم (من باب تعب) : يكبر ويضعف . والعيث : الإفساد ، (وبابه باع) . والبلى : الفناء ، وأصله مصدر بلى الثوب (كتعب) بلى (بالكسر والقصر) ، وبلاء (بالفتح والمد) أى أخلق ، ورثّ ، وذهبت جدّته (بكسر الجيم) .

(٧) من معانى الصبا (بكسر الصاد) : جهلة الفتوة ، والحنين إلى المرأة ، والتعلق بها . ومتابعة الصبا : التمادى فيه . والحلم : العقل ، والوقار . وانتها : انتهاء : مصدر انتهى الشىء : أى بلغ نهايته .

ومعنى البيت : ابتعد بنفسك عن دواعى الهوى ، ومجال الشهوات ، وسر فى ضياء عقلك ، والتزم سبيل الرشد والوقار ؛ فالأمور كلها إلى انتهاء وزوال .

(٨) آن : حان ، أى جاء أينه (بفتح فسكون) وهو الحين والوقت . والسابق : الفرس المجلى فى الحلبة ، ويريد الشاعر بالسابق نفسه . ويحتذى : يتخذ الحذاء ، وهو حديدة تثبت بحافر الفرس ، ويريد الاستعداد للعدو والجرى والسباق . والطلق (بفتح فسكون) : المطلق غير المقيد . والرهان : المراهنة : وهى المخاطرة والمسابقة على الخيل ، ويريد بطلق الرهان : أنه أرخى له العنان للفوز فى الرهان . والمغمد : السيف فى غمده . وينتضى : يسل ، أى يخرج من غمده .

ومعنى البيت : أنه باستقالته قد انطلق من قيود المنصب ، فصار كالجواد السابق المطلق عند المسابقة لا يصدّه شىء ، وأنه كان فى الوزارة سيفاً مغمداً ، فأصبح بعدها سيفاً مسلولاً .

(٩) السراة : أعلى كل شىء . والأدهم : الفرس الأسود ، ويريد به قطار سكة الحديد . والشأو : الأمد والغاية . وكبا : انكب على وجهه وسقط .

يَطْوِى الْمَدَى طَىَّ السِّجِلِّ ، وَيَهْتَدِى ‏ ‏ فى كُلِّ مَهْمَهَةٍ يَضِلُّ بها الْقَطَا(١٠)
يَجْرِى عَلَى عَجَلٍ ، فلا يَشْكُو الْوَجَى ‏ ‏ مَدَّ النهارِ ، وَلا يَمَلُّ مِنَ السُّرَى(١١)
لا الْوَخْدُ مِنْهُ ، ولا الرَّسِيمُ ، ولا يُرَى ‏ ‏ يَمْشِى الْعِرَضْنَةَ ، أو يَسِيرُ الْهَيْدَبَى(١٢)
رَيَّانُ مِلْءَ ضُلُوعِهِ ، لَكِنَّهُ ‏ ‏ يَشْكُو بِزَفْرَتِهِ لَهِيباً فى الْحَشَا(١٣)
ما زالَ يَنْهَجُ فى الْمَسِيرِ طَرائِقاً ‏ ‏ تَدَعُ الْجِيَادَ مُقَيَّداتٍ بِالْوَجَى(١٤)
حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى جَنابٍ أَفْيَحٍ ‏ ‏ زاهِى النَّباتِ ، بَعيدِ أَعْماقِ الثَّرَى(١٥)
تَسْتَنُّ فِيهِ الْعَيْنُ بَيْنَ مَنابِتٍ ‏ ‏ طَابَتْ مَغارِسُها ، وجَنَّاتٍ رِوَا(١٦)

---

(١٠) المدى : الغاية . والسجل : الكتاب . والمهمهة : المفازة البعيدة . والقطا : ضرب من الحمام يضرب المثل بهدايته .

(١١) الوجى : الحفا ، وهو رقة القدم والحافر من كثرة السير . ومد النهار : طوله . والسرى : سير عامة الليل .

(١٢) الوخد : سعة الخطو ، أو أن يرمى البعير بقوائمه كمشى النعام . والرسيم : سير للإبل قريب من الهرولة ، دون الجرى . ويمشى العرضنة : أى فى مشيته بغى من نشاطه ؛ فالعرضنة : نوع من السير يمتاز بالخفة والسرعة والنشاط . والهيدبى : مشى للخيل فيه جدّ .

والمعنى : أنّ ما يعرف من أنواع سير الإبل والخيل دون سير هذا القطار السريع .

(١٣) ريان : صفة من الرى (بفتح الراء وكسرها وتشديد الياء) ، وهو ضد العطش . والزفرة : اسم من الزفير : وهو أن يخرج الإنسان نفسه مع مده إياه ، كما يفعل المهموم والمكدود ، وزفرت النار : سمع لتوقّدها صوت . والحشا : ما اشتملت عليه الضلوع ، وما حواه الجوف .

(١٤) ينهج الطريق : يسلكه ، ويسير فيه (وبابه قطع) . والمسير : السير . والجياد : جمع جواد وهو الفرس الكريم الرائع . والوجى : الحفا ، وهو رقة القدم والخف والحافر . يقول : إن هذا القطار يسلك على الدوام طرقاً شاقة طويلة ، لو سلكتها كرام الخيل لقيدها الحفا .

والمعنى : أنها لا تستطيع سلوك هذه الطرق ، ولا تقوى على مثل ما يقوى عليه القطار .

(١٥) جناب أفيح : ناحية واسعة . وزاهى النبات : نباته زاه ، أى ناضر مشرق . والثرى : التراب الندىّ .

(١٦) تستن : تعدو مقبلة مدبرة فى نشاط . وروا : أصلها رواء . يقال : روى من الماء ، فهو ريان ، وهى ريا ، والجمع رواء (بكسر الراء) .

مُلْتَفُّ أَفْنانِ الْحَدائقِ لَوْ سَرَتْ ... فيها السَّمُومُ ، لَشابَهَتْ رِيحَ الصَّبَا (١٧)

فَتُرابُهُ نَفَسُ الْعَبِيرِ ، ونَبْتُهُ ... سَرَقُ الْحَرِيرِ ، وماؤُهُ فَلَقُ الضُّحَى (١٨)

فإِذَا شَمِمْتَ وَجَدْتَ أَطْيَبَ نَفْحَةٍ ... وإذا الْتَفَتَّ رأَيْتَ أَحْسَنَ مايُرَى (١٩)

والقُطْنُ بَيْنَ مُلَوَّزٍ ومُنَوِّرٍ ... كالْغادَةِ ازْدانَتْ بأَنْوَاعِ الْحُلَى (٢٠)

فَكَأَنَّ عاقِدَهُ كُرَاتُ زُمُرُّدٍ ... وكَأَنَّ زَاهِرَهُ كَواكِبُ فى الرُّوَا (٢١)

دَبَّتْ به رُوحُ الْحَيَاةِ ، فَلَوْ وَهَتْ ... عَنْهُ الْقُيودُ مِنَ الْجَدَاوِلِ ، قَدْ مَشَى (٢٢)

فأُصُولُهُ الدَّكْنَاءُ تَسْبَحُ فى الثَّرَى ... وفُرُوعُهُ الخَضْراءُ تَلْعَبُ فى الْهَوا (٢٣)

لم يَسْرِ فيه الطَّرْفُ مَذْهَبَ فِكْرَةٍ ... مَحْدُودَةٍ إِلَّا تَرَاجَعَ بِالْمُنَى (٢٤)

---

(١٧) الأفنان : الأغصان . وسرت : سارت . والسموم: الريح الحارة. والصبا : ريح تهب عند العرب من مطلع الشمس ، وهى أطيب الرياح ، وأحبها إليهم .

(١٨) النفس (بفتحتين) : نسيم الهواء . والعبير : أخلاط من الطيب . وسرق الحرير : أجود أنواعه ، أو شققه : أى قطعه المشقوقة ، الواحدة سرقة (بفتح السين والراء) وهى من الألفاظ الفارسية المعرّبة . والفلق : ضوء الصبح . والضحى : حين تشرق الشمس ويمتدّ النهار .

(١٩) نفح الطيب (كنع) : فاح ، والنفحة : المرة منه .

(٢٠) الغادة : المرأة الناعمة اللينة . والحلى (بكسر الحاء أو ضمها) : ما تتزين به المرأة من الجواهر والمعادن المصوغة ، واحدتها حلية (بكسر فسكون) .

(٢١) يريد بالعاقد : ما انعقد من اللوز قبل أن يتفتح. والزمرد : حجر أخضر اللّون ، شديد الخضرة ، شفّاف . وأشدّه خضرة أجوده ، وأصفاه جوهراً . واحدته زُمُرُّدَة (فارسىّ معرّب) .وزاهر : أبيض مضىء مشرق ، صفة من زهر السراج والقمر والوجه (كنع) أى تلألأ ، ويريد بالزاهر المتفتح من القطن .والروا (بضم الراء) : أصله الرواء بالمد : وهو حسن المنظر .

(٢٢) وهت : ضعفت وانفكت. جعل الجداول وقنوات الماء التى تحيط بنبات القطن قيوداً وقال : إن روح الحياة قد سرت فيه ، ولو انفكت عنه هذه القيود لمشى .
والمعنى : أنّ نضرته عظيمة ، وحياته النباتية تامة موفورة .

(٢٣) الدكناء : صفة من الدكنة (بضم فسكون) : وهى لون يضرب إلى السواد. والثرى : الأرض ، والتراب الندى .

(٢٤) يسرى : يسير . والطرف : العين . ومعنى « لم يسر فيه الطرف مذهب فكرة محدودة » : لم تجل العين فى هذا النبات مقدار جولة الفكرة المحدودة ، والمراد اللمحة ، والبرهة اليسيرة ، والمدة =

هذا لَعَمْرُ أَبِيكَ داعِيَةُ الرِّضَــا   وَسلامَةُ العُقْبَى ، وَمِفْتَاحُ الْغِنَى (٢٥)
فَعَلامَ أَجْهَدُ فى الْمَطَالِبِ باذِلًا   نَفْسِى ؟ وهذا لِلْمَطالِبِ مُنْتَهَى (٢٦)
فالْحَمْدُ للهِ الَّذِى وَهَبَ الْعُلا   وَسَرَا الأَذَى عَنِّى ،فأَبْصَرْتُ الْهُدَى (٢٧)

= القصيرة . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) وهى الأمنية : أى الشيء الذى يريده الإنسان ، ويقدّر حصوله .

ومعنى البيت : أنه كلما لمح الإنسان هذا النبات النضير ؛ رأى فيه ما يمتعه ، ويسليه ، ويرضى أمانيه ، ويحقق آماله .

(٢٥) العقبى : العاقبة ، وجزاء الأمور .

(٢٦) جهد الرجل فى كذا (من باب قطع) : جدّ وبالغ .

(٢٧) سرا الله الأذى عنى (من باب عدَا) : كشفه ، وأزاله . من قولهم : سرا الثوب ونحوه : إذا نَزَعه ، وطرَحه ، وألقاه ، ورماه .

قافية الباء

قال فى صِباهُ * يَرُوضُ القولَ ** ، ويَذْكُر الطَّرَدَ :

سِوَاىَ بِتَحْنانِ الْأَغارِيدِ يَطْرَبُ وغَيْرِىَ بالَّلذَّاتِ يَلْهُو ويُعْجَبُ(١)

وما أَنَا مِمَّنْ تَأْسِرُ الْخَمْرُ لُبَّهُ وَيَمْلِكُ سَمْعَيْهِ الْيَرَاعُ الْمُثَقَّبُ(٢)

ولَكِنْ أَخُوهَمٍّ ، إذا ما تَرَجَّحَتْ بِهِ سَوْرَةٌ نَحْوَ الْعُلاَ راحَ يَدْأَبُ(٣)

نَفَى النَّوْمَ عَنْ عَيْنَيْهِ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ لَها بينَ أَطْرافِ الْأَسِنَّةِ مَطْلَبُ(٤)

---

* فى بعض ما كتب عن البارودى أنه نظم هذه القصيدة سنة ١٨٦٣ وهو فى الرابعة والعشرين ، بعد انتقاله من ديوان الخديو إسماعيل (إدارة المكاتبات باللغة التركية بين مصر والآستانة) إلى الجيش . وما لبث أن أرسل مع طائفة مختارة من الضباط سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) إلى فرنسا ، ثم إلى إنجلترا للإفادة من خبرة ضباط هذين الجيشين ، ودراسة النظم العسكرية فيهما . وفى إنجلترا دعاهم أحد نبلاء الإنجليز إلى رياضة فى الريف الإنجليزى على ظهور الخيل لمزاولة الصيد . والأبيات ٢٢ — ٤٧ من هذه القصيدة البائيّة تصف هذه الرحلة الريفيّة الشائقة ، وهذه الرياضة الممتعة .

** يراد بالقول : الشعر . ويروضه (من باب قال) : يمارسه . ويعالجه ، ويزاوله ، ويمرّن نفسه عليه . ومن كلامهم : راض الشاعر القوافى الصعبة ، فارتاضت له .

والطرد : مزاولة الصيد ، ومطاردة المصيد ، والحملة عليه ، ومحاولة صيده .

وهذه القصيدة على وزن وروىّ قصيدة الشريف الرضىّ التى مطلعها :

لغير العلا منى القِلى والتجنّب ولولا العلا ما كنت فى الحب أرغب

(١) التحنان : صوت الطرب. وأغرد الطائر إغراداً : رفع صوته وطرّب ، أى رجّعه ومدّه ، وكأن الأغاريد جمع إغراد .

(٢) اللب : العقل . واليراع : جمع يراعة : وهى القصبة . والمراد باليراع المثقب : المزمار .

(٣) الهم : العزيمة والإرادة القوية . وترجحت : رجحت ومالت ونزعت . والسورة : الوثبة والنازعة القوية . ويدأب : يجد ويتعب .

(٤) أبية : صفة من الإباء وهو الامتناع ، أى أنها تأبى الذل والضيم ، وتمتنع من الدنايا وسفساف الأمور . والأسنة : جمع سنان (بكسر السين) وهو نصل الرمح .

بَعِيدُ مَناطِ الْهَمِّ : فَالْغَرْبُ مَشْرِقٌ ... إِذَا مَارَمَى عَيْنَيْهِ ، والشَّرْقُ مَغْرِبُ (٥)
لَهُ غُدُواتٌ يَتْبَعُ الْوَحْشُ ظِلَّها ... وتَغْدُو على آثارِها الطَّيْرُ تَنْعَبُ (٦)
هَمامَةُ نَفْسٍ أَصْغَرَتْ كُلَّ مَأْرَبٍ ... فَكَلَّفَتِ الْأَيَّامَ ما لَيْسَ يُوهَبُ (٧)
وَمَنْ تكُنِ الْعَلْياءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ ... فَكُلُّ الَّذِى يَلْقَاهُ فيها مُحَبَّبُ (٨)
إذا أَنا لم أُعْطِ الْمَكَارِمَ حَقَّها ... فلا عَزَّنِى خالٌ ، ولا ضَمَّنِى أَبُ (٩)
ولا حَمَلَتْ دِرْعِى كُمَيْتٌ طِمِرَّةٌ ... ولا دارَ فى كَفِّى سِنانٌ مُذَرَّبُ (١٠)

(٥) الهم : العزيمة ، والإرادة . ومناط الهم : ما يتعلق به : وبعيد مناط الهم : أى أن إرادته وعزمه لا يتعلقان إلا بالأمور البعيدة ، والمقاصد العالية الشريفة .

ومعنى البيت : أنه بعيد العزم رفيع الهمة ، حتى إن الشرق والغرب يلتقيان فى مرمى عينيه ، فإذا ما اتجه نحو الشرق ، تجاوزت همته الشرق إلى ما وراءه فعاد الشرق مغرباً ، وكذلك يعود الغرب مشرقاً إذا ما اتجه نحو الغرب .

(٦) الغدوات : جمع غدوة ، وهى السير فى الصباح ، مصدر غدا عليه (من باب سما) غدواً (كسمو) وغدوة (بضم فسكون) ، والمراد بالغدوة (هنا) : الغارة وقت الصباح . وتغدو : تنطلق . وتنعب (من بابى قطع وضرب) : تصيح وتصوت .

(٧) يريد بالهمامة : قوة العزم ، ولم نعثر على هذا المصدر بهذا المعنى فيما بين أيدينا من المعجمات ، ويمكن تصحيحه بأن يقال : إنه حول الفعل هم يهم من باب ردّ إلى باب كرم ، ليدل على أن معناه صار كالغريزة ، ثم جاء منه بمصدر قياسى على وزن فعالة ، وهو الهمامة . وفى كتاب نهج البلاغة خطبة منسوبة للإمام على بن أبى طالب ، يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض ، فيقول : « أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامة نفس اضطرب فيها » . وفسرت الهمامة بأنها اهتمام النفس بالأمر ، وقصدها إليه ، واعتناؤها به ، وذلك إذا آنست عدم الاقتدار إن لم تتوجه إليه بكلياتها . والمأرب (بوزن المذهب) : الحاجة والمطلب .

(٨) الهمة : الإرادة والعزم .

(٩) عزّنى : قوّانى .

يقول : إذا لم أؤدّ ما تطلبه مكارم الأخلاق منى ، فلست جديراً بالانتماء إلى أهلى الذين عرفوا بعلوّ الهمة ، وكرم الخلق .

(١٠) الدرع : لبوس من حلق الحديد يلبسه المحارب ، ويريد به نفسه . والكميت من الخيل : ما كان بين الأسود والأحمر ، يستوى فيه المذكر والمؤنث . والطمرة : الفرس العالية الطويلة القوائم الخفيفة . والسنان : نصل الرمح . ومذرّب . حادّ ماض ، اسم مفعول من ذرّبه تذريبا : إذا أحدّه .

خُلِقْتُ عَيُوفاً ، لا أرَى لابْنِ حُرَّةٍ لَدَىَّ يَدًا أُغْضِى لها حِينَ يَغْضَبُ (١١)
فَلَسْتُ لِأَمْرٍ لم يَكُنْ مُتَوَقِّعــاً ولَسْتُ على شىءٍ مَضَى أتَعَتَّبُ (١٢)
أسِيرُ على نَهْجٍ يَرَى النَّاسُ غَيْرَهُ لِكُلِّ امْرِئٍ فيما يُحاوِلُ مَذْهَبُ (١٣)
وَإنِّى إذا ما الشَّكُّ أظْلَمَ لَيْلُهُ وأمْسَتْ بهِ الأحْلَامُ حَيْرَى تَشَعَّبُ (١٤)
صَدَعْتُ حِفافَىْ طُرَّتَيْهِ بِكَوْكَبٍ مِنَ الرَّأْىِ ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ الْمُغَيَّبُ (١٥)
وبَحْرٍ مِنَ الْهَيْجَاءِ خُضْتُ عُبــابَهُ ولا عاصِمٌ إلَّا الصَّفِيحُ الْمُشَطَّبُ (١٦)
تَظَــلُّ بِهِ حُمْرُ المَنَايا وسُودُها حَواسِرَ فى ألْوانِهَا تَتَقَلَّبُ (١٧)
تَوَسَّطْتُهُ والْخَيْلُ بالْخَيْلِ تَلْتَقِى وبِيضُ الظُّبَا فى الْهَامِ تَبْدُو وتَغْرُبُ (١٨)
فَمَا زِلْتُ حتَّى بَيَّنَ الْكَرُّ مَوْقِفِى لَدَى ساعةٍ فيها الْعُقُولُ تَغَيَّبُ (١٩)

---

(١١) عيوفاً : صفة من عاف الرجل الطعام والشراب يعافه ، أى كرهه ، فلم يأكله ، ولم يشربه ، والمراد أنه أبىّ النفس . واليد : النعمة والإحسان . وأغضى : أسكت .

(١٢) توقعت الشىء : ترقبت وقوعه . وأتعتب : أغضب .

(١٣) النهج : الطريق الواضح .

(١٤) الأحلام : جمع حلم (بكسر فسكون) وهو الأناة والعقل. وتشعّب : تتفرق ، وأصله تتشعّب ، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

(١٥) صدعت : شققت . وحفافاه : جانباه ، مثنى حفاف وهو الجانب . والطرّة : الشعر الذى تصفّفه الجارية على جبهتها . والمعنى : أنه يزيل خفاء الشك برأيه الثاقب السديد .

(١٦) الهيجاء : الحرب . والعباب (كغراب) : الموج . والعاصم : الحافظ الواقى . والصفيح : السيف العريض . وسيف مشطّب : فيه شطب (بضم ففتح) ، وهى طرائق السيف .

(١٧) المنايا ، جمع منية ، وهى الموت . وحواسر : منكشفات .

(١٨) الظبا : جمع ظبة (بضم ففتح) : وهى حد السيف والسنان ونحوهما. والهام : جمع هامة ، وهى الرأس . وتبدو : تظهر . وتغرب : تغيب .

(١٩) كرّ الفارس كرًّا (من باب ردّ) : إذا فرّ للجولان ، ثم عاد للقتال . وتغيّب : تغيب ، وأصلها تتغيّب ، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

لَدُنْ غُدْوَةٍ حَتَّى أَتَى الليلُ ، والْتَقَى ... عَلَى غَيْهَبٍ مِنْ ساطِعِ النَّقْعِ غَيْهَبُ (٢٠)
كَذلِكَ دَأْبِى فى الْمِراسِ ، وَإِنَّنِى ... لَأَمْرَحُ فى غَىِّ التَّصابِى وأَلْعَبُ (٢١)
وفِتْيانِ لَهْوٍ قَدْ دَعَوْتُ ولِلْكَرَى ... خِباءٌ بِأَهْدابِ الْجُفُونِ مُطَنَّبُ (٢٢)
إِلَى مَرْبَعٍ يَجْرِى النَّسِيمُ خِلالَهُ ... بِنَشْرِ الْخُزَامَى ،والنَّدَى يَتَصَبَّبُ (٢٣)
فَلَمْ يَمْضِ أَنْ جاءُوا مُلَبِّينَ دَعْوَتِى ... سِراعاً ، كَما وَافَى عَلَى الْماءِ رَبْرَبُ (٢٤)
بِخَيْلٍ كَآرَامِ الصَّرِيمِ ، وراءَها ... ضَوارِى سَلُوقٍ : عاطِلٌ ومُلَبَّبُ (٢٥)
مِنَ اللَّاءِ لا يَأْكُلْنَ زادًا سِوَى الَّذِى ... يُضَرِّسْنَهُ ، والصَّيْدُ أَشْهَى وأَعْذَبُ (٢٦)

---

(٢٠) لدن غدوة : من أول النهار. والغيهب : الظلمة والليل . والنقع : الغبار . والساطع : المرتفع . يريد أنه لما أتى الليل التقت ظلمته وظلمة الغبار المرتفع الذى تثيره سنابك الخيل وحركات المتحاربين.

(٢١) الدأب : الشأن والعادة . والمراس : الشدة . والمرح : النشاط والاختيال وشدة الفرح. والغىّ : الضلال . والمراد بالتصابى : الميل إلى الصبا واللهو .

(٢٢) الكرى: النعاس . والخباء : شبه الخيمة ، يعمل من الوبر أو الصوف ، وينصب على عمودين أو ثلاثة . والأهداب : جمع هدب (بضمّ فسكون) : وهو ما نبت من الشعر على أشفار العيون . ومطنّب : مشدود بالأطناب : وهى حبال الأخبية .
والمعنى : أننى دعوت فتيان لهو فى وقت نام فيه الناس .

(٢٣) المربع : الموضع يرتبع القوم فيه ، أى يقيمون به زمن الربيع. والنشر : الرائحة الطيبة والخزامى : بقلة طيبة الرائحة لها نور كنور البنفسج .

(٢٤) ملبّين : مجيبين مطيعين . ووافى : أتى . والربرب : القطيع من بقر الوحش .

(٢٥) الآرام : مقلوب أرآم جمع رئم (بكسر فسكون) وهو الظبى الخالص البياض . والصريم : الرملة المنصرمة ، أى المنقطعة من الرمال . وضوار : جمع ضار ، وهو الكلب الذى ضرى بالصيد ، أى لزمه ، وأولع به ، واعتاده . وسلوق : قرية باليمن ، أو بلد بطرف إرمينية تنسب إليهما الكلاب . وعاطل : غير مطوّق . وملبّب : مطوّق .

(٢٦) ضرّسه : عضه عضاً شديداً ، وضرّس السبع فريسته : إذا مضغ لحمها ولم يبتلعه . والمراد بالتضريس هنا : أخذ الكلب الفريسة بأسنانه بعد صيدها .
والمعنى : أنّ هذه الكلاب لكثرة ما تزاول من الصيد أصبحت لا تطعم إلا من لحم الصيد ، وهو ألذّ طعام .

تَرَى كُلَّ مُحْمَرِّ الْحَمالِيقِ فاغِرٍ ... إِلَى الْوَحْشِ، لايَأْلُو، وَلَا يَتَنَصَّبُ (٢٧)
يَكادُ يَفُوتُ الْبَرْقَ شَدًّا إِذَا انْبَرَتْ ... لَهُ بِنْتُ ماءٍ، أَوْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ (٢٨)
فَمِلْنَا إِلَى وادٍ كَأَنَّ تِلاعَهُ ... مِنَ الْعَصْبِ مَوْشِيُّ الْحَبائِكِ مُذْهَبُ (٢٩)
تُراحُ بِهِ الْآمالُ بَعْدَ كَلالِها ... ويَصْبُو إِلَيْهِ ذُو الْحِجا وَهْوَ أَشْيَبُ (٣٠)
فَبَيْنا نَرُودُ الْأَرْضَ بِالْعَيْنِ إِذْ رَأَى ... رَبِيئَتُنَا سِرْباً، فَقَالَ: أَلَا ارْكَبُوا (٣١)
فَقُمْنا إِلَى خَيْلٍ كَأَنَّ مُتُونَها ... مِنَ الضُّمْرِ خُوطُ الضَّيْمَرَانِ الْمُشَذَّبُ (٣٢)
فَلَمَّا انْتَهَيْنا حَيْثُ أَخْبَرَ أُطْلِقَتْ ... بُزَاةٌ، وَجالَتْ فِي الْمَقَاوِدِ أَكْلُبُ (٣٣)
فما كَانَ إِلَّا لَفْتَةُ الْجِيدِ أَنْ غَلَتْ ... قُدُورٌ، وفارَ اللَّحْمُ، وانْفَضَّ مَأْرَبُ (٣٤)

---

(٢٧) الحماليق: جمع حملاق (بكسر الحاء أو ضمها مع سكون الميم) أو حملوق (كعصفور): وهو ما غطّته الأجفان من بياض مقلة العين. والمراد بمحمر الحماليق: كلب الصيد. واحمرار حماليقه كناية عن شدّة بأسه، وعظم بطشه. وفاغر: فاتح فاه. ولا يألو: لا يقصّر. وتنصّب الشيء: اتّضع. والمراد أنه لا يألم ولا يضعف ولا يتوقف.

(٢٨) شداً: عدواً وجرياً. وانبرت: اعترضت. وبنات الماء: الطيور المائية.

(٢٩) التلاع: جمع تلعة (بفتح فسكون) وهى ما ارتفع من الأرض. والعصب (بفتح فسكون): برد يصبغ غزله ثم ينسج. وموشّى: منقوش. والحبائك: خطوط الثوب وطرائقه. ومذهب: دخل الذهب فى نسجه.

والمعنى: أنّ مرتفعات هذا الوادى كثيرة الشجر والزهر، وزهرها مختلف الألوان، ولهذا تبدو كأنها أثواب مخططة منقوشة مذهبة.

(٣٠) تراح: تستريح. وكلالها: تعبها وإعياؤها. ويصبو: يميل ويحنّ ويشتاق. والحجا: العقل

(٣١) نرود الأرض بالعين: نجول فيها بعيوننا. وربيئتنا: طليعتنا ورائدنا. وسرباً: قطيعاً من الظباء.

(٣٢) متونها: ظهورها، جمع متن (بفتح فسكون). والضمر (بضمّ فسكون): الهزال. والخوط (بضمّ الخاء): الغصن الناعم. والضيمران (بوزن الزعفران): ريحان البرّ، أو الريحان الفارسىّ. والتشذيب: الإصلاح، ونزع ما على الشجر من الأغصان.

(٣٣) البزاة: جمع باز: وهو ضرب من الصقور. وجالت: طافت. والمقاود: جمع مقود (بكسر فسكون): وهو حبل فى العنق للقياد.

(٣٤) الجيد: العنق. والقدور: جمع قدر (بكسر فسكون): وهى إناء يطبخ فيه (مؤنّثة، وقد تذكّر). وانفضّ مأرب: انتهت حاجتنا.

وقُلْنا لِساقِينَا : أَدِرْها ؛ فإِنَّما قُصَارَى بَنِى الْأَيَّامِ أَنْ يَتَشَعَّبُوا(٣٥)
فَقامَ إِلَى رَاقُودِ خَمْرٍ ، كَأَنَّهُ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الْعَيْنُ أَسْوَدُ مُغْضَبُ(٣٦)
يَمُجُّ سُلافاً فى إِناءٍ ، كَأَنَّهُ إِذا ما اسْتَقَلَّتْهُ الْأَنامِلُ كَوْكَبُ(٣٧)
فَلَمْ نَأْلُ أَنْ دَارَتْ بِنَا الْأَرْضُ دَوْرَةً وحَتَّى رَأَيْنا الْأُفْقَ يَنْأَى ويَقْرُبُ(٣٨)
إِلَى أَنْ تَوَلَّى الْيَوْمُ إِلَّا أَقَلَّهُ وقَدْ كادَتِ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ تَغْرُبُ(٣٩)
فَرُحْنَا نَجُرُّ الذَّيْلَ تِيهاً لمنزلٍ بهِ لأَخِى الَّلذَّاتِ واللَّهْوِ مَلْعَبُ(٤٠)
مَسارِحُ سِكِّيرٍ ، ومَرْبِضُ فاتِكٍ ومُخْدَعُ أَكْوابٍ ،بهِ الخَمْرُ تُسْكَبُ(٤١)
فَلَمَّا رآنا صاحِبُ الدارِ أَشْرَقَتْ أَسارِيرُهُ زَهْوًا ، وَجاءَ يُرَحِّبُ(٤٢)
وقَالَ : انْزِلُوا يا بَارَكَ اللهُ فيكُمُ فَعِنْدِى لَكُمْ ما تَشْتَهُونَ وأَطْيَبُ(٤٣)
وَرَاحَ إِلَى دَنٍّ تَكامَلَ سِنُّهُ وَشَيَّبَ فَوْدَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ أَحْقُبُ(٤٤)
فما زالَ حتَّى اسْتَلَّ مِنْهُ سَبِيكَةً مِنَ الخمرِ تَطْفُو فى الْإِناءِ وتَرْسُبُ(٤٥)

---

(٣٥) قصارى الشيء : غايته وآخره . والتشعّب : التفرق .

(٣٦) الراقود : الدنّ الكبير العميق .

(٣٧) يمجّ : يخرج ويرمى . وسلافاً : خمراً . واستقلّته : حملته ورفعته. والأنامل : أطراف الأصابع .

(٣٨) لم نأل : لم نبطئ . وينأى : يبعد . يشير إلى ما شعروا به من أثر الخمر كالدوار ونحوه .

(٤٠) التيه : الصلف والكبرياء .

(٤١) المسارح : جمع مسرح (كمذهب) وهو المرعى ، والمراد مطلق المكان. والمربض (كمجلس) : المأوى . وفاتك : باطش قاتل. والمخدع (بضمّ الميم وكسرها) : خزانة ، أو بيت صغير يحرز فيه الشيء . وتسكب : تصبّ .

(٤٢) الأسارير : خطوط الجبهة ، أو محاسن الوجه ، جمع أسرار ، والأسرار جمع سرر (بوزن عنب) . والزهو : الفخر .

(٤٤) الفود : معظم شعر اللمة (بلام مكسورة وميم مشدده مفتوحة) مما يلى الأذن. والأحقب : جمع حقب (بضم فسكون ، أو بضم الحاء والقاف) : وهو السنة أو أكثر .

(٤٥) استل : أخرج .

يَحُومُ عليها الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ... وَيَسْرِى عَلَيْهَا الطارِقُ الْمُتَأَوِّبُ(٤٦)
فيَا حُسْنَ ذاكَ اليومِ لَوْ كانَ باقياً ... ويا طِيبَ هذا الليلِ لَوْ دامَ طَيِّبُ(٤٧)
يَوَدُّ الْفَتَى ما لا يَكُونُ طَمَاعَةً ... ولَمْ يَدْرِ أَنَّ الدَّهْرَ بالنَّاسِ قُلَّبُ(٤٨)
ولَوْ عَلِمَ الْإِنْسانُ ما فِيهِ نَفْعُهُ ... لأَبْصَرَ ما يَأْتِى وَمَا يَتَجَنَّبُ(٤٩)
ولَكِنَّها الْأَقْدارُ تَجْرِى بِحُكْمِها ... عَلَيْنا ، وأَمْرُ الْغَيْبِ سِرٌّ مُحَجَّبُ(٥٠)
نَظُنُّ بِأَنَّا قادِرُونَ ، وإِنَّنا ... نُقادُ كَمَاقِيدَ الْجَنِيبُ ونُصْحَبُ(٥١)
فَرَحْمَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ علَى امْرِئٍ ... أَصابَ هُداهُ ، أَو دَرَى كَيْفَ يَذْهَبُ(٥٢) *

وقال يُهَنِّئُ « الخديو إسماعيلَ باشا » بوِلايَةِ مصرَ سنةَ تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية (١٢٧٩ هـ ١٨٦٣م) ** :

طَرِبَ الْفُؤادُ ، وكانَ غَيْرَ طَرُوبِ ... والْمَرْءُ رَهْنُ بَشاشَةٍ وَقُطُوبِ(١)

---

(٤٦) يحوم : يدور . ويسرى عليها : يسير على ضوئها . والطارق : اسم فاعل من طرق (من باب دخل) : إذا جاء ليلا . والمتأوّب : كالطارق ، اسم فاعل من تأوّبه : أى أتاه ليلا .

(٤٨) طماعة : طمعاً وحرصاً .

(٥١) الجنيب : الفرس تقوده إلى جنبك . ونصحب (بالبناء للمعلوم) : مضارع أصحب : أى ذل وانقاد بعد نفار (بكسر النون) ، أو هي نصحب (بالبناء للمجهول) بمعنى نجار ونحفظ ، من قول الله تبارك وتعالى (ولا هم منا يصحبون) أى يمنعون ويحفظون ، والمراد نفى القدرة عن الناس . والكلمة التى يتطلبها السياق الشعرى هنا « نسحب » .

* نشرت هذه القصيدة كلها (٥٢ بيتاً) فى ص ٤٨٦ – ٤٨٨ من الوسيلة الأدبية ج ٢ للشيخ حسين المرصفى طبعة سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) بمطبعة المدارس الملكيّة بدرب الجماميز بالقاهرة . ووافقت روايتها ما جاء فى أصل الديوان ، ما عدا كلمة واحدة فى البيت السادس عشر : « وبحر من الهيجاء خضت عبابه . . . » ورواية الوسيلة الأدبية : « عجاجه » . والعجاج : الغبار . أو الدخان . والعباب : ارتفاع الموج ، واصطخابه؛ وهذا أصح وأليق . ورواية الوسيلة الأدبية فى الشطر الثانى من البيت الثانى والخمسين (البيت الأخير) : « أصاب هواه » . وفى أصل الديوان : « أصاب هداه » وهو الصحيح .

** سافر الخديو إسماعيل إلى الآستانة على إثر اعتلائه عرش مصر ؛ ليرفع إلى السلطان عبد العزيز فروض الشكر والولاء . وفى شهر رمضان سنة ١٢٧٩ هـ (فبراير سنة ١٨٦٣ م) عاد البارودى من الآستانة إلى مصر فى حاشية الخديو . وعلى إثر هذه العودة نظم هذه القصيدة ، وهو فى الرابعة والعشرين . وفيها – مع التهنئة ، والمديح ، والشكر ، والوصف – فخر بنفسه وشعره .

(١) البشاشة : طلاقة الوجه . وقطب بين عينيه قطوباً : جمع (وبابه ضرب وجلس) ، وتقطيب الوجه : عبوسه .

وَرَدَ الْبَشِيرُ ، فَقُلْتُ مِنْ سَرَفِ الْمُنَى أَعِدِ الْحَدِيثَ عَلَيَّ ، فَهْوَ حَسِيبِي[٢]
خَبَرٌ جَلَا صَدَأَ الْقُلُوبِ ، فَلَمْ يَدَعْ فِيهَا مَجَالَ تَحَفُّزٍ لِوَجِيبِ[٣]
ضَرَحَ الْقَذَى كَقَمِيصِ "يُوسُفَ" عِنْدَمَا وَرَدَ الْبَشِيرُ بِهِ إِلَى "يَعْقُوبِ"[٤]
فَلْتَهْنَ مِصْرُ وَأَهْلُهَا بِسَلامَةٍ جاءَتْ لَهَا بِالْأَمْنِ بَعْدَ خُطُوبِ[٥]
بِالْمَاجِدِ الْمَنْسُوبِ ، بَلْ بِالْأَرْوَعِ الْـ مَشْبُوبِ ، بَلْ بِالْأَبْلَجِ الْمَعْصُوبِ[٦]
رَبِّ الْعُلَا وَالْمَجْدِ (إِسْمَاعِيلَ) مَنْ وَضَحَتْ بِهِ الْأَيَّامُ بَعْدَ شُحُوبِ[٧]

---

(٢) السرف : مجاوزة الحد . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) ، وهى الأمنيّة . وحسيبى : كافىّ . والمعنى : أنه لما بشّر بولاية الخديو « إسماعيل » رأى أنّ هذه البشرى قد حققت أعظم آماله وأبعد أمانيه ؛ ولهذا تملّكه الفرح ، واستخفّه الطرب ؛ فاستعاد حديثها المحبوب ، وقال : إنه يكفيه ويغنيه عن كل ما عداه .

(٣) تحفّز : تهيّؤ . ووجيب القلب : رجفانه واضطرابه .

والمعنى : أنّ نبأ تولية الخديو إسماعيل قد أنعش نفوس الناس ، وملأ قلوبهم غبطة وطمأنينة .

(٤) ضرحه (كنعه) : دفعه ونحّاه . والقذى : ما يسقط فى العين وفى الشراب ، والمراد به هنا : كل ما يسبب الألم . وفى هذا البيت إشارة إلى قول الله تبارك وتعالى حكاية عن سيدنا يوسف الصديق :

« اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ، وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِين ، وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ : إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ، قَالُوا : تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ؛ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا » الآيات ٩٣ – ٩٦ سورة يوسف .

(٥) الخطوب : جمع خطب : وهو الأمر الشديد ينزل بالناس .

(٦) المنسوب : ذو النسب . والأروع : من يعجبك بحسنه ، وجهارة منظره . أو بشجاعته . والمشبوب : الحسن الوجه . والبلجة (بضم فسكون) : الضوء ، ونقاوة مابين الحاجبين . ويقال للرجل الطلق الوجه ذى الكرم والمعروف : أبلج . والمعصوب : المتوّج .

(٧) الشحوب : تغيّر اللون من هزال ، أو جوع ، أو سفر .

وَرَدَ الْبِلادَ ولَيْلُها مُتَراكِبٌ فأَضاءها كَالْكَوْكَبِ الْمَشْبُوبِ(٨)
بِرَوِيَّةٍ تَجْلُو الصَّوابَ ، وَعَزْمَةٍ تَمْضِي مَضاءَ اللَّهْذَمِ الْمَذْرُوبِ(٩)
مَلِكٌ تَرَفَّعَ أَنْ تَكُونَ صِفاتُهُ إلَّا لَهُ ، أَوْ لابْنِهِ الْمَحْبُوبِ(١٠)
ذو هَيْبَةٍ تَكْفِيهِ سَوْقَ جُنُودِهِ وبَديهَةٍ تُغْنِي عَنِ التَّجْرِيبِ(١١)
نَمَّتْ شَمائِلُهُ عَلَى أَعْراقِهِ نَمَّ النَّسِيمِ عَلَى أَرِيجِ الطِّيبِ(١٢)
أَكْنِي بِزَهْرِ الرَّوْضِ عَنْ أَخْلاقِهِ وَبِنَشْرِهِ عَنْ فَضْلِهِ الْمَرْغُوبِ(١٣)
وأَقُولُ : إنَّ الْبرْقَ يَحْكِي بِشْرَهُ لَوْ كَانَ بَرْقُ الْمُزْنِ غَيْرَ خَلُوبِ(١٤)
فَالْخِصْبُ فى الدُّنْيَا عَلامَةُ عَدْلِهِ والْغَيْثُ فَضْلَةُ جُودِهِ الْمَسْكُوبِ(١٥)
أَجْرَى نَسِيمَ الأَمْنِ بَعْدَ رُكُودِهِ وأَفَاضَ ماءَ الْعَدْلِ بَعْدَ نُضُوبِ(١٦)
وَأَعادَ مِصْرَ إلَى جَمالِ شَبابِها مِنْ بَعْدِ ما لَبِسَتْ خِمارَ مَشِيبِ(١٧)
فَتَنَعَّمَتْ مِنْ فَيْضِهِ فى غِبْطَةٍ وتَمَتَّعَتْ مِنْ عَدْلِهِ بِنَصِيبِ(١٨)
وإذَا أَرادَ اللهُ رَحْمَةَ أُمَّةٍ بَعَثَ الشِّفاءَ لَها بِخَيْرِ طَبِيبِ(١٩)

---

(٨) ليل متراكب : ظلماته بعضها فوق بعض . والمشبوب : المتقد .
ومعنى هذا البيت والذى قبله : أنّ البلاد سعدت بولاية الممدوح وحكمه ؛ فصلحت أحوالها ، واستقامت أمورها .

(٩) اللهذم : السنان القاطع . والمذروب : المحدّ المسنون .

(١٢) نمّت : دلّت . والشمائل : الأخلاق ، مفردها شمال (بكسر الشين) . والأعراق : جمع عرق (بكسر فسكون) : وهو الأصل . والأريج : توهّج ريح الطيب .

(١٣) الكناية : أن تتكلم بشىء وتريد به غيره . والنشر : الرائحة الطيبة .

(١٤) المزن : جمع مزنة (بضم فسكون) وهى السحابة . وخلبه (من بابى قتل وضرب) : إذا خدعه ، والاسم الخلابة (بكسر الخاء) ، والفاعل خلوب (مثل رسول) .

(١٥) الغيث : المطر . والمسكوب : الكثير المنصبّ .

(١٦) ركوده : سكونه . ونضب الماء نضوباً (من باب قعد) : غار فى الأرض .

(١٧) الخمار (بكسر الخاء) : ثوب تغطى به المرأة رأسها .

(١٨) الغبطة : حسن الحال ، والمسرّة .

فَلَقَدْ مَلَكْتَ زِمامَها ، وسَقَيْتَها بَعْدَ الصَّدَى مِنْ رَحْمَةٍ بِذَنُوبِ[٢٠]

فَغَدَتْ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَحْسَنُ بُقْعَةً مِنْهَا لِمُزْدَرِعٍ ، وَلَا لِكَسُوبِ[٢١]

يَسْتَنُّ فِيهَا النِّيلُ بَيْنَ حَدَائِقٍ غُلْبٍ ورَفَّافِ النَّباتِ خَصِيبِ[٢٢]

وتَرَى السَّفِينَ يَجُولُ فَوْقَ سَراتِهِ زَفَّ الرِّئَالِ تَمَطَّرَتْ بِسُهُوبِ[٢٣]

مِنْ كُلِّ راقِصَةٍ عَلَى نَقْرِ الصَّبَا تَخْتَالُ بَيْنَ شَمائِلٍ وجَنُوبِ[٢٤]

مَلَكَتْ أَزِمَّتَها الرِّياحُ ، فَسَيْرُها ضَرْبانِ بَيْنَ تَحَفُّزٍ ودَبِيبِ[٢٥]

فَإِذا أَطَلْتَ عِنانَها وَقَفَتْ ، وإِنْ أَقْصَرْتَهُ سارَتْ بِغَيْرِ لُغُوبِ[٢٦]

---

(٢٠) الزمام : المقود (بكسر الميم وسكون القاف وفتح الواو) : وهو الحبل الذى تقاد به الدابة. والصدى : العطش . والذنوب (كرسول) : الدلو العظيمة الملأى ماء .

(٢١) فغدت : فصارت . وفى الأصل ، فغنت : واللغة الفصيحة « فغنيت » كرضيت أى صارت ذات غنى وثروة . والمزدرع : الزارع . والكسوب : طالب الرزق .

(٢٢) يستن : يجرى ويضطرب . وغلب : جمع غلباء (كخضراء) ، وهى الحديقة المتكاثفة . ورف النبات يرف (بكسر الراء فى المضارع) ، وله وريف ورفيف (بفتح فكسر فيهما) : وهو أن يهتز نضارة وتلألؤاً .

يقول : إن النيل يجرى بين حدائق متكاثفة ، وواد خصيب نضير النبات .

(٢٣) السفين : اسم جمع لسفينة . ويجول : يطوف غير مستقر . والسراة (بفتح السين) : أعلى كل شىء . والزف : الإسراع ، أى يسرع إسراع الرئال . والرئال : أولاد النعام ، مفرده رأل ورألة (بفتح فسكون فيهما) . وتمطرت : ذهبت مسرعة . والسهوب : جمع سهب (بضم فسكون) : وهو المستوى من الأرض فى سهولة . أو سهوب الفلاة : نواحيها التى لا مسلك فيها .

(٢٤) الصبا (بفتح الصاد) : الريح تهب من مطلع الشمس. ونقرها : نفخها وتصويتها . وتختال : تسير فى اختيال ، ومرح ، ونشاط ، وخفة ، وتمايل ، وإعجاب بالنفس . والشمائل : جمع شمال (بفتح الشين) وهى الريح التى تهب من ناحية يسارك وأنت متجه إلى الشرق. والجنوب (بفتح الجيم) : الريح المقابلة للشمال .

(٢٥) الأزمة : جمع زمام (بكسر الزاى) ، وهو فى الأصل مقود البعير ونحوه : أى الحبل الذى يقاد به. وضربان : نوعان . والتحفز : الاجتهاد فى السير والإسراع. ودب يدب (كخف يخف) دبا ودبيباً : مشى على هينته (بكسر الهاء) .

(٢٦) العنان فى الأصل : سير اللجام الذى تمسك به الدابة ، والمراد بإطالة العنان إرخاء حبل الشراع للسفينة . واللغوب : الإعياء والضعف والتعب (وبابه دخل) .

فانْعَمْ بِخَيْرِ وِلايَةٍ وَلَّاكَهــا ... رَبُّ الْعِبادِ بِرَغْمِ كُلِّ رَقِيبِ (٢٧)

ما آثَرُوكَ لهــا بِغيرِ رَوِيَّةٍ ... بَلْ لاعْتِصامِهِمُ بِخَيْرِ لَبِيبِ (٢٨)

فاسْمَعْ مَقالَةَ صادِقٍ لَمْ يَنْتَسِبْ ... لِسِوَاكَ فِي أَدَبٍ وَلَا تَهْذِيبِ (٢٩)

أَوْلَيْتَهُ خَيْرًا ، فَقَامَ بِشُكْرِهِ ... والشُّكْرُ لِلْإِحسانِ خَيْرُ ضَرِيبِ (٣٠)

فاعْطِفْ عَلَيْهِ تَجِدْ سَلِيلَ كَرَامَةٍ ... أَهْــلًا لِحُسْنِ الْأَهْلِ والتَّرْحِيبِ (٣١)

يُنْبِيكَ ظاهِرُهُ بِوُدِّ ضَمِيرِهِ ... والْوَجْهُ وَسْمَةُ مُخْلِصٍ ومُرِيبِ (٣٢)

وَإِلَيْكَ مِنْ حَوْكِ اللِّسانِ حَبِيرَةً ... يُغْنِيكَ رَوْنَقُها عَنِ التَّشْبِيبِ (٣٣)

حَضَرِيَّةَ الأَنْسابِ إِلَّا أَنَّها ... بَدَوِيَّةٌ فِي الطَّبْعِ والتَّرْكِيبِ (٣٤)

وَلِعَتْ بِمَنْطِقِهَا النُّفُوسُ غَرَابَةً ... والنَّفْسُ مُولَعَةٌ بِكُلِّ غَرِيبِ (٣٥)

أَرْسَلْتُها مَثَلًا بِمَدْحِكَ فِي الْوَرَى ... والسَّهْمُ مَنْسُوبٌ لِكُلِّ مُصِيبِ (٣٦)

---

(٢٧) الرقيب : المراقب ، ومراده العدوّ .

(٢٨) آثروك : فضّلوك ، والمعروف آثرت فلاناً بكذا . والرويّة : الفكر والتدبّر . والاعتصام : الاستمساك . واللبيب : العاقل .

(٣٠) أوليته : أعطيته . والضريب : المثل .

(٣١) السليل : الولد . وأهلا : مستأهلا مستوجباً مستحقاً ، ويريد بالأهل الثانية : التأهيل : مصدر أهّل به : بمعنى قال له أهلاً : أي صادفت أهلا لاغرباء . ورحب به ترحيباً : دعاه إلى الرحب (بضم فسكون) : وهو السعة .

(٣٢) ينبيك : يخبرك (وأصله الهمز). ويريد بالوسمة : العلامة . والمريب : المتّهم فى إخلاصه.

(٣٣) الحوك : النسج ، مصدر حاك الحائك الثوب أى نسجه ؛ (وبابه قال) . والحبيرة : الجديدة الموشّاة من الثياب . والرونق : الحسن . وشبّب الشاعر قصيدته : حسّنها وزيّنها بذكر النساء .

(٣٤) المعنى أنها تنسب إلىّ ؛ فهى ؛ حضريّة من هذه الناحية ؛ ولكنها بدويّة الأسلوب والسليقة .

(٣٥) ولع بالشىء (من باب طرِب)، فهو ولِع (بوزن فرِح) . وأولع به (بالبناء للمجهول) فهو مُولَع (بصيغة اسم المفعول) : أى أُغرى به وأُغرِم (بالبناء للمجهول فيهما) وأحبّه ، وتعلّق به تعلّقاً شديداً .

(٣٦) الورى : الخلق (بفتح فسكون)، والناس .

كَلِمٌ أَثَرْتَ بِها جَوَادَ بَراعَةٍ لا يُقْتَفَى فى الْحُضْرِ والتَّقْرِيبِ(٣٧)
تَرَكَ «الْوَلِيدَ» مُلَثَّماً بِغُبَارِهِ وَمَضَى فَكَفْكَفَ مِنْ عِنانِ «حَبِيبِ»(٣٨)
فَاسْتَجْلِها تَلْمَحْ خِلالَكَ بَيْنَها فى وَشْيِ بُرْدٍ لِلْكَلامِ قَشِيبِ(٣٩)
كَزُجاجَةِ التَّصْوِيرِ شَفَّتْ، فاجْتَلَتْ مِنْ وَصْفِهِ ما كان غَيْرَ قَرِيبِ(٤٠)
لا زِلْتَ فِى فَلَكِ الْمَعالِي كَوْكَباً تَهْدِى الضِّياءَ لِأَعْيُنٍ وقُلُوبِ(٤١)

وَقالَ يَذْكُرُ أَيَّامَ الشَّبابِ :

أَعِـدْ يا دَهْرُ أَيَّامَ الشَّبابِ وأَيْنَ مِنَ الصِّبا دَرْكُ الطِّلابِ؟(١)
زَمانٌ كُلَّمـا لاحَتْ بِفِكْرِى مَخَايِلُهُ بَكَيْتُ لِفَرْطِ ما بِى(٢)

---

(٣٧) البراعة : الغلب (بفتح الغين واللام) والتفوّق . (وفعله من بابي خَضَعَ ، وظَرُفَ) . أو هى اليراعة (بالياء) : بمعنى القلم . والكلام على التشبيه : أى يراعة كالجواد السبّاق . ولايقتفى : لا يتبع . والحضر (بضم فسكون) ارتفاع الفرس فى عَدْوِه كالإحضار . أو هو عَدْوٌ ذو وَثْبٍ . والتقريب : ضرب من العدو ، أو أن يرفع الفرس يديه معاً ، ويضعهما معاً .

(٣٨) الوليد : هو أبو عبادة بن عبيد البحترى الطائى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ . وملثما : مشدوداً على فمه وأنفه من الغبار ما يشبه اللثام : وهو النقاب . وكفكف : دفع وصرف . وحبيب بن أوس الطائى : هو أبو تمّام الشاعر النابغة المشهور المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

والمراد : أن هذه القصيدة فاقت بشرف موضوعها ، وجمال نسجها ، شعر هذين الشاعرين المشهورين .

(٣٩) استجلها : انظر إليها . وتلمح : تبصر . وخلالك : خصالك . ووشيت الثوب وشياً (من باب وعد) : رقمته ونقشته . والبرد : الثوب . وقشيب : جديد .

(٤٠) شفّت : صفت فحكت ما وراءها . واجتلت من وصفه . . . إلخ : أى عرضت وصفه مجلوًّا باهراً . والضمير فى وصفه يعود على التصوير بمعنى الشيء المصوَّر (بفتح الواو) أو يعود على الممدوح .

(١) الدرك : اللحاق . والطلاب : ما تطلبه من غيرك ، وهو (فى الأصل) مصدر طالبته مطالبة وطلاباً . يتمنى أن يعيد إليه الدهر أيام الشباب ، ثم يستبعد ذلك فيقول : وأين إدراك المطلوب من الصبا ؟ أى أن الشباب من المطالب التى لا تدرك . أو معنى الشطر الثانى : أن المسافة شاسعة بعيدة بين الصبا ، وبين ما يريده فى هرمه من المطالب التى لا تنال إلا بالصبا والشباب .

(٢) لاحت : ظهرت . والمخايل : جمع مخيلة (بفتح فكسر) وهى ما يتخيّل . والمراد بمخايل زمان الشباب : ذكرياته وصوره .

مَضَى عَنِّى ، وَغادَرَ بِى وَلُوعاً ... تَوَلَّدَ مِنْهُ حُزْنِى واكْتِئابِى[٣]
وَكَيْفَ تَلَذُّ بَعْدَ الشَّيْبِ نَفْسِى؟ ... وَفِى اللَّذَّاتِ إِنْ سَنَحَتْ عَذَابِى[٤]
أَصُدُّ عَنِ النَّعِيمِ صُدُودَ عَجْزٍ ... وَأُظْهِرُ سَلْوَةً وَالْقَلْبُ صَابِى[٥]
ومَا فِى الدَّهْرِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ ... يكُونُ قِوامُهَا رَوْحَ الشَّبَابِ[٦]
فَيَالَلّهِ ! كَمْ لِى مِنْ لَيَالٍ ... بِهِ سَلَفَتْ ، وأَيَّامٍ عِذَابِ[٧]
إِذِ النَّعْماءُ وَارِفَةٌ عَلَيْنَا ... وَمَرْعَى اللَّهْوِ مُخْضَرُّ الْجَنَابِ[٨]
نَطِيرُ مَعَ السُّرُورِ إِذَا انْتَشَيْنَا ... بِأَجْنِحَةِ الْخَلَاعَةِ وَالتَّصَابِى[٩]
فَغُدْوَتُنَا وَرَوْحَتُنَا سَوَاءٌ ... لِعَابٌ فِى لِعَابٍ فِى لِعَابِ[١٠]
وَرُبَّتَ رَوْضَةٍ مِلْنا إِلَيْهَا ... وقَرْنُ الشَّمْسِ تِبْرِىُّ الْإِهَابِ[١١]

---

(٣) الولوع : (بفتح الواو) اسم من ولع بالشىء (من باب فرح) : أى علق به ، وأغرى. والاكتئاب : سوء الحال ، والانكسار من الحزن.

(٤) سنحت : عرضت وظهرت .

(٥) أصدّ : أعرض (بضم الهمزة وسكون العين وكسر الراء) . وسلوة : صبراً ونسياناً. وصاب : مائل ، اسم فاعل من صبا يصبو صبوة وصبوًّا (على فعول) : أى مال إلى الجهل والفتوّة .

(٦) قوام الأمر (بكسر القاف) : نظامه وعماده . وروح الشباب (بفتح الراء) : راحته ونعيمه .

(٧) سلفت : مضت . وعذاب . (بكسر العين) : جمع عذب (بفتح فسكون) : صفة من عذب الماء (من باب سهل) عذوبة (بضم العين والذال) : أى ساغ مشربه وطاب .

(٨) وارفة : متّسعة طويلة ممتدّة . والجناب : الناحية .

(٩) انتشينا : سكرنا . والخلاعة : الاستهتار . والتصابى : الميل إلى دواعى الصبا وجهل الفتوّة ، والتصابى أيضاً : الشوق وتوقان النفس إلى شهواتها .

(١٠) الغدوة : السير فى أول النهار . والروحة : اسم مرة من الرواح ، وهو العودة آخر النهار. واللعاب : مصدر لاعبه ملاعبة ولعاباً . والمعنى : أن سيرنا متشابه فى المرح واللهو واللعب ، وأوقاتنا كلّها فى هذا سواء .

(١١) قرن الشمس : أول شعاعها . والتبر (بكسر فسكون) : الذهب قبل أن يصاغ ويضرب . والإهاب : الجلد .

نَمَتْ أدْوَاحُها، وسَمَتْ، فكانَتْ ... عَلَى السَّاحاتِ أَمْثالَ القِبابِ (١٢)
فَزَهْرُ غُصُونِهَا طَلْقُ المُحَيَّا ... وجَدْوَلُ مائِها عَذْبُ الرُّضابِ (١٣)
كَأَنَّ غُصُونَها غِيدٌ تَهادَى ... مِنَ الزَّهْرِ المُنَمَّقِ فِى ثِيَابِ (١٤)
سَقَتْهَا السُّحْبُ رَيِّقَها، فَمالَتْ ... كَما مَالَ النَّزِيفُ مِنَ الشَّرَابِ (١٥)
فَسَبَّحَ طَيْرُها شُكْرًا، وأَثْنَتْ ... بِأَلْسِنَةِ النَّباتِ عَلَى السَّحَابِ (١٦)
ويَوْمٍ ناعِمِ الطَّرَفَيْنِ نَادٍ ... عَلِيلِ الجَوِّ، هَلْهَالِ الرَّبابِ (١٧)
سَبَقْتُ بِهِ الشُّرُوقَ إلَى التَّصابِى ... بُكُورًا قَبْلَ تَنْعابِ الغُرابِ (١٨)
وسُقْتُ مَعَ الغُواةِ كُمَيْتَ لَهْوٍ ... جَمُوحاً، لا تَلِينُ عَلَى الجِذَابِ (١٩)
إذَا أَلْجَمْتَهَا بِالمَاءِ قَرَّتْ ... ودَارَ بِجِيدِها لَبَبُ الحَبابِ (٢٠)

(١٢) الأدواح: جمع دوح (بفتح فسكون)، والدوح: جمع دوحة (بفتح فسكون): وهى الشجرة العظيمة. والساحات: جمع ساحة: وهى الناحية، وفضاء بين الدور، والمراد الفضاء بين الأشجار. والقباب: جمع قبة (بقاف مضمومة وباء مشددة مفتوحة).

(١٣) المحيّا: الوجه، وطلق المحيّا: مشرق الوجه، جميل المنظر. والرضاب: الريق المرشوف. وماء عذب الرضاب: أى سائغ طيّب هنىء، يستمرئه شاربه: أى يترشّفه بلذّة، كأنه الرضاب.

(١٤) الغيد: جمع غيداء، وهى المرأة المتثنّية ليناً. وتهادى: أصلها تتهادى، أى تتمايل فى مشيتها. والمنمّق: المحسّن المزيّن. و«مِنْ»: بيانية؛ فغصون الروضة كأنّها غيد تتهادى فى ثيابٍ من الزهر المنمّق.

(١٥) الريّق: الخالص، وريّق السحب: ماؤها العذب النقّى. والنزيف: السكران. ويريد بالشراب الخمر.

(١٧) ناد: بليل الهواء. وعليل الجوّ: لطيف الهواء. وهلهال: رقيق. والرباب: السحاب الأبيض، واحدته ربابة. (بوزن سحابة وسحاب).

(١٨) التصابى: الانهماك فى دواعى الصبا، وجهل الفتوّة. وتنعاب: صياح.

(١٩) الغواة: جمع غاو وهو الضالّ، والمراد بالغواة (هنا): الندامى (بفتح النون والميم)، وهم الذين يجالسونه على الشراب. والكميت: الفرس لونها أحمر قانىء. ويريد بها الخمر. وجموحا: صفة من جمح الفرس (من باب خضع): أى اعتزّ فارسه: أى عتا عن أمره، وغلبه. والجذاب: مصدر جاذبه: أى حوّله عن موضعه. ولا تلين على الجذاب: تأكيد لمعنى الجموح.

(٢٠) ألجمتها بالماء: المراد مزجتها به. وقرّت: استقرّت وسكنت. والجيد: العنق. واللبب (فى الأصل): موضع القلادة من العنق، وقد أطلقه هنا على القلادة نفسها. والحباب: نفّاخات الشراب: أى الفقاقيع التى تعلوه، واسمها اليعاليل.

مُوَرَّدَةً إِذَا اتَّقَدَتْ بِكَفٍّ جَلَتْها لِلأَشِعَّةِ فى خِضابِ (٢١)
هُوَ الْعَصْرُ الَّذِى دَارَتْ عَلَيْنَا بِهِ اللَّذَّاتُ واضِعَةَ النِّقابِ (٢٢)
نُجاهِرُ بِالْغَرامِ ، وَلَا نُبالِى وَنَنْطِقُ بِالصَّوابِ ، ولا نُحَابِى (٢٣)
فَيَالَكَ مِنْ زَمانٍ عِشْتُ فِيهِ نَدِيمَ الرَّاحِ والْهِيفِ الكِعابِ (٢٤)
إِذَا ذَكَرْتُهُ نَفْسِى أَبْصَرَتْهُ كَأَنِّى مِنْهُ أَنْظُرُ فى كِتابِ (٢٥)
تَحَوَّلَ ظِلُّهُ عنِّى ، وأَذْكَى بِقَلْبِى لَوْعَةً مِثْلَ الشِّهابِ (٢٦)
كَذاكَ الدَّهْرُ مَلَّاقٌ خَلُوبٌ يَغُرُّ أَخَا الطَّمَاعَةِ بِالْكِذَابِ (٢٧)
فَلَا تَرْكَنْ إِلَيْهِ ، فَكُلُّ شَىْءٍ تَراهُ بِهِ يَئُولُ إِلَى ذَهابِ (٢٨)
وَعِشْ فَرْدًا ؛ فَمَا فِى النّاسِ خِلٌّ يَسُرُّكَ فى بِعادٍ واقْتِرابِ (٢٩)
حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ مَلِيًّا وذُقْتُ الْعَيْشَ مِنْ أَرْىٍ وَصابِ (٣٠)

---

(٢١) جلتها : أوضحتها وكشفتها . والخضاب : ما يختضب به ، كالحناء ونحوه .
يقول : إن هذه الخمر وردية اللون ، تشتعل فى كفّ ساقيها وشاربها ، فتظهر الكفّ لمن يراها كأنها مخضوبة ، بسبب ما يسقط عليها من أشعة الخمر .

(٢٢) النقاب : ما تغطّى به المرأة وجهها . ووضعتْ خمارَها ، أونقابها : خلعتْه ، وكشفتْ عن وجهها . ووضع النقاب هنا : كناية عن الخلاعة ، وترك الحياء ، وركوب الهوَى ، والتمادى فى اللذّات .

(٢٣) نحابى : نسامح ونجامل .

(٢٤) النديم : من ينادمك : أى يجالسك على الشراب. والراح : الخمر . والهيف : جمع هيفاء : وهى المرأة الضامرة البطن والخاصرة . والكعاب (بكسر الكاف) : جمع كاعب ، وهى الجارية نهد ثديها : أى ظهر وبرز .

(٢٦) أذكى : أشعل وأوقد . واللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حبّ أو همّ ونحوه. والشّهاب : شعلة من نار ساطعة .

(٢٧) ملاّق : خدّاع . وخلوب : خادع . ويغرّ : يخدع . والطماعة : الطمع .

(٢٩) خلّ : صديق .

(٣٠) حلب الدهر أشطره : مرّ به خيره وشرّه . ومليًّا : أى زماناً طويلا. والأرى : العسل. والصاب : شجر مرّ ، الواحدة صابة . والمراد بأرى العيش وصابه : حلو الحياة ومرّها .

فَمَا أَبْصَرْتُ . فِى الْإِخْوَانِ نَدْباً يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامَةِ والْعِتابِ(٣١)
وَلَكِنَّا نُعاشِرُ مَنْ لَقِينَا عَلَى حُكْمِ الْمُرُوءَةِ والتَّغَابِى(٣٢)

وَقَالَ وَهُوَ بِسَرَنْدِيبَ يَتَشَوَّقُ إلى مِصْرَ ، وَيَرْثِى صَدِيقَيْهِ : الأستاذَ الشيخَ حُسَيْناً الْمَرْصَفِىَّ ، وعَبْدَ اللهِ باشا فِكْرِى *

أَيْنَ أَيَّامُ لَذَّتِى وشَبَابِى؟ أَتُراهَا تَعُودُ بَعْدَ الذَّهابِ ؟(١)
ذَاكَ عَهْدٌ مَضَى ، وأَبْعَدُ شَىْءٍ أَنْ يَرُدَّ الزَّمانُ عَهْدَ التَّصَابِى(٢)
فَأَدِيرَا عَلَّىَّ ذِكْراهُ ؛ إِنِّى مُنْذُ فارَقْتُهُ شَدِيدُ الْمُصابِ(٣)
كُلُّ شَىْءٍ يَسْلُوهُ ذُو اللُّبِّ إِلَّا ماضِىَ اللَّهْوِ فِى زَمانِ الشَّبابِ(٤)
لَيْتَ شِعْرِى مَتَى أَرَى رَوْضَةَ الْمَنْـ يَلِ ذاتَ النَّخِيلِ والْأَعْنابِ(٥)
حَيْثُ تَجْرِى السَّفِينُ مُسْتَبِقاتٍ فَوْقَ نَهْرٍ مِثْلِ اللُّجَيْنِ الْمُذابِ(٦)
قَدْ أَحاطَتْ بِشَاطِئَيْهِ قُصُورٌ مُشْرِقاتٌ يَلُحْنَ مِثْلَ الْقِبابِ(٧)
مَلْعَبٌ تَسْرَحُ النَّواظِرُ مِنْهُ بَيْنَ أَفْنانِ جَنَّةٍ وشِعابِ(٨)

---

(٣١) الندب : الخفيف فى الحاجة . والظريف . والنجيب .

(٣٢) التغابى : التغافل .

ومعنى البيت : أننا نغضى على هفوات معاشرينا مروءة منا ، وتغافلا .

* توفى عبد الله باشا فكرى ، والشيخ حسين المرصفى سنة ١٣٠٧ هـ .

(١) أتراها : أتظنها .

(٢) يريد بعهد التصابى : زمن الشباب ، ودواعى الصبا .

(٥) ليت شعرى : ليتنى أعلم .

(٦) السفين : اسم جمع لسفينة . ومستبقات : متسابقات يسبق بعضها بعضًا . واللجين : الفضّة .

(٧) مشرفات (بالفاء) : عاليات مرتفعات . أوهى مشرقات (بالقاف) : أى مضيئات منيرات ، ذات بهجة و رُواء : من الإشراق : وهو الإضاءة والحسن والتلألؤ . ويلحن : يظهرن . والقباب : جمع قبّة .

(٨) تسرح : ترتع وتمتع . والأفنان : جمع فنن (بفتحتين) : وهو الغصن . والشعاب : جمع شِعْب (بكسر فسكون) : وهو مسيل الماء .

كُلَّما شَافَهَ النَّسِيمُ ثَراهُ عادَ مِنْهُ بِنَفْحَةٍ كَالْمَلابِ(٩)
ذَاكَ مَرْعَى أُنْسِي ، ومَلْعَبُ لَهْوِى وَجَنَى صَبْوَتِى ، ومَغْنَى صِحابِي(١٠)
لَسْتُ أَنْساهُ ما حَيِيتُ ، وحاشَا أَنْ تَرانِى لِعَهْدِهِ غَيْرَ صَابِي(١١)
لَيْسَ يَرْعَى حَقَّ الْودادِ ، ولا يَذْ كُرُ عَهْدًا إِلَّا كَرِيمُ النِّصابِ(١٢)
فَلَئِنْ زالَ فاشْتِيَاقِى إِلَيْهِ مِثْلُ قَوْلِى باقٍ عَلَى الْأَحْقَابِ(١٣)
يا نَدِيمَيَّ مِنْ «سَرَنْدِيبَ» كُفَّا عَنْ مَلامِى ، وخَلِّيانِى لِمَا بِى(١٤)
كَيْفَ : لا أَنْدُبُ الشَّبابَ؟ وقَدْأَصْ بَحْتُ كَهْلاً فِى مِحْنَةٍ واغْتِرابِ(١٥)
أَخْلَقَ الشَّيْبُ جِدَّتِى ، وَكَسَانِى خِلْعَــةً مِنْهُ رَثَّةَ الْجِلْبابِ(١٦)
وَلَوَى شَعْرَ حاجِبَيَّ عَلَى عَيْـ نَيَّ حَتَّى أَطَــلَّ كَالْهُدَّابِ(١٧)
لا أَرَى الشَّيْءَ حِينَ يَسْنَحُ إِلاَّ كَخَيالٍ ، كَأَنَّنِى فى ضَبابِ(١٨)
وَإِذا ما دُعِيتُ حِرْتُ ، كَأَنِّى أَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ وَرَاءِ حِجابِ(١٩)

---

(٩) شافهه : داناه وقاربه . والثرى : الندى ، والتراب الندىّ ، والأرض . والنفحة : الرائحة الطيّبة . والملاب (كسحاب) : عطر ، أو هو الزعفران .

(١٠) الجنى : كل ما يجنى. والصبوة: جهلة الفتوّة . والمغنى : المنزل الذى غنى (كرضى) به أهله ، أى أقاموا فيه وعاشوا ، ثم ظعنوا .

(١١) صاب : مائل ، مشوق .

(١٢) النصاب : الأصل .

(١٣) الأحقاب : جمع حقب (بضم فسكون أو بضمتين) : وهو الدهر ، أو السنة .

(١٤) النديم : من ينادمك ، أى يجالسك على الشراب .

(١٥) ندب الميت : بكى عليه ، وعدّد محاسنه. والكهل: من وخطه الشيب (كوعده) : أى خالطه . والمحنة : البلوى .

(١٦) أخلق: أبلى وأفنى. وجدّ الشىء يجدّ جدّة (بكسر الجيم فيهما) : صار جديداً : وهو نقيض الخلق (بفتح الخاء واللام) . والخلعة : ما تمنحه غيرك من الثياب . ورثّة : بالية .

(١٧) الهدّاب : خمل الثوب (بفتح الخاء وسكون الميم) : أى الخيوط التى تبقى فى طرفيه دون أن يكمل نسجها .

(١٨) يسنح : يعرض ويظهر .

(١٩) حرت : ترددت ، ولم أدر وجه الصواب .

كُلَّمَا رُمْتُ نَهْضَةً أَقْعَدَتْنِي ... وَنْيَـــةٌ لا تُقِلُّها أَعْصابِي(٢٠)

لم تَدَعْ صَوْلَةُ الْحَوادِثِ مِنِّي ... غَيْرَ أَشْلاءِ هِمَّةٍ في ثِيَابِ(٢١)

فَجَعَتْنِي بِوالِدَيَّ وأَهْلِي ... ثُمَّ أَنْحَتْ تَكُرُّ في أَتْرابِي(٢٢)

كُلَّ يَوْمٍ يَزُولُ عَنِّي حَبِيبٌ ... يَا لِقَلْبِي مِنْ فُرْقَةِ الْأَحْبابِ!(٢٣)

أَيْنَ مِنِّي (حُسَيْنُ)؟ بَلْ أَيْنَ (عَبْدُاللَّـ ... ـهِ)؟ رَبُّ الْكَمالِ والْآدابِ(٢٤)

مَضَيا غَيْرَ ذُكْرَةٍ ، وبَقاءُ الذِّ ... كْرِ فَخْرٌ يَدُومُ لِلْأَعْقَابِ(٢٥)

لَمْ أَجِدْ مِنْهُما بَدِيلًا لِنَفْسِي ... غَيْرَ حُزْنِي عَلَيْهِما واكْتِئابِي(٢٦)

قَدْ لَعَمْرِي عَرَفْتُ دَهْرِي ، فَأَنْكَرْ ... تُ أُمُورًا ما كُنَّ لِي في حِسابِ(٢٧)

---

(٢٠) رمت : أردت وطلبت. ونى في الأمر ونياً : ضعف وفتر ، والونية : اسم مرة منه . وتقلّها : تحملها .

يريد : أنّ أعصابه لا تطيق ما وصل إليه من الضعف .

(٢١) الصولة : السطوة. والأشلاء : جمع شلو (بكسر فسكون) : وهو العضو ، أو بقيّة الشيء. يقول : إنّ حوادث الدهر ونوازله قد اشتدّت عليه حتّى أنحلته وأضعفته ، ولم تترك في ثيابه غير بقايا من همّته . وهو بهذا يأسى على ما صار إليه من نحول وضعف وشيب ، ويفخر بما بقي من همّته الرفيعة وعزمه القويّ ؛ على الرغم من صولة الحوادث ، وسطوة الزمان .

(٢٢) الفجع : أن يوجع الإنسان بشيء يكرم عليه فيعدمه . وأنحت : أقبلت . والكرّ : أن يفرّ الفارس للجولان ، ثم يعود للقتال ، والمراد : تصيب. والأتراب : جمع ترب (بكسر فسكون) : وهو من ولد معك ، ومن ساواك في السنّ .

(٢٥) الذكرة : ضدّ النسيان ، والذكرة أيضًا : الصيت . والمعنى : أنهما مضيا ولم ينس صيتهما . والذكر (بكسر فسكون) : الصيت والثناء والشرف والعلاء . والأعقاب : جمع عقب (بفتح فكسر ، أو بفتح فسكون) : وهو ولد الرجل ، وولد ولده .

(٢٦) الاكتئاب : سوء الحال ، والانكسار من الحزن .

(٢٧) لعمري : وحياتي . يشير إلى أنه لما عرف دهره ، وفطن لأحوال الناس في زمانه ، أنكر كثيراً من أمورهم ، ولم ترقه أخلاقهم ؛ ولهذا صرّح في البيت الآتي بأنه اعتزلهم ، واجتنب صحبتهم .

تَجَنَّبْتُ صُحْبَةَ الناسِ حَتَّى ... كانَ عَوْناً عَلى التُّقَاةِ اجْتِنابِي[٢٨]
لا أُبالِي بما يُقالُ وإنْ كُنْـ ... ـتُ مَلِيئاً بِرَدِّ كُلِّ جَوابِ[٢٩]
قَدْ كَفانِي بُعْدِي عَنِ الناسِ أَنِّي ... فِي أَمانٍ مِنْ غِيبَةِ الْمُغْتابِ[٣٠]
فَلْيَقُلْ حاسِدِي عَلَيَّ كَمَا شا ... ءَ ؛ فَسَمْعِي عَنِ الْخَنَا فِي احْتِجابِ[٣١]
لَيْسَ يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ ، ولكِنْ ... أَتَغابَى ، والْحَزْمُ إِلْفُ التَّغَابِي[٣٢]
وكَفَى بِالْمَشِيبِ وهُوَ أَخُو الْحَزْ ... مِ دَلِيلاً إِلى طَرِيقِ الصَّوابِ[٣٣]
إِنَّما الْمَرْءُ صُورَةٌ سَوْفَ تَبْلَى ... وَانْتِهاءُ الْعُمْرانِ بَدْءُ الْخَرابِ[٣٤]

وقال يرُوضُ* القولَ :

سَلُوا عَنْ فُؤادِي قَبْلَ شَدِّ الرَّكائِبِ ... فَقَدْ ضاعَ مِنِّي بَيْنَ تِلْكَ الْمَلاعِبِ[١]
أَغارَتْ عَلَيْهِ ؛ فاحْتَوَتْهُ بِلَحْظِها ... فَتاةٌ لَهَا فِي السِّلْمِ فَتْكُ الْمُحارِبِ[٢]
فَلا تَبْرَحُوا أَوْ تَسْأَلُوهَا ؛ فَرُبَّمَا ... أَعادَتْهُ ، أَوْ جاءَتْ بِوَعْدٍ مُقارِبِ[٣]
وَكَيْفَ تُوارِيهِ ؟ وَهَذا أَنِينُهُ ... يَدُلُّ عَلَيْهِ السَّمْعَ مِنْ كُلِّ جانِبِ[٤]

---

(٢٨) التقاة : التقوى ، وهي أن تحفظ نفسك مما يغضب الله تعالى .
يريد أن تجنّبه صحبة الناس قد أعانه على اتّقاء شرّهم ، أو على تقوى الله تبارك وتعالى ، فهو لا يخوض معهم فى أحاديث الغيبة ، ولا يجاريهم فى آثامهم .

(٢٩) الملىء : القادر على الشىء ، يقال : هو ملىء بكذا : أى مضطلع به .

(٣٠) الغيبة (بكسر الغين) : أن تذكر غيرك بما يكره ، أى أن تتكلم خلفَ إنسانٍ مستور بما يَغُمُّه لو سَمِعَه ، فإن كان صدقاً سُمّى غيبةً ، وإنْ كان كذباً سُمّى بهتاناً . وهى اسمٌ من اغتابه اغتياباً . والمُغتابُ : اسم فاعلٍ منه . يريد : أن بعده عن الناس جعله فى أمن من شرّ الغيبة ، ولكن عبارة البيت لا تحسن أداء هذا المعنى .

(٣١) الخنا : الفحش والقبح (بضمّ فسكون فيهما) .

(٣٢) أتغابى : أتغافل ، وأظهر الغباوة ، وهى قلّة الفطنة .

(٣٣) الحزم : أن يضبط الإنسان أمره ، ويتقن رأيه ، ويأخذ فيه بالثقة . (وفعله من باب ضَرَبَ) .

(٣٤) تبلى : تهلك وتفنى .

* يروض القول : يذلله ، ويمرّن نفسه عليه . (وباله قال) . ومن كلامهم : راض الشاعر القوافى الصعبة ، فارتاضَتْ له .

(٢) اللحظ : النظر بمؤخر العين . وجمعه ألحاظ . ومن كلامهم : فتنته ألحاظها . والفتك : البطش ، أو القتل على غفلة .

فَيَا سَرَوَاتِ الْحَيِّ ! هَلَّا أَجَبْتُمُ دَعاءَ فَتًى مِنْكُمْ قَرِيبِ الْمَنَاسِبِ(٥)

إذا لَمْ تُعِينُونِى وَأَنْتُمْ عَشِيرَتِى فَسِيرُوا وخَلُّونِى ، فَلَسْتُ بِذَاهِبِ(٦)

أَيَذْهَبُ قَلْبِى غِيلَةً ، ثُمَّ لا أَرَى لَهُ بَيْنَكُمْ مِنْ ثائرٍ أَوْمُطالِبِ ؟(٧)

إذا الْمَرْءُ لَمْ يَنْصُرْ أَخاهُ بِنَفْسِهِ لَدَى كُلِّ مَكْرُوهٍ فَلَيْسَ بصاحِبِ(٨)

فَلا تَعْذِلُونِى إنْ تَخَلَّفْتُ بَعْدَكُمْ فَما أَنَا عَنْ مَثْوَى الْفُؤَادِ براغِبِ(٩)

فَثَمَّ جَنابٌ لا يُراعُ نَزِيلُهُ بِنَائِرَةٍ ، لَوْلا عُيُونُ الْكَوَاعِبِ(١٠)

إذا سارَ فيهِ الطَّرْفُ قِيدَ بَنانَةٍ تَعَثَّرَ ما بَيْنَ الْقَنا والْقَوَاضِبِ(١١)

وبَيْنَ الْعَوالِى فِى الْخُدُورِ نَوَاشِئٌ مِنَ الْعِينِ حُمْرُ الْحَلْىِ بِيضُ التَّرائِبِ(١٢)

(٥) السروات: جمع سراة (بفتح السين): اسم جمع لسرىّ (كغنىّ)، وهو الرئيس الشريف ذو المروءة . والحىّ : العشيرة ، أو البطن من بطون العرب : وهو دون القبيلة . . والمناسب : الأنساب والقرابات . و« قريب المناسب » : تأكيد لمعنى قوله : « فتى منكم » .

(٧) الغيلة : (بوزن الحيلة) : الخديعة والاغتيال ، يقال : قتله غيلة : وهو أن يخدعه ، فيذهب به إلى موضع ، فيقتله فيه . وثائر : اسم فاعل من ثر (من باب قطع): أى أخذ بالثأر .

(٩) لاتعذلونى : لا تلومونى (وبابه نصر وضرب) . ومثوى الفؤاد : مقامه ومستقرّه ، وهو اسم مكان من ثوى بالمكان : أى أقام به .

(١٠) الجناب : فِناء الدار ، أو المحلّة ، أو الناحية . ويقال: أنا فى جناب فلان: أى فى كنفه ورعايته . ويراع : يفزّع ويخوّف (بالبناء للمجهول) . والنزيل : الضيف . والنائرة : العداوة والشحناء . والكواعب : جمع كاعب : وهى الجارية التى كعب ثديها : أى نهد وبرز ، وظهر ، وارتفع .

يريد : أن هذا المكان أمنه مستتب ، وأسباب السعادة موفورة فيه ؛ لولا ما يتعرّض له نازله من سحر عيون الحسان ، ونظراتهن الفاتنة .

(١١) الطرف: (بفتح فسكون) العين . أو هى الطرف (بالكسر الطاء): وهو الحصان الكريم. وقيد (بكسر القاف) :قدر . يقال بينهما قيد شبر . أى مقدار شبر . والبنانة : واحدة البنان ، وهى أطراف الأصابع . وتعثّر : زلّ وكبا ، وسقط . والقنا : جمع قناة : وهى الرمح . والقواضب : جمع قاضب : وهو السيف القطّاع .

والمعنى : أن المرء فى هذا الجناب يرى كثيراً من الغيد الحسان فى صيانة حماة شجعان من أهلهن مدجّجين بالرماح والسيوف. وفى البيت إشارة إلى كثرة الحماة والحفظة ، وكثرة أسلحتهم .

(١٢) العوالى : جمع عالية : وهى أعلى الرمح ، أو النصف الذى يلى السنان ، أو رأس الرمح. والخدور : جمع خدر ، وهو الستر (بكسر فسكون فيهما) . والنواشئ : جمع ناشئة ، وهى الجارية جاوزت حدّ الصغر ، وشبّت . والعين (بكسر العين) : جمع عيناء : وهى التى عظم سواد عينها فى سعة مستحسنة . والحلى : ما تتزين به المرأة من المصوغات ونحوها ، والجمع حلىّ ، كثدى وثدىّ . والترائب : عظام الصدر ، واحدتها تريبة ، المراد أنهن بيض الأجسام .

إذا هُنَّ رَفَّعْنَ السُّجُوفَ أَرَيْنَنا ... مَحاسِنَ تَدْعُو لِلصِّبا كُلَّ راهِبِ (١٣)
جَلَوْنَ بِحُلْوانَ الْوُجُوهَ كَواكِباً ... فَيامَنْ رَأَى فِى الْأَرْضِ سَيْرَ الْكَواكِبِ (١٤)
وَفَوَّقْنَ أَلْحاظاً ، فَأَصْمَيْنَ أَنْفُساً ... بِلا تِرَةٍ إلَّا مَجانَةَ لاعِبِ (١٥)
فَكَمْ مِنْ صَرِيعٍ فِى حَبائِلِ مُقْلَةٍ ... وَكَمْ مِنْ أَسِيرٍ فِى قُيُودِ ذَوائِبِ (١٦)
لَعَمْرُكَ ما فِى الْأَرْضِ وَهْىَ رَحِيبَةٌ ... كَغِزْلانِ هَذا الْحَىِّ عُذْرٌ لِناسِبِ (١٧)
فَلا تَطْلُبَنَّ الْحُسْنَ فِى غَيْرِ أَهْلِهِ ... فَأَبْدَعُ ما فِى الْأَرْضِ حُسْنُ الْأَعارِبِ (١٨)
فَهُنَّ الْأُلَى عَوَّدْنَ قَلْبِى عَلَى الْهَوَى ... وَأَخْلَفْنَ ظَنِّى بِالْعِدَاتِ الْكَواذِبِ (١٩)
وَتَيَّمْنَنِى حَتَّى إذا ما تَرَكْنَنِى ... أَخَا سَقَمٍ أَسْلَمْنَنِى لِلنَّوائِبِ (٢٠)

---

(١٣) السجوف : جمع سجف (بكسر السين أو فتحها وسكون الجيم) : وهو الستر (بكسر فسكون) والصِّبا : جهلة الفتوّة ، واللهو من الغزل والعشق والغرام . والراهب : المتعبِّد .

والمراد : أنّ محاسنهن باهرة ساحرة تفتن العابد ، وتشغل قلبه ، وتصرفه عن النسك والعبادة .

(١٤) جلون : أوضحن وكشفن .

(١٥) فوّق السهم: جعل له فوقا (بضم الفاء) : وهو موضع الوتر من السهم أو فوّقه : وضعه فى الوتر عند الرمى . واللحظ : النظر بمؤخر العين ، والجمع ألحاظ . وأصمى الصائد الصيد : رماه فقتله مكانه وهو يراه . والترة (بوزن العدة): الذحل(بفتح فسكون) : أى الثأر . والمجانة : عدم المبالاة ، أو الهزل . يقول : إن هؤلاء الحسان صوّبن إلى العشّاق من نظراتهن الفاتنة الساحرة ما يشبه السهام، فصيّرنهم قتلى العشق صرعى الغرام ، ولم يكن ذلك منهن عن ترة وثأر ، وإنما هو اللعب والمجانة .

(١٦) صريع : المراد قتيل الحبّ والغرام ، وأصل الصريع الطريح على الأرض، فهو فعيل بمعنى مفعول . والحبائل : جمع حبالة (بكسر الحاء) : وهى شرك الصائد (بفتح الشين والراء) . والمقلة : العين . والذوائب : جمع ذؤابة ، وهى الضفيرة من الشعر إذا كانت مرسلة .

(١٧) رحيبة : واسعة . ويريد بالغزلان : الفتيات الجميلات . ونسب الشاعر بالمرأة (كضرب) نسبا (بفتحتين) ونسيباً : شبّب بها فى الشعر ، وتغزّل ، وعرّض بهواها وحبها ..

والمعنى : أنّ الأرض على سعتها ليس بها من الحسان من يكون أدعى لعذر الناسبين والمتغزّلين من نساء هذا الحىّ .

(١٨) الأعارب : جمع أعراب ، وهم من العرب : سكّان البادية .

(١٩) الهوى . الحب .

(٢٠) تيّمه تتييماً : استعبده ، وذلّله ، وذهب بعقله . ويقال : تيّمته حبيبته ، وتيّمه العشق . وسقم : مرض . والنوائب : النوازل والشدائد .

وَمَا كُنْتُ لَوْلاهُنَّ أَسْتَقْبِلُ الصَّبَا ... وأَسْأَلُ عَنْ أَهْلِ الحِمَى كُلَّ راكِبِ (٢١)
وَمَا زَادَ ماءُ النِّيلِ إلَّا لِأَنَّنِي ... وَقَفْتُ بِهِ أَبْكِي فِرَاقَ الْحَبَائِبِ (٢٢)
فَياصاحِبِي ، اهلْ مِنْ فَكَاكٍ لِوَاقِعٍ ... بِأَسْرِ الْهَوَى، أَوْ مِنْ نَجاةٍ لِهَائِبِ (٢٣)
خَضَعْتُ لِأَحْكامِ الْهَوَى بَعْدَ عِزَّةٍ ... وَما كُنْتُ لَوْلَا الْحُبُّ طَوْعَ الْجَوَاذِبِ (٢٤)
وإنَّا أُناسٌ لا تَهَابُ نُفُوسُنَا ... لِقَاءَ الأَعَادِي ،أَوْ قِرَاعَ الْكَتَائِبِ (٢٥)
نَرُدُّ عَلَى الأَعْقَابِ كُلَّ سَرِيَّةٍ ... وَنَعْجِزُ عَنْ نَبْلِ الْعُيُونِ الصَّوَائِبِ (٢٦)
فَلَوْ كانَ هذا الْحُبُّ شَخْصًا مُحارِباً ... لَأَوْجَرْتُهُ فَوْهَاءَ رَيَّا الْجَوَانِبِ (٢٧)
وَلَكِنَّهُ الْخَصْمُ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ ... رِقابُ أُناسٍ أَخْضَعُوا كُلَّ غالِبِ (٢٨)
فَلَا يَحْسَبَنَّ النَّاسُ قَوْلِي فُكاهَةً ... فَإِنَّ الْهَوَى بَحْرٌ كَثِيرُ الْعَجَائِبِ (٢٩)
إذا الْمَرْءُ لم يَفْرِ الأُمُورَ بِعِلْمِهِ ... تَحَيَّرَ مابَيْنَ اخْتِلافِ الْمَذَاهِبِ (٣٠)

وقالَ وَهُوَ بِسَرَنْدِيبَ :

لِكُلِّ دَمْعٍ جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ سَبَبُ ... وَكَيْفَ يَمْلِكُ دَمْعَ الْعَيْنِ مُكْتَئِبُ ؟ (١)
لَوْلَا مُكَابَدَةُ الْأَشْوَاقِ ما دَمَعَتْ ... عَيْنٌ ،وَلَابَاتَ قَلْبٌ فِي الْحَشَا يَجِبُ (٢)

---

(٢١) الصَّبا : الريح تهبّ من مطلع الشمس . والحمى : المكان الذى لا يقرب ، ولا يُجترأ عليه ، ويريد بالحمى : ديار الأحباء .

(٢٢) الحبائب : جمع الحبيبة : أى المحبوبة .

(٢٣) فكاك (بفتح الفاء و كسرها) : خلاص . وهائب : خائف .

(٢٤) يراد بالجواذب : الحسان اللاتى يجتذبن العشّاق إليهن بحسنهن . أو يراد بها : دواعى الهوى وآثاره . جمع جاذبة : اسم فاعل من جذَبه (من باب ضرب) : أى حوّله عن موضعه. والمراد بالجذْب أو الاجتذاب : التدليه ، والاستهواء ، والاستمالة .

(٢٥) القراع (بكسر القاف) : القتال والمغالبة : مصدر قارعه . . والكتائب : جمع كتيبة : وهى الفرقة من الجيش.

(٢٦) الأعقاب : جمع عقب (بفتح فكسر) : وهى مؤخّر القدم. والسريّة : قطعة من الجيش ، فعيلة بمعنى فاعلة؛ لأنها تسرى فى خفية (بضم فسكون) . والنبل : السهام العربية ، وهى مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها.

(٢٧) أوجره الرمح : طعنه به فى فيه . وطعنة فوهاء: واسعة . وروى من الماء (كرضى) فهو ريّان وهى ريّا . والمراد : أن الدم يسيل من جوانب هذه الطعنة .

(٣٠) فرى الشىء يفريه : قطعه على وجه الإصلاح (وبابه رمى) . والمراد معالجة الأمور بتدبّر وروية وإصلاح .

(١) مكتئب : منكسر حزين .

(٢) مكابدة : مقاساة . ووجب القلب يجب وجيباً : اضطرب .

فَيَا أَخَا الْعَذْلِ لا تَعْجَلْ بلائمَة عَلَيَّ ؛ فالْحُبُّ سُلْطانٌ لَهُ الْغَلَبُ(٣)
لَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ عَقْلٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ فِى ظُلْمَةِ الشَّكِّ لم تَعْلَقْ بِهِ النُّوَبُ(٤)
وَلَوْ تَبَيَّنَ ما فِى الْغَيْبِ مِنْ حَدَثٍ لَكَانَ يَعْلَمُ ما يَأْتِى ، ويَجْتَنِبُ(٥)
لَكِنَّهُ غَرَضٌ لِلدَّهْرِ يَرْشُقُهُ بِأَسْهُمٍ مَا لَها رِيشٌ ، ولا عَقَبُ(٦)
فَكَيْفَ أَكْتُمُ أَشْواقِى وَبِى كَلَفٌ تَكَادُ مِنْ مَسِّهِ الأَحْشَاءُ تَنْشَعِبُ؟(٧)
أَمْ كَيْفَ أَسْلُو وَلِى قَلْبٌ إِذَا الْتَهَبَتْ بالأُفْقِ لَمْعَةُ بَرْقٍ كَادَ يَلْتَهِبُ؟(٨)
أَصْبَحْتُ فِى الْحُبِّ مَطْوِيًّا عَلَى حُرَقٍ يَكَادُ أَيْسَرُهَا بِالرُّوحِ يَنْتَشِبُ(٩)
إِذَا تَنَفَّسْتُ فَاضَتْ زَفْرَتِى شَرَرًا كَمَا اسْتَنَارَ وَرَاءَ الْقَدْحَةِ اللَّهَبُ(١٠)
لم يَبْقَ لِى غَيْرَ نَفْسِى ما أَجُودُ بِهِ وَقَدْ فَعَلْتُ ، فَهَلْ مِنْ رَحْمَةٍ تَجِبُ؟(١١)
كَأَنَّ قَلْبِى إِذَا هَاجَ الْغَرَامُ بِهِ بَيْنَ الْحَشَا طائرٌ فِى الْفَخِّ يَضْطَرِبُ(١٢)

---

(٣) العذل : اللوم . ومثله اللّائمة ، والملامة .

(٤) النوب : النوازل : والمصائب . الواحدة نوبة (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) .

(٦) الغرض : الهدف الذى يرمى إليه . ويرشقه (من باب قتل) : يرميه . والأسهم : جمع سهم ، وهو ما يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . وريش السهم : ما يلصق به لتسديد مرماه . والعقب (بفتح العين والقاف) : العصب (بفتحتين) تعمل منه الأوتار ، والمراد الأوتار نفسها . ومعنى « ما لها ريش ولا عقب » : أنها لا تشبه السهام المعروفة للناس .

والمراد : أن الإنسان هدف للدهر يرميه بأرزائه وصروفه ومصائبه .

(٧) كلف : حبّ وولوع . والأحشاء : ما حواه جوف الإنسان من الأمعاء وغيرها ، مفردها حشاً . وتنشعب : تنشقّ وتفترق .

(٩) الحرق : جمع حرقة (بضم فسكون) : وهى الاحتراق . وينتشب : يعتلق ، والمراد يقضى على الروح .

(١٠) الزفرة : التنفّس المُمَدّد الطويل ، يكون من المهموم ونحوه . والشرر : ما يتطاير من النار ، الواحدة شررة . واستنار : أضاء . وقدح النار من الزند : أوراها وأوقدها ، والقدحة : اسم مرة منه .

(١٢) هاج الغرام به : برّح به الحبّ ، واشتدّت لواعجه .

لا يَتْرُكُ الْحُبُّ قَلْبِي مِنْ لَوَاعِجِهِ كَأَنَّمَا بَيْنَ قَلْبِي والْهَوَى نَسَبُ(١٣)

فَلا تَلُمْنِي عَلَى دَمْعٍ تَحَدَّرَ فِي سَفْحِ الْعَقِيقِ؛ فَلِي فِى سَفْحِهِ أَرَبُ(١٤)

مَنَازِلُ كُلَّما لاحَتْ مَخَايِلُهَا فِى صَفْحَةِ الْفِكْرِ مِنِّى هاجَنِى طَرَبُ(١٥)

لِي عِنْدَ سَاكِنِهَا عَهْدٌ شَقِيتُ بِهِ وَالْعَهْدُ مالم يَصُنْهُ الْوُدُّ مُنْقَضِبُ(١٦)

وعادَ ظَنِّى عَلِيلًا بَعْدَ صِحَّتِهِ والظَّنُّ يَبْعُدُ أَحْيَاناً ويَقْتَرِبُ(١٧)

فَيَا سَرَاةَ الْحِمَى! ما بَالُ نُصْرَتِكُمْ ضاقَتْ عَلَيَّ؟ وأَنْتُمْ سادَةٌ نُجُبُ(١٨)

أَضَعْتُمُونِى وكانَتْ لِي بِكُمْ ثِقَةٌ مَتَى خَفَرْتُمْ ذِمامَ الْعَهْدِ يا عَرَبُ؟(١٩)

أَلَيْسَ فِى الْحَقِّ أَنْ يَلْقَى النَّزِيلُ بِكُمْ أَمْناً إذا خافَ أَنْ يَنْتَابَهُ الْعَطَبُ؟(٢٠)

---

(١٣) اللواعج : حرق الحب (بضم الحاء وفتح الراء) . مفردها لاعج. يقال حبٌّ يلعج القلب (كيقطع) : أى يؤلمه ويحرقه . والهوى : العشق . ونسب : قرابة .

(١٤) تحدَّر : تنزّل وانصبّ . والعقيق: الوادى ، أو اسم لموضع يريده الشاعر ، وسفح العقيق: عرضه (بضم فسكون) وناحيته . والسفح فى آخر البيت : قد يكون بمعنى إرسال الدمع ، وقد يكون بمعنى الناحية ، والضمير المتصل به صالح لأن يعود على الدمع ، أو أن يعود على العقيق . والأرب : الحاجة .

(١٥) لاحت : ظهرت . والمخايل: جمع مخيلة ، وهى فى الأصل الظنّ ، والمراد بمخايل المنازل: صورها . والطرب : خفّة تصيب الإنسان لشدّة حزن أو سرور .

(١٦) العهد: الموثق والحفاظ ورعاية الحرمه والالتقاء والمعرفة. وقضبت الشىء قضبا (من باب ضرب) فانقضب : قطعته فانقطع .

ومعنى البيت : أنّ لى عند سكان هذه المنازل موثقاً شقيت بسبب توانيهم فى المحافظة عليه، والموثق ينقطع إذا لم يصنه الحبّ .

(١٧) معنى البيت : أننى كنت ظننت بهؤلاء الناس المبادرة إلى نصرتى وتقويتى وإعانتى ، وكان ظنى قويّا صحيحاً ، ولكنهم توانوا فى أمرى ، ولم يهتمّوا بى، فاعتلّ ظنى وضعف ، والظن يبعد أحياناً عن التحقق فيعتلّ ويضعف ، ويقترب أحياناً فيصحّ ويقوى .

(١٨) السراة : اسم جمع لسرىّ : وهو الشريف السخىّ ذو المروءة . والحمى: المكان أو الشىء المحظور الذى لا يقرب، ولا يجترأ عليه. وما بال : ما حال، وما شأن . ونجب : جمع نجيب : وهو الكريم الحسيب .

(١٩) خفرتم : نقضتم . والذمام : الحرمة ، والعهد : الموثق .

(٢٠) النزيل : الضيف . وانتابه : أتاه وأصابه . والعطب : الهلاك .

فَكَيْفَ تَسْلُبُنِى قَلْبِى بِلَا تِرَةٍ ... فَتاةُ خِدْرٍ لَها فى الْحَىِّ مُنْتَسَبُ؟(٢١)
مَرَّتْ عَلَيْنا تَهادَى فى صَواحِبِها ... كالْبَدْرِ فى هالَةٍ حَفَّتْ بِهِ الشُّهُبُ(٢٢)
تَهْتَزُّ مِنْ فَرْعِها الْفَيْنانِ فى سَرَقٍ ... كَسَمْهَرِىٍّ لَهُ مِنْ سَوْسَنٍ عَذَبُ(٢٣)
كَأَنَّ غُرَّتَها مِنْ تَحْتِ طُرَّتِها ... فَجْرٌ بِجانِحَةِ الظَّلْماءِ مُنْتَقِبُ(٢٤)
كانَتْ لنا آيَةً فى الْحُسْنِ ،فاحْتَجَبَتْ ... عَنّا بِلَيْلِ النَّوَى ، والْبَدْرُ يَحْتَجِبُ(٢٥)
فَهَلْ إلى نَظْرَةٍ يَحْيا بِها رَمَقٌ ... ذَرِيعَةٌ تَبْتَغِيها النَّفْسُ أَوْسَبَبُ؟(٢٦)
أَبِيتُ فى غُرْبَةٍ ، لا النَّفْسُ راضِيَةٌ ... بِها ،وَلَا الْمُلْتَقَى مِنْ شِيعَتِى كَثَبُ(٢٧)
فَلا رَفِيقٌ تَسُرُّ النَّفْسَ طَلْعَتُهُ ... ولا صَدِيقٌ يَرَى ما بِى فَيَكْتَئِبُ(٢٨)

---

(٢١) الترة (بوزن العدة) : الذحل (بفتح فسكون) : وهو الثأر . ووتره (من باب وعد) : أصابه بمكروه. والخدر : الستر (بكسر فسكون)، وجارية مخدّرة : أى لزمت الخدر . والحىّ : القبيلة من العرب . والمنتسب : مصدر ميمى : بمعنى النسب والاعتزاء والقرابة، ولها فى الحىّ منتسب : أى أصيلة فى قومها .

(٢٢) تهادى : أصله تتهادى : أى تتمايل فى مشيتها . وصواحب : جمع صاحبة. والهالة : الدارة حول القمر ، وحفّت به : أطافت به، واستدارت ، وأحاطت. والشهب: الدرارىّ، وهى الكواكب المضيئة.

(٢٣) الفرع : الشعر التامّ. والفينان : الحسن الطويل . والسرق : الحرير . والسمهرىّ : الرمح المنسوب إلى سمهر (بفتح فسكون ففتح) زوج ردينة (بضم ففتح فسكون) ، وكانا مثقفين للرماح . والسوسن : نبات مشموم، عريض الورق من الرياحين. والعذب : أغصان الشجر ، الواحدة بهاء ؛ والعذبة أيضاً : طرف كل شىء .

ومعنى البيت : أنّ هذه الفتاة تهتزّ فى شعر تامّ طويل ناعم كشقق الحرير اهتزاز رمح معتدل عقدت بنهايته عذبات من السوسن .

(٢٤) الغرّة: بياض الجبهة. والطرّة: الشعر الموفى على الجبهة تطرّه الجارية : أى تحفه وتصففه. وتسوّيه .وجانحة : اسم فاعل من جنح الليل (من بابى خضع ودخل) : إذا أدبر ومال للذهاب . والظلماء : ظلمة الليل . وانتقبت المرأة : غطّت وجهها بالنقاب .

(٢٥) النوى : البعد .

(٢٦) الرمق (بفتحتين) : بقيّة الروح . والذريعة : الوسيلة . وتبتغيها : تطلبها .

(٢٧) شيعة الرجل : أتباعه وأنصاره . والكثب (بفتحتين) : القرب
والمعنى : أنّ اللقاء أو مكانه غير قريب .

(٢٨) يكتئب : يحزن ، ويرثى لحالى .

وَمِنْ عَجائِبِ مَالَا قَيْتُ مِنْ زَمَنِي ... أَنِّي مُنِيتُ بِخَطْبٍ أَمْرُهُ عَجَبُ (٢٩)

لم أَقْتَرِفْ زَلَّةً تَقْضِي عَلَيَّ بما ... أَصْبَحْتُ فيهِ فَمَاذَا الْوَيْلُ وَالْحَرَبُ؟ (٣٠)

فَهَلْ دِفاعِيَ عَنْ دِينِي وَعَنْ وَطَنِي ... ذَنْبٌ أُدَانُ بِهِ ظُلْماً وأَغْتَرِبُ؟ (٣١)

فَلَا يَظُنَّ بِيَ الْحُسَّادُ مَنْدَمَةً ... فَإِنَّنِي صابِرٌ فِي اللهِ مُحْتَسِبُ (٣٢)

أَثْرَيْتُ مَجْداً، فَلَمْ أَعْبَأْ بِمَا سَلَبَتْ ... أَيْدِي الْحَوادِثِ مِنِّي فَهْوَ مُكْتَسَبُ (٣٣)

لا يَخْفِضُ الْبُؤْسُ نَفْساً وَهْيَ عَالِيَةٌ ... وَلَا يُشِيدُ بِذِكْرِ الْخَامِلِ النَّشَبُ (٣٤)

إِنِّي امْرُؤٌ لا يَرُدُّ الْخَوْفُ بادِرَتِي ... ولا يَحِيفُ عَلَى أَخْلاقِيَ الْغَضَبُ (٣٥)

مَلَكْتُ حِلْمِي، فَلَمْ أَنْطِقْ بِمُنْدِيَةٍ ... وَصُنْتُ عِرْضِي، فَلَمْ تَعْلَقْ بِهِ الرِّيَبُ (٣٦)

وما أُبَالِي وَنَفْسِي غَيْرُ خاطِئَةٍ ... إِذا تَخَرَّصَ أَقْوامٌ وَإِنْ كَذَبُوا (٣٧)

---

(٢٩) منيت بالشيء : بُليت به وأصبت . والخطب : الأمر الشديد .

(٣٠) الزلّة : الخطأ. واقتراف الزلّة : مخالطتها وارتكابها. والويل: العذاب. والحرب (بفتحتين): مصدر حرب (كتعب) : أي اشتدّ غضبه .

(٣١) أُدان : أُجازى .

(٣٢) مندمة : ندماً وأسفاً . واحتسب الأجر على الله : ادّخره عنده ، لا يرجو ثواب الدنيا .

(٣٣) الثراء : كثرة المال ، وأثرى الرجل : استغنى بماله .

ومعنى البيت : أنني استغنيت بالمجد وهو العزّ والشرف ، ولهذا لم أهتمّ بما سلبتنيه الحوادث من منصب ومال ونحوهما ؛ فإن هذا شيء عارض ، يمكن استعادته واكتسابه .

(٣٤) البؤس : الضرّ وشدّة الحاجة. ولا يشيد : لا يرفع . والخامل : الساقط الذي لانباهة له. والنشب : المال والعقار .

(٣٥) البادرة : ما يبدر من حدّة الغاضب وشدّته وبأسه، يقال: فلان مخشيّ البادرة: إذا كان شديد البأس . ويحيف (من باب باع): يجور ، ويطغى .

ومعنى البيت : أنه إذا دعا إلى الغضب داع ، رأيت مني بأساً وشدّة لا يردّها خوف ، ولا يدفعها جبن ؛ على أنّ الغضب لا يفسد كريم أخلاقي .

(٣٦) الحلم : الأناة والعقل. والمندية: المخزية؛ لأنها إذا ذكرت ندى (بفتح النون وكسر الدال) جبين صاحبها حياء . وصنت : حفظت . والعرض : النفس والحسب والشرف والدين . والريب : جمع ريبة (بكسر الراء) : وهي التهمة والشكّ .

(٣٧) ما أبالي : ما أهتمّ ، ولا أكترث . وتخرّص القول : افتعله، وافتراه، واختلقه .

ها ، إنَّها فِرْيَةٌ ، قَدْ كانَ باءَ بها ... فى ثَوْبِ «يُوسُفَ» مِنْ قَبْلِى دَمٌ كَذِبُ[٣٨]
فإنْ يَكُنْ سَاءَنِى دَهْرِى ، وغَادَرَنِى ... فى غُرْبَةٍ لَيْسَ لِى فيها أَخٌ حَدِبُ[٣٩]
فَسَوْفَ تَصْفُو اللَّيَالِى بَعْدَ كُدْرَتِها ... وكُلُّ دَوْرٍ إذا ما تَمَّ يَنْقَلِبُ[٤٠]

وقال * :

وَلَمَّا تَدَاعَى الْقَوْمُ ، واشْتَبَكَ الْقَنَا ... ودَارَتْ كَمَا تَهْوَى عَلَى قُطْبِها الْحَرْبُ[١]
وَزُيِّنَ للنَّاسِ الْفِرارُ مِنَ الرَّدَى ... وَمَاجَتْ صُدُورُ الْخَيْلِ ، والْتَهَبَ الضَّرْبُ[٢]
ودَارَتْ بِنَا الْأَرْضُ الْفَضاءُ ، كَأَنَّنا ... سُقِينَا بِكَأْسٍ لا يُفِيقُ لَهَا شَرْبُ[٣]
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ سَماؤُها ... وإنِّى صَبُورٌ إنْ أَلَمَّ بِىَ الْخَطْبُ[٤]

---

(٣٨) فرية : تهمة مصنوعة مختلقة. وباء: رجع . ويوسف الصدّيق بن يعقوب عليهما السلام. رماه إخوته فى غيابة الجب . « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا : يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ؛ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ . وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ؛ قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » الآيات ١٦ – ١٨ من سورة يوسف

(٣٩) غادرنى : تركنى . وحدب عليه (من باب طرب) وتحدّب : تعطّف . وهو حدب على أخيه أى عاطف راحم .

(٤٠) الكدرة : ضد الصفو .
ومعنى البيت : أنّ الزمان يتقلّب بالناس بين الكدر والصفاء ، والشدّة والرخاء ، فإذا ما تمّت فى البؤس دورته ، انعكست الدورة ، فعاد إلى اليسر والمسالمة .

* يبدو لنا أن هذه الأبيات ممّا نظمه البارودى فى حرب « كريد » أولى الحروب التى خاض غمارها ، وصلّى نارها سنة ١٢٨٢ – ١٢٨٤ هـ (١٨٦٥ – ١٨٦٧ م) وهو فى الثامنة والعشرين .

(١) تداعى القوم : اعتزوا فى الحرب : أى انتسبوا إلى آبائهم وقبائلهم ، أو تجمّعوا . والقنا : جمع قناة : وهى الرمح . وتهوى : تحب . وقطب الرحى : حديدة تدور عليها .

(٢) الردى : الهلاك . وماجت : هاجت واضطربت لشدة القتال .

(٣) دارت بنا الأرض : أى أصبنا لهول الحرب بالدوار : وهو شبه الدوران يأخذ فى الرأس . وشرب : جمع شارب ، (كصاحب وصحب) ، والمراد بالشرب : السكارى .

(٤) تجلّت : تكشّفت . وألمّ : نزل وأتى . والخطب : الأمر الشديد .
والمعنى : أننى صبور على بأساء الحرب حتى تضع أوزارها .

وقال :

مَنْ صاحَبَ الْعَجْزَ لَمْ يَظْفَرْ بِمَا طَلَبَا ... فارْكَبْ مِنَ الْعَزْمِ طِرْفاً يَسْبِقُ الشُّهُبَا (١)

لا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا مَنْ إِذَا هَتَفَتْ ... بِهِ الْحَمِيَّةُ هَزَّ الرُّمْحَ وانْتَصَبَا (٢)

يَسْتَسْهِلُ الصَّعْبَ إِنْ هاجَتْ حَفِيظَتُهُ ... ولا يُشَاوِرُ غَيْرَ السَّيْفِ إِنْ غَضِبَا (٣)

يَنْهَلُّ صارِمُهُ حَتْفاً ، ومَنْطِقُهُ ... سِحْرًا حَلالاً إذا ماصَالَ أَوْ خَطَبَا (٤)

إِنْ حَلَّ أَرْضاً حَمَى بِالسَّيْفِ جانِبَهَا ... وَإِنْ وَعَى نَبْأَةً مِنْ صارِخٍ رَكِبَا (٥)

فَذَاكَ إِنْ يَحْيَ تَحْيَ الْأَرْضُ فِى رَغَدٍ ... وَإِنْ يَمُتْ يَنْقَلِبْ صِدْقُ الْمُنَى كَذِبَا (٦)

---

(١) العزم : الإرادة القوية القاطعة . والطرف (بكسر الطاء) : الكريم من الخيل. والشهب : جمع شهاب (بكسر الشين) : وهو ما ينقضّ بالليل شبيهاً بالكواكب .

والمعنى : أن العاجز الضعيف لا يفوز بمطلبه ، فكن عالى الهمة ، ماضى العزم ، سبّاقاً إلى معالى الأمور .

(٢) هتفت به : صاحت به ودعته . والحميّة : الأنفة (بفتح الهمزة والنون) والاستكبار . وانتصب : ارتفع ، وانتصب فلان للأمر : نهض به .

ومعنى البيت : أنه لا ينال العزّ والشرف إلا الشجاع ذو الأنفة الذى يدفع العار بالبطش والقوّة ، ويهدّد بسنان الرمح أعداءه :

(٣) هاجت : ثارت. والحفيظة : الحميّة والغضب ، والمراد : أنه لا يلجأ إلا إلى القوّة إذا غضب .

(٤) ينهلّ : يسيل ، أو ينصبّ انصباباً شديداً . والصارم : السيف القاطع . والحتف : الهلاك . وصال : وثب للقتال .

ومعنى البيت : أنه جمع بين الشجاعة والفصاحة : فهو إذا وثب فى الحرب على أعدائه انصبّ عليهم بسيفه البتّار يسيل موتاً وفناء ، وإذا خطب قرع الأسماع بعذب منطقه ، وسحر بيانه.

(٥) حماه : دفع عنه ، ومنعه . ووعى الشيء : حفظه وتدبّره ، والمراد (هنا) : سمع . والنبأة : الصوت الخفيف . ويراد بالشطر الثانى : أنّه إن سمع مستصرخاً — ركب جوَادَه ، وسارع إلى إنجاده وإغاثته .

(٦) الرغد : اتساع العيش ، ولينه ، وطيبته ، وهناءته . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) : وهى ما يتمنّاه الإنسان ، ويحبّه ، ويقدّر حصوله .

ومعنى البيت : أنّ هذا الماجد ظله ممدود ، وخيره مبسوط ، فإذا عاش سعد أهل الأرض بحياته ، وإذا مات ضاعت الأمانىّ ، وفاتت الآمال .

فَاحْمِلْ بِنَفْسِكَ تَبْلُغْ ما أَرَدْتَ بِهَا ... فَاللَّيْثُ لا يَرْهَبُ الْأَخْطَارَ إِنْ وَثَبَا (٧)
وَجُدْ بِمَا مَلَكَتْ كَفَّاكَ مِنْ نَشَبٍ ... فَالْجُودُ كَالْبَأْسِ يَحْمِي الْعِرْضَ وَالنَّسَبَا (٨)
لا يَقْعُدُ الْبَطَلُ الصِّنْدِيدُ عَنْ كَرَمٍ ... مَنْ جَادَ بِالنَّفْسِ لَمْ يَبْخَلْ بِمَا كَسَبَا (٩)

وقَال يَصِفُ لَيْلَةَ أُنْس :

وَلَيْلَةِ أُنْسٍ قَصَّرَ اللَّهْوُ طُولَهَا ... بِعَذْرَاءَ شَابَتْ وَهْيَ دُونَ حِجابِ (١)
صَدَعْنا بِهَا الظَّلْمَاءَ حَتَّى تَبَلَّجَتْ ... ضَبَابَتُهَا مِنْ ضَوْئِهَا بِشِهَابِ (٢)
مُعَتَّقَـــةٍ كانَتْ ذَخِيرَةَ مَعْشَرٍ ... لِأَبْنَائِهِمْ فِي جَوْفِ أَقْتَمَ كَابِي (٣)

---

(٧) احمل بنفسك: اعتمد على نفسك . أو هو من الحملة ، وهى الكرّة فى الحرب . والليث : الأسد . ويرهب : يخاف . (وبابه طَرِبَ) .

(٨) نشب : مال . والجود : الكرم والسخاء وبذل المال . والبأس : الشجاعة والشدّة . ويحمى : يمنع ويصون. والعرض : النفس والشرف. والنسب : القرابة ، ويراد به: مجد الآباء وشرفهم .

(٩) البطل : الشجاع . والصنديد : السيد الشريف الشجاع .

ومعنى البيت : أنّ البطل الشجاع لا يتوانى إذا ما دعاه للكرم والسخاء داع ؛ لأنه يعرّض نفسه للتهلكة فى الحروب ونحوها ، ومن جاد بنفسه لم يبخل بماله .

(١) الأنس (بضم فسكون) : سكون القلب واطمئنانه ، وهو ضدّ الوحشة . والعذراء : البكر ، ويراد بها (هنا): الخمر لم تتناولها كفّ شارب .

ومعنى هذا البيت : أننا سهرنا فى الأنس والمرح ليلة قصّرها اللهو واللعب ، وقد شربنا فيها خمرًا لم ينل منها أحد قبلنا . وهذه الخمر معتّقة ، طال احتجابها فى دنانها ، حتى علاها من الزبد ما يشبه الشيب .

(٢) صدعنا : شققنا وفرّقنا . وتبلّجت : أضاءت وأشرقت . والشهاب: شعلة من نار ساطعة .

ومعنى البيت : أنّ لهذه الخمر تلألؤاً وبريقاً كضوء النار. ولهذا بدّدت ظلمة الليل لمّا صببناها فى الكئوس .

(٣) المعتّقة : الخمر القديمة . وذخيرة : معدّة لوقت الحاجة. والمعشر : الجماعة من الناس . والأقتم : ما كان لونه أغبر ضارباً إلى سواد ، أو حمرة . وفى جوف أقتم : أى فى جوف دنّ يعلوه سواد؛ لما طلى به من القار . وكاب: كمد اللون (بفتح الكاف وكسر الميم) متغيّره . اسم فاعل من كبالونه : أى تغيّر. وكبالون الصبح والشمس : أى أظلم ؛ فكاب هنا : تأكيد لمعنى «أقتم » .

والمعنى : أنّ الخمر قديمة ، حفظت فى دنانها من عهود متقادمة لتكون ذخيرة للأبناء .

أَتَتْ دُونَها الْأَيَّامُ حَتَّى تَخَلَّصَتْ ... فَلَمْ يَبْقَ منها الْيَوْمَ غَيْرُ لُبَابِ[٤]

إذَا اتَّقَدَتْ فى الْكَأْسِ خِلْتَ مُدِيرَها ... تَخَضَّبَ مِنْهَا كَفُّهُ بِخِضابِ[٥]

كَأَنَّ سَنَا الْكاسَاتِ والنَّدُّ ساطِعٌ ... نُجُومٌ تَراءَتْ مِنْ خِلالِ ضَبابِ[٦]

فَيَا حُسْنَها مِنْ لَيْلَةٍ ! غَيْرَ أَنَّها ... تَوَلَّتْ ، ولَمْ نَشْعُرْ لَها بِذَهابِ[٧]

وقَدْ لاحَ بِالظَّلْماءِ فَجْرٌ كَأَنَّهُ ... بَيَاضُ مَشِيبٍ فى سَوَادِ شَبابِ[٨]

وقال :

قُمْ هَاتِها واللَّيْلُ مَالَ عَمُودُهُ ... لِلْغَرْبِ ، وانْتَشَرَتْ جُنُودُ الْمَغْرِبِ[١]

وبَدَا الْهِلالُ عَلَى الْأَصِيلِ كَأَنَّهُ ... نُونٌ مُفَضَّضَةٌ بِرَقٍّ مُذْهَبِ[٢]

---

(٤) لباب كل ء : خالصه . يشير إلى تعتيقها وقدمها ، وأثر الزمان فى تصفيتها ، وتحسين جوهرها ، وتخليصها من كل ما يشوبها ، حتى لم يبق منها غير اللباب والخلاصة .

(٥) معنى البيت : أنّ هذه الخمر إذا اشتعلت فى كأسها وأضاءت ، ظهر أثر ضوئها فى يد من يديرها علينا ، حتى إنك لتحسبه قد خضب كفه بالحناء ونحوه .

(٦) السنا : الضوء . والكاسات : جمع كأس ، وهى الإناء ما دام فيه الشراب . والندّ : عود يتبخّر به . ويراد بالند (هنا) : دخان البخور . وساطع : مرتفع . وتراءى لى : تصدّى لأراه ؛ والمراد ظهرت .

ومعنى البيت : أنك إذا نظرت إلى المشرب وقد انعقد فى جوّه دخان البخور ، رأيته كاسات الخمر متلألئة مضيئة كأنها نجوم ظهرت من خلال ضباب .

(١) هاتها : الضمير للخمر . ويقصد بميل عمود الليل إلى الغرب : انتشار الظلمة بعد غروب الشمس . وجنود المغرب . ما يظهر من النجوم فى ناحية الغرب فى أول الليل .

يقول : اسقنى الخمر ؛ فقد أقبل الليل الذى هو وقت الأنس والشراب عاده .

(٢) بدا : ظهر . والأصيل : العشىّ ، أى الوقت قبيل الغروب ، وهذا لا يستقيم مع البيت السابق ؛ لأن الأصيل لا يكون بالليل ، ولعله أراد الشفق . وكأنه نون : يريد أن الهلال فى صورة النون ، أحد حروف الهجاء . ومفضضة : مطليّة بالفضّة . والرقّ : (بفتح الراء) : جلد رقيق يكتب فيه . ومذهب : مطلىّ بالذهب .

وقالَ فى الْغَزَلِ :

يَا مَنْ رَأَى الشَّادِنَ فى سِرْبِهِ   يَتِيهُ بِالْحُسْنِ عَلَى تِرْبِهِ[١]
أَرْسَلَ فَرْعَيْهِ لِكَى يَعْبَثَا   بِأُكْرَتَىْ نَهْدَيْهِ مِنْ عُجْبِهِ[٢]
أَحْتَمِلُ الْمَكْرُوهَ مِنْ أَجْلِهِ   وأَبْذُلُ الْمالَ عَلَى حُبِّهِ[٣]
قَدْ لا مَنِى الْعَاذِلُ فيهِ ، ولَوْ   رَأَى الْهُدَى أَقْصَرَ عَنْ عَتْبِهِ[٤]
وهَلْ يُطِيقُ الْمَرْءُ سَتْرَ الْهَوَى   مِنْ بَعْدِ ما اسْتَوْلَى عَلَى لُبِّهِ ؟[٥]
تَقَلُّبُ الْعَيْنِ دَلِيلٌ عَلَى   ما أَضْمَرَ الإِنْسانُ فى قَلْبِهِ[٦]
يا سامَحَ اللهُ عُيُونَ الْمَهَا   فَهُنَّ عَوْنُ الدَّهْرِ فى حَرْبِهِ[٧]
أَمَا كَفَى ما جَرَّ أَحْداثُهُ ؟   حَتَّى دَعَا الْغِيدَ إِلى حِزْبِهِ[٨]

(١) الشادن : الظبى إذا قوى ، واستغنى عن أمّه ، ويراد به هنا : الجارية الحسناء المترعرعة . والسرب : القطيع من الظباء. والمراد : جماعة النساء . ويتيه : يتكبّر ويعجب . والترب : اللِّدَة : وهو من ولد معك ، ومن كانت سنّه مثل سنّك. يقال : هذه ترب فلانة إذا كانت على سنّها .

(٢) الفرع : الشعر الطويل التامّ . وعبث عبثاً من (باب طرب) : لعب وعمل مالا فائدة فيه . والأكرة : لغة فى الكرة . والنهد : الثدى. والعجب (بضم فسكون) : الزهو والكبر .

والمعنى : أنها جعلت شعرها الطويل فرعين ، وأرسلت على كلّ نهد فرعاً ، معجبة بنفسها ، مزهوّة بحسنها .

(٤) العاذل : اللائم . والعتب : اللوم .

(٥) أطقت الشىء إطاقة : قدرت عليه . والهوى : الحبّ . واللبّ : العقل .

(٦) معنى البيت : أنّ ما يخفيه الإنسان فى قلبه يظهر فى حركات عينيه .

(٧) المها : جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشيّة ، ويضرب بجمال عيونها المثل .

ومعنى البيت : أنّ الدهر يحارب الإنسان ، ويجلب له الهموم . والعيون النجل تصوّب للعاشقين سهام الفتنة والغرام ؛ فهنّ عونٌ للدهر فى حربه .

(٨) أحداث الدهر : نوائبه ومصائبه . والغيد : جمع غيداء ، وهى المرأة الناعمة ، المتثنّية ليناً .

ومعنى البيت : أنّ الدهر لم يكتف بما جرّت على الناس نوبه وأحداثه ؛ بل دعا إلى حزبه النساء الناعمات الجميلات المتثنّيات ، يجعلهن سبب هيمان العشّاق وشقائهم .

وقالَ :

أَفَتَّانَةَ الْعَيْنَيْنِ كُفِّي عَنِ الْقَلْبِ وصُونِى حِماهُ ، فَهْوَ مَنْزِلَةُ الْحُبِّ (١)
ولا تُسْلِمِى عَيْنَىَّ للسُّهْدِ والْبُكَا فإِنَّهُمَا مَجْرَى هَوَاكِ إِلَى قَلْبِى (٢)
وإِنِّى لَراضٍ مِنْ هَوَاكِ بِنَظْرَةٍ وَحَسْبِى بها إِنْ أَنْتِ لِمْ تَبْخَلِى حَسْبِى (٣)
إِذا كانَ ذَنْبِى أَنَّ قَلْبِى مُعَلَّقٌ بِحُبِّكِ يا لَيْلَى ،فلا تَغْفِرِى ذَنْبِى (٤)

وقالَ :

قَالَتْ وقَدْ سَمِعَتْ شِعْرِى فَأَعْجَبَها إِنِّى أَخَافُ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ أَبِى (١)
أَراهُ يَهْتِفُ بِاسْمِى غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ولَوْ كَنَى لَمْ يَدَعْ لِلظَّنِّ مِنْ سَبَبٍ (٢)
فَكَيْفَ أَصْنَعُ إِنْ ذَاعَتْ مَقَالَتُهُ مَا بَيْنَ قَوْمِى وهُمْ مِنْ سادَةِ الْعَرَبِ؟ (٣)

---

(١) الفتنة : إعجابك بالشيء ، وفتّانة : صيغة مبالغة من فتنه : أى أوقعه فى الفتنة. وكفّ عن الشيء (من باب ردّ) : تركه . وصونى : أمر من الصيانة : وهى الحفظ . والحمى (بكسر ففتح) : الشيء المحظور الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه (بالبناء للمفعول فيهما) ، والمراد: حافظى على حياته ، ولا تبالغى فى تعذيبه بالصدّ والهجران . والمنزلة : المنزل والدار .

(٢) السهد : الأرق والسهر . وهواك: حبّك . يريد أن عينيه كانتا سبب الحبّ ، لأنه أحبها لما نظر إليها .

(٣) حسبى بها : كافية لى ، مغنية عن سواها .

(٤) معنى البيت : إذا كان ذنبى إليك هو حبّى لك ، فلا تغفرى ذنبى ؛ فإنى مصرّ عليه ، متماد فيه .

(٢) هتف به يهتف (من باب ضرب) هتافا (بضم الهاء) : صاح به ، ودعاه ، والمراد : أنه يصرّح باسمها فى غزله وتشبيبه . وغير مكترث : غير مبال ، يقال : ما أكترث له : أى ما أبالى به. والكناية : أن تتكلّم بشيء وتريد به غيره ، وقد كنيت بكذا عن كذا ، وكنوت أيضاً .

(٣) ذاعت : انتشرت وظهرت . ويريد ما هو مشهور عن العرب من شدّة الغيرة والاستنكاف من أن يشبّب بابنتهم شاعر . ثم إنهم يمنعون زواجاً يقوم على حبّ ظاهر .

فَنازَعَتْها فَتَاةٌ مِنْ صَوَاحِبِهَا قَوْلًا يُؤَلِّفُ بَيْنَ الْمَاءِ واللَّهَبِ(٤)
قالَتْ : دَعِيهِ يَصُوغُ الْقَوْلَ فى جُمَلٍ مِنَ الْهَوَى ،فَهْيَ آياتٌ مِنَ الْأَدَبِ(٥)
وما عَلَيْكِ وفى الْأَسْماءِ مُشْتَرَكٌ إنْ قالَ فى الشِعْرِ يالَيْلَى وَلَمْ يَعِبِ؟(٦)
وحَسْبُهُ مِنْكِ داءٌ لَوْ تَضَمَّنَهُ قَلْبُ الْحَمامَةِ ،ما غَنَّتْ عَلى عَذَبِ(٧)
فاسْتَأْنَسَتْ ، ثُمَّ قالتْ وَهْيَ باسِمَةٌ إنْ كانَ ماقُلْتِ حَقًّا فَهْوَ فى تَعَبِ(٨)
يا حُسْنَهُ مِنْ حَدِيثٍ شَفَّ باطِنُهُ عَنْ رِقَّةٍ أَلْبَسَتْنِى خِلْعَةَ الطَّرَبِ(٩)

وقالَ :

أَلَا ، يا لَقَوْمِى مِنْ غَزالٍ مُرَبَّبٍ يَجُولُ وشاحاهُ على فَنَنٍ رَطْبِ(١)
تَعَرَّضَ لِى يَوْماً ، فَصَوَّرْتُ حُسْنَهُ ببِلَّورَتَىْ عَيْنَىَّ فى صَفْحَةِ الْقَلْبِ(٢)

---

(٤) نازعتها : جاذبتها . وصواحبها : جمع صاحبة .
والمراد : أنها اشتركت معها فى قول كان يجمع بين اللين من جانبها والغضب من جانب المشبب بها . أو قول يوفق بين إعجابها بشعره ، وخوفها عليه من غيرة أبيها وقومها .
(٥) يصوغ القول : يحبّره ويزيّنه . والهوى : الحب . ومعنى « يصوغ القول فى جمل من الهوى » : أنه يصوّر الحبّ بالقول . والأدب (هنا) : الكلام الجيّد الذى ينبعث عن عاطفة ، ويثير عاطفة .
(٦) أى ليس عليك من حرج إذا صرّح فى شعره «بليلى» من غير عيب ، لأن الأسماء مشتركة بين الناس .
(٧) حسبه : كافيه . والمراد بالداء : الحبّ المضنى . وتضمّنه : احتواه . والعذب (بفتحتين) : جمع عذبة (بفتحتين) : وهى غصن الشجرة .
(٨) فاستأنست : أى فسكن قلبها إلى هذا الرأى ، واطمأنّت .
(٩) شفّ : كشف : يقال شفّ الثوب يشفّ شفيفاً (بوزن يخفّ) : أى رقّ حتى يرى ما تحته . والخلعة (بكسر الخاء) : ما يعطيه الإنسان غيره من الثياب منحة . والطرب (هنا) : خفّة تصيب الإنسان لشدّة سرور .
(١) مربّب : مربّى ، يقال : ربّب الرجل الصبىّ : أى ربّاه حتى أدرك . والمراد بالغزال : الفتاة الجميلة . ويجول : يدور . والوشاح (بضم الواو أو كسرها) : أديم عريض يرصّع بالجواهر وتشدّه المرأة بين عاتقها وكشحها . وفنن : غصن ، والمراد به : القوام الجميل المائس

وقال :

ذَهَبَ الْهَوَى بِمَخِيلَتِي وشَبابِي   وأَقَمْتُ بَيْنَ مَلَامَةٍ وعِتابِ[١]
هِيَ نَظْرَةٌ كانَتْ حِبالَةَ خُدْعَةٍ   مَلَكَتْ عَلَيَّ بَدِيهَتِي وصَوابِي[٢]
نَصَبَتْ حَبائِلَ هُدْبِهَا ؛ فَتَصَيَّدَتْ   قَلْبِي ؛ فَراحَ فَرِيسَةَ الأَهْدابِ[٣]
ما كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ طارِقَةِ الْهَوَى   أَنَّ الْعُيُونَ مَصايِدُ الأَلْبابِ[٤]
ومِنَ الْعَجائِبِ فِي الْهَوَى أَنَّ الْفَتَى   يُدْعَى إِلَيْهِ بِأَهْوَنِ الأَسْبابِ[٥]
فارْبَحْ مَلامَكَ يا عَذُولُ ، فَإِنَّنِي   راضٍ بِسُقْمِي فِي الْهَوَى وعَذابِي[٦]

وقال :

بِقَلْبِي لِلْهَــوَى داءٌ عَجِيبُ   تَحَيَّرَ فِي تَلافِيهِ الطَّبِيبُ[١]

---

(١) الهوى : الحب . والمخيلة : الكبر والإعجاب بالنفس . وملامة : عذل . والعتاب : مخاطبة الإدلال ، ومذاكرة الموجدة .

(٢) الحبالة : الشرك (بفتحتين) : أى المصيدة . وخدعه : ختله ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم ، والخدعة (بالضم) : ما يخدع به الإنسان . والبديهة : أول كل شيء ، ويراد بها : الرأى والفكر .
ومعنى البيت : أنها نظرت إلىّ نظرة خادعة ساحرة ، فأوقعتنى فى شرك حبها ، وملكت بذلك عقلى وصوابى .

(٣) حبائل : جمع حبالة (بوزن رسالة) : وهى المصيدة . والهدب . ما نبت من الشعر على أشفار العين ، والجمع أهداب . (بوزن قُفْل وأقفال) .
والمعنى : أنها ذات عيون جميلة ، وقد نصبت لى من أهدابها الطويلة ما يشبه الشرك ؛ فصادت بها قلبى ؛ فهو فريسة صيدت بهذه الأهداب .

(٤) طارقة الهوى : نائبة الحبّ . والألباب . جمع لبّ : وهو العقل . والمعنى : أن الحسان يستولين على عقول العشّاق بما فى عيونهن من سحر وجمال .

(٥) أهون : أيسر وأسهل .

(٦) الملام : اللوم والعذل . والعذول : اللائم . والسقم : المرض .
يقول : إن لوم العاذلين له غير مجد ، وإنه مغتبط بالحبّ ، راضٍ بما يجلبه إليه من مرضٍ وعذاب .

(١) تلافاه : تداركه ، والمراد بالتلافى : المداواة .

إذا أخْفَيْتُهُ أبْلَى فُؤادِى   وإنْ أظْهرْتُهُ غَضِبَ الْحَبِيبُ(٢)

وقال فى الشَّباب :

سَعَيْتُ فَأَدْرَكْتُ الْمُنَى ، غَيْرَ أنَّنِى   أَضَعْتُ شَبَابِى فى سَبِيلِ طِلَابِى(١)

فَمَا تَنْفَعُ الدُّنْيَا وإنْ نِلْتُ كُلَّمَا   تَمَنَّيْتُ مِنْهَا بَعْدَ فَقْدِ شَبابِى(٢)

وقال :

تَحَمَّلْ إلَى نادِى الْحَبِيبِ رِسالَةً   أَرَقَّ عَلَى الْمَخْمُورِ مِنْ نَفَسِ الصَّبَا(١)

وخَبِّرْهُ عَنِّى أَنَّنِى مُنْذُ بَيْنِهِ   أُكابِدُ هَوْلًا يَتْرُكُ الطِّفْلَ أشْيَبَا(٢)

فإنْ لَانَ فاشْكُرْهُ عَلَى فَضْلِ مَا أَتَى   مِنَ الْبِرِّ ،واعْذِرْهُ إذَا صَدَّ أَوْ أَبَى(٣)

وَلَا تُخْجِلَنْهُ بِالْعِتابِ ؛ فَإِنَّنِى   أخَافُ إذَا مَا احْمَرَّ أَنْ يَتَلَهَّبَا(٤)

وقالَ وَكَتَبَ بها إلى صَدِيقٍ له :

أتَزْعُمُنِى خِلًّا وتَهْجُرُ ساحَتِى   عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ ؟ إنَّ ذَا لَعَجِيبُ(١)

---

(٢) أبلى فؤادى : أخلقه وأفناه .

(١) المنى : جمع منية (بضم فسكون) : وهي ما يتمنّاه الإنسان، ويقدّر حصوله. والطلاب (بوزن الكتاب) : ما تطلبه من غيرك . وهو فى الأصل مصدر .

(١) تحمّل : احمل ، والخطاب للرسول . ونادى الحبيب : مجلسه . والمخمور : السكران . والنفس (بفتحتين) : نسيم الهواء . والصبا (بفتح الصاد) : الريح تهبّ من مطلع الشمس ، ونفس الصبا . رائحتها الطيّبة ، أو حركتها إذا كانت معتدلة لطيفة .

(٢) البين : الارتحال والبعد . وكابد الأمر . قاسى شدّته ، وتحمّل مشقّته. والهول : الفزع والمخافة والشدة .

(٣) البرّ : الصلة ، والخير ، والإحسان . وصدّ : أعرض . وأبى : امتنع .

(٤) المعنى : لا تعاتبه ، لأنك إن عاتبته أخجلته ، وأنا أخشى أن يلتهب وجهه لشدّة احمراره من الخجل . وهذا كناية عن شدّة حياء الحبيب .

(١) تزعمنى : تظننى . وخلاً : صديقاً ، والساحة : الموضع المتّسع أمام الدار ، والمراد بساحتى : مجلسى . والواو فى الشطر الأول : واو الحال . والجملة الفعليّة بعدها جملة حاليّة

والمعنى : أتدّعى أنّى صديقك ، وأنّك صديقى ، وتقاطعنى بلا ذنب ، ولا جريرة؟ إن هذه القطيعة تدعو إلى العجب ، وتثير الدّهش ، وتُحيّر العقل ، وتستحقّ الإنكار والاستهجان . والاستفهام فى أول البيت : معناه الإنكار ، أو التوبيخ ، أو التعجب .

إذا لم يَكُنْ بَيْنَ الْمُحِبِّينَ وُصْلَةٌ تُؤَكِّدُ عَهْدًا ؛ فالصُّدُودُ قَرِيبُ[٢]
وإنَّ وِدادَ الْقَلْبِ ما لَمْ يَكُنْ لَهُ دَلِيلٌ عَلَى إخْلاصِه لَمُرِيبُ[٣]

وَقالَ وَهُوَ بِسَرَنْدِيبَ وَقَدْ سَمِعَ بَاكِيَةً بلَيْلٍ :

وبَاكِيَةٍ شَجَتْ قَلْبِي بِلَحْنٍ تَهِيجُ لَهُ الْمَسامِعُ والْقُلُوبُ[١]
سَأَلْتُ ، فَقِيلَ : قَدْ فَقَدَتْ حَبِيباً وَهَلْ يَبْقَى عَلَى الدُّنْيا حَبِيبُ؟[٢]
بَكَيْتُ لَهَا وَلَمْ أَفْهَمْ صداهَا وقَدْ يَبْكِي مِنَ الطَّرَبِ الْغَرِيبُ[٣]

وقال :

لَيْسَ ابْنُ آدَمَ ذا جَهْلٍ بِمَصْرَعِهِ لَكِنَّهُ يَتَنَاسَى الْجِدَّ بِاللَّعِبِ[١]
تَراهُ يَلْهُو ، وَلَا يَنْفَكُّ فِى حَذَرٍ وراحَةُ النَّفْسِ لا تَخْلُو مِنَ التَّعَبِ[٢]

وقال :

تَرَفَّقْ ؛ فإنَّ الرِّفْقَ زَيْنٌ ، وقَلَّمَا يَنالُ الْفَتَى بِالْعُنْفِ ما كانَ طالِبَا[١]

---

(٢) الوصلة (بالضم) : الاتصال . والمراد بالعهد هنا : موثق الحبّ والوفاء . والصدود : الإعراض والهجران .

(٣) الوداد (بتثليث الواو) : الحبّ . ومريب : داع إلى الريبة (بكسر الراء) وهى التّهمة والشكّ ، تقول : أرابنى من فلان أمر : إذا أسأت به الظنّ .

(١) شجت قلبي : حزنته . واللّحن : الصوت فيه ترجيع وترديد. وتهيج : تهتاج وتثور . والمسامع : الآذان : جمع مسمع (وزان منبر) .

(٣) الصدى : رجع الصوت ، أى ما يردّه الجبل ونحوه على المصوّت فيه ، والمراد بالصدى (هنا) : اللغة . والطرب (هنا) : خفّة تصيب الإنسان لشدة حزن .

(١) المصرع : الطرح على الأرض ، ويراد به : الهلاك . وتناسى الشيء : أرى من نفسه أنّه نسيه .

(٢) يلهو : يلعب . ولا ينفكّ : لا يزال . وحذر : خوف واحتراز .

إذا لم يَكُنْ لِلْمَرْءِ عَقْلٌ يَرُدُّهُ إلى الْحِلْمِ ، لم يَبْرَحْ مَدَى الدَّهْرِ عاتِبَا(٢)
وَإنْ هُوَ لَمْ يَصْفَحْ عَنِ الْخِلِّ إنْ هَفَا أقامَ وَحِيدًا ، أوْ قَضَى الْعُمْرَ غاضِبَا(٣)

وقال :

إنِّى إذَا ما الْخِلُّ خاسَ بِعَهْدِهِ بَعْدَ الْوِدادِ ، فَلَسْتُ مِنْ أصْحَابِهِ(١)
وإذا عَتَبْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّتَ لَمْ يَعُدْ عَنْ غَيِّهِ لَمْ أكْتَرِثْ لِعِتابِهِ(٢)

وقال :

بَلَوْتُ سَرائِرَ الإخْوانِ حَتَّى رَأَيْتُ عَدُوَّ نَفْسِى مِنْ حَبِيبِى(١)
فَلاَ تَأْمَنْ عَلَى سِرٍّ صِحاباً فَإنَّهُمُ جَواسِيسُ الْعُيُوبِ(٢)

وقالَ فى كِتْمانِ السِّرِّ :

ألَمْ تَعْلَمْ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أبْقَى بِأنَّ الصَّمْتَ مَنْجاةُ الأرِيبِ(١)
فَلا تَأْمَنْ عَلَى سِرٍّ حَبِيباً فَقَدْ يَأْتِى الْعَدُوُّ مِنَ الْحَبِيبِ(٢)

---

(٢) الحلم : الأناة والوقار . ولم يبرح : لم يزل . والمدى : الغاية والمنتهى (بفتح الهاء) . وعاتباً : لائماً متسخطاً .

(٣) الخلّ : الصديق . وهفا : زلّ وأخطأ .

(١) خاس بالعهد (من باب باع) : غدر ونكث . والعهد : الموثق . والوداد : الحب ، وبعد الوداد : أى بعد حبى و وفائى له .

(٢) عتبت عليه : (من بابى ضَرَبَ وقَتَلَ) : غضبت عليه ، ولمته . والغىّ : الضلال . ولم أكترث : لم أبال ، ولم أعبأ .

(١) بلوت : امتحنت واختبرت . والسرائر : جمع سريرة : وهى السرّ الذى يكتم ، والمراد بها : دخائل النفوس .

(٢) صحابا : (بكسر الصاد) جمع صاحب . وجواسيس : جمع جاسوس ، وهو الذى يتتبّع الأخبار ، ويفحص عن بواطن الأمور .

(١) الصمت : السكوت . ويقال : هو بمنجاة من الخطر : أى بحيث ينجو منه ويخلص . والأريب : العاقل ، الجيّد الرأى .

(٢) المعنى : فقد ينقلب الحبيب عدوّاً .

وقالَ فى لُزُومِ الاحْتِرَاسِ مِنَ الْعَدُوِّ :

لا تَرْكَنَنَّ إلَى الْعَدُوِّ ؛ فإنَّهُ يَبْغِى سِقَاطَكَ بِالْحَدِيثِ الْمُعْجِبِ[١]

كَالنَّارِ تَخْتَدِعُ الْفَرَاشَ بِحُسْنِهَا فَيَنَالُ مِنْهُ الْبُؤْسُ إنْ لَمْ يَعْطَبِ[٢]

وقال :

أَرَى كُلَّ حَيٍّ يَظْلِمُ الدَّهْرَ جُهْدَهُ وَلَسْتُ أَرَى لِلدَّهْرِ فِى عَمَلٍ ذَنْبَا[١]

إذا ساءَ صُنْعُ الْمَرْءِ ساءَتْ حَيَاتُهُ فَمَا لِصُرُوفِ الدَّهْرِ يُوسِعُها سَبَّا؟[٢]

وقالَ فى رَجُلٍ اغْتابَهُ * :

لا أُجازِيكَ بِالَّذِى خُضْتَ فِيهِ مِنْ حَدِيثٍ ، وَلَا أُمِضُّكَ عَتْبَا[١]

غَفَرَ اللهُ لِى إذَا كَانَ صِدْقاً وَعفَا اللهُ عنْكَ إنْ كَانَ كِذْبَا[٢]

وَقالَ :

وَذِى جَبَرُوتٍ لا يَرَى غَيْرَ نَفْسِهِ عَظِيماً ، ولَا يُصْغِى إلَى قَوْلِ مُصْحِبِ[١]

---

(١) يبغى : يطلب . والسقاط (بكسر السين) : الخطأ ، والعثرة ، والزلّة . أو هو جمع سَقْطة . والمعجب : المستحسن الرائق .

(٢) تختدعه : أى تختله ، وتريد به المكروه من حيث لا يعلم .والفراش : جمع فراشة : بفتح الفاء فيهما : وهى حشرة ذات أجنحة تطير ، وتتهافت على المصباح فتحترق بناره . والبؤس : الضر . ويعطب (من باب تعب) : يهلك .

(١) الدهر : الأبد ، أو الزمان ، أو مدّة الدنيا كلّها. والجهد (بفتح الجيم وضمّها) : الوسع والطاقة .

(٢) صروف الدهر : حوادثه ونوائبه ، مفردها صرف (بفتح فسكون) .

* اغتابه : ذكره من ورائه بما يكره .

(١) جازيته بذنبه : عاقبته عليه . وخضت : دخلت. ولا أمضك عتبا : أى لا أوجعك ، ولا أولمك باللوم والعتاب ، من قولهم مضّه الجرح (من باب ردّ) ، وأمضّه : أى آلمه وأوجعه .

(١) الجبروت : الكبر . ويصغى : يميل بسمعه . ومصحب : اسم فاعل من أصحبت غيرى : أى منعته وحفظته وأجرته ، ومنه قول الله تبارك وتعالى « ولاهم منا يصحبون » الآية رقم ٤٣ من سورة الأنبياء . أى يحفظون ويمنعون (بالبناء للمفعول) ، والمراد بالمصحب (هنا) : الناصح .

نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَتَطَامَنَتْ غَوارِبُهُ ، وانْقادَ بَعْدَ التَّجَنُّبِ(٢)
وما كُنْتُ لَوْلَا أَنْ رَأَى كِبْرَ شَأْنِهِ لِأُصْدِرَهُ إِلَّا بِأَهْلٍ ومَرْحَبِ(٣)
ولَكِنَّنِى سَهْلٌ لِمَنْ رَامَ خُلَّتِى وصَعْبٌ عَلَى ذِى الْكِبْرِياءِ الْمُغَلَّبِ(٤)
ولَوْ أَنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ شَقَاؤُهُ لَطَارَتْ بِهِ فِى الناسِ عَنْقَاءُ مُغْرِبِ(٥)
ولَكِنَّهُ أَلْقَى إِلَىَّ زِمامَهُ فَسِرْتُ بِهِ سَيْرَ الذَّلُولِ الْمُهَذَّبِ(٦)
ولَيْسَ يَسُودُ الْمَرْءُ إِلَّا بِحِلْمِهِ عَلَى قَوْمِهِ ،والصَّفْحِ عَنْ كُلِّ مُذْنِبِ(٧)

وقال :

أَتُخْفِرُ ذِمَّتِى وتَرُومُ عَطْفِى ؟ لَقَدْ مَنَّتْكَ نَفْسُكَ بِالْكِذابِ (١)

---

(٢) المراد : نظرت إليه نظرة تهديد ، أو تحقير . وتطامنت : انخفضت . والغوارب : جمع غارب ، وهو ما بين العنق والسنام . أو الغارب : أعلى كلّ شىء . ومعنى تطامنت غواربه : أنه ذلّ وخضع . والتجنّب : البعد .

(٣) الشأن : الأمر . وأصدره : أرجعه ، والمراد : أودّعه . وبأهلٍ ومَرْحَبٍ : أى بتأهيلٍ وتَرْحيب . تقوله لمن تلقاه بالتّحيّة والترحيب : أهلاً ، وسهلاً ، ومرحباً : أى صادفْتَ أهلاً ، لا غُرَباءَ : ونزلتَ مكانا سهلا واسعاً .

والمعنى : لولا كبرياؤه ما ودّعته إلا بمثل ما لاقيته به من تأهيل وترحيب .

(٤) رام : طلب . وخلّتى : صداقتى . والمغلّب : المحكوم له بالقهر والغلبة .

(٥) الشقاء : الشدّة والعسر . وعنقاء مغرب : الداهية ، أو طائر معروف الاسم مجهول الجسم ، أو طائر عظيم يبعد فى طيرانه . ومعنى طارت به عنقاء مغرب : أنه ضلّ وهلك .
يقول : ولو أن هذا المتكبر تمادى فى كبريائه ، وغلبه شقاؤه ، لقضيت عليه .

(٦) الزمام : مقود البعير ونحوه . وإلقاء الزمام : كناية عن الانقياد والخضوع . والذلول : الدابّة السهلة المنقادة . ومعنى الشطر الثانى : فسرت به وهو يسير معى سير الفرس المنقاد المعلّم .

(٧) السيادة والسؤدد : الرياسة والمجد والشرف . والحلم : الأناة والوقار والعقل .

(١) الإخفار : الغدر ، ونقض العهد . والذمّة : العهد والأمان . وتروم : تطلب . والعطف : الحنان والرحمة . ومنّتك نفسك بالكذاب : أى جعلتك نفسك تتمنى الأمانى الكاذبة ، والكذاب (بوزن الكتاب) كالكذب : مصدر كذب .

فَمَا بَعْدَ الْقَطِيعَةِ مِنْ تَلَاقٍ ... ولا بَعْدَ الْخَدِيعَةِ مِنْ عِتابِ (٢)
وكَيْفَ يَصِحُّ بَعْدَ الْغَدْرِ وُدٌّ ... وَتَسْلَمُ نِيَّةٌ بَعْدَ ارْتِيَابِ ؟(٣)
رُوَيْدَكَ ، إِنَّنِي صَعْبٌ أَبِيٌّ ... عَلَى الْأَقْرَانِ ، مَرْهُوبُ الْجَنَابِ(٤)
أُجَاهِرُ بِالْعِدَاءِ ، وَلَا أُبالِي ... وأَنْطِقُ بِالصَّوَابِ ، ولا أُحابِي(٥)
فَمَا زَنْدِي لَدَى الْعَوْصَاءِ كَابٍ ... وَلَا سَيْفِي غَداةَ الْحَرْبِ نابِي(٦)
يَهابُ الْقِرْنُ بَادِرَتِي ؛ فَيَمْضِي ... ومَا جَرَّدْتُ سَيْفِي مِنْ قِرابِ(٧)
فَإِنْ رُمْتَ السَّلَامَةَ فَاجْتَنِبْنِي ... عَدُوًّا ؛ فَالسَّلامَةُ فى اجْتِنابِي (٨)
فَقَدْ عادَيْتُ أَعْظَمَ منْكَ قَدْرًا ... ومَا ضَاقَتْ عَلَى بَدَنِي ثِيَابِي(٩)
فإِنْ تَنْزِعْ فأَنْتَ طَلِيقُ عَفْوِي ... وإِنْ تَطْمَعْ فَسَوْفَ تَرَى عِقابِي(١٠)

---

(٢) الخديعة : اسم مصدر من خدعه (كنعه) أى ختله ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . وعتاب : ملامة .

(٣) الغدر : نقض العهد ، وضده الوفاء . والود : الحب . والارتياب : الشك .

(٤) رويدك : تمهل . وأبى : صعب ممتنع . والأقران : جمع قرن (بكسر فسكون) : وهو كفؤك فى الشجاعة ، أو من يقاومك فى القتال وغيره . ومرهوب : مخوف . والجناب : الفناء والناحية ، ومعنى مرهوب الجناب : أنه قوى عزيز الجانب ، لا يجترأ على حماه .

(٥) العداء : العداوة . ولا أبالى : لا أكترث ، ولا أهتم . وحاباه : اختصه ، ومال إليه . ومعنى البيت : أنه يكاشف أعداءه بالعداوة فى غير مبالاة أو اكتراث ، ويحرص فى كلامه على الحق لسداد فى غير محاباة أو انحراف

(٦) الزند : العود الذى تقدح به النار ، وهو الأعلى ، والسفلى زندة . والعوصاء : الشدة والداهية الشديدة ، والأمر الصعب . وكبا الزند : لم يخرج ناره (وبابه عدا) . والشطر الأول كناية عن أنه مقدام فى الشدائد والملمات ؛ فهو لا يتوقف ، ولا يحجم . والغداة : الضحوة ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، والمراد بغداة الحرب : وقتها مطلقاً . وسيف ناب : كليل الحد ، غير ماض ، وهو اسم فاعل من نبا السيف (من بابى عدا وسما) : إذا لم يقطع .

(٧) يهاب : يحذر ويخاف . والبادرة : الحدة فى الغضب . وجردت : أخرجت . والقراب : الغمد

(٨) رمت : طلبت .

والمعنى : إن أردت النجاة والسلامة ، فاجتنب عداوتى .

(٩) معنى الشطر الثانى : وما شعرت فى نفسى لعداوته بضيق أو شدة .

(١٠) نزع عن الشىء نزوعا (من باب جلس) : كف عنه ، وأقلع ، وانتهى .

وَقَالَ يَهْجُو *

لَا تَبْهَتِ الشَّيْطَانَ فِى فِعْلِهِ   فَقَدْ كَفَى أَنَّكَ مِنْ حِزْبِهِ (١)
فَاخْسَأْ ، فَمَا الْخِنْزِيرُ فِى نَوْعِهِ   أَخَسُّ طَبْعاً مِنْكَ فِى كَسْبِهِ (٢)
لَوْ لَمْ تَكُنْ فِى الدَّهْرِ مُسْتَوْزَرًا   مَا سَارَعَ النَّاسُ إِلَى سَبِّهِ (٣)

* جاءت هذه القصيدة بهذا العنوان فى الأصل المخطوط للديوان — فى سبعة عشر بيتاً : ستّة الأبيات الأولى منها مطموسة غير مقروءة. وثمانية الأبيات التى تليها. (لاتبهت الشيطان فى فعله ... من الجوّ إلى شهبه) مطموسة استطعنا قراءتها بجهد ومعاناة ، ونشرناها فى هذه الطبعة مع سائر المطموسات إتماماً للفائدة . أما ثلاثة الأبيات الأخيرة : (هجوته لا بالغاً لومه . . . من سلّط الناس على ثلبه) فإنها لم تطمس ؛ وقد نشرت من قبل فى الطبعة الأولى لهذا الشرح سنة ١٩٤٠ . وفيما تلاها من الطبعات .

(١) بهته (من باب قطع) : أخذه بغتة ، وفاجأه . وبهته وأبهته : أدهشه ، وحيّره . ولاتبهت الشيطان فى فعله : أى لا تفاجىء الشيطان فيما يفعله بأفعالك ؛ فتدهشه وتحيّره . يريد أن أفعال المهجوّ شرّ وأنكى من أفعال الشيطان .

والشطر الثانى وثيق الاتصال بهذا المعنى : أى لاتتغال فى أعمال الشرّ والسوء ؛ فتسبق الشيطان وتتقدّمه ، وحسبك أن تكون من حزبه وقبيله وأعوانه ، وأن تكون أفعالك مساوية أو مشابهة لأفعاله .

(٢) اخسأ : أمر من خسأ الكلب ونحوه (من باب قطع) : أى طرده ، وأبعده ، وزجره ، مستهيناً به ، مذلاًّ له . وخسأ (من باب خضع) : أى انخسأ ، وابتعد ، وذهب ، وانزجر ، وذلّ ، وهان ؛ فهذا الفعل يستعمل متعدّياً ولازماً . ويراد بالكسب هنا : العمل المستقبح . وأصله الجمع (وفعله من باب ضرب) .

ساواه بالخنزير ونحوه فى خسّة الطبع ، وحقارة النفس ، ودناءة السليقة ، ورداءة الكسب ، وقبح العمل وفساده . وزجره وأهانه ، وأذلّه بالكلمة التى يزجر بها الكلب ونحوه .

(٣) استوزره : اتّخذه وزيراً . والمستوزر (بصيغة اسم المفعول): الوزير . أو المؤهّل للوزارة . والمستوزر : (بصيغة اسم الفاعل): طالب الوزارة . والدهر : الزمان الطويل ، وعمر الدنيا ، ومدة حياة العالم . وقد اعتاد الناس أن يضيفوا إليه الخير والشرّ ، والمسرّة والمساءة .

والمعنى : أن الناس تبرّموا بوزارة المهجوّ ، ورأوا فيها مصدر شرّ وسوء ؛ فسبّوا الزمان الذى صار فيه وزيراً ، ومقتوا أشد المقت أيام حكمه وسلطانه .

ذَاكَ الَّذِى لَوْلَا خُمُولُ الْوَرَى ... مَا نامَ مِنْ أَمْنٍ عَلَى جَنْبِهِ(٤)

يَفْعَلُ بالنَّاسِ أَفَاعِيلَهُ ... وَلَا يَخَافُ اللهَ مِنْ ذَنْبِهِ(٥)

فَالْخَيْرُ وَالنِّعْمَةُ فى بُعْدِهِ ... وَالشَّرُّ وَالنِّقْمَةُ فِى قُرْبِهِ(٦)

أَشَدُّ خَلْقِ اللهِ كِبْرًا ، فَإِنْ ... فَاجَأْتَهُ كَرَّ عَلَى عَقْبِهِ(٧)

. . . . مِنَ الْجَوِّ إِلَى شُهْبِهِ(٨)

هَجَوْتُهُ لا بَالِغاً لُؤْمَهُ ... لَكِنَّنِي كَفْكَفْتُ مِنْ غَرْبِهِ(٩)

---

(٤) « ذاك » : إشارة إلى المهجوّ . وخمل الرجل (من باب قعد): خفى فلم يُعْرَف ، ولم يُذْكَر ، فهو خامل : أى ساقط لا نباهة له . والورى: الخلق والناس . ويراد بخمول الورى : ضعف الناس وجبنهم وقعودهم عن مكافحة ذلك الوزير الشرّير .

وَصَمَ بالجبن والخمول أولئك المستسلمين للمهجوّ ، المقيمين على بغيه وضيمه، القاعدين عن مكافحة شرّه وفساده . وقال : إنه بخمولهم وضعفهم سلم من الحساب والانتقام، ونام آمناً مطمئناً، وتمادى فى غيّه وطغيانه .

(٥) أفاعيله : أفعاله المستنكرة المستقبحة: جمع أفعولة (بوزن أكذوبة وأكاذيب) . أو جمع جمع لفعل . ومن كلامهم : « الرّشا تفعل الأفاعيل » .

(٦) النقمة (بفتح النون وكسرها): العقوبة: اسم من انتقم منه انتقاماً : أى عاقبه . ويراد بها هنا: الشر والفساد ؛ فإنهما مدعاة للعقوبة والانتقام .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن المهجوّ إذا ولى الوزارة فرط على الناس ، وتحكّم واستبدّ ، وفعل بهم الأفاعيل ، وصبّ عليهم نقمه وشروره ؛ لا يزعه دين ، أو خلق ، أو ضمير ، أو قانون ؛ فإذا أبعد عن الحكم استراح منه الناس ، وعمتهم النعم والخيرات .

(٧) الكبر : التجبر ، والعتوّ ، والطغيان . وكرّ على عقبه : أى انثنى راجعاً .

وصمه بالتجبّر ، والعتو ، والطغيان . ثم بالجبن ، وسرعة الانهزام والفرار إذا فوجئ بمن ينكر عليه كبره ، ويكافح تجبره ؛ فهو كبر الجبان الرعديد الذى لا يكاد يصمد لمفاجأة ، أو معارضة . وفى البيت حضّ ضمنىّ على الانتقاض عليه ، وكسر شوكته ، وتحطيم كبره وطغيانه .

(٨) لم ينكشف لنا من هذا البيت غير هذه الكلمات .

(٩) اللؤم : الخسّة ودناءة الأصل والشحّ والمهانة . وكفكفت : دفعت وصرفت . والغرب : الحدّة والتمادى فى الأمر .

ومعنى البيت : أننى هجوته ولم أبلغ بهجوى مستوى لؤمه ، أو لم أستطع تصوير لؤمه ، ولكننى دفعت حدّته ، وصرفته عن التمادى فى الشرّ .

فَإِنْ أَكُنْ قَدْ نِلْتُ مِنْ عِرْضِهِ ... فَإِنَّنِى دَنَّسْتُ شِعْرِى بِهِ(١٠)
فَلاَ يَلُومَنَّ سِوَى نَفْسِهِ ... مَنْ سَلَّطَ النَاسَ عَلَى ثَلْبِهِ(١١)*

وقال :

وَغْدٌ تَكَوَّنَ مِنْ لُؤْمٍ ، ومِنْ دَنَسٍ ... فَمَا يَغَارُ عَلَى عِرْضٍ ، ولا حَسَبِ(١)
يَلْتَذُّ بِالطَّعْنِ فِيهِ والْهِجاءِ ، كَمَا ... يَلْتَذُّ بِالْحَكِّ والتَّظْفِيرِ ذو الْجَرَبِ(٢)

وَقَالَ :

كَيْفَ أَهْجُوكَ والدَّناءَةُ سُورٌ ... مِنْ حَدِيدٍ يَقِيكَ طَعْنِى وضَرْبِى؟(١)

---

(١٠) العرض : ما يصونه الرجل ، أو ما يفتخر به من نفس وحسب وشرف ، أو هو موضع المدح والذمّ منه ، أى ما يمدح على صيانته ، ويذمّ إذا فرّط فيه ، ومعنى « نلت من عرضه » : بلغت مقصودى من إظهار عيبه .

(١١) ثلبه ثلباً (من باب ضرب) : عابه وتنقّصه .

*قيل إن هذه القصيدة (١٧ بيتا) فى هجاء « إسماعيل صدّيق المفتش » ، وكان أخا فى الرضاعة للخديو إسماعيل ، ثم صديقاً له فى صغره . ولما اعتلى العرش عيّنه مفتشاً عامّاً ، ثم وزيراً للمالية سنة ١٨٦٩ ؛ فكان الحاكم بأمر الخديو ، واشتهر بالقسوة على الفلاحين . وفى سنة ١٨٧٦ جاءت بعثة الدائنين الأجانب للتحقيق فى الكارثة الماليّة ؛ فانكشفت فى الدخل اختلاسات وسرقات لا ريب فيها ؛ فخشى الخديو إسماعيل استفحال الأمر ، وافتضاح الحقائق التى يعرفها إسماعيل صدّيق ، فقضى عليه فى شهر نوفبر من سنة ١٨٧٦ بطريقة ما زالت مجهولة إلى اليوم .

(١) الوغد : الأحمق ، الضعيف ، الرذل ، الدنىء . والدنس : القذر . والحسب : ما تعدّه من مفاخر آبائك ، أو المال ، أو الدين ، أو الكرم ، أو الشرف .
وَصَمَه بالوغادة واللؤم والدنس . وأنه لا يأبه لفساد عرضه ، ولا يهتمّ بضياع حسبه .

(٢) طعن فيه بالقول : قدح فيه ، وعابه ، وتنقّصه . والتظفير : غرز الأظفار فى الجسم .

(١) معنى البيت : أنّه لخسّته ودناءته لا يتأثّر بالهجاء ، كما لا يؤثّر الطعن والضرب فيمن تحصّن وراء سور من حديد .

لَكَ عِرْضٌ أَرَقُّ نَسْجاً مِنَ الرِّيـ ـحِ ، وَأَوْهَى مِنْ طَيْلَسانِ ابْنِ حَرْبِ (٢)

وقَالَ :

وَذِى خِلالٍ ، كَأَنَّ اللهَ صَوَّرَهَا مِنْ صِبْغَةِ اللُّؤْمِ ، أَوْ مِن حَمْأَةِ الرِّيَبِ (١)

نَالَ الْعَلَاءَ ، ولَكِنْ خَابَ رَائِدُهُ عَنْ نُجْعَةِ الْفَضْلِ والْآدابِ والْحَسَبِ (٢)

هَجَوْتُهُ رَغْبَةً فى الصِّدْقِ ؛ إِذْ نَفَرَتْ شَمَائِلِى عَنْ مَقَالِ الْمَدْحِ فِى الْكَذِبِ (٣)

---

(٢) العرض : النفس والحسب . وأوهى : أضعف . والطيلسان : كساء مدوّر لا أسفل له ، لحمته أو سداه من صوف ، يلبسه الخواصّ من العلماء والمشايخ ، وهو من لباس العجم ، معرّب عن الفارسيّة ، وأصله : « تالسان » أو « تالشان » . وفى كتاب « ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب » للثعالبى : (طيلسان ابن حرب) : كان محمد بن حرب أهدى إلى الحمدونىّ طيلساناً خلقاً (بفتح الخاء واللام) ، وكان الحمدونىّ يحفظ قول أبى حمران السلمى فى طيلسانه :

يا طيلسان أبى حمران ، قد برمت بك الحياة فما تلتذّ بالعمـر
فى كلّ يوم له رفّا يجـدّده هيهات ينفع تجديـد مع الكبر
إذا ارتداه لعيد أو لجمعتـه تنكّب الناس لا يبلى من النظر

فاحتذى الحمدونى حذو أبى حمران ، وأقبلت عليه المعانى ، حتى قال فى وصف طيلسانه ما يقرب من مائتى مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى بديع . وصار الطيلسان عرضة لشعره ، ومثلاً فى البلى والخلوقة ، فمن بدائع معانيه قوله :

يابن حرب ، كسوتنى طيلساناً ملّ من صحبة الزمان وصـدّا
طال ترداده إلى الرفو حتى لو بعثناه وحـده لتهـدّى

(١) الخلال : جمع خلّة : وهى الخصلة (بفتح الخاء فيهما) . والصبغة (بكسر الصاد ، وسكون الباء) : ما يصبغ به . واللؤم : الخسّة والدناءة والشحّ والمهانة . والحمأة (بفتح الحاء وسكون الميم) : الطين الأسود المنتن . والريب (بكسر ففتح) : جمع ريبة (بكسر الراء) : وهى الشكّ والظنّة والتهمة .

(٢) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ . والنجعة (بضم فسكون) : طلب الكلأ فى موضعه . والحسب : ما تعدّه من مفاخر آبائك ، أو الدين ، أو الكرم ، أو الشرف .

ومعنى البيت : أنّ المهجوّ نال علوّاً فى المنصب أو المال أو نحوهما ، ولكنه لم يظفر بفضل ولا أدب ، ولا كرم ، ولا شرف .

(٣) الشمائل : جمع شمال (بكسر الشين) : بمعنى الخلق والطبع .

وقَالَ :

عَدِمْتَ حَمِيَّةً ، وسَقِمْتَ وُدًّا فَلَمْ تُدْرِكْ لِمَكْرُمَةٍ نَصِيبَا[١]

فَمَا أحْزَنْتَ فى حَرْبٍ عَدُوًّا وَلَا أفْرَحْتَ فِى سِلْمٍ حَبِيبَا[٢]

وَقَالَ يُعَزِّى* :

أُعَزِّيكَ ، لَا أنِّى أظُنُّكَ جَازِعاً لِخَطْبٍ ، وَلَكِنِّى عَمَدْتُ لِوَاجِبِ[١]

وَكَيْفَ أُعَزِّى مَنْ فَرَى الدَّهْرَ خِبْرَةً وَأدْرَكَ مَا فِى طَيِّهِ مِنْ عَجَائِبِ؟[٢]

---

(١) الحميّة : الأنفة والاستنكاف والاستكبار . وسقمت : مرضت(وهما من باب تعب). والودّ : الحبّ . والمكرمة :فعل الكرم .

والمعنى : أنه فقد الأنفة ، فلا يستنكف من الدنايا ، ومرض ودّه ، فلا يألف ولا يؤلف؛ ولهذا لم يكن له من عمل الخير نصيب .

(٢) معنى البيت : أنه فى الحرب جبان ، وفى السلم خامل قليل النفع .

* لم تنشر هذه المرثاة فى الطبعات السابقة لشرح هذا الديوان ؛ لأنها مطموسة فى أصله المخطوط الذى بين أيدينا. وبجهدٍ ومضاناةٍ قرأناها، ونشرناها فى هذه الطبعة مع ما استطعنا قراءته من المطموسات إتماماً للفائدة .

(١) عزّاه تعزية : دعاه إلى الصبر والسلوان . وجازع : اسم فاعل من الجزع : وهو الحزن الشديد (وفعله من باب تعب). والخطب : النازلة، والكارثة ، والمصيبة ، والأمر الشديد المكروه يكثر فيه التخاطب. وجمعه خطوب. وعمدت : قصدت (وبابه ضرب) . ويراد بالواجب: التعزية الواجبة اللازمة. والمعنى : أنى قصدتُ لتعزيتك بحكم الواجب المفروض على مثلى لمثلك ، وإن علمتك قويًّا على الخطوب ، متجلّداً للنوائب ، متأبّياً على الجزع .

(٢) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى ، أو الإنكار . وفرى الشىء (من باب رمى) : شقّه ، وقطعه ، أوفتّته . والخبرة : مصدر خبر الشىء (من باب نصر) : أى بلاه وامتحنه ، وعلمه عن تجربة . وفرى الدهر خبرة : أى اختبر الزمان خبرة وافية ، وعرفه معرفة واسعة ، وأحاط بدقائقه وخفاياه . والشطر الثانى تأكيد لهذا المعنى .

يقول : إن المعزَّى حلب الدهر أشطره ، وتمرّس بأحداثه ونوائبه ، وعرف ما ينطوى عليه من الخفايا والعجائب ؛ فاعتاد التجلّد للخطوب ، والصبر على المكاره ، واستغنى بهذا عن التعزية .

نوّه الشاعر فى هذا البيت والذى قبله بقوّة المعزَّى وجلادته ، وواسع إدراكه وخبرته ؛ ليحمله على الصبر والعزاء ، وحسن التأسِّى والسلوان .

فَيَاصَاحِبِى ، مَهْلًا ؛ فَلَسْتَ بِوَاجِدٍ سِوَى حَاضِرٍ يَبْكِى فَجِيعَةَ غَائِبِ(٣)
وَصَبْرًا ، فَإِنَّ الصَّبْرَ أَكْرَمُ صَاحِبٍ لِمَنْ بَانَ عَنْ مَثْوَاهُ أَكْرَمَ صَاحِبِ(٤)
وَلَا تَأْسَ مِنْ وَقْعِ الْخُطُوبِ وَإِنْ جَفَتْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ مَرْعَى النَّوَائِبِ(٥)
إِذَا مَا الرَّدَى أَوْدَى بِآدَمَ قَبْلَنَا فَهَلْ أَحَدٌ مِنْ نَسْلِهِ غَيْرُ ذَاهِبِ(٦)؟

(٣) مهلا : تمهّل ، واتئد ، وترفّق ، ولا تعجل . والمراد : تعزّ ، وتأسّ ، وتجلّد ، ولا تجزع . والفجيعة : الرزيئة ، والمصيبة . ويراد بالحاضر والغائب : الحيّ ، والميّت : أى فلن تجد سوى حيّ يبكى فجيعته فيمن مات من أهله وأحبابه .

يعزّيه بأنّ الناس بين حيّ يبكى ويتفجّع ، وميّت يبكى عليه ، ويتفجّع له . وأن الحاضر الباكى مصيره أن يكون غائباً مبكيًّا . ولا ريب أن المحزون يتأسّى بأمثاله ، ويهون عليه خطبه إذا رأى الخطوب تتوالى على غيره . وفى هذا المعنى تقول الخنساء :

فلولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

(٤) بان عنه : انقطع عنه ، وفارقه ، وبعد عنه ، ورحل ، وانفصل (وبابه باع) . ومثواه : منزله ، ومستقرّه . و « أكرم » فى الشطر الأول خبر . وفى الشطر الثانى حال .

ولعلّ المعنى المراد : أنّ الفقيد فارق الحياة الدنيا وهو يحتلّ من قلوب أهله وصحبه وأحبائه أعلى مراتب الإعزاز والإيثار والتكريم ؛ ولهذا شقّ عليهم موته ، وجزعوا لفراقه ؛ فحضّهم الشاعر على الصبر قائلا : إنّ صبرهم ينفع الراحل الكريم ، ويصحبه أكرم صحبة ، ويوفّر لروحه الراحة والهدوء .

(٥) لا تأس : لا تحزن (وبابه صدى) . والخطوب : الرزايا والمصائب . وجفا عليه الشىء : ثقل . والمرعى : ما ترعاه الماشية : أى تسرح فيه ، وتأكله من الكلأ والنبات . (وفعله من باب سعى) . ويجوز أن تقرأ فى الأصل المخطوط المطموس « صرعى » : بمعنى هلكى ، وبوزنه : جمع صريع : بمعنى مصروع : من قولهم « غصن صريع » اى متهدّل ، ساقط إلى الأرض . أو من قولهم : صرعهم ريب المنون . والنوائب : النوازل ، والمصائب . الواحدة : نائبة .

يعزّيه بأن المصائب لا تفتأ تصيب الناس وترتعيهم ؛ وهذا مما يهوّن خطبه ، ويخفّف مصابه ، ويصرف عنه الحزن والجزع ، ويحمله على الصبر والسلوان ويلاحظ أن الفكرة واحدة مكرّرة فى هذا البيت ، والبيتين بعده ، والبيت الثالث قبله .

(٦) الردى : الهلاك ، والموت . وأودى به : ذهب به ، وأهلكه ، وأرداه . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه النفى : أى فلن يبقى من نسل آدم أحد . والنسل : الولد ، والذرّيّة .

يقول : إنّ الموت طوى آدمَ أبا البَشَر ، وما فتئ يخترم من بعده نَسْلَه =

فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَ شَهْمًا مُهَذَّباً فَكُلُّ ابْنِ أُنْثَى عُرْضَةٌ لِلْمَصَائِبِ(٧)
وَمَا مَاتَ مَنْ أَبْقَاكَ تَهْتِفُ بِاسْمِهِ وَتُذْكَرُ عَنْهُ صَالِحَاتُ الْمَنَاقِبِ(٨) *

= وذُرِّيَّتَهُ ، ولن يُبْقِيَ منهم أَحَدًا. وفى القرآن الكريم : «إِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » الآية رقم ٣٠ من سورة الزُّمَر. وفيه : «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ . لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ . لَهُ الْحُكْمُ . وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » الآية رقم ٨٨ من سورة القَصَص .

(٧) الشهم: السيد السديد الرأى، النافذ الحكم ، الذكىّ الفؤاد ، المتوقّد الذهن ، الجلد ، القوىّ ، الصبور على القيام بما حُمِّل: صفة من الشهامة : وهى عزّة النفس، وحرصها على مباشرة أمور عظيمة ، تستتبع الذكر الجميل . (وفعله من باب ظرف) . ورجل مهذّب : أى مطهّر الأخلاق ؛ برىء من النقائص. وهذّبه تهذيبًا : ربّاه تربية صالحة، خالية من الشوائب ، وطهّر أخلاقه، ونقّاه من العيوب والشوائن .

أبَّنَ الفقيد الراحل ، ونوّه بشهامته وتهذّبه، مشيراً بهذا إلى أن موته من فوادح الدهر ، وكوارثه الشديدة . والشطر الثانى تعزية قويّة ؛ فكلّ امرئ هدف لأن يصاب فى نفسه ، أو فيمن يعزّ عليه ، ويكرم عنده . والفكرة فى هذا البيت ، والأبيات : الثالث ، والخامس ، والسادس : أن الموت كأس دائرة على الناس جميعاً ، وأنهم أهداف للفواجع والخطوب . ولا ريب أن هذا كلّه يثبّت فؤاد المحزون ، ويربط على قلبه .

(٨) تهتف باسمه (من باب ضرب): تمدحه، وتطريه ، وتحيى سيرته وذكراه . وتذكر (بالبناء للفاعل ، أو بالبناء للمفعول) . وصالحات : مفعول به . أو نائب فاعل . والمناقب : المآثر ، والمفاخر ، والأفعال الكريمة ، والخصال الحميدة . الواحدة منقبة . (بوزن منفعة) .

والمعنى : أن هذا الميت حىّ بهتاف أهله به ، وبما يحفظه الناس من حسن سيرته فيهم ، وبما يجرى على ألسنتهم من مناقبه وصالحاته .

* نقل إلينا أن هذه المرثية نشرت فى صفحة ٢٦٢ من مجلة الهلال – عدد فبراير سنة ١٩٠٥ – الجزء الخامس – السنة الثالثة عشرة . وأن البارودى نظمها فى تعزية خليل مطران صاحب الجوائب المصرية عن عمّه حبيب مطران .

وروى الشطر الثانى من البيت الثامن : « ومن كرّمته صالحات قب » .

وقَالَ فى الزُّهْدِ* ؛ وَهِىَ مِنْ لُزُومِ مالا يَلْزَمُ** :

إلامَ يَهْفُو بِحِلْمِكَ الطَّرَبُ ؟ أبَعْدَ خَمْسِينَ فى الصِّبَا أرَبُ ؟(١)

هَيْهَاتَ ، وَلَّى الشَّبابُ ، واقْتَرَبَتْ سَاعَةُ وِرْدٍ دَنَا بِها القَرَبُ(٢)

فَلَيْسَ دُونَ الْحِمامِ مُبْتَعَدٌ ولَيْسَ نَحْوَ الْحَياةِ مُقْتَرَبُ(٣)

كُلُّ امْرِئٍ سائِرٌ لِمَنْزِلَةٍ لَيْسَ لَهُ عَنْ فِنائِها هَرَبُ(٤)

وسَاكِنٌ بَيْنَ جِيرَةٍ قَذَفٍ لا نَسَبٌ بَيْنَهُمْ ، ولا قُرَبُ(٥)

فِى قَفْرَةٍ لِلصِّلالِ مُزْدَحَفٌ فِيها ، ولِلضَّارِياتِ مُضْطَرَبُ(٦)

---

* الزهد : الإعراض عن لهو الدنيا .

** التزم الشاعر حرف الراء قبل روىّ هذه القصيدة ، وهذا التزام لا تحتمه قواعد القافية .

(١) يهفو : يستطير ويذهب . والحلم : الأناة والوقار والعقل . والطرب هنا : خفّة تصيب الإنسان لشدّة سرور . والصبا (بكسر الصاد) : الصغر ، وجهل الفتوّة . والأرب : الحاجة ، أو الكلف (بفتح الكاف واللام) : وهو حبّ الشيء ، والولوع به .

(٢) هيهات : بعد ، أى بعد ما تتمنّاه من الرجوع إلى الصبا بعد أن بلغت من العمر خمسين عاماً . وولّى : أدبر وذهب . والورد : الإشراف على الماء وغيره ، والمراد بساعة الورد : ساعة الإشراف على الموت . ودنا بها : أدناها وقرّبها . والقرَب (بفتح القاف والراء) : سير الليل لورد الغد ، والمراد هنا سير الزمن ، وذهاب معظم العمر .

(٣) الحمام : قضاء الموت وقدره ، والمعنى : أنه قريب من الموت ، بعيد من حياة الشباب ، أو من فسحة الأجل .

(٤) المنزلة : المنزل ، والمراد القبر ، أو الدار الآخرة . وفناء الدار (بكسر الفاء) : ما امتدّ من جوانبها ، أو هو سعة أمام البيت .

(٥) جيرة (بكسر الجيم) : جمع جار . وقذف (بفتح القاف والذال وبضمّهما أيضاً) : بعيدة . وجيرة قذف : أى جيران مفترقون متباعدون . والشطر الثانى تأكيدٌ لهذا المعنى . والنسب : القرابة ، أو القرابة فى الآباء خاصّة . وقرب : جمع قربة أو قربى (بضم القاف فيهما) وهى القرابة ، ويقصد بالجيرة : سكان القبور .

(٦) القفرة : الخلاء من الأرض . والصلال : جمع صلّ (بصاد مكسورة ولام مشدّدة) : وهو الحيّة . ومزدحف : اسم مكان ، أو مصدر ميمى لازدحف : أىّ تمشّى . والضاريات : الوحوش والسباع المفترسة . ومضطرب : مصدر ميمىّ ، أو اسم مكان من اضطرب : بمعنى تحرّك وماج .

وَشَاهِدٌ مَوْقِفاً يُدَانُ بِهِ فَالْوَيْلُ لِلظَّالِمِينَ وَالْحَرَبُ(٧)
فَارْبَأْ يَفَاعاً ، أَوِ اتَّخِذْ سَرَباً إِنْ كَانَ يُغْنِى الْيَفَاعُ وَالسَّرَبُ(٨)
لا الْبَازُ يَنْجُو مِنَ الْحِمَامِ ، وَلَا يَخْلُصُ مِنْهُ الْحَمَامُ وَالْخَرَبُ(٩)
مُسَلَّطٌ فِى الْوَرَى : فَلَا عَجَمٌ يَبْقَى عَلَى فَتْكِهِ ، وَلَا عَرَبُ(١٠)
فَكَمْ قُصُورٍ خَلَتْ ، وَكَمْ أُمَمٍ بَادَتْ ، فَغَصَّتْ بِجَمْعِهَا التُّرَبُ(١١)
فَمَنْزِلٌ عَامِرٌ بِقَاطِنِــهِ وَمَنْزِلٌ بَعْدَ أَهْلِهِ خَرِبُ(١٢)
يَغْـــدُو الْفَتَى لاهِياً بِعِيشَتِهِ وَلَيْسَ يَدْرِى مَا الصَّابُ وَالضَّرَبُ(١٣)
وَيَقْتَنِى نَبْعَـــةً يَصِيدُ بِهَا وَنَبْعُ مَنْ حَارَبَ الرَّدَى غَرَبُ(١٤)

(٧) شاهد : اسم فاعل من شهده (بكسر الهاء) شهوداً : أى حضره . والمراد بالموقف : موقف الحساب يوم القيامة. ويدان : يجازى بفعله، وعلى حسب عمله . والويل : العذاب ، أو هو واد فى جهنم لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حرّه . والحرب : الويل والهلاك والعذاب .

(٨) اربأ : أمر من ربأ : بمعنى علا وارتفع . واليفاع : التلّ . والسرب : الحفير تحت الأرض .

(٩) الباز ، والبازى : ضرب من الصقور . والحمام (بكسر الحاء) : قضاء الموت وقدره . والخرب (بفتح الخاء والراء) : ذكر الحبارى (بضم الحاء وفتح الراء) : وهو طائر على شكل الإوزّة . ومعنى البيت أن الموت لا ينجو منه قوى ولا ضعيف .

(١٠) مسلّط : غالب قاهر . والورى : الخلق . والعجم (بفتحتين) : خلاف العرب . والفتك البطش ، أو القتل على غفلة .

(١١) بادت : هلكت . وغصّت : امتلأت . والترب : جمع تربة (بضم فسكون) : وهى التراب ، أو القبر .

(١٢) قطن بالمنزل أو المكان (من باب قعد) : أقام به ، وتوطّنه ؛ فهو قاطن .

(١٣) يغدو : يذهب وينطلق . ولاهياً : لاعباً ، مولعاً ، مشغولا . والصاب : عصارة شجر مرّ . والضرب (بفتحتين) : العسل الأبيض .

والمعنى : أن الإنسان تشغله ملاهى الحياة ومشاغلها عن التفكير فى أحوالها ، والتفرقة بين ما يضرّه وما ينفعه .

(١٤) النبعة : واحدة النبع (بفتح فسكون فيهما) : وهو شجر تتّخذ منه القسىّ والسهام ، والمراد بالنبعة (هنا) : القوس نفسها : أى أداة الصيد : وهى آلة على هيئة هلال ، ترمى بها النبال والسهام . والردى : الهلاك . والغرب (بفتحتين) : شجر ضعيف لا يصلح للسهام .

ومعنى البيت : أنّ الإنسان يقتنى القسىّ ليصيد ويحارب بها ، ولكنه لا يقوى على حرب الموت ؛ لأنّ قسىّ من حارب الموت ضعيفة لا تصيد ، ولا تصيب .

لا يَبْـلُغُ الرِّبْحَ أَوْ يُفارِقَهُ ... كَماتِحٍ خانَ كَفَّهُ الْكَرَبُ(١٥)
يا وارِدًا لا يَمَلُّ مَـوْرِدَهُ ... حَذارِ مِنْ أَنْ يُصِيبَكَ الشَّرَبُ(١٦)
تَصْبُو إِلَى اللَّهْوِ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... واللَّهْوُ فيهِ الْبَوارُ والتَّرَبُ(١٧)
وَتَتْرُكُ الْبِرَّ غَـيْرَ مُحْتَسِبٍ ... أَجْرًا ، وبِالْبِرِّ تُفْتَحُ الْأُرَبُ(١٨)
دَعِ الْحُمَيَّا ، فَلابْنِ حانَتِها ... مِنْ صَدْمَةِ الْكَأْسِ لَهْذَمٌ ذَرِبُ(١٩)
تَـراهُ نُصْبَ الْعُيُـونِ مُتَّكِئاً ... وعَقْلُهُ فِى الضَّلالِ مُغْتَرِبُ(٢٠)

(١٥) الماتح : الذى يستقى الماء بالدَّلو ، اسم فاعل من متح الدلو (من باب نفع) : أى نزعها واستخرجها . وللدَّلو عادة عَرْقُوَتان : أى خشبتان تعترضان على فوهة الدلو كالصليب ، والكرب (بفتحتين) : حبل صغير يربط بالعرقوتين ، ويتّصل به الرشاء : وهو الحبل الطويل .

ومعنى البيت : أنّ الإنسان لا يكاد يبلغ غرضاً من أغراضه فى الدنيا حتّى يفارقها ، أو يفارق ذلك الغرض ، كالمستقى بالدلو الذى ضعفت قواه عن شدّها ، فسقطت قبل أن تصل إليه .

(١٦) الوارد : المشرف على الماء ، وهو اسم فاعل من ورد الإنسان وغيره الماء يرده ورودا : أى بلغه ووافاه . والمورد : موضع الورود . وحذار : احذر واحترز . والشرب : مصدر شرب (كفرح) : بمعنى عطش . والمعنى : أنّ المتغالى فى طلب الشىء قد يحرمه .

(١٧) تصبو : تميل . واللهو : اللعب . وغير مكترث : غير مبالٍ ، ولا مهتمّ . والبوار : الهلاك والكساد . والترب : مصدر ترب (من باب فرح) : أى خسر وافتقر .

(١٨) البرّ : الخير ، والإحسان ، والصدق ، والطاعة . ومحتسب : اسم فاعل من احتسب بكذا أجراً عند الله : أى اعتدّه ينوى به وجه الله ، ويقال أيضاً : احتسب الأجر على الله : أى ادّخره عنده ، لا يرجو ثواب الدنيا ، والأجر : الجزاء على العمل ، والذكر الحسن . والأرب (بضم أوله ، وفتح ثانيه) : جمع أربة (بضم فسكون) : وهى العقدة . ويشير بالشطر الثانى من هذا البيت إلى أثر البرّ والتقوى فى تيسير الأمور ، وحلّ المشكلات ، والتغلّب على صعوبات الحياة .

(١٩) حميّا الكأس : سورتها وشدّتها ، أو إسكارها . والمراد بالحميا : الخمر . والحانة : موضع بيع الخمر . وابن الحانة : السكّير . والمراد بصدمة الكأس : ألم الخمر ، وصداعها ، وأذاها . واللّهذم : السّنان القاطع . وذرب : حادّ ، ماضٍ . يقال : ذَرِب السيف ونحوه (من باب فَرِح) : أى صار حديداً ماضياً .

(٢٠) النصب (بضم النون وسكون الصاد أو بضمهما) : كلّ ما نصب : أى رفع (بالبناء للمفعول) ، والمراد بنصب العيون : أنه شاخص للعيون . ومتّكئاً : جالساً متمكّناً .

ومعنى البيت : أنك ترى السكران جالساً شاخصاً للعيون بجسمه ، أما عقله فبعيد عنه محتجب متوارٍ فى تيه السكر وغيبوبته .

فَبِئْسَتِ الْخَمْرُ مِنْ مُخادِعَةٍ لِسِلْمِها فِى الْقُلُوبِ مُحْتَرَبُ(٢١)
إذا تَفَشَّتْ بِمُهْجَةٍ قَتَلَتْ كَما تَفَشَّى فِى الْمَبْرَكِ الْجَرَبُ(٢٢)
فَتُبْ إلى اللهِ قَبْلَ مَنْدَمَةٍ تَكْثُرُ فِيها الْهُمُومُ والْكُرَبُ(٢٣)
واعْتَدْ عَلَى الْخَيْرِ ، فَالْمُوَفَّقُ مَنْ هَذَّبَهُ الاعْتِيَادُ والدَّرَبُ(٢٤)
وَجُدْ بِمَا قَدْ حَوَتْ يَدَاكَ ، فَمَا يَنْفَعُ ثَمَّ اللُّجَيْنُ والْغَرَبُ(٢٥)
فَإنَّ لِلدَّهْرِ لَوْ فَطَنْتَ لَهُ قَوْساً مِنَ الْمَوْتِ سَهْمُهَا غَرَبُ(٢٦) *

---

(٢١) مخادعة : اسم فاعل من خادعه : أى خاتله ، وأراد به المكروه من حيث لايعلم . ومحترب : حرب : وهو مصدر ميمى لاحتربوا : أى تحاربوا .

ومعنى البيت : أن الخمر جديرة بالذم ؛ لأنها تخاتل شاربها وتخادعه ، وتوقعه فى المكروه ، وهى تحدث فى جسمه انتعاشاً يخفى وراءه الضرر .

(٢٢) تفشت : كثرت وانتشرت . والمهجة : النفس . وبرك البعير (من باب دخل) : أى استناخ ، ووقع على بركه (بفتح فسكون) : وهو صدره ، والمبرك : موضع البروك .

(٢٣) المندمة : الندم : وهو الأسف والحزن . والهموم : جمع هم : وهو الحزن . والكرب : جمع كربة (بضم فسكون) : وهى الحزن يأخذ بالنفس .

(٢٤) هذبه : نقاه ، وأخلصه ، وأصلحه . والدرب : الاعتياد ، مصدر درب بالشىء (من باب فرح) .

(٢٥) ثم : أى فى الدار الآخرة . واللجين : الفضة . والغرب (بفتحتين) : الذهب .

(٢٦) الفطنة : الفهم والحذق ، وفطن له (كفرح ونصر وكرم) . وغرب (بفتحتين) : من قولهم : أصابه سهم غرب : أى لا يعرف من رماه .

والمعنى أن من فطن لأحوال الدهر وطبائع الزمان ، عرف أنه يغتال الأحياء ، ويفتك بالناس ، وينالهم بأسباب لا يعرفونها .

* والشطر الثانى من البيت الأول يدل على أن هذه البائية الزهدية من قصائده السرنديبية ؛ فقد نفى من مصر إلى سرنديب فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ وعمره يومئذ ثلاثة وأربعون عاماً . وفى منفاه بلغ الستين . وفى نحو الخمسين ، أى فى نحو سنة ١٨٩٠ نظم هذه القصيدة . وسرنديبيات البارودى كلها غاية فى رهافة الشعور ، ورقة العاطفة ، وجودة السبك ، وجمال الرنين والوقع ، وقوة التأثر والتأثير . وزهدياته فى منفاه كثيرة ، تقوم على الصدق ، والإعراض عن الدنيا ، وارتقاب الموت ، والتفكير فى الآخرة ، والعمل لها . وفى جوها النفسى كآبة وابتئاس ، ومندمة ويأس من عدالة الناس ، وتعلق بالله ، وطمع فى رحمته ورضاه .

قافية التاء

قال :

أَدِرِ الْكَأْسَ يا نَدِيمُ ، وهاتِ ... واسْقنيها عَلَى جَبِينِ الْغَدَاةِ(1)
شَاقَ سَمْعِى الْغِناءُ فِى رَوْنَقِ الْفَجْ ... رِ ، وَسَجْعُ الطُّيُورِ فى الْعَذَباتِ(2)
أَىُّ شَىْءٍ أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ كَأْ ... سٍ مُدارٍ عَلَى بِساطِ نَباتِ(3) ؟
هُوَ يَوْمٌ تَعَطَّرَتْ طَرَفاهُ ... بِشَمالٍ مِسْكِيَّةِ النَّفَحاتِ(4)
باسِمُ الزَّهْرِ ، عاطِرُ النَّشْرِ ، هَامِى الْ ... قَطْرِ ، وَانِى الصَّبَا ، عَلِيلُ الْمَهَاةِ(5)
مَسْرَحٌ لِلْعُيُونِ يَمْتَدُّ فِيهِ ... نَفَسُ الرِّيحِ بَيْنَ ماضٍ وآتِ(6)

(1) النديم : من ينادمك: أى يجالسك على الشراب . والجبين : جانب الجبهة فوق الحاجب مصعداً إلى قصاص الشعر . وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها ، فتكون الجبهة بين جبينين . والغداة : البكرة (بضم فسكون) ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، ومعنى على جبين الغداة : فى أولها .

(2) رونق الفجر : حسنه وبهاؤه . وسجع الطيور : هديرها وتغريدها . والعذبات : الأغصان .

(3) المعروف أن الكأس مؤنثة . وهى القدح : أى الإناء يشرب به الماء وغيره ، قيل : ولا تسمّى الكأس كأساً إلا وفيها الشراب . ومن شواهد تأنيث الكأس قول الله تبارك وتعالى : (يُطافُ عليهِم بكأسٍ من معين بيضاء لذّة للشاربين) . الآية ٤٥ والآية ٤٦ من سورة الصافات .

(4) الشمال (بفتح الشين) : الريح التى تهبّ من الجهة التى على يسارك وأنت متجه إلى الشرق ، وتقابلها الجنوب . ومسكيّة . منسوبة إلى المسك (بكسر فسكون) : وهوضربٌ من الطيب يتّخذ من ضربٍ من الغِزْلان (معرّب) وتسميه العرب المشموم ، وهو أفضل أنواع الطيب عندهم . والنفحات : جمع نفحة (بفتح فسكون) اسم مرة من نفحت الريح من باب نفع أى هبّت . وتأنيث الفعل (تعطّر) هنا غير سائغ .

(5) النشر : الريح الطيبة . وهامى القطر : كثير المطر . ، اسم فاعل من همى الماء: أى سال . ووان : ضعيف عليل فاتر . والصبا (بفتح الصاد) : ريح تهبّ من مطلع الشمس ، ومعنى وانى الصبا : أن هواءه عليل معتدل لطيف . والمهاة : الشمس . ويوم عليل المهاة : أى شمسه ضعيفة كأيام الشتاء .

(6) المسرح : المرعى ، ومعنى مسرح للعيون: أن العيون تجد فيه متعتها وما يقرّها . ونفس الريح (بفتحتين) : نسيمها .

والمعنى أنه مكان ممتع بهيج ، فسيح لا يعوق مرور الريح فيه عائق .

فامْتَثِلْ دَعْوَةَ الصَّبُوحِ ، وبادِرْ   فُرْصَةَ الدَّهْرِ قَبْلَ وَشْكِ الْفَواتِ(٧)
وتَدَرَّجْ مَعِي إلَى رَوْضَةِ الْمَنْـ   ـيَلِ ذاتِ النَّخيلِ والثَّمَراتِ(٨)
فَهْيَ مَرْعَى الْهَوَى ، ومَغْنَى التَّصابِي   ومَراحُ الْمُنَى ، ومَسْرَى الْحَياةِ(٩)
أَلِفَتْها النُّفُوسُ ، فَهْيَ إلَيْهَا   مِنْ أَلِيمِ الْأَشْواقِ فِى حَسَراتِ(١٠)
تَبْعَثُ اللَّهْوَ والسُّرُورَ ، وتَمْحُو   مِنْ فُؤادِ الْحَزِينِ كُلَّ شَكاةِ(١١)
بَيْنَ نَدْمانَ كَالْكَواكِبِ حُسْناً   ورَعابِيبَ كالدُّمَى خَفِراتِ(١٢)
يَتَسَـــاقَوْنَ بِالْكُئُوسِ مُداماً   هِيَ كالشَّمْسِ فى قَمِيصِ إيَاةِ(١٣)

(٧) امتثل الأمر : أطاعه ، وامتثل الدعوة : أجابها . والصبوح (بفتح الصاد) : شرب الغداة بين الفجر وطلوع الشمس ، والمراد الخمر تشرب فى أول النهار . ووشك : سرعة .

(٨) تدرّج : أمر من التدرج وهو المشى فى مهلة ورفق . والروضة : الموضع المعجب ، يكون فيه العشب والشجر والزهر والماء ، وروضة المنيل : جزيرة فى النيل شرقى الجيزة .

(٩) المرعى (فى الأصل) : موضع الكلأ ، أو الكلأ نفسه . والهوى : الحب ، أو ميل النفس وانحرافها نحو شهواتها ، والمراد أن عواطف الحب قد وجدت فى هذه الجزيرة المرعة ما يغذيها وينميها . والمغنى : مكان الإقامة ، والموضع العامر بأهله . وتصابى المرأة : خدعها وفتنها ، والمراد بالتصابى الغرام ودواعيه . والمراح (بفتح الميم) : الموضع الذى يروح القوم منه أو يرجعون إليه . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) : وهى الأمنيّة ، أى الشىء الذى يتمناه الإنسان ، ويقدّر حصوله ، والمراد أنها المكان الذى وجدنا فيه ما تمنينا . والمسرى (بوزن الملهى) اسم مكان من السرى (بضم ففتح) وهو سير الليل .

والمعنى أن هذا المكان كان مجالا لحياة السرور والمرح .

(١٠) ألفتها : أنست بها وأحبتها . والحسرات : جمع حسرة : وهى أشد التلهف والتأسف على الشىء الفائت .

(١١) الشكاة (بفتح الشين) : الشكوى ، ومثلها الشكاية (بكسر الشين) مصدر شكوته (من باب عدا) : أى أخبرت عنه بسوء فعله .

(١٢) الندمان (بوزن السكران) : النديم ، وهو من ينادمك أى يجالسك على الشراب ، وقد يكون الندمان جمعاً ، وهو هنا بمعنى الجمع . ورعابيب : فتيات بيض حسان ناعمات ، الواحدة رعبوبة أو رعبوب (بضم فسكون فيهما) أو رعبيب (بكسر فسكون) . والدمى : جمع دمية (بضم فسكون) : وهى الصورة المنقّشة المزيّنة من العاج ونحوه . وخفرات : جمع خفرة (بفتح فكسر) : وهى الجارية الشديدة الحياء .

(١٣) يتساقون : يسقى كل واحد منهم صاحبه . والمدام (بضم الميم) : الخمر . والإياة (بكسر الهمزة) : نور الشمس وحسنها .

في أَبارِيقَ كَالطُّيُورِ اشْرَأَبَّتْ حَذَرَ الْفَتْكِ مِنْ صِيَاحِ الْبُزَاةِ(١٤)
حانِيَاتٍ عَلَى الْكُئُوسِ مِنَ الرَّأْ فَةِ ، يُرْضِعْنَهُنَّ كَالأُمَّهاتِ(١٥)
لا تَرَى الْعَيْنُ بَيْنَهُمْ غَيْرَ صَبٍّ بِسَماعٍ ، أَوْ هائِمٍ بِفَتَاةِ(١٦)
ومُغَنٍّ إِذا شَدَا خِلْتَ أَنَّ الْ أَرْضَ ظَلَّتْ تَدُورُ بِالْفَلَوَاتِ(١٧)
مَلَكَ السَّمْعَ والْفُؤَادَ بِلَحْنٍ يَفْتِنُ الْغِيدَ داخِلَ الْحُجُرَاتِ(١٨)
يَبْعَثُ الصَّوْتَ مُرْسَلًا ، فإِذا مَا غَضَّ مِنْهُ اسْتَدَارَ بَيْنَ اللَّهَاةِ(١٩)
غَرِدٍ يُبْطِلُ الْحَدِيثَ ، ويُنْسِي رَبَّةَ الْحُزْنِ لَوْعَةَ الذِّكْرَاتِ(٢٠)

---

(١٤) اشرأبّ : رفع رأسه . والفتك : القتل على غرة (بكسر الغين وتشديد الراء). والبزاة : جمع البازي : وهو نوع من الصقور . ومن صياح البزاة متعلق باشرأبّت .

والمعنى أنها رفعت رءوسها بسبب صياح البزاة خوفاً من فتكها .

(١٥) حنت الأم على أولادها (من باب سما) : عطفت . وحانيات : جمع حانية اسم فاعل من الحنوّ .

(١٦) صبّ : كلف (بفتح فكسر) مولع محبّ ، صفة من الصبابة وهي رقّة الشوق ، أو رقّة الهوى ، والمراد بالسماع : سماع الغناء . والهائم : المحبّ العاشق .

(١٧) شدا : غنّى وترنّم . وخلت : ظننت . والفلوات : جمع فلاة : وهي المفازة ، والأرض لا ماء فيها . ومعنى البيت أن غناء هذا المغنى مطرب مسكر ؛ يظن من سمعه أن الأرض تدور بفلواتها .

(١٨) اللحن : ما اختاره المغنى ، ومال إليه من الأغاني ، واللحن أيضاً : التغريد والتطريب ، وهو مدّ الصوت وترجيعه وتحسينه . ويفتن (من بابى ضرب وجلس) : يعجب ويستميل . والغيد : جمع غيداء ، وهى المرأة الناعمة المتثنية ليناً .

(١٩) غضّ من صوته : خفضه . واللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

(٢٠) غرد (بفتح فكسر) نعت لمغن فى أول البيت : « ومغنّ إذا شدا . . . » . أو هى غرد (بفتح الغين والراء) مصدر غرد (من باب فرح) أى طرّب فى صوته وغنائه كالطائر ، وفى هذه الحال تكون مرفوعة . واللوعة : حرقة فى القلب وألم من همّ ونحوه . والذكرات : جمع ذكرة (بضم فسكون) وهى الشيء يجرى على اللسان ، أو يخطر بالقلب .

ومعنى البيت أنّ هذا المغنى لشدّة تأثيره يصرف الناس عن شهىّ الحديث ، وينسى الحزينة حرقة الحزن ، وألم الذكريات .

تِلْكَ واللهِ لَذَّةُ الْعَيْشِ ، لا سَوْ مُ الْأَمانِى فى عالَمِ الْخَطَراتِ(٢١)

وقال ـ وَهِىَ مِنْ لُزُومِ ما لا يَلْزَمُ* :

زَمْزِمِى الْكَأْسَ وَهَاتِى واسْقِنِيهَا يا مَهاتِى(١)
وامْزُجِيهَا بِرُضابٍ مِنْكِ مَعْسُولِ اللَّهاةِ(٢)
إنَّمَا الرَّاحُ مَدارُ الْـ أُنْسِ فِى كُلِّ الجهاتِ(٣)
طالَما عَاصَيْتُ فيهَا أَهْلَ وُدِّى وَنُهَاتِى(٤)
لا أُبالِى فى هَوَاهَا بِسَمَاعِ التُّرَّهَاتِ(٥)

---

(٢١) العيش : الحياة . وسامت الماشية سوماً : أى رعت (وبابه قال) . والأمانىّ : جمع أمنية : وهى ما يتمناه الإنسان ويقدّر حصوله . والخطرات : ما يتحرك فى القلب من رأى أو معنى .

ومعنى البيت : أنّ لذة الحياة فى زعم الشاعر إنما تكون فيما ذكره من شرب الخمر ، وسماع الغناء ، والهيام بالنساء ، وليست اللذة فى الأمانىّ المجرّدة ، يرسلها صاحبها تسرح فى عالم الخواطر .

* روى هذه القصيدة « التاء » ، وهو حرف بُنيت عليه القصيدة ، ونسبت إليه ، وردفها (بكسر فسكون) «الألف» ، وهو حرف مد قبل الروى ، وقد التزم الشاعر قبل الردف «هاء» ، وهذا التزام لاتحتمه قواعد القافية .

(١) معانى الفعل « زمزم » فى اللغة لا تلائم ما يقصده الشاعر ، ولعله اشتق من زمزم (وهى العين التى بمكة) ، فعلا . ويقصد بقوله : « زمزمى الكأس » طهّريها ونقّيها . والمهاة : الشمس . والبلّورة . والبقرة الوحشية ، والمراد بالمهاة : المرأة الحسناء يشبهونها بالشمس فى الحسن ، وبالبلّورة فى الصفاء والتألق ، وبالبقرة الوحشية فى اتساع العيون وجمالها .

(٢) مزج الشراب : خلطه (وبابه نصر) . والرضاب (بالضم) : الريق . وعسل الطعام والشراب : أى عمله بالعسل ؛ فهو معسول . واللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى الفم .

والمعنى : امزجى الخمر بريق منك حلو يجرى من لهاة معسولة .

(٣) الراح : الخمر . والأنس : ضد الوحشة .

(٤) الود : الحب . والنهاة : الذين كانوا ينهونه عن شرب الخمر ، جمع ناه .

(٥) لا أبالى : لا أكترث ، ولا أهتمّ . وهواها : حبها . والتّرّهات : جمع ترهة (بتاء مضمومة وراء مشددة مفتوحة) : وهى الباطل .

كيف أَخْشَى قَوْلَ دَاهٍ؟ أنا مِنْ قَوْمٍ دُهاةِ[٦]

وقالَ فى الْغَزَل :

سَمِعَ الْخَلِيُّ تَأَوُّهِى فَتَلَفَّتَا وأَصابَهُ عَجَبٌ ، فَقَالَ مَنِ الْفَتَى؟[١]

فَأَجَبْتُهُ إِنِّى امْرُؤٌ لَعِبَ الْأَسَى بِفُؤَادِهِ يَوْمَ النَّوَى فَتَشَتَّتَا[٢]

أُنْظُـرْ إِلَىَّ تَجِدْ خَيَالاً بالِياً تَحْتَ الثِّيابِ ، يَكادُ أَلَّا يُنْعَتَا[٣]

قَدْ كانَ لِى قَلْبٌ أَصَابَ سَوادَهُ سَهْمٌ لِطَرْفٍ فاتِرٍ فَتَفَتَّتَا[٤]

تَبِعَ الْهَوَى قَلْبِى فَهَامَ ، ولَيْتَهُ قَبْـلَ التَّوَغُّلِ فى الْبَلاءِ تَثَبَّتَا[٥]

أَلْقَتْهُ فِى شَرَكِ الْمَحَبَّةِ غَادَةٌ هَيْهاتَ ، لَيْسَ بِصاحِبِى إِنْ أَفْلَتَا[٦]

---

(٦) داه : اسم فاعل من الدهاء: وهو النكر (بضم فسكون) وجودة الرأى . ورجل داه من قوم دهاة . يقول : إنه لا يخشى قول رجل داهية يلومه فى الخمر ، لأنه من قوم دهاة ، فلا يخدع .

(١) الخلى : الخالى من الهم والعشق . وتأوّه : قال آه ، وهى كلمة تقال عند الشكاية أو التوجّع . والعجب (بفتحتين) : إنكار ما يرد عليك ، عجبت من الشىء (من باب طرب) وتعجبّت واستعجبت : إذا انفعلت نفسك لزيادة وصف فى المتعجَّب منه .

(٢) الأسى : الحزن . والنوى : البعد . وتشتت : تفرق أى الفؤاد .

(٣) بالياً : خلقاً (بفتح الخاء واللام) فانياً . وينعت : يوصف .

والمعنى : أنّ فراق الحبيب وبعده أذابه وأضناه ، فلم يبق فيه جسم يوصف .

(٤) سواد القلب : حبّته . والسهم: واحد من النبل (بفتح فسكون) . والطرف : العين . وفاتر : ضعيف ليس بحديد ، والفتور من صفات الحسن فى عيون النساء لأنه عنوان الخفر والحياء .

(٥) الهوى : العشق . وهام : أحبّ وعشق . والتوغّل : الدخول والإبعاد . والبلاء (هنا) : محنة الحب وهمومه . وتثبت فى الأمر : تأنّى .

(٦) الشرك (محركة) : حبائل الصيد ، وما ينصب للطير . والغادة : المرأة الناعمة الليّنة . وهيهات : اسم فعل ماض : بمعنى بَعُدَ ؛ فهى كلمة تبعيد .

والمعنى : أنّ امرأة ناعمة ليّنة صادت قلبى بحسنها ، وألقته فى حبائل حبها ، وهيهات أن يتخلّص منها ، ومع ذلك فإنى أوثر أنْ يبقى قلبى أسير حبها ، فإن تخلّص فليس بصاحبى ، وأنا برىء منه .

كَالْوَرْدِ خَدًّا ، وَالْبَنَفْسَجِ طُرَّةً وَالْغُصْنِ قَدًّا ، وَالْغَزَالَةِ مَلْفَتَا(٧)
نَظَرَتْ بِكَحْلاوَيْنِ أَوْدَعَتَا الْهَوَى بِالقَلْبِ حَتَّى هَامَ ، ثُمَّ تَخَلَّتَا(٨)
تاللهِ لَوْ عَلِمَ الْعَذُولُ بما جَنَى طَـرْفِى عَلَىَّ لَساءَهُ أَنْ يَشْمَتَا(٩)
طَرْفٌ أَطَلْتُ عِنانَهُ لِيُصِيبَ لِى بَعْضَ الْمُنَى ، فَأَصابَنِى لَمَّا أَتَى(١٠)
يا قَلْبُ حَسْبُكَ قَدْ أَفاقَ مَعَاشِرٌ وَأَراكَ تَدْأَبُ فى الهَوَى، فإلى مَتَى ؟(١١)

(٧) الطرة (بضم الطاء) : الشعر الموفى على الجبهة تطرّه الجارية (من باب ردّ) أى تسوّيه وتحفه وتعداله وتصففه ، وتشبيه الطرة بالبنفسج غير مألوف ، ولعله يقصد إلى ما فى الطرة من رائحة ذكية ، أو يقصد تشبيهها بطاقة البنفسج فى النعومة والغزارة . والقدّ : القوام (بفتح القاف) ، وهو اعتدال القامة وحسن طولها ، ويشبه القدّ بالغصن فى الاعتدال واللين والتثنّى . والملفت : التلفّت .

(٨) بكحلاوين : أى بعينين كحلاوين: مثنى كحلاء، صفة من كحلت العين كحلا (من باب فرح) وهو سواد يعلو جفونها خلقة ، والكحلاء : الشديدة سواد العين، أو التى تبدو كأنها مكحولة و إن لم تكحل . وأودعته الشيء : دفعته إليه ليكون عنده وديعة . والهوى : العشق.وهام (من باب باع) بفلانة : شُغف حبًّا بها . وتخلتا عنه : تركتاه .

يقول : إن هذه الحسناء فتنته بعينيها الساحرتين ،وشغلت قلبه بحبها ، ثم تركته مستهاماً بها صباً .

وبعد هذا البيت فى الأصل المخطوط بيت مطموس ، نصه :

عَيْنَانِ أَقْسَمَتَا بِأَلَّا تَبْرَحَا حَتَّى تُصِيبَا بِى الْفُؤَادَ فَبَرَّتَا

برح مكانه (كسمع) : أى زال عنه ، وفارقه . وأقسمتا بألا تبرحا : أى حلفتا ألا ترتدا عنى . وبرّ فى قسمه : أى صدق .

يقول : إنّ المتغزّل بها أصابت بعينيها فؤاده، أى فتنته بألحاظها ، فتيّمته ،وجعلته أسير الهوى، صريع الغرام . وصف عينيها بالسحر ، والفتنة والجمال .

وقد طمس هذا البيت – فيما يبدو – لأن معناه تكرار ، أو شبه تكرار لمعنى البيت الذى قبله : « نظرت بكحلاوين . . . »، ويلاحظ أنهما متفاوتان فى الحسن والبلاغة ، وأن المختار المستبقّى خير من المطموس وأبلغ .

(٩) العذول : اللائم . ويريد بما جنى طرفى علىّ : الذى جرته عينه إليه من آلام الحبّ وهمومه ؛ لأنه نظر فأحب وعشق . وشمت به يشمت (من باب سلم) : إذا فرح بمصيبة نزلت به .

(١٠) الطرف : العين . والعنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة. ويصيب : يدرك وينال . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) وهى ما يتمناه المرء ويريده ، ويقدر حصوله .

والمعنى : أنه أراد أن يمتع نفسه برؤية هذه الحسناء ففتنته محاسنها ، ووقع فى شرك حبها .

(١١) حسبك : كفاك . ومعاشر : جمع معشر : بمعنى الجماعة من الناس . وتدأب : تجد وتتعب . والهوى : العشق .

وقالَ فِى الأَحمق :

لا تُعاشِرْ ما عِشتَ أحْمَقَ ، واعْلَمْ أَنَّهُ فِى الوُجُودِ حَىٌّ كَمَيْتِ[1]
لَيسَ بَيْنَ الجُنُونِ والحُمْقِ إلّا مِثْلُ ما بَيْنَ أدْهَمٍ وكُمَيْتِ[2]

وَقالَ وَقدْ مَرَّ بِصَحْراءِ القَرافَةِ ، فرَأى نِسْوَةً يَنُحْنَ عَلى هالِكٍ :

رَأيْتُ بِصَحْراءِ القَرافَةِ نِسْوَةً نَوازِعَ ، لا يَأْوِينَ حُزْناً إلى بَيْتِ[1]
يَنُحْنَ عَلى مَيْتٍ سَيَتْبَعْنَ إثْرَهُ وَمِنْ عَجَبٍ مَيْتٌ يَنُوحُ عَلى مَيْتِ[2]

وقال فى الزُّهدِ :

كُلُّ حَىٍّ سَيَمُوتُ لَيْسَ فى الدُّنيا ثُبُوتُ[1]
حَرَكاتٌ سَوْفَ تَفْنَى ثُمَّ يَتْلُوها خُفُوتُ[2]
وَكلامٌ لَيْسَ يَخْلُو بَعْدَهُ إلّا السُّكُوتُ[3]
أيُّها السّادِرُ قُلْ لى أيْنَ ذاكَ الجَبَرُوتُ ؟[4]

---

(١) الأحمق : القليل العقل. ويشير بالشطر الثانى إلى سوء عيشة الأحمق ، وخموله ، وقلة نفعه .

(٢) الأدهم : الأسود . والكميت : من الخيل ما كان بين الأسود والأحمر . والمعنى: أن الحمق قريب من الجنون ، كقرب الكمته من الدهمة (بضم فسكون فيهما) .

(١) القرافة : مقبرة بمصر ، وبها قبر الإمام الشافعى رحمه الله . ونوازع : مشتاقات تحن إلى هذا الميت ، جمع نازعة اسم فاعل من نزع الإنسان إلى أهله ، أى اشتاق . وأويت إلى منزلى : نزلته وسكنته.

(٢) ناح الإنسان : بكى ، واستبكى غيره . والإثر (بكسر فسكون) والأثر (بفتحتين) : ما بقى من رسم الشىء . وتبع إثره : لحق به .

(١) الثبوت : الدوام والاستقرار .

(٢) الخفوت : السكون والسكوت .

(٣) يريد بالسكوت هنا : سكوت الموت .

(٤) السادر : التائه فى الغىّ ، الذى لا يهتم ، ولا يبالى ما صنع . والجبروت : الكبر .

كُنْتَ مَطْبُوعاً عَلَى النُّطْـ ـقِ ، فَمَا هَذَا الصُّمُوتُ ؟(٥)
لَيْتَ شِعْرِى ، أَهُمُودٌ مَا أَرَاهُ ، أَمْ قُنُوتُ ؟(٦)
أَيْنَ أَمْلاكٌ لَهُمْ فِى كُلِّ أُفْقٍ مَلَكُوتُ(٧)
زَالَتِ التِّيجَانُ عَنْهُمْ وخَلَتْ تِلْكَ التُّخُوتُ(٨)
أَصْبَحَتْ أَوْطَانُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهْيَ خُبُوتُ(٩)
لا سَمِيعٌ يَفْقَهُ الْقَوْ لَ ، ولا حَيٌّ يَصُوتُ(١٠)
عَمَرَتْ مِنْهُمْ قُبُورٌ وَخَلَتْ مِنْهُمْ بُيُوتُ(١١)
لَمْ تَذُدْ عَنْهُمْ نُحُوسَ الدَّ هْرِ إِذْ حانَتْ بُخُوتُ(١٢)
خَمَدَتْ تِلْكَ الْمَساعِى وانْقَضَتْ تلكَ النُّعُوتُ(١٣)

---

(٥) طبع على الشيء : جبل وخلق عليه (بالبناء للمفعول) . والصموت : السكوت .

(٦) شعر به (من باب قعد) : علم به ، وفطن له ، وعقله ، وأحسّ به . ومنه : ليت شعرى : أى ليتنى أدرى . والهمود : الموت . والقنوت : السكوت والخشوع .

(٧) أملاك : جمع ملك (بفتح فكسر) . والأفق : الناحية . والملكوت : الملك (بضم فسكون) والعز ، والسلطان .

(٨) خلا المكان (من باب سما) خلواً وخلاء : فرغ . والتخوت : جمع تخت (بفتح فسكون) : وهو وعاء تصان فيه الثياب . وقد استعمله المولدون فيما يجلس عليه ، وبخاصة فيما يجلس عليه الملك ، وهو المراد هنا .

يقول : إن تيجان هؤلاء الملوك زالت عنهم ، وعروشهم كذلك .

(٩) الخبوت : جمع خبت (بفتح الخاء وسكون الباء) وهو المتسع من بطون الأرض ، أو هو ما اطمأن من الأرض واتسع ، أو هو الخفىّ المطمئنّ من الأرض فيه رمل .

والمعنى : أنّ هؤلاء الملوك بعد وفاتهم أصبحت الأوطان التى يقيمون بها وهى قبور فى فلوات .

أو المعنى : أنّ ديارهم وأوطانهم وقصورهم أصابها بعد موتهم البلى والخراب ، فصارت بلاقع وفلوات

(١٠) يفقه : يفهم . ويصوت : يصوّت ويصيح .

(١٢) لم تذد : لم تدفع ، ولم تمنع . والنحوس : جمع نحس (بفتح فسكون) : وهو ضدّ السعد ، وحانت : آن حينها : أى وقتها وفاعله ضمير « نحوس » . والبخوت : جمع بخت ، وهو الجدّ : أى الحظ والحظوة والرزق والعظمة و « بخوت » فاعل « تذود » : أى لم تذد عنهم بخوتهم نحوس الدهر .

والمعنى : أنّ ما كان يتمتع به هؤلاء الملوك من سعد وحسن حظ لم يدفع عنهم نوائب الزمان حين جاءتهم .

(١٣) خمدت : سكنت . ويريد بالنعوت : ألقاب التعظيم والتبجيل .

إنّما الدُّنيـا خَيَالٌ باطِلٌ سَوْفَ يَفُوتُ(١٤)
لَيْسَ لِلْإِنْسانِ فيهَا غَيْرَ تَقْوَى اللهِ قُوتُ(١٥)

(١٥) المعنى : لا ينبغى أن يتزوّد الإنسان من دنياه غير تقوى الله تبارك وتعالى ، فإنه لا ينفعه إلا العمل المنبعث عن التقوى والطاعة .

قافية الثاء

قال :

إلَى اللهِ أَشْكُو أَنَّنِي بَيْنَ مَعْشَرٍ ... سَواءٌ لَدَيْهِمْ طَيِّبٌ وخَبِيثُ(1)

لَهُمْ أَلْسُنٌ إنْ رُمْنَ أَمْرًا بَلَغْنَهُ ... مِنَ النَّفْسِ ، مَصْنُوعٌ لَهُنَّ حَدِيثُ(2)

تَرِثُّ عَلَى قُرْبِ الوِدادِ عُهُودُهُمْ ... وكَيْفَ يَدُومُ الشَّيْءُ وهْوَ رَثِيثُ؟(3)

فَلَيْسَ لَهُمْ فِي سالِفِ الدَّهْرِ مَحْتِدٌ ... قَدِيمٌ ، ولا فِي الْمَكْرُماتِ حَدِيثُ(4)

بَرِمْتُ بِهِمْ حَتَّى سَئِمْتُ مَكانَتِي ... وَأَنْكَرْتُ طِيبَ الْعَيْشِ وَهْوَ دَمِيثُ(5)

إذا لم يُغِثْنِي اللهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ ... فَمَا لِيَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ مُغِيثُ(6)

---

(1) المعشر : جماعة الناس . ويشير بالشطر الثانى إلى سوء تقديرهم ، وفساد أخلاقهم ، وعدم تفرقتهم بين الطيّب والخبيث من القول والعمل .

(2) رام الشيء : طلبه ، (وبابه قال) .

ومعنى هذا البيت : أنّ لهؤلاء الناس براعة فى الحديث ، ينالون بها كلّ ما يطلبون ، وأنّ حديثهم منمّق مزوّق .

(3) ترثّ : تبلى وتخلق : ماضى رثّ ، ومثله أرثّ . والوداد : الحبّ . وعهود : جمع عهد ، وهو الموثق والحفاظ ورعاية الحرمة والأمان والذمة والوفاء والمودة . ورثيث : خلق (بفتحتين) بال قد ذهبت جدّته .

والمعنى : أنّ مودّاتهم لا تلبث أن ترثّ وتزول ؛ فهم لا يحفظون الودّ ، ولا يوفون بالعهد .

(4) سالف الدهر : ماضى الزمان . والمحتد (بوزن المجلس) : الأصل . والمكرمات : جمع مكرمة (بضم الراء) ، وهى فعل الكرم .

(5) برمت بالشيء : سئمت منه وضجرت (وباب الثلاثة تعب) . وطيب العيش : لذة الحياة . ودميث : سهل لين .

والمعنى : أنهم عكّروا حياته الصافية وزهّدوه فى عيشه .

وقال :

آهِ مِنْ غُرْبَةٍ وَفَقْدِ حَبِيبٍ أَوْرَثَا مُهْجَتِى عَذاباً مَكِيثَا(١)
لا تَسَلْنِى عَمَّا أُقاسى ؛ فَإِنِّى بَيْنَ قَوْمٍ لا يَفْقَهُونَ حَدِيثَا(٢)

وقال :

أَلا قُلْ لِقَوْمٍ شامِتِينَ تَرَبَّصُوا تَهَــزُّمَ شَرٍّ بِالْمَنِيَّةِ كارِثِ(١)
أَرَى سِتْرَ خَطْبٍ قَدْ تَرَفَّعَ ، وانْبَرَتْ تَلُوحُ لَهُمْ مِنْهُ وُجُوهُ الْحَوادِثِ(٢)

---

(١) المهجة : النفس والروح . ومكيث : مقيم باق .

(٢) أقاسى : أكابد،وأتحمل المشاق . ولا يفقهون : لايفهمون . يشير إلى عجمتهم ، ومباينة لغتهم للغته .

(١) شمت به (من باب سلم) : إذا فرح بمصيبة نزلت به. وتربّص الأمر : انتظره ، وتوقع نزوله. وتهزّمت القوس : صوّتت ، وكذا الرعد ، والمراد بتهزّم الشر : وقوعه وجلبته (بوزن غـَلَبة) . والمنيّة : الموت . وكارث : شديد فادح ، من كرثه الغمّ يكرثه (من بابى ضرب ونصر) أى اشتدّ عليه .

والمعنى : قل لقوم يفرحون بالمصائب التى تنزل بغيرهم انتظروا وقوع شرّ شديد فادح يأتيكم بالهلاك .

(٢) السِّتر (بكسر فسكون) : الغطاء . والخطب : الأمر الشديد ينزل بالناس . وترفّع : ارتفع ، والمراد ظهر وانكشف . وانبرت : اعترضت . وتلوح : تبدو وتظهر . وحوادث الدهر وأحداثه : نوائبه .

قافية الجيم

قال يمدح النبيّ صلّى الله عليه وسلم :

يا صَارِمَ اللَّحْظِ مَنْ أَغْرَاكَ بِالْمُهَجِ ... حَتَّى فَتَكْتَ بها ظُلْماً بلا حَرَجِ (١)
ما زالَ يَخْدَعُ نَفْسِى وهْىَ لاهِيَةٌ ... حَتَّى أَصابَ سَوادَ الْقَلْبِ بِالدَّعَجِ (٢)
طَرْفٌ ، لَوَانَّ الظُّبَا كانَتْ كَلَحْظَتِهِ ... يومَ الْكَرِيهَةِ ، ما أَبْقَتْ عَلَى وَدَجِ (٣)
أَوْحَى إلى القَلْبِ ، فانْقَادَتْ أَزِمَّتُهُ ... طَوْعاً إِلَيْهِ ، وَخَلَّانِى وَلَمْ يَعُجِ (٤)
فَكَيْفَ لِى بِتَلافِيهِ وَقَدْ عَلِقَتْ ... بِهِ حَبائِلُ ذاكَ الشَّادِنِ الْغَنِجِ (٥)

---

(١) الصارم : القاطع . واللحظ : النظر بمؤخر العين ، والمراد باللحظ الصارم : النظرة الفاتنة الساحرة ، ومن كلام العرب : فتنته المرأة بألحاظها . وأغراه بالشىء : ولّعه به . والمهج : جمع مهجة : وهى الروح ، وأغراك بالمهج : جعلك مغرًى مولعاً بإصابة المهج . والفتك : البطش أو القتل على غفلة . والحرج : الإثم والذنب . وبلا حرج : بلا خوف إثم .

(٢) خدعه : ختله ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . ولاهية : غافلة فى لهوها . وسواد القلب وسويداؤه : حبّته . والدعج (بفتح الدال والعين) : شدة سواد العين مع سعتها ، (وبابه طرب) . والمعنى : أنه تيمّنى وعبّدنى بجمال عينيه.

(٣) الطرف : العين . والظبا : جمع ظبة (بضم ففتح) وهى حدّ السيف والسنان ونحوهما . واللحظة : النظرة بمؤخر العين . والكريهة : الحرب أو الشدّة فيها . والودج (بفتح الواو والدال) : عرق فى العنق ، وهو الوريد الذى يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة .

والمعنى : أنّ للمحبوب عينين جميلتين فاتنتين ، تنبعث منهما نظرات ساحرة قاتلة ، لو شابهتها السيوف يوم الحرب لقطعت أعناق الرجال جميعاً .

(٤) أوحى : أشار . وانقادت : خضعت . والأزمّة : جمع زمام (بوزن كتاب) ، وهو المقود أى الحبل الذى تقاد به الدابة . وخلانى : تركنى . ولم يعج (من باب قال) : لم يرجع .

(٥) التلافى : مصدر تلافيت الشىء أى تداركته ولحقته . وعلقت (من باب تعب) : نشبت وتمسكت . والحبائل : جمع حبالة ، وهى الشرك (بفتح الشين والراء) . والشادن : الغزال إذا قوى=

كادَتْ تُذِيبُ فُؤَادِى نارُ لَوْعَتِهِ ... لَوْ لَمْ أَكُنْ مِنْ مَسِيلِ الدَّمْعِ فِى لُجَجِ (٦)
لَوْلا الْفَواتِنُ مِنْ غِزْلانِ «كاظِمَةٍ» ... ما كانَ لِلْحُبِّ سُلْطانٌ عَلَى الْمُهَجِ (٧)
فَهَلْ إِلَى صِلَةٍ مِنْ غادِرٍ عِدَةٌ ... تَشْفِى تَبارِيحَ قَلْبٍ بِالْفِراقِ شَجِ (٨)
أَبِيتُ أَرْعَى نُجُومَ اللَّيْلِ فى ظُلَمٍ ... يَخْشَى الضَّلالَةَ فيها كُلُّ مُدَّلِجِ (٩)
كَأَنَّ أَنْجُمَهُ والْجَوُّ مُعْتَكِرٌ ... غِيدٌ بِأَخْبِيَةٍ يَنْظُرْنَ مِنْ فُرَجِ (١٠)

= واستغنى عن أمّه . والغنج (بفتح الغين وكسر النون) : الحسن الدل ، (بدال مفتوحة ولام مشددة) .

والمعنى : أنه لا سبيل إلى تنجية قلبه مما وقع فيه ؛ لأنه وقع فى حبائل ذلك المحبوب الحسن الدلال الشبيه بالغزال .

(٦) اللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حب أو غيره . واللجج : جمع لجة (بلام مضمومة وجيم مشددة مفتوحة) : وهى معظم الماء .

والمعنى : أنّ بقلبى من شدّة الحب حرقة وناراً تكاد تذيبه ، لولم أكن غارقاً فى لجج من دموعى المنهمرة .

(٧) الفواتن : جمع فاتنة ، وهى المرأة المعجبة المدلهة (بكسر اللام المشددة) . والغزلان : جمع غزال ، وتشبه به المرأة فى جمال العينين والعنق ، والرشاقة ونحو ذلك . وكاظمة : موضع تغنى به الشعراء الأقدمون . قال امرؤ القيس :

إذ هنّ أقساطٌ كرجْل الدَّبى ... أو كقطا «كاظمة» الناهــل

وقال الفرزدق :

فيا ليت دارى بالمدينة أصبحت ... بأعفار فلج ، أو بسيف الكواظم

أراد كاظمة وما حولها فجمعها على كواظم . وقال الأزهرى : كاظمة : جوّ على سيف البحر ، من البصرة على مرحلتين ، وفيها ركايا كثيرة ، وماؤها شروب ، وأنشد لأعرابىّ من بنى كليب بن يربوع :

ضمنت لكنّ أن تهجرن نجداً ... وأن تسكنّ كاظمة البحـــور

والمهج : جمع مهجة ، وهى الروح والنفس .

(٨) التباريح : جمع تبريح وهو الشدّة ، وتباريح الشوق : توهّجه وتوقّده . والشجى : الحزين المهموم صفة من شجى (من باب صدِى) أى اهتمّ وحزن . يتمنى من حبيبه غير الوفىّ وعداً بوصل يشفى قلبه الذى برح به الفراق ، وشجاه وحزنه .

(٩) أرعى النجوم : أراقبها ، وأنتظر مغيبها . وظلم : جمع ظلمة (بضم فسكون) . والمدّلج : السائر فى آخر الليل . أو الذى يسير الليل كله : اسم فاعل من ادّلج ادّلاجاً .

(١٠) اعتكر الليل : اشتدّ سواده والتبس . وغيد : جمع غيداء ، وهى المرأة المتثنية ليناً . والأخبية : جمع خباء (بكسر الخاء) : وهو بناء يكون من وبر أو صوف ، ويقوم على عمودين أو ثلاثة . وفرج : جمع فرجة ، وهى الثغرة (بضم فسكون فيهما) .

لَيْلٌ غَيَاهِبُهُ حَيْرَى ، وأَنْجُمُهُ حَسْرَى، وساعاتُهُ فى الطُّولِ كالْحِجَجِ (١١)
كَأَنَّما الصُّبْحُ خافَ اللَّيْلَ حِينَ رَأَى ظَلْماءَهُ ذاتَ أَسْدادٍ ، فَلَمْ يَلِجِ (١٢)
فَلَيْتَ مَنْ لامَنِى لانَتْ شَكِيمَتُهُ فَكَفَّ عَنِّى فُضُولَ المَنْطِقِ السَّمِجِ (١٣)
يَظُنُّ بِى سَفَهاً أَنِّى عَلَى سَرَفٍ ولا يَكادُ يَرَى ما فيهِ مِنْ عِوَجِ (١٤)
فاعْدِلْ عَنِ اللَّوْمِ إنْ كُنْتَ امْرَأً فَطِناً فاللَّوْمُ فى الْحُبِّ مَعْدُودٌ مِنَ الْهَوَجِ (١٥)
هَيْهاتَ يَسْلُكُ لَوْمُ الْعاذِلِينَ إلَى قَلْبٍ بِحُبِّ رَسُولِ اللهِ مُمْتَزِجِ (١٦)
هُوَ النَّبِيُّ الَّذِى لَوْلَا هِدَايَتُهُ لَكانَ أَعْلَمُ مَنْ فِى الْأَرْضِ كَالْهَمَجِ (١٧)
أَنَا الَّذِى بِتُّ مِنْ وَجْدِى بِرَوْضَتِهِ أَحِنُّ شَوْقاً كَطَيْرِ الْبَانَةِ الْهَزِجِ (١٨)

---

(١١) الغياهب : جمع غيهب (بفتح فسكون ففتح) : وهو الظلمة . وحار يحار حيرة : نظر إلى الشيء فغشى عليه ، ولم يهتد لسبيله ، ولم يدر وجه الصواب ؛ فهو حيران ، وهى حيرى ، والمراد : أن ظلمات هذا الليل مجتمعة واقفة ، كأنها لا تدرى كيف تسير . وحسرى : جمع حسير ، أى كليل ضعيف. والحجج : جمع حجة (بحاء مكسورة وجيم مشددة مفتوحة) : وهى السنة .

(١٢) الأسداد : جمع سدّ ، وهو الحاجز بين الشيئين ، يقال : ضُربت بينهم الأسداد . وولج يلج (كوعد يعد) ولوجاً : دخل .

يقول : كأنّ الصبح لما رأى ظلمات الليل ذات أسداد وحواجز تشبه الأسوار خافها ، وارتدّ عنها ، ولم يجرؤ على اختراقها . والبيت كناية عن طول الليل .

(١٣) الشكيمة : الطبع . والمراد بفضول المنطق : الكلام الزائد الذى لا فائدة فيه . والسمج (بوزن الخَشِن) : القبيح .

(١٤) السفه : الجهل ، وخفّة العقل . والسرف (بفتحتين) : ضدّ القصد . والعوج : عدم الاستقامة ، وسوء الخلق .

(١٥) الفطن : الحاذق الفهم (بفتح فكسر) . والهوج (بفتحتين) : الحمق والطيش والتسرّع .

(١٦) سلك الطريق : ذهب فيه (وبابه دخل) . والعاذل: اللائم . ولم يحسن الشاعر هنا الترشيح للتخلص من الغزل إلى المديح .

(١٧) الهمج (بفتحتين) : الحمق ، وهم خفاف الأحلام ، ضعاف العقول من الناس .

(١٨) الوجد : المحبّة . وجدبها (من باب وَعَدَ) : أحبّها . ويريد بالروضة : قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، أو ما بين قبره ومنبر مسجده ، كأنما هو روضة من رياض الجنة . والحنين : الشوق وتوقان النفس (بفتح التاء والواو) . والبانة : واحدة البان ، وهو ضرب من الشجر يسمو ويطول فى ارتفاع مثل نبات الأثل . والهزج (بفتح فكسر) : المغرّد .

هاجَتْ بِذِكْرَاهُ نَفْسِي ، فاكْتَسَتْ وَلَهاً ... وأَيُّ صَبٍّ بِذِكْرِ الشَّوْقِ لَمْ يَهِجِ ؟(١٩)
فَمَا احْتِيَالِي ؟ وَنَفْسِي غَيْرُ صابِرَةٍ ... عَلَى الْبِعَادِ ، وهَمِّي غَيْرُ مُنْفَرِجِ (٢٠)
لا أَسْتَطِيعُ بَرَاحاً إِنْ هَمَمْتُ ، وَلَا ... أَقْوَى عَلَى دَفْعِ ما بِالنَّفْسِ مِنْ حِوَجِ (٢١)
لَوْ كانَ لِلْمَرْءِ حُكْمٌ فى تَنَقُّلِهِ ... ما كانَ إِلَّا إِلَى مَغْنَاهُ مُنْعَرَجِي (٢٢)
فَهَلْ إِلى صِلَةِ الآمالِ مِنْ سَبَبٍ ؟ ... أَمْ هَلْ إِلَى ضِيقَةِ الأَحْزانِ مِنْ فَرَجِ ؟(٢٣)
يارَبِّ بِالْمُصْطَفَى هَبْ لِي - وَإِنْ عَظُمَتْ ... جَرائِمِي - رَحْمَةً تُغْنِي عَنِ الْحُجَجِ (٢٤)
ولا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي فإِنَّ يَدِي ... مَغْلُولَةٌ ، وَصَباحِي غَيْرُ مُنْبَلِجِ (٢٥)
مالِي سِواكَ ، وأَنْتَ الْمُسْتعانُ إِذَا ... ضَاقَ الزِّحَامُ غَداةَ المَوْقِفِ الْحَرِجِ (٢٦)

(١٩) الوله (بفتحتين) : ذهاب العقل ، والتحيّر من شدة الوجد . والصب : العاشق المشتاق : من الصبابة : وهى رقّة الشوق وحرارته ، أو رقّة الهوى.

(٢٠) البعاد (بكسر الباء) : البعد . والهمّ : الوجد والحزن . وانفرج الهمّ : انكشف وزال . والمعنى : أنه لا سبيل إلى السلوان .

(٢١) برح مكانه (كسمع) براحاً (بفتح الراء) : زال عنه . وهممت بالشيء : أردته ، وعزمت عليه. والدفع : مصدر دفع الشيء : أى نحاه ، وأزاله بقوّة . والحوج : (بكسر ففتح) جمع حاجة .

والمعنى : فى نفسى حاجات ورغبات لا تفتأ تلحّ وتدأب ولا أستطيع ردّها أو مغالبتها. وزيارة قبر النبيّ صلى الله عليه وسلّم أولى هذه الحاجات أو الرغبات غير أنى لا أستطيع مزايلة مكانى ولا أقوى على السفر .

(٢٢) المغنى : المنزل . والمراد قبره ومسجده صلى الله عليه وسلم. والمنعرج : الانعراج ، وهو الانعطاف والانحناء ، والمراد : الانتقال والسفر .

(٢٣) الضيقة (بكسر الضاد) : الضيق وسوء الحال .

(٢٤) الحجج : جمع حجّة (بضم الحاء فيهما) وهى الدليل والبرهان ، والمراد بها المعذرة .

والمعنى : اللهمّ إنى أسألك بجاه النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم أن تغفر لى ذنوبى وإن عظمت ، برحمة منك تغنى عن إلقاء المعاذير.

(٢٥) يده مغلولة : مربوطة إلى عنقه بالغلّ (بضم الغين وتشديد اللام) : وهو طوق من حديد يجعل فى العنق . وانبلج الصبح : أضاء .

يدعو الله تعالى ألا يتركه إلى نفسه ، لأنه عاجز ضعيف ، وسبيل الحياة أمامه غير واضح ، ولهذا كان فى احتياج شديد إلى توفيق الله تعالى ومعونته .

(٢٦) الغداة : ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، والمراد بها هنا الوقت مطلقاً . والحرج (بفتح فكسر) : الضيق ، ويقصد بالموقف الحرج : موقف الحساب يوم القيامة .

لم يَبْقَ لِي أَمَلٌ إلَّا إلَيْكَ ، فَلَا تَقْطَعْ رَجائى ،فَقَدْ أَشْفَقْتُ مِنْ حَرَجِى (٢٧)

وقال :

أَبَعْدَ سِتِّينَ لى حَاجٌ فَأَطْلُبها ؟ هَيْهاتَ ، ما لامْرِئٍ بَعْدَ الصِّبَا حاجُ (١)
إنَّ ابْنَ آدَمَ فى الدُّنْيَا عَلَى خَطَرٍ لا يَسْتَقِيمُ لَهُ قَصْدٌ ومِنْهاجُ (٢)
كَأَنَّمَا هُوَ فى فُلْكٍ تُحِيطُ بِهِ مِنْ جانِبَيْهِ أَعاصِيرٌ وأَمْواجُ (٣)
يَهْوَى الْبَقاءَ ، ومَكْرُوهُ الْفَناءِ بِهِ ويَسْتَعِزُّ بِأَمْنٍ فِيهِ إِزْعاجُ (٤)
لا أَحْفِلُ الطَّيْرَ إنْ غَنَّتْ ،وإنْ نَعَبَتْ سِيَّانِ عِنْدِىَ صَفَّارٌ وشَحَّاجُ (٥)
يَسْتَعْظِمُونَ مِنَ الْحَجَّاجِ صَوْلَتَهُ وكُلُّ قَوْمٍ بِهِمْ لِلظُّلْمِ حَجَّاجُ (٦)*

(٢٧) الحرج (بفتحتين) : الإثم والذنب .

(١) الحاج : جمع حاجة . والمراد حاجات الشباب ، ودواعى الصبا .

(٢) الخطر : الإشراف على الهلاك . والقصد (هنا) : المقصد . والمنهاج : الطريق .

(٣) الفلك (بضم فسكون) : السفينة . والإعصار . الريح الحارة الشديدة ، أو التى تهبّ من الأرض كالعمود نحو السماء ، والجمع أعاصير .

(٤) استعزّ به : عد نفسه عزيزاً به ، أى قوياً غالباً . وأزعجه : أقلقه وقلعه من مكانه .

والمعنى : أنّ الإنسان يحبّ البقاء وهو يحمل فى نفسه أسباب ما يكرهه من الفناء ، ويأتيه الانزعاج والقلق من حيث يحسب نفسه فى أمن وعزّ ومنعة .

(٥) لا أحفل : لا أبالى ، يقال ما حفل فلان الشىء ، وما حفل به : أى ما بالى به ، وما اهتمّ ، وما اكترث له . ونعب الغراب : صاح (وبابه قطع وضرب) . وصفر يصفر (بالكسر) صفيراً وصفّر تصفيراً : صوّت ، وهو صفار : أى كثير الصفير . وغراب شحاج : كثير الشحيج أو الشحاج (بضم الشين فى الثانى) (كالنعيب والنعاب) ، وهو صوت الغراب ، أو صوت غليظ له إذا أسنّ .

يقول : إننى لا أكترث لغناء الطير ونعيبها ، وسيّان عندى ما حسن وما قبح من أصواتها ، لأنى أصبحت فى حال من الكبر لا تأبه للتفاؤل ولا للتشاؤم .

(٦) الحجاج : هو أبو محمد بن يوسف الثقفى ، أحد جبابرة العرب وحكّامها ، وموطّد ملك بنى أمية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وقد اشتهر الحجّاج بالشدّة والقسوة وسفك الدماء ، ولد سنة ٤١ هـ ومات سنة ٩٥ . والصولة : السطوة والقهر والبطش .

والمعنى : أنّ الناس يستعظمون قسوة الحجاج وبطشه ؛ وفى كل قوم مثله فى ظلمه وسطوته .

* هذه الأبيات من شعره فى سرنديب وهوفى الستين من عمره ، أى فى أوائل سنة ١٨٩٩ قبل أن يفرج عنه ببضعة أشهر . وفى الأبيات ما ينمّ على ظلمة اليأس ، وانقطاع الرجاء . وفيها الحكمة البالغة ، والمثل السائر . وفيها الروح المكتئب الحزين . وفيها تفظيع لظلم من ظلموه ، وظلموا أمثاله بهذا النفى السحيق الأبدىّ ، وعموا وصموا عن أنّات الاستعطاف والاسترحام .

قافية الحاء

وقال وهو فى حرب الرُّوس* سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية (١٢٩٤ هـ ـ ١٨٧٧ م) يذكر شوقَهُ إلى الوطن ، وَيصِفُ هذه الحربَ :

هَنِيئاً «لِرَيَّا» ما تَضُمُّ الْجَوَانِحُ | وإنْ طَوَّحَتْ بِى فى هَوَاهَا الطَّوائِحُ(١)
فَتَاةٌ لَها فى مَنْصِبِ الْحُسْنِ سُورَةٌ | تُقَصِّرُ عنها الْغِيدُ وَهْىَ رَواجِحُ(٢)
أَحَاطَ عَلَى مِثْلِ الْكَثِيبِ إزارُهَا | ودَارَتْ عَلَى مِثْلِ الْقَنَاةِ الْوَشائحُ(٣)

* يريد الحرب التى كانت بين تركيا وروسيا وحلفائها ، أعلنتها روسيا فى إبريل سنة ١٨٧٧ م (شهر ربيع الثانى سنة ١٢٩٤ هـ) وتبعتها رومانيا ثم الصرب والجبل الأسود . وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة تركيا ، وعقد معاهدة « سان استفانو» فى مارس سنة ١٨٧٨ م ، وبهذه المعاهدة نالت رومانيا والصرب والجبل الأسود استقلالها ، ومنحت البوسنة والهرسك وبلغاريا استقلالا إداريا ، وأخذت الروسيا باطوم وأرزن وقارص .

(١) ريا : اسم محبوبته . والجوانح : أضلاع الصدر ، واحدتها جانحة . وطوّحته الطوائح : قذفته القواذف ، وطوح به : ألقاه فى الهواء ، أو حمله على ركوب مفازة مهلكة .

يهنىء محبوبته بما يكنّه لها من حب ، على الرغم من أنّ حبها قد حمله على ركوب الأهوال ، وجلب إليه المتاعب والآلام .

(٢) المنصب (بفتح فسكون فكسر) : الأصل . والسورة (بضم السين) : المنزلة . والغيد : جمع غيداء ، وهى المرأة الناعمة المتثنية ليناً . ورواجح : جمع راجحة ، اسم فاعل من رجحت إحدى كفتى الميزان على الأخرى أى مالت .

يقول : إن لهذه الفتاة فى أصل الحسن منزلة عالية رفيعة تقصر عن بلوغها الغيد الحسان على الرغم من عظم حسنهنّ .

(٣) الكثيب : المجتمع من الرمل يشبه به كفل المرأة (بفتح الكاف والفاء) : أى عجزُها (بفتح العين وضم الجيم) . والإزار : الملحفة ، والمراد به : ما يغطى أسفل الجسم من الثياب . والقناة : الرمح ، يشبّه قدّ المرأة وقامتها بالقناة فى الاعتدال ، والاستواء ، واللدانة ، والمرونة . والوشائح : جمع وشاح (بوزن كتاب) ، وهو نسيج عريض يرصع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها . ومعنى البيت : أنها حسنة القوام ، ممتلئة الجسم .

فَفِى الْغُصْنِ منهاإنْ تَثَنَّتْ مَشابِهٌ   وفى الْبَدْرِ منها إنْ تَجلَّتْ مَلامِحُ(٤)
مَحاسِنُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ كَثِيرَةٌ   ولَكِنَّها إنْ وازَنَتْها مَقابِحُ(٥)
كأَنَّ اهْتِزازَ الْقُرْطِ فى صَفْحِ جِيدِها   سَنَا كَوْكَبٍ فى مَطْلَعِ الْفَجْرِ لائِحُ(٦)
لها ذُكْرَةٌ عِنْدِى وَطَيْفٌ ، كلاهُمَا   بِتِمْثَالِهـــا غادٍ عَلَىَّ ورائِحُ(٧)
عَجِبْتُ لِعَيْنِى كَيْفَ تَظْمَأُ دُونَها   وإنْسَانُها فى لُجَّةِ الْماءِ سابِحُ(٨)
أَحِنُّ لَها شَوْقاً ، ودُونَ مَزارِهَا   مَسَالِكُ يَأْوِيهَا الرَّدَى ومَنَادِحُ(٩)
فَيَافٍ يَضِلُّ النَّجْمُ فى قُذُفاتِها   وتَظْلَعُ فيها النَّائِجَاتُ الْبَوَارِحُ(١٠)

---

(٤) المشابه : جمع على غير قياس لشبه (بالتحريك).وتجلّت : تكشفّت . والملامح : المشابه ، جمع على غير قياس لمحة ، يقال : فى فلان لمحة من أبيه أى شبه .

(٥) الحجال : جمع حجلة (بفتح الحاء والجيم) وهى بيت يزيّن للعروس بالثياب والأسرة والستور . وربّات الحجال : المخدرات المحجّبات من النساء .

(٦) القرط : ما يعلّق فى شحمة الأذن من الحلىّ .وصفح الجيد : جانب العنق . والسنا : الضوء . ولائح : متلألئ لامع .

يشبّه بريق القرط المهتزّ فى جانب عنقها الأبيض بضوء كوكب يلوح فى مطلع الفجر .

(٧) الذكرة (بضم فسكون) : الحفظ للشىء ، والشىء يجرى على اللسان . والطيف : الخيال الطائف فى المنام . والتمثال : الصورة . وغاد : اسم فاعل من غدا غدواً (من باب سما) أى ذهب غدوة (بضم فسكون) ، وهى ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس . ورائح : اسم فاعل من راح يروح رواحاً ، أى رجع بالعشى ، ومعنى غاد علىّ ورائح : مقبل علىّ فى أوّل النهار وآخره .

يقول : إن ذكر هذه المحبوبة وطيف خيالها يمثّلان له صورتها فى كل وقت .

(٨) إنسان العين : حدقتها وسوادها . ولجّة الماء : معظمه . يعجب من ظمأ عينه لرؤية محبوبته ، مع أن حدقتها سابحة فى لجة من الدمع الغزير .

(٩) الحنين : الشوق . والمزار : موضع الزيارة . ومسالك : جمع مسلك ، اسم مكان من سلكت الطريق (من باب دخل) أى ذهبت فيه . ويأويها : يقيم بها . والردى : الهلاك . والمنادح : الأراضى الواسعة .

(١٠) الفيافى : الصحارى : جمع فيفاء ، وهى المفازة لا ماء فيها .والقذفات : جمع قذفة (بضم فسكون) وهى الجانب والناحية. وظلع البعير والرجل(من باب منع) : أى غمز فى مشيه ، وهو شبيه بالعرج . والنائجات : الرياح السريعة ، يقال : الريح تنيج أى مرّ سريع بصوت . والبوارح : جمع بارح ، وهى الريح الحارة =

وَلُجَّةُ بَحْرٍ كُلَّما هَبَّ عاصِفٌ ... مِنَ الرِّيحِ ، دَوَّى مَوْجُهَا المُتَنَاطِحُ (١١)
فَقَلْبِيَ تَحْتَ السَّرْدِ كالنَّارِ لافِحٌ ... ودَمْعِيَ فَوْقَ الْخَدِّ كالْمَاءِ سَافِحُ (١٢)
ولَوْ كُنْتُ مَطْلُوقَ الْعِنانِ لمَا ثَنَتْ ... هَوايَ الْفَيَافِي والْبِحَارُ الطَّوَافِحُ (١٣)
ولَكِنَّنِي فِي جَحْفَلٍ لَيْسَ دُونَهُ ... بَرَاحٌ لِذِي عُذْرٍ ، وَلَا عَنْهُ بَارِحُ (١٤)
يُكَافِحُنِي شَوْقِي إذَا اللَّيْلُ جَنَّنِي ... وأَغْدُو عَلَى جَمْعِ الْعِدَا فَأُكافِحُ (١٥)
خَصِيمانِ : هذا بالْفُؤادِ مُخَيِّمٌ ... وذلكَ عَنْ مَرْمَى الْقَذِيفَةِ نازِحُ (١٦)

= في الصيف ، أو الريح البارح : الشديدة .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أنه يحنّ إلى محبوبته حنيناً ؛ وبينه وبين ديارها طرق مهلكة ، وأراض واسعة ، ومفاوز يضلّ فى نواحيها ما يهتدى به ، ويكلّ من المشى فيها ما لا يتصوّر منه كلال ؛ حتى إنّ الرياح السريعة الشديدة تضعف عن السير فى هذه الفيافى ، وتصاب بما يشبه العرج .

(١١) لجة البحر (بوزن القبّة) : معظمه . وعصفت الريح : اشتدّت (وبابه ضرب وجلس) . ودوّى : صوّت . والمتناطح : المضطرب الذى ينطح بعضه بعضاً .

(١٢) السرد (بفتح فسكون) : اسم جامع للدروع . ولافح : حارّ محرق . وسافح : منصبّ . والمعنى : أن قلبه تحت ما يلبسه من الدروع يعانى من لواعج الشوق ما يشبه النار الموقدة ، ودمعه فوق خده غزير منصبّ كالماء الجارى.

(١٣) العنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة . وثنيته عن مراده : صرفته عنه . والهوى : الحب . والفيافى : جمع فيفاء : وهى الصحراء الواسعة المستوية . والطوافح : جمع طافح ، وهو الممتلئ .

والمعنى : أنه مقيّد بقيود الحرب ، ولو كان حرّاً طليقاً ما حالت بينه وبين محبوبته المفاوز الشاسعة ، ولا البحار الزاخرة .

(١٤) الجحفل : الجيش الكثير . والبراح : المتسع من الأرض لا زرع به ولا شجر . وبارح : زائل . ولا بارح عنه : أى لا مفرّ منه ، ولا محيص عنه .

والمعنى : أنه فى جيش كثير لا مفرّ منه ، ولا يستطيع إنسان أن يزايله لأىّ عذر من الأعذار.

(١٥) يكافحنى : يلاقينى ، مضارع كافحه أى لاقاه مواجهة عن مفاجأة ، والكفاح فى الحرب : المضاربة تلقاء الوجوه . وجنّه الليل : ستره . والغدوّ : الذهاب والانطلاق وقت الغدوة (بضم فسكون) ، وهى ما بين الفجر وطلوع الشمس . والعدا (بكسر العين وضمها) : اسم جمع لعدوّ .

(١٦) الخصيم : المخاصم . ومخيّم : مقيم . والقذيفة : كل ما يرمى به . ونازح : بعيد . يقول : إنه يكافح خصيمين : شوقاً إلى محبوبته مقيما بقلبه ، وعدوّاً بعيداً عن مرمى القذيفة .

وَمَا بِيَ ما أَخْشاهُ مِنْ صَوْلَةِ الْعِدَا ... لَوَ انَّ الْهَوَى يُولِي يَدًا ، أَوْيُسامِحُ(١٧)

فَيَا «رَوْضَةَ الْمِقْيَاسِ» حَيَّاكِ عارِضٌ ... مِنَ الْمُزْنِ خَفَّاقُ الْجَنَاحَيْنِ دَالِحُ(١٨)

ضَحُوكُ ثَنايَا الْبَرْقِ ، تَجْرِي عُيُونُهُ ... بِوَدْقٍ بِهِ تَحْيَا الرُّبَا والصَّحَاصِحُ(١٩)

تَحُوكُ بِخَيْطِ الْمُزْنِ مِنْهُ يَدُ الصَّبَا ... لَهَا حُلَّةً تَخْتَالُ فِيهَا الْأَبَاطِحُ(٢٠)

مَنازِلُ حَلَّ الدَّهْرُ فِيهَا تَمائِمِي ... وَصَافَحَنِي فِيها الْقَنَا والصَّفائِحُ(٢١)

وإِنَّ أَحَقَّ الْأَرْضِ بِالشُّكْرِ مَنْزِلٌ ... يكونُ بِهِ لِلْمَرْءِ خِلٌّ مُناصِحُ(٢٢)

فَهَلْ تَرْجِعُ الْأَيَّامُ فيهِ بِمَا مَضَتْ ... ويَجْرِي بِوَصْلٍ مِنْ «أُمَيْمَةَ» سانِحُ؟(٢٣)

---

(١٧) الصولة : السطوة والوثوب . والهوى : الحبّ . ويولى : يدنى ويعطى . واليد : النعمة والإحسان. والمعنى : أنه لا يخاف سطوة أعدائه فى الحربّ لو أنّ الحب يحسن إليه ، ويلطف به ، ويساهله ويياسره .

(١٨) الروضة (فى الأصل) : الموضع المعجب بالمياه والعشب والزهر ، وروضة المقياس : جزيرة فى النيل شرقى الجيزة ، وقد أكثر البارودى من التغنى بها . والعارض : السحاب المعترض فى الأفق . والمزن : السحاب . وخفّاق الجناحين : مضطرب متحرك ، تسوقه الرياح . وسحاب دالح : كثير المطر .

(١٩) الثنايا : الأسنان الأربع التى فى مقدم الفم ، واحدتها ثنية (بثاء مفتوحة ، فنون مكسورة ، فياء مشددة مفتوحة) . والودق (بوزن الوعد) : المطر . والربا : جمع ربوة (بتثليث الراء وسكون الباء) : وهى ما ارتفع من الأرض . والصحاصح : جمع صحصح (كجعفر) : وهو ما استوى من الأرض .

(٢٠) تحوك : تنسج . والمزن : السحاب ، وخيط المزن : المطر . والصبا (بفتح الصاد) : ريح تهبّ من مطلع الشمس ، والضمير فى لها إمّا أن يعود على الربا والصحاصح ، وإمّا أن يعود على روضة المقياس . والحلة (بوزن القلّة) : إزار ورداء ، ولا تكون إلا ثوبين من جنس واحد ، والمراد بها (هنا) : ما يكسو الأرض من العشب والنبات . والاختيال : الزهو ، والتبختر ، والإعجاب بالنفس . والأباطح : جمع الأبطح ، وهو المكان المتسع .

(٢١) التمائم : جمع تميمة وهى عوذة (بضم العين) أو خرزة تعلّق على الصبىّ لتدفع العين عنه . ومعنى حلّ الدهر فيها تمائمى : أنه ترعرع وشبّ وجاوز الصبا فى هذه المنازل . والقنا : جمع قناة ، وهى الرمح . والصفائح : السيوف العراض . ومعنى هذا الشطر : أننى بلغت فى هذه المنازل مبلغ الرجال .

(٢٢) الخلّ : الصديق . ومناصح : اسم فاعل من ناصحته مناصحة أى بادلته النصيحة .

(٢٣) مرّ به الطائر سانحاً : أى عن يمينه ، وهو مما يتفاءل به .

يتمنى أن تعود الأيام فى منزل الحب بمثل ما مضت ، وأن يسعده القدر بوصال محبوبته .

لَعَمْرِى لَقَدْ طالَ النَّوَى ، وتَقاذَفَتْ مَهامِهُ دُونَ الْمُلْتَقَى ومَطاوِحُ (٢٤)
وأَصْبَحْتُ فى أَرْضٍ يَحارُ بِها الْقَطا وتَرْهَبُها الْجِنَّانُ وَهْىَ سَوارِحُ (٢٥)
بَعِيدَةِ أَقْطَارِ الدَّيامِيمِ ، لَوْ عَدَا « سُلَيْكٌ » بِها شَأْواً قَضَى وَهْوَ رازِحُ (٢٦)
تَصِيحُ بِها الأَصْداءُ فى غَسَقِ الدُّجى صِيَاحَ الثَّكَالَى هَيَّجَتْها النَّوائِحُ (٢٧)
تَرَدَّتْ بِسَمُّورِ الْغَمامِ جِبالُها ومَاجَتْ بتَيَّارِ السُّيُولِ الْبَطَائِحُ (٢٨)

---

(٢٤) النوى : البعد ، وهى مؤنثة . وتقاذفت : تباعدت وترامت . والمهامه : جمع مهمه (وزان جعفر) أو مهمهة ، وهى المفازة البعيدة والبلد المقفر . والمطاوح : المقاذف والمهالك .

(٢٥) يحار : يضلّ ويتحيّر . والقطا : ضرب من الحمام يضرب المثل بهدايته . ورهب (من باب تعب) : خاف . والجنان : جمع جان (بتشديد النون) والجان والجنّ والجنّة : خلاف الأنس ، والبشَر ، والناس ، وربّما كانت هذه التسمية بسبب استتارهم عن حواس البشَر . يقال : جَنّ الشىء : أى استتر . وسوارح : جمع سارحة ، اسم فاعل من سرحت الإبل سرحاً (من باب نفع) وسروحاً أيضاً أى رعت بنفسها ، ويراد بالسوارح (هنا) السائرة المطلقة .

ومعنى البيت : أنه صار فى أرض متوّهة مخوفة ، يضلّ فيها ما يضرب به المثل فى الهداية ، ويخافها ما يخوّف غيره .

(٢٦) الأقطار : جمع قطر ، وهو الناحية. والدياميم : جمع ديموم أو ديمومة (بفتح فسكون) وهى الأرض القفر ، أو الصحراء الواسعة . وعدا : جرى . وسليك بن يثربى بن سنان بن سلكة (بضم ففتح) وهى أمه : لص جاهلى فتاك عدّاء ، يضرب به المثل فى العدو ، قيل كان يطلب الخيل فيدركها ، وتطلبه هى فلا تدركه. وكانت له دراية واسعة بالأرض ومجاهلها وفجاجها . وجرى شأواً : جرى طلقاً وشوطاً ، والشأو (فى الأصل) : الغاية والأمد . وقضى : مات. ورزح (كمنع) رزوحاً : سقط إعياء ، أو هزالا .

(٢٧) الأصداء: جمع صدى : وهو طائر يصرّ بالليل ، يقفز قفزاناً. والصدى أيضاً : الصوت يعود على من يصيح فى الخلاء . والغسق : ظلمة أول الليل . والدجى : جمع دجية (بضم فسكون) وهى الظلمة ، والمراد بغسق الدجى : ظلام الليل . والثكالى : جمع ثكلى (بوزن سكْرى) ، وهى المرأة التى فقدت ولدها . والنوائح : جمع نائحة : وهى المرأة تبكى على الميت ، وتستبكى غيرها .

(٢٨) تردت لبست الرداء . والسّمور : حيوان برى ثَدْيِى من آكلات اللحوم ، يتّخذ من جلده فراء ثمينة ، وهو يشبه النمس ويكثر ببلاد الروس . والغمام : السحاب ، واحدته غمامة . وماجت : اضطربت . والبطائح : جمع بطيحة : وهى مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

والمعنى : أنّ هذه الأرض قد لبست جبالها من السحاب ما يشبه فروة السمور ، واضطربت مسايلها بتيّار المياه الطاغية المجتمعة من الأمطار الجارية فى الأودية .

فأَنْجادُها لِلْكاسِراتِ مَعَاقِلٌ وأَغْوارُها لِلْعاسِلاتِ مَسارِحُ(٢٩)

مَهالِكُ يَنْسَى الْمَرْءُ فيها خَلِيلَهُ وَيَنْدُرُ عَنْ سَوْمِ الْعُلا مَنْ يُنافِحُ(٣٠)

فَلاَ جَوَّ إِلَّا سَمْهَرِيٌّ وقاضِبٌ ولا أَرْضَ إِلَّا شَمَّرِيٌّ وسابِحُ(٣١)

تَرانا بِها كَالأُسْدِ نَرْصُدُ غارَةً يَطِيرُ بِها فَتْقٌ مِنَ الصُّبْحِ لامِحُ(٣٢)

مَدافِعُنَا نُصْبُ الْعِدَا ، ومُشاتُنَا قِيَامٌ ، تَلِيها الصَّافِناتُ الْقَوارِحُ(٣٣)

---

(٢٩) الأنجاد: جمع نجد ، وهو ما أشرف وارتفع من الأرض . والكاسرات : الطيور تكسر أجنحتها : أى تضمها للوقوع . والمعاقل : جمع معقل (بوزن مسجد) وهو الملجأ . والأغوار : جمع غور وهو المطمئن من الأرض . والعاسلات : الذئاب ، عسل الذئب يعسل (بالكسر) عسلا وعسلاناً (بفتح العين والسين فيهما) : أى اضطرب فى عدوه وهزّ رأسه . والمسارح : جمع مسرح (بفتح فسكون ففتح) : وهو المرعى .

(٣٠) الخليل : الصديق. ويندر : يسقط ، أو يهلك ، أو يقلّ . وسام البائع السلعة (من باب قال) : إذا عرضها للبيع وذكر ثمنها ، وسامها المشترى طلب بيعها ، والمراد بسوم العلا : طلب الرفعة ، ومعالجة الوصول إليها . وينافح : يكافح ويدافع .

والمعنى : أنّ الإنسان فى هذه الأرض مشغول بتخليص نفسه من مهالكها ؛ ولهذا ينسى فيها صديقه ، ويهلك فيها البطل الذى يكافح لنيل العلا لشدّة ما فيها من أهوال .

(٣١) السمهرىّ : الرمح الصلب ، وقيل : منسوب إلى سمهر : اسم رجل كان يثقّف الرماح ويقوّمها. والقاضب : السيف القطاع . والشمّرىّ : الشجاع المجرّب الماضى فى الأمور . والسابح : الفرس يسبح بيديه فى سيره .

والمعنى : أنك لا ترى هنالك فى ساحة الحرب إلا جوًّا من الرماح الصلبة والسيوف القاطعة ، وأرضاً من الشجعان وسوابح الخيل .

(٣٢) الأسد (بضم فسكون) : جمع أسد (بفتحتين) . ونرصد : نرقب وننتظر . والغارة : اسم من اغارت الخيل ، اى اسرعت فى عدوها ، وأغار القوم على أعدائهم : أى هجموا عليهم ، وأوقعوا بهم . وفتق الصبح : انشقاق الفجر . ولامح : لامع .

والمعنى : أنك ترانا بهذه الأرض كالآساد ننتظر الهجوم على العدوّ فى مطلع الفجر .

(٣٣) نصب العدا (بضم النون وسكون الصاد) أمامهم ، يقال هذا الشىء نصب عينى : إذا كان قائماً ظاهراً أمامى ، لا يخفى علىّ ، والنصب أيضاً : الداء والشرّ والعذاب . والعدا : اسم جمع لعدوّ . والمشاة : جمع ماش . والصافنات : جمع الصافن : وهو من الخيل ما يقف على ثلاث قوائم ، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر ، اسم فاعل من صفن الفرس يصفن (من باب جلس) صفونا ، وهو من الصفات المحمودة فى =

ثَلاثَةُ أَصْنافٍ تَقِيهِنَّ ساقَةٌ صِيَالَ الْعِدَا إنْ صاحَ بِالشَّرِّ صائِحُ (٣٤)
فَلَسْتَ تَرَى إلَّا كُماةً بَواسِلًا وجُرْدًا تَخُوضُ الْمَوْتَ وَهْيَ ضَوابِحُ (٣٥)
نُغِيرُ على الأَبْطالِ والصُّبْحُ باسِمٌ ونَأْوِى إلَى الأَدْغَالِ واللَّيْلُ جانِحُ (٣٦)
بَكَى صاحِبِى لَمَّا رَأَى الْحَرْبَ أَقْبَلَتْ بِأَبْنائِها ، والْيَوْمُ أَغْبَرُ كالِحُ (٣٧)
ولَمْ يَكُ مَبْكاهُ لِخَوْفٍ ، وإنَّما تَوَهَّمَ أَنِّى فى الْكَرِيهَةِ طَائِحُ (٣٨)
فقَالَ اتَّئِدْ قَبْلَ الصِّيَالِ ، ولا تَكُنْ لِنَفْسِكَ حَرْباً ، إنَّنِى لَكَ ناصِحُ (٣٩)
أَلَمْ تَرَ مَعْقُودَ الدُّخَانِ ، كَأَنَّمَا عَلَى عَاتِقِ الْجَوْزاءِ مِنهُ سَرائِحُ (٤٠)؟
وقَدْ نَشَأَتْ لِلْحَرْبِ مُزْنَةُ قَسْطَلٍ لَهَا مُسْتَهِلٌّ بِالْمَنِيَّةِ راشِحُ (٤١)

= الخيل . والقوارح : جمع قارح : وهو من الخيل ونحوها : ما بلغ الخامسة من عمره .

والمعنى : أنّ مدافعنا فى مقدّمة جيشنا أمام العدوّ ، أما مشاتنا فقيام خلف المدافع ، تليهم فرق الفوارس على خيول جيدة كريمة قد بلغت أشدّها .

(٣٤) ساقة الجيش : مؤخره. وصال على قرنه صولا (بفتح فسكون) وصيالا (بكسر الصاد) : سطا عليه ، وبطش به .

(٣٥) الكماة : جمع كمىّ (كغنى) : وهو الشجاع ، أو لابس السلاح . وبواسل : جمع غير قياس لباسل : وهو البطل الشجاع . والجرد : جمع أجرد : وهو الفرس السبّاق . وتخوض : تقتحم وتدخل . وضوابح : جمع ضابح . وضبح الخيل (بفتح فسكون) : صوت أنفاسها عند العدو والجرى .

(٣٦) نغير على الأبطال : نهجم عليهم ونوقع بهم. والأبطال : الشجعان . والأدغال : جمع دغل (بفتحتين) : وهو الشجر الكثير الملتفّ . وجانح : مقبل .

(٣٧) كالح : عبوس هائل .

(٣٨) توهّم : ظنّ . والكريهة : الحرب . وطائح : هالك .

(٣٩) اتئد : تأنّ وتمهّل . والصيال : السطو والبطش .

(٤٠) العاتق : ما بين المنكب والعنق ، (والمنكب كالمجلس : مجمع عظم العضد والكتف) . والجوزاء : كوكب . والسرائح : جمع سريحة ، وهى القطعة من الثوب ، والمراد قطع الدخان .

والمعنى : أنّ دخان الحرب معقود فى الجوّ مرتفع ، كأنما الجوزاء قد حملت على عاتقها قطعاً منه .

(٤١) المزنة : السحابة . والقسطل : الغبار . واستهلّ المطر : اشتدّ انصبابه ، فالمطر مستهل أى=

فَلَا رَأْىَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِنَجْوَةٍ ... فإنَّكَ مَقْصُودُ الْمَكَانَةِ واضِحُ (٤٢)
فَقُلْتُ تَعَلَّمْ أَنَّما هِىَ خُطَّةٌ ... يَطُولُ بها مَجْدٌ ، وتُخْشَى فَضَائِحُ (٤٣)
فَمَا كُلُّ ما تَرْجُو مِنَ الْأَمْرِ ناجِعٌ ... ولا كُلُّ مَاتَخْشَى مِنَ الْخَطْبِ فَادِحُ (٤٤)
فَقَدْ يَهْلِكُ الرِّعْدِيدُ فى عُقْرِ دارِهِ ... ويَنْجُو مِنَ الْحَتْفِ الْكَمِيُّ الْمُشَايِحُ (٤٥)
وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْماً مُلاقٍ حِمامَهُ ... وإنْ عَارَ فى أَرْسَانِهِ وَهْوَ جامِحُ (٤٦)
فَمَا بارِحٌ إِلَّا مَعَ الْخَيْرِ سانِحٌ ... ولا سَانِحٌ إِلَّا مَع الشَّرِّ بارِحُ (٤٧)

= شديد الانصباب ، أو هى مستهل (بفتح الهاء) : مصدر ميمى بمعنى الاستهلال والانصباب . والمنيّة : الموت . ورشح الماء (وبابه قطع) : خرج من مسامّ إناء أو غيره .

والمعنى : أنه قد نشأ فى سماء ساحة الحرب من غبارها ما يشبه السحابة التى تصبّ الموت والفناء .

(٤٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض ، والمراد المكان البعيد عن الخطر . والمكانة : المكان ، ومقصود المكانة : معروف مكانك من الجند لعلوّ قدرك فيه .

يشير صاحبه عليه بأن يكون بعيداً من الخطر ؛ لأنه مشهور معروف لأعدائه ، مقصود بالأذى لعظم منزلته فى الجيش .

(٤٣) تعلّم : اعلم . والخطّة (بضم الخاء) : الشأن والحالة . والمجد : العزّ والشرف والكرم .
يقول لصاحبه : اعلم أنّ الإقدام فى الحرب يعلو به مجد الشجاع ؛ ويتّقى به كشف المساوئ والنقائص التى تنجم عن الجبن والخور .

(٤٤) ناجع : نافع ذو أثر ظاهر . والخطب : الشأن والأمر والنازلة . وفادح : صعب شاقّ باهظ .

(٤٥) الرعديد (بكسر الراء) : الجبان . وعقر الدار (بضم العين) : وسطها . والحتف : الموت . والكمىّ : الشجاع . والمشايح : المقاتل : اسم فاعل من شايح مشايحة وشياحاً .

(٤٦) الحمام (بكسر الحاء) : قضاء الموت وقدره . وعار الفرس يعير (من باب باع) : ذهب كأنه منفلت من صاحبه . والأرسان : جمع رسن (بفتح الراء والسين) : وهو الحبل . وجامح : مستعص ، اسم فاعل من جمح الفرس براكبه يجمح (من باب خضع) جماحاً (بالكسر) وجموحاً (بالضم) أى استعصى عليه حتى غلبه .

ومعنى البيت : أنّ الإنسان يلاقى حتماً ما قدّر عليه من الموت ، وإن فرّ من أسبابه فرار الفرس الجموح .

(٤٧) البارح : الطائر الأشأم . وسنح الطائر : جرى على يمينك إلى يسارك ، والعرب تتيامن بذلك .
ومعنى البيت : أنّ كل ما يتشاءم منه يعود يمناً إذا قدّر للإنسان الخير ، وكل ما يتيامن به يعود شؤماً إذا قدّر للإنسان الشرّ .

فَإِنْ عِشْتُ صافَحْتُ الثُّرَيَّا ، وإِنْ أَمُتْ فإِنَّ كَرِيماً مَنْ تَضُمُّ الصَّفَائحُ(٤٨)

وسَأَلَهُ أَحَدُ الْفُضَلاءِ أَنْ يُوازِنَ* قَصِيدَةَ ابْنِ النَّبِيهِ** التى أَوَّلُها :

يا سَاكِنِي السَّفْحِ ! كَمْ عَيْنٍ بِكُمْ سَفَحَتْ نَزَحْتُمُ ، فَهْيَ بَعْدَ الْبُعْدِمَا نَزَحَتْ

فقال :

ماذَا عَلَى قُرَّةِ الْعَيْنَيْنِ لَوْ صَفَحَتْ وعَاوَدَتْ بِوِصالٍ بَعْدَ ما صَفَحَتْ(١)

بايَعْتُها الْقَلْبَ إِيجاباً بِما وَعَدَتْ فَيَالَها صَفْقَةً فى الْحُبِّ ما رَبِحَتْ(٢)

قَدْ يَزْعُمُ النَّاسُ أَنَّ الْبُخْلَ مَقْطَعَةٌ فَما لِقَلْبِى يَهْوَاهَا وما سَمَحَتْ ؟(٣)

---

(٤٨) الثريا : نجم معروف ، يضرب به المثل فى الرفعة والعلاء . والصفائح : حجارة عراض رقاق ، والمراد القبر .

* يوازن القصيدة : يأتى بقصيدة تعادلها ، أى من بحرها وقافيتها .

وهذه القصيدة حائية ، أى رويّها الحاء، والتاء بعده حرف وصل. ويجوز أن تكون تائيّة ، أى رويّها التاء الساكنة،وقد التزم الشاعر قبلها الحاء، وهو من لزوم ما لا يلزم.والوجه الأول مستحسَنٌ راجح.

** ابن النبيه المصرى : هو أبو الحسن علىّ بن محمد ، كان شاعراً رقيق الشعر بديع الغزل ، اتّصل ببنى أيوب ملوك الشام والجزيرة من أقارب صلاح الدين، واختصّ بالملك الأشرف موسى، الملقّب بشاه أرمن . توفى بنصيبين من مدن الجزيرة سنة ٦١٩ هـ .

(١) قرّت العين قرّة (بالضم) وقروراً: بردت سروراً، ويقال: هو قرة العين: أى متعتها ، ومبعث سرورها . وصفح عن ذنبه : عفا عنه . والمعاودة : الرجوع إلى الأمر الأول . وصفحت عن الأمر : أعرضت عنه وتركته .

(٢) أوجبت البيع إيجاباً،فوجب : أى لزم وثبت . والصفقة (فى الأصل): ضرب اليد على اليد فى البيع ، وكانت العرب إذا وجب البيع ضرب أحد المتبايعين يده على يد صاحبه ، ثم استعملت الصفقة فى عقد البيع ، فقيل : صفقة رابحة ، وصفقة خاسرة .

ومعنى البيت : أنه باع لمحبوبته قلبه بيعاً واجباً ثابتاً لازماً بما وعدته من وصال ونحوه ، ثم عجب من هذه الصفقة التى لم تربح ؛ لأنّ محبوبته لم تف بوعدها .

(٣) يزعم : يظنّ .

ومعنى البيت : أنّ الناس يظنّون أنّ البخل يقطع الودّ ، فما لقلبى يحبها على الرغم من أنها لم تجد بوصل .

خوطِيَّةَ الْقَدِّ ، لو رَآ الْحَمَامُ بها ... لم يَشْتَبِهْ أَنَّها مِنْ أَيْكِهِ انْتَزَحَتْ(٤)
خَفَّتْ مَعاطِفُها ، لَكِنْ رَوادِفُها ... بِمِثْلِ ما حَمَّلَتْنِى فى الْهوَى رَجَحَتْ(٥)
وَيْلاهُ مِنْ لَحْظِها الْفَتَّاكِ إِنْ نَظَرَتْ ... وَآهِ مِنْ قَدِّها الْعَسَّالِ إِنْ سَنَحَتْ(٦)
يَمُوتُ قَلْبِى وَيَحْيَا حَيْرَةً وهُدًى ... فى عالَمِ الْوَجْدِ إِنْ صَدَّتْ وإِنْ جَنَحَتْ(٧)
كَالْبَدْرِ إِنْ سَفَرَتْ ، والظَّبْيِ إِنْ نَظَرَتْ ... والْغُصْنِ إِنْ خَطَرَتْ ، والزَّهْرِ إِنْ نَفَحَتْ(٨)
واخَجْلَةَ الْبَدْرِ إِنْ لاحَتْ أَسِرَّتُهَا ... وَحَيْرَةَ الرَّشَإِ الْوَسْنَانِ إِنْ لَمَحَتْ(٩)

---

(٤) الخوط : الغصن الناعم . والقدّ : اعتدال القامة ، وحسن الطول ، وجمال القوام . وخوطيّة القدّ : أى قدّ المتغزّل بها يشبه الغصن الناعم فى طوله ، ونعومته ، ونضرته ومرونته . ولم يشتبه لم يشكّ . والأيك : الشجر الكثير الملتفّ ، الواحدة : أيكة . وانتزح انتزاحاً : نأى ، وبَعُد . والمراد : كأن المتغزّل بها ، أو كأنّ قدّها وقوامها انتزع من الأيك ، واقتطع ، وأخذ ؛ إذ الشيء المأخوذ يبتعد بالأخذ عن الأصل المأخوذ منه . وهو تأكيد لمعنى : « خوطيّة القد » : ، أى قدها منسوب إلى الخوط ، ولا شكّ أنه منتزع مقتلع من الأيك .

(٥) المعاطف : جمع معطف (بوزن مجلس) ، اسم مكان من عطف : أى مال ، والمراد بها : الخصور : جمع خصر (بفتح فسكون) : وهو وسط الإنسان . والمعنى : أن خاصرتيها دقيقتان نحيفتان . والروادف : الأعجاز . ورجح الشيء : زاد وزنه وثقل . والمعنى : أن روادفها عظيمة ، قد رجحت بحمل ثقيل كالذى حملته فى حبها .

(٦) الويل : العذاب . واللحظ : النظر بمؤخر العين . والفتك : القتل على غفلة . والقدّ : قامة الإنسان وتقطيعه واعتداله . والعسّال : المهتزّ ، من عسل الرمح أى اهتزّ ، فهو عاسل وعسّال . وسنحت : عرضت ومرّت .

(٧) الوجد : الحبّ والعشق . وصدّت : أعرضت وهجرت . وجنحت : مالت ووصلت .
والمعنى : أنّ قلبه فى عالم الحب يموت ، أى يذهل فلا يدرى وجه الصواب إذا أعرضت عنه محبوبته ، ويحيا فيهتدى إذا هى مالت إليه ووصلته .

(٨) سفرت : كشفت عن وجهها . والظبى : الغزال . وخطرت : اهتزّت فى مشيها وتبخترت . ونفح الطيب : فاح ، وله نفحة طيبة .

(٩) لاحت : أومضت وتلألأت ولمعت . وأسرّة الوجه : محاسنه . والرشأ : ولد الظبية إذا قوى ، ومشى مع أمه ، وهو الغزال . والوسنان : صفة من الوسن (بفتحتين) وهو النعاس ، والمراد فتور الطرف من الحياء . ولمح إليه (كمنع) : اختلس النظر .

لها رَوَابِطُ لا تَنْفَكُّ آخِذَةً بِعُرْوَةِ الْقَلْبِ إِنْ جَدَّتْ ، وإنْ مزَحَتْ (١٠)
يا سَرْحَةَ الْأَمَلِ الْمَمْنُوعِ جَانِبُهُ ويا غَزَالَةَ وادِى الْحُسْنِ إِنْ سَرَحَتْ (١١)
تَرَفَّقِي بِفُؤَادٍ أَنْتِ مُنْيَتُهُ ومُقْلَةٍ لِسِوَى مَرْآكِ ماطَمَحَتْ (١٢)
حَاشَاكِ أَنْ تَسْمَعِي قَوْلَ الْوُشَاةِ بِنَا فإِنَّها رُبَّمَا غَشَّتْ إِذَا نَصَحَتْ (١٣)
أَفْسَدْتُ فِى حُبِّكُمْ نَفْسِي جَوًى وَأَسًى والنَّفْسُ فِى الْحُبِّ مَهْمَا أُفْسِدَتْ صَلَحَتْ (١٤)
مَازِلْتُ أَسْحَرُها بالشِّعْرِ تَسْمَعُهُ مِنْ ذاتِ فَهْمٍ ، تُجِيدُ الْقَوْلَ إِنْ شَرَحَتْ (١٥)
حَتَّى إذا عَلِمَتْ ماحَلَّ بِي ، ورَأَتْ سُقْمِي ، وخَافَتْ عَلَى نَفْسٍ بِها افْتَضَحَتْ (١٦)
حَنَّتْ رَثَتْ عَطَفَتْ مالَتْ صَبَتْ عَزَمَتْ هَمَّتْ سَرَتْ وَصَلَتْ عادَتْ دَنَتْ مَنَحَتْ (١٧)

---

(١٠) المراد بعروة القلب : نياطه : وهو عرق متصل به .
والمعنى : أنها آخذة دائماً بفؤاده ، مستولية على قلبه فى جدّها ومزاحها .

(١١) السرحة : شجرة عظيمة طويلة ، والعرب تكنى بها عن المرأة . وسرحت : مشت . يقول : إنها سرحة أمل عزّ تحقيقه ، وإذا مشت كانت ظبية تسير فى وادى الجمال والبهاء .

(١٢) المنية : الأمنيّة ، وهى ما يتمنّاه الإنسان ويقدّر حصوله . والمقلة : العين . وطمح البصر إلى الشىء : ارتفع ، (وبابه خضع) .

(١٣) الوشاة : جمع واش : وهو من يكذب فى كلامه ، أو ينمّ ويسعى بغيره . يحذّرها أن تستمع لقول الوشاة فإنهم قد يظهرون النصيحة ، ويضمرون الغش .

(١٤) الجوى : الحرقة وشدة الوجد . والأسى : الحزن .
والمعنى : أنه أفسد نفسه فى سبيل الحبّ ، وعرّضها للتلف والهلاك ؛ لكثرة ما يقاسيه من الحرقة وشدّة الوجد والحزن ؛ على أنه يرى أنّ هذا الذى يتوهّمه إفساداً إنما هو فى الحقيقة إصلاح للنفس ، وإرهاف لإحساسها .

(١٥) معنى هذا البيت : أنه استمرّ يستميل محبوبته ويجذبها بشعره العذب البديع الرقيق ، تسمعه من وسيطة بينهما تفهم الشعر ، وتحسن نقله ، وتجيد البيان إن شرحت شيئاً منه .

(١٦) السقم : المرض . والمعنى : أنها لمّا علمت ما نزل بعاشقها من الهمّ ، وأبصرت طول مرضه ، وخافت التلف على نفسه التى انكشف أمرها حنّت . . . إلخ .

(١٧) حنّت : من الحنين وهو الشوق وتوقان النفس ، أو من الحنان : وهو العطف والرحمة . ورثت له : رقّت وترحّمت . وصبت إليه : حنّت ومالت . وعزم على الشىء : أراد فعله ، وعقد ضميره

فَبِتُّ مِنْ وَصْلِهَا فى نِعْمَةٍ عَظُمَتْ ما شِئْتُ ، أَوْ جَنَّةٍ أَبْوَابُها فُتِحَتْ (١٨)

أَنَالُ مِنْ ثَغْرِهَا الدُّرِّىِّ ما سَأَلَتْ نَفْسِى ، وَمِنْ خَدِّهَا الْوَرْدِىِّ مَا اقْتَرَحَتْ (١٩)

فى رَوْضَةٍ بَسَمَتْ أَزْهَارُهَا ، وَنَمَتْ أَفْنَانُهَا ، وَسَجَتْ أَظْلَالُهَا ، وَضَحَتْ (٢٠)

تَكَلَّلَتْ بِجُمَانِ الْقَطْرِ ، وَاتَّزَرَتْ بِسُنْدُسِ النَّبْتِ والرَّيْحَانِ ، واتَّشَحَتْ (٢١)

تَرَنَّحَ الْغُصْنُ مِنْ أَشْوَاقِهِ طَرَباً لَمَّا رَأَى الطَّيْرَ فى أَوْكَارِهَا صَدَحَتْ (٢٢)

= عليه . وهمى الدمع : سال . وهمت (وزان رمت) : سال دمعها عطفاً عليه . ويصح أن تقرأ ، همّت (بتشديد الميم) بمعنى عزمت على القرب منه . وسرت : المراد سرت عنه الهم : أى كشفته وأزالته . والوصل : ضدّ الهجران . وعادت : المراد أنها رجعت إلى وصاله وعطفت عليه . ودنت : من الدنوّ : وهو القرب . ومنحت : من المنح : وهو الإعطاء .

(١٩) الثغر : الفم ، أو مقدم الأسنان . والدّرى : نسبة إلى الدرّة ، وهى اللؤلؤة العظيمة . والمعنى : أن ثناياها مشرقة متلألئة كالدرّ . واقترحت : سألت . يقال : اقترح عليه شيئاً إذا سأله إياه .

(٢٠) الروضة : الموضع المعجب بمياهه وأشجاره وعشبه وأزهاره . وبسمت : ضحكت قليلا ، والبسم (بفتح فسكون) والابتسام والتبسّم : أقلّ الضحك وأحسنه ، والمراد تفتّحت . ونمت : كثرت ، وزادت وكبرت . والأفنان : جمع فنن (بفتحتين) وهو الغصن . وسجت : سكنت ودامت وسترت ما فيها . والأظلال : جمع ظلّ . وضحت : برزت للشمس ، أى الروضة .

يقول : إن أزهارها متفتّحة ، وأفنانها نامية كثيرة ، وظلالها دائمة ، ومن مواضعها الظليل والمشمس .

(٢١) تكلّلت : لبست الإكليل ، وهو شبه عصابة مزينّة بالجواهر ، أو هو التاج . والجمان : اللؤلؤ ، أو هنوات (بفتح الهاء والنون) أشكال اللؤلؤ من فضّة ، الواحدة جمانة (بضم الجيم) ، أو خرز يبيّض بماء الفضة . والقطر : جمع قطرة (بفتح فسكون) وهى النقطة ، أو مصدر قطر ، والمراد به المطر . واتزرت : لبست الإزار . والسندس : مارقّ من الديباج ، وهو الحرير . والريحان : كل نبات طيب الرائحة ، أو هو نبات مخصوص طيّب الرائحة . واتّشحت : لبست الوشاح . وهو شىء ينسج من أديم عريضاً ، ويرصّع بالجواهر ، وتشدّه المرأة بين عاتقها وكشحها .

والمعنى : أنّ هذه الروضة قد حملت أوراق أغصانها من قطرات الماء ما يشبه أكاليل الجمان ، ولبست من سندس النبت والريحان ما يشبه المئزر والوشاح .

(٢٢) ترنّح : تمايل . والطرب : خفة تصيب من اشتد به السرور أو الحزن . والأوكار : جمع وكر وهو عشّ الطائر حيث كان فى شجر أو جبل . وصدحت : غنّت

صَحَّ النَّسِيمُ بِها وَهْوَ الْعَلِيلُ ، وَقَدْ ... مَالَتْ بِخَمْرِ النَّدَى أَغْصَانُها ، وَصَحَتْ (٢٣)
وَلَيْلَةٍ سالَ فى أَعْقَابِهَا شَفَقٌ ... كَأَنَّهَا بِحُسَامِ الْفَجْرِ قَدْ ذُبِحَتْ (٢٤)
طَالَتْ ، وَقَصَّرَهَا لَهْوِى بِغَانِيَةٍ ... إِنْ أَعْرَضَتْ قَتَلَتْ ، أَوْ أَقْبَلَتْ فَضَحَتْ (٢٥)
هَيْفَاءَ ، إِنْ نَطَقَتْ غَنَّتْ ، وإِنْ خَطَرَتْ ... رَنَّتْ ، وإِنْ فَوَّقَتْ أَلْحَاظَهَا جَرَحَتْ (٢٦)
دَارَتْ عَلَيْنَا بِها الْكَاسَاتُ مُتْرَعَةً ... بِخَمْرَةٍ لَوْ بَدَتْ فى ظُلْمَةٍ قَدَحَتْ (٢٧)
حَمْرَاءَ سَلْسَلَهَا الْإِبْرِيقُ فى قَدَحٍ ... كَشُعْلَةٍ لَفَحَتْ فى ثَلْجَةٍ نَصَحَتْ (٢٨)

---

(٢٣) صح يصح صحة (كخف يخف خفة) : ضد سقم ، والمراد طاب وحسن. والنسيم : الريح الطيبة . والندى : أصله المطر الضعيف القليل ، ويطلق على قطرات الماء التى تسقط من السماء آخر الليل . وصحت : زال سكرها .

يقول : إن هذه الروضة نسيمها عليل : أى لطيف هادئ ، وصحيح : أى طيب حسن ، وإن أغصانها تميل بما احتسته من ندى يشبه الخمر ، ثم تعتدل كشأن الصاحى .

(٢٤) أعقابها : أواخرها . والشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أول الليل إلى قريب من العتمة ، أو الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، وقال الزجاج : الشفق الحمرة التى ترى بعد سقوط الشمس ، ومن ذلك يظهر أن الشاعر استعمل الشفق مكان تباشير الصباح . والحسام : السيف القاطع .

(٢٥) اللهو : اللعب ، ولها به (من باب عدا) : أولع وشغل . والغانية : الجارية التى غنيت بحسنها الفطرى ، وجمالها الطبيعى عن الزينة والحسن المصنوع . وأعرضت : صدت وهجرت ، من الإعراض وهو الصد عن الشيء وتركه . وفضحت : كشفت المستور من حبنا .

(٢٦) هيفاء : خميصة البطن ، دقيقة الخصر : صفة من الهيف (بفتحتين) : وهو ضمر البطن والخاصرة. وخطرت : اهتزت فى مشيتها وتبخترت . والرنة : الصوت ، والمراد أنها إذا تبخترت فى مشيتها سمع جرس حليها . وفوق السهم : جعل له فوقاً (بضم الفاء) ، أو جعل الوتر فى فوقه عند الرمى . والألحاظ : جمع لحظ : وهو النظر بمؤخر العين ، والمراد بتفويق الألحاظ : توجيه النظرات وتصويبها . وجرحت من (باب قطع) . والمراد : فتنت عشاقها بنظراتها . ومن كلامهم : « فتنته ألحاظها ولحظاتها » .

والمعنى : أنها ضامرة البطن والخاصرة ، وأن منطقها عذب حلو كالغناء ، وأنها تمشى متبخترة ، فيسمع جرس حليها ، وأن نظراتها صائبة فاتنة مدلهة ، كأنها السهام المسددة .

(٢٧) بها : أى بالليلة التى سال فى أعقابها الشفق. والكاسات : جمع كأس وهى الإناء يشرب فيه ، أو هى الإناء ما دام الشراب فيه . ومترعة : مملوءة . وبدت : ظهرت . وقدحت (هنا) : أضاءت ، والأصل أن يقال : قدح الرجل النار بالزند : أى أوراها ، وأراد إشعالها .

(٢٨) حمراء أى الخمر . وسلسلها : صبها متصلا بعضها ببعض كهيئة السلسلة . والقدح : إنا يشرب فيه . والشعلة : لهب النار . ولفحت : أحرقت . ونصحت : خلصت وصفت .

رُوحٌ إِذَا سَلَكَتْ فِى هَامِدٍ نَبَضَتْ — عُرُوقُهُ ، أَوْدَنَتْ مِنْ صَخْرَةٍ رَشَحَتْ (٢٩)
طَارَتْ بِأَلْبَابِنَا سُكْرًا ، وَلاعَجَبٌ — وَهْىَ الْكُمَيْتُ إِذَا فِى حَلْبَةٍ جَمَحَتْ (٣٠)
حتَّى بَدَا الْفَجْرُ مِنْ أَطْرَافِ ظُلْمَتِهَا — كَغُرَّةٍ فِى جَوَادٍ أَدْهَمٍ وَضَحَتْ (٣١)
فَيَا لَهَا لَيْلَةً ما كانَ أَحْسَنَهَا — لَوْ أَنَّهَا لَبِثَتْ حَوْلاً ، وَمَا بَرِحَتْ (٣٢)

وقَالَ عَلَى وَزْنٍ مُخْتَرَعٍ * :

امْـلأِ الْقَـدَحْ — واعْصِ مَنْ نَصَحْ (١)
وَارْوِ غُلَّـتى — بِابْنَـةِ الْفَرَحْ (٢)

---

(٢٩) سلكت . دخلت . وهامد: خال من الحياة . ونبض العرق : تحرّك . ورشحت : خرج منها الماء .

(٣٠) الألباب : جمع لبّ وهو العقل . والكميت : الخمر التى فيها سواد وحمرة . ومن الخيل الذى خالط حمرته قنوء ، أى الذى اشتدّت حمرته، وضربت إلى السواد، واونه الكتة (بضم فسكون) ، وفعله كت (ككرم) . والحلبة : خيل تجمع للسباق من كلّ أوب ، أى من كل ناحية ، وقد تطلق الحلبة على مجال الخيل للسباق . وجمح الفرس جموحاً (بالضم) وجماحاً (بكسر الجيم) . اعتزّ فارسه وغلبه . يقول : إنها أسكرتنا ، وطارت بعقولنا، ولا عجب فى هذا؛ فإن من أسمائها الكميت، والكميت من الخيل قد يغلب راكبه ، ويجمح به فى مجال السباق .

(٣١) بدا : ظهر . والضمير فىظلمتها يعود على الليلة . والغرّة: بياض فى جبهة الفرس . وأدهم : أسود .

(٣٢) لبثت : مكثت . وحولا : سنة . وما برحت : لم تذهب ولم تزل .

* هذه القصيدة من مجزوء المتدارك ، وأجزاؤه فاعلن ثمانى مرات ، لم يبق منها فى كلّ شطر هنا غير التفعيلة الأولى ، والوتد المجموع من التفعيلة الثانية « علن » . ولم تنظم العرب على هذا الوزن فيما نعلم . وقد حاكى فيه « شوقى » البارودى فى قصيدته التى مطلعها :

مال واحتجب — وادّعى الغضب

(١) القدح : إناء يشرب فيه ، ويريدهنا إناء الخمر . واعص : أمر من العصيان .

(٢) روى من الماء يروى (كرضىيرضى) ريا (براء مفتوحة أو مكسورة وياء مشددة) ويعدّى بالهمزة والتضعيف ؛ فيقال : أرويته إرواءً ، وروّيته تروية ، ومن ذلك يرى أن الشاعر استعمل روى هنا متعدياً ، ولو أردنا تصحيحه لحذفنا الواو هكذا « أرو غلّتى »، وقد جاء فى لسان العرب: «رويت القومأرويهم» : إذا استقيت لهم الماء ؛ ومعناه جلبته لهم . والغلّة(بضم الغين) : حرارة العطش . وكنى بابنة الفرح عن الخمر .

فَالْفَتَى مَتَى ذَاقَهَا انْشَرَحْ(٣)
وَهْىَ إِنْ سَرَتْ فِى الْعَلِيلِ صَحْ(٤)
أَوْ صَبَا بِهَا بَاخِلٌ سَمَحْ(٥)
فَاهْجُرِ الْكَرَى وَاغْدُ نَصْطَبِحْ(٦)
فَالدُّجَى مَضَى وَالسَّنَا لَمَحْ(٧)
وَالْحَمَامُ فِى أَيْكِهِ صَدَحْ(٨)
فَاتْبَعِ الْهَوَى حَيْثُمَا سَرَحْ(٩)
وَاصْطَحِبْ بِمَنْ يَبْعَثُ الْمَرَحْ(١٠)
فِيهِ لِلْمُنَى كُلُّ مُقْتَرَحْ(١١)
وَاحْذَرِ الَّذِى إِنْ وَعَى سَبَحْ(١٢)

---

(٣) انشرح : انكشف همّه ، وانبسطت نفسه وفرح .

(٤) سرت : سارت وتمشّت فى عروقه . والعليل : المريض . وصحّ : ذهبت علّته .

(٥) صبا بها : مال إليها . والباخل : بخيل . وسمح : جاد وبذل .

(٦) الكرى : النعاس (وفعله من بابه صدى) . واغد : أمر من الغدوّ، وهو (هنا) التبكير فى أول النهار . ونصطبح : نشرب صبوحاً ، والصبوح (بفتح الصاد) : الشرب بالغداة ، وهو ضد الغبوق (بفتح الغين) ، يقال : اصطبح إذا شرب أول النهار ، واغتبق إذا شرب آخره .

(٧) الدجى : جمع دجية ، وهى الظلمة (بضمّ فسكون فيهما) . والسنا : الضوء . ولمح : لمع واتّضح .

(٨) الأيك : الشجر الكثير الملتفّ ، الواحدة أيكة . وصدح : صاح ، ورفع صوته فأطرب .

(٩) الهوى : الحبّ وميل النفس وانحرافها نحو الشىء . وسرح : سار ، يقال : سرح السيل ، وسيل سارح ، أى يجرى جرياً سهلا .

(١٠) اصطحب : صاحب ، والذى نعرفه أنه يتعدّى بنفسه لا بالباء، ولعله ضمّن اصطحب معنى اختلط ؛ فعداه بالباء . والمرح : شدة الفرح والنشاط والاختيال .

(١١) المنى : جمع منية (بضم فسكون) وهى ما يريده الإنسان ، ويتمنّاه ، ويقدّر حصوله . واقترح الأمر : ابتدعه واخترعه . واقترح الشىء : اختاره .

يقول : إنّ فى هذا الصاحب من الصفات كلّ ما تتطلبه الأمانىّ من أسباب السرور والابتهاج .

(١٢) المعنى : واحذر الشخص الذى إن حفظ شيئاً من أمورك ، واطّلع على أحوالك ، سبح فى عرضك بالغيبة والوشاية . ومن معانى السبح : الإكثار من الكلام .

كُلَّمَا رَأَى فُرْصَةً قَدَحْ(١٣)
لَيْسَ مَنْ أَسَا مِثْلَ مَنْ جَرَحْ(١٤)
أَيْنَ مَنْ رَأَى فاسِداً صَلَحْ؟(١٥)
كُلُّ مَنْ وَشَى سَوْفَ يَفْتَضِحْ(١٦)
فَاتْرُكِ الْأَذَى فَالْأَذَى تَرَحْ(١٧)
وَاسْعَ لِلْعُلَا مَنْ سَعَى نَجَحْ(١٨)
وَارْعَ ماحَوَتْ هَذِهِ الْمُلَحْ(١٩)

وقالَ يَصِفُ لَيْلَةَ أُنْسٍ :

وَلَيْلَةٍ بِضِيَاءِ الْكَأْسِ لامِعَةٍ أَدْرَكْتُ بِاللَّهْوِ فيها كُلَّ مُقْتَرَحِ(١)
أَحْيَيْتُهَا ـ بَعْدَ مَا نَامَ الْخَلِيُّ بِهَا ـ بِغَادَةٍ لَوْ رَأَتْهَا الشَّمْسُ لَمْ تَلُحِ(٢)
فَلَوْ تَأَمَّلْتَنِي وَالْكَأْسُ دَائِرَةٌ لَخِلْتَنِي مَلِكاً يَخْتَالُ مِنْ مَرَحِ(٣)

---

(١٣) قدح فيه (كنع) : طعن .

(١٤) أسا الجرح يأسوه (من باب عدا) : داواه .

(١٥) يقول : إن هذا الشخص أفسدت الفطرة طبائعه وأخلاقه ، ومثله لا يرجى له صلاح .

(١٦) وشى : كذب وسعى بين الناس بالفساد . وفضحه فافتضح : أى كشف مساويه .

(١٧) الترح : ضد الفرح .

(١٨) العلا : الرفعة والشرف ، ومفردها عليا .

(١٩) ارع : أمر من رعى أمره: أى حفظه. والملح : جمع ملحة(بضم فسكون) : وهى الحديث المستحسن الممتع .

(١) يريد بالكأس : كأس الخمر يضيء شرابها رقة وصفاء . والمقترح : المبتدع الجديد ، وكل ما تتطلبه النفس .

(٢) الخلي : الخالى من الهم ، والمراد به (هنا) : البعيد عن اللهو ودواعيه . والغادة : المرأة الناعمة المتثنية ليناً . ولم تلح : لم تظهر .

(٣) خلتنى : ظننتنى . ويختال : يتكبر ويعجب بنفسه . والمرح : شدة الفرح والنشاط .

وَكَيْفَ لا تَبْلُغُ الْأَفْلَاكَ مَنْزِلَتِي ... والْبَدْرُ فِي مَجْلِسِي ، والشَّمْسُ فِي قَدَحِي ؟[٤]

وقَالَ فِي الْغَزَلِ :

وَا لَوْعَةَ الْقَلْبِ مِنْ غِزْلَانِ أَخْبِيَةٍ ... تَكَادُ تَسْكَرُ مِنْ أَحْدَاقِهَا الرَّاحُ[١]

مِنْ كُلِّ مَائِسَةٍ كَالْغُصْنِ قَدْ جَمَعَتْ ... بَدَائِعاً ، كُلُّهَا لِلْحُسْنِ أَوْضَاحُ[٢]

فَالْعَيْنُ نَرْجِسَةٌ ، والشَّعْرُ سَوْسَنَةٌ ... والنَّهْدُ رُمَّانَةٌ ، والْخَدُّ تُفَّاحُ[٣]

وقال :

(أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكِ إِلْفُكَ حَاضِرٌ ... وَغُصْنُكَ مَيَّادٌ ، فَفِيمَ تَنُوحُ ؟)[١]

غَدَوْتَ سَلِيماً فِي نَعِيمٍ وَغِبْطَةٍ ... وَلكِنَّ قَلْبِي بِالْغَرَامِ جَرِيحُ[٢]

---

(٤) الأفلاك : جمع فلك (بفتح الفاء واللام) : وهو مدار النجوم . وقد أراد بالبدر : الغادة التي تقدم ذكرها في البيت السابق . وأراد بالشمس : الخمر للمعانها وتلألئها وشعاعها . والقدح : إناء يشرب فيه .

(١) وا لوعة القلب : « وا » حرف ينادى به المتوجع منه . واللوعة : حرقة في القلب وألم من حب أو هم أو مرض ، ولاعه الحب : أمرضه . والغزلان : جمع غزال ، وهو ولد الظبية . والأخبية : جمع خباء (بكسر الخاء) : وهو بيت صغير من وبر أو صوف أو شعر ، ويكون على عمودين أو ثلاثة . وكنى بغزلان الأخبية عن النساء الحسان المحتجبات في خدورهن . وتسكر : مضارع سكر (من باب طرب) ، والاسم السكر (بضم فسكون) ، والأحداق : جمع حدقة (بفتحتين) : وهي سواد العين . والراح : الخمر . وفي البيت مبالغة جميلة في ادعاء أن الراح وهي التي تسكر شاربها ، تكاد تسكر من رؤية عيون هؤلاء الحسان .

(٢) مائسة : متبخترة ، والبخترة والتبختر : مشية حسنة . وأوضاح : جمع وضح (بفتحتين) وهو في الأصل ضوء الصبح ، والغرة . والمراد : أنها جمعت صفات نادرة ، كلها علامات واضحة للجمال ، وقد فصل بعض هذه العلامات بالتشبيهات التي أوردها في البيت الآتي .

(٣) النرجس (بفتح النون وكسرها) : نبت من الرياحين . وهو من الفصيلة النرجسية . ومنه أنواع ، تزرع لجمال زهرها ، وطيب رائحته . وزهرته تشبه بها العين . واحدته نرجسة . والسوسن : نبات من الرياحين عريض الورق ، وليس له رائحة فائحة . واحدته سوسنة . والنهد : الثدى ، سمى بذلك لنهوده وارتفاعه ، يقال : نهد الثدى نهوداً (من بابي قعد ونفع) : أى كعب وأشرف وظهر .

(١) الأيك : الشجر الكثير الملتف ، الواحدة أيكة . والإلف : الأليف ، صفة من ألفته إلفاً (من باب علم) أى أنست به وأحببته ، والاسم الألفة بالضم . والألفة أيضاً : اسم من الائتلاف وهو الالتئام والاجتماع . وميّاد : مهتز متحرك : صيغة مبالغة من مادت الأغصان : أى تمايلت (وبابه باع) . وناح ينوح نوحاً إذا بكى ، ونوح الحمامة : سجعها . وهذا البيت لأبي كبير الهذلى .

(٢) غدوت : أصبحت . والغبطة : حسن الحال . والغرام : الحب والولوع بالشيء : أى التعلق به .

فَإِنْ كُنْتَ لِي عَوْناً عَلَى الشَّوْقِ فاسْتَعِرْ لِعَيْنَيْكَ دَمْعاً ، فَالْبُكَاءُ مُرِيحُ (٣)

وَإِلَّا فَدَعْنِي مِنْ هَدِيلِكَ ، وانْصَرِفْ فَلَيْسَ سَوَاءً بَاذِلٌ وشَحِيحُ (٤)

وقَالَ يصفُ سَحابَةً :

سَارِيَةٌ خَفَّاقَةُ الْجَنَاحِ تُواصِلُ الْغُـدُوَّ بِالرَّوَاحِ (١)

تَبِيتُ فِي مَهْدٍ مِنَ الْبِطَاحِ باكِيَةً بِمَدْمَعٍ سَفَّاحِ (٢)

ضَحَّاكَةً كَثِيرَةَ النُّوَاحِ مَنْشُورَةً فى الْأُفُقِ كَالْوِشَاحِ (٣)

تَحْمِلُهَا كَوَاهِلُ الرِّيَاحِ (٤)

---

(٣) استعار منه الشيء ، واستعاره الشيء : طلبه منه على سبيل العاريّة ، فأعاره إيّاه .

يقول : فإن كنت لى مساعداً على الشوق ، أى فإن كنت تشعر بمثل ما أشعر به من الشوق ، فاطلب لعينيك دموعاً ، لتكون حالك شبيهة بحالى ؛ فإن البكاء يريح المحزون .

(٤) دعنى : اتركنى . والهديل والهدير : سجع الحمام وصوته . وباذل : اسم فاعل من البذل : وهو الجود والإعطاء . وشحيح : بخيل حريص .

يقول : فإن كنت لا تجود بدمعك كما أجود ، فدعنى من هديرك ، وانصرف عنى ، فليس سواء من بذل دمعه ومن شحّ به .

(١) السارية : السحابة التى تأتى ليلا . وخفّاقة : صفة من الخفقان (بفتح الخاء والفاء) : وهو الاضطراب ، والغدوّ : الذهاب فى الغدوة (بضم فسكون) : وهى ما بين الفجر وطلوع الشمس . والرواح : ضد الغدوّ ، وهو الذهاب والانطلاق فى المشى ، أو فى آخر النهار ، وقد تستعمل العرب الرواح والغدوّ فى المسير أىّ وقت كان من ليل أو نهار .

(٢) المهد (فى الأصل) : الفراش والموضع يهيّأ للصبىّ ويوطّأ ، والمهد أيضاً : الأرض . والبطاح : جمع الأبطح ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، أو هو كل مكان متسع . والمدمع : مجرى الدمع من العين . وسفّاح : صيغة مبالغة من سفح الرجل الدم والدمع سفحاً (من باب نفع) أى صبّه وهراقه .

(٣) ضحّاكة : متألّقة لامعة بارقة . والنواح : البكاء ، ويراد به (هنا) : المطر . والأفق : الناحية من السماء . والوشاح : شىء ينسج من أديم عريضاً ، ويرصّع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

(٤) الكواهل : جمع كاهل (بكسر الهاء) وهو مقدّم أعلى الظهر مما يلى العنق ، وهو الثلث الأعلى وفيه ستّ فقرات ، أو هو ما بين الكتفين .

وقال :

يَا كَوْكَبَ الصُّبْحِ ! مَتَى يَنْقَضِى عُمْرُ الدُّجَى ؟ يَا كَوْكَبَ الصُّبْحِ (١)
قَدْ سَدَّ حِصْنُ اللَّيْلِ أَبْوَابَهُ فَاتْلُ عَلَيْهِ سُورَةَ الْفَتْحِ (٢)
إِنِّى أَرَى أَنْجُمَهُ قَدْ وَنَتْ فَمَا لَهَا أَيْدٌ عَلَى السَّبْحِ (٣)
وَقَدْ بَدَا ذُو ذَنَبٍ طَالِعاً كَأَنَّهُ سُنْبُلَةُ الْقَمْحِ (٤)

وقَالَ فِى الرُّوحِ بَعْدَ مُفارَقَةِ الْجِسْمِ — وَهِىَ مِنْ لُزُومِ ما لا يَلْزَمُ * :

بَلَغْتِ مَدَاكِ مِنْ أَرَبٍ فَسِيحِى فَأَنْتِ الْيَوْمَ فِى جَوٍّ فَسِيحِ (١)
تَرَكْتِ الْجِسْمَ فِيمَا كَانَ مِنْهُ وَغِبْتِ بِلُجَّةٍ لَوْنِ الْمَسِيحِ (٢)
فَعَادَتْ صُورَةُ الْجُثْمَانِ عُطْلًا لِفَقْدِكِ مِثْلَ دِينَارٍ مَسِيحِ (٣)

(١) الدجى : جمع دجية (بضم فسكون) : وهى الظلمة .
(٢) اتل : اقرأ .
(٣) ونت : ضعفت وفترت . والأيد : مصدر آد يئيد أيداً (من باب باع) أى اشتدّ وقوى . والسبح : العوم ، مصدر سبح (كمنع) سبحاً وسباحة .
(٤) ذو ذنب : يريد كوكباً له شعاع ممتدّ خلفه ، ولذلك شبّهه بسنبلة القمح ذات الخيوط الممتدّة .
* التزم الشاعر فى هذه القصيدة قبل (الردف) سيناً ، وهو ما لا تحتمه قواعد القافية .
(١) المدى : الغاية ؛ والأرب : الحاجة . وسيحى : أمر من السياحة ، وهى الذهاب والانطلاق . وفسيح : واسع ، والخطاب للروح .
(٢) اللجّة : معظم الماء ، ويراد بها العالم العلوى . والمسيح : القطعة من الفضّة . يقول : تركت أيتها الروح الجسم فى العنصر الذى خلق منه ، وهو التراب ، وغبت فى عالمك العلوىّ النورانىّ .
(٣) عادت : صارت . والجثمان (بالثاء والسين) : الجسم . وصورة عُطْل (بضمّ فسكون ، أو بضمتين) : خلية ، متعطّلة : صفة من العطل (بفتحتين) : وهو الخلوّ من الشىء . وأصله : خلوّ المرأة من الحلىّ (والفعل من باب طرب) . والمراد : أن الجثمان صار — بعد فقد الروح — جثّة هامدة ، وصورة متعطّلة من خصائص الحياة وزينتها . ودينار مسيح : أطلس ، لا نقش عليه .

وَلَوْ يَقْوَى لَسَارَ ، وَكَيْفَ يَقْوَى عَلَى هَوْلِ السُّرَى قَدَمُ الْكَسِيحِ ؟(٤)
سَبَحْتِ بَغَمْرَةٍ كَالشَّمْسِ نُورًا وعَامَ مِنَ الْخَجَالَةِ فى مَسِيحِ(٥)
فَلَيْتَكِ تَرْجِعِينَ لَنَا بِصِدْقٍ يُبَاغِتُ كُلَّ خَتَّالٍ مَسِيحِ(٦)
بِرِبِّكِ ، هَلْ وَجَدْتِ كَمَا وَجَدْنَا خِلَافاً بَيْنَ أَحْمَدَ وَالْمَسِيحِ ؟(٧)

وقالَ فى صباه :

هُوَ مَا قُلْتُ فاحْذَرَنْهَا صَبَاحَا غارَةً تَمْلأُ الْفَضَاءَ رِمَاحَا(١)
تَتْرُكُ الْمَاءَ لَا يَسُوغُ لِظَامٍ وتَرُدُّ الدَّمَ الْحَرَامَ مُبَاحَا(٢)
لا تَرَى بَيْنَهَا سِوَى عَبْقَرِيٍّ يَأْلَفُ الطَّعْنَ نَجْدَةً وَارْتِيَاحَا(٣)

---

(٤) يقوى : أى الجسم . وهول السرى : صعوبة السير ، والهول فى الأصل : الفزع والخوف ، والسرى (بضم السين) : السير ليلا . والكسيح : العاجز عن المشى ، صفة من الكساحة (بضم الكاف) ، وهى الزمانة (بفتح الزاى) فى الرجلين .

(٥) غمرة الشىء : مزدحمه ، والمراد متسع الفضاء . ويريد بالخجالة : الخجل ، والفعل من باب فرح ، ولا نعرف له مصدراً على وزن فعالة ، إلا أن يفرض أنه حوّل الفعل إلى باب كرم ليدلّ على الغريزة الثابتة ، ثم صاغ منه المصدر قياسياً . والمسيح : العرق .

(٦) يباغت : يفاجىء . وختّال : خدّاع ، صيغة مبالغة من ختله ، أى أراد به المكروه من حيث لا يعلم . ومسيح : كذّاب .

(٧) أحمد : هو سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمسيح هو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام . قال الله تعالى فى سورة الصف « وَإِذْ قَالَ عِيسى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِن التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ » الآية ٦ .

(١) الغارة : اسم من الإغارة على العدوّ : وهى الهجوم عليه والإيقاع به ، وقد تطلق الغارة على الخيل المغيرة . والرماح : جمع رمح : وهو قناة فى رأسها سنان من الحديد الصلب يطعن به .

(٢) لا يسوغ : لا يسهل شربه ، مضارع ساغ الشراب : إذا سهل مدخله فى الحلق . وظام : أصلها ظامئ ، صفة من الظمأ : وهو العطش ، أو أشدّه .

(٣) بينها : بين رجال الغارة . والعبقرىّ : السيد ، والشديد القوىّ ، والذى ليس فوقه شىء ، نسبة إلى عبقر (كجعفر) ، وعبقر (فى الأصل) : موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ ، ثم نسبوا إليه =

لَهِجٌ بِالْحُروبِ ، لايَأْلَفُ الْخَفْـ ـضَ ، ولا يَصْحَبُ الْفَتَاةَ الرَّدَاحَا(٤)
مِسْعَرٌ لِلْوَغَى ، أَخُو غَدَوَاتٍ تَجْعَلُ الْأَرْضَ مَأْتَماً وصِيَاحَا(٥)
لا يُرَى عَاتِباً عَلَى شِيَمِ الدَّهْـ ـرِ ، ولَا عَابِثاً ، ولا مَزَّاحَا(٦)
يَفْعَلُ الْفَعْلَةَ الَّتِى تَبْهَرُ النَّا سَ ، وَتَرْنُو لَهَا الْعُيُونُ طِمَاحا(٧)
لا كَمَنْ يَسْأَلُ الْوُفُودَ عَنِ الْأَنْـ ـبَاءِ عَجْزًا ويَرْقُبُ الْأَشْبَاحَا(٨)

= كل شيء تعجّبوا من حذقه ، أو جودة صنعته وقوّته . ويألف : مضارع ألف الشيء (من باب علم) إذا أنس به ، وأحبه ، واعتاده . والطعن : مصدر طعنه بالرمح ونحوه (من بابى قتل وقطع) . والنجدة : الشجاعة والبأس والشدّة . والارتياح : النشاط والإسراع .

(٤) لهج : مولع مغرم ، صفة من اللهج بالشيء : وهو الولوع والتعلق به ، وقد لهج به (من باب طرب) : إذا أغرى به فثابر عليه . والخفض : الدعة والراحة . والرداح : المملوءة الجسم ، التامّة الخلق .

(٥) المسعر (بكسر فسكون ففتح) : موقد نار الحرب ، وقد تكون (بضم الميم وكسر العين) ، اسم فاعل من أسعر النار والحرب : أى أوقدها ، كسعرها (من باب منع) وسعّرها تسعيراً . والوغى : الأصوات والجلبة ، ويطلق على الحرب لما فيها من جلبة وأصوات مختلطة . وغدوات (بفتحتين) : جمع غداة ، وهى البكرة (بضم فسكون) : أى الوقت ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، أو بضمتين جمع غدوة (بضم فسكون) مصدر غدا عليه غدواً وغدوة أى بكر . ومعنى (أخو غدوات) : أنه كثير الإغارة والهجوم فى أوائل النهار . والمأتم : كل مجتمع فى حزن أو فرح ، وقد غلب على جماعة النساء فى المصائب . والمعنى : أنّ غاراته تبعث فى الأرض النواح والصياح لشدّة فتكه ، وكثرة قتلاه .

(٦) عاتب : اسم فاعل من العتب ، وهو الموجدة واللوم فى تسخّط . وشيم الدهر : طبائعه ، جمع شيمة (بكسر الشين) : وهى الغريزة والطبيعة والجبلّة التى خلق الإنسان عليها . وعابث : اسم فاعل من العبث ، وهو اللعب ، وعمل ما لا فائدة فيه . ومزّاح : صيغة مبالغة من المزح ، وهو الدعابة ، أو هو خلاف الجدّ .

(٧) تبهر الناس : تغلبهم . ، والمراد تتركهم فى عجب ودهش . وترنو : تديم النظر ، من الرنوّ ، وهو إدامة النظر بسكون الطرف . وطمح بصره إلى الشيء يطمح طموحاً (من باب خضع) وطماحاً (بكسر الطاء) : إذا استشرف له ، وارتفع إليه .
والمعنى : أن الناس ينظرون إلى أعمال البارودى ، فيدهشون ، وتطمح أنفسهم إلى مثل أعماله المجيدة .

(٨) الوفود : جمع وفد ، والوفد : جمع وافد مثل صاحب وصحب . والأنباء : جمع نبأ : وهو الخبر . ويرقب : ينتظر . والأشباح : جمع شبح : وهو الشخص .

فاعْتَبِرْ أَيُّهَا الْمُجَاهِرُ بالْقَوْ ... لِ ، وَلا تَبْعَثَنْ عَلَيْكَ نُواحَا(٩)

إنَّ فى بُرْدَتَىَّ هَاتَيْنِ لَيْثاً ... يَقِصُ الْقِرْنَ ، أَوْ يَفُلُّ السِّلاحَا(١٠)

سَدِكَاتٍ بِالرُّمْحِ مِنْهُ بَنانٌ ... تَمْلأُ الْأَرْضَ والسَّماءَ جِرَاحَا(١١)

أنَا مِنْ مَعْشَرٍ كِرامٍ عَلَى الدَّهْـ ... ـرِ أَفَادُوهُ عِزَّةً وَصَلاحَا(١٢)

فَرَعُوا بالْقَنَا قِنَانَ الْمَعَالِى ... وأَعَدُّوا لِبَابِهَا مِفْتَاحَا(١٣)

عَمَرُوا الْأَرْضَ مُدَّةً ، ثُمَّ زَالُوا ... مِثْلَمَا زَالَتِ الْقُرُونُ اجْتِيَاحَا(١٤)

---

(٩) اعتبر : أمر من الاعتبار : بمعنى الاتعاظ . والنواح (بضم النون) : البكاء ، مصدر ناحت المرأة على الميت نوحاً (بفتح فسكون) ونواحاً : أى بكت واستبكت .

يقول : فاتعظ أيها المجاهر بعداوتى ، ولا تحملنى على قتلك ؛ فينوح عليك أهلك .

(١٠) البردة : كساء صغير أسود مربع . والليث : الأسد . ويقص القرن : يدق عنقه ويكسره ، (وبابه وعد) . والقرن (بكسر فسكون) : كفؤك فى الشجاعة ، ومن يقاومك فى القتال . ويفل : يكسر ، (وبابه ردّ) .

(١١) سدكات (بفتح فكسر) : جمع سدكة ، وهى صفة من سدك بالشىء (من باب فرح) : أى لزمه ، والسدك (ككتف) : المولع بالشىء ، والخفيف اليدين بالعمل ، والطعّان بالرمح . والبنان : أطراف الأصابع ، واحدتها بنانة ، والمراد اليد . والجراح : جمع جراحة . أو جمع جرح .

يقول : إنّ يده ملازمة للرمح طعّانة به ، وإذا طعنت أكثرت من الطعن ، وملأت الأرض والسماء جراحاً .

(١٢) المعشر : جماعة الناس ، والمراد : الأسرة والآباء .

(١٣) فرعوا : صعدوا وعلوا . والقنا : جمع قناة : وهى الرمح . والقنان (بكسر القاف) : جمع قنّة (بقاف مضمومة ونون مشددة مفتوحة) : وهى أعلى الجبل .

والمعنى : أنهم وصلوا بيأسهم وشجاعتهم إلى قمم المعالى ، واستأثروا بها ، واستولوا عليها .

(١٤) زالوا : فارقوا الحياة الدنيا . والقرون : جمع قرن ، وهو من الزمان مائة سنة ، أو هو كل أمة هلكت ، فلم يبق منها أحد . والاجتياح : مصدر اجتاحت الجائحة المال وغيره : إذا أهلكته واستأصلته ، وهو (هنا) نائب عن المصدر ، والمعنى زوال اجتياح .

وَأَتَتْ بَعْـــدَهُمْ عَلَىَّ لَيَالٍ   لا أَرَى فى سَمائِها مِصبَاحَا[١٥]
فَسَقَاهُمْ مُنَزِّلُ الْغَيْث سجْلَا   يَجْعَلُ النَّبْتَ لِلْعَراءِ وِشَاحَا[١٦]

---

(١٥) هذا البيت كناية عما صار إليه الشاعر بعد موت أهله ومعشره من حسرة وحيرة وأسى واضطراب.

(١٦) الغيث : المطر. ومنزّله : الله تبارك وتعالى . والسجل (بفتح فسكون) : الدلو العظيمة إذا كانت مملوءة . والوشاح (بضم الواو وكسرها) : كرسان (بكسر فسكون) : أى فرعان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر ، أو أديم عريض يرصّع بالجواهر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحها، والمراد غيث غزير يجعل النبات زينة للفضاء . يدعو لعشره وقومه وآبائه بالسقيا والرحمة .

قافية الدال

قال يُهَنِّئُ الْخديو «محمد توفيق باشا» بجُلُوسِهِ عَلى الأَرِيكَةِ الخديويّة سنة سبع وتسعين ومائتين وألف هجرية (١٢٩٧هـ - ١٨٧٩م) * ويذكِّره بما وَعَدَ به من إنشاءِ مجلس نيابيّ :

أَبَنِي الْكِنَانَةِ أَبْشِرُوا بِمُحَمَّدٍ ... وَثِقُــوا بِرَاعٍ فى الْمَكَارِمِ أَوْحَدِ (١)
فَهُوَ الزَّعِيمُ لَكُمْ بِكُلِّ فَضِيلةٍ ... تَبْقَى مَآثِرُهَا ، وَعَيْشٍ أَرْغَدِ (٢)
مَلِكٌ نَمَتْهُ أَرُومَةٌ عَلَوِيَّةٌ ... مَلَكَتْ بِسُؤْدُدِهَا عِنَانَ الْفَرْقَدِ (٣)
يَقِظُ الْبَصِيرَةِ لَوْ سَرَتْ فى عَيْنِهِ ... سِنَةُ الرُّقَادِ ، فَقَلْبُهُ لَمْ يَرْقُدِ (٤)

* تولّى الخديو «محمد توفيق» حكم مصر وهو فى السابعة والعشرين من عمره بعد عزل والده «الخديو إسماعيل» . وكان العزل والتولية فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونية سنة ١٨٧٩ برسالتين برقيتين وردتا على مصر فى ذلك اليوم من الباب العالى بالآستانة : إحداهما بعزل إسماعيل ، والأخرى بتولية توفيق .

(١) بنو الكنانة : أهل مصر ، والكنانة (فى الأصل) : جعبة (بفتح فسكون) من جلد توضع فيها السهام . وثقوا : أمر من وثق به يثق ثقة (بكسر الثاء فى الماضى والمضارع والمصدر) إذا ائتمنه واطمأنّ إليه . والراعى : الوالى والحاكم والأمير ، لقيامه بتدبير أمور الرعية وسياستها . والمكارم : جمع مكرمة (بضم الراء) : وهى اسم من الكرم وفعل الخير . وأوحد : منفرد وحيد .

(٢) الزعيم : الكفيل : وهو من يقوم بالشىء ويلتزمه . والمآثر : جمع مأثرة ، وهى المكرمة ، لأنها تؤثر ، أى تنقل ويذكرها قرن عن قرن . والعيش : المعيشة والحياة . وأرغد : متّسع سهل ليّن .

(٣) نمته : رفعته ، يقال : فلان ينميه حسبه ، وقد نماه جدّ كريم . والأرومة (بفتح الهمزة وضمها) : الأصل . وعلويّة : نسبة إلى محمد علىّ باشا رأس الأسرة المالكة بمصر (سابقاً) والسؤدد والسودد (بضم الدال فى الأولى ، وفتحها فى الثانية) : السيادة والمجد والشرف . والعنان (بكسر العين) : سير اللجام الذى تمسك به الدابة . والفرقد : نجم يهتدى به ، وهما فرقدان .

(٤) البصيرة : حسن التبصّر فى الأمور ، وقوّة الفهم . وسرت : سارت . والسنة (بكسر السين) النوم ، أو أوله ، أو النعاس ، وفعلها وسن (كفرح) وسناً . والرقاد (بضم الرّاء) : النوم ، وبعض اللغويين يخصّه بنوم الليل ، وبابه نصر ودخل .

بَدَهَاتُهُ قَيْدُ الصَّوَابِ ، وعَزْمُهُ شَرَكُ الْفَوَارِسِ فى الْعَجَاجِ الْأَرْبَدِ (٥)
فَإِذَا تَنَمَّرَ فَهْوَ « زَيْد » فى الْوَغَى وإذَا تَكَلَّمَ فَهْوَ « قَيْس » فى النَّدِى (٦)
مُتَقَسِّمٌ مَا بَيْنَ حُنْكَةِ أَشْيَبٍ صَدَقَتْ مَخِيلَتُهُ ، وَحِلْيَةِ أَمْرَدِ (٧)
لا يَسْتَرِيحُ إلى الْفَرَاغِ ، ولا يَرَى عَيْشاً يَلَذُّ بِهِ إذَا لَمْ يَجْهَدِ (٨)
فَنَهَارُهُ غَيْثُ اللَّهِيفِ ، ولَيْلُهُ فى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ لَيْلُ الْعُبَّدِ (٩)

---

(٥) بدهات : جمع بدهة ، وهى اسم مرة من بدهه بأمر (كمنعه) أى استقبله به ، أو بدأه به ، وبدهه الأمر : فاجأه ، والبداهة والبديهة أول كل شيء ، وما يفجأ منه ، والمراد بالبدهات : الأفكار والآراء التى يراها أول وهلة. والعزم : الإرادة القاطعة القويّة . والشرك : حبالة الصائد ، وجمعه أشراك (مثل سبب وأسباب) ، وقيل الشرك : جمع شركة (مثل قصب وقصبة). والفوارس : جمع على غير قياس لفارس ، وهو راكب الفرس . والعجاج : الغبار والدخان ، والمراد غبار الحرب ودخانها ، والأربد : المغبرّ الكدر ، صفة من الربدة (وزان غرفة) وهى لون يختلط سواده بكدر ، أو هى لون الرماد .

(٦) تنمّر : غضب . وزيد الخيل : من قبيلة طيء ، ومن شجعان العرب وفرسانهم المشهورين فى الجاهلية ، سمّى بذلك لشجاعته وكثرة خيله ، ولما وفد على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم سماه زيد الخير . والوغى : الحرب . وقيس بن خارجة بن سنان : من أشهر خطباء العرب فى الجاهلية ، وهو خطيب حرب داحس والغبراء — أو قيس بن مسعود البكرى : أحد الخطباء المشهورين الذين أوفدهم النعمان على كسرى بزعامة أكثم ابن صيفىّ . والندى (بالتخفيف) : أصلها الندىّ (كغنىّ) : وهو مجلس القوم نهاراً ، أو المجلس ما داموا مجتمعين فيه ، كالنادى والندوة ، والمنتدى .

(٧) متقسم : اسم مفعول من من التقسّم : مصدر تقسموا الشيء بمعنى اقتسموه . يقول : إن حنكة الشيب وحلية الشباب قد اقتسماه . والحنكة (بضم فسكون) : اسم من حنك الإنسان الشيء (من بابى ضرب وقتل) : أى فهمه وأحكمه ، وحنكت السنّ الرجل : إذا أحكمته التجارب . وأشيب : صفة من الشيب والمشيب : وهو بياض الشعر . والمخيلة (بوزن المكيدة) : الظنّ ، يقال خلته كريماً مخيلة ، وأخطأت فى فلان مخيلتى : أى ظنّى . والحلية : الزّينة والحسن . ومرد الغلام مرداً (من باب تعب) : لم تنبت لحيته ، فهو أمرد .

(٨) عيشاً : معيشة وحياة . ويجهد : مضارع جهد فى الأمر جهداً (من باب نفع) إذا جدّ فيه وبالغ واجتهد ، أو إذا طلب حتّى بلغ غايته فى الطلب .

(٩) الغيث (هنا) : بمعنى الغوث وهو النجدة . واللهيف والملهوف : المظلوم المضطر يستغيث ويتحسّر . والعبّد : جمع عابد اسم فاعل من العبادة : وهى الطاعة والتنسّك .

لَهِجٌ بِحُبِّ الصَّالحاتِ ، فَكُلَّمَا بَلَغَ النِّهايَةَ مِنْ صَنِيعٍ يَبْتَدِى(١٠)
خُلُقٌ تَمَيَّزَ عَنْ سِوَاهُ بِفَضْلِهِ والْفَضْلُ فى الأَخْلاقِ إِرْثُ الْمَحْتِدِ(١١)
إِقْلِيدُ مُعْضِلَةٍ ، ومَعْقِلُ عَائِذٍ وَسَمَاءُ مُنْتَجِعٍ ، وَقِبْلَةُ مُهْتَدِ(١٢)
حَسُنَتْ بِهِ الأَيَّامُ حَتَّى أَسْفَرَتْ عَنْ وَجْهِ مَعْشُوقِ الشَّمائِلِ أَغْيَدِ(١٣)
وَصَفَتْ مَوَارِدُ مِصْرَ حَتَّى أَصْبَحَتْ بَعْدَ الْكُدُورَةِ شِرْعَةً لِلْوُرَّدِ(١٤)
فَالْعَـــدْلُ يَرْعَاهَا بِرَأْفَةِ وَالِدٍ والْبَأْسُ يَحْمِيهَا بِصَوْلَةِ أَصْيَدِ(١٥)
بَلَغَتْ بِفَضْلِ «مُحَمَّدٍ» مَا أَمَّلَتْ مِنْ عِيشَةٍ رَغَدٍ وَجَدٍّ أَسْعَدِ(١٦)

---

(١٠) لهج (بفتح فكسر) : مغرم مغرى ، من لهج بالشيء (كفرح) : أى أغرى به وتعلق فثابر عليه . والصنيع : فعل الخير والمعروف ، يقال : نعم الصنيع صنيعك .

يقول : إنه كلف مولع بحبّ الخيرات والصالحات من الأعمال ، فكلّما انتهى من خير بدأ بسواه .

(١١) الإرث : الميراث ، والأمر القديم توارثه الآخر عن الأول . والمحتد (بوزن المجلس) : الأصل . يمدحه بالخلق الكريم الفاضل ، ويقول : إن الفضل فى الأخلاق يورث عن الأصل الفاضل الكريم .

(١٢) الإقليد : المفتاح . والمعضلة : الشديدة من شدائد الدهر ، والأمر المستغلق الذى لا يهتدى لوجهه ، من أعضل الأمر أى : اشتد واستغلق . والمعقل (بوزن المسجد) : الملجأ . والعائذ : اللاجئ والمعتصم . والسماء (هنا) : المطر . والمنتجع : اسم فاعل من انتجع ، أى طلب الكلأ فى موضعه ، وانتجع فلاناً : أتاه طالباً معروفه . والقبلة : الجهة ، وكلّ ما يستقبل .

(١٣) أسفرت : أشرقت وأضاءت . ومعشوق : اسم مفعول من العشق (بكسر فسكون) ، وهو عُجْب المحبّ بمحبوبته ، أو إفراط الحب . والشمائل جمع : شمال (بكسر الشين) : بمعنى الطبع والخلق . وأغيد : ناعم جميل ليّن الأعطاف .

(١٤) الموارد : جمع مورد (بفتح فسكون فكسر) وهو اسم مكان من ورد البعير وغيره الماء : إذا بلغه ووافاه . والكدورة : مصدر كدر الماء (من باب صعب) : أى زال صفاؤه فهو كدر (بفتح فكسر) . والشرعة (بكسر الشين) : الشريعة : وهى مورد الشاربة . والورّد : جمع وارد .

(١٥) يرعاها : يحفظها . والبأس : الشجاعة والشدة فى الحرب . ويحميها : يدفع عنها ويمنعها . والصولة : السطوة والاستطالة والوثوب فى القتال . والأصيد : الملك لا يلتفت من زهوه يميناً ولا شمالا ، أو هو الذى يرفع رأسه كبرا ، وهى صفة محمودة فى الملوك . والأصيد : الأسد .

(١٦) عيشة رغد : (بسكون الغين وفتحها) : واسعة طيّبة . والجد : الحظ والرزق والعظمة . وأسعد : سعيد مبارك ميمون .

هُوَ ذَلِكَ الْمَلِكُ الذى أَوْصَافُهُ ... فى الشِّعْرِ حِلْيَةُ رَاجِزٍ وَمُقَصِّدِ(١٧)
فَبِنُورِهِ فى كُلِّ جُنْحٍ نَهْتَدِى ... وبِهَدْيِهِ فى كُلِّ خَطْبٍ نَقْتَدِى(١٨)
سَنَّ الْمَشُورَةَ ، وهْىَ أَكْرَمُ خُطَّةٍ ... يَجْرِى عَلَيْهَا كُلُّ رَاعٍ مُرْشِدِ(١٩)
هِىَ عِصْمَةُ الدِّينِ التى أَوْحَى بها ... رَبُّ الْعِبادِ إلى النَّبِىِّ « مُحَمَّدِ »(٢٠)
فَمَنِ اسْتَعَانَ بِهَا تَأَيَّدَ مُلْكُهُ ... وَمَنِ اسْتَهانَ بِأَمْرِها لَمْ يَرْشُدِ(٢١)
أَمْرانِ ما اجْتَمَعَا لِقَائِدِ أُمَّةٍ ... إِلَّا جَنَى بِهِما ثِمَارَ السُّؤْدُدِ(٢٢)

(١٧) حلية : زينة . والراجز : اسم فاعل من رجز الشاعر (من باب نصر) : أى قال شعراً من بحر الرجز (بفتحتين) . والرجز بحر من بحور الشعر وزنه « مستفعلن » ست مرات ومن أمثلته :

القلب منها مستريح سالم ... والقلب منى جاهد مجهود

والمقصِّد : اسم فاعل من قصَّد الشاعر شعره تقصيداً : أى نقَّحه ، وهذَّبه ، وجوَّده ، وقصَّد القصيد : أى أتمَّه وطوَّله ، يقال : شعره مقصَّد ومقطَّع ، ولم يجمع فى المقطَّعات مثل ما جمع أبو تمَّام ، ولا فى المقصَّدات مثل ما جمع المفضَّل .

(١٨) جنح الليل (بضم الجيم وكسرها) : ظلامه واختلاطه ، أو الطَّائفة منه ، والمراد به هنا : المشكل من الأمور . والهدى (بفتح فسكون) : الطريقة والسيرة . والخطب : الأمر الشديد ينزل بالناس . ونقتدى : مضارع اقتديت بفلان : أى فعلت مثل فعله تأسياً ، فهو قدوة .

(١٩) سنَّ الأمر : بيَّنه ، وسنَّ الطريقة : سار فيها ، وسنَّ سنَّة حسنة : طرَّق طريقة حسنة أى سهَّلها ويسرَّها . والمشورة : الشورى : وهى اسم من شاورته فى كذا واستشرته أى راجعته لأرى رأيه فيه ، وتشاور القوم واشتوروا ، وأمرهم شورى بينهم ، أى لا يستأثر أحد بشيء دون غيره . والخطة (بضم الخاء) الحالة والخصلة . والراعى : الوالى والحاكم . ومرشد (بصيغة اسم الفاعل) : مصلح هاد أو هى مُرْشَد (بصيغة اسم المفعول) : بمعنى مهدىّ ، موفَّق للخير والصلاح . . والمراد بالمشورة (هنا) : إنشاء مجلس نيابىّ للأمة .

(٢٠) هى : أى المشورة . وعصمة الدين : حفظه ووقايته . وأوحى بها رب العباد إلى النبى محمد : إشارة إلى قول الله تعالى « وَشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ » (١٥٩ – سورة آل عمران) ، وقوله تعالى فى بيان ما يجب أن يكون عليه المسلمون فى حكومتهم : « وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » (٣٨ – سورة الشورى) .

(٢١) استعان بها : أى بالمشورة . وتأيَّد ملكه : تقوَّى واشتدَّ . واستهان بأمرها : استخفَّ بها واستحقرها . ولم يرشد : لم يصلح ولم يستقم ، مضارع رشد : (كنصر وفرح) ، والاسم الرشاد والرشد (بضم فسكون) .

(٢٢) أمران : فصَّلهما فى البيت الآتى ، وهما الجمع يتشاورون فى شئون وطنهم ، والجند . وجنى الثمر يجنيه جنياً (من باب رمى) ، واجتناه بمعنى التقطه . والثمار : جمع ثمر ، وواحدة الثمر ثمرة . والسؤدد والسودد (بضم الدال فى الأولى وفتحها فى الثانية) : السيادة والمجد والشرف .

جَمْعٌ يَكُونُ الْأَمْرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ شُورَى ، وجُنْدٌ لِلْعَدُوِّ بِمَرْصَدِ(٢٣)
هَيْهَاتَ يَحْيَا الْمُلْكُ دُونَ مَشُورَةٍ ويَعِزُّ رُكْنُ الْمَجْدِ مَا لَمْ يُعْمَدِ(٢٤)
فالسَّيْفُ لا يَمْضِي بِدُونِ رَوِيَّةٍ وَالرَّأْيُ لا يَمْضِي بِغَيْرِ مُهَنَّدِ(٢٥)
فَاعْكُفْ عَلَى الشُّورَى تَجِدْ فِى طَيِّهَا مِنْ بَيِّنَاتِ الْحُكْمِ مَا لَمْ يُوجَدِ(٢٦)

---

(٢٣) الجمع : جماعة الناس . والمراد به : الأمّة ، والرعيّة . والأمر : الشأن والحال . والمرصد (بوزن المذهَب) : اسم مكان من رصدت الشيء (من باب قتل) : أى ارتقبته ، وانتظرته ، وقعدتُ له على الطريق .

فى هذا البيت والذى قبله : أن رئيس الدولة إنّما يجنى ثمار السيادة والمجد إذا أسّسَ مُلْكه على الشُورَى . وأعَدَّ الجنُود لرصد العدوّ وصدّه ؛ وبهذين الأمرين يَتَرَضَّى أمّته ، ويحيا بثقتها ، ويأمن الزلل ، ويُهَيِّئُ لها أسباب الأمن والعزّة ، ويرْهب بتمام العُدَّة والقوّة الحربيّة أعداء وطنه ، ويستتبّ له الحُكْم والسلطان .

(٢٤) هيهات : اسم فعل ماض : بمعنى بَعُدَ ، فهى كلمة تبعيد . وعزَّ يَعِزّ (كخَفَّ يَخِفّ) قوىَ ، واشتدّ بأسُه ، وعظم شأنه . والمجد : العِزّ والشرف ، والرفعة والعلاء . ويعْمَد : يُدْعَم (بالبناء للمفعول فيهما) عَمَدَ الحائط وغيره (من باب ضَرَبَ) : إذا جَعَلَ له ما يعتمد عليه ، ويستند إليه .

والمعنى : بالشُورَى يحيا المُلْكُ ، ويَقْوَى رُكن المجد .

(٢٥) لا يمضى : أى لا يكون ماضياً قاطعاً نافذاً . والرويّة : التفكُّر ، والتدبُّر فى الأمر . والرأى : العقل ، والبصيرة ، والتدبير . والمهنَّد : السيف المطبوع من حديد الهند . ويشار به هنا إلى إعداد المستطاع من القوّة الحربية التى ترهب الأعداء ، وتحفظ للوطن عزّته وكرامته وحرّيّته .

والمعنى : أن الرأى والسيف ضرورتان من ضرورات الملك . وهما مقترنان متلازمان ، لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ولا يقوم المُلْك إلا بهما . وإنّما أراد بالرأى والرويّة : المشورة التى امتدحها ، ودعا إليها ، وكرّر الحضّ عليها فى أحد عشر بيتا ، أى فى ربع هذه القصيدة .

(٢٦) عكف على الشيء (من باب دخل وجلس) : أقبل عليه ، ولزمه ولم ينصرفْ عنه . وفى طَيِّها : فى اثنائها : أى فيما انطوتْ عليه . وبيّنات الحكْم : حججه الواضحة : جمع بيّنة . =

لا غَرْوَ أَنْ أَبْصَرْتَ فى صَفَحَاتِهَا صُوَرَ الْحَوَادِثِ ، فَهْىَ مِرْآةُ الْغَدِ(٢٧)

فَالْعَقْلُ كَالْمِنْظَارِ يُبْصِرُ ما نَأَى عَنْهُ قَرِيباً ، دُونَ لَمْسٍ بِالْيَدِ(٢٨)

وَكَفَاكَ عِلْمُكَ بِالْأُمُورِ ، وَلَيْسَ مَنْ سَلَكَ السَّبِيلَ كَجَائِرٍ لَمْ يَهْتَدِ(٢٩)

فَلأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ أَفَادَ بِعَدْلِهِ حُرِّيَّةَ الْأَخْلَاقِ بَعْدَ تَعَبُّدِ(٣٠)

= يحض على الاستمساك بالشُورى ، والمثابرة عليها ؛ فإنّ فيها أحكاماً واضحة ، ودلائل وهدايات لا توجد فى غيرها .

أو المعنى : أن الشُورى تنطوى على البيّنات والحجج الواضحة التى تَدْعَم الحكم وتسنده ، وتُعزّ الحاكم وتؤيّده . وليس فى غيرها دعائم وقُوًى وأسناد؛ فالحكم والحاكم بدونها معتلان ، ضعيفان ، متداعيان .

(٢٧) لا غَرْوَ: لا عَجَبَ . وفى صفحاتها : أى فى صفحات الشورى. ويراد بصور الحوادث : صور الحوادث المستقبلة ؛ فالمشورة ، وتبادل الرأى يكشفان ما غاب وخفى من أحداث المستقبل ، ويضيئان للمتشاورين ، أى للحاكم وأمّته جوانب الرأى والتدبير ؛ فيرسمون الخطط الصحيحة المحكَمة ، السديدة المثمرة .

(٢٨) يراد بالمِنْظار : المنظار المكبّر المقرّب . ونأى (من باب سَعَى) : بَعُدَ .

يقول : إن العقل منظار عظيم ، يُكبّر لك الخفِيَّ الدقيق من المرئيّات ، ويُقرّب النائى البعيد الذى لا تصل إليه يدك ، ولا تُطيق إدراكه . وصلة هذا البيت بما قبله : أن العقول إنما تنطلق ، وتقوى بصائر الناس فى ضياء الشورى ، وحريّة الرأى .

(٢٩) السبيل : الطريق (يذكّر ويؤنّث) ، وسلكه (من باب دَخَلَ) : ذَهَبَ فيه . وجائر : حيران ، تائه ، غير مهتد .

والمعنى : أن العقل يكشف لك حقائق الأمور ؛ فتسير على علم وبصيرة ، وهُدًى ورشاد . والجهل يُخفيها ويُعَمّيها ؛ فتقع فى الحيرة والارتباك ، والاضطراب والضلال . وقد أشرنا من قبل إلى صلة العقل والعلم ، والمعرفة والهداية بالحكم القائم على الشُورى ، وحريّة الرأى ، وانطلاق التفكير والتدبير .

كرر الشاعر فى هذا البيت وعشرة الأبيات قبله (وهى ربع هذه القصيدة) تنبيه الممدوح على ضرورة الحكم الشورىّ والمجلس النيابىّ ، بالقوىّ البليغ المسْهَب المنوّع من أساليب الإغراء والإلحاح والتصريح والإلماح ؛ فكان صادقاً فى نصحه وولائه ، ووطنيّته، وتعبيره عن آمال أمّته .

(٣٠) يريد بحريّة الأخلاق : حريّة ما خلق عليه الناس من سجايا وطبائع، وما يرونه من آراء ومذاهب . والتعبُّد : مصدر تعبّده : أى اتخذه عبداً ، كاستعبده استعباداً .

أَطْلَقْتَ كُلَّ مُقَيَّدٍ، وَحَلَلْتَ كُلَّ مُعَقَّدٍ، وَجَمَعْتَ كُلَّ مُبَدَّدِ(٣١)

وَتَمَتَّعَتْ بِالْعَدْلِ مِنْكَ رَعِيَّةٌ كَانَتْ فَرِيسَةَ كُلِّ باغٍ مُعْتَدِ(٣٢)

فاسْلَمْ لِخَيْرِ وِلايَةٍ عَزَّتْ بِها نَفْسُ النَّصِيحِ، وذَلَّ كُلُّ مُفَنَّدِ(٣٣)

ضَرَحَتْ قَذَاةَ الْغَيِّ عَنْ جَفْنِ الْهُدَى وَسَرَتْ قِنَاعَ الْيَأْسِ عَنْ أَمَلٍ نَدِ(٣٤)

ضَمَّتْ إِلَيْكَ زِمامَ كُلِّ مُثَلِّثٍ وَثَنَتْ إِلَيْكَ عِنَانَ كُلِّ مُوَحِّدِ(٣٥)

وَتَأَلَّفَتْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ أَنْفُسٌ سَكَنَتْ بِعَدْلِكَ فِى نَعِيمٍ سَرْمَدِ(٣٦)

فَحَبَاكَ رَبُّكَ بِالْجَمِيلِ كَرَامَةً لِجَزِيلِ مَا أَوْلَيْتَ أُمَّةَ «أَحْمَدِ»(٣٧)

---

(٣١) مبدّد: مفرّق، اسم مفعول من بدده تبديداً: أى فرّقه.

(٣٢) الرعيّة: القوم. والراعى: كلّ من ولى أمر قوم. وقومه رعية. والباغى: الظالم المعتدى.

(٣٣) اسلم: دعاء بالسلامة والنجاة من الآفات. والولاية (بكسر الواو، وفتحها): مصدر. ولى الإنسان الأمر يليه (بكسر اللام فى الماضى والمضارع) أى تولاّه وتقلّده. والنصيح: الناصح، صفة من نصحه، وله (كنعه) نصحاً (بضم فسكون) ونصاحة (بالفتح)، والاسم النصيحة: وهى الإخلاص والصدق والمشورة، والمفنّد (بصيغة اسم المفعول): العاجز، أو الكاذب، أو خاطئ الرأى، أو ضعيف التفكير. أوهو بصيغة اسم الفاعل: أى سلمت لأفضل ولاية، وأصلح حكم، وعزّ من يخلص لك النصيحة، وذلّ من يفنّدك ويعيبك..

(٣٤) ضرحت: دفعت وطرحت ونحّت، أى الولاية. والقذاة والقذى: ما يسقط فى العين والشراب. والغىّ: الضلال والانهماك فى الجهل، وهو خلاف الهدى والرشاد. والجفن: غطاء العين من أعلاها وأسفلها وهو مذكر، والجمع جفون وأجفان. وسرت: كشفت، يقال سروت الثوب عنى (من باب عدا): أى كشفته. وأمل ند: ناضر، من الندى: بمعنى البلل، وذلك على تشبيه الأمل بالغصن الرطيب.

(٣٥) ضمّت: جمعت: أى الولاية. والزمام (فى الأصل): المقود، وهو الحبل تقاد به الدابة. ويريد بكل مثلّث: النصارى. وثنى الشيء: عطفه (وبابه رمى). والعنان: سير اللجام الذى تمسك به الدابة. ويريد بكل موحّد: المسلمين.

(٣٦) تألّفت: ائتلفت، من الائتلاف: وهو الالتئام والاجتماع. ونعيم سرمد: دائم.

(٣٧) حباك: أعطاك. والكرامة اسم بمعنى التكريم والإكرام. وجزيل: عظيم كثير. وأوليت: أعطيت. وأحمد: من أسماء النبى محمد صلى الله عليه وسلم. والبيت دعاء.

وَتَهَنَّ بِالْمُلْكِ الَّذِى أَلْبَسْتَهُ شَرَفاً بِمِثْلِ رِدَائِهِ لَمْ يَرْتَدِ(٣٨)

بَزَغَتْ بِهِ شَمْسُ الْهِدايَةِ بَعْدَ مَا أَفَلَتْ ، وأَبْصَرَ كُلُّ طَرْفٍ أَرْمَدِ(٣٩)

لَمْ يَبْقَ مِنْ ذِى خَلَّةٍ إِلَّا اغْتَدَى بِجَمِيلِ صُنْعِكَ مَصْدَرًا لِلْوُفَّدِ(٤٠)

بَلَغَتْ بِكَ الْآمَالُ أَبْعَدَ غَايَةٍ قَصَرَتْ عَلَى الْإِغْضَاءِ طَرْفَ الْحُسَّدِ(٤١)

فَاسْعَدْ وَدُمْ واغْنَمْ وَجُدْ وانْعَمْ وَسُدْ وابْدَأْ وَعُدْ وَتَهَنَّ واسْلَمْ وَازْدَدِ(٤٢)

لا زالَ عَدْلُكَ فى الْأَنَام مُخَلَّدًا فَالْعَــدْلُ فى الْأَيَّامِ خَيْرُ مُخَلَّدِ(٤٣)

---

(٣٨) تهن : تهنأ ، وهو أمر أريد به الدعاء من تهنأ بالشىء : أى فرح به وسر . والشرف : الرفعة والعلاء . والرداء : الثوب ، وارتدى به وتردّاه : لبسه .

(٣٩) بزغت : طلعت (وبابه دخل) . وأفلت : غابت ، (وبابه دخل وجلس) . والطرف (بفتح فسكون) : العين . وأرمد : صفة من الرمد : وهو داء التهابى يصيب العين . يقال : هو رمد (بفتح فكسر) وأرمد .

(٤٠) الخلّة (بالفتح) : الحاجة والفقر . واغتدى : صار ، والاغتداء (فى الأصل) الغدوّ ، وهو الذهاب والانطلاق فى أول النهار ، وضده الرواح . ومصدر : اسم مكان من صدر عن الماء وعن البلد (من بابى نصر ودخل) : أى رجع وانصرف . والوفد : جمع وافد ، اسم فاعل من وفد على القوم يفد وفداً ووفوداً .

والمعنى : أنه يعطى فيسدّ الحاجة ، بل يجزل ويغنى ، حتى يصير من يعطيه مصدراً للوافدين ، يرجعون عنه بالعطاء الكثير .

(٤١) قصره على الشىء : حبسه عليه وأمسكه ، فالشىء مقصور أى محبوس . والإغضاء : مصدر أغضى الرجل عينه : أى قارب بين جفنيها . والطرف : العين . والحسّد : جمع حاسد .

يقول : إنّ الغاية البعيدة التى بلغتها الآمال بفضله ، قد جعلت عيون الحاسدين مغضية دائماً . وهذا كناية عن الذّل ، وشدّة الاهتياب .

(٤٢) اغنم : أمر خرج عن معناه الأصلى إلى الدعاء ، وهو من غنم الشىء يغنمه (من باب فرح) غنما (بضم فسكون) : إذا أصابه غنيمه . وجد : أمر من الجود ، وهو الكرم والبذل والسخاء . وانعم : أمر من نعم عيشه (كسمع ، ونصر ، وضرب) : أى اتسع ولان . والنعيم الخفض والدعة والرفاهة ، وغضارة العيش ورخاء البال وحسن الحال . وسد : أمر من السيادة . والمراد بالبدء والعودة : التنقّل والتقلّب فى العزّ والنعيم . وتهنّ : تهنأ ، أى افرحْ . وازدد : أمر من الازدياد ، وهو الزيادة والنماء .

(٤٣) الأنام : الخلق (بفتح فسكون) ، والناس .

وقالَ يَفْخَرُ ، وَيُعَرِّضُ بالمَظَالِمِ عَلى عهد الحُكُومَة الاسْتبْدَادِيّة * :

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا لا أَوَدُّهُ   وَأَيُّ امْرِئٍ يَقْوَى عَلى الدَّهْرِ زَنْدُهُ؟(١)

* لعله يقصد بالحكومة الاستبدادية : حكومة الخديو إسماعيل فى أواخر أيامه لما فسد حكمه ، وأثقل مصر بالديون ؛ فتدخّل الأجانب فى أمورها وفرضوا على الحكومة سلطانهم ؛ فللشاعر قصيدة طويلة فى أول قافية اللام . عنوانها : وقال يذمّ سيرة الحكام ، ويحضّ الناس على طلب العدل فى الأحكام ؛ وذلك فى عهد إسماعيل خديو مصر .

ومطلعها :

قَلَّدْتُ جِيدَ الْمَعَالِى حِلْيَةَ الْغَزَلِ   وَقُلْتُ فِى الْجِدِّ مَا أَغْنَى عَنِ الْهَزَلِ

وقد يكون المقصود بالحكومة الاستبدادية فى هذه الدّاليّة وفى القصيدة اللامية : حكومة الخديو توفيق ابن الخديو إسماعيل ؛ فكلاهما جنح فى حكمه للظلم والاستبداد . وفى عهد « توفيق » توقّدت الثورة العرابية ، وكان البارودى من قادتها ، والضاربين فى غمرتها ، وهذا يرجّح أن هاتين القصيدتين نظمتا فى عهد توفيق .

وهذه القصيدة على روىّ قصيدة أبى الطيب المتنبى التى مدح بها كافوراً الإخشيدى سنة ست وأربعين وثلثمائة . ومطلعها :

أَوَدُّ مِنَ الأَيَّامِ مَالاَ تَوَدُّهُ   وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْىَ جُنْدُهُ

والروىّ : الحرف تبنى عليه القصيدة ، وتنسب إليه . وهاتان القصيدتان رويّهما الدال ، والهاء بعده حرف وصل .

(١) أودّه : أحبّه ، وأرتضيه . (وماضيه ومضارعه كفرح يفرح) . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه النفى . والزند (بفتح فسكون) : موصل طرف الذراع فى الكفّ . ويكنى به هنا : عن القوّة والمقدرة . أو عن الجهد والطاقة .

والمعنى : أنه قنع من الدنيا بما لا يرتضيه قناعة المضطر المغلوب على أمره .

والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فالإنسان لا يستطيع مغالبة الدهر ، ولا يقوى على مكافحة الزمان . وفى هذا المعنى ، أو فيما يقرب منه يقول البارودىّ فى إحدى نونياته :

وَمَنْ شَاغَبَ الأَيَّامَ لاَنَ مَرِيرُهُ   وَأَسْلَمَهُ طُولُ الْمِرَاسِ إِلى الْوَهْنِ

فالمقصود بهذا البيت هو المقصود بالشطر الثانى من مطلع الدالية ؛ فالإنسان بكل جهده وقوّته لا طاقة له بمقاواة الدهر ، ومشاغبة الأيام . ونتيجة هذا العجز أن يرضى المرء من الدنيا بما لا يحبه ولا يرتضيه ، ويقنع بالدون الذى لا يأمله ، ولا يتمناه .

أُحَاوِلُ وَصْلًا والصُّدُودُ خَصِيمُهُ وَأَبْغِي وَفَاءً والطَّبِيعَةُ ضِدُّهُ(٢)

حَسِبْتُ الْهَوَى سَهْلًا ، ولَمْ أَدْرِ أَنَّهُ أَخُو غَدَرَاتٍ يَتْبَعُ الْهَزْلَ جِدُّهُ(٣)

تَخِفُّ لَهُ الأَحْلامُ وَهْيَ رَزِينَةٌ وَيَعْنُو لَهُ مِنْ كُلِّ صَعْبٍ أَشَدُّهُ(٤)

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الْفَتَى وَهْوَ عَاقِلٌ يُطِيعُ الْهَوَى فِيما يُنَافِيهِ رُشْدُهُ(٥)

يَفِرُّ مِنَ السُّلْوَانِ ، وَهْوَ يُرِيحُهُ وَيَأْوِى إلى الأَشْجَانِ ، وَهْيَ تَكُدُّهُ(٦)

وَمَا الْحُبُّ إِلَّا حاكِمٌ غَيْرُ عَادِلٍ إذا رامَ أَمْرًا لم يَجِدْ مَنْ يَصُدُّهُ(٧)

لَهُ مِنْ لَفِيفِ الْغِيدِ جَيْشُ مَلاحَةٍ تُغِيرُ عَلَى مَثْوَى الضَّمائِرِ جُنْدُهُ(٨)

= والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ويفصله ؛ فالشاعر حاول الوصال ، فخاصمه الصدود ، وعاسره الإعراض ، وطلب الوفاء فضاده ما فى طبيعة الغادرين من الغدر ، ونقض العهد ؛ فلم يسعه إلا أن يرضى بما لا يوده من إعراض الحبيب ، وغدرات الهوى .

(٢) الوصل : ضد الهجران ، وهو مصدر وصلت الحبيب (من باب وَعَدَ) وصلا وصلة (بكسر ففتح) . والصدود : الإعراض ، وهو مصدر صد عنه يصد (كرد يرد) صدوداً . وخاصمه مخاصمة وخصاماً : نازعه ، وجادله ، ولاحاه ، وعاداه ، فهو خصيم ، ومخاصم . وأبغى : أطلب . والضمير فى (خصيمه) يعود على (وصلا) .

(٣) الهوى : الحب والعشق . وغدرات : جمع غدرة : اسم مرة من الغدر ، وهو نقض العهد وترك الوفاء . ومعنى يتبع الهزل جده : أنه يكون فى مبدئه هيناً سهلا ، فلا يلبث أن ينقلب عنيفاً صارماً .

(٤) تخف : تضعف . والأحلام : العقول ، مفردها (حلم بكسر الحاء) . ورزينة : ثقيلة ثابتة ، صفة من الرزانة : وهى الوقار . ويعنو : يخضع ويذل ، (وبابه سما) .

(٥) ينافيه : يخالفه ويطارده . والرشد : الهدى والصلاح ، وهو خلاف الغى والجهل والضلال .

(٦) السلوان : مصدر سلاه ، وسلا عنه ، (كدعاه ورضيه) : أى نسيه وصبر عنه . والأشجان : الأحزان والهموم ، واحدها شجن (بفتحتين) ، وفعله من باب طرب . وتكده (من باب رد) : تتعبه .

(٧) رام : طلب . ويصده (من باب رد) : يمنعه ويصرفه .

(٨) لفيف : جماعة وحزب ، واللفيف (فى الأصل) : ما اجتمع من الناس من قبائل شتى . والغيد : جمع غيداء ، وهى المرأة الناعمة المتثنية ليناً . والملاحة : الحسن ، مصدر ملح الشىء (من باب ظرف) . وتغير : مضارع أغار على العدو : أى هجم . وثوى بالمكان (كقضى) : نزل به وأقام ، واستقر . ومثوى الضمائر : منزلها ومقامها ، والمراد القلوب .

ذَوَابِلُهُ قَامَاتُهُ ، وسُيُوفُهُ ... لِحَاظُ الْعَذَارَى ، والْقَلاَئِدُ سَرْدُهُ(٩)
إِذَا مَاجَ بِالْهِيفِ الْحِسَانِ ، تَأَرَّجَتْ ... مَسَالِكُهُ ، واشْتَقَّ فِى الْجَوِّ نَدُّهُ(١٠)
فَأَىُّ فُؤَادٍ لا تَذُوبُ حَصَاتُهُ ... غَرَاماً ،وَطَرْفٍ لَيْسَ يُقْذِيهِ سُهْدُهُ؟(١١)
بَلَوْتُ الْهَوَى حَتَّى اعْتَرَفْتُ بِكُلِّ مَا ... جَهِلْتُ ،فَلايَغْرُرْكَ فالصَّابُ شَهْدُهُ(١٢)
ظَلُومٌ لَهُ فِى كُلِّ حَىٍّ جَرِيرَةٌ ... يَضِجُّ لَهَا غَوْرُ الْفَضَاءِ وَنَجْدُهُ(١٣)
إِذَا احْتَلَّ قَلْباً مُطْمَئِنًّا تَحَرَّكَتْ ... وَسَاوِسُهُ فِى الصَّدْرِ ، واخْتَلَّ وَكْدُهُ(١٤)

---

(٩) الذوابل : الرماح ، جمع ذابل : أى دقيق ، قشره لاصق به . وقاماته : أى قامات هذا الجيش من الحسان ، وقامة الإنسان : قدّه ،وحسن طوله ،واعتداله . ولحاظ العذارى (بكسر اللام) : نظراتهن الفاتنة . والعذارى (بفتح الراء وكسرها) : جمع عذراء : وهى البكر (بكسر فسكون) أى التى لم تتزوج . والقلائد : جمع قلادة ، وهى ما تزين به المرأة عنقها من الحلىّ كعقود اللآلئ ونحوها . والسرد : اسم جامع للدروع ، وسائر الأسلحة .

(١٠) ماج : أى الجيش ، والمعنى : اضطرب اضطراب الموج . والهيف (بكسر الهاء) : جمع هيفاء : وهى المرأة الضامرة البطن والخاصرة ، والهيف (بفتحتين) من صفات الحسن فى النساء . والحسان : جمع على غير قياس لحسنة أو حسناء . وقد يكون جمعاً قياسياً لحسينة (كأميرة) . وتأرّجت : توهّجت رائحته وفاحت ، والأريج والأرج (بفتحتين) : توهج ريح الطيب . ومسالكه : مذاهبه وطرقه . واشتق: فاح وانتشر وتفرّق ، من قولهم : اشتقّ الفرس فى عدوه : إذا مال فى أحد شقّيه ، واشتقّ فى الكلام والخصومة : إذا أخذ يميناً وشمالا ، وترك القصد ، وذهب فى كل شق وجانب ، واشتقّ الطريق فى الفلاة أى مضى فيها . والندّ : نوع من الطيب ، أو هو العنبر ، أو هو عود طيّب الرائحة يتبخّر به .

(١١) الحصاة : العقل والرأى. والغرام : الحبّ والولوع بالشىء . ومعنى تذوب حصاته غراماً : يذهب عقله بسبب الغرام . والطرف (بفتح فسكون) : العين . والقذى : الغمص والرمص (بفتحتين فيهما) وكل ما يقع فى العين فيهيجها ويؤذيها . وأقذاها : ألقى فيها القذى ، والسهد والسهاد (بضم السين فيهما) : الأرق وعدم النوم ، (وبابه طرب) .

(١٢) بلوته (من باب عدا): جرّبته واختبرته . وغرّه : خدعه وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . والصاب : عصارة شجر مرّ . والشهد (بفتح الشين وضمها) : العسل فى شمعها .

(١٣) ظلوم : أى الهوى . والحىّ : البطن من بطون العرب ، وهودون القبيلة . ويطلق على محلّتهم وديارهم . وجريرة : ذنب وجناية . والضجيج : الجلبة ، والصياح ، والصخب ، يكون من جزَع أو مشقة أو فزع : مصدر ضجّ يضجّ (كخفّ يخفّ). والغور : المطمئنّ من الأرض . والنجد : ما ارتفع من الأرض .

(١٤) احتلّ : أى الهوى. ومطمئناً : ساكناً هادئاً . والوساوس : أحاديث النفس والشيطان بما لا نفع فيه ، ولا خير . واختل : هزل وضعف . والوكد (بفتح فسكون) : المراد ، والهمّ ، والقصد ، والوُكد (بضم فسكون) : السعى والجهد .

فإنْ كُنْتَ ذَا لُبٍّ فَلا تَقْرَبَنَّهُ ... فَغَيْرُ بَعيدٍ أَنْ يُصِيبَكَ حَدُّهُ(١٥)
وَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى بالنَّصِيحَةِ لَوْ صَغَا ... فُؤَادي، ولَكِنْ خَالَفَ الْحَزْمَ قَصْدُهُ(١٦)
إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ عَقْلٌ يَقُودُهُ ... فَيُوشِكُ أَنْ يَلْقَى حُسَاماً يَقُدُّهُ(١٧)
لَعَمْرِى لَقَدْ وَلَّى الشَّبَابُ ، وحَلَّ بِى ... مِنَ الشَّيْبِ خَطْبٌ لا يُطاقُ مَرَدُّهُ(١٨)
فَأَىُّ نَعِيمٍ فى الزَّمانِ أَرُومُهُ ؟ ... وَأَىُّ خَلِيلٍ لِلْوَفاءِ أُعِدُّهُ ؟(١٩)
وَكَيْفَ أَلُومُ النَّاسَ فى الْغَدْرِ بَعْدَمَا ... رَأَيْتُ شَبابِى قَدْ تَغَيَّرَ عَهْدُهُ ؟(٢٠)
وَأَبْعَدُ مَفْقُودٍ شَبَابٌ رَمَتْ بِهِ ... صُرُوفُ اللَّيَالِى عِنْدَ مَنْ لا يَرُدُّهُ(٢١)
فَمَنْ لى بِخِلٍّ صَادِقٍ أَسْتَعِينُهُ ... عَلَى أَمَلِى ، أَوْ نَاصِرٍ أَسْتَمِدُّهُ ؟(٢٢)
صَحِبْتُ بَنِى الدُّنْيَا طَوِيلاً فلم أَجِدْ ... خَلِيلاً ، فَهَلْ مِنْ صاحِبٍ أَسْتَجِدُّهُ(٢٣)

---

(١٥) ذا لبّ : صاحب عقل . وحدّ السيف والسكّين ونحوهما : الجانب القاطع من نصلهما .

(١٦) صغا إليه (كسَعَا ، وصَدِيَ) : مال إليه ، واستمع ، والحزم : إتقان الرأى ، وضبط الأمر ، والأخذ فيه بالثقة . وقصد الشىء ، وله ، وإليه (من باب ضرب) : أى أراده عامداً ، وطلبه بعينه .

فى البيت السابق جعل الهوى كالسلاح الحادّ المرهف ، يصيب من يغمر به ونَصَحَ للعاقل أن يتوقّاه ويجتنب أسبابه . وفى هذا البيت قال : إنه كان أحق وأجدر بقبول هذه النصيحة لو صغا إليها قلبه ؛ ولكنه خالف الحزم ، وقصد إلى الهوى فى تهوّر ، فوقع فى حبائله .

(١٧) يوشك الأمر أن يكون كذا : من أفعال المقاربة ، والمعنى الدنوّ من الشىء ، وفى الإيشاك : معنى الإسراع . يقال : وشك (ككَرُم) ، وأوشك . والحسام : السيف القاطع ، ويقدّه : يشقّه .

(١٨) لعمرى : وحياتى . وولّى : ذهب وأدبر وأعرض . وحلّ : نزل ، (و بابه قعد) . والخطب : الأمر الشديد ينزل بالإنسان . ولا يطاق مردّه : ليس فى الإمكان ردّه وصرفه .

(١٩) أرومه : أطلبه . والخليل : الصديق . وأعددت الشىء إعداداً : هيّأته وأحضرته .

ينكر — بعد ذهاب شبابه وحلول المشيب — أن يكون فى الزمان نعيم يطلب ، وأن يجد فى الناس خليلاً وفيّاً .

(٢٠) تغيّر عهده : زال وفاؤه ، وانتقض موثقه .

يقول : إنه لا يلوم الناس فى نقض العهد ، والإخلال بالوفاء بعد ما رأى شبابه يصاحبه زمانا طويلا ، ثم ينقض عهده ويغادره .

(٢١) صروف الليالى : حدثان الزمان ونوائبه .

(٢٢) خلّ : صديق . وأستمدّه : أطلب منه المدد والمعونة والنصرة .

(٢٣) أجدّه وجدّده واستجدّه : صيّره جديداً ، ومعنى أستجده : أصاحبه من جديد وأتخذه خليلا .

فَأَكْثَرُ مَنْ لاقَيْتُ لَمْ يَصْفُ قَلْبُهُ وَأَصْدَقُ مَنْ وَالَيْتُ لَمْ يُغْنِ وُدُّهُ(٢٤)
أُطَالِبُ أَيَّامِي بما لَيْسَ عِنْدَها وَمَنْ طَلَبَ الْمَعْدُومَ أَعْيَاهُ وُجْدُهُ(٢٥)
فَمَا كُلُّ حَيٍّ يَنْصُرُ الْقَوْلَ فِعْلُهُ وَلاَ كُلُّ خِلٍّ يَصْدُقُ النَّفْسَ وَعْدُهُ(٢٦)
وَأَصْعَبُ مَا يَلْقَى الْفَتَى فِي زَمَانِهِ صَحابَةُ مَنْ يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ فَقْدُهُ(٢٧)
وَلِلنُّجْحِ أَسْبَابٌ إِذَا لَمْ يَفُزْ بِها لَبِيبٌ مِنَ الْفِتْيَانِ لم يُورِ زَنْدُهُ(٢٨)
ولَكِنْ إِذَا لم يُسْعِدِ الْمَرْءَ جَدُّهُ عَلَى سَعْيِهِ لَمْ يَبْلُغِ السُّؤْلَ جِدُّهُ(٢٩)
وَمَا أَنَا بِالْمَغْلُوبِ دُونَ مَرَامِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَخْذُلُ المرءَ جَهْدُهُ(٣٠)
وما أُبْتُ بِالْحِرْمَانِ إِلَّا لِأَنَّنِي «أَوَدُّ مِنَ الْأَيَّامِ ما لا تَوَدُّهُ»(٣١)

---

(٢٤) صفا يصفو صفاء : نقى ،وخلص من الكدر . وواليت : صادقت وأحببت، من الموالاة: وهى ضد العداوة ، ولم يغن : لم ينفع مضارع أغنى الشيء : أى كفى ، وأجدى ، وأجزأ . والود (مثلثة الواو كالوداد) : الحب والمودة .

(٢٥) أعياه : أتعبه وأعجزه . ووجده (بفتح فسكون ، أو بضم ، فسكون): إدراكه، مصدر وجد المطلوب (من باب وعد) .

(٢٦) يقول : إنه ليس كل إنسان يطابق فعله قوله ، وليس كل صديق صادق الوعد .

(٢٧) يقول : إن آلم ما تلقاه فى زمانك صحبة لئيم يشفيك من الهم والضجر بعده وفقده .

(٢٨) اللبيب : العاقل . ووَرِيَ الزند يَوْرَى (كوَجِيَ يَوْجَى): أى أخرج ناره. ومثله أورى إيراء . وأوريته إيراء أى قدحته لإخراج النار منه ؛ فالرباعى يتعدى ويلزم . ولم يور زنده : لم يخرج زنده ناراً . والزند : العود الذى تقدح به النار ، وهو الأعلى، والزندة السفلى ، ومعنى لم يور زنده : لم يثمر سعيه .

(٢٩) أسعده على سعيه : أعانه عليه ، من الإسعاد : بمعنى المساعدة والإعانة . وجدّه (بفتح الجيم وتشديد الدال) : حظه . والسؤل (بضم فسكون) : ما يسأله الإنسان ويطلبه . وجدّه (بكسر الجيم وتشديد الدال) : اجتهاده .

(٣٠) دون مرامه : دون بلوغ مطلبه . وجهده: جده واجتهاده : مصدر جهد فى الأمر (من باب قطع) : أى جد فيه وبالغ .

يقول : لست مغلوباً ولا عاجزاً عن بلوغ مطلبى ، ولكن المرء قد يجنى عليه اجتهاده .

(٣١) آب : رجع (وبابه قال) . والحرمان (بكسر الحاء) : مصدر حرمه الشيء: إذا منعه إياه . والشطر الثانى من هذا البيت هو مطلع قصيدة المتنبى التى عارضها الشاعر بهذه القصيدة . ومعناه : أحب من الأيام أن تكون منصفة ؛ فتجعل سعيى فيها مثمراً ، وتمكننى من مطلبى ، وهذا ما لا تحبه الأيام .

فَإِنْ يَكُ فَارَقْتُ الرِّضَا فَلَبَعْدَمَا صَحِبْتُ زَمَاناً يُغْضِبُ الْحُرَّ عَبْدُهُ(٣٢)
أَبَى الدَّهْرُ إِلَّا أَنْ يَسُودَ وَضِيعُهُ وَيَمْلِكَ أَعْنَاقَ الْمَطَالِبِ وَغْدُهُ(٣٣)
تَدَاعَتْ لِدَرْكِ الثَّأْرِ فِينَا ثُعَالُهُ وَنَامَتْ عَلَى طُولِ الْوَتِيرَةِ أُسْدُهُ(٣٤)
فَحَتَّامَ نَسْرِي فِى دَيَاجِيرِ مِحْنَةٍ يَضِيقُ بِهَا عَنْ صُحْبَةِ السَّيْفِ غِمْدُهُ(٣٥)
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْفَعْ يَدَ الْجَوْرِ إِنْ سَطَتْ عَلَيْهِ ، فَلَا يَأْسَفْ إِذَا ضَاعَ مَجْدُهُ(٣٦)
وَمَنْ ذَلَّ خَوْفَ الْمَوْتِ ، كَانَتْ حَيَاتُهُ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْ حِمَامٍ يَؤُدُّهُ(٣٧)
وَأَقْتَلُ دَاءٍ رُؤْيَةُ الْعَيْنِ ظَالِماً يُسِيءُ ، وَيُتْلَى فِى الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ(٣٨)
عَلَامَ يَعِيشُ الْمَرْءُ فِى الدَّهْرِ خَامِلاً أَيَفْرَحُ فِى الدُّنْيَا بِيَوْمٍ يَعُدُّهُ ؟(٣٩)

---

(٣٢) عبده : عبد الزمان ، يقول : فإن أكن قد فارقت الرضا ، وسخطت على الدهر ، فإنما كان ذلك بعد ما عشت فى زمان يغضب عبيده الأحرار ، وهذا كناية عن اضطراب الأمور ، وانقلاب الأوضاع وقد صرّح بهذا المعنى فى البيت الآتى . وكان المتبادر أن يقول « أك » بدل « يك » .

(٣٣) الأعناق : جمع عنق (بضم النون وسكونها) ، والوغد : الدنئ اللئيم الوضيع الهمّة .

(٣٤) تداعت : تجمّعت وتألّبت بالعداوة . والدرك : الإدراك واللحاق ، وهو (بفتح الراء وسكونها) : اسم من أدركت الشىء : إذا طلبته فلحقته . وثعال وثعالة : علما جنس للثعلب ، واستعمله هنا استعمال الجمع . والوتيرة والترة (بكسر التاء) : الذحل (بفتح فسكون) : أى الثأر ، أو الظلم فيه . والأسد : جمع أسد . ويريد بالثعالب : خساس الناس ، وبالأسد : أشرافهم .

(٣٥) نسرى : نسير ، والسرى (فى الأصل) : السير ليلا . والدياجير : جمع ديجور ، وهو الظلام . والمحنة : البلاء والفتنة . وغمد السيف : جفنه الذى يتوارى فيه . ومعنى الشطر الثانى : أن هذه المحنة تستفزّ السيوف من أغمادها ، وتتطلّب المكافحة بالحرب والقتال .

(٣٦) الجور : الميل عن القصد ، والظلم . وسطت عليه : قهرته وأذلته وبطشت به . والمجد : العزّ والشرف .

(٣٧) ذلّ : ضعف وهان ، فهو ذليل . والحمام (بكسر الحاء) : قضاء الموت وقدره . ويؤدّه (كيردّ ، ويخفّ ، ويملّ) : يدهاه ، وينزل به .

(٣٨) أقتل : اسم تفضيل من القتل . ويتلى : يقرأ . والمحافل : جمع محفل (كمجلس) ، وهو مجتمع الناس . والحمد : الثناء والمدح .

(٣٩) الخامل : الساقط الذى لا نباهة له ، (وبابه دخل) . يقول : على أى شىء يحيا الإنسان =

يَرَى الضَّيْمَ يَغْشَاهُ فَيَلْتَذُّ وَقْعَهُ ... كَذِى جَرَبٍ يَلْتَذُّ بِالْحَكِّ جِلْدُهُ(٤٠)

إِذَا الْمَرْءُ لاقَى السَّيْلَ ثُمَّتَ لَمْ يَعُجْ ... إِلى وَزَرٍ يَحْمِيهِ أَرْدَاهُ مَدُّهُ(٤١)

عَفَاءٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعِشْ ... بِهَا بَطَلاً يَحْمِى الْحَقِيقَةَ شَدُّهُ(٤٢)

مِنَ الْعارِ أَنْ يَرْضَى الفَتَى بِمَذَلَّةٍ ... وفى السَّيْفِ ما يَكْفِى لِأَمْرٍ يُعِدُّهُ(٤٣)

وَإِنِّى امْرُؤٌ لا أَسْتَكِينُ لِصَوْلَةٍ ... وإِنْ شَدَّ سَاقِى دُونَ مَسْعَاىَ قِدُّهُ(٤٤)

أَبَتْ لِىَ حَمْلَ الضَّيْمِ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ ... وَقَلْبٌ إِذَا سِيمَ الْأَذَى شَبَّ وَقْدُهُ(٤٥)

= خاملا فى زمانه ؟ أيفرحه فى الدنيا أيام تمرّ فيعدّها ؟

والمعنى : لاينبغى أن يرضى المرء لنفسه بحياة الضعف والخمول، والفرح بعدّ الأيام ، ففى البيت حضّ على الشجاعة والنباهة وطلب الحياة الطيّبة العزيزة ، وعدم المبالاة بالموت فى سبيل العزّة والكرامة .

(٤٠) الضيم : الظلم . ويغشاه : يأتيه ويصيبه . والتذّه ، وبه : وجده لذيذاً ، واللذّة : نقيض الألم . والوقع : الوقوع .

(٤١) ثمّت : ثمّ . ولم يعج : لم يرجع ،ولم يلجأ . والوزر (بفتحتين) الملجأ والمُعْتَصَم ، وأصله الجبل المنيع . ويحميه : أى يدفع عنه خطر السيل . وأرداه : أهلكه . ومدّه : ارتفاعه وطغيانه وكثرة مائه .

(٤٢) العفاء : التراب ، والدروس: أى الامحّاء والزوال . وبطلا : شجاعاً. ويحمى : يمنع ويصون ويحفظ . والحقيقة : ما يحقّ عليك أن تحميه ، أى ما تجب عليك حمايته . والشدّ : العدو ، والمراد به هنا : الحملة فى الحرب .

(٤٣) أعدّه لأمر كذا يعدّه إعداداً : هيّأه له .

يقول : إنّ منالسبّة والعيب والعار أنيرضى الإنسان بالذّل والضعف والهوان وهو يستطيع أن يحقّق بحدّ السيف ما يُعدّه من الأمور . يحضّ على دفع المذلة بقوّة الحرب والقتال .

(٤٤) أستكين : أخضع . والصولة : الاستطالة والسطوة والبطش . وشدّه : أوثقه وربطه وقيّده . والقدّ (بكسر القاف) : سير يقدّ من جلد غير مدبوغ ويقيّد به الأسير ونحوه .

يقول : إنه لا يخضع للقهر ، ولا يستكين للسطوة والبطش ، حتّى ولو حيل بينه وبين مسعاه ، وكان مقيّد الساق ، مشدوداً بالوثاق . وإعادة الضمير فى قدّه مذكّراً على الساق غير معروف فى الفصيح .

(٤٥) أبى الرجل يأبى (بالفتح فيهما) إياه : امتنع فهو آب وأبىّ . والضيم : الظلم والضّير . وسيم الأذى : أريد به الأذى ، وحمل على المكروه ، يقال : سامه خسفاً وذلاً أى أولاه إياه ، وأراده عليه ، وأهانه . وشبّ : اتّقد . والوقد (بفتح فسكون) : النار .

نَمَانِى إِلَى الْعَلْيَاءِ فَرْعٌ تَأَثَّلَتْ أُرُومَتُهُ فى الْمَجْدِ ، وافْتَرَّ سَعْدُهُ(٤٦)

وحَسْبُ الْفَتَى مَجْدًا إِذَا طالَبَ الْعُلا بِمَا كَانَ أَوْصَاهُ أَبُوهُ وَجدُّهُ(٤٧)

إِذَا وُلِدَ الْمَوْلُودُ مِنَّا فَدَرُّهُ دَمُ الصِّيدِ والْجُرْدُ الْعَنَاجِيجُ مَهْدُهُ(٤٨)

فَإِنْ عاشَ فَالْبِيدُ الدَّيَامِيمُ دَارُهُ وإِنْ ماتَ فالطَّيْرُ الأَضَامِيمُ لَحْدُهُ(٤٩)

أَصُدُّ عَنِ الْمَرْمَى الْقَرِيبِ تَرَفُّعاً وأَطْلُبُ أَمْرًا يُعْجِزُ الطَّيْرَ بُعْدُهُ(٥٠)

---

(٤٦) نمانى : عزانى ونسبنى و رفعنى. والعلياء : السماء وكلّ شىء عال ، والفرع (فى الأصل) : الغصن. و يريد به هنا : نسبه القريب. والأرومة (بفتح الهمزة وضمها) : الأصل . وتأثّلت : تأصّلت وعظمت . والمجد : العزّ والشرف . وافترّ : تلألأ وأشرق .

(٤٧) حسب الفتى مجداً : كفاه عزّاً وشرفاً. وحسب مبتدأ ، وخبره محذوف للعلم به تقديره (ما يناله من رفعة) . والعلا : جمع عليا .

يقول : كفى المرء عزا وشرفاً أن يسير سيرة آبائه فى طلب المعالى ، وأن يطلب من المجد ما أوصاه أبوه وجدّه بتحصيله .

(٤٨) درّه : لبنه وغذاؤه . والصيد (بكسر الصاد) : جمع أصيد ، وهو الأسد ، ورافع رأسه كبراً . والجرد : جمع أجرد ، وهو الفرس السبّاق ، أو القصير الشعر الرقيقه . والعناجيج : جياد الخيل والإبل . والمهد : الموضع يهيّأ للصبى و يوطّ .

والمعنى : أنّ أطفالهم يشبّون على الشجاعة وعزّة النفس ، ويعوّدون الفروسية وركوب الخيل واقتحام الأخطار .

(٤٩) البيد : جمع بيداء وهى المفازة ، أى الموضع المهلك . والدياميم : جمع ديموم أو ديمومة (بفتح فسكون فيهما) وهى الفلاة الواسعة أى الصحراء . والأضاميم : الجماعات ، واحدتها إضامة (بكسر الهمزة).

يقول : فإن عاش مولودهم فدياره الفلوات والمفاوز والمواضع المهلكة والصحارى الواسعة ، وإن مات مات فى ميدان القتال ، فأكلت لحمه جماعات الطير . وهذا كله كناية عن الشجاعة وشدّة البأس وركوب الأخطار .

(٥٠) أصدّ : أعرض وأنصرف . والمرمى : اسم مكان من رمى .

يقول : إنه يعرض عن هيّنات الأمور ترفّعاً واستكباراً ، ويطلب ما كان رفيعاً عالياً بعيداً ، تعجز الطير عن بلوغ مداه . والمعنى : أنه فى حياته رفيع الهمة بعيد الغاية .

وَلا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ تَلاعَبُ بِالْقَنَا أُسُودُ الْوَغَى فيهِ . وتَمْرَحُ جُرْدُهُ (٥١)

يُمَزِّقُ أَسْتَارَ النَّوَاظِرِ بَرْقُهُ وَيَقْرَعُ أَصْدَافَ الْمَسَامِعِ رَعْدُهُ (٥٢)

تُدَبِّرُ أَحْكَامَ الطِّعانِ كُهُولُهُ وَتَمْلِكُ تَصْرِيفَ الأَعِنَّةِ مُرْدُهُ (٥٣)

قُلُوبُ الرِّجالِ الْمُسْتَبِدَّةِ أَكْلُهُ وَفَيْضُ الدماءِ الْمُسْتَهِلَّةِ وِرْدُهُ (٥٤)

أُحَمِّلُ صَدْرَ النَّصْلِ فِيهِ سَرِيرَةً تُعَدُّ لِأَمْرٍ لا يُحَاوَلُ رَدُّهُ (٥٥)

فَإِمَّا حَيَاةٌ مِثْلُ ما تَشْتَهِي الْعُلَا وإِمَّا رَدًى يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ وَفْدُهُ (٥٦)

---

(٥١) تلاعب : أصله تتلاعب ، ومعناه تلعب . والقنا: جمع قناة وهى الرمح . والوغى : الحرب . وتمرح : تنشط وتسرع ، من المرح : وهو شدة الفرح والنشاط ، (وبابه طرب) . والضمير فى جرده يعود على اليوم . : جمع أجرد : وهوالفرس السبّاق .

(٥٢) الأستار : جمع ستر (بكسر السين) . والنواظر: جمع ناظرة: وهى العين، أو جمع ناظر : وهو السواد الأصغر الذى فيه إنسان العين ، ويريد بأستار النواظر : الجفون . وتمزيقها : النفاذ منها ، على المبالغة . وأراد بالبرق : لمعان الأسلحة وضوء نيران الحرب فى ذلك اليوم . ويقرع : يطرق . والأصداف : جمع صدف (بفتحتين) وهو غشاء الدرّ ، وواحدة الصدف صدفة . والمسامع : جمع مسمع (بكسر الميم الأولى وفتح الثانية) ، وهو الأذن ، والمراد بأصداف المسامع : أول ما يصل إليه الصوت من أجزاء الأذن .

(٥٣) دبّر الأمر يدبره تدبيراً : فعله عن فكر وروية ، ونظر فى عاقبته . والطعان : مصدر طاعنه بالرمح ونحوه ، أى ضربه به ووخزه . والكهول : جمع كهل (بفتح فسكون) وهو من جاوز الثلاثين إلى نحوالخمسين . والمراد بالكهول : الشيوخ المجرّبون ، والأعنّة : جمع عنان (بكسر العين) ، وهو فى الأصل سير اللجام الذى تمسك به الدابة ، والمراد بتصريف الأعنة : تنفيذ خطط القتال . والمرد : جمع أمرد : وهو الغلام لم تنبت لحيته .

(٥٤) استبدّ بالأمر : انفرد به من غير مشارك له فيه . . والفيض: مصدر فاض الماء إذا كثر وسال على ضفّة الوادى . والمستهلّة : اسم فاعل من استهلّ المطر ونحوه :أى اشتد انصبابه . والورد (بكسر الواو) : النصيب من الماء . والضمير فى ورده وأكله يعود على اليوم .

(٥٥) النصل : حديدة السهم والرمح والسيف ونحوها . والسريرة: السر الذى يكتم ، والمراد (هنا) الخطّة المرسومة المكتومة .

يقول : إنه فى هذا اليوم يكتم فى صدر رمحه أو سيفه خطة قد أعدّها لأمر خطير عظيم لا يستطاع ردّه .

(٥٦) الردى : الهلاك، مصدر ردى (من باب صدى) . ووفده : مصدر وفد فلان على الأمير =

وقالَ على رَوِىٍّ * قَصِيدَةِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِىِّ ** التى أوَّلُها :

أَمِنَ آلِ مَيَّةَ رائحٌ أَوْ مُغْتَدِ   عَجْلَانَ ذَا زادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ

وَقَدْ سَلَكَ فيها مَسالِكَ الْعَرَبِ فيما كَانَتْ تَتَمَدَّحُ بِهِ مِنْ مُباشَرَةِ الْحُروبِ ، وارْتِيادِ الْمَنَابتِ ، ورُكُوبِ الْخَيْلِ ، وشُرْبِ الْخَمْرِ ، والتَّشْبِيبِ بالنِّساءِ :

ظَنَّ الظُّنُونَ فَبَاتَ غَيْرَ مُوَسَّدِ   حَيْرَانَ يَكْلأُ مُسْتَنِيرَ الْفَرْقَدِ(١)

تَلْوِى بِهِ الذِّكْرَاتُ حَتَّى إِنَّهُ   لَيَظَلُّ مُلْقًى بَيْنَ أَيْدِى الْعُوَّدِ(٢)

= (من باب وعد) : أى ورد رسولا ، فالوفد : الحضور والورود والقدوم .

* * *

فى هذه القصيدة تحريض صريح على دفع الظلم بقوة السلاح ، وفيها تهديد ووعيد ؛ وهذا يرجّح أن البارودى نظمها لما اشتدّ الجفاء ، وتأزّمت الأمور بين الخديو توفيق والوزارة الوطنية (وزارة محمود سامى البارودى) فى مايو سنة ١٨٨٢ قبيل توقّد الثورة العرابيّة . وفى بعض البحوث التى نشرت عن البارودى أن هذه الداليّة من سرنديبيّاته ، وأن فيها تحريضاً على ردّ عدوان الخديو توفيق ، ومكافحة حكمه الاستبدادىّ الفاسد ؛ ولكن يلاحظ أن الحكم والسلطان الحقيقىّ كان للاحتلال العسكرىّ الإنجليزىّ ، وليس فى هذه القصيدة إشارة إليه ؛ ولهذا رجّحنا أنها نتيجة الخلاف الذى استحكم بين البارودى والخديو توفيق فى مايو سنة ١٨٨٢ .

* الروىّ : حرف بنيت عليه القصيدة ، ونسبت إليه ؛ وهو الدال فى هذه القصيدة .

** النابغة الذبيانىّ : أحد فحول شعراء الجاهلية ، وحكمهم بعكاظ ، واسمه زياد بن معاوية ، وكنيته أبو أمامة ، وقبيلته ذبيان ، وذبيان من قيس ، وقيس من مضر ، ومضر أعظم القبائل العدنانية وأشهرها ، ولقّب بالنابغة لنبوغه فى الشعر فجاءه وهو كبير ، بعد أن امتنع عليه وهو صغير .

(١) ظنّ الظنون : المراد ساورته الوساوس والهموم . وغير موسّد : على غير وسادة ؛ وهذا كناية عن القلق والحيرة والسهاد . وحيران : صفة من الحيرة . ويكلأ : يرعى ويراقب . ومستنير : نيّر مضىء . والفرقد : نجم قريب من القطب الشمالىّ ، ثابت الموقع تقريباً ؛ ولهذا يُهتدى به . وهو المسمى (النجم القطبىّ) ويقربه نجم آخر مماثل له ، وأصغر منه ، وهما فرقدان .

(٢) تلوى به : تذهب به ومن كلامهم : ألوى بهم الدهر : أى أهلكهم . والذكرات : جمع ذكرة (بضم فسكون) : وهى ضدّ النسيان . ويظلّ : يبقى ، يقال ظلّ يعمل كذا (كتعب) إذا عمله نهاراً ، وسمع فى الشعر ظل ليله يفعل كذا . وملقى اسم مفعول من ألقاه إلقاء بمعنى طرحه . والعوّد : جمع عائد ، اسم فاعل من عدت المريض أعوده عيادة بالكسر .

طَوْرًا يَهُمُّ بِأَن يَزِلَّ بِنَفْسِهِ ... سَرَفاً ، وتاراتٍ يَمِيلُ عَلَى الْيَدِ[٣]
فَكَأَنَّمَا افْتَرَسَتْ بِطَائِرِ حِلْمِهِ ... مَشْمُولَةٌ ، أَوْ سَاغَ سُمَّ الْأَسْوَدِ[٤]
قَالُوا غَدًا يَوْمُ الرَّحِيلِ وَمَنْ لَهُمْ ... خَوْفَ التَّفَرُّقِ أَنْ أَعِيشَ إِلَى غَدِ ؟[٥]
هِيَ مُهْجَةٌ ذَهَبَ الْهَوَى بِشَغَافِهَا ... مَعْمُودَةٌ ، إِنْ لَمْ تَمُتْ فَكَأَنْ قَدِ[٦]
يَاأَهْلَ ذا الْبَيْتِ الرَّفِيعِ مَنَارُهُ ... أَدْعُوكُمُ يَا قَوْمُ دَعْوَةَ مُقْصَدِ[٧]
إِنِّى فَقَدْتُ الْيَوْمَ بَيْنَ بُيُوتِكُمْ ... عَقْلِي ، فَرُدُّوهُ عَلَيَّ لِأَهْتَدِي[٨]

---

(٣) الطور : التارة والمرّة . وهمّ بالشيء : أراده ، (وبابه ردّ) . ويزلّ (من بابى ضرب وتعب) : يسقط . والسرف (بفتحتين) : التبديد والتضييع .

يقول : إنه لشدّة ضعفه وآلامه يحاول أحياناً أن يلقى بنفسه تضييعاً لها ، وأحياناً يميل على يده إعياء ووهناً .

(٤) الفرس (بفتح فسكون) والافتراس (فى الأصل) : دقّ العنق والقتل ، ومنه فرس الأسد فريسته وافترسها ، وقد ضمنـّه الشاعر (هنا) معنى فتك ولهذا عدّاه بالباء . والحلم : العقل والأناة . والمشمولة : الخمر الباردة ، يقال : شَمَلَ الخمر أى عرضها لريح الشمال فبردت . وساغ (من بابى قال و باع) : شرب . والسم (مثلث السين) : ما يقتل . والأسود : العظيم من الحيات وفيه سواد .

(٥) الرحيل : الارتحال والسفر .

وبيت النابغة الذبيانى فى هذا المعنى :

لا مَرْحَبًا بِغَـدٍ ، ولا أَهْـلاً بِهِ ... إِنْ كَانَ تَفْرِيقُ الْأَحِبَّةِ فى غَدِ

وبيت أبى تمام :

قالُوا : الرَّحِيلُ غَدًا ـ لا شَكَّ ـ قُلْتُ لَهُمْ ... الْآنَ أَيْقَنْتُ أَنَّ اسْمَ الْحِمَامِ غَدُ

(٦) المهجة : النفس والروح ودم القلب ، والمراد بها (هنا) : القلب ، والشغاف (كسحاب) : غلاف القلب أو حجابه أو حبته أو سويداؤه . والهوى : الحب . ومعمودة : هدّها العشق .

يقول : إنّ الحبّ هدّه ، وذهب بسويداء قلبه ، فهو إن لم يمت اليوم فإنّ موته قريب .

(٧) المنار : علم الطريق ، أو هو موضع النور كالمنارة ، ورفعة المنار كناية عن الشهرة وعظم القدر والمجادة . والمقصد : المطعون ، اسم مفعول من أقصد فلان فلاناً : إذا طعنه فلم يخطئه .

(٨) يشير بهذا البيت إلى أن فتاة جميلة من فتيات هذا الحىّ قد فتنته وذهبت بعقله .

أَوْ فَاسْتَقِيدُونِي بِبَعْضِ قِيَانِكُمْ   حَتَّى تَرُدَّ إِلَيَّ نَفْسِي ، أَوْتَدِي [٩]

بَلْ يَا أَخَا السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ   إِنْ أَنْتَ لَمْ تَحْمِ النَّزِيلَ فَأَغْمِدِ [١٠]

هَذِي لِحَاظُ الْغِيدِ بَيْنَ شِعَابِكُمْ   فَتَكَتْ بِنَا خَلْسًا بِغَيْرِ مُهَنَّدِ [١١]

مِنْ كُلِّ نَاعِمَةِ الصِّبَا بَدَوِيَّةٍ   رَيَّا الشَّبَابِ سَلِيمَةِ الْمُتَجَرَّدِ [١٢]

هَيْفَاءَ إِنْ خَطَرَتْ سَبَتْ ، وَإِذَا رَنَتْ   سَلَبَتْ فُؤَادَ الْعَابِدِ الْمُتَشَدِّدِ [١٣]

يَخْفِضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ تَخَتُّلًا   لِلنَّفْسِ ، فِعْلَ الْقَانِتَاتِ الْعُبَّدِ [١٤]

---

(٩) استقدت الحاكم من القاتل: سألته أن يقتصّ لى منه . ومعنى استقيدونى هنا : مكّنونى من أخذ القود ، و ببعض قيانكم ، استعملت فيه الباء بدل من ، و يريد بالبعض محبوبته . والقيان : جمع قينة (بفتح فسكون) : وهى الأمة البيضاء ، أو الأمة المغنّية أو أعمّ ، وتدى : تعطى الدية ، يقال : ودى القاتل القتيل (من باب وعى) يديه دية : إذا أعطى وليّه المال الذى هو بدل النفس .

(١٠) النجاد (ككتاب) : حمائل السيف ، وما يعلّق به كالسير ونحوه . وحماه يحميه حماية : دفع عنه . والنزيل : الضيف . وأغمد : أمر من أغمد السيف كغمده : إذا جعله فى غمده .

يقول : أيها الشجاع ، إذا لم تستطع حماية ضيفكم من فتك عيون الحسان ، فأولى بك أن تغمد سيفك .

(١١) لحظه (كنعه) لحظاً : نظر إليه بمؤخر عينه ، و يقال : فتنته ألحاظها ولحظاتها . وقد استعمل اللحظ (هنا) اسما بمعنى العين ، ثم جمعه على لحاظ (بوزن سهم وسهام) . والغيد : جمع غيداء ، وهى المرأة الناعمة المتثنّية ليناً . والشعاب (بكسر الشين) : جمع شعب (بكسر فسكون) : وهو الطريق فى الجبل ، والمراد به (هنا) الطريق مطلقاً . وفتكت بنا : قتلتنا على غرّة . وخلساً : مصدر خلس الشيء (من باب ضرب) أى استلبه واختطفه بسرعة على غفلة . والمهنّد : السيف المطبوع من حديد الهند .

(١٢) الصبا (بكسر الصاد) : الصغر . وبدويّة : منسوبة إلى البدو أو البادية وهى خلاف الحضر . وريّا : متنعمة ممتلئة . والمتجرّد (بفتح الراء المشددة) : مصدر ميمى بمعنى التجرّد ، يقال : جرّده من ثيابه فتجرّد وانجرد ، وهى بضّة المتجرّد وسليمة المتجرّد ، أى بضّة وسليمة عند التجرّد ، فإن كسرت الرّاء أردت الجسم .

(١٣) هيفاء : صفة من الهيف (بفتحتين) : وهو ضمر البطن ورقّة الخاصرة ، وفعله كفرح وخاف . وخطرت : اهتزّت فى مشيها وتبخترت . وسبت : أسرت ، من السبى (بفتح فسكون) والسباء (بكسر السين) : وهو الأسر (وبابه رمى) . ورنا إليه : أدام النّظر بسكون الطّرف ، (وبابه سما) . وسلبت : اختلست وأخذت . والعابد المتشدّد : البخيل بدينه ، الحريص على العبادة .

(١٤) التختّل : الخديعة ، ولم نجدها فيما بين أيدينا من المعجمات . والقانتات : جمع قانتة ، وهى العابدة الطائعة ، من القنوت : وهو الطاعة والدعاء ، ويطلق على القيام فى الصلاة . والعبّد : جمع عابدة .

فَإِذَا أَصَبْنَ أَخَا الشَّبَابِ سَلَبْنَهُ ... وَرَمِينَ مُهْجَتَهُ بِطَرْفٍ أَصْيَدِ(١٥)
وَإِذَا لَمَحْنَ أَخَا الْمَشِيبِ قَلَيْنَهُ ... وَسَتَرْنَ ضَاحِيَةَ الْمَحَاسِنِ بِالْيَدِ(١٦)
فَلَئِنْ غَدَوْتُ دَرِيئَةً لِعُيُونِهَا ... فَلَقَدْ أَفُلُّ زَعَارَةَ الْمُتَمَرِّدِ(١٧)
وَلَقَدْ شَهِدْتُ الْحَرْبَ فِى إِبَّانِهَا ... وَلَبِئْسَ رَاعِى الْحَىِّ إِنْ لَمْ أَشْهَدِ(١٨)
تَتَقَصَّفُ الْمُرَّانُ فِى حَجَرَاتِهَا ... وَيَعُودُ فِيهَا السَّيْفُ مِثْلَ الْأَدْرَدِ(١٩)
عَصَفَتْ بِهَا رِيحُ الرَّدَى ، فَتَدَفَّقَتْ ... بِدَمِ الْفَوَارِسِ كَالْأَتِىِّ الْمُزْبِدِ(٢٠)
ما زِلْتُ أَطْعَنُ بَيْنَهَا حَتَّى انْثَنَتْ ... عَنْ مِثْلِ حَاشِيَةِ الرِّدَاءِ الْمُجْسَدِ(٢١)

---

(١٥) أخو الشباب : الشابّ الفتىّ . وسلبنه : اختلسته وأخذنه ، أى أخذن عقله أو قلبه . والمهجة : النفس والروح . والطرف : العين . وأصيد : صفة من الصيد (بفتحتين) وهو عدم الالتفات من الزهو والكبر والدلال .

(١٦) لحن : أبصرن ، لمحه : أبصره بنظر خفيف ، (وبابه قطع) . وأخو المشيب : الأشيب . وقلينه : أبغضنه ، (وبابه رمى) . والضاحية : المشرقة البارزة . والمحاسن : جمع على غير قياس للحسن (بضم فسكون) . والمراد بضاحية المحاسن : الوجه الجميل الفاتن .

(١٧) غدوت : صرت ، والغدوّ (فى الأصل) التبكير والذهاب فى الغدوة (بضم فسكون) وهى أول النهار . والدريئة : الحلقة يُتَعَلَّم الطّعن والرمى عليها ، والمراد بالدريئة (هنا) : الهدف والغرض . وأفلّ : أكسر . والزعارة : الشراسة وسوء الخلق . والمتمرّد : العاتى الجبّار الذى جاوز الحدّ .

(١٨) شهدت : حضرت . وفى إبّانها : فى وقتها ، أوفى أولها . والحىّ : البطن من بطون العرب وهو دون القبيلة . وراعى الحىّ : زعيمه .

(١٩) تتقصّف : تتكسّر . والمرّان : الرماح ، واحدتها مرانة (بضم الميم وتشديد الراء المفتوحة) من المرونة وهى اللين فى صلابة . والحجرات : النّواحى ، مفردها حجرة (بفتح الحاء والراء وسكون الجيم) . والأدرد : الذى سقطت أسنانه وبقيت أصولها ، صفة من الدرد (بفتحتين) : وهو ذهاب الأسنان . والمعنى : أنّ السّيف يرجع من هذه الحرب وقد تفللت مضاربه وتكسّرت لكثرة ما عمل .

(٢٠) عصفت الريح : اشتدّت ، (وبابه ضرب وجلس) . والرّدى : الهلاك . وتدفقت : تصببت وسالت . والفوارس : جمع على غير قياس لفارس ، وهو راكب الفرس . والأتىّ : السيل . والمزبد : المائج الذى يقذف بالزبد (بفتحتين) : وهو الرغوة ونحوها .

(٢١) طعنه بالرمح ونحوه (كمنعه ونصره) طعناً : ضربه ووخزه . وانثنى : انكفّ وانصرف . وانثنت الحرب : انتهت ووضعت أوزارها ، وهو فى الأصل مطاوع ثناه عن مراده : إذا صرفه عنه . وحاشية الثوب : جانبه والجمع الحواشى . والرداء : الملحفة ونحوها ، أو ثوب يتردّى به . والمجسد : الثوب المصبوغ بالجسد (بفتحتين) وهو الزعفران . =

وَلَقَدْ هَبَطْتُ الْغَيْثَ يَلْمَعُ نَوْرُهُ ... فى كُلِّ وَضَّاحِ الْأَسِرَّةِ أَغْيَدِ(٢٢)

تَجْرِى بِهِ الْآرَامُ بَيْنَ مَنَاهِلٍ ... طَابَتْ مَوَارِدُهَا ، وَظِلٍّ أَبْرَدِ(٢٣)

بِمُضَمَّرٍ أَرِنٍ كَأَنَّ سَرَاتَهُ ... بَعْدَ الْحَمِيمِ سَبِيكَةٌ مِنْ عَسْجَدِ(٢٤)

خَلَصَتْ لَهُ الْيُمْنَى ، وَعَمَّ ثلاثَةً ... مِنْهُ الْبَيَاضُ إِلَى وَظِيفٍ أَجْرَدِ(٢٥)

= والمعنى : أنه استمرّ يطعن الأعداء فى الحرب حتى تكشّفت عن دماء القتلى والجرحى ، وصارت الأرض كحاشية الثوب المصبوغ بالزعفران .

(٢٢) هبطت الغيث : نزلت بأرضه . والغيث : النبات والكلأ ، وهو فى الأصل المطر ، وسمّى الكلأ غيثاً لأن الغيث سببه . ويلمع : يضىء . والنور (بفتح النون) : الزهر . ووضّاح : صيغة مبالغة من وضح الأمر وضوحاً : أى ظهر وبان . والأسرّة : خطوط الكفّ والجبهة ، واحدها سرار (بكسر السين) ، ووضّاح الأسرّة : صفة للنبت . والأغيد من النبات : الناعم المتثنى .

والمعنى : أنه نبات مزهر نضير جميل مشرق كالرجل الحسن البسّام الذى تبرق أسارير وجهه ، وتبدو محاسنه .

(٢٣) به : أى بموضع الغيث . والآرام : جمع رئم (بكسر الراء) وهو الظبى الخالص البياض . والمناهل : الآبار وعيون المياه العذبة ، مفردها منهل (كمذهب) . وطابت : ساغت وعذبت . والموارد : مواضع ورود الماء ، أى بلوغه والإشراف عليه ، والمراد بها (هنا) المياه نفسها ، واحدها مورد (كمجلس) اسم مكان من ورد البعير وغيره الماء يرده وروداً : إذا بلغه ووافاه . وظلّ أبرد : بارد .

(٢٤) مضمّر : خفيف اللحم ، معدّ للسباق ، وهو اسم مفعول من ضمّرت الفرس تضميراً : أى أعددته للسباق . وأرن : نشيط خفيف سريع ، صفة من الأرن ، وفعله (كفرح) . والسراة (بفتح السين) : الظهر وأعلى كلّ شىء . والحميم : العرق . والسبيكة : فعيلة من سبكت الذهب (من باب قتل) : إذا أذبته وخلّصته من خبثه . والعسجد : الذهب .

يقول : ولقد هبطت موضع الكلأ بفرس ضامر سبّاق كأنّ ظهره بعد إزالة العرق عنه سبيكة من ذهب .

(٢٥) الوظيف من الحيوان : مستدقّ الذراع والساق ، أو هو ما فوق الرّسغ إلى الساق . وأجرد : قصير الشعر رقيقه .

يقول : خلصت له قائمته اليمنى ، فهى ذهبيّة اللون مثل جسمه ، أما الثلاث القوائم الأخرى فقد عمّها البياض إلى الوظيف . ثم وصف الوظيف بقلة الشعر ورقّته ، وهذه من الصفات المستحسنة فى الخيل .

فَكَأَنَّمَا انْتَزَعَ الأَصِيلَ رِدَاءَهُ سَلْباً ، وَخَاضَ مِنَ الضُّحَى فِي مَوْرِدِ(٢٦)

زَجِلٌ يُرَدِّدُ فِي اللَّهَاةِ صَهِيلَهُ رَفْعاً كَزَمْزَمَةِ الْحَبِيِّ الْمُرْعِدِ(٢٧)

مُتَلَفِّتاً عَنْ جَانِبَيْهِ ، يَهُزُّهُ مَرَحُ الصِّبَا كَالشَّارِبِ الْمُتَغَرِّدِ(٢٨)

فَإِذَا ثَنَيْتَ لَهُ الْعِنَانَ وَجَدْتَهُ يَمْطُو كَسِيدِ الرَّدْهَةِ الْمُتَوَرِّدِ(٢٩)

وإِذَا أَطَعْتَ لَهُ الْعِنَانَ رَأَيْتَهُ يَطْوِى الْمَهَامِهَ فَدْفَداً فِي فَدْفَدِ(٣٠)

يَكْفِيكَ مِنْهُ إِذَا أَحَسَّ بِنَبْأَةٍ شَدٌّ كَمَعْمَعَةِ الأَبَاءِ الْمُوقَدِ(٣١)

(٢٦) انتزعه : اقتلعه ، وفاعله ضمير مستتر يعود على المضمّر ، أى الفرس (فى البيت الرابع والعشرين) . والأصيل : الوقت من بعد العصر إلى المغرب . ورداءه : بدل من الأصيل ، والرداء : ما يلبس فوق الثياب ، كالجبة ، والعباءة . والثوب يستر الجزء الأعلى من الجسم فوق الإزار . وسلباً : (بفتح اللام وسكونها) مصدر سلبه (من باب نصر) أى اختلسه وأخذه ، والسلب (بفتح اللام) : المسلوب . والضحى : الوقت حين تشرق الشمس ويرتفع النهار ويمتد . والمورد : مكان ورود الماء والإشراف عليه.

والمعنى : أنّ هذا الحصان قد جمع لون الأصيل فى جسمه ، وبياض الضحى فى قوائمه .

(٢٧) زجل (كفرح) : صفة من الزجل وهو الجلبة والتطريب ورفع الصوت ، وفعله كفرح . واللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى الفم . والصهيل : صوت الفرس . والزمزمة : الصوت البعيد له دوىّ وتتابع كصوت الرعد . والحبىّ (كغنى) : السحاب يشرف من الأفق على الأرض ، أو الذى بعضه فوق بعض . والمرعد : ذو الرعد .

(٢٨) متلفتاً : كثير الالتفات بوجهه يمنة ويسرة . والمرح : شدّة الفرح والنشاط ، (وبابه طرب) والصبا (بكسر الصاد) : صغر السن . ويريد بالشارب : شارب الخمر . والمتغرّد : الذى يرفع صوته مطرّباً به .

(٢٩) العنان (بكسر العين) : سير اللجام الذى تمسك به الدابة . وثنيت العنان : قصّرته . ويمطو : يتمطّى ويتبختر . والسيد (بكسر السين) : الذئب . والأسد . والردهة (بفتح فسكون) : شبه أكمة خشنة . والمتورّد : الجرىء ، من قولهم : هو يتورّد المهالك ، أو الوردى اللون : من قولهم خد مورّد ، وتورد خداها .

(٣٠) يطوى : يسلك ويقطع . والمهامه : جمع مهمه أو مهمهة ، وهى المفازة البعيدة : أى الأرض الواسعة المهلكة والبلد المقفر . والفدفد : الفلاة : وهى الأرض لا ماء فيها ، أو هو المكان الصّلب الغليظ المرتفع ، أو الأرض المستوية .

(٣١) أحسّ بالشىء : شعر به ، وفى الأصل (إذا استحسّ) ولم نجدها فيما بين أيدينا من المعجمات . والنبأة : الصوت الخفىّ . والشدّ : العدو والجرى . والمعمعة : صوت الحريق فى القصب ونحوه . والأباء (كسحاب) : الأجمة من الحلفاء والقصب ، الواحدة بهاء . والموقد : اسم مفعول من أوقدت النار إيقاداً : أى أشعلتها .

يريد أن صوت وقع حوافر الفرس عند العدو يشبه أصوات الحطب المتقطّعة عند اشتعال النار فيه .

صُلْبُ السَّنابِكِ لا يَمُرُّ بِجَلْمَدٍ ... فى الشَّدِّ إلَّا رَضَّ فِيهِ بِجَلْمَدِ(٣٢)
نِعْمَ الْعَتَادُ إذَا الشِّفَاهُ تَقَلَّصَتْ ... يومَ الْكَرِيهَةِ فى الْعَجَاجِ الْأَرْبَدِ(٣٣)
وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ بَيْنَ غَطارِفٍ ... شُمِّ الْمَعَاطِسِ كَالْغُصُونِ الْمُيَّدِ(٣٤)
يَتَلاَعَبُونَ عَلَى الْكُئُوسِ إذا جَرَتْ ... لَعِباً يَرُوحُ الْجِدُّ فِيهِ وَيَغْتَدِى(٣٥)
لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ ما أَمَرَ الْهَوَى ... فَكَلاَمُهُمْ كَالرَّوْضِ مَصْقُولٌ نَدِى(٣٦)
مِنْ كُلِّ وَضَّاحِ الْجَبِينِ كَأَنَّهُ ... قَمَرٌ تَوَسَّطَ جُنْحَ لَيْلٍ أَسْوَدِ(٣٧)
بَلْ رُبَّ غَانِيَةٍ طَرَقْتُ خِبَاءَهَا ... وَالنَّجْمُ يَطْرِفُ عَنْ لَوَاحِظِ أَرْمَدِ(٣٨)

---

(٣٢) صلب : شديد قوىّ . والسنابك : جمع سنبك (بضم السين والباء وسكون النون). وهو طرف الحافر . والجلمد : الصخر كالجلمود . والشدّ : العدو . ورضّ : دقّ وكسر ، (وبابه رد) . يقول : إن ذلك الفرس صلب السنابك ، إذا عدا دقّ صخور الأرض بسنابك كالصخور .

(٣٣) العتاد : العدّة . وتقلّصت : انزوت وانضمّت وشمّرت ، وارتفعت. وتقلّص الشفاه: كناية عن الشدّة والبأساء . والكريهة : الشدة فى الحرب. والعجاج (بفتح العين): الغبار والدّخان. والأربد : الأغبر الرمادىّ ، صفة من الربدة (بضم فسكون) : وهى لون يختلط سواده بكدرة ، أو هى لونٌ إلى الغبرة (بضم فسكون) .

(٣٤) غطارف : جمع غطريف (بكسر فسكون فكسر) ، وهو السّيد الشريف ، والسخىّ السرىّ ، والشابّ كالغطراف(بكسر فسكون) . وشمّ : جمع أشم ، صفة من الشمم وهو ارتفاع قصبة الأنف وحسنها واستواء أعلاها . والمعاطس : جمع معطس (كمجلس ومقعد) : وهو الأنف . والميّد : جمع مائد ، اسم فاعل من مادت الأغصان أى تمايلت .

(٣٥) الكئوس : جمع كأس : وهى الإناء يشرب فيه.قيل: ولا تسمى كأساً إلا وفيها الشراب . والجدّ (بكسر الجيم) : ضد الهزل . وجرت الكئوس بينهم : دارت . ويروح ويغتدى : يذهب ويجىء ، وأصل الرواح : الرجوع فى العشى ، والاغتداء : الانطلاق فى أول النهار . يقول : إنهم يلعبون على كئوس الشراب وهى تدور بينهم لعباً يشوبه الجد .

(٣٦) الهوى : الحبّ وميل النفس وانحرافها نحو الشىء. والروْض : جمع روضة ، وهى أرض ذات بقل وعشب وزهر . ومصقول : مجلوّ . وندٍ : مبتلّ نضير غضّ .

(٣٧) وضّاح : أغرّ أبيض حسن اللون . والجبين : ما فوق الصدْغ عن يمين الجبهة ، أو شمالها ، وهما جبينان . وجنح الليل : ظلامه واختلاطه ، أو طائفة منه .

(٣٨) الغانية: المرأة الغنيّة بحسنها عن الزينة . وطرق (من باب دخل):جاء ليلا. والخباء : بيت من وبرأ وصوف ، ينصب على عمودين أو ثلاثة . ويطرف: مضارع طرف بصره (من باب ضرب) إذا =

قَالَتْ وَقَدْ نَظَرَتْ إِلَيَّ : فَضَحْتَنِي فَارْجِعْ لِشَأْنِكَ فَالرِّجالُ بِمَرْصَدِ(٣٩)

فَمَسَحْتُهَا حَتَّى اطْمَأَنَّ فُؤَادُها وَنَفَيْتُ رَوْعَتَهَا بِرَأْيٍ مُحْصَدِ(٤٠)

وَخَرَجْتُ أَخْتَرِقُ الصُّفُوفَ مِنَ الْعِدَا مُتَلَثِّماً والسَّيْفُ يَلْمَعُ فِي يَدِي(٤١)

فَلَنِعْمَ ذَاكَ الْعَيْشُ لَوْ لَمْ يَنْقَضِ وَلَنِعْمَ هَذَا الْعَيْشُ إِنْ لَمْ يَنْفَدِ(٤٢)

يَرْجُو الْفَتَى فِي الدَّهْرِ طُولَ حَيَاتِهِ وَنَعِيمِهِ . وَالْمَرْءُ غَيْرُ مُخَلَّدِ(٤٣)

وفي الوسيلة الأدبية * جاءت هذه القصيدة في ثمانية وأربعين بيتاً ، بزيادة خَمْسة الأَبْيات الآتية بيْن البيْتين التّاسع والثلاثين والأَربعين :

فَخَلَبْتُهَا بِالْقَوْلِ ، حَتَّى رُضْتُهَا وَطَوَيْتُهَا طَيَّ الْحَبِيرَةِ بِالْيَدِ(١)

مَا زِلْتُ أَمْنَعُهَا الْمَنَامَ غَوَايَةً حَتَّى لَقَدْ بِتْنَا بِلَيْلِ الْأَنْقَدِ(٢)

=أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف البصر (من باب ضرب أيضاً) أى تحرك جفناه . واللواحظ : جمع لاحظة : بمعنى ناظرة ، والمراد العيون . وأرمد : صفة من الرمد ، وهو مرض يصيب العين فيهيجها .

(٣٩) الشأن : الأمر والحال.والمرصد : موضع الرصد (بفتحتين، أو بفتح فسكون) وهو : الارتقاب والانتظار .

(٤٠) المسح (كالمنع): إمرار اليد على الشيء . والروعة : الفزعة والخوف. والرأى المحصد : (بصيغة اسم المفعول) : المحصف السديد المحكم الصائب .

(٤١) العدا : إسم جمع لعدوّ . ومتلثما : اسم فاعل من تلثّم أى شدّ اللثام ، وهو ما كان على الفم من النّقاب .

(٤٢) ينقضى وينفد : يفنى وينقطع .

(٤٣) غير مخلّد : غير باق ولا دائم .

(*) انظر الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى : ج ٢ ص ٤٩٤ – ٤٩٦ طبعة مطبعة المدارس الملكيّة بدرب الجماميز بالقاهرة سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) .

(١) خلبه (من باب قتل) : خدعه ، وفتن قلبه بلطيف الكلام ، وحلو المنطق. وراضه (من باب قال) : ذلّله ، وطوّعه . والحبير (بوزن الحرير) : الثوب الناعم الموشى .

(٢) الغواية (بفتح الغين) : الإمعان فى الضلال . والأنقد : القنفذ ؛ وهو لا ينام الليل . وبتنا بليل الأنقد : أى لم نم ؛ فهو كناية عن السهر ، وعدم النوم . والقنفذ (بوزن البلبل) : دويبة ذات شوك حادّ ، يلتفّ فيصير كالكرة ؛ وبذلك يقى نفسه خطر الاعتداء عليه .

رَوْعَاءُ تَفْزَعُ مِنْ عَصَافِيرِ الضُّحَى تَرَفاً ، وَتَجْزَعُ مِنْ صِيَاحِ الْهُدْهُدِ[٣]
حَتَّى إِذَا نَمَّ الصَّبَا ، وَتَتَابَعَتْ زِيَمُ الْكَوَاكِبِ ، كَالْمَهَا الْمُتَبَدِّدِ[٤]
قَالَتْ : دَخَلْتَ ، وَمَا إِخَالُكَ بَارِحاً إِلَّا وَقَدْ أَبْقَيْتَ عَارَ الْمُسْنَدِ[٥]

وقالَ وهو بـأَقْرِيطِشَ * أَيَّامَ الْحَرْبِ يَتَشَوَّقُ إِلى مصْرَ سنة ١٢٨٢ هـ :

سَرَى الْبَرْقُ مِصْرِيًّا فَأَرَّقَنِي وَحْدِي وأَذْكَرَنِي مالَسْتُ أَنْساهُ مِنْ عَهْدِ[١]

---

(٣) روعاء : معجبة بنفسها ، وجهارة منظرها . أو ترتاع ، وتفزع من كل شيء تسمعه أو تراه. لحدة حسّها ، ودقّة شعورها . والفزع : الخوف والذعر. والترف : التنعّم. والجزع : نقيض الصبر. والهدهد : جنس طير من الجوائم الرقيقات المناقير . له قنزعة على رأسه . والهدهد أيضاً : كل ما يقرقر من الطير : أي يردّد صوته ، و يرجّعه .

(٤) الصبا (بوزن العصا) : ريح تهب من مطلع الشمس (وهى مؤنثة) . ونمّت الريح : جلبت الرائحة ، أو الحركة . وتتابعت : توالت . وزيم الكواكب : أى الكواكب المتفرقة : جمع زيمة (بوزن قيمة). والمها : البقر الوحشىّ . الواحدة مهاة (بوزن قناة) . والمتبدد : المتفرق . والبيت : كناية عن انقشاع ظلام الليل ، وتبلّج الصبح . وجواب « إذا » الشرطيّة فى البيت الآتى : « قالت . . . » .

(٥) ما إخالك : لا أظنك (بكسر همزة « إخال » على غير قياس . أو بفتحها على القياس . والكسر أشهر ، وأكثر استعمالا) . وبارحاً : منصرفاً : اسم فاعل من برح المكان ، وبرح منه (كفرح) أى زال عنه وارتحل . والعار : العيب والسبة . وعيّره تعييراً : نسبه إلى العار ، وقبّح عليه فعله . والمسند : الدهر والأبد . وعار المسند : العار الذى يبقى لاصقاً بصاحبه بقاء الدهر .

وفيما يلى إحصاء الكلمات التى جاءت فى رواية الوسيلة الأدبية مخالفة لما جاء فى أصل الديوان :

« العام » فى الشطر الأول من البيت الثامن . وفى أصل الديوان : « اليوم » .

و « مشاربها » فى الشطر الثانى من البيت الثالث والعشرين . وفى أصل الديوان : « مواردها » .

و « دفعاً » فى الشطر الثانى من البيت السابع والعشرين . وفى أصل الديوان : « رفعا »

و « كالهوب » (بوزن أسلوب) فى الشطر الثانى من البيت الحادى والثلاثين . وفى أصل الديوان « كمعمعة » .

* أقريطش (بفتح أوله وكسر الراء والطاء) : (كريد) جزيرة مشهورة ببحر الروم إلى الجنوبىّ الشرقى من بلاد اليونان ، وكانت هذه الجزيرة من أملاك الدولة العثمانية ، وفى سنة ١٢٨٢ هـ أعلنت العصيان والثورة بتشجيع روسيا ، ومساعدة اليونان ، فأرسلت الدولة إليها جيشاً لإخماد الفتنة ، وبعث الخديو « إسماعيل » نجدة عسكرية كان البارودى من ضباطها ، وهذه هى الحرب التى يشير إليها ، وقد انتهت بمنح الجزيرة بعض الامتيازات فى المؤتمر الذى انعقد بباريس فى ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٦ هـ (١٩ من سبتمبر سنة ١٨٦٩ م) .

(١) سرى : سار ليلا . وأرقنى : أسهرنى . والعهد : الوصيّة والموثق والحفاظ ورعاية الحرمة .

فَيَا بَرْقُ حَدِّثْنِي ، وَأَنْتَ مُصَدَّقٌ ... عَنِ الْآلِ وَالْأَصْحَابِ مَا فَعَلُوا بَعْدِي (٢)
وَعَنْ رَوْضَةِ الْمِقْيَاسِ تَجْرِي خِلَالَهَا ... جَدَاوِلُ يُسْدِيهَا الْغَمَامُ بِمَا يُسْدِي (٣)
إِذَا صَافَحَتْهَا الرِّيحُ رَهْوًا تَجَعَّدَتْ ... حَبَائِكُهَا مِثْلَ الْمُقَدَّرَةِ السَّرْدِ (٤)
وَإِنْ ضَاحَكَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ ، كَأَنَّهَا ... مَنَاصِلُ سُلَّتْ لِلضِّرَابِ مِنَ الْغِمْدِ (٥)
نَعِمْتُ بِهَا دَهْرًا ، وَمَا كُلُّ نِعْمَةٍ ... حَبَتْكَ بِهَا الْأَيَّامُ إِلَّا إِلَى الرَّدِّ (٦)
فَوَا أَسَفَا إِذْ لَيْسَ يُجْدِي تَأَسُّفٌ ... عَلَى مَا طَوَاهُ الدَّهْرُ مِنْ عَيْشِنَا الرَّغْدِ (٧)
إِذِ الدَّهْرُ سَمْحٌ ، وَاللَّيَالِي سَمِيعَةٌ ... و « لَمْيَاءُ » لَمْ تُخْلِفْ بِلَيَّانِهَا وَعْدِي (٨)

---

(٢) الآل : الأهل .

(٣) روضة المقياس : جزيرة فى النيل شرقىّ الجيزة ، وفيها مقياس قديم يعرف به ما يعتور النيل من زيادة ونقصان . والجداول : جمع جدول وهو النهر الصغير . ويسدى : مضارع أسدى إليه : أى أحسن ، والمعروف فى اللغة تعديته بإلى وقد ضمنه الشاعر (هنا) معنى يمدّ ، فعداه بنفسه . والغمام : السحاب أو الأبيض منه ، الواحدة غمامة .

(٤) رهواً : سهلة لينة ساكنة . وتجعّدت : تقبّضت كأنها الشعر الجعد ، وهو خلاف السبط المسترسل . والحبائك : الطرائق فى الماء والرمل ونحوهما ، الواحدة حبيكة (كصحيفة) . والمقدّرة : المحكمة المتقنة ، أو الضيّقة ، من التقدير وهو التضييق . والسرد : نسج الدرع ، وتداخل الحلق بعضها فى بعض ، مصدر سرد الدرع (من باب نصر) إذا شكّ طرفى كلّ حلقتين وسمّرهما .

يقول : إذا مرّت الريح الليّنة بهذه الجداول تكسّرت مياهها ، فكانت مثل الدرع الضيّقة النسج

(٥) رفّت : برق لونها وتلألأ . والمناصل : جمع منصل (بضم فسكون فضم ، أو بضم فسكون ففتح) : وهو السيف . وسلّت : انتزعت وأخرجت . والضراب : التضارب والقتال . والغمد : جفن السيف وغطاؤه .

(٦) حبتك : أعطتك ، (وبابه سما) . يقال : حباه النعمة ، وحباه بالنّعمة .

(٧) ليس يجدى : ليس يغنى ، ولا ينفع . وعيش رغد : طيب واسع ليّن .

(٨) سمح : جواد كريم . والليالى سميعة : كناية عن أن الأمور كانت تجرى على هواه . ولمياء : اسم محبوبته ، وهى فى الأصل صفة من اللمى (بفتح اللام والميم) : وهو سمرة مستحسنة فى الشفة . وليّان : مصدر لواه بدينه ليّاً وليّاناً (بفتح اللام وكسرها) : أى مطله وسوّفه بوعد الوفاء مرة بعد أخرى .

فَتَاةٌ تُرِيكَ الشَّمْسَ تَحْتَ خِمارِهَا ... إِذَا سَفَرَتْ ،والْغُصْنَ فى مَعْقِدِ الْبَنْدِ(٩)
مِنَ الْفَاتِنَاتِ الْغِيدِ ، لَوْ مَرَّ ظِلُّهَا ... عَلَى قَانِتٍ دَبَّتْ بِهِ سَوْرَةُ الْوَجْدِ(١٠)
فَتَاللهِ أَنْسَى عَهْدَهَا ما تَرَنَّمَتْ ... بَنَاتُ الضُّحَى بَيْنَ الْأَرَاكَةِ والرَّنْدِ(١١)
حَلَفْتُ بِمَا وَارَى الْخِمارُ مِنَ الْحَيَا ... وَمَا ضَمَّتِ الْأَرْدَانُ مِنْ حَسَبٍ عِدِّ(١٢)
وبِاللُّؤْلُؤِ الْمَنْضُودِ بَيْنَ يَواقِتٍ ... هِيَ الشَّهْدُ ظَنًّا ،بَلْ أَلَذُّ مِنَ الشَّهْدِ(١٣)

---

(٩) الخمار (بكسر الخاء) : ما تغطى به المرأة رأسها . وسفرت : كشفت عن وجهها . ومعقد الشيء (مثل مجلس) : موضع عقده . والبند : الحزام .

(١٠) الفاتنات : جمع فاتنة ، اسم فاعل من فتنته : أى استمالته وأعجبته ، أو أوقعته فى الفتنة ، أو دلّهته : أى سلبت بالعشق فؤاده . والغيد : جمع غيداء ، وهى الفتاة الناعمة المتثنية ليناً . وقانت : ناسك عابد ، اسم فاعل من القنوت (بضم القاف والنون) : وهو الطاعة ، والدعاء ، والقيام فى الصلاة . ودبّت : مشت وسرت . وسورة الوجد : شدة الحب .

(١١) فتالله أنسى : فتالله لا أنسى ، كقول الله تعالى فى سورة يوسف : «قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ » : أى لا تفتأ ، فحذف حرف النفى ؛ لأنه لا يلتبس بالإثبات ، إذ لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون ، والقسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات كان على النفى ، ومن أمثلة ذلك قول امرئ القيس :

فقلت : يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أراد لا أبرح ، فحذف «لا» وهو يريدها . والعهد : الزمان والموثق والحفاظ ورعاية الحرمة . وترنّمت : رجّعت صوتها وطرّبت وغرّدت . ويريد ببنات الضحى : الطيور المغرّدة فى هذا الوقت ، حين تشرق الشمس ويمتدّ النهار . والأراكة : شجرة طويلة ناعمة كثيرة الورق والأغصان خوّارة العود ، ولها ثمر فى عناقيد يسمى البرير ، يملأ العنقود الكفّ ، والجمع أراك ، أو الأراك : شجر من الحمض (بفتح فسكون) يستاك بقضبانه . والرند (بفتح فسكون) : شجر طيّب الرائحة من أشجار البادية ، وقيل هو العود ، وقيل هو الآس .

(١٢) وارى : ستر . والخمار (بكسر الخاء) : ما تغطّى به المرأة رأسها . والحيا : الحياء ، وهو الاستحياء والانقباض والحشمة . وضمّت : جمعت . والأردان : جمع ردن (بضم فسكون) وهو أصل الكمّ ، والمراد بالأردان (هنا) : الأثواب . والحسب : ما يعدّه الإنسان من مفاخر آبائه ، وقيل ما يعدّه المرء من مآثره ومفاخره وإن لم يكن لآبائه شرف ، وقيل الحسب : الكرم والشرف والفعال الصالح . وعدّ (بكسر العين وتشديد الدال) : قديم ، أو كثير ، وهذا مستعار من قولهم ماء عدّ ، أى كثير جار ، له مادة لا تنقطع كماء العين .

(١٣) اللؤلؤ : الدرّ ، واحدته لؤلؤة . والمنضود : المصفوف المنظوم المنسّق ، والمراد أسنان المحبوبة والياقوت حجر كريم ، صلب ، رزين ، شفاف ، يتركب من أكسيد الألمنيوم ، وهو أكثر المعادن =

يَميناً لَو اسْتَسْقَيْتَ أَرْضاً بِهِ الْحَيَا لَخَاضَ بِها الرُّعْيَانُ فِى كَلَا جَعْدِ(١٤)
لأَنْتِ ـ وَأَىُّ النَّاسِ أَنْتِ ؟ ـ حَبِيبَةٌ إِلَىَّ وَلَوْ عَذَّبْتِ قَلْبِىَ بِالصَّدِّ(١٥)
إِلَيْكِ سَلَبْتُ الْعَيْنَ طِيبَ مَنَامِهَا وفيكِ رَعَيْتُ النَّجْمَ فِى أُفْقِهِ وَحْدِى(١٦)
وذَلَّلْتُ هٰذِى النَّفْسَ بَعْدَ إِبائِها وَلَوْلَاكِ لَمْ تَسْمَحْ بِحَلٍّ ولا عَقْدِ(١٧)
فَحَتَّامَ تَجْزِينِى بِوُدِّىَ جَفْوَةً؟ أَمَا تَرْهَبِينَ اللهَ فِى حُرْمَةِ الْمَجْدِ؟(١٨)
سَلِى عَنِّىَ اللَّيْلَ الطَّوِيلَ ؛ فَإِنَّهُ خَبِيرٌ بما أُخْفِيهِ شَوْقاً . وَمَا أُبْدِى(١٩)

=صلابة بعد الماس ، يتزين به الناس . وألوانه مختلفة ، منها الأحمر الرمانى . معرب عن اليونانية واحدته أو القطعة منه ياقوتة ، والجمع يواقيت ، ويريد باليواقت الشفتين . والشهد (بفتح الشين وضمها) : العسل فى شمعها . والظن (هنا) معناه العلم واليقين . يحلف بجمال أسنان محبوبته المنضودة بين شفتيها ، ويقول : إن مذاق هاتين الشفتين له حلاوة العسل ، بل هو أحلى من العسل .

(١٤) استسقيت : طلبت السقى . والحيا : المطر . وخاض : سار ومشى ، يقال خاض الرجل الماء (من باب قال) : أى دخله ، ومشى فيه . والرعيان (بضم فسكون) : جمع راع ، اسم فاعل من رعى الإنسان الماشية ، أى سرحها ، وقادها إلى المرعى . والكلأ : العشب . وجعد : كثير ند .
يقول يميناً لو استسقيت بوجه هذه المحبوبة المطر لأرض لجادها حتى يكثر فيها الكلأ والعشب . ونصب « أرضا » على نزع اللام غريب .

(١٥) « وأىّ الناس أنت » جملة استفهامية معترضة بين المبتدأ وخبره ، والغرض منها التعظيم والتفخيم . والصدّ : الإعراض والهجران .

(١٦) إليك : بسببك . وسلبت : أخذت وحرمت . والمنام : النوم . ورعيت النجم : راقبته وانتظرت مغيبه . والأفق : الناحية ، أو ما ظهر من نواحى الفلك ، وأفق النجم (هنا) : فلكه ومداره .

(١٧) ذلل نفسه تذليلا : حملها على الخضوع والانقياد . والإباء : مصدر أبى يأبى (بالفتح فيهما) أى امتنع . والحلّ : مصدر حلّ العقدة أى فتحها فانحلت . والعقد : ضد الحلّ . والمراد بالحلّ والعقد : أن يراجعه أحد فيما يعتزمه من الأمور .

(١٨) حتام : حتى الموصولة بما الاستفهامية بعد حذف ألفها ، ومعناها إلى أىّ غاية ؟ أو إلى أىّ وقت ؟ وجزاه بما صنع يجزيه جزاء : كافأه . والودّ (بتثليث الواو) : المودة والحبّ . والجفوة : الإعراض والهجران . وترهبين : تخافين . والحرمة (بضم فسكون) : ما لا يحلّ انتهاكه . والمجد : العزّ والشرف .

(١٩) أبدى : أظهر .
يقول : إنّ ليله يطول بسبب السهاد والهمّ ، وإنّ هذا الليل الطويل خبير بما يخفيه ويظهره من الحرقة والوجد بسبب الشوق إلى محبوبته .

هَلِ اكْتَحَلَتْ عَيْنَايَ إلاَّ بِمَدْمَعٍ إِذَا ذَكَرَتْكِ النَّفْسُ سَالَ عَلَى خَدِّي؟ (٢٠)
أُصَبِّرُ عَنْكِ النَّفْسَ وَهْيَ أَبِيَّةٌ وَهَيْهَاتَ صَبْرُ الظَّامِئَاتِ عَنِ الْوِرْدِ (٢١)
كَأَنِّي أُلاَقِي مِنْ هَوَاكِ ابْنَ خِيسَةٍ أَخَا فَتَكَاتٍ ، لا يُنَهْنَهُ بِالرَّدِّ (٢٢)
تَنَكَّبَ مُمْسَاهُ ، وَأَخْطَأَ صَيْدَهُ فَأَقْعَى عَلَى غَيْظٍ مِنَ الْجُوعِ وَالْكَدِّ (٢٣)
لَهُ نَعَرَاتٌ بِالْفَــلَاةِ كَأَنَّهَا عَلَى عُدَوَاءِ الدَّارِ جَلْجَلَةُ الرَّعْدِ (٢٤)
يُمَزِّقُ أَسْتَارَ الظَّــلامِ بِأَعْيُنٍ تَطِيرُ شَرارًا كَالسُّقَاطِ مِنَ الزَّنْدِ (٢٥)
كَأَنَّهُمَا مَاوِيَّتَــانِ أُدِيرَتَــا إِلَى الشَّمْسِ، فَانْبَثَّا شُعَاعاً مِنَ الْوَقْدِ (٢٦)

---

(٢٠) كحل عينه (من باب نصر) : جعل فيها الكحل ، فتكحّلت واكتحلت . والمدمع : مجرى الدمع من العين ، والمراد به (هنا) : الدمع نفسه .

(٢١) صبّر نفسه : أمرها بالصبر ، أو حملها عليه . وأبيّة : ممتنعة . وهيهات : كلمة معناها البعد . والظامئات : جمع ظامئة اسم فاعل من الظمأ (بفتحتين) : وهو العطش أو أشدّه . والورد (بكسر الواو) : الماء الذى يورَد .

(٢٢) الهوى : الحب . وكنى بابن خيسة عن الأسد ، والخيسة : موضعه ، وهى أيضاً : الشجر الملتفّ ، أو ما كان حلفاء وقصباً . وفتكات : جمع فتكة ، اسم مرة من فتك به فتكاً : أى قتله على غرّة . وينهنه : يكفّ ويُدْفَع ، مضارع نهنهه عن الأمر فتنهنه : أى كفّه وزجره فكفّ .
يقول : كأنه يلاقى من هواها أسداً جريئاً فاتكاً ، لا يدفعه الردّ ، ولا تجدى معه المقاومة .

(٢٣) تنكب : انحرف ، ومال عن القصد . وممساه : يراد به هنا : مكان مبيته . أو المعنى : تنكّب فى مسائه . وأقعى إقعاء : جلس على أليتيه ، ونصب ساقيه ، ووضع يديه على الأرض كما يقعى الكلب . والكدّ التعب .

(٢٤) نعرات : أصوات ، جمع نعرة ، اسم مرة من النعير : وهو الصراخ والصياح فى حرب أو شرّ . والفلاة : المفازة ، وهى الصحراء المهلكة ، أو الأرض لا ماء فيها . وعدواء الدار (بضم العين وفتح الدال والواو) : بعدها . وجلجلة الرعد : صوته .

(٢٥) الأستار : جمع ستر (بكسر فسكون) : وهو ما يستر به الشىء : أى يغطى ويحجب . والشرار : ما تطاير من النار ، الواحدة شرارة . والسقاط (بضم السين) : ما سقط من الشىء ، ويريد بالسقاط (هنا) : ما يسقط من الزند عند قدحه وإيرائه ، والزند : العود الذى تقدح به النار .

(٢٦) الماويّة : المرآة . وانبثّ : انتشر وتفرّق ، وهو يريد انبثّتا . وشعاع الشمس : ما انتشر من ضوئها ، الواحدة شعاعة . والوقد (بفتح فسكون) : النار واتّقادها .

فَهَذَا الَّذِى أَلْقَاهُ مِنْكِ عَلَى النَّوَى ... فَرَاخِى وَثَاقِى يَا بْنَةَ الْقَوْمِ ، أَوْشُدِّى(٢٧)

وقال وهو فى حرب الروس(*) مع الدولة العثمانية سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧م) . وأرسل بها إلى الأستاذ الشيخ « حسين المرصفى(**) » :

هُوَ الْبَيْنُ حَتَّى لاَ سَلاَمُ ، وَلَا رَدُّ ... ولا نَظْرَةٌ يَقْضِى بها حَقَّهُ الْوَجْدُ(١)

لَقَدْ نَعَبَ (الْوَابُورُ) بِالْبَيْنِ بَيْنَهُمْ ... فَسَارُوا ، وَلاَ زَمُّوا جِمَالًا ، وَلَا شَدُّوا(٢)

سَرَى بِهِمُ سَيْرَ الْغَمَامِ ، كَأَنَّمَا ... لَهُ فى تَنَائِى كُلِّ ذِى خُلَّةٍ قَصْدُ(٣)

فَلَا عَيْنَ إِلَّا وَهْىَ عَيْنٌ مِنَ الْبُكَى ... وَلَا خَدَّ إِلَّا لِلدُّمُوعِ بِهِ خَدُّ(٤)

فَيَا سَعْدُ ، حَدِّثْنِى بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَى ... فَأَنْتَ خَبِيرٌ بِالْأَحَادِيثِ يَا سَعْدُ(٥)

---

(٢٧) النوى : البعد ، وهى مؤنثة . وراخى وثاقه : جعله رخواً أى ليناً سهلا . والوثاق (بفتح الواو أو كسرها) : القيد والحبل ونحوه . وشده : أوثقه وأحكمه ، وهو ضد راخاه وأرخاه .

(*) تقدم التعريف بتلك الحرب فى مقدمة القصيدة التى مطلعها « هنيئاً لريا ما تضم الجوانح » أول قافية الحاء .

** الشيخ حسين بن أحمد المرصفى عالم لغوى أديب ، ضرير . تخرج فى الأزهر . وتعلم اللغة الفرنسية . ونبغ فى علوم اللغة العربية وآدابها ، ثم اشتغل بتدريسها فى الأزهر ودار العلوم . وهو يعد من الأفذاذ الذين ردوا على اللغة العربية فى العصر الحديث ما كان لها من البهاء فى العصر القديم . ومن تلاميذه وأصحابه الذين انتفعوا بفضله وأدبه : حفنى ناصف ، والبارودى ، وعبد الله فكرى . ومن مؤلفاته المطبوعة : الوسيلة الأدبية للعلوم العربية : جزءان جمعا محاضراته فى دار العلوم . نسبته إلى « مرصفا » من قرى مركز بنها ، محافظة القليوبية . توفى سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) .

(١) البين : الفراق ، (وبابه باع) . والوجد : الحب ، ويريد بقوله « يقضى بها حقه » أنه يتم بها وطره ، ويبلغ بها حاجته .

(٢) نعب : صفر وصوّت ، والنعيب فى الأصل : صوت الغراب ، (وبابه قطع وضرب) . وزم البعير : خطمه ، أى وضع فى أنفه ما يقوده به . وزمه : شد عليه الزمام ، وهو المقود : أى الحبل الذى يقاد به . وشد الرحل ونحوه : إذا وضعه على ظهر البعير وربطه وأوثقه .

(٣) سرى : سار ، والسرى فى الأصل : السير ليلا . والغمام : السحاب ، الواحدة غمامة . والتنائى التباعد . والخلة (بضم الخاء) : الصداقة :

يقول : إن هذا القطار سار بهم سيراً حثيثاً ، كأنما يقصد تباعد الأصدقاء وتفرقهم .

(٤) عين الأولى : حاسة الرؤية . وعين الثانية : ينبوع الماء . وللدموع به خد : طريق أو تأثير .

(٥) يستخبر شخصاً حقيقياً أو خيالياً يعرف أخبار من فارقهم من أهله وأحبائه .

لَعَلَّ حَدِيثَ الشَّوْقِ يُطْفِئُ لَوْعَةً ... مِنَ الْوَجْدِ ، أَوْ يَقْضِي بِصَاحِبِهِ الْفَقْدُ(٦)

هُوَ النَّارُ فِي الْأَحْشَاءِ ، لَكِنْ لِوَقْعِهَا ... عَلَى كَبِدِي مِمَّا أَلَذُّ بِهِ بَرْدُ(٧)

لَعَمْرُ الْمَغَانِي وَهْيَ عِنْدِي عَزِيزَةٌ ... بِسَاكِنِهَا مَا شَاقَنِي بَعْدَهَا عَهْدُ(٨)

لَكَانَتْ وَفِيهَا مَا تَرَى عَيْنُ نَاظِرٍ ... وَأَمْسَتْ وَمَا فِيهَا لِغَيْرِ الْأَسَى وَفْدُ(٩)

خَلَاءٌ مِنَ الْأُلَّافِ إِلَّا عِصَابَةً ... حَدَاهُمْ إِلَى عِرْفَانِهَا أَمَلٌ فَرْدُ(١٠)

دَعَتْهُمْ إِلَيْهَا نَفْحَةٌ عَنْبَرِيَّةٌ ... وَبِالنَّفْحَةِ الْحَسْنَاءِ قَدْ يُعْرَفُ الْوَرْدُ(١١)

---

(٦) اللوعة : حرقة في القلب، وألم من حبّ أو غيره . والوجد : المحبّة . يرجو أن يطفئ حديث الشوق حرقة حبّه ، ويعينه على العزاء والسلوان إلى أن يموت . وقد ضمّن يقضى معنى يودى .

(٧) هو : أى حديث الشوق . والأحشاء : جمع حشا ، وهو ما اشتملت عليه الضلوع ، أو هو ما حواه جوف الإنسان . ووقعها : وقوعها . ومما ألذّ به : بسبب لذّتى به .

(٨) العمر : الحياة . والمغانى : جمع مغنى،وهو المنزل الذى أقام به أهله ، ثم غادروه، ورحلوا عنه . وما شاقنى : ما شوّقنى ، أى ما هيّج شوقى . والعهد : المنزل المعهود به الشيء .

يقسم بحياة المنازل التى كان أحبابه يقيمون فيها إنه لم يشوّقه بعدها منزل سواها ، ويقول : إنها كريمة عزيزة عنده بساكنيها .

(٩) الأسى : الحزن .

يقول : إنها كانت مأهولة عامرة بما تراه عيون الناظرين فيها من مظاهر الحياة ، ثم أمست بعد أن ارتحل أهلها خلاء ليس فيها من الوفود إلا وفد الأسى والحزن .

(١٠) مكان خلاء : خال، ليس فيه أحد . والألاف : جمع آلف، اسم فاعل من ألفت الشيء إلفا (من باب علم) : إذا أنست به ، وأحببته . والعصابة : العصبة، وهى الجماعة من الرجال، ويريد بالعصابة : نفسه ومن كان معه من رفقائه حينا وقفوا بهذه الديار . وحداهم : بعثهم ودفعهم . والعرفان : مصدر عرفت الشيء أعرفه معرفة وعرفانا ، ولعله يريد (هنا) الإلمام بهذه الديار . وأمل فرد : أمل منفرد واحد .

يقول : إنّ منازل أحبابه صارت خالية من الألاف غير جماعة من الناس بعثهم إلى معرفتها أمل هو تجديد الذكريات .

(١١) النفحة : اسم مرّة من نفح الطيب (كنع) : أى فاح وتضوّع وانتشرت رائحته . وعنبريّة : نسبة إلى العنبر ، من الطيب ، وهو مادّة صلبة ، لا طعم لها ، ولا ريح إلا إذا سحقت ، أو أحرقت ، ويقال إنه روث دابّة بحريّة .

وَقَفْنَا فَسَلَّمْنَا ، فَرَدَّتْ بِأَلْسُنٍ صَوَامِتَ ، إِلَّا أَنَّهَا أَلْسُنٌ لُدٌّ(١٢)
فَمِنْ مُقْلَةٍ عَبْرَى، وَمِنْ لَفْحِ زَفْرَةٍ لها شَرَرٌ بَيْنَ الْحَشَا ما لَهُ زَنْدُ(١٣)
فَيَا قَلْبُ صَبْرًا إنْ أَلَمَّ بِكَ النَّوَى فَكُلُّ فِراقٍ أَوْ تَلاقٍ لَهُ حَدُّ(١٤)
فَقَدْ يُشْعَبُ الْإِلْفَانِ أَدْنَاهُمَا الْهَوَى ويَلْتَئِمُ الضِّدَّانِ أَقْصَاهُمَا الْحِقْدُ(١٥)
عَلَى هَذِهِ تَجْرِى اللَّيَالِى بِحُكْمِهَا فَآوِنَةً قُرْبٌ ، وَآوِنَةً بُعْدُ(١٦)
وماكُنْتُ لَوْلَا الْحُبُّ أَخْضَعُ لِلَّتى تُسِيءُ ، ولكِنَّ الْفَتَى لِلْهَوَى عَبْدُ(١٧)
فَعُودِىَ صُلْبٌ لَا يَلِينُ لِغَامِزٍ وَقَلْبِىَ سَيْفٌ لَا يُفَلُّ لَهُ حَدُّ(١٨)
إباءٌ كَمَا شَاءَ الْفَخَارُ وَصَبْوَةٌ يَذِلُّ لَهَا فى خِيسِهِ الْأَسَدُ الْوَرْدُ(١٩)

---

(١٢) ألسن : جمع لسان . وصوامت : جمع صامتة ، أو جمع صامت : أى ساكت . ولدّ : جمع ألدّ : صفة من اللدد ، وهو شدة الخصومة ، والمراد أن رسومها كانت واضحة الدلالة كأنها تنطق بما مضى من أحوال أهلها بفصاحة ولسن .

(١٣) المقلة : شحمة العين التى تجمع سوادها وبياضها . وعبرى : يجرى دمعها حزناً . واللفح : مصدر لفحته النار والسموم بحرها : أى أحرقته ، (وبابه قطع) . والزفرة : اسم من الزفير ، وهو إخراج النفس طويلا ممدوداً ، أو من زفرت النار إذا سمع لتوقدها صوت . والشرر : ما يتطاير من النار ، الواحدة شررة . والحشا : ما اشتملت عليه الضلوع ، أو ما حواه البطن . والزند : العود الذى تقدح به النار .

(١٤) ألمّ به : نزل . والنوى : البعد ، والتحول من مكان إلى مكان آخر ، وهى مؤنثة . ومعنى الشطر الثانى : أنه لا بدّ للفراق من نهاية يكون بعدها التلاقى ، ولا بدّ للتلاقى من نهاية يكون بعدها الفراق.

(١٥) يشعب (بالبناء للفاعل ، أو بالبناء للمفعول) مضارع شعب المجتمعان (من باب قطع) : أى تفرقا . وشعبهما أى فرقهما : والإلفان : مثنى إلف : وهو الأليف ، صفة من ألفت الشىء (من باب علم) : إذا أنست به ، وأحببته . وأدناهما : قربهما . والهوى : الحبّ . ويلتئم : يجتمع . والضدّان : المختلفان . وأقصاهما : باعد بينهما . والحقد : الضغن ، والانطواء على العداوة والبغضاء .

(١٦) على هذه : أى على هذه السنّة والحال . وآونة : جمع أوان ، وهو الحين والوقت .

(١٧) الهوى : الحبّ .

(١٨) يقال : هو صلب العود : إذا كان قوىّ الشكيمة ، ماضى العزم . وغامز : اسم فاعل من غمز الرجل العود ونحوه (من باب ضرب) : إذا جسّه ليعرف لينه من صلابته . ومعنى لا يلين لغامز : أنه ليس فيه ضعف ولا عيب . ويفلّ : يثلم . وحدّ السيف : شفيره ، وطرفه ، وحرفه القاطع .

(١٩) الإباء : مصدر أبى الإنسان الشىء يأباه (بالفتح فيهما) : أى كرهه ، وامتنع منه ، والمراد كراهية الضيم ، والامتناع عن قبول الظلم . والفخار : الفخر ، وهو التمدّح بحميد الخصال كالافتخار . والصبوة : =

وَإِنَّا أُنَاسٌ لَيْسَ فِينَا مَعَابَةٌ ... سِوَى أَنَّ وادِينَا بِحُكْمِ الْهَوَى نَجْدُ (٢٠)

نَلِينُ ـ وَإِنْ كُنَّا أَشِدَّاءَ ـ لِلْهَوَى ... وَنَغْضَبُ فى شَرْوَى نَقِيرٍ فَنَشْتَدُّ (٢١)

وَحَسْبُكَ مِنَّا شِيمَةٌ عَرَبِيَّةٌ ... هِيَ الْخَمْرُ مَالَمْ يَأْتِ مِنْ دُونِها حَرْدُ (٢٢)

وَبِى ظَمَأٌ لَمْ يَبْلُغِ الْماءُ رِيَّهُ ... وفِى النَّفْسِ أَمْرٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ الْجَهْدُ (٢٣)

أَوَدُّ وما وُدُّ امْرِئٍ نافِعاً لَهُ ... وإِنْ كانَ ذَا عَقْلٍ إِذَا لم يَكُنْ جَدُّ (٢٤)

= الفتوّة ، والسطاوة . وذلّ يذلّ (كخفّ يخفّ) : ضعف، وانكسر ، وخيس الأسد (بكسر الخاء) : موضعه ، وأصله الشجر الملتفّ ، أو ما كان حلفاء وقصباً . والورد (بفتح فسكون) : الجرىء ، أو هو ما كان بين الكيت والأشقر ، أو وردىّ اللون .

(٢٠) الأناس : الناس . والمعابة : العيب . والوادى : كل منفرج بين جبال أو تلال أو آكام يكون منفذاً للسيل . ونجد : من جزيرة العرب، وفى وسطها تقريباً ،وهو الجزء المحدود بين اليمن وتهامة والحجاز والشام والعراق . وهو يشير بالشطر الثانى من هذا البيت إلى أن حبّه عفيف عذرىّ ؛ فقد اشتهر أهل نجد بالحبّ العذرىّ العفيف ، وفى البيت تأكيد المدح بما يشبه الذم .

(٢١) أشدّاء : جمع شديد ،وهو الصلب الشجاع . والشروى : المثل . والنقير : النكتة فى ظهر النواة كالنقرة ، وشروى نقير : مثل يضرب للقلة .

(٢٢) حسبك : يكفيك . وشيمة : خلق وغريزة وطبيعة وجبلّة . والحرد : الغضب، مصدر حرد (كضرب وسمع) .

يشبّه طبائع قومه بالخمر فى السلاسة، والسهولة ، والرقة ،والصفاء ، ويقول : إنها طبائع عربيّة كريمة تلين إذا رضيت ، وتشتدّ إذا غضبت .

(٢٣) الظمأ : العطش أو أشدّه . والرىّ : مصدر روى من الماء (كرضى) ريّاً (بكسر الراء وفتحها) . ويدركه : يلحقه . والجهد : الجدّ والاجتهاد ، مصدر جهد فى الأمر (من باب نفع) أى جدّ فيه وبالغ . يقول : إن به ظمأ لا يرويه الماء ؛ لأنه ظمأ إلى غاية من المجد لا تكاد تنال ، كما أن فى نفسه حاجة لا يحققها الجدّ والاجتهاد .

والمعنى : أنّ همّته فى الحياة أبعد من سعيه ، وأنّ أمله أرفع من عمله .

(٢٤) أودّ : أحبّ وأتمنّى ، ومصدره الودّ (بتثليث الواو) . والجدّ (بفتح الجيم) : الحظ والحظوة والرزق .

يقول : إنه يودّ أن يصل فى الحياة إلى الغاية التى يريدها لنفسه ، ولكنّ الودّ والتمنّى والعقل والتدبير لا يفيد إلا إذا ساعده الحظّ .

وَمَا بِيَ مِنْ فَقْرٍ لِدُنْيَا ، وَإِنَّمَا طِلَابُ الْعُلَا مَجْدٌ ، وَإِنْ كَانَ لِي مَجْدُ (٢٥)
وَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلّهِ عِنْدِي وَنِعْمَةٍ يَعَضُّ عَلَيْهَا كَفَّهُ الْحَاسِدُ الْوَغْدُ (٢٦)
أَنَا الْمَرْءُ لَا يُطْغِيهِ عِزٌّ لِثَرْوَةٍ أَصَابَ ، وَلَا يُلْوِي بِأَخْلَاقِهِ الْكَدُّ (٢٧)
أَصُدُّ عَنِ الْمَوْفُورِ يُدْرِكُهُ الْخَنَا وَأَقْنَعُ بِالْمَيْسُورِ يَعْقُبُهُ الْحَمْدُ (٢٨)
وَمَنْ كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِي تَصَدَّعَتْ لِعِزَّتِهِ الدُّنْيَا ، وَذَلَّتْ لَهُ الْأُسْدُ (٢٩)
وَمِنْ شِيَمِي حُبُّ الْوَفَاءِ سَجِيَّةً وما خَيْرُ قَلْبٍ لَا يَدُومُ لَهُ عَهْدُ ؟ (٣٠)
ولَكِنَّ إِخْوَاناً بِمِصْرَ وَرُفْقَةً نَسُونَا ، فَلَا عَهْدٌ لَدَيْهِمْ ، ولا وَعْدُ (٣١)

---

(٢٥) الطلاب (بوزن الكتاب) : ما تطلبه من غيرك ، ومصدر طالبته مطالبة وطلاباً . والعلا : جمع عليا ، مثل كبرى وكبر . والمجد : العزّ والشرف .
يقول : لست فقيراً إلى عرض من أعراض الدنيا ، وإنما أرى المجد فى طلب العلا وإن كنت ماجداً .

(٢٦) يد الله تبارك وتعالى : نعمته ومنّته . والوغد : الدنىء .
يقول : إن الله تبارك وتعالى قد أنعم عليه بنعم كثيرة ، تثير غيظ الحاسد الدنىء ، فيعضّ كفه عليها حسرة وغماً .

(٢٧) يطغيه : يحمله على الطغيان : وهو مجاوزة الحدّ . وأصاب ثروة : حصّلها ونالها . ولا يلوي بأخلاقه : لا يذهب بها ، أى لا يعوّجها ، والكدّ : الشدّة فى العمل ، وطلب الكسب ، (وبابه ردّ) . يتمدّح بكرم أخلاقه فى الرخاء والشدّة ، واليسر والعسر .

(٢٨) أصدّ : أعرض وأنصرف . والموفور : الشيء التامّ ، والمراد المال الكثير . ويدركه : يلحقه . والخنا : الفحش ، (وبابه صدى) . والميسور : الميسّر السهل . والشاعر يريد به اليسير : وهو القليل الهينّ ، ليطابق بينه وبين الموفور .

(٢٩) تصدّعت : تشقّقت أو تفرّقت ، والمراد دانت وخضعت . والأسد : جمع أسد .

(٣٠) الشيم : جمع شيمة (بكسر الشين) وهى الخلق والغريزة والطبيعة والجبلة التى خلق الإنسان عليها . ومثلها السجيّة . والعهد : الوفاء والموثق والحفاظ ورعاية الحرمة والذمّة .
يقول : إنّ حبّ الوفاء طبيعة من طبائعه ، ولا خير فى قلب لا يدوم له وفاء .

(٣١) الرفقة (بضم الراء وكسرها) : الرفقاء والأصحاب ، وأصلها الجماعة ترافقهم فى سفرك . والوعد مصدر وعده يعده وعداً وعدة ، وأكثر ما يستعمل الوعد فى الخير .

أَحِنُّ لَهُمْ شَوْقاً ؛ عَلَى أَنَّ دُونَنَا مَهامِهَ تَعْيَا دُونَ أَقْرَبِها الرُّبْدُ(٣٢)

فَيَا ساكِنِي الْفُسْطَاطِ ! مابالُ كُتْبِنَا ثَوَتْ عِنْدَكُمْ شَهْراً وَلَيْسَ لها رَدُّ(٣٣)؟

أَفِي الْحَقِّ أَنَّا ذاكِرُونَ لِعَهْدِكُمْ وأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَيْسَ يَعْطِفُكُمْ وُدُّ(٣٤)؟

فلا ضَيْرَ ، إِنَّ اللهَ يُعْقِبُ عَوْدَةً يَهُونُ لَهَا بَعْدَ الْمُواصَلَةِ الصَّدُّ(٣٥)

جَزَى اللهُ خَيْراً مَنْ جَزانِي بِمِثْلِهِ عَلَى شُقَّةٍ غَزْرُ الْحَيَاةِ بها ثَمْدُ(٣٦)

أَبِيتُ لِذِكْراكُمْ بها مُتَمَلْمِلًا كَأَنِّي سَلِيمٌ ،أَوْ مَسَّتْ نَحْوَهُ الْوِرْدُ(٣٧)

---

(٣٢) أحنّ : أشتاق ، من الحنين : وهو الشوق ، وتوقان النفس . والمهامه : جمع مهمه وهو المفازة البعيدة : أى الصحراء الواسعة المهلكة . وتعيا ، (بوزن تحيا) : تعجز وتضعف . والربد : النعام ، يقال : ظليم أربد ، ونعامة ربداء : إذا كان لونها كلون الرماد .

(٣٣) الفسطاط : اسم مصر القديمة التى بناها عمرو بن العاص لما فتح مصر سنة ٢١ هـ (٦٤١م) ، وهو فى الأصل : السرادق ، ومجتمع أهل الكورة . وما بال ؟ : ما شأن وما حال ؟ ، والكتب (بضمتين) : جمع كتاب : وهو الرسالة ، وسكنت التاء لضرورة وزن الشعر . وثوت : أقامت .

(٣٤) العهد : الوفاء والالتقاء والمعرفة والموثق . وعطفه : ثناه وأماله (وبابه ضرب) ، والعطف : الحنان والإشفاق . والود (بتثليث الواو) : المحبة والمودة . يقول : إنه ليس من الحق أننا نحفظ عهدكم ، ونراعى الوفاء لكم فى حين أنه ليس فيكم من الود ما يعطفكم علينا ، ويميلكم إلينا .

(٣٥) لا ضير : لا ضرر ، أى فى البعد والقطيعة . ويعقب عودة : يأتى بعد هذا السفر بعودة . ويهون : يسهل ويخف . والمواصلة : الوصال . وضده الصد ، والصدود : وهو الإعراض ، والقطيعة ، والهجران . يقول : إنه لا ضرر فيما أقاسيه من جفاء أصحابى وقطيعتهم ؛ فإن الله تعالى هو المرجو أن يختم هذا الفراق بعود حميد يصلنى بعده أصدقائى ، فيهون ما كان بيننا من صد وإعراض .

(٣٦) جزاه الله خيراً : قضاه له ، وأثابه عليه . والشقة (بضم الشين) : البعد والسفر البعيد ، والمشقة ، والناحية يقصدها المسافر . والغزر : مصدر غزر الماء ونحوه (ككرم) غزارة وغزراً (بفتح فسكون ، أو بضم فسكون) أى كثر ، فهو غزير ، والثمد (بفتح الثاء وسكون الميم) : الماء القليل ؛ أو ما يظهر فى الشتاء ، ويذهب فى الصيف .

يقول : جزى الله خيراً من جزانى بالخير ، ووصلنى ببره ووفائه على هذه الشقة التى تقل فيها ظواهر الحياة ، وأسباب العمران .

(٣٧) الذكرى : اسم من ذكرته الشيء ، وأذكرته إياه ، أو من ذكرته بلسانى وبقلبى : ضد نسيته . وبها : أى بالشقة المذكورة فى البيت السابق . ومتململا : متقلباً ضجراً ؛ بسبب الوجد والغم . والسليم : من لدغته الحية . والورد (بكسر الواو) : من أسماء الحمى .

فَلا تَحْسَبُونِي غافِلًا عَنْ وِدادِكُمْ ... رُوَيْدًا ، فَما فى مُهْجَتِي حَجَرٌ صَلْدُ(٣٨)
هُوَ الْحُبُّ لا يَثْنِيهِ نَأْىٌ ، ورُبَّمَا ... تَأَرَّجَ مِنْ مَسِّ الضِّرامِ لَهُ النَّدُّ(٣٩)
نَأَتْ بِىَ عَنْكُمْ غُرْبَةٌ ، وتَجَهَّمَتْ ... بِوَجْهِىَ أَيَّامٌ خَلائِقُهَا نُكْدُ(٤٠)
أَدُورُ بِعَيْنِى لا أَرَى غَيْرَ أُمَّةٍ ... مِنَ الرُّوسِ بِالْبَلْقَانِ يُخْطِئُهَا الْعَدُّ(٤١)
جَوَاثٍ عَلَى هَامِ الْجِبالِ لِغَارَةٍ ... يَطِيرُ بِها ضَوْءُ الصَّبَاحِ إِذَا يَبْدُو(٤٢)
إِذَا نَحْنُ سِرْنَا صَرَّحَ الشَّرُّ بِاسْمِهِ ... وَصَاحَ الْقَنَا بِالْمَوْتِ ، واسْتَقْتَلَ الْجُنْدُ(٤٣)

(٣٨) لا تحسبونى : لا تظنّونى . والوداد (بتثليث الواو) : المودّة والحبّ . ورويداً : مهلا . والمهجة : الدم ، أو دم القلب ، أو الروح . والمراد القلب . وصلد (بفتح فسكون) : صلب . يقول : إنّ قلبه ليس صلباً ؛ فهو لهذا لا يغفل عن وداد أصحابه .

(٣٩) ثناه يثنيه (من باب رمى) : صرفه وكفّه . والنأى : البعد . وتأرّج الطيب : فاح ، وتوهّجت ريحه . والمسّ : مصدر مسّ الشيء يمسّه (من باب فهم) . والضرام (بكسر الضاد) : اشتعال النار فى الحلفاء ونحوها ، أو هو ما اشتعل من الحطب ، والمراد بالضرام (هنا) : النار . والندّ : عود طيّب الرائحة يتبخّر به ، أو هو نوع من الطيب ، أو هو العنبر .
يقول : إن الحب لا يضعفه البعد المؤلم المحرق ، بل يزيده ويهيجه ، كالندّ تتوهّج ريحه إذا مسّته النار .

(٤٠) نأت : بعدت . والغربة (بضم فسكون) : الاغتراب والبعد . وتجهّم فلان فلاناً : استقبله بوجه باسر كريه كالح مكفهرّ ، أو أغلظ له فى القول . يقال : تجهمنى فلان بما أكره ، وجهمنى به . ومن المجاز قولهم : الدهر يتجهّم الكرام . وخلائقها : طبائعها مفردها خليقة . ونكد : مشئومة عسرة . وهى جمع نكداء ، صفة من النكد (بفتحتين) .

(٤١) يخطئها العدّ : كناية عن كثرتها .

(٤٢) جواث : جاثيات ، جمع جاثية : اسم فاعل من جثا (كدعا ورمى) : إذا جلس على ركبتيه ، وجواث صفة لأمّة فى البيت السابق ، وقد ضمّنت معنى الجمع . وهام الجبال : رءوسها . مفردها هامة : وهى رأس كلّ شىء . والغارة : اسم من أغار على العدوّ يغير إغارة ، أى هجم عليه ، أو دفع عليه الخيل . ويبدو : يظهر ، ومعنى الشطر الثانى : أنه إذا بدا الصبح انتشرت الغارة حتى كأنّ ضوء الصباح هو الذى دفعها إلى السرعة والانتشار .

(٤٣) صرّح الشرّ باسمه : ظهر وبان . وهذا كناية عن اشتداد القتال . وصاح : صوّت . والقنا : جمع قناة : وهى الرمح . وصياح القنا بالموت : دعاه وناداه . واستقتل : استسلم للقتل ، واستمات ، ولم يبال بالموت لشجاعته .

فَأَنْتَ تَرَى بيْنَ الْفَرِيقَيْنِ كَبَّةً ... يُحَدِّثُ فيها نَفْسَهُ الْبَطَلُ الْجَعْدُ (٤٤)

عَلَى الأَرْضِ مِنْها بالدِّماءِ جَدَاوِلٌ ... وَفَوْقَ سَرَاةِ النَّجْمِ مِنْ نَقْعِهَا لِبْدُ (٤٥)

إِذَا اشْتَبَكُوا ، أَوْرَاجَعُوا الزَّحْفَ خِلْتَهُمْ ... بُحُورًا تَوَالَى بَيْنَها الْجَزْرُ والْمَدُّ (٤٦)

نَشُلُّهُمْ شَلَّ الْعِطَاشِ وَنَتْ بِهَا ... مُرَاغَمَةُ السُّقْيَا ، وَمَاطَلَهَا الْوِرْدُ (٤٧)

فَهُمْ بَيْنَ مَقْتُولٍ طَرِيحٍ ، وهَارِبٍ ... طَلِيحٍ ، ومَأْسُورٍ يُجَاذِبُهُ الْقِدُّ (٤٨)

نَرُوحُ إِلَى الشُّورَى إِذَا أَقْبَلَ الدُّجَى ... ونَغْدُو عَلَيْهِمْ بالْمَنَايَا إِذَا نَغْدُو (٤٩)

وَنَقْعٍ كَلُجِّ الْبَحْرِ خُضْتُ غِمَارَهُ ... ولا مَعْقِلٌ إِلَّا الْمَنَاصِلُ والْجُرْدُ (٥٠)

(٤٤) الكبة (بفتح الكاف وضمها) : الدفعة فى القتال ، والحملة فى الحرب . والبطل : الشجاع. والجعد (بفتح فسكون) : الكريم الجواد .

يقول : فأنت ترى بين الفريقين المتحاربين حملة شديدة يحدّث فيها الشجاع نفسه بالفرار .

(٤٥) جداول : جمع جدول ، وهو النهر الصغير . وسراة النجم : أعلاه . والنقع : الغبار . واللبد (بكسر فسكون) : ما يتلبد من شعر أو صوف .

(٤٦) المراجعة : المعاودة . والزحف : مصدر زحف إليه (من باب قطع) : أى مشى . وخلتهم : ظننتهم . وتوالى : تتابع . والجزر : انخفاض الماء ، ورجوعه إلى الخلف . والمدّ : ضدّ الجزر ، وهو ارتفاع الماء ، وكثرته ، وإقباله نحو الشاطئ .

(٤٧) نشلّهم : نطردهم ونسوقهم ونفرّقهم ، (وبابه ردّ) . والعطاش : جمع عطشان ، أو جمع عطشى . ونت : ضعفت وفترت . والمراغمة : الهجران والتباعد والمفارقة . والسقيا : السقى ، اسم من سقانا الله الغيث ، وأسقانا . وماطلها : طوّل لها ، وأمهلها ، كالمماطلة بالدين ، وهى التسويف بالوعد ، وتأخير الوفاء . والورد : النصيب من الماء ، أو الإشراف عليه .

والمعنى : أن أعداءنا يهجمون علينا بعنف وشدّة ، كما تهجم العطاش على الماء بعد طول الظمأ ، فنردّ هجمتهم ، وندفع صولتهم .

(٤٨) طريح : مطروح : أى مُلْقًى على الأرض . وطليح : متعب مُعْيٍ (بضم فسكون) . ومأسور : أسير . ويجاذبه : ينازعه ، ويحوّله عن موضعه . والقدّ : سير يقدّ : أى يقطع ويشقّ من جلد غير مدبوغ ويقيد به الأسير ونحوه .

(٤٩) نروح : نعود وقت المساء . والشورى (بضم الشين) : اسم من تشاور القوم إذا تبادلوا الآراء فيما بينهم ، ولم يستبدّ بالأمر أحد منهم . والدجى : جمع دجية (بضم فسكون) : وهى الظلمة . ونغدو عليهم : نباكرهم : أى نسرع إليهم فى البكرة : وهى أوّل النهار . والمنايا : جمع منيّة : وهى الموت.

(٥٠) النقع : الغبار الذى تثيره سنابك الخيل وحركات المتحاربين فى ساحة الوغى . واللجّ (بالضم) : معظم الماء كاللجّة . وخضت : سرت ومشيت ، خاض الرجل الماء (من باب قال) : مشى فيه راجلاً

صَبَرْتُ لَهُ وَالْمَوْتُ يَحْمَرُّ تَارَةً ... وَيَنْغَلُّ طَوْرًا فِي الْعَجَاجِ فَيَسْوَدُّ (٥١)

فَمَا كُنْتُ إِلَّا اللَّيْثَ أَنْهَضَهُ الطَّوَى ... وَمَا كُنْتُ إِلَّا السَّيْفَ فَارَقَهُ الْغِمْدُ (٥٢)

صَئُولٌ وَلِلْأَبْطَالِ هَمْسٌ مِنَ الْوَنَى ... ضَرُوبٌ وَقَلْبُ الْقِرْنِ فِي صَدْرِهِ يَعْدُو (٥٣)

فما مُهْجَةٌ إِلَّا وَرُمْحِي ضَمِيرُهَا ... ولا لَبَّةٌ إِلَّا وَسَيْفِي لَهَا عِقْدُ (٥٤)

وَمَا كُلُّ ساعٍ بَالِغٌ سُؤْلَ نَفْسِهِ ... وَلاَ كُلُّ طَلَّابٍ يُصَاحِبُهُ الرُّشْدُ (٥٥)

إِذَا الْقَلْبُ لَمْ يَنْصُرْكَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... فَمَا السَّيْفُ إِلَّا آلَةٌ حَمْلُهَا إِدُّ (٥٦)

= أو راكباً. والغمار (بكسر الغين): جمع غمر (بفتح فسكون) وهو الماء الكثير، أو معظم البحر. والمعقل: الملجأ. والمناصل: جمع منصل (بضم الصاد وفتحها) وهو السيف. والجرد: جمع أجرد: وهو الفرس السبّاق، أو هو ما كان قصير الشعر رقيقه، وهذا من الصفات المستحسنة في الخيل.

(٥١) صبرت له: أي النقع المذكور في البيت السابق، والمكنّى به عن شدّة الحرب واستعار نارها. واحمرار الموت: كناية عن كثرة القتل، وجريان الدماء. وينغلّ: يدخل. والطور: المرّة والحين والتارة. والعجاج (بفتح العين): الغبار والدخان.

(٥٢) الليث: الأسد. والطوى: الجوع، (وبابه صدى). وغمد السيف (بكسر الغين): جفنه الذي يتوارى فيه.

يقول: إنه في الحرب أسد هيّجه الجوع، وسيف مسلول.

(٥٣) صئول: صفة من صؤل (ككرم) صآلة: أي وثب مقاتلا. والأبطال: جمع بطل: وهو الشجاع. والهمس: الصوت الخفيّ. والونى: الضعف والفتور والكلال والإعياء. وضروب: صيغة مبالغة من الضرب. والقرن (بكسر فسكون): كفؤك في الشجاعة، ومن يقاومك في قتال وغيره. ويعدو: يجري، وعدو القلب في الصدر: كناية عن شدّة الخوف والاضطراب.

(٥٤) المهجة: الدم، أو دم القلب، أو الروح، والمراد بها هنا: القلب. والضمير: باطن الإنسان، وسرّه، وما يضمره في نفسه، وهذا كناية عن أن رمحه يشقّ القلوب، ويفتك بالأنفس. واللبّة (بوزن الحبّة): موضع القلادة من الصدر. والعقد (بكسر فسكون): القلادة، وهذا أيضاً كناية عن كثرة تقتيله لأعدائه في هذه الحرب.

(٥٥) السؤل (بضم فسكون): ما يسأله الإنسان. وطلّاب: صيغة مبالغة من الطلب. والرشد والرشاد: الهدى والصلاح، والتوفيق والسداد، وهو ضدّ الغيّ والضلال.

(٥٦) الموطن: المكان. وقد يطلق الموطن على المشهد من مشاهد الحرب، قال الله تعالى: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» الآية رقم ٢٥ من سورة التوبة. والإدّ (بكسر الهمزة وتشديد الدال): العجب، والأمر الفظيع، والداهية، والمنكر. والمعنى: أن أسلحة القتال لا قيمة لها، ولا غناء فيها إلا إذا كانت في يد محارب شجاع مقدام، شديد البأس، قويّ المراس. =

إذا كانَ عُقْبَى كُلِّ شَيْءٍ وإِنْ زَكَا ... فَنَاءً ، فَمَكْرُوهُ الْفَنَاءِ هُوَ الْخُلْدُ(٥٧)

وتَخْلِيدُ ذِكْرِ الْمَرْءِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ... حَيَاةٌ لَهُ ، لا مَوْتَ يَلْحَقُها بَعْدُ(٥٨)

فَفِيمَ يَخَافُ الْمَرْءُ سَوْرَةَ يَوْمِهِ ... وفى غَدِهِ ما لَيْسَ مِنْ وَقْعِهِ بُدُّ(٥٩)

لِيَضْنَ بِيَ الْحُسَّادُ غَيْظاً ، فَإِنَّنِى ... لآنافِهِمْ رَغْمٌ وأَكْبادِهِمْ وَقْدُ(٦٠)

أَنَا القائِلُ الْمَحْمُودُ مِنْ غَيْرِ سُبَّةٍ ... ومِنْ شِيمَةِ الْفَضْلِ الْعَدَاوَةُ والضَّدُّ(٦١)

فَقَدْ يَحْسُدُ الْمَرْءُ ابْنَهُ وَهْوَ نَفْسُهُ ... ورُبَّ سِوَارٍ ضَاقَ عَنْ حَمْلِهِ الْعَضْدُ(٦٢)

= فإذا لم تكن جريئاً فى غمرات الحروب ، والمواطن التى تتطلب الجرأة والإقدام ، لم يكن السلاح فى يدك غير أداة حملها إدٌّ منكر .

(٥٧) العقبى : جزاء الأمر ، والمراد بالعقبى (هنا) : العاقبة : وهى آخر كلّ شىء . وزكا : وزاد . والخلد : الدوام والبقاء ، كالخلود .

يقول : إذا كان الفناء نهاية كلّ شىء وإن زاد ونما ، فإنّ هذا الفناء المكروه هو الدوام والبقاء .
والمعنى : فلا ينبغى أن يكون مكروهاً ، ولا يحسن أن نبالى بالموت .

(٥٨) يقول : إنّ المرء بعد موته يحيا بذكراه وأعماله الحميدة وآثاره الخالدة حياة دائمة مستمرّة .

(٥٩) السورة (بفتح فسكون) : الغضب والسطوة والشدّة والحدّة .

يقول : إنه لا معنى لأن يجبن الإنسان ، ويخشى سطوة الزمن الحاضر ما دام معرّضاً فى مستقبله لأمور لا يستطيع دفعها كالموت .

(٦٠) ضنى (كرضى) ضنى (بفتح الضاد والنون) : مرض مرضاً مخامراً كلّما ظنّ برؤه نكس . وآناف : جمع أنف ، ورغم : قسر وذلّ وقهر ، وأصله من أرغم الله تعالى أنفه : أى ألصقه بالرغام وهو التراب . والوقد : النار ، أو اتّقادها .

(٦١) السبّة : العيب والعار الذى يسبّ به صاحبه . والشيمة : الخلق والغريزة والطبيعة والجبلة . والضدّ (بفتح الضاد) : مصدر ضده فى الخصومة (من باب رد) : أى غلبه . يتمدّح بأنه القائل الفصيح البليغ المحمود المثنى على شجاعته وأدبه وفضله ، وأنه لم يلحقه فى أقواله وأعماله عيب ولا عار ، ثم يقول إن من طبيعة الفضل أن يعادى ويخالف ويخاصم .

والمعنى أنّ الأفاضل معرّضون دائماً لحسد المقصّرين وخصومتهم وعداوتهم .

(٦٢) حسده (كقتله ، وضربه) : إذا كره النعمة عند المحسود ، وتمنّى زوالها عنه . والسوار (بكسر السين وضمها) من الحلىّ : ما تزين به المرأة معصمها ، وجمعه أسورة وأساور ، قال الله تعالى : =

فَلَا زِلْتُ مَحْسُودًا عَلَى الْمَجْدِ والْعَلَا ... فَلَيْسَ بِمَحْسُود فَتًى ولَهُ نِدُّ(٦٣)

* * *

نُشِرتْ هذه القصيدة فى الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفىّ : ص ٤٩٨ – ٥٠٠ ج ٢ وعدد أبياتها فيها اثنان وستون بيتاً ، بسقوط البيت الثامن والخمسين ، وهو :

وَتَخْلِيدُ ذِكْرِ الْمرْءِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ... حَيَاةٌ لَهُ ، لامَوْتَ يَلْحَقُهَا بَعْدُ

وفيما يَلى إحصاءٌ للكلمات والأبيات التى جاءتْ فى الوسيلة الأدبيّة مخالفةً لما جاء فى أصل الديوان :

فى الشطر الثانى من البيت التاسع : «وأَضْحَتْ» . وفى أصل الديوان : «وأَمْسَتْ» .

وفى الشطر الأول من البيت الرابع عشر : «أَضَرَّ» . وفى أصل الديوان : «أَلَمَّ» .

ورواية الوسيلة الأدبيّة للبيت الثلاثين :

وَمِنْ شِيمَى حُبُّ الْوَفاء ، ولم يَكُنْ ... لِيَخْلُص وُدٌّ لم يَحُطْهُ الْوَفَا بَعْدُ

وروايتها للبيتِ الواحد والثلاثين :

ولَكِنَّ إخْوَاناً بِمِصْرَ ورُفْقَةً ... نَسُوا عَهْدَنَا حَتَّى كَأَنْ لم يَكُنْ عَهْدُ

وفى الشطر الثانى من البيت التاسع والأربعين : «بالسيوف» . وفى أصل الديوان : «بالمنايا» .

= «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» الآية رقم ٣١ من سورة الكهف . والعضد : ما بين المرفق إلى الكتف .

يقول : إنّ المرء قد يغالى ويفرط فى الحسد، ويعمى عن الحقّ والرشاد فيحسد ابنه ، ويتمنّى زوال نعمته ، مع أنه جزء منه؛ فهو فى الحقيقة يحسد نفسه ، كالمعصم يضيق بحمل السوار الذى يجمّله ويزينه . والشاعر يسلّى نفسه بهذا البيت ، ويرمى الحاسدين بالغىّ والضلال المبين .

(٦٣) المجد : العزّ والشرف . والعلا : جمع عليا ، صفة من العلاء : وهو والرفعة والشرف . والندّ : المثل والنظير .

يدعو لنفسه أن يبقى محسوداً على مجده وعلاه . ويقول: إن الناس لا يحسدون من له فى فضله ندّ ، وإنّما يحسدون العظيم المنقطع النظير .

وفى الشطر الأول من البيت الواحد والخمسين : « به » . وفى أصل الديوان « له » .

وفى الشطر الأول من البيت الواحد والستين « المحسود » . وفى أصل الديوان : « المحمود » .

ويلاحظ أنّ الجزء الثانى من الوسيلة الأدبيّة طبع سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥ م) وأنّ البارودىّ عاد إلى ديوان شعره بالتنقيح والتهذيب بعد عودته من سرنديب سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩ م) .

وَقَالَ فى يَوْمِ عِيدِ الْفِطْرِ وَهُوَ فى تِلْكَ الْحَرْبِ :

أَرَاكَ الْحِمَى ، ! شَوْقِى إِلَيْكَ شَدِيدُ ... وَصَبْرِى وَنَوْمِى فى هَوَاكَ شَرِيدُ[1]

مَضَى زَمَنٌ لَمْ يَأْتِنِى عَنْكَ قَادِمٌ ... بِبُشْرَى، وَلَمْ يَعْطِفْ عَلَىَّ بَرِيدُ[2]

وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَّانِ فى أَرْضِ غُرْبَةٍ ... أَلَا كُلُّ مَنْ يَبْغِى الْوَفَاءَ وَحِيدُ[3]

فَهَلْ لِغَرِيبٍ طَوَّحَتْهُ يَدُ النَّوَى ... رُجُوعٌ ؟ وَهَلْ لِلْحَائِمَاتِ وُرُودُ ؟[4]

وَهَلْ زَمَنٌ وَلَّى ، وَعَيْشٌ تَقَيَّضَتْ ... غَضَارَتُهُ بَعْدَ الذَّهَابِ يَعُودُ ؟[5]

---

(١) الأراك : الحمض (بفتح فسكون) ، وهو كلّ نبات فيه ملوحة ومرارة ، أو الأراك شجر من الحمض يستاك بقضبانه ، الواحدة أراكة . والحمى: المكان المحمىّ ، أى المحظور الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه ، ويريد بأراك الحمى : موطنه بمصر . والهوى: الحب . وشريد : نافر نادّ ، صفة من شرد البعير (من باب قعد) : إذا ندّ ونفر ، وذهب على وجهه .

(٢) البشرى: اسم من بشّره بالشىء تبشيراً : أى فرّحه وسرّه . ويعطف : يميل . والبريد : الرسول .

(٣) وحيد : منفرد . والخلاّن (بضم الخاء) : جمع خليل : وهو الصديق . ويبغى : يطلب . ومعنى الشطر الثانى: أن الإنسان فى سبيل الوفاء لبلاده قد يضطر إلى الاغتراب، والانفراد عن أهله وأصحابه .

(٤) طوّحته : قذفته . والنوى : البعد . والحائمات : جمع حائمة ، اسم فاعل من حام الطير على الماء حوماً (بفتح فسكون) وحوماناً (بفتحتين) : أى دار بهودوم ، وكلّ عطشان حائم . والورود : مصدر ورد البعير وغيره الماء : إذا بلغه ووافاه . والاستفهام فى هذا البيت للتمنى .

يتمنى لغريب مثله قذفته يد البعد رجوعاً إلى وطنه ، ثم يشبّه نفسه بالطير العطاش الحائمة حول الماء ، ويتمنى لها أن تبلغه وتوافيه .

(٥) ولّى : ذهب وأدبر . والعيش : المعيشة والحياة . وتقيّضت : ذهبت وزالت ، وأصلها من تقيّض الجدار أو الكثيب : إذا تهدم وانهال . والغضارة : النعمة ، والسعة ، والخصب .

أُعَلِّلُ نَفْسِي بالقَدِيمِ ، وَإِنَّما يَلَذُّ اقْتِبالُ الشَّيْءِ وَهْوَ جَدِيدُ(٦)

وَمَا ذِكْرِيَ الأَيَّامَ إلَّا لأَنَّها ذِمَامٌ لِعِرْفانِ الصِّبَا وعُهودِ(٧)

فَلَيْسَ بِمَفْقُودٍ فَتًى ضَمَّهُ الثَّرَى ولكِنَّ مَنْ غَالَ البِعادُ فَقِيدُ(٨)

أَلَا أَيُّها اليَوْمُ الَّذِي لَمْ أَكُنْ لَهُ ذَكُورًا ،سِوَى أَنْ قِيلَ لِي هُوَ عِيدُ(٩)

أَتَسْأَلُنَا لُبْسَ الجَدِيدِ سَفَاهَةً وأَثْوابُنَا ما قَدْ عَلِمْتَ حَدِيدُ؟(١٠)

فَحَظُّ أُناسٍ مِنْهُ كَأْسٌ وقَيْنَةٌ وحَظُّ رِجالٍ ذُكْرَةٌ وَنَشِيدُ(١١)

لِيَهْنَ بِهِ مَنْ باتَ جَذْلَانَ نَاعِماً أَخَا نَشَوَاتٍ ما عَلَيْهِ حَقُودُ(١٢)

---

(٦) علله بالطعام وغيره تعليلاً : شغله به وألهاه . ويلذّ : يكون لذيذاً شهيًّا مرغوباً فيه . (وبابه سلم) . والاقتبال : الاستقبال والاستئناف .

يقول : إنه يشغل نفسه ويلهيها بذكريات قديمة ، ليس فيها غناء ، ولا لذّة ، وإنما اللّذّة فى استقبال الشيء وهو جديد . يريد أنّ ذكريات السعادة والهناءة فى الأعياد الماضية ، وأيام السلم والرخاء لاتجدى فى مشاهد الحرب ، ومواطن القتال .

(٧) الذمام : الحرمة ، وما يذم الرجل على إضاعته ، كالعهد ونحوه. والعرفان : مصدر عرفت الشيء أعرفه معرفة وعرفاناً . والصبا : الصغر ، وهو أيضاً: الميل إلى الجهل والفتوّة ، والحنين إلى المحبوبة . والعهود : جمع عهد: وهو الموثق والحفاظ ورعاية الحرمة والذمة .

والمعنى : أنه لا يذكر الأيام الماضية إلا لأنّ فى ذكرها وفاء لزمان الصبا ، ورعاية لعهوده .

(٨) ضمّه الثرى : جمع أجزاء جسمه . والثرى : الأرض، أو التراب . وغاله : أهلكه كاغتاله . والبعاد (بكسر الباء) : البعد .

(٩) يقول : إنه لكثرة همومه وشواغله لم يذكر يوم عيد الفطر إلابعد أن ذُكّر به، ونُبّه عليه .

(١٠) سفاهة : مصدر سفه (بضم الفاء) ، والسفاهةوالسفه (بفتحتين) : نقص فى العقل ، وأصله الخفّة . يشير بصدر هذا البيت إلى ما يسن فى العيد من لبس الجديد ، ويريد بالحديد : الدروع ونحوها .

(١١) منه : أى من العيد. والأناس (بضم الهمزة) : لغة فى الناس. والكأس : الإناء يسوّيه ، قيل: ولا تسمّى كأساً إلا وفيها الشراب . والقينة : الأمة المغنّية ، أو الأمة مطلقاً . والذكرة (بضم فسكون) : يريد بها هنا: تذكّر من فارقهم من أحبابه . والنشيد : الشعر المنشود : أى المقروء .أو المتغنّى به .

يقول : إنّ نصيب ناس من هذا العيد شراب وغناء ولهو ومرح ، ونصيب أمثاله أسف الذكرى ، وإنشاد أشعار الحب والشوق والفراق .

(١٢) ليهن به : ليفرح ، وأصلها ليهنأ : مضارع هنئ (كفرح) وزنًا ومعنى ، وبه : بالعيد . وبات =

تَرَى أَهْلَهُ مُسْتَبْشِرِينَ بِقُرْبِهِ فَهُمْ حَوْلَهُ لا يَبْرَحُونَ شُهُودُ(١٣)
إِذَا سارَ عَنْهُمْ سارَ وَهْوَ مُكَرَّمٌ وإنْ عادَ فِيهِمْ عادَ وَهْوَ سَعِيدُ(١٤)
يُخَاطِبُ كُلاًّ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ فَمُبْدِئُ شُكْرٍ تَارَةً وَمُعِيدُ(١٥)
فَمَنْ لِغَرِيبٍ «سَرْنَسُوفُ» مُقَامُهُ رَمَتْ شَمْلَهُ الأَيَّامُ ، فَهْوَ لَهِيدُ(١٦)
بِلادٌ بِهَا ما بِالْجَحِيمِ ، وإِنَّمَا مَكَانَ اللَّظَى ثَلْجٌ بِهَا وجَلِيدُ(١٧)
تَجَمَّعَتِ الْبُلْغارُ والرُّومُ بَيْنَهَا وزَاحَمَهَا التَّاتَارُ ، فَهْيَ حُشُودُ(١٨)
إِذَا رَاطَنُوا بَعْضاً سَمِعْتَ لِصَوْتِهِمْ هَدِيدًا تَكَادُ الأَرْضُ مِنْهُ تَمِيدُ(١٩)

= جذلان : بات فرحاً مسروراً: صفة من الجذل (وبابه طرب).وناعماً: متنعّماً متمتّعاً . ونشوات : جمع نشوة(بفتح فسكون):وهي السكر . والحقود (بفتح الحاء) : الكثير الحقد،أو هو (بضم الحاء)جمع حقد (بكسر فسكون) ، مصدر حقد عليه (كضرب وفرح):أى أمسك عداوته فى قلبه ، وتربّص لفرصتها .

(١٣) لا يبرحون : لا يزايلون مجلسه ، ولا يفارقونه . وشهود : جمع شاهد : أى حاضر .

(١٤) التكريم : الإكرام والإعزاز . وعاد : رجع .

(١٥) يقول : إنه يخاطب كلّ واحد بما يستحقّه،فالناس بين شاكر له،ومكرّر لشكره .

(١٦) « سرنسوف » : مقاطعة بأكرانيا من روسيا،حاضرتها باسمها،على أحد روافد نهر دنيبر . والمقام (بضم الميم) : اسم مكان من أقام بالمكان يقيم إقامة. ورمت شمله الأيام : فرّقت ما اجتمع من أمره . ولهيد : حسير مثقل مجهود ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، من لهده الحمل (كمنعه) : أى أثقله ، ولهد دابته : أى جهدها .

(١٧) الجحيم : النار الشديدة التأجّج ، وكل نار بعضها فوق بعض ، وكل نار عظيمة فى مهواة : أى حفرة . واللّظى : النار أو لهبها . والجليد : ما يسقط على الأرض من الندى فيجمد .

(١٨) حشود (بضم الحاء والشين) : جماعات ، واحدها حشد (بفتح فسكون) .

يقول : إنّ هذه البلاد قد تجمّعت فيها أجيال من البلغار والروم ، وزاحمهم التتار ، فهم جماعات كثيرة .

(١٩) الرطانة (بفتح الراء وكسرها) : الكلام باللغة الأعجميّة ،وراطنه كلّمه بها،والكلام الفصيح وراطن بعضهم بعضاً . وهديداً : دويّاً أو صوتاً غليظاً كهدير البعير ، وتميد : تتحرك ،(وبابه باع) .

قِباحُ النَّوَاصِي والوُجُوهِ ، كأنَّهُمْ لِغَيْرِ أَبِي هَـذَا الأَنَامِ جُنُودُ(٢٠)
سَواسِيَةٌ ، لَيْسُوا بِنَسْلِ قَبِيلَةٍ فَتُعْرَفَ آبَاءٌ لَهُمْ وجُدُودُ(٢١)
لَهُمْ صُوَرٌ لَيْسَتْ وُجُوهاً ، وإنَّمَا تُنَاطُ إِلَيْهَا أَعْيُنٌ وخُدُودُ(٢٢)
يَخُورُونَ حَوْلِي كَالعُجُولِ ، وبَعْضُهُمْ يُهَجِّنُ لَحْنَ القَوْلِ حِينَ يُجِيدُ(٢٣)
أَدُورُ بِعَيْنِي لا أَرَى بَيْنَهُمْ فَتًى يَرُودُ مَعِي فِي القَوْلِ حَيْثُ أَرُودُ(٢٤)
فَلا أَنَا مِنْهُمْ مُسْتَفِيدٌ غَرِيبَـةً وَلَا أَنَا فِيهِمْ ما أَقَمْتُ مُفِيدُ(٢٥)

---

(٢٠) قباح : جمع قبيح ، صفة من القبح ، (وبابه ظرف) . والنواصي : جمع ناصية : وهي قصاص الشعر حيث تنتهي نبته من مقدّم الرأس ، والمراد بالنواصي هنا : الجباه . والأنام : الخلق ، والمراد الناس ، وأبو الأنام : آدم عليه السلام . والجنود : جمع جند : وهم الأنصار والأعوان . رماهم بالدمامة والقبح ، وقال : كأنهم ليسوا من أبناء آدم .

(٢١) سواسية : جمع سواء (على غير قياس) ، والمعنى : متساوون في القبح والدمامة . والنسل : الولد . والقبيلة : الطائفة من الناس ينسبون إلى أب واحد ، وهي دون الشعب .
يرميهم بالتساوي في القبح ، وبأنهم أخلاط من قبائل وأجناس شتّى ، فلا يعرف لهم نسب صريح

(٢٢) تناط : تعلّق .
يصفهم أيضاً بالدمامة والقبح فيقول : إنّ وجوههم لا تشبه وجوه الناس ، وإنّما هي صورة غريبة علّقت بها عيونهم وخدودهم .

(٢٣) خار الثور يخور خواراً (بضم الخاء) : صاح . والعجول : جمع عجل ، وهو ولد البقرة . ويهجّن : يقبّح . ولحن القول : فحواه ومعناه ، واللحن أيضاً : اللغة ، وهو يريد بلحن القول هنا : لغة العرب . ويجيد : مضارع أجاد الشيء : أي جوّده وحسّنه .
يقول : إنّ رطانتهم تشبه خوار البقر ، وإنّ بعضهم يحاول إجادة النطق بالعربية ، فيجعلها قبيحة معيبة ، تشوّهها هجنة الأعاجم .

(٢٤) يرود : يجيء ويذهب ويتردّد .
يقول : إنه ليس فيهم من يستطيع محاورته باللسان الراقي .

(٢٥) يقول : إنّ إقامته بينهم غير مجدية ، فهو لا يفيدهم شيئاً من لغة العرب ، ولا يستفيد شيئاً من كلماتهم الغريبة .

فَمَنْ لِي بِأَيَّامٍ مَضَتْ قَبْلَ هَذِهِ ... بِمِصْرَ ؟ وَعَيْشِي لَوْ يَدُومُ حَمِيدُ (٢٦)
عَسَى اللَّهُ يَقْضِي قُرْبَةً بَعْدَ غُرْبَةٍ ... فَيَفْرَحَ بِاللُّقْيَا أَبٌ وَوَلِيدُ (٢٧)

وَقَالَ يَرُوضُ الشِّعْرَ (*) :

تَوَلَّى الصِّبَا عَنِّي فَكَيْفَ أُعِيدُهُ ... وَقَدْ سَارَ فِي وَادِي الْفَنَاءِ بَرِيدُهُ (١)
أُحَاوِلُ مِنْهُ رَجْعَةً بَعْدَ مَا مَضَى ... وَذَلِكَ رَأْيٌ غَابَ عَنِّي سَدِيدُهُ (٢)
فَمَا كُلُّ جَفْرٍ غَاضَ يَرْتَدُّ نَبْعُهُ ... وَلَا كُلُّ سَاقٍ جَفَّ يَخْضَرُّ عُودُهُ (٣)
فَإِنْ أَكُ فَارَقْتُ الشَّبَابَ فَقَبْلَهُ ... بَكَيْتُ رَضَاعاً بَانَ عَنِّي حَمِيدُهُ (٤)
وَأَيُّ شَبَابٍ لَا يَزُولُ نَعِيمُهُ ؟ ... وَسِرْبَالِ عَيْشٍ لَيْسَ يَبْلَى جَدِيدُهُ ؟ (٥)

---

(٢٦) العيش : المعيشة والحياة . وحميد : محمود غير مذموم .
يتمنّى أن تعود أيامه الماضية بمصر . ويقول : إنّ حياته بها كانت محمودة لو أنها دامت .

(٢٧) اللقيا : اللقاء . والوليد : المولود والصبيّ .

(*) يروض الشعر : يذلّله ويمرّن عليه نفسه ، وأصله من راض الرجل المهر : أى ذلّله ومرّنه على المشى .

(١) تولى : ذهب وأدبر . والصبا (بكسر الصاد) : صغر السن . ويريد به الشباب والفتاء (بفتح الفاء) . والفناء (بفتح الفاء) : العدم والهلاك . والبريد : حامل الرسائل ، أو دابّته .
والمعنى : أن الشباب زال ، فلن يعود ، ولن يأتى أىّ خبر عنه .

(٢) أحاول : أريد . وأمر سديد : صائب مستقيم ، والمراد بسديد الرأى (هنا) : سداده ، أى صوابه واستقامته .

(٣) الجفر (بفتح فسكون) : البئر الواسعة التى لم تطو ، أى لم تبن بالحجارة ، وهو مذكّر . وغاض (من باب باع) : قلّ ماؤه ، أو نضب : أى غار ، وذهب فى الأرض . والنبع : مصدر نبع الماء ينبع (مثلثة الباء) نبعاً (بفتح فسكون) ونبوعاً (كخروج) : أى خرج من العين . وهو يريد بالنبع (هنا) : الماء . وساق الشجرة : جذعها ، والمعروف فى فصيح الكلام أن الساق مؤنثة . وجفّ : يبس .

(٤) الرضاع : مصدر رضع الطفل أمّه (من بابى سمع وضرب) ، والمراد ببكائه الرضاع : أنه يبكى على عهد الرضاع وزمانه . وبان عنى : فارقنى . وحميده : محموده .

(٥) السربال : القميص ، أو الدرع ، أو كل ما لبس . والعيش : المعيشة والحياة . وبلى الثوب يبلى بلى (كرضى يرضى رضاً) وبلاء (بالفتح والمد) : خلُق ، ورثّ ، وذهبت جدّته .

فَلَا غَرْوَ أَنْ شَابَتْ مِنَ الْحُزْنِ لِمَّتِى ... فَإِنِّىَ فى دَهْرٍ يَشِيبُ وَلِيدُهُ(٦)
يُهَدِّمُ مِنْ أَجْسَادِنَا مَا يَشِيدُهُ ... وَيَنْقُصُ مِنْ أَنْفَاسِنَا مَا يَزِيدُهُ(٧)
أَرَى كُلَّ شَىْءٍ لَا يَدُومُ ، فَمَا الَّذِى ... يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ حُبِّ مالا يُفِيدُهُ ؟(٨)
وَلَكِنَّ نَفْساً رُبَّمَا اهْتَاجَ شَوْقُهَا ... فَحَنَّتْ ، وقَلْباً رُبَّمَا اعْتَادَ عِيدُهُ(٩)
فَوَاحَسْرَتَا ! كَمْ زَفْرَةٍ إِثْرَ لَوْعَةٍ ... إِذَا عَصَفَتْ بِالْقَلْبِ كادَتْ تُبِيدُهُ(١٠)
أَحِنُّ إِلَى وادِى النَّقَا ، وَيَسُرُّنِى ... عَلَى بُعْدِهِ أَنْ تَسْتَهِلَّ سُعُودُهُ(١١)
وَأَصْدُقُهُ وُدِّى ، وإِنْ كُنْتُ عالِماً ... بِأَنَّ النَّقَا لَمْ يَدْنُ مِنِّى بَعِيدُهُ(١٢)

---

(٦) لا غرو : لا عجب . واللمة (بكسر اللام) : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن . والوليد : الصبىّ والمولود .

(٧) شاد البناء يشيده (من باب باع) : طلاه بالشيد : وهو الجصّ . وشاده : رفعه وأعلاه . وينقص : مضارع نقصت الشىء نقصاً (من باب قتل) : ضدّ زدته . والأنفاس جمع نفس (بفتحتين) ، وتنفّس الإنسان : أدخل النفس إلى باطنه وأخرجه ، وكلّ ذى رئة متنفّس . والمراد بالأنفاس الحياة . ومعنى الشطر الثانى : أن الدهر ينقص من حياتنا بالهرم ونحوه ما كان زاد فيها بالصحة والفتوّة .

(٨) يقول : إنّ كل شىء صائر إلى الفناء والزوال ، فلا فائدة للإنسان من حبّ شىء مصيره إلى العدم .

(٩) اهتاج : تهيّج وثار . وحنّت : اشتاقت ، من الحنين ، وهو الشوق ، وتوقان النفس . واعتاده : انتابه ، وعاوده ، أى رجع إليه مرة بعد أخرى ، واعتاده عيده : انتابه ما يعاوده من شوق وهمّ ونحوهما .

(١٠) وا : حرف ينادى به المتوجَّع منه . والحسرة : التأسّف والتلهّف الشديد على الشىء الفائت . والزفرة : تنفّس ممدود طويل يكون عادة من المهموم والحزين . وإثر : بعد . واللوعة : حرقة فى القلب وألم من حبّ أو همّ أو مرض . وعصفت : اشتدّت ، على تشبيه الزفرة بالريح ، لأن العصف فى الأصل : اشتداد الريح . وتبيده : تهلكه .

(١١) أحنّ : أشتاق . ووادى النقا : موضع فيه حبيبة الشاعر . وتستهلّ : تظهر وتتلألأ . والسعود : الكواكب التى يقال لكل واحد منها سعد ، وهى عشرة أنجم .

(١٢) صدقته الحديث والودّ (من باب نصر) . والودّ بتثليث الواو : المودة والمحبة . والنقا : الكثيب من الرمل : أى ما اجتمع منه . وهو (هنا) : اسم موضع يعنيه الشاعر . ولم يدن : لم يقرب .

مَعَانُ هَوًى تَجْرِى بِدَمْعِى وِهَادُهُ ... وتُشرقُ مِنْ نيرانِ قَلْبِى نُجُودُهُ (١٣)

تَضِنُّ بِإِهْداءِ السَّلامِ ظِباؤُهُ ... وتُكْرِمُ مَثْوَى الطَّارقِينَ أُسُودُهُ (١٤)

تَسَاهَمَ فيهِ الْبَأْسُ والْحُسْنُ ، فاسْتَوَتْ ... ضَرَاغِمُهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وغِيدُهُ (١٥)

تَلاقَتْ بِهِ أَسْيَافُهُ ولِحَاظُهُ ... ومالَتْ بِهِ أَرْمَاحُهُ وقُدُودُهُ (١٦)

فَكَمْ مِنْ صَرِيعٍ لا تُدَاوَى جِرَاحُهُ ... وكَمْ مِنْ أَسِيرٍ لا تُحَلُّ قُيُودُهُ (١٧)

---

(١٣) معان : مباءة ومنزل . والهوى : الحبّ . والوهاد : جمع وهدة ، وهى المكان المطمئنّ ، أى الأرض المنخفضة . وتشرق : تضىء . والنجود : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض .

يقول : إنّ وادى النقا منزل حبّ تجرى وهاده بدموعه ، وتضىء نجوده بنيران قلبه .

(١٤) تضنّ (بفتح الضاد وكسرها) : تبخل بخلا شديداً . والظباء : جمع ظبى : وهو الغزال ، والمراد بالظباء : الحسان من النساء . والمثوى : اسم مكان ، أو مصدر ميمى من ثوى بالمكان : أى أقام به أو نزل . والطارقين : جمع طارق ، اسم فاعل من طرق (من باب دخل) : إذا جاء ليلا . والمراد بالأسود : الرجال الشجعان . مدح نساء هذا المكان بالعفّة ، والحشمة ، والحسن ، والرشاقة ، ومدح رجاله بالكرم والسخاء والشجاعة .

(١٥) تساهما : تقارعا ، أى ضربا فيما بينهما القرعة ، والمراد أنهما تغالبا على الفوز . والبأس : الشجاعة ، والشدّة فى الحرب . واستوت : تماثلت وتشابهت . والضراغم : جمع ضرغام (بكسر فسكون) : وهو الأسد . والغيد : جمع غيداء : وهى المرأة الناعمة المتثنية ليناً . والضمائر فى هذا البيت تعود إلى وادى النقا .

يقول : إنّ البأس والحسن قد تغالبا على الفوز ، فكان لكلٍّ منهما نصيب عظيم ، فأنت إذا لقيت رجال هذا الوادى راعك منهم البأس والشدّة والشجاعة ، وإذا لقيت نساءه راعك منهنّ الفتنة والسحر والألحاظ الفواتك . وفى البيت الآتى تكرار وتوضيح لهذا المعنى .

(١٦) تلاقت : التقت واجتمعت . والأسياف : جمع سيف . واللحاظ : جمع لحظ (بوزن سهم وسهام) : وهو النظر . والأرماح : جمع رمح . والقدود : جمع قدّ : وهو قامة الإنسان واعتداله وحسن طوله . ومثله القَوَام . والضمائر فى هذا البيت تعود إلى وادى النقا .

يقول : إنه قد اجتمعت فى هذا المكان سيوف رجاله الشجعان البسلاء ، وما يشابهها من عيون نسائه ولحظاتها الفاتكة ، ومالت به رماح أبطاله ، وما يشبهها من قامات نسائه المعتدلة الحسنة الطول والتقطيع .

(١٧) صريع : فعيل بمعنى مفعول ، من صرعه (كنعه) : ألقى طرحه على الأرض . والجراح : جمع جراحة (بكسر الجيم) : وهى الجرح . والأسير : المأسور .

وفى الْحَىِّ ظَبْىٌ إنْ تَرَنَّمْتُ بِاسْمِهِ تَنَمَّرَ وَاشِيهِ ، وهَاجَ حَسُودُهُ (١٨)
تَهِيمُ بِهِ أَسْتَارُهُ وخُدُورُهُ وتَعْشَقُهُ أَقْرَاطُهُ وعُقُودُهُ (١٩)
تَأَنَّقَ فِيه الْحُسْنُ فامْتَدَّ فَرْعُهُ إلَى قَدَمَيْهِ واسْتَدارَتْ نُهُودُهُ (٢٠)
فَلِلْمِسْكِ رَيَّاهُ ، ولِلْبَانِ قَدُّهُ ولِلْوَرْدِ خَدَّاهُ ، وللظَّبْىِ جِيدُهُ (٢١)
فَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ يَا صَاحِ بِالْهَوَى فإِنَّ الرَّدَى حِلْفُ الْهَوَى وعَقِيدُهُ (٢٢)
ومَا أَنَا مِمَّنْ يَرْهَبُ الْمَوْتَ إنْ سَطَا إذَا لَمْ تَكُنْ نُجْلَ الْعُيُونِ شُهُودُهُ (٢٣)

---

(١٨) الحىّ : القبيلة من قبائل العرب ، وقيل : البطن من بطونهم ، وهو دون القبيلة . والظبى : الغزال . ويريد به محبوبته التى تشبهه فى جمال الجيد والعينين والرشاقة . وترنَّمت : رجَّعت صوتى ، وتغنيت . وتنمَّر : غضب ، وساء خلقه . والواشى : الساعى بالفساد بين الناس . وهاج : ثار .

(١٩) هام بها يهيم : أحبَّها وعشقها ، أو صار كالمجنون من العشق . و به : أى بالظبى فى البيت الذى قبله . والأستار : جمع ستر (بكسر فسكون) : وهو ما يستر به الشىء : أى يغطَّى . والخدور : جمع خدر ، وهو الستر (بكسر فسكون فيهما) . وقد يطلق الخدر على البيت إن كان فيه امرأة . والأقراط : جمع قرط (بضم فسكون) وهو من الحلى ما يعلَّق فى شحمة الأذن . والعقود : جمع عقد (بكسر العين) : وهو القلادة . يدَّعى أنَّ كلَّ شىء يعشق محبوبته حتى الجماد .

(٢٠) تأنَّق فى عمله : أحكمه وأتقنه ، وأخرجه أنيقاً أى رائع الحسن معجباً . وامتدَّ : طال . والفرع : الشعر التامّ . والنهود : جمع نهد ، وهو الثدى ، وسمى بذلك لنهوده ، أى بروزه وارتفاعه .

(٢١) المسك : ضرب من الطِّيب يتَّخذ من ضرب من الغزلان ، وهو أفضل الطيب عند العرب . والريَّا : الريح الطيِّبة . والبان : شجر تشبَّه بغصونه قدود الحسان ، أى قاماتهن فى الاعتدال ولين الأعطاف . والقدّ : القامة ، وحسن الطول والاعتدال . والظبى : الغزال . والجيد : العنق .

(٢٢) تغترّ : تنخدع . والهوى : الحبّ . والردى : الهلاك . والحلف (بكسر فسكون) : الصديق ، وأصله الصديق يحلف لصاحبه ألا يغدر به . والعقيد : المعاقد : وهو المعاهد . والحلف والعقيد هنا : كلمتان مترادفتان تؤكِّد إحداهما الأخرى . يحذِّر صاحبه الانخداع بالحب ؛ لأن الهلاك يلازم الحب ، ويقارنه .

(٢٣) يرهب : يخاف . وسطا : صال ، ووثب ، وهجم . ونجل (بضم فسكون) : جمع نجلاء ، صفة من النجل (بفتحتين) : وهو سعة العين ، وحسنها ، (وبابه فرح) . وشهود : جمع شاهد : أى حاضر . يقول : إننى لست ممن يخافون صولة الموت إلا إذا حضرته ، أو أشرفت عليه العيون الواسعة الجميلة . وصف العيون الحسان النجل بأنها ساحرةٌ قاتلة ، وأنه لذلك يخشى أن يموت بسببها ، ولا يخشى الموت بشى سواها .

أَفُــلُّ أَنَابِيبَ الْقَنَا ، ويَفُلُّنِي ... قَوَامٌ تَنَدَّتْ بِالْعَبِيرِ بُرُودُهُ (٢٤)
فَإِنْ أَنَا سَالَمْتُ الْهَوَى فَلَطَالَمَا ... شَهِدْتُ الْوَغَى والطَّعْنُ يَذْكُو وَقُودُهُ (٢٥)
وَتَحْتَ جَنَاحِ الدِّرْعِ مِنِّى ابْنُ فَتْكَةٍ ... مُعَــوَّدَةٌ أَلَّا تُحَطَّ لُبُودُهُ (٢٦)
إِذَا حَرَّكَتْهُ هِمَّةٌ نَحْوَ غَايَةٍ ... تَسَامَى إِلَيْهَا فى رَعِيلٍ يَقُودُهُ (٢٧)
ومُعْــتَرَكٍ لِلْخَيْلِ فى جَنَبَاتِهِ ... صَهِيلٌ يَهُدُّ الرَّاسِيَاتِ وَئِيدُهُ (٢٨)
بَعِيدِ سَماءِ النَّقْعِ ، يَنْقَضُّ نَسْرُهُ ... عَلَى جُثَثِ الْقَتْلَى ، ويَنْغَلُّ سِيدُهُ (٢٩)

---

(٢٤) أفل : أكسر ، (وبابه ردّ) . والأنابيب جمع أنبوب (بوزن أسلوب) : وهو ما بين المقدتين فى القصب ونحوه . والقنا : جمع قناة :وهى الرمح . والقوام : القامة ، وحسن الطول. وتندّت : نديت أى ابتلّت بما يشبه الندى : وهو المطر القليل . والعبير : أخلاط من الطيب . والبرود : جمع برد (بضم فسكون) : وهو ثوب مخطط . والمعنى أنه فى ساحة الوغى شجاع مقدام ، وفى مجال الهوى مستسلم مغلوب على أمره .

(٢٥) سالمت : صالحت ، والمراد استسلمت وانقدت . والهوى: الحب . وشهدت : حضرت . والوغى : الحرب . والطعن : مصدر طعنه بالرمح ونحوه (كنعه ونصره): أى ضربه ووخزه . ويذكو يشتعل ويشتد لهبه . والوقود (بضم الواو وفتحها) : توقّد النار واشتعالها .

(٢٦) الدرع (بكسر الدال): لبوس يسرد : أى ينسج من حلقات من حديد متشابكة ، ويلبسه المحارب ليقيه من سلاح عدّوه ، والدرع فى الغالب مؤنثة . والفتكة : اسم مرة من الفتك : وهو ركوب ما همّ من الأمور ، ودعت إليه النفس ، أو هو القتل على غرّة ، ويريد بابن الفتكة نفسه . وحطّ الرجل الرحل والسرج ونحوهما (من باب ردّ) : أنزله . واللبود : جمع لبد (بكسر فسكون) : وهو ما يكون تحت سرج الفرس من شعر أو صوف متلبد ، ولبود نائب فاعل معودة ، والمصدر المؤول من أن والفعل المنفى مفعول به لمعوده .

يقول : إنّ تحت جناح درعه رجلا فاتكاً جريئاً ماضياً شجاعاً يركب الأهوال ، وقد عوّدت لبود فرسه ألا تحط ، وهذا كناية عن دوام الركوب فى الحروب ونحوها .

(٢٧) الهمّة : أول العزم ، وقد تطلق على العزم القوىّ ، وتسامى : ركب . وفى أساس البلاغة « وتساموا على الخيل : ركبوا » . والرعيل : الجماعة المتقدمة من الخيل ، والمراد الكتيبة من الفرسان .

يقول : إنه يسمو بهمته إلى معالى الأمور بالنزال ، والقتال ، وقيادة الفرسان .

(٢٨) المعترك : موضع الاعتراك: أى القتال والحرب . والواو فى قوله (ومعترك) : واو ربّ . وجنباته : نواحيه ، واحدتها جنبة(بفتح فسكون) . وصهيل الخيل: صوتها . والوئيد : الصوت العالى الشديد .

(٢٩) بعيد : صفة لمعترك فى البيت السابق. والنقع : الغبار ، وما يرتفع فى جو الحرب من دخان ونحوه . و بعد سماء النقع : كناية عن شدّة القتال. وينقض : يهوى ويسقط . والنسر : من جوارح الطير ، =

تَرِفُّ عَلَى هَامِ الْكُمَاةِ سُيُوفُهُ ... وَتَخْفِقُ بَيْنَ الْجَحْفَلَيْنِ بُنُودُهُ(٣٠)
إِذَا اشْتَجَرَتْ فِيهِ الرِّماحُ تَراجَعَتْ ... سَوَافِرَ عَنْ نَصْرٍ يُضِيءُ عَمُودُهُ(٣١)
تَقَحَّمْتُهُ وَالرُّمْحُ صَدْيَانُ يَنْتَحِي ... نِطافَ الْكُلَى، والْمَوْتُ يَمْضِي وَعِيدُهُ(٣٢)
فَمَا كُنْتُ إِلَّا الْغَيْثَ طَارَتْ بُرُوقُهُ ... وما كُنْتُ إِلَّا الرَّعْدَ دَوَّى هَدِيدُهُ(٣٣)
أَنَا الرَّجُلُ الْمَشْفُوعُ بِالْفِعْلِ قَوْلُهُ ... إِذا ما عَقِيدُ الْقَوْمِ رَثَّتْ عُقُودُهُ(٣٤)
تَعَوَّدْتُ صِدْقَ الْقَوْلِ حَتَّى لَوَ انَّنِي ... تَكَلَّفْتُ قَوْلًا غَيْرَهُ لا أُجِيدُهُ(٣٥)
أُضَاحِكُ وَجْهَ الْمَرْءِ يَغْشَاهُ بِشْرُهُ ... وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَلْبَ تَغْلِي حُقُودُهُ(٣٦)

=وهو أشدّها ، وأقواها جناحاً ، وأرفعها طيراناً ، وأحدّها بصراً . وجثث القتلى : أجسادهم وأشخاصهم ، واحدتها جثّة (بضم الجيم). وينغلّ : يدخل . والسيد (بكسر السين) : الأسد ، أو الذئب .

(٣٠) ترفّ : تبرق وتتلألأ . والهام: جمع هامة :وهى الرأس. وتخفق (بضم الفاء وكسرها) : تضطرب وتتحرك . والجحفل (كجعفر) : الجيش الكثير . والبنود : جمع بند (بفتح فسكون) : وهو العلم (بفتح العين واللام) الكبير .

(٣١) اشتجرت : اشتبكت . وسوافر : كواشف ، جمع سافرة ، اسم فاعل من سفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها . ونصر يضيء عموده : نصر مبين واضح ، وأصله من قولهم : ضرب الفجر بعموده ، وهو الصبح المستطير . وفى الحديث : « أول وقت الفجر إذا انشقّ عمود الصبح » .

(٣٢) تقحّمته : دخلت فيه، أى المعترك . وأصله من اقتحم الفرس النهر ، وتقحّمه: إذا دخل فيه . وصديان : صفة من الصدى (بفتح الصاد والدال) : وهو العطش الشديد ، (وفعله كرضى) . وينتحى : يقصد . والنطاف (بكسر النون): جمع نطفة (بضم فسكون) : وهى القليل من الماء يبقى فى دلو أو قربة ، أو هى الماء الصافى . والكلى : جمع كلية (بضم فسكون) ، والمراد بنطاف الكلى : دماؤها . ويمضى : ينفذ . والوعيد : الإيعاد ، مصدر أوعده بالشر .

(٣٣) الغيث : المطر . والبروق : جمع برق ، وهو ضوء شديد لامع خاطف يرى فى السحاب قبيل سقوط المطر . ودوى : سمع له دوىّ . وهديده : دويّه ، وفى أساس البلاغة« وسمع أهل الساحل هادّاً من قبل البحر ، أى صوتاً له هديد أى دوىّ ، وربما كانت منه الزلزلة » .

(٣٤) المشفوع: المقرون والموصول: وعقيد القوم: معاقدهم ومعاهدهم . ورثّت: بليت وخلُقَتْ . والعقود : جمع عقد (بفتح فسكون): وهو العهد والضمان .

(٣٥) تكلّف الشيء : تجشّمه أى تحمّله على مشقّة .

يقول : إنه اعتاد الصدق فى القول حتى إنه لو تكلّف غير الصدق لا يحسنه ولا يجيده .

(٣٦) يغشاه : يظهر عليه ويعمه . والبشر : طلاقة الوجه . وتغلى : مضارع غلت القدر (من باب=

وَمَنْ لَمْ يُدارِ النَّاسَ عَادَاهُ صَحْبُهُ ... وأَنْكَرَهُ مِنْ قَوْمِهِ مَنْ يَسُودُهُ (٣٧)

فَمَنْ لِي بِخِلٍّ أَسْتَعِينُ بِقُرْبِهِ ... عَلَى أَمَلٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا شَرِيدُهُ (٣٨)

أُحَاوِلُ وُدًّا لَا يُشَانُ بِغَدْرَةٍ ... ودُونَ الَّذِي أَرْجُوهُ مَا لَا أُرِيدُهُ (٣٩)

سَمِعْتُ قَدِيماً بِالْوَفَاءِ فَلَيْتَنِي ... عَلِمْتُ عَلَى الْأَيَّامِ أَيْنَ وُجُودُهُ (٤٠)

فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمْلِكْ صَدِيقاً فَإِنَّنِي ... لِنَفْسِي صَدِيقٌ لا تَخِيسُ عُهُودُهُ (٤١)

وَحَسْبُ الْفَتَى مِنْ رَأْيِهِ خَيْرُ صَاحِبٍ ... يُوازِرُهُ فِي كُلِّ خَطْبٍ يَئُودُهُ (٤٢)

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ مِنْ بَدَهَاتِهِ ... نَصِيرٌ، فَأَخْلِقْ أَنْ تَخِيبَ جُدُودُهُ (٤٣)

= ري) غلياً (بفتح فسكون) وغلياناً (بفتحتين). والحقود: جمع حقد (بكسر الحاء): وهو الضغن، والانطواء على العداوة والبغضاء.

(٣٧) دارى المرء غيره يداريه مداراة: لاطفه ولاينه. والصحب: جمع صاحب. وأنكره: جهله، والمراد تألب عليه، وانتقض، وانفض من حوله. وساد قومه يسودهم سيادة: صار سيدهم ورئيسهم المطاع والمعنى: أن مصانعة الناس ومداراتهم ضرورية لاستبقاء الأصحاب، وجمع الأنصار، وكسب الأعوان، والمحافظة على السيادة والمجد والعلاء.

(٣٨) الخل: الصديق. وأمل شريد: نافر طريد.
يتمنى أن يكون له صديق وفي يستعين به على تحقيق أمل بعيد.

(٣٩) أحاول: أريد وأروم وأطلب. ولا يشان: لا يعاب. والغدرة: اسم مرة من الغدر: وهو نقض العهد، وترك الوفاء، (وبابه ضرب).
والمعنى: أنه يطلب مودة لا يشينها غدر، ولكن يحول دون ذلك ما لا يريده، مما لا يلائم كبرياءه، وعزة نفسه، وعلو همته.

(٤٠) يقول: إنه سمع بالوفاء من قديم الزمن، فتمنى أن يعرف على مر الأيام، وتتابع السنين مكان وجوده. والمعنى: أنه سمع به، ولكنه لم يجده.

(٤١) خاس بالعهد (من باب باع): غدر، ونكث، وأخلف، وخاس اللحم ونحوه: تغير، والعهود جمع عهد: وهو الموثق، واليمين، والحفاظ. يقول: إنه إذا لم يجد الصديق الذي يطلبه ويرجوه؛ فإن له في نفسه صديقاً وفياً لا تتغير عهوده.
والمعنى: أنه يستطيع أن يستغني بأصالة رأيه عن معونة الأصدقاء. وسيصرح بهذا في البيت الآتي.

(٤٢) حسبه كذا: يكفيه، أو كافيه. ويؤازره: يظاهره، ويعاونه. والخطب: النازلة الشديدة من نوازل الدهر. ويئوده: مضارع آده الأمر (من باب قال): أي أثقله، وبلغ منه المجهود.

(٤٣) البدهات: جمع بدهة، وهي اسم مرة من بدهه بأمر (كنعه): إذا استقبله به، أو بدأه به، أو فجأه والمراد بالبدهات: الآراء السديدة السريعة التي تستقبل بها الأمور المفاجئة. وأخلق: =

وَإِنِّى وَإِنْ أَصْبَحْتُ فَرْدًا ، فَإِنَّنِى ... بِنَفْسِى عَشِيرٌ لَيْسَ يَنْجُو طَرِيدُهُ (٤٤)
وَلِى مِنْ بَدِيعِ الشِّعْرِ ما لَوْ تَلَوْتُهُ ... عَلَى جَبَلٍ لَانْهَالَ فى الدَّوِّ رَيْدُهُ (٤٥)
إِذَا اشْتَدَّ أَوْرَى زَنْدَةَ الْحَربِ لَفْظُهُ ... وَإِنْ رَقَّ أَزْرَى بِالْعُقُودِ فَرِيدُهُ (٤٦)
يُقَطِّعُ أَنْفَاسَ الرِّياحِ إذا سَرَى ... وَيَسْبِقُ شَأْوَ النَّيِّرَيْنِ قَصِيدُهُ (٤٧)
إِذَا ما تَلاهُ مُنْشِدٌ فى مَقَامَةٍ ... كَفَى الْقَوْمَ تَرْجِيعَ الْغِناءِ نَشِيدُهُ (٤٨)
سَيَبْقَى بِهِ ذِكْرِى عَلَى الدَّهْرِ خالِدًا ... وذِكْرُ الْفَتَى بَعْدَ الْمَمَاتِ خُلُودُهُ (٤٩)

= صيغة تعجب من خلق لكذا (على وزن كرم) ، فهو خليق له : أى جدير به ، مستحقّ له ، كأنما خلق له ، وطبع عليه . والجدود : جمع جدّ ، وهو الحظ ، والحظوة ، والرزق ، والعظمة .

(٤٤) العشير : القبيلة ، والجماعة من الناس . والطريد : ما تطرده من صيد ونحوه . وليس ينجو طريده : كناية عن شدّة بأسه ، وحصافة رأيه ، وحسن تدبيره ، وفتكه بأعدائه .

(٤٥) البديع : المبتدع المخترع ، أو المنفرد بمحاسن ليست فى نظائره . وتلوته : قرأته . وانهال : سقط . والدوّ : الفلاة أى الصحراء . وريد الجبل (بفتح الراء وسكون الياء) : الحرف الناتئ منه . وفى البيت هنا عيب من عيوب القافية ، اسمه « سناد الحذو » ، وهو اختلاف حركة ما قبل الردف . والردف الياء فى « ريده » ، والحذو حركة الراء ، وهى فتحة هنا مخالفة للكسرة فى طريده ، وفريده ، وقصيده ، ونشيده .. ومعنى البيت : أن شعره رائع ، فائق الحسن ، شديد التأثير .

(٤٦) أورى الرجل الزند : أخرج ناره . والزند : العود الذى تقدح به النار ؛ وهو الأعلى ، والسفلى زندة . وأزرى به : تهاون به ، وقصّر به ، وحقره . والعقود : جمع عقد (بكسر فسكون) وهو القلادة . والفريد : الدرّ إذا نظم ، وفصل بغيره ، وقد شبّه به الشاعر شعره .
يقول : إنّ شعره إذا اشتدّ أوقد نار الحرب ، وإذا رقّ فاق العقود والقلائد ، وأزرى بها .

(٤٧) يقطّع : أى الشعر . وأنفاس الرياح : نسماتها ، واحدها نفس (بفتحتين) ، وتقطيع أنفاس الرياح : كناية عن أنه يسبقها . وسرى : سار ، والسّرى (فى الأصل) : السير ليلا . والشأو : الغاية والأمد . والنيّران : الشمس والقمر . والقصيد من الشعر : المنقّح المجوّد ، أو هو ما تمّ شطر أبياته ، وليس إلا ثلاثة أبيات فصاعداً ، أو ستة عشر فصاعداً . أو القصيد : جمع القصيدة من الشعر ، مثل سفين وسفينة .

(٤٨) تلاه : قرأه . ومنشد : قارئ ، اسم فاعل من أنشد الشعر : أى قرأه رافعاً به صوته ، والمقامة (بفتح الميم) : المجلس ، والجماعة من الناس . وترجيع الغناء : ترديده . والنشيد : الشعر المتناشد بين القوم ينشده بعضهم بعضاً .
يقول : إن إنشاد شعره فى جماعات الناس ومجالسهم يغنيهم عن سماع الغناء .

(٤٩) الذكر : الصيت والثناء والشرف . والخلود : البقاء والدوام ، كالخلد (بضم فسكون) .

وقالَ يَذُمُّ رِجَالَ الْحُكُومَةِ الاسْتِبْدَادِيَّةِ فى عَهْدِ إسْمَاعِيلَ خديو مصر (*)

كَرَمُ الطَّبْعِ شِيمَةُ الْأَمْجَادِ   وَجَفَاءُ الْأَخْلاقِ شَأْنُ الْجَمَادِ (١)
لَنْ يَسُودَ الْفَتَى ولَوْ مَلَكَ الْحِكْـ   ـمَةَ ما لَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَجْوادِ (٢)
وَلَعَمْرِى لَرِقَّةُ الطَّبْعِ أَوْلَى   مِنْ عِنادٍ يَجُرُّ حربَ الْفَسادِ (٣)
قَدْ يَنَالُ الْحَلِيمُ بِالرِّفْقِ مَا لَيْـ   ـسَ يَنالُ الْكَمِىُّ يومَ الْجِلادِ (٤)
فاقْرُنِ الْحِلْمَ بِالسَّماحَةِ تَبْلُغْ   كُلَّ مَا رُمْتَ نَيْلَهُ مِنْ مُرادِ (٥)
وَضَعِ الْبِرَّ حَيْثُ يَزْكُو لِتَجْنِى   ثَمَرَ الشُّكْرِ مِنْ غِرَاسِ الْأَيَادِى (٦)

(*) جاءت هذه الأهْجُوَّة فى ثلاثين بيتاً . نشر منها فى الطبعات السابقة أربعة وعشرون بيتاً ، أما ستة الأبيات (٢٠ – ٢٥) فإنها لم تنشر من قبل لأنها مطموسة فى أصل الديوان المخطوط الذى بين أيدينا . وبجهد ومعاناة قرأناها ، ونشرناها فى هذه الطبعة ، مع كل ما استطعنا قراءته من المطموسات إتماماً للفائدة ، وحرصاً على منفعة القارئ والدارس .

(١) الشيمة : الغريزة والطبيعة والجبلّة التى خلق الإنسان عليها ، وجمعها شيم (بكسر ففتح) ، والأمجاد : جمع على غير قياس لماجد أو مجيد : وهما صفتان من المجد : وهو الكرم والعزّ والشرف ، والمجيد : الرفيع العالى ، والكريم الشريف الفعال ، (وفعله كنصر وكرم) . والجفاء : الغلظة والفظاظة . والشأن : الأمر والحال .

(٢) ساد قومه يسودهم (من باب كتب) سيادة : صار سيّدهم ، ورئيسهم المطاع . والاسم السودد : وهو المجد والشرف والرآسة . والحكمة : العدل والعلم والحلم . والأجواد : جمع جواد ، وهو السخىّ الكريم .

(٣) العمر : الحياة ، ولعمرى : وحياتى . وأولى : أحقّ وأحرى وأجدر ، والمراد أقرب إلى الخير . والعناد : مصدر عانده معاندة وعناداً : إذا ركب الخلاف والعصيان ، وردّ الحق وهو يعرفه . وحرب الفساد : الحرب المؤدّية للفساد ، أو الفساد الشبيه بالحرب .

(٤) الكمىّ : الشجاع المتكمّى فى سلاحه ، أى المتغطّى المتستّر بالدرع والبيضة ، وجمعه الكماة . والجلاد : القتال ، مصدر جالدته بالسيف : أى ضاربته .

(٥) قرن الشىء بالشىء : وصله به ، (وبابه ضرب ونصر) . والحلم : الأناة والصبر والعقل . والسماحة : الجود والكرم والسخاء . ورام الشىء : طلبه . (وبابه قال) .

(٦) البر : الخير ، والفضل ، والصلة ، والاتّساع فى الإحسان . ويزكو : ينمى ويزيد . وجنى الثمرة (من باب رمى) : التقطها . والغراس (بكسر الغين) : الشجر المغروس : فعال بمعنى مفعول . مثل بساط بمعنى مبسوط . أو هو : جمع غرس : بمعنى مغروس ، من غرس الشجر يغرسه (من باب ضرب) : أى أثبته فى الأرض . والأيادى : جمع الأيدى ، والأيدى : جمع يد ، وهى (هنا) : بمعنى النعمة ، وغراس الأيادى : النعم المغروسة .

وَاحْذَرِ النَّاسَ ما اسْتَطَعْتَ فإنَّ النَّـ ـاسَ أَحْلاَسُ خُدْعَةٍ وتَعادِى(٧)
رُبَّ خِلٍّ تَرَاهُ طَلْقَ الْمُحَيَّا وَهْوَ جَهْمُ الضَّمِيرِ بِالْأَحْقَادِ(٨)
فَتَأَمَّلْ مَوَاقِعَ اللَّحْظِ تَعْلَمْ ما طَوَتْهُ صَحَائِفُ الْأَكْبَادِ(٩)
إنَّ فى الْعَيْنِ وَهْوَ عُضْوٌ صَغِيرٌ لَدَلِيلاً عَلَى خَبَايَا الْفُؤَادِ(١٠)
وأُناسٍ صَحِبْتُ مِنْهُمْ ذِئَاباً تَحْتَ أَثْوابِ أُلْفَةٍ وَوِدادِ(١١)
يَتَمَنَّوْنَ لِى الْعِثَارَ ، ويَلْقَوْ نِى بِوَجْهٍ إلى الْمَوَدَّةِ صَادِى(١٢)
سَابَقُونِى فَقَصَّرُوا عَنْ لَحَاقِى إنَّما السَّبْقُ مِنْ خِصالِ الْجَوَادِ(١٣)

---

(٧) أحلاس : جمع حلس (بكسر فسكون) : وهو كساء يوضع على ظهر البعير والحمار والفرس ونحوها تحت البرذعة أو السرج أو نحوهما ، ومن كلام العرب : هو حلس بيته : إذا لم يبرح مكانه ، والخدعة (بتثليث الخاء) : الخديعة ،وهما اسمان من خدعه (كمنعه) : إذا ختله ، وأراد به المكروه من حيث لايعلم كاختدعه ،وأحلاس خدعة : ملازمون الخداع . والتعادى : مصدر تعادى القوم : أى عادى بعضهم بعضاً .

(٨) الخل : الصادق . والطلاقة : الانبساط والبشر ، (وبابه ظرف) ، ورجل طليق الوجه ، وطلق الوجه : فرح ،ظاهر البشر ، متهلّل بسّام . والمحيّا : الوجه . وجهم : كالح كدر ،وأصله من قولهم : رجل جهم الوجه : أى باسر الوجه كالحه . والأحقاد : جمع حقد (بكسر فسكون) : وهو الانطواء على العداوة والبغضاء .

(٩) المواقع : المساقط : جمع موقع : وهو اسم مكان من وقع الشىء يقع وقوعاً : أى سقط . واللّحظ : النظر . وطوى الحديث : كتمه وأخفاه . ويريد بالأكباد : القلوب .

والمعنى : أن نظرات العيون تظهر ما يضمره الإنسان . وسيصرح بهذا فى البيت الآتى

(١٠) خبايا : جمع خبيئة : وهى ما خبئ وستر . وكان الأولى أن يقول « وهى عضو » .

(١١) وأناس : الواو (هنا) : واو رُبَّ . أى : وربّ أناس ، وربّ : حرف خافض يكون للتقليل غالباً ، ويدخل على النكرة دائماً . والأناس : لغة فى الناس . والألفة (بوزن الغُرْفة) : اسم من ألفت الشىء (من باب علم) : أى أنست به ، وأحببته . أو هى اسم من الائتلاف : وهو الالتئام والاجتماع . والوداد : الودّ والحبّ .

(١٢) العثار : التعس ، والزلل ، والكبوة ، والسقوط . والمودّة : المحبّة . وصاد : صديان عطشان .

(١٣) اللحاق (بفتح اللام) : مصدر لحقه ، ولحق به (من باب سمع)أى أدركه . والجواد من الخيل : الكريم الجيّد الرائع .

أَنَا مَا بَيْنَ نِعْمَةٍ وحسُودٍ والْمَعَـالِى كَثِيرَةُ الْحُسَّادِ(١٤)
فَلْيَمُوتُوا بِغَيْظِهِمْ ؛ فاحْتِمالُ الْ غَيْظِ موتٌ لَهُمْ بِلا مِيعَادِ(١٥)
كَيْفَ تَبْيَضُّ مِنْ أُناسٍ وُجُوهٌ صَبَغَ اللُّؤْمُ عِرْضَهُمْ بِسَوَادِ؟(١٦)
أَظْهَرُوا زُخْرُفَ الْخِدَاعِ ، وأَخْفَوْا ذَاتَ نَفْسٍ كَالْجَمْرِ تَحْتَ الرَّمَادِ(١٧)
فَتَرى الْمَرْءَ مِنْهُمُ ضَاحِكَ السِّـ نِّ وَفِى ثَـوْبِهِ دِماءُ الْعِبَادِ(١٨)
مَعْشَرٌ لا وَلِيدُهُمْ طَاهِرُ الْمَهْـ دِ ، وَلَا كَهْلُهُمْ عَفِيفُ الْوِسادِ(١٩)
حَكَمُوا مِصرَ وَهْىَ حَاضِرَةُ الدُّنْـ يَا ، (فَأَمْسَتْ) وَقَدْ خَلَتْ فِى الْبَوَادِى(٢٠)

---

(١٤) المعالى : جمع معلاة (بفتح فسكون) : وهى الرفعة والشرف ، كالعُلا ، والعَلاء .

(١٥) الغيظ : غضب كامن للعاجز . يدعو على حسّاده بالموت غيظاً ، ويقول : إن احتمال الغيظ موت دائم لهم .

(١٦) الأناس (بضم الهمزة) : لغة فى الناس . واللؤم : دناءة الأصل ، وشحّ النفس، والخسّة، والمهانة . والعرض : النفس ، أو الحسب .

(١٧) الزخرف (فى الأصل) : الذهب ، ثم يشبّه به كلّ مموّه مزوّر . والخداع : مصدر خادعه : أى ختله ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . والجمر : القطع الملتهبة من النار ، الواحدة جمرة (بفتح فسكون) .

(١٨) المعنى : أنّ الواحد من هؤلاء المذمومين يظهر المسالمة والبشاشة وهو فى الحقيقة سفّاح قاتل سفّاك ويلاحظ أن النون الثانية المكسورة من كلمة « السنّ » هى أول الشطر الثانى .

(١٩) المعشر : الجماعة من الناس . والوليد : الصبىّ والصغير . والمهد : الموضع يهيّأ للصبىّ ويوطّأ . والكهل : من وخطه الشيب أى خالطه ، أو هو من جاوز الثلاثين ، أو أربعاً وثلاثين إلى إحدى وخمسين . وعفيف : صفة من العفّة: وهى الكفّ عن الحرام ، والامتناع عما يشين . والوساد : المتّكأ والمخدّة . وعدم طهر المهد ، وعدم عفّة الوساد : كناية عن اختلاط الأنساب ، وارتكاب الفواحش والمنكرات .

(٢٠) واو الجماعة فى « حكموا » : ضمير المهجوّين فى الأبيات السابقة : وهم رجال الحكومة الاستبداديّة فى عهد إسماعيل خديو مصر . والواو فى كلٍّ من الشطرين الأول والثانى : واو الحال . والجملة بعد كلٍّ منهما : جملة حاليّة . وحاضرة البلاد : المدينة الكبيرة التى يقيم فيها رجال الحكومة . ويراد بحاضرة الدنيا : أن مصر كانت – قبل أن يحكمها هؤلاء المهجوّون – نابهة الشأن، عظيمة القدر بين ممالك العالم، وأقطار الأرض . والكلمة التى بين قوسين فى أول الشطر الثانى « فأمست » تكملة اجتهاديّة من عندنا لنقص فى هذا البيت المطموس ، وبها استقام وزنه ، وتمّ معناه . وأمست : صارت . والإمساء فى الأصل : الدخول=

أَصْبَحَتْ مَنْزِلَ الشَّقَاء ، وكَانَتْ جَنَّةً لَيْسَ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ[٢١]

وَقَعُوا بَيْنَ (رِيفِهَا وَقُرَاهَا) بِضُرُوبِ الْفَسَادِ وَقْعَ الجَرَادِ[٢٢]

فِى زَمَانٍ قَدْ كَانَ لِلظُّلْمِ فِيهِ أَثَرُ النَّارِ فِى هَشِيمِ الْقَتَادِ[٢٣]

= فى وقت المساء . وهو خلاف أصبح إصباحاً . وخلت : مضت ، وذهبت . (وبابه سما) . والبوادى : جمع البادية : وهى الصحراء . والبادية : خلاف الحاضرة . والبداوة : ضدّ الحضارة .

وصم حكم المهجوّين بالفساد والإفساد ؛ إذ تأخّرت مصر فى عهدهم ، وفقدت بفساد حكمهم ما كان لها من حضارة ، وازدهار ، ورفاهة ، وصيت واسع بعيد ذائع . وصارت شبيهة بالبوادى فى الإمحال والخمول ، وشقاء العيش ، وجفاء الحياة .

(٢١) يريد أن مصر شقيت ، وشقى أهلها بحكم هؤلاء المهجوّين ، بعد أن كانت من أعظم بلاد الله سعادة ، وحضارة ، ونضارة ، وعمراناً . وهو تكرار لمعنى البيت السابق .

(٢٢) وقع وقعاً (من باب وضع) : أى سقط . والمراد : نزل ، وتنقّل . أو هو من قولهم : وقع إلى كذا وقعا : أى ذهب إليه ، وانطلق مسرعاً . وفى القرآن الكريم : « قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » الآية رقم ٧١ من سورة الأعراف . وفيه : « ولمّا وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك » الآية رقم ١٣٤ من سورة الأعراف . ويلاحظ أن هذا الفعل يستعمل كثيراً فى الشر والعذاب . وما بين القوسين فى هذا البيت تكملة اجتهادية ظنّيّة من عندنا ، جعلناها مكان الكلمات التى بولغ فى طمسها ؛ فلم نستطع قراءتها . والريف : أرض فيها زرع وخصب . ويراد بالقرى : ما عدا الريف : أى المدن والأمصار ، والأبنية المتصلة الآهلة العامرة . الواحدة قرية . وضروب : صنوف ، وأنواع ، وألوان : جمع ضرب (بفتح فسكون) . والجراد : فصيلة من الحشرات المستقيمة الأجنحة . الواحدة جرادة للذكر والأنثى . ومن أنواع الجراد ما يتزايد ، ويكثر ، ويغزو الزرع والشجر والثمر ؛ فلا يبقى ، ولا يذر . قيل : وإنّما سمّى بذلك ؛ لأنه يجرد الأرض جرداً : أى يأكل كل ما عليها .

صوّر الشاعر فى هذا البيت ما ذاع وشاع ، وعمّ البلاد والبقاع من سوء حكم المهجوّين ، وإفسادهم . وقال : إنهم افتنّوا فى الشرّ والفساد ؛ فكان ضروباً وأنواعاً . وفى تشبيه وقعهم بوقع الجراد روعة وبلاغة .

(٢٣) الهشيم : المهشوم ، المتحطّم ، المتكسّر . والقتاد : شجر صلب ، له شوك كالإبر .

فى البيت السابق وصم المهجوّين وحكمهم بالفساد ، والافتنان فى الإفساد . وهذا البيت تخصيص بعد تعميم ؛ فإن الظلم من ضروب الفساد . والشطر الثانى تصوير لفظاعة ظلمهم وشناعته ؛ فإن النار فى هشيم القتاد عميقة الأثر ، بالغة الضرر .

حِينَ لَمْ يُرْحَمِ الْكَبِيرُ ، وَلَمْ يُعْـ ... طَفْ عَلَى الْأُمَّهَاتِ وَالْأَوْلَادِ(٢٤)

تَحْتَ (رِجْزٍ) مِنَ الْعَذَابِ مُهِينٍ ... وَمُبِيرٍ مِنَ الْأَذَى رَعَّادِ(٢٥)

تِلْكَ آثَارُهُمْ تَدُلُّ عَلَى مَا ... كَانَ مِنْهُمْ مِنْ جَفْوَةٍ وَتَبَادِى(٢٦)

لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ الْمَعَالِىَ لِلْفَخْـ ... رِ كَمَنْ يَطْلُبُ الْعُلَا لِلزَّادِ(٢٧)

وَقَلِيلًا مَا يَصْلُحُ الْمَرْءُ لِلْمَجْـ ... دِ إِذَا كَانَ سَاقِطَ الْأَجْدَادِ(٢٨)

فَاعْتَصِمْ بِالنُّهَى تَفُزْ بِنَعِيمِ الدَّ ... هْرِ غَضًّا ، فَالْعَقْلُ خَيْرُ عَتَادِ(٢٩)

---

(٢٤) يراد بالكبير : الهرم ، المتقدم فى السن . ويراد بالأولاد : الأطفال ، والولدان .

والغرض التنديد بفظاظة المهجوين ، وغلظ طباعهم وأكبادهم ، وتجردهم من العطف والرحمة وقسوتهم حتى على الضعفاء من بنى الإنسان . وقد يكون المعنى أعم من هذا ؛ فالمهجوون أشاعوا بين الناس الظلم الفساد ؛ ففسدت أخلاقهم ، وقست قلوبهم ، وتقطعت بينهم أواصر المودة والرحمة ، وقل التعاطف والتناصر ، وغاض التراحم والتعاون ، وشقى الضعفاء كل الشقاء .

(٢٥) ما بين القوسين فى الشطر الأول « رجز » تكملة من عندنا اجتهادية ظنية ، جعلناها مكان ما بولغ فى طمسه ؛ فلم نستطع قراءته . والرجز (بكسر فسكون ، أو بضم فسكون) : العذاب . أو أشده ، وأسوؤه . والرجز (فى الأصل) : الاضطراب . وسمى العذاب رجزاً ؛ لما فيه من الفزع والاضطراب . و « من » فى شطرى البيت : بيانية . ومهين : مذل ، مخز : اسم فاعل من أهانه إهانة : أى استخف به وأذله ، واستهزأ به ، واستحقره . ومبير : مهلك مرد : اسم فاعل من أباره إبارة : أى أهلكه وأرداه . ورعاد : كثير الرعد ؛ وهو صوت السحاب . والمراد أنه أذى شديد مبيد .

(٢٦) الجفوة : الجفاء والإعراض . والتبادى : المجاهرة بالعداوة .

(٢٧) المعالى والعلا : الرفعة والعلاء والشرف ، الأولى جمع معلاة (بفتح الميم وسكون العين) ، والثانية جمع عليا ، مثل كبرى وكبر . والزاد فى الأصل : طعام يتخذ للسفر .

والمعنى : أن الذى يطلب المعالى للفخار والمباهاة بالمكارم والمناقب خير من ذلك الذى يطلبها للمال وعرض الدنيا .

(٢٨) الجد : العظمة والعلاء . والأجداد : جمع جد (بفتح الجيم أيضاً) وهو أبو الأب وأبو الأم .

(٢٩) اعتصم بالشىء : استمسك به وتقوى وامتنع . والنهى : العقل ، أو هو جمع نهية (بضم فسكون) وهى العقل ؛ لأنها تنهى عن القبيح . وغضا : ناضراً حسناً . والعتاد : العدة . يقال : أخذ للأمر عتاده ، وهو ما أعد من السلاح والدواب وآلة الحرب ونحوها .

إنَّ فى الْحِكْمَةِ الْبَلِيغَةِ لِلرُّو ح غِذاءً كَالطِّبِّ لِلْأَجْسَادِ [٣٠]

وقالَ يَرْثِى زَوْجَهُ * وَقَدْ وَرَدَ إلَيْهِ نَعْيُهَا وَهُوَ بِسَرَنْدِيبَ (**):

أَيَدَ الْمَنُونِ ! قَدَحْتِ أَىَّ زِنادِ وأَطَرْتِ أَيَّةَ شُعْلَةٍ بِفُؤَادِى [١]

أَوْهَنْتِ عَزْمِى وَهْوَ حَمْلَةُ فَيْلَقٍ وَحَطَمْتِ عُودِى وَهْوَ رُمْحُ طِرَادِ [٢]

لَمْ أَدْرِ هَلْ خَطْبٌ أَلَمَّ بِسَاحَتِى فَأَنَاخَ ، أَمْ سَهْمٌ أَصَابَ سَوَادِى [٣]؟

(٣٠) الحكمة : القول الصائب .

(*) يقال : هى زوج فلان ، وزوجته ، وامرأته ، وقرينته ، وحليلته . وفى القرآن الكريم « وقلنا يا آدم ، أسكن أنت وزوجك الجنة »الآية ٣٥ من سورة البقرة.والمرثيّة بهذه القصيدة : « عديلة يكن » بنت المشير « أحمد يكن باشا » : الزوجة الثانية للبارودى . تزوجها سنة ١٨٦٧ وسنّها تسع عشرة سنة ، وسنّه ثمان وعشرون سنة . وأنجب منها ابناً واحداً ، وأربع بنات . وتوفيت بالقاهرة سنة ١٨٨٣ وهى فى السابعة والثلاثين . ونعيت إليه بسرنديب ؛ فرثاها بهذه الدا ليّة المطوّلة (٦٧ بيتاً) . ورثاء الزوجات غير مألوف فى البيئة العربية ، وقليل جداً فى الشعر العربى؛فهى من المراثى الباكيات الباقيات ، ومن الروائع والبدائع الطارئة على فنون الشعر العربى .

(**) سرنديب (سيلان) : جزيرة كبيرة بالمحيط الهندى ، فى الجنوب الشرقى للهند . سكانها نحو عشرة ملايين نسمة ، أكثرهم بوذيّون ، وفيهم قلة من المسلمين وحاضرتها وأهم موانيها «كولمبو» . وفيما بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى قصدها تجار العرب ، وسموها « سرنديب » . وفى أواخر القرن الثامن عشر استولى عليها البريطانيون بعد البرتغاليين والهولنديين . وفى سنة ١٩٤٨ انتهى الحكم البريطانى وأصبحت « سيلان» دولة مستقلة فى نطاق الكومنولث البريطانى. وقد نُفى البارودىّ إليها مع ستة من قادة الثورة العرابية بعد إخفاقها فى صفر سنة ١٣٠٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) .

(١) الهمزة فى أول هذا البيت : حرف نداء . والمنون : المنيّة والموت ، وهى مؤنثة . وقدح الزند : أوراه : أى أخرج ناره . والزناد : جمع زند (بفتح فسكون) : وهو الحديدة ، أو العود الذى تقدح به النار ، وهو الأعلى ، والسفلى زندة . والقدح : ضرب أحد الزندين بالآخر لإخراج النار منهما ، وأىّ فى مثل هذا الموضع تفيد التعظيم والتفخيم ، والتهويل ، ومثلها أيّة فى الشطر الثانى . والشعلة : لهب النار ، وجمعها شعل (بضم ففتح) .

(٢) أوهنت : أضعفت . والعزم : الإرادة القاطعة القويّة . والحملة : الكرّة فى الحرب . والفيلق : الجيش ، أو الكتيبة العظيمة منه . وحطمت : كسرت ، (وبابه ضرب) . والعود من الخشب معروف ، ويريد به (هنا) : جسمه . والطراد : مصدر طارده يطارده مطاردة وطراداً . ومطاردة الأقران : حمل بعضهم على بعض فى الحرب ونحوها .

يقول مخاطباً الموت : إنك أضعفت عزمى وكان شديداً قويّاً كحملة الكتيبة العظيمة من الجيش ، وكسرت جسمى وكان صلباً متيناً كرمح القتال والطعان .

(٣) الخطب : النازلة الشديدة من نوازل الدهر . وألمّ به : نزل . والساحة : الموضع المتّسع أمام =

أَقْذَى الْعُيُونَ فَأَسْبَلَتْ بِمَدَامِعٍ ... تَجْرِى عَلَى الْخَدَّيْنِ كَالْفِرْصَادِ(٤)
ما كُنْتُ أَحْسَبُنِى أُرَاعُ لِحَادِثٍ ... حَتَّى مُنِيتُ بِهِ فَأَوْهَنَ آدِى(٥)
أَبْلَتْنِىَ الْحَسَرَاتُ حَتَّى لَمْ يَكَدْ ... جِسْمِى يَلُوحُ لِأَعْيُنِ الْعُوَّادِ(٦)
أَسْتَنْجِدُ الزَّفَرَاتِ وَهْىَ لَوَافِحٌ ... وَأُسَفِّهُ الْعَبَرَاتِ وَهْىَ بَوَادِى(٧)
لا لَوْعَتِى تَدَعُ الْفُؤَادَ ، ولَا يَدِى ... تَقْوَى عَلَى رَدِّ الْحَبِيبِ الْغَادِى(٨)
يا دَهْـرُ ، فِيمَ فَجَعْتَنِى بِحَلِيلَةٍ ؟ ... كَانَتْ خُلَاصَةَ عُدَّتِى وَعَتَادِى(٩)

الدار . وأناخ : استقرّ وأقام . والسهم : واحد النبل (بفتح فسكون) ، وهو ما يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . وسواد الإنسان وغيره : شخصه . وسواد القلب : حبّته ، كسويدائه . وكان الأولى أن يستفهم هنا بالهمزة بدل « هل » .

(٤) أقذى : أى الخطب . وأقذى العيون : جعل فيها القذى : وهو ما يسقط فى العين فيهيجها ، ويسيل دموعها . وأسبلت العيون الدمع : أرسلته . وأسبل الدمع : هطل ، وتتابع ، وانصبّ . والمدامع : المآق : وهى أطراف العيون ، ومجارى الدموع ، والمراد بها هنا : الدموع . والفرصاد (بكسر فسكون) : صبغ أحمر.

(٥) أحسبنى : أظننى . وأراع (بالبناء للمفعول) : أفزع وأخاف . وحادث الدهر : واحد حوادثه ، وهى نوبه ونوازله . ومنيت : أبتليت واختبرت (بالبناء للمجهول فى الثلاثة) . وبه أى بهذا الحادث . وأوهن : أضعف . والآد : القوّة .

(٦) أبلتنى : أنحلتنى وهزلتنى ، وأصلها من أبلى الإنسان ثوبه : أى صيّره باليًا خلقًا . والحسرات : جمع حسرة : وهى التأسّف والتلهّف الشديد على الشىء الفائت . ويلوح : يبدو ويظهر ، والعوّاد : جمع عائد : اسم فاعل من عدت المريض أعوده عيادة (بكسر العين) .

(٧) أستنجد الزفرات : أستعين بها على تخفيف الحزن . والزفرات : جمع زفرة (بفتح فسكون) : وهى إخراج النفَس طويلا ممدودًا . ولوافح : جمع لافحة أى محرقة . وأسفّه العبرات . أنسبها إلى السفه (بفتحتين) : وهو الجهل ، والطيش ، وخفّة النفس لنقصان العقل . والعبرات : جمع عبرة (بفتح فسكون) : وهى الدمعة قبل أن تفيض ، أو تردّد البكاء فى الصدر . وبواد : جمع بادية أى ظاهرة . والمعنى : أستعين على تخفيف لوعة الحزن ، وإطفاء ناره بالزفرات وهى محرقة ، وأنسب العبرات إلى السفه حينما تسيل وتنهمر .

(٨) اللوعة : حرقة الحزن وألمه . والغادى : الذاهب ، وأصله من الغدوّ : وهو الذهاب فى أول النهار .

(٩) فجعه (كنعه) : أوجعه . والحليلة : الزوجة . وخلاصة الشىء : خياره ، وما خلص منه . والعدّة والعتاد : ما يعدّه المرء لاتّقاء حوادث الدهر ، كالمال والسلاح وآلات الحرب وغير ذلك ، ويقال : أخذ للأمر عتاده وعدّته ، أى تأهّب له واستعدّ .

إنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ ضَنَايَ لِبُعْدِها أَفَلا رَحِمْتَ مِنَ الأَسى أَوْلادِي (١٠)؟

أَفْرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنَمْنَ تَوَجُّعاً قَرْحَى الْعُيُونِ رَوَاجِفَ الأَكْبَادِ (١١)

أَلْقَيْنَ دُرَّ عُقُودِهِنَّ ، وَصُغْنَ مِنْ دُرِّ الدُّمُوعِ قَلائِدَ الأَجْيَادِ (١٢)

يَبْكِينَ مِنْ وَلَهٍ فِرَاقَ حَفِيَّةٍ كَانَتْ لَهُنَّ كَثِيرَةَ الإِسْعَادِ (١٣)

فَخُدُودُهُنَّ مِنَ الدُّمُوعِ نَدِيَّةٌ وَقُلُوبُهُنَّ مِنَ الْهُمُومِ صَوَادِي (١٤)

أَسَلِيلَةَ الْقَمَرَيْنِ ! أَيُّ فَجِيعَةٍ حَلَّتْ لِفَقْدِكِ بَيْنَ هَذَا النَّادِي (١٥)؟

أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَاكِ رَهِينَةً فِي جَوْفِ أَغْبَرَ قَاتِمِ الأَسْدَادِ (١٦)!

---

(١٠) الضنى : مصدر ضنى يضنى (من باب صدى) : أى مرض مرضاً مخامراً ، كلما ظنّ برؤه نكس . والأسى : الحزن ، (وبابه صدى) .

(١١) أفردتهن : الخطاب للدهر ، والضمير يعود إلى « الأولاد » فى البيت السابق ، والولد يطلق على الذكر والأنثى . يقول : إنك أيها الدهر جعلت فتياتى وحيدات منفردات ،قد غيّب النوى أباهن ، وغيّب الموت أمهن . وتوجعاً : مصدر توجّع : بمعنى تشكّى وتألّم ، أى لم ينمن بسبب التوجّع والتألّم . وقرحى : جمع قريح بمعنى مقروح : أى مجروح . والمراد أن عيونهن تقرّحت لكثرة البكاء . ورواجف جمع راجفة : أى مضطربة . والمراد بالأكباد : القلوب . وكنى برجيف أكبادهن عن اضطراب حالهن ، وما أصابهن من الفزع والرعب .

(١٢) الدرّ : جمع درّة : وهى اللؤلؤة العظيمة ؛ والعقود جمع عقد (بكسر فسكون) : وهو القلادة . وصاغ الصائغ الذهب ونحوه يصوغه صوغاً : جعله حليّا . والأجياد : جمع جيد (بكسر الجيم) : وهو العنق.

(١٣) الوله (بفتح الواو واللام) : الحزن ، أو ذهاب العقل حزناً . والحفيّة : صفة على وزن فعيلة بمعنى فاعلة من حفى به (كرضى) حفاوة : إذا بالغ فى إكرامه ، وأظهر السرور والفرح به ، وأكثر السؤال عن حاله . والإسعاد : مصدر أسعده : أى جعله سعيداً ، أو أسعده : بمعنى أعانه .

(١٤) ندية : مبتلّة . والهموم : جمع همّ : وهو الحزن . وصواد : جمع صاد : أى عطشان . فى الشطر الأوّل أن دموعهن لا تفتأ تجرى على خدودهن ؛ فهى على الدوام نديّة بكثرة بكائهن . وفى الشطر الثانى أن قلوبهن محترقة بسبب الحزن والجزع والهمّ الشديد .

(١٥) السليل : الولد ، والأنثى سليلة . والقمران : الشمس والقمر ، وأراد بالقمرين : أبويها العظيمين الماجدين . والفجيعة : الرزيئة والمصيبة . وحلّت : نزلت . ويراد بنادى الشاعر : أهله ، وعشيرته ، ومن يحزنون لحزنه .

(١٦) عزعليه أن يكون كذا يعزّ (كيقلّ ويملّ) : صعب واشتدّ . ورهينة : محبوسة . وفى جوف أغبر : فى جوف قبر أغبر . وأغبر : صفة من الغبرة (بضم فسكون) : وهى لون الغبار . وقاتم: أسود مغبرّ ، صفة من القتمة (بضم فسكون) : وهى سواد ليس بشديد . والأسداد : جمع سدّ (بفتح السين) : وهو الحاجز بين الشيئين . والمراد الجدران .

أَوْ أَنْ تَبِينِى عَنْ قَرَارَةِ مَنْزِلٍ كُنْتِ الضِيَاءَ لَهُ بِكُلِّ سَوَادِ(١٧)!
لَوْ كَانَ هَذَا الدَّهْرُ يَقْبَلُ فِدْيَةً بِالنَّفْسِ عَنْكِ ؛ لَكُنْتُ أَوَّلَ فَادِى(١٨)
أَوْ كَانَ يَرْهَبُ صَوْلَةً مِنْ فَاتِكٍ لَفَعَلْتُ فِعْلَ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادِ(١٩)
لَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ لَيْسَ بِنَاجِعٍ فِيها سِوَى التَّسْلِيمِ وَالْإِخْلَادِ(٢٠)
فَبِأَىِّ مَقْدُرَةٍ أَرُدُّ يَدَ الْأَسَى عَنِّى وَقَدْ مَلَكَتْ عِنَانَ رَشَادِى(٢١)؟
أَفَأَسْتَعِينُ الصَّبْرَ وَهْوَ قَسَاوَةٌ ؟ أَمْ أَصْحَبُ السُّلْوَانَ وَهْوَ تَعَادِى(٢٢)؟

---

(١٧) البين : الفراق والبعد ، (وبابه باع) ، والقرار والقرارة : ما قرّ فيه الإنسان ، أى ثبت وسكن واستقر . والسواد : الظلام . وقد يكون المراد به : سواد العين ، أو سواد القلب .

(١٨) فداه : يفديه فداء وفدى (بالمدّ والقصر) : أعطى شيئاً فأنقذه ، والفدية : ذلك الشيء المعطى. يقول : لو كان الدهر يقبل أن تفدى نفس بنفس لكنت أوّل من يفديك .

(١٩) يرهب : يخاف ، (وبابه طرب) . والصولة : السطوة ، والاستطالة ، والوثوب ، والهجوم . وفاتك : جرىء شجاع : وهو اسم فاعل من فتك به : أى انتهز منه فرصة فقتله ، أو جرحه مجاهرة . والحارث بن عباد البكرىّ : كان من سادات العرب وشعرائهم وأبطالهم فى الجاهلية ، ومن أيامه المشهورة يوم قضّة (بقاف مكسورة وضاد مشدّدة) : وهى موضع كانت فيه وقعة كبيرة بين قبيلتى بكر وتغلب ، ويوم تحلاق اللمم الذى انتصر فيه لقومه بنى بكر من بنى عمّهم «تغلب» قوم كليب فى حرب البسوس المشهورة .

(٢٠) الأقدار : جمع قدر (بفتحتين) وهو القضاء الذى يقدّره الله تبارك وتعالى . وليس بناجع : ليس بنافع ، وهو اسم فاعل من نجع الدواء ونحوه : إذا ظهر أثره ، (وبابه خضع) . والتسليم : مصدر سلّم أمره لله : أى رضى بحكمه . والإخلاد : مصدر أخلد إليه : إذا ركن ، وسكن إليه ، واطمأنّ ، والمراد الإخلاد إلى قضاء الله تعالى وقدره ، والرضا بحكمه ، والصبر على بلائه .

(٢١) المقدرة (مثلثة الدال) : القدرة والقوّة . والأسى : الحزن . والعنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابّة . والرشاد : الهدى والصلاح ، وهو ضدّ الغيّ والجهل والفساد .

(٢٢) استعنته ، واستعنت به ، فأعاننى . والقساوة : القسوة ، مصدر قسا قلبه : إذا غلظ واشتدّ . وصحبه (من باب سلم) صحابة (بفتح الصاد) وصحبة (بضم الصاد) . والسلوان (بضم السين) : مصدر سلاه ، وسلا عنه (كدعاه ورضيه) : أى صبر عنه ، ونسيه . والتعادى : التباعد . والمعنى (كما يزعم الشاعر) : أن الصبر على فراق الأحبّة يعدّ من القساوة ، وصلابة القلب ، وجمود العاطفة ، وأن السلوّ عنهم تباعد عن الوفاء لهم . وسيصرّح بهذا المعنى فى البيت الآتى .

جَزَعُ الْفَتَى سِمَةُ الْوَفَاءِ ، وَصَبْرُهُ غَدْرٌ يَدُلُّ بِهِ عَلَى الْأَحْقَادِ(٢٣)
وَمِنَ الْبَلِيَّةِ أَنْ يُسَامَ أَخُو الْأَسَى رَعْيَ التَّجَلُّدِ وَهْوَ غَيْرُ جَمَادِ(٢٤)
هَيْهَاتَ بَعْدَكِ أَنْ تَقَرَّ جَوَانِحِي أَسَفاً لِبُعْدِكِ ، أَوْ يَلِينَ مِهَادِي(٢٥)
وَلَهِي عَلَيْكِ مُصَاحِبٌ لِمَسِيرَتِي وَالدَّمْعُ فِيكِ مُلَازِمٌ لِوِسَادِي(٢٦)
فَإِذَا انْتَبَهْتُ فَأَنْتِ أَوَّلُ ذِكْرَتِي وَإِذَا أَوَيْتُ فَأَنْتِ آخِرُ زَادِي(٢٧)
أَمْسَيْتُ بَعْدَكِ عِبْرَةً لِذَوِي الْأَسَى فِي يَوْمِ كُلِّ مُصِيبَةٍ وَحِدَادِ(٢٨)

---

(٢٣) الجزع : ضد الصبر ، مصدر جزع جزعاً (من باب تعب) : إذا ضعفت قوّته عن حمل ما نزل به ، ولم يجد صبراً . والسمة : العلامة . والوفاء : ضدّ الغدر . والأحقاد : جمع حقد ، وهو الضغن (بكسر فسكون فيهما) ، والانطواء على العداوة والبغضاء .

(٢٤) البليّة : المصيبة ، وهي اسم من ابتلاه : أي اختبره . وسامه الأمر (من باب قال) كلّفه إيّاه ، وألزمه به ، وحمله عليه . والأسى : الحزن ، وأخو الأسى : الحزين . والرعي : مصدر رعيت أمره : أي حفظته ، كراعيته . والتجلّد : الصبر . وهو في الأصل مصدر تجلّد : إذا تكلّف الجلد (بفتحتين) : وهو الصلابة والشدّة والقوّة ، ورعي التجلّد : المحافظة على الصبر .

(٢٥) هيهات : كلمة معناها البعد . وتقرّ (بكسر القاف وفتحها) : تستقرّ وتسكن ، وتثبت ، وتطمئنّ . والجوانح : أضلاع الصدر ، الواحدة جانحة . والأسف : أشدّ الحزن . والمهاد : الفراش ، وهو يكنى بخشونة مهاده ، وعدم استقرار جوانحه عن اضطراب أمره ، وشدّة همّه وبلباله .

(٢٦) الوله (بفتح الواو واللام) : الحزن ، أو ذهاب العقل من الحزن . والمسيرة : السير ، كالمسير والتسيار . ويريد بالمسيرة : يقظة النهار . والوساد : المتكأ ، والمخدّة ، كالوسادة .

(٢٧) انتبه من نومه : استيقظ . والذكرة (بضم الذال) : ضد النسيان ، كالذكر ، والذكرى (بكسر الذال فيهما) : وأنت أول ذكرتي أي أنت أول شيء أذكره بقلبي ولساني . وأوى إلى المنزل ونحوه : سكن وأقام . والزاد في الأصل : الطعام يتّخذه المسافر لسفره . ويقصد بآخر زاده : أنه يختم نهاره بذكرها قبل نومه .

والمعنى : أنه يذكرها بالأسى والحسرة نهاراً وليلاً ، وأن الجزع لايكاد يفارقه ، أو يهادنه .

(٢٨) العبرة (بكسر العين) : اسم من الاعتبار : وهو الاتّعاظ ، والعبرة (أيضاً) : العجب ، واعتبر منه : تعجّب . وذوو الأسى : المحزونون . والحداد (بكسر الحاء) : الحزن ، وهو في الأصل : مصدر حدّت المرأة تحدّ (بضم الحاء وكسرها) حداداً (بالكسر) : إذا امتنعت عن الزينة والخضاب بعد وفاة زوجها . يقول : لقد صرت بعدك مثار عجب المحزونين في كلّ مصيبة وحزن .

والمعنى : أنّ حزنه شديد جداً ، بحيث يتعجّب منه كل محزون ، ثم هو دائم متكرّر يتجدّد عند كلّ حزن ، ويوم كلّ مصيبة .

مُتَخَشِّعاً أَمْشِى الضَّرَاءَ ، كَأَنَّنِى أَخْشَى الْفُجَاءَةَ مِنْ صِيَالِ أَعَادِى(٢٩)

مَا بَيْنَ حُزْنٍ بَاطِنٍ أَكَلَ الْحَشَا بِلَهِيبِ سَوْرَتِهِ ، وَسُقْمٍ بَادِى(٣٠)

وَرَدَ الْبَرِيدُ بِغَيْرِ مَا أَمَّلْتُهُ تَعِسَ الْبَرِيدُ ، وَشَاهَ وَجْهُ الْحَادِى(٣١)

فَسَقَطْتُ مَغْشِيًّا عَلَىَّ كَأَنَّمَا نَهَشَتْ صَمِيمَ الْقَلْبِ حَيَّةُ وَادِى(٣٢)

وَيْلُمِّهِ رُزْءًا أَطَارَ نَعِيُّهُ بِالْقَلْبِ شُعْلَةَ مَارِجٍ وَقَّادِ(٣٣)

قَدْ أَظْلَمَتْ مِنْهُ الْعُيُونُ ، كَأَنَّمَا كَحَلَ الْبُكَاءُ جُفُونَهَا بِقَتَادِ(٣٤)

عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُ عَلَىَّ بِقَدْرِ مَا عَظُمَتْ لَدَىَّ شَمَاتَةُ الْحُسَّادِ(٣٥)

---

(٢٩) متخشعاً : متضرعاً متذللاً . والضراء (بفتح الضاد) : الاستخفاء ، وأمشى الضراء : أمشى مستخفياً . وأخشى : أخاف . والفجاءة : الهجوم والمفاجأة والمباغتة . والصيال (بكسر الصاد) : مصدر صال على قرنه : إذا سطا عليه ، واستطال ، ووثب فى القتال . أو هو مصدر صاوله : أى واثبه وغالبه .

(٣٠) حزن باطن : أى حزن خفىّ غير ظاهر . والحشا : ما اشتملت عليه الضلوع ، أو هو ما حواه الجوف . وسورة الحزن (بفتح السين وسكون الواو) : حدّته وشدّته . والسقم : المرض . وباد : ظاهر .

(٣١) ورد : وافى وحضر . وأمّلته : رجوته وترقّبته . وتعس : هلك أو سقط . وشاه : قبح . والحادى : اسم فاعل من حدا الرجل بالإبل ، وحدا الإبل : إذا حثّها على السير بالحداء (بضم الحاء) : وهو الغناء لها . يتخيّل أن الرسالة التى وردت عليه نقلتها الإبل ، على عادة العرب فى ذلك .

(٣٢) غشى عليه (بالبناء للمجهول) : أغمى عليه . ونهشته الحيّة : لسعته ، (وبابه قطع) . وصميم القلب . وسطه . والوادى : كل متفرج بين جبال أو تلال أو آكام ، يكون منفذاً للسيل . وحيّة الوادى : أخبث الحيّات ، وأشدّها فتكاً ، ولهذا يقولون : فلان حيّة الوادى : إذا كان داهياً ، خبيثاً ، شديد الشكيمة ، حامياً لحوزته .

(٣٣) ويلمه (بكسر اللام وضمها) : أصلها ويل لأمه ، فركبوه وجعلوه كالشىء الواحد . والويل : حلول الشرّ ، أو هى كلمة عذاب . والرزء : المصيبة . ونعيّه : نعى الرزء : أى : نبؤه والإخبار به ، أو ناعيه والمخبر به . والشعلة : لهب النار . والمارج : النار لادخان لها . ووقّاد : صيغة مبالغة من وقدت النار (من باب وعد) أى توقّدت واشتعلت .

(٣٤) منه : أى من الرزء المذكور فى البيت السابق ، والمعنى بسببه . وكحل عينه (من باب نصر) : وضع فيها الكحل . والجفون : جمع جفن (بفتح فسكون) : وهو غطاء العين من أعلاها وأسفلها . والقتاد : شجر صلب له شوك كالإبر .

(٣٥) مصيبته : أى مصيبة الرزء ، والمراد : وقوعه وتأثيره . ولدىّ : عندى . والشماتة : الفرح ببليّة العدوّ ومصيبته . والحسّاد : جمع حاسد .

لَامُوا عَلَى جَزَعِي ، ولَمَّا يَعْلَمُوا أَنَّ الْمَلَامَةَ لا تَرُدُّ قِيَادِي[٣٦]

فَلَئِنْ « لَبِيدُ » قَضَى بِحَوْلٍ كَامِلٍ فِي الْحُزْنِ ؛ فَهْوَ قَضَاءُ غَيْرِ جَوَادِ[٣٧]

لَبِسَ الزَّمَانَ عَلَى اخْتِلَافِ صُرُوفِهِ دُوَلًا ، وَفَلَّ عَرَائِكَ الْآبَادِ[٣٨]

كَمْ بَيْنَ عَادِيٍّ تَمَلَّى عُمْرَهُ حِقَباً : وَبَيْنَ حَدِيثَةِ الْمِيلَادِ[٣٩]

---

(٣٦) لامه على كذا (من باب قال) لوماً وملاماً وملامة (بفتح الميم فيهما) : عذله . والجزع ضدّ الصبر : مصدر جزع (من باب طرب) : إذا ضعفت قدرته عن حمل ما نزل به ، ولم يجد صبراً . والقياد (ككتاب) : حبل تقاد به الدابّة ، كالمقود ، وردّ القياد : كناية عن المنع .

يقول : إنهم لاموني على جزعي ولم يعلموا أن اللوم لا يمنعني من الجزع .

(٣٧) منع «لبيد» من الصرف ضرورة شعريّة . وهو لبيد بن ربيعة من بني عامر بن صعصعة أحد بطون هوازن من مضر ، وأمّه من بني عبس ، كان في الجاهلية شريفاً جواداً شجاعاً شاعراً حكيماً ، وقد أدرك الإسلام وأسلم ، وعمّر طويلا حتى مات في أوائل خلافة معاوية سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، وقيل إنه عاش ثلاثين ومائة سنة . والبارودى في هذا البيت يشير إلى أبيات لبيد المشهورة التي قالها لابنتيه عند ما حضرته الوفاة وهي :

تمنّى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟

فقوما فقولا بالذى قد علمتما ولا تخمشا وجهاً ، ولا تحلقا الشعر

وقولا : هو المرء الذى لا خليله أضاع ، ولا خان الصديق ، ولا غدر

إلى الحول ، ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملا فقد اعتذر

فكانتا ترثيانه ولا تندبانه ، وأقامتا على ذلك حولا ، ثم انصرفتا . وقضى يقضى قضاء : حكم . والحول : السنة . وغير جواد : غير كريم ولا سخىّ .

يقول : إذا كان لبيد العامرىّ قد حكم بأن المرء إذا حزن عاماً على من يموت من أهله وأحبائه فقد صار ذا عذر ؛ فإن لبيداً كان في هذا الحكم بخيلاً غير كريم .

(٣٨) لبس الزمان : تملّى به . وهذا من قولهم : فلان قد لبس الناس : إذا عاش معهم ، ولبس قوماً : تملّى بهم دهراً . وصروف الزمان : أحداثه ، واحدها صرف (بفتح فسكون) . والدول : جمع دولة ، وهى انقلاب الزمان ، ومن كلامهم : الدهر دول وعقب ونوب (بضم ففتح في الثلاثة) ، والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ، ومرة عليهم ، وتداولوا الشيء بينهم : إذا حصل في يد هذا تارة ، وفي يد هذا أخرى ، والاسم من كل ذلك الدولة (بفتح الدال وضمها) . وفلّ : كسر . والعرائك جمع عريكة وهى الطبيعة أو النفس . يقال : هو لين العريكة : إذا كان سلس الخلق . والآباد : جمع أبد (بفتحتين) : وهو الدهر والمعنى : أن لبيداً العامرىّ عمّر طويلا ، وتغلّب على الزمان .

(٣٩) عادىّ : قديم معمّر ، كأنّه منسوب إلى عاد قبيلة هود عليه السلام ، وهى من قبائل العرب

هَذَا قَضَى وَطَرَ الْحَيَاةِ، وتِلْكَ لَمْ ... تَبْلُغْ شَبِيبَةَ عُمْرِهَا الْمُعْتَادِ(٤٠)

فَعَلَامَ أَتْبَعُ ما يَقُولُ؟ وَحُكْمُهُ ... لا يَسْتَوِى لِتَبَايُنِ الْأَضْدَادِ(٤١)

سِرْ يَا نَسِيمُ فَبَلِّغِ الْقَبْرَ الَّذِى ... بِحِمَى الْإِمَامِ تَحِيَّتِى وَوِدَادِى(٤٢)

أَخْبِرْهُ أَنِّى بَعْدَهُ فِى مَعْشَرٍ ... يَسْتَجْلِبُونَ صَلاحَهُمْ بِفَسَادِى(٤٣)

طُبِعُوا على حَسَدٍ، فَأَنْتَ تَرَاهُمُ ... مَرْضَى الْقُلُوبِ أَصِحَّةَ الْأَجْسَادِ(٤٤)

وَلَوَ انَّهُمْ عَلِمُوا خَبِيئَةَ ما طَوَى ... لَهُمُ الرَّدَى، لَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ(٤٥)

= القديمة البائدة. وتملى عمره: استمتع به. وحقباً: سنين كثيرة، واحدتها حقبة (بكسر فسكون)، والحقبة من الدهر: مدة لا وقت لها. والميلاد: وقت الولادة. يقول: إن الفرق بعيد، والبون شاسع بين لبيد الذى عمّر، وتمتع بعمره مدة طويلة؛ وبين زوجه القصيرة العمر، الحديثة الميلاد.

والمعنى: أنه إذا كان مثل لبيد يحزن عليه سنة، فإن مثل زوجته جدير بأن يحزن عليه دهراً طويلا.

(٤٠) قضى وطره: بلغه وناله. والوطر: الحاجة. وقضى وطر الحياة: نال بغيته وحاجته منها. والشبيبة: الحداثة، وكذا الشباب، وهو خلاف الشيب.

يقول: إن لبيداً العامرىّ نال من الحياة حاجته وبغيته، أما المرثية بهذه القصيدة فإنها ماتت ولم تبلغ نهاية الشباب

(٤١) لا يستوى: لا يستقيم، ولا يصحّ ولا يستقرّ. والتباين: التباعد والاختلاف والافتراق. والأضداد: جمع ضدّ، وهو المخالف، يقال: هذا ضدّ هذا: أى خلافه.

يقول: على أىّ شىء اتبع ما يقوله لبيد من الاكتفاء بسنة يبكيها المرء على الميت العزيز؛ وحكمه هذا لا يستقيم هنا؛ لاختلاف الحالين.

(٤٢) الحمى (فى الأصل): المكان المحمىّ الذى لا يقرب، ولا يجترأ عليه، والمراد بحمى الإمام: مقبرة الإمام الشافعىّ (رضى الله عنه) بالقاهرة فى جنوبيّها الشرقىّ. وبلّغ القبر: أى بلّغ من فيه، ويريد زوجه.

(٤٣) أخبره: أى أخبر القبر. والمعشر: الجماعة من الناس. ومعنى الشطر الثانى: أن هؤلاء الناس يطلبون ما ينفعهم، ويصلح شأنهم من طريق الإضرار بى، وإفساد أمورى.

(٤٤) هو مطبوع على اللؤم وغيره، وقد طبع على كذا: أى فطر عليه وخلق. والحسد: أن يتمنّى الحاسد زوال نعمة المحسود، وانتقالها إليه، (وبابه دخل). ومرضى: جمع مريض. وأصحة: جمع صحاح (بفتح الصاد): بمعنى صحيح. يقال: رجل صحيح وصحاح، وقوم صحاح وأصحّاء وأصحّة.

(٤٥) الخبيئة: ما خبئ وستر وغاب. وطوى: أخفى وكتم. والردى: الهلاك. وقدح بالزند: أخرج به النار. والزناد: جمع زند، وهو الحديدة أو العود الذى تقدح به النار. ومعنى لم يقدحوا بزناد: لم يحمّلوا أنفسهم عناء السعى المشوب بالطمع والحسد.

كُلُّ امْرِئٍ يَوْماً مُلاقٍ رَبَّهُ | والنَّاسُ فى الدُّنْيَا عَلَى مِيعَادِ(٤٦)
وَكَفَى بِعَادِيَةِ الْحَوَادِثِ مُنْذِراً | لِلْغَافِلِينَ ، لَوِ اكْتَفَوْا بِعَوَادِى(٤٧)
فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ نَظْرَةَ عاقِلٍ | لِمَصَارِعِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ(٤٨)
عَصَفَ الزمَانُ بِهِمْ ، فَبَدَّدَ شَمْلَهُمْ | فى الأَرْضِ بَيْنَ تَهَائِمٍ ونِجَادِ(٤٩)
دَهْرٌ كَأَنَّا مِنْ جَرَائِرِ سِلْمِهِ | فى حَرِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وجِلادِ(٥٠)
أَفْنَى الْجَبَابِرَ مِنْ مَقَاوِلِ « حِمْيَرٍ » | وأُولِى الزَّعَامَةِ مِنْ « ثَمُودَ » و« عَادِ »(٥١)

---

(٤٦) معنى الشطر الثانى من هذا البيت : أن الناس يعيشون فى الدنيا إلى أجل محدود ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون .

(٤٧) عادية الحوادث : شرّها وشدّتها ، وجمعها عواد ، وهى اسم فاعل من عدا عليه عدواً (بفتح العين) وعدواناً (بضم العين) : إذا ظلم ، وتجاوز الحدّ .

(٤٨) مصارع : جمع مصرع (بفتح فسكون) : اسم مكان ، أو مصدر ميمىّ من صرعه (كمنعه) : أى أهلكه ، والصرع (فى الأصل) : الطرح على الأرض .

(٤٩) بدّد شملهم : فرّقهم . وتهامة : مكان بعينه بجزيرة العرب ، ولعل الشاعر أطلقه على كل منخفض من الأرض ؛ ولذلك ساغ جمعه على تهائم . والنجاد : جمع نجد (بفتح فسكون) : وهو ما ارتفع من الأرض .

(٥٠) الجرائر : جمع جريرة : وهى الجناية والذنب . والكريهة : الحرب . والجلاد : القتال ، وأصله القتال بالسيوف .

يقول : إذا سالم الدهر : فإنه يتبع سلمه مصائب ونوباً لها ما للحرب من شدّة وفتك .

(٥١) أفنى : أى الدهر . والجبابر : جمع جبّار : وهو العظيم القوىّ ، والعاتى ، والمتكبّر . والمقاول : جمع مقول (بكسر فسكون) : وهو الملك ، أو الملك من ملوك حمير (بكسر فسكون ففتح) ، كالقيل (بفتح فسكون) . أو هو دون الملك الأعلى . وحمير : قبيلة أو قبائل تنسب إلى حمير بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان : جدّ كثير من القبائل اليمنيّة ، وكانوا يسكنون أول أمرهم غربىّ صنعاء ، وأنشئوا مملكة كانت عاصمتها (ظفار) ، واستمرت دولتهم من أواخر القرن الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادىّ ، وقد امتازت هذه الدولة بالفتوح ، ومحاربة الفرس والحبشة . وقد تسمّى العرب كلّ دول اليمن الحميريّين ؛ لذيوع صيت حمير ، واتّساع شهرتها قبيل الإسلام . والزعامة : الرياسة والشرف والسيادة . وثمود : قوم صالح . وعاد : قوم هود ، وهما قبيلتان من قبائل العرب البائدة ؛ جاء ذكرهما فى القرآن كثيراً ، وكانت الأولى تسكن الحجر (بكسر فسكون) المسمّى الآن بمدائن صالح أو وادى القرى بين الحجاز والشام ، وكانت الثانية تسكن الأحقاف فى جنوبىّ الجزيرة العربية .

وَرَمَى «قُضَاعَةَ» فَاسْتَبَاحَ دِيَارَهَا بِالسُّخْطِ مِنْ «سَابُورَ» ذِي الْأَجْنَادِ(٥٢)
وَأَصَابَ عَنْ عُرُضٍ «إِيادَ» فَأَصْبَحَتْ مَنْكُوسَةَ الْأَعْلَامِ فِي «سِنْدَادِ»(٥٣)
فَسَلِ «الْمَدَائِنَ» فَهْيَ مَنْجَمُ عِبْرَةٍ عَمَّا رَأَتْ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِي(٥٤)
كَرَّتْ عَلَيْهَا الْحَادِثَاتُ، فَلَمْ تَدَعْ إِلَّا بَقَايَا أَرْسُمٍ وَعِمَادِ(٥٥)
واعْكُفْ عَلَى الْهَرَمَيْنِ، واسْأَلْ عَنْهُمَا «بَلْهِيبَ» فَهْوَ خَطِيبُ ذَاكَ الْوَادِي(٥٦)

(٥٢) رمى: أي الدهر. وقضاعة: قبيلة يمنية، تنسب إلى عمرو بن مالك بن حمير (بكسر فسكون ففتح)، وقضاعة: لقبه. وكانت تسكن شمالي الحجاز، وجنوبي الشام. واستباح ديارها: استحلها، وتغلب عليها. والسخط: الغضب. وسابور: معرب «شاه بور»، ولقبه «خواست»: وهو ابن أردشير، وأحد الأكاسرة: ملوك الفرس. وقد بنى مدينة على بعد خمسة وعشرين فرسخاً من شيراز. والأجناد: جمع جند: وهم العسكر والأعوان والأنصار.

(٥٣) أصاب: أي الدهر، وأصاب عن عرض (بضم فسكون، أو بضمتين): أي من غير مبالاة، ولا اكتراث. وهو من قولهم: يضربون الناس على عرض: أي لا يبالون من يضربون. وإياد: إحدى القبائل العدنانية، وتنسب إلى إياد بن نزار بن معد بن عدنان، وكانت تسكن قرب الأبلة جنوبي العراق العربي. ومنكوسة: اسم مفعول من نكسه: أي قلبه على رأسه، كنكّسه تنكيساً. وسنداد: منازل لإياد، نزلتها لما قاربت الريف، وهو أسفل سواد الكوفة، سميت باسم سنداد من ملوك الفرس.

(٥٤) المدائن: مدينة على نهر دجلة، جنوبي بغداد، تبعد عنها بنحو ستة فراسخ، سميت بذلك لعظمها، وتنسب إلى كسرى أنو شروان بن قباذ، وبها إيوانه المشهور، وكانت حاضرة مملكة الفرس قبل الإسلام. ومنجم عبرة: مطلع اعتبار، ومظهر عظة. وحاضر: مقيم بالحاضرة، وهي خلاف البادية. وباد: مقيم بالبادية.

(٥٥) كرّت: حملت، وهجمت، وترددت، وأصله من قولهم: كرّ الفارس في الحرب (من باب ردّ): إذا فرّ للجولان، ثم عاد للقتال. والأرسم: جمع رسم: وهو الأثر أو بقيته، أو ما لا شخص له من الآثار. والعماد: الأبنية الرفيعة، واحدتها عمادة (بكسر العين).

(٥٦) عكف على الشيء (من بابي دخل، وجلس) أقبل عليه، ولزمه، ولم ينصرف عنه. ويريد بالهرمين: هرم الملك «خوفو»، وهرم خليفته الملك «خفرع»، وهما من ملوك الأسرة الرابعة التي حكمت مصر قبل ميلاد المسيح عيسى عليه السلام بنحو ثلاثة آلاف عام. وكان عصرها أزهى عصور الدولة المصرية القديمة.

و «بلهيب»: «أبو الهول»: نصب فرعوني ضخم هائل، وأثر رائع بديع خالد على مقربة من هرمي «خوفو» و «خفرع». نحت من صخرة واحدة. جسمه جسم أسد، ووجهه وجه إنسان. وكانوا يرمزون بهما إلى عظمة فرعون، وشدة بأسه، ورجاحة عقله. طوله نحو سبعة وخمسين متراً، وارتفاعه نحو عشرين متراً، وعرض وجهه نحو أربعة أمتار. يروعك فيه الضخامة، مع جمال الفن ودقة النحت وحسن التصوير، والإغراق في القدم، والخلود على الزمن. وهو من آثار الأسرة الرابعة، وقيل: بل أقيم في عهد الأسرة الثالثة والوادي (في الأصل): كل منفرج بين الجبال، والتلال، والآكام، يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً. ويراد به هنا: المكان الذي يجمع ذلك النصب أو الصنم، أو التمثال، والأهرام الثلاثة: الأكبر، والأوسط، والأصغر، بالقرب من مدينة الجيزة، في جنوبيها الغربي.

تُنْبِئْكَ أَلْسِنَةُ الصُّمُوتِ بِمَا جَرَى فِي الدَّهْرِ مِنْ عَدَمٍ وَمِنْ إِيجَادِ(٥٧)
أُمَمٌ خَلَتْ ، فَاسْتَعْجَمَتْ أَخْبَارُهَا حَتَّى غَدَتْ مَجْهُولَةَ الْإِسْنَادِ(٥٨)
فَعَلَامَ يَخْشَى الْمَرْءُ صَرْعَةَ يَوْمِهِ ؟ أَوَ لَيْسَ أَنَّ حَيَاتَهُ لِنَفَادِ(٥٩)؟
يَتْعَسُ امْرُؤٌ نَسِيَ الْمَعَادَ ، وَمَا دَرَى أَنَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ بِالْمِرْصَادِ(٦٠)
فَاسْتَهْدِ «يَامَحْمُودُ» رَبَّكَ ،وَالْتَمِسْ مِنْهُ الْمَعُونَةَ ، فَهْوَ نِعْمَ الْهَادِي(٦١)
واسْأَلْهُ مَغْفِرَةً لِمَنْ حَلَّ الثَّرَى بِالْأَمْسِ ، فَهْوَ مُجِيبُ كُلِّ مُنَادِي(٦٢)
هِيَ مُهْجَةٌ وَدَّعْتُ يَوْمَ زِيَالِهَا نَفْسِي، وَعِشْتُ بِحَسْرَةٍ وَبِعَادِ(٦٣)

---

(٥٧) تنبئك : تخبرك ، وهو أمر مجزوم فى جواب «اسأل» فى البيت السابق . والصموت : مصدر صمت : بمعنى سكت (من باب دخل) .
والمعنى : أنّ ألسنة هذه الآثار الصامتة تخبرك بما حدث على مرّ الزمان من مظاهر العدم والوجود ، والموت والحياة ، والخراب والعمران .

(٥٨) خلت : مضت وذهبت . واستعجمت أخبارها : استبهمت وخفيت ، وأصله من قولهم : استعجم الرجل : إذا سكت ، ولم يقدر على الكلام أصلا . والإسناد (بكسر الهمزة) : مصدر أسند القول إلى قائله : أى نسبه إليه . أو هو بفتح الهمزة : جمع سند (بفتحتين) ، والسند فى الأصل : معتمد الإنسان ، وأسناد الأخبار : أصولها التى تعتمد عليها ، وتستند إليها .
(٥٩) الصرعة : اسم مرة من صرعه (كمنعه): أى أهلكه ، والصرع فى (الأصل) : الطرح على الأرض .

(٦٠) تعس (من بابى قطع ، وتعب) عثر ، وسقط ، وأكبّ على وجهه ، وشقى ، وهلك . والمعاد : الآخرة ، والمرجع ، والمصير . والمنون : الموت ، وهى مؤنثة ، وتكون واحدة وجمعاً ، وأصلها من المنّ : بمعنى القطع ، أو النقص ، لأنها تقطع المدد ، وتنقص العدد . والمرصاد : الطريق ، والمكان يرصد فيه العدوّ ، وقعد له بالمرصاد : أى بطريق الارتقاب والانتظار .
(٦١) الهدى : الرشاد ، واستهديت الله تعالى : طلبت هدايته . والالتماس : الطلب .
(٦٢) حلّ : نزل ، يقال : حلّ بالبلد ، وحلّ البلد ، يتعدى بنفسه وبالباء (وبابه قعد) . والثرى (بوزن الحصى) : الأرض ، أو الأرض الندية .

(٦٣) المهجة : الروح والنفس . والزيال (بكسر الزاى) : المفارقة : مصدر زايله مزايلة وزيالاً : أى فارقه . والحسرة : التأسّف والتلهف الشديد على الشىء الفائت . والبعاد (بكسر الباء) : البعد ، أو الإبعاد ، أو المجانبة ، أو التفرقة : مصدر باعده مباعدة وبعاداً ، كتباعد منه وابتعد .

تَاللهِ ما جَفَّتْ دُمُوعِيَ بَعْدَمَا ... ذَهَبَ الرَّدَى بِكِ يَا ابْنَةَ الأَمْجَادِ(٦٤)

لاتَحْسَبِينِي مِلْتُ عَنْكِ مَعَ الْهَوَى ... هَيْهَاتَ ، ما تَرْكُ الْوَفاءِ بِعَادِي(٦٥)

قَدْ كِدْتُ أَقْضِي حَسْرَةً لَوْ لَمْ أَكُنْ ... مُتَوَقِّعًا لُقْيَاكِ يَوْمَ مَعَادِي(٦٦)

فَعَلَيْكِ مِنْ قَلْبِي التَّحِيَّةُ كُلَّمَا ... نَاحَتْ مُطَوَّقَةٌ عَلَى الأَعْوَادِ(٦٧)

وَقَالَ يَرْثِي وَلَدَهُ * :

كَيْفَ طَوَتْكَ الْمَنُونُ يا وَلَدِي ؟ ... وَكَيْفَ أَوْدَعْتُكَ الثَّرَى بِيَدِي(١) ؟

وَاكَبِدِي يا «عَلِيُّ» بَعْدَكَ ! لَوْ ... كَانَتْ تَبُلُّ الْغَلِيلَ (وَاكَبِدِي)(٢)

فَقْدُكَ سَلَّ الْعِظَامَ مِنِّي ، وَرَ ... دَّ الصَّبْرَ عَنِّي ، وَفَتَّ فِي عَضُدِي(٣)

---

(٦٤) الردى : الهلاك ، وفعله (كصدى) . والأمجاد : جمع على غير قياس لمجيد أو ماجد ، وهما صفتان من المجد ، وهو الكرم والعزّ والشرف .

(٦٥) الهوى : ميل النفس وانحرافها نحو شهواتها ، ويطلق على الميل المذموم . وهيهات : كلمة معناها البعد . والعاد : جمع عادة . يقول : إن ترك الوفاء ليس من عاداته .

(٦٦) أقضي : أموت . والحسرة : الحزن ، والتأسّف ، وشدّة التلهّف على الفائت . (وفعله من باب تعب) . ومتوقّع : اسم فاعل من توقّعت الأمر : بمعنى انتظرت حصوله . واللقيا : اللقاء ، والمقابلة . ويوم معاده : يوم آخرته ، أو يوم رجوعه إلى الله تبارك وتعالى .

(٦٧) ناحت الحمامة : سجعت ، أى ردّدت صوتها . والمطوّقة : الحمامة ذات الطوق ، وهي التي في عنقها ريش يخالف لونه لون باقي جسمها ، ويشبه الطوق . والأعواد : الأغصان ، واحدها عود .

(*) توفيت بالقاهرة سنة ١٨٨٣ « عديلة يكن » زوجة البارودى ، وبعد وفاتها تزوج في المنفى « أمينة يعقوب سامى » في أواخر سنة ١٨٨٥ وهو في نحو السادسة والأربعين . وهي ابنة زميله في المنفى والجهاد اللواء « يعقوب سامى » : أحد قادة الثورة العرابية . ومن أولادهما في المنفى « على » المرثى بهذه القصيدة . وفي بعض أبياتها دلالة على أنه مات في طفولته .

(١) المنون : الموت ، وهي مؤنثة . والثرى : الأرض ، أو التراب . والاستفهام في شطرى البيت : للتعجّب والتحسّر .

(٢) الغليل : شدّة العطش وحرارته ، والمراد به (هنا) : حرقة الوجد ، وشدة الحزن .

(٣) السلّ : (بفتح السين) : انتزاعك الشيء ، وإخراجه في رفق ، والمراد بسلّ العظام : إضعاف الجسم ، واستلاب قوّته . وفتّ في عضده : كسر قوّته ، وأضعفه . والدال الأولى في « ردّ » آخر الشطر الأوّل .

كَمْ لَيْلَةٍ فِيكَ لا صَبَاحَ لَهَا سَهِرْتُهَا بَاكِياً بِلَا مَدَدِ(٤)
دَمْعٌ وَسُهْدٌ ، وَأَىُّ نَاظِرَةٍ تَبْقَى عَلَى الْمَدْمَعَيْنِ والسَّهَدِ(٥)؟
لَهْفِى عَلَى لَمْحَةِ النَّجَابَةِ ! لَوْ دَامَتْ إِلَى أَنْ تَفُوزَ بِالسَّدَدِ(٦)
مَا كُنْتُ أَدْرِى إِذْ كُنْتُ أَخْشَى عَلَيْكَ الْعَيْنَ أَنَّ الْحِمَامَ بِالرَّصَدِ(٧)
فَاجَأَنِى الدَّهْرُ فِيكَ مِنْ حَيْثُ لا أَعْلَمُ خَتْلاً ، والدَّهْرُ كَالأَسَدِ(٨)
لَوْلَا اتِّقَاءُ الْحَيَاءِ لَاعْتَضْتُ بِالْحِلْمِ هُيَاماً يَحِيقُ بِالْجَلَدِ(٩)
لَكِنْ أَبَتْ نَفْسِى الْكَرِيمَةُ أَنْ أَثْلِمَ حَدَّ الْعَزَاءِ بِالْكَمَدِ(١٠)
فَلْيَبْكِ قَلْبِى عَلَيْكَ ، فَالْعَيْنُ لَا تَبْلُغُ بِالدَّمْعِ رُتْبَةَ الْخَلَدِ(١١)

---

(٤) لا صباح لها : طويلة ، طوّلها الحزن ، والهم ، والسهر . وبلا مدد : بلا معين ، ولا مساعد .

(٥) السهد (بضم السين وسكون الهاء وبفتحهما) : الأرق، والسهر، كالسهاد (وبابه طرب) . والناظرة : العين . والمدمعان : مثنى مدمع ، وهو مجرى الدمع من العين .
والمعنى : أن العيون لا يمكن أن تبقى سليمة مبصرة مع شدة الحزن، وكثرة البكاء، وطول السهر .

(٦) لهف (كفرح) : حزن وتحسر ، ويالهفى : كلمة للتحسر . واللمحة : واحدة الملامح ، وهى المشابه ، وما بدا من محاسن الوجه . والنجابة : الكرم . والسدد : الاستقامة والصواب ، والمراد الكمال وبلوغ الغاية .

(٧) يريد بالعين (هنا) : الإصابة بالعين . والحمام (بكسر الحاء) : قضاء الموت وقدره . والرصد : الارتقاب والانتظار .

(٨) الختل : مصدر ختله (من باب ضرب) : أى خدعه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم .

(٩) اعتاض : أخذ العوض ، وهو البدل ، واعتضت هنا : بمعنى استبدلت . والحلم : الأناة ، والعقل ، والصبر . والهيام : الجنون من الجزع والحزن ، وأصله الجنون من العشق . ويحيق به : يحيط به ، ويصيبه ، ويأتى عليه . وهو مضارع حاق (من باب باع) أو أحاق . والجلد : القوة والصبر .

(١٠) ثلمه (من باب ضرب) : كسره . والعزاء : الصبر . والكمد : الحزن المكتوم ، (وبابه طرب) .

(١١) الخلد (بفتح الخاء واللام) : القلب . يريد أن حزن العين الذى يظهر فى إرسالها دمعها لا يصل إلى منزلة حزن القلب .

إنْ يَكُ أَخْنَى الرَّدَى عَلَيْكَ ، فَقَدْ ... أَخْنَى أَلِيمُ الضَّنَى عَلَى جَسَدِى (١٢)
عَلَيْكَ مِنِّى السَّلَامُ تَوْدِيعَ لا ... قَالٍ ، ولَكِنْ تَوْدِيعَ مُضْطَهَدِ (١٣)

وقال فى صِباهُ يَرْثِى وَالِدَهُ* :

لا فَارِسَ الْيَوْمَ يَحْمِى السَّرْحَ بِالْوَادِى ... طَاحَ الرَّدَى بِشِهَابِ الْحَرْبِ والنَّادِى (١)
مَاتَ الَّذِى تَرْهَبُ الأَقْرَانُ صَوْلَتَهُ ... وَيَتَّقِى بَأْسَهُ الضِّرْغَامَةُ الْعَادِى (٢)
هَانَتْ لِمَيْتَتِهِ الدُّنْيَا ، وَزَهَّدَنَا ... فَرْطُ الأَسَى بَعْدَهُ فى الْمَاءِ والزَّادِ (٣)
هَلْ لِلْمَكَارِمِ مَنْ يُحْيِى مَنَاسِكَهَا؟ ... أَمْ لِلضَّلَالَةِ بَعْدَ الْيَوْمِ مِنْ هَادِى (٤)؟
جَفَّ النَّدَى ،وانْقَضَى عُمْرُ الْجَدَا ،وَسَرَى ... حُكْمُ الرَّدَى بَيْنَ أَرْوَاحٍ وَأَجْسَادِ (٥)

---

(١٢) أخنى عليه : أهلكه . والردى : الهلاك . والضنى : المرض (وبابه صدى) ، وهو يريد المرض الذى جلبه إليه الحزن .

(١٣) قال : مبغض كاره : وهو اسم فاعل من قلاه يقليه (كرماه يرميه) قلى (بكسر ففتح) : أى أبغضه . ومضطهد : مقهور ، مغلوب على أمره .

(*) ولد البارودى فى اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٨٣٩ . وفى الآستانة « إستانبول » أقام نحو ست سنوات (من سنة ١٨٥٧ إلى سنة ١٨٦٣) وهو بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين . وفى ترجمته التى كتبها ونشرها صديقاه الشيخان : ياقوت المرسى ، وعطية حسنين أنه نظم هذه الدالية لمّا ناهز العشرين . وهذا الحساب الزمنى يرجّح ، بل يؤكّد أنه نظمها وهو فى الآستانة فى نحو سنة ١٨٦٠ فى عنفوان شبابه ، وفوران شاعريّته . وهى من أوائل ما أعلنه من شعره الناضج الرصين .

(١) السرح : الأنعام والدوابّ والماشية التى تسرح : أى ترعى الكلأ . وطاح : ذهب . والردى : الهلاك . والشهاب : الماضى فى الأمر ، وأصله الشعلة الساطعة من النار .

(٢) ترهب : تتخاف . والأقران : جمع قرن ، (بكسر فسكون) ، وهو كفؤك فى الشجاعة ، ومن يقاومك فى قتال أو غيره . والصولة : السطوة ، والاستطالة . والبأس : الشدّة فى الحرب . والضرغامة : الأسد . والعادى : الجائر الجبّار ، وهو اسم فاعل من عدا : بمعنى جار ، وظلم ، ووثب ، وجاوز الحدّ .

(٣) الميتة (بفتح فسكون) : اسم مرة من مات يميت . وفرط الأسى : غلبة الحزن وشدّته .

(٤) المناسك (فى الأصل) : العبادات ، أو مواضعها . والمراد بها (هنا) : أعمال الكرم ومظاهره وفعل الخير . وأم (هنا) : للإضراب .

(٥) الندى : الفضل ، والكرم ، والسخاء . والجدا : العطاء والفضل . وسرى : سار . والردى : الهلاك .

فَلْتَمْرَحِ الْخَيْلُ لَهْوًا فى مَقَاوِدِهَا ... وَلْتَصْدَإِ الْبِيضُ مُلْقَاةً بِأَغْمَادِ[٦]
مَضَى ، وَخَلَّفَنِى فِى سِنٍّ سَابِعَةٍ ... لا يَرْهَبُ الْخَصْمُ إِبْرَاقِى وإِرْعَادِى[٧]
إِذَا تَلَفَّتُّ لَمْ أَلْمَحْ أَخَا ثِقَةٍ ... يَأْوِى إِلَىَّ ، ولا يَسْعَى لِإِنْجَادِى[٨]
فَالْعَيْنُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دَمْعِهَا وَزَرٌ ... والْقَلْبُ لَيْسَ لَهُ مِنْ حُزْنِهِ فَادِى[٩]
فَإِنْ أَكُنْ عِشْتُ فَرْدًا بَيْنَ آصِرَتِى ... فَهَأَنَا الْيَوْمَ فَرْدٌ بَيْنَ أَنْدَادِى[١٠]
بَلَغْتُ مِنْ فَضْلِ رَبِّى ما غَنِيتُ بِهِ ... عَنْ كُلِّ قَارٍ مِنَ الْأَمْلاكِ أَوْ بَادِى[١١]
فَمَا مَدَدْتُ يَدِى إِلَّا لِمَنْحِ يَدٍ ... وَلَا سَعَتْ قَدَمِى إِلَّا لِإِسْعَادِ[١٢]
تَبِعْتُ نَهْجَ أَبِى فَضْلًا وَمَحْمِيَةً ... حَتَّى بَرَعْتُ ، وَكَانَ الْفَضْلُ لِلْبَادِى[١٣]

(٦) المرح : شدّة الفرح والنشاط . والمقاود : جمع مقود (بكسر فسكون): وهو الحبل يشدّ فى الزمام ، أو فى اللجام ، وتقاد به الدابّة . والبيض : السيوف ، واحدها أبيض .

(٧) يرهب : يخاف . والإبراق والإرعاد : مصدران لأبرقت السماء وأرعدت ، والمراد بهما : التهديد والوعيد . ولد محمود سامى البارودىّ سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) . وفى هذا البيت إشارة إلى تاريخ وفاة والده : سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) .

(٨) لم ألمح : لم أبصر ، ولمحه : أبصره بنظر خفيف . والإنجاد : مصدر أنجده أى أعانه . و « لا » هنا زائدة . أو أن الكلام : ولا أجد أحداً يسعى لإنجادى ، فحذف .
يقول : إننى أبحث وأتلفّت فلا أرى صديقاً ذا ثقة يطمئنّ إلىّ ، وأطمئنّ إليه ، ويعيننى عند الحاجة .

(٩) الوزر (بفتح الواو والزاى) : المعقل والملجأ والمعتصم . وفاد : اسم فاعل من فداه يفديه فداء وفدى (بكسر الفاء فيهما) : إذا أعطى شيئاً فأنقذه .

(١٠) الآصرة : الرحم والقرابة . والأنداد : جمع ندّ (بنون مكسورة ودال مشددة) : وهو المثل والنظير .
يقول : إنه إذا كان بعد وفاة أبيه قد عاش غلاماً يتيماً وحيداً بين ذوى قرابته ؛ فهو اليوم فى شبابه منفرد بالعلا والمجد بين نظرائه .

(١١) الأملاك : جمع ملك (بتثليث الميم وسكون اللام): وهو ما يملكه الإنسان من مال وعقار . والقارى من الأملاك : الذى يكون فى القرية . والبادى : الذى يكون فى البادية ، وهى ضدّ الحاضرة .

(١٢) المنح : الإعطاء . واليد : النعمة والصنيعة والإحسان .

(١٣) النهج : الطريق الواضح ، والمراد السّنة والسيرة . والمحمية (كمنزلة) : مصدر حمى الرجل الشىء يحميه حمياً (من باب رمى) وحماية (بكسر الحاء) ومحمية : إذا منعه وصانه ؛ وهى أيضاً مصدر حمى الإنسان من الشىء (كرضى) : إذا أنف منه ، واستنكف ، واستكبر . و برع الرجل (من بابى خضع وظرف) : =

أَبِي ، وَمَنْ كَأَبِي فِي الْحَيِّ نَعْلَمُهُ؟ أَوْفَى وَأَكْرَمُ فِي وَعْدٍ وَإِيعَادِ[١٤]
مُهَذَّبُ النَّفْسِ ، غَرَّاءٌ شَمَائِلُهُ بَعِيدُ شَأْوِ الْعُلَا ، طَلَّاعُ أَنْجَادِ[١٥]
قَدْ كَانَ لِي وَزَرًا آوِي إِلَيْهِ إِذَا غَاضَ الْمَعِينُ ، وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي[١٦]
لا يَسْتَبِدُّ بِرَأْيٍ قَبْلَ تَبْصِرَةٍ ولا يَهُمُّ بِأَمْرٍ قَبْلَ إِعْدَادِ[١٧]
تَرَاهُ ذَا أُهْبَةٍ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ كَاللَّيْثِ مُرْتَقِباً صَيْدًا بِمِرْصَادِ[١٨]

وَقَالَ وَهُوَ بِسَرَنْدِيبَ(*) يَتَشَوَّقُ إِلَى مِصْرَ :

تَرَحَّلَ مِنْ وَادِي الْأَرَاكَةِ بِالْوَجْدِ فَبَاتَ سَقِيماً لا يُعِيدُ ، وَلَا يُبْدِي[١]
سَقِيماً تَظَلُّ الْعَائِدَاتُ حَوَانِيًا عَلَيْهِ بِإِشْفَاقٍ ، وَإِنْ كَانَ لا يُجْدِي[٢]

= فاق أصحابه في العلم وغيره . والبادى : أصلها : البادئ : وهى اسم فاعل من بدأت الشيء : إذا فعلته ابتداء ، وسبقت به غيرى .

(١٤) الوعد : مصدر وعده يعده . والإيعاد : مصدر أوعده ، والأوّل يستعمل فى الخير ، والثانى فى الشرّ .

(١٥) غراء : شريفة كريمة ، وقد نوّنت لضرورة وزن الشعر . والشمائل : الأخلاق والسجايا والطبائع ، واحدتها شمال (بكسر الشين) . والشأو : الأمد والغاية . والأنجاد : جمع نجد : وهو ما ارتفع من الأرض ، وطلاع أنجاد : ضابط للأمور ، ركّاب لصعابها ، شجاع غالب .

(١٦) الوزر (بفتح الواو والزاى) : المعقل والملجأ والمعتصم . وغاض : قلّ ونقص . والمعين : الماء الظاهر الجارى على وجه الأرض .

(١٧) استبدّ به : تفرّد . وهمّ بالأمر : أراده .

(١٨) الأهبة (بضم الهمزة) : العدّة . والمرصاد : طريق الارتقاب والانتظار .

(*) سرنديت « سيلان » جزيرة كبيرة بالمحيط الهندى ، فى الجنوب الشرقى للهند . نفى إليها البارودى عقب الثورة العرابية ، فى صفر سنة ١٣٠٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) . وانظر التعريف بهذه الجزيرة فى صفحة ٢٣٧ من هذا الجزء .

(١) ترحّل : انتقل وسار ، يريد نفسه . والأراكة : شجرة يستاك بقضبانها ، وهى طويلة ناعمة ، كثيرة الورق والأغصان ، خوّارة العود ، ولها ثمر فى عناقيد يسمى البرير ، يملأ العنقود الكفّ . وقد كنى الشاعر بوادى الأراكة عن مصر . والوجد : المحبّة . وسقيم : صفة من السقم : وهو المرض ، (وفعله كفرح) .

(٢) العائدات : جمع عائدة ، اسم فاعل من عدت المريض أعوده عيادة . وحوان : جمع حانية ، اسم فاعل من حنا عليه : أى عطف . والإشفاق : العطف ، والرحمة ، والحنان : مصدر أشفق عليه : أى عطف ، وخاف عليه . ولا يجدى : لا ينفع .

يَخَلْنَ بِهِ مَسًّا أَصَابَ فُؤَادَهُ ... وَلَيْسَ بِهِ مَسٌّ سِوَى حُرَقِ الْوَجْدِ (٣)
بِهِ عِلَّةٌ إِنْ لَمْ تُصِبْهَا سَلَامَةٌ ... مِنَ اللهِ كَادَتْ نَفْسَ حَامِلِهَا تُرْدِى (٤)
وَمِنْ عَجَبِ الْأَيَّامِ أَنِّى مُولَعٌ ... بِمَنْ لَيْسَ يَعْنِيهِ بُكَائِى وَلَا سُهْدِى (٥)
أَبِيتُ عَلِيلًا فِى «سَرَنْدِيبَ» سَاهِرًا ... أُعَالِجُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ لَوْعَتِى وَحْدِى (٦)
أَدُورُ بِعَيْنِى لَا أَرَى وَجْهَ صَاحِبٍ ... يَرِيعُ لِصَوْتِى، أَوْ يَرِقُّ لِمَا أُبْدِى (٧)
وَمِمَّا شَجَانِى بَارِقٌ طَارَ مَوْهِنًا ... كَمَا طَارَ مُنْبَثُّ الشَّرَارِ مِنَ الزَّنْدِ (٨)
يُمَزِّقُ أَسْتَارَ الدُّجُنَّةِ ضَوْءُهُ ... فَيَنْسِلُهَا مَا بَيْنَ غَوْرٍ إِلَى نَجْدِ (٩)
أَرِقْتُ لَهُ، وَالشُّهْبُ حَيْرَى كَلِيلَةٌ ... مِنَ السَّيْرِ، وَالْآفَاقُ حَالِكَةُ الْبُرْدِ (١٠)

---

(٣) خال يخال : ظنّ . والمسّ : الجنون ، والمراد بالفؤاد : العقل . والحرق : جمع حرقة (بضم فسكون) : وهى اسم من تحرّق الشيء بالنار ، واحترق . والوجد : المحبة .

(٤) تردى : مضارع أرداه : أى أهلكه ، وفاعله هى : أى العلّة ، و«نفس» : مفعوله مقدّم عليه .

(٥) مولع : مغرى ، من أولع بالشيء (بالبناء للمجهول) يولع ولوعاً (بفتح الواو) : أى علق به وأحبّه . ويعنيه : يهمّه . عنانى كذا يعنينى : عرض لى، وشغلنى ، فأنا معنىّ به : أى مشغول مهتمّ . والسهد : السهر .

(٦) اللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حبّ ، أو همّ ، أو مرض .

(٧) يريع لصوتى (من باب باع) : يرجع إليه ، ويهتمّ به .

(٨) شجانى : حزننى . والبارق : اسم فاعل من برق الضوء ونحوه : أى لمع وتلألأ ، وبرق النجم : طلع . ويريد بالبارق: البرق . وموهناً : فى نصف الليل ، أو بعد ساعة منه . ومنبثّ : منتشر متفرّق . والشرار : ما يتطاير من النار ، الواحدة شرارة (بفتح الشين فيها) . والزند : العود الذى تقدح به النار : أى تورى ، وتشعل . ولعلّه رأى هذا البرق من ناحية مصر .

(٩) الأستار : جمع ستر (بكسر فسكون) : وهو الغطاء والحجاب . والدجنّة : الظلمة . وينسلها يمزّقها ، ويسقطها شيئاً فشيئاً ، وأصله من نسل الطائر ريشه (من بابى ضرب ونصر) ، ونسل الرجل الصوف والوبر : إذا أسقطه . والغور : ما اطمأنّ من الأرض . والنجد : ما ارتفع من الأرض .

(١٠) أرقت : سهرت . وله : أى للبارق . والشهب (ككتب) : الدرارىّ، وهى كواكب متوقّدة متلألئة . وكليلة : صفة من كلّ يكلّ (كخفّ يخفّ) كلالة (بفتح الكاف) : أى تعب ، وأعيا . والآفاق : النواحى ، واحدها أفق (بضمتين) . وحالكة : شديدة السواد . والبرد (بضم فسكون) الثوب ، أو أكسية يلتحف بها ، واحدتها بردة (بضم فسكون) .

فَبِتُّ كَأَنِّى بَيْنَ أَنْيَابِ حَيَّةٍ مِنَ الرُّقْطِ ، أَوْ فِى بُرْثُنَىْ أَسَدٍ وَرْدِ[١١]
أُقَلِّبُ طَرْفِى ، وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا قَتِيرٌ مِنَ الْيَاقُوتِ يَلْمَعُ فى سَرْدِ[١٢]
وَلَا صَاحِبٌ غَيْرُ الْحُسَامِ مَنُوطَةٌ حَمَائِلُهُ مِنِّى عَلَى عَاتِقٍ صَلْدِ[١٣]
إِذَا حَرَّكَتْهُ رَاحَتِى لِمُلِمَّةٍ تَطَلَّعَ نَحْوِى يَشْرَئِبُّ مِنَ الْغِمْدِ[١٤]
أَشَدُّ مَضَاءً مِنْ فُؤَادِى عَلَى الْعِدَا وَأَبْطَأُ فى نَصْرِى عَلَى الشَّوْقِ مِنْ « فِنْدِ »[١٥]
أَقُولُ لَهُ وَالْجَفْنُ يَكْسُو نِجَادَهُ دُمُوعاً كَمُرْفَضِّ الْجُمَانِ مِنَ الْعِقْدِ[١٦]

---

(١١) الرقط (بضم فسكون) : جمع رقطاء (وزان حمراء) : وهى الحية التى يشوب سوادها نقط بياض ، أو العكس ، والإسم الرقطة (بضم فسكون) . والبرثن (بوزن القنفذ) من السباع : كالإصبع من الإنسان : أو هو الكف مع الأصابع ، أو هو مخلب الأسد . وأسد ورد : جرىء ، أو وردىّ اللون : وهو الذى بين الكميت والأشقر .

(١٢) الطرف : العين . والقتير (كأمير) : رءوس مسامير الدروع . والياقوت : جوهر معروف ، وأجوده الأحمر الرمانى . والسرد : اسم جامع للدروع وسائر الحلق .

(١٣) الحسام : السيف القاطع . ومنوطة : معلقة . والحمائل : جمع حمالة (بكسر الحاء) : وهى علاقة السيف . والعاتق : ما بين المنكب والعنق . وصلد : قوىّ صلب .

(١٤) الراحة : بطن الكف . والملمة : النازلة من نوازل الدهر وحوادثه . ويشرئب : يرتفع ، كمن يمد عنقه إلى شىء لينظره . والغمد : غلاف السيف وجرابة وقرابة (بوزن كتاب فى الثلاثة) .

(١٥) العدا : (بضم العين وكسرها) : جمع على غير قياس لعدوّ ، أو هو اسم جمع . وفند(بكسر فسكون) : اسم أبى زيد ، مولى عائشة بنت سعد بن أبى وقاص ، أرسلته سيدته ليأتيها بنار ، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر ، فتبعهم وأقام بها سنة ، ثم قدم فأخذ ناراً ، وجاء يعدو ، فعثر ، وتبدد الجمر ، فقال : تعست العجلة ، فقيل : « أبطأ من فند » ، وضرب به المثل فى البطء .

يقول : إن سيفه على أعدائه نافذ ماض ، أشد من قلبه مضاء ، ولكنه إذا استنصره على مغالبة الشوق كان بطيئاً غاية البطء .

(١٦) جفن العين : غطاؤها من أعلاها وأسفلها ، والمراد به هنا : العين نفسها . والنجاد(بكسر النون) : حمائل السيف وعلاقاته . والمرفض : المنثور المتفرق . والجمان : اللؤلؤ ، أو هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة ، الواحدة جمانة (بضم الجيم) ، وفى أساس البلاغة : الجمان حب من فضة يعمل على شكل اللؤلؤ ، وقد يسمى به اللؤلؤ .

يقول لسيفه ودموعه تنهمر من عينيه فتكسو حمائل السيف كأنها لآلىء انتثرت من قلادة : لقد كنت لى عوناً على الدهر . . . ؛ فمقول القول فى البيت الآتى .

لَقَدْ كُنْتَ لِي عَوْناً عَلَى الدَّهْرِ مَرَّةً فَمَالِي أَرَاكَ الْيَوْمَ مُنْثَلِمَ الْحَدِّ؟ (١٧)
فَقَالَ إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ سَوْرَةَ الْهَوَى وَأَنْتَ جَلِيدُ الْقَوْمِ، مَا أَنَا بِالْجَلْدِ (١٨)
وَهَلْ أَنَا إِلَّا شِقَّةٌ مِنْ حَدِيدَةٍ أَلَحَّ عَلَيْهَا الْقَيْنُ بِالطَّرْقِ وَالْحَدِّ؟ (١٩)
فَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنَّنِي وَاهِنُ الْقُوَى أُعَلَّقُ فِي خَيْطٍ، وَأُحْبَسُ فِي جِلْدِ (٢٠)
فَدُونَكَ غَيْرِي، فَاسْتَعِنْهُ عَلَى الْجَوَى وَدَعْنِي مِنَ الشَّكْوَى، فَدَاءُ الْهَوَى يُعْدِي (٢١)
خَلِيلَيَّ! هَذَا الشَّوْقُ لا شَكَّ قَاتِلِي فَمِيلَا إِلَى «الْمِقْيَاسِ» إِنْ خِفْتُمَا فَقْدِي (٢٢)
فَفِي ذَلِكَ الْوَادِي الَّذِي أَنْبَتَ الْهَوَى شِفَائِيَ مِنْ سُقْمِي، وَبُرْئِيَ مِنْ وَجْدِي (٢٣)
مَلَاعِبُ لَهْوٍ، طَالَمَا سِرْتُ بَيْنَهَا عَلَى أَثَرِ اللَّذَّاتِ فِي عِيشَةٍ رَغْدِ (٢٤)
إِذَا ذَكَرَتْهَا النَّفْسُ سَالَتْ مِنَ الْأَسَى مَعَ الدَّمْعِ، حَتَّى لَا تَتَهْنَهُ بِالرَّدِّ (٢٥)
فَيَا مَنْزِلًا رَقْرَقْتُ مَاءَ شَبِيبَتِي بِأَفْنَائِهِ بَيْنَ الْأَرَاكَةِ وَالرَّنْدِ! (٢٦)

---

(١٧) منثلم : منكسر .

(١٨) سورة الهوى : سطوة الحب وشدته ، وتباريحه . وجليد وجلد : شديد قوى صبور .

(١٩) الشقة (بكسر الشين) : القطعة المشقوقة ، والشقة من العصا والثوب وغيرهما : ما شق مستطيلا . والقين : الحداد ، وصانع السيوف . والطرق : الضرب بالمطرقة . والحد : مصدر حد الصانع السيف ونحوه (من باب رد) : إذا شحذه : أى مسحه بحجر أو مبرد ليصير حاداً ، أى قاطعاً ماضياً .

(٢٠) واهن : ضعيف .

(٢١) الجوى : هوى باطن ، والحزن ، والحرقة ، وشدة الوجد . والهوى : الحب .

(٢٢) يريد بالمقياس : روضة المقياس : وهى جزيرة فى النيل شرقى الجيزة ، وغربى مصر القديمة .

(٢٣) السقم : المرض . والوجد : الحزن .

(٢٤) عيشة رغد : واسعة ، طيبة ، لينة .

(٢٥) الأسى : الحزن . وتهنه : تكف ، نهنهه عن الأمر فتنهنه : كفه وزجره ، فكف .

(٢٦) رقرق الماء وغيره : صبه رقيقاً ، والمراد أنه قضى فى هذا المنزل زمن شبابه . والأفناء : جمع فناء (بكسر الفاء) : وهو ما امتد من جوانب الدار ، أو هو سعة أمامها ، ويسمى الوصيد . والأراكة : شجرة طويلة ناعمة ، كثيرة الورق والأغصان ، خوارة العود ، ولها ثمر فى عناقيد يسمى البرير ، يملأ العنقود الكف ، وشجر الأراك يستاك بقضبانه . والرند : شجر طيب الرائحة ، وأصله من شجر البادية .

سَرَتْ سَحَرًا ، فَاسْتَقْبَلَتْكَ يَدُ الصَّبَا ... بِأَنْفَاسِهَا ، وَانْشَقَّ فَجْرُكَ بِالْحَمْدِ (٢٧)
وَزَرَّ عَلَيْكَ الأُفْقُ طَوْقَ غَمَامَةٍ ... خَضِيبَةِ كَفِّ الْبَرْقِ حَنَّانَةِ الرَّعْدِ (٢٨)
فَلَسْتُ بِنَاسٍ لَيْلَةً سَلَفَتْ لَنَا ... بِوَادِيهِ ، وَالدُّنْيَا تَغُرُّ بِمَا تُسْدِي (٢٩)
إِذِ الْعَيْشُ رَيَّانُ الأَمَالِيدِ ، وَالْهَوَى ... جَدِيدٌ ، وَإِذْ « لَمْيَاءُ » صَافِيَةُ الْوُدِّ (٣٠)
مُنَعَّمَةٌ ، لِلْبَدْرِ مَا فِي قِنَاعِهَا ... وَلِلْغُصْنِ مَا دَارَتْ بِهِ عُقْدَةُ الْبَنْدِ (٣١)
سَبَتْنِي بِعَيْنَيْهَا ، وَقَالَتْ لِتِرْبِهَا ... أَلَا مَا لِهَذَا الْغِرِّ يَتْبَعُنِي قَصْدِي (٣٢) ؟
وَلَمْ تَدْرِ ذَاتُ الْخَالِ وَالْحُبُّ فَاضِحٌ ... بِأَنَّ الَّذِي أُخْفِيهِ غَيْرُ الَّذِي أُبْدِي (٣٣)

(٢٧) سرت : سارت . وسحراً : قبيل الصبح . والصبا (بفتح الصاد) : ريح تهب من مطلع الشمس ، وهي أحب الرياح إلى أهل الجزيرة العربية ، ولهذا تغنى بها الشعراء كثيراً .
يدعو لهذا المنزل باعتدال الجو ، وطيب الهواء ، وتوالي النعم التي توجب الحمد والثناء .

(٢٨) زر الرجل القميص زراً (من باب رد) : أدخل الأزرار في العرا ، والغمامة : السحابة . وطوق غمامة : غمامة كالطوق . وخضيبة : فعيلة بمعنى مفعولة ، من خضبت اليد وغيرها خضباً (من باب ضرب) بالخضاب : وهو الحناء ونحوه ، والكلام الفصيح : « غمامة خضيب » لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، والعرب تقول : كف خضيب ، وامرأة خضيب . وحنانة : صيغة مبالغة من الحنين : وهو صوت الطرب عن حزن أو فرح ، والحنانة (أيضاً) : القوس المصوتة .
يدعو لهذا المنزل بالمطر والسقيا .

(٢٩) سلفت : مضت وذهبت . وتغر : تخدع . وتسدي : تمنح وتعطي ، مضارع أسدى إليه أي أحسن ، وأسدى إليه معروفاً : أي اتخذه عنده .

(٣٠) الريان : ضد العطشان . والأماليد : جمع أملود (بضم فسكون) أو إمليد (بكسر فسكون) : وهو الغصن الناعم اللين . ولمياء : علم مؤنث ، كنى به الشاعر عن محبوبته ، وأصلها صفة من اللمى (بتثليث اللام) : وهي سمرة مستحسنة في الشفة . والود : الحب .

(٣١) القناع : ما تقنع : أي تغطي به المرأة رأسها ووجهها ، والبدر ما في قناعها : أي وجهها كالبدر . والبند : الحزام . كنى بما في قناعها عن وجهها ، وبما دارت به عقدة البند عن خصرها .

(٣٢) سبتني : أسرتني . وتربها : من تماثلها في سنها . والغر : الشاب لا تجربة له كالغرير . والقصد : مصدر قصدت الشيء ، وله ، وإليه (من باب ضرب) : أي طلبته بعينه . ومعنى يتبعني قصدي : يتبعني إلى كل مكان أقصده .

(٣٣) الخال : الاختيال ، والكبر ، والإعجاب . وهو أيضاً شامة مستحسنة تزين خد المرأة . ومعنى الشطر الثاني : أن الذي أخفيه وأكتمه من آلام الحب ولواعجه يغاير ما أظهره من اللهو والدعابة .

حَنَانَيْكِ ، إِنَّ الرَّأْىَ حَارَ دَلِيلُهُ … فَضَلَّ ، وعادَ الْهَزْلُ فِيكِ إِلَى الْجِدِّ (٣٤)

فَلَا تَسْأَلِى مِنِّى الزِّيَادَةَ فِى الْهَوَى … رُوَيْدًا ، فَهَذَا الْوَجْدُ آخِرُ ماعِنْدِى (٣٥)

وَهَأَنَا مُنْقَادٌ كَمَا حَكَمَ الْهَوَى … لِأَمْرِكِ ، فَاخْشَىْ حُرْمَةَ اللهِ وَالْمَجْدِ (٣٦)

فَلَوْقُلْتِ : قُمْ فَاصْعَدْ إِلَى رَأْسِ شَاهِقٍ … وَأَلْقِ إِذَا أَشْرَفْتَ نَفْسَكَ لِلْوَهْدِ (٣٧)

لَأَلْقَيْتُهَا طَوْعاً ، لَعَلَّكِ بَعْدَهَا … تَقُولِينَ : حَيَّا اللهُ عَهْدَكَ مِنْ عَهْدِ (٣٨)

سَجِيَّةُ نَفْسٍ لا تَخُونُ خَلِيلَهَا … ولا تَرْكَبُ الْأَهْوَالَ إِلَّا عَلَى عَمْدِ (٣٩)

وَإِنِّى لَمِقْدَامٌ عَلَى الْهَوْلِ وَالرَّدَى … بِنَفْسِى ، وفِى الْإِقْدَامِ بِالنَّفْسِ مايُرْدِى (٤٠)

وَإِنِّى لَقَوَّالٌ إِذَا الْتَبَسَ الْهُدَى … وَجَارَتْ حُلُومُ الْقَوْمِ عَنْ سَنَنِ الْقَصْدِ (٤١)

فَإِنْ صُلْتُ فَدَّانِى الْكَمِىُّ بِنَفْسِهِ … وَإِنْ قُلْتُ لَبَّانِى الْوَلِيدُ مِنَ الْمَهْدِ (٤٢)

---

(٣٤) حنانيك : تحنّنى وترحّمى علىّ مرّة بعد مرّة ، وحنانا بعد حنان. وحار دليله : أى ضلّ وتحيّر. يقول لها : تحنى علىّ وترفّقى بحالى ، فقد صرت متحيّراً فى أمرى ، وضلّ رأيى ، وكان الحبّ فى أوّله دعابة وهزلا ، فعاد جدّاً صارماً عنيفاً مضنياً .

(٣٥) الهوى : الحبّ . ورويداً : مهلا . والوجد : الحبّ .

(٣٦) الحرمة : ما لا يحلّ انتهاكه. ويريد بحرمة الله : ما حرّمه الله عزّ وجلّ من تعذيب الإنسان ؛ لأنّ المعشوقة تعذّب بالصدّ عاشقها . والمجد : العزّ والشرف والكرم .

(٣٧) الشاهق : الجبل المرتفع . وأشرف الجبل ونحوه : علاه . والوهد : الأرض المنخفضة .

(٣٨) العهد : الحفاظ ، ورعاية الحرمة ، والوفاء ، والزمان .

(٣٩) السجيّة : الغريزة والخلق والطبيعة . والخليل : الصديق . والأهوال : المخاطر ، ومعنى الشطر الثانى : أنه باسل جرىء شجاع لا يركب المخاوف إلا وهو يتعمّدها ، ويقصدها ، فهو لا يباليها ، ولا يكترث لها .

(٤٠) الردى : الهلاك . ويردى : يهلك .

(٤١) قوّال : فصيح ينطق بالسديد الصائب من القول . والتبس : اختلط واشتبه . وجارت : مالت عن القصد والصواب . والحلوم : جمع حلم (بكسر فسكون) : وهو الأناة ، والعقل ، ويجمع أيضاً على أحلام . وسنن الطريق : نهجه وجهته . والقصد : استقامة الطريق . والمراد بسنن القصد : طريق الصواب .

(٤٢) صال (من باب قال) : سطا ، واستطال ، وهجم على قرنه فى القتال . والكمىّ : الشجاع ، أو لابس السلاح . ولبانى : أجابنى ، أو قال لى : (لبّيك) : أى أنا مقيم على طاعتك . والمهد : الفراش والموضع يهيّأ للصبىّ ويوطأ .

وَلِي كُلُّ مَلْسَاءِ الْمُتُونِ غَرِيبَةٍ ... إِذَا أُنْشِدَتْ أَفْضَتْ لِذِكْرِ بَنِي سَعْدِ(٤٣)
أَخَفُّ عَلَى الْأَسْمَاعِ مِنْ نَغَمِ الْحُدَا ... وَأَلْطَفُ عِنْدَ النَّفْسِ مِنْ زَمَنِ الْوَرْدِ(٤٤)
مُخَدَّرَةٌ تَمْحُو بِأَذْيَالِ حُسْنِهَا ... أَسَاطِيرَ مَنْ قَبْلِي، وَتُعْجِزُ مَنْ بَعْدِي(٤٥)
كَذَلِكَ إِنِّي قَائِلٌ ثُمَّ فَاعِلٌ ... فِعَالِي، وَغَيْرِي قَدْ يُنِيرُ وَلَا يُسْدِي(٤٦)

وَقَالَ وَهُوَ بِهَا أَيْضاً * :

هَلْ لِسَلَامِ الْعَلِيلِ رَدُّ؟ ... أَمْ لِصَبَاحِ اللِّقَاءِ وَعْدُ(١)؟

= والمعنى: أنه إن حارب كان ذا سطوة وصولة وبأس، وفداه الكماة بأنفسهم؛ لشجاعته، وغنائه في الحروب. وإن خطب كان بليغاً فصيحاً مؤثراً، حتى ليكاد الطفل يلبيه من مهده.

(٤٣) ملساء: صفة من الملاسة: وهي اللين ونعومة الملمس. والمتون: جمع متن: وهو الظهر. ويريد بملساء المتون: القصيدة السلسة العذبة السهلة السائغة. وأنشدت: قرئت. وأفضت: وصلت. وبنو سعد: بطن من هوازن، وهوازن من قيس عيلان، وقيس عيلان من مضر، كبرى القبائل العدنانية، ومن هؤلاء حليمة بنت أبي ذؤيب مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان بنو سعد من أفصح العرب. وسعد أيضاً: حي من قبيلة قريش أفصح القبائل العربية.

يريد أن شعره لبلوغه نهاية البلاغة إذا أنشد ذكر الناس بأفصح العرب.

(٤٤) النغم: جمع نغمة (بفتح فسكون): وهي جرس الكلام (بفتح الجيم وسكون الراء)، وحسن الصوت في القراءة: والحداء (بضم الحاء): الغناء للإبل، لحثها على السير، وقصر لضرورة وزن الشعر.

(٤٥) جارية مخدرة: لزمت خدرها، وهو الستر (بكسر فسكون)، أو البيت. شبه كل قصيدة من قصائده بالفتاة المخدرة؛ إما لبلوغ الغاية في الحسن، وإما لشدة الغيرة على ما فيها من بدائع، وإما لأنها تحتجب عن غير من هو أهل لفهمها. والأساطير: الأباطيل، واحدتها أسطورة (بالضم) وإسطارة (بالكسر). وقد تكون جمع جمع لسطر: وهو الصف من الكتابة.

(٤٦) الفعال (بكسر الفاء): جمع فعل، أو هي (بفتح الفاء) مصدر فعل، كالذهاب مصدر ذهب. والفعال (بالفتح) أيضاً: الفعل إذا كان من فاعل واحد. والفعل الحسن، والعمل الحميد، والكرم. وينير: مضارع أنار الحائك الثوب: إذا جعل له نيراً (بكسر النون)، والنير: لحمة الثوب: وهي ما ينسج منه عرضاً، والنير أيضاً: علم الثوب وهدبه. ويسدي: مضارع أسدى الثوب: إذا أقام سداه: وهو خلاف لحمته: أي ما يمد طولا في النسيج، والمعنى: أن غيري لا يتم عملا.

* وهو بها: أي وهو في منفاه بجزيرة «سرنديب».

(١) الاستفهام في هذا البيت للتمني.

يتمنى أن يجد وهو مريض من يعطف عليه، فيرد سلامه، ويهب له الأمان والطمأنينة، وأن يظفر ولو بوعد بملاقاة أهله، والعودة إلى وطنه.

أَبِيتُ أَرْعَى الدُّجَى بِعَيْنٍ غِذَاؤُهَا مَدْمَعٌ وَسُهْدُ(٢)
لا صَاحِبٌ إِنْ شَكَوْتُ حَالِي يَرْثِي ، ولا سَامِعٌ يَرُدُّ(٣)
بَيْنَ قِنَانٍ عَلَى ثَرَاها مِنْ سُتُرَاتِ الْغَمَامِ بُرْدُ(٤)
أَظَلُّ فيها أَنُوحُ فَرْدًا وَكُلُّ نَائِي الدِّيَارِ فَرْدُ(٥)
فَمَنْ لِقَلْبِي بِظَبْيِ وَادٍ بَيْنَ وَشِيجِ الرِّمَاحِ يَغْدُو(٦)؟
صَارَ بِحُكْمِ الْهَوَى مَلِيكِي وَمَا لِحُكْمِ الْهَوَى مَرَدُّ(٧)
يَا سَعْدُ ، قُلْ لِي ، فَأَنْتَ أَدْرَى مَتَى رِعَانُ الْعَقِيقِ تَبْدُو(٨)؟
أَشْتَاقُ نَجْدًا وَسَاكِنِيهِ وَأَيْنَ مِنِّي الْغَدَاةَ نَجْدُ(٩) ؟

---

(٢) أرعى : أنظر ، وأصله من قولهم : رعى العاشق ونحوه النجوم: إذا راقبها، وانتظر مغيبها . والدجى : جمع دجية (بضم فسكون) : وهى الظلمة . ويريد بالمدمع : الدمع . والسهد : السهر .

(٣) رثى له (من باب رمى) : رقّ وترحّم .

(٤) القنان (بكسر القاف) : جمع قنة (بضم القاف وتشديد النون) : وهى قلة الجبل أى أعلاه . وفى الأصل (علا سراها) بالسين ، ولا يمكن تخريجه؛ لأن السراة : (وهى من كل شيء أعلاه) لا تجمع على سرا ، وإنما تجمع على سروات. والثرى : الأرض. والسترات : جمع سترة (بضم فسكون) : وهى كل ما يستتر به شيء: أى يغطى ، كالستر والستارة (بكسر السين فيهما). والغمام : السحاب ؛ الواحده غمامة . والبرد : الثوب ، أو البرد : أكسية يلتحف بها ، الواحدة بردة (بضم فسكون) .

يقول : إنه يعيش بين جبال قد كسيت أعاليها ببرود من السحاب .

(٥) أنوح : أبكى . والنائى : البعيد .

(٦) الظبى : الغزال ، وتشبّه به الحسناء فى الرشاقة، وحسن طول العنق ، وجمال العيون، واتساعها . ووشيج الرماح : الرماح المشتبكة ، يكنى بهذا عن أن محبوبته فى منعة من قومها .

(٧) الهوى : الحب . والمردّ : الردّ : مصدر ميمىّ من ردّه عن وجهه يردّه : إذا صرفه .

(٨) الرعان : جمع رعن (بفتح فسكون) : وهو أنف يتقدّم الجبل ، أو هو الجبل الطويل . والعقيق : الوادى ؛ وكلّ مسيل شقّه ماء السيل ، ومواضع بالمدينة واليمامة والطائف وتهامة ونجد . والمقصود (هنا) : عقيق نجد ، والشاعر يكنى به عن وطنه وديار أهله .

(٩) نجد : اسم للأراضى العالية فى وسط جزيرة العرب ، وأعلاه تهامة واليمن ، وأسفله العراق والشام . وأوّله من جهة الحجاز ذات عرق ، وفى جنوبيّه الشرقىّ اليمامة . والغداة : أول النهار .

ذَابَ فُؤَادِي بِحُبِّ لَيْلَى   يَا لِفُؤَادٍ بَرَاهُ وَجْدُ![(١٠)]
فَكَيْفَ أُمْسِي بِغَيْرِ قَلْبٍ ؟   يَا نُورَعَيْنِي ، وَكَيْفَ أَغْدُو[(١١)]؟
لِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ تَمَادَى   حَدٌّ ، وَمَا لِلْغَرَامِ حَدُّ[(١٢)]
فَلَيْسَ قَبْلَ الْغَرَامِ قَبْلٌ   وَلَيْسَ بَعْدَ الْغَرَامِ بَعْدُ[(١٣)]
فَهَلْ لِنَيْلِ الْوِصَالِ يَوْماً   بَعْدَ مَدِيدِ الصُّدُودِ عَهْدُ[(١٤)]؟
وهَلْ أَرَانِي رَفِيقَ حَادٍ   بِمَدْحِ خَيْرِ الْأَنَامِ يَحْدُو[(١٥)]؟
عَسَى إِلَهِي يفُكُّ أَسْرِي   فَهْوَ فَعُولٌ لِمَا يَوَدُّ[(١٦)]

وَقَالَ وَهُوَ بِها أَيْضاً(*) ، وهِيَ مِنْ لُزُومِ مَالَا يَلْزَمُ (**) :

أَنَسِيمٌ سَرَى بِنَفْحَةِ رَنْدٍ ؟   أَمْ رَسُولٌ أَدَّى تَحِيَّةَ هِنْدٍ[(١)] ؟

---

(١٠) « يا » هنا : حرف استغاثة ، والمستغاث به محذوف ، والفؤاد مستغاث لأجله ، والوجد : الحب . وبراه : شفه ، وهزله ، وأضناه .

(١١) أغدو : أذهب ، وأنطلق ، وأصل الغدوّ : الذهاب فى أول النهار . وقد غدا (من باب سما) .

(١٢) تمادى فى الأمر : سار فيه إلى الغاية .

(١٣) المعنى : أنّ الغرام ، وهو الحبّ والعشق — غير محدود ؛ فلا يعرف له بدء ، ولا تعرف له نهاية .

(١٤) المديد : الطويل الممدود . والصدود : الإعراض ، والهجران . وهو ضدّ الوصال . والعهد : الموثق . يتمنى أن يظفر بميثاق يمكنه من وصال أحبّائه يوماً ، بعد أن طال الهجر والفراق ، وامتدّ الصدود والإعراض .

(١٥) الحادى : اسم فاعل من حدا الإبل يحدوها (من باب عدا) : إذا ساقها ، وحثّها على السير بالغناء لها . والأنام : الخلق ، والناس . وخير الأنام : سيّدنا ومولانا محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . يتمنّى أن يرى نفسه رفيقاً لحاد يحدو الإبل بمدح المصطفى عليه الصلاة والسلام .
والمعنى : أنه يحنّ فى غربته إلى زيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم .

(١٦) يودّ : يحبّ ، ويريد .

(*) وهو بها : أى وهو فى منفاه بجزيرة « سرنديب » (سيلان) .

(**) التزم الشاعر فى هذه القصيدة قبل رويّها نوناً ، وهو ما لا تحتمه قواعد القافية ، والرويّ : حرف بنيت عليه القصيدة ، ونسبت إليه . وهو هنا « الدال » .

(١) النسيم : الريح الطيّبة . وسرى : سار ، وأصل السرى : السير ليلا . والنفحة : الرائحة ، =

أَطْرَبَتْنِي أَنْفَاسُهُ ، فَكَأَنِّي مِلْتُ سُكْرًا مِنْ جُرْعَةٍ مِنْ (بِرَنْدِي)(٢)
وَأَخُو الْوَجْدِ لا يَزَالُ طَرُوباً يَتْبَعُ الشَّوْقَ بَيْنَ سَهْلٍ وفِنْدِ(٣)
طَالَ شَوْقِي إِلَى الدِّيَارِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ مِنْ (مِصْرَ) مَنْ أَقَامَ (بِكَنْدِي)(٤)؟
حَبَّذَا النِّيلُ حِينَ يَجْرِي فَيُبْدِي رَوْنَقَ السَّيْفِ ، وَاهْتِزَازَ الْفِرِنْدِ(٥)
تَتَثَنَّى الْغُصُونُ فِي حَافَتَيْهِ كَالْعَذَارَى يَسْحَبْنَ وَشْيَ الْفِرِنْدِ(٦)
قَلَّدَتْهَا يَدُ الْغَمَامِ عُقُـودًا هِيَ أَبْهَى مِنْ كُلِّ عِقْدٍ وَبَنْدِ(٧)
كَيْفَ لا تَهْتِفُ الْحَمَامُ عَلَيْهِ ؟ وَهْيَ تُسْقَى بِهِ سُلافَةَ قَنْدِ(٨)
هُوَ مَرْمَى نَبْلِي . وَمَلْعَبُ خَيْلِي وَحِمَى أُسْرَتِي ، وَمَرْكَزُ بَنْدِي(٩)

= وأصلها اسم مرّة من نفح الطيب (كنع) : إذا فاح ، وانتشر . ونفحت الريح : هبّت . والرند : شجر طيّب الرائحة ، أو هو العود ، أو الآس .

(٢) أطربتني : سرّتني ، والطرب : خفّة تصيب الإنسان لشدّة حزن ، أو شدّة سرور . وأنفاسه : أى أنفاس النسيم . والجرعة (بضم فسكون) من الماء ونحوه : كاللقمة من الطعام : وهي مايجرع مرة واحدة ، وجرع الماء (من بابي فهم وقطع) : ابتلعه . وبرندى : اسم نوع من الخمر ، وهي كلمة إفرنجية .

(٣) الوجد : الحبّ . وطروب : صيغة مبالغة من الطرب . والفند (بكسر الفاء وفتحها) : الجبل العظيم .

(٤) كندى : اسم مدينة صغيرة فى وسط جزيرة سيلان « سرنديب » التى كان الشاعر منفيًّا بها .

(٥) يبدى : يظهر . ورونق السيف : ماؤه وحسنه وطلاوته . والفرند : السيف وجوهره ووشيه .

(٦) حافتا النهر والوادى : جانباه . والعذارى (بفتح الراء وكسرها) : جمع عذراء : وهى البكر . والوشى : نقش الثوب ، ويكون من كل لون ، وشى الصانع الثوب (كوعى) وشياً وشية (بكسر ففتح) : نمنمه ، ونقشه ، وحسّنه ، كوشّاه ، والفرند : نوع من الثياب ، معرّب .

(٧) قلّدت المرأة تقليداً : جعلت القلادة فى عنقها . والغمام : السحاب ، الواحدة غمامة . والعقود : جمع عقد (بكسر فسكون) وهو القلادة ، ويريد بها : حبّ الغمام ، وقطرات الندى . وأبهى : أحسن وأجمل . والبند : الحزام .

(٨) هتفت الحمامة (من باب ضرب) وهتافاً (بضم الهاء) : صوّتت ، وهدرت ، وسجعت . وعليه : على النيل : أى على الأشجار المحيطة به . وبه : أى منه . والسلافة (بضم السين) : أفضل الخمر ، وأخلصها وسلافة كلّ شىء عصرته : أوّله . والقند (بفتح فسكون) : عسل قصب السكر إذا جمد .

(٩) النبل : السهام العربية ، وهى مؤنّثة ، ولا واحد لها من لفظها ، بل الواحد سهم ، وهو ما يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . والحمى : المكان المحمىّ الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه . والبند : العلم الكبير ، فارسىّ معرّب .

كُلَّمَا صَوَّرَتْهُ نَفْسِى لِعَيْنِى ... قَدَحَ الشَّوْقُ فى الْفُؤَادِ بِزَنْدِ(١٠)

لِى بِهِ صَاحِبٌ عَلَىَّ عَزِيزٌ ... مِثْلُ ما عِنْدَهُ مِنَ الشَّوْقِ عِنْدِى(١١)

أَتَمَنَّاهُ غَيْرَ أَنَّ فُؤَادِى ... مِنْ إِسَارِ النَّوَى مُحَاطٌ بِجُنْدِ(١٢)

فَاهْدِ مِنِّى لَهُ تَحِيَّةَ صِدْقٍ ... وَتَلَطَّفْ بِحَالَتِى يَا (أَفَنْدِى)(١٣)!

أَنَا وَاللهِ مُغْــرَمٌ بِهَوَاهُ ... حَيْثُمَا دُرْتُ بَيْنَ هِنْدٍ وسِنْدِ(١٤)

إِنَّ شَوْقِى إِلَيْهِ أَسْرَعُ شَأْوًا ... مِنْ (سُلَيْكٍ)وَالْوَصْلُ فى بُطْءِ (فِنْدِ)(١٥)

---

(١٠) قدح بالزند : رام الإيراء به : أى ضرب به الزندة لإخراج النار منها . والزند : العود الذى تقدح به النار .

(١١) لى به : أى بالنيل ؛ والمراد مصر وطنه . وقيل إنه يعنى بصاحبه العزيز عليه : صديقه الشيخ « محمد عبده » ؛ ولم يصرح باسمه خوفاً عليه من نقمة الحاكمين فى مصر .

ومعنى الشطر الثانى : أن كلاًّ منهما يشتاق إلى صاحبه ، وأن شوقيهما متماثلان متكافئان .

(١٢) الإسار : القدّ (بكسر القاف وتشديد الدال) : وهو سير من جلد يشدّ به الأسير ، أو هو مصدر أسره (من باب ضرب) يأسره أسراً و إساراً . والنوى : البعد .

يقول : إنه يتمنّى لقاء ذلك الصاحب ، غير أنّ فؤاده سجين مقيّد ، تحيط به جنود من البعد الشبيه بالإسار ، أو تحيط به جنود من أسر البعد وتقييده ، لأنّ البعد يأسر المبعد ويقيّده .

(١٣) فاهد : المستعمل فى هذا المعنى أهدى له،وإليه . وقد جاء فى اللغة أيضاً : هدى العروس إلى بعلها هداء (بكسر الهاء) ؛فهى هدىّ وهديّة (بهاء مفتوحة ودال مكسورة وياء مشدّدة فيهما) . وأفندى : كلمة تركية : معناها السيّد .

(١٤) مغرم : مولع مغرى . والهوى : الحبّ . والهند : إقليم عظيم من أقاليم آسيا فى جنوبيّها . ويريد بالسند : الأراضى التى يسقيها نهر السند العظيم فى الشمالىّ الغربىّ من بلاد الهند .

(١٥) الشأو : السبق . وسليك بن يثربىّ بن سنان (بكسر السين) ، واشتهر بابن سلكة « بضم ففتح » : وهى أمّه : شاعر لصّ فتّاك عدّاء ، وهو أحد السعاة الأربعة المضروب بهم المثل فى العَدْو ، والجرى ، والسبْق . والثلاثة هم : تأبّط شرًّا ، والشنفرى ، وعمرو بن أميّة الضمرىّ . وفند (بكسر فسكون) : اسم أبى زيد مولى عائشة بنت سعد بن أبى وقّاص ، وكانت أرسلته ليأتيها بنار ، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر فتبعهم ، وأقام بها سنة ، ثم قدم فأخذ ناراً ، وجاء يعدو ، فعثر ، وتبدّد الجمر ، فقال : « تعست العجلة » ، فقيل « أبطأ من فند » .

أُسَائِلُ الدَّهْرَ نِعْمَةَ الْقُرْبِ مِنْهُ ... وَهْوَ كَزٌّ بِنِعْمَةٍ ، لَيْسَ يُنْدِى (١٦)

لَوْ سِوَى الدَّهْرِ رَامَ غَبْنِى ، لَأَصْحَرْ ... تُ مُشِيحاً بِالنَّصْلِ فَوْقَ سَمَنْدِ (١٧)

لَسْتُ أَقْوَى عَلَى الزَّمَانِ ؛ وَإِنْ كُنْ ... تُ أَفُلُّ الْعِدَا بِقُوَّةِ زَنْدِى (١٨)

وَقَالَ وَهُوَ بِهَا أَيْضاً * :

خَلِيلَيَّ ، هَلْ طَالَ الدُّجَى ؟ أَمْ تَقَيَّدَتْ ... كَوَاكِبُهُ ، أَمْ ضَلَّ عَنْ نَهْجِهِ الْغَدُ (١)

أَبِيتُ حَزِيناً فِى «سَرَنْدِيبَ» سَاهِراً ... طِوَالَ اللَّيَالِى ، وَالْخَلِيُّونَ هُجَّدُ (٢)

أُحَاوِلُ مَا لَا أَسْتَطِيعُ طِلَابَهُ ... كَذَا النَّفْسُ تَهْوَى غَيْرَ مَا تَمْلِكُ الْيَدُ (٣)

إِذَا خَطَرَتْ مِنْ نَحْوِ حُلْوَانَ نَسْمَةٌ ... نَزَتْ بَيْنَ قَلْبِى شُعْلَةٌ تَتَوَقَّدُ (٤)

---

(١٦) منه : أى من صاحبه المشار إليه فى البيت الحادى عشر . وهو : أى الدهر . وكزّ : منقبض يابس بخيل . وليس ينْدى : ليس يعطى . أندى ينْدى : تسخّى وأفضل .

(١٧) رام : طلب ، وأراد . والغبن : العدوان والظلم ، وأصله الخديعة ، مصدر قولهم : غبنه فى البيع والشراء : أى خدعه ، وغلبه ، ونقصه . وأصحر : برز إلى الصحراء ، وهو يكنى بالإصحار عن الشجاعة والبروز للقتال . والمشيح : المقبل عليك ، والمانع لما وراء ظهره . والنصل : حديدة الرمح ، والسيف ما لم يكن له مقبض ، والمراد به (هنا) : الرمح ، أو السيف . والسمند (بفتح السين والميم ، وسكون النون) : الفرس ، وهى كلمة فارسيّة .

(١٨) أفلّ : أكسر ، وفلّ الجيش : هزمه (وبابه ردّ). والعدا : جمع على غير قياس لعدوّ ، أو هو اسم جمع . والزند (بفتح فسكون) : موصل طرف الذراع فى الكف ، وهو من مواطن القوّة فى الإنسان .

(*) وهو بها : أى وهو فى منفاه بجزيرة «سرنديب» واسمها أيضاً «سيلان» .

(١) الدجى : جمع دجية (بضم فسكون) : وهى الظلمة ، والمراد الليل . والنهج : الطريق الواضح .

(٢) طوال (بكسر الطاء) : جمع طويلة . أو هو بفتح الطاء : بمعنى العمر ، أو المدى ، يقال : لا أكلمه طول الدهر وطوال الدهر . والخليّون : جمع خلىّ ، وهو الخالى من الهم . وهجّد : جمع هاجد ، اسم فاعل من هجد (من باب دخل) : أى نام ليلا .

(٣) الطلاب : مصدر طالبه مطالبة وطلاباً . وتهوى : تحبّ .

(٤) خطرت : أتت ، وأصله من خطر الرجل : إذا اهتزّ فى مشيه وتبختر . وحلوان : من مدن مصر ، على بعد خمسة وعشرين ألف متر جنوبىّ القاهرة . والنسمة (بفتح النون والسين) : أوّل الريح حين تقبل بلين ، قبل أن تشتدّ ، وسكنت سين النسمة هنا لضرورة وزن الشعر . ونزت : وثبت ، وتقلّبت . والشعلة : لهب النار ، والمراد حرقة الوجد والصبابة .

وَهَيْهَاتَ ، ما بَعْدَ الشَّبِيبَةِ مَوْسِمٌ ... يَطِيبُ ، ولا بَعْدَ الْجَزِيرَةِ مَعْهَدُ(٥)

شَبَابٌ وَإِخْوَانٌ رُزِئْتُ وِدَادَهُمْ ... وكُلُّ امْرِئٍ فى الدَّهْرِ يَشْقَى وَيَسْعَدُ(٦)

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَعِيشَ بِغُرْبَةٍ ... يُعَلِّلُنِى فِيهَا خُوَيْدِمُ أَسْوَدُ(٧) *

وَقَالَ فِى هَوًى لَهُ : **

أَرَى نَفْحَةً دَلَّتْ عَلَى كَبِدِى الْوَجْدَا ... فَمَنْ كَانَ «بِالْمِقْيَاسِ» أَقْرَبَكُمْ عَهْدَا ؟(١)

مَلَاعِبُ آرامٍ ، وَمَجْرَى جَدَاوِلٍ ... وَمُلْتَفُّ أَفْنَانٍ تَقِى الْحَرَّ والْبَرْدَا(٢)

---

(٥) يريد بالموسم : الزمن ، وأصله المعلم (بفتح فسكون ففتح) ،يجتمع إليه الناس ، ومنه موسم الحجّ . ويريد بالجزيرة : روضة المقياس فى نهر النيل شرقىّ الجيزة وغربىّ مصر القديمة . والمعهد : المنزل المعهود به الشئ .

(٦) رزأه ماله (كجعله وعلمه) رزءاً (بضم فسكون) : أصاب منه شيئاً . ومعنى رزئت ودادهم : أنى أصبت بفقدان مودتهم ، لبعدى عنهم .

(٧) علله بطعام وغيره تعليلا : شغله به . والمراد يخدمنى ،ويقوم بأمرى . وخويدم : تصغير خادم . يقول : إنه ما كان يتوقع وهو فى بلهنية العيش بمصر أن يعيش وحيداً فى غربة لا يؤنسه فيها غير خادم أسود صغير أو حقير .

(*) فى بعض ما كتب عن البارودى ورفاقه من قادة الثورة العرابيّة أنه بعد إخفاقها استطاع الدهاء الإنجليزىّ ، والدعايات الخبيثة أن تنفث فيهم سم الإنجليزىّ ، والدعايات الخبيثة أن تنفث فيهم روابط التى جمعتهم على خدمة الوطن ، والجهاد فى سبيل التى جمعتهم على خدمة الوطن ، والجهاد فى سبيل ثرة ؛ فثقلت عليهم الأزمة النفسيّة ، وأقبل بعضهم ثقلت عليهم الأزمة النفسيّة ، وأقبل بعضهم لهم ؛ فانفرد فى منزل فوق ربوة من ربا « سرنديب ». وفى هانفرد فى منزل فوق ربوة من ربا « سرنديب ». وفى الجوّ النفسىّ الغائم القاتم نظم هذه القصيدة ونظائرها النفسىّ الغائم القاتم نظم هذه القصيدة ونظائرها لل من وادى الأراكة بالوجد . . . » (٤٦ بيتاً) واللامبادى الأراكة الآن معالمها ؛ (٤٦ بيتاً) واللا عصر الخالى . . . » (٥٠ بيتاً) بالجزء الثالث من شرحنا لهذا الديوان الين

(**) الهوى : الميل العشق . والهوى

(١) النفحة من الريح : الدفعة ، أو النسمة ، نفحت الريح (كنع) : نسمت ، وتحرّكت أوائلها ، أو هى اسم مرّة من نفح الطيب : إذا فاح وانتشر . والوجد : الحبّ ، وهو أيضاً الحزن . وروضة المقياس ، وقد تسمى روضة المنيل : جزيرة فى النيل شرقىّ الجيزة ، وغربىّ مصر القديمة ، تغيّرت الآن معالمها ؛ فكثرت فيها العمائر السكنيّة الكبيرة العالية ، والمقاهى ، والمتاجر ، ودكاكين البدّالين ، وأصحاب الحرف والصناعات . وقلّت جدًّا القصور والحدائق ، وظواهر البهجة التى فتنت البارودىّ ، فتغنّى بها ، ومال إليها ، وكثر تنويهه بمحاسنها . وبها من الآثار القديمة مقياس النيل فى جنوبيّها . والعهد (هنا) : الالتقاء والمعرفة .

(٢) الآرام : الظباء البيض الخالصة البياض ، واحدها رئم (بكسر فسكون) ، وتشبّه به المرأة فى جمال العيون واتساعها ، وحسن طول العنق ، والرشاقة ، والبياض . والأفنان : الأغصان ، واحدها فنن (بفتح الفاء والنون) .

إِذَا انْبَعَثَتْ فِيهِ النَّسَائِمُ خِلْتَهَا   تُنِيرُ عَلَى مَتْنِ الْغَدِيرِ بِهِ بُرْدَا[٣]
كَأَنَّ الصَّبَا تُلْقِي عَلَيْهِ إِذَا جرتْ   مَسَائِل فِى الْأَرْقَامِ . أَوْ تَلْعَبُ النَّرْدَا[٤]
أَقَامَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ فِى حَجَرَاتِهَا   وَأَسْدَى لَهَا مِنْ نِعْمَةِ النِّيلِ مَا أَسْدَى[٥]
فَلِلَّهِ كَمْ مِنْ صَبْوَةٍ كَانَ لِى بِهَا   رَوَاحٌ إِلَى حُسَّانَةِ الْجِيدِ أَوْ مَغْدَى[٦]
إِذِ الدَّهْرُ لَمْ يُخْفِرْ ذِمَاماً . وَلَمْ يَخُنْ   نِظَاماً . وَلَمْ يَحْمِلْ عَلَى ذِى هَوًى حِقْدَا[٧]
تَدُورُ عَلَيْنَا بِالْأَحَاظِى شُمُوسُهُ   وَتُمْسِى عَلَيْنَا طَيْرُ أَنْجُمِهِ سَعْدَا[٨]
وَيَا رُبَّ لَيْلٍ لَفَّنَا بِردَائه   عناقاً . كَمَا لَفَّ الصَّبَا الْبَانَ وَالرَّنْدَا[٩]

(٣) فيه : أى فى هذا المكان : وهو روضة المقياس : والنسائم : جمع نسيم : وهو نفس الريح إذا كان ضعيفاً ، والنسيم أيضاً : الريح الطيّبة . وتنير : تنسج ، وهو مضارع أنار الحائك الثوب : إذا جعل له نيراً (بكسر النون) : وهو علم الثوب، وهدبه، ولحمته : أى ما ينسج منه عرضاً . والمتن : الظهر . ويريد بالغدير : الجدول . والغدير (فى الأصل) : القطعة من الماء يغادرها السيل . والبرد : ثوب مخطط .

(٤) الصبا (بوزن العصا) : ريح تهبّ من مطلع الشمس . وعليه : أى على الغدير . والنرد : لعبة فارسية الأصل ، تعرف عند العامّة بـ « الطاولة » . يقال : لعب بالنرد ، وبالنرد شير ، نسبة إلى واضعه أردشير بن بابك من ملوك الفرس .

يشبّه ما تحدثه الريح من تكسّر الموجات بسطور من الحساب كتبت فيها الأعداد بعضها فوق بعض ، ويشبّه هبّات الصبا المتوالية بسقوط فصّى النرد على التوالى والتتابع .

(٥) الربيع : أحد أزمنة السنة وفصولها ، وهو أحسنها، وأطيبها هواء، وأحفلها بالنبات والزهر والثمر ، والطلق : المشرق الضاحك ، والحجرات : النواحى ، الواحدة حجرة (بفتح فسكون) . وأسدى : أعطى . أسديت إليه معروفاً : اتّخذته عنده ، وأسدى إليه : أحسن . والضمائر فى هذا البيت راجعة إلى روضة المقياس المفهومة من السياق .

(٦) الصبوة : جهلة الفتوّة، وصبا إلى حبيبته صبوة وصبوّاً ، حنّ إليها، واشتاق . والرواح : الذهاب والانطلاق ، وأصله الرجوع فى آخر النهار ، والحسّانة (بوزن الرمانة) : الجميلة ، الشديدة الحسن . والجيد : العنق . والمغدى : مصدر ميمىّ من الغدوّ ، وأصله الذهاب والانطلاق فى أول النهار .

(٧) لم يخفر ذماماً : لم ينقض عهداً . خفر العهد ونحوه (من باب ضرب) ، وأخفره إخفاراً : نقضه . والحقد : الانطواء على البغضاء ، وإضمار العداوة .

(٨) الأحاظى : جمع حظّ ، وهو النصيب والجدّ ، أو هو خاصّ بالنصيب من الخير والفضل . والشموس : جمع شمس .

والمعنى : أنّ الزمان يلقاهم دائماً بالسعادة والخير والهناءة .

(٩) الرداء : الثوب والملحفة ، وكل ما يتردّى به : أى يلبس . والصبا : ريح تهبّ من ناحية المشرق ، =

وَلَثْمٍ تَوَالَى إِثْرَ لَثْمٍ بِثَغْرِهَا كَمَا شَافَهَ الْبَازِى عَلَى ظَمَإٍ وِرْدَا (١٠)
فَتَاةٌ كَأَنَّ اللهَ صَوَّرَ لَحْظَهَا لِيَهْتِكَ أَسْرَارَ الْقُلُوبِ بِهِ عَمْدَا (١١)
لَهَا عَبَثَاتٌ عِنْدَ كُلِّ تَحِيَّةٍ تَسُوقُ إِلَيْهَا عَنْ فَرَائِسِهَا الْأُسْدَا (١٢)
إِذَا انْفَتَلَتْ بِالْكَأْسِ خِلْتَ بَنَانَها تُدِيرُ عَلَيْنَا مِنْ جَنَى خَدِّهَا وَرْدَا (١٣)
وَمَا أَنْسَهُ لا أَنْسَ يَوْماً تَسَابَقَتْ بِهِ عَبْرَتَاهَا ، وَالنَّوَى تَصْدَعُ الصَّلْدَا (١٤)
فَلَمْ أَرَ لَحْظاً كَانَ أَقْتَلَ بَاكِياً وَأَمْضَى الظُّبَا فِى الْفَتْكِ مَاسَالَ إِفْرِنْدَا (١٥)

= وهى مؤنثة . والبان : نوع من الشجر ، الواحدة بانة . والرند : شجر طيب الرائحة من أشجار البادية ، والرند أيضاً : الآس لطيبه ، وربما سمّوا العود رنداً .

(١٠) اللثم : التقبيل (وبابه فهم) . وشافه : قارب . والبازى : نوع من الصقور . والظمأ : العطش ، أو أشدّه . والورد : النصيب من الماء .

(١١) اللحظ : مصدر لحظه (كمنعه) ، ولحظ إليه : أى نظر إليه بمؤخر عينه مما يلى الصدغ . يقال : فتنته لحظاتها وألحاظها .

والمعنى : أنّ الله تعالى صوّر عيونها أجمل تصوير ؛ فهى فاتنة ساحرة ، تفضح أسرار العاشق ، فلا يستطيع كتمان حبّه .

(١٢) العبثات : جمع عبثة ، اسم مرة من العبث : وهو اللعب . والفرائس : جمع فريسة : فعيلة بمعنى مفعولة ، من الفرس : وهو القتل ، ودقّ العنق . والأسد (بضم فسكون) : جمع أسد .

يقول : إنّ لهذه المحبوبة عند كلّ تحيّة أنواعاً من العبث ساحرة فاتنة : تلهى الآساد الجائعة عن فرائسها .

(١٣) انفتلت : دارت ، وأصله من فتل الإنسان الحبل ونحوه : أى لواه ، فانفتل . ويريد بالكأس : كأس الخمر التى تقدّمها إليهم هذه الحسناء . وخلت : ظننت . والبنان : الأصابع ، أو أطرافها ، واحدتها بنانة . والجنى : كل ما يجتنى من الشجر .

يقول : إذا دارت بيننا بكئوس الخمر ظننت بنانها تدير علينا ورداً مقطوفا من خدّها . والمعنى : أنها جميلة خمريّة الخدّين .

(١٤) العبرة : الدمعة قبل أن تفيض . والنوى : البعد ، والوجه الذى ينويه المسافر ، وهى مؤنثة . وتصدع : تشقّ . والصلد : الحجر الصلب .

(١٥) اللحظ : مصدر لحظه ، ولحظ إليه (من باب منع) : اى نظر إليه بمؤخر عينه ، والمراد به (هنا) : العين . وأمضى : اسم تفضيل من مضى السيف ونحوه يمضى مضاء : أى قطع ونفذ . والظبا (بضم الظاء) : جمع ظبة (بضم ففتح) : وهى حد السيف والسنان ونحوهما . والمراد بالظبا هنا : السيوف . =

حَرَامٌ عَلَى الْعيْنَيْنِ إنْ لم تَسِلْ دَماً ... عَلَى بَيْنِهَا وَالْقَلْبِ إنْ لَمْ يَذُبْ وَقْدَا(١٦)

فَيَا قَلْبُ مَاأَشْجَى إذَاالدَّارُ بَاعَدَتْ! ... وَيَادَمْعُ مَاأَجْرَى ! وَيَابيْنُ مَا أَرْدَى!(١٧)

ويَاصَاحِبِي الْمَذْخُورَ لِلسرِّ! إنَّنِي ... ضَلَلْتُ ،فَهَلْ مِنْ وَثْبَةٍ تُكْسِبُ الْحَمْدَا؟(١٨)

حَلَفْتُ بِمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ نِقَابُهَا ... وَيَالَكَ حَلْفاً ! مَا أَرَقَّ وَمَا أَنْدَى!(١٩)

بِأَلَّا تَفِيءَ الْعَيْنُ عَنْ سُنَّةِ الْبُكَى ... وَأَلاَّ تَرِيعَ النَفْسُ إنْ لَمْ تَمُتْ وَجْدَا(٢٠)

وكَيْفَ يُفِيقُ الْقَلْبُ مِنْ سَوْرَةِ الْهَوَى ... وَقَدْ مَدَّهُ سِحْرُ الْعُيُونِ بِمَا مَدَّا ؟(٢١)

= والفتك : القتل ، وأصله القتل على غرّة . والإفرند السيف : ماؤه وجوهره .

يقول : فلم أر قبل عينيها عيناً كانت وهي باكية أشدّ بالعشاق فتكاً ، وأعظم فيهم تأثيراً وسحراً . ثم شبّهها تشبيهاً ضمنياً بالسيف يكون أمضى وأنفذ إذا صفا جوهره ، وترقرق ماؤه .

(١٦) البين : الفراق . والوقد : اتّقاد النار .

(١٧) شجى (من باب صدى) : حزن ، واهتمّ ، واغتمّ . وما أشجى : صيغة تعجّب منه . والبين : الفراق والبعد ، وما أردى : صيغة تعجّب من ردت الخيل (من باب رمى) : أى عدت ، وأسرعت فى سيرها . تعجّب من شجى القلب وحزنه ، ثم من جريان الدمع ، ثم من سرعة الفراق .

(١٨) صاحبه المذخور للسر : قلبه الذى يدخره لصيانة سره ، وكتمان ما يحرص على ستره وإخفائه من أموره . وقد يراد بالصاحب المذخور للسر : خليل ، وصفى يأتمنه على سره ونجواه . وضللت (كضربت وتعبت) . والضلال : الانحراف عن الطريق المستقيم . وضده الهدى والرشاد . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه التمنى وتكسب : مضارع كسبت فلاناً مالا ، أو علماً ، أو نحوهما (من باب ضرب) : أى أنلته إياه ، أو أعنته على كسبه ، وتحصيله ، وجمعه . وأكسبته إكساباً كذلك .

تاه الشاعر فى شباب حبه وغرامه ، وضل سبيل الهدى والرشاد ، فاستشعر الحسرة والندم ، وتمنى أن يصحو ويفيق ، ويثوب إلى رشده ، ويتجه إلى معالى الأمور ، ويحيا حياة الجدّ والعزّة التى تكسبه الحمد ، وحسن الثناء .

وقد يكون المراد بالضلال فى هذا البيت : افتراق الشمل ، وتباعد المتحابين ؛ وهو يتمنى على صاحبه المذخور لسره أن يخرجه من حيرته وضلاله ، وهمه وبلباله ، ويعينه على أمره ، فيجمع بينه وبين حبيبته . وهذا المعنى يلائم معنى الأبيات السابقة : (١٤–١٧) وينسجم معها . ولا ريب أن اجتماع شمله بهذه الحبيبة وثبة محمودة تعيد إليهما السعادة ، وبهجة التلاقى ، ورخاء البال .

(١٩) كنى بما استولى عليه نقابها عن وجهها . والنقاب : ما تغطّى به المرأة وجهها ، وما أندى : صيغة تعجّب من ندى (كرضى) : أى ابتلّ ، والمراد ما أحسن ، وما أنضر .

(٢٠) تفىء : ترجع ، (وبابه باع) . والسنّة : السيرة والطبيعة والطريقة . وتريع : ترجع . والوجد : الحزن .

(٢١) أفاق من مرضه : رجعت الصحة إليه ، أو رجع إلى الصحة ، كاستفاق . وسورة الهوى : حدّة الحبّ وشدّته . ومدّه (من باب ردّ) : زاده . وفى التنزيل العزيز : « والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر » . الآية رقم ٢٧ من سورة لقمان .

وَمَا كُنْتُ لَوْلَا الْعَذْلُ أُبْدِى خَفِيَّةً — وَلَكِنْ تَوَالِى الْقَدْحِ يَسْتَرْعِفُ الزَّنْدَا[٢٢]

وَمَنْ لِى بِأَنَّ الْقَلْبَ يَكْتُمُ وَجْدَهُ ؟ — وَكَيْفَ تُسَامُ النَّارُ أَنْ تَكْتُمَ النَّدَّا ؟[٢٣]

فَلَا وَصْلَ إِلَّا ذُكْرَةٌ تَبْعَثُ الْأَسَى — عَلَى النَّفْسِ حَتَّى لا تُطِيقَ لَهُ رَدَّا[٢٤]

أَبِيتُ قَرِيحَ الْجَفْنِ ، لا أَعْرِفُ الْكَرَى — طَوَالَ اللَّيَالِى ، وَالْجَوَانِحُ لا تَهْدَا[٢٥]

فَيَأَيُّهَا النُّوَّامُ ! وَالشَّوْقُ عَازِرٌ — أَلَا أَحَدٌ يَشْرِى بِغَفْوَتِهِ السُّهْدَا ؟[٢٦]

لَقَدْ ذَلَّ مَنْ يَبْغِى مِنَ النَّاسِ نَاصِرًا — وَقَدْ خَابَ مَنْ يَجْنِى مِنَ الْأَرْقَمِ الشُّهْدَا[٢٧]

فَإِيَّاكَ أَنْ تُخْدَعْ بِشِيمَةِ صَاحِبٍ — فَمَنْ ظَنَّ خَيْرًا بِالزَّمَانِ فَقَدْ أَكْدَى[٢٨]

فَقَدْ طَالَمَا جَرَّبْتُ خِلًّا فَمَا رَعَى — وَحِلْفًا فَمَا أَوْفَى ، وَعَوْنًا فَمَا أَجْدَى[٢٩]

---

(٢٢) العذل : الملامة . وأبدى : أظهر ، ويريد بالخفيّة : ماينبغى أن يخفيه من أسرار الحبّ . والتوالى : التتابع . والقدح : ضرب أحد الزندين بالآخر لإخراج النار منهما . ويسترعف الزند : المراد يخرج نار الزند : وهو العود الذى تقدح به النار . استرعف الشىء : استقطره . واسترعف فلانا : استنزل الرعاف (وهو الدم) من أنفه .

(٢٣) الوجد : الحبّ . وتسام : تكلف . والندّ : عود يتبخّر به ، أو هو نوع من الطيب ، أو هو العنبر .

(٢٤) الذكرة (بضم فسكون) : ضد النسيان ، والشىء يجرى على اللسان ، كالذكر والذكرى (بكسر الذال فيهما) . والأسى : الحزن .

يقول : انقطع ما بينه وبينها من صلات ، ولم يبق إلا أن يعتاده ذكرها ، فيبعث فى نفسه حزناً لا يستطيع رده .

(٢٥) قريح : مجروح . والجفن : غطاء العين من أعلاها وأسفلها . وتقرّح الأجفان : كناية عن كثرة البكاء . والكرى : النعاس . والجوانح : أضلاع الصدر . و يراد بها القلب . وتهدا : تهدأ وتسكن وتطمئن .

(٢٦) عازر : اسم فاعل من عزره (من باب ضرب) : أى منعه ، والمراد : منعه من النوم ، وحرمه إيّاه . ويشرى : يشترى . والغفوة : اسم مرة من غفا غفواً (بفتح فسكون) : أى نام ، أو نعس كأغفى . والسهد : السهر .

(٢٧) يبغى : يطلب . والأرقم : أخبث الحيّات ، وأطلبها للناس . أو ما فيه سواد وبياض ، أو ذكر الحيّات . والشهد . (بفتح الشين وضمها) : عسل النحل .

(٢٨) أن تخدع : سكن آخره وهو مضارع منصوب بأن ، وذلك لضرورة وزن الشعر ، على أن بعض النحاة يجيز جزم المضارع بعد أن ، نقل هذا صاحب المغنى ، ثم ذهب إلى أن تسكين المضارع لضرورة الوزن ، لا للجزم . والشيمة : الطبيعة والخلق . وأكدى : أخفق ، ولم يظفر بحاجته .

يحذر المخاطب أن ينخدع بما يظهره صاحبه من خلق خلاب ، ويقول : إن ظنّ المرء خيراً بالزمان وأهله كان جديراً بالخيبة والحرمان .

(٢٩) الخلّ : الصديق . ورعى الحرمة والعهد والأمر ونحوه : حفظه وصانه . والحلف (بكسر =

وَمَا النَّاسُ إِلَّا طَالِبٌ غَيْرُ وَاجِدٍ ... لِمَا يَبْتَغِي، أَوْ وَاجِدٌ أَخْطَأَ الْقَصْدَا(٣٠)
فَلَا تَحْسَبَنَّ النَّاسَ أَبْنَاءَ شِيمَةٍ ... فَمَا كُلُّ مَمْدُودِ الْخُطَا بَطَلًا جَعْدَا(٣١)

وَقَالَ فِي غَرَضٍ لَهُ :

وَصَاحِبٍ رَعَيْتُ دَهْرًا وُدَّهُ ... وَلَمْ أُبَايِنْ نَهْجَهُ وَقَصْدَهُ(١)
وَكُنْتُ أَرْعَى بِالْمَغِيبِ عَهْدَهُ ... بَلْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَعِيشَ بَعْدَهُ(٢)
وَطَالَمَا أَرْغَمْتُ فِيهِ ضِدَّهُ ... وَذُدْتُ عَنْهُ مَا يَعُوقُ وَكْدَهُ(٣)
حَتَّى إِذَا مَا الدَّهْرُ أَوْرَى زَنْدَهُ ... صَعَّرَ لِي بَعْدَ الصَّفَاءِ خَدَّهُ(٤)
وَجَازَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ حَدَّهُ ... فَلَمْ أُحَاوِلْ رَدْعَهُ وَرَدَّهُ(٥)

= فسكون) : الصديق يحلف لصاحبه ألا يغدر به . وأوفى بالعهد : ضد غدر ، كوفى يفى وفاء . والعون الظهير والمساعد والمعين . وأجدى : نفع .

(٣٠) يبتغى : يطلب . والقصد : المقصود ، وأصله مصدر قصد الشىء وله وإليه : إذا أمّه ، وطلبه بعينه ، (وبابه ضرب) .

(٣١) الشيمة : الخلق والغريزة والطبيعة والجبلّة التى خلق الإنسان عليها؛ والمراد لا تحسبنّ ما يظهر لك من صور الناس ومظاهرهم دليلا على ما خفى من شيمهم وأخلاقهم . والخطا : جمع خطوة (بضم الخاء) . يقال خطا خطوة واسعة ، وهو ممدود الخطا ، أو فسيح الخطا ، يريد معجباً لك ، طويل القامة . والبطل : الشجاع . والجعد : الكريم .

(١) رعيت : حفظت وصنت . والود : المودة والحب . وأباين : أفارق . والنهج : الطريق الواضح . ومعنى الشطر الثانى : أنه لم يخالفه ، ولم يترك الوفاء له .

(٢) بالمغيب : بالغيب ، أى فى غيبته . والعهد : الموثق ، والحفاظ ، ورعاية الحرمة ، والذمّة ، والوفاء .

(٣) أرغمته : أهنته وأذللته . وأصله من قولهم : أرغم الله أنف فلان : أى ألصقه بالرغام : وهو التراب . وهذا كناية عن الإهانة والإذلال . وفيه : أى بسببه ، ومن أجله . والضدّ : المخالف والعدوّ . وذدت : منعت ، وأبعدت . والوكد : المراد ، والهمّ ، والقصد .

(٤) الزند : العود الذى تقدح به النار ، أى تشعل ، وهو الأعلى ، والزندة السفلى . وأورى الزند : ضرب به الزندة لإخراج النار ، وأورى الدهر زند فلان : كناية عن أنه أنجده وأعانه وأسعده . وصعّر خدّه للناس : أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً وكبراً .

(٥) ردعه عن الشىء (من باب قطع) : كفّه ، ومنعه ، وزجره .

وَلَمْ أُكَدِّرْ بِالْعِتَابِ وِرْدَهُ وَلَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَفُلَّ حَدَّهُ(٦)
لَقَلَتُ فِيهِ مَا يَحُزُّ جِلْدَهُ لَكِنَّنِي تَرَكْتُهُ وحِقْدَهُ(٧)
شَأْنُ امْرِئٍ فِى الْمَجْدِ يَرْعَى مَجْدَهُ كُلُّ امْرِئٍ يُنْفِقُ مِمَّا عِنْدَهُ(٨)
* وَالْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِما أَعَدَّهُ *

وَقَال ، وَفِيهَا وَصْفُ اللِّسَانِ :

مَنْ قَلَّدَ الزَّهْرَ جُمَانَ النَّدَى وَأَلْهَمَ الْقُمْرِيَّ حَتَّى شَدَا ؟(١)
وَزَيَّنَ الْأَرْضَ بِأَلْوَانِهَا وَصَوَّرَ الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَا ؟(٢)
سُبْحَانَ مَنْ أَبْدَعَ فِى مُلْكِهِ حَتَّى بَدَا مِنْ صُنْعِهِ مَا بَدا(٣)
تَنَزَّهَتْ عَنْ صِفَةٍ ذَاتُهُ وَقَامَ فِى لَاهُوتِهِ أَوْحدَا(٤)

---

(٦) الورد : النصيب من الماء . وتكدير ورده: كناية عن إيلامه . وأفلّ (من باب ردّ) : أكسر .

(٧) يحزّ (من باب ردّ): يقطع . والحقد : إضمار العداوة ، والانطواء على البغضاء .

(٨) المجد : العز والشرف . ويرعى : يحفظ ويصون .

يقول : إن أمره وحاله مع هذا الصاحب أمر امرئٍ ماجد ؛ فهو يصون مجده ، ويحفظه بالحلم والإغضاء الذى هو شأن الأمجاد الكرام . ثم قال : وكل إنسان ينفق مما عنده ، ويعامل الناس بما فطر عليه ، ويجرى فى الوفاء أو الغدر على طباعه ، وهو فى النهاية مكافأ مجزىّ بما قدّمت يداه .

(١) قلّده : جعل فى عنقه القلادة : وهى العقد (بكسر فسكون) . والجمان : اللؤلؤ ، أو هنوات : (أى أشياء) أشكال اللؤلؤ من فضّة ، الواحدة جمانة (بضم الجيم) . وفى أساس البلاغة : الجمان : حبّ من فضّة ، يعمل على شكل اللؤلؤ ، وقد يسمّى به اللؤلؤ . والندى :قطرات الماء التى تسقط من السماء آخر الليل ، وجمان الندى : الندى ، الشبيه بالجمان . وألهم : علّم ولقّن . والقمرىّ : نوع من الحمام ، والأنثى قمريّة ، والذكر ساق حرّ . وشدا : غنّى، وترنّم . والاستفهام فى أول البيت يفيد تعظيم الله تبارك وتعالى ، وتحميده ، وتمجيده بالإشارة إلى شىء من ظواهر نعمه ، ودلائل قدرته .

(٢) وهذا البيت فى نطاق الاستفهام الذى فى صدر البيت السابق؛ فالله عزّ وجلّ زين الأرض بأنواع الأزهار المختلفة الألوان ، وخلق الأضداد ، فكانت من مظاهر كمال قدرته سبحانه وتعالى .

(٣) أبدع الشىء : اخترعه لا على مثال . وبدا : ظهر .

(٤) تنزّهت : تباعدت . واللاهوت : الألوهية .

والمعنى : أنّ الله تبارك وتعالى منزه عن صفات المحدثات ، متّصف بكلّ كمال ، واحد لاشريك له .

فَاسْجُدْ لَهُ ، وَاقْصِدْ حِمَاهُ تَجِدْ رَبًّا كَرِيماً ، وَمَلِيكاً هَدَى (٥)

فَقُمْ بِنَا يا صَاحِ نَرْعَ النَّدَى وَنَسْأَلِ اللهَ عَمِيمَ النَّدَى (٦)

أَما تَرَى كَيْفَ اسْتَحَارَ الدُّجَى ؟ وَكَيْفَ ضَلَّ النَّجْمُ حَتَّى اهْتَدَى (٧)

وَلَاحَ خَيْطُ الْفَجْرِ فِى سُحْرَةٍ كَصَارِمٍ فِى قَسْطَلٍ جُرِّدَا (٨)

فَالْجَوُّ قَدْ بَاحَ بِمَكْنُونِهِ وَالْأَرْضُ قَدْ أَنْجَزَتِ الْمَوْعِدَا (٩)

غَمَامَــةٌ أَلْقَتْ بِأَفْــلَاذِهَا وَجَدْوَلٌ مَدَّ إِلَيْنَا يَدَا (١٠)

---

(٥) الحمى (فى الأصل) : الشيء المحمى الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه ، وأحميت المكان : صيرته حمى : أى ممتنعاً عزيزاً، والمراد بقصد حمى الله تبارك وتعالى : الاتجاه إليه، وطلب حمايته . والمليك : الملك : أى صاحب الملك كله .

يقول : فاخضع لله تبارك وتعالى، واتجه إليه، واطلب حمايته وإحسانه ورحمته ؛ تجد ربًّا كريما وملكاً أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى .

(٦) نرعى : نراعى ونشاهد . والندى فى الشطر الأول : قطرات الماء، تسقط فى آخر الليل ، وفى الشطر الثانى : الجود والسخاء . والمراد برعى الندى : الدعوة إلى التبكير ، والتمتع بجمال الكون فى الصباح .

(٧) استحار : تحير وتردد بين الجيئة والذهوب . والدجى : جمع دجية (بضم فسكون) : وهى الظلمة . ويريد باستحارة الدجى : تردده قبيل الفجر .

يقول لصاحبه وهو يحضه على التبكير : أما ترى كيف أشرفت ظلمات الليل على الزوال بترددها ، وعدم استقرارها ، وكيف بات النجم ضالاً فى هذه الظلمات حتى اهتدى فى آخر الليل فجنح إلى الأفول والمغيب ؟

(٨) السحرة (بضم فسكون) : السحر الأعلى ، أى الوقت قبيل الفجر ، وهما سحران : سحر مع الصبح ، وسحر قبله . كما يقال الفجران للكاذب والصادق . والصارم : السيف القاطع . والقسطل : الغبار . وجرد السيف : أخرجه من غمده .

(٩) باح بسره : أظهره . والمكنون : الخفى المستور . والموعد : الوعد يكون فى الخير .

والمعنى : أن الجو قد انكشف، وظهر بزوال ظلمة الليل ، كما أنجزت الأرض وعدها فأظهرت زينتها بما أنبتته من مختلف الأزهار .

(١٠) الغمامة : السحابة . والأفلاذ (فى الأصل) : جمع فلذة (بكسر فسكون) : وهى القطعة من الكبد، ومن الذهب والفضة واللحم وغيره ، وكثر إطلاقها على الأولاد . والمراد بأفلاذ الغمامة : قطراتها . والجدول : النهر الصغير .

فَانْهَضْ، وَسِرْ، وَانْظُرْ، وَمِلْ، وَابْتَهِجْ ... وَامْرَحْ، وَطِبْ، وَاشْرَبْ لِتُرْوِي الصَّدَى(١١)

وَلَا تَسَلْ عَنْ خَبَرٍ لَمْ يَحِنْ ... مِيقَاتُهُ، وَانْظُرْ إِلَى الْمُبْتَدَا(١٢)

وَلَا تَلُمْ خِلًّا عَلَى هَفْوَةٍ ... فَقَلَّمَا تَلْقَى فَتًى أَمْجَدَا(١٣)

لَوْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ ما أَضْمَرَتْ ... أَحْبَابُهُ، هَانَتْ عَلَيْهِ الْعِدَا(١٤)

فَدَعْ بَنِي الدُّنْيَا لِأَهْوائِهِمْ ... وَلَا تُطِعْ مَنْ لَامَ، أَوْ فَنَّدَا(١٥)

مالِي وَلِلنَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ ؟ ... كُلُّ امْرِئٍ رَهْنُ حِسَابٍ غَدَا(١٦)

هَلْ هِيَ إِلَّا مُدَّةٌ تَنْقَضِي ؟ ... وَكُلُّ نَفْسٍ خُلِقَتْ لِلرَّدَى(١٧)

فَاسْتَعْمِلِ الرِّفْقَ تَعِشْ رَاشِدًا ... واعْطِفْ عَلَى الْأَدْنَى تَكُنْ سَيِّدَا(١٨)

وَاسْعَ لِمَا أَنْتَ لَهُ، فَالْفَتَى ... إِنْ هَجَرَ الرَّاحَةَ حَازَ الْمَدَى(١٩)

---

(١١) الابتهاج : السرور . والمرح : الاختيال، والنشاط، وشدّة الفرح . والصدى : العطش .

(١٢) لم يحن ميقاته : لم يأت الوقت المضروب لفعله .

والمعنى : لا تكلّف نفسك عناء السؤال، والبحث فيما غاب عنك من الأمور، ووجّه نظرك وتفكيرك إلى ما تبتدئه وتزاوله من الأشياء .

(١٣) الخلّ : الصديق . والهفوة : الزلّة . وأمجد : صفة من المجد وهو الكرم والعز والشرف .

(١٤) هان عليه الشيء يهون : خفّ وسهل . والعدا : اسم جمع لعدوّ .

يقول : لو علم الإنسان طوايا من يظنّهم أحبابه، وما يضمرون له من الحسد والضغينة لخفّ عليه أمر أعدائه؛ يريد أنّ الناس متشابهون فى إضمار الحقد، وإخفاء الحسد والضغينة، سواء فى ذلك العدوّ والصديق، بل إنّ العدوّ أهون خطباً؛ لأن عداوته ظاهرة يمكن اتّقاؤها .

(١٥) الأهواء: جمع هوى: وهو ميل النفس . والتفنيد: مصدر فنّده : إذا لامه، وخطّأ رأيه .

(١٦) يقول : إنه لا شأن له بالناس وأعمالهم، فكلّ امرئ بما كسب رهين، وهو مسئول عن عمله، محاسب عليه فى مستقبل أيّامه، أو يوم القيامة .

(١٧) الردى : الهلاك .

(١٨) راشد : صفة من الرشد : وهو الهدى والصلاح . والأدنى : الأقرب .

(١٩) المدى : الغاية .

مَا خَلَقَ اللهُ الْوَرَى بَاطِلًا ... لِيَرْتَعُوا بَيْنَ الْبَوَادِي سُدَى[٢٠]

فاقْبلْ وَصَاتِى ، واسْتَمِعْ حِكْمَتِى ... فَلَيْسَ مَنْ أَغْوَى كَمَنْ أَرْشَدَا[٢١]

إِنِّى وإِنْ كُنْتُ أَخَا صَبْوَةٍ ... وَمِسْمَعٍ يُطْرِبُنِى مَنْ شَدَا[٢٢]

فَقَدْ أَزُورُ اللَّيْثَ فى غَابِهِ ... وَأَهْبِطُ الْأَرْضَ عَلَيْهَا النَّدَى[٢٣]

وأَصْدَعُ الْخَصْمَ ، وَمَا خِلْتُنِى ... أَصْدَعُ إِلَّا الْبَطَلَ الْأَصْيَدَا[٢٤]

بِلَهْذَمٍ لَيْسَتْ لَهُ صعْدَةٌ ... لَكِنَّهُ يَمْضِى إِذَا سُدِّدَا[٢٥]

أَوْ صَارِمٍ يفْرِى نِياطَ الْكُلَى ... وَلَمْ يزَلْ فى جَفْنِهِ مُغْمدَا[٢٦]

---

(٢٠) الورى : الخلق ، والناس . ورتع (من بابى خضع ، ومنع) : أكل وشرب ما شاء فى خصب وسعة . والبوادى : جمع بادية : وهى خلاف الحاضرة . والحاضرة : المدن ، والقرى ، والريف . والسدى (بضم السين) : المهمل ، وتركهم سدى : مهملين .

(٢١) الوصاة : اسم من وصّاه توصية . وأغواه : أضلّه . وأرشده : هداه .

(٢٢) الصبوة . جهلة الفتوّة ، أو الميل إلى جهل الفتاء وحريته . والمسمع (بكسر فسكون) : الأذن ويطربنى : يبعث فى نفسى الطرب : وهو خفّة تصيب الإنسان لشدّة التأثّر . وشدا يشدو : غنّى ، وطرّب ، وترنّم ، (وبابه عدا) .

(٢٣) الليث : الأسد . والغاب : جمع غابة : وهى الأجمة : أى الشجر الكثير الملتفّ . وهبط : نزل ، (وبابه جلس) . والندى : المطر والبلل . والبيت كناية عن ركوب الأهوال ، ومباكرة السعى والعمل .

(٢٤) الصدع (فى الأصل) : الشقّ فى شىء صلب ؛ والمراد بصدع الخصم : إفحامه ، وقهره ، والتغلّب عليه بالمنطق القوىّ والقول البليغ . وخال (هنا) : بمعنى علم وتيقّن . والبطل : الشجاع . والأصيد : رافع رأسه كبراً .

(٢٥) اللهذم : السنان الحادّ القاطع ، والسنان : حديدة الرمح . والصعدة : القناة المستوية ، نبتت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف . ويمضى : ينفذ ، ويقطع . وسدّد : وجّه إلى المطعون ، من قولهم : سدّد الرجل رمحه : أى وجّهه طولا ، وذلك فى أثناء الطعان والقتال ، والتسديد : خلاف التعريض . استعار سنان الرمح القاطع الحادّ للسانه الذلق الفصيح الذرب ، الذى يفحم به خصمه ، ويهجو به أعداءه .

(٢٦) الصارم : السيف القاطع . ويفرى : يقطع . والنياط (ككتاب) : ما يعلّق به الشىء . والكلى جمع كلية (بضم الكاف) . ونياط الكلى : عصبها وعرقها الذى يربطها بمتنى الظهر . وجفن السيف : غمده . استعار الصارم للسانه العضب ؛ كما استعار له اللهذم فى البيت السابق . ويفرى نياط الكلى : كناية عن أنه يبلغ من الخصم كلّ مبلغ .

مَاضِي الْغِرَارَيْنِ ، ولَكِنَّهُ لا يَعْرِفُ الصَّيْقَلَ وَالْمِبْرَدَا (٢٧)
أَوْ مِشْقَصٍ إِنْ فَوَّقَتْ نَصْلَهُ إِلَى امْرِئٍ غَيْرُ يَدٍ أَقْصَدَا (٢٨)
أَوْ طَائِرٍ فى وَكْرِهِ جاثِمٍ يَشُوقُ إِنْ هَيْنَمَ أَوْ غَرَّدَا (٢٩)
لَمْ يَعْدُ كِنًّا لَمْ يَزَلْ سَاكِناً فِيهِ ، وَبَاباً دُونَهُ مُؤْصَدَا (٣٠)
قَدْ لَانَ ، إِلَّا أَنَّهُ إِنْ قَسَا يَوْمَ نِضَالٍ ، صَدَعَ الْجَلْمَدَا (٣١)
مُعْتَقَلٌ ، لَكِنَّهُ مُطْلَقٌ يَجُولُ فى مَسْكَنِهِ سَرْمَدَا (٣٢)
يَحْكُمُ بِالذَّوْقِ علَى ما يَرَى وَيعْرِفُ الْأَصْلَحَ وَالْأَفْسَدَا (٣٣)

---

(٢٧) ماض : حاد قاطع . والغراران : الحدان ، واحدهما غرار (بوزن كتاب) : وهو حد السيف والرمح والسهم ونحوها . وصقلت السيف ونحوه صقلا (من باب قتل) : جلوته ، والصيقل (بوزن الفيصل) : شحاذ السيوف وجلاؤها . والجمع صياقل ، وصياقلة .

(٢٨) المشقص (بوزن المنبر) : سهم ذو نصل عريض . والنصل : حديدة السهم . وتفويق النصل : جعل الوتر فى فوقه : أى فى أعلاه عند الرمى . وأقصد إقصاداً : أصاب ، فقتل . استعار المشقص للسانه ، كما استعار له الهذم والصارم فى البيتين الخامس والعشرين ، والسادس والعشرين .
يقول إن لسانه سهم يرمى بغير يد فيقتل .

(٢٩) وكر الطائر : عشه حيث كان فى جبل أو شجر . وجاثم : اسم فاعل من جثم الطائر إذا تلبد بالأرض (وبابه جلس ودخل) . وشاقه الشيء (من باب قال) : هيج شوقه . وهينم : صوت صوتاً خفياً . وغرد : طرب فى صوته وغنى . وهنا يشبه لسانه بالطائر الغرد .

(٣٠) عدا المكان يعدوه عدواً : جاوزه ، وغادره ، وتركه . والكن (بالكسر) : البيت . ومؤصد : مغلق : من آصد الباب ، وأوصده : إذا أغلقه .

(٣١) قسا : غلظ واشتد . والنضال : مصدر ناضله : أى راماه ، وناضلت عنه : حاميت وجادلت . وصدع : شق . والجلمد : الصخر .

(٣٢) معتقل : محبوس ؛ أى فى موضعه : وهو الفم . ومطلق : منطلق القول ، فصيح البيان . ويجول : يدور ، ويطوف ، ويتحرك . وسرمداً : دائماً .

(٣٣) المراد بما يرى : ما يعرض عليه . يقول : إن لسانه يذوق الأشياء فيعرفها ، ويحكم بالذوق عليها ، ويميز الخبيث من الطيب ، والفاسد من الصالح .

لَهُ صِحَابٌ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ   تَنْقُلُ عَنْهُ نَبَرَاتِ الصَّدَى(٣٤)

فَهْوَ بِهَا مُجْتَمِعٌ شَمْلُهُ   إِنْ أَصْدَرَ الْقَوْلَ بِهَا أَوْرَدَا(٣٥)

مُشْتَبِهَاتُ الرَّصْفِ فِى جَوْدَةٍ   تَبَارَكَ اللهُ الَّذِى جَوَّدَا(٣٦)

يَبِيتُ مِنْهَا وَهْوَ ذُو مِرَّةٍ   فِى رَصَفٍ مِنْ لُؤْلُؤٍ نُضِّدَا(٣٧)

ذَاكَ لِسَانِى ، وَهْوَ حَسْبِى إِذَا   ما أَبْرَقَ الْحَاسِدُ أَوْ أَرْعَدَا(٣٨)

وَقَالَ فِى النَّسِيبِ(*) :

مَا لِقَلْبِى مِنْ لَوْعَةٍ لَيْسَ يَهْدَا ؟   أَوَ لَمْ يَكْفِ أَنَّهُ ذَابَ وَجْدَا ؟(١)

---

(٣٤) الصحاب (بكسر الصاد) : جمع صاحب ، ويريد بالصحاب : الأسنان . والنبرات : جمع نبرة ، اسم مرّة من النبر : بمعنى رفع الصوت . والصدى (هنا) : الصوت ، وأصله رجيع الصوت : أى مرجوعه ومردوده ، وفى القاموس وغيره : الصدى : ما يردّه الجبل على المصوّت ، والصدى : ما يجيبك بمثل صوتك فى الجبال وغيرها .

(٣٥) جمع الله شمل فلان : أى لمّ ما تشتّت من أمره ، ومجتمع شمله : كناية عن قوّته وقدرته على النطق والبيان . وبها : أى بالصحاب : وهى الأسنان . وأصدره فى الأصل : رجعه . وأورده : جعله يرد الماء : أى يبلغه ، ويشرف عليه . وفى أساس البلاغة : ... وإذا أورد أمراً أصدره ، وفلان يورد ولا يصدر أى يأخذ فى الأمر : ولا يتمّه ، ورجل مصدر : أى متمّ للأمور . وعلى هذا يكون الكلام معكوساً فى الشطر الثانى من البيت ، والصواب أن يقال : إن أورد القول بها أصدره ، أى إن بدأه أتمّه ، فالأسنان تساعد اللسان على ابتداء الكلام وإتمامه .

(٣٦) رصف الحجارة ونحوها (من باب قتل) : ضم بعضها إلى بعض . والكلام عن الأسنان .

(٣٧) ذو مرّة : قوىّ ، والمرّة (بكسر الميم) : القوّة . والرصف (فى الأصل) : حجارة مرصوف بعضها إلى بعض فى مسيل ، الواحدة رصفة ، مثل قصبة وقصب ، والمراد بالرصف (هنا) : الأسنان المرصوفة . ونضّد : نظّم ، وأصل التنضيد : جعل المتاع بعضه فوق بعض .

(٣٨) هو حسبى : هو يكفينى . والإبراق والإرعاد : كناية عن التهديد والوعيد .

(*) النسيب : مصدر نسب الشاعر بالمرأة (كضرب) نسباً (بفتحتين) ونسيباً : إذا شبّب بها فى الشعر ، وعرّض بهواها وحبّها .

(١) اللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حبّ أو همّ ، ولاعه الحبّ : أمرضه . ويهدا (بإبدال الهمزة ألفا) : يسكن ويطمئنّ . والوجد : الحبّ .

وَسَمَتْنِي بِنَارِهَا الْغِيدُ حَتَّى ... تَرَكَتْنِي فِي عَالَمِ الْحُبِّ فَرْدَا(٢)

فَضُلُوعِي مِنْ قَدْحَةِ الزَّنْدِ أَوْرَى ... وَدُمُوعِي مِنْ صَفْحَةِ الْغَيْمِ أَنْدَى(٣)

مَا عَلَى الْبَرْقِ لَوْ تَحَمَّلَ عَنِّي ... بَعْضَ ما خَفَّ مِنْ سَلَامٍ فَأَدَّى(٤)

أَيُّهَا السَّاهِرُونَ حَوْلَ وِسَادِي ... لَسْتُ مِنْكُمْ أَوْ تَذْكُرُوا لِيَ نَجْدَا(٥)

وَعُهُودًا لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْهَا ... لِأَخِي صَبْوَةٍ ذِمَاماً وَعَهْدَا(٦)

وَنَسِيماً إِذَا سَرَى ضَوَّعَ الْآ ... فَاقَ مِسْكاً، وَعَطَّرَ الْجَوَّ نَدَّا(٧)

---

(٢) الوسم : أثر الكيّ ، ووسمه (من باب وعد) : جعل فيه بالكيّ أثراً وعلامة . والغيد : جمع غيداء ، وهى الحسناء الناعمة المتثنّية ليناً : والفعل غيد (كفرح) : إذا مالت عنقه ، ولانت أعطافه . ومعنى الشطر الثانى : أنه أصبح فى عالم الحبّ منفرداً متميّزاً من سواه بشدّة ما يعانيه من حرقة الهوى والصبابة ، وتباريح العشق والغرام .

(٣) القدحة : اسم مرّة من قدح الزند : أى أخرج منه ناره . والزند : العود الذى تقدح به النار ، وهو الأعلى ، والزندة السفلى ، وهما زندان . وأورى : اسم تفضيل من ورى الزند يرى ورياً (كوعى يعى وعياً) : إذا خرجت ناره . والصفحة : الوجه ، وصفحة كلّ شيء : جانبه . والغيم : السحاب ؛ الواحدة غيمة (بفتح فسكون) . وأندى : أكثر ندى : وهو المطر والبلل .

والمعنى : أن حرقة الوجد بين ضلوعه أشدّ اتّقاداً من نار الزند ، وأنّ دموعه أغزر من المطر .

(٤) أدّى السلام : أوصله ، وبلّغه .

(٥) الوساد والوسادة (بكسر الواو فيهما) : المخدّة والمتّكأ . وكلّ ما يتوسّده الإنسان . ونجد : اسم للأراضى العالية فى وسط الجزيرة العربية ، وخصّه الشاعر بالذكر ، لأنه كان موطن الحبّ العنيف العفيف .

(٦) العهود : جمع عهد : وهو المنزل المعهود به الشيء ، والموثق ، والحفاظ . والصبوة : جهلة الفتوّة ، أو الميل إلى جهل الفتاء وحرّيته ولهوه ومرحه ، والمراد بأخى الصبوة : العاشق المرح . والذمام : الحقّ ، والحرمة .

(٧) سرى : سار . وضوع العطر : نشره ؛ فقول الشاعر (ضوّع الآفاق) لا يتّجه اتجاهاً صحيحاً ، ولعلّه ضمّن الفعل معنى ضمّخ أو عطّر . والآفاق : جمع أفق ، وهو الناحية . والمسك : طيب معروف ، وهو أفضل الطيب عند العرب ، وكانت تسميه المشموم ، وهو فارسى معرّب . والندّ : نوع من الطيب ، أو هو العنبر .

لا تَخُوضُوا فى غَيْرِهِ مِنْ حَدِيثٍ فَهْوَ حَسْبِى ، وأَىُّ مَاءٍ كَصَدَّا ؟ (٨)
هِىَ أُحْدُوثَةٌ تُسَاقُ وَلَكِنْ رُبَّما اسْتَوْجَبَتْ ثَنَاءً وَحَمْدَا (٩)
آهِ مِنْ لَوْعَةٍ أَطَارَتْ بِقَلْبِى شُعْلَةً شَفَّتِ الْجَوَانِحَ وَقْدَا (١٠)
كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ تَنَاهَى غَرَامِى عَادَ مِنْهُ ما كَانَ أَصْمَى وَأَرْدَى (١١)
يَا رَفِيقِى إِذَا عَرَانِىَ خَطْبٌ وَنَصِيرِى إِذَا خَصِيمٌ تَصَدَّى (١٢)
أَصْبَحَتْ حَاجَتِى إِلَيْكَ ، فَخُذْلِى بِحُقُوقِى مِنْ ظَالِمٍ قَدْ تَعَدَّى (١٣)
وَجَدَ الْقَلْبَ خَالِياً . فَاحْتَوَاهُ وَرَأَى النَّفْسَ طَوْعَهُ فاسْتَبَدَّا (١٤)

---

(٨) خاض فى الحديث : دخل فيه . وفى غيره : أى فى غير ما ذكرت من نجد ، ومن عهود . . . ، ومن نسيم ... وحسبى : يكفينى . وصَدًّا بالقصر لضرورة وزن الشعر : أصله صَدَّاء : اسم ركيّة ، أو عين لم يكن عند العرب أعذب منها . ومن أمثالهم : « ماء ولا كَصَدَّاء » .

(٩) هى : أى قصّة الحبّ . والأحدوثة : ما يتحدّث به . والثناء : وصف بمدح .

يقول : إنّ حبى سيكون حديث الناس ، ولكنّ هذا الحبّ قد يجلب إلىّ ثناء الناس وحمدهم ؛ لأنه من الحبّ الشريف العفيف .

(١٠) اللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حبّ ، أو همّ . ولاعه الحبّ : أمرضه . والشعلة : لهب النار ، والمراد حرقة الحبّ ، وشفّه الهمّ ونحوه : هزله وأنحله . والجوانح : أضلاع الصدر ، واحدتها جانحة . والوقد : اتّقاد النار .

(١١) تناهى : انتهى : وذهب . وأصمى : أشدّ وأمضى ، اسم تفضيل من الصميان (بفتح الصاد والميم) : وهو المضىّ ، والوثب ، والسرعة . وأردى : أسرع وأكثر إصابة ، اسم تفضيل من ردى الفرس (كرمى) ردياً ورديانا إذا رجم الأرض بحوافره ، أو هو بين العدو والمشى . وردى فلان فلاناً : صدمه ، ورداه بحجر : رماه به . ويجوز أن يكون « أصمى » و « أردى » فعلين ماضيين .

والمعنى على هذا : كلما قلت إننى صحوت من الغرام عاد إلىّ منه ما كان قد أصابنى وقتلنى فى أوّل عهدى به .

(١٢) عراه كذا (من باب عدا) ، واعتراه : غشيه ، وأصابه . والخطب : النازلة ، والشديدة من نوازل الدهر وشدائده . والخصيم : الخصم . وتصدى له : تعرّض . يتّجه فى هذا البيت على عادة العرب إلى صديق يستنجد به ، ويحدّثه حديث غرامه .

(١٣) تعدّى : جار وظلم .

(١٤) احتواه : استولى عليه ، وضمّه إليه .

وَكَذاكَ السُّلْطَانُ إنْ ظَنَّ بِالأَمَـ ـةِ عَجْزًا سَطَا عَلَيْهَا وَشَدَّا(١٥)
فَأَقِلْنِي مِنْ عَثْرَةِ الْحُبِّ إنْ أو تِيتَ حُكْماً ، أَوْ قُلْ لِقَلْبِيَ يَهْدَا(١٦)
فَمِنَ الْعَارِ غَضُّ طَرْفِكَ عَنِّي إنَّ خَيْرَ الصِّحَابِ أَنْفَعُ وُدَّا(١٧)
وَبِنَفْسِي حُلْوُ الشَّمَائِلِ ، مُرُّ الْـ ـهَجْرِ ، يُحْيِي وَصْلاً ، وَيَقْتُلُ صَدًّا(١٨)
ذُو قَوَامٍ أَعْدَى مِنَ الرُّمْحِ لِيناً وَلِحَاظٍ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ حَدًّا(١٩)
كَانَ قَلْبِي وَدِيعَةً عِنْدَ عَيْنَيْـ ـهِ ، فَآلَى بِالسِّحْرِ أَلاَّ يُرَدَّا(٢٠)
مَا عَلَى قَوْمِهِ وَإِنْ كُنْتُ حُرًّا أَنْ دَعَتْنِي لَهُ الْمَحَبَّةُ عَبْدَا ؟(٢١)
غُصْنُ بَانٍ ، قَدْ أَطْلَعَ الْحُسْنُ فِيهِ بِيَدِ السِّحْرِ جُلَّنَارًا وَوَرْدَا(٢٢)

---

(١٥) سطا عليها : استطال عليها ، وقهرها بالبطش . وشدّ : فعل ماض من الشدّة (بفتح الشين) : وهي الحملة في الحرب ، أو من الشدّ ، وهو الإيثاق والتقييد ، شدّه : أوثقه وقيّده .

(١٦) أقال الله عثرته : رفعه من سقوطه . ويهدا (بتسهيل الهمزة) : يسكن ويطمئن .

(١٧) الطرف : العين ، وغضّ طرفه : خفضه ، وهذا كناية عن إهمال شأنه ، وعدم مساعدته .
يقول لرفيقه : إنّ من العار أن تتخلّى عني ، وتهمل شأني ، وإنّ خير الأصحاب من كان حبّه نافعاً ، ووده مثمراً .

(١٨) الشمائل : جمع شمال (بكسر الشين) بمعنى الخُلُق والطبع . والصدّ : الإعراض والهجران .
يقول : أفدي بنفسي حبيباً حلو الطباع ، مرّ الهجر ، يحييني وصاله ، ويقتلني صدّه وهجرانه .

(١٩) قوام الإنسان (بفتح القاف والواو) : قدّه ، وقامته ، وحسن طوله . وأعدى : اسم تفضيل من عدا عليه : بمعنى اعتدى عليه ، وظلمه ، وجاوز الحدّ . والرمح : قناة في رأسها سنان يطعن به . ويضرب المثل بالرمح في اللين ، والمرونة ، والاعتدال . واللحاظ (بكسر الكلام) : مصدر لاحظته : أي راقبته ، وراعيته . و (بكسر اللام ، وفتحها) : مؤخر العين مما يلي الصدغ . ويراد باللحاظ هنا : النظرة الساحرة الفاتنة . وأمضى : أحد وأنفذ وأسرع قطعاً . وحد السيف ونحوه : طرفه الرقيق الحاد القاطع .
في الشطر الأول تغزل بقدّ الحبيبة ، وحسن طولها ، واعتدال قامتها ، مع اللين والمرونة ؛ فقوامها كالرمح ، ولكنه يفوقه في العدوان ، وقوة التأثير في نفس العاشق المستهام . وفي الشطر الثاني أن نظرتها فاتنة ساحرة تفوق السيف في حدّته ومضائه .

(٢٠) آلى : حلف .

(٢١) يقول : ماذا يضير قوم هذه المحبوبة إذا شببت بها بعد أن صيّرني الحبّ لها عبداً .

(٢٢) البان : شجر يشبّه بغصنه قدّ الحسناء في الاعتدال واللين والتثنّي . والجلنار (بضم الجيم وفتح اللام المشددة) : زهر الرمّان : معرّب « كلنار » .

مَا هِلَالُ السَّماءِ؟ مَا الظَّبْيُ ؟ ما الْوَرْ دُجَنِيًّا ؟ ما الْغُصْنُ إذْ يَتَهَدَّى؟[٢٣]

هُوَ أَبْهَى وَجْهاً ، وَأَقْتَلُ أَلْحا ظًا ، وَأَنْدَى خدًّا ، وَأَلْيَنُ قَدًّا[٢٤]

فَدَعِ اللَّوْمَ يَا عَذُولُ ؛ فَإِنِّى لَسْتُ أَبْغِى مِنَ الْعَوَاذِلِ رُشْدَا[٢٥]

لا تَخَلْنِى عَلَى غَرَاتِكَ سَهْلًا أَنَا أَدْرَى بِلَوْعَتِى مِنْكَ جِدًّا[٢٦]

لَسْتُ أَقْوَى عَلَى الصُّدُودِ ، وَإِنْ كُنْ تُ عَلَى سَوْرَةِ الْحَوَادِثِ جَلْدَا[٢٧]

إِنْ تَكُنْ رَحْمَةٌ فَنَفْسِىَ أَوْلَى أَوْ تَكُنْ ضَلَّةٌ فَرَبِّىَ أَهْدَى[٢٨]

وَقَالَ :

لَقَدْ طَالَ عَهْدِى بِالشَّبَابِ ، وَإِنَّهُ لَأَدْعَى لِشَوْقِى أَنْ يَطُولَ بِهِ عَهْدِى[١]

---

(٢٣) الهلال : القمر لليلتين أو ثلاث من أول الشهر . والظبى : الغزال . وجنيا: غضاً نضيراً ، قد جنى من ساعته . ويتهدّى : يريد يتهادى ويتمايل ، ولم نجد لهذه الكلمة استعمالا بهذا المعنى . والمراد بالاستفهام هنا : التحقير وتصغير الشأن .

(٢٤) هو: أى المحبوب . وأبهى : أجمل . والألحاظ : جمع لحظ : وهو النظر بمؤخر العين مما يلى الصدغ ، ومن كلام العرب : فتنتنى ألحاظها ولحظاتها ، وأندى : اسم تفضيل من ندى(كرضى) : إذا ابتلّ ، والمراد أنضر وألين . والقدّ : القامة ، وحسن التقطيع ، والاعتدال .

يقول : إنّ حبيبه أجمل من القمر وجهاً ، وأقتل من الغزال ألحاظاً ، وأندى من الورد خدًّا ، وألين من الغصن قدًّا .

(٢٥) العذول : صفة من عذله (من بابى نصر وضرب): أى لامه . وأبغى : أطلب . والعواذل: جمع عاذلة ، والشاعر يريده جمعاً لعاذل ، ولا نعرف له وجهاً فى فصيح الكلام . والرشد : الهدى والصلاح ، وهو خلاف الغىّ والضلال .

(٢٦) لا تخلنى : لا تظننى . والغراة (بفتح الغين) : اسم من أغرى فلان بين القوم : أى أفسد ، وألقى بينهم العداوة . واللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حب أو غيره .

يقول لعاذله : لا تحسبنى أتأثر بإفسادك ، أو ألين لعذلك ، وأنت لا تشعر بمثل ما أشعر به من لوعة الوجد وحرقة الحب .

(٢٧) الصدود : الإعراض والهجر . وسورة الحوادث: شدتها وسطوتها . وجلد : قوىّ صبور .

(٢٨) الضلّة (بفتح الضاد) : الحيرة ، أو هى اسم مرّة من الضلال ، وهو ضدّ الهدى والرشاد، أو هى (بكسر الضاد) : بمعنى الضلال أيضاً . وأهدى : اسم تفضيل من هداه يهديه هدى ، وهو الرشاد والدلالة . وعلى هذا يكون المعنى : إن توجد فى الحبّ رحمة فنفسى أحقّ وأجدر بها ، وإن يوجد به ضلال وحيرة فالله تعالى خير من يهدينى إلى سبيل الرشاد ؛ ومفهوم البيت أنه ليس فى حاجة إلى عذل العاذل .

(١) العهد (هنا) : الزمان . وطال (هنا) : بمعنى بعد .

يقول : لقد بعد عهدى بالشباب ، وبعد العهد به جدير بأن يهيج شوقى إليه .

تَبِيتُ عُيُونٌ بِالْكَرَى مُطْمَئِنَّةً ... وَعَيْنَاىَ فِى بَرْحٍ مِنَ الدَّمْعِ وَالسُّهْدِ (٢)

فَلَيْتَ الَّذِى حَازَ الشَّبِيبَةَ رَدَّهَا ... وَلَيْتَ الَّذِى أَهْدَى لَنَا الشَّيْبَ لَمْ يُهْدِ (٣)

كَأَنِّى وَقَدْ جَاوَزْتُ سِتِّينَ حِجَّةً ... مَسَحْتُ بِهَا عَنْ نَاظِرِى سِنَةَ الْفَهْدِ (٤)

فَسُحْقاً لِدَارٍ لا يَدُومُ نَعِيمُهَا ... وَتَبًّا لِخِلٍّ لا يَدُومُ عَلَى الْعَهْدِ (٥)

وَكَيْفَ يَلَذُّ الْمَرْءُ بِالْعَيْشِ بَعْدَ مَا ... رَأَى أَنَّ سُمَّ الْمَوْتِ فِى ذَلِكَ الشَّهْدِ؟ (٦)

إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَضِدِّهَا ... سِوَى مُهْلَةٍ ؛ فَاللَّحْدُ أَشْبَهُ بِالْمَهْدِ (٧)

وَلِلْمَوْتِ أَسْبَابٌ يَنَالُ بِهَا الْفَتَى ... فَمَنْ بَاتَ فِى نَجْدٍ كَمَنْ بَاتَ فِى وَهْدِ (٨)

وَكُلُّ امْرِئٍ فِى النَّاسِ لَاقٍ حِمَامَهُ ... فَسِيَّانِ رَبُّ الْعَيْرِ وَالْفَرَسِ النَّهْدِ (٩)

---

(٢) الكرى : النعاس ، والفعل كرى (من باب صدى) . والبرح : الشدّة . والسهد : الأرق والسهر .

(٣) حاز الشيء (من بابى قال وكتب) : ضمّه إلى نفسه . والشبيبة : الشباب .

(٤) الحجّة (بكسر الحاء) : السنة . والسنة (بكسر السين) : النعاس . والفهد : سبع بين القطّ والنمر جسما ، وأشبه بالأول منه بالثانى ، وهو كثير النوم ، ومن أمثالهم « أنوم من فهد » .
يقول : إنه بعد أن جاوز الستين أحسّ بآلام الحياة وأوصابها ، وقد كان قبل ذلك فى سعادة وغفلة من الصبا والشباب تشبه لذّة النوم .

(٥) السحق (بضم السين) : البعد . والتبّ : النقص والخسار والهلاك . والخلّ : الصديق ، ويريد به (هنا) : الشباب . والعهد : الوفاء ، والحفاظ ، ورعاية الحرمة .

(٦) العيش : المعيشة والحياة . والشهد (بفتح الشين ، وضمها) : العسل فى شمعها .

(٧) المهلة (بضم فسكون) : التأخير ، وهى اسم من مهّله تمهيلا : إذا أنظره وأخّر طلبه ، والمراد بها : هذه المدّة القصيرة المسمّاة بالعمر . والمهد : الموضع يهيأ للصبىّ ويوطّأ .

(٨) يناله : يصيبه . والنجد : ما ارتفع من الأرض . والوهد : الأرض المنخفضة .
ومعنى هذا البيت قريب من معنى قول الله تبارك وتعالى :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » .
آية ٧٨ سورة النساء .

(٩) الحمام (بكسر الحاء) : قدر الموت . والعير (بفتح فسكون) : الحمار . والفرس النهد : الحسن الجميل الجسيم اللحيم المشرف ، أى المرتفع العالى .
والمعنى : أن الموت قد سوّى بين الناس وضيعهم ورفيعهم ، وكلّهم واردون منهله .

ولَوْلَا ارْتِيَاعُ النَّفْسِ مِنْ صَوْلَةِ الرَّدَى ... لَمَا عفَّ عَنْ طِيبِ النَّعِيمِ أَخُو زُهْدِ[١٠]

فَدَعْ ما مَضَى ، واصْبِرْ عَلَى حِكْمَةِ الْقَضَا ... فَلَيْسَ يَنَالُ الْمَرْءُ ما فاتَ بِالْجَهْدِ[١١]

وَلا تَلْتَمِسْ مِنْ غَيْرِ مولَاكَ هَادِياً ... إِذَا اللهُ لَمْ يَهْدِ الْعِبَادَ ؛ فَمَنْ يَهْدِي[١٢] ؟

وَقَالَ ، وَأَرْسَلَ بِهَا إِلى الْأَمِيرِ « شَكِيبِ أَرْسَلَانَ »* يَعْتَذِرُ عَنْ تَأَخُّرِهِ فى الإِجَابَةِ لِرمَدٍ لَحِقَ بِهِ :

أَدِّى الرِّسَالَةَ يَا عُصْفُورَةَ الْوادِى ... وَبَاكِرِى الْحَىَّ مِنْ قَوْلِى بِإِنْشَادِ[١]

تَرَقَّبِى سِنَةَ الْحُرَّاسِ ، وانْطَلِقِى ... بَيْنَ الْخَمَائِلِ مِنْ « لُبْنَانَ » وَارْتَادِى[٢]

---

(١٠) الارتياع : الفزع والخوف . والصولة : الوثوب ، والاستطالة ، والسطوة . والردى : الهلاك والموت. وعف : كفّ ، وامتنع عما لا يحلّ ، ولا يجمل . وأخو الزهد : الزاهد ، وهو الراغب عن الدنيا ، المنصرف عن لهوها وزخرفها .

والمعنى : أن نفس الحىّ تفزع من سطوة الموت ، ومن أجل هذا نرى الزاهدين يعفّون عن نعيم الدنيا وشهواتها احتقاراً لها ، كأنهم يمرّنون أنفسهم على فراقها ، ويهوّنون عليها شأنها .

(١١) الحكمة : العدل . والجهد (بفتح فسكون) : الجدّ ، والاجتهاد ، والمشقّة .

(١٢) تلتمس : تطلب .

* شكيب أرسلان ، الملقب بأمير البيان : (١٨٦٩ — ١٩٤٦) أديب ، ناقد ، خطيب ، كاتب ، شاعر ، مؤرخ ، سياسى ، رحّالة . تحمّس للعرب والإسلام ، وعالج القضايا العربية بكتاباته ومقالاته الصحفيّة ، وكان من أعضاء المجمع العلمى بدمشق . مؤلفاته كثيرة قيمة ، منها « الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية » فى عشرة مجلدات . وتعليقات على كتاب « حاضر الإسلام » . ولد ، ودفن بالشويفات من قرى لبنان . وشكيب أرسلان : كلمتان فارسيتان : الأولى : بمعنى الصابر ، والثانية : بمعنى الأسد .

(١) باكره : أتاه بكرة : أى أول النهار . وباكرى الحىّ : أى بادرى إليهم ، وأسرعى . والحىّ (فى الأصل) : البطن من بطون العرب ، وهو أقلّ من القبيلة ، والمراد به (هنا) : محلّة الأمير « شكيب » ، ومنازل قومه . والإنشاد : مصدر أنشد الشعر . إذا قرأه رافعاً به صوته .

كنى بعصفورة الوادى عن الرسول الذى يحمل رسالته إلى صديقه الأمير شكيب ، ثم قال : بلّغى الرسالة يا عصفورة الوادى ، وسارعى إلى حىّ الأمير : فأنشديه شيئاً من قولى .

(٢) ترقّبى : انتظرى . والسنة (بكسر السين) : النعاس ، أو أول النوم . والخمائل : جمع خميلة : وهى الشجر الكثير الملتفّ . ولبنان : وطن الأمير « شكيب » : وهو اسم لنسم جبلىّ من بلاد الشام ، يشتهر بكثرة أشجاره ، وعذوبة مياهه ، وطيب هوائه . والارتياد : الطلب ، يقال : ارتاد الكلأ ، وراده (من باب قال) : أى طلبه فى موضعه .

لَعَلَّ نَغْمَةَ وُدٍّ مِنْكِ شَائِقَةً ... تَهُزُّ عِطْفَ «شَكِيبٍ» كَوْكَبِ النَّادِي (٣)

هُوَ الْهُمَامُ الَّذِي أَحْيَا بِمَنْطِقِهِ ... آثَارَ قَوْمٍ أَجَادُوا النُّطْقَ بِالضَّادِ (٤)

تَلْقَيْ بِهِ أَحْنَفَ الْأَخْلَاقِ مُنْتَدِياً ... وَفِي الْكَرِيهَةِ عَمْرًا ، وَابْنَ شَدَّادِ (٥)

أَخِي وِدَادًا ، وَحَسْبِي أَنَّهُ نَسَبٌ ... خَالِي الصَّحِيفَةِ مِنْ غِلٍّ وَأَحْقَادِ (٦)

أَفَادَنِي أَدَباً مِنْ مَنْطِقٍ شَهِدَتْ ... بِفَضْلِهِ النَّاسُ مِنْ قَارٍ ، وَمِنْ بَادِي (٧)

عَذْبِ الشَّرِيعَةِ ، لَوْ أَنَّ السَّحَابَ هَمَى ... بِمِثْلِهِ ، لَمْ يَدَعْ فِي الْأَرْضِ مِنْ صَادِي (٨)

---

(٣) النغمة : حسن الصوت فى القراءة . والودّ (مثلثة الواو) : المودّة والمحبّة . وشائقة : اسم فاعل من شاقه (من باب قال) : أى هيّج شوقه . والعطف (بكسر فسكون) : الجانب ، وعطفا الرجل : جانباه من لدن رأسه إلى وركيه . وهزّ العطف : كناية عن إثارة عاطفة الإعجاب . والنادى : مجلس القوم ومتحدَّثهم .

(٤) الهمام : السيد ، الشجاع ، السخىّ العظيم الهمّة من الرجال . وكنى بالضاد عن اللغة العربية ، لتميّزها من سائر اللغات بهذا الحرف .

(٥) تَلْقَيْ : مجزوم فى جواب « باكرى » فى البيت الأول . والخطاب لعصفورة الوادى . وبه : أى بالحىّ المراد به منزل الأمير « شكيب » وناديه . وأحنف الأخلاق : أخلاقه تشبه أخلاق الأحنف : وهو أبو بحر الضحّاك بن قيس بن معاوية التميمىّ ، الملقّب بالأحنف ، يضرب المثل به فى الحلم ، وكان سيد تميم ، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين . ولد فى البصرة قبيل الهجرة ، وأدرك النبىّ (صلى الله عليه وسلم) ولم يره ، ووفد على عمر بالمدينة حين آلت إليه الخلافة ، وشهد الفتوح فى خراسان ، واعتزل الفتنة يوم الجمل ، ثم شهد صفين مع علىّ ، وتوفى سنة ٦٧ هـ . ومنتدياً : مجالساً غيره ، اسم فاعل من انتدى القوم : إذا تجالسوا واجتمعوا ، أو من انتديت : أى حضرت النادى . والكريهة : الحرب ، أو الشدّة فى الحرب ، أو النازلة .

وعمرو بن معد يكرب الزبيدى : فارس زبيد فى الجاهليّة ، وأحد أبطال المسلمين فى وقعتى اليرموك والقادسيّة ، وهو من الشعراء المخضرمين . عمّر طويلا ، ومات سنة ٢١ هـ . وكان يضرب به المثل فى الشجاعة ، وفى ذلك يقول أبو تمّام فى مدح أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو ، فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف ، فى ذكاء إياس

وعنترة بن عمرو بن شدّاد العبسىّ : أحد فرسان العرب وشعرائها المشهورين بالفخر والحماسة ، وكانت أمّه حبشيّة ، وأبوه من سادات بنى عبس . خاض مع عبس أكثر وقائعها ، وبخاصّة حرب داحس والغبراء ، حتى صار فارس حومتها ، وحامى بيضتها ، وحتى ضرب به المثل فى الشجاعة والإقدام .

(٦) الوداد : الحبّ والمودّة . وحسبى : يكفينى . والنسب : القرابة . والغلّ : الغشّ والحقد . والأحقاد : جمع حقد (بكسر فسكون) : وهو الضغن ، وإضمار العداوة ، والانطواء على البغضاء .

(٧) القارى : ساكن القرية . والبادى : اسم فاعل من بدا القوم (من باب عدا) : أى خرجوا إلى البادية : وهى خلاف الحضر والقرى والمدن والأمصار .

(٨) عذب : صفة لمنطق فى البيت السابق . والشريعة : مورد الشاربة ، أى الموضع الذى يردون منه الماء للاستقاء . وهمى : سال ، (وبابه رمى) . ولم يدع : أى لم يترك . والصادى : العطشان .

سَرَتْ بِقَلْبِيَ مِنْهُ نَشْوَةٌ مَلَكَتْ ... بِحُسْنِهَا مِسْمَعِي عَنْ نَغْمَةِ الشَّادِي(٩)

يَابْنَ الْكِرَامِ! عَدَتْنِي عَنْكَ عَادِيَةٌ ... كَادَتْ تَسُدُّ عَلَى عَيْنِي بِأَسْدَادِ(١٠)

فَاعْذِرْ أَخَاكَ، فَلَوْلَا مَا بِهِ لَجَرَى ... فِي حَلْبَةِ الشُّكْرِ جَرْيَ السَّابِقِ الْعَادِي(١١)

وَهَاكَهَا تُحْفَةً مِنِّي وَإِنْ صَغُرَتْ ... فَالدُّرُّ وَهْوَ صَغِيرٌ حَلْيُ أَجْيَادِ(١٢)

وَقَالَ، وَكَتَبَ بِهَا إِلَى صَاحِبِ جَرِيدَةِ النَّحْلَةِ مُلْتَزِماً(*) :

أَلَا «يَانَحْلَةً» سَرَحَتْ فَحَازَتْ ... سُلَالَةَ مَا تَوَلَّتْهُ الْعِهَادُ(١)

تَلَقَّتْهَا النِّجَادُ بِمَا أَسَرَّتْ ... ضَمَائِرُهَا، وَحَيَّتْهَا الْوِهَادُ(٢)

---

(٩) سرت : سارت، والسرى (فى الأصل) : السير ليلا . والنشوة : السكر، وغيبة العقل، وخمود الإدراك، والمراد هزّة الإعجاب، وخفّة الطرب . والنغمة : جرس الكلام، وحسن الصوت فى القراءة . والشادى : المغنّى .

(١٠) عدتنى : صرفتنى وشغلتنى، والعادية : اسم فاعل منه . والأسداد : جمع سد (بفتح السين أو ضمها) : وهو الحاجز . كنى بالعادية التى كادت تسدّ على عينه بأسداد : عن الرمد الذى أصابه فمنعه من الكتابة .

(١١) الحلبة : مجال الخيل للسباق، ومن المجاز : جرى فى حلبة الشكر، وهو يركض فى كلّ حلبة من حلبات المجد . والعادى : اسم فاعل من العدو (بفتح فسكون) : وهو الجرى .

(١٢) هاكها : خذها . والتحفة : ما أتحفت به غيرك من البرّ، واللطف، والطرفة . والحلى : واحد الحلىّ (كثدى وثدىّ) : وهو ما تتحلّى به المرأة من المصوغات ونحوها . والأجياد : جمع جيد (بكسر الجيم) وهو العنق .

(*) التزم الشاعر قبل روىّ هذه القصيدة وهو الدال هاء بعدها ألف . وجريدة النحلة : صحيفة سياسيّة انتقاديّة، نصفها بالعربية، ونصفها الآخر بالإنجليزية، وبها بعض قصائد شعريّة، ومقالات ورسائل فى الأدب والأخلاق لبعض كتّاب الهند وإيران والبلدان العربيّة . وكان صاحبها «جون لويس صابونجى» يصدرها مرة كلّ أسبوعين من مطبعة النحلة بلندن سنة ١٨٧٨ م .

(١) سرحت : سعت فى طلب الرزق . وأصله من سرحت الماشية : إذا سامت ورعت وتنقّلت فى طلب الكلأ . والسلالة (بضم السين) : ما انسلّ وخرج من الشىء، وهى أيضاً الولد، والمراد بها (هنا) : ما تمتصّه النحلة من رحيق الأزهار ونحوها . وتولّته : تعهّدته وأصلحته وأنبتته . والعهاد بكسر العين : أمطار أول السنة . الواحدة عهدة (بفتح فسكون) .

(٢) النجاد : جمع نجد : وهو ما ارتفع من الأرض . والوهاد : جمع وهد (بفتح فسكون) : وهو الأرض المنخفضة .

سَعَتْ جَهْدًا ؛ فَنَالَتْ مَا تَمَنَّتْ ... كَذَاكَ الدَّهْرُ : سَعْيٌ وَاجْتِهادُ[٣]
فَلَا عجَبٌ إِذَا جَاءَتْ بِخَيْرٍ ... فَلَوْلَا النَّحْلُ مَا كَانَ الشِّهَادُ[٤]
وكَيْفَ ، وَرَبُّهَا شَهْمٌ ذَكِيٌّ ... لَهُ فِى كُلِّ مُعْضِلَةٍ جِهَادُ ؟[٥]
تَجَافَى النَّوْمَ فِى طَلَبِ الْمَعَالِى ... وَطَابَ لِعَيْنِهِ فِيهَا السُّهَادُ[٦]
فَأَصْبَحَ وُدُّهُ فِى كُلِّ قَلْبٍ ... نَزِيلاً ، وَالْقُلُوبُ لَهُ مِهَادُ[٧]

وَقَالَ مُفْتَخِرًا :

أَنَا مَصْدَرُ الْكَلِمِ النَّوَادِى ... بَيْنَ الْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِى[١]
أَنَا فَارِسٌ ، أَنَا شَاعِرٌ ... فِى كُلِّ مَلْحَمَةٍ ، وَنَادِى[٢]
فَإِذَا رَكِبْتُ فَإِنَّنِى ... زَيْدُ الْفَوَارِسِ فِى الْجِلَادِ[٣]

---

(٣) الجهد : مصدر جهد فى الأمر (كمنع) : أى جدّ واجتهد وبالغ .

(٤) الشهاد(بكسر الشين) : العسل فى شمعها ، واحدتها شهدة (بضم فسكون) ، أو شهد (بفتح الشين أو ضمها وسكون الهاء) .

(٥) ربّها : صاحبها ومالكها : وشهم : جلد ، ذكىّ الفؤاد ، متوقّد نشيط . والمعضلة : المشكلة العسيرة ، والمسألة يصعب حلّها ، والاهتداء إلى وجه الصواب فيها .

(٦) تجافى : ترك، وفى الصحاح وغيره : تجافى جنبه عن الفراش: أى نبا وارتفع ، وفى القرآن الكريم « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » آية ١٦ سورة السجدة ؛ فالفعل لازم غير متعدّ، كما يظهر ؛ وهو مطاوع جافيته . والسهاد : الأرق والسهر .

(٧) الود (مثلّثة الواو) : الحبّ . والمهاد : الفراش .

(١) الكلم : اسم جنس جمعىّ لكلمة . والنوادى: جمع نادية : اسم فاعل من الندى (بفتح النون والدال) : وهو بعد ذهاب الصوت ، يقال : فلان أندى صوتاً من فلان : إذا كان أبعد منه صوتاً . والحواضر : جمع حاضرة : وهى المدن، والقرى، والريف ، والبوادى : جمع بادية ، وهى ضد الحاضرة .

(٢) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل ، وأصلها من التحم المتقاتلون: إذا اشتبكوا واختلطوا . والنادى : مجلس القوم نهاراً ، أو المجلس ما داموا مجتمعين فيه . وفى البيت لفّ ونشر مرتّب .

(٣) زيد الفوارس: هو ابن حصين بن ضرار الضبّىّ ، فارس شاعر جاهلى مشهور، يضرب به المثل فى الشجاعة، وشدّة البأس . والجلاد : القتال، وهو(فى الأصل) مصدر جالده بالسيف : أى ضاربه، وقاتله به .

وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَّنِي قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِي(٤)
هَـٰذَا ، وَذَلِكَ دَيْدَنِي فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ نَآدِ(٥)*

وَقَالَ :

وَمُنَادِمٍ غَرِدِ الْحَدِيثِ ، كَأَنَّمَا أَلْفَاظُهُ فِي السَّمْعِ نَغْمَةُ عُودِ(١)
تُغْنِي الْإِشَارَةُ مِنْهُ عَنْ تَصْرِيحِهِ وَتَدُلُّ لَفْظَتُهُ عَلَى الْمَقْصُودِ(٢)
سَحَرَ الْعُقُولَ بَيَانُهُ ، فَكَأَنَّهُ يَسْقِي الْجَلِيسَ سُلَافَةَ الْعُنْقُودِ(٣)

---

(٤) قسّ بن ساعدة الإيادى : من خطباء العرب فى الجاهليّة ، وهو أوسعهم شهرة ، وأبعدهم صيتاً ، وكان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ، وكان الناس يتحاكمون إليه ، فيقضى بينهم بسديد رأيه ، وصائب حكمه ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وهو يخطب ، فأعجب به ، وأثنى عليه . وعمّر قسّ طويلاً ، ومات قبيل البعثة .

(٥) هذا : إشارة إلى فصاحة كلامه ، وبلاغة قوله التى افتخر بها فى البيت السابق . وذلك : إشارة إلى فروسيّته وشجاعته التى افتخر بها فى البيت قبله . وديدنى : عادتى . والمعضلة : المشكلة العسيرة ، والأمر الصعب ، والمسألة يصعب الاهتداء إلى وجه الصواب فيها ، وأصلها من أعضل به الأمر ، إذا اشتدّ ، وأعضل الداء الأطباء : إذا غلبهم . والنآد (كسحاب) : الداهية .

* توفى البارودى أصيل يوم الاثنين السادس من شوال سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ م عن نحو خمس وستين سنة ميلادية . ويقال : إن هذه الأبيات الفخرية هى آخر ما نظمه وهو فى مرض موته (فى رمضان سنة ١٣٢٢ هـ — نوفبر سنة ١٩٠٤ م) . ويلاحظ أن فخريات البارودى كثيرة جداً ، وهى شائعة فى أكثر فنون شعره ، وفى كلّ أطوار حياته . ولفخره بنفسه فى مرض موته دلالة خاصّة ، تسترعى النظر والانتباه .

(١) المنادم : من يجالسك على الشراب ، وهو اسم فاعل من نادمه منادمة ونداماً : إذا جالسه على الشراب ، وذهب بعض اللغويين إلى أن المنادمة مقلوبة من المدامنة ؛ لأن المنادم يدمن شرب الشراب مع نديمه : أى يواظب ويلازم . وغرد (بفتح فكسر) : صفة من الغرد (بفتحتين) : مصدر غرد الطائر (كفرح) : أى رفع صوته ، وطرّب به . والنغمة : جرس الكلام ، وحسن الصوت . والعود : آلة من المعازف .

(٢) المعنى : أنّ إشاراته وألفاظه كلّها واضحة الدلالة ، تامّة البيان .

(٣) البيان : الفصاحة ، واللسن ، والمنطق الفصيح البليغ . وسلافة كلّ شىء : صفوته ، أو أوّله . وسلافة العنقود : أجود الخمر المستخرجة من العنب .

وَقَالَ :

هَلْ فِي التَّصَابِي عَلَى امْرِيٍ فَنَدُ؟ أَمْ هَلْ يَعِيبُ الْفَتَى الْكَرِيمَ دَدُ(١)؟
كُلٌّ مَسُوقٌ لِمَا أُرِيدَ بِهِ فَفِيمَ هَذَا الْخِصَامُ وَاللَّدَدُ(٢)؟
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الطِّبَاعِ مُخْتَلَفٌ مَا شَذَّ عَنْ طَبْعِ وَالِدٍ وَلَدُ(٣)
وَلَوْ تَسَاوَى الرِّجَالُ فِي خُلُقٍ لَزَالَ هَذَا الْخِلَافُ وَالْحَرَدُ(٤)
وَالنَّاسُ شَتَّى وَإِنْ هُمُ اجْتَمَعُوا فِي وَاحِدٍ لَيْسَ قَبْلَهُ أَحَدُ(٥)
فَزَائِغٌ فِي الضَّلَالِ مُنْهَمِكٌ وَنَاسِكٌ فِي الصَّلَاحِ مُجْتَهِدُ(٦)
وَأَيُّ لَوْمٍ عَلَى امْرِئٍ طَلَبَ الْ لَهْوَ وَأَثْوَابُ عُمْرِهِ جُدُدُ(٧)
لِكُلِّ عَصْرٍ مِنْ كَبْرَةٍ وَصِباً شَوْطٌ لَهُ بَعْدَ مُهْلَةٍ أَمَدُ(٨)

---

(١) تصابت المرأة الرجل تصابياً : فتنته ، واستهوته ، واستمالته . وتصاباها الرجل : كذلك . ويريد بالتصابي : مرح الشباب ، ولهوه ، ومغازلة النساء ، والحنين اليهن . والفند (بفتحتين) : الخطأ، وضعف الرأى . والدد : اللهو واللعب .

(٢) اللدد : شدة الخصومة .

(٣) مختلف : اختلاف ، مصدر ميمىّ من اختلف . وشذّ : ندر ، وانفرد، وافترق .

(٤) الحرد (بفتحتين) : الغضب .

(٥) يقول : إنّ الناس مفترقون مختلفون وإن اجتمعوا فى أصل واحد ، ورجعوا إلى أب واحد . يشير بالشطر الثانى من البيت إلى أبى البشر آدم عليه السلام .

(٦) زائغ : مائل منحرف . ومنهمك : منغمس بلجوج ، وهو اسم فاعل من انهمك الرجل فى الأمر : إذا جدّ فيه، ولجّ . وناسك : عابد : اسم فاعل من النسك : وهو العبادة .

(٧) جدد (بضمتين) : جمع جديد . والشطر الثانى : كناية عن الصبا والشباب .

(٨) الكبرة (بفتح فسكون) : علوّ السنّ : وهى اسم من كبر (كفرح) كبراً (كعنب) : إذا طعن فى السنّ . والصبا (بكسر الصاد) : صغر السنّ ، وهو ضدّ الكبر . والشوط : الجرى مرة إلى غاية . والمهلة (بضم فسكون) : اسم من أمهله إمهالا ومهله تمهيلا : أى ، أنظره وأخّر طلبه ، وفى الأمر مهلة : أى تأخير ، والمراد بها : الأجل والمدة . والأمدّ : الغاية .

يقول : إن لكل عمر من أعمار الشبان أو الشيوخ غاية ينتهى إليها هى الموت .

فَاسْعَ لِمَا شِئْتَ غَيْرَ مُتَّئِدٍ ... فَلَنْ يَحُوزَ الْكَمَالَ مُتَّئِدُ (٩)

لَوْلَا سُرَى الْبَدْرِ مَا اسْتَنَارَ ، وَلَا ... أَدْرَكَ شَأْوَ الْخِطَارِ مُنْجَرِدُ (١٠)

وَلَا يَهُمَّنْكَ لَوْمُ ذِي حَسَدٍ ... فَشَأْنُ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ الْحَسَدُ (١١)

لَوْ حَاذَرَ الْمَرْءُ كُلَّ لَائِمَةٍ ... لَضَاعَ مِنْهُ الصَّوَابُ وَالرَّشَدُ (١٢)

وَلَوْ أَصَخْنَا لِكُلِّ مُنْتَقِدٍ ... فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الدَّهْرِ مُنْتَقَدُ (١٣)

وَالْهُ بِمَا شِئْتَ قَبْلَ مَنْدَمَةٍ ... يَكْثُرُ فِيهَا الْعَنَاءُ وَالْكَمَدُ (١٤)

فَلَيْسَ بَعْدَ الشَّبَابِ مُقْتَرَحٌ ... وَلَا وَرَاءَ الْمَشِيبِ مُفْتَقَدُ (١٥)

---

(٩) غير متّئد : غير وانٍ ، ولا متمهّل ، ولا متأنّ .

(١٠) السرى : السير ليلا . واستنار : أنار وأضاء . والشأو : الغاية والأمد . والخطار (بكسر الخاء) : جمع خطر : وهو السبق (بفتحتين فيهما) : أى ما يوضع بين المتسابقين ، ويتراهن عليه . ومنجرد : فرس قصير الشعر رقيقه ، وهذا من صفات الحسن فى الخيل ، والمراد منطلق سبّاق .

يقول : إنه لولا السير والحركة ما أضاء البدر ، ولا صار بدراً ، ولولا السعى ، وبذل الجهد فى الإحضار ما أدرك الفرس الكريم غاية السبق .

(١١) الشأن : الأمر والحال . ويقال : شأنه كذا ، ومن شأنه أن يفعل كذا : أى من عادته ، وخُلُقه وطبعه .

(١٢) اللائمة : اللوم والعذل . والرشد : الرشاد ، والهدى ، والصلاح ، والصواب : وهو مصدر رشد (من باب طرب) .

(١٣) أصاخ له : استمع .

(١٤) اله : أمر من اللهو : وهو اللعب . والمندمة : الندم : وهو الأسف والحزن . والعناء : المشقّة والتعب . والكمد : الحزن المكتوم ، (وبابه طرب) .

(١٥) مقترح : اسم مفعول من الاقتراح : وهو الاجتباء والاختيار ، أو ابتداع الشىء . ومفتقد : اسم مفعول من الافتقاد : مصدر افتقدت الشىء : إذا طلبته عند غيبته .

والمراد أن زمن الشباب زمن اللذّات ؛ فليس بعده ما يقترح منها ، وليس بعد الشيب ما يطلب ؛ لذهاب القوى ، وخمود الآمال ، وعجز الإنسان عن تحصيل المطالب .

وَقَالَ :

جَاوَزْتَ فِى اللَّوْمِ حَدَّ الْقَصْدِ ؛ فَاتَّئِدِ ... فَلَسْتَ أَشْفَقَ مِنْ نَفْسِى عَلَى كَبِدِى[١]
دَعْنِى مِنَ اللَّوْمِ إِنْ كُنْتَ امْرَأً فَطِناً ... فَاللَّوْمُ فِى الْحُبِّ مَعْدُودٌ مِنَ الْحَسَدِ[٢]
إِنِّى لَأَرْضَى بِمَا فِى الْحُبِّ مِنْ أَلَمٍ ... وَلَسْتُ أَرْضَى بِمَا فِى الْقَوْلِ مِنْ فَنَدِ[٣]
لَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ عَقْلٌ يَسْتَدِلُّ بِهِ ... عَلَى الْحَقِيقَةِ لَمْ يَعْتِبْ عَلَى أَحَدِ[٤]
إِنْ كُنْتَ ذَا إِمْرَةٍ ؛ فَانْهَ الصَّبَابَةَ عَنْ ... قَلْبِى ؛ لِتَغْنَمَ شُكْرِى آخِرَ الْأَبَدِ[٥]
أَوْ لَا فَدَعْنِى ، وَلَا تَعْنُفْ عَلَىَّ ؛ فَمَا ... أَمْرِى إِلَىَّ ، وَلَا حُكْمُ الْهَوَى بِيَدِى[٦]
إِنَّ الْفَتَاةَ الَّتِى هَامَ الْفُؤَادُ بِهَا ... أَخْفَتْ عَلَىَّ سَبِيلَ الْحَزْمِ وَالسَّدَدِ[٧]
أَغْضَبْتُ فِى حُبِّهَا أَهْلِى ، فَمَا بَرِحُوا ... إِلْبًا عَلَىَّ ، وَكَانُوا لِى مِنَ الْعُدَدِ[٨]

---

(١) القصد : الاعتدال ، وضده الإفراط . واتئد : تمهل وتأن . وأشفق : اسم تفضيل من الشفقة : وهى الحنو والرحمة ، (وفعله من باب طرب) .

(٢) يرى الشاعر أن الحب نعمة يستمتع بها العاشق ، وأن لومه على حبه من قبيل الحسد : وهو أن يتمنى الحاسد زوال نعمة المحسود إليه .

(٣) الفند (بفتحتين) : الخطأ فى القول والرأى ، والكذب .

(٤) يقول : لو فطن العاقل لحقائق ميول النفس ونزعاتها ، وعلم أن الإنسان مسوق فى هذه الدنيا بدافع من ميوله لا يستطيع مخالفته ، لكف عن عذل الناس ولومهم .

(٥) الإمرة (بكسر الهمزة) : الإمارة ، والولاية ، والسلطان ، وهى اسم من أمر فلان على القوم يأمر أمراً (من باب نصر) : أى ولى أمورهم ، وصار أميراً عليهم . والصبابة : رقة الشوق وحرارته ، أو رقة الهوى ، وتباريح الحب . والأبد : الدهر .

(٦) العنف (مثلثة العين) : ضد الرفق ، تقول منه : عنف عليه . وبه (من باب قرب) . والهوى : الحب .

(٧) هام بها : عشقها ، واشتد به العشق حتى صار كالمجنون . والحزم : ضبط الأمر ، والأخذ فيه بالثقة . والسدد (بفتح السين والدال) : السداد ، والاستقامة ، والصواب .

(٨) إلباً : مجتمعين على العداوة ، يقال : هم عليه ألب وإلب (بفتح الهمزة وكسرها) : إذا كانوا مجتمعين عليه بالظلم والعداوة . والعدد (بضم ففتح) : جمع عدة (بضم العين) : وهى ما أعددته لحوادث الدهر من المال والسلاح ونحوهما . ومعنى « وكانوا لى من العدد » : وكانوا لى أعواناً وأنصاراً .

قَالُوا : تَعَلَّقْ بِأُخْرَى كَيْ تَذُودَ بِهَا ... بَرْحَ الْأَسَى عَنْ فُؤَادٍ دائِمِ الْكَمَدِ(٩)

فَقُلْتُ : هَيْهَاتَ أَنْ أَبْغِى بِهَا بَدَلًا ... لَمْ يَخْلُقِ اللهُ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَسَدِ(١٠)

وَقَالَ :

قَلِيلٌ مَنْ يَدُومُ عَلَى الْوِدَادِ ... فَلَا تَحْفِلْ بِقُرْبٍ أَوْ بِعَادِ(١)

إِذَا كَانَ التَّغَيُّرُ فِى اللَّيَالِى ... فَكَيْفَ يَدُومُ وُدٌّ فِى فُؤَادِ؟(٢)

وَمَنْ لَكَ أَنْ تَرَى قَلْباً نَقِيًّا ... وَلَمَّا يَخْلُ قَلْبٌ مِنْ سَوَادِ(٣)؟

فَلَا تَبْذُلْ هَوَاكَ إِلَى خَلِيلٍ ... تَظُنُّ بِهِ الْوَفَاءَ ، وَلَا تُعَادِ(٤)

وَكُنْ مُتَوَسِّطاً فِى كُلِّ حَالٍ ... لِتَأْمَنَ مَا تَخَافُ مِنَ الْعِنَادِ(٥)

---

(٩) تذود : تمنع وتدفع . والبرح : الشدة والشر . والأسى : الحزن والهم . والكمد : الحزن المكتوم . (وبابه طرب) ، أو هو الحزن الشديد ، أو مرض القلب .

(١٠) هيهات : كلمة معناها البعد . وأبغى : أطلب . والشطر الثانى مقتبس من قول الله تعالى :

« مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ . » آية ٤ سورة الأحزاب .

ومعناه أن قلبى مستهام بها ، حريص عليها ، لا يرضى بها بدلا ، ولو كان لى قلب آخر لشغلته بمن تقترحونها ، ولكن ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه .

(١) الوداد : الحب والمودة . ولا تحفل (من بابى ضرب ، وجلس) : لا تبال ، ولا تكترث .

(٢) معنى هذا البيت أن التغير من طبيعة الزمان ، ونحن أبناؤه ؛ فلا عجب أن تتقلب قلوب الناس بين الحب والبغض ، ما دام الله تعالى يقلب الليل والنهار .

(٣) سواد القلب : حبته ، كسودائه ، وأسوده ، وسويدائه . والاستفهام فى أول البيت : يراد به النفى . والمعنى : أن الوفاء فى الناس نادر ، والقلوب الباقية على الود ، الخالصة من النفاق قليلة . والشطر الثانى يؤكد هذا المعنى ؛ فقد صرف الشاعر سواد القلب إلى لون السواد ، وكنى به عن تجهم الضمير ، أو الحقد ، وإضمار العداوة ، وقلة الصفاء والنقاء ، وعدم الإخلاص .

(٤) الهوى : الحب . والخليل : الصديق المختص .

ينصح للإنسان بالقصد والاعتدال والاحتراس فى مصادقة الناس وعداوتهم ؛ فلا يبذل هواه لصديقه ، ويفرط فى محبته ؛ ولو ظن به الوفاء ، كما لا ينبغى له أن يعادى الناس ، ويفرط فى معاداتهم ، بل عليه أن يلزم الوسط ، وهو خير الأمور ، وسيصرح بهذا المعنى فى البيت الآتى .

(٥) العناد : مصدر عانده معاندة وعناداً : أى شاقه ، وركب معه الخلاف والعصيان ، وجحد الحق وهو يعرفه .

مُدَارَاةُ الرِّجَالِ أَخَفُّ وَطْئاً ... عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَرْبِ الْفَسَادِ (٦)
يَعِيشُ الْمَرْءُ مَحْبُوباً إِذَا ما ... نَحا فى سَيْرِهِ قَصْدَ السَّدادِ (٧)
وَمَا الدُّنْيَا سِوَى عَجْزٍ وحِرْصٍ ... هُمَا أَصْلُ الْخَلِيقَةِ فى الْعِبَادِ (٨)
فَلَوْلَا الْعَجْزُ مَا كَانَ التَّصَافِى ... وَلَوْلَا الْحِرْصُ ما كَانَ التَّعَادِى (٩)
وَمَا عَقَدَ الرِّجَالُ الْوُدَّ إِلَّا ... لِنَفْعٍ ، أَوْ لِمَنْعٍ مِنْ تَعَادِى (١٠)
وَمَا كَانَ الْعِداءُ يَخِفُّ لَوْلَا ... أَذَى السُّلْطَانِ ، أَوْ خَوْفُ الْمَعَادِ (١١)
فَيَابْنَ أَبِى ! وَلَسْتَ بِهِ ، وَلَكِنْ ... كِلَانَا زَرْعُ أَرْضٍ لِلْحَصَادِ (١٢)
تَأَمَّلْ ، هَلْ تَرَى أَثَرًا ؟ فَإِنِّى ... أَرَى الْآثَارَ تَذْهَبُ كَالرَّمَادِ (١٣)

---

(٦) المداراة : الملاطفة . وأصلها المخاتلة : مصدر داريت الصيد ونحوه : إذا خاتلته . والوطء : الدوس ، والمراد : الوقع والأثر .

(٧) نحا : قصد واتّجه . والقصد : استقامة الطريق ؛ ومصدر قصده . أى أمّه : وطلبه بعينه . والسداد الصواب .
والمعنى أن المرء يحيا سالماً ، محبوباً من الناس إذا نحا نحو الصواب ، واتّجه إليه ، والتزم فى سيره الاستقامة والاعتدال .

(٨) الخليقة : الطبيعة .

(٩) صافاه : صدقه الإخاء ، وأخلص له الودّ ، وتصافيا تخالصا ، والمصدر التصافى . والتعادى : التباعد ، والاختلاف ، والعداوة : مصدر تعادى القوم : أى عادى بعضهم بعضاً .

(١٠) الودّ : المودّة والحبّ . وتعاد : تباعد ، واختلاف ، وعداوة ، مصدر تعادى القوم : أى عادى بعضهم بعضاً . وتكرار كلمة « التعادى » فى هذا البيت والذى قبله يسمى إيطاء ، وهو من عيوب القافية .

(١١) العداء (بكسر العين) : العداوة : مصدر عاداه معاداة وعداء . أو هى العداء (بفتح العين) : بمعنى الظلم . والمعاد : المرجع والمصير إلى الله تعالى . والآخرة معاد الخلق : أى مرجعهم إلى ربّهم .

(١٢) حصد الزرع والنبات يحصده (من بابى ضرب ونصر) حصداً ، وحصاداً (بفتح الحاء ، وكسرها) : قطعه بالمنجل ونحوه .
يقول مخاطباً : فيابن أبى : أى يا أخى ، ولست أخى ، وابن أبى حقيقة ؛ ولكننا متشابهون متساوون فى البدء والنهاية ، فالناس جميعاً كالزرع ، ينتهى أمره إلى الحصاد والقطع والفناء .

(١٣) هذا البيت تعزيز لمعنى البيت السابق ؛ فهو يقول : إنّ آثار الناس تذهب بذهابهم ؛

حَيَاةُ الْمَرْءِ فِى الدُّنْيَا خَيَالٌ وَعَاقِبَةُ الْأُمُورِ إِلَى نَفَادِ[١٤]
فَطُوبَى لِامْرِئٍ غَلَبَتْ هَوَاهُ بَصِيرَتُهُ ؛ فَبَاتَ عَلَى رَشَادِ[١٥]

وَقَالَ :

إِذَا افْتَقَرَ الْمَرْءُ اسْتَهَانَ بِفَضْلِهِ ذَوُو قُرْبِهِ ، وَاسْتَهْجَنَتْهُ الْأَبَاعِدُ[١]
فَإِنْ قَالَ حَقًّا كَذَّبُوهُ ، وَإِنْ أَبَى مُجَارَاتَهُمْ فِى الْغَىِّ ؛ قَالُوا مُعَانِدُ[٢]
فَحُجَّتُهُ مَطْلُولَةٌ ؛ وَهْىَ حَقَّةٌ وَمَنْطِقُهُ مُسْتَكْرَهٌ ؛ وَهْوَ قَاصِدُ[٣]
فَحَافِظْ عَلَى مانِلْتَ بِالسَّعْىِ مِنْ غِنًى فَبِالْمَالِ لا بِالْفَضْلِ تَعْنُو الْمَقَاصِدُ[٤]

وَقَالَ فِى الْحَضِّ عَلَى حِفْظِ السِّرِّ :

عَوِّدْ فُؤَادَكَ أَنْ يَكُونَ مَجَنَّةً لِلسِّرِّ ، فَهْوَ لَدَى الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ[١]
السِّرُّ عَبْدُكَ ما اسْتَطَعْتَ حِفَاظَهُ فَإِذَا أَفَضْتَ بِهِ فَإِنَّكَ عَبْدُهُ[٢]

---

(١٤) عاقبة كلّ شىء : آخره . والنفاد : الفناء .

(١٥) الطوبى : الحسنى ، والخير ، والجنّة . والهوى : ميل النفس إلى شهواتها ولذاتها ، والمراد الميل المذموم . والبصيرة : عقيدة القلب ، والفطنة ، والعقل . والرشاد : الهدى ، والاستقامة ، والصواب ، والصلاح .

(١) استهجنته : عابته وقبّحته .

(٢) الغىّ : الضلال ، والانهماك فى الجهل . وعانده يعانده معاندة وعناداً ، فهو معاند : شاقّه ، وركب الخلاف والعصيان ، وجحد الحقّ وهو يعرفه .

(٣) مطلولة : ضائعة ، مهدرة ، باطلة . وقاصد : مستقيم ، عادل ، سديد .

(٤) تعنو : تذلّ وتخضع ، والمراد تسهل وتتيسّر . والمقاصد : المطالب ، واحدها مقصد (بفتح فسكون فكسر) .

(١) مجنة : اسم مكان بزيادة التاء ، من جنّه الليل : أى ستره ، وواراه . والمحافل : جمع محفل (بفتح فسكون فكسر) : وهو المجتمع .
يقول : عوّد قلبك كتمان السرّ ؛ لأن هذا من الأمور التى يحمد المرء عليها فى المحافل .

(٢) الحفاظ : المحافظة والصيانة . وأفضت به : أفشيته وأذعته .

وَقَالَ يَذُمُّ رَجُلًا :

وَصَاحِبٍ لَا كَانَ مِنْ صَاحِبٍ أَخْلَاقُهُ كَالْمِعْدَةِ الْفَاسِدَهْ(١)

أَقْبَحُ مَا فِى النَّاسِ مِنْ خَصْلَةٍ أَحْسَنُ مَا فِى نَفْسِهِ الْجَامِدَهْ(٢)

لَوْ أَنَّهُ صُوِّرَ مِنْ طَبْعِهِ كَانَ - لَعَمْرِى - عَقْرَباً رَاصِدَهْ(٣)

يَصْلُحُ لِلصَّفْعِ لِكَيْلَا يُرَى فِى عَدَدِ النَّاسِ - بِلَا فَائِدَهْ(٤)

يَغْلِبُهُ الضَّعْفُ ، وَلَكِنَّهُ يَهْدِمُ فِى قَعْدَتِهِ الْمَائِدَهْ(٥)

يُرَاقِبُ الصَّحْنَ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهِ كَالْهِرَّةِ الصَّائِدَهْ(٦)

كَأَنَّمَا أُظْفُورُهُ مِنْجَلٌ وَبَيْنَ فَكَّيْهِ رَحًى رَاعِدَهْ(٧)

كَأَنَّمَا الْبَطَّةُ فِى حَلْقِهِ نَعَامَةٌ فِى سَبْسَبٍ شَارِدَهْ(٨)

تَسْمَعُ لِلْبَلْعِ نَقِيقاً ، كَمَا نَقَّتْ ضَفَادِى لَيْلَةٍ رَاكِدَهْ(٩)

---

(١) المعدة (بفتح الميم وكسر العين) ، وقد تخفّف بكسر الميم وسكون العين .

(٢) الخصلة (بفتح الخاء) : الخلّة (بفتح الخاء وتشديد اللام) والخلق (بضم الخاء واللام) .

(٣) راصدة : اسم فاعل من رصده : أى رقبه ، وانتظر الفرصة لإيذائه .

(٤) الصفع : مصدر صفعه (من باب قطع) : أى بسط كفّه ، وضرب بها قفاه ، أو بدنه .

(٥) المائدة : الطعام ، والخوان عليه الطعام .

يقول : إنّ هذا المهجوّ ضعيف ، ولكنه إذا جلس إلى الطعام هدم المائدة . وهذا كناية عن شرهه ، وجشعه وشدّة حرصه على التهام الطعام .

(٦) الصحن : القصعة الصغيرة : وهى وعاء يؤكل فيه . والإناء من آنية الطعام .

(٧) الأظفور (كأسبوع) : الظفر (بضم فسكون) . والمنجل : حديدة يقضب بها الزرع : أى يقطع ويحصد . وراعدة : ذات صوت كالرعد .

(٨) السبسب : المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة . وشاردة : نافرة ، اسم فاعل من شرد البعير ونحوه ، أى ندّ ، ونفر ، (وبابه دخل) .

يقول : إذا أكل بطة كانت فى فمه الواسع كالنعامة الشاردة فى الفلاة الواسعة .

(٩) النقيق : صياح الضفدع . والضفادى : الضفادع . وراكدة : ساكنة ، يسمع فيها النقيق عالياً مزعجاً .

كَأَنَّمَا أَنْفَاسُهُ حَرْجَفٌ وَبَيْنَ جَنْبَيْهِ لَظًى وَاقِدَهْ[١٠]

وَيْلُمِّهِ إِذْ مَخَضَتْ ، هَلْ دَرَتْ أَنَّ الرَّدَى فِى بَطْنِهَا الْعَاقِدَهْ ؟[١١]

تَبًّا لَهَا شَنْعَاءَ جَاءَتْ بِهِ مِنْ لَقْحَةٍ فِى فَقْحَةٍ كَاسِدَهْ[١٢]

لَا رَحْمَةُ اللهِ عَلَى وَالِدٍ غُمَّ بِهِ الدُّنْيَا ، وَلَا وَالِدَهْ[١٣]

وَقَالَ — وَهِىَ مِنْ لُزُومِ مَا لَا يَلْزَمُ(*) :

وَشَامِخٍ فِى ذُرَا شَمَّاءَ بَاذِخَةٍ لَا يَعْرِفُ الصِّدْقَ إِنْ وَالَى وَإِنْ عَادَى[١]

---

(١٠) الحرجف (كجعفر) : الريح الباردة الشديدة الهبوب . واللظى (كالفتى) : النار . وواقدة : متقدة مشتعلة .

يقول : إنه عند الأكل يسمع لأنفاسه صوت يشبه صوت الريح إذا عصفت ، وكأن فى جوفه ناراً متقدة من كثرة ما التهم من الطعام .

(١١) ويلمه : ويل لأمه ، والويل : حلول الشر والعذاب . ومخضت الحامل (كسمع ، ومنع ، وعُنِىَ) ومثله مخّضت تمخيضاً : جاءها المخاض : وهو وجع الولادة ، وذلك إذا دنا ولادها ، وأخذها الطلق . والردى : الهلاك . . وعاقدة : غليظة ، وهى صفة لبطن قبلها ، وذلك على القول بجواز تأنيثه .

(١٢) تبًّا : هلاكاً ، والتبّ أيضاً : النقص والخسار . وشنعاء : قبيحة ، فظيعة ، مفرطة فى القبح ، كريهة ، صفة من الشناعة : وهى الفظاعة وشدّة القبح . واللقحة : اسم مرة من لقحت الناقة ونحوها (كسمع) أى قبلت اللقاح ، ولقحت المرأة : حبلت ؛ على تشبيهها بالناقة . والفقحة : حلقة الدبر . وكاسدة : غير نافقة ؛ لقلة من يرغب فيها ، وهذا كناية عن القبح .

(١٣) غمّ به الدنيا : حزنها بولادته ، وساءها .

(*) التزم الشاعر فى هذه القصيدة قبل رويّها — وهو الدال — ألفاً قبلها عين .

(١) شامخ : متكبّر ، من شمخ الرجل بأنفه : إذا تكبّر ، وأصله من شمخ الجبل ، أى علا ، وطال ، وارتفع . والذرا (بضم الذال) : جمع ذروة (بكسر الذال وضمها) : وهى أعلى كلّ شىء . وشمّاء : مرتفعة . وباذخة : عالية . والموالاة : ضدّ المعاداة ، والى يوالى موالاة ، وعادى يعادى معاداة .

يقول : وربّ امرئ شامخ بأنفه ، شديد الكبر ، يسكن فى قصر منيف ، لا يعرف الصدق إن صادق الناس وسالمهم ، ولا يعرفه إذا عاداهم وخاصمهم ؛ فهو كاذب فى جميع أحواله .

يَعُودُهُ النَّاسُ إنْ مَرَّ النَّسِيمُ بِهِ وَلَا يَعُودُ مِنَ الْإِشْفَاقِ مَنْ عَادَا[٢]

لا يَهْدَأُ الدَّهْرِ مِنْ ظُلْمٍ يُحَاوِلُهُ فَإِنْ قَضَى وَطَرًا مِنْ غَدْرَةٍ عَادَا[٣]

يَسْطُو بِهَذَا، وَيَرْمِى ذَاكَ عنْ عُرُضٍ كَطَارِدٍ يَقْتَفِى صَيْدَيْنِ إِذْ عَادَى[٤]

أَبَادَهُ الدَّهْرُ رَغْماً بَيْنَ أُسْرَتِهِ كَمَا أَبَادَ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَادَا[٥]

فَاعْرِفْ إِلٰهَكَ، وَاحْذَرْ أَنْ تَبِيتَ عَلَى وِزْرٍ، وَلَا تَتَّخِذْ ظُلْمَ الْوَرَى عَادَا[٦]

---

(٢) يعوده : يزوره ، من عدت المريض أعوده عيادة (بكسر العين) .

يقول : إنّ الناس يعنون بأمره ، فيعودونه لأهون إصابة ، وأيسر انحراف فى صحّته ، أمّا هو فلا يهتمّ بأمر الناس ، ولا يعود من يعوده منهم من أجل الإشفاق ؛ لأنه لا يعرف الرحمة ، ولا الإشفاق.

(٣) الوطر : الحاجة ، وقضى وطره : نال بغيته (بضم فسكون) وحاجته . والغدرة : اسم مرة من الغدر . وعاد : رجع : أي إلى مثل غدرته .

(٤) يسطو : يبطش ، سطا عليه ، وسطا به يسطو سطواً وسطوة (بفتح فسكون فيهما) : قهره ، وأذلّه ، وبطش به بشدّة . وعرض الشيء : ناحيته ، من أيّ وجه جئته ، ونظر إليه عن عرض (بضم العين وسكون الراء أو ضمها) : أي من جانب وناحية ، ورماه عن عرض : أى كيفما اتّفق ، من غير مبالاة ، ولا اكتراث ، من قولهم : هم يضربون الناس عن عرض : أى لا يبالون من يضربون . والطارد : الصائد . ويقتفى : يتبع . وعادى بين الصيدين معاداة وعداء : والى وتابع بينهما ، وصرع أحدهما على إثر الآخر فى طلق واحد .

(٥) أباده : أهلكه . ورغماً : قسراً وقهراً وذلا . وريح صرصر : شديدة الصوت أو البرد . وعاد : قبيلة هود عليه السلام ، وهى من قبائل العرب البائدة ، وكانت تسكن الأحقاف جنوبيّ الجزيرة العربيّة ، وقصّتها مشهورة فى القرآن الكريم ؛ قال الله تعالى :

« وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » ٦ — ٨ سورة الحاقة .

(٦) الوزر : الإثم والذنب . والورى : الخلق (بفتح فسكون) ، والناس . وعاد : جمع عادة .

وَقَالَ :

يَأَيُّهَا الظَّالِمُ فى مُلْكِهِ   أَغَرَّكَ الْمُلْكُ الَّذِى يَنْفَدُ ؟[١]
اصْنَعْ بِنَا ماشِئْتَ مِنْ قَسْوَةٍ   فَاللهُ عَدْلٌ ، وَالتَّلَاقِى غَدُ[٢]

وَقَالَ فى الاسْتِغَاثَةِ .

يَا مَنْ إِلَيْهِ الْوُجُوهُ خَاشِعَةٌ   وَمنْ عَلَيْهِ فى الْكَوْنِ مُعْتَمَدِى[١]
مَدَدْتُ كَفِّى إِلَيْكَ مُبْتَهِلًا   وَأَنْتَ حَسْبِى ، فَلَا تَرُدَّ يَدِى[٢]

وَقَالَ فى الزُّهْدِ :

لَا عَيْشَ إِلَّا لِلنَّفَادِ   فَاحْبِبْ حَيَاتَكَ ، أَوْ فَعَادِ[١]
وَابْخَلْ بِنَفْسِكَ ، أَوْ فَجُدْ   كُلُّ الْأُمُورِ إِلَى فَسَادِ[٢]
أَيْنَ الْأُلَى شَقُّوا الْبُحُورَ ، وَشَيَّدُوا ذَاتَ الْعِمادِ ؟ [٣]

---

(١) الهمزة فى أول الشطر الثانى من هذا البيت : للاستفهام . وغرك : خدعك ، وأطمعك بالباطل . وينفد (كيتعب) : يفنى ويزول وينقطع ويذهب .

(٢) يريد بالتلاقى : يوم القيامة . والغد : المستقبل المترقَّب .

(١) خاشعة : خاضعة . ومعتمدى : اعتمادى وتوكّلى .

(٢) مبتهلاً : ضارعاً خاضعاً . وحسبى : كافىّ .

(١) النفاد : الفناء والزوال والانقطاع . والعيش : المعيشة والحياة . واحبب : أمر من حببته أحبه (كضرب وتعب) حبًّا (بضم الحاء وكسرها) . وعاد : أمر من عاداه يعاديه معاداة وعداء ، والاسم العداوة .

(٢) يقول : إن حرص الإنسان على نفسه وجوده بها يستويان ، لأنّ الأمور كلها تصير إلى الفساد والفناء ، وهذا المعنى قريب من معنى البيت الذى قبله .

(٣) شيّدوا : بنوا ، وطوّلوا البناء ، ورفعوه . وذات العماد : المدن والأمكنة ذات الأبنية العالية الرفيعة ، أو أراد : إرم ذات العماد : وهى مدينة عظيمة ، رفيعة البنيان ، تامّة العمران ، كانت لقبيلة عاد قوم هود عليه السلام ، من قبائل العرب البائدة ، فى جنوبىّ الجزيرة العربية ، قيل : وقد بناها شدّاد بن عاد ، وكان=

مَلَكُوا التَّهَائِـمَ وَالنَّجَا ئِدَ وَالْحَوَاضِرَ وَالْبَوَادِي(٤)
بَلْ أَيْنَ أَصْحَابُ الْوُفُو دِ ؟ وَأَيْنَ أَرْبَابُ الْجِلَادِ ؟(٥)
الطَّاعِمُونَ ، الطَّاعِنُو نَ الْقَائِلُونَ بِكُلِّ نَادِي(٦)
الْكَاشِفُونَ الضُّرَّ ، وَالْـ عَافُونَ عَنْ ذَنْبِ الْعِبَادِ(٧)
بَلْ أَيْنَ صُنَّاعُ الْقَرِيـ ضِ الْجَزْلِ وَالْكَلِمِ الْفِرَادِ ؟(٨)
كَالشَّاعِرِ الضِّلِّيلِ ، أَوْ قُسِّ بْنِ سَاعِدَةَ الْإِيَادِي(٩)

= من أعظم ملوك العرب ، وأوسعهم ملكاً ، وأشدهم بأساً . قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ » . ٦ – ٨ سورة الفجر .

(٤) التهامة : الأرض المنخفضة . وجمعها تهائم (بوزن رسالة ، ورسائل) وضدها النجد (بوزن المهد) وهو الأرض المرتفعة الصلبة . وله عدة جموع ، منها : الأنجد ، والنجاد ، والنجود (بوزن الأبحر ، والبحار ، والبحور) . أما النجائد فلا نعرفها . والحواضر : جمع حاضرة : وهي المدن ، والقرى ، والريف . والبوادي : جمع بادية : وهي ضد الحاضرة .

(٥) يريد بأصحاب الوفود : من كانت تقصدهم وفود الناس ، كالملوك ونحوهم . وأرباب الجلاد : أصحاب القتال ، ذوو البأس والشجاعة . والجلاد : مصدر جالدوهم بالسيوف : أي ضاربوهم .

(٦) النادي : مجلس القوم ومتحدَّثهم ، وأراد بالقائلين بكل ناد : ذوي اللسن والفصاحة ، وأهل البيان والبلاغة .

(٨) القريض : الشعر . والجزل : الكثير الجيِّد ، أو ما كان فخم اللفظ ، قويَّ الأسلوب ، متين العبارة ، وهو خلاف الرقيق الليِّن . والفراد : جمع فردة (بفتح فسكون) : بمعنى منفردة : أي منقطعة النظير في حسن النظم والبلاغة .

(٩) يريد بالشاعر الضليل : امرأ القيس بن حجر (بضم فسكون) الكنديّ ، رأس شعراء الجاهلية وأسبقهم إلى التفنّن في أبواب الشعر وضروبه ، كان من أصل يمنيّ ، ولكنه نشأ بأرض نجد وسط قوم عدنانيين ، هم رعيَّة أبيه من بني أسد ، وقد مات وهو راجع من بلاد الروم ، ودفن بأنقرة قبل الهجرة بنحو قرن ، وكان يلقب بالملك الضِّلِّيل ، أي الكثير الضلال ؛ وذلك لغوايته وعهره وخروجه عن حدود العفَّة في كثير من شعره .

وقسّ بن ساعدة الإياديّ : هو خطيب العرب ، والمضروب به المثل في البلاغة والحكمة والموعظة الحسنة ، كان يدين بالتوحيد ؛ ويؤمن بالبعث ، ويخطب العرب في المحافل العامَّة والمواسم والأسواق ، وكان الناس يتحاكمون إليه ؛ فيقضي بينهم بسديد رأيه ، وصائب حكمه . وسمعه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل =

لَعِبَ الزَّمَانُ بِجَمْعِهِمْ وَرَمَى بِهِمْ فى كُلِّ وَادِى(١٠)
فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا بَيَاضاً فى سَوادِ(١١)

وَقَالَ :

بَلِينَا وَسِرْبَالُ الزَّمَانِ جَدِيدُ وَهَلْ لامْرِئٍ فى الْعَالَمِينَ خُلُودُ ؟(١)
قَضَى آدمٌ فى الدَّهْرِ، وَهْوَ أَبُو الْوَرَى وَكُلُّ الَّذِى مِنْ صُلْبِهِ سَيَبِيدُ(٢)
فَلَا تَبْكِ مَيْتاً حَانَ يَوْمُ رَحِيلِهِ فَلِلْمَوْتِ مَا يَمْضِى الْفَتَى وَيَرُودُ(٣)
وَلَا تَلْتَمِسْ أَمْرًا يَزِيدُكَ يَقْظَةً فَلَيْسَ لِإِدْرَاكِ الْيَقِينِ مَزِيدُ(٤)

= البعثة وهو يخطب فى سوق عكاظ فأثنى عليه، وعجب من فصاحته، وحسن كلامه، وعمّر قسّ طويلا، ومات قبل البعثة .

(١٠) المعنى : أنه أبادهم ، وشتّتهم ، وفرّق شملهم .

(١١) لم يلبثوا : لم يمكثوا ، ولم ينتظروا .

يقول : إنهم سرعان ما هلكوا ، حتى كأنهم لم يمكثوا غير بياض نهار اتصل ودخل فى سواد ليل .

(١) بلى الثوب يبلى (كفنى يفنى) بلى (بكسر ففتح) : خلق، وذهبت جدّته . والسربال : الثوب، أو القميص، أو الدرع ، أو كلّ ما لبس . والعالمون : جمع عالم (بفتح اللام): وهو الخلق (بفتح فسكون) . وخلود : دوام وبقاء . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه النفى .

(٢) قضى : مات . وفى الدهر : أى فيما مضى من الزمان . والورى : الخلق (بفتح فسكون) . وصلبه : ظهره ، والمراد : نسله ، وسلالته ، ويبيد : يهلك ، (وبابه باع) .

(٣) حان : آن : أى جاء حينه ووقته . ورحيله : سفره وانتقاله إلى الدار الآخرة، وما مصدريّة. ويمضى: مضارع مضى المرء فى حاجته : أى ذهب ، ومضى على أمره : أى تمّ عليه ، ونفذ فيه . . ويرود: يطلب ، والرود أيضاً : الذهاب والمجىء . ومعنى الشطر الثانى : أن سعى الإنسان فى حياته ينقطع بالموت، فكأنما يسعى لغاية هى الموت . ويصح أن تقرأ يمضى (بضم ياء المضارعة) : مضارع أمضى الإنسان الأمر : أى أنفذه .

والمعنى : أنّ كل أعمال المرء ومطامعه ومطالبه نهايتها الفناء بموته .

(٤) تلتمس : تطلب . واليقظة (محركة) : نقيض النوم ، وقد سكنت (هنا) لضرورة وزن الشعر .

ومعنى البيت : أنّ الإنسان يدرك أنه ميت ، ويعلم هذا علم اليقين ، وليس وراء اليقين غاية ، ولا بعده زيادة ، فهو فى غير حاجة إلى ما يذكّره بالموت .

دَعِ الْفَلَكَ الدَّوَّارَ يَجْرِى، وَلَا تَسَلْ ... أَفَوَّزَ كَهْلٌ أَمْ أَهَلَّ وَلِيدُ ؟(٥)
فَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا وَإِنْ جَلَّ قَدْرُهَا ... سِوَى مُهْلَةٍ نَأْتِى لَهَا وَنَعُودُ(٦)
تَبُوخُ بِهَا الْأَنْفَاسُ وَهْىَ نَسَائِمٌ ... وَتَعْفُو بِهَا الْأَبْدَانُ وَهْىَ صَعِيدُ(٧)
فَيَا ضَارِباً فى الْأَرْضِ يَرْتَادُ غَايَةً ... رُوَيْدَكَ ، إِنَّ الْفَوْزَ مِنْكَ بَعِيدُ(٨*)

(٥) الفلك : مدار النجوم ، والمراد بالفلك الدوّار : أمور الدنيا ، وأحوال الكون . وفوّز : مات وهلك . والكهل : من وخطه الشيب ، أو هو من جاوز الثلاثين ، أو أربعاً وثلاثين إلى إحدى وخمسين . وأهلّ الطفل : رفع صوته بالبكاء عند ولادته ، أو ظهر ، من قولهم : أهلّ الهلال : إذا ظهر . والوليد : الطفل المولود .

والمعنى : أن دورة الفلك تستلزم الحياة والفناء ، فعلى الإنسان أن يستسلم لما تجرى به المقادير ؛ فلا يدهش لحياة أو موت .

(٦) جلّ : عظم . والمهلة (بضم الميم) : اسم من مهّله تمهيلا ، بمعنى أنظره ، وأخّر طلبه . وفى الأمر مهلة : أى تأخير ، والمراد مدّة قصيرة .

(٧) تبوخ : تسكن . والأنفاس : جمع نفس (بفتحتين) . والنسائم : جمع نسيم ، وهى الريح إذا كانت ضعيفة . وتعفو : تهلك ، وتزول ، وتمّحى . والصعيد : التراب .

(٨) الضرب فى الأرض : السير فيها ، والسعى لابتغاء الرزق . ويرتاد : يطلب ، يقال : ارتاد الرائد الكلأ : إذا طلبه فى موضعه . ورويدك : تمهّل واتّئد .

* وفى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا أمثلة وصور لتنقيح الشعر وتهذيبه بالتعديل والتبديل فى بعض المفردات ، وبعض الأبيات ، وأنصاف الأبيات ؛ بأن تطمس الكلمة ، أو الشطر ، أو البيت ، أو يضرب عليه ، ليعدل عنه ، أو يستبدل به غيره . وكلمة « رويدك » فى هذا البيت كتبت فى هامش الأصل بإزاء كلمة « وراءك » المضروب عليها ، أو المعدول عنها .

والبيت الذى يلى هذا البيت (وهو البيت التاسع ، أى الأخير من هذه القصيدة الداليّة الزهديّة) مطموس فى هذا الأصل . ونصّه :

مَتَى تَحْسُنُ الدُّنْيَا ، وَفِى كُلِّ لَحْظَةٍ ... (يُفَاجِئُنَا) فِيهَا الرَّدَى ، فَتَبِيدُ

والكلمة التى بين قوسين فى أول الشطر الثانى تكملة ظنية اجتهادية ؛ لأن الكلمة الأصلية بولغ فى طمسها فلم نستطع قراءتها .

قافية الذال

قَالَ :

دَعِ الذُّلَّ فى الدُّنْيا لِمَنْ خَافَ حَتْفَهُ فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى أَذَى[١]

ولا تَصْطَحِبْ إلَّا امْرَأً إنْ دَعَوْتَهُ لَدَى جَمَرَاتِ الْحَرْبِ ، لَبَّاكَ وَاحْتَذَى[٢]

يَسُرُّكَ عِنْدَ الأَمْنِ فَضْلًا وحِكْمَةً ويُرْضِيكَ يَوْمَ الرَّوْعِ نَبْلًا مُقَذَّذَا[٣]

فَيَا حَبَّذَا الْخِلُّ الصَّفِيُّ! وَهَلْ أَرَى نَصِيباً مِن الدُّنْيَا إذَا قُلْتُ حَبَّذَا[٤]؟

لَعمْرِى لَقَدْ نَادَيْتُ ، لَوْ أَنَّ سَامِعاً ونَوَّهْتُ بِالأَحْرَارِ ، لَوْ أَنَّ مُنْقِذَا[٥]

---

(١) الحتف : الهلاك والموت .

(٢) جمرات النار : قطعها الملتهبة ، الواحدة جمرة (بفتح فسكون) ، ولدى جمرات الحرب : عند اتّقاد نارها . ولبّاك : أجابك ، وأقام على طاعتك . واحتذى مثالك : اقتدى بك .

(٣) يوم الروع : يوم الفزع والخوف فى الشدّة والحرب ونحوها . والنبل : السهام العربية ، وهى مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها ، بل الواحد سهم : وهو ما يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . ومقذّذ : مسوّى : اسم مفعول من قذّذ الرجل السهم تقذيذاً : إذا سوّاه ، وأحكم بريه .

يقول : إن هذا الصاحب يسرك عند الأمن بفضله وحكمته ، ويرضيك يوم الفزع بحسن دفاعه عنك .

(٤) الخلّ : الصديق المختصّ . والصفىّ : الحبيب المصافى الصادق الإخاء .

يمدح الخلّ الصفىّ ، ويتمنّى وجوده ، ويقول : إن كل شىء ممدوح محبوب فى الحياة قليل بعيد المنال .

(٥) لعمرى : اللام لتوكيد الابتداء . أو هى لام القَسَم. والعمر : المعيشة والحياة ، وهو مبتدأ خبره محذوف ، والتقدير لعمرى قسمى ، أو لعمرى ما أقسم به . ونوّه به تنويهاً : دعاه ورفعه . يقول : وحياتى ، لقد ناديت لو أن سامعاً يجيبنى ، ودعوت الأحرار ، ورفعت بمديحى شأنهم ، لو أن منقذاً منهم أنجدنى .

وَطَوَّفْتُ بِالْآفَاقِ ، حَتَّى كَأَنَّنِي أُحَاوِلُ مِنْ هٰذِى الْبَسِيطَةِ مَنْفَذَا[٦]
فَمَا وَقَعَتْ عَيْنِي عَلَى غَيْرِ أَحْمَقٍ غَوِيٍّ ، يَظُنُّ الْمَجْدَ فِى الرِّيِّ وَالْغِذَا[٧]
إِذَا مَا رَأَيْتُ الشَّيْءَ فِى غَيْرِ أَهْلِهِ وَلَمْ أَسْتَطِعْ رَدًّا ، طَرَفْتُ عَلَى قَذَى[٨]
فَحَتَّى مَتَى يَا دَهْرُ أَكْتُمُ لَوْعَةً تُكَلِّفُ قَلْبِي كُلْفَةَ الرِّيحِ بِالشَّذَا؟[٩]
أَلَمْ يَأْنِ لِلْأَيَّامِ أَنْ تُبْصِرَ الْهُدَى فَتَخْفِضَ مَأْفُوناً ، وَتَرْفَعَ جِهْبِذَا؟[١٠]
إِذَا لَمْ يَكُنْ بِالدَّهْرِ خَبْلٌ لَمَا غَدَا يَسِيرُ بِنَا فِى ظُلْمَةِ الْجَوْرِ هٰكَذَا[١١]

وَقَالَ :

تَغَنَّى الْحَمَامُ ، وَنَمَّ الشَّذَا وَلَاحَ الصَّبَاحُ ، فَيَاحَبَّذَا ![١]

(٦) طوّف : أكثر التطواف . والآفاق : النواحي ، واحدها أفق (بضمتين) . والبسيطة : الأرض . ومنفذ : اسم مكان من نفذ السهم نفوذاً (من باب قعد) ونفاذاً ، أي خرق الرمية ، وخرج منها ، أو هو مصدر ميمي بمعنى النفاذ : وهو الخروج .

(٧) أحمق : قليل العقل . وغويّ : ضالّ ، منهمك في الجهل . والمجد : الكرم والعزّ والشرف . والريّ (بفتح الراء) : مصدر روى من الماء يروى (كرضى يرضى) ريّاً ، والاسم الرى (بكسر الراء) والغذا : مقصور الغذاء : وهو ما يغتذى به من الطعام والشراب .

(٨) طرف بصره (من باب ضرب) : أطبق أحد جفنيه على الآخر . والقذى : ما يسقط في العين فيهيجها ، ويسيل دمعها . والمراد أنه يحتمل ذلك على كراهية ، وتبرّم ، ومضض .

(٩) اللوعة : حرقة في القلب ، وألم من همّ ونحوه . وكلّفه تكليفاً : أمره بما يشقّ عليه . والكلفة (بضم فسكون) : ما يتكلّفه الإنسان : أي يتحمله على مشقّة . والشذا : قوّة ذكاء الرائحة .
يقول : إلى متى أكتم لوعة الحزن التي ضاقت بها نفسي ، والتي تكلف قلبي المستحيل في صونها وكتمها ، كما تكلّف الريح صيانة ما بها من عطر شذيّ .

(١٠) ألم يأن : ألم يحن ، ولم يقرب ، مضارع أنى الشيء أنياً (من باب رمى) : أي دنا وقرب ، وجاء حينه ووقته . والمأفون : الضعيف الرأي والعقل . والجهبذ (بكسر فسكون فكسر) : النقّاد الخبير ببواطن الأمور .

(١١) الخبل (بفتح فسكون) : فساد الأعضاء حتى لا يدرى المختبل كيف يمشي ، والخبل (بفتح الخاء والباء) : الجنون وشبهه ، كالهوج والبله (بفتحتين فيهما) . والجور : الظلم والميل عن القصد . ووقوع اللام (هنا) في جواب إذا غير صحيح .

(١) نمّ : سطع ، وارتفع ، وانتشر . والشذا : حدّة ذكاء الرائحة . ولاح : بدا وظهر .

وَمَا زَالَ يَرْضَعُ طِفْلُ النَّبَاتِ   ثُدِىَّ الْغَمَامَةِ حَتَّى اغْتَذَى(٢)

فَقُمْ نَغْتَنِمْ صفْوَ أَيَّامِنَا   وَنَدْفَعْ بِالرَّاحِ عَنَّا الْأَذَى(٣)

فَمَا بَعْدَ عَصْرِ الصِّبَا لَذَّةٌ   وَلَا مِثْلُ صَفْوِ الْحُمَيَّا غِذَا(٤)

تَذُودُ عَنِ الْقَلْبِ أَحْزَانَهُ   وَتَنْفِى عَنِ الْعَيْنِ شَوْبَ الْقَذَى(٥)

وَتَجْلُو الظَّلَامَ بِلَأْلَائِهَا   كَأَنَّ بِأَيْدِى السُّقَاةِ الْجُذَا(٦)

إِذَا ما احْتَسَاهَا كَرِيمٌ هَدَى   وإِنْ عَبَّ فِيهَا لَئِيمٌ هَذَى(٧)

فَدَعْ مَا تَوَلَّى ، وَخُذْ مَا أَتَى   فَلَنْ يَصْلُحَ الْعَيْشُ إِلَّا كَذَا(٨)

* * *

---

(٢) غذوته بالطعام والشراب ، فاغتذى ، كغذّيته ، فتغذّى .

(٣) اغتنم الشيء : أخذه غنيمة ، وهى ما يفوز به الإنسان بلا مشقّة . وصفو الشيء وصفوته (بفتح فسكون فيهما) : ما صفا منه وخلص ، والصفو أيضاً : نقيض الكدر . والراح : الخمر .

(٤) حميّا الكأس : سورتها (بفتح فسكون) وشدّتها ، أو إسكارها ، أو أخذها بالرأس ، والمراد بصفو الحميّا : خلاصة الخمر وصفوتها . وغذا : غذاء وقصر لضرورة وزن الشعر .

(٥) تذود : تدفع وتطرد . والشوب : الخلط ، والمراد ما يشوب العين ويخالطها . والقذى : ما يسقط فى العين فيهيجها . .

(٦) اللألاء : البريق واللمعان . والسقاة : جمع ساق ، اسم فاعل من سقاه يسقيه . والجذا (بضم الجيم وكسرها) : جمع جذوة (مثلثة الجيم) : وهى القبسة من النار ، والجمرة (بفتح فسكون فيهما) .

(٧) احتساها : شربها شيئاً بعد شيء . وهدى : اهتدى ورشد . وعبّ : شرب من غير مص ولا تنفّس ، كما تشرب الدوابّ ، (وبابه ردّ) . وهذى فى منطقه يهذى هذياً (من باب رمى) وهذياناً (بفتحتين) : هذر ، وتكلّم بغير معقول .

(٨) تولّى : ذهب وأدبر .

يقول : إن المعيشة والحياة لا تكون صالحة طيبة إلا إذا تركت التفكير فيما مضى ، واغتنمت ما يأتى .

قافيـة الـراء

قَالَ يَصِفُ أَيَّامَ الرَّبِيعِ ، ويَذْكُرُ مَوَاسِمَ اللَّهْوِ فى عَصْرِ الشَّبابِ .

رَمَتْ بِخُيُوطِ النُّورِ كَهْرَبَةُ الْفَجْرِ وَنَمَّتْ بِأَسْرَارِ النَّدَى شَفَةُ الزَّهْرِ (١)

وَسَارَتْ بِأَنْفاسِ الْخَمائِلِ نَسْمَةٌ بَلِيلَةُ مَهْوَى الذَّيْلِ ، عاطِرَةُ النَّشْرِ (٢)

فَقُمْ نَغْتَنِمْ صَفْوَ الْبُكُورِ ؛ فَإِنَّهَا غَدَاةُ رَبِيعٍ زَهْرُهَا باسِمُ الثَّغْرِ (٣)

تَرَى بَيْنَ سَطْحِ الْأَرْضِ والْجَوِّ نِسْبَةً تُشَاكِلُ مَا بَيْنَ السَّحائِبِ والْغُدْرِ (٤)

---

(١) نمّ السرّ و بالسرّ : أشاعه وأفشاه . والندى : البلل ، والمطر القليل ، وقطرات الماء تسقط من السماء آخر الليل

يصف طلوع الفجروما يكون وقتئذ من انتشارنور الصباح وتفتّح الأزهار وظهور قطرات الندى عليها .

(٢) الأنفاس : جمع نفس (بفتحتين) . والخمائل: جمع خميلة (بفتح فكسر) ، وهى الشجر المجتمع الكثيف ، والموضع الكثير الشجر والنسمة (بفتح السين ، وإنما سكنت هنا لضرورة وزن الشعر) : نفس (بفتحتين) الريح ، إذا كانت معتدلة طيّبة ،كالنسيم . ومهوى الذيل: طرقه ، اسم مكان من هوى يهوى (كرمى يرمى) أى سقط . والنشر : الرائحة .

والمعنى أن النسيم يحمل ريح أزهار الخمائل بليلا عطراً .

(٣) اغتنم الشىء : أصابه غنيمة، وهى ما يفوز به الإنسان بلا تعب ولامشقّة . والصفو : ضدّ الكدر . والبكور : مصدر بكر عليه وإليه ، أى أتاه بكرة ، وهى أوّل النهار ، والتبكير مثل البكور ، وكذلك المباكرة . والغداة : أوّل النهار ، أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

يدعو من يخاطبه إلى التبكير لاغتنام صفاء الحياة ، والاستمتاع بجمال الطبيعة زمن الربيع ، ويشير إلى تفتّح الأزهار فى أوّل النهار .

(٤) النسبة (بكسر النون وضمها): النسب والقرابة، والمراد الصلة . وفى ثلاثة الأبيات الآتية بيان وتفصيل لها . وتشاكل: تشابه وتضارع وتوافق. والسحائب : جمع سحابة . والغدر : جمع غدير ، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل ، أى يتركها .

فَفِي الْجَوِّ هَتَّانٌ يَسِيلُ ، وَفِى الثَّرَى سُيُولٌ تَرَامَى بَيْنَ أَوْدِيَةٍ غُزْرِ (٥)

غَمَامَانِ فَيَّاضَانِ : هَذَا بِأُفْقِهِ يَسِيرُ ، وهَذَا فِى طِبَاقِ الثَّرَى يَسْرِى (٦)

وَقَدْ مَاجَتِ الْأَغْصَانُ بَيْنَ يَدِ الصَّبا كَمَا رَفْرَفَتْ طَيْرٌ بِأَجْنِحَةٍ خُضْرِ (٧)

كَأَنَّ النَّدَى فَوْقَ الشَّقِيقِ مَدَامِعٌ تَجُولُ بِخَدٍّ ، أَوْ جُمَانٌ عَلَى تِبْرِ (٨)

إِذَا غَازَلَتْهَا لَمْعَةٌ ذَهَبِيَّةٌ مِنَ الشَّمْسِ رَفَّتْ كالشَّرارِ عَلَى الْجَمْرِ (٩)

---

(٥) سحاب هتّان كثير الهتون ، وهو الهطل (بفتح فسكون) والانصباب والتتابع . والثرى : الأرض . وترامى أصله تترامى : أى تطول وتمتدّ . والأودية : جمع الوادى .وغزر : كثيرة الماء .

(٦) غمامان : مثنى غمام ، وهو السحاب ، واحدته غمامة . والأفق (هنا): مجال السحب . والطباق : جمع طبق ، أو جمع طبقة (بفتحتين فيهما) . وطباق الثرى : طبقاته التى يعلو بعضها بعضاً . ويسرى يسير .

(٧) ماجت : تحركت واهتزّت .والصبا : ريح تهبّ فى بلاد العرب من جهة المشرق . ورفرف الطائر : حرّك جناحيه حول الشىء يريد أن يقع عليه .

(٨) الندى : البلل ، والمطر القليل ، وقطرات ماء تسقط من السماء آخر الليل . ويريد بالشقيق : شقائق النعمان ، وهو زهر معروف أحمر اللون ، وقد أضيف إلى النعمان بن المنذر من ملوك الحيرة ، لأنه أعجب بهذا النوع من الزهر ، فحماه وكثّره . أو هو مضاف إلى النعمان بمعنى الدم . ولم نجد كلمة « الشقيق» فيما نعرفه من المعجمات ، ولكنها وردت فى كلام بعض المولدين ، كقول أبى بكر الصنوبرى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ .

وكأنّ محمرّ الشقيـ ـق إذا تصوّب أو تصعّد

أعـلام ياقـوت نشر ن على رماح من زبرجـد

ويريد بالمدامع : الدموع ، وهى فى الأصل المآقى ، أى أطراف العين حيث تسيل الدموع . وتجول : تهتزّ وتتحرّك . والجمان حبّ من فضّة يعمل على شكل اللؤلؤ ، وقد يسمّى به اللؤلؤ ، الواحدة جمانة (بضم الجيم) . والتبر : ما كان من الذهب غير مضروب ولا مصوغ .

(٩) غازلتها من المغازلة ، وهى فى الأصل محادثة النساء ، واللهو معهن ، والتودد إليهن ، والكلام هنا على المجاز .واللمعة : اسم مرة من لمع البرق ونحوه (من باب قطع) أى أضاء ، والمراد بها الشعاعة عن أشعّة الشمس . ورفّت برقت وتلألأت . والشرار : ما يتطاير من النار ، الواحدة شرارة . والجمر : القطع الملتهبة من النار ، الواحدة جمرة .

يقول إن أشعّة الشمس الذهبيّة تسطع أول النهار فوق شقائق النعمان ، فترفّ وتبرق ، كأنها شرار على جمر .

فَفِي كُلِّ مَرْعَى لَحْظَةٍ وَشْيُ دِيمَةٍ   وَفِي كُلِّ مَرْمَى خَطْوَةٍ أَجْرَعُ مُثْرِى (١٠)
مُرُوجٌ جَلاَهَا الزَّهْرُ ، حَتَّى كَأَنَّهَا   سَمَاءٌ تَرُوقُ الْعَيْنَ بِالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ (١١)
كَأَنَّ صِحَافَ النَّوْرِ وَالطَّلُّ جَامِدٌ   مَبَاسِمُ أَصْدَافٍ تَبَسَّمْنَ عَنْ دُرِّ (١٢)
وَقَدْ شَاقَنِي وَالصُّبْحُ فِي خِدْرِ أُمِّهِ   حَنِينُ حَمَامَاتٍ تَجَاوَبْنَ فِي وَكْرِ (١٣)
هَتَفْنَ فَأَطْرَبْنَ الْقُلُوبَ ، كَأَنَّمَا   تَعَلَّمْنَ أَلْحَانَ الصَّبَابَةِ مِنْ شِعْرِي (١٤)

---

(١٠) المرعى: الموضع تتنقل فيه الماشية لأكل الكلأ، وهو اسم مكان من رعت الماشية الكلأ إذا سرحت فيه . واللحظة (هنا): النظرة . والمراد بمرعى اللحظة : مجال النظر . والوشى: نقش الثوب، ويكون من كل لون ، وشى الصانع الثوب (كوعى) وشياً وشية (كوعد وعدة) أى نقشه ونمنمه وحسّنه . والديمة مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق . والمرمى: اسم مكان من رمى. والأجرع : الرملة السهلة المستوية ، الطيّبة المنبت . والمثرى الكثير الخير .

يقول إنه فى كل موضع تقع عليه العين نبات نضير ، مختلف الألوان ، كثير الأزهار ، من وشى الأمطار الغزيرة ، والمياه الدائمة ، وفى كلّ خطوة يخطوها الإنسان أرض طيِّبة النبات ، كثيرة الندى والخير .

(١١) المروج : جمع مرج (بفتح فسكون) ، وهو أرض ذات نبات ومرعى . وجلاها الزهر: زيّنها وجمّلها ، أو علاها ، أو أوضح محاسنها . وتروق : تعجب . والزهر (بضم فسكون) النيّرة المشرقة ، البيض الحسان ، واحدها أزهر .

(١٢) الصحاف: جمع صحفة (بفتح فسكون) : وهى إناء يؤكل فيه . والنور: الزهر، واحدته نورة ، وصحاف النور: النور الشبيه بالصحاف . والطل : المطر الخفيف ، أو أضعف المطر ، والمراد به قطرات الندى فوق ورق الزهر . والمباسم : جمع مبسم (كمنزل) وهو الثغر (بفتح فسكون) ، والمبسم فى الأصل اسم مكان من البسم (بفتح فسكون) وهو أقل الضحك وأحسنه ، كالابتسام والتبسّم . والأصداف أغشية الدرّ، جمع صدف (بفتحتين) ، وواحدة الصدف صدفة . والدرّ: اللآلىء ، واحدته درّة (بضم الدال وتشديد الراء) .

(١٣) شاقنى : هيّج شوقى . والخدر: الستر .ووصف الصبح بأنه فى خدر أمّه: تعبير يراد به أنه فى أول ظهوره ، على التشبيه بالطفل . والحنين : صوت الطرب ، عن حزن أو فرح . وتجاوبن: جاوب بعضها بعضاً . والوكر : عشّ الطائر حيث كان فى شجر أو جبل .

(١٤) هتفت الحمامة تهتف (من باب ضرب) صاتت وسجعت . والطرب: خفّة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور ، (وبابه فرح) ، ويعدّى بالهمزة ، فيقال : أطربنى المغنّى ونحوه . والألحان: الأصوات المصوغة الموضوعة ، يرسلها المغنى بعد ضبطها ووزنها ، أو هى الأغانى . والصبابة : الشوق ، أو رقّته وحرارته ، أو رقّة الهوى .

وَقَامَ عَلَى الْجُدْرَانِ أَعْرَفُ لَمْ يَزَلْ ... يُبَــدِّدُ أَحْلامَ النِّيَامِ وَلا يَدْرِى (١٥)
تَخَايَلَ فِى مَوْشِيَّةٍ عَبْقَرِيَّةٍ ... مُهَدَّلَةِ الْأَرْدَانِ سَابِغَةِ الْأُزْرِ (١٦)
لَهُ كِبْرَةٌ تَبْدُو عَلَيْهِ ، كَأَنَّهُ ... مَلِيكٌ عَلَيْهِ التَّاجُ يَنْظُرُ عَنْ شَزْرِ (١٧)
فَسَارِعْ إِلَى دَاعِى الصَّبُوحِ مَعَ النَّدَى ... لِتَجْنِى بِأَيْدِى اللَّهْوِ بَاكُورَةَ الْعُمْرِ (١٨)
فَقَدْ نَسَمَتْ رِيحُ الشَّمَالِ ، فَنَبَّهَتْ ... عُيُونَ الْقَمَارِى وَهْىَ فِى سِنَةِ الْفَجْرِ (١٩)

(١٥) أعرف: له عرف (بضم فسكون) والمراد بالأعرف (هنا): الديك ، وعرفه (بضم فسكون) لحمة حمراء مستطيلة فى أعلى رأسه . ويبدّد : يفرّق .

(١٦) تخايل: تكبّر. وموشيّة منقوشة، اسم مفعول من الوشى ، وهو نقش الثوب، وشى الصانع الثوب (كوعى) وشياً وشية ، أى نمنمه ونقشه وحسّنه ، كوشّاه توشية ، والمراد ما يكسو جسمه من الريش المختلف الألوان . وعبقريّة : تامّة الحسن، نسبة إلى عبقر ، وهو – فيما تزعم العرب – موضع كثير الجنّ ، ينسبون إليه كلّ شيء تعجّبوا من حسنه وكماله ، أوهى منسوبة إلى قرية ثيابها فى غاية الحسن، اسمها عبقر: ومهدّلة . مسترسلة مرخاة طويلة . والأردان: جمع ردن (بضم فسكون) وهو أصل الكمّ ، والمراد به هنا : الكمّ . وسابغة : واسعة طويلة تامّة . والأزر (بضم فسكون ، وبضمتين) : جمع إزار، وهو الثوب ، والملحفة ، وكلّ ما ستر الجسم ، كالإزر (بكسر فسكون) .

والمعنى أن الديك يزهى ويعجب بنفسه ، وقد طال جناحاه وذيله ، ولبس من الريش ثوباً جميلا مختلف الألوان .

(١٧) الكبرة (بكسر الكاف وسكون الباء): العظمة والتجبّر والكبرياء ، كالكبر (بكسر فسكون) والتأنيث فى الكبرة للمبالغة . وتبدو : تظهر . ونظر إليه شزراً: إذا كان بمؤخر عينه ، وهو نظر فيه إعراض وتكبّر ، كنظر المباغض والغضبان .

(١٨) الصبوح (بفتح الصاد): شراب الصباح. والندى : المطر القليل يسقط آخر الليل . وجنى فلان الثمرة (من باب رمى) واجتناها : التقطها . وباكورة الفاكهة : أول ما يدرك منها .

يدعو إلى مباكرة الصبوح ، والمسارعة إلى الشرب فى أول النهار ، والاستمتاع باللهو ، وملاذ الحياة فى زمن الصبا ، وريعان الشباب .

(١٩) نسمت الريح : هبّت ليّنة ضعيفة لطيفة. والقمارىّ (بتشديد الياء) ، جمع قمريّة (بضم فسكون فكسر فياء مشددة) : نوع من الحمام ، وخفّفت الياء هنا لضرورة وزن الشعر ، والقمرة فى الأصل البياض ، أو هى لون إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة . والسنة (بكسر السين) : النعاس أو أول النوم .

وَنَادَى الْمُنَادِى للصَّلاةِ بِسُحْرَةٍ — فَأَحْيَا الْوَرَى مِنْ بَعْدِ طَىٍّ إلى نَشْرِ (٢٠)
فَبَادِرْ لِمِيقَاتِ الصَّلاةِ ، وَمِلْ بِنَا — إلى الْقَصْفِ مَا بَيْنَ الْجَزِيرَةِ والنَّهْرِ (٢١)
إِذَا مَا قَضَيْنَا وَاجِبَ الدِّينِ حَقَّهُ — فَلَيْسَ عَلَيْنَا فى الْخَلَاعَةِ مِنْ وِزْرِ (٢٢)
أَلا رُبَّ يَوْمٍ كَانَ تَارِيخَ صَبْوَةٍ — مَضَى غَيْرَ إِثْرٍ فى الْمَخِيلَةِ أَوْ ذِكْرِ (٢٣)
عَصَيْتُ بِهِ سُلْطَانَ حِلْمِى ، وَقَادَنِى — إلى اللَّهْوِ شَيْطَانُ الْخَلَاعَةِ والسُّكْرِ (٢٤)
لَدَى رَوْضَةٍ رَيَّا الْغُصُونِ ، تَرَنَّحَتْ — مَعَاطِفُهَا رَقْصاً عَلَى نَغْمَةِ الْقُمْرِى (٢٥)

---

(٢٠) السحرة (بضم فسكون) : السحر (بفتحتين) وهو آخر الليل قبيل الصبح، والمراد وقت الفجر. والورى : الخلق والناس. والمراد بإحياء الورى: إيقاظهم وتنبيههم من نومهم . والمراد بالطى: النوم. والمراد بالنشر اليقظة والانتشار فى الأرض .

(٢١) ميقات الصلاة : وقتها المضروب لأدائها. ومعنى المبادرة إلى ميقات الصلاة: المسارعة إلى تأديتها فى وقتها . والقصف: اللهو واللعب . ويريد بالجزيرة : روضة المقياس فى نهر النيل ، شرقى الجيزة ، وغربى مصر القديمة .

يقول أدّ الصلاة ، وسر بنا بعدها إلى اللهو : متنقّلا ما بين الجزيرة والنهر .

(٢٢) الخلاعة : المجون وعدم المبالاة . والوزر : الإثم والذنب .

(٢٣) الصبوة : الميل إلى الجهل والفتوّة. والإثر (بكسر الهمزة): الأثر (بفتحتين) ، والمراد الصورة . والمخيلة : الوهم والخيال . والذكر (بكسر فسكون) : التذكّر ، والشيء يجرى على اللسان .

يحنّ إلى أيام كان فيها ناعماً لاهياً مرحاً مستمتعاً بما يستمتع به الفتيان ، منقاداً لأسباب الهوى والخلاعة ، ويقول إن هذه الأيام قد ذهبت ، وبعد عهدى بها ، حتى لم يبق منها غير أثر يتراءى فى خيالى ، أو حديث يجرى على لسانى .

(٢٤) به : أى فى ذلك اليوم الذى كان تاريخ صبوته . والحلم: الأناة والعقل . والخلاعة : المجانة وعدم المبالاة .

(٢٥) الروضة : أرض ذات شجر وعشب وزهر. وريّا : صفة من الرىّ (بكسر الراء وفتحها) وهو ضدّ العطش ، يقال : هو ريّان ، وهى ريّا . وترنّحت : تمايلت. ومعاطفها : جوانبها حيث تنعطف وتنثنى . والضمير يعود على الغصون . والنغمة جرس الصوت وحسنه . والقمرىّ : نوع من الحمام ، والجمع قمر (بضم فسكون ، كرومىّ وروم) ، والأنثى قمريّة .

تَدُورُ عَلَيْنَا بِالْمُـدَامَةِ بَيْنَها ... تَمَاثِيلُ ، إِلَّا أَنَّها بَيْنَنَا تَجْرِى (٢٦)
تَرَى كُلَّ مَيْلاءِ الْخِمارِ مِنَ الصِّبَا ... هَضِيمَةِ مَجْرَى الْبَنْدِ ، نَاهِدَةِ الصَّدْرِ (٢٧)
إِذَا انْفَتَلَتْ فِى حَاجَةٍ خِلْتَ جُؤْذُرًا ... أَحَسَّ بِصَيَّادٍ فَأَتْلَعَ مِنْ ذُعْرِ (٢٨)
لَوَى قَدَّهَا سُكْرُ الْخَلَاعَةِ والصِّبَا ... فَمَالَتْ بِشَطْرٍ ، واسْتَقَامَتْ عَلَى شَطْرِ (٢٩)
وَعَلَّمَهَــا وَحْىُ الدَّلالِ كَهَانَةً ... فَإِنْ نَطَقَتْ جَاءَتْ بِشَىْءٍ مِنَ السِّحْرِ (٣٠)
أَحَسَّتْ بِما فِى نَفْسِهَا مِنْ مَلاحَةٍ ... فَتَاهَتْ عَلَيْنَا ، وَالْمَلاَحَةُ قَدْ تُغْرِى (٣١)

(٢٦) المدامة: الخمر . وبينها ، أى بين الغصون ، أو بين نواحى هذه الروضة . وأراد بالتماثيل الفتيات الحسان اللائى يسقينهم .

(٢٧) ميلاء مائلة . والخمار : ثوب تغطى به المرأة رأسها. والصبا : الشباب. ومعنى ميلاء الخمار من الصبا : أنها تميل من زهو الصبا فيميل خمارها . وهضيمة : ضامرة خميصة نحيفة لطيفة . والبند : النطاق. ومجرى البند الخاصرة والوسط . وناهدة صفة من نهد الثدى (كمنع ونصر) نهوداً إذا ظهر وارتفع .

(٢٨) انفتلت : انصرفت . والجؤذر (بضم الذال وفتحها) : ولد البقرة الوحشية تشبه به المرأة الحسناء فى الرشاقة وجمال العيون واتساعها . وأتلع الظبى ونحوه : سما بجيده ، ومد عنقه متطاولا . والذعر : الخوف ، وهو اسم من ذعره (من باب قطع) إذا أفزعه وأخافه .

والمعنى أنها حينما تقوم لعمل شىء تنهض فى رشاقة وخفة مرتفعة الرأس ، كأنها الظبى أحس صياداً .

(٢٩) القد : القوام (بفتح القاف) والاعتدال. والخلاعة : المجون وعدم المبالاة . والصبا : جهلة الفتوة والشوق والحنين والمرح واللهو ، أو الصبا : الصغر . وشطر كل شىء نصفه .

(٣٠) الوحى : الإيماء والإشارة والإلهام، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه . ودلال المرأة ودلها : رشاقتها ، وجمال حركتها ، وحسن هيئتها ، وأصله من دلت المرأة على زوجها ، إذا أرته جرأة عليه فى تكسر وتشكل ، كأنها تخالفه وما بها خلاف . والكهانة مصدر كهن له (كمنع ونصر وكرم) إذا قضى له بالغيب والمراد بالكهانة هنا : السحر ، أو عذوبة القول ، ولطف الحديث ، لأن الكاهن يستميل من يكهن له بكلام ساحر شديد التأثير .

(٣١) الملاحة : الحسن ، والجارية المليحة هى التى إذا كررت فيها بصرك زادتك حسناً ، وقيل الملاحة : عذوبة النفس ، والظرف واللطف ، وخفة الدم والظل . وتاهت تكبرت . وأغراه بالشىء : أولعه به ، وحفزه إليه .

وَأَعْجَبَها وَجْدِى بِها ، فَتَكَبَّرَتْ عَلَىَّ دَلالًا ، وَهْىَ تَصْدُرُ عَنْ أَمْرِى (٣٢)
فَتاةٌ يَجُولُ السِّحْرُ فى لَحَظاتِها مَجالَ الْمَنايا فى الْمُهَنَّدَةِ الْبُتْرِ (٣٣)
إِذا نَظَرَتْ ، أَوْ أَقْبَلَتْ ، أَوْتَهَلَّلَتْ فَوَيْلٌ لِمَهاةِ الرَّمْلِ ، والْغُصْنِ ، والْبَدْرِ (٣٤)
فَما زِلْنَ يُغْرِينَ الطِّلاَ بِعُقُولِنا إلى أَنْ سَقَطْنَا لِلْيَدَيْنِ ولِلنَّحْرِ (٣٥)
فَمِنْ واقِعٍ يَهْذِى ، وآخَرَ ذاهِلٍ لَهُ جَسَدٌ ما فيهِ رُوحٌ سِوَى الْخَمْرِ (٣٦)
صَرِيعٌ يَظُنُّ الشُّهْبَ مِنْهُ قَرِيبَةً فَيَسْدُو بِكَفَّيْهِ إلى مَطْلَعِ النَّسْرِ (٣٧)

(٣٢) الوجد : المحبّة . وتصدر : ترجع وتنصرف ، والواو هنا للحال . وتصدر عن أمره . تطيعه ولا تخالفه .

يقول إنها تحسّ بجمالها ، وبشغفه بها ، فتزهو عليه وتتكبّر وإن كانت فى كنفه ، وتجب عليها طاعته .

(٣٣) يجول : يطوف ويتردّد . واللحظات: جمع لحظة ، اسم مرة من لحظه (كنعه) ، ولحظ إليه لحظاً (بفتح فسكون) ولحظاناً (بفتحتين) إذا نظر إليه بمؤخر عينه . ومجال : مصدر ميمى بمعنى الجولان (بفتح الجيم والواو) وهو الطواف والدوران . والمنايا: جمع منيّة ، وهى الموت . والمهنّدة السيوف المطبوعة من حديد الهند ، وهى أجود السيوف ، يقال سيف هندوانى ومهنّد ، أو المهنّدة المشحوذة ، اسم مفعول من هنّد الصيقل السيف ، أى شحذه وأحدّه . والبتر : جمع أبتر ، أى نافذ قاطع .

والمعنى أن نظراتها فاتنة ساحرة جذّابة .

(٣٤) تهلّلت : تلألأ وجهها وأشرق . والمهاة : البقرة الوحشية ، تشبّه بها الحسناء فى جمال العيون واتساعها .

والمعنى أنها إذا نظرت كانت كالبقرة الوحشية ، جميلة العيون ، ساحرة النظر ، وإذا أقبلت كانت كالغصن متثنّية ، جميلة القدّ ، ليّنة الأعطاف ، وإذا أشرق وجهها وتلألأ ، كانت كالبدر باهرة الضياء ، تامّة البهاء .

(٣٥) أغراه بالشىء : أولعه به ، وحمله عليه ، وحفزه إليه ، والطلاء (بكسر الطاء): الخمر ، وقصرت هنا لضرورة وزن الشعر . والنحر : موضع القلادة من الصدر .

(٣٦) يهذى : يتكلّم بغير معقول . وذاهل: اسم فاعل من ذهل عن الشىء (كنع) ذهلا (بفتح فسكون) وذهولا (كقعود) إذا نسيه وغفل عنه .

(٣٧) صريع: مطروح على الأرض. والشهب (ككتب ، ويجوز تسكين عينه) : النجوم السبعة المعروفة بالدرارى، والمراد بها هنا : النجوم مطلقاً . وسدا بيده يسدو : مدّها . والنسر : كوكب معروف ، وهما اثنان ، يقال لأحدهما : النسر الطائر ، وللآخر النسر الواقع .

إِذَا مَا دَعَوْتَ الْمَرْءَ دَارَ بِلَحْظِهِ ... إِلَيْكَ ، وَغَشَّاهُ الذُّهُولُ عَنِ الْجَهْرِ (٣٨)

بَعِيدٌ عَنِ الدَّاعِي وَإِنْ كَانَ حَاضِرًا ... كَأَنَّ بِهِ بَعْضَ الْهَنَاتِ مِنَ الْوَقْرِ (٣٩)

تَحَكَّمَتِ الصَّهْبَاءُ فِيهِمْ ، فَغَيَّرَتْ ... شَمَائِلَ مَا يَأْتِي بِهِ الْجِدُّ بِالْهَذْرِ (٤٠)

فَيَا سَامَحَ اللهُ الشَّبَابَ وَإِنْ جَنَى ... عَلَيَّ ، وَحَيَّا عَهْدَهُ سَبَلُ الْقَطْرِ (٤١)

مَلَكْتُ بِهِ أَمْرِي، وَجَارَيْتُ صَبْوَتِي ... وَأَصْبَحْتُ مَرْهُوبَ الْحَمِيَّةِ وَالْكِبْرِ (٤٢)

إِذَا أَبْصَرُونِي فِي النَّدِيِّ تَحَاجَزُوا ... عَنِ الْقَوْلِ وَاسْتَغْنَوْا عَنِ الْعُرْفِ بِالنُّكْرِ (٤٣)

---

(٣٨) اللحظ : مصدر لحظه (كنعه) ولحظ إليه ، إذا نظر إليه بمؤخر عينه . ومعنى دار بلحظه إليك : نظر إليك نظرات حائرة . وغشّاه : غطّاه وغلبه. والذهول: الغفلة . والجهر: رفع الصوت بالكلام.

(٣٩) الهنات: جمع هنة ، وهى الشيء اليسير . والوقر : ثقل فى الأذن، أو ذهاب السمع كلّه . والمعنى كأنّ به شيئاً من الصمم .

(٤٠) الصهباء: الخمر ، أو المعصورة من عنب أبيض، وهو اسم لها كالعلم . والشمائل: جمع شمال (بكسر الشين) بمعنى الخُلق والطبع . والهذر : مصدر هذر فى منطقه (من بابى ضرب ونصر) إذا خلط وتكلم بما لا ينبغى ، والاسم الهذر (بفتح الهاء والذال) وهو الهذيان .

يقول إن الخمر قد سيطرت على عقولهم ، فبدّلتهم بصفات الجدّ هذياناً واختلاطاً .

(٤١) عهده: زمانه . والعهد أيضاً: المنزل المعهود به الشيء، كالمعهد. والسبل (بفتح السين والباء) المطر الغزير المسبل ، أى الذى أرسل دفعه وتكاثف ، كأنما أسبل ستراً، أى أرسله وأرخاه ، أو هى سبل جمع سبلة ، (كغرف جمع غرفة) ، والسبلة : المطرة الواسعة . والقطر : المطر .

(٤٢) به : فى زمن الشباب. والصبوة: جهلة الفتوة ، وانقياد الفتى لدواعى اللهو والمرح، وجريه فى سبل الغىّ والخيانة . ومرهوب : مهيب مخوف . والحميّة : الأنفة والاستكبار .

يبين فى هذا البيت سبب دعائه للشباب ، فيقول : إنّه كان مصدر قوّة ولذّة وهيبة .

(٤٣) الندىّ : مجلس القوم ، أو المجلس ما داموا مجتمعين فيه كالنادى والمنتدى . وتحاجزوا عن القول : منع بعضهم بعضاً . والعرف (هنا) ما يستحسن من كريم الآداب . والنكر : المنكر .

والمعنى أنه مهيب مخشىّ بأسه ، إذا أبصره الناس فى مجالسهم سكتوا عن الكلام اهتياباً وإجلالاً ، ولم يجرؤ واحد منهم أن يستنكر ما هو فيه من عبث ولهو .

وَقَالُوا فَتًى مَالَتْ بِهِ نَشْوَةُ الصِّبَا ... وَلَيْسَ عَلَى الْفِتْيَانِ فِى اللَّهْوِ مِنْ حَجْرِ (٤٤)

يَخَافُونَ مِنِّى أَنْ تَثُورَ حَمِيَّتِى ... فَيَبْغُونَ عَطْفِى بِالْخَدِيعَةِ وَالْمَكْرِ (٤٥)

أَلا لَيْتَ هَاتِيكَ اللَّيَالِى وَقَدْ مَضَتْ ... تَعُودُ ، وَذَاكَ الْعَيْشُ يَأْتِى عَلَى قَدْرِ (٤٦)

مَوَاسِمُ لَذَّاتٍ تَقَضَّتْ ، وَلَمْ يَزَلْ ... لَهَا أَثَرٌ يَطْوِى الْفُؤَادَ عَلَى أُثْرِ (٤٧)

إِذَا اعْتَوَرَتْهَا ذُكْرَةُ النَّفْسِ أَبْصَرَتْ ... لَهَا صُورَةً تَخْتَالُ فِى صَفْحَةِ الْفِكْرِ (٤٨)

فَذَلِكَ عَصْرٌ قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ ... وَخَلَّفَنِى أَرْعَى الْكَوَاكِبَ فِى عَصْرِ (٤٩)

لَعَمْرُكَ مَا فِى الدَّهْرِ أَطْيَبُ لَذَّةً ... مِنَ اللَّهْوِ فِى ظِلِّ الشَّبِيبَةِ وَالْيُسْرِ (٥٠)

---

(٤٤) النشوة : السكر (بضم فسكون) ، والمراد المرح والطرب . والصبا : الصغر والفتاء ، أو الميل إلى الجهل والفتوّة ، والانقياد لدواعى اللهو والمرح . والحجر المنع والكفّ (وبابه نصر) .

(٤٥) الحميّة : الأنفة والغضب . ويبغون : يطلبون .

(٤٦) القدر : الغنى واليسار ، والقوّة والقدرة ، أو القدر : التقدير ، ومعنى « يأتى على قدر » : على تقدير منى ، أو على موعد ، أو على حسب ما أهوى وأحبّ .

(٤٧) تقضّت : ذهبت وانقضت . والأثر (بفتحتين) : بقيّة الشىء ، وما بقى من رسمه . و الأُثر (بضم فسكون) : أثر الجراح يبقى بعد البرء .

(٤٨) اعتورتها : تداولتها ، والضمير يعود إلى مواسم اللذات فى البيت السابق . والذكرة : ضد النسيان . وتختال : تزهى وتفخر وتتكبّر ، من الاختيال ، وهو الكبر والإعجاب .

(٤٩) أرعى الكواكب : أراقبها وأنتظر مغيبها ، وهذا كناية عن الحيرة والحسرة . و « عصر » فى الشطر الأول بمعنى الزمان والدهر ، وفى الشطر الثانى بمعنى الحبس والمنع واليبس ، وهذه كلها من لوازم الشيخوخة والهرم ، وقد تكون « عصر » الأخيرة بمعنى الأولى .

فهو يقول متحسّراً : إن زمن الشبيبة قد مضى ، وتركنى أرعى النجوم فى زمن آخر ، هو زمن الشيب والهرم .

(٥٠) الشبيبة : حداثة السنّ قبل الكهولة ، كالشباب ، وهما خلاف الشيب .

وقال* :

بِناظِرِكَ الْفَتَّانِ آمَنْتُ بِالسِّحْرِ ... وَهَلْ بَعْدَ إِيمانِ الصَّبابَةِ مِنْ كُفْرِ؟[١]

فَلا تَعْتَمِدْ بِالْهَجْرِ قَتْلَ مُتَيَّمٍ ... فَإِنَّ الْمَنَايَا لا تَزِيدُ عَنِ الْهَجْرِ[٢]

فَلَوْلاكَ مَا حَلَّ الْهَوَى قَيْدَ مَدْمَعِي ... وَلا شَبَّ نِيرَانَ اللَّوَاعِجِ فِي صَدْرِي[٣]

وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ لَصَابِرٌ ... لِعِلْمِيَ أَنَّ الْفَوْزَ مِنْ ثَمَرِ الصَّبْرِ[٤]

فَلَيْتَ الَّذِي أَهْدَى الْمَلامَةَ فِي الْهَوَى ... تَوَسَّمَ خَيْرًا ، أَوْ تَكَلَّمَ عَنْ خُبْرِ[٥]

رَأَى كَلَفِي لا يَسْتَفِيقُ ، فَظَنَّ بِي ... هَنَاتٍ ، وَسُوءُ الظَّنِّ داعِيَةُ الْوِزْرِ[٦]

---

* هذه القصيدة من السرنديبيات اللامعة الممتعة ؛ نظمها البارودى وهو أشيب ، فى السابعة والخمسين ، أى فى نحو سنة ١٨٩٦ ، وقد أضاء له الشيب سبل الحياة ، وبدّد من حوله الظلمات ، ووقاه الضلالات ، ووسّعت له سنّه دائرة المعارف والتجارب ؛ فاهتدى إلى ما لم يهتد إليه غيره .

(١) الفتّان : صيغة مبالغة من فتنت المرأة الرجل إذا دلّهته واستمالته وأعجبته . والصبابة : رقّة الهوى، وحرارة الشوق . والاستفهام فى الشطر الثانى معناه النفى .

(٢) تعتمد : تتعمّد وتقصد، عمده واعتمده وتعمّده بمعنى . ومتيّم : اسم مفعول من تيّمه العشق، أى عبّده وذلّله . والمنايا : جمع منيّة ، وهى الموت .

(٣) الهوى : الحب والغرام . والمدمع : الدمع . وحلّ قيد مدمعه : كناية عن صبّه وإسالته . وشبّ النار : أذكاها وأوقدها ، وشبّت النار : ذكت وتوقّدت ، فالفعل لازم متعدّ . واللواعج : جمع لاعج ، صفة من لعجه الهمّ والحبّ ونحوهما ، أى أحرقه وآلمه ، (وبابه منع) ، وبه لاعج الشوق ولواعجه ، أى حرقه وتباريحه .

(٥) توسّم الشىء : تخيّله وتفرّسه . والخبر : العلم والمعرفة .

يتمنّى أن يكون الذى فنّده ولامه على حبّه ممن يظنون بالناس خيراً ، ولا يتكلّمون إلا عن علم ويقين . ومعنى هذا أنّ لائمه كان فى لومه وتفنيده باغياً آثماً ، سيّئ الظنّ ، خاطئ الحكم . وسيصرّح بشىء من هذا فى البيت الآتى .

(٦) الكلف : العشق والولوع والغرام . ولا يستفيق : لا يهدأ ولا يغادر ، والأصل : استفاق الرجل من مرضه ، ومن سكره ، إذا أفاق وصحا . وهنات : خصال سوء ، يقال : فيه هنات (بفتح الهاء) ، وهنوات (كسنوات) ، جمع هَنَة (كسَنَة) ، وهُنَيّات ، جمع هُنَيَّة . والوزر : الإثم والذنب .

وَمَاذَا عَلَيْهِ وَهْوَ خَالٍ مِنَ الْجَوَى ... إِذَا هِمْتُ شَوْقاً ، أَوْ تَرَنَّمْتُ بِالشِّعْرِ ؟(٧)

فَإِنْ أَكُ مَشْغُوفًا فَذُو الْحِلْمِ رُبَّمَا ... أَطَاعَ الْهَوَى ، وَالْحُبُّ مِنْ عُقَدِ السِّحْرِ (٨)

وَأَيُّ امْرِئٍ يَقْوَى عَلَى رَدِّ لَوْعَةٍ ... إِذَا الْتَهَبَتْ أَرْبَتْ عَلَى وَهَجِ الْجَمْرِ ؟(٩)

عَلَى أَنَّنِي لَمْ آتِ فِي الْحُبِّ زَلَّةً ... تَغُضُّ بِذِكْرِي فِي الْمَحَافِلِ أَوْ تُزْرِي(١٠)

وَلَكِنَّنِي طَوَّفْتُ فِي عَالَمِ الصِّبَا ... وَعُدْتُ وَلَمْ تَعْلَقْ بِفَاضِحَةٍ أُزْرِي(١١)

(٧) الجوى هوى باطن ، والحرقة ، وشدّة الوجد ، وتبريح الغرام . وهام يهيم هيما (بفتح فسكون) وهياناً (بفتحتين) أحبّ ، أو صار كالمجنون من العشق . وترنّم تغنّى وطرّب .

(٨) مشغوفاً مستهاماً عاشقاً ، وأصله اسم مفعول من شغفه الحبّ ، أى أصاب شغافه (بفتح الشين) وهو غشاء القلب وغلافه. والحلم : الأناة والعقل . والهوى : العشق . والعقد (بضم ففتح) : جمع عقدة (بضم فسكون) وهى موضع العقد (بفتح فسكون) ، وأصله أن السحرة يعقدون عقداً يزعمون أن فيها السحر ، ومن أجل هذا سمى الساحر معقّداً ، وقيل : أعوذ بالله من شرّ المعقّد .

والمعنى أن الحبّ كالسحر ، فهو من الأمور التى لا طاقة للإنسان بدفعها ، ولو كان راجح العقل ، سديد الرأى .

(٩) اللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حبّ أو همّ . وأربت : زادت . والوهج : اسم من وهجت النار (من باب وعد) تهج وهجاً (بفتح فسكون) ووهجاناً (بفتحتين) أى اتّقدت . والجمر : جمع جمرة وهى القطعة الملتهبة من النار .

(١٠) زلّة : خطأ ، وهى اسم مرّة من زلّ المرء فى منطقه أو فعله (من بابى ضرب وتعب) أى زلق وسقط وأخطأ . وغضّ منه : نقصه وعابه ووضع من قدره (وبابه ردّ) ، وهذا الفعل يتعدّى بمن لا بالباء . والذكر : الصيت والثناء والشرف . والمحافل : جمع محفل (كمجلس) وهو المجتمع ، اسم مكان من حفل القوم (من باب ضرب) أى اجتمعوا . وتزرى : مضارع زرى عليه فعله (من باب رمى) إذا عابه وعنّفه كأزرى ، وأزرى بأخيه : أدخل عليه عيباً ، وحقّره .

(١١) طوّف : أكثر التطواف . والصبا : الميل إلى الجهل والفتوّة . وعلق الشوك ونحوه بالثوب (من باب تعب) وتعلّق : نشب به واستمسك . والفاضحة : الفضيحة ، فضحه فافتضح ، أى كشف مساوبه ، (وبابه قطع) . والأزر (بضم فسكون) : جمع إزار ، وهو الثوب ، وكلّ ما ستّرك .

والمعنى أنه سلك طرق المرح واللهو ، وجرى فى أساليب الهوى والغرام ، ولكنه كان فى لهوه وهواه عفيفاً ، بعيداً عن العيب والنقص .

سَجِيَّةُ نَفْسٍ آثَرَتْ ما يَسُرُّهَا وَلِلنَّاسِ أَخْلاقٌ عَلى وَفْقِها تَجْرِى (١٢)
مَلَكْتُ يَدِى عَنْ كُلِّ سُوءٍ ومَنْطِقِى فَعِشْتُ بَرِىءَ النَّفْسِ مِنْ دَنَسِ الْعُذْرِ (١٣)
وأَحْسَنْتُ ظَنِّى بالصَّدِيقِ ، وَرُبَّمَا لَقِيتُ عَدُوِّى بِالطَّلاَقَةِ والْبِشْرِ (١٤)
فَأَصْبَحْتُ مَأْثُورَ الْخِلالِ مُحَبَّبًا إلى النَّاسِ ، مَرْضِىَّ السَّرِيرَةِ وَالْجَهْرِ (١٥)
فَمَا أَنَا مَطْلُوبٌ بِوَتْرٍ لِمَعْشَرٍ وَلا أَنَا مَلْهُوفُ الْجَنَانِ عَلى وَتْرِ (١٦)
رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وإنْ كُنْتُ مثْرِيًا بعِفَّةِ نَفْسٍ لا تَمِيلُ إلى الْوَفْرِ (١٧)
وَأَخْلَصْتُ لِلرَّحْمَنِ فِيمَا نَوَيْتُهُ فَعَامَلَنِى بِاللُّطْفِ مِنْ حَيْثُ لا أَدْرِى (١٨)
إذَا مَا أرادَ اللهُ خَيْرًا بِعَبْدِهِ هَدَاهُ بِنُورِ الْيُسْرِ فى ظُلْمَةِ الْعُسْرِ (١٩)
فَيابْنَ أَبِى (والنَّاسُ أَبْنَاءُ واحِدٍ) تَقَلَّدْ وَصَاتِى ، فَهْىَ لُؤْلُؤَةُ الْفِكْرِ (٢٠)

---

(١٢) السجيّة: الخُلُق والطبيعة . وآثرت: فضّلت وقدّمت . وعلى وفقها: على حسبها وموافقتها .

(١٣) الدنس (بفتحتين): القذر ، وأراد بدنس العذر: الاعتذار من العيب والقبائح التى تضع من قدر المرء ، وتدنّس عرضه .

(١٤) الطلاقة: مصدر طلق الوجه (من باب ظرف) ، ورجل طلق (بفتح فسكون) الوجه: فرح ظاهر البشر ، متهلّل بسّام .

(١٥) مأثور الخلال: خصاله محمودة ، وفضائله مشهورة ، يأثرها الناس ، أى ينقلونها ، ويتحدّثون بها . والسريرة: السرّ .

(١٦) الوتر (بفتح الواو وكسرها) . الذحل ، وهو الثأر (بفتح فسكون فيهما) . والمعشر: جماعة الناس . والملهوف: المتحيّر المضطرب .

والمعنى أنه مطمئنّ هادئ البال ، يسالم الناس ويسالمونه ، فلا هو مطلوب بترة تزعجه ، وتنغّص عليه عيشه ، ولا هو مطالب غيره بثأر يقضّ عليه مضجعه ، ويملأ قلبه ضغينة وحقداً وحيرة وهمّا .

(١٧) مثرياً: غنيًّا كثير المال . والوفر: المال الكثير .

(٢٠) يابن أبى: نداء لكلّ إنسان . والناس أبناء واحد: يريد أبناء رجل واحد ، وهو آدم عليه السلام . وتقلّد وصاتى: احرص على وصيّتى ، وانتفع بها ، من قولهم: تقلّد الإنسان القلادة ، أى جعلها فى عنقه ، وقلّدته السيف ، إذا ألقيت حمالته فى عنقه ، فتقلّده .

إذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيدًا فَلا تَكُنْ ... لَدُودًا ، وَلا تَدْفَعْ يَدَ اللِّينِ بِالْقَسْرِ (٢١)
وَلا تَحْتَقِرْ ذَا فَاقَةٍ ، فَلَرُبَّمَا ... لَقِيتَ بِهِ شَهْماً يُبِرُّ عَلَى الْمُثْرِى (٢٢)
فَرُبَّ فَقِيرٍ يَمْلأُ الْقَلْبَ حِكْمَةً ... وَرُبَّ غَنِيٍّ لا يَرِيشُ وَلا يَبْرِى (٢٣)
وَكُنْ وَسَطاً ، لا مُشْرَئِبًّا إلى السُّهَا ... وَلا قَانِعاً يَبْغِى التَّزَلُّفَ بِالصُّغْرِ (٢٤)
فَأَحْمَدُ أَخْلاقِ الْفَتَى مَا تَكَافَأَتْ ... بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْكِبْرِ (٢٥)
ولا تَعْتَرِفْ بِالذُّلِّ فِى طَلَبِ الْغِنَى ... فَإِنَّ الْغِنَى فِى الذُّلِّ شَرٌّ مِنَ الْفَقْرِ (٢٦)

---

(٢١) لدوداً : شديد الخصومة . والقسر : القهر والشدّة . ومعنى « لا تدفع يد اللين بالقسر » : لا تخاشن من يلاينك .

(٢٢) الفاقة : الفقر والحاجة . والشهم : السيد الذكىّ الفؤاد المتوقّد ، الجلد (بفتح فسكون) ذو المروءة . ويبر : مضارع أبرّ الرجل على خصمه ، أى غلبه وفاقه . والمثرى : الكثير المال . ومعنى « يبرّ على المثرى » : يغلبه فى الفضل والبرّ ، ويفوقه فى المروءة والخير .

(٢٣) لا يريش ولا يبرى : لا ينفع ولا يضرّ ، وأصله من راش النابل السهم يريشه ، إذا ألزق عليه الريش ، ومن المجاز راش فلان فلاناً ، أى قوّى جناحه بالإحسان إليه ، وراش الرجل غيره : أطعمه وسقاه وكساه ، وأصلح حاله ونفعه . وبرى السهم يبريه برياً : نحته . وبراه السفر : هزله . قال الشاعر :

فرشنى بخير ، طالما قد بريتنى ... فخير الموالى من يريش ولا يبرى

(٢٤) اشرأبّ إليه : مدّ عنقه لينظر ، أو رفع رأسه كهيئة الشارب . والسها : كوكب خفىّ ، من بنات نعش الصغرى ، يمتحن الناس به أبصارهم . والقانع : صفة من القنوع ، بمعنى الرضا بالقسم ، والمراد الرضا باليسير الدون . ويبغى : يطلب . والتزلّف : التقرّب . والصغر (بضم فسكون) : الذلّ والضيم والمهانة كالصغار .

يقول : كن وسطاً فى أمرك ، فلا تتطلّع إلى ما لا يدرك فيرديك الطمع ، كما لا ينبغى أن ترضى فى معيشتك باليسير الدون ، وتتقرّب إلى من فوقك بإذلال نفسك وامتهانها .

(٢٥) أحمد الأخلاق : أولاها بالحمد والشكر ، وأجدرها بالرضا والجزاء . وتكافأت : تساوت وتماثلت . ومعنى تكافؤ الأخلاق : أنها أصبحت بمكان متوسّط بين التواضع والتكبّر .

(٢٦) تعترف : تصبر ، أو تقرّ .

والمعنى على الأول : لا تصبر على الحياة وأنت متّصف بالذلّ . وعلى الثانى : لا تقرّ لمخلوق إقراراً يفهم منه أنك ذليل . وفى طلب الغنى ، أى فى سبيل نيله .

وَإِيَّاكَ وَالتَّسْلِيمَ بِالْغَيْبِ قَبْلَ أَنْ ... تَرَى حُجَّةً تَجْلُو بِها غَامِضَ الأَمْرِ (٢٧)
ودارِ الَّذِى تَرْجُو وَتَخْشَى وِدَادَهُ ... وَكُنْ مِنْ مَوَدَّاتِ الْقُلُوبِ عَلَى حِذْرِ (٢٨)
فَقَدْ يَغْدِرُ الْخِلُّ الْوَفِىُّ لِهَفْوَةٍ ... وَيَحْلُو الرِّضَا بَعْدَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ (٢٩)
وفى النَّاسِ مَنْ تَلْقَاهُ فِى زِىِّ عَابِدٍ ... وَلِلْغَدْرِ فِى أَحْشَائِهِ عَقْرَبٌ تَسْرِى (٣٠)
إِذَا أَمْكَنَتْهُ فُرْصَةٌ نَزَعَتْ بِهِ ... إِلى الشَّرِّ أَخْلاقٌ نَبَتْنَ عَلى غِمْرِ (٣١)
وَلا تَحْسَبَنَّ الْحِلْمَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ ... وُقُوعَ الأَذَى، فَالْمَاءُ وَالنَّارُ مِنْ صَخْرِ (٣٢)
فَهذِى وَصَاتِى، فَاحْتَفِظْهَا تَفُزْ بِما ... تَمَنَّيْتَ مِنْ نَيْلِ السَّعَادَةِ فِى الدَّهْرِ (٣٣)
فَإِنِّى امْرُؤٌ جَرَّبْتُ دَهْرِى ، وَزَادَنِى ... بِهِ خِبْرَةً صَبْرِى عَلَى الْحُلْوِ والْمُرِّ (٣٤)

(٢٧) يقول : إذا غابت عنك حقيقة أمر ، فاحذر التسليم بها قبل أن تطيل النظر فيها، وتكشف بالحجّة غامضها ، وتظهر بالبرهان خافيها .

(٢٨) داريته مداراة : لاطفته ولاينته . والوداد : الحبّ والمودّة . والمودّات : جمع مودّة . والحذر (بكسر فسكون) : التحرّز والاحتراس كالحذر (بفتحتين) . ومفعول تخشى محذوف ، أى عداوته أو بأسه . أو المعنى : تخشى مغبّة وداده، وترى هذا الوداد منطوياً على الختل والخديعة ، وكأنما يدعو بالشطر الثانى إلى التفرقة بين أنواع المودّة ، وتمييز الخالص الصادق من المموّه الكاذب .

(٢٩) فى هذا البيت والذى قبله لفّ ونشر مرتّب، فالشطر الأول « فقد يغدر الخل . . . » يعود إلى الصديق الذى ترجو وداده وحبّه ، والشطر الثانى « ويحلو الرضا . . . » يعود إلى العدوّ الذى تخشى عداوته وبأسه .

(٣٠) الأحشاء: جمع حشا، وهو ما اجتمعت عليه الضلوع ، أو ما حواه البطن ، والمراد الضمير والقلب ، حيث يكون الضغن والعداوة . وتسرى : تسير .

(٣١) نزعتْ به : مالتْ وذهبتْ . والغمر : الحقد (وزناً ومعنى) .

(٣٢) الحلم : الأناة والعقل .

والمعنى : أنّ الحليم قد يكون منه الأذى على الرغم من التضادّ والاختلاف بين الحلم والأذى، كالحجر يورى النار ، ويتفجّر منه الماء ، على رغم ما بين النار والماء من تضادّ .

بَلَغْتُ مَدَى خَمْسِينَ ، وَازْدَدْتُ سَبْعَةً ... جَعَلْتُ بِهَا أَمْشِي عَلَى قَدَمِ الْخِضْرِ (٣٥)

فَكَيْفَ تَرَانِي الْيَوْمَ أَخْشَى ضَلالَةً ... وَشَيْبِيَ مِصْبَاحٌ عَلَى نُورِهِ أَسْرِي ؟ (٣٦)

أَقُولُ بِطَبْعٍ لَسْتُ أَحْتَاجُ بَعْدَهُ ... إِلى الْمَنْهَلِ الْمَطْرُوقِ ، وَالْمَنْهَجِ الْوَعْرِ (٣٧)

وَلِي مِنْ جَنَانِي – إِنْ عَزَمْتُ – وَمِقْوَلِي ... سِرَاجٌ وَعَضْبٌ ، ذَا يُضِيءُ ، وَذَا يَفْرِي (٣٨)

إِذَا جَاشَ طَبْعِي فَاضَ بِالدُّرِّ مَنْطِقِي ... وَلا عَجَبٌ ، فَالدُّرُّ يَنْشَأُ فِي الْبَحْرِ (٣٩)

تَدَبَّرْ مَقَالِي إِنْ جَهِلْتَ خَلِيقَتِي ... لِتَعْرِفَنِي ، فَالسَّيْفُ يُعْرَفُ بِالْأَثْرِ (٤٠)

وَلا تَعْجَبَنْ مِنْ مَنْطِقِي إِنْ تَأَرَّجَتْ ... بِهِ كُلُّ أَرْضٍ ، فَهْوَ رَيْحَانَةُ الْعَصْرِ (٤١)

سَيَذْكُرُنِي بِالشِّعْرِ مَنْ لَمْ يُلاقِنِي ... وَذِكْرُ الْفَتَى بَعْدَ الْمَمَاتِ مِنَ الْعُمْرِ (٤٢)

---

(٣٥) الخضر : صاحب موسى عليهما السلام . وقصّتهما فى القرآن مشهورة ، من قول الله تعالى : « فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ... » إلى قوله تعالى : « ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » ٦٥ – ٨٢ سورة الكهف . والشطر الثانى من هذا البيت كناية عن علمه ، واهتدائه إلى ما لم يهتد إليه غيره .

(٣٦) سرى يسرى (كجرى يجرى) سرى (بضم السين) : سار عامّة الليل .

والمعنى أنّ شيبه كسبه الحبر (بضم فسكون) والهداية ، وأنار له طريق الحياة .

(٣٧) المنهل : المورد ، وهو عين الماء التى يستقى منها ، وأصله اسم مكان من النهل (بفتحتين) وهو الشرب الأول (وبابه طرب) . والمطروق : الذى تطرقه الدوابّ والناس . والمنهج : الطريق . والوعر : الصعب (وزناً ومعنى) .

والمعنى أنه شاعر مطبوع مخترع ، لا ينسج على منوال غيره ، ولا يغترف من بحر سواه ، ولا يتكلّف القول تكلّفاً ، كمن يسير فى طريق وعر .

(٣٨) الجنان (بفتح الجيم) : القلب . والمقول : اللسان . والعضب : السيف القاطع . ويفرى : يقطع (وبابه رمى) ، وفى البيت لفّ ونشر مرتّب .

(٣٩) جاش طبعه : اهتزّ وتحرّك ، وأصله من جاشت القدر ، إذا غلت ، ومن المجاز : جاش البحر بالأمواج .

(٤٠) الخليقة : الطبيعة . والأثر (بفتح الهمزة وكسرها) : فرند السيف ورونقه وديباجته .

(٤١) تأرّجت : تعطّرت وتطيّبت ، وأصله من الأرج (بفتحتين) وهو توهّج ريح الطّيب ، أرج الطيب (كفرح) وتأرّج . والريحان : كلّ نبت طيّب الرائحة ، والريحانة : واحدته ، أو الطاقة منه .

(٤٢) معنى الشطر الأول : أنه مذكور بشعره ، خالد بخلوده ، نابه بأدبه ، معروف لمن لاقاه ، =

وقال * :

أَبَى الشَّوْقُ إِلَّا أَنْ يَحِنَّ ضَمِيرُ ... وَكُلُّ مَشُوقٍ بِالْحَنِينِ جَدِيرُ(١)
وَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ كِتْمانَ لَوْعَةٍ ... يَنِمُّ عَلَيْهَا مَدْمَعٌ وَزَفِيرُ ؟(٢)
خَضَعْتُ لِأَحْكَامِ الْهَوَى ، وَلَطَالَمَا ... أَبَيْتُ فَلَمْ يَحْكُمْ عَلَيَّ أَمِيرُ(٣)

= ولمن لم يلاقه . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكّد لهذا المعنى؛ فالذكر للإنسان عمر ثان ، والموت يطوى حياة الأحياء ، وتبقى للعظيم بعد مماته حياة أدبية خالدة ، مأثورة منشورة ، يتحدّث الناس بها ، ويفيدون منها ، ويذكرون صاحبها بالإطراء ، وحسن الثناء .

وفى ستة الأبيات الأخيرة (٣٧ — ٤٢) فخر صادق بمجده الأدبىّ ، وطبيعته الشاعرة المتفجّرة . ومثل هذا الفخر كثير جدًّا فى شعره .

(*) قصد أبو نواس من بغداد الخصيب بن عبد الحميد العجمىّ ، أمير مصر فى عصر هارون الرشيد ، فمدحه برائية مشهورة مطلعها :

أجارة بيتينا ، أبوك غيور ... وميسور ما يرجى لديك عسير

فعارضها البارودى بهذه القصيدة ، أى أتى بمثلها ، ونسج على منوالها فى وزنها ورويّها .

(١) يحنّ : ينزع ويميل ويهيم ويشتاق ، من الحنين ، وهو الشوق وتوقان النفس إلى لقاء من تحبّه وتهفو إليه . والضمير : السرّ ، والشىء الذى تضمره فى قلبك ، أى تخفيه ، والمراد بالضمير (هنا) : القلب . يقول إن اشتياقه إلى من يحب قد جعله مستهام الفؤاد ، فهو ينزع ويميل إلى محبوبه ، ويهفو قلبه فى إثره ، ولا غرو فكلّ مشوق حقيق بأن يحنّ إلى من شاقه . ومشوق : مشتاق ، وهو اسم مفعول من الشوق ، يقال : شاقنى الشىء (من باب قال) فالشىء شائق ، وأنا مشوق . وجدير : حقيق وخليق .

(٢) اللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حبّ أو همّ أو مرض أو نحو ذلك . وينمّ عليها : يدل عليها ويظهرها ، من قولهم : نمّت على المسك رائحته (وفعله كقتل وضرب) . والمدمع : مسيل الدمع ، أو هو مجتمع الدمع فى نواحى العين ، وجمعه المدامع ، وهى المآقى وأطراف العيون . والمراد بالمدمع هنا : الدمع . والزفير : إخراج النفس طويلا ممدوداً ، ويكون ذلك عادة إذا اشتدّت اللوعة ، وعظم الهمّ . ومن كلام العرب : رأيته يزفر زفرة الثكلى . والاستفهام فى أول البيت معناه النفى .

يقول : إن الإنسان لا يستطيع إخفاء حرقة فى قلبه يظهرها بكاؤه ودمعه ، وتدلّ عليها زفراته .

(٣) الهوى : الحبّ .

يقول : إنه خضع واستكان لأحكام الحبّ ، على الرغم من إبائه وعزّة نفسه ، وعدم انقياده حتى لمن ينقاد له الناس عادة كالأمراء والحكّام . وهذا المعنى كثير فى كلام الشعراء .

أَفُلُّ شَبَاةَ اللَّيْثِ وَهْوَ مُنَاجِزٌ ... وَأَرْهَبُ لَحْظَ الرِّئْمِ وَهْوَ غَرِيرُ (٤)

وَيَجْزَعُ قَلْبِى لِلصُّدُودِ ، وَإِنَّنِى ... لَدَى الْبَأْسِ إِنْ طَاشَ الْكَمِىُّ صَبُورُ (٥)

وَمَا كُلُّ مَنْ خَافَ الْعُيُونَ يَرَاعَةٌ ... وَلا كُلُّ مَنْ خَاضَ الْحُتُوفَ جَسُورُ (٦)

وَلَكِنْ لِأَحْكَامِ الْهَوَى جَبَرِيَّةٌ ... تَبُوخُ لَهَا الْأَنْفَاسُ وَهْىَ تَفُورُ (٧)

---

(٤) فلّ الشيء : كسره (وبابه ردّ) . وشباة كلّ شيء : حدّه ، وفلّ شباته: قهره وغلبه. والليث : الأسد . ومناجز : اسم فاعل من المناجزة ، وهى المقاتلة . واللحظ : النظر ، وأصله النظر بمؤخر العين ، مصدر لحظه (كنعه) ولحظ إليه . والرئم : الظبى الخالص البياض ، تشبّه به النساء الملاح فى الرشاقة وجمال الجيد والعينين . والمراد بالغرير (هنا) : الهادئ الوديع ، من قولهم : شابّ غرير ، لمن لا تجربة له ، وعيش غرير ، أى رخىّ لا يفزع أهله .

يقول : إنه قوىّ شجاع شديد البأس ، يقهر الليث وهو يصارعه ويقاتله ، غير أنه لا يقوى على مغالبة سلطان الحبّ ، فهو يخشى نظرات الحبيب على الرغم من هدوئه ورقّته ووداعته .

(٥) الجزع : نقيض الصبر ، جزع (من باب تعب) إذا ضعفت منّته ، أى قوّته عن حمل ما نزل به ، ولم يجد صبراً . والصدود : الهجران والإعراض . والبأس: الشدّة فى الحرب . وطاش : ضعف وجبن وفرّ ، والطيش فى الأصل : النزق والخفّة ، وذهاب العقل ، وانحراف السهم عن الهدف . والكمىّ : الشجاع المتكمّى فى سلاحه ، أى المتغطّى المتستّر به .

(٦) يريد بالعيون : عيون الحسان ، وما فيها من سحر وفتنة وجمال . ويراعة : جبان . والحتوف : جمع حتف ، وهو الموت والهلاك . والجسور : الشجاع المقدام .

يريد أنه — وإن ضعف عن احتمال قوّة الهوى وتأثيره — ليس بجبان ، وأنه إذا خاض الحروب كان أشجع الشجعان إذا خام غيره وجبن ، إذ ليس كلّ من يلاقى الحروب يستطيع الصبر عليها وهو فى البيتين السابقين يلمح قول الشاعر :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ ... ـل على أننا نذيب الحديدا

وترانا لدى الكريهة أحرا ... راً ، وفى السلم للحسان عبيدا

(٧) جبريّة (بفتح الجيم والباء ، أو بكسرهما ، أو بكسر فسكون ، أو بفتح فسكون) : شدّة وقوة وعظمة وجبروت . وتبوخ : تسكن ، مضارع باخت النار ، أى سكنت وهمدت وطفئت . وهى تفور : أى وهى فى شدّتها .

يقول : إن العاشق قد تفور نفسه غيظاً مما يلاقى من هجر المحبوب وإدلاله ، غير أنّ سلطان الحبّ وقوّته تهدئ هذه الثورة ، فيستسلم لأحكام الغرام .

وَإِنِّى عَلَى مَا كَانَ مِنْ سَرَفِ الْهَوَى لَذُو تُدْرَإٍ فى النَّائِبَاتِ مُغِيرُ(٨)
يُرَافِقُنِى عِنْدَ الْخُطُوبِ إِذَا عَرَتْ جَوَادٌ ، وَسَيْفٌ صارِمٌ ، وَجَفِيرُ(٩)
وَيَصْحَبُنِى يَوْمَ الْخَلَاعَةِ وَالصِّبَا نَدِيمٌ ، وَكَأْس رَيَّةٌ ، وَمُدِيرُ(١٠)
فَطَوْرًا لِفُرْسَانِ الصَّبَاحِ مُطَارِدٌ وَطَوْرًا لِإِخْوَانِ الصَّفَاءِ سَمِيرُ(١١)
وَيَا رُبَّ حَىٍّ قَدْ صَبَحْتُ بِغارَةٍ تَكادُ لَهَا شُمُّ الْجِبَالِ تَمُورُ(١٢)

---

(٨) سرف الهوى : شدة الحب وضرواته . ورجل ذو تدرأ وذو تدرأة (بضم فسكون ففتح فيهما) : مدافع ، ذو عزّ ومنعة وقوّة ، ، والعرب تقول: فلان ذو تدرأ ، إذا كان قويّاً على دفع أعدائه . ومغير : اسم فاعل من أغار الرجل على عدوّه إغارة ، أى دفع عليهم الخيل ، وأغار الفرس : اشتدّ عدوه ، والمراد بالإغارة هنا النجدة ، والهجوم على العدوّ .

(٩) عرت : نزلت وغشيت ، عراه كذا (من باب عدا) أى غشيه وأصابه . وصارم : قاطع . والجفير : الجعبة (بفتح فسكون) ، وهى كنانة النشّاب ، أى النبل والسهام ، وتكون عادة من الجلد ، وقد تصنع من خشب لا جلود فيها .

(١٠) الخلاعة : المجانة وعدم المبالاة ، والانهماك فى اللهو والمرح . والصبا : الميل إلى الجهل والفتوّة ، والجرى فى أساليب الهوى والخلاعة . والنديم : المنادم ، فعيل بمعنى مفاعل ، من نادمه منادمة ونداماً ، إذا جالسه على الشراب . وكأس ريّة : مملوءة ، أو كثيرة الشراب ، من قولهم : هذه عين ريّة ، أى كثيرة الماء . ويريد بالمدير : الساقى الذى يدير كئوس الشراب على الندماء والشاربين .

(١١) الفرسان : جمع فارس ، وهو راكب الفرس ونحوه . ومطاردة الأقران : أن يحمل بعضهم على بعض فى القتال ، يقال : هم فرسان الطراد ، أى القتال والنزال . والسمير : المسامر ، فعيل بمعنى مفاعل ، من المسامرة ، وهى الحديث بالليل .

يريد أنه قد يجمع بين جدّ الحرب ولهو الشباب ، وخصّ المطاردة بالصباح لأنه وقت الإغارة عند العرب عادة .

(١٢) الحىّ : القبيلة من قبائل العرب ، أو هو البطن من بطونهم ، ويقال أنساب العرب ست مراتب : أكبرها الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن أو الحى ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . وصبحهم (كمنعهم) أتاهم صباحاً . والغارة : الهجوم ، اسم من أغار على القوم إغارة ، أى دفع عليهم الخيل . وشمّ الجبال : الجبال المرتفعة العالية ، يقال : جبل أشمّ أى طويل شاهق ، وجبال شمّ . وتمور : تتحرّك وتهتزّ .

وَلَيْلٍ جَمَعْتُ اللَّهْوَ فِيهِ بِغَادَةٍ ... لَهَا نَظْرَةٌ تُسْدِى الْهَوَى وَتُنِيرُ (١٣)
عَقَلْنَا بِهِ مَا نَدَّ مِنْ كُلِّ صَبْوَةٍ ... وَطِرْنَا مَعَ اللَّذَّاتِ حَيْثُ تَطِيرُ (١٤)
وَقُلْنَا لِساقِينَا أَدِرْهَا ، فَإِنَّمَا ... بَقَاءُ الْفَتَى بَعْدَ الشَّبابِ يَسِيرُ (١٥)
فَطَافَ بِها شَمْسِيَّةً ذَهَبِيَّةً ... لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِجالِ ثُئُورُ (١٦)
إِذَا مَا شَرِبْنَاهَا أَقَمْنَا مَكانَنَا ... وَظَلَّتْ بِنَا الْأَرْضُ الْفَضَاءُ تَدُورُ (١٧)
إِلى أَنْ أَمَاطَ اللَّيْلُ ثِنْىَ لِثامِهِ ... وَكادَتْ أَسَارِيرُ الصَّبَاحِ تُنِيرُ (١٨)

(١٣) الغادة : المرأة الناعمة المتثنية اللينة الأعطاف. وتسدى : مضارع أسدى النسّاج الثوب ، أى أقام سداه ، وهو ما يمدّ منه طولا فى النسج ، وهو خلاف لحمته . والهوى : الحبّ . وتنير : مضارع أنار الثوب ، كناره ونيّره ، أى جعل له نيراً (بكسر النون وسكون الياء) وهو لحمة الثوب (بضم اللام وفتحها) أى ما ينسج منه عرضاً ، والنير أيضاً : علم (بفتحتين) الثوب وهدبه (بضم فسكون) . وتسدى الهوى وتنير : توجده ، وتحكم أسبابه .

ومعنى الشطر الثانى : أن نظراتها ساحرة فاتنة ، يراها الإنسان ، فيقع فى شرك الحبّ ، وحبائل الغرام .

(١٤) عقلنا : قيدّنا ، وأصله منعقلت البعير (من باب ضرب) أىثنيت وظيفه مع ذراعه ، وشدتّهما جميعاً فى وسط الذراع بحبل ، ويسمى هذا الحبل عقالا . وبه : أى بالليل . وندّ : نفر وشرد ، وذهب على وجهه : والصبوة ، جهلة الفتوّة ، واتباع الهوى .

والمعنى أنهم جمعوا فى هذا الليل كلّ أسباب الهوى واللهو ، وجروا فى مجال اللذّات والشهوات ، واستمتعوا بمرح الفتوّة ، ودواعى الشباب .

(١٥) أدرها : أى الخمر . ويسير : قليل .

(١٦) شمسية ذهبية : كالشمس والذهب فى اللون والصفاء والإشراق . والألباب : جمع لبّ ، وهو العقل . وثئور : جمع ثأر .

والمعنى أنها تذهب بعقول الرجال ، كأنّ لها ثأراً عندها ، فهى تدرك بذلك ثأرها .

(١٧) يصف فى هذا البيت ما يصيب الشارب من الخمار والدوار .

(١٨) أماط : كشف ونحّى . والثنى : واحد أثناء الثوب ونحوه ، وهى تضاعيفه وأطواقه ، يقال: دسّه فى ثنى ثوبه ، وكلّ شىء ثنى بعضه على بعض أطواقاً ، فكلّ طاق من ذلك ثنى (بكسر فسكون) . واللثام (بكسر اللام) : ما يكون على الفم من النقاب ، والشطر الأول كناية عن ذهاب الليل وانكشاف ظلمته . والأسارير : محاسن الوجه .

وَنَبَّهَنَا وَقْعُ النَّدَى فِى خَمِيلَةٍ ... لَهَا مِنْ نُجُومِ الْأُقْحُوَانِ ثُغُورُ (١٩)

تَنَاغَتْ بِها الْأَطْيَارُ حِينَ بَدَا لَهَا ... مِنَ الْفَجْرِ خَيْطٌ كَالْحُسامِ طَرِيرُ (٢٠)

فَهُنَّ إِلى ضَوْءِ الصَّباحِ نَوَاظِرٌ ... وَعَنْ سُدْفَةِ اللَّيْلِ الْمُجَنَّحِ زُورُ (٢١)

خَوَارِجُ مِنْ أَيْكٍ، دَوَاخِلُ غَيْرِهِ ... زَهَاهُنَّ ظِلٌّ سَابِغٌ وَغَدِيرُ (٢٢)

تَوَسَّدُ هَامَاتٌ لَهُنَّ وَسَائِدًا ... مِن الرِّيشِ فِيهِ طَائِلٌ وَشَكِيرُ (٢٣)

---

(١٩) الندى : مطر ضعيف ، وقطرات ماء تسقط آخر الليل . والخميلة : الشجر الكثير الملتفّ ، والموضع الكثير الشجر . والأقحوان (بضم الهمزة والحاء) : البابونج ، وهو نبت طيب الرائحة ، حواليه ورق أبيض ، ووسطه أصفر ، وأوراق زهره صغيرة مفلّجة تشبّه بها الأسنان . والثغور : جمع ثغر ، وهو الفم ، أو مقدّم الأسنان .

والمعنى أنهم باتوا غارقين فى الهوى واللّذّة والشراب ، لاهين بدواعى الصبوة وجهلة الفتوّة والشباب حتى نبّههم على إدبار الليل ومطلع الصبح تساقط قطرات الندى فى خميلة لها ثغور من زهر الأقحوان الشبيه بالنجوم .

(٢٠) تناغت : المراد صدحت وتجاوبت وتبارت ، والذى فى اللسان وغيره : ناغت المرأة ولدها ، إذا كلّمته بما يعجبه ويسرّه . وبدا : ظهر . والحسام : السيف القاطع . وطرير : جميل ذو منظر ورواء .

(٢١) سدفة الليل (بفتح السين وضمها) : ظلمته . والمجنّح : ذو الجناح ، على تشبيه الليل بالطائر الأسود . وهو من قول العرب : قدّم فلان إلينا ثريدة لها جناحان من عراق ، ومجنحة بالعراق . انظر أساس البلاغة لأبى القاسم الزمخشرى ، مادة « جنح » . وزور : مائلات عن ظلمة الليل ، جمع أزور ، أو جمع زوراء ، وفى رواية أخرى « صور » (بضم الصاد وسكون الواو) جمع أصور ، أو صوراء ، وهما صفتان من صور (كفرح) أى مال .

(٢٢) الأيك : الشجر الكثير الملتفّ ، الواحدة أيكة . وزهاهنّ : دعاهنّ إلى الزهو وهو الإعجاب والتيه والفخر ، وأصله من زهت الريح النبات إذا هزّته ، والمراد أمرحهن . وسابغ : ممدود متّسع طويل ظليل . والغدير : القطعة من الماء يغادرها السيل ، أى يتركها .

(٢٣) توسّد : أصلها تتوسّد ، وحذفت إحدى التاوين تخفيفاً ، وتوسّد النائم الوسادة : اتّكأ عليها ونام . والوسائد : جمع وسادة ، وهى المتكأ والمخدّة . وهامات : جمع هامة ، وهى الرأس . والمراد بالطائل : الطويل ، أو الكبير ، وهو اسم فاعل من طاولنى فطاولته (من باب نصر) ، أى فقته فى الطول . والشكير من الريش : صغاره بين كباره .

كَأَنَّ عَلى أَعْطَافِها مِنْ حَبِيكِها تَمَائِمَ لَمْ تُعْقَدْ لَهُنَّ سُيُورُ(٢٤)

إِذَا ضَاحَكَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ ، كَأَنَّما عَلى صَفْحَتَيْهَا سُنْدُسٌ وَحَرِيرُ(٢٥)

فَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ وَلَّى ، وَأَقْبَلَتْ طَلائِعُ مِنْ خَيْلِ الصَّبَاحِ تُغِيرُ(٢٦)

ذَهَبْتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ تِيهاً ، وإِنَّمَا يَتِيهُ الْفَتَى إِنْ عَفَّ وَهْوَ قَدِيرُ(٢٧)

وَلِى شِيمَةٌ تَأْبَى الدَّنَايَا ، وَعَزْمَةٌ تَفُلُّ شَباةَ الْخَطْبِ وَهْوَ عَسِيرُ(٢٨)

---

(٢٤) الأعطاف : الجوانب . والحبيك : المحبوك، وهو ما أحكم نسجه ، ويراد به هنا : ريش الأعطاف والجناحين ، على تشبيهه بالثوب . والتمائم : جمع تميمة ، وهى عوذة (بضم العين وسكون الواو وفتح الذال) تعلّق على الصبىّ ، يعوّذ بها من العين والفزع ونحوهما . والسيور : جمع سير ، وهو ما يقدّ من الجلد ونحوه ، وتربط به التمائم ونحوها .

يشبّه ما على أجنحة هذه الطيور من ريش يخالف لونها بتمائم لم تشدّ بسيور .

(٢٥) ضاحكتها الشمس: طلعت عليها وقت الصباح بنورها وبريقها . ورفّت: حرّكت أجنحتها. وصفحتاها : جانباها . والسندس : ما رقّ من الديباج ، وهو الحرير الخالص .

يشير إلى ابتهاج الطير بالصباح ، وإلى أنّ ما ترسله الشمس من أشعة على أجنحتها عند طيرانها يحدث بريقاً كبريق الحرير . أو البيت فى وصف الحميلة عند الشروق .

(٢٦) ولّى : ذهب وأدبر . والطلائع : جمع طليعة ، وهو من يبعث فى مقدّمة الجيش ليطّلع طلْع العدوّ للواحد والجميع . وأغارت الخيل : اشتدّ عدوها فى الغارة ، وهى الهجوم على العدوّ .

(٢٧) التيه : الكبر (بكسر فسكون) والزهو والفخر ، تاه يتيه تيهاً . وعف : كفّ عما لا يحلّ ولا يجمل .

يقول إنّ الذى يعفّ عن المحرّمات وهو قادر على غشيانها جدير بأن يجرّ ذيله تيهاً وفخراً ، لأنه كبح جماح نفسه ، وانتصر على هواه .

(٢٨) الشيمة: الغريزة والطبيعة والجبلّة والخلُق . والدنايا: النقائص والعيوب . وتفلّ : تكسر ، (وبابه ردّ) . وشباة الخطب (بفتح الشين) : شدّته ، وشباة كلّ شىء : حدّه . والخطب : النازلة الشديدة من نوازل الدهر . وعسير : صعب شديد .

مُعَوَّدَةٌ أَلَّا تَكُفَّ عِنَانَهَا عَنِ الْجِدِّ إِلَّا أَنْ تَتِمَّ أُمُورُ(٢٩)
لَهَا مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ أُذْنٌ سَمِيعَةٌ وَعَيْنٌ تَرَى مالا يَرَاهُ بَصِيرُ(٣٠)
وإِنِّى امْرُؤٌ صَعْبُ الشَّكِيمَةِ بالِغٌ بِنَفْسِى شَأْوًا لَيْسَ فِيهِ نَكِيرُ(٣١)
وَفَيْتُ بِما ظَنَّ الْكِرامُ فِراسَةً بِأَمْرِى ، وَمِثْلِى بِالْوَفاءِ جَدِيرُ(٣٢)
فَمَا أَنَا عَمَّا يُكْسِبُ الْعِزَّ ناكِبٌ وَلا عِنْدَ وَقْعِ الْمُحْفِظَاتِ حَسِيرُ(٣٣)
إِذَا صُلْتُ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ غُلَوائِهِ وَإِنْ قُلْتُ غَصَّتْ بِالْقُلُوبِ صُدُورُ(٣٤)

(٢٩) العنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة .

وصف عزمته ، أى إرادته فى البيت السابق بالقوّة والصلابة ، والتغلّب على حوادث الدهر ونكباته ، وهو فى هذا البيت يصفها بالمثابرة والاجتهاد حتّى تدرك الغاية ، ويتمّ المراد ، وتنكير كلمة « أمور » هنا له مرمًى بلاغىّ بعيد .

(٣٠) المعنى أنه حادّ الحواسّ ، صائب الرأى ، صادق النظر فى الأمور .

(٣١) الشكيمة : الطبع ، وصعب الشكيمة : شديد النفس أنف (بفتح فكسر) أبىّ لا ينقاد . والشأو : الغاية والأمد . والنكير : الإنكار والجهل ، نكر فلان الأمر (كفرح) نكوراً ونكيراً ، وأنكره واستنكره وتناكره ، إذا جهله . ومعنى « ليس فيه نكير » : أنه شأو رفيع عظيم ، لا ينكر ولا يجهل .

يفخر بشدّة شكيمته ، وعزّة نفسه ، وعظم بأسه ، وأنفته وإبائه ، وبعد همّته فى الحياة .

(٣٢) الفراسة : اسم من قولك تفرّست فيه الخير ، إذا تعرّفته بالظنّ الصائب . والأمر : الشأن والحال . وجدير : حقيق وخليق .

يفخر بأنه حقّق ماتفرسّه الكرام فيه من الكرم والخير ، وأنه جرى على أساليبهم ، ووفى بظنّهم ، ومثله جدير بالوفاء .

(٣٣) ناكب : منحرف ومائل ، اسم فاعل من نكب عنه (كنصر وفرح) أى عدل . والمحفظات : جمع محفظة ، اسم فاعل من أحفظه ، إذا أغضبه ، والمراد العدوان ، والأمور التى تثير الغضب . وحسير : عاجز ضعيف .

يقول : إنه لا يحيد ، ولا ينحرف عن كل ما يكسبه العزّ والمجد والعلاء ، وإنه لا يضعف ، ولا يعجز عن دفع العدوان ، وردّ الشر .

(٣٤) صال : سطا ووثب للقتال ، واستطال وقهر وبطش . والغلواء : الغلوّ ، أى الشدّة ومجاوزة الحدّ . وغصّت : أصيبت بالغصّة ، وهى ألم يعترى الآكل والشارب عند البلع .

يتمدّح بالشجاعة والإقدام ، ثم بالبلاغة وحسن البيان ، حتّى إنه إذا قال كبت حاسديه ، فغصّت صدورهم حقداً وكمداً .

مَلَكْتُ مَقَالِيدَ الْكَلامِ ، وَحِكْمَةً ... لَهَا كَوْكَبٌ فَخْمُ الضِّيَاءِ مُنِيرُ(٣٥)
فَلَوْ كُنْتُ فِى عَصْرِ الْكَلامِ الَّذِى انْقَضَى ... لَبَاءَ بِفَضْلِى «جَرْوَلٌ» و«جَرِيرُ»(٣٦)
وَلَوْ كُنْتُ أَدْرَكْتُ النُّوَاسِىَّ لَمْ يَقُلْ ... (أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ)(٣٧)
وَمَا ضَرَّنِى أَنِّى تَأَخَّرْتُ عَنْهُمُ ... وَفَضْلِىَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ شَهِيرُ(٣٨)
فَيَا رُبَّمَا أَخْلَى مِنَ السَّبْقِ أَوَّلٌ ... وَبَذَّ الْجِيَادَ السَّابِقَاتِ أَخِيرُ(٣٩)

---

(٣٥) مقاليد الكلام : مفاتيحه ، واحدها مقلاد (كمفتاح) وزناً ومعنى . وملك مقاليد الكلام: تمكّن من أسباب البيان ، واستطاع التصرّف فى فنون القول . والحكمة: قول وجيز رائع يتضمّن حكماً صحيحاً مسلّماً ، وتكون نثراً ، كما تكون نظماً . وفخم : عظيم .

والمعنى أنّ حكمه بالغة واضحة كالكوكب الدرىّ ، تضىء للناس ظلمات الحياة .

(٣٦) باء بفضلى : أقرّ به واعترف . وجرول : لقب الحطيئة، وهو شاعر مشهور مخضرم ، أجاد فى كلّ ضرب من ضروب الشعر ، ولا سيما الهجاء والمديح ، ومات سنة ٥٩ هـ . وجرير بن عطيّة ابن الخطفى : شاعر واسع الشهرة ، عظيم الصيت ، من بنى يربوع ، أحد أحياء قبيلة تميم ، ولد باليمامة ، ونشأ بالبادية ، ومدح عبد الملك بن مروان بدمشق ، وكانت بينه وبين الفرزدق والأخطل مهاجاة طويلة مشهورة ، لم يطفأْ نارها غير الموت ، ومات جرير باليمامة سنة ١١٠ هـ .

والمعنى أنه لو تقدّم به الزمان ، فأدرك الحطيئة وجريراً وأمثالهما من فحول الشعراء لأقرّوا بنبوغه وتفوّقه ، واعترفوا بفضله عليهم .

(٣٧) يريد بالنواسى : أبا نواس الحسن بن هانئ ، الشاعر المتفنّن ، الجادّ الماجن، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعد بشّار ، وهو فارسىّ الأصل ، ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ ، ومات ببغداد سنة ١٩٩ هـ ، ومدح الرشيد وابنه محمداً الأمين ، وكان يقصد بعض عمّال الولايات ويمدحهم . والشطر الثانى من هذا البيت مطلع قصيدة أبى نواس فى مدح الخصيب أمير مصر فى عهد الرشيد ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

والمعنى أنه لو أدرك النواسىّ لفاقهُ وأخمله ، وكفّه عن القول .

(٣٨) عنهم: عن متقدّمى الشعراء ، أمثال الحطيئة وجرير وأبى نواس . وشهير : مشهور معروف .

(٣٩) أخلى : خلا . وبذّ : غلب وسبق (وبابه ردّ) . والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس الرائع السبّاق .

ورواية الوسيلة الأدبية لهذه القصيدة * :

تَلاهَيْتُ إلَّا ما يُجِنُّ ضَمِيرُ وَدَارَيْتُ إلَّا مَا يَنِمُّ زَفِيرُ(١)
وَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ كِتْمَانَ أَمْرِهِ وَفِى الصَّدْرِ مِنْهُ بَارِحٌ وَسَعِيرُ ؟(٢)
فَيَا قَاتَلَ اللهُ الْهَوَى ، مَا أَشَدَّهُ عَلَى الْمَرْءِ إِذْ يَخْلُو بِهِ فَيُغِيرُ !(٣)
تَلِينُ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَهْىَ أَبِيَّةٌ وَيَجْزَعُ مِنْهُ الْقَلْبُ وَهْوَ صَبُورُ(٤)

* انظر الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى : ج ٢ . ص ٤٧٧ - ٤٧٩ طبعة سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) - تجد بين روايتها وما جاء فى أصل الديوان اختلافاً كبيراً فى أكثر الأبيات .

وفى الوسيلة الأدبية أربعة أبيات زائدة لم ترد فى أصل الديوان . وقد شرحنا كلّ ما انفردت الوسيلة بروايته ، وخالفت فيه الأصل .

ويلاحظ أن ما جاء فى الوسيلة الأدبية من شعر البارودى - نَظَمَه بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٧٥ وهو بين الرابعة والعشرين والسادسة والثلاثين ، فى ريعان شبابه ، وعنفوان قوّته ، بعد عودته من الآستانة فى حاشية الخديو إسماعيل فى رمضان سنة ١٢٧٩ هـ (فبراير سنة ١٨٦٣ م) وقبل أن يتمّ طبع الوسيلة الأدبية سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) ؛ ففى نحو اثنى عشر عاماً أنتج إنتاجاً أدبياً كثيراً بلغ به قمة الجودة والإتقان فى زمانه ، وبارى به الفحول فى أزهى عصور الأدب العربىّ ؛ فكان - بحقّ - محيي القريض ، والأسوة الحسنة لمن احتذى مثاله ، ونسج على منواله .

(١) تلاهيت بالشىء : تشاغلت به ، وغفلت به عن غيره . ويجنّ : يخفى ويستر ، من قولهم : جنّه الليل (من باب ردّ) وأجنّه ، أى ستره . والمراد بالضمير : القلب . وداريته : دافعته وداجيته. وينمّ : يظهر ، (وبابه ردّ ، وكسر العين لغة فيه) . والزفير : إخراج النفس (بفتحتين) طويلا ممدوداً ، كما يفعل المهموم ونحوه .

والمعنى أنه تلاهى وتشاغل عن كلّ شىء إلا ما يضمره من أمر الهوى والحبّ ، ودارى وداجى كلّ شىء ، ولكنه لم يستطع أن يخفى ما تظهره زفراته من حرق الوجد وتباريح الغرام .

(٢) الأمر : الشأن والحال ، والمراد أمر الهوى والحبّ . والبارح : الريح الشديدة الحارّة فى الصيف . والسعير : النار . والمراد بالبارح والسعير : ما يجده العاشق من تباريح الشوق ، ولواعج الحبّ

(٣) فيا قاتل الله الهوى: أسلوب تعجّب : والهوى : الحبّ . ويغير : من الإغارة على العدوّ ، أى الهجوم ، والمراد يشتدّ عليه ، ويبرّح به .

يشكو شدّة الهوى على المحبّ ، وما يعانيه من أمره فى خلواته .

(٤) أبيّة : ممتنعة قويّة عزيزة . ويجزع : لا يجد صبراً .

يصف شدّة تأثير الهوى ، وفادح أمره : فهو يلين النفوس الأبيّة ، ويجزع القلوب التى اعتادت التجلّد والصبر .

نَبَذْتُ لَهُ رُمْحِى ، وَأَغْمَدْتُ صَارِمِى وَنَهْنَهْتُ مُهْرِى ، والْمُرادُ غَزِيرُ (٥)
وَأَصْبَحْتُ مَفْلُولَ الْمَخَالِبِ بَعْدَمَا سَطَوْتُ وَلِى فِى الْخَافِقَيْنِ زَئِيرُ (٦)
فَيَا لَسَرَاةِ الْقَوْمِ ! دَعْوَةُ عَائِذٍ أَمَا مِنْ سَمِيعٍ فِيكُمُ فَيُجِيرُ ؟ (٧)
لَطَالَ عَلَىَّ اللَّيْلُ حَتَى مَلِلْتُهُ وَعَهْدِى بِهِ فِيمَا عَلِمْتُ قَصِيرُ (٨)

---

(٥) نبذت : طرحت ورميت وألقيت ، (وبابه ضرب) . وله : أى للهوى . وأغمدت السيف : جعلته فى غمده . والصارم : السيف القاطع . ونهنهت : كففت وزجرت ومنعت . والمهر (بضم فسكون) : ولد الفرس (بفتحتين) ، أو أول ما ينتج منه ، يريد أنه كفّه عن العدو ، ومنعه من الجرى . وغزير : كثير .

والمعنى أنه ألقى للهوى سلاحه ، ولم يستطع مغالبته ، لأنّ ما كان يريده ويطلبه من التغلّب على أسباب الهوى كثير لا قبل له به ، ولا طاقة له عليه . أو معنى « والمراد غزير » : أن مراده فى الحياة كثير ، وهمّته كبيرة ، فهو قد غلب (بالبناء للمجهول) على الرغم من قوّة نفسه ، وعظم همّته . أو المعنى أنه على الرغم من استسلامه وانقياده للهوى لم يحقّق منه مراده ، ولم يبلغ مأربه . أو هى « المراد » (بفتح الميم) وهو المجال ، اسم مكان من راد يرود .

(٦) مفلول : مكسور مقلّم . والمخالب : جمع مخلب (بكسر فسكون ففتح) وهو للسباع والطير كالظفر (بضم فسكون) للإنسان . وسطوت : استطلت وبطشت وقهرت . والخافقان : أفقا المشرق والمغرب . والزئير : صوت الأسد .

والمعنى أن الهوى قد سلبه قوّته ، وغلبه على أمره ، بعد ما كان قوىّ الشكيمة ، شديد البأس عظيم السطوة ، معروفاً فى كلّ مكان بالاستطالة والبطش .

(٧) « يا » فى أول هذا البيت : حرف استغاثة ، ينادى به من يعين على دفع شدّة . والسراة (بفتح السين) : جمع سرىّ (كغنىّ) ، وهو الشريف ذو المروءة . وعائذ : مستجير لاجئ . ويجير : ينقذ ، يقال : أجرت الخائف ، أى أمّنته مما يخاف .

يستجير ويستعيذ بذوى النجدة والمروءة مما يعانيه ويكابده من تبريح الهوى ، وحرق الغرام .

(٨) مللته : سئمته وضجرت منه ، (وبابه تعب) . والعهد : المعرفة .

يشكو طول الليل ، وما يجده فيه من الهمّ والضيق والسآمة والضجر . والليل يطول فى حسّ المهموم ونحوه ، ويقصر فى حسّ المرح أو الخالى من الهمّ ، وهذا المعنى يكثر وروده فى كلام الشعراء ، قال المتنبى :

ليالىّ بعد الظاعنين شكول طوال ، وليل العاشقين طويل

أَلاَ ، فَرَعَى اللهُ الصِّبَا ، مَا أَبَرَّهُ! وَحَيَّا شَبَاباً مَرَّ وَهْوَ نَضِيرُ(٩)
إِذِ الْعَيْشُ أَفْوَافٌ ، تَرِفُّ ظِلاَلُهُ عَلَيْنَا ، وَسَلْسَالُ الْوَفَاءِ نَمِيرُ(١٠)
وَإِذْ نَحْنُ فِيمَا بَيْنَ إِخْوَانِ لَذَّةٍ عَلَى شِيَمٍ مَا إِنْ بِهِنَّ نَكِيرُ(١١)
تَدُورُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَلاعِبٍ بِهَا اللَّهْوُ خِدْنٌ ، وَالشَّبَابُ سَمِيرُ(١٢)
فَأَلْحَاظُنَا بَيْنَ النُّفُوسِ رَسَائِلٌ وَرَيْحَانُنَا بَيْنَ الْكُئُوسِ سَفِيرُ(١٣)

---

(٩) ألا : حرف تنبيه . ورعى الله الصبا : دعاء له ، من قولهم : رعى الله أمره ، أى حفظه وصانه ، ورعاك الله ، وأحسن رعايتك . وما أبرّه : تعجّب من برّه (بكسر الباء وتشديد الراء) أى خيره وفضله . ونضير : حسن جميل ناعم .

يحنّ إلى عهد الصبا ، وزمن الشباب ، ويدعو لهما ، لما لقيه فيهما من برّ وخير وفضل ونضرة ونعيم .

(١٠) العيش : المعيشة والحياة . والأفواف : ثياب رقاق موشّاة من برود اليمن ، واحدها فوف ، وواحدة الفوف فوفة (بضم الفاء وسكون الواو فيهما) وقد تطلق الأفواف ، ويراد بها الأزهار . والشاعر هنا يشبّه حياة الصبا والشباب بالأفواف والأزهار فى البهجة والرواء والنضارة ، وارتياح النفس إليها ، واستمتاعها بها . وترف : تنبسط وتمتدّ وتهتزّ ، من قولهم : رفّ الطائر إذا بسط جناحيه ، أو حرّكهما وهو لا يبرح مكانه ، أو من قولهم : رفّ النبات إذا اهتزّ نضارة وتلألؤاً . والظلال : جمع الظلّ ، للشجرة وغيرها . والسلسال : الماء العذب البارد النقىّ الصافى . ونمير : عذب ناجع ، أو زاك كثير .

(١١) شيم : طبائع وغرائز وأخلاق ، الواحدة شيمة (بكسر الشين وسكون الياء) . وبهنّ : أى بالشيم . ونكير : مصدر نكرت الأمر ، أى جهلته . والمراد ليس فى طبائع هؤلاء الإخوان ما يستنكر ، أى ما يقبح أو يكره .

(١٢) الكأس : قدح الشراب ، وهى مؤنثة . والملاعب : جمع ملعب ، اسم مكان من اللعب . والخدن (بكسر فسكون) : الصديق . وسمير : فعيل بمعنى مفاعل ، من المسامرة ، وهى حديث الليل .

يصف مجالس الشراب ، ومغانى اللهو واللعب فى زمن الشباب .

(١٣) ألحاظنا : نظراتنا . والريحان : كل نبات طيب الرائحة . والكئوس : أقداح الشراب ، الواحدة كأس . والسفير : الرسول المصلح بين القوم .

يقول أن ألحاظهم كانت تقوم بينهم مقام الرسائل .

والمعنى أنهم كانوا يتبادلون عواطف الودّ بالنظرات ، وكانت كئوس الشراب منظومة بين طاقات الريحان ، وهو بينها كالسفير .

عَقَدْنَا جَنَاحَىْ لَيْلِنا بِنَهَارِنَا ... وَطِرْنَا مَعَ اللَّذَّاتِ حَيْثُ تَطِيرُ(١٤)

وَقُلْنَا لِساقِينَا أَدِرْهَا ، فَإِنَّمَا ... بَقَاءُ الْفَتَى بَعْدَ الشَّبَابِ يَسِيرُ(١٥)

فَطَافَ بِهَا شَمْسِيَّةً لَهَبِيَّةً ... لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِّجالِ ثُئُورُ(١٦)

إِذَا مَا شَرِبْنَاهَا أَقَمْنَا مَكَانَنَا ... وَظَلَّتْ بِنَا الأَرْضُ الْفَضَاءُ تَدُورُ(١٧)

وَكَمْ لَيْلَةٍ أَفْنَيْتُ عُمْرَ ظَلَامِها ... إِلى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فِيهِ قَتِيرُ(١٨)

شَغَلْتُ بِها قَلْبِى ، وَمَتَّعْتُ نَاظِرِى ... وَنَعَّمْتُ سَمْعِى وَالْبَنَانُ طَهُورُ(١٩)

صَنَعْتُ بِها صُنْعَ الْكَرِيمِ بِأَهْلِهِ ... وَجِيرَتِهِ ، والْغَادِرُونَ كَثِيرُ(٢٠)

فَمَا رَاعَنَا إِلَّا حَفِيفُ حَمَائِمٍ ... لَهَا بَيْنَ أَطْرَافِ الْغُصُونِ هَدِيرُ(٢١)

---

(١٤) المعنى أنهم وصلوا ليلهم بنهارهم ، واستمتعوا بكلّ أسباب اللذة والسرور .

(١٦) شمسية لهبية : تشبه الشمس ولهب النار فى اللون والصفاء والإشراق .

(١٨) بدا : ظهر . وفيه : أى فى ظلام الليلة. والقتير فى الأصل: رءوس المسامير فى الدرع ، ويطلق على الشيب فى أول ظهوره ، والمراد به هنا : ضوء الصبح فى أول طلوعه .

يقول : إنه أمضى كثيراً من الليالى فى مجالس الأنس والشراب، وبات يلهو ويشرب ويطرب إلى أن ظهرت تباشير الصباح فى ظلمة آخر الليل .

(١٩) بها : أى بالليلة ، والمراد بما كان فيها من أسباب الهوى واللهو . ونعّمت سمعى: المراد أنه سمع ما أعجبه وأطربه من حلو الأغانى وجميل النغمات . والبنان : أطراف الأصابع ، الواحدة بنانة . وطهر بنانه : كناية عن عفّته ، وامتناعه عما يشين ويقبح .

(٢٠) بها : أى بالليلة التى وصفها فى البيتين السابقين . والجيرة (بكسر الجيم) : جمع الجار .

يفخر بأنه لم يغدر، ولم يأثم ، ولم يرتكب خطيئة ولا ذنباً ، ولم يصنع بمن جالسه وآنسه غير ما يصنعه الكريم بأهله وجيرانه من الصيانة والحفاظ ، والبرّ واللطف والخير والإحسان .

(٢١) راعنا : أفزعنا، والمراد نبّهنا على إقبال النّهار ، وإدبار الليل ، وهو وقت الأنس واللهو ، والمتعة والشراب . وحفيف الحمائم : صوت طيرانها . وهدير الحمامة : صوتها وسجعها ، كالهديل .

تُجَاوِبُ أَتْرَاباً لَهَا فِى خَمَائِلٍ ... لَهُنَّ بِها بَعْدَ الْحَنِينِ صَفِيرُ (٢٢)

نَوَاعِمُ لا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ ... وَلا دائراتِ الدَّهْرِ كَيْفَ تَدُورُ (٢٣)

تَوَسَّدُ هَامَاتٌ لَهُنَّ وَسَائِدًا ... مِنَ الرِّيشِ فِيهِ طَائِلٌ وَشَكِيرُ (٢٤)

كَأَنَّ عَلى أَعْطَافِها مِنْ حَبِيكِها ... تَمائِمَ لَمْ تُعْقَدْ لَهُنَّ سُيُورُ (٢٥)

خَوَارِجُ مِنْ أَيْكٍ ، دَوَاخِلُ غَيْرِهِ ... زَهَاهُنَّ ظِلٌّ سَابِغٌ وَغَدِيرُ (٢٦)

إِذَا غَازَلَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ ، كَأَنَّما ... عَلى صَفْحَتَيْهَا سُنْدُسٌ وَحَرِيرُ (٢٧)

فَلَمَّا رَأَيْتُ الصُّبْحَ قَدْ رَفَّ جِيدُهُ ... وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَسْجِ الظَّلامِ سُتُورُ (٢٨)

---

(٢٢) الأتراب : جمع ترب (بكسر فسكون) وهو اللدة (بلام مكسورة ودال مفتوحة) ، أى من ولد (بالبناء للمجهول) معك ، وكانت سنّه مثل سنّك ، والترب يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فيقال : هو تربى ، وهى تربى . والخمائل : جمع خميلة ، وهى الشجر الكثير الملتفّ ، أو الموضع الكثير الشجر . ولهن : أى للحمائم وأترابها . وبها : أى بالخمائل . والحنين : الشوق وتوقان النفس إلى الشىء :

يقول : إن الحمائم فى هذه الخمائل تهدر وتسجع وتتجاوب ، كأنما يحاور بعضها بعضاً ، وكأنّ صفيرها وصوتها أثر لما تشعر به من حنين وشوق .

(٢٣) نواعم : صفة « لأتراباً » فى البيت السابق ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هى أى الحمامات نواعم ، جمع ناعمة بمعنى متنعمة . وبؤس المعيشة : شدة الحاجة ، وشظف العيش ، وخشونة الحياة . ودائرات الدهر : نوازله وخطوبه وصروفه ، يقال دارت به دوائر الزمان ، أى نزلت به صروفه وأحداثه .

يصف معيشة هذه الحمائم ، وما ترتع فيه من رغد ورفاهة ونعيم .

(٢٧) غازلتها الشمس : اتصلت بها ، أو خالطتها أشعتها ، وسطعت فوقها ، من قولهم : غازل فلان الأربعين ، إذا دنا منها ، وغازلت أنفاس الصبا رياض الربا ، وفلان يغازل رغداً من العيش ، وهو استعمال مجازىّ من المغازلة ، وهى محادثة النساء ، واللهو معهن ، والتودّد إليهن . ورفّت : حرّكت أجنحتها ، أو برقت وتلألأت . وصفحتاها : جانباها . والسندس : ما رقّ من الديباج ، وهو الحرير الخالص .

والبيت فى وصف الحمائم وطيور الخمائل إذا سطعت عليها أشعة الشمس ، وحرّكت أجنحتها ، فظهرت نضرتها ومحاسنها وجمال ألوانها .

(٢٨) الجيد (بكسر الجيم وسكون الياء) : العنق ، ورفّ جيده : ظهرت أنواره . والستور : جمع ستر (بكسر فسكون) ، وهو ما يستر به الشىء ، أى يغطّى ويحجب .

يصف مطلع الصبح وانتشار أنواره .

خَرَجْتُ أَجُرُّ الذَّيْلَ تِيهاً ، وَإِنَّمَا　　يَتِيهُ الْفَتَى إِنْ عَفَّ وَهْوَ قَدِيرُ (٢٩)
وَلِي شِيمَةٌ تَأْبَى الدَّنَايَا ، وَعَزْمَةٌ　　تَرُدُّ لُهَامَ الْجَيْشِ وَهْوَ يَمُورُ (٣٠)
إِذَا سِرْتُ فَالْأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ فَوْقَهَا　　مَرَادٌ لِمُهْرِي ، وَالْمَعَاقِلُ دُورُ (٣١)
فَلا عَجَبٌ إِنْ لَمْ يَصُرْنِيَ مَنْزِلٌ　　فَلَيْسَ لِعِقْبَانِ الْهَوَاءِ وُكُورُ (٣٢)
هَمَامَةُ نَفْسٍ لَيْسَ يَنْقِي رِكَابَهَا　　رَوَاحٌ عَلَى طُولِ الْمَدَى وَبُكُورُ (٣٣)
مُعَوَّدَةٌ أَلَّا تَكُفَّ عِنَانَهَا　　عَنِ الْجِدِّ إِلَّا أَنْ تَتِمَّ أُمُورُ (٣٤)
لَهَا مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ أُذْنٌ سَمِيعَةٌ　　وَعَيْنٌ تَرَى مَا لا يَرَاهُ بَصِيرُ (٣٥)

(٣٠) الشيمة : الغريزة والطبيعة والخُلُق والجبلّة . والدنايا : النقائص والعيوب. والعزمة: الجدّ والهمّة والإرادة القويّة القاطعة . وجيش لهام (كغراب) : كثير يغتمر من يدخله ، ويغيّبه في وسطه . ويمور : يتحرك ويضطرب ويموج .

يفخر بكرم شيمته وشممه وإبائه ، وترفّعه عن النقائص والعيوب ، وأنه ذو عزم قويّ ، وبأس شديد يردّ الجيش العرمرم الجرّار .

(٣١) المراد (بفتح الميم) : موضع اختلاف الإبل ونحوها في المرعى مقبلة ومدبرة ، والمراد : المجال . والمعاقل : الملاجئُ والحصونُ ونحوها .

يفخر بقوّته وشدّة بأسه ، وتمكّنه من الأرض ، فهو يسيطر عليها ، ويرود ما شاء من نواحيها . ثم يفخر بغشيانه المعاقل والحصون ، فهو لا يلجأ إلى الدور والقصور ، ولا يخلد إلى الدعة والنعيم ، ولكنه رجل حرب وكفاح وجلاد ، دوره الحصون ، ومنازله المعاقل ونحوها .

(٣٢) لم يصرني منزل : لم يملني إليه ، ولم يجمعني ، صاره يصوره ويصيره (كيقول ويبيع) : أماله . والعقبان (بكسر العين وسكون القاف) : جمع العقاب (بضم العين) ، اسم طائر من عتاق الطير وجوارحها ، كالصقر والبازي والنسر ونحوها . والوكور : جمع وكر (بفتح فسكون) ، وهو عشّ الطائر حيث كان في جبل أو شجر .

(٣٣) يريد بالهمامة : الهمّة العالية ، وقوّة العزم ، أو اهتمام النفس بالأمر ، وقصدها إليه ، وعنايتها به . وينقي : المراد يهزل ويضعف ، من قولهم : نقوت العظم ونقيته ، إذا استخرجت نقيه (بكسر فسكون) أي مخّه وشحمه . والركاب : الإبل التي يسار عليها ، الواحدة راحلة ، ولا واحد لها من لفظها . والرواح : مصدر راحت الماشية وغيرها ، أي رجعت بالعشي ، وضدّه البكور ، وهو الانطلاق في أول النهار ، وكلّ من بادر وأسرع إلى شيء فقد بكر إليه (من باب قعد) بكوراً . والمدى : الغاية . والمراد بالشطر الثاني : كثرة السفر مع بعد الشقّة وطول الغاية .

يفخر بأنّ همته رفيعة عالية قويّة ، لا تضعفها الصعاب ، ولا تثنيها العقبات .

وَفَيْتُ بِما ظَنَّ الْكِرامُ فِراسَةً ... بِأَمْرِى ، وَمِثْلِى بِالْوَفَاءِ جَدِيرُ (٣٦)
وَأَصْبَحْتُ مَحْسُودَ الْجَلالِ ، كَأَنَّنِى ... عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِى الزَّمَانِ أَمِيرُ (٣٧)
إِذَا صُلْتُ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ غُلَوَائِهِ ... وَإِنْ قُلْتُ غَصَّتْ بِالْقُلُوبِ صُدُورُ (٣٨)
مَلَكْتُ مَقَالِيدَ الْكَلامِ ، وَحِكْمَةً ... لَهَا كَوْكَبٌ فَخْمُ الضِّيَاءِ مُنِيرُ (٣٩)
فَلَوْ كُنْتُ فِى عَصْرِ الْكَلامِ الَّذِى انْقَضَى ... لَبَاءَ بِفَضْلِى « جَرْوَلٌ » و « جَرِيرُ » (٤٠)
وَلَوْ كُنْتُ أَدْرَكْتُ « النُّوَاسِىَّ » لَمْ يَقُلْ ... (أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ) (٤١)
وَمَا ضَرَّنِى أَنِّى تَأَخَّرْتُ عَنْهُمُ ... وَفَضْلِىَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ شَهِيرُ (٤٢)
فَيَا رُبَّمَا أَخْلَى مِنَ السَّبْقِ أَوَّلٌ ... وَبَذَّ الْجِيَادَ السَّابِقَاتِ أَخِيرُ (٤٣)

وَقَالَ مَادِحاً وَمُهَنِّئاً بِعِيدِ الْجُلُوسِ *

أَضَوْءُ شَمْسٍ فَرَى سِرْبَالَ دَيْجُورِ ... أَمْ نُورُ عِيدٍ بِعَقْدِ التَّاجِ مَشْهُورِ ؟ (١)
وَأَنْجُمٌ تِلْكَ أَمْ فُرْسَانُ عَادِيَةٍ ... تَخْتَالُ فِى مَوْكِبٍ كَالْبَحْرِ مَسْجُورِ (٢)

---

(٣٧) الجلال : العظمة . ومحسود الجلال : يحسد الحاسدون جلالى وعظمتى . والأمير : ذو الأمر ، صفة من الإمارة ، وهى الحكم والولاية .

يقول : إنه صار محسوداً على جلاله وعظمته ، كأنه يسيطر على أهل زمانه .

* فى الثامن عشر من المحرم سنة ١٣١٨ هـ (السابع عشر من مايو سنة ١٩٠٠ م) أعاد الخديو « عباس حلمى الثانى » إلى البارودى حقوقه المدنية ، وألقابه ، وأملاكه ؛ فشكر له ، وهنأه بعيد جلوسه . وقد اعتلى عرش مصر فى السابع من يناير سنة ١٨٩٢ بعد وفاة والده الخديو « توفيق » .

(١) فرى : شق ومزق . والسربال : القميص . والديجور : الظلام . والعقد : مصدر عقد المرء الحبل والبيع والعهد (من باب ضرب) إذا شده وأوثقه . وعقد التاج : كناية عن تولية الملك . ومشهور صفة لعيد .

(٢) الفرسان : جمع فارس ، وهو راكب الفرس . والعادية : الخيل تعدو . وتختال : تزهى وتعجب بنفسها مرحاً ، من الاختيال ، وهو الكبر . والموكب : جماعة من الناس ، ركبان ومشاة ، يسيرون برفق . ومسجور : مملوء عظيم .

يصف الموكب فى هذا العيد ، وما فيه من جنود وفرسان وازدحام ، حتى كأنه البحر الزاخر العظيم .

مِنْ كُلِّ أَرْوَعَ يَجْلُو ظِلَّ عِثْيَرِهِ ... بِصَارِمٍ كَلِسَانِ النَّارِ مَسْعُورِ (٣)

لا يَرْهَبُونَ عَدُوًّا فِي مُغَاوَرَةٍ ... وَكَيْفَ يَرْهَبُ لَيْثٌ كَرَّ يَعْفُورِ؟ (٤)

مُسْتَوْفِزُونَ لِوَحْيٍ مِنْ لَدُنْ مَلِكٍ ... بَادِي الْوَقَارِ عَلَى الْأَعْدَاءِ مَنْصُورِ (٥)

فِي دَوْلَةٍ بَلَغَتْ بِالْعَـدْلِ مَنْزِلَةً ... عَلْيَاءَ كَالشَّمْسِ فِي بُعْدٍ، وَفِي نُورِ (٦)

طَلَعْتَ فِيهَا طُلُوعَ الْبَدْرِ، فَازْدَهَرَتْ ... أَقْطَارُهَا بِضِيَاءٍ مِنْكَ مَنْشُورِ (٧)

فَلْيَفْخَرِ التَّاجُ إِذْ دَارَتْ مَعَاقِدُهُ ... عَلَى جَبِينٍ بِنُورِ السَّعْدِ مَغْمُورِ (٨)

كَأَنَّمَا صَاغَ كَفُّ الْأُفْقِ أَنْجُمَهُ ... لِلْبَدْرِ مَا بَيْنَ مَنْظُومٍ وَمَنْثُورِ (٩)

---

(٣) الأروع : الشجاع الوسيم . ويجلو : يكشف . والعثير : الغبار الذى تثيره الخيل والمقاتلة فى أثناء القتال . والصارم : السيف القاطع . ومسعور : متّقد متلألئ .

جعل السيف القاطع ، المشرق المتلألئ ، فى يد البطل الشجاع ، كلسان من نار متوقّدة ، يكشف الظلمة التى تغشى ميدان الحرب ، بسبب ما ينعقد فى سمائه من الدخان والعجاج .

(٤) لا يرهبون : لا يخافون . والمغاورة : الإغارة ، وهى الهجوم على الأعداء ، مصدر غاوروا أعداءهم مغاورة ، بمعنى أغاروا عليهم . والكرّ : مصدر كرّ الفارس ونحوه (من باب ردّ) إذا استجمع للوثوب ، ثم وثب . واليعفور (بفتح الياء وضمها) : ظبى بلون التراب ، أو هو الظبى مطلقاً .

(٥) مستوفزون : جمع مستوفز ، وهو اسم فاعل من قولهم : استوفز الرجل فى قعدته ، إذا قعد وهو متهيّئ للقيام أو الوثوب . والوحى : الإشارة ، والرسالة ، والإلهام ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه . والوقار : الحلم والرزانة .

والمعنى أنهم متأهّبون مستعدّون لتلقّى إشارة ملك وقور منصور .

(٧) ازدهرت : تلألأت وأشرقت وأضاءت . والأقطار : النواحى ، جمع قطر (بضم فسكون) .

(٨) المعاقد : جمع معقد (بفتح فسكون فكسر) ، اسم مكان من عقد الإنسان الحبل ونحوه ، إذا شدّه وأوثقه . والمراد بمعاقد التاج : أجزاؤه حيث تنعقد الجواهر واللآلئ المرصّعة . والجبين : ناحية الجبهة فوق الصدغ ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها ، والمراد بالجبين هنا : الجبهة . ومغمور : اسم مفعول من غمره الماء ، أى علاه .

(٩) الأفق (بضمتين ، أو بضم الهمزة وسكون الفاء) : الناحية من السماء ، أو ما ظهر من نواحى الفلك .

يقول : كأنما جمع الأفق أنجمه المنظومة والمنثورة ، فرصّع بها تاج هذا البدر ، وهو الممدوح ؛

فَيَالَهَا حَفْلَةً لِلْمَلْكِ ! مَا بَرِحَتْ ... تَارِيخَ مَجْدٍ بِكَفِّ الدَّهْرِ مَسْطُورِ (١٠)
ظَلَّتْ بِها حَدَقُ الْأَمْلَاكِ شَاخِصَةً ... إلى مَهيبٍ بِفَضْلِ الْحِلْمِ مَشْكُورِ (١١)
فَكَمْ أَمِيرٍ بِحُسْنِ الْحَظِّ مُبْتَهِجٍ ... وَكَمْ وَزِيرٍ بِكَأْسِ الْبِشْرِ مَخْمُورِ (١٢)
فَالْأَرْضُ فِى فَرَحٍ ، والدَّهْرُ فِى مَرَحٍ ... والنَّاسُ مَا بَيْنَ تَهْلِيلٍ وَتَكْبِيرِ (١٣)
فِى كُلِّ مَمْلَكَةٍ تَيَّارُ كَهْرَبَةٍ ... يَسْرِى، وَفِى كُلِّ نَادٍ صَوْتُ تَبْشِيرِ (١٤)
يَوْمٌ بِهِ طَنَّتِ الْأَسْمَاعُ مِنْ طَرَبٍ ... كَأَنَّ فِى كُلِّ أُذْنٍ سِلْكَ طُنْبُورِ (١٥)
وَكَيْفَ لا تَبْلُغُ الْأَفْلَاكَ دَوْلَةُ مَنْ ... أَضْحَى بِهِ الْعَدْلُ حِلاًّ غَيْرَ مَحْظُورِ؟ (١٦)

---

(١٠) المجد : الكرم والعزّ والرفعة والشرف . ومسطور : مكتوب .
يعجب من عظمة الحفلة ، ويشير إلى مجادتها ، وخلود ذكراها .

(١١) بها : أى بالحفلة . والحدق : جمع حدقة (بفتحتين) وهى سواد العين ، والمراد بالحدق : العيون . والأملاك : جمع ملك (بفتح فكسر) . وشاخصة : ناظرة : اسم فاعل من شخص البصر : إذا ارتفع . ومهيب : اسم مفعول من هابه يهابه هيبة (بفتح فسكون)، إذا حذره وأجلّه وعظّمه وخشى بأسه . والحلم : الأناة والعقل .

يقول إن الملوك فى هذه الحفلة ظلّوا ينظرون نظرة إعجاب وإجلال إلى ملك عظيم جليل مهيب مشكور على ما امتاز به من فضل الحلم ، وطول الأناة ، ورجحان العقل .

(١٢) مبتهج : فرح مسرور. ومخمور: ثمل (كفرح) قد أسكره السرور ، واستخفّه الطرب .

(١٣) المرح : شدّة الفرح والنشاط . والتهليل: مصدر هلّل الإنسان تهليلا ، إذا قال « لا إله إلا الله » . والتكبير : مصدر كبّر ، أى قال « الله أكبر » .

(١٤) يسرى: يسير . والتبشير : مصدر بشّره بمعنى فرّحه . ويقصد بتيّار الكهربة هنا : وسائل البرق تنقل نبأ هذا العيد إلى الأقطار .

(١٥) طنّ: صوّت ، وطنّت أذنه طنينا: دوّى فيها الصوت وتردّد . والطرب هنا: خفّة تصيب الإنسان لشدّة فرح . والطنبور : من آلات الطرب واللهو ، فارسىّ معرّب .

(١٦) الأفلاك : جمع فلك (كسبب)، وهو مدار النجوم . وحلاًّ : مباحاً شاملا عامًّا . وغير محظور : غير ممنوع .

هُوَ الْمَلِيكُ الَّذِى لَوْلا مَآثِرُهُ مَا كَانَ فى الدَّهْرِ يُسْرٌ بَعْدَ مَعْسُورِ (١٧)
فَلَّ النَّوَائِبَ ، فَانْصَاحَتْ دَيَاجِرُهَا بِمُرْهَفٍ مِنْ سُيُوفِ الرَّأْىِ مَأْثُورِ (١٨)
وَأَصْلَحَتْ عَنَتَ الْأَيَّامِ حِكْمَتُهُ مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ صَدْعاً غَيْرَ مَجْبُورِ (١٩)
مُسَدَّدُ الرَّأْىِ ، مَوْقُوفُ الظُّنُونِ عَلَى رَعْىِ السِّيَاسَةِ فى ثَبْتٍ وَتَحْوِيرِ (٢٠)
لا يُغْمِدُ السَّيْفَ إِلَّا بَعْدَ مَلْحَمَةٍ وَلا يُعَاقِبُ إِلَّا بَعْدَ تَحْذِيرِ (٢١)
يَأَيُّهَا الْمَالِكُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ أَبْشِرْ بِفَتْحٍ عَظِيمِ الْقَدْرِ مَنْظُورِ (٢٢)

---

(١٧) المآثر : جمع مأثرة (بفتح الثاء وضمها) وهى فعل الخير ، والمكرمة المتوارثة ، لأنها تؤثر أى تنقل ، ويتحدث الناس بها ، ويرويها بعضهم لبعض . والمعسور : العسر ، وهو ضد اليسر .

(١٨) فل الشىء : كسره (وبابه رد) ، وفل النوائب : جلاها وكشفها وتغلب عليها . وانصاحت : تشققت وانصدعت . والدياجر : جمع ديجور (بفتح فسكون فضم) ، وهو الظلمة . والمرهف : السيف المرقق الحاد القاطع . والرأى : العقل والتدبير والبصيرة والحذق بالأمور وحسن النظر فيها . وسيف مأثور : قديم ، تتوارثه كابر عن كابر ، أو ذو أثر (بفتح فسكون أو كسر فسكون) ، والأثر : فرند السيف ووشيه ، ورونقه وديباجته .

(١٩) عنت الأيام : خطؤها ، والعنت أيضاً : المشقة والشدة . والحكمة : العلم والحلم والعدل . والصدع : الشق . ومجبور : اسم مفعول من جبرت الكسر أجبره جبراً (من باب نصر) أى أصلحته .

(٢٠) مسدد : اسم مفعول من التسديد ، وهو التوفيق للسداد ، أى الصواب والقصد من القول والعمل . والرعى : مصدر رعى الأمير رعيته يرعاها رعياً ورعاية ، إذا دبر شئونها وساسها ، وحفظ أمرها . والسياسة : مصدر ساس الحاكم الناس يسوسهم ، إذا دبر أمورهم ، وقام بشئونهم . وثبت : ثابت ، والمراد المصدر ، وهو الثبات . والتحوير : مصدر حورت الشىء ، إذا أدرته أو رجعته .

يقول إنه سديد الرأى ، صائب النظر فى جميع الأمور ، قد وقف فكره ، وحبس جهده على رعى الحكم وحفظه ، وتدبير شئون الناس ، وصيانة حقوقهم ومصالحهم ، يعمل كل ذلك فى ثبات وتؤدة وتجديد .

(٢١) غمد المحارب ونحوه السيف (من بابى ضرب ونصر) وأغمده : جعله فى غمده . والملحمة : القتال ، أو الوقعة العظيمة القتل .

والمعنى أنه إذا حارب استمر فى القتال حتى يكتب له النصر ، وأنه لا يحارب ولا يعاقب إلا بعد استنفاد وسائل النصح والتحذير .

(٢٢) الطائر الميمون : المبارك ، وهو ما أتاك عن يمينك ، وكانت العرب تتيمن بذلك . والمراد بالطائر الميمون : الحظ السعيد .

إنَّ الْخُطُوبَ الَّتِي ذَلَّلْتَ جَانِبَهَا ... بِحُسْنِ رَأْيِكَ لَمْ تُقْدَرْ لِمَقْدُورِ (٢٣)

بَلَغْتَ بِالشَّرْقِ مَا أَمَّلْتَ مِنْ وَطَرٍ ... وَنِلْتَ بِالْغَرْبِ حَقًّا غَيْرَ مَنْكُورِ (٢٤)

فَمَنْ يُبَارِيكَ فِي فَضْلٍ وَمَكْرُمَةٍ ؟ ... وَمَنْ يُدَانِيكَ فِي حَزْمٍ وَتَدْبِيرِ؟ (٢٥)

لَوْلاكَ مَادَامَ ظِلُّ السِّلْمِ ، وَانْحَسَرَتْ ... ضَبَابَةُ الْحَرْبِ إلَّا بَعْدَ تَغْرِيرِ (٢٦)

وَلاسَرَى الْأَمْنُ بَعْدَ الْخَوْفِ ،وَاعْتَصَمَتْ ... بِجَانِبِ الصَّبْرِ هِمَّاتُ الْمَغَاوِيرِ (٢٧)

---

(٢٣) الخطوب : جمع خطب ، وهو النازلة الشديدة من نوازل الدهر . وقدر الله على الإنسان الشيء يقدره قدراً (من بابى نصر وضرب) ، وقدّره عليه وله تقديراً ، أى قضى وحكم ، فالله تعالى قادر ، والإنسان مقدور له ، أو مقدور عليه .

والمعنى أنها خطوب فادحة هائلة عظيمة ، لم يقدر مثلها لأحد .

(٢٤) الوطر (بفتحتين) : الحاجة أو حاجة لك فيها همّ وعناية .

يشير إلى نجاح سياسته ، وما ظفر به من تأييد وتوفيق ، فهو قد بلغ حاجته ، وأدرك ما أمله من رفعة مصر والشرق ، ونال حقوقاً غير منكورة لدولته من أمم أوربا وحكوماتها .

(٢٥) يباريك : يعارضك ، ويفعل مثل فعلك . والمكرمة (بضم الراء) : فعل الخير ، وهو اسم من الكرم . ويدانيك : يقاربك . والحزم : إتقان الرأى ، وضبط الأمر ، والأخذ فيه بالثقة . والتدبير : مصدر دبّرت الأمر ، أى فعلته عن فكر ورويّة ، ونظرت إلى ماتئول إليه عاقبته. والاستفهام فى شطرى البيت يفيد التفخيم والتعظيم .

(٢٦) انحسرت : انكشفت وزالت . والتغرير : ركوب الخطر ، وتعريض النفس للهلكة (بفتح الهاء واللام) ، مصدر غرّر الإنسان بنفسه ، أى حملها على الغرر (بفتحتين) وهو الخطر .

يشير إلى كياسة الممدوح ، وحسن سياسته ، فهو يستديم السلم ، ويبسط أسباب الطمأنينة والأمن ، ويجنب بلاده أهوال الحروب وويلاتها ، ويحافظ على سلامتها ، ويصون حقوقها ، ويبعد عنها الخطر .

(٢٧) سرى : سار وانتشر . واعتصمت : استمسكت وتقوّت وامتنعت. والهمّات : جمع همّة ، وهى العزم القوىّ ، والإرادة القاطعة . والمغاوير : جمع مغوار (بكسر فسكون) ، وهو البطل الشجاع الكثير الغارات على الأعداء .

والمعنى أن الممدوح لما نجح فى كشف ضبابة الحرب ، واجتناب أسبابها — انتشر الأمن والطمأنينة بعد الفزع والخوف ، ومن فضله وكياسته أنه حمل الأبطال المغاوير ذوى الهمم الرفيعة من جنده ورجاله على الاعتصام بجانب الصبر حتى كسب لبلاده السلم، وأبعد عنها شبح الحرب .

فَاسْلَمْ لِمُلْكٍ مَنِيعِ السَّرْحِ تَكْلَؤُهُ ... بِعَيْنِ ذِى لِبَدٍ ، فِى الْغَابِ مَحْذُورِ (٢٨)

وَاقْبَلْ هَدِيَّةَ فِكْرٍ قَدْ تَكَنَّفَهَا ... رَوْعُ الْخَجَالَةِ مِنْ عَجْزٍ وَتَقْصِيرِ (٢٩)

وَسَمْتُهَا بِاَسْمِكَ الْعَالِى ، فَأَلْبَسَهَا ... جِلْبَابَ فَخْرٍ طَوِيلِ الذَّيْلِ مَجْرُورِ (٣٠)

لَوْلَا صِفَاتُكَ ـ وَهْىَ الدُّرُّ ـ مَا بَهَرَتْ ... أَبْيَاتُهَا الْغُرُّ مِنْ حُسْنٍ وَتَحْبِيرِ (٣١)

---

(٢٨) السرح (فى الأصل): الماشية السارحة، وشجر عظام ، وفناء الدار . ومعنى « ملك منيع السرح » أنه منيع الجانب ، قوىّ ، عزيز ، لا يجترأ عليه . وتكلؤه : تحفظه وترعاه وتحسن سياسته وتدبيره . وذو اللبد : الأسد . واللبد (بكسر ففتح) : جمع لبدة (بكسر فسكون) ، وهى ما يتلبّد من شعر أو صوف ، أى يلصق بعضه ببعض .والغاب : جمع غابة ، وهى الأجمة (بفتح الهمزة والجيم) أى الشجر الكثير الملتفّ . ومحذور : مخوف مهيب .

دعا له بالسلامة ، ووصف ملكه بالعزّ والمناعة ، ومدحه بالشجاعة وشدّة البأس ، وحفظ الملك (بضم فسكون) ورعايته ، ثم بالجلال والمهابة .

(٢٩) يريد بهديّة الفكر :هذه القصيدة . وتكنّفها: أحاط بها . والروع (بفتح فسكون) : الخوف والفزع ، كالارتياع ، أو هو الشعور مطلقاً ، من قولهم : « ما راعنى إلا مجيئك » بمعنى ما شعرت إلا به . والخجالة : التحيّر والدهش (بفتحتين) والاضطراب من الاستحياء . والذى نعرفه أن الفعل من باب فرح ، فالمصدر الخجل (بفتحتين) لا الخجالة .

يشير إلى مايستشعره من الخجل والحياء بسبب تقصيره وعجزه عن توفية الممدوح حقّه ، والإحاطة بشمائله وفضائله .

(٣٠) وسمتها : أعلمتها وميّزتها ، أى هديّة الفكر المكنىّ بها عن هذه المدحة .

والمعنى أن هذه القصيدة تزهى وتتيه وتفخر فخراً عظيماً لشرف موضوعها ، وجلال من أهديت إليه ، وتميّزت باسمه الرفيع العالى .

(٣١) الدرّ: اللؤلؤ الكبير ، واحدته درّة (بضم الدال وفتح الراء المشدّدة) . وبهرت: أعجبت وراعت وفاقت غيرها وفضلته، من قولهم : بهر القمر ، أى أضاء حتى غلب ضوءه ضوء الكواكب . والغرّ (بضم الغين وتشديد الراء) : جمع الأغرّ ، وهو الواضح الصبيح الجميل المشهور ، صفة من الغرّة (بضم الغين وفتح الراء المشددة) وهى فى الأصل بياض مستحسن فى جبهة الفرس . والتحبير : التزيين والتجميل والتحسين .

والمعنى أن صفات الممدوح الشبيهة بالدرّ قد أفاضت على أبيات هذه القصيدة من جلالها وبهائها ، فصارت غرّاء حسناء ، صبيحة مشهورة ، باهرة الحسن ، رائعة الجمال .

شَمائِلٌ زَيَّنَتْ قَوْلِي بِرَوْنَقِها كَالسِّحْرِ يَفْتِنُ بَيْنَ الأَعْيُنِ الْحُورِ (٣٢)
شَفَّتْ زُجَاجةُ فِكْرِى ، فَارْتَسَمْتُ بِها عُلْيَاكَ مِنْ مَنْطِقِى فِى لَوْحِ تَصْوِيرِ (٣٣)
فَاسْعَدْ بِيَوْمٍ تَجَلَّى السَّعْدُ فِيهِ عَلَى نَادِى عُلَاكَ بِتَعْظِيمٍ وَتَوْقِيرِ (٣٤)
وَدُمْ عَلَى الدَّهْرِ فِى مُلْكٍ تَعِيشُ بِهِ مُرَفَّهَ النَّفْسِ حَتَّى نَفْخَةِ الصُّورِ (٣٥)

---

(٣٢) شمائل : أخلاق وطباع ، ومفردها شمال (بكسر الشين) . والرونق : البهاء والحسن . ويفتن : يوقع فى الفتنة (بكسر فسكون) ، وهى إعجابك بالشيء ، يقال : فتنت المرأة الرجل ، أى دلهته ، وجعلته ساهى القلب ، ذاهب العقل من العشق . والحور (بضم الحاء وسكون الواو) : جمع حوراء (بفتح الحاء وسكون الواو) ، صفة من الحور (بفتحتين) ، وهو شدة بياض العين فى شدة سوادها ، مع استدارة حدقتها ، ورقة جفونها ، وبياض ما حواليها .

يقول إن شمائل الممدوح وصفاته الكريمة قد جملت قوله ، وأفاضت عليه من حسنها وبهائها ، كالسحر ينبعث من الأعين الحور ، فيبعث الفتنة والإعجاب .

(٣٣) شفت : صفت ورقت ، من قولهم : شف الثوب ، أى رق حتى يرى الإنسان ما تحته . وارتسمت : يريد رسمت وصورت ، ولم نجدها صريحة بهذا المعنى فيما بين أيدينا من المعجمات ، والذى فى اللسان وغيره أن ارتسم معناها امتثل .

يقول إن زجاجة فكرى قد شفت ورقت وصفت ، فرسمت بها صفات الممدوح العالية فى لوح تصوير من منطقى وقولى . شبه فكره بعدسة المصورة ، وجعل قوله ومنطقه كلوح التصوير .

(٣٤) تجلى : اتضح وظهر وتكشف . والنادى : المجلس والمجتمع (بصيغة اسم المكان) . والتوقير : الإجلال والتعظيم .

يدعو للممدوح بأن يسعد ويهنأ بعيد تتويجه ، الذى تجلى فيه السعد على حضرة الممدوح الرفيعة العالية مقروناً بتوقير الناس له ، وتعظيمهم لشأنه .

(٣٥) مرفه : منعم مستريح ، من الرفاهة ، وهى لين العيش واتساعه . والصور (بضم الصاد وسكون الواو) : القرن وشبهه ينفخ فيه . ونفخة الصور : كناية عن قيام الساعة .

يدعو له بطول العمر ، ودوام السعادة والرفاهية فى ملك وطيد .

وقالَ فِى الْفَخْرِ * :

طَرِبْتُ ، وَعَادَتْنِى الْمَخِيلَةُ والسُّكْرُ   وَأَصْبَحْتُ لَايُلْوِى بِشِيمَتِىَ الزَّجْرُ (١)
كَأَنِّىَ مَخْمُورٌ سَرَتْ بِلِسَانِهِ   مُعَتَّقَةٌ مِمَّا يَضِنُّ بِها التَّجْرُ (٢)
صَرِيعُ هَوًى ، يُلْوِى بِىَ الشَّوْقُ كُلَّمَا   تَلَأْلَأَ بَرْقٌ ، أَوْ سَرَتْ دِيَمٌ غُزْرُ (٣)

(*) يعارض البارودىّ بهذه القصيدة قصيدة لأبى فراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبى ، ابن عمّ سيف الدولة بن حمدان ، وأحد قوّاده وولاته ، وكان أبو فراس فارساً شجاعاً مغواراً ، وشاعراً كاتباً أديباً ، وأجود شعره ما كان فى الفخر والشكوى والعتاب ، وما قاله وهو أسير ببلاد الروم ، ومنه هذه القصيدة . وقد مات مقتولا فى ثورة قوميّة بإحدى قرى الشام سنة ٣٥٧ هـ عن ٣٧ سنة ، ومطلع قصيدته المشار إليها :

أراك عصىّ الدمع شيمتك الصبر   أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟

والقصيدتان على وزن وروىّ واحد ، ورويّهما الراء (الروىّ : حرف بنيت عليه القصيدة ، ونسبت إليه). ومعنى عصىّ الدمع : أن عينيه لاتدمعان إباء وعزّة . والشيمة : الخُلق والطبيعة . والهوى : الحبّ .

(١) طربت : اهتززت شوقاً إلى من أحبّ . وعادنى الشىء عوداً (بفتح فسكون) ، واعتادنى : انتابنى ورجع إلىّ مرّة بعد أخرى . والمخيلة : الظنّ ، والمراد ذكريات الماضى . والمراد بالسكر : الذهول وتشتت الفكر ، وغيبة العقل . وألوى به : ذهب به . والزجر : المنع والنهى ، مصدر زجرته (من باب قتل).
ومعنى الشطر الثانى أنّ المنع والعذل لا يجدى معه ، ولا يفيد .

(٢) مخمور : ثمل (بفتح فكسر) سكران . وسرت : تمشّت وسارت ، وأصله من السرى (بضم السين وفتح الراء) وهو السير ليلا . ومعتّقة : خمر قديمة . ويضنّ (بفتح الضاد وكسرها) : يبخل . والتجر (بفتح فسكون) : جمع تاجر ، (كصاحب وصحب) وهو بائع الخمر .

يشير بالشطر الثانى إلى أنها خمر جيّدة شديدة التأثير ، يبخل بها التجار لنفاستها على من لايغالى فى قيمتها . والمعنى أنه صار بتأثير العشق مسلوب العقل ، مسهام الفؤاد ، معقود اللسان .

(٣) صريع هوى : طريح حبّ وغرام . ويلوى بى : يذهب بى ، والمراد يذهب بعقلى ويذهلنى . وتلألأ البرق : لمع وأضاء . وسرت : سارت . والديم (بكسر ففتح) : جمع ديمة (بكسر فسكون) وهى السحابة الممطرة . وغزر (بضم فسكون) : جمع غزيرة ، بمعنى كثيرة الماء .

يشير إلى تبريح الوجد به ، ويقول إنّ الشوق يتوهّج فى نفسه ويذهله كلّما رأى برقاً يلمع من ناحية ديار من يحبّ ، أو سحاباً يتّجه نحوها .

إِذَا مَال مِيزَانُ النَّهارِ رَأَيْتَنِي ... على حَسَراتٍ لَا يُقَاوِمُهَا صَبْرُ (٤)

يَقُولُ أُنَاسٌ إِنَّهُ السِّحْرُ ضَلَّةً ... وَمَا هِيَ إِلَّا نَظْرَةٌ دُونَهَا السِّحْرُ (٥)

فَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسُ أَمْرِي،وَلَيْسَ لِي ... وَلَا لامْرِئٍ فِي الْحُبِّ نَهْيٌ وَلَا أَمْرُ؟ (٦)

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ دِفَاعُهُ ... لَأَلْوَتْ بِهِ الْبِيضُ الْمَبَاتِيرُ وَالسُّمْرُ (٧)

وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ تَعَلَّقَتْ ... شَرَارَتُهُ بِالْجَمْرِ لَاحْتَرَقَ الْجَمْرُ (٨)

---

(٤) ميزان النهار : الشمس ، وميل الميزان : قرب الشمس من المغيب . وحسرات : جمع حسرة (بفتح فسكون) ، وهى التأسّف والتلهّف الشديد على الشيء الفائت .

يشير إلى ما يستشعره العاشق ونحوه من الهمّ والحسرة إذا أدبر النهار وأقبل الليل ، فى الليل تعظم الوحشة ، ويشتدّ الهمّ عادة على المهمومين .

(٥) ضلّة (بكسر الضاد وفتحها) : على غير هدى وصواب ، من قولهم فلان يلومنى ضلة ، إذا لم يوفّق للرشاد فى لومه ، ويقولون : فعل فلان ذلك ضلة ، أى فى ضلال ، وهو لضلة ، أى لغير رشد ، وذهب ضلة ، أى لم يدر أين ذهب ، . ومرجع الضمير فى « إنه » مفهوم من سياق الكلام ، أى ما يعانيه الشاعر من أوصاب وهموم وآلا م .

يخطّئ من ينسب إلى السحر ما يكابده من همّ وحسرة ووصب وذهول ، ويقول إنما يرجع هذا كلّه إلى نظرة فاتنة من نظرات الحبيب ، هى أعظم وأشدّ أثراً من السحر .

(٦) أمرى : شأنى وحالى . والاستفهام للتعجّب أو الإنكار . ومعنى الشطر الثانى أن الإنسان لا حيلة له فى دفع الحبّ أو توقّيه ، وقد صرّح بهذا فى البيت الآتى .

(٧) ألوت به : ذهبت به . والبيض : السيوف . والمباتير : القواطع ، جمع مبتار (بكسر فسكون) ، اسم آلة ، أو صيغة مبالغة من البتّر ، وهو القطع (بفتح فسكون فيهما) . والسمر : القنا والرماح ، جمع أسمر ، أو جمع سمراء ، وهما صفتان من السمرة (بضم فسكون) ، وهى لون بين البياض والسواد ، يقال رمح أسمر ، وقناة سمراء .

يشير إلى أنّ الحبّ يذلّ الأبطال ، ويستعبد الأحرار ، ولا تدفعه وسائل المقاومة ، ولا تردّه أسباب الدفاع .

(٨) الشرارة : واحدة الشرار (بفتح الشين فيهما) ، وهو ما يتطاير من النار . والجمر : جمع جمرة (بفتح فسكون فيهما) ، وهى القطعة الملتهبة من النار .

والمراد أن الحبّ أقوى وأشدّ تأثيراً من النار ، لأنه لو أصاب جمراً لزاده احتراقاً والتهاباً .

عَلَى أَنَّنِي كَاتَمْتُ صَدْرِىَ حُرْقَةً مِنَ الْوَجْدِ لَا يَقْوَى عَلَى حَمْلِهَا صَدْرُ (٩)

وَكَفْكَفْتُ دَمْعاً، لَوْ أَسَلْتُ شُئُونَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَاشَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ الْبَحْرُ (١٠)

حَيَاءً وَكِبْرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحَتْ بِهِ صَبْوَةٌ، أَوْفَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الْهَجْرُ (١١)

وَإِنِّى امْرُؤٌ لَوْلَا الْعَوَائِقُ أَذْعَنَتْ لِسُلْطَانِهِ الْبَدْوُ الْمُغِيرَةُ وَالْحَضْرُ (١٢)

---

(٩) كاتمته السرّ، واستكتمته إيّاه: سألته أن يكتمه. وحرقة الوجد: ألم الحبّ وتوهّجه، وحرارة الهوى. والحرقة فى الأصل: اسم من تحرّق الشىء بالنار أو احترق. وفى رواية الوسيلة الأدبية: « لا يقوى على مسّها صدر ».

يقول إنه أخفى فى نفسه حرقة من الوجد شديدة لا يستطيع غيره احتمال مثلها.

(١٠) كفكفت: منعت وصرفت ودفعت. والشئون: جمع شأن (بفتح فسكون)، وهو مجرى الدمع إلى العين. ومعنى « لو أسلت شئونه »: لو صببته.

(١١) حياء: مفعول لأجله لكفكف فى البيت السابق، أى كفكفته بسبب الحياء والكبر. وترجّحت: مالت. والصبوة: الحنين والشوق، والميل إلى الهوى، وجهلة الفتوّة. وفلّ: ثلم وكسر، من الفلّ: وهو الثلم فى السيف ونحوه، (وبابه ردّ). وغرب كلّ شىء: حدّه، يقال كفكفت من غربه، أى من حدّته وغلوائه. ومعنى « فلّ من غربه الهجر » أنه فقد الصبر والاحتمال والقوّة بسبب هجر الحبيب وصدوده وإعراضه.

والمعنى أنه كفكف دمعه، وكتم ما يجده من لواعج الشوق وتباريح الهوى حياء وتعظّماً وأنفة من أن يوصم بالضعف.

(١٢) العوائق: جمع عائق أو عائقة، اسم فاعل من عاقه عن كذا (من باب قال) أى حبسه عنه وصرفه ومنعه. وعوائق الدهر: الشواغل من أحداثه. وأذعنت: خضعت وذلّت وانقادت. والسلطان: القدرة والقوّة. والبدو (بفتح فسكون): أهل البادية، وهم القوم يسكنون المضارب والخيام فى الصحارى ونحوها، ويتنقّلون ببيوتهم وماشيتهم طلباً للمياه والمرعى ومنابت العشب والكلأ. والمغيرة: اسم فاعل من أغار الإنسان على عدوّه إغارة، أى هجم، أو دفع عليهم الخيل. والحضر (بفتحتين)، وإنّما سكّنت الضاد هنا لضرورة وزن الشعر: خلاف البدو، وهم المقيمون فى الحاضرة، وهى المدن والقرى والريف.

يفخر بأنه قوىّ شجاع شديد البأس، وقد كان فى استطاعته أن يخضع الناس باديهم وحاضرهم، ويتمكّن من أسباب الغلبة والسلطان — لولا العوائق والعقبات التى أقامها الدهر فى سبيله.

مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِين سُيُوفُهُمْ لَهَا فى حَوَاشِى كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ(١٣)

إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرْبَ سَيْفِهِ تَفَزَّعَتِ الْأَفْلَاكُ ، وَالْتَفَتَ الدَّهْرُ(١٤)

لَهُمْ عُمُدٌ مَرْفُوعةٌ ، وَمَعاقِلٌ وَأَلْوِيَةٌ حُمْرٌ ، وَأَفْنِيَةٌ خُضْرُ(١٥)

وَنَارٌ لَهَا فِى كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ لِمُدَّرِعِ الظَّلْمَاءِ أَلْسِنَةٌ حُمْرُ(١٦)

---

(١٣) النفر (بفتحتين) : الجماعة من الرجال . والغرّ : جمع الأغرّ ، وهو الشريف ، أو الكريم الأفعال . والحواشى : الجوانب والنواحى ، الواحدة حاشية . وداجية : مظلمة .

يفخر بأنه من قوم كرام شرفاء نابهين شجعان قد ألفوا الحرب ، وخاضوا غمارها ، وتمرّسوا بآفاتها ، فإذا حمى الوطيس ، وثار عجاج المواقع ، وأظلم الجوّ — كانت سيوفهم المتلألئة اللامعة فى وسط هذا النقع المثار كأنها أضواء الفجر تشقّ حواشى الليل وجوانب ظلمته .

(١٤) استلّ سيفه : أخرجه من غمده . وغرب السيف (بفتح فسكون) : حدّه . وتفزّعت : فزعت وخافت . والأفلاك : جمع فلك (بفتحتين) ، وهو مدار النجوم .

يصف قومه وقبيله بالسيادة ومنتهى القوّة والبأس الشديد ، فهم إذا تأهّبوا للقتال روّعوا وأخافوا حتى الأجرام العلويّة السماويّة التى لا تفزع بطبعها ولا تخاف ، والتفت إليهم الدهر التفات ذعر وقلق واهتمام . وهذا من المبالغات الشعرية المستحسنة .

(١٥) لهم : أى للنفر الغرّ الذين هم أهل الشاعر وعشيرته وقومه . وعمد (بفتحتين أو بضمتين) : جمع عماد ، وارتفاع الأعمدة : كناية عن الشهرة والمجادة ونباهة الشأن وعظم القدر . والمعاقل : جمع معقل (بفتح فسكون فكسر) ، وهو الملجأ والحصن ونحوهما . والألوية : جمع لواء (بكسر اللام) ، وهو العلم (بفتحتين) . واحمرار الألوية : اصطباغها بدماء الأعداء ، وهذا كناية عن شدّة البأس ، والانتصار فى الحروب ، قال عمرو بن كلثوم :

بأنّا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا

والأفنية : جمع فناء (بكسر الفاء) وهو الفضاء والسعة أمام البيت ، أو هو ما امتدّ من جوانب الدار . واخضرار الأفنية : كناية عن الكرم والغنى والرفاهة .

(١٦) مدّرع الظلماء : لابسها ، من ادّرعت المرأة ، إذا لبست الدرع (بكسر فسكون) وهو القميص والمراد بمدّرع الظلماء : السارى فى ظلام الليل .

والبيت كناية عن الجود والكرم والسخاء ، جرياً على عادة العرب من التمدّح بإيقاد النار فى الليالى المظلمة لهداية السارى ، وإكرام الضيف ، وإطعام الجائع ، وإيواء الخائف .

تَمُدُّ يَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ خَضِيبَةً ... تُصَافِحُهَا الشِّعْرَى، وَيَلْثِمُهَا الْغَفْرُ (١٧)

وَخَيْلٌ يَعُمُّ الْخَافِقَيْنِ صَهِيلُهَا ... نَزَائِـعُ مَعْقُودٌ بِأَعْرَافِهَا النَّصْرُ (١٨)

مُعَوَّدَةٌ قَطْعَ الْفَيَافِي ، كَأَنَّهَا ... خُدَارِيَّةٌ فَتْخَاءُ، لَيْسَ لَهَا وَكْرُ (١٩)

أَقَامُوا زَمَاناً ، ثُمَّ بَدَّدَ شَمْلَهُمْ ... مَلُولٌ مِنَ الْأَيَّامِ . شِيمَتُهُ الْغَدْرُ (٢٠)

(١٧) تمدّ : أى النار ، والكلام على التشبيه. وخضيبة : محمرّة اللون ، كأنها مخضوبة بالحناء ونحوه ، والمعروف فى اللغة أن فعيلاً بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث إن تبع موصوفه ، ولهذا قالوا: كفّ خضيب ، وامرأة خضيب . والشعرى (بكسر فسكون ففتح) : كوكب نيّر يطلع بعد الجوزاء ، وتزعم العرب أن الشعرى أخت سهيل (بضم ففتح فسكون) . واللثم : التقبيل ، (وبابه فهم وضرب) . والغفر (بفتح الغين وسكون الفاء) : منزل من منازل القمر ، ثلاثة أنجم صغار ، وهى من الميزان .

والبيت كناية عن ارتفاع النار ، وشدّة توقّدها ، وأنها فى يفاع من الأرض .

(١٨) الخافقان : المشرق والمغرب ، أو أفقاهما (بضم الهمزة والفاء) ، لأن الليل والنهار يخفقان فيهما ويختلفان . وصهيل الخيل : صوتها . ويعمّ الخافقين صهيلها: المراد أنه يسرى ويشتدّ حتى يصل إلى الخافقين ، وهى مبالغة فى كثرة الخيل ، وارتفاع صهيلها . ورواية الوسيلة الأدبية « يرجّ الخافقين » . ونزائع : غرائب ، أو نجائب تنزع إلى أصل كريم . أو مرحة سبّاقة ، الواحدة نزيعة (بفتح النون وكسر الزاى) . وفى لسان العرب : النزائع من الإبل والخيل : التى انتزعت من أيدى الغرباء ، أو التى انتزعت من أيدى قوم آخرين ، وجلبت إلى غير بلادها . ونزّع الفرس سَنَناً أى جرى طَلَقاً : أى شَوْطاً . ومن كلامهم : الخيل تنزع فى أعنّتها . والأعراف : جمع عرف (بضم فسكون) ، وهو الشعر النابت فى رقبة الفرس .

وصف الخيل بالكثرة وسرعة العدو ، والانتصار فى جميع المعارك والمواقع .

(١٩) الفيافى: جمع فيفاء (بفتح فسكون) ، وهى الصحراء أو المفازة لا ماء فيها . والخداريّة : العقاب (بضم العين) ، وهى طائر من عتاق الطير وسباعها وجوارحها ، ويضرب بها المثل فى القوّة ، وسرعة الطيران ، والإبعاد فيه . وفتخاء (بفتح فسكون) : من صفات العقاب ، يقال : عقاب فتخاء ، أى ليّنة الجناح ، لأنها إذا انحطّت كسرت جناحيها وغمزتهما ، وهذا لايكون إلا من اللّين . والوكر (بفتح فسكون) : عشّ الطائر . وليس لها وكر : كناية عن دءوبها وعدم استقرارها .

(٢٠) أقاموا : أى النفر الغرّ ، وهم أهل الشاعر وعشيرته وقومه . وبدّد شملهم: فرّق ما اجتمع من أمرهم . وملول : صفة من الملل ، وهو السآمة والضجر . والشيمة (بكسر الشين) : الخليقة والطبيعة . ورواية الوسيلة الأدبية للشطر الثانى : « أخو فتكات بالكرام ، اسمه الدهر » .

فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ آثَارِ نِعْمَةٍ تَضُوعُ بِرَيَّاهَا الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ(٢١)
وَقَدْ تَنْطِقُ الْآثَارُ وَهْيَ صَوَامِتٌ وَيُثْنِي بِرَيَّاهُ عَلَى الْوَابِلِ الزَّهْرُ(٢٢)
لَعَمْرُكَ مَا حَيٌّ وَإِنْ طَالَ سَيْرُهُ يُعَدُّ طَلِيقاً وَالْمَنُونُ لَهُ أَسْرُ(٢٣)
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلٌ يَحُلُّ بِهَا سَفْرٌ، وَيَتْرُكُهَا سَفْرُ(٢٤)
فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَرْءَ فِيهَا بِخَالِدٍ وَلَكِنَّهُ يَسْعَى، وَغَايَتُهُ الْعُمْرُ(٢٥)

---

(٢١) تضوع : تفوح وتنتشر . والريّا : الريح الطيّبة. والذكر (بكسر فسكون) : الصيت والشرف والثناء .

(٢٢) صوامت : جمع صامت ، صفة من الصمت ، وهو السكوت . والوابل : المطر الغزير .

والمعنى أن أولئك الذين هلكوا ، وفرّق شملهم الزمان من أهله وعشيرته — تنطق آثارهم بفضلهم وعظمتهم ، وتثنى عليهم مخلّفاتهم الباقية ، كما يثنى الزهر بريّاه على المطر الذى أنبته وأحياه .

(٢٣) العمر (بفتح فسكون) : الحياة، واللام فى « لعمرك » للابتداء وتوكيد مضمون الجملة ، والخبر محذوف ، والتقدير لعمرك قسمى (بفتحتين) ، أو لعمرك ما أقسم به . والمنون : المنيّة والموت ، وهى مؤنثة ، مأخوذة من المنّ (بفتح الميم وتشديد النون) ، وهو القطع ، لأنها تقطع المدد (بفتحتين) وتنقص العدد . والأسر (بفتح فسكون) : مصدر أسرت الأسير (من باب ضرب) أى شددته بالإسار (بوزن الإزار) ، وهو جلد أو نحوه يقيّد به الأسير ونحوه .

والمعنى أن الحىّ وإن طال سيره وانطلاقه فى هذه الحياة الدنيا لا يعدّ طليقاً ، لأن الموت سيأسره ، ويحبس حركته

(٢٤) حلّ بالمكان (من باب قعد) يحلّ حلولا : نزل به. والسفر (بفتح فسكون) : جماعة المسافرين ، يقال رجل سافر ، وقوم سفر ، (كصاحب وصحب) .

يشير إلى أنّ الناس والأحياء جميعاً يتعاقبون فى هذه الحياة الدنيا ، وأن الموت يدركهم ويفنيهم جيلا بعد جيل ، وقبيلاً فى إثر قبيل .

(٢٥) فيها : أى فى الحياة الدنيا . وبخالد : باق دائم .

ومعنى الشطر الثانى أن الإنسان فى حياته الدنيا يسعى إلى غاية محدودة ، ينتهى بانتهائها سعيه ، وهذه الغاية هى عمره وأجله .

وَقَالَ* يُهَنِّئُ الْخِدِيو عَبَّاس حِلْمِي الثَّانِي** بِعِيدِ جُلُوسِهِ .:

لِمِثْلِ ذَا الْيَوْمِ كَانَ الْمُلْكُ يَنْتَظِرُ | فَاسْعَدْ بِهَا دَوْلَةً عُنْوَانُهَا الظَّفَرُ(١)
تَهَلَّلَتْ مِصْرُ بَعْدَ الْيَأْسِ ،وَابْتَهَجَتْ | بِكَ الرَّعِيَّةُ حَتَّى عَمَّهَا الْحَبَرُ(٢).
لَا زِلْتَ لِلْمُلْكِ وَالْإِسْلَامِ تَنْتَصِرُ | نالَتْ بِنَصْرِكَ مَا كَانَتْ تُؤَمِّلُهُ(٣)

* هذه المدحة لم تنشر فى الطبعات السابقة ؛ لأنها مطموسة فى أصل الديوان . وقد رأينا نشرها فى هذه الطبعة مع المطموسات التى استطعنا قراءتها ، لتتم الفائدة بإذن الله .

** عباس حلمى الثانى (١٨٧٤-١٩٤٤) : الابن الأكبر للخديو توفيق . تقلد منصبه سنة ١٨٩٢ وهو فى الثامنة عشرة . وبطموحه وبعد همته حاول مقاومة الاحتلال البريطانى ، ولكنه فى النهاية غلب على أمره ، وسلبه المعتمد البريطانى اللورد كتشنر (١٩١١ - ١٩١٤) سلطانه الفعلى . ولما نشبت الحرب العالمية الأولى انتهز البريطانيون الفرصة ؛ ففرضوا حمايتهم على مصر ، وخلعوا عباساً وهو فى الآستانة فى ديسمبر سنة ١٩١٤ . وفى سويسرا أقام معظم سنوات نفيه . وبعد وفاته نقل جثمانه إلى مصر .

(١) « ذا » : اسم شارة . والدولة (بفتح الدال وضمها) : الاستيلاء والغلبة . والدولة : جمع من الناس مستقرون فى إقليم معين الحدود ، مستقلون وفق نظام خاص . والدولة (فى الأصل) : اسم من تداول القوم الشىء بينهم تداولا : أى كان مرة لهذا ، ومرة لهذا . وقد تطلق الدولة على الهيئة الحاكمة فى البلاد . ومن المعانى التى تحتملها « الدولة » وتناسب المقام هنا : الحكم ، والملك ، والولاية ، والإمارة ، والسلطان ، ومنصب الخديوية . والظفر : الفوز ، والغلبة .

فى الشطر الأول قال : إن الملك كان يترقب فى شوق اليوم السعيد الذى يتولى فيه المهنأ الحكم والإمارة . وفى الشطر الثانى قال : إن دولته شعارها الفوز والغلبة . ودعا وتمنى أن يحيا بها حياة اليمن والسعادة ، والتوفيق والهناءة .

(٢) تهللت : تلألأت ، وأشرقت ، وفرحت . وابتهجت : سرت سروراً تاماً . ورعية الملك ونحوه : قومه ، وأهل البلاد التى يحكمها ، ويدبر أمورها ، ويرعى مصالحها . والحبر : الابتهاج والسرور ، والنضرة ، والنعمة . (وفعله من باب فرح) .

(٣) قوى الممدوح بلاده ، وخلصها من عوامل الضعف والفساد ؛ فكان هذا نصراً مبيناً تحققت به آمالها فى العدل والأمن ، والطمأنينة والرخاء . والشطر الثانى دعاء له بأن يبقى على الدوام غيوراً على الإسلام والملك ، حريصاً على سلامتهما وقوتهما ؛ وبهذا يغلب ويفوز وينتصر . أو دعاء له بأن يبقى على الدوام شديد البأس ينتقم ممن يحاول الإساءة إلى الملك ، أو الخروج على الإسلام . وفى كلمة « الإسلام » هنا إشارة إلى سلامة الدين ، وقوة العقيدة فى المادح والممدوح .

فَالْعَدْلُ مُنْبَسِطٌ . وَالْجَوْرُ مُنْقَبِضٌ وَالْأَمْنُ مُنْسَدِلٌ ، وَالْخَوْفُ مُنْشَمِرُ (٤)

نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَافَى بَعْدَ دَاجِيَةٍ كَمَا تَبَلَّجَ عَنْ مَكْنُونِهِ السَّحَرُ (٥)

فَالنَّاسُ مِنْ طَرَبٍ فِى نَشْوَةٍ أَخَذَتْ بِهِمْ ؛ فَمالُوا ؛ كَأَنَّ الْقَومَ قَدْ سَكِرُوا (٦)

مُسْتَوْفِضُونَ إِلَى الدَّاعِى، تَسِيلُ بِهِمْ أَرْضٌ، وَتَجْمَعُهُمْ أُخْرَى، فَهُمْ زُمَرُ (٧)

---

(٤) منبسط : منتشر ، ممتدّ ، عامّ ، شامل ، تامّ موفور ، والجور : الظلم . ومنقبض : متجمّع منطو . والمراد أنه معدوم ، لاوجود له . اسم فاعل من انقبض الشيء : أى تجمع وانطوى : خلاف اتّسع وانبسط . وسدل الشعر أو الثوب ، أو الستر ، أو نحوه : أرسله وأرخاه ، فانسدل انسدالا . والمراد بالإنسدال : الاستتباب ، والاطّراد ، والاستقرار . وشمر الشيء (من باب نصر) : قلّصه ، وضمّ بعضه إلى بعض . وشمر الثوب عن ساقه : رفعه ، فانشمر انشماراً . وانشمار الخوف : زواله وذهابه ؛ فهو تكرار وتأكيد لمعنى انسدال الأمن . وكذلك انقباض الجور تكرار وتأكيد لمعنى انبساط العدل .

(٥) وافى : أتى . وداجية : مظلمة . وتبلّج الصبح : أسفر فأنار ، وأشرق وأضاء . والسحر : آخر الليل قبيل الفجر . ومكنونه : مايكنّه ويستره ويخفيه . وتبلّج السحر عن مكنونه : أى انكشف السحر عما كان يكنه قبل انكشافه من محاسن الطبيعة ، وبهجة الكون ، وزينة الدنيا ، ونضرة الحياة .

أشار إلى دياجى الفتن ، وظلمات المخاوف التى عمّتْ البلاد قبل ولاية الممدوح ، فلمّا تولاّها كان نصراً من الله أطفأ الفتن ، وأزال المخاوف ، وبسط العدل ، ونشر الأمن ؛ كما يسفر الصبح ، فيبدّد ظلمات الليل ، ويزيل مخاوفه ، ويكشف محاسن الدنيا ، ويبسط الأمن والطمأنينة ، ويبعث الحركة والحياة .

(٦) يراد بالطرب : هزّة الفرح ، وخفّة السرور . والنشوة (مثلثة النون) : السكر . أو أوّله . أو الارتياح للأمر ، والنشاط له (وفعله من باب فهم) . وأخذت بهم : أمسكت بهم : أى سيطرت عليهم . أو « بهم » : بمعنى « فيهم » من قولهم : أخذت فيه الخمر : أى أثّرت فيه ، وأسكرته . ومالوا : المراد تمايلوا ، وترنّحوا ترنّح السكارى .

(٧) مستوفضون : مسرعون . وتسيل بهم أرض : يجرون فيها من كل وجه ، ويموجون ، ويتدفّقون . مستعار من سيل الماء ونحوه . قال الشاعر :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصـــاره بوجـــوه كالدنانـــير

وزمر : أفواج وجماعات : جمع زمرة (بوزن غرفة وغرف) .

فِى كُلِّ نَادٍ خَطِيبٌ حَوْلَ مِنْبَرِهِ جَمْعٌ ،وَفِى كُلِّ وَادٍ تَرْكُضُ الْبَشَرُ (٨)

يَسْتَعْذِبُ السَّمْعُ مَا يُمْلِي اللِّسَانُ لَهُ وَيَعْلَقُ الْقَلْبُ مَايُوحِى بِهِ الْبَصَرُ (٩)

فَلَا شَقَاءٌ . ولَا بَأْسٌ ، وَلَا فَزَعٌ وَلَا عَدَاءٌ ، وَلَا غَدْرٌ ، وَلَا حَذَرُ (١٠)

---

(٨) النادى: مجلس القوم ومتحدثهم ما داموا مجتمعين فيه . والوادى : كلّ منفرج بين جبال ، أو تلال ، أو آكام . يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً . سمى بذلك لأن الماء يدى فيه (من باب وعى) : أى يسيل ويجرى . وجمعه أودية . ويراد بها هنا: الطرق والشوارع والمسالك . وتركض : تعدو ، وتجرى ، وتسرع (وبابه نصر) . والبشر : الإنسان . ويراد به هنا : أفواج الخلق والناس .

وفى هذا البيت والبيتين السابقين تصوير لظواهر طرَب الناس وابتهاجهم وفرحهم الشديد وحفاوتهم بهذا العيد السعيد .

(٩) يستعذب : يرتضى ، ويستحلى ، ويستحسن . مستعار من استعذب الماء : أى استقاه عذباً سائغاً . وأملى عليه الكتاب إملاء : قال له ، فكتب عنه . واللام فى « له » قائمة مقام « على » . وعلقه (من باب فرح) : هويه ، وأحبّه . أو نشب فيه ، واستمسك به . أو علمه وأدركه . ويوحى به البصر : يدركه البصر . والوحى والإيحاء (فى الأصل) : الإشارة ، والرسالة ، والكتابة ، والإلهام ، والكلام الخفىّ ، وكلّ ماألقيته إلى غيرك ليعلمه .

ولعلّ المعنى : أن الناس يستمعون لخطباء الأندية والمحافل فى هذا العيد ؛ فيستعذبون ما يقال فى إطراء الممدوح ، والتنويه بمحامده . ويروْن مباهج العيد وزيناته ، فتعتلقها قلوبهم لتعلّقهم بصاحب العيد ، وإكبارهم له ، وقد يكون المعنى عامّاً ؛ فالناس فى عهد الممدوح يستعذبون ما تجرى به الألسنة من امتداح هذا العهد ، والتنويه بمحاسنه ، وإطراء الحياة فيه . وتهوى قلوبهم ما يبصرونه فى غدُوّهم ورواحهم من ظواهر العمران ، وأمارات السعادة ، ونتائج الأمن والعدْل ، والرخاء والطمأنينة .

(١٠) البأس : العذاب . والخوف . أو هى « يأس » بالياء . ونفى اليأس : معناه أن آمال الناس ممدودة ، تعينهم على العمل ، وتضىء لهم ظلمات الحياة ، وتوسّع لهم مضايقها . والفزع : الذعر ، والخوف . والعداء (بفتح العين) : العدوان والظلم : مصدر عدا عليه : أى جار عليه ، وظلمه ، وتجاوز الحدّ . أو هى العداء (بكسر العين) : مصدر عاداه : أى خاصمه ، وصار عدوّاً له . والغدر : الخيانة ، ونقض العهد . والحذر : الخوف والتحرّز : مصدر حذره (من باب تعب) : أى خافه فاحترس منه .

نفى كلّ ما يكدّر الصفو ، ويهدّد الحياة . ومعنى هذا : أن الناس فى عهد الممدوح ينعمون ويرفلون فى بحبوحة السعادة ، وضياء الأمل ، وظلال الأمن والطمأنينة ، والعدالة والنظام ، وتجمعهم روابط الثقة والتعاون والائتلاف والوداد .

عِيدٌ تَهَلَّلَتِ الدُّنْيَا بِهِ فَرَحاً ... وَنِعْمَةٌ لَيْسَ يَقْضِى حَقَّهَا الْبَشَرُ (١١)

وَكَيْفَ لَا تَفْخَرُ الدُّنْيَا بِطَلْعَةِ مَنْ ... لَوْلَاهُ لَمْ يَبْقَ فِيهَا لِامْرِئٍ وَطَرُ؟ (١٢)

فَاسْتَبْشِرُوا يَابَنِى الْأَوْطَانِ؛ إِنَّ لَكُمْ ... مِنْ عَدْلِهِ جَنَّةً يَجْرِى بِهَا نَهَرُ (١٣)

هُوَ الْمَلِيكُ الَّذِى لَوْلَا سِيَاسَتُهُ ... مَا كَانَ لِلْعَدْلِ لَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ (١٤)

---

(١١) تهللت: أضاءت وتلألأت . وقضى الحقّ: أدّاه وافياً تامًّا . وحقّ النعمة: أن تشكر والبشر : الناس . أو الإنسان .

ومعنى الشطر الثانى : أن ولاية الممدوح من نعم الله العظمى ، وأنها أجلّ وأعظم من شكر الناس لها ؛ فليس فى مقدورهم الوفاء بحقّها من التقدير ، وحسن الثناء . والغرض المبالغة فى المديح بتعظيم هذه النعمة .

ويلاحظ أن الشاعر كرر كلمة « البشر » فى نهايتى البيتين : الثامن والحادى عشر . وهذا عيب من عيوب القافية ، اسمه « الإيطاء » : وهو إعادة الكلمة المشتملة على حرف الروىّ لفظاً ومعنًى ، من غير أن يفصل بين اللفظين المكرورين سبعة أبيات فأكثر .

(١٢) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى ، فالدنيا ينبغى أن تبتهى وتفتخر بطلعة الممدوح : أى برؤيته ، أو بوجهه ، أو بشخصه وإقباله ، أو بولايته وإمارته ، وحكمه وسلطانه . ولو لم تفخر به لكان أمرها عجيباً مستنكراً . وفى « الطلعة » معنى السموّ والارتفاع؛ فكلّ مابدا لك من علوّ فقد طلع عليك ومن كلامهم : « حيّا الله طلعتك » . وفيها : أى فى الدنيا . والوطر : الحاجة ، والبغية . أو الحاجة فيها مأرب وهمّة . وجمعه أوطار (بوزن سبب وأسباب) .

والمعنى : أن الممدوح أحيا بولايته آمال الناس فى الحياة ، وبعثَ هممهم، ووسّع آفاقهم . ولولاه لساءت أحوالهم ، وضاقت عليهم الأرض ، واستيئسوا من الدنيا ، وانقطعت فيها أوطارهم ؛ فكان من حقّه عليهم وعلى الدنيا أن تفخر بطلعته ، وتبتهج بإمارته ، وتقرن بالتحية والتكريم قدومه وإقباله .

(١٣) النهر (بسكون الهاء وفتحها) . وقد يعبر بالواحد عن الجمع . قال تعالى : « إنّ المتقين فى جنّات ونهر » : أى : أنهار . الآية رقم ٥٤ من سوره القمر .

نوّه بعدل الممدوح ، وجعله ضياءً وسعةً ، وراحةً وطمأنينةً ، ونعيماً وسعادة ، وجنةً تجرى من تحتها الأنهار . ودعا بنى الوطن إلى الاستبشار والابتهاج بهذا الحُكم المستقيم الصالح ، والملك القائم على العدالة والإنصاف والمساواة .

(١٤) المليك : صاحب الملك ، ومن بيده الأمر والسلطان . ومثله الملك (بسكون اللام وكسرها) . وساس الناس يسوسهم سياسة : تولّى رياستهم وقيادتهم . وساس الأمور : دبّرها ، وقام بإصلاحها . وعين الشيء : ذاته ونفسه . وأثره : ما بقى من رسمه .

أَفْضَى إِلَى مِصْرَ والدُّنْيَا عَلَى خَطَرٍ   فَمَا تَمَثَّلَ حَتَّى أَجْفَلَ الْخَطَرُ(١٥)

مُوَفَّقٌ لِصَنِيعِ الْخَيْرِ ، مُبْتَدِعٌ   لِمَا تُقَصِّرُ عَنْ إِدْرَاكِهِ الْفِكَرُ(١٦)

يَهْمِى نَدًى ،وَرَدًى ؛ جُودًا ، وَمَحْمِيَةً   كَذَلِكَ الدَّهْرُ ،فِيهِ النَّفْعُ وَالضَّرَرُ(١٧)

---

(١٥) أفضى إلى مصر : وصل إليها. والمراد تقلّد أمرها، وتولّى ملكها ، واحتمل مسئولية الحكم والرياسة . والواو : واو الحال . والجملة الاسميّة بعدها حاليّة . والخطر : الإشراف على الهلاك . وتمثّل بين يديه : مثل (من باب دخل) : أى قام منتصباً . والمراد قام بالأمر فى البلاد ، واستقرّ على عرشها . وأجفل إجفالا : تولّى وأدبر وهرب مسرعاً .

يشير إلى الفتن والمخاطر والمظالم التى عَمّتْ العباد والبلادَ قبل أن يتولاّها الممدوح ، فلما وليها قضى على هذا كلّه ، وأقام العدل والنظام ، وبَسطَ على الناس ظلال الأمن والطمأنينة . ويلاحظ أن هذه الفكرة مرتْ فى البيتين الثانى والخامس . وتلمح فى الأبيات الرابع ، والعاشر ، والرابع عشر .

(١٦) الصنيع : الإحسان . والفعل الحسن . وكل ما صنع من خير ونحوه . وصنيع الخير : عمله على وجه الإخلاص والإتقان والإتمام . أو إضافة «صنيع» إلى الخير من إضافة الكلمة إلى مرادفها . ومبتدع : اسم فاعل من ابتدع الشيء : أى استنبطه واستحدثه وأنشأه على غير مثال سابق . والفكر (بكسر ففتح) : جمع فكرة: وهى النظر والرويّة . والتأمّل والتدبّر . والصورة الذهنيّة لأمر ما . وأن تعمل العقل فى معلوم لتتوصّل بهذا الإعمال إلى معرفة مجهول . ويراد بالفكر هنا : الأذهان والعقول .

مدَحه بأنه موفّق لأعمال الخير والبرّ ، والإصلاح والإحسان . وأنه فى تفكيره وتدبيره فائق غالب ، راجح العقل ، متوقّد الذهن ، يرْمى برأيه الشواكل ، ويهتدى إلى الرشد ، ويبتدع ما لا يستطيعه غيره .

(١٧) همى الماء ونحوه (من باب رمى) : سال ، وانصبّ ، وجرى . والندى : الجود ، والسخاء ، والخير . والردى : الهلاك والموت . (وفعله من باب صدى) . والجود : صفة تحمل صاحبها على إفادة ما ينبغى من الخير لغير عوض . وحمى الشيء (من باب رمى) حماية ، ومحمية : منعه ، ودفع عنه . وفعل ذلك محمية لعرضه : أى حفاظاً عليه ، ودفاعاً عنه . والترتيب الأصلىّ فى الشطر الأول : يهمى ندًى من أجل الجود . ويهمى ردًى من أجل المحمية .

والمعنى : أن الجود والمحمية من محامد الممدوح ومزاياه ؛ فهو فى رضاه سخىّ جواد كريم فيّاض ، يبسط يديه بالخير والندى ، والنعم والمبرّات . وفى سخطه حازم صارم ، غيور على ما ينبغى حمايته والدفاعُ عنه ، وفى هذا السبيل يرْدى من يستحقّ الردَى والهلاك . وفى الشطر الثانى قرَنه بالدهر ، وشبّهه به ؛ فقد اعتاد الناسُ أن يتهيبوا الدهر ، ويضيفوا إليه الخير والشر ، والنفع والضرّ ، والمسرّة والمساءة .

يَسْطُو بِرِفْقٍ إِذَا مَا الْحَزْمُ أَعْوَزَهُ ... إِلَى الْعِقَابِ ، وَيَعْفُو حِينَ يَقْتَدِرُ(١٨)

فَالْبَطْشُ مَالَمْ يَكُنْ عَنْ حِكْمَةٍ سَرَفٌ ... وَالْحِلْمُ مَالَمْ يَكُنْ عَنْ قُدْرَةٍ خَوَرُ(١٩)

إِذَا ارْتَأَى بَدَرَتْ أَنْوَارُ حِكْمَتِهِ ... كَمَا تَطَايَرَ بَعْدَ الْقَدْحَةِ الشَّرَرُ(٢٠)

---

(١٨) يسطو : يبطش ويقهر . والمراد يعاقب . و « ما » زائدة بعد « إذا » . والحزم : مصدر حزم الرجل رأيه أو أمره (من باب ضرب) : أى أحكمه ، وضبطه ، وأتقنه ، وأخذ فيه بالثقة . وأعوزه الشيء : احتاج إليه . أما أعوزه الشيء إلى كذا فلا نعرفه . ولو قال : « إذا ما الحزم أحوجه إلى العقاب » لاستقام له المعنى واللغة . أو المراد يسطو برفق إلى العقاب (أى يعمد له ويقوم عليه) إذا أعوزه الحزم : أى إحتاج إليه ، ولم يجد منه بداً .

فى البيت السابق قال : إن الممدوح يهمى ردًى للمحمية ، أو فيما يتطلب المحمية ، أو فيما يثير الحميّة والأنفة والغضب المشروع ، ويوجب الدفاع عن الملك ، أو العرض ، أو الدين ، ويفرض النظام والقانون . وفى هذا البيت تقييد وتحديد لهذا المعنى ؛ فإنه لا يعاقب إلا إذا أحوجه الحزم إلى العقاب . وهو فى عقوباته رفيق ليّن الجانب ، حكيم رحيم القلب ، لا يشتطّ ، ولا يجور . وإذا تمكّن من الجانى ، واقتدر عليه عفا عنه وسامحه ؛ وقد يكون فى العفو والسماح تقويمه وإصلاحه ، وهدايته وطاعته .

(١٩) البطش : مصدر بطش به (من بابى ضرب وقتل) : أى سطا عليه ، وفتك به ، وأخذه بصولة وعنف وشدّة . ومن معانى الحكمة : العدل ، والعلم ، والحلم ، وصواب الأمر وسداده . والسرف : مجاوزة الحدّ . وضدّه القصد والاعتدال . قيل : إنه اسم من الإسراف . والسرف أيضاً : مصدر سرف (من باب تعب) : أى جهل ، أو غفل . والحلم : الصفح ، والأناة ، والصبر . وخور : ضعف ، وانكسار . (وفعله من باب تعب) .

والمعنى : أن العقوبات ينبغى أن تكون فى نطاق الحكمة والعدل ، فإن تجاوزتهما تجاوزت القصد والاعتدال ، وكانت سرفاً وجهلا ، وانتهت إلى شرّ النتائج ، وأوخم العواقب . وكذلك الحلم أو الصفح عن المسيء أو المجرم ، لا يحمد ، بل لا يسمى حلماً أو صفحاً إلا بعد التمكّن منه ، والاقتدار عليه . وإلا كان عجزاً وضعفاً يجرّئ على الإساءة والإجرام. والبيت يجرى مجرى الحكم والأمثال ، وصلته بالبيت السابق واضحة وثيقة .

(٢٠) ارتأى الأمر وفى الأمر : نظر فيه ، وتدبّره . وبدرت : ظهرت فى سرعة ، وبلا توان . (وبابه دخل) . ويراد بحكمته : رجاحة عقله ، وسداد رأيه ، وصحّة تفكيره ، ومحكم تدبيره . وتطاير : تفرّق ، وسطع ، وانتشر . والقدحة : اسم مرة من قدح النار من الزند (من باب قطع) . وقدح بالزند : أى أوراه ، وأخرج ناره . ومنه القدّاحة ، والمقدحة : أى حجر القدح وحديدته . والشرر : ما تطاير من النار . واحدته شررة .

يقتدح الإنسان النار بأدوات الاقتداح ؛ فلا تلبث أن يتطاير شرارها ، ويسطع ضياؤها . وكذلك الممدوح يرتئى فى خفايا الأمور ومعضلاتها ؛ فلا يلبث أن يرى برأيه الشواكل ، ويضيء بحكمته جوانبها .

دَلَّتْ عَلَى فَضْلِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ ... وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ أَثَرُ (٢١)

إِذَا تَبَسَّمَ فَاضَتْ رَاحَتَاهُ لَنَا ... جُودًا ، وَمَا كُلُّ بَرْقٍ خَلْفَهُ مَطَرُ (٢٢)

تَملَّ بِالْمُلْكِ يَا عَبَّاسُ ، وَابْقَ لَنَا ... فِى نِعْمَةٍ لَمْ يُخَالِطْ صَفْوَهَا كَدَرُ (٢٣)

فَأَنْتَ مِنْ دَوْحَةٍ فِى الْمَجْدِ بَاسِقَةٍ ... طَابَتْ ، وَدَلَّ عَلَيْهَا النَّوْرُ وَالثَّمَرُ (٢٤)

---

(٢١) يقول : إن إمارة الممدوح وحكمه وأعماله وتصرفاته قائمة على الحكمة ، أى على العدل ، والعلم ، والحلم ، والحق ، والإتقان والإحكام ، والإصابة والسداد ؛ ولهذا كلّه آثار ودلائل تنمّ على فضل الممدوح وإحسانه . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكد لمعنى الشطر الأول ؛ فلكلّ شيء من ذاته أثر يشير إليه ، ويدلّ عليه .

(٢٢) تبسّم الإنسان تبسمًا : انفرجت شفتاه عن ثناياه ، فضحك قليلا من غير صوت . وهو أقلّ الضحك وأحسنه . وفاض الماء ونحوه : كثر ، وسال ، وجرى . وفاض الإناء : امتلأ (وبابه باع) . وراحتاه : كفّاه . والبرق : نور يلمع فى السماء على إثر انفجار كهربىّ فى السحاب ، فيسبق المطر ، ويؤذن به فى الكثير الغالب .

جعل ابتسام الممدوح أمارة رضاه وأريحيّته ، وبشارة جوده وسخائه . وهو فى هذا فياض ، غزير الهبات ، واسع المبرات . وإذا كان المطر قد يتخلف بعد ظهور البرق ، فإن كرم الممدوح لا يغيض ، ولا يتخلّف .

(٢٣) « تملّ » : أمر من تملى عمره ، أو عيشه ، أو شبابه ، أو حبيبه ، أو نحو ذلك : أى أمهل له فيه ، وطال استمتاعه به . والمفهوم من المعجمات التى تحت أيدينا أن هذا الفعل يتعدى إلى المفعول به بنفسه .

دعا ، وتمنّى أن يستمتع الممدوح طويلا بملكه ، ويبقى لرعيّته فى نعمة سابغة ، وحياة رائقة لا يشوبها كدر .

(٢٤) الدوحة : الشجرة العظيمة . وباسقة : طويلة ، مرتفعة الأغصان . وطابت : زكت ، ونمت ، وجادت . والنور : الزهر (بفتح فسكون فيهما) . أو الأبيض منه . واحدته نورة . وجمعه أنوار .

جمع للدوحة كلّ ما يناسبها من المزايا والمحاسن ؛ فهى باسقة ، طيّبة ، مزهرة ، مثمرة .

والغرض تمجيد الممدوح وأسرته ، والتنويه بإعراقها فى الكرم والشرف .

بَلَغْتُ مَجْهُودَ نَفْسِي فِي الثَّنَاءِ، وَلَمْ ... أَبْلُغْ عُلَاكَ، وَأَنَّى يُدْرِكُ الْقَمَرُ؟(٢٥)

فَامْنُنْ عَلَيَّ بِإِصْغَاءٍ إِلَى كَلِمٍ ... تُعَدُّ فِي النُّطْقِ إِلَّا أَنَّهَا دُرَرُ(٢٦)

وَسَمْتُهَا بِاسْمِكَ الْعَالِي؛ فَأَلْبَسَهَا ... حُسْناً تَتِيهُ بِهِ الدُّنْيَا وَتَفْتَخِرُ(٢٧)

إِذَا تَلَاهَا لِسَانُ الشُّكْرِ قَامَ لَهَا ... حُبًّا بِذِكْرِ عُلَاكَ الْبَدْوُ وَالْحَضَرُ(٢٨)

لَا زِلْتَ مَوْرِدَ آمَالٍ تَحُومُ بِهِ ... طَيْرُ الْقُلُوبِ إِلَى أَنْ تُنْشَرَ الصُّوَرُ(٢٩)

---

(٢٥) المجهود: الجهد، والطاقة، والاستطاعة. والثناء: المدح والإطراء. و «أنى»: بمعنى «أين» أو «متى»، أو «كيف». والمراد أنه لا سبيل إلى إدراك القمر.

يقول: إنه فى هذه المدحة بذل كلّ جهده وطاقته، ولكنه مع هذا لم يوفّ الممدوح حقه، ولم يصل إلى علاه، ولم يبلغ فى تصوير محامده ومزاياه ما كان يرتجيه ويتمناه. كالقمر يتعذّر بلوغه، ولا يستطاع إدراكه وفى البيت إشارة إلى نباهة شأن الممدوح، وسموّ قدره، وشمول فضله.

(٢٦) منّ عليه بكذا: أنعم عليه به من غير تعب. (وبابه ردّ). وأصغى إلى حديثه إصغاء: استمع له، وأقبل عليه. والكلم: جمع كلمة. والمراد كلمات هذه المدحة. والدرر: جمع درّة: وهى اللؤلؤة العظيمة.

فى الشطر الأول طلب الشاعر إلى ممدوحه أن يقبل على مدحته، ويستمع لها، ويحفل بها، وعدّ هذا الإقبال والإصغاء من مِنَن الممدوح وصنائعه ونعمه عليه. وفى الشطر الثانى افتخر — على عادته — بشعره؛ فقال: إنه درر ولآلئ وإن عدّ من الكلام الذى ينطق به الإنسان. وفى هذا الفخر إغراء بالإصغاء.

(٢٧) وسمتها: وسمت الكلم: أى هذه المدحة: أى. أعلمتها، وميّزتها. وبابه وعد. والسمة: العلامة المميّزة. وتتيه: تزهو، وتتعظّم، وتتكبّر.

(٢٨) تلاها: تلا هذه المدحة: أى قرأها وأنشدها. ولسان الشكر: اللسان الشاكر للممدوح: أى اللسان الناطق بالشكر، المتغنى بمحامد الممدوح ومناقبه. وقام لها: احتفى بها. والبدو: أهل البادية الذين يتنقّلون فى الصحراء وراء المرعى والماء. والحضر: سكان المدن والقرى والريف. وهم خلاف البدو. ويراد بالبدو والحضر: الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم ونزعاتهم. وفى البيت إشارة إلى تعلّق رعيته به، والتفافها حوله، وحفاوتها بما ينشده الشعراء والأدباء من شكره وتحميده، وحبها لما يذكره الذاكرون من مناقبه ومعاليه.

(٢٩) المورد: المنهل، والمشرب. وحام حول الشىء، وعليه: دار به. وبابه قال. وطير القلوب: القلوب الشبيهة بالطير. ونشر الله الموتى، وأنشرهم: بعثهم وأحياهم. ويراد بالصور: أرواح الموتى وأجسامهم. وإلى أن تنشر الصور: أى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويبعث الله من فى القبور. والغرض الإشارة إلى أن حبّ الرعيّة لهذا الممدوح، وتعلّق القلوب به باق مستمرّ، ممدود الأمد، طويل الأجل، لا يحول ولا يزول. دعا للممدوح فى ختام هذه المدحة بأن يبقى على الدوام مأمولا مرجوًّا، تتعلّق به القلوب، وتحوم عليه، وتقصد إليه.

وَقَال يَصِفُ الْهَرَمَيْنِ :

سَلِ الْجِيزَةَ الْفَيْحَاءَ عَنْ هَرَمَىْ مِصْرِ لَعَلَّكَ تَدْرِى غَيْبَ مَالَمْ تَكُنْ تَدْرِى (١)

بِنَاءَانِ رَدَّا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عَنْهُمَا وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يَغْلِبَا صَوْلَةَ الدَّهْرِ (٢)

أَقَامَا عَلَى رَغْمِ الْخُطُوبِ لِيَشْهَدَا لِبَانِيهِمَا بَيْنَ الْبَرِيَّةِ بِالْفَخْرِ (٣)

فَكَمْ أُمَمٍ فِى الدَّهْرِ بَادَتْ ، وَأَعْصُرٍ خَلَتْ .وَهُمَا أُعْجُوبَةُ الْعَيْنِ والْفِكْرِ (٤)

تَلُوحُ لِآثَارِ الْعُقُولِ عَلَيْهِما أَسَاطِيرُ لَا تَنْفَكُّ تُتْلَى إِلَى الْحَشْرِ (٥)

---

(١) الفيحاء : الواسعة . وهرما مصر العظيمان على مقربة من مدينة الجيزة فى جنوبيّها الغربىّ ، ويعدّان من عجائب الدنيا ، شيّد أكبرهما « خوفو » ، أما الثانى فبانيه « خفرع » وهما من ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٢٩٠٠ إلى سنة ٢٧٥٠ ق. م.) وكان عصر هذه الأسرة أزهى عصور الدولة المصرية القديمة .

ومعنى الشطر الثانى : لعلك تعرف ما غاب عنك من أحوال الأقدمين .

(٢) الصولة : الاستطالة والسطوة والبطش والشدّة .

يشير إلى بقائهما على الرغم من تقلّب الأيام ، وكرّ العصور والأعوام .

(٣) الخطوب : نوازل الدهر وشدائده ، واحدها خطب (بفتح فسكون) . والبريّة : الخلق (بفتح فسكون) .

(٤) بادت : هلكت وزالت . والأعصر : جمع عصر (بفتح فسكون) ، وهو الدهر والزمان . وخلت : مضت . والأعجوبة (بضم فسكون) : الأمر الذى يتعجّب منه ، ويشير بالشطر الثانى إلى ما يستولى على الناظر إليهما ، والمفكّر فيهما من العجب والدهش وانفعال النفس مما يبدو عليهما من مظاهر العظمة والجلال والإحكام .

(٥) تلوح : تبدو وتظهر ، ويريد بظهور آثار العقول على الهرمين : ما يتجلّى للناظر إليهما من عبقريّة الذين أشرفوا عليهما ، ورفعوا قواعدهما . والأساطير : جمع أسطار (بفتح فسكون) ، والأسطار جمع سطر (بفتح فسكون) وهو الصفّ من الكتابة . ولا تنفك : لا تزال . وتتلى : تقرأ . ويوم الحشر: يوم القيامة .

والمعنى أن ما يبدو على الهرمين من معانى العظمة والجلال والإتقان سيبقى أبد الدهر دالا على عبقريّة أصحابهما ومقدرتهم ونبوغهم .

رُمُوزٌ لَو اسْتَطْلَعْتَ مَكْنُونَ سِرِّهَا   لَأَبْصَرْتَ مَجْمُوعَ الْخَلَائِقِ فِى سَطْرِ (٦)

فَمَا مِنْ بِنَاءٍ كَانَ ، أَوْ هُوَ كَائِنٌ   يُدَانِيهِمَا عِنْدَ التَّأَمُّلِ وَالْخُبْرِ (٧)

يُقَصِّرُ حُسْناً عَنْهُمَا «صَرْحُ بَابِلٍ»   وَيَعْتَرِفُ «الْإِيوَانُ» بِالْعَجْزِ وَالْبَهْرِ (٨)

فَلَوْ أَنَّ «هَارُوتَ» انْتَحَى مَرْصَدَيْهِما   لَأَلْقَى مَقَالِيدَ الْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ (٩)

---

(٦) رموز : جمع رمز (بفتح فسكون) ، وهو الإشارة . والمكنون : المستور الخفىّ . والخلائق : جمع خليقة (بفتح الخاء وكسر اللام) ، وهى الناس ، كالخلق (بفتح فسكون) . والخليقة أيضاً : الطبيعة التى يخلق بها الإنسان .

والمعنى أنك لو تأمّلت هذه الرموز والإشارات ، وأنعمتَ النظر فيها ، واطّلعت على الخفىّ المستور من أسرارها لأبصرت ثمرة الجهد البشرى ، وغاية ما يمكن أن يصل إليه الخلق الإنسانى فى الماضى والحاضر من عبقريّة ومقدرة وإتقان ، وحضارة وتقدّم وعمران . أو المعنى أن الناظر إلى هذه الرموز لو تأملها ، وذهب بفكره إلى العهود الماضية ، والأزمان الخالية — لرأى بعين خياله صوراً للشعوب والأمم التى نزلت بهذا الوادى من مصريين قدماء ، ورعاة ، وفرس ، وروم ، وعرب ، وترك ، وفرنسيين وغيرهم ، يرى هؤلاء جميعاً كأنهم ماثلون أمامه ، وقد زالوا ، وبقيت هذه الآثار قويّة شامخة رفيعة الذرا ، تحدّثنا بأخبارهم .

(٧) يدانيهما : يقاربهما ، ويصل إلى منزلتهما فى الخلود والعظمة وروعة الفنّ وجماله . والخبر (بضم فسكون) : اسم من خبرت الشىء (من باب نصر) أى علمته وعرفته وأحطت به .

(٨) الصرح (بفتح فسكون) : القصر العظيم المنفرد العالى . وبابل : مدينة من أعظم مدن العالم القديم على الجانب الأيسر من نهر الفرات ، ولا تزال بعض أطلالها ماثلة بالقرب من الحلّة . بناها الكلدان ، وهى مدينة النمروذ ، وقد اشتهرت فى الأزمان القديمة بالثروة والحضارة ، وصرحها الذى يشير إليه الشاعر : قصر لبخت نصّر ، وكان يعدّ من عجائب الدنيا فى العظمة والضخامة والإتقان . ويريد بالإيوان : إيوان كسرى أنو شروان وقصره الأبيض بالمدائن قاعدة مملكة الفرس لعهد الفتح الإسلامى ، وأطلالها على بعد ستة وعشرين كيلو متراً جنوبىّ بغداد ، وكان إيوان كسرى يعدّ أيضاً من عجائب الدنيا . والبهر (بفتح فسكون) : مصدر بهره (من باب قطع) أى غلبه وفضله وفاقه ، ومنه قيل بهر القمر ، أى أضاء حتى غلب ضوءه ضوء الكواكب .

(٩) « هاروت » : اسم ساحر ، أو ملك (بفتح الميم واللام) كان يعلّم الناس السحر بمدينة=

كَأَنَّهُمَا ثَدْيَانِ فَاضَا بِدِرَّةٍ مِنَ النِّيلِ تُرْوِى غُلَّةَ الْأَرْضِ إِذْ تَجْرِى (١٠)

وَبَيْنَهُمَا «بَلْهِيبُ» فِى زِىِّ رَابِضٍ أَكَبَّ عَلَى الْكَفَّيْنِ مِنْهُ إِلَى الصَّدْرِ (١١)

يُقَلِّبُ نَحْوَ الشَّرْقِ نَظْرَةَ وَامِقٍ كَأَنَّ لَهُ شَوْقاً إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (١٢)

=« بابل » ، وقد وردت قصته فى القرآن الكريم . قال الله تبارك وتعالى : « وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ » ١٠٢ سورة البقرة . وانتحى : قصد . والمرصدان : مثنى مرصد (كمذهب) اسم مكان من رصدت الشىء (من باب نصر) أى ترقّبته وانتظرته . والمراد بمرصدى الهرمين : قمتاهما . وقد يكون فى التعبير بالمرصد إشارة إلى ارتفاعهما وذهابهما فى السماء ، كأنهما يرصدان النجوم والكواكب وغيرها ، وقد يكون فيه إشارة إلى أن رصد الكواكب من أسباب الكهانة ونحوها . والمقاليد : جمع مقلاد أو مقلد (بكسر فسكون فيهما) ، وهو المفتاح . والكهانة (بفتح الكاف) : مصدر كهن الرجل (ككرم) ، أى صار كاهناً ، أو هى (بكسر الكاف) : مصدر كهن له (كمنع وكتب) ، أى قضى له بالغيب ، فالكاهن هو الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ، ويدّعى معرفة الأسرار ، وقريب منه العرّاف والمنجّم .

يقول لو أن « هاروت » قصد إليهما لبهره شأنهما ، فتخلّى عما اشتهر به واستأثر من تعليم السحر والكهانة ، لأن الهرمين قد بلغا غاية من العظم لا يصل إليها سحر الساحر .

(١٠) فاض الماء: كثر حتى سال على ضفّة الوادى ، (وبابه باع) . والدرّة (بكسر الدال وتشديد الراء) : اللبن أو كثرته . و « من » هنا : بيانيّة . والغلّة (بضم الغين) : شدّة العطش وحرارته . لما شبّه الهرمين بالثديين تخيّل أن النيل يسيل منهما .

(١١) « بلهيب » : أبو الهول . والزىّ (بكسر الزاى وتشديد الياء) : الهيئة . ورابض: اسم فاعل من ربوض الأسد ونحوه ، وهو مثل بروك الإبل ، وجثوم الطير ، (وبابه جلس) . وأكبّ : مطاوع كببت الإناء (من باب قتل) أى قلبته على رأسه ، وكببت فلاناً ، إذا ألقيته على وجهه ، فأكبّ ، والمراد هنا : اعتمد وتوكّأ واستند .

يقول : وبين الهرمين أبو الهول فى هيئة أسد رابض ، قد اعتمد على صدره وكفيه .

(١٢) وامق : صفة من ومقه (كورثه) ومقاً (بفتح فسكون) ومقة (بكسر ففتح) أى أحبه . ومطلع الفجر : طلوعه .

مَصَانِعُ فِيها لِلْعُلُومِ غَوَامِضٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْنَ آدَمَ ذُو قَدْرِ (١٣)
رَسَا أَصْلُهَا ، وَامْتَدَّ فِى الْجَوِّ فَرْعُهَا ... فَأَصْبَحَ وَكْرًا لِلسِّماكَيْنِ والنَّسْرِ (١٤)
فَقُمْ نَغْتَرِفْ خَمْرَ النُّهَى مِنْ دِنَانِها ... وَنَجْنِى بِأَيْدِى الْجِدِّ رَيْحَانَةَ الْعُمْرِ (١٥)
فَثَمَّ عُلُومٌ لَمْ تُفَتَّقْ كِمامُهَا ... وَثَمَّ رُمُوزٌ وَحْيُهَا غامِضُ السِّرِّ (١٦)

(١٣) المصانع : المبانى من القصور والحصون ونحوها . وغوامض : جمع غامض ، صفة من الغموض ، وهو ضدّ الوضوح . وقدر الشيء : مبلغه (بفتح فسكون ففتح) ، والمراد : ذو قدر رفيع ، ومنزلة عالية .

والمعنى أن هذه الآثار الخالدة تحوى كثيراً من أسرار العلوم ، ودقائق الفنّ والعرفان ، وتدلّ على عظم قدر الإنسان ، وسموّ عقله وفكره .

(١٤) رسا : استقرّ ورسخ وثبت . والوكر (بفتح فسكون) : عشّ الطائر ، يكون فى جبل أو شجر . والسماكان (بكسر السين) : الأعزل والرامح (بكسر الميم) ، وهما نجمان نيّران ، يضرب المثل بهما فى الرفعة والعلاء . والنسر (بفتح فسكون) : علم على كوكبين ، يقال لأحدهما : النسر الطائر ، وللآخر النسر الواقع .

يصف ثبات أصول هذه المصانع ، وذهاب فروعها فى السماء . وفى التعبير بكلمة « وكر » مناسبة لطيفة للفظ « النسر » .

(١٥) النهى : العقل ، أو هى جمع نهية (بضم فسكون) بمعنى العقل . والدنان : جمع دنّ (بدال مفتوحة ونون مشددة) وهو الراقود العظيم ، يكون كهيئة الحبّ ، إلا أنه أطول منه ، وأوسع رأساً . ونجنى : نلتقط ، مضارع جنى المرء الثمرة (من باب رمى) واجتناها بمعنى التقطها . والجدّ : الاجتهاد فى الأمر . والريحانة : واحدة الريحان ، وهو كلّ نبات طيّب الرائحة من أنواع المشموم ، والريحانة أيضاً : الطاقة من الريحان .

جعل المعارف المكتسبة من تأمّل هذه المصانع والآثار خمراً تنعش العقول ، وتلذّ لها ، ثم دعا إلى اجتناء ثمرات الحياة وطيباتها بالاجتهاد فى تعرّف غوامض العلوم ، وكشف أسرارها .

(١٦) ثمّ (بثاء مفتوحة وميم مشددة) : هناك ، وهو للبعيد بمنزلة (هنا) للقريب . ولم تفتّق : لم تشقّ ولم تفتح . والكمام : جمع كمّ (بكسر الكاف) وهو فى الأصل وعاء الطلع (بفتح فسكون) وغطاء النوْر (بفتح فسكون) ، والكلام على التشبيه . ورموز : جمع رمز (بفتح فسكون) وهو الإشارة ، والمراد بالرموز هنا : ما تشير إليه الآثار ، وما تدلّ عليه بصورها وهيئاتها وأجزائها وكتاباتها . . . إلخ . والوحى : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة . والإشارة فى هذا البيت إلى مصانع الأقدمين وآثارهم الباقية كالأهرام وغيرها ، فهى صحائف تاريخ أهلها ، تدلّ على أحوالهم ، وتحدّث عن صفاتهم وأخبارهم .

والمعنى أن هذه الآثار تدلّ على أن الأقدمين وصلوا إلى علوم لم تعرف بعد حقائقها ، ولم يكشف غامض سرّها .

أَقَمْتُ بِها شَهرًا ، فأَدْرَكْتُ كُلَّ مَا   تَمَنَّيْتُهُ مِنْ نِعْمَةِ الدَّهْرِ فى شَهْرِ (١٧)
نَرُوحُ وَنَغْـــدُو كُلَّ يَوْمٍ لِنَجْتَنِى   أَزَاهِيرَ عِلْمٍ لاَ تَجِفُّ مَعَ الزَّهْرِ (١٨)
إِذَا مَا فَتَحْنَا قُفْلَ رَمْزٍ بَدَتْ لَنَا   مَعَارِيضُ لَمْ تُفْتَحْ بِزِيجٍ وَلاَجَبْرِ (١٩)
فَكَمْ نُكَتٍ كَالسِّحْرِ فِى حَرَكَاتِهِ   تُرِيكَ مَدَبَّ الرُّوحِ فِى مُهْجَةِ الذَّرِّ (٢٠)
سَكِرْنَا بِما أَهْدَتْ لَنَا مِنْ لُبَابِها   فَيَالَكَ مِنْ سُكْرٍ أُتِيحَ بِلاَ خَمْرِ ! (٢١)

(١٧) بها : أى بهذه المصانع والآثار . ويريد بنعمة الدهر ما أفاده من متعة ولذّة وعرفان .

(١٨) نروح ونغدو : نتردّد إليها ، ونرجع مرّة بعد أخرى ، وأصل الغدوّ : الذهاب فى أول النهار والرواح : العودة فى آخره .

ومعنى الشطر الثانى أن العلوم والمعارف المستفادة من هذه الآثار كالأزهار فى نضرتها وبهائها وعظم نفعها ، غير أنها لا تصاب بجفاف ولا ذبول ، ولا يدركها البلى ، بل تبقى على الدوام حيّة مذكورة . ولعلّه يشير إلى بقاء المعارف المبنيّة على المشاهدة وحسن النظر والتأمّل .

(١٩) بدت: ظهرت . والمعاريض : جمع معراض (بوزن مفتاح) ، وهو السّر (بكسر فسكون) والمراد بالمعاريض هنا : خفايا التاريخ ، ودقائق العلوم والفنون . والزيج (بكسر الزاى) فى اصطلاح علماء الهيئة : جدول يستدلّ به على حركة النجوم والكواكب السيّارة لمعرفة مواقعها . والجبر : العلم الرياضىّ المعروف ، وكلاهما يعين على معرفة كثير من دقائق الكون وخفاياه .

يقول : كلّما كشفنا شيئاً من رموز هذه المصانع والآثار ظهرت لنا أسرار ودقائق شديدة الخفاء ، لا يهتدى إلى طريق كشفها .

(٢٠) النكت (بضم ففتح) : جمع نكتة (بضم فسكون) ، وهى الأثر القليل يشبه النقطة . والمراد بالنكت هنا : النقش الدقيق المحكم ، كالذى يرى فى الفصوص الصغيرة ونحوها . وفى حركاته : فى حركات السحر ، والمراد فى أعاجيبه . ومدبّ الروح : دبيبها وحركتها ، وهو مصدر ميمى من دبّ يدبّ (من باب ضرب) دبيباً ، أى سار سيراً ليّناً . والمهجة : الدم ، أو دم القلب خاصّة ، والمراد بها هنا الجسم . والذرّ (بفتح الذال وتشديد الراء) : صغار النمل ، الواحدة ذرّة . وهو يشير بهذا إلى صغر النقوش وإحكامها ودقّتها ، وشدّة تأثيرها فى نفس من يراها .

يقول إن هذه النقوش الدقيقة المحكمة بها صور للأحياء شديدة المشابهة للحقيقة ، حتى إنها لتذكّرك بدبيب الحياة فى الذّرّات الصغيرة .

(٢١) لباب الشىء: خالصه، مثل لبّه (بضم اللام وتشديد الباء) . والمراد بلباب المصانع والآثار : أسرار صنعها ، ودلالتها على أحوال أهلها . ويريد بالسكر (بضم فسكون) : الدهش والعجب (بفتحتين فيهما) وشدّة انفعال النفس وتأثّرها بما رأت . وأتيح : قدّر (بالبناء للمجهول فيهما) ، يقال أتاح الله لى كذا ، أى قدّره وهيّأه .

وَمَا سَاءَنِى إلاَّ صَنيعُ مَعَاشِرٍ أَلَحُّوا عَلَيْهَا بِالْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ (٢٢)

أَبَادُوا بِها شَمْلَ الْعُلُومِ ، وَشَوَّهُوا مَحَاسِنَ كَانَتْ زِينَةَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (٢٣)

فَكَمْ سَمَلُوا عَيْناً بِها تُبْصَرُ الْعُلَا وَشَلُّوا يَداً كَانَتْ بِهارَايَةُ النَّصْرِ (٢٤)

تَمَنَّوْا لُقَاطَ الدُّرِّ جَهْلاً ، وَمَا دَرَوْا بِأَنَّ حَصَاهَا لاَ يُقَوَّمُ بِالدُّرِّ (٢٥)

---

(٢٢) الصنيع : العمل ، من قولهم : صنع به صنيعاً قبيحاً ، أى فعله ومعاشر : جمع معشر (بفتح فسكون ففتح) ، وهم الجماعة من الناس .

يشير إلى لصوص المقابر والآثار الذين سطوا عليها فى مختلف الأزمان ، وسلبوا تحفها وذخائرها ونفائسها ، وأفسدوا نظامها ، وضيعوا جمالها ، كما يشير إلى الذين شوّهوا هذه الآثار حسداً وحقداً على من خلّفوها من أسلافهم .

(٢٣) أباد : أهلك . وشمل العلوم : ما اجتمع منها . وشوّهت الشىء تشويهاً : قبّحته . ومحاسن : جمع على غير قياس لحسن (بضم فسكون) وكأن المحاسن جمع محسن (بفتح فسكون ففتح) .

يقول إن لصوص الآثار ونبّاشى القبور كثيراً ماأبادوا مااجتمع بهذه المصانع من علوم الأوائل وفنونهم ، وشوّهوا محاسن هذه الآثار التى كانت زينة الحياة الدنيا وبهجتها . وفى الأبيات الآتية توضيح وتفصيل لهذا المعنى .

(٢٤) سمل عينه (من باب نصر) : فقأها بحديدة محماة أو بغيرها . وشلّت اليد (من باب تعب) شلا وشللا (بفتح الشين فيهما) إذا فسدت عروقها ، فبطلت حركتها ، والمفهوم من المعجمات أن هذا الفعل لازم ، ويتعدى بالهمزة ، فيقال : أشلّ الله يد فلان ، والشاعر هنا استعمله متعدياً بنفسه ، إما لأنه ضمّنه معنى قطع وبتر ، وهو المعنى المراد هنا ، وإما أن يكون من قولهم : مر فلان يشل بالسيف أعداءه ، أى يكسؤهم ، بمعنى يضربهم ويطردهم .

والشاعر يشير إلى بعض أعمال اللصوص والنبّاشين من تشويه جثث الملوك والعظماء من قدماء المصريين وبتر أعضائها وتمزيق أوصالها .

(٢٥) اللقاط (بكسر اللام) : اسم من لقطت الشىء (من باب نصر) والتقطته ، أى أخذته من الأرض ، أو هى اللقاط (بضم اللام) بمعنى الملتقط من المال الضائع . ويريد بالدرّ : ما اعتاد القدامى دفنه مع جثث عظمائهم من التحف والنفائس والحلىّ والهدايا والأموال . ودراه ، ودرى به ، أى علم به ، (وبابه رمى) . ويقوّم (بالبناء للمجهول) : مضارع قوّمت السلعة والمتاع ، أى جعلت له قيمة (بكسر القاف) وثمناً معلوماً .

والشاعر يشير بالشطر الثانى إلى ما لهذه الآثار من قيمة علميّة وفنيّة عظيمة لا تقدّر بمال .

وَفَلُّوا لِجَمْعِ التِّبْرِ صُمَّ صُخُورِهَا ... وَأَيْسَرُ مَا فَلُّوهُ أَغْلَى مِنَ التِّبْرِ (٢٦)

وَلَكِنَّهُمْ خَابُوا ، فَلَمْ يَصِلُوا إلى ... مُنَاهُمْ ،وَلا أَبْقَوْا عَلَيْهامِنَ الْخَتْرِ (٢٧)

فَتَبًّا لَهُمْ مِنْ مَعْشَرٍ نَزَعَتْ بِهِمْ ... إلى الْغَيِّ أَخْلاقٌ نَبَتْنَ عَلَى غِمْرِ (٢٨)

أَلَا قَبَّحَ اللهُ الْجَهَالَةَ ، إنَّهَا ... عَدُوَّةُ مَا شَادَتْهُ فِينَا يَدُ الْفِكْرِ (٢٩)

---

(٢٦) فلّوا :كسروا ، (وبابه ردّ) . والتبر (بكسر فسكون) : الذهب قبل أن يصاغ ويضرب ، والمراد الذهب مطلقاً ، أو المراد ما تحويه هذه المصانع والآثار من نفائس وجواهر وحلىّ وأموال . وصخرة صمّاء ، وحجر أصمّ : صلب مصمت ، والجمع صمّ (بضم الصاد وتشديد الميم) . وأيسر : أقلّ وأهون

يشير بهذا البيت أيضاً إلى نفاسة الآثار ، وعظم قدرها ، وجلال قيمتها العلميّة والفنيّة .

(٢٧) المنى (بضم ففتح) : جمع منية (بضم فسكون) ، وهى ما يتمنّاه الإنسان ، ويتوق إليه ، ويقدّر حصوله . وأبقيت على فلان ، إذا أرعيت عليه ورحمته . والختر (بفتح فسكون) : الغدر والخديعة أو هو أقبح الغدر ، (والفعل كضرب) . وعليها : أى على الآثار .

يقول إنّ هؤلاء الذين سطوا على الآثار بالسرقة أو التشويه لم يصلوا إلى مناهم ، أمّا اللصوص فإنهم وإن سرقوا كثيراً فقد بقى من هذه الآثار ما هو أعظم وأكثر . وأما المشوّهون فقد هلكوا ، وبقيت الآثار المشوّهة بعدهم ناطقة بعظمة أصحابها ومجدهم ، وكلّ مافعله هؤلاء المشوّهون أنهم تركوها دالّة على غدرهم ، وسوء صنيعهم .

(٢٨) تبًّا : خساراً وهلاكاً ، منصوب على المصدر بإضمار فعل ، أى ألزمهم الله هلاكاً وخسراناً . والمعشر : الجماعة من الناس . ونزعت : مالت وذهبت . والغىّ : الضلال والخيبة ، وهو خلاف الهدى والرشاد . والغمر : الحقد (بكسر فسكون فيهما) وفساد الطويّة .

(٢٩) شاد الصانع الحائط ونحوه (من باب باع) : جصّصه وطلاه بالشيد (بكسر الشين) وهو ما يطلى به الحائط من جصّ وملاط ونحوهما ، وقد يستعمل شاد بمعنى بنى . وشادته يد الفكر : بنته وأحكمته ورفعته وزينته .

وكان الشطر الثانى من هذا البيت فى الأصل المخطوط : « أضرّ على الدنيا من السوس فى البذر » ، فطمس ، وكتب بإزائه فى الهامش بدلاً منه : « عدوّة ما شادته فينا يد الفكر » ، وهذا مثال من أمثلة التعديل والتنقيح فى هذا الأصل ، نعرضه على القارئ لتمام الإفادة .

يشير إلى جهل النبّاشين والمشوّهين ، وإلى أثر الجهل فى إفساد ثمرات العقول .

فَلَوْ رَدَّتِ الأَيَّامُ مُهْجَةَ « هُرْمُسٍ » لَأَعْوَلَ مِنْ حُزْنٍ على نوَبِ الدَّهْرِ (٣٠)

فَيَا نَسَماتِ الْفَجْرِ ! أَدِّى تَحِيَّتى إلى ذَلِكَ الْبُرْجِ الْمُطِلِّ عَلى النَّهْرِ (٣١)

وَيَالَمَعَاتِ الْبَرْقِ ! إنْ جُزْتِ بِالْحِمَى فَصُوبِى عَلَيْهَا بِالنِّثَارِ مِنَ الْقَطْرِ (٣٢)

عَلَيْهَا سَلامٌ مِنْ فُؤَادٍ مُتَيَّمٍ بِها ، لا بِرَبَّاتِ الْقَلائِدِ والشَّذْرِ (٣٣)

---

(٣٠) المهجة : النفس والروح . وهرمس — فيما يزعم الرواة الأقدمون — : أول من بنى الهياكل ، وتكلّم فى الأشياء العلويّة ، ونظر فى الطبّ والحكمة ، عاش قبل الطوفان ، وكان مسكنه صعيد مصر ، ويقال إنه خاف على العلم أن يَضيع ، فبنى البرابى ، وصوّر فيها ما عرف لعهده من الصناعات وآلاتها وصنّاعها ، وأشار بالرسوم إلى مسائل العلوم حرصاً منه على تخليدها لمن بعده . وأعول : بكى وانتحب ، من العويل ، وهو رفع الصوت بالبكاء ، والا نتحاب مثله . ونوب الدهر : نوازله وخطوبه وشدائده ، واحدتها نوبة (بفتح فسكون) . وعلى (هنا) بمعنى من .

(٣١) النسمات : جمع نسمة (بفتح فسكون) ، وهى اسم مرة من نسمت الريح تنسم نسما (من باب ضرب) ونسيما ونسماناً (بالتحريك) ، أى هبّت ليّنة معتدلة لطيفة طيّبة ، أو هى جمع نسمة (بفتحتين) ، والنسمة : نفس الريح إذا كان ضعيفاً كالنسيم . والبرج (بضم فسكون) : الحصن (بكسر فسكون) ، ويريد بالبرج : الهرم . والمطلّ : المشرف ، من أطلّ عليه ، أى أشرف . ويريد بالنهر : نهر النيل .

(٣٢) اللمعات : جمع لمعة (بفتح فسكون) وهى اسم مرة من لمع البرق (من باب قطع) ، ولمعاناً أيضاً (بفتحتين) أى أضاء . وجاز السائر الموضع والطريق ، وجاز به : سلكه وسار فيه . والحمى : المكان المحمىّ المصون ، الذى لا يقترب منه معتد ، ولا يجرؤ عليه ، والمراد بالحمى هنا : مواضع الآثار . وصوبى : أمر من الصوب (بفتح فسكون) وهو نزول المطر وانصبابه ، (وبابه قال) . والنثار : المنثور المتفرّق . (فعال بمعنى مفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب) . والقطر : المطر .

فى البيت السابق حيّا الشاعر الأهرام وآثار الأقدمين ، ودعا لها بالبقاء ، وشبّهها بالبرج فى الارتفاع والقوة والمتانة . وهو فى هذا البيت يدعو لها بالسقيا (بضم فسكون) جرياً على عادة العرب فى تحيّة الرسوم والأطلال ، والحنين إليها ، والدعاء لها .

(٣٣) متيّم : اسم مفعول من تيّمه الحبّ ، أى عبّده وذلّله . وربّات : صاحبات . والقلائد : جمع قلادة ، وهى العقد (بكسر فسكون) تحلّى به المرأة جيدها . والشذر (بفتح فسكون) : فرائد وقطع من الذهب يفصل بها اللؤلؤ والجوهر فى العقد . والشذر أيضاً : صغار اللؤلؤ ، الواحدة شذرة .

وَلاَبَرِحَتْ فِى الدَّهْرِ وَهْىَ خَوَالِدٌ خُلُودَ الدَّرَارِى وَالْأَوَابِدِ مِنْ شِعْرِى (٣٤)

وَكَتَبَ إِلَى صَدِيقِهِ «عبد الله باشا فكرى*» :

أَدِيرَا كُئُوسَ الرَّاحِ ،قَدْ لَمَعَ الْفَجْرُ وَصَاحَتْ بِنَا الْأَطْيَارُأَنْ وَجَبَ السُّكْرُ (١)

أَمَا تَرَيَانِ اللَّيْلَ كَيْفَ تَسَلَّلَتْ كَوَاكِبُهُ لِلْغَرْبِ ،وَانْحَدَرَ النَّسْرُ (٢)

فَقُومَا انْظُرَا مايَصْنَعُ الصُّبْحُ بِالدُّجَى فَإِنِّى أَرَى مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ الذِّكْرُ (٣)

---

(٣٤) خوالد : باقيات لا تبلى ، جمع خالدة ، صفة من الخلود، وهو الدوام والبقاء ، (وفعله من باب دخل) . والدرارى: الكواكب العظيمة الثاقبة المتلألئة المتوقّدة ، واحدها درىّ . والأوابد من الكلام : غرائبه، وأوابد الشعر (بكسر فسكون) : ما كان منه رائعاً جيداً ، لا يشاكله فى روعته مشاكل ، ولا يشابهه فى جودته مشابه . ويقال للشوارد من القوافى : أوابد .

دعا لمصانع الأوائل وآثارهم بأن تبقى بقاء الكواكب العظيمة المتلألئة، وتدوم دوام شعره الرائع الخالد ، فجمع فى بيت واحد بين الدعاء والمديح والفخر .

* عبد الله باشا فكرى (١٢٥٠- ١٣٠٧ هـ / ١٨٣٤ - ١٨٩٠ م) كاتب شاعر أديب ، تعلّم بالأزهر ، وأجاد اللغتين العربية والتركية، فاستخدم مترجماً،ثم نقل إلى حاشية سعيد باشا، ثم إسماعيل باشا ، ثم تقلّب فى جملة مناصب آخرها نظارة المعارف فى وزارة« محمود سامى البارودى » فى الخامس من فبراير سنة ١٨٨٢ م، وظلّ وزيراً بهذه الوزارة إلى أن سقطت فى السادس والعشرين من مايو سنة١٨٨٢م. ولما أخفقت الثورة العرابية اتّهم فيها ، فقبض عليه ، ثم اتضحت براءته ، فأطلق .

(١) أديرا . . . : يخاطب صاحبيه على عادة كثير من الشعراء . والكئوس : جمع كأس ، وهى القدح ، أو زجاجة الشراب ، قيل : ولا تسمى الكأس كأساً إلا وفيها الشراب .

(٢) تسلّلت : مضت وسارت،وأصل التسلّل : الانطلاق فى استخفاء . وانحدر : هبط وسقط . والنسر : كوكب ، وهما نسران : يسمى أحدهما النسر الطائر، ويسمى الآخر النسر الواقع ، وتسلّل الكواكب للغرب ، وانحدار النسر : كناية عن إدبار الليل وذهابه .

(٣) الدجى (بضم ففتح) : جمع دجية ، وهى الظلمة (بضم فسكون فيهما) . ويريد بالذكر : الوصف بالقول .

والمعنى : أن طلوع الفجر من المناظر الطبيعية الممتعة التى لا يستطيع وصفها اللسان .

أَرَى أَدْهَماً يَتْلُوهُ أَشْهَبُ طَارِدٌ ... كِلا الْفَرَسَيْنِ اغْتَالَ شَأْوَهُمَا الْحُضْرُ (٤)
وَقَدْ حَنَّتِ الْأَطْيَارُ فِى وُكُنَاتِها ... وَقَامَ يُحَيِّينَا عَلَى سَاقِهِ الزَّهْرُ (٥)
وَأَصْبَحَتِ الْغُدْرَانُ تَصْقُلُهَا الصَّبَا ... وَيَرْقُمُ مَتْنَيْهَا بِلُؤْلُئِهِ الْقَطْرُ (٦)
تَرِفُّ كَمَا رَفَّتْ صَحَائِفُ فِضَّةٍ ... عَلَيْهِنَّ مِنْ لَأْلَاءِ شَمْسِ الضُّحَى تِبْرُ (٧)

---

(٤) الأدهم هنا : الفرس الأسود، وقد شبه به الشاعر ظلام الليل . ويتلوه : يتبعه . والأشهب : صفة من الشهبة (بضم فسكون) وهى فى الألوان البياض الغالب على السواد ، والمراد الفرس الأشهب ، وقد شبّه به الشاعر ضوء الصبح وبياضه . واغتاله: أهلكه ، وأخذه من حيث لا يدرى . والشأو (بفتح فسكون) : الشوط، والغاية والأمد . والحضر (بضم فسكون) : اسم من أحضر الفرس إحضاراً ، أى ارتفع فى عدوه . ومعنى اغتال شأوهما الحضر : أن كلا منهما قد وصل إلى غايته محضراً مسرعاً .

جعل الليل والنهار وقت طلوع الفجر جوادين يطرد أحدهما الآخر ، ويسرع كلاهما إلى غايته . فغاية الأشهب (وهو الصبح) مطاردة الأدهم ، واحتلال الآفاق ، وبسط ضيائه على الكون ، وغاية الأدهم (وهو الليل) الخروج من الميدان ، والاختفاء وراء الأفق .

(٥) حنّت : اشتاقت ، من الحنين، وهو الشوق وتوقان النفس، والمراد اشتاقت إلى مطلع الفجر . والوكنات (بضمتين ، أو بفتحتين ، أو بضم ففتح): جمع وكنة (بتثليث الواو وسكون الكاف ، أو بضمهما) وهى عشّ الطائر ، أو مأواه فى غير عشّ .

(٦) الغدران (بضم فسكون) : جمع غدير ، وهو فى الأصل: القطعة من الماء يغادرها السيل ، أى يتركها والمراد بالغدران هنا: مجارى المياه مطلقاً . وتصقلها : تجلوها ، من قولهم : صقل الصيقل السيف (من باب نصر) إذا أتمّ صنعه وجلاه . والصبا(بفتح الصاد) : الريح تهبّ من مطلع الشمس ، وهى معروفة عند العرب بطيبها واعتدالها ، وتقابلها الدبور (بفتح الدال) . ويرقم : يزيّن ويجمّل ، مضارع رقمت الثوب رقماً (من باب قتل) أى وشيته ونقشته. ومتنا الظهر : مكتنفا الصلب عن يمين وشمال من عصب ولحم ، والمراد بمتنيها : سطح مياهها . والقطر : المطر .

وصف أثر الصبا والمطر فى الغدران : فالصبا تهبّ عليها لطيفة معتدلة ، فتجعل سطح مياهها كالسيوف المجلوّة ، والمطر يتساقط فوقها فيوشى جوانبها بقطراته الشبيهة باللؤلؤ فى الصفاء والبهاء .

(٧) رفّ اللون يرفّ (بالكسر) رفًّا ورفيفاً : برق وتلألأ . ولألاء الشمس: ضوءها ولمعانها . والضحى : حين تشرق الشمس ويمتدّ النهار . والتبر : ما كان من الذهب غير مصوغ ولا مضروب .

يقول . إن الغدران وقت الصباح يتلألأ ماؤها ، ويرفّ لونها ، وتغازلها أشعة الشمس فى أول شروقها ، فتظهر كأنها صحائف من فضة موّهت بالذهب .

كَأَنَّ بَنَاتِ الْمَاءِ تَقْرَأُ مَتْنَهَا ... صَبَاحاً ، صُحْنٍ لَاحَ بِهَا سَوَطِلُ الْغُطْرُ (٨)
عَصَائِبُ حَوْلَ الْمَاءِ يَدْرِمْنَ هُتَّفاً ... بِلَحْنٍ لَهُ فِي كُلِّ سَامِعَةٍ أَثْرُ (٩)
إِذَا صَرْصَرَ الْبَازِي تَلَبَّدْنَ بِالثَّرى ... مِنَ الرُّعْبِ حَتَّى لاَ يَبِينُ لَهَا صَرُّ (١٠)
يُسَارِقْنَهُ حَتَّى إِذَا غَابَ ظِلُّهُ ... عَنِ الْمَاءِ عَادَ اللَّحْنُ ، وَانْتَشَرَ الْهَدْرُ (١١)
تَرَاهُنَّ أَسْرَابًا عَلَى الْمَاءِ حُوَّمًا ... يُقَرِّبُهَا ظِمْءٌ ، وَيُبْعِدُهَا ذُعْرُ (١٢)

---

(٨) بنات الماء : الغرانيق ، جمع غرنوق (كعصفور ، أو كفردوس) وهو طائر مائى اسمه الكركىّ (وزان كرسىّ) ، أو هو طائر آخر يشبهه ، والمراد الطيور المائية مطلقاً . والمتن : الظهر ، ومتن الكتاب : ما يحفظ منه ويشرح عادة ، وهو خلاف حواشيه . ولاح : ظهر .

لمّا شبّه الغدران بصحائف من فضّة ، جعل إقبال الطيور المائية عليها كالقراءة لمتنها . وجعل ظلّ الغصن فى مياهها النقيّة الصافية كالصفّ من الكتاب .

(٩) عصائب : جماعات ، أى الطيور ، واحدتها عصابة (بالكسر) ، وهى ما بين العشرة إلى الأربعين . ويدرمن : يقاربن الخطو فى عجلة وقفز ، كما يمشى الفأر والقنفذ والأرنب وما أشبهها ، (وبابه ضرب) . وهتّفاً : جمع هاتف ، أو هاتفة ، اسم فاعل من الهتاف (بضم الهاء) وهو الصوت . واللحن : من الأصوات المصوغة الموضوعة ، وجمعه ألحان ولحون ، والمراد التغريد . والسامعة : الأذن . والأثر (بفتحتين) : العلامة وبقيّة الشىء ، والمراد التأثير ، وقد سكنّت الثاء هنا لضرورة وزن الشعر .

(١٠) صرصر : صوّت ، من الصرصرة ، وهى صوت كالصرير ، غير أن فيه تكراراً . والبازى : ضرب من الصقور ، وهو من جوارح الطير التى تصيد غيرها . وتلبّدن : جثمن وأقمن ولصقن ، أى بنات الماء . والثرى : الأرض ، أو التراب الندى . والرعب : الخوف والفزع . ويبين : يظهر ويتّضح وينكشف والصرّ (بفتح الصاد وتشديد الراء) : الصوت والحركة . وفى رواية «حتّى لايبين لها سرّ» ، والسر : الأمر الخفىّ .

يصف حال طيور الماء ، وما يعتريها من الفزع والخوف إذا سمعت صوت البازى ، فهى تتلبّد بالأرض ، وتنقطع حركاتها وأصواتها حتى يزول شبح الخطر .

(١١) يسارقنه : يختلسن النظر إليه ، يقال : هو يسارق النظر إليه ، اى يطلب غفلة لينظر إليه . واللحن : الهتاف والتغريد ، وأصله الصوت المصوغ الموضوع . والهدر (بفتح فسكون) : مصدر هدر الحمام ونحوه يهدر (من باب ضرب) هدراً وهديراً ، أى صوّت .

(١٢) أسراباً : جماعات ، واحدها سرب (بكسر فسكون) . وحوّماً : جمع حائم أو حائمة ، اسم فاعل من حام الطائر وغيره حول الشىء ، أى دار ، (وبابه قال) . والظمء (بكسر فسكون) : اسم بمعنى الظمأ (بفتحتين) وهو العطش . والذعر (بضم فسكون) : اسم من ذعره (من باب قطع) أى أفزعه وخوّفه .

تَرُوحُ وتَغْدُو بَيْنَ أَفْنَانِ دَوْحَةٍ سَقَاهَا مِنَ الْوَسْمِيِّ مُسْتَوْكَفٌ غَزْرُ (١٣)
لَهَا فِي نَوَاحِي الأُفْقِ لَفْتَةُ أَصْيَدٍ يَلُوحُ عَلَى أَطْرافِ عِرْنِينِهِ الْكِبْرُ (١٤)
مَلاعِبُ لَهْوٍ يَقْصُرُ الطَّرْفُ دُونَها وَدُنْيَا نَعِيمٍ لا يُحِيطُ بِها الْفِكْرُ (١٥)
فَيَا صَاحِبَيْ نَجْوَايَ ! قُومَا لِشُرْبِها فَفِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ لَنَا الْخَمْرُ (١٦)
وَشَأْنَكُمَا فِي الرَّاحِ ، فَالْعَيْشُ وَالصِّبَا إِذَا الرَّاحُ لَمْ تَخْفِرْهُمَا فَسَدَا الْعُمْرُ (١٧)
خَبِيئَةُ قَوْمٍ خَلَّفُوهَا لِغَيْرِهِمْ خَلَتْ دُونَهَا الأَيَّامُ ، وَاخْتَلَفَ الْعَصْرُ (١٨)

---

(١٣) تروح وتغدو : تتردّد جيئة وذهاباً ، وأصل الغدوّ : الانطلاق فى أول النهار ، والرواح : الرجوع فى آخره. والأفنان : الأغصان ، واحدها فنن (بفتحتين) . والدوحة : الشجرة العظيمة . والوسميّ : مطر الربيع الأول ، لأنه يسم الأرض بالنبات ، أى يترك فيها أثراً ، نسب إلى الوسم ، وهو الأثر والعلامة . ومستوكف : غزير هطل (بفتح فكسر) . وغزر (بضم الغين أو فتحها مع سكون الزاى) : مصدر غزر الشيء (من باب كرم) غزارة (بالفتح) وغزراً (بفتح فسكون) وغزراً (بضم فسكون) أى كثر ، وقد استعمل الغزر هنا بمعنى الغزير .

(١٤) لها : أى لبنات الماء وأسراب الطير . والأفق (بضم فسكون ، أو بضمتين) : ماظهر من أطراف الأرض . والأصيد : الذى يرفع رأسه كبراً ، صفة من الصيد (بفتحتين) . ويلوح : يبدو ويظهر. وعرنين الأنف (بكسر العين) : تحت مجتمع الحاجبين ، وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشم.

وفى أصل الديوان بعد هذا البيت بيت مطموس ، استطعنا بجهد قراءته ، ورأينا نشره. ونصّه :

إذا لاعبتْها الريح ماجت كأنّما بأعلى الثّرى منها ملائكة خضر

(١٥) الملاعب: أماكن اللعب ، ويقصد بملاعب اللهو هنا: مجال أنسه وصبوته . والطرف (بفتح فسكون) : العين .

يقول : إن الطرف يعجز عن الإلمام بما فى مجال لهوه وصبوته وأنسه من مباهج ومتع ، وإنه صورة من النعيم الذى لا يدرك الفكر مداه .

(١٦) النجوى (بفتح فسكون) : السرّ .

(١٧) الشأن : الأمر والحال . والراح : الخمر . وخفره يخفره (من باب ضرب) : منعه وأجاره وحفظه .

يحضّ صاحبيه على شرب الراح ، ويزعم أنها تصون العيش هنيئاً ، وتظهر لذّات الصبا .

(١٨) خبيئة : مخبوءة ، (فعيلة بمعنى مفعولة) ، من خبأه (كمنعه) أى ستره وأخفاه . وخلت : مضت . والعصر : الدهر ، والمراد باختلاف العصر : تتابع الأزمنة والأيام .

والمعنى : أن هذه الخمر قديمة معتّقة .

فَجَاءَتْ كَمِصْبَاحِ السَّماءِ مُنِيرَةً ... إذَا اتَّقَدَتْ فِى الْكَأْسِ سَارَبِها السَّفْرُ (١٩)

وَإنْ أَنْتُمَا غَنَّيْتُمانِىَ فَلْتَكُنْ ... أَنَاشِيدَ يَهْفُو دُونَ تَسْماعِها الصَّبْرُ (٢٠)

أَنَاشِيدَ فِيها لِلْمَلِيحَةِ وَالْهَوَى ... مَعَاذِيرُ أَحْوَالٍ يَلِينُ لَهَا الصَّخْرُ (٢١)

لَعَلَّ هَوَاهَا أَنْ يَعُودَ كَمَا بَدَا ... رَخِىَّ الْحَوَاشِى قَبْلَ أَنْ يَنْشَبَ الْهَجْرُ (٢٢)

مِنَ الْبِيضِ، مَيْسَانُ الْعَشِيَّاتِ ،غَادَةٌ ... سَلِيمَةُ مَا تَحْوِى الْمَعَاقِدُ وَالْأُزْرُ (٢٣)

---

(١٩) مصباح السماء : الشمس . والسفر (بفتح فسكون): جمع سافر ، بمعنى مسافر ، يقال : قوم سفر ، (كصاحب وصحب) .

(٢٠) يخاطب صاحبى نجواه . والأناشيد : الأغانى، جمع أنشودة (بضم فسكون فضم) وأصلها الشعر المتناشد ، يقال : أنشد الشاعر الشعر ، إذا قرأه ، ورفع بالقراءة صوته ، وتناشدوا: أنشد بعضهم بعضاً . ويهفو : يضطرب ويخفّ ويذهب . والتسماع : السمع .

يطلب إلى صاحبيه إذا غنّياه أن يختارا من الأناشيد ما لايستطيع الصبر دون سماعه .

(٢١) المليحة: صفة من الملاحة، وهى الحسن والجمال . والهوى : الحبّ . والمعاذير (بزيادة ياء قبل الآخر) : جمع معذرة (بوزن مغفرة) وهى اسم من عذره (من باب ضرب) أى رفع عنه اللوم .

يقول : غنّيانى أناشيد تصوّر عواطف المحبّ العاشق ،وتظهر لمعشوقته حاله وعذره واضحاً، ويكون لها من التأثير ما يلين الصخر ، فلعلّها تعطف وتشفق .

(٢٢) هواها: حبها . وكما بدا : كما كان فى مبتدأ الأمر . ورخّى :صفة من الرخاء (بفتح الراء) ، وهو اللين والسعة . والحواشى : الجوانب والنواحى.والمراد برخىّ الحواشى : أنه طيّب هنىء ، يجمع أسباب الصفاء والنعيم . وينشب : يعلق؛ (وهما من باب تعب) ، نشب الشىء فى الشىء نشوباً : علق به واستمسك .

(٢٣) البيض : جمع بيضاء . وميسان : صفة من ماست المرأة تميس،أى تبخترت واختالت . والعشيّات : جمع عشيّة، وهى الوقت من صلاة المغرب إلى العتمة (بفتحتين) ، والعشيّات أوقات المرح واللهو عادة . والغادة : الفتاة الناعمة الليّنة المتثنّية،صفة من الغيد (بفتحتين) مصدر غيد (من باب فرح) أى مالت عنقه ، ولانت أعطافه . والمعاقد : جمع معقد (وزان مجلس) اسم مكان من عقدت الإزار ونحوه (من باب ضرب) أى شددته وربطته . والأزر (بضم فسكون) : جمع إزار (وزان كتاب) وهو الملحفة وما يستر الإنسان من الثياب .

والشطر الثانى كناية عن جمال جسمها وعفتها ، وأصله من قول العرب : فلان عفيف المئزر والإزار ، قالت خرنِق بنت بدر بن هفان البكرية العدنانية ، وهى من شاعرات العرب فى الجاهلية ، وأخت طرفة بن العبد لأمه :

لا يبعدن قومى الذين هم ... سمّ العداة ، وآفة الجزر

النازلون بكل معترك ... والطيّبون معاقد الأزر

إِذَا سَفَرَتْ وَالْبَدْرُ لَيْلَةَ تَمِّهِ ... وَلَاحَا سَوَاءً، قِيلَ أَيُّهُمَا الْبَدْرُ؟(٢٤)
لَهَا لَفْتَةُ الْخِشْفِ الأَغَنِّ، وَنَظْرَةٌ ... تُقَصِّرُ عَنْ أَمْثَالِهَا الْفَتْكَةُ الْبِكْرُ(٢٥)
تَرُدُّ النُّفُوسَ السَّالِمَاتِ سَقِيمَةً ... وَتَفْعَلُ مَالَا تَفْعَلُ الْبِيضُ وَالسُّمْرُ(٢٦)
خَفَضْتُ لَهَا مِنِّي جَنَاحَيْ مَوَدَّةٍ ... وَدِنْتُ لِعَيْنَيْهَا كَمَا حَكَمَ الدَّهْرُ(٢٧)
عَلَى أَنَّ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَشِيرِهَا ... قَوَارِعُ سُوءٍ لَا يَنَامُ لَهَا وِتْرُ(٢٨)
فَيَا رَبَّةَ الْخَلْخَالِ! رِفْقاً بِمُهْجَتِي ... فَبِالْغَادَةِ الْحَسْنَاءِ لَا يَحْسُنُ الْغَدْرُ(٢٩)

---

(٢٤) سفرت: كشفت عن وجهها. وليلة تمّه: ليلة تمامه (بتثليث التاء فيهما) واكتمال نوره فى منتصف الشهر العربىّ. ولاح: ظهر ولمع. ونصب البدر على أن الواو قبله للمعيّة، ورفعه على أن الواو قبله للحال، أو للعطف.

(٢٥) الخشف (مثلّثة الخاء): الظبى، أى الغزال إذا قوى واشتدّ واستطاع المشى، والعرب تشبّه الحسناء بالظبية فى جمال العنق والعينين، والخفّة والرشاقة، وحسن اللفتة، ولطف الحركة. وظبى أغنّ: يخرج صوته من خياشيمه مرخّماً. والفتكة: اسم مرة من الفتك، وهو القتل على غفلة، أو هو البطش الشديد، (وبابه ضرب وقتل). والفتكة البكر (بكسر فسكون): التى لا تثنى، من قولهم: ضربة بكر، أى قاطعة قاتلة، لا يحتاج صاحبها إلى تثنيتها، والبكر (فى الأصل): أوّل كلّ شئ، وكلّ فعلة لم يتقدّمها مثلها.

(٢٦) سقيمة: مريضة، والمراد سقم الهوى والغرام. والبيض: السيوف. والسمر: الرماح. وهذا البيت فى وصف نظرة الحبيبة، وبيان شدّة تأثيرها فى نفوس العاشقين.

(٢٧) دنت: خضعت وتذلّلت، دان يدين ديناً (بكسر الدال).

(٢٨) عشيرها: أهلها، يقال: هم عشيره وعشيرته، أى أهله وأقاربه وقبيلته. والقوارع: الشدائد واحدتها قارعة، وهى الداهية والشديدة من شدائد الدهر، والمراد بقوارع السوء هنا: العداوة والخصومات التى بينه وبين أهلها وعشيرتها. والوتر (بفتح الواو وكسرها مع سكون التاء): الذحل والثأر (بفتح فسكون فيهما).

والمعنى: أن بينه وبين أهل الحبيبة عداوة وخصومة شديدة دائمة، كالموتور الذى لا يهدأ ثائره.

(٢٩) ربّة الخلخال: صاحبة الحجل (بفتح الحاء وكسرها مع سكون الجيم) وهو حلى معروف موضعه من الساق، كالسوار فى المعصم. والمهجة: الروح والنفس والقلب. والغادة: الفتاة الناعمة المتثنية ليناً.

ومعنى الشطر الثانى: أن الغدر لا يحسن من الغادة الحسناء، ولا يليق بها.

وَبُقْيَا عَلَى قَلْبِى ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِهِ ... سِوَى حُبِّ « عَبْدِ اللهِ » كَانَ لَهُ عُذْرُ (٣٠)

أَخِى ،وَصَدِيقِى ،وَابْنُ وُدِّى ،وَصَاحِبِى ... وَمَوْضِعُ سِرِّى حِينَ يَعْتَلِجُ الصَّدْرُ (٣١)

هُوَ الصَّاحِبُ الْمَشْكُورُ فِى الْوُدِّ سَعْيُهُ ... وَمَا خَيْرُ وُدٍّ لَيْسَ يَلْحَقُهُ شُكْرُ؟ (٣٢)

أَمِينٌ عَلَى غَيْبِ الصَّدِيقِ إِذَا وَنَتْ ... عُهُودُ أُنَاسٍ ، أَوْ تَطَرَّقَهَا فَتْرُ (٣٣)

فَلا جَهْرُهُ سِرٌّ ، وَلَا سِرُّ صَدْرِهِ ... إِذَا امْتَحَنَ الْوَاشِى ضَمَائِرَهُ جَهْرُ (٣٤)

يَدِبُّ عَلَى الْمَعْنَى الْخَفِىِّ بِفِكْرَةٍ ... سَوَاءٌ لَدَيْهَا السَّهْلُ فِى ذَاكَ وَالْوَعْرُ (٣٥)

---

(٣٠) بقيا (بضم فسكون): إبقاء، اسم من أبقاه واستبقاه، أى أثبته وأدامه، ضدّ أهلكه وأفناه. وقد سبق التعريف بعبد الله باشا فكرى فى أول هذه القصيدة . تخلّص الشاعر فى هذا البيت من الغزل إلى المديح .

(٣١) الودّ (بتثليث الواو وتشديد الدال) : الحبّ كالوداد . ويعتلج الصدر : تضطرب فيه الهموم والشدائد ، وأصله من اعتلج القوم ، أى اصطرعوا واقتتلوا ، واعتلجت الأمواج ، أى التطمت واضطربت .

(٣٢) يقول فى الشطر الأول : إنه صاحب يسعى فى تقوية روابط الألفة و' بة بينه وبين أصدقائه ، ولهذا كان مشكور المسعى ، ثم يشير فى الشطر الثانى إلى أن الودّ الذى لا يكون حقيقاً بشكر باذله وصاحبه لا خير فيه . أو هو يشير إلى فائدة الشكر فى استدامة الود ، وتعزيزه وجنى ثماره .

(٣٣) أمين على غيب الصديق : لا يخون عهده ، ولا يفشى سرّه ، ولا يذكره بسوء . ونت : فترت وضعفت . وتطرّقها : دخلها ، والمفهوم من المعجمات أن هذا الفعل يتعدّى بإلى ، فيقال : تطرّق فلان إلى الأمر ، أى ابتغى إليه طريقاً ، ومن كلامهم : وما تطرّقت إلى الأمير ، ولعلّ الشاعر ضمّنه معنى فعل متعد . والفتر (بفتحتين) : الضعف ، وإنما سكنت التاء هنا لضرورة وزن الشعر .

(٣٤) الجهر (بفتح فسكون) : مصدر جهر الإنسان بالقول ، أى رفع به صوته ، (وبابه قطع) ، وهو هنا ضدّ السرّ . والواشى : الذى يسعى بالفساد والتفرقة بين الناس .

يمدحه بالشجاعة والحزم ، وأنه يجهر برأيه فى المواضع التى يجب فيها الجهر ، ويكتم سرّه إذا وجب الكتمان .

(٣٥) يدبّ : يمشى ويسرى ، (وبابه ضرب) . والوعر : الصعب المستعصى .

لَهُ الْبُلْجَةُ الْغَرَّاءُ يَسْرِى شُعَاعُهَا ... إِذَا غَامَ أُفْقُ الْفَهْمِ ، وَالْتَبَسَ الْأَمْرُ (٣٦)

تَزَاحَمُ أَفْوَاجُ الْكَلَامِ بِصَدْرِهِ ... فَلَوْ غَضَّ مِنْ صَوْتٍ لَكَانَ لَهَا هَدْرُ (٣٧)

لَهُ قَلَمٌ لَوْلَا غَزَارَةُ فِكْرِهِ ... لَجَفَّتْ لَدَيْهِ السُّحْبُ ، أَوْ نَفِدَ الْبَحْرُ (٣٨)

إِذَا اخْتَمَرَتْ بِاللَّيْلِ قِمَّةُ رَأْسِهِ ... تَفَجَّرَ مِنْ أَطْرَافِ لِمَّتِهَا الْفَجْرُ (٣٩)

إِلَيْكَ ابْنَ بَطْحَاءِ الْكَلَامِ تَشَذَّرَتْ ... بِرَكْبِ الْمَعَانِى لَا يُكَفْكِفُهَا الزَّجْرُ (٤٠)

---

(٣٦) البلجة (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) : الضوء ، ونقاوة ما بين الحاجبين ، والمراد هنا : الفكرة ، وقوّة العارضة ، والبديهة . والغرّاء : البيضاء المشرقة . ويسرى : يسير ، من السرى ، وهو السير ليلاً . وغام : أظلم ، وأصله من غامت السماء ، إذا أطبق بها السحاب . والتبس الأمر : اختلط وأشكل ، وخفى وجه الصواب فيه .

(٣٧) تزاحم : أصلها تتزاحم . وأفواج : جماعات ، واحدها فوج (بفتح فسكون) . وغضّ من صوته : خفض . وهدر : مصدر هدر البعير (من باب ضرب) أى ردّد صوته فى حنجرته .
يمدحه بالفصاحة ، والمقدرة الكلامية .

(٣٨) غزارة : كثرة .
يقول : إن قلمه يستمدّ القول والأدب من فكره الغزير الطامى ، ولو كان هذا القلم يستمدّ من السحب أو البحار لجفّت ونفدت .
والمعنى : أن فكره أغزر من السحب ، وأوسع من البحر ، وأن قلمه سيّال يستمدّ من ينبوع لا ينضب ، ولا يغيض .

(٣٩) اختمرت المرأة : لبست الخمار (ككتاب) وهو ثوب تغطّى به رأسها . ويريد بالليل : المداد . وقمّة رأس القلم : طرفه الذى يكتب به . واللّمة (بالكسر) : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .
يقول : إن قلم الممدوح إذا غمس فى المداد الذى يشبه الليل ، دوّن أفكاراً ومعانى مشرقة واضحة كضوء الفجر .

(٤٠) ابن : منادى ، وأداة النداء محذوفة . والبطحاء : مسيل (بفتح فكسر) واسع فيه دقاق الحصى . وكذا البطيحة والأبطح ، وابن بطحاء الكلام : كناية عن فصاحة الممدوح ، وتمكّنه من أساليب الكلام وفنون القول . وتشذّرت الناقة : حرّكت رأسها ، واشتدّ نشاطها وفرحها ، وذلك إذا رأت رعياً (بكسر فسكون) يسرّها . والركب : جمع راكب ، كصاحب وصحب (بفتح فسكون) . ولا يكفكفها : لا يمنعها ولا يصرفها . والزجر : مصدر زجرته (من باب نصر) أى منعته ونهيته .

يمدحه بالفصاحة والتمكّن من أساليب القول ، وقال : إن القلائص سارعت إليه بركبانها من المعانى مرحة نشيطة ، لا يحدّ من نشاطها الزجر ، ولا يصرفها عن غايتها المنع ، والمراد هذه القصيدة ، فقد شبّه أبياتها بالقلائص المرحة النشيطة ، تسارع إلى الممدوح لا بركب من الناس ، بل بركب من المعانى .

قَلائِصُ لاَ يَرْعَيْنَ عَازِبَةَ الْكَلاَ وَلاَ يَسْتَبِقْنَ الْمَاءَ إِنْ فَاتَهَا الْعِشْرُ (٤١)
وَمَا هُوَ إِلَّا الشِّعْرُ سَارَتْ عِيَابُهُ وَفِي طَيِّهَا مِنْ طِيبِ مَا ضُمِّنَتْ نَشْرُ (٤٢)
فَأَلْقِ إِلَيْهِ السَّمْعَ يُنْبِئْكَ أَنَّهُ هُوَ الشِّعْرُ ، لاَ مَا يَدَّعِي الْمَلأُ الْغَمْرُ (٤٣)
يَزِيدُ عَلَى الْإِنْشَادِ حُسْناً ، كَأَنَّنِي نَفَثْتُ بِهِ سِحْرًا ، وَلَيْسَ بِهِ سِحْرُ (٤٤)
قَدُمْ لِلْعُلَا ، وَالْعِلْمِ ، وَالْحِلْمِ ، وَالتُّقَى وَنَيْلِ الْمُنَى مَا أَوْرَقَ الْغُصُنُ النَّضْرُ (٤٥)

---

(٤١) قلائص: فاعل تشذّرت فى البيت السابق، جمع قلوص (بفتح فضم) وهى الفتيّة الشابّة من الإبل ، أو الباقية على السير ، أو أول ما يركب من إناثها إلى أن تثنى ، ثم هى ناقة . ورعت الماشية الكلأ ترعاه رعياً (كسعى يسعى سعياً) : أكلته . وعازبة الكلأ : الكلأ البعيد . والكلأ : العشب رطباً كان أو يابساً . ولا يستبقن الماء : لا يسارعن إليه ، تسابقوا إلى كذا ، واستبقوا إليه بمعنى . والعشر (بكسر فسكون) : أن تظمأ الإبل ، وترد الماء فى اليوم العاشر .

والمعنى : أنها ليست كقلائص الإبل تأكل وتشرب ، وإنما هى أساليب القول ، وفنون الكلام والشعر الرائع . وقد صرّح به فى البيت الآتى :

(٤٢) العياب (بكسر العين) : جمع عيبة (بفتح فسكون) وهى وعاء الثياب ، أو زبيل (كأمير) من جلد يكون فيه المتاع . وفى طيّها : المراد فيما انطوت عليه . وضمّنت : حوت ، وكلّ شىء جعلته فى وعاء فقد ضمّنته إيّاه . والنشر (بوزن النصر) : الرائحة الطيّبة .

والمعنى : وليست هذه القلائص إلا الشعر يحمل فى طياته ما يشبه الطيب فى انتشاره ، وحسن أثره .

(٤٣) ألق إليه السمع : استمع له وتأمّله ، والخطاب للممدوح . والملأ : الجماعة من الناس . والغمر (بتثليث الغين وسكون الميم ، أو بفتحهما) : الذى لم يجرّب الأمور .

(٤٤) الإنشاد: مصدر أنشدت الشعر ، أى قرأته . ونفثت : ألقيت ، من النفث (بفتح فسكون) وهو شبه النفخ ، أو البزق اليسير ، (وبابه ضرب) ، ونفث الساحر أو الراقى فى العقدة ، أى نفخ فيها بشىء يقوله ، ومنه قول الله تبارك وتعالى فى سورة الفلق : « وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » أى من شرّ السواحر ينفثن فى العقد (جمع عقدة) . والكلام الأخّاذ الرائع يشبّه بالسحر فى شدّة تأثيره فى النفس ، ومن ذلك الحديث المشهور « إن من البيان لسحرا » .

(٤٥) الحلم : الأناة والعقل . والتقى (بضم ففتح) : جمع تقاة (بالضم) ، أو التقى : التقوى (بفتح فسكون) ، اسم من وقيت نفسى وقاية (بالكسر) أى حفظتها ممّا يغضب الله تعالى . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) وهى ما يتمنّاه الإنسان ، ويتوق إليه ، ويقدّر حصوله . والنضر : الغضّ الجميل ، صفة من النضارة ، وهى الحسن والرونق .

وَقَالَ يَرُوضُ (*) القَوْلَ :

لِهَوَى الْكَوَاعِبِ ذِمَّةٌ لاَ تُخْفَرُ ... وَأَخُو الْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ لاَ يَغْدِرُ (١)
فَعَلاَمَ يَنْهَانِي الْعَذُولُ عَنِ الصِّبَا ؟ ... أَوَلَيْسَ أَنَّ هَوَى النُّفُوسِ مُقَدَّرُ ؟ (٢)
قَدْ كَانَ لِي فِي بَعْضِ مَا صَنَعَ الْهَوَى ... عُذْرٌ ، وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَتَبَصَّرُ ؟ (٣)
وَمِنَ الْبَلِيَّةِ غَافِلٌ عَمَّا جَنَتْ ... يَدُهُ عَلَيَّ ، وَلاَئِمٌ لاَ يَعْذِرُ (٤)
لَمْ يَدْرِ مَنْ كَحَلَ الْكَرَى أَجْفَانَهُ ... مَاذَا يُكَابِدُ فِي الْهَوَى مَنْ يَسْهَرُ (٥)

(*) يروض القول : يذلّله ويمرّن عليه نفسه ، وأصله من راض الإنسان المهر يروضه رياضة (بالكسر) أى درّبه وذلّله .

(١) الهوى : الحبّ . والكواعب : جمع كاعب ، وهى الفتاة التى نهد ثديها ، أى نتأ وظهر . والذمّة : الحرمة والعهد . ولا تخفر : لا تنقض ، ولا تنتهك ، من الإخفار ، وهو الغدر ونقض العهد .

(٢) العذول : صفة من العذل ، وهو اللوم . والمراد بالصبا هنا : الهوى والعشق .

يريد أنه لامعنى لأن يلومنى العذول ، وينهانى عن الحبّ ، لأن هذا شىء قد قدّره الله تعالى ، ولا حيلة لى فى دفع القدر (بفتحتين) .

(٣) يتبصّر : يتأمّل ويتعرّف ، ويجيد النظر .

يشير إلى أن الهوى قد برّح به وأضناه ، وقد كان جديراً بأن يعذر فيما صنعه به الحبّ من التذلّل والهيام وشدّة الوجد ، لأنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه تأثير الجمال ، ولكنّ الناس لا يفهمون .

(٤) البليّة : اسم من بلاه الله تعالى يبلوه بلاء ، أى اختبره وامتحنه ، وهو يكون بالخير والشر ، والمراد بالبليّة هنا : الكارثة والتجربة الشاقّة . ويشير بقوله : « غافل عما جنت يده علىّ » إلى الحبيب ، وبقوله « لائم لا يعذر » إلى العذول .

والمعنى : أنه اجتمع عليه أمران شديدان : إعراض الحبيب ، ولوم العذول .

(٥) الكرى : النعاس . ويكابد الأمر : يعانيه ويقاسى شدّته . والهوى : الحبّ .

ومعنى هذا البيت قريب من قولهم : « ويل للشجى من الخلىّ » . قال أبو الأسود الدؤلىّ :

ويلُ الشَّجىِّ من الخلىِّ ، فإنَّه ... نَصِبُ الفؤادِ لِشَجْوِهِ مَغْمُومُ

وقال غيره فى المعنى نفسه :

نَامَ الخليون عن ليلِ الشَّجيِّينا ... شأنُ السَّلاةِ سِوَى شأنِ الْمُحِبِّينَا

يا غَافِلاً عنِّي ! وَبَيْنَ جَوانِحِي لَهَبٌ يَكَادُ لَهُ الْحَشَا يَتَفَطَّرُ(٦)

دَعْنِي أَبُثَّكَ بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدٌ وَاحْكُمْ بِمَا تَهْوَى ، فَأَنْتَ مُخَيَّرُ(٧)

فَلَوِ اطَّلَعْتَ عَلى تَبَارِيحِ الْجَوَى لَعَلِمْتَ أَىُّ دَمٍ بِحُبِّكَ يُهْدَرُ(٨)

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ حُبِّكَ أَنَّنِي أُغْضِي عَلى مَضَضِ الْهَوانِ وَأَصْبِرُ(٩)

أَوْرَدْتَنِي بِلِحاظِ عَيْنِكَ مَوْرِدًا لِلْحُبِّ ، مَا لِلْقَلْبِ عَنْهُ مَصْدَرُ(١٠)

---

(٦) الجوانح : أضلاع الصدر ، أو هى الأضلاع التى تحت الترائب مما يلى الصدر ، الواحدة جانحة . والحشا : ما حواه الجوف ، أو هو ما اشتملت عليه الضلوع . ويتفطّر : يتشقّق . والنداء فى هذا البيت للحبيب .

يقول : إن قلبه الذى بين جوانحه يشتعل حبًّا ، وإن هذا الاشتعال له أثر شديد فى أحشائه.

(٧) بثثتك السرّ (من باب قتل) وأبثثتك إيّاه : أظهرته لك . وتهوى : تحبّ وتريد (وبابه صدى) .

(٨) تباريح الهوى والشوق : توهّجه ، كأنّه جمع تبريح ، مصدر برّح به الأمر تبريحاً ، أى جهده واشتدّ عليه وقمعه . والجوى : هوى باطن ، والحزن ، والحرقة ، وشدّة الوجد . وهدر دمه : بطل (وبابه ضرب) ، وأهدره السلطان ، أى أبطله وأباحه .

(٩) الإغضاء : إدناء الجفون ، يقال : أغضى الرجل عينه ، أى قارب بين جفنيها ، ثم استعمل فى الحلم والصبر ، فقيل : أغضى على القذى ، إذا صبر على الإساءة . والمضض : مصدر مضضت من الشيء (من باب تعب) أى تألمت . والهوان : الذلّ .

(١٠) ورد البعير وغيره الماء يرده (بالكسر) وروداً (بالضم) : بلغه ووافاه . وأوردته الماء : أحضرته مورده . والمورد (مثل مجلس) : موضع الورود ، ومأتاة الماء ، والكلام على التشبيه . واللحاظ (بفتح اللام وكسرها) : مؤخر العين مما يلى الصدغ ، واللحاظ (بالكسر) : مصدر لاحظته ، أى نظرت إليه بمؤخر العين ، والمراد بلحاظ العين : نظراتها الساحرة الفاتنة . ومصدر : مرجع أو رجوع ، اسم مكان أو مصدر ميمى ، من قولهم : صدر عن الماء وعن البلاد (من بابى نصر ودخل) أى رجع .

يقول : إن الحبيب بنظراته الفاتنة قد أورد قلبه مورداً للحبّ لا يستطيع مغادرته ، ولا الرجوع عنه . والمعنى : أنه صار أسير الحبّ ، سجين الغرام .

هِىَ نَظْرَةٌ كَانَتْ ذَرِيعَةَ صَبْوَةٍ ... وَاللَّحْظُ أَضْعَفُ مَا يَكُونُ وَأَقْدَرُ(١١)

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ وَحْيِ جُفُونِها ... أَنَّ الْعُيُونَ الْجُؤْذُرِيَّةَ تَسْحَرُ(١٢)

ظَلَمُوا الْأَسِنَّةَ خَاطِئِينَ ، وَلَيْتَهُمْ ... عَلِمُوا بِما صَنَعَ السِّنَانُ الْأَحْوَرُ(١٣)

أَمُطَاعِنَ الْفُرْسَانِ فِى حَمَسِ الْوَغَى ... أَقْصِرْ ،فَرُمْحُكَ عَنْ غَرِيمِكَ أَقْصَرُ(١٤)

أَيْنَ الرِّمَاحُ مِنَ الْقُدُودِ ؟ وَأَيْنَ مِنْ ... لَحْظٍ تَهِيمُ بِهِ السِّنَانُ الْأَخْزَرُ ؟(١٥)

---

(١١) ذريعة : وسيلة وسبب. والمراد بالصبوة هنا : الهوى والغرام . واللحظ : مصدر لحظه ولحظ إليه (من باب قطع) أى نظر إليه بمؤخر العين ، ويشير بضعف اللحظ إلى فتور الطرف ، وهو من صفات الحسن فى عيون النساء ، وهو أيضاً دليل الخفر والحياء، ويشير بقدرته إلى ساحريّته وشدة تأثيره فى نفوس العاشقين .

(١٢) الوحى : الإشارة .والجؤذريّة: نسبة إلى الجؤذر (بضم فسكون ففتح ، أو بضم فسكون فضم) ، وهو ولد البقرة الوحشيّة ، وتشبّه عيون الحسان بعيون بقر الوحش فى الاتساع والجمال .

(١٣) الأسنّة : جمع سنان (بكسر السين) وهو حديدة الرمح . ويريد بالسنان الأحور : عين الحبيب على التشبيه . والأحور :صفة من الحور (بفتحتين) وهو شدّة بياض العين ، فى شدّة سوادها ، مع استدارة حدقتها ، ورقّة جفونها ، وبياض ما حواليها .

(١٤) أمطاعن: الهمزة للنداء ، ومطاعن: اسم فاعل من طاعنه بالرمح أى قاتله وضاربه . والفرسان: جمع فارس ، وهو راكب الفرس . وحمس الوغى : شدة الحر ، مصدر حمس (من باب فرح) أى اشتدّ وصلب فى القتال ونحوه . وأقصر : أمر من أقصرت عن الشيء ، أى نزعت عنه وكففت وامتنعت . والغريم : الدائن أو المدين ، والمراد الحبيب . وأقصر : اسم تفضيل يراد به مجرد الوصف ، فهو بمعنى قصير ، أو بمعنى قاصر ، من قصرت عن الشيء قصوراً (من باب قعد) أى عجزت عنه ، ولم أبلغه ، وقصر السهم عن الهدف كذلك .

والمعنى : أن البطل الشجاع على شدّة بأسه لا يستطيع مقاومة الحبّ ،ولا التغلّب على أسبابه .

(١٥) القدود : جمع قدّ (بقاف مفتوحة ودال مشدّدة) ، وهو القامة والتقطيع والاعتدال. واللحظ : النظر بمؤخر العين ، والمراد النظر الفاتن الساحر ، أو العين الجميلة . وتهيم به : تحبه وتعشقه ، من الهيام (بضم الهاء وكسرها) ، وهو الجنون من العشق . والسنان : حديدة الرمح التى يكون بها الطعن . والأخزر : صفة من الخزر (بفتحتين) ، وهو ضيق العين وصغرها ، أو هو حول إحدى العينين ، أو أقبح الحول (بفتحتين) ، أو إقبال الحدقتين نحو الأنف .

يفضّل قدود الحسان على الرماح ، ويقول إن تأثير عين الحبيب أشدّ من تأثير السنان ، ولما عقد الموازنة بين العين والسنان، وصفه ببعض عيوب العين ، وهو الخزر ، على سبيل المشاكلة .

هَيْهَاتَ يَثْبُتُ فِى الْوَقِيعَةِ دَارِعٌ ... يَسْطُو عَلَيْهِ مُخَلْخَلٌ وَمُسَوَّرُ(١٦)

لِلْحُسْنِ أَسْلِحَةٌ إِذَا مَااسْتَجْمَعَتْ ... فِى حَوْمَةٍ لا يَتَّقِيهَا مِغْفَرُ(١٧)

فَلِلَّحْظُ عَضْبٌ صَارِمٌ ، والْهُدْبُ نَبْـ ... ـلٌ صَائِبٌ ، وَالْقَدُّ رُمْحٌ أَسْمَرُ(١٨)

أَنَّى يَطِيشُ عَنِ الْقُلُوبِ لِغَمْزَةٍ ... سَهْمٌ ، وَقَوْسُ الْحَاجِبَيْنِ مُوَتَّرُ ؟(١٩)

---

(١٦) الوقيعة : الحرب والقتال . ودارع : عليه الدرع (بكسر فسكون) ، وهى لبوس من حديد يتقّى به المحارب طعنات العدوّ . ويسطو عليه : يبطش به ويقهره . والمخلخل فى أصل اللغة : موضع الخلخال من الساق ، والمراد به هنا : لابس الخلخال ، والمسوّر : لابس السوار .

والمعنى : أن الدارع الكمىّ الشجاع الذى يكرّ فى ساحة الوغى لا يستطيع الثبات فى مجال الحبّ أمام ذوات الخلخال والسوار .

(١٧) استجمعت : اجتمعت . وحومة القتال : معظمه ، أو أشدّ موضع فيه . والمغفر (بكسر فسكون ففتح) : زرد (بفتحتين) ينسج على قدر الرأس ، ويلبس تحت القلنسوة ، أو حلق (بفتحتين) يتقنّع به المتسلّح .

والمعنى : أن المعشوقات يؤثّرن بحسنهن فى قلوب العشّاق تأثيراً قويّاً شديداً لاتدفعه ، ولاتجدى معه وسائل الوقاية والدفاع .

(١٨) عضب : سيف قاطع . ومثلها صارم . والهدب (بضم فسكون) : ما نبت من الشعر على أشفار العين . والنبل (بفتح فسكون) : السهام العربية ، وهى مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها ، بل الواحد سهم (بفتح فسكون) ، أو نشّابة (بضم النون وتشديد الشين) .

شبّه ألحاظ الحسان ونظراتهن الفاتنة بالسيوف القاطعة ، وأهداب عيونهن بالسهام الصائبة ، لأن النظرات الفاتنة ، والعيون الجميلة شديدة التأثير فى نفوس العشّاق ، كما شبّه قاماتهن الحسان بسمر القنا فى الاعتدال والاستواء .

(١٩) يطيش السهم : ينحرف عن الهدف ، ولا يصيبه . والغمزة (بفتح فسكون) : الإشارة بالعين ، السهم : ما يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . وموتّر : اسم مفعول من وتّرت القوس توتيراً ، أى شددت وترها (بفتحتين) .

لما شبّه النظرات بالسهام جعل حواجب العيون كالقسىّ شدّت أوتارها ، وأحكم وضعها ، وهيّئت للرماية ، ثم قال : كيف يطيش لغمزات العيون سهم وقد رمى عن حاجبين كالقوسين شدّ تراهما .

والمعنى : أنّ نظرات الحسان ساحرة فاتنة ، وهى كالسهام الصائبة لا تطيش عن قلوب العشّاق .

يَا لَلْحَمِيَّةِ مِنْ غَزَالٍ صَادَنِى ... وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَصِيدَ الْجُؤْذَرُ(٢٠)
بَدْرٌ لَهُ بَيْنَ الْقُلُوبِ مَنَازِلٌ ... يَسْرِى بِها ، وَلِكُلِّ بَدْرٍ مَظْهَرُ(٢١)
انْظُر لِطُرَّتِهِ وَغُرَّةِ وَجْهِهِ ... تَلْقَ الْهِدَايَةَ ، فَهْوَ لَيْلٌ أَقْمَرُ(٢٢)
نَادَيْتُ لَمَّا لاَحَ تَحْتَ قِنَاعِهِ : ... هَذَا «الْمُقَنَّعُ» فَاحْذَرُوا أَنْ تُسْحَرُوا(٢٣)
طَبَعَتْهُ فِى لَوْحِ الْفُؤَادِ مَخِيلَتِى ... بِزُجَاجَةِ الْعَيْنَيْنِ ، فَهْوَ مُصَوَّرُ(٢٤)
وَسَرَتْ بِجِسْمِى كَهْرَبَاءَةُ حُسْنِهِ ... فَمِنَ الْعُرُوقِ بِهِ سُلُوكٌ تُخْبِرُ(٢٥)
أَنَا مِنْهُ بَيْنَ صَبَابَةٍ لاَ يَنْقَضِى ... مِيقَاتُهَا ، وَمَوَاعِدٍ لاَ تُثْمِرُ(٢٦)

---

(٢٠) الحميّة : الأنفة والاستنكاف والاستكبار وعدم احتمال الضيم . ويريد بالغزال : المرأة الجميلة الفاتنة ، تشبّه بالغزال فى الرشاقة ولطف الحركة ، وجمال الجيد والعينين . والجؤذر : ولد البقرة الوحشية ، تشبّه به الحسناء فى جمال العيون واتّساعها .

(٢١) يسرى : يسير ، من السرى (بضم ففتح) وهو السير ليلا .

شبه المحبوبة بالبدر ، وقال إنها تسرى فى منازل هى قلوب العشّاق ، كما يسبح بدر السماء فى منازله ، ولكلّ بدر مظهر ، أى حالة مخصوصة يظهر عليها .

(٢٢) الطرّة : الشعر الذى تصفّفه الجارية على جبهتها . وغرّة الوجه : بياضه وإشراقه وجماله . جعل طرّة المحبوبة كالليل ، ووجهها الأغرّ كالبدر .

(٢٣) لاح : بدا وظهر . والقناع : ماتقنّع به المرأة رأسها ، أى تغطّيه . والمقنّع الخراسانىّ : مشعوذ مشهور ، كان قصّارا من أهل مرو ، وتعلّق بالشعوذة والسحر ، وكان مشوّه الخلق ، فاتّخذ وجهاً من ذهب تقنّع به ، ثم ادّعى الربوبيّة ، وتبعه قوم ، وقاتلوا فى سبيله ، واشتهر أمره سنة ١٦١ هـ ، فثار الناس ، وأرادوا قتله ، فاعتصم بقلعة له ، فحصروه ، فلمّا أيقن بالهلاك شرب سمّا فمات سنة ١٦٣ هـ .

(٢٤) المخيلة : الظنّ ، والمراد بها هنا : النفس العاقلة .

والمعنى : أنه نظر إلى محبوبته بعينيه (وقد شبههما بعدسة التصوير) فطبعت نفسه صورتها فى قلبه ، فأصبحت مصوّرة به ، لا يغيب عنه رسمها .

(٢٥) سرت : سارت وتمشّت ، من السرى (كالهدى) وهو سير عامّة الليل .

يقول : إنّ حسن الحبيب كالكهرباء سرت فى جسمى ، ثم جعل العروق كأسلاك الكهرباء ، وقال إنها تخبر بذلك الحسن .

والمعنى : أنه تأثّر بجمال الحبيب غاية التأثّر ، وأولع به أشدّ الولوع .

(٢٦) الصبابة : رقّة الهوى ، وحرارة الشوق . والمواعد : جمع موعد ، وهو الوعد .

جِسْمٌ بَرَتْهُ يَدُ الضَّنَى ،حَتَّى غَدَا قَفَصًا بِهِ لِلْقَلْبِ طَيْرٌ يَصْفِرُ(٢٧)
لَوْلَا التَّنَفُّسُ لَاعْتَلَتْ بِيَ زَفْرَةٌ فَيَخَالُنِي طَيَّارَةً مَنْ يُبْصِرُ(٢٨)
لَا غَرْوَ أَنْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ قِيَادِهِ فَالْحُبُّ أَغْلَبُ لِلنُّفُوسِ وَأَقْهَرُ(٢٩)
يَعْنُو لِقُدْرَتِهِ الْمَلِيكُ الْمُتَّقَى وَيَهَابُ صَوْلَتَهُ الْكَمِيُّ الْقَسْوَرُ(٣٠)
وَالْعِشْقُ مَكْرُمَةٌ إِذَا عَفَّ الْفَتَى عَمَّا يَهِيمُ بِهِ الْغَوِيُّ الْأَصْوَرُ(٣١)
يَقْوَى بِهِ قَلْبُ الْجَبَانِ ، وَيَرْعَوِي طَمَعُ الْحَرِيصِ وَيَخْضَعُ الْمُتَكَبِّرُ(٣٢)
فَتَحَلَّ بِالْأَدَبِ النَّفِيسِ؛ فَإِنَّهُ حَلْيٌ يَعِزُّ بِهِ اللَّبِيبُ وَيَفْخَرُ(٣٣)
وَإِذَا عَزَمْتَ فَكُنْ بِنَفْسِكَ وَاثِقاً فَالْمُسْتَعِزُّ بِغَيْرِهِ لَا يَظْفَرُ(٣٤)

---

(٢٧) الضنى : مصدر ضنى (كرضى) أى مرض مرضاً مخامراً كلما ظنّ برؤه نُكِسَ .

يقول : إنّ جسمه قد شفّه الهمّ ، وأضناه الوجد ، وهزله المرض ، حتى صار كالقفص وقلبه يصفر فيه كالطائر . ويريد بصفير القلب : ضعفه ، وشدّة خفقانه .

(٢٨) الزفرة : شدّة الحرقة والوجد، اسم مرّة من زفرت النار (من باب ضرب) أى سمع لتوقّدها صوت . ويخالنى : يظننى .

والمعنى : أن التنفّس يخفّف ما يعانيه ، ويلطّف ما يجده من لواعج الشوق وتباريح الغرام ، ولولا التنفّس لاشتدّت به الصبابة ، واحتبست حرقة الوجد فى نفسه ، وطارت به فى الهواء .

(٢٩) لا غرو : لاعجب . والقياد : المقود (كمنبر) ، وهو حبل تقاد به الدّابة ، أو هو مصدر قاد الرجل الدابّة ، وهو أن يكون أمامها آخذاً بقيادها ، وهذا كناية عن الطاعة والخضوع والإذعان

(٣٠) يعنو : ينقاد ويُذعن ويخضع ويذلّ . والصولة : الاستطالة والسطوة والبطش . والكمىّ : البطل الشجاع المدجّج بالسلاح . والقسور : العزيز القوىّ الغالب .

(٣١) مكرمة (بضم الراء) : اسم من الكرم ، والمراد كرم النفس واتصافها بالفضائل. ويهيم به : يحبّه ، ويميل إليه ، ويشتهيه . والغوىّ : الضالّ المنهمك فى الجهل والفساد . والأصور : صفة من الصور (بوزن الفرح) وهو الميل ، والمراد بالأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد .

(٣٢) يرعوى عن القبيح : يكفّ عنه ويمتنع .

(٣٣) يعزّ : يقوى ويكرم . واللبيب : العاقل . وقد انتقل الشاعر هنا من الغزل إلى الحكمة والنصح

(٣٤) المستعزّ بغيره : المعتمد عليه ، المتقوّى به .

إنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ مِنْ بَدَهاتِهِ ... فِي الْخَطْبِ هَادٍ خَانَهُ مَنْ يَنْصُرُ(٣٥)
وَاحْذَرْ مُقَارَنَةَ اللَّئِيمِ وَإنْ عَلَا ... فَالْمَرْءُ يُفْسِدُهُ الْقَرِينُ الْأَحْقَرُ(٣٦)
وَمِنَ الرِّجَالِ مَنَاسِبٌ مَعْرُوفَةٌ ... تَزْكُو مَوَدَّتُهَا ، وَمِنْهُمْ مُنْكَرُ(٣٧)
فَانْظُرْ إلى عَقْلِ الْفَتَى لا جِسْمِهِ ... فَالْمَرْءُ يَكْبُرُ بِالْفِعَالِ وَيَصْغُرُ(٣٨)
فَلَرُبَّمَا هَزَمَ الْكَتِيبَةَ وَاحِدٌ ... وَلَرُبَّمَا جَلَبَ الدَّنِيئَةَ مَعْشَرُ(٣٩)
إنَّ الْجَمَالَ لَفِي الْفُؤَادِ ، وَإنَّمَا ... خَفِيَ الصَّوَابُ لِأَنَّهُ لا يَظْهَرُ(٤٠)
فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا تَعِيشُ بِذِكْرِهِ ... فَالْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا حَدِيثٌ يُذْكَرُ(٤١)

---

(٣٥) البدهات: جمع بدهة (بفتح فسكون) ، اسم مرّة من بدهه بالأمر بدهاً (من باب منع) أى فاجأه وباغته ، ومن كلامهم : فلان صاحب بديهة ، أى يصيب الرأى فى أول ما يفاجأ به ، والمراد بالبدهات هنا : الآراء السديدة ، والأحكام الصائبة السريعة . والخطبُ : النازلة الشديدة من نوازل الدهر .

يقول : إذا لم يهد المرء فى الشدائد بديهة صائبة ، ورأى حصيف ؛ اضطربت أموره ، ولم ينفعه النصير . أو خانه من كان ينصره لو حسن تصرّفه ، واستقام تدبيره .

(٣٦) مقارنة اللئيم : مصاحبته . والقرين : الصاحب . والأحقر : اسم تفضيل من الحقارة ، وهى الهوان والدناءة . والمراد حقارة النفس ، ودناءة الطباع والأخلاق ، كما يريد بالعلوّ فى الشطر الأول : علو المنصب ، أو الثروة ، أو نحو ذلك .

(٣٧) يريد بالمناسب المعروفة : الأنساب الواضحة المشهورة ، وكأنها جمع منسب (كمذهب) ، مصدر ميمىّ من نسبت الرجل ، أى ذكرت نسبه وقرابته وآباءه ، والمراد : ومن الرجال ذوو مناسب . وتزكو : تنمو وتزيد . والمودّة : المحبّة . ومنكر مجهول .

طابق بين ذوى المناسب والمجهولين من الرجال ، وأشار إلى بعض الفروق التى بينهم ، ليختار المرء القرين الصالح .

(٣٨) الفعال : جمع فعل (بكسر فسكون) ، مثل قدح وقداح ، أو هى الفعال (بالفتح) مصدر فعل كذهب ذهاباً .

(٣٩) الكتيبة : الطائفة من الجيش مجتمعة . والدنيئة : النقيصة والعار . والمعشر : جماعة الناس.

(٤٠) المعنى : أنّ المعوّل عليه فى الإنسان جمال السريرة ، وحسن الخلق ، وكرم الطبع ، وهذه أمور خفيّة ، تحتاج إلى شىء من التأمّل والنظر والاختبار .

(٤١) يحضّ على العمل الذى يبقى الذكر وكرم الأحدوثة .

وَقَالَ يَصِفُ أَيَّامَ الرَّبيعِ :

رفَّ النَّدَى ، وَتَنَفَّسَ النُّوَّارُ وَتَكَلَّمَتْ بِلُغَاتِهَا الأَطْيَارُ(١)
وَتَأَرَّجَتْ سُرَرُ الْبِطَاحِ ، كَأَنَّمَا فِي بَطْنِ كُلِّ قَرارَةٍ عَطَّارُ(٢)
زَهْرٌ يَرِفُّ عَلَى الْغُصُونِ ، وَطَائِرٌ غَرِدُ الْهَدِيرِ ، وَجَدْوَلٌ زَخَّارُ(٣)
وَنَوَاسِمٌ أَنْفَاسُهُنَّ طَوِيلَةٌ وَهَوَاجِرٌ أَعْمَارُهُنَّ قِصَارُ(٤)
وَالْبَاسِقَاتُ الْحَامِلاتُ كَأَنَّهَا عُمُدٌ مُشَعَّبَةُ الذُّرَا وَمَنَارُ(٥)

---

(١) رفّ : برق وتلألأ . والندى : المطر القليل ينزل آخر الليل . والمراد قطرات الماء التي تبدو على أوراق الشجر والزهر في الصباح . وتنفّس : تبلّج وأشرق ، والمراد تفتّح ، وأصله من قولهم : تنفّس الصبح : إذا تبلّج وأضاء . والنوّار (بضم النون وتشديد الواو) : الزهر ، واحدته نوّارة (كتفاحة وتفّاح) .

(٢) تأرّجت : فاحت منها رائحة طيّبة ذكيّة . والسرر : جمع سرّة (بضم السين وتشديد الراء) ، وهي وسط الوادي ، وأطيب موضع فيه ، أو هي السرر (كعنب) جمع سرّ (بكسر السين) بمعنى السرّة المتقدّم . والبطاح : جمع الأبطح ، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، وكلّ مكان متّسع ، والمراد الأودية . والقرارة : الأرض المطمئنّة .

(٣) يرفّ : يلمع ويتلألأ . وغرد : صفة من الغرد (بفتحتين) وهو التطريب في الصوت . والهدير : سجع الحمام ونحوه ، مصدر هدر (من باب ضرب) أى صوّت ، ومعنى غرد الهدير : أن في صوته غرداً وتطريباً يشبه الغناء . وزخّار : طام ممتلئ .

(٤) النواسم : الرياح الطيّبة المعتدلة ، جمع ناسمة . والأنفاس : جمع نفس (بفتحتين) وهو نسيم الهواء وطيبه ولطف حركته . والهواجر : جمع هاجرة ، وهي اشتداد الحرّ في منتصف النهار .

(٥) الباسقات : طوال النخل . والحاملات : المثمرات ، جمع حاملة . وعمد (بفتحتين أو بضمتين) : جمع عمود . ومشعّبة : مفرّقة . والذرى : جمع ذروة (بكسر الذال وضمها) وهي من كل شيء أعلاه . والمنار : جمع منارة ، وهي الموضع المرتفع به نور .

شبّه النخيل الطوال المثمرة وقد تشعّب سعفها بعمد عالية متشعّبة الذرا ، ثم شبهها بالمناور لارتفاعها ، ولما يبدو في ثمارها من إشراق وبهاء .

عَقَدَتْ ذَلاذِلَ سُوقِها فِي جِيدِهَا وَسَمَتْ ، فَلَيْسَ تَنَالُهَا الأَبْصَارُ (٦)
فَأُصُولُهَا لِلسَّابِحَاتِ مَلاعِبٌ وَفُرُوعُهَا لِلنَّيِّرَاتِ مَطَارُ (٧)
يَبْدُو بِهَا زَهْوٌ تَخَالُ إِهَانَهُ فُتُلًا تَمَشَّتْ فِي ذُرَاهَا النَّارُ (٨)
طَوْرًا تَمِيلُ مَعَ الرِّيَاحِ ، وَتَارَةً تَرْتَدُّ ، فَهْيَ تَحَرُّكٌ وَقَرَارُ (٩)
فَكَأَنَّمَا لَعِبَتْ بِهَا سِنَةُ الْكَرَى فَتَمَايَلَتْ ؛ أَوْ بَيْنَهَا أَسْرَارُ (١٠)
فَإِذَا رَأَيْتَ رَأَيْتَ أَحْسَنَ جَنَّةٍ خَضْرَاءَ تَجْرِي بَيْنَهَا الأَنْهَارُ (١١)

---

(٦) ذلاذل القميص : ما يلي الأرض من أسافله . والسوق : جمع ساق ، وهي جذع الشجرة ، والمراد بذلاذل سوق النخيل : سعفها وأغصانها .

شبّه أغصان النخيل التي تتفرّع من ساقها بذلاذل القميص وأطرافه وأسافله ، وقال إن سعفها وأغصانها معقودة في جيدها أي عنقها ، لأنّ سعف النخلة يقلّم عادة ، ولا يبقى منه إلا ما تفرّع في رأسها ، وأحاط بعنقها . ثم وصفها في الشطر الثاني بالسموّ والطول والارتفاع والذهاب في السماء .

(٧) السابحات : جمع سابح أو سابحة ، وهو ما يعوم في الماء . وملاعب : جمع ملعب (كمذهب) وهو اسم مكان من اللعب . والنيّرات : الكواكب والنجوم . ومطار : اسم مكان من الطيران

يقول : إن جذور هذه النخيل ذهبت في باطن الأرض إلى مستوى يقرب من مستوى جوف الأنهار حيث تسبح الأسماك ، وإن فروعها ذهبت في السماء إلى حيث تجري النجوم .

(٨) يبدو : يظهر والزهو : البسر الملوّن ، يقال زها النخل (من باب عدا) إذا ظهرت الحمرة والصفرة في ثمره وتخال : تظنّ . والإهان (ككتاب) : العرجون الذي يجمع الشماريخ ، وهو أصل العذق والكباسة . والفتل (بضمتين) : جمع فتيلة ، وهي ذبالة السراج التي تشعل فتضيء وذراها : أعاليها الواحدة ذروة (بكسر الذال وضمها) .

يشبّه الأعذاق والعراجين وقد ظهرت الحمرة في ثمرها بفتائل تمشّت النار في أعاليها .

(٩) قرار : ثبات واستقرار .

(١٠) سنة الكرى : أوائل النعاس . وتمايلت : اهتزّت وتحرّكت .

يشبّه النخيل وهي تهتزّ وتتحرّك حركتها الخفيفة الهادئة اللطيفة بالوسنان لعبت به سنة الكرى ، أو بالمتناجين المتسارّين وقد مال بعضهم على بعض .

يَتَرَنَّمُ الْعُصْفُورُ فِى عَذَبَاتِها ... وَيَصِيحُ فِيهَا الْعَنْدَلُ الصَّفَّارُ (١٢)

فَالتُّرْبُ مِسْكٌ ، وَالْجَداوِلُ فِضَّةٌ ... وَالْقَطْرُ دُرٌّ ، وَالْبَهَارُ نُضَارُ (١٣)

فَاشْرَبْ عَلَى وَجْه الرَّبِيعِ ، فَإِنَّهُ ... زَمَنٌ دَمُ الآثَامِ فِيهِ جُبَارُ (١٤)

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدٍ ... وَالنَّاسُ بَعْدُ لِغَيْرِهِمْ أَخْبَارُ (١٥)

إِنِّى وَإِن لَعِبَ الزَّمَانُ بِصَعْدَتِى ... وَابْيَضَّ مِنِّى مَفْرِقٌ وَعِذَارُ (١٦)

فَلَنِعْمَ ما بَقِيَتْ لَدَىَّ مَهَابَةٌ ... تَقْذَى بِها عينُ الْعِدَا وَوَقَارُ (١٧)

وَسَعَى إِلَىَّ الْحِلْمُ فِى أَثْوَابِهِ ... طَرِباً ، وَآنَ لِجَهْلِىَ الإِقْصَارُ (١٨)

---

(١٢) عذباتها : أغصانها وسعفها والعندل: المعروف فى اللغة العنديل ، وهو طائر يصوّت ألواناً ، وقد يسمى العندليب أو البلبل ، ويجمع العنديل على عنادل ، ولعلّ هذا الجمع هو الذى سوّغ للشاعر أن يجعل المفرد عندلا والصفّار : صيغة مبالغة من الصفير .

(١٣) الترب : التراب . والمسك : نوع من الطيب . والقطر : المطر ، الواحدة قطرة . والدرّ: اللؤلؤ ، الواحدة درّة .والبهار : من أزهار البادية ، واسمه العرّار الذى يقال له عين البقر ، وهو نبت طيب الرائحة، جعد (بفتح فسكون) له زهرة صفراء تتفتّح أيام الربيع ، ويقال لها العرارة . والنضار : الذهب .

(١٤) الآثام : الذنوب . واحدها إثم (بكسر فسكون) . وجبار (بضم الجيم) : هدر (بفتحتين) . يقال : ذهب دم القتيل جباراً ، أى هدراً ، فلم يقتصّ من القاتل .

يحضّ على الشرب، مع التمتّع بمناظر الربيع البهيجة ، ليجمع الشارب بين لذّتين ، ويدعو إلى خلع العذار ، وعدم المبالاة زاعماً أن المرء يستطيع فى زمن الربيع مقارفة الخطيئة ، وارتكاب الذنب من غير أن يتعرّض لمؤاخذة ، أو عقوبة ، أو إنكار .

(١٥) يقول : إن الإنسان غير باق فى الحياة ، وإذا مات بقيت لغيره سيرته وأخباره .

(١٦) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك ، وكنى بلعب الزمان بصعدته عن تقدّم سنّه . والمفرق (بكسر الراء وفتحها) : وسط الرأس ، وهو الموضع الذى يفرق فيه الشعر . والعذار : ما نبت من الشعر على جانبى اللحية ، والشطر الثانى كناية كذلك عن شيبه .

(١٧) المهابة : الهيبة ، وهى الإجلال والمخافة ، ويقرب منها الوقار ، وهو الحلم والرزانة والعظمة والجلال . وتقذى (من باب صَدِىَ) : تصاب بالقذى ، وهو ما يسقط فى العين فيؤذيها . والعدا (بضم العين وكسرها) : اسم جمع لعدوّ .

(١٨) طرباً : فرحاً ، صفة من الطرب ، وهو خفة تصيب من يشتدّ به السرور . وآن: حان . والإقصار : مصدر أقصر عن الشىء ، أى كفّ وامتنع .

يشير إلى ما يلازم المشيب من الحلم والوقار والعقل والرزانة ، وما لا يناسبه من الجهل والطيش والخفّة والنزق .

أَنَا لِلصَّدِيقِ كَمَا يُحِبُّ ، وَلِلْعِدَا عِنْدَ الْكَرِيهَةِ ضَيْغَمٌ زَأَّرُ(١٩)
خَيْلِي مُسَوَّمَةٌ ، وَرُمْحِي ذَابِلٌ يَوْمَ الطِّعَانِ ، وَصَارِمِي بَتَّارُ(٢٠)
وَبِراحَتِي قَلَمٌ ، إِذَا حَرَّكْتُهُ رَوِيَتْ بِهِ الْأَفْهَامُ وَهْيَ حِرَارُ(٢١)
تَرْتَدُّ عَنْهُ قَنَابِلٌ وَجَحَافِلٌ وَتَكِلُّ عَنْهُ أَسِنَّةٌ وَشِفَارُ(٢٢)
غَرِدٌ إِذَا مَا جَالَ فَوْقَ صَحِيفَةٍ سَجَدَتْ لِحُسْنِ صَرِيرِهِ الْأَوْتَارُ(٢٣)
وَإِذَا امْتَطَى ظَهْرَ الْبَنَانِ لِغَايَةٍ خَضَعَتْ إِلَيْهِ قَوَارِحٌ وَمِهارُ(٢٤)
فَإِذَا رَكِبْتُ فَكُلُّ قِرْنٍ أَمْيَلٌ وَإِذَا نَطَقْتُ فَكُلُّ نُطْقٍ رَارُ(٢٥)

---

(١٩) الكريهة : الشدّة فى الحرب . والضيغم : الأسد. وزأّر : صيغة مبالغة من الزئير ، وهو صياح الأسد وغضبه .

(٢٠) مسوّمة : مرسلة وعليها ركبانها ، أو معلمة ، أو مرعيّة ، والمراد معدّة للحرب ، مهيّأة للقتال . ورمح ذابل : رقيق متين . والطعان : الحرب والقتال ، مصدر طاعنته بالرمح . والصارم : السيف القاطع . وبتّار : سريع القطع .

(٢١) الراحة : الكفّ . ورويت : ارتويت ، يقال روى من الماء (من باب رضى) وارتوى وتروّى ، كلّه بمعنى . وحرار (بكسر الحاء) : عطاش ، جمع حرّان .

(٢٢) القنابل : جمع قنبل أو قنبلة (بفتح فسكون ففتح فيهما) وهى الطائفة من الناس ، ومن الخيل. والجحافل : جمع جحفل (كجعفر) وهو الجيش الكثير . وتكلّ : ترتدّ ، وتعجز ، ولا تقطع (وبابه ضرب) . والأسنّة : جمع سنان (بكسر السين) وهو حديدة الرمح . والشفار (بكسر الشين) : جمع شفرة (بفتح فسكون) وهى حدّ السيف .

(٢٣) غرد : صفة من الغرد ، وهو التطريب فى الصوت والغناء (وبابه طرب) . وجال : اهتز وتحرّك . والصرير : صوت القلم فى أثناء الكتابة. وأوتار العود ونحوه : أسلاكه التى ينبعث منها صوته الموسيقىّ .

(٢٤) امتطى : ركب ، من امتطيت الدابة ، أى اتخذتها مطيّة وركوبة . والبنان : أطراف الأصابع ، الواحدة بنانة . والقوارح : الخيل إذا تمّت أسنانها ، أو طلعت أنيابها ، واحدها قارح . والمهار (بكسر الميم) : جمع مهر (بضم فسكون) وهو ولد الفرس .

(٢٥) القرن : كفؤك فى الشجاعة ، ومن يقاومك فى القتال ونحوه . وأميل : جبان ، أو ليس معه سلاح . ورار : فاسد سخيف ركيك .

تمدّح فى الشطر الأول بشجاعته ، وفى الثانى بفصاحته ولسنه .

أَلْقَى الْكَلَامُ إِلَىَّ ثِنْيَ عِنَانِهِ وَتَفَاخَرَتْ بِكَلَامِىَ الْأَشْعَارُ(٢٦)

وَقَالَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَى جَزِيرَةِ «سَرَنْدِيبَ»* وَقَدْ رَأَى ابْنَتَهُ الْوُسْطَى فِى الْمَنَامِ

تَأَوَّبَ طَيْفٌ مِنْ «سَمِيرَةَ» زَائِرُ وَمَا الطَّيْفُ إِلَّا مَا تُرِيهِ الْخَوَاطِرُ(١)

---

(٢٦) الثنى (بكسر فسكون) : الطرف ، يقال قبض بثنى الحبل، وهو ما فضل فى كفه إذا قبض عليه . والعنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة .
والمراد أن الكلام انقاد له ، فأجاد التصرّف فى فنونه .

(*) نفى البارودى مع ستة من رفاقه قادة الثورة العرابية بعد إخفاقها ؛ فأقلعت بهم الباخرة من من ميناء «السويس» فى الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٨٢ . وفى التاسع من يناير ١٨٨٣ وصلت إلى «سيلان» وهى جزيرة كبيرة فى المحيط الهندى ،مجاورة للهند، فى جنوبيّها الشرق ، كثرة سكانها بوذيون ، وفيها قلة من المسلمين . وقد استعمرها البريطانيون ، وسيطروا عليها من سنة ١٨٠٢ إلى أن استقلت فى نطاق «الكومنولث» سنة ١٩٤٨ وكانت معروفة لتجار العرب وملاحيهم من قديم الزمان ، وهم الذين سموها «سرنديب» . وفى ذلك المنفى السحيق طوال سبعة عشر عاماً أوتزيد نظم البارودى أجود شعره ،وأصدقه ؛ فسرنديبيّاته كانت متنفّسه وسلواه فى غربته ومنفاه ، وكانت غناءه وشكواه ، وحنينه إلى وطنه ومغانى لهوه وصباه ، ورسائله إلى من فارقهم من زوجه وولده ، وأهله وصحبه . فيها العاطفة المتأججة ، والشعور الفياض ، والعزة المتأصّلة ، والكبرياء المحمودة ، والصبر على المكاره ، والتجلّد للشدائد . فيها ضياء الأمل ، ونقاء العمل، والإيمان بالله ، والاتجاه إلى الله . فيها ما يحبط شماتة الشامتين ،ويفنّد تجنّى الحاقدين . و إنما خرج هذا الشعر من قلب صاحبه ليحلّ فى قلوب الناس ، ويهزّها حناناً عليه ، وتوقاناً إليه .

وفى عهد الخديو «عباس حلمى الثانى» رأى أولو الأمر فى مصر أن يعود هؤلاء المنفيون إلى وطنهم ؛ فصدر أمر العفو عن «محمود سامى البارودى» فى الثامن عشر من المحرم سنة ١٣١٨ هـ (١٧ من مايو سنة ١٩٠٠م) .

وعنوانه هذه القصيدة الرائية الخالدة يرجّح أنها أولى السرنديبيات ، أومن أوائل مانظمه الشاعر فى منفاه . وقد نشرناها كاملة مشروحة (٦٧ بيتا) سنة ١٩٤٢ فى الطبعة الأولى للجزء الثانى من شرح ديوان البارودى ، وفيما تلاها من الطبعات . وهذا الشرح إطالة وتفصيل للشرح القديم .

(١) تأوّبه : جاءه ليلا والطّيف : الخيال الطائف فى المنام . و «سميرة» : ابنة الشاعر ،=

طَوَى سُدْفَةَ الظَّلْمَاءِ ، وَاللَّيْلُ ضَارِبٌ ... بِأَرْوَاقِهِ ، وَالنَّجْمُ بِالأُفْقِ حَائِرُ (٢)
فَيَالَكَ مِنْ طَيْفٍ أَلَمَّ وَدُونَهُ ... مُحِيطٌ مِنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ زَاخِرُ (٣)
تَخَطَّى إِلَيَّ الأَرْضَ وَجْدًا ، وَمَا لَهُ ... سِوَى نَزَوَاتِ الشَّوْقِ حَادٍ وَزَاجِرُ (٤)

= وإحدى ولائده اللائى تركهن مع والدتهن « عديلة يكن » . وزائرة : صفة ل « طيف » : أى تأوّبنى طيفٌ زائر من سميرة : أى تأوّبنى طيف سميرة زائراً . والخواطر : الهواجس التى تخطر ببال الإنسان، وتقع فى خلده .

ومعنى الشطر الثانى : أن الإنسان لايَحْلُم إلا بشىء شَغَل قلبه ، ودار فى خلده ، واضطرب فى باله . وليست الأطياف ، أو الأخيلة ، أو الصور التى يراها النائم فى نومه إلا أصداء ، أو ظلالاً ، أو نتائج تظهرها خواطر القلب ، وهواجسُ النفس .

(٢) السُّدْفَةُ : السُّتْرَةُ ، (بضم السين فيهما) ، والحجاب. وسُدْفة الظلماء : أى الظلماء الشبيهة بالسُّدْفَة ؛ فهو من إضافة المشبّه به إلى المشبّه . والسدفة (بضم السين وفتحها) : الظلمة. وإضافتها إلى الظلماء من إضافة الكلمة إلى مرادفها . والواو فى شطرى البيت : واو الحال . والجملة الاسمية بعد كلٍّ منهما : جملة حاليّة . وضرب الخيْمَة ونحوها : نصبها ، وأقامها ، ونشرها ، فهو ضارب. والأرواق : الأستار والحجب . واحدها روق (بوزن شوك وأشواك) . وضرب الليل بظلامه .وضرب أرواقه : أى أقبل ، وخيّم ، وأقام ، واشتدّت ظلمته . والأفق (بضم فسكون ، أو بضمتين) : الناحية . ومنتهى ما تراه العين من الأرض ، كأنّما التقت عنده بالسماء . ويراد بالأفق هنا : السماء . أو مدار النجم فى السماء . وحائر : حيران ، متردّد . وكنى بحيرة النجم فى الأفق : عن شدّة الحلكة ، وتراكم الظلمات ؛ فالنجوم حائرة فى آفاقها ، لا تكاد تهتدى إلى طرقها . وهو تكرار وتأكيد لمعنى ما سبقه .

(٣) يا لك : يا عجبا لك . وألَمَّ بنا : نزل بنا فى زيارة قصيرة . والواو : واو الحال . والجملة بعدها حاليّة . و « دُونَ » : ظَرْف مكَان : بمعنى « أمام ». ويريد بالبحر الجنوبيّ : المحيط الهندى. وزاخر : طام ، ممتلئ ، واسع ، عظيم ، ممتدّ .

يعجب من إلمام الطيف به ، وبينه وبين ابنته بحار واسعة زاخرة عظيمة .

(٤) تخطّى الأرض : سلكها ، وتجاوزها . ووَجْدًا : حُبًّا ، وشوقاً ، وهو مفعول لأجله : أى تخطّى بسبب الوجد . ونزوات الشوق : نوازعه ، ودوافعه . وحادٍ : اسم فاعل من حدا الإبل (من باب عدَا) : أى ساقها ، وحثّها على السير بالحداء : وهو الغناء لها . وزاجر : اسم فاعل من زجر الرجل البعير ونحوه (من باب نصر) : أى ساقه ، وحمله على الإسراع فى مسيره .

فى هذا البيت والذى قبله : أن الطَّيْفَ اشْتَدَّ به الوَجْدُ ، وبَرَّحَ به الشوقُ ؛ فجعل يسوقه ويحدوه ، ويحثّه على الإسراع فى السير ، حتى وصل فى برهة يسيرة إلى الشّاعر بعد أن تخطّى إليه الأراضى الممتدّة الواسعة ، والبحار الزاخرة العظيمة ، وقطع المراحل والمسافات ، واقتحم الحواجز والعقبات بين مصر وسرنديب ، فكان هذا مما يثير العجب ، ويدعو إلى الدهش .

أَلَمَّ ، وَلَمْ يَلْبَثْ ، وَسَارَ ، وَلَيْتَهُ ... أَقَامَ وَلَوْ طَالَتْ عَلَيَّ الدَّيَاجِرُ(٥)
تَحَمَّلَ أَهْوَالَ الظَّلَامِ مُخَاطِرًا ... وَعَهْدِي بِمَنْ جَادَتْ بِهِ لا تُخَاطِرُ(٦)
خُمَاسِيَّةٌ ، لَمْ تَدْرِ مَا اللَّيْلُ والسُّرَى ... وَلَمْ تَنْحَسِرْ عَنْ صَفْحَتَيْهَا السَّتَائِرُ(٧)
عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ تَوَالَيْنَ حَوْلَهَا ... كَمَا دَارَ بِالْبَدْرِ النُّجُومُ الزَّوَاهِرُ(٨)

(٥) ألمّ : حلّ ، ونزل . ولم يلبث : لم يمكث : أى كان إلمامه بالشاعر هيناً يسيراً ، وزيارته له عاجلة قصيرة . وسار : مشى ، وارتحل . والدياجر : الظلمات . واحدها دَيْجُور .

ألمّ بالشاعر فى منامه طيف ابنته « سميرة » إلمامة عاجلة قصيرة ؛ فاستشعر الحسرة لارتحاله ، وودّ لو أنّه أقام معه الليل كلّه ، ولو طالت عليه دياجره ، وامتدّت ظلماته ؛ حتى يستمتع قلبه ، ويطيب خاطره ، وتشتفى نفسه بهذا الطيف الأثير العزيز .

(٦) تحمّل الأمر : حمله فى عنت ، ومشقة . وأهوال الظلام : مخاوفه ، وأخطاره . ومخاطراً : اسم فاعل من خاطر الإنسان بنفسه مخاطرة : أى جازف بها ، وأشفاها على خطر ، وعرّضها للهلاك . والعهد هنا : المعرفة .

يقول : إن طيف ابنته خاطر بنفسه ، واحتمل فى رحلته إليّ أهوال الليل ، ومخاوف ظلماته . والذى أعرفه أن صاحبة الطيف لا تقوى على المخاطرة . يشير بهذا إلى طفولتها ، وصغر سنّها .

(٧) خماسيّة : طولها خمسة أشبار . أو سنّها نحو سبع سنوات . والمراد أنها طفلة صغيرة السن . والسُّرى السّير ليلاً . ولم تنحسر : لم تنكشف . وصفحتاها : جانبا وجهها . والسّتائر : الأستار والحجب . الواحدة ستارة . والشطر الثانى كناية عن أنها مصونة متنعمة .

وهذا البيت شبه تعليل وتفصيل لمعنى الشطر الثانى من البيت السابق ؛ فإن صاحبة الطيف لا تخاطر لأنها صبيّة صغيرة السنّ . وهى إلى هذا مُحَجَّبة مصونة مُنَعَّمة ، لا تكاد تعرف شيئاً من أهوال الليل ، ومخاوف ظلماته ، ومتاعب السارين فيه .

(٨) عقيلة كلّ شىء : أكرمه ، وأنفسه ، وأعظمه قيمة . وأترابها : لداتها : أى من كنّ فى مثل سنّها . ولعلّ الشاعر يريد بهنّ شقيقات « سميرة » وصواحبها اللائى يقاربنها فى السنّ . وهى عقيلتهنّ : أى أعظمهن قدراً ، وأعلاهن منزلة فى نفسه . وتوالين حولها : أى أحطن بها ، ودُرْن حولها فى توالٍ وتتابع . والنجوم الزواهر : الكواكب المشرقة المتلألئة الجميلة . واحدها زاهر .

يبدو أن « سميرة » كانت عزيزة على الشاعر ، أثيرة لديه ؛ ولفرط تعلّقه بها ، وتعلّقها به ألمّ طيفها به فى منامه ، فضاعف هذا الإلمام حبّه وتعلّقه ؛ وأحلّها من نفسه تلك المحلّة الرفيعة ؛ ولهذا جعلها عقيلة أترابها ، ونوّه بنفاستها ، وسموّ مكانتها ، وتفوّقها على الحسان من لداتها .

غَوَافِلُ لا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ ... وَلا هُنَّ بِالْخَطْبِ الْمُلِمِّ شَوَاعِرُ(٩)

تَعَوَّدْنَ خَفْضَ الْعَيْشِ فِى ظِلِّ وَالِدٍ ... رَحِيمٍ وَبَيْتٍ شَيَّدَتْهُ الْعَنَاصِرُ(١٠)

فَهُنَّ كَعُنْقُودِ الثُّرَيَّا ، تَأَلَّقَتْ ... كَوَاكِبُهُ فِى الْأُفْقِ ، فَهْىَ سَوَافِرُ(١١)

---

(٩) غوافل : خبر لمبتدإ محذوف . والتقدير : « هن » (أى العقيلة وأترابها غَوَافِلُ) : جمع غافلة : اسم فاعل من غَفَلَ عن الشيء (من باب دخل) : أى سها عنه من قلة التيقظ ، وعدم التحفظ . وبقية البيت تفسير لـ « غَوَافل » . وبؤس المعيشة : شدة الحياة ، وضرها ، ومشقتها . والخطب : النازلة الشديدة من نوازل الدهر وأحداثه . والملم : اسم فاعل من ألم بنا فلان إلماماً : أى حل بنا ، ونزل . وشواعر : جمع شاعرة : اسم فاعل من شعر بالشيء (من باب دخل) : أى أحس به ، وعرفه .

والبيت فى تصوير غفلة صبايا الشاعر وولائده ، وقلة فطنتهن لما نزل بوالدهن من كوارث الهزيمة ، والاعتقال والتجريد ، والتشريد ، والنفى ، والإبعاد ، وضعف إحساسهن بما مس الأسرة من البأساء والضراء ، وما برح بها من الغم والأسى ، وافتراق الشمل ، وسوء الحال .

(١٠) ضمير النسوة فى « تَعَوَّدْنَ » يعود على « غَوَافل » فى البيت السابق : وهن بنات الشاعر ، وولائده اللائى تركهن بمصر صبايا صغيرات . وخفض العيش : اتساع المعيشة ، وهناءة الحياة ، ويسرها ، ورفاهتها . وظل الوالد : كنفه ، ورحمته ، وحضنه ، ورعايته . و « بيت » : يراد به بيت الشاعر : أى أسرته وعترته . وشيدته : أى رفعته ، وأنبهت شأنه ، وأعلت قدره . والعناصر : المناقب ، والمفاخر ، والأحساب ، والأصول الكريمة .

أشار إلى ما اعتاده أطفاله وصباياه فى كنفه وظله من رغد العيش وخفضه ، وهناءته ، ودعة الحياة ، ويسرها ، ورفاهيتها . ونوه بحنانه عليهن ، وبره بهن ، وافتخر بحسبه ونسبه ، وكرم أصله ، وشرف محتده .

(١١) هُنَّ : أى صغار الشاعر ، وأطفاله ، وولائده ، وصباياه اللائى تركهن بمصر . ومنهن ابنته الوسطى « سميرة » التى وصفها ، ووصف أخواتها فى أربعة الأبيات السابقة . والعنقود من العنب ونحوه : ما تعقد ، وتراكم من ثمره فى أصل واحد . والثريا : مجموعة نجوم ، كثيرة العدد ، صغيرة المنظر . والعرب تشبه الثريا بعنقود العنب ونحوه . قال أبو قيس بن الأسلت :

وَقَدْ لاحَ فِى الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رَأَى ... كَعُنْقُودِ مُلَّاحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرَا

وتألقت : تلألأت ، وأضاءت . وكواكبه : أى كواكب العنقود ، والمراد نجوم الثريا المشبهة بحبات العنقود . ويراد بالأفق : السماء . « وهى » : أى الكواكب . وسوافر : متلألئة ، مشرقة : جمع سافر .

شبه أطفاله وولائده بالثريا ، مشيراً بهذا التشبيه إلى اجتماعهن وسفورهن ، وملاحتهن ورفعة منزلتهن ، ونباهة شأنهن . تعرف فى وجوههن نضرة النعيم ، ويبهرك منهن التألق والإشراق ، والحسن والبهاء .

تُمَثِّلُهَا الذِّكْرَى لِعَيْنِي ، كَأَنَّنِي إِلَيْهَا عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْأَرْضِ نَاظِرُ (١٢)
فَطَوْرًا إِخَالُ الظَّنَّ حَقًّا ، وَتَارَةً أَهِيمُ ، فَتَغْشَى مُقْلَتَيَّ السَّمَادِرُ (١٣)
فَيَا بُعْدَ ما بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي! وَيَا قُرْبَ مَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الضَّمَائِرُ! (١٤)

(١٢) تمثّلها الذكرى : أي تمثّل الذكرى لي « سميرة» : أي تُصَوِّرُهَا لي : أي تَعْرِضُ على مثالها وصورتها واضحة مجلوة . والذِّكْرَى : كثرة الذِّكْر : اسم من ذكر الشيء : أي حفظه في ذهنه . ومثلها التذكُّر والتّذكار . وضدّها النسيان .

اشْتَدَّ تعلّق الشاعر بابنته « سميرة » ؛ فقوي تذكُّره لها ، وكثر ، وما فتئ يصور لعينيه مثالها ، ويعرضها بين يديه قائمة مَجْلُوَّة ، حتى كأنه يَنْظُرُ إليها ، ويراها عياناً ، على رغم ما يفصل بينهما من الأراضي الواسعة البعيدة ، والمسافات الشاسعة المتنائية . والبيت في تصوير وجد الشاعر وحنينه إلى من تركهم بمصر من أهله وأولاده .

(١٣) الطَّور ، والتارة : المرة والحين والمدة. وإخال (بكسر الهمزة على غير قياس) : أَحْسبُ وأظنُّ : مضارع خلت الشيء كذا : أي حسبته ، وظننته (وبابه نال) . وبنو أسد يفتحون همزة المضارع ، وهو القياس. وخلتُ الظّنّ حقّاً : أي قَوِيَ الظنُّ عندي ، حتى ارتفع بقوته إلى المنزلة الحقيقة التي لا رَيْبَ فيها . وأهيم : أتَحَيَّرُ ، وأضْطَرِب . وتغشى مقلتي : أي تُغَطّي عينيّ . أو تخالطهما . والمقلة : العين كلّها : سَوَادُها ، وبياضُها ، وشَحْمَتُهَا . والسَّمَادِر : جمع سمدور (بوزن عُصْفُور) : وهو غشاوة العين ، وضعف البصر .

في البيت السابق قال : إنه يذكر ابنته في منفاه ، وإنّ الذِّكْرَى تُخَيِّلُها إليه ماثلةً بين يديه ، حتى كأنه يراها بعينيه ، على ما بينهما من البعد والتنائي ، فيستشعر شيئاً من الطمأنينة والارتياح ، أو تخفّ لوعته وحُرْقَتُه . وفي هذا البيت أن تخيُّله يقوى أحياناً ، فيحسبه من الحقائق الثابتة ؛ فيغمره الارتياح والانشراح .وأحياناً ينكشف له الأمر ، ويصدمه الواقع ؛ فيغاوده الأسى والتفجّع ؛ فيَهيم ، ويحار ، ويضطرب به الحال ، وتغشى السمادير عينيه ؛ ولا يكاد — من الغمّ — يبصر ما حواليه .

(١٤) « يا » في شطري هذا البيت : حرف يفيد التنبيه ، والتعجّب . والأحبّة : جمع الحبيب . والتفّت الأشياء : تجمّعت ، وتكاثفت. ويراد بالضمائر : القلوب. ويراد بما الْتَفَّتْ عليه الضمائر : ما تضمره قلوب المتحابّين من الودّ والشوق ونحوهما .

والمعنى : أن المسافة بينه (في سرنديب) وبين أحبائه (في مصر) — طويلة ، مُفْرِطَة في الطول ، بعيدة كلّ البُعْد .ولكنّ قلوبهم متدانية متوادّة على الرغم من تنائي الأجسام ، وتباعُد الأشخاص .

وَلَوْلَا أَمَانِى النَّفْسِ وَهْيَ حَيَاتُهَا لَمَا طَارَ لِى فَوْقَ الْبَسِيطَةِ طَائِرُ(١٥)
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا فَكُلُّ امْرِئٍ يَوْماً إِلَى اللهِ صَائِرُ(١٦)

---

(١٥) الأمانى (بالتخفيف والتشديد) : جمع الأمنيّة : وهى ما يتمنّاه الإنسان ، ويتوق إليه ، ويطمع فيه ، ويرجو حصوله . وأمانىّ الشاعر فى منفاة : أن تنقشع الغُمَّةُ ، وينفرجَ الكَرْبُ ، ويعود إلى وطنه ، ويجتمع شمله بأهله وأحبّته .والواو : واو الحال . والجملة الاسميّة بعدها حاليّة : أى والحال أن النفس تحيا بالأمانىّ والآمال. والبسيطة : الأرض . وطار طائره : أسرع وخفّ . والمراد : حىّ وعاش . و« لما طار له فوق البسيطة طائر » : أى لهلك ، وفقد الحياة .

ومعنى البيت : أن الإنسان يحيا بالأمانىّ والآمال ، يكافح بها الخطوب والأهوال . ولولا ذلك لأهلكه اليأس ، وأرداه القُنُوطُ .

(١٦) صار الأمر إلى كذا:انتهى إليه ، ورجع.وفى القرآن الكريم: « وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ » : أى المرجع والمآبُ . وصيروة الإنسان إلى الله تعالى: كناية عن موته ، وانطواء حياته ، وانتقاله إلى الآخرة ، حيث يتجلّى له ما كان محجوباً عنه فى دنياه،وتَتَوثّقُ صِلَته بالله .. وقد اعتاد الناسُ – و بخاصة الشعراء – أن ينسُبُوا مايصيبهم من الكوارث إلى الأيام، أو اللّيالى ، أو الدهر ، أو الزمان، شاكين باكين ، فى توجّعٍ وتفجّع ، وترجيع ، وانتحاب .

فى البيت السابق نوّه الشاعر بالأمانىّ ،يتَعلّقُ الناس بها،ويستشعرون فى رحابها الراحة والحياة ، ويعلّلون بها نفوسهم ،ويوسّعُون بها ما ضاق من آفاق معيشتهم،ويطردون بها أشباحَ اليأسِ ، ويبدّدون ظُلُمات القُنُوط ، ويكافحون بها ما ينزل بهم من صَدَمات الدهر ، وخُطوب الزمان :

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمالِ أَرْقُبُهَا ما أَضْيَقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الأَمَلِ

وبمثل هذا المعنى يعزّى الشاعر نفسه بمَا يأمُلُه ويتمنّاه من انقشاع الغُمّة ، وزوالِ الكارثةِ ، وانفراجِ الكربِ والبلاءِ .

وفى هذا البيت انتقل الشاعر إلى لون آخر من ألوان التعزية ، قائلا : إذا كانت الأيام قد باعدت – بنفيه – بينه وبين أهله وأحبابه فى مصر ،فإن الناس كلّهم إلى هلاكٍ وزوالٍ ، وكلّ شمل إلى تشتّت وافتراق.والشطر الثانى تذييل جار مَجْرَى الحِكَمِ والأمثال . والفُرْقة فيه عامّة شاملة ، مؤبّدة ؛ فإن كلّ امرئ فى ارتقاب يومه الذى يُفَارق فيه أهله وصحبه، بلا طمع فى عودة أو تلاق . أما مفارقة الشاعر أهله وصحبه،فإنها خاصّة مؤقّتة ، تلازمها وتحقّقها أمنيّة العودة ، واجتماع الشمل . وهكذا عزّى الشاعر نفسه،وعزّى أمثاله ببيت مكون من جملة شرطية ، فى جوابها تعزية قويّة شافية ، وروح دينيّة عالية ، وتمهيد لذمّ الدنيا ، وتهوين شأنها فى ستّة الأبيات الآتية .

هِىَ الدَّارُ ؛ ما الأَنْفَاسُ إِلَّا نَهَائِبٌ لَدَيْهَا ، وما الأَجْسَامُ إِلَّا عَقَائِرُ(١٧)

إِذَا أَحْسَنَتْ يَوْماً أساءتْ ضُحَى غَدٍ فَإِحْسَانُهَا سَيْفٌ عَلَى النَّاسِ جَائِرُ(١٨)

تَرُبُّ الْفَتَى ، حَتَّى إِذَا تَمَّ أَمْرُهُ دَهَتْهُ ، كَمَا رَبَّ الْبَهِيمَةَ جَازِرُ(١٩)

---

(١٧) يريد بالدار : الحياة الدنيا. والأنفاس : جمع نفس (بوزن سبب وأسباب) . وتنفّس الحيّ : علامة حياته ومظهرها وقد يكون المراد بالأنفاس : الأرواح ، والنفوس . ونهائب : مغانم . واحدتها نهيبة . ونَهَبَ الشيء (من باب قَطَعَ) : أخذه قهراً . ولديها . عندها : أى الأنفاس فى حيازة الدار الدنيا ، وفى قبضتها . وعقائر : مذبوحة . من عقر الجزار البعير ونحوه : أى قطع إحدى قوائمه ؛ ليسقط ، فيسهل ذبحه . ونهب أنفاس المتنفّسين ، وعقر أجسامهم : إهلاكهم وإبادتهم .

والمعنى : أن الدنيا دار فَنَاءٍ ، ولا بقاء فيها لِحَيٍّ من الأحياء . والشاعر بهذا البيت وأمثاله يعزّى نفسه فى منفاه ، ويحملها على الصبر والتجلّد لما أصابه من محن الهزيمة ، والاعتقال ، والتجريد ، والتشريد ، والنّفى ، والإبعاد ، وافتراق الشمل ، وسوء الحال .

(١٨) فاعل أحْسَنَتْ » : ضمير « الدار » فى البيت السابق . وجائر : ظالم .

والمعنى : أن الدنيا سريعة التقلب ، قليلة الخير ، كثيرة البلايا والآفات . وإحسانها موقوت لا يلبث أن يزول ، وتَعْقُبُه الإساءة والحرمان : بل هو مُراوغة ومخادعة ، وتمهيد للفتك والاغتيال : بل هو سيف ظالم مُصْلَتٌ على رقاب الناس ، يهدّد حياتهم ، ويحرمهم الأمن والطمأنينة والاستقرار ، ويَفْجَؤُهُم بالشرّ والضُّرّ ، والكرب والبلاء .

(١٩) تَرُبُّ الفتى (من باب رَدَّ) : تُرَبِّى الإنسان : أى تمدّه بالغذاء ، وأسباب النموّ والحياة . وفاعله ضمير « الدار » فى البيت السابع عشر . والأمر : الشأن ، والحال ، والقصّة . وتمّ أمره : أى تمّتْ قصّتُه ، ودَوْرُه فى الحياة الدنيا . أو تمّتْ تربيتُه وإعداده للردَى والهلاك . أو كَمَلَ نُضْجُه ، واسْتَوَى وبَلَغَ أشُدَّهُ ، واتّسَعَتْ آماله . ودهته : أصابته بداهية : وهى النازلة والكارثة والمصيبة . وربّ الجازر البهيمة : ربّاها ، وغذّاها ، وسمّنها ، وأعدّها للذبح . وجَزَرَها (من باب قتل) : نَحَرَها : أى ذَبَحها ، ونزع جلدها . وجازر : اسم فاعل منه .

والمعنى : أن الدنيا تربّى الإنسان ، وتوفّر له أسباب الصّحة والحياة ، وهى فى حقيقة أمرها تُعدّه للردَى والهلاك ، حتى إذا تمّ إعداده ، واستوى أمره ، أصابته بشرّ الدّواهى ، وجرّعته كأس الردى ، وطوت بالموت حياته الناضجة القويّة . شأنها فى هذا كلّه شأن الجزّار ، يربّى البهيمة ، ويوفّر لها الكلأ والطعام والشراب ، حتّى إذا تمّ إعدادها ، وكمل نُضْجُها ، فاجأها بالذّبح والسّلخ ومزّقها شرّ مُمَزَّق .

لَهَا ترَةٌ فى كُلِّ حَىٍّ ، وما لَهَا عَلَى طُولِ مَا تَجْنِى عَلَى الْخَلْقِ وَاتِرُ(٢٠)
كَثِيرةُ أَلْوان الْوِدادِ ، مليَّةٌ بِأَنْ يَتَوَقَّاها الْقَرِينُ الْمُعَاشِرُ(٢١)
فَمنْ نَظَر الدُّنْيا بِحِكْمَةِ نَاقِد دَرَى أَنَّهَا بَيْنَ الأَنَامِ تُقَامِرُ(٢٢)

(٢٠) لها : للدار : أى الدنيا . والتِّرَة : الذَّحْل ، والثأر . وهى أيضاً : مصدر وَتَرَه (من باب وَعَدَ) : أى أفزعه ، وأصابه بمكروه . وواتر : اسم فاعل منه . والخَلْق : الناس . و« ما » فى الشطر الأول : نافية . وفى الشطر الثانى مصدرية : أى وليس للدنيا واتر مع طول جنايتها على الناس ، وكثرة إجرامها ، واتصال عدْوانها .

فى البيت السابق قال : إن الدنيا تربّى المرء ، وتُحاسِنه لتُفاجِئه فى مأمنه بالرّدى والهلاك . وَشَبَّهَهَا فى هذا بالجزّار ، يعلف الماشية ويَسْقيها ، ويُرَبِّيها ، ويُنَمِّيها ؛ ليَفْجأها بالذبح والسَّلْخ ، والتقطيع والتمزيق . وهذا البيت تكرار وتأكيدٌ لمعنى البيت السابق ؛ فالدنيا لا تفتأ تجنى على كلّ حىّ ، وتَطْوى بالموت حياته ، كأنّ لها عنده ثأراً ، فهى لا تهدأ إلا إذا أثَارَتْ منه ، وليس فى استطاعة أحد أن يُفْلتَ ، أو يقتصّ منها ، ويثأر بالقتْلى والمصابين ، وينتقم لهم .

(٢١) الوداد : مصدر وَادّه : أى تَحَبَّبَ إليه ، وأقبَلَ عليه وتَوَدَّدَ . وألوانه : ضُروبه ، وأنواعه ، وصوره ووسائله . وهذا كناية عن إغراق الدنيا فى الخِداع ، والتغرير ، والختل ، والمكر السيئ . ومليّة : جديرة ، وخليقة ؛ كأنما خلقت للخداع ، وطبعت عليه ، فوجَبَ على الناس أن يتوقَّوها . من قولهم : هو مَلِىءٌ بكذا : أى مُضْطَلِعٌ به ، مقتدر عليه . ويجوز البَدلُ والإدغامُ ، فيقال : هو مَلِىٌّ (بوزن غَنِىّ) . وتوَقَّاه : حَذِرَه ، واحْتَرَسَ منه ، وتَجنَّبَه . والقرين : الصاحب . ومثله المعاشر : وهو المخالطُ ، والصاحبُ . ويراد بالقرين المعاشر : مَنْ يَقْتَرِن بها ، ويُقْبِل عليها من الناس .

يقول : إن الدنيا مخادعة مخاتلة ، تُظْهِر للنَّاسِ المحبَّة والمودّة ، وتُضْمر لهم الشّرّ والغَدْرَ ؛ فلا ينبغى أنْ ينخدعوا بها ، ويَغْتَرُّوا بِزُخْرفها . ومن الحزْم أنْ يَتَوَقَّوْهَا ، ويحترسوا منها . وفى القرآن الكريم :

« فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ » الآية رقم ٣٣ من سورة لقمان .

(٢٢) نظر الشىء : أبصره ، وتأمّله بعينيه . ونَظَرَ فيه : تدبّره ، وفكّر فيه . والمراد هنا : التدبُّر ، والتفكُّر . والحِكْمة : العلم والتفقّه . والناقد : المختبر البصير . ودَرَى : علم (وبابه رَمَى) . والأنام : الخَلْقُ ، والناس . وتُقامر : تخادع ، وتخاتل .

وهذا البيت وثيق الاتصال بالذى قبله ؛ فكثْرة ألوان الوِداد ، والمقامرة من طبائع الدنيا وصفاتها . والنظر فيها يَسْتوجبُ توقِّيها .

وهو ختام ستة أبيات (١٧–٢٢) أرسلها الشاعر فى ذمّ الدنيا ، وبيان كثْرة تلوّنها وتقلّبها ، =

صَبَرْتُ عَلَى كُرْهٍ لِمَا قَدْ أصابَنِي ... وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَنْدُوحَةً فَهْوَ صَابِرُ(٢٣)

وما الْحِلْمُ عِنْدَ الْخَطْبِ وَالْمَرْءُ عاجِزٌ ... بِمُسْتَحْسَنٍ كَالْحِلْمِ والْمَرْءُ قَادِرُ(٢٤)

وَلَكِنْ إِذَا قَلَّ النَّصِيرُ ، وأعْوَزَتْ ... دَواعِي الْمُنَى ـ فَالصَّبْرُ فيهِ الْمَعَاذِرُ(٢٥)

= ووَلُوعها بالخداع والغَدْر ؛ ووجوب الاحتراس منها . والمقصود من هذه الأبيات وأمثالها: تعزية نَفْسه ، وتقويتُها على احتمال الكارثة ، وتَدَرُّع الصبر ، وردّ الجَزَع ، وإحباط شماتة أعدائه. ولعلّه يشير مع هذا كله إلى أهل الدنيا الذين أساءُوا فى المِحْنَة إليه ، وأعانوا الزمان عليه. وقد أجْرَى الشاعر هذه الأبيات مجرى الحكم والأمثال ، وأتْبَعَها ثلاثة أبيات فى صبره ، وحلمه.

(٢٣) الكَرْه (بفتح فسكون) : اسمٌ من الإكْرَاه : بمعنى القَهْر والغلبة . والكُرْه (بضم فسكون) : المشقّة ، والكراهية. أوهما لغتان بمعنى واحد . والمندوحة : الفُسْحَة ، والسَّعة . ولك عن هذا الأمر مندوحة : أى سعة ، وفسحة : أى يمكنك تركه ، والميْل عنه .

والمعنى: أنه صبر على ما أصابه صبر المضطرّ ، المغلوب على أمره ، واحْتَمَلَ العَنَتَ والمشَقّة لأنه لم يَسَعْه غير الصبر والاحتمال. ولو وسِعَه غير هذا لكافح وجالَدَ ، وقَاتَلَ وَنَاضَلَ ، جَرْياً على ما تعوّده من الكفاح والجِلاد فى طلب الغَلَبَة والمنعة ، والنصر والعزّة .

(٢٤) الحِلْم : الأناة ، والصبر والسكون مع القُوّة والاقتدار. والخطب : الكارثة ، والمصيبة ، والنازلة الشديدة من نوازل الدهر.

يشير إلى فضل الحِلْم عند المقدرة ، وينوّه بالحلماء القادرين . وفى البيت أسَفٌ ، وتحسُّرٌ ، واعتذار ؛ فقد حَلُم الشاعر وصَبَر عن عجزٍ واضطرار ، لا عن قوّةٍ واقتدارٍ .

(٢٥) أعْوَزَه الشَّيْء : احتاج إليه ، فلم يقدر عليه. والمُنَى جمع مُنْيَة : وهى ما يأمله الإنسان ، ويتمنّاه ، ويتوق إليه ، ويتعلّق به ، ويرجو حصوله. وأعوزته دواعي المُنَى : أى طلب الأسباب والمقدرات التى تحقّق له آماله ، وتبلغه مقاصده ، فعجز عنها أو لم يجدها . ومن هذه الأسباب والقدرات : الأنصار والأعوان. والمعاذر : جمع المعذرة : وهى العذر : مصدر عذره : أى رفع عنه اللوم وبَرّأه من الذنب . أو قبل عذره . وفى صبره عذره : أى فى صبره الاضطرارىّ ما يمهّد له العذر ، ويرفع عنه اللوم ويبرّئه من التبعات ؛ لأنه صبر القويّ العزيز الذى أخذ بالأسباب ، وأبى الضيم ، وجالد ، وجاهَدَ ، ثم غُلِبَ على أمره .

والمعنى : إذا لم يجد المرء من يناصره ، وأعوزته الوسائل المحقّقة لآماله ؛ فاستسلم وصبر بعد كفاحٍ وجهادٍ ، كان فى صبره معذرتُه ، وظلمه مَنْ يلومه .

فَلَا يَشْمَتِ الْأَعْدَاءُ بِي ، فَلَرُبَّمَا وصلتُ لِمَا أَرْجُوهُ مِمَّا أُحَاذِرُ (٢٦)
فَقَدْ يَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ وَتَنْهَضُ بِالْمَرْءِ الْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ (٢٧)
وَلِي أَمَلٌ فِي اللهِ تَحْيَا بِهِ الْمُنَى وَيُشْرِقُ وَجْهُ الظَّنِّ وَالْخَطْبُ كَاشِرُ (٢٨)

---

(٢٦) شَمِتَ المرء بعدوِّه (من باب سلم) : فرحَ ببليتِه ، وسرَّه ماأصابه من المكاره . وحَاذَرَه يُحَاذِره : خافه ، وكرهه .

نهى أعداءَه عن الشماتة به ؛ فإن ما يحذره فى حاضره قد يكون وسيلة إلى بلوغ غايته ، والظفر بأمنيّته فى مستقبل الزمان . ويمثل هذا البيت عالج الشاعر أزمَته النفسيّة ، فطارد الجزع ، واعتصم بالصبر ، وبدّد ظلمات اليأس ، وارتقب الخير من الشرّ ، والنفع من الضرّ ، واليسر من العُسْر ، وعَدّ المحذورات وُصلاتٍ وذرائعَ إلى المرجوّات ؛ وبهذا كَبَتَ أعداءه ، وأحْبَط شماتتهم . والأبيات الآتية تُعَزِّزُ هذا المعنى وتفصِّلُه ، وتؤكّد تفاؤُل الشاعر وثقته بالله ، وتعرض الجوانب المضيئة من نفسه ، واطمئنانه فى ظلال الآمال . وفى هذه الأبيات يتنقّل بين الحكمة والفخر .

(٢٧) الاستقامة : ضدّ الاعوجاج . والأمر : الشأن والحال . ونهض الطائر : نشر جناحيه ليطير . ونهض به : أقامه من رقدته فى يقظةٍ وقوّةٍ ونشاطٍ . ونهض به جدّه العاثر : أى كان سبب اجتماع قوّته ، ونهوضه من عثرته . والجدود : جمع الجدّ (بفتح الجيم) : وهو الحظّ والبخت . والعواثر : جمع العاثر : اسم فاعل من عثر (كضرب ، وقتل ، وعَلِمَ ، وكَرُمَ) ؛ : أى كَبَا ، وزلّ ، وسقط ، وتَعِسَ ، واستقامة الأمر فى الشطر الأول يسايرها نهوض المرء فى الشطر الثانى . والاعوجاج يسايره تعس الجدود وعثارها . فى هذا البيت والذى قبله أملٌ قائم على ارتقاب الفَرْجة من الضيق ، والرخاء من الشدّة ، واستقامة الأمر بعد اعوجاجه ، وانتعاش الجدّ بعد عثاره .

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأمْـ ـرِ لَهُ فرجة كحلّ العقال

وفى البيتين الآتيين اشتدّ إشراق هذا الأمل ، وفاض ضياؤه ، وقوّاه شعور دينىّ قوىّ ، وثقةٌ بالله رب العالمين .

(٢٨) كاشر : اسم فاعل من كَشَرَ الأسَدُ ونحوه عن أنيابه (من باب ضَرَبَ) : إذا غضب ، وتأهّب للفتك بفريسته . وكشر العدوّ عن أنيابه : تَنَمَّرَ ، وأوْعَدَ ، كأنه سبع . ويراد بالخطْب الكاشر : الشديد الفادح . والواو الثانية فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسميّة بعدها حاليةٌ .

يقول : إن أمله فى لطف الله تعالى به ، ومعونته له ـ يُحْيِي أمَانيه ، ومطالب نفسه ، ويجعل ظَنَّه مُشْرِقاً زاهراً ، على الرغم من شدّة الخُطُوب ، وعِظَم الفَوادِح .

وَطِيدٌ ، يَزِلُّ الْكَيْدُ عَنْهُ ، وتَنْقَضِي مُجَاهَـدَةُ الأَيَّامِ وَهْوَ مُثَابِرُ(٢٩)
إذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْكَنْ إلَى اللهِ فِى الَّذِى يُحَاذِرُهُ مِنْ دَهْرِهِ فَهْوَ خَاسِرُ(٣٠)
وإنْ هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ما أَصَابَهُ فَلَيْسَ لَهُ فِى مَعْرِضِ الْحَقِّ نَاصِرُ(٣١)

(٢٩) وطيدٌ : ثابتٌ راسخٌ وهو صفة لأمل في البيت السابق. ويزلُّ (من بابي ضرب، وتعب) : يسقط وينهار. والكيد : مصدر كاد المرء لعدوّه (من باب باع) : أي مكر به ، وختله ، وخدعه ، وأضمر له الشرّ ، وأراده بسوء ، وأخفى عنه مايريده ، واحتال للإضرار به. وعنه : أي عن الأمل الوطيد : أي بسببه ، ف « عن » هنا : معناها التعليل : أي أمله في الله وطيد يدفع عنه كيد الكائدين ، ويحبط خداعهم ، ويسقط ختلهم . وتنقضي : تنتهي وتزول . ومجاهدة الأيام هنا : عداوتها للشاعر ، وما تحمله له، وتعلنه وتخفيه من المشارّة والخصومة . وجاهد عدوّه مجاهدة وجهاداً : أي قاتله وحاربه . وهو : أي أمل الشاعر في الله . ومثابر : مواظب مداوم . والمراد أنه باق على توطّده ورسوخه ، وثباته وقوّته . وجملة « هو مثابر » . جملة حاليّة .

في هذا البيت والذي قبله أنّ أمله في الله وطيدٌ يُحيي آماله ، ويردّ عنه كيد العدا ، وشرور الأيام والليالي . وإذا صاولته الخطوب والفوادح لقيها بظنٍّ مشرقٍ ، ونفسٍ مطمئنّةٍ ، وقدمٍ ثابتةٍ .

(٣٠) ركَنَ إليه (كخضَعَ ، وقعَدَ ، وعلم) رُكوناً : مال إليه ، واعتمد عليه ، ووثق به ، واستند ، وسكن ، واطمأنّ . ويحاذره : يحذَرُه ، ويخافه ، ويحترز منه .

يحمل الزمان للإنسان كثيراً من المخاوف والآفات ، ويفاجئه بالشدائد والمُلمّات . وإنما يقيه منها أن يفزع إلى الله فيها ، ويعتمد عليه في مكافحتها ومصابرتها وتوقّيها ، « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » ، فإذا انصرف المرء عن ربّه ، أو التجأ إلى غيره ، فقَدَ عونَ الله تبارك وتعالى ورعايته ، وتوفيقه وكلاءته ، وخسر خسراناً مبيناً .

(٣١) المعرض (بوزن مَسْجِد) : موضع عرْض الشيء ، أو زمانه . ومعرض الحقّ : مقدمه ، ومجاله .

في البيت السابق دعا إلى الاعتصام بالله ، والركون إليه ، والاعتماد عليه ، واستمداد معونته وتوفيقه في ملاقاة المحذورات ، ومكافحة الملمّات . وفي هذا البيت أوجب مصابرتها ، والتجلّد لها . قال تعالى : « وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ؛ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » . وإذا صبَرَ المرء على ما أصابه ، ولقي الشدائد بعزم قويّ ، وبأس شديد ، ووطّن نفسه على احتمالها ، فقد التزم الحقّ ، واستقام إلى الله ، وكان جديراً بنصره وتأييده . وإذا فزع وجزع ، فقد جانب السداد ، وحاد عن الهدى والرّشاد ، فقلّ في معرض الحقّ ناصره ومُعينه .

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ حُلْوَ الزَّمَانِ وَمُرَّهُ ... فَمَا هُوَ إِلَّا طَائِشُ اللُّبِّ نَافِرُ (٣٢)

وَلَوْلَا تَكَالِيفُ السِّيادةِ لَمْ يَخِبْ ... جَبَانٌ، وَلَمْ يَحْوِ الْفَضِيلَةَ ثَائِرُ (٣٣)

تَقِلُّ دَوَاعِى النَّفْسِ وَهْىَ ضَعِيفَةٌ ... وَتَقْوَى هُمُومُ الْقَلْبِ وَهْوَ مُغَامِرُ (٣٤)

---

(٣٢) طائش: اسم فاعل من الطَّيش: وهو الخِفَّة، والنَّزق، والتَّهوّر، والجهل، والاضطراب والانحراف، والزلل، والسقوط. (وفعله من باب باع). واللُّبُّ: العقل. وطاش عقله: خَفَّ، وتشتَّت، واضطرب، وارتبك؛ فجهل، أو أخطأ. ونافر: جزع، شارد، معرضٌ، متباعد. ويراد بالنفور هنا: الغَرارة، والغفلة، والجهلُ، والجزعُ من مرارةِ الزمانِ، والإعراضُ عن الرشد، والنفورُ من الصواب.

والمعنى: أن الدهر يُلاقى الإنسان بالحلو والمرّ، والخير والشرّ، وهو لا يفتأ يياسِرُهُ ويعاسِرُه ويلاينه ويُخاشِنُه. واللبيب العاقل ينتفع بهذه المتناقضات، ويفيد منها أعظم التجارب، وأوسع الخِبْرات. والمعْرِضُ عنها، أو المتبرّم بها طائش اللبّ، ناقص العقل، نافرٌ من الرشد، بعيد عن الصواب. والغَرَضُ الحضُّ على الصبر، والثبات لتقلّب الدهر، وريب الزمان، وصُروف الليالى والأيام.

(٣٣) السيادة: الرِّياسَة، والعَظَمَة، والمجدُ، والشرفُ: مصدر ساد الرجل قومه يسودهم: إذا عظم فيهم، ونَبُه شأنه، وعلا بينهم قَدْرُه. وتكاليف السيادة: مؤهلاتها، وما تتطلّبه من حميد الخلال، وشرف الخصال، كالشجاعة، والكرم، والعزم، والحزم، والصبر، والمصابرة، وبعد الهمّة، والتعلّق بمعالى الأمور. ويحوى الفضيلة: يحوزها، ويتّصف بها: وهى الدرجة الرفيعة فى حسن الخُلق. وثائر: اسم فاعل من ثا (من باب قال): أى هاج، وانتشر. ويراد بالثائر هنا: الشجاع المقدام، الطَّموح الوثّاب.

والمعنى: أن السيادة تتطلّب ركوب الأخطار، والإقدام على المهالك، واقتحام الأهوال، وما شاكل هذا من الصعاب والمشقات. ولولا هذا ما خاب جبانٌ، ولا حاز الفضيلة شجاع؛ فالجبان إنما يخيب، ويقصر عن مرتبة السيادة لجُبنه، وقصوره عن مؤهّلاتها، والشجاع إنما يسود بشجاعته وفضائله، وما يحوزه من الكفايات والمؤهلات. ويقرب من هذا قول أبى الطيب المتنبى:

لولا المشَقَّةُ سادَ الناس كلّهم ... الجُودُ يُفْقِر، والإقْدامُ قتّالُ

(٣٤) دواعى النَّفْس مطالبها، وحاجاتها ومطامحها. والهموم: العزائم. واحدها همّ (بوزن غمّ): مصدر هممت بالشىء (من باب ردّ): أى أردْتهُ. ومُغامر: مخاطر: اسم فاعل من غامر الرجل مُغامرَة: إذا رمى بنفسه فى الغمرات والشدائد.

والمعنى: أن الإنسان إذا ضعف واستكان وخَمَل، قلَّتْ مطالبه، وسقطت همّته فى الحياة. وإذا قوى وغامر اشتدّت عزائمه، وعظُمَتْ هِمّتُه.

وكَيْفَ يبِينُ الْفَضْلُ والنَّقْصُ فى الورى إذَا لَمْ تَكُنْ سَوْمَ الرِّجالِ الْمَآثِرُ ؟(٣٥)
وَما حملَ السَّيْفَ الْكَمِىُّ لِزِينَة ولكن لِأَمْرٍ أَوْجَبَتْهُ الْمَفَاخِرُ(٣٦)
إذَا لَمْ يكُنْ إِلَّا الْمَعِيشَةَ مَطْلَبٌ فَكُلُّ زَهِيدٍ يُمْسِكُ النَّفْسَ جَابِرُ(٣٧)
فَلَوْلَا الْعُلَا ما أَرْسَلَ السَّهْمَ نَازِعٌ وَلَا شَهَرَ السَّيْفَ الْيَمانِىَّ شَاهِرُ(٣٨)

(٣٥) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى . ويبين: يتضح ، ويظْهر ، وينكشف. ويراد بالفضل والنقص : فضائل الأفاضل النابهين ، ونقائص الأراذل الخاملين . والورى : الخَلْقُ ، والناس. وسَوْم : مصدر سام المشترى السلعة (من باب قال) : أى طلب شراءها. والمآثر : المكرمات ، والمفاخر . واحدتها مأثرة .

والمعنى : أن تنافس الرجال فى شراء المحامد ، وكسب المكرمات يظهر فضلهم، وبعد هممهم ، كما يظهر نقص الخاملين وقُصُورهم .

(٣٦) الكمىّ : المدجّج : أى لابس السلاح. أو الشجاع المقدام . والأمر : الشأن والحال . وأوجبَ الأمر : أى فرضَهُ ، وجعله واجبا لازماً . والمفاخِرُ : المآثر ، والمكرمات التى يتباهى بها ، ويفْتَخر : جمع مفخرة ، أو مفخر . والأمور التى توجبها المفاخر : أعمال البطولة، ومساعى المجد ، وصفات العزّة والسيادة . . .

يقول : إن الكمىّ الشجاع إنّما يحمل سلاحه ليحقّق به مع شجاعته الأمور العظيمة التى يفخر بها أمثاله.أمّا الذى يحمل السلاح لمجرد المظهر والتزيُّن فإنه جبان ، ساقط الهمّة ، لا وَزْنَ له ، ولا اعتبار .

(٣٧) المعيشة : المعاش من المطعم، والمشرب ، وما يمسك الرّمَق ، ويحفظ الحياة . والزهيد: القليل . وجابر : كاف ، مُغْنٍ : من قولهم : جبَر الفقير واليتيم : أى كفاه حاجته .

والمعنى : إذا انحطّت همّة الإنسان فى الحياة إلى الاكتفاء بما يمسك رمقه، ويحفظ عيْشَه — أغناه القريب اليسيرُ من المسعى ، والقليل الزهيد من الطعام والشراب ونحوهما . وهذا قريب من قول امرئ القيس الكندى :

وَلَوْ أنَّ مَا أسْعَى لِأدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِى ،وَلَمْ أطْلُبْ قَلِيلٌ من المال

(٣٨) السهم : عود من خشب يُسَوَّى. ويثبت فى طرفه نصل من الحديد مسنون مشحوذ ،يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . ونازع: رام بالسهم : اسم فاعل من قولهم : نزع الرامى ، أو الصائد ، أو المحارب ، أو نحوه فى قوسه: أى مدّها؛ ليطلق منها السهم.وشهَر السيف(من باب نَفَع): أى سلّه ، وأخرجه من غمده للضراب والجلاد والقتال . واسم الفاعل منه شاهر . واليمانىّ : نسبة على غير قياس — إلى اليمن . وقد اشتهرت بلاد اليمن قديماً بصناعة السيوف وتجارتها .

والمعنى : فى سبيل الرفعة والشرف ومعالى الأمور يستخدم الشّهم سلاحه، ويعتَمد على قوته وشدّة بأسه فى تحقيق المآرب العظيمة، وإدراك الغايات البعيدة . وهو قريبٌ من معنى البيت السادس والثلاثين .

مِنَ الْعَارِ أَنْ يرْضَى الدَّنِيَّةَ ماجِدٌ ... ويَقْبَلَ مَكْذُوبَ الْمُنَى وَهْوَصاغِرُ(٣٩)

إذا كُنْتَ تَخْشَى كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الرَّدى ... فَكُلُّ الَّذِي فِي الْكَوْنِ لِلنَّفْسِ ضَائِرُ(٤٠)

فَمِن صِحَّةِ الْإِنْسَانِ ما فِيهِ سُقْمُهُ ... وَمِنْ أَمْنِهِ ما فَاجَأَتْهُ الْمَخَاطِرُ(٤١)

(٣٩) العار : كلّ شيء لزم به عيب ، أو سُبّة . والدنيّة (بالهمز ، وبلا همز) : النقيصة والعار . وجمعها دنايا (بوزن عطيّة وعطايا) . وماجد :عزيز ، شريف ، كريم . ومكذوب المنى : الأمانيّ الكاذبة ، والآمال الباطلة . وصاغر : ذليل ، راض بالهوان ، مقيم على الضيم .

يبدو لنا أن الغرض من هذا البيت وأمثاله تحريض الأعزّة الشرفاء من أهل مصر على إباء المذلّة والضيم ، ورفض الصغار والهوان؛ فالاحتلال العسكريُّ الإنجليزيُّ لمصر بعد إخفاق الثورة العُرابيّة — دنيّة ونقيصة ، واستسلامُ المصريين له عار وشنار ، ووعود المحتلين بالجلاء خِداع ودهاء ، ومن يقبل هذه الوعود ، أو يسكن إليها فإنّما يقبل مكذوب المنى وهو صاغر . وإن صَحّ هذا التأويل كان غريباً من الباروديّ ؛ فإننا لم نلمح فى الكثير الذى حققناه من شعره عداوة ظاهرة للاحتلال العسكريّ الإنجليزيّ ، أو تنديداً به ، أو هجوماً عليه ، أو تحريضاً صريحاً على مقاومته ومكافحته .

(٤٠) تخشى : تخاف . و« من » هنا : سببيّة : أى تعليلية . والردى : الموت والهلاك . والكون : الوجود المطلق العامّ . أو العالم . أو الدنيا . وضائر : ضارّ .

والمعنى : لا ينبغى أن يساورك الفزع ؛ فَتَتَهَيَّبَ كُلَّ عملٍ ، وتُوجِس من كلّ شىء خيفةً ، وتخشى ممارسة الصِّعاب ، واقتحام العقبات ؛ فإن الخطر ، والضرر ، والردى ، والهلاك مُتَرَبِّصٌ بك فى كل ظاهرة وَخَفِيَّةٍ من ظواهر الوجود وَخَفَايَاه : يريد أنه لا فائدة من توقّيك الردى الذى يتمثّل لك فى كل خطوة من خطواتك ؛ فيحملك على الجبن والإحجام

كلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ حِينَ تَلْقَى أَجَلَكْ

والغَرضُ الحضُّ على خَوْضِ غمار المهالك ، والاستهانة بالأخطار لدفع المذلة والعار . والبيت الآتى يوضح هذا المعنى ، ويُفَصِّله ، ويؤكّده .

(٤١) الخطر : الإشراف على الهلاك ، وخوف التلف . وجمعه أخطار (بوزن سببٍ وأسبابٍ) . ومثلها المخاطر .

والمعنى : أن الإنسان قد يُصيبه المرض من حيث يظُنُّ الصحة ، وقد يباغته الموتُ والهلاكُ من حيث يظنّ الأمن والسلامة . والغرض من هذا البيت والبيتين السابقين الحضُّ على الشجاعة والإقدام ، واقتحام الأخطار لنيل الأوطار . وفى بعض هذه الأبيات مع هذا تحذير ونذير ؛ لكيلا نغترّ بالوعود الكاذبة ، ونركن إلى الآمال الباطلة .

عَلَيَّ طِلَابُ الْعِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ ... وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ(٤٢)
فَمَا كُلُّ مَحْلُولِ الْعَرِيكَةِ خَائِبٌ ... وَلَا كُلُّ مَحْبُوكِ التَّرِيكَةِ ظَافِرُ(٤٣)
فَمَاذَا عَسَى الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَقَوَّلُوا ... عَلَيَّ، وعِرْضِي نَاصِحُ الْجَيْبِ وَافِرُ؟(٤٤)

---

(٤٢) الطِّلاب: الطَّلب . والعزّ ، والعزّة: القوّة والكرامة ، والعظمة والحريّة . وضدّه الذلّ ، والضعف ، والمهانة، والصغار . ومن مستقرّه : أى من مكان وجوده ، وموطنه ، ومحلّ استقراره . وبالأسباب القويّة التى توصلنى إليه ، وتعيننى عليه . وعارضتنى : اعترضتنى ، وحالت بينى وبينه. والمقادر : جمع مِقْدار : وهوقدر الله تعالى ، وقضاؤه ،وحكمه . ويراد بالمقادر هنا : الموانع القهريّة ، والعقبات التى لاقدرة للإنسان عليها ، ولا حيلة له فيها .

والمعنى : أن حياة الحريّةوالكرامة تفرض على الأحرار الكرام أن يطلبوا العزّة والمَنَعَة بالأسباب الطبيعيّة ، والوسائل الملائمة القويّة؛ فإن جاهدوا وجالدوا ، ثم حالت الأقدار بينهم وبين ما يطلبون ، كان لهم العذر ، وبرئوا من الذنب . وهذا البيت صورة فى لفظه ومعناه من قول أبى فراس الحمدانىّ المتوفى سنة ٣٥٧ هـ :

عَلَيَّ طِلَابُ الْعِزِّ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ ... وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ حَارَبَتْنِي الْمَطَالِبُ

غير أن « المقادير » أقوى من « المطالب » ، و « حاربتنى » أقوى من « عارضتنى »

(٤٣) العريكة : الطبيعة والنفس . ورجل محلول العريكة : أى ضعيف خائر. ومن كلامهم هو شديد العريكة : أى أبىّ ، شديد النفس ،صلب المراس . وهو ليّن العريكة : أى سهل ، سَلِس ، منقاد . ومحبوك : متقن ،محكم: اسم مفعول من الحبك : وهو الشدّ ، والإحكام ، والإتقان . (وفعله من بابى ضرب ونصر) . والتّريكة (بوزن السفينة): بيضة الحديد للرأس. ومثلها الخوذة ، والمِغْفَر ، وكلُّ مايلبسه المحارب فوق رأسه من الحديد ، يتّقى به ضربات عدوّه . وحبك التريكة : كناية عن القوّة ، والشجاعة وشدّة البأس ، وكمال الأهبة ،وتمام الاستعداد . وظافر : فائز ، غالب : اسم فاعل من ظفر المطلوب ، وبه ، وعليه (من باب طرب) : أى فاز به ، وغلب .

والمعنى : أن المقادير قد تُسْعِد الضعيف فيفوز، وتعترض الكمىّ الشجاع فلا يَظْفَر . وصلة هذا البيت بالذى قبله واضحة؛ فإن الشاعر طلب لنفسه ولوطنه ومواطنيه العزّة والحريّة والكرامة من أماكنها الطبيعية ، وبالوسائل الملائمة القويّة ،مع كمال الأهبة ، وتمام الاستعداد ، ولكنّ الأقدار وقفت فى سبيله ؛ وحالت بينه وبين النصر والغلبة؛ ولا غرو ، فقد ينبو الحسام ويكبو الجواد ، وتتوافر الأسباب ، وتتخلّف نتائجها .

(٤٤) الاستفهام فى أول البيت: معناه النفى ؛ فإن أعداء الشاعر يطمعون أن يتقوّلوا عليه ، ولكنهم لا يستطيعون، أولا يجدون مايقولونه؛ لأن عِرْضه ناصح الجيب وافر. وقد يكون الاستفهام هنا للإنكار؛ فهو ينكر على أعدائه أن يتقوّلوا عليه الأقاويل ويكبتُهم ، ويستهجن هذاءهم ،ويبكّتهم . و « عسى » : =

فَلِى فِى مَرَادِ الْفَضْلِ خَيْرُ مَغَبَّةٍ إِذَا شَانَ حَيًّا بِالْخِيَانَةِ ذَاكِرُ(٤٥)

مَلَكْتُ عُقَابَ الْمُلْكِ وَهْىَ كَسِيرَةٌ وَغَادَرْتُهَا فِى وَكْرِهَا وَهْىَ طَائِرُ(٤٦)

=فعل ماض جامد غير متصرّف، وهو من أفعال المقاربة ،وفيه ترجٍّ، وطمع، وإشفاق. وتقوّل عليه قولا : اختلقه كذباً ، ورماه به ظلماً ، بقصد الاعتداء عليه ، والإساءة إليه. والواو ، فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسميّة بعدها حاليّة . والعرض :النفس . أو هو موضع المدح والذمّ من الإنسان . أو هو مايفتخر به ، ويرفع شأنه من حسب ونسب وخلائق محمودة . أو هو جانب الرجل الذى يصونه من نفسه وحسبه،ويمدح إذا حافظ عليه، ويذمّ إذا فرّط فيه. وفلان ناصح الجيب: أمين . وعرضٌ ناصح الجيب : أى نقىّ خالص ، لاتشوبه شائبةمن النقص أو المثلبة. ووافر : تامّ، لايعيبه نقص. ووفر عرضه : كرم ، وصين ، ولم يبتذل .

يفتخر بنصاحة جيبه ، ووفور عرضه ، ونقاء سيرته ، وحرصه على ما ينبغى أن يصونه من نفسه وشرفه ، وحسبه ، ووطنيّته ؛ ولهذا عجز أعداؤه عن التقوّل عليه ، أو النيل منه .

(٤٥) مراد الفضل : مجاله : اسم مكان من راد (من باب قال) : أى جال ، وتحرّك ، وطاف وذهب ، وجاء . أومن راد الشىء : أى تلمّسه وطلبه . والفضل والفضيلة : الخير والإحسان ومكارم الأخلاق ، وضدهما النقص والنقصية.ومغبّة الشىء : عاقبته ، وآخره . ومعنى الشطر الأول : أن سيرته وسلوكه ، وأعماله وتصرّفاته تجرى كلّها فى مجالالفضيلة والخير ، والأمانة والإخلاص ، وتتّجه إلى أطيب المغبّات، وأشرفالغايات . أو يحوز بها خير العقْبى،وأفضل مايبتهى به الفاضلون . وشانه بكذا: انتقصه ، وعابه . ويريد بالحىّ: من يعرّض بهم ممن نقضوا العهد ، وخانوا الأمانة ، وذكرهم الذاكرون بما يشينهم من المثالب والعيوب ، كالغدر ، والنفاق ، والجبن ، والإحجام ، وخيانة ثورتهم العرابيّة الوطنية ، وانحيازهم إلى أعداء الوطن من المحتلّين وأعوانهم .

يتمدّح بأمانته وفضله ، ويعرّض بخيانة غيره ونقصه .

(٤٦) العقاب (بوزن الغراب) : طائر من كواسر الطير وجوارحه ، قوىّ المخالب، مُسَرْوَلٌ، له منقار قصير ، أعقف، وبصره حادّ (ولفظهمؤنث للذكر والأنثى) . ويريد بعقاب الملك: ما تولاّه فى حياته بمصر من مناصب الحكم ، ومراتب القيادة ، ووزارة الأوقاف ، وغيرها من الوزارت ، ثم رياسة الوزارة إبّان الثورة العرابية . وكسيرة: مكسورة والمراد معتلّة ، مختلّة ، فاسدة . وغادرتها تركتها . والوكر : عشٌّ الطائر الذى يبيض فيهويُفرخ . والواو فى كلٍّ من شطرى البيت : واو الحال، والجملتان الاسميّتان بعدهما حاليّتان .

تولّى البارودىّ فى مصر مناصب رفيعة ؛ فكان من مفاخره أنه أصلح أمور المُلْكِ ، وأقام مُعوجّها، وأزال ضعفها وفسادها ، لأنه رجل إصلاح واستقامة ، وجِدٍّ وكفاية .

وَلَوْ رُمْتُ مَا رَامَ امْرُؤٌ بِخِيَانَةٍ ... لَصَبَّحَنِي قِسْطٌ مِنَ الْمَالِ غَامِرُ (٤٧)
وَلَكِنْ أَبَتْ نَفْسِي الْكَرِيمَةُ سَوْأَةً ... تُعَابُ بِهَا ، وَالدَّهْرُ فِيهِ الْمَعَايِرُ (٤٨)
فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَالَ يَنْفَعُ رَبَّهُ ... إِذَا هُوَ لَمْ تَحْمَدْ قِرَاهُ الْعَشَائِرُ (٤٩)
فَقَدْ يَسْتَجِمُّ الْمَالُ وَالْمَجْدُ غَائِبٌ ... وَقَدْ لَا يَكُونُ الْمَالُ وَالْمَجْدُ حَاضِرُ (٥٠)

(٤٧) رمت : أردت ، وطلبت وصبّحني : جاءني صباحاً . والمراد أقبل عليّ وسارع إليّ . والقسط : الحصّة والنصيب . وغامر : كثير ، وافر .

في البيت الخامس والأربعين تمدّح الشاعر بالأمانة والفضل . وهذا البيت تكرار ، أو شبه تكرار لهذا المعنى ؛ فهو يفخر بعفّته وأمانته ، وسموّ نفسه . وشرف مقاصده ومساعيه ، وترفّعه عن الغدر والخيانة . والدنايا والخطيئات. ولو طلب شيئاً من عرَض الدنيا بمثل هذه الوسائل الخسيسة لغمرته الأموال ، وأقبلت عليه الدنيا كلّ الإقبال. وفي البيت مع الفخر تعريض بالخائنين ، والمتقوّلين عليه ، وأعداء الثورة العرابيّة .

(٤٨) الكريمة : صفة من الكرم بمعناه العام : وهو اسم جامع لما يظهر في الإنسان من الأخلاق العظيمة ، والأفعال المحمودة ، والمحاسن الكبيرة . والسوءة (بفتح فسكون) : المثلبة ، والعيب ، والنقيصة ، والخلّة القبيحة . ويريد بالدهر : زمانه الذي عاش فيه . أو أهل زمانه. والمعاير : المعايب ، والمثالب ، والمناقص : من عار فلاناً (من باب باع) : أي عابه ، وثلبه ، وتنقّصه .

يفتخر بأن نفسه الكريمة ترفّعت عن السّوءات والدنايا ، على حين أن كثيراً من أهل زمانه كانوا موصومين بكثير من المثالب والنقائص . أو أن زمانه كان فيه ما يحض على المعاير والمعايب ويغري بالمناقص والخطيئات .

(٤٩) الربّ : الصاحب والمالك . وقرَى ضيفه (من باب رمَى) : أضافه ، وأكرمه . والقرَى (بوزن الرضا) : ما يقدّم إلى الضيف من طعام وشراب . ويراد به هنا : وجوه الإنفاق في الخير والمحامد والمبرّات والمكرمات . وقراه : أي قرى المال . أو قرى ربّ المال . والعشائر : جمع العشيرة : وهي القبيلة . وعشيرة الرجل : بنو أبيه ، والأقربون من أهله . ويراد بالعشائر هنا : الناس .

والمعنى : أن المال لا ينفع صاحبه إلا إذا أنفقه في وجوه الخير والبرّ ، واشترى به حمد الناس ، وحسن ثنائهم .

(٥٠) يستجمّ : يجتمع ، ويكثر . والمجد : العزّ والشرف ، والرفعة والعلاء .

في بعض الأبيات السابقة افتخر الشاعر بأمانته وفضله ، ونقاء عرضه ، وكرم نفسه ، وكفايته الإدارية الفائقة فيما تولّاه من المناصب الكبرى . ثم أشار إلى ما ينبغي أن ينفق فيه المال ، ليُحمَد بالإنفاق ربّ المال . وفي هذا البيت نفي ما قد يتوهّم من ملازمة واقتران بين المجد والمال ، =

وَلَوْ أَنَّ أَسْبَابَ السِّيَادةِ بِالْغِنَى لَكَاثَرَ رَبَّ الْفَضْلِ بِالْمَالِ تَاجِرُ(٥١)

فَلَا غَرْوَ أَنْ حُزْتُ الْمكَارِمَ عارِياً فَقَدْ يَشْهَدُ السَّيْفُ الْوَغَى وَهْوَ حاسِرُ(٥٢)

أَنا الْمَرْءُ لَا يثْنِيهِ عَنْ دَرَكِ الْعُلَا نَعِيمٌ ، ولَا تَعْدُو عَلَيْهِ الْمفَاقِرُ(٥٣)

= فقال : إن المال قد يتوافر فى يد شخص غير مجيد . وقد يعوز الماجد الشريف ؛ فيعانى مع مجادته وشرفه الفقر والحرمان وفى الأبيات الآتية اتجاهات إلى ما يشبه هذه المعانى ، وفيها حكمة مع فخر .

(٥١) كاثره بماله : فاخره بكثرة ماله ، وباهاه بثروته .

والمعنى : أن الغنى وحده لا يرفع صاحبه إلى مرتبة السيادة والمجد ، ولا يسلكه فى عداد الكرام الأفاضل . ولو كان الأمر كذلك لغالب التاجر بكثرة ماله الرجل الفاضل الماجد ، وتطاول بكثرته ، وتقدم عليه . وصلة هذا البيت بالذى قبله وثيقة واضحة .

(٥٢) لاغرو : أى لاعجب . والمكارم والمكرمات : أعمال الكرم ، ومزايا الكرام . وعارياً : المراد بلا مال . والوغى : الحرب ؛ لما فيها من الأصوات العالية المختلطة . وحاسر : مكشوف ، مصلت مجرّد من غمده .

فى البيتين السابقين قرّر أن المجد والسيادة لا يقومان على الغنى وكثرة المال ؛ بل قد يسمو إليهما المقلّ الفقير . وفى هذا البيت فخر فخراً صريحاً بأنه من السادة الأماجد الذين حازوا المكارم ، وجمعوا المحامد على الرغم من قلة ماله . وليس فى هذا ما يثير الدهش ، أو يدعو إلى العجب ؛ فإن السيف يشهد الحرب ، ولا يكسب النصر إلا إذا جرّد من غمده . ويلاحظ أن البارودى جرد من ثروته قبل نفيه إلى سرنديب ، وأن هذه القصيدة من سرنديبيّاته ؛ فهو يفخر بأنه رجل فضل ومجد ومكارم حتى مع تجريده من ماله ؛ فقد ذهبت ثروته ، وبقيت له مكرماته ومكانته .

(٥٣) لا يثنيه : لا يكفّه ، ولا يصرفه ، ولا يمنعه . والدرك : اسم مصدر بمعنى الإدراك والالحاق . أدرك الشىء إدراكاً : لحقه ، وبلغه ، وناله ، وحازه . وتعدو عليه : تظلمه ، وتنال منه . والمراد تضعف همّته ، وتوهن عزيمته . والمفاقر : وجوه الفقر ، وأنواعه ، وأحواله .

يفخر بأن حياة الرفاهية والنعيم لا تصرفه عما يطمح إليه ، ويحرص عليه من معالى الأمور ، ومطالب المجد والسؤدد . وأن الفقر والإقلال لا يضعف همّته ، ولا يغيّر خلقه ؛ فهو فى اليسر والعسر ، والرخاء والشدة طموح همام ، سيّد ماجد .

قَئُولٌ وَأَحْلاَمُ الرِّجالِ عَوَازِبٌ صَئُولٌ وأَفْوَاهُ الْمَنَايا فَوَاغِرُ(٥٤)
فَلَا أَنا إِنْ أَدْنَانِيَ الْوَجْدُ بَاسِمٌ وَلاَ أَنَا إِنْ أَقْصَانِيَ الْعُدْمُ بَاسِرُ(٥٥)
فَما الْفَقْر إِنْ لَمْ يَدْنَسِ الْعِرْضُ فَاضِحٌ وَلاَ الْمَالُ إِنْ لَمْ يَشْرُفِ الْمَرْءُ ساتِرُ(٥٦)
إِذَا ما ذُبَابُ السَّيْفِ لَمْ يَكُ مَاضِياً فَحِلْيَتُهُ وَصْمٌ لَدَى الْحَرْبِ ظَاهِرُ(٥٧)

(٥٤) قئول : لسن فصيح . والأحلام : العقول : جمع حلم (بكسر فسكون) . وعوازب غائبة ، ذاهبة . وكنى بعزوب الأحلام عن اشتداد الخطب ، واستبهام الأمور وتعقّدها . وصئول : فاتك ، شجاع ، مقدام . والأفواه : جمع الفوه : وهو الفم . والمنايا : جمع المنيّة : وهى الموت . وفواغر : مفتوحة : جمع فاغر . وكنى بانفغار أفواه المنايا عن اشتداد الحرب ، وتوقّد نارها . والواو فى شطرى البيت : واو الحال . والجملة الاسميّة بعد كلٍّ منهما جملة حاليّة .

فى الشطر الأول تمدّح بفصاحته ، وقوّة حجّته ، ونصاعة بيانه ، وقدرته على حلّ المشكلات إذا استبهمت الأمور ، واشتدّت الخطوب . وفى الشطر الثانى افتخر بصولته وشجاعته وشدّة بطشه إذا حمى الوطيس ، واستعرت نار الحرب .

(٥٥) أدنانى : قرّبنى . والوجد (بتثليث الواو) : الغنى ، واليسر ، والثروة ، وكثرة المال . وأقصانى : أبعدنى . والعدم (بضم فسكون) : الفقر ، والبؤس ، والإقلال ، والعسر : وهو ضدّ اليسر . وباسر : كالح الوجه ، عابس ، مبتئس .

والمعنى : أنه لا ينخدع إذا أدناه الغنى من متع الحياة ولذّاتها . وكذلك لا يبتئس إذا أقصاه الفقر عنها ؛ فهو قد وصل إلى حال من القناعة والرضا بحيث لا يبطره الغنى ، ولا يحزنه الفقر . وهو فى الشدّة والرخاء مطمئنّ النفس ، رخىّ البال .

(٥٦) دنس الثوب ونحوه : توسّخ (وبابه طرب) . والعرض : النفس . أو جانب الرجل الذى يصونه من نفسه وحسبه أنْ ينتقص ويثلب . أو هو موضع المدح والذمّ من الإنسان . أو هو ما يفتخر به المرء من حسب وشرف وخلائق محمودة .

يقول : إن الفقر لا يضير المرء ، ولا يشينه إذا كان شريفاً ، نقىّ العرض ، عزيز النفس ، كريم الخُلُق ، وإن المال لا يكاد ينفع صاحبه ، أو يقيم ما انهار من شرفه ، أو يستر ما افتضح من مخازيه إذا انحلّت أخلاقه ، وتدنّس عرضه ، وتردّى فى مهاوى الرذائل .

(٥٧) ذباب السيف : حدّه . وماض : حادّ ، قاطع . وحلية السيف : زينته . ووصم : عيب وعار . وظاهر : نعت لوصم .

والمعنى : أن الغنى لا ينفع الغنىّ إذا لم يكن قوىّ النفس ، ماضى العزيمة ، ناصح الثوب ، نقىّ العرض ، مقداماً فى النوائب ، صبوراً على الشدائد . وكذلك السيف تصمه فى الحروب حليته =

فَإِنْ كُنتُ قَدْ أَصْبَحْتُ فَلَّ رَزِيَّةٍ ... تَقَاسَمَهَا فى الْأَهْلِ بَادٍ وحَاضِرُ(٥٨)
فَكَمْ بطَلٍ فَلَّ الزَّمَانُ شَبَاتَهُ ... وكَمْ سَيِّدٍ دارتْ علَيْهِ الدَّوائرُ(٥٩)
وأَىُّ حُسامٍ لَمْ تُصِبْهُ كَلالَةٌ ؟ ... وأَىُّ جَوَادٍ لَمْ تَخُنْهُ الْحوَافِرُ ؟(٦٠)

=وتعيبه زينته إذا لم يكن حساماً صَمْصاماً، قاطعاً بتّاراً . وقد ساق الشاعر هذا البيت مثلا لحاله ؛ إذ جرّد فى أعقاب الثورة العرابيّة من أمواله، وأبعد عن وطنه ؛ فعلى الرغم من التجريد والتشريد بقى كما كان عزيز النفس، شامخ الأنف ، قوىّ الشكيمة ، متجلّداً للخطوب ، لا يتزعزع لريب الدهر ، ولا تنال منه نوائب الزمان . وفى الأبيات الآتية تعزية قويّة لنفسه ولأمثاله .

(٥٨) الفَلّ : المنهزم (للواحد والجمع) . وأصله الكسر فى حدّ السيف ونحوه . والرزيّة : المصيبة. ومثلها الرزيئة (بالتسهيل والهمز) . ويشار بالرزيئة هنا إلى إخفاق الثورة العرابية ؛ وكان الشاعر من قادتها والضاربين فى غمرتها ، فلمّا أخفقت صار من فلولها ، أى المنهزمين فيها . وتقاسم القوم الشىء بينهم ، واقتسموه : أى أخذ كل منهم قسمه منه : أى حظه ونصيبه . وتقاسم المنهزمون الهزيمة : أى أخذ كلّ منهم نصيبه منها : أى تحمّل مع غيره تبعاتها وبلاياها. وقد تكون « فى » هنا بمعنى « مِنْ » فالرزيّة تقاسمها البادى والحاضر من أهل مصر، أى سكّانها وأصحابها . وباد : مقيم فى البادية : وهى الصحراء . وحاضر : مقيم فى الحاضرة : وهى المدن ، والقرى ، والريف . ويراد بالبادى والحاضر أهل مصر كلّهم أجمعون . وجواب « إن » الشرطيّة فى البيت الآتى .

(٥٩) «كم» فى شطرى البيت : خبريّة، تدلّ على عدد كثير . والبطل : الشجاع المقدام . وفَلَّه (من باب رد): ثَلَمه وكسره . وشباة كلّ شىء: حدّه القاطع. وقد اعتاد الناس وبخاصّة الشعراء أن ينسبوا إلى الزمان ما يصيبهم من الشرور والنكبات . والدوائر: النوازل، والخطوب ، والنوائب . الواحدة دائرة . ودارت عليه : نزلت به وأصابته .

فى البيت فخر ؛ فالشاعر بطل من الأبطال ، وسيّد من السادات . وفيه وفى البيت الذى قبله تعزية قويّة ، خفّف بها الشاعر عن نفسه، وهوّن عليها الرزيّة ؛ فإنها عامّة ، أصابت أهل مصر كلّهم أجمعين . والبلوى إذا عمّت خفّت. هذا إلى كثرة فلول الزمان من السادة الأعزّة. والأبطال المغاوير . والبيت الآتى سند وتعزيز لهذا المعنى .

(٦٠) الحُسام : السيف القاطع. والكلالة: التثلّم، والتكسّر : مصدر كلّ السيف ونحوه (من باب ضرب) : أى لم يقطع ؛ لتثلّمه ، وتفلّل مضاربه . وكَهَم السيف كَهَامة : مثل كلّ كلالة . والجواد: النجيب من الخيل. وجمعه جياد . والحوافر : جمع الحافر ، وهو من الدابّة : ما يقابل القدم من الإنسان . وخيانة الحوافر : كناية عن الكبوة والسقوط .

وهذا البيت فى معنى القول السائر، أو المثل المشهور : « لكلّ صارم نبوة، ولكلّ جواد=

فَسَوْفَ يَبِينُ الْحَقُّ يَوْماً لِنَاظِرٍ　　وَتَنْزُو بِعَوْرَاءِ الْحُقُودِ السَّرائِرُ(٦١)
وَمَا هِيَ إِلَّا غَمْرَةٌ ، ثُمَّ تَنْجَلِي　　غَيَابَتُهَا ، واللهُ مَنْ شَاءَ نَاصِرُ(٦٢)

= كبوة » . والغرض منه ، ومن البيتين قبله تعزية نفسه عن النكبات التى توالت عليه فى أعقاب الثورة العرابيّة ، من سجن واعتقال ، وتجريد وتشريد ، وتنكيل بقادتها وأبطالها الذين حملوا لواءها ، وخاضوا غمارها .

(٦١) « سوف » : حرف مبنى على الفتح ، يدخل على الفعل المضارع ؛ فيخصصه للزمن المستقبل الواسع . وفيه معنى التراخى والتسويف : أى مدّ الزمن ، وإطالته وتوسيعه . ويبين : يظهر ويتّضح . ويراد بالحقّ : حقّ القادة والرجال الذين ظلموا فى محاكمات زائفة مضلّلة . وقد يكون المراد به : حقائق الثورة العرابية ، وأهدافها الوطنيّة الخالصة النبيلة التى أخفتها وشوّهتها حملات التشهير والتضليل ، والدعايات الكاذبة الحاقدة . وتنزو من (باب عدا وسما) : تثب . ونزا به الشرّ : ثار ، وتحرّك . وتنزو السرائر بعوراء الحقود : أى ترمى بها ، وتقذف . والمراد أن هذه الحقود سوف تنكشف وتبين . والعوراء : مؤنث الأعور : وهو الردىء من كلّ شىء . وكلمة عوراء ، وفعلة عوراء : سيّئة قبيحة . وعوراء الحقود : أى الحقود القبيحة السيّئة الممقوتة : جمع حقد : وهو الضغن ، والانطواء على البغضاء ، وإضمار العداوة ، والتربّص لفرصتها . والسرائر : جمع السريرة : وهى السرّ الذى يكتم . وقد يراد بالسرائر : القلوب ؛ لأنها مواضع الأسرار ، وفيها تكتم .

والمعنى : أن حقّ الشاعر وأمثاله ، أو حقائق الأمور فى مصر ، أو حقائق الثورة العرابيّة ، ودوافعها ، وملابساتها ، وصورها الصحيحة الصادقة ، وأهدافها العالية النبيلة — سوف تتّضح لكلّ من يستبينها ، وينظر فيها ، وسوف تنكشف الأسرار بما تحمله من قبائح الحقد والغدر ، والخيانة والشرّ ، والتعمية والتمويه ، والبطلان والعدوان .

(٦٢) « هى » : يريد محنة النفى والتشريد ، والبلايا التى أصابته ، وأصابت أمثاله . والغمرة : الشدّة والمكرهة . وتنجلى : تنكشف وتزول . وغيابة كلّ شىء : قعره ، وما سترك منه . ويراد بغيابة الغمرة : ظلمتها وقسوتها وعمقها ، وما فدحه ، وثقل عليه من ويلاتها . « والله من شاء ناصر » : تذييل يدلّ على ثقة الشاعر بانجلاء الغمرة ، واتّجاهه إلى الله فى الشدائد ، واطمئنانه لقضائه ، وطمعه فى نصره .

فى البيت السابق بدّد الشاعر ظلمات اليأس والقنوط بأضواء الأمل والرجاء . وقال : إنه لا بدّ من ظهور الحقّ واستعلائه ، وزهوق الباطل وانطوائه ، وانكشاف ما حرص الأعداء الحاقدون على كتمانه من أحقادهم ، وضغائنهم ، وسيئاتهم ، وقبائحهم . وفى هذا البيت ردّد الشاعر هذا المعنى ، وأكّده ، فقال : إنها شدّة لا بدّ من زوالها ، ومحنة مؤقّتة يعقبها نصر من الله وفتح قريب . وفى البيت الآتى تحدّث ببعض نعم الله عليه فى محنته ؛ إذ تداركه فى ظلمة السجن برحمته ، ومنّ عليه بحفظه وكلاءته

فَقَدْ حَاطَنِى فى ظُلْمةِ الْحَبْسِ ، بعْدَمَا ... تَرَامَتْ بِأَفْلَاذِ الْقُلُوبِ الْحَنَاجِرُ (٦٣)

فَمَهْلاً بَنِى الدُّنْيَا عَلَيْنَا ؛ فَإِنَّنَا ... إِلَى غَايَةٍ تَنْفَتُّ فيها الْمَرَائِرُ (٦٤)

تَطُولُ بِها الْأَنْفَاسُ بُهْرًا ، وَتَلْتَوِى ... عَلَى فَلْكَةِ السَّاقَيْنِ فِيها الْمآزِرُ (٦٥)

---

(٦٣) حاطنى : حفظنى ، ورعانى (وبابه قال ، وكتب) . والشاعر يشير بظلمة الحبس إلى ماكان من القبض عليه ، وعلى أمثاله ، والزجّ بهم فى ظلمات السجون ، تمهيداً لمحاكمتهم بعد إخفاق الثورة العرابيّة ، ودخول جيش الاحتلال الإنجليزىّ القاهرة فى الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ م . وفى غياهب ذلك السجن نظم البارودىّ قصيدة رائيّة ، مطلعها :

شَفَّنِى وَجْدِى ، وَأَبْلَانِى السَّهَرْ ... وَتَغَشَّتْنِى سَمَادِيرُ الْكَدَرْ

وهى منشورة فى هذا الجزء ص ١١٧ — ١١٨ كما نشرت من قبل فى سائر الطبعات السابقة . وأفلاذ القلوب : قطعها ، وأجزاؤها : جمع فلذة (بوزن قطعة وكسرة) . والحناجر : الحلاقيم : جمع حنجرة ، أو حنجور (بوزن حُلقوم) : وهو مجرى النَّفَس فى الرقبة . وترامت الحناجر بأفلاذ القلوب : أخرجتها ، ورمت بها : وهذا كناية عن فدح الخطب ، واشتداد الكرب .

(٦٤) المهل : التؤدة ، والرفق . تقول : مهلا يافلان : أى رفقاً ، ولا تعجل . وبنى الدنيا : منادى بحذف حرف النداء . ويريد ببنى الدنيا : الظالمين الذين غرّتهم الحياة الدنيا ، وغرّهم بالله الغرور . ويريد بالغاية : يوم القيامة ، أو يوم الدين ، أو اليوم الآخر ، أو يوم البعث والحشر ، أو يوم زلزلة الساعة : « يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مرضِعَةٍ عمّا أرْضَعَتْ ، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وتَرَى الناسَ سُكَارَى وما هم بسُكَارَى ، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ » (الآية رقم ٢ من سورة الحج) . وتنفتّ : تتفتّت ، وتتمزّق . وفيها أى فى الغاية : أى فى يوم القيامة . والمرائر : جمع المرارة : وهى هنة لازقة بالكبد . وانفتات المرائر : كناية عن أهوال ذلك اليوم وشدائده .

يقول لأعدائه وظالميه المخدوعين بالدنيا المتجبّرين فيها : لا تشمتوا بنا ، ولا تتمادوا فى ظلمنا ، ولا تغرّنكم هذه الحياة الفانية ؛ فإننا جميعاً نسير إلى غاية واحدة ، هى الموت ، ثم البعث ، والحشر ، والحساب . وفى الآخرة أهوال وشدائد تتضاءل بإزائها كلّ أهوال الحياة الدنيا وشدائدها .

والغرض : النصح ، والعظة ، والإرشاد ، والتذكير بالعواقب ، وردع المتجبّرين الظالمين . ثم تعزية نفسه ، والتخفيف عنها ، وتهوين الخطب عليها . وقد يفيد الوعظ ؛ فتحيا الضمائر ، وتستقيم الأمور ، ويجتمع الناس على الرحمة والبرّ ، والعدل والإحسان .

(٦٥) « بها » بالغاية : أى فى يوم القيامة . والأنفاس : جمع نفس (بوزن سبب وأسباب) . والبهر (بضم فسكون) تتابع النَّفَس من الإعياء . وبهره (من باب قطع) : أجهده حتى أعيا ، وتتابع نَفَسُهُ . وتطول بها الأنفاس بهراً : أى بسبب البهر ، فهو مفعول لأجله . والتوى الشىء على الشىء : التفّ ، وانثنى . وفلكة كلّ شىء : مستداره ، ومعظمه . والساق من الحيوان : ما بين الركبة والقدم ؛ =

هُنَالِكَ يَعْلُو الْحَقُّ ، وَالْحَقُّ واضِحٌ وَيَسْفُلُ كَعْبُ الزُّورِ ، والزُّورُ عَاثِرُ(٦٦)

وَعَمَّا قَلِيلٍ يَنْتَهِي الأَمْرُ كُلُّهُ فَما أَوَّلٌ إِلَّا وَيَتْلُوهُ آخِرُ(٦٧)

=وهي مؤنثة . وفيها : أي في الغاية : أي في يوم القيامة . والمآزر : جمع مئزر (بوزن منبر) : وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن . ومثله الإزار (بوزن الكتاب) . والتواء المآزر على فلكة الساقين : كناية عن الشدّة ، والخطب الفادح ، كما في قول الله تبارك وتعالى في تصوير الشدّة التي يكابدها المحتضر : « والْتَفَّتِ السَّاقُ بالساقِ » . وقوله تعالى في أهوال يوم القيامة : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » . والعرب تذكر الساق في المحن والكروب ، والشدائد . ومنه قولهم : « قامت الحرب على ساق » : أي توقّدت نيرانها ، وعظمت فوادحها . و « كشف الأمر عن ساقه » : أي فدح ، واشتدّ .

والبيت كناية عن أهوال اليوم الآخر وكروبه ؛ فهو تكرار وتفصيل وتأكيد لمعنى « انفتات المرائر » في البيت السابق .

(٦٦) هنالك : إشارة إلى الغاية : أي إلى يوم القيامة في البيت الرابع والستين . والكعب : كلّ مفصل من العظام . والكعب : العظم الناتئ عند ملتقى الساق والقدم . وفي كلّ قدم كعبان . والزُّور : الباطل . وضدّه الحقّ . وسفول كعب الزور : كناية عن حبوطه وبطلانه . وعاثر : ساقط .

والمعنى : أن يوم القيامة يوم الفصل الذي يتّضح فيه الحقّ والباطل ، ويلقى كلّ من المحقّ والمبطل جزاءه العادل . ختم الشاعر بهذا البيت ثلاثة الأبيات التي جعلها عظة وتذكرة للظالمين المبطلين الذين طالما لَبَسُوا الحق بالباطل ، وخادعوا ، وأجرموا ، وغرّتهم الحياة الدنيا ، وغرّهم بالله الغرور . صوّر لهم شيئاً من أهوال يوم القيامة لعلّهم يتفكّرون ، وذكّرهم بالغاية ، أو النهاية التي لا بدّ منها ، ولا محيص عنها ، وهي الموت ، ثم النشور ، ثم الحساب الدقيق العادل « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وبينه أمداً بعيداً » (الآية رقم ٣٠ من سورة آل عمران) . ثم ختم بالبيت الآتي هذه الرائية الطويلة الرائعة ، وهو شبه تلخيص ، وتقرير ، وتأكيد لمعنى هذه الأبيات الثلاثة .

(٦٧) الأمر : الشأن ، والحال ، والقصّة . ويريد به أمر هؤلاء الظالمين المبطلين المفسدين في مصر ؛ أي : وعمّا قليل ينتهي حكمهم ، واستبدادهم ، وتسلّطهم بانتهاء حياتهم ، أو بسقوط دولتهم « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . وقد يكون المراد بالأمر : قصّة الحياة الدنيا كلّها . والشطر الثاني : تذييل جار مجرى المثل ، مؤكّد لمعنى الشطر الأول ؛ فلكلّ أوّل آخر ، ولكلّ بدء نهاية لا بدّ منها ، ولا محيص عنها . وقد أسلفنا أن هذا البيت الختامي شبه تلخيص وتقرير للأبيات الثلاثة التي قبله .

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

وقَال فِى الْغَزَل :

أَرَبَّةُ الْعُودِ ، أَمْ قُمْرِيَّةُ السَّحَرِ غَنَّتْ فَحَرَّكَتِ الْأَشْجَانَ بِالْوَتَرِ؟(١)

حَوْرَاءُ لِلسِّحْرِ فِى أَلحَاظِهَا أَثَرٌ يُرِيكَ أَنَّ الرُّقَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَرِ(٢)

لَوْلَمْ تَكُنْ قَمرًا فِى الْحُسْنِ مَاظَهَرَتْ لِأَعْيُنِ النَّاسِ فِى لَيْلٍ مِنَ الشَّعَرِ(٣)

أَمْلَتْ عَلَىَّ بِلَحْظَيْهَا حَدِيثَ هَوًى عَرَفْتُ مِنْهُ ضَمِيرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ(٤)

كَأَنَّمَا بَيْنَ جفْنَيْهَا إِذَا نَظَرَتْ «هارُوتُ» يَعْبَثُ بِالْأَلْبابِ وَالْفِكَرِ(٥)

---

(١) العود : من آلات الغناء والطرب ، وله أوتار تضرب ، فينبعث منها الصوت . والقمريّة : ضرب من الحمام . والسحر : الوقت قبيل الصبح . والأشجان : جمع شجن (بفتحتين) وهو الحزن والهمّ وهوى النفس .

(٢) حوراء : صفة من الحور (بفتحتين) وهو شدّة بياض العين، فى شدة سوادها، مع استدارة الحدقة ورقّة الجفون وبياض ما حواليها. أو حوراء: بيضاء ، ناعمة ، رافهة . والألحاظ : جمع لحظ (بفتح فسكون) : وهو النظر بمؤخر العين ، والمراد بالألحاظ : العيون ، أو النظرات الساحرة الفاتنة . والرقى : جمع رقية (بضم فسكون) : وهى ما يتلى من الأدعية وغيرها لدفع المكروه ، أو إبطال السحر ، اسم من رقاه (من باب رمى) .وضرب : نوع . والهذر (بفتحتين ، أو بفتح فسكون) : الهذيان والباطل .

يقول : إنها حوراء ، لعينيها سحر لا يدفع تأثيره بالرقى ونحوها .

(٣) يشير بالشطر الثانى إلى سواد شعرها وطوله .

(٤) بلحظيها : بعينيها . والهوى : الحبّ والغرام .

والمعنى : أنها علّمته الهوى ، وعرف من عينيها مكنون حبّها .

(٥) « هاروت » اسم ساحر أو ملك (بفتح اللام) كان يعلّم الناس السحر بمدينة « بابل » وقد وردت قصّته فى القرآن الكريم ، قال الله تبارك وتعالى : «

« وَاتَّبَعُوا مَاتَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ »

(الآية ١٠٢ من سورة البقرة) . والألباب : العقول والقلوب. والفكر : جمع فكرة (بكسر فسكون) وهى الفكر.

يصف عينيها بالسحر والفتنة والجمال ، وشدّة التأثير فى قلوب العشاق وعقولهم .

لَا غَرْوَ أَنْ هِمْتُ مِنْ وَجْدٍ بِصُورَتِهَا ... فَالْحُسْنُ مَشْغَلَةٌ لِلْعَقْلِ وَالْبَصَرِ (٦)
لَا تَقْنَعُ الْعَيْنُ مِنْهَا كُلَّمَا نَظَرَتْ ... وَكَيْفَ يَقْتَنِعُ الْمُشْتَاقُ بِالنَّظَرِ؟ (٧)
نَاغَيْتُهَا بِلِسَانِ الشَّوْقِ ، فَازْدَهَرَتْ ... لِلْحُسْنِ فِي وَجْنَتَيْهَا وَرْدَتَا خَفَرِ (٨)
وَازْوَرَّ حَاجِبُهَا عَنْ نَظْرَةٍ رَشَقَتْ ... سَوَادَ قَلْبِي بِسَهْمٍ صِيغَ مِنْ حَوَرِ (٩)
فَلَمْ أَزَلْ بِرُقَى الْأَشْعَارِ أَعْطِفُهَا ... وَرُقْيَةُ الشِّعْرِ تُجْرِي الْمَاءَ فِي الْحَجَرِ (١٠)
حَتَّى إِذَا عَلِمَتْ أَنِّي بِهَا كَلِفٌ ... وَأَنَّنِي مِنْ تَجَنِّيهَا عَلَى خَطَرِ (١١)
تَبَسَّمَتْ ، فَجَلَتْ لِلْعَيْنِ مِنْ فَمِهَا ... يَا قُوتَةً أُودِعَتْ سَطْرَيْنِ مِنْ دُرَرِ (١٢)
فَبِتُّ مِنْ وَصْلِهَا فِي جَنَّةٍ يَنَعَتْ ... أَفْنَانُهَا بِثِمَارِ الْأُنْسِ وَالْحَبَرِ (١٣)

(٦) لاغرو : لاعجب . وهام بها : شغل بها وعشقها ، وأصيب بالهيام (بالضم) وهو الجنون من العشق . والوجد : الحب . والمشغلة (كمرحلة) : مايشغلك .

والمعنى : لا عجب إن ملأ حبها قلبي ، وشغلت صورتها نفسي ، فالحسن يشغل العقول والأبصار .

(٨) ناغيتها : حادثتها وغازلتها . وازدهرت : تلألأت وأشرقت . ووجنتاها : خداها ، مثنى وجنة (بفتح فسكون) : وهي ما ارتفع من الخد . والخفر : شدة الحياء ، (وبابه طرب) .

(٩) ازور : مال وتحرك . ورشقت : رمت وأصابت . والسهم : مايرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها ، والكلام هنا على التشبيه . والحور (بفتحتين) : شدة بياض العين ، في شدة سوادها ، مع استدارة الحدقة ؛ ورقة الجفون ، وبياض ما حواليها ، وكل هذا من صفات الحسن والسحر والجمال في عيون النساء .

(١٠) الرقى جمع رقية (بضم فسكون) وهي مايتلى لجلب خير ، أو لدفع شر .

(١١) كلف : محب لهج مغرم مولع ، صفة من كلف فلان بالشيء (من باب طرب) أي أولع به وتعلق . وتجنى فلان على غيره تجنياً : ادعى عليه ذنباً لم يفعله . والخطر : الإشراف على الهلاك . وجواب « إذا » في البيت الآتي .

(١٢) جلت : أوضحت وكشفت وأظهرت . والياقوتة : واحدة الياقوت ، وهو جوهر معروف ، وأجوده الأحمر الرماني ، وقد شبه الشاعر بها شفتي محبوبته . والدرر : اللآلئ ، تشبه بها الأسنان في الصفاء والنقاء والبياض .

يقول : إنها عند ما تبسمت ظهر جمال شفتيها ، كأنهما ياقوتتان انجلتا عن صفين من درر .

(١٣) ينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه (وبابه ضرب وجلس وتطع خضع) . والأفنان : الأغصان ، واحدها فنن (بفتحتين) ، والمراد بينع الأفنان : امتلاؤها بالثمار المدركة الناضجة والحبر (بفتح الباء ، والأصل فيها التسكين) : السرور .

أَبَحْتُ لِلْعَيْنِ فيها مَا تَقَرُّ بِهِ وَذُدْتُ كَفَّ الصِّبَا عَنْ مَعْقِدِ الأُزُرِ (١٤)
حتّى اشْرَأَبَّتْ عُقَابُ الْفَجْرِ ، وانْطَلَقَتْ حَمَائِمُ الشُّهْبِ مِنْ أُحْبُولَةِ السَّحَرِ (١٥)
فَيا لَهَا لَيْلَةً ! كَانَتْ بِرَوْنَقِها تَارِيخَ لَهْوٍ لِمَا أَحْرَزْتُ مِنْ وَطَرِ (١٦)
وَسَمْتُهَا بِضِياءِ الْكَأْسِ ، فَالْتَمَعَتْ وَزِينَةُ الدُّهْمِ فى الأَوْضَاحِ وَالْغُرَرِ (١٧)
لَوْ كَانَ يَسْمَحُ لِى دَهْرِى بِعَوْدَتِها لَبِعْتُ فِيها لَذِيذَ النَّوْمِ بِالسَّهَرِ (١٨)
وَلَّتْ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ فَذْلَكَةٍ تَلُوحُ فى دَفْتَرِ الأَوْهَامِ وَالذُّكَرِ (١٩)
وَأَىُّ باقٍ عَلَى الأَيَّامِ نَطْلُبُهُ وَكُلُّ وَارِدَةٍ يَوْماً إِلَى صَدَرِ (٢٠)

---

(١٤) تقرّ (بكسر القاف وفتحها) : تبرد سروراً . وذدت : كففت ومنعت ودفعت . والصبا (بكسر الصاد) : جهلة الفتوّة واللهو من الغزل ، كالصبوة والتصابى . ومعقد : اسم مكان من عقد الإنسان الإزار وغيره (من باب ضرب) أى شدّه وربطه . والأزر: جمع إزار (ككتاب) وهو ما يشدّه الإنسان على وسطه ليستر به أسفل جسمه . والشطر الثانى كناية عن عفّته .

(١٥) اشرأبّت : مدّت عنقها ورفعت رأسها. والعقاب : طائر من جوارح الطير . والحمائم : جمع حمامة . والشهب (ككتب) : النجوم السبعة المعروفة بالدرارىّ ، والمراد الكواكب والنجوم مطلقاً . والأحبولة : المصيدة . والسحر : الوقت قبيل الصبح. والبيت كناية عن طلوع الفجر .

(١٦) الرونق : الحسن . وأحرزت: حزت ونلت . والوطر : البغية (بضم فسكون) والحاجة .

(١٧) وسمتها : أعلمتها وزيّنتها ، أى الليلة . ويريد بضياء الكأس: صفاء الخمر فى كئوسها ، وما يكون لها من تلألؤ وبريق ولمعان . والدهم : الخيل السود ، واحدها أدهم أو دهماء . والأوضاح : جمع وضح (بفتحتين) وهو التحجيل : أى البياض فى قوائم الفرس . والغرر : جمع غرّة (بضم الغين وتشديد الراء) ، وهى بياض مستحسن فى جبهة الفرس .

جعل ضياء كئوس الشراب زينة وبهاء لتلك الليلة المظلمة ؛ كما تزدان الخيل السوداء بالأوضاح والغرر .

(١٩) ولّت : ذهبت وأدبرت . ويريد بالفذلكة: البقيّة والنهاية، وأصلها من قولهم: فذلك الحاسب حسابه فذلكة ، أى أنهاه ، وفرغ منه ، وهى كلمة مخترعة من قوله إذا أجمل حسابه : فذلك كذا كذا. وتلوح : تبدو وتظهر. والذكر (بضم ففتح) : جمع ذكرة (بضم فسكون) ، وهى ضد النسيان .

(٢٠) واردة : اسم فاعل من ورد البعير وغيره الماء ، أى بلغه ووافاه . والصدر : الرجوع. والمعنى : لا شىء يبقى على الأيام حتى نطلب بقاءه ، وكلّ شىء إلى زوال وفناء .

فَلاَ تَثِقْ بِوَفَاءِ الدَّهْرِ ، إِنَّ لَهُ غَدْرًا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْعُودِ والثَّمَرِ (٢١)
وَلَا تَغُرَّنْكَ مِنْ وَجْهٍ بَشَاشَتُهُ فَالسُّمُّ يُوجَدُ فِى نَضْرٍ مِنَ الشَّجَرِ (٢٢)
قَدْ كِدْتُ أَتْهِمُ ظَنِّى فِى فِرَاسَتِهِ مِنْ طُولِ مَا اشْتَبَهَتْ عَيْنَاىَ فِى الصُّوَرِ (٢٣)
فَخُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا سَمَحَتْ بِهِ إِلَيْكَ ، وَكُنْ مِنْهَا عَلَى حَذَرِ (٢٤)
وَسَالِمِ الدَّهْرَ تَسْلَمْ مِنْ غَوَائِلِهِ فَصَاحِبُ الشَّرِّ لَا يَنْجُو مِنَ الْكَدَرِ (٢٥)
لَا يَبْلُغُ الْمَرْءُ مَا يَهْوَاهُ مِنْ أَرَبٍ إِلَّا بِتَرْكِ الَّذِى يَخْشَاهُ مِنْ ضَرَرِ (٢٦)
فَانْعَمْ وَطِبْ وَالْهُ وَاطْرَبْ وَاسْعَ وَاعْلُ وَسُدْ وَاشْرَبْ وَغَنِّ وَتِهْ وَالْعَبْ وَهِمْ وَطِرِ (٢٧)
لَا يَقْنَطُ الْمَرْءُ مِنْ غُفْرَانِ خَالِقِهِ مَا لَمْ يَكُنْ كَافِرًا بِالْبَعْثِ وَالْقَدَرِ (٢٨)

---

(٢١) يريد بالشطر الثانى من هذا البيت أن الدهر يفرّق بين كل ملتئمين مجتمعين .

(٢٢) السمّ (بفتح السين وضمها وكسرها) . ونضر : نضير غضّ حسن أخضر .

(٢٣) أتهم ظنى : أتّهمه ؛ أتهمه بكذا (كأكرمه) واتّهمه (كافتعله) : أدخل عليه التهمة . والفراسة : اسم من التفرّس ، وهو التثبّت ، وصدق النظر . واشتبهت عيناى فى الصور : يريد اشتبهت الصور أمام عينىّ ، أى التبست ، وأشكلت ، واختلطت .

والمعنى : أن أمور الحياة وصورها ، وأحوال الناس وأخلاقهم — قد التبست وأشكلت عليه ؛ لشيوع الخداع ، وغلبة النفاق ، حتى كاد يتّهم فراسته وظنّه بالضعف والخطأ فى تمييز الأخيار من المخادعين .

(٢٥) الغوائل : الدواهى والمصائب ، واحدتها غائلة .

(٢٦) يهواه : يحبّه ويريده . والأرب : الحاجة .

يقول : إن الإنسان لا ينال ما يحبّه ويهواه من الحاجات والمطالب إلا بتجنّبه ما يسبب له الضرر ، ويعوقه عن غايته .

(٢٧) انعم : تنعّم وتمتّع . وطب : أمر من طابت النفس بالشىء تطيب ، أى نعمت وارتاحت . واله : أمر من اللهو . واطرب : أمر من الطرب (بفتحتين) ، وهو خفّة تصيب من يشتدّ به الفرح . وته : أمر من التيه (بكسر التاء) وهو العجب (بضم فسكون) والكبر (بكسر فسكون) . وهم : أمر من هام يهيم (من باب باع) ، أى أحبّ وعشق .

(٢٨) يقنط : ييئس وينقطع رجاؤه ، (وبابه جلس ودخل وطرب وسلم) . والقدر (بفتحتين) : قضاء الله تعالى وحكمه (بضم فسكون) .

وَقَالَ :

لَا شَيْءَ فِي الدَّهْرِ يُغْنِي عَنْ أَخِي ثِقَةٍ ... يَكُونُ فِيهِ بَلَاغُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ(١)
قَضَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ رُمْتُهُ وَطَرًا ... إِلَّا مُحَادَثَةَ الْإِخْوَانِ فِي السَّمَرِ(٢)

وَقَالَ* :

صُبْحٌ مَطِيرٌ ، وَنَسْمَةٌ عَطِرَهْ ... وَأَنْفُسٌ لِلصَّبُوحِ مُنْتَظِرَهْ(١)
فَدُرْ بِعَيْنَيْكَ حَيْثُ شِئْتَ تَجِدْ ... مُلْكاً كَبِيرًا ، وَجَنَّةً خَضِرَهْ(٢)
سماوُهَا بِالْغُصُونِ وَاشِجَةٌ ... وَأَرْضُها بِالنَّبَاتِ مُؤْتَزِرَهْ(٣)

---

(١) البلاغ (كسحاب) : الكفاية . ومعنى الشطر الثانى : أن الإنسان يسمع منه ، ويرى فيه مايروقه ويعجبه ويغنيه .

(٢) رمته : أردته وطلبته . والوطر : الحاجة. والسمر : مجلس السمّار ، وهم القوم يسمرون ، أى يتحادثون ليلاً .

يقول : إنه قضى من كلّ شيء حاجته ، ولم يبق له أرب إلا مسامرة الإخوان .

وهذان البيتان مضروب عليهما فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا . وقد نشرناهما من قبل فى الطبعة الأولى لشرحنا سنة ١٩٤٢ ، وفيما تلاها من الطبعات .

* فى التاسع من رجب سنة ١٢٩٩ هـ (السادس والعشرين من مايو سنة ١٨٨٢ م) استقال البارودىّ من رياسة الوزارة فى ظروف سياسية سيئة تنذر بالخطر، ويكيد فيها الكائدون للوطن ورجاله ؛ وقصد إلى مزرعته بقرقيرة من قرى الدقهلية ، ينشد فى أحضان الطبيعة شيئاً من الطمأنينة ورخاء البال ، ويؤثر اجتناب السياسة وأخطارها ، ويعرّض بالحاقدين ذوى القلوب الوغرة ، ويشير إلى غدر الدنيا بأهلها ونهاية اللاهين بها ، ويسأل الله الكرامة والسلامة . ويبدو أنه نظم هذه القصيدة وهو فى ضيعته بقرقيرة على أثر استقالته . وفى صباح الثلاثاء ٢٢ من شعبان سنة ١٢٩٩ هـ (١١ من يولية سنة ١٨٨٢ م) (أى بعد نحو ستة أسابيع من سقوط وزارة البارودى) أطلق الأسطول الإنجليزى قنابله على حصون الإسكندرية ؛ وبهذا أوقد الإنجليز نار حربهم العدوانيّة التى انتهت بإخماد الثورة المصريّة العرابيّة ، واحتلالهم مصر فى الخامس عشر من سبتمبر سنة ١٨٨٢ . أو لعلّه نظمها فى ضيعته بقرقيرة وهو مقيم بها، بعد استقالته من وزارتى الجهادية والأوقاف فى وزارة « مصطفى رياض » بتاريخ ٢ من أغسطس سنة ١٨٨١م .

(١) مطير : ماطر . والنسمة (بفتحتين) : نفس الريح (بفتح النون والفاء) إذا كان ضعيفاً، كالنسيم ، أو هى الريح الطيبة اللطيفة . وعطرة : ذكيّة الرائحة . والصبوح : الخمر تشرب فى الصباح .

(٢) خضرة : خضرا ناضرة .

(٣) واشجة : مشتبكة ملتفّة . ومؤتزرة : مكتسية ، وأصلها اسم فاعل من ائتزر الإنسان ، أى لبس الإزار .

مَنْظَرُ لَهْوٍ تُعِيدُ بَهْجَتُهُ ... أَكِنَّةَ الْعَيْشِ وَهْىَ مُنْحَسِرَهْ(٤)

فَالْعُفْرُ تَحْتَ الظِّلَالِ رَاتِعَةٌ ... وَالطَّيْرُ فَوْقَ الْغُصُونِ مُنْتَشِرَهْ(٥)

وَالطَّلُّ يَنْهَلُّ مِنْ مَسَاقِطِهِ ... مِثْلَ عُقُودِ الْجُمَانِ مُنْتَثِرَهْ(٦)

جَدَاوِلٌ فِى الْفَضَاءِ جَارِيَةٌ ... وَمُزْنَةٌ فِى السَّمَاءِ مُنْهَمِـــرَهْ(٧)

دُنْيَا نَعِيمٍ تَكَادُ زَهْرَتُهَا ... تَزْرِى عَلَى الشَّمْسِ وَهْىَ مُزْدَهِرَهْ(٨)

لَا ظِلُّهَا راكِدُ النَّسِيمِ، وَلَا ... غُدْرَانُهَا بِالْغُثَاءِ مُخْتَمِرَهْ(٩)

فَيَابْنَ وُدِّى! هَلُمَّ نَقْتَسِمِ الْـ ... لَهْوَ، فَنَفْسِى إِلَى الصِّبَا حَسِرَهْ(١٠)

وَخَلِّنَا مِنْ سِيَاسَةٍ دَرَجَتْ ... بَيْنَ أُنَاسٍ قُلُوبُهُمْ وَغِرَهْ(١١)

---

(٤) البهجة: الحسن والرواء والنضارة. والأكنّة: جمع كنان (ككتاب) وهو الستر (بكسر فسكون) والوقاء (بكسر الوو وفتحها). ومنحسرة: منكشفة، والجملة الاسمية «وهى منحسرة» جملة حاليّة.
والمعنى: أنّ هذا المنظر الممتع الجميل يظهر ببهجته وبهائه مباهج العيش، ومحاسن الحياة.

(٥) العفر (بضم فسكون): الظباء والغزلان، جمع أعفر أو عفراء، وهو الذى يعلو بياضه حمرة، أو الأبيض ليس بالشديد البياض. وراتعة: اسم فاعل من رتعت الماشية (من بابى نفع وخضع) أى رعت وأكلت وشربت كيف شاءت فى سعة ورغد.

(٦) الطلّ: أخفّ المطر وأضعفه، أو هو الندى. وينهلّ: يسقط وينصبّ. ومساقطه: مواضع سقوطه. والعقود: جمع عقد (بكسر فسكون) وهو القلادة. والجمان (بضم الجيم): هنوات من الفضة على شكل اللؤلؤ، الواحدة جمانة (بضم الجيم).

(٧) المزنة (بضم فسكون): السحابة. ومنهمرة: سائلة منصبّة.

(٨) زهرة الدنيا: بهجتها ونضارتها وحسنها. وزرى عليه (من باب رمى): عابه واستهزأ به وحقّره، ومثله أزرى عليه، لكنّه قليل. ومزدهرة: مسفرة مشرقة مضيئة.

(٩) راكد النسيم: ساكن الريح. والغدران: جمع غدير: وهو القطعة من الماء يغادرها السيل: أى يتركها وراءه. والمراد بالغدران هنا: الأنهار، والترع، والقنوات، والمساقى، ومجارى المياه. والغثاء (بوزن الغراب): ما يحمله السيل من رغوة وزبدٍ وقذرٍ، ومن فتات الأشياء التى على وجه الأرض. ومختمرة: مختلطة، أو مغطاة.

(١٠) الودّ: الحبّ. وابن الودّ: الصديق والحبيب. وهلمّ: أقبل وتعال. والصبا (بكسر الصاد): جهله الفتوّة، واللهو من الغزل، كالصبوة والتصابى. وحسرة: متلهّفة، والمراد مشتاقة.

(١١) خلّى الأمر: تركه. ودرجت: مشت وسارت. ووغرة: ممتلئة غيظاً، صفة من الوغر (بفتحتين)، وهو الحقد والضغن والعداوة والتوقّد من الغيظ.

يَقْضُونَ أَيَّامَهُمْ عَلَى خَطَرٍ فَبِئْسَ عُقْبَى السِّيَاسَةِ الْخَطِرَهْ(١٢)
خَدِيعَةٌ لَا يَزَالُ صَاحِبُهَا بَيْنَ هُمُومٍ وَعِيشَةٍ كَدِرَهْ(١٣)
مَالِي وَلِلنَّاسِ ، لَا لَدَىَّ لَهُمْ حَقٌّ يُؤَدَّى ، وَلَا عَلَيَّ تِرَهْ(١٤)
قَدِ الْتَقَيْنَا مِنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ فِي دَارِ دُنْيَا بِأَهْلِهَا غَدِرَهْ(١٥)
نَلْهُو بِهَا حِقْبَةً ، وَنَتْرُكُهَا إِلَى مَهَاوٍ فِي الْأَرْضِ مُنْحَدِرَهْ(١٦)
كُلُّ امْرِئٍ ذَاهِبٌ لِغَايَتِهِ وَكُلُّ نَفْسٍ بِالْغَيْبِ مُؤْتَمِرَهْ(١٧)
يَارَبِّ هَبْ لِي مِنَ الْكَرَامَةِ مَا يَسُرُّ نَفْسِي ، فَإِنَّهَا وَجِرَهْ(١٨)
وَلَا تَكِلْنِي لِمَنْ يُعَذِّبُنِي فَإِنَّ نَفْسِي إِلَيْكَ مُفْتَقِرَهْ(١٩)

---

(١٢) الخطر : الإشراف على الهلاك ، وخوف التلف. وعقبى الشيء : عاقبته وآخره. ويريد بالسياسة الخطرة : سياسة المخاطرة ، وتعريض النفس للتهلكة. ولم نعثر على هذه الكلمة « خطرة » فيما بين أيدينا من المعجمات .

(١٣) الخديعة : اسم من خدعه ، أي ختله ، وأراد به المكر من حيث لا يعلم .

(١٤) الترة : الذحل والثأر (بفتح فسكون فيهما) .

(١٥) من غير سابقة : أي أول مرة ، من غير التقاء سابق. وغدرة (بفتح الغين وكسر الدال) صفة من الغدر، وهو ترك الوفاء ، ونقض العهد ، (وفعله كنصر وسمع وضرب) ، قال : غدره ، وغدر به ، ولم يصرح بهذه الصفة فيما لدينا من المعجمات ، ولكن جاء في لسان العرب ما يأتي : وفي الحديث أنه مر بأرض يقال لها غدرة (بفتح فكسر) ، فسماها خضرة (بفتح فكسر) ، كأنها كانت لا تسمح بالنبات ، أو تنبت ثم تسرع إليه الآفة ، فشبهت بالغادر ؛ لأنه لا يفي اهـ .

(١٦) حقبة : زماناً . والمهاوي : جمع مهواة (بفتح فسكون) وهي الحفرة ، والمراد القبور . ومنحدرة : منخفضة هابطة .

(١٧) أمره فأتمر : أي أطاع أمره وامتثله ، ومؤتمرة : اسم فاعل من الائتمار ، والمراد أنها خاضعة لأحكام الغيب ، وما يجري عليها من القضاء والقدر .

(١٨) وجرة : خائفة مشفقة . ويريد بالكرامة : التكريم والرضا والعافية .

(١٩) وكله إلى غيره (من باب وعد) ووُكُولاً أيضاً : أي تركه له ، ولم يُعِنْه عليه . وفي الحديث : « اللهمَّ لا تَكِلْنا إلى أنفسنا طَرْفَةَ عَيْنٍ » .

وَقَالَ يَرْثِى حَاضِنَتَهُ* :

أَمَرْيَمُ ! لَا وَاللهِ أَنْسَاكِ بَعْدَمَا ... صَحِبْتُكِ فِى خَفْضٍ مِنَ الْعَيْشِ أَنْضَرِ (١)

فَقَدْ كُنْتِ فِينَا بَرَّةَ الْقَوْلِ سَرَّةً ... سَلِيمَةَ قَلْبٍ فِى مَغِيبٍ وَمَحْضَرِ (٢)

فَلُقِّيتِ مِنْ ذِى الْعَرْشِ خَيْرَ تَحِيَّةٍ ... تُوافِيكِ فِى رَوْضٍ مِنَ الْقُدْسِ أَخْضَرِ (٣)

وَقَالَ يَرْثِى وَلَدَهُ :

بَكَيْتُ « عَلِيًّا » إِذْ مَضَى لِسَبِيلِهِ ... بِعَيْنٍ تَكَادُ الرُّوحُ فِى دَمْعِهَا تَجْرِى (١)

وإِنِّى لَأَدْرِى أَنَّ حُزْنِىَ لَا يَفِى ... بِرُزْئِى ، وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الصَّبْرِ (٢)

وَكَيْفَ أَذُودُ الْقَلْبَ عَنْ حَسَرَاتِهِ ... وَأَهْوَنُهَا أَلْقَاهُ يَصْدَعُ فِى الصَّخْرِ ؟ (٣)

يَلُومُونَنِى أَنِّى تَجَاوَزْتُ فِى الْبُكَا ... وَهَلْ لِامْرِئٍ لَمْ يَبْكِ فِى الْحُزْنِ مِنْ عُذْرِ ؟ (٤)

---

* الحاضنة : المربيّة التى توكّل بأمر الطفل وتكفله .

(١) خفض العيش : دعة المعيشة ، ولين الحياة ، وسعتها ورفاهيتها . وأنضر : ناضر ناعم حسن

(٢) برّة : صفة من البرّ (بكسر الباء وتشديد الراء) ، وهو الصلة والخير ، وضدّه العقوق . وسرّة : سارّة ، تسرّ غيرها وتبرّه . والمغيب : الغيبة (بفتح فسكون) . والمحضر : الحضور

(٣) توافيك : تأتيك . والروض : جمع روضة ، وهى الجنّة . والقدس : الطهر (بضم فسكون فيهما)

(١) « علىّ » أحد أولاد الشاعر من « أمينة يعقوب سامى » التى تزوّجها فى منفاه فى أواخر سنة ١٨٨٥ م وهو فى نحو السادسة والأربعين من عمره . وهى بنت اللواء يعقوب سامى ، أحد قادة الثورة العرابيّة ، وزميل البارودىّ فى الجهاد والمنفى . ويبدو أن هذا المرثىّ توفّى فى طفولته . واقرأ فى الجزء الأول من شرح ديوان البارودىّ ص ٢٤٨ — ٢٥٠ طبعة دار المعارف مرثاة أخرى دالية لهذا الطفل فى ثلاثة عشر بيتاً . ومضى فلان سبيله وبسبيله : مات .

والمعنى : أن حزنه وبكاءه قد اشتدّ حتى كاد يهلكه .

(٢) الرزء : المصيبة .

والمعنى : أن مصيبته بفقد ابنه أعظم من حزنه عليه ، وأن حزنه مهما اشتدّ لا يفى بهذا الرزء ، ولا يكافئه ، وقد كان علمه بهذه الحقيقة جديراً بحمله على التجلّد والصبر ، ولكنّه لا يستطيع إليهما سبيلا .

(٣) أذود : أكفّ وأمنع وأدفع . والحسرات : جمع حسرة (بفتح فسكون) ، وهى الحزن والتلهّف الشديد على الشىء الفائت . وأهون : أيسر وأخفّ . وما ألقاه : أى من الحسرات والأحزان . ويصدع : يشقّ ويفتّت .

إذَا الْمَرْءُ لَمْ يَفْرَحْ وَيَحْزَنْ لِنِعْمَةٍ   وَبُؤْسٍ ،فَلَا يُرْجَى لِنَفْعٍ وَلَا ضَرٍّ(٥)
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا قِسْمَةُ اللهِ فِى الْوَرَى   لِأَصْبِرَ ، لَكِنَّا إِلَى غَايَةٍ نَسْرِى(٦)
لَقَدْ خَفَّفَ الْبَلْوَى - وإِنْ هِىَ أَشْرَفَتْ   عَلَى النَّفْسِ - ما أَرْجُوهُ مِنْ مَوْعِدِ الْحَشْرِ(٧)

وَقَال يَرْثِى ولَدَهُ أيضاً :

لَمْ أَصْطَبِرْ بَعْدَكَ مِنْ سَلْوَة   لَكِنْ تَصَبَّرْتُ عَلَى جَمْرِ(١)
وَشِيمَةُ الْعَاقِلِ فِى رُزْئِهِ   أَنْ يَسْبِقَ السَّلْوَةَ بِالصَّبْرِ(٢)

وَقَال فى الصَّبْرِ :

صَبَرْتُ ،وَما بِالصَّبْرِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى   إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَعَابٌ وَلَا نُكْرُ(١)
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِى الصَّبْرِ أَعْدَلُ شَاهِدٍ   عَلَى كَرَمِ الْأَخْلَاقِ مَا حُمِدَ الصَّبْرُ(٢)

---

(٦) الورى : الخلق (بفتح فسكون) والناس . ونسرى : نسير ونذهب .

يشير إلى أن الموت هو الغاية التى يسعى إليها كل حىّ ، وأن الله تعالى قدّره على الأحياء جميعاً ، قال تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموْتِ » .

(٧) البلوى : اسم من بلاه الله تعالى ، أى اختبره وامتحنه ، وفى القرآن الكريم : « ولَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ منَ الخوْف والجُوعِ ونَقْصٍ منَ الأمْوَالِ والأنْفُسِ والثَّمراتِ » ١٥٥ سورة البقرة وأشرفت على النفس : كادت تهلكها . وموعد الحشر : يوم القيامة ، وفيه يبعث الله الناس ، ويحشرهم ، أى يجمعهم . والذى يرجوه من موعد الحشر : هو لقاء ولده .

(١) أصطبر : أصبر . والسلوة : اسم من سلا الشىء ، وسلا عنه (كدعا ورضى) سلوًّا (كسموّ) وسلوناً (كغفران) وسليًّا (كمضىّ) ، أى نسيه ، وطابت نفسه بعد فراقه . وتصبّرت : تكلفت الصبر . والجمر : جمع جمرة (بفتح فسكون) ، وهى القطعة الملتهبة من النار ، والمراد حرقة الأسى ، ونار الحزن .

(٢) الشيمة : الخلق (بضم الخاء واللام) والطبيعة . والرزء : المصيبة .

والمعنى : أن العاقل يستقبل الأرزاء والمصائب بالتجلّد والصبر ، قبل أن تحمله الأيام على السلوة والنسيان .

(١) المعاب : العيب والوصمة . والنكر (بضم فسكون) : المنكر (بضم فسكون) والأمر القبيح .

وقال :

لَوْ كَانَ يَدْرِى الْفَتَى مكْنُونَ ما خَبَأَتْ ... لَهُ الْمَقَادِيرُ لَمْ يَرْكَنْ إلَى الْحَذَرِ [١]
وَلَوْ دَرَى أَنَّ ما يَلْقَاهُ مِنْ عَنَتٍ ... مِنْ خَيْبَةِ الرَّأْىِ لَمْ يَعْتُبْ عَلَى الْقَدَرِ [٢]

وقال :

بَلَوْتُ إخاءَ النَّاسِ دَهْرًا ، فَلَمْ أَجِدْ ... أَخَا ثِقَةٍ يَرْعَى مَغِيبِى كَمَحْضَرِى [١]
فَإِنْ أَتَغَيَّرْ عَنْ وِدَادٍ ؛ فَإِنَّنِى ... أَرَى كُلَّ شَىْءٍ عُرْضَةً لِلتَّغَيُّرِ [٢]

وَقَالَ لِأَحَدِ الْوُلَاةِ فى يَوْمِ قَطْعِ سَدِّ النيلِ :

أَيَا مَلِكاً هَمَتْ كَفَّاهُ جُودًا ... عَلَى الثَّقَلَيْنِ : مِنْ بَادٍ ، وَقَارِى [١]

---

(١) المكنون : المستور الخفىّ . والمقادير : جمع مقدار ، وهو قدر الله تعالى وقضاؤه وحكمه . والحذر : الاحتراس والتحرّز .

والمعنى : أن الفتى يحذر المكروه بجهله بما خبأته الأقدار ، ولو علم ذلك ما وجد فى الحذر فائدة .

(٢) العنت : المشقّة والشدّة . وخيبة الرأى : سوء النظر ، وفساد التدبير .

يقول : إن ما يلقاه المرء من مشقّة وعنت ؛ سببه فى الغالب فساد الرأى وسوء التدبير . فلا معنى إذن لمعاتبة القدر ، والسخط على القضاء .

(١) بلوت : جرّبت وخبرت .

والمعنى : أنه بعد طول خبرته للناس لم يجد من يصون الإخاء والمودّة ، ويحافظ على حقوق الصداقة فى غيبته وحضوره على السواء ،وكأنّما يشير إلى شيوع الرياء والنفاق والملق بين الناس .

(٢) المعنى : فإن تغيّرت عن مودّة بعض الناس ، وتركت صداقتهم—فليس ذلك بعجيب ؛ لأنّ كلّ شىء يعرض له التغيّر ، فكما تغيّر الناس ، وكما تغيّر الزمان تغيّرت .

(١) همت : سالت . والثقلان : الإنس والجنّ . والبادى : الذى يعيش فى البادية ، وهى الصحراء . والقارى : ساكن القرية .وفى الأصل المخطوط : « همت يداه . . » وإنّما يستقيم الوزن بـ « كفّاه »

والمعنى : أن كرم الممدوح وجوده عامّ شامل .

عَرَاكَ النَّيلُ مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ ... فَأَلْبِسْهُ الْكَرَامَةَ فَهْوَ عَارِى(٢)

وقال :

يُسَائِلُنِي عَمَّا كَتَمْتُ مِنَ الْهَوَى ... صَدِيقِي، وَفِى بَعْضِ الْإِجَابَةِ مايُزْرِى(١)

فَإِنْ لَمْ أَقُلْ حَقًّا كَذَبْتُ عَلَى الْهَوَى ... وَإِنْ قُلْتُ إِنِّى عَاشِقٌ بُحْتُ بِالسِّرِّ(٢)

وقال :

يَا رُبَّ بَيْضَاءَ مِنَ الْجَوَارِى ... جَاءَتْ بِطِفْلٍ أَسْوَدٍ كَالْقَارِ(١)

أَخْرَجَهُ مِنْ لُجَّةِ الْأَنْوَارِ ... مَنْ أَخْرَجَ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ(٢)

* سُبْحَانَهُ مِنْ فَاعِلٍ مُخْتَارِ *

وَقَالَ فى غَرَضٍ :

لَعَمْرِى لَقَدْ أَيْقَظْتُ مَنْ كَانَ رَاقِدًا ... وَأَنْذَرْتُ ،لَكِنْ لَمْ تَكُنْ تَنْفَعُ النُّذْرُ(١)

نَصَحْتُ فَكَذَّبْتُمْ ، فَلَمَّا أَتَى الرَّدَى ... عَمَدْتُمْ لِتَصْدِيقِي وَقَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ(٢)

---

(٢) عراك : قصدك طالباً رفدك (بكسر فسكون) وعطاءك ومعروفك والكرامة : اسم من الإكرام أو التكريم . وعار : عريان (بضم فسكون) ، صفة من عرى الإنسان من ثيابه (كرضى عُرْياً بضم فسكون).

(١) الهوى : الحبّ . ويزرى : يحقّر ويعيب ،تقول: أزريت به إزراء ، أى حقّرته وهوّنته ، وعبته ، وزريت عليه (من باب رمى) أى عبته .

(١) الجوارى: جمع جارية ، وهى الفتيّة من النساء . وجاءت بطفل : ولدت طفلا . والقار : شىء أسود تطلى به الإبل والسفن يمنع الماء أن يدخل ، أوهو الزفت (بكسر فسكون) .

(٢) اللّجّة : معظم الماء ، على تشبيه الأنوار بالبحار .

(١) راقداً : نائماً . والنذر (بفتح النون أو ضمها) ، اسم من أنذره بالأمر إنذاراً ، أى أعلمه وحذّره وخوفّه فى إبلاغه ، أوهى (بضمتين) جمع نذير ، وسكنت الذال لضرورة الوزن .

(٢) الردى : الهلاك . وعمد للشىء : قصد له ، (وبابه ضرب).

فَلَمْ يَبْقَ فى أَيْدِيكُمُ غَيْرُ حَسْرَةٍ وَلَمْ يَبْقَ عِنْدِى غَيْرُ مَا عَافَهُ الصَّدْرُ(٣)
فَجاءَ الَّذِى كُنْتُمْ تَخَافُونَ شَرَّهُ وَزَالَ الَّذِى لَمْ يَبْقَ مِنْ بَعْدِهِ شِعْرُ(٤) *

---

(٣) الحسرة : الحزن ، وأشدّ التلهّف على الشيء الفائت . وعافه : كرهه . ويشير بما عافه الصدر إلى مايشعر به من الكمد والغيظ .

(٤) يقول : إنهم وقعوا فيما كانوا يخافونه من الشرّ والمكروه، وزال عنهم ما كانوا يتمتّعون به من نعيم وعزّ وأمن وطمأنينة ، حتى أسكتت المصيبة لسان الشعر ، فلم يقو على قول . ويصحّ أن يكون الشعر فى البيت بمعنى الشعور والفطنة .

* يفهم من هذه الأبيات أن زملاء الشاعر فى قيادة الثورة العرابية تغافلوا عن نذره ، وآرائه ، ونصائحه فى السياسة والحرب ، وخطط التحصين والدفاع ؛ فلم يبق لديهم – بعد الانهزام – غير الندامة والحسرة ، ولم يبق لديه غير الكمد والغيظ . ومعنى هذا : أنه على إثر النكبة الكبرى التى أصابت مصر بخسران السياسة والحرب ، وسيطرة الاحتلال العسكرى الإنجليزى فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ م – نظم الشاعر هذه الأبيات. ويمكن ربطها بخمسة أبيات نونيّة لم ترد فى ديوانه ، ولكنّ صديقيه الشيخين : « ياقوت المرسى » « وعطية حسنين » نسباها إليه فى مقدّمة مراثى الشعراء التى جمعها صديقه « خليل مطران » صاحب الجوائب المصرية ، ونشرها سنة ١٩٠٥ وفى هذه المقدّمة ، أو الترجمة التى كتبها هذان الشيخان : أنه لما شبّت نار الحرب بين إنجلترا ومصر فى الثورة العرابية ، دعاه رجالها ، فأجابهم على كره منه ، بعد أن نصح لهم . وفى ذلك يقول :

نَصَحْتُ قَوْمِى ، وَقُلْتُ : الْحَرْبُ مَفْجَعَةٌ وربَّمَا تاحَ أَمْرٌ غَيْرُ مَظْنُونِ
فَخَالَفُونِى ، وشَبُّوها مُكابَرَةً وكان أَوْلَى بقومى لو أَطاعُونِى
تَأْتِى الْأُمُورُ على ما ليس فى خَلَدٍ وَيُخْطِئُ الظنُّ فى بعضِ الْأَحَايِينِ
حَتَّى إذا لم يَعُدْ فى الْأَمْرِ مَنْزَعَةٌ وأَصْبحَ الشرُّ أَمْرًا غَيْرَ مَكْنُونِ
أَجَبْتُ إذْ هَتَفُوا باسْمِى ، وَمِنْ شِيَمِى صِدْقُ الْوَلاءِ ، وتحقيقُ الْأَظانِينِ

فالأبيات النونيّة سابقة قبيل اتّقاد الثورة العرابيّة . والأبيات الرائيّة لاحقة بُعَيْدَ خمودها . وفى هذه وهذه نُصْحٌ ، وإنذارٌ ، ومخالفة ومكابرة .

وقال :

صَبَرْتُ عَلَى رَيْبِ هَذَا الزَّمَانِ وَلَوْلَا الْمَعَاذِرُ لَمْ أَصْبِرِ[١]
فَلَا تَحْسَبَنِّي جَهِلْتُ الصَّوَابَ وَلَكِنْ هَمَمْتُ فَلَمْ أَقْدِرِ[٢]
ثَنَتْ عزمَتِي ثَوْرَةُ الْمُفْسِدِينَ وغَلَّتْ يَدِي فَتْرَةُ الْعَسْكَرِ[٣]
وَكُنَّا جميعاً ، فَلَمَّا وَقَعْتُ صَبَرْتُ ، وَغَادَرَنِي مَعْشَرِي[٤]
ولَوْ أَنَّنِي رُمْتُ إِعْنَاتَهُمْ لَقُلْتُ مَقَالَةَ مُسْتَبْصِرِ[٥]
وَلَكِنَّنِي حِينَ جَدَّ الْخِصامُ رَجَعْتُ إِلَى كَرَمِ الْعُنْصُرِ[٦]*

---

(١) ريب الزمان : صروفه وحوادثه . والمعاذر : جمع معذرة (بفتح الميم وسكون العين وتثليث الذال) ، وهى اسم بمعنى العذر ، وهو رفع اللوم .

والمعنى : أنه صبر على صروف زمانه وحوادثه ، واضطر إلى الرضا والاستسلام ، ولولا أعذاره من ثورة المفسدين ، وقلّة الأنصار والأعوان ما صبر على هذه الحال السيئة . جعل ما صرّح به فى الأبيات الآتية من عدم القدرة ، وثورة المفسدين ، وفترة العسكر ، وتخلّى الأنصار والأعوان — أعذاراً تبرئ ساحته ، وترفع عنه اللوم إذا هو صبر واستسلم .

(٢) هممت بالشىء همًّا (من باب ردّ) : أردته ولم أفعله ، والهمّ : أول العزيمة .

(٣) ثناه : كفّه وصرفه عن حاجته . والعزمة : الاجتهاد والجدّ فى الأمر ، كالعزيمة ، أو هى اسم مرة من عزمت على كذا (من باب ضرب) أى أردت فعله ، وعقدت عليه ضميرى . وغللت يده (من باب رد) : ربطتها إلى عنقه بالغلّ (بضم الغين وتشديد اللام) ، وهو طوق من حديد يجعل فى العنق . والفترة : الانكسار والضعف .

يقول : إن ثورة المفسدين أضعفت عزيمته ، وفترة العسكر ربطت يده ، فلم يستطع عملا .

(٤) جميعا : مجتمعين متفقين . وغادرنى : تركنى . ومعشرى : قومى ورهطى ، والمعشر : كلّ جماعة أمرهم واحد .

(٥) رمت : قصدت وأردت . وإعناتهم : إدخال العنت والمشقّة والشدّة عليهم ، والعنت أيضاً : الفساد والإثم والهلاك ، وأعنته إعناتا : أوقعه فى العنت . والمستبصر : المستبين للشىء .

يقول : ولو أننى أردت إعنات معشرى وقومى ، وتأثيمهم ، والإضرار بهم — لقلت ما يضرّهم ويعنتهم ، لأنى بصير بأحوالهم . يربأ بنفسه فى أشدّ أزماته عن الوشاية والإيقاع بغيره .

(٦) جدّ الخصام : اشتدّ . والعنصر (بضم الصاد وفتحها) : الأصل والحسب .

* فى كتاب « تاريخ مصر السياسىّ فى الأزمنة الحديثة لمحمّد رفعت ، طبعة سنة ١٩٣٤ ص ٢١٦

وَقَال وَهُوَ فى السِّجْنِ :

شَفَّنِى وَجْدِى ، وأبْلاَنِى السَّهَرْ ... وتَغَشَّتْنِى سَمَادِيرُ الْكَدَرْ (١)

فَسوادُ اللَّيْلِ ما إنْ يَنْقَضِى ... وَبَيَاضُ الصُّبْحِ مَا إنْ يُنْتَظَرْ (٢)

لَا أَنِيسٌ يَسْمَعُ الشَّكْوَى ، وَلَا ... خَبَرٌ يَأْتِى ، وَلَا طَيْفٌ يَمُرْ (٣)

بَيْنَ حِيطَانٍ وَبَابٍ مُوصَدٍ ... كُلَّمَا حَرَّكَهُ السَّجَّانُ صَرْ (٤)

٢١٧ : أن عرابى انخدع بكلام « دلسبس » ومكايد الإنجليز. ولما انتقل بضباطه وجنده من كفر الدوار إلى التلّ الكبير ، طلب مزيداً من الجند، فأمدّه بعض المديرين بمجنّدين غير مدرّبين ، يجهلون النظم الحربيّة، أى بقوّات غير نظامية يقودها «محمود سامى البارودى» و «على الروبى» فلعلّ هذا البيان التاريخىّ الوجيز يكشف الجوّ النفسىّ ، والتاريخ الذى نظم فيه البارودىّ هذه الأبيات وأمثالها؛ فهو يميز الخطأ من الصواب ، ويحكم التقدير والتدبير ؛ فتغلّ يده ، وتثنى عزيمته ثورة المفسدين ، وفترة العسكر . وفى بعض المواقع انفض من حوله جنده ، وفى هذا يقول :

هُمُ عَرَّضُونِى لِلْقَنَا ، ثُمَّ أَعْرَضُوا ... سِراعاً ، وَلَمْ يَطْرُقْ من الشَّرِّ طارِقُ

يضاف إلى هذا أن الغالبين افتنّوا فى تحطيم معنويّات المنهزمين الذين تَلَفُّهُم ظلمات السجون، وسعوا بينهم بالنميمة، حتى ساء ظنّ بعضهم ببعض، ووهنت الأواصر التى جمعتهم على الجهاد والجلاد؛ وفى ظلمة هذا الجوّ النفسىّ، وَوَهْدَةِ هذا الضعف البشرىّ نظم البارودىّ مثل هذه الأبيات: «وكنّا جميعاً، فلمّا وقعت . . . ولو أنّنى رمت إعناتهم . . . وصلتها واضحة وثيقة بأربعة الأبيات السابقة : لعمرى ، لقد أيقظت من كان راقداً . . . ؛ فالجوّ النفسىّ واحد ، وفيها الأسف على ما صارت إليه الأمور .

(١) شفّنى : لذع قلبى ، أوهزلنى وأنحلنى. والوجد : الحزن والهم . وأبلانى : أخلقنى وهزلنى وأضعفنى. وتغشتنى : جاءتنى وأصابتنى . والسمادير : جمع سمدور (كعصفور) وهو غشاوة العين، أو السمادير: ضعف البصر ، أو شىء يتراءى للإنسان من ضعف بصره . والمراد بسمادير الكدر: ظلماته وهمومه .

(٣) الطيف : الخيال الطائف فى المنام .

يقول : إنه حرم الأنيس الذى يزيل وحشته ويستمع لشكواه، وتقطّعت بينه وبين أهله وصحبه الأسباب ، فلا تصل إليه أخبارهم ، ولا يمرّ به طيفهم .

(٤) موصد : مغلق . وصرّ : صوّت ، واسم ذلك الصوت الصرير .

يَتَمَشَّى دُونَهُ ، حَتَّى إِذَا لَحِقَتْــهُ نَبْأَةٌ مِنِّى اسْتَقَرْ(٥)
كُلَّمَا دُرْتُ لِأَقْضِى حَاجَةً قَالَتِ الظُّلْمَةُ : مَهْلاً ، لاَ تَدُرْ(٦)
أَتَقَــرَّى الشَّىْءَ أَبْغِيهِ ، فَلَا أَجِدُ الشَّىْءَ ، وَلَا نَفْسِى تَقَرْ(٧)
ظُلْمَةٌ مَا إِنْ بِهَا مِنْ كَوْكَبٍ غَيْرُ أَنْفَاسٍ تَرَامَى بِالشَّرَرْ(٨)
فَاصْبِرِى يَا نَفْسُ حَتَّى تَظْفَرِى إِنَّ حُسْنَ الصَّبْرِ مِفْتَاحُ الظَّفَرْ(٩)
هِىَ أَنْفَاسٌ تَقَضَّى ، وَالْفَتَى حَيْثُمَا كَانَ أَسِيرٌ لِلْقَدَرْ(١٠)*

---

(٥) دونه : على مقربة منه . والنبأة : الصوت الخفىّ . واستقرّ : ثبت و وقف .
يريد أن السجّان يتسمّع إلى حركاته ، ويبالغ فى حراسته .

(٦) المعنى : أنه فى ظلام حالك ، لا يستطيع فيه أن يعمل عملا .

(٧) أتقرّى الشىء : أتتبعه . والمراد أتلمّسه بيدى فى هذه الظلمة الحالكة . وتقرّ (بكسر القاف وفتحها) : تستقرّ وتسكن وتطمئنّ .

(٨) « إن » و« من » زائدتان فى الشطر الأول . ويريد بالظلمة : ظلمة السجن . ويريد بالأنفاس : أنفاسه الحارّة المنبعثة عن الهمّ والحزن . وترامى : أصلها تترامى ، أى ترمى . والشرر : جمع شررة (بفتحتين) ، وهى الشرارة التى تتطاير من النار .
يقول : ليس بالظلمة التى أنا فيها كوكب يضيئها ، وإنّما بها أنفاس حسرة وألم تقذف شرراً يكاد يثقب هذه الظلمة .

(١٠) تقضّى : أصلها تتقضّى ، أى تفنى وتنصرم وتنقضى . والقدر (بفتحتين) : : قضاء الله تعالى وحكمه .

* فى الأصل المخطوط لديوان البارودى جاءت هذه القصيدة فى عشرة أبيات ، طمس نصفها الأول أى خمسة الأبيات الأولى منها ، كما طُمس عنوانها ؛ وبجهد ومضاناة قرأناها ، ونشرناها كاملة ، محقّقة ، مشروحة فى الطبعة الأولى للجزء الثانى سنة ١٩٤٢ وفيما تلاها من الطبعات . وتاريخ نظمها واضح ، لاريب فيه ؛ فى أعقاب الهزيمة قبض على البارودىّ ورفاقه قادة الثورة العرابية . وفى غياهب السجن قال هذه الرائيّة فى مثل الجوّ النفسىّ الذى نظم فيه المقطوعتين السابقتين ، وأمثالهما من القصائد ، والمقطوعات ، والأبيات : أى جوّ الكمد ، والأسف ، والوجد ، والأرق والقلق ، والاستسلام للقدر . . .

وَكَتَبَ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِى صَدْرِ رِسالة :

لَئِنْ فَرَّقَتْ مَا بَيْنَنَا شُقَّةُ النَّوَى ... لَعَمْرِى، وَحَالَتْ دُونَنَا نُوَبُ الدَّهْرِ(١)

فَشَخْصُكَ فى عَيْنِى ،وَذِكْرُكَ فِى فَمِى ... وَحُبُّكَ فِى قَلْبِى، وَسِرُّكَ فى صَدْرِى(٢)

وَقالَ فى النَّصِيحَة :

مَنْ طَلَبَ الْعِزَّ بِلَا آلَةٍ ... أَدْرَكَهُ الذُّلُّ مَكانَ الظَّفَرْ(١)

فَاصْبِرْ عَلَى الْمَكْرُوهِ تَظْفَرْ بِما ... شِئْتَ ،فَقَدْ حازَ الْمُنَى مَنْ صَبَرْ(٢)

وَقِفْ إِذَا مَا عرَضَتْ شُبْهَةٌ ... فَاللُّبْثُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْغَرَرْ(٣)

ولاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ مَضَى ... يَا لَيْتَهُ دَامَ ، وَخُذْ مَاحَضَرْ(٤)

ولَا تُعَامِلْ صاحِباً بِالَّتِى ... تَرْجِعُ عَنْهَا تَائِباً تَعْتَذِرْ(٥)

وَغُضَّ مِنْ طَرْفِكَ إِنْ خِفْتَهُ ... فَحَاجِبُ الشَّهْوَةِ غَضُّ الْبَصَرْ(٦)

---

(١) شقّة النوى : بعد الدار . ونوب الدهر : نوازله وحوادثه وصروفه .

(١) يريد أن للعزّ وسائل وأسباباً وصفات لا يدرك إلا بها، فمن أهمل هذه الوسائل ذلّ وأخفق .

(٢) حاز : نال وجمع . والمنى : الأمانىّ والمقاصد والآمال، واحدتها منية (بضم فسكون) .

(٣) قف : تريّث وتأنّ . والشبهة : الالتباس ، والأمر الخفىّ يحتاج إلى النظر والتثبّت. واللّبث : (بفتح اللام) : مصدر لبث ، أى مكث ، (وبابه فهم)، والاسم اللّبث (بضم اللام) . والغرر : الخطر والتهلكة ، وهو اسم من غرّر المرء بنفسه تغريراً ، أى عرّضها للهلاك والضرر .

(٦) غضّ من طرفك : المراد اصرف نظرك عما لا يليق ولا يحلّ ، يقال : غضّ الرجل طرفه ، ومن طرفه ، أى خفضه ، وكلّ شىء كففته فقد غضضته (وبابه ردّ) . والطرف (بفتح فسكون) : النظر والبصر . والضمير المنصوب فى «خفته» يعود على الطرف . وحاجب الشهوة : مانعها .

وقال :

وَنَبْأَةٍ أَطْلَقَتْ عَيْنَيَّ مِنْ سِنَةٍ كَانتْ حِبالَةَ طَيْفٍ زَارَ فِي سَحَرَا[١]
فَقُمْتُ أَسْأَلُ عَيْنِي رَجْعَ مَا سمِعتْ أُذْنِي، فَقَالَتْ :لَعَلِّي أَبْلُغُ الْخَبَرَا[٢]
ثُمَّ اشْرَأَبَّتْ ، فَأَلْفَتْ طَائِرًا حَذِرًا عَلَى قَضِيبٍ يُدِيرُ السَّمْعَ والْبَصَرَا[٣]
مُسْتَوْفِزًا يَتَنَزَّى فَوْقَ أَيْكَتِهِ تَنَزِّىَ الْقَلْبِ طَالَ الْعَهْدُ فَادَّكَرَا[٤]
لَا تَسْتَقِرُّ لَهُ سَاقٌ عَلَى قَدَمٍ فَكُلَّمَا هَدَأَتْ أَنْفَاسُهُ نَفَرَا[٥]
يَهْفُو بِهِ الْغُصْنُ أَحْيَاناً ، وَيَرْفَعُهُ دَحْوَ الصَّوَالِجِ فِي الدَّيْمُومَةِ الْأُكَرَا[٦]

---

(١) النبأة : الصوت الخفيّ . والسنة: النعاس . والحبالة : المصيدة . والطيف : الخيال الطائف في المنام . والسحر : الوقت قبيل الفجر .

والمعنى : أنه كان يرى في منامه قبيل الصبح طيف الحبيب ، فسمع صوتاً خفيًّا فأيقظه ، ونبّهه من نومه .

(٢) رجع : مصدر رجعت إليه الشيء (من باب قطع) ، أى رددته ، وهذيل تقول : أرجعته إرجاعاً

يقول : فانتبهت ، فسألت عيني أن تردّ إليّ ما سمعتْه أذني ، أى تدلّني على مصدر ذلك الصوت الذى نبّهني ، فأجابتْني بأنها ترجو أن تبلغ خبره ، وتصل إلى حقيقة أمره . والمعنى : أنه لما سمع ذلك الصوت الذى نبّهه وأيقظه جعل يبحث بعينيه عن مبعثه ومصدره .

(٣) اشرأبّت : ارتفعت . وألفت : وجدت . وحذراً : خائفاً محترساً . وقضيب : غصن.

(٤) مستوفزاً (بصيغة اسم الفاعل) : غير مطمئنّ ، قدتهيّأ للوثوب والطيران. ويتنزّى : يثب . والأيكة : الشجرة ذات الأغصان الكثيرة الملتفّة .

يقول : إن هذا الطائر غير مطمئنّ ولا مستقرّ ، ولكنّه يتنقّل ويثب فوق أيكته وثوب قلبِ الإنسان طال عليه العهد بفراق أحبابه ، فتذكّرهم فخفق واضطرب .

(٦) يهفو : يميل ويهتزّ . والدحو : مصدر دحا اللاعب الكرة ونحوها (من باب دعا) ، أى دفعها ورماها بيده . والصولجان : عصا معوجّة يعطف طرفها ، وتضرب بها الكرة ، وجمعه صوالجة . والديمومة : الأرض المستوية . والأكر : جمع أكرة (كغرفة) ، وهي الكرة التي يلعب بها .

والمعنى : أن الغصن يميل بهذا الطائر ، ويهتزّ بين انخفاض وارتفاع ، كرمي الكرات بالصوالجة في الأرض المستوية . ودحو الصوالج من إضافة المصدر إلى فاعله ، والأكر مفعوله .

مَا بَالُهُ وَهْوَ فِى أَمْنٍ وَعَافِيَـــةٍ لَا يَبْعَثُ الطَّرْفَ إِلَّا خَائِفاً حَذِرَا؟ ٧

إِذَا عَلَا بَاتَ فِى خَضْرَاءَ نَاعِمَةٍ وَإِنْ هَوَى وَرَدَ الْغُدْرَانَ ، أَوْ نَقَرَا(٨)

يَا طَيْرُ نَفَّرْتَ عَنِّى طَيْفَ غَانِيَةٍ قَدْ كَانَ أَهْدَى لِىَ السَّرَّاءَ حِينَ سَرَى(٩)

حَوْرَاءُ كَالرِّئْمِ أَلْحَاظاً إِذَا نَظَرَتْ وَصُورَةِ الْبَدْرِ إِشْرَاقاً إِذَا سَفَرَا(١٠)

زَالَتْ خَيَالَتُهَا عَنِّى ، وَأَعْقَبَهَا شَوْقٌ أَحَالَ عَلَىَّ الْهَمَّ وَالسَّهَرَا(١١)

فَهَلْ إِلَى سِنَةٍ إِنْ أَعْوَزَتْ صِلَةٌ عَوْدٌ نَنَالُ بِهِ مِنْ طَيْفِهَا الْوَطَرَا؟(١٢)

وقال :

مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى السَّاهِرِ ! أَمَا لِهذَا اللَّيْلِ مِنْ آخِرِ ؟(١)

يَا مُخْلِفَ الْوَعْدِ ! أَلَا زَوْرَةٌ أَقْضِى بِهَا الْحَقَّ مِنَ الزَّائِرِ ؟(٢)

---

(٨) هوى : سقط ، ونزل على الأرض . والغدران : الجداول ومجارى الماء ، جمع غدير ، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل . ونقر الطائر الحبّة : التقطها بمنقاره .

(٩) الغانية : الجارية الحسناء الغنيّة بحسنها عن الزينة . وسرى : سار ليلا .

(١٠) حوراء : بيضاء، أوفى عينيها حور، وهو أن يشتدّ بياض العين وسوادها، وتستدير حدقتها ، وترقّ جفونها، ويبيضّ ماحواليها . والرئم: الظبى الخالص البياض تشبّه به الحسناء فى جمال العينين . والألحاظ : جمع لحظ (بفتح فسكون) وهو النظر بمؤخر العين ، ومن كلامهم : فتنته ألحاظها ولحظاتها . وسفر : أضاء .

(١١) خيالتها : خيالها وطيفها . وأعقبها : خلفها ، وجاء بعدها .

(١٢) السنة (بكسر السين) : النعاس . وأعوزه الشيء: إذا احتاج إليه فلم يقدر عليه . والوطر : الحاجة والأرب .

يتمنّى أن يعود إليه النعاس ليعود معه طيفها ، فينال حاجته من الاستمتاع به ما دام التقاؤه بشخصها متعذّراً .

(٢) الزورة : اسم مرة من الزيارة .

تَرَكْتَنِي مِنْ غَمَرَاتِ الْهَوَى فِى لُجِّ بَحْرٍ بِالرَّدَى زَاخِرِ[٣]

أَسْمَعُ فِى قَلْبِى دَبِيبَ الْمُنَى وَأَلْمَحُ الشُّبْهَةَ فِى خَاطِرِى[٤]

فَتَارَةً أَهْدَأُ مِنْ رَوْعَتِى وَتَارَةً أَفْزَعُ كَالطَّائِرِ[٥]

وبَيْنَ هَاتَيْنِ شَبَا لَوْعَةٍ لَهَا بِقَلْبِى فَتْكَةُ الثَّائِرِ[٦]

فَهَلْ إِلَى الْوُصْلَةِ مِنْ شَافِعٍ ؟ أَمْ هَلْ عَلَى الصَّبْوَةِ مِنْ نَاصِرٍ ؟[٧]

يَا قَلْبُ لَا تَجْزَعْ ، فَإِنَّ الْمُنَى فِى الصَّبْرِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِ[٨]

---

(٣) غمرات الهوى : شدائد الحبّ ، وهمومه ، وأوصابه. و «من» هنا سببيّة ، أو بيانية لكلمة «بحر» فى الشطر الثانى . ولجّ البحر : عرضه ، أو معظمه ، أو الماء الكثير الذى لايرى طرفاه . والردى : الهلاك . وزاخر : طام ممتلىء .

يقول : إنّ حبيبه تركه فى شبه بحر لجىّ ممتلىء بأسباب الهلاك ، وذلك لكثرة ما يعانيه من شدائد الهوى ، وأوجاع الحبّ .

(٤) الدبيب : السير اللطيف اللين . والمنى : الأمانى والآمال ، واحدتها منية (بضم فسكون) . وألمح : أرى ، مضارع لمحت الشىء (من باب نفع) ، أى نظرت إليه باختلاس البصر . والشبهة : الالتباس والشكّ . والخاطر : مايخطر بالبال ، ويتحرك فى القلب من رأى أو معنى .

ومعنى البيت : أنه يعيش بين الأمل والشكّ ، فإذا انتعشت نفسه بالآمال مرّة كدّرها ما يخطر على باله من الشكّ فى تحقّق هذه الآمال .

(٥) الروعة : الفزعة ، وهى اسم مرة من الروع ، بمعنى الفزع والخوف .

(٦) وبين هاتين: أى بين حالتى الهدوء والفزع . والشبا : جمع شباة ، وهى حدّ كل شىء . واللوعة : حرقة فى القلب ، وألم من حبّ ونحوه . والفتكة : اسم مرة من الفتك ، وهو البطش والقتل غرّة .

(٧) الوصلة : الاتّصال . والمراد بالصبوة : الهوى والغرام .

يتمنّى شافعاً وسيطاً يمهّد له سبيل الوصال ، أو ناصراً يعينه على الصبوة والغرام .

(٨) الجزع : نقيض الصبر .

وَقَالَ يُؤَرِّخُ عَوْدَةَ " إِسْمَاعِيلَ بَاشَا " خديو مِصْرَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ الْعَلِيَّةِ *

رَجَعَ الْخِدِيوِ لِمِصْرِهِ　　وَأَتَتْ طَلَائِعُ نَصْرِهِ (١)

وَتَهَلَّلَتْ بِقُـدُومِهِ　　فَرَحاً أَسِرَّةُ عَصْرِهِ (٢)

فَلْتَبْتَهِجْ أَوْطَانُهُ　　بِحُلُولِهِ فِي قَصْرِهِ (٣)

وَلْيَشْتَهِرْ تَارِيخُهُ　　رَجَعَ الْخِدِيو لِمِصْرِهِ (٤)

٢٧٣ + ٦٥١ + ٣٦٥ = ١٢٨٩ هـ

وَقَالَ فِي " محمد تَوْفِيق باشا " حِينَ عُيِّنَ نَاظِرَ النُّظَّارِ ** :

بِكَ اسْتَقَامَتْ مِصْرُ حَتَّى غَدَتْ　　يَحْمَدُهَا الْوَارِدُ وَالصَّادِرُ (١)

---

* يريد بدار الخلافة : مدينة القسطنطينيّة حاضرة الدولة العثمانية ، ومقرّ الخليفة حينئذ .

وفى سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) سافر الخديو إسماعيل إلى الآستانة (القسطنطينية) . وبمساعيه لدى السلطان العثمانى والصدر الأعظم صدر فرمان سنة ١٨٧٢ الذى ألغى فرمان سنة ١٨٦٩ ، وأيّد الفرمانات السابقة له ، وأعطى مصر والخديويّة المصريّة حقوقاً تؤسّس استقلال مصر الداخلىّ ، وتخوّل الخديو حقّ عقد القروض الماليّة .

(١) طلائع النصر: أسبابه ومقدّماته ، المفرد طليعة ، وهو فى الأصل من يبعث ليطّلع طِلْعَ العدوّ

(٢) تهلّلت : تلألأت وأشرقت. وأسرّة الوجه : خطوطه ومحاسنه ، واحدها سرار (ككتاب) . والعصر : الزمان .

شبّه العصر بإنسان ، وقال : إن أساريره تلألأت من الفرح بقدوم الممدوح .

(٣) تبهج : تفرح وتسرّ .

** فى ١٨ من فبراير سنة ١٨٧٨ قامت فى القاهرة مظاهرة عسكريّة بزعامة أحمد دربى المدرسة الحربيّة تعلن السخط على وزارة « نوبار » التى أحالت إلى الاستيداع ألفين وخمسمائة من ضباط الجيش . وتعدّ هذه المظاهرة نذيراً ، أو مقدّمة للثورة العرابيّة . وبقيت الحالة قلقة حتّى انتهت بسقوط وزارة « نوبار » ، وتأليف وزارة جديدة برياسة الأمير « محمد توفيق » بن الخديو « إسماعيل » ولكنّها ما لبثت أن سقطت بعد نحو شهر من تأليفها ، بسبب السخط الذى عمّ البلاد . وفى السابع من أبريل سنة ١٨٧٩ تألّفت وزارة وطنيّة برياسة « محمد شريف » .

(١) استقامت مصر : صلحت أمورها . وغدت : صارت . والوارد والصادر : الغادى والرائح ، والمراد الناس جميعاً ، الأولى من الورود ، وهو الإشراف على الماء ، والثانية من الصدور ، وهو الرجوع عنه .

وَكَيْفَ لَا تُبْصِرُ قَصْدَ الْهُدَى   حُكُومَــةٌ أَنْتَ لَهَا نَاظِرُ ؟[٢]

وقال :

أَغُــرَّةٌ   تَحْتَ   طُرَّةْ   أَمْ نُورُ فَجْرٍ بِسُحْرَةْ ؟[١]
وَذَاكَ   فَرْعٌ   وَنَهْدٌ   أَمْ صَوْلَجَانٌ وَأُكْرَةْ ؟[٢]
سَمْرَاءُ   تَهْفُو   بِقَدٍّ   كَالرُّمْحِ لِيناً وَسُمْرَةْ[٣]
مَرَّتْ   عَلَيَّ   تَهَادَى   مِثْــلَ الْمَهَاةِ بِشُبْرَةْ[٤]
فَقُلْتُ : يَا نُورَ عَيْنِي!   مَالِي عَلَى الصَّبْرِ قُدْرَةْ[٥]
فَنَــقَّبَتْ   وَجْنَتَيْهَا   يَدُ الْحَيَاءِ بِحُمْرَةْ[٦]
وَقَالَتِ : اسْكُتْ ، وَإِلَّا   تَصِيرُ فِي النَّاسِ شُهْرَةْ[٧]
فَقُلْتُ هَلْ مِنْ وِصَالٍ   يَكُونُ لِلْحُبِّ أُجْرَةْ ؟[٨]
فَاسْتَضْحَكَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ   عَلَى الْخَدِيعَةِ بُكْرَةْ ![٩]

---

(٢) القصد : استقامة الطريق ، والقصد : العدل ، والمراد بقصد الهدى : طريق السداد والرشاد . وناظر الحكومة : رئيسها ، وفى هذه الكلمة تورية ، لأنّ الناظر : سواد العين الأصغر وإنسانها .

(١) الغرّة فى الأصل : بياض مستحسن فى جبهة الفرس ، والمراد بها هنا : بياض الوجه وإشراقه . والطرّة : الشعر الذى تطرّه الجارية وتصفّفه فوق جبهتها . والسحرة : السحر الأعلى ، وهو الوقت قبيل الصبح .

(٢) الفرع : الشعر التامّ . والنهد : الثدى . والصولجان : عصاً معوجّة ، يعطف طرفها ، وتضرب بها الكرة . والأكرة : الكرة .

شبّه شعرها الطويل التام المسترسل فوق ثديها بالصولجان ، وشبّه ثديها بالكرة .

(٣) تهفو : تميل وتهتزّ . والقدّ : اعتدال القامة ، وجمال الطول ، وحسن التقطيع .

(٤) تهادى : أصلها تتهادى ، أى تتمايل فى مشيتها وتتبختر . وشبرى (كسكرى) : من ضواحى القاهرة .

(٦) نقّبت : غطّت ، ولم نعثر عليها بهذا المعنى فيما بين أيدينا من المعجمات ، و مما يقال : تنقّبت المرأة وانتقبت ، أى غطّت وجهها بالنقاب ، وهو القناع ونحوه . والوجنتان : ما ارتفع من لحم الخدّين .

(٧) الشهرة (بضم فسكون) : ظهور الشىء فى شنعة . ورفع المضارع وهو (تصير) هنا ضعيف .

(٩) استضحكت : ضحكت . وعلى الخديعة : مخادعة مخاتلة . والبكرة : الغداة ، وهى أول النهار وقد فشا استعمالها فى مصر بمعنى الغد .

وقال :

غَادَةٌ كَالْمَهَاةِ تَهْفُو بِخَصْرٍ ... تَحْتَ بَنْدٍ كَمِعْصَمٍ فِي سِوارِ(١)

تِلْكَ عَمْرِى هِيَ الْحَيَاةُ ، فَلَا تُؤْ ... ثِرْ عَلَيْهَا جَلَائِلَ الْأَوْطَارِ(٢)

فَاقْسِمِ الْعُمْرَ بَيْنَ جِدٍّ ، وَهَزْلٍ ... وَوَقَارٍ طَوْرًا ، وَخَلْعِ عِذَارِ(٣)

وَاسْعَ تَبْلُغْ مَا رُمْتَهُ مِنْ نَفِيسٍ ... فَالْمَسَاعِي مَدَارِجُ الْأَحْرَارِ(٤)

قَدْ يَنَالُ الْفَتَى إِذَا كَانَ شَهْمًا ... مُبْتَغَاهُ فِي ضَحْوَةٍ مِنْ نَهَارِ(٥)

وقال :

أُصَافِي خَلِيلِي مَا صَفَا لِي ، فَإِنْ جَفَا ... عَتَبْتُ عَلَيْهِ غَيْرَ جَافٍ ، وَلَا وَعْرِ(١)

---

(١) الغادة : الفتاة الناعمة الليّنة . والمهاة : الشمس ، والبقرة الوحشيّة تشبّه بها المرأة فى جمال العيون واتّساعها ، والمهاة أيضاً : البلّورة . وتهفو: تميل . والخصر: وسط الإنسان . والبند : الحزام والمنطقة ونحوهما . والمعصم : موضع السوار من اليد . والسوار (ككتاب وغراب) : حلى تزيّن به المرأة معصمها .

(٢) عمرى : حياتى ، وهو تركيب للقسم (بفتحتين) ، معناه : عمرى قسمى ، أى أقسم بحياتى . ولاتؤثر : لاتفضّل . والأوطار : الحاجات ، مفردها وطر (بفتحتين) .

يقسم إنّ هذه الغادة هى الحياة الناعمة السعيدة ، ويرى أن يلهو معها ، ويتمتّع بها ، وألّا يقصر حياته على تطلّب عظائم الأمور ؛ بل يكون حيناً للهوه وهواه، وحيناً لجده ومجده .

(٣) الوقار : الحلم والرزانة والحشمة . والعذار من اللجام : ماسال على خدّ الفرس ، وخلع العذار : كناية عن ترك الحشمة والوقار ، والانهماك فى الغىّ والمجون .

(٤) رمته : أردته وطلبته . ونفيس : كريم عظيم القدر . والمدارج : المسالك والمذاهب ، المفرد مدرجة أو مدرج .

(٥) الشهم: الجلد (بفتح فسكون) الذكىّ الفؤاد المتوقّد. ومبتغاه : طلبته و وطره . وضحوة النهار: بعد طلوع الشمس ، والمراد : فى وقت قصير .

(١) أصافى خليلى : أصدقه الإخاء والمودّة، وخالصه فى العشرة . وجفا : أعرض وترك البرّ والصلة، من الجفاء ، وهو نقيض الصلة والبرّ ، واسم الفاعل منه جاف. والوعر : الصعب (وزنا ومعنى).

فَإِنْ عَادَ لِي بِالْوُدِّ عُدْتُ ، وَإِنْ أَبَى ... صَبَرْتُ ، لِأَرْعَى ذِمَّةَ الْوُدِّ بِالصَّبْرِ (٢)
فَإِنْ زَادَنِي هَجْرًا ضَرَبْتُ عَنِ اسْمِهِ ... وَأَمْسَكْتُ عَنْ سُخْطِي عَلَيْهِ وَعَنْ شُكْرِي (٣)
وَمَا تِلْكَ مِنِّي نَبْوَةٌ ، غَيْرَ أَنَّنِي ... أُنَزِّهُ نَفْسِي عَنْ مُلَابَسَةِ الْغَدْرِ (٤)

وقال :

لِكُلِّ حَيٍّ نَذِيرٌ مِنْ طَبِيعَتِهِ ... يُوحِي إِلَيْهِ بِمَا تَعْيَا بِهِ النُّذُرُ (١)
يَرْجُو وَيَخْشَى أُمُورًا لَوْ تَدَبَّرَهَا ... لَزَالَ مِنْ قَلْبِهِ التَّأْمِيلُ وَالْحَذَرُ (٢)
تَرَاهُ يَسْعَى لِجَمْعِ الْمَالِ مُعْتَقِدًا ... أَنَّ الْفَتَى مَنْ لَدَيْهِ السَّامُ وَالشَّذَرُ (٣)
وَكَيْفَ تَنْقَى ثِيَابُ الْمَرْءِ مِنْ دَنَسٍ ... وَقَلْبُ لَابِسِهَا مِنْ غَدْرِهِ قَذِرُ ؟ (٤)

---

(٢) الودّ : المودّة المحبّة . وذمّة الودّ : حقّه وحرمته وعهده . ورعى الذمّة : صيانتها وملاحظتها والمحافظة عليها .

(٣) ضربت عن اسمه : سكتّ عنه ، فلم أذكره بخير ولا شرّ .

(٤) النّبوة : اسم من نبا السيف عن الضريبة إذا لم يقطع ، والمراد هنا الضعف . وملابسة الغدر : مخالطته وارتكابه .

(١) النذير : المنذر ، من الإنذار ، وهو التخويف والوعيد والتحذير ، وجمع النذير نذر (بضمتين) ، ولعله يريد بالنذير الطبيعيّ : ضمير المرء وعقله الذى ينهاه عن الهوى ، ويدعوه إلى الرشاد . ويوحى : يشير ويلهم . وتعيابه : تعجزعنه ، ولا تهتدى لوجهه .

(٢) تدبّرها : فكّر فيها ، وأحسن النظر فى عاقبتها . والتأميل : الرجاء . والحذر : الاحتراس .

والمعنى : أن الإنسان إذا تدبّر أمور الحياة ، وأحسن التفكير فى عاقبتها قنع بنصيبه منها ، وقلّ تهافته عليها ، واطمأنّت بها نفسه .

(٣) السام : الذهب والفضّة . والشذر : قطع من الذهب تلقط من معدنه ، من غير إذابة الحجارة ، أو هو اللؤلؤ الصغار ، أو فرائد تصاغ من الذهب ، يفصّل بها اللؤلؤ والجوهر ، الواحدة شذرة ، (مثل تمرة وتمر) وقد ضبطت بفتح الذال فى أصل الديوان المخطوط ، ولا نعرف وجه تحريكها . وقد يكون إتباعاً لحركة الشين قبلها .

(٤) الدنس (بفتحتين) : القذر .

يقول : إن المرء إذا دنست نفسه لم تنفعه نظافة ثوبه ، فإن دنس القلب يدنّس كلّ ما أحاط به .

يَا فَارِسَ الْخَيْلِ ، كَفْكِفْ عَنْ أَعِنَّتِهَا ... فَقَدْ شَكَتْ فِعْلَكَ الْأَحْلَاسُ وَالْعُذُرُ (٥)

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي بِهَا مَا لَسْتَ تَبْلُغُهُ ... مِنَ الْبَقَاءِ ـ فَبِئْسَ الْبُطْلُ وَالْهَذَرُ (٦)

إِنَّ الْحَيَاةَ وَإِنْ طَالَتْ ـ إِلَى أَمَدٍ ... وَالدَّهْرُ قُرْحَانُ ، لَا يُبْقِي ، وَلَا يَذَرُ (٧)

لَا يَأْمَنُ الصَّامِتُ الْمَعْصُومُ صَوْلَتَهُ ... وَلَا يَدُومُ عَلَيْهِ النَّاطِقُ الْبَذِرُ (٨)

فَاضْرَعْ إِلَى اللهِ ، وَاسْتَوْهِبْهُ مَغْفِرَةً ... تَمْحُو الذُّنُوبَ ، فَجَانِي الذَّنْبِ يَعْتَذِرُ (٩)

وَاعْجَلْ ، وَلَا تَنْتَظِرْ تَوْباً غَدَاةَ غَدٍ ... فَلَيْسَ فِي كُلِّ حِينٍ تُقْبَلُ الْعِذَرُ (١٠)

هَيْهَاتَ ، لَا يَسْتَوِي الشَّخْصَانِ فِي عَمَلٍ ... هذَا صَحِيحٌ ، وَهَذَا فَاسِدٌ مَذِرُ (١١)

---

(٥) الفارس : راكب الفرس . وكفكف : احبس واجذب ، أمر من كفكفته عن كذا ، أى صرفته ونحيته . والأعنّة : جمع عنان (ككتاب) ، وهو سير اللجام الذى تمسك به الدابّة . والأحلاس : جمع حلس (بكسر فسكون ، أو بفتحتين) ، وهو كساء على ظهر البعير والدابّة تحت الرحل والقتب والسرج . والبرذعة . والعذر (بضمتين) : جمع عذا (ككتاب) وهو ماوقع من اللجام على خدّى الفرس ونحوه . والغرض الحضّ على الرفق والاعتدال والقصد .

(٦) تبغى : تريد وتطلب . وبها أى بالخيل . والبطل : البطلان (بضم فسكون فيهما) ، مصدر بطل الشىء (من باب دخل) أى ذهب ضياعاً وخسراً . والهذر : الخطأ والباطل ، مصدر هذر كلامه (من باب فرح) : أى كثر فيه الخطأ والباطل .

يقول لفارس الخيل : إن كنت تريد بإجهاد خيلك البقاء فى هذه الحياة الدنيا ــ فقد أردت باطلاً مستحيلاً .

(٧) الأمد : الغاية . وقرحان (بضم فسكون) : سالم من الداء ، قوىّ ، شديد البأس ، وأصلها من قولهم : بعير ورجل قرحان ، للذى لم يمسّه قرح ولا جدرىّ ولا حصبة ، أو هى قرحان (بفتح فسكون) بمعنى الأسد . ويذر : يدع ويترك .

(٨) المعصوم : المصون الممنوع ، اسم مفعول من العصمة ، وهى الحفظ والوقاية . وصولته : سطوته وبطشه واستطالته . والبذر (ككتف) : الكثير الكلام .

والمعنى : أن الدهر يأتى على كلّ شىء ، ولا ينجو منه أحد .

(٩) اضرع : أمر من ضرع (كنع وفرح وكرم) أى خضع وذلّ واستكان . وجانى الذنب : مقترفه ومرتكبه .

(١٠) التوب : التوبة ، وهى الإنابة ، والرجوع عن المعصية إلى الطاعة . والغداة : أوّل النهار . والعذر (كعنب) : جمع عذرة (بكسر فسكون) ، وهى اسم بمعنى المعذرة .

(١١) مذ (بفتح فكسر) : فاسد خبيث .

وقال :

أَلَا ، هَتَفَتْ بِالْأَيْكِ سَاجِعَةُ الْقُمْرِ ... فَطُفْ بِالْحُمَيَّا ، فَهْىَ رَيْحَانَةُ الْعُمْرِ (١)

وَإِنْ أَنْتَ أَتْرَعْتَ الْأَبَارِيقَ فَلْتَكُنْ ... سُلَافاً ، وَإِيَّاكَ الْفَضِيخَ مِنَ التَّمْرِ (٢)

فَقَاتِلَةُ الْعُرْجُونِ لِلْفَاقِدِ النَّدَى ... وَصَافِيَةُ الْعُنْقُودِ لِلْمَاجِدِ الْغَمْرِ (٣)

مُوَرَّدَةٌ ، تَمْتَدُّ مِنْهَا أَشِعَّةٌ ... تَدُورُ بِهَا فِى ظِلِّ أَلْوِيَةٍ حُمْرِ (٤)

---

(١) هتفت الحمامة : سجعت وصوّتت. والأيك : الشجر الكثير الملتف ، الواحدة أيكة (بفتح فسكون). وساجعة : صفة من السجع (بفتح فسكون) ، وهو هديل الحمام وتطريبه ، وموالاة صوته على طريق واحد . والقمر: نوع من الحمام ، الواحد أقمر : (كأحمر وحمر) ، أو قمرى (كروى وروم) ، وأصله من القمرة ، وهى لون إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة . والحميا : دبيب الخمر وسورتها وشدتها ، أو إسكارها وحدتها ، والمراد بالحميا هنا : الخمر . والريحانة : واحدة الريحان ، وهو كل نبات طيب الرائحة ، والريحانة أيضاً : الطاقة من الريحان .

يقول لساقيه : إن الطيور قد هتفت على الأيك وسجعت ، وهذا كناية عن طلوع الصبح ، وحلول وقت الشرب ، ثم يأمره أن يطوف عليه وعلى ندمائه بالخمر ، فإنها (فى زعمه) أجمل شىء فى الحياة .

(٢) أترعت : ملأت . والسلاف : أفضل الخمر وأخلصها ، وذلك إذا تحلب من العنب بلا عصر. والفضيخ: شراب يتخذ من بسر مفضوخ ، أى مشدوخ مشقوق . وإياك الفضيخ : أسلوب تحذير ، وهو تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليجتنبه .

(٣) قاتلة العرجون ؛ : يريد الخمر القاتلة المأخوذة من التمر أو البسر ، وقد تقدمت الإشارة إليها فى البيت السابق ، وهى الفضيخ ، وصفها بهذا الوصف لأنها شديدة التأثير ، قوية الإسكار . والعرجون : أصل العذق (بكسر فسكون) الذى يعوج ، ويقطع منه الشماريخ ، فيبقى على النخلة يابساً ، وهو عود الكباسة وأصلها ، سمى بذلك لانعراجه وانعطافه. والندى : الجود والسخاء والعطاء . ويريد بصافية العنقود : الخمر الخالصة المتخذة من العنب ، وقد أشار إليها فى البيت السابق بالسلاف . والماجد : العزيز الشريف الكريم . والغمر (بفتح فسكون) : الكريم ، الواسع الخلق (بضمتين) السخى ، الكثير المعروف .

(٤) مورّدة : محمرّة كالورد . والألوية : جمع لواء ، وهو العلم والراية ، ويريد بالألوية الحمر : فروع الأزهار ذات اللون الأحمر ، والشاربين إغرام بتزيين مجلسهم بالأزهار .

إِذَا شَجَّهَا السَّاقُونَ دَارَ حَبَابُهَا عَلَيْهَا ، كَمَا دَارَ الشَّرَارُ عَلَى الْجَمْرِ (٥)
ثَوَتْ فِى ضَمِيرِ الدَّهْرِ وَالْجَوُّ ظُلْمَةٌ بِلَا كَوْكَبٍ ،وَالْأَرْضُ تَسْبَحُ فِى غَمْرِ (٦)
فَجَاءَتْ ، وَلَوْلَا عَرْفُهَا وَبَرِيقُهَا لَكَانَتْ خَفًا بَيْنَ الدَّسَاكِرِ كَالضَّمْرِ (٧)
تُزَفُّ بِأَلْحَانِ الْمَثَانِى كُئُوسُهَا كَمَا زُفَّتِ الْحَسْنَاءُ بِالطَّبْلِ وَالزَّمْرِ (٨)
كُمَيْتٌ جَرَتْ فِى حَلْبَةِ الدَّهْرِ ،فَانْطَوَتْ ثَمِيلَتُهَا ، وَالْخَيْلُ تُحْمَدُ بِالضُّمْرِ (٩)

---

(٥) شجّ الساقى الخمر بالماء : مزجها به. والحباب (كسحاب) النفّاخات التى تعلو الماء ونحوه ، وتسمّى أيضاً اليعاليل . والشرار : ماتطاير من النار ، واحدته شرارة (بفتح الشين فيهما) . والجمر : قطع النار المتّقدة ، الواحدة جمرة .

(٦) ثوت : أقامت . والغمر : الماء الكثير، ومعظم البحر . يبلغ فى قدم هذه الخمر ،وأنها وجدت فى أول الزمان .

(٧) عرفها : رائحتها الطيّبة . وبريقها : لمعانها وتلألؤها . والخفا : الشىء الخفى . المستور . والدساكر : جمع دسكرة (بفتح فسكون ففتح) ، وهى بيوت للأعاجم يكون فيها الشراب والملاهى ، أو بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم يكون فيها الشراب والملاهى . والضمر (بفتح فسكون) : الضمير والسرّ . .

يقول : إنها لطول قدمها قد بخر كثير من مائها ، وتمّ صفاؤها ، ولولا ريحها وبريقها لخفيت.

(٨) الألحان : الأصوات المصوغة الموضوعة ، واحدها لحن (بفتح فسكون) ومنه لحن القارئ فى قراءته (من باب قطع) ، إذا طرّب بها وغرّد ، وفلان ألحن الناس ، إذا كان أحسنهم قراءة أوغناء . والمثانى من أوتار العود : مابعد الأول ، واحدها مثنى (كمقعد) . وكئوسها : أكوابها ، واحدها كأس .

يقول : إن الخمر تدار على شاربيها على نغمات العود ، كما تزفّ العروس الحسناء إلى زوجها بالطبل والزمر .

(٩) كميت : صفة من الكمتة (بضم فسكون) ، وهى لون بين السواد والحمرة ، وتوصف الخيل بالكمتة، فيقال : فرس كميت ،وتطلق أيضاً على الخمر ،إذا كان فى لونها كمتة . والحلبة (بفتح فسكون) : مجال الخيل فى السبق . والثميلة (كسفينة) : مايكون فيه الطعام والشراب فى الجوف . وانطواء ثميلة الخيل: كناية عن ضمرها (بضم فسكون) وهزلها (بضم الهاء) وخفّة لحمها، وهذا من صفات حسنها،وهو يدلّ غالباً على نشاطها ، وسرعة عدوها . وانطواء ثميلة الخمر:كناية عن رقّتها وصفائها.والضمر(بضم فسكون) الهزال وخفّة اللحم .

استخدم الشاعر كلمة « الكميت » ،وهى من أسماء الخمر ، ومن صفات الخيل ، وكنى=

فَكَمْ بَيْنَ آصَالٍ أَدَرْنَا كُئُوسَهَا ... وَبَيْنَ لَيَالٍ مِنْ كَوَاكِبِها نُمْرِ (١٠)

إِذَا أَنْتَ قَامَرْتَ الزَّمَانَ عَلَى الْمُنَى ... بِمَا دارَ مِنْ أَقْداحِها فُزْتَ بِالْقَمْرِ (١١)

فَخُذْ فى أَفَانِينِ الْخَلَاعَةِ وَالصِّبا ... وَدَعْنِى مِنْ زَيْدِ النُّحَاةِ وَمِنْ عَمْرِو (١٢)

أُولَئِكَ قَوْمٌ فى حُروبٍ تَفَاقَمَتْ ... وَلَكِنْ خَلَتْ مِنْ فَتْكَةِ الْبِيضِ والسُّمْرِ (١٣)

=بجريها فى حلبة الدهر عن قدمها وتعتيقها ، ثم كنى بانطواء ثملها عن رقتها وصفائها وجودة عنصرها ، ثم قال : إن الضمر من الصفات المحمودة فى الخيل .

(١٠) الآصال : جمع الأصيل، وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب . ونمر (بضم فسكون) : جمع نمراء (وزان حمراء) ، وهى مافيها نمرة ، أى نكتة (بضم فسكون فيهما) بيضاء وأخرى سوداء .

يقول : إننا كثيراً ما أدرنا بيننا كئوس الخمر فى الآصال ، وفى الليالى المظلمة التى تظهر بنجومها الثاقبة كأنها الأكسية النمر (بضم فسكون) . والترتيب الذى يوضح معنى البيت : « فكم أدرنا كئوسها بين آصال ، وبين ليال نمر من كواكبها » ، أى بسبب كواكبها .

(١١) قامرت الزمان : راهنته . والمنى : الأمانى والآمال ، واحدتها منية (بضم فسكون) ، وهى ما تمناه الإنسان، ويتوق إليه . وأقداح الخمر : أكوابها وكئوسها ، واحدها قدح (بفتحتين) ، وفيها تورية بأقداح الميسر، وواحدها قدح (بكسر فسكون) ، والجمع قداح (بكسر القاف) وأقداح . والقمر (بفتح فسكون) : مصدر قمرت الرجل (من بابى نصر وضرب) ، أى غلبته فى القمار .

يقول : إذا أنت راهنت الزمان على أن احتساء الأقداح وسيلة إلى كسب المنى — فزت بالرهان .

والمعنى : أن الخمر (فى زعم شاربها) تبسط النفس، وتذهب همومها ، وتجعلها تنعم بعالم من الأمانى والأحلام والآمال .

(١٢) الأفانين : الأنواع ، جمع أفنان ، والأفنان : جمع فن . والخلاعة : المجون والاستهتار ، واطراح الحشمة والوقار . والصبا (بكسر الصاد) : جهلة الفتوة، والجرى فى أساليب اللهو والهوى ، كالصبوة (بفتح فسكون) والتصابى . وفى الشطر الثانى إشارة إلى قولهم : « ضرب زيد عمراً » وهو مثال شائع ، كثير التكرار فى كتب النحو القديمة ، وكان دائراً على ألسنة النحاة والطلاب فى العهود الماضية .

يدعو إلى الأخذ بأسباب الخلاعة والصبا ، والجرى فى فنون اللهو والمجون ، وترك الجد والجدل فى مسائل العلوم .

(١٣) أولئك : يشير إلى النحاة فى البيت السابق. ويريد بالحروب : الجدل والمحاورة العلمية التى بين هؤلاء النحاة . وتفاقمت : عظمت واشتدت . والفتكة : اسم مرة من فتك المرء بعدوه (من بابى ضرب ونصر) : إذا انتهز منه غرة فقتله أو جرحه ، وقيل الفتك : القتل أو الجرح مجاهر . والبيض : السيوف . والسمر : القنا والرماح .

فَمَا تَصْلُحُ الْأَيَّامُ إِلَّا إِذَا خَلَتْ قُلُوبُ الْوَرَى فِيهَا مِنَ الْحِقْدِ وَالْغِمْرِ (١٤)
وَلَا تَتَعَرَّضْ لِامْرِئٍ بِمَسَاءَةٍ وَلَا تَحْتَلِبْ ضَرْعَ الشِّقَاقِ، وَلَا تَمْرِ (١٥)
وَلَا تَحْتَقِرْ ذَا فَاقَةٍ بَيْنَ طِمْرِهِ فَيَارُبَّ فَضْلٍ يَبْهَرُ الْعَقْلَ فِي طِمْرِ (١٦)
وَكَيْفَ يَعِيشُ الْمَرْءُ فِي الدَّهْرِ آمِناً وَلِلْمَوْتِ فِينَا وَثْبَةُ اللَّيْثِ وَالنَّمْرِ؟ (١٧)
وَمَا أَحْسَبُ الْأَيَّامَ تَصْفُو لِعَاقِلٍ وَلَكِنْ صَفَاءُ الْعَيْشِ لِلْجَاهِلِ الْغُمْرِ (١٨)
سَعَيْتُ فَأَدْرَكْتُ الْمُنَى فِي طِلَابِهَا وَكُلُّ امْرِئٍ فِي الدَّهْرِ يَسْعَى إِلَى أَمْرِ (١٩)

وقال :

نَمَّ الصَّبَا ، وَانْتَبَــهَ الطَّائِرُ وَاسْتَحَرَ الصَّاهِلُ وَالْهَادِرُ (١)

---

(١٤) الورى : الخلق (بفتح فسكون) والناس. والحقد: الضغن (بكسر فسكون) .وإضمار العداوة والبغضاء . والغمر (بكسر فسكون) : الحقد والضغن . انتقل بهذا البيت إلى التحدّث فى الأخلاق .

(١٥) الضرع (بفتح فسكون) للبقرة والشاة والناقة وذات الظلف أو الخفّ : كالثدى للمرأة . ومرى الحالب الناقة ونحوها يمريها (من باب رمى) مسح ضرعها ليدرّ باللبن . واحتلاب ضرع الشقاق ومريه : مقارفة أسبابه ودواعيه .

(١٦) الفاقة : الفقر والحاجة .والطمر (بكسر فسكون): الثوب الخلق (بفتح الخاء واللام) ،والكساء البالى .وبين طمره : ملتفّاً بطمره. ويبهره: يغلبه ويعلوه ويقهره، أو المراد: يعجبه ويروقه ويسرّه .

(١٧) الليث : الأسد . والنمر: سبع أخبث وأجرأ من الأسد ، ومن طبيعته الفتك بكلّ مايصادفه من حيوان و إنسان .

(١٨) الغمر (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) : الذى لم يجرّب الأمور .

(١٩) يسعى إلى أمر : إلى غاية ومطلب .

(١) نمّ المسك ونحوه : سطع وانتشرت رائحته . والصّبا : ريح تهبّ من مطلع الشمس ، وهى مؤنثة ، ونمّت الصبا ، أى هبّت عطرة طيّبة . واستحر الديك وغيره: صاح فى السحر ، وهو الوقت قبيل الفجر ، أو خرج سحراً . والصاهل : اسم فاعل من الصهيل ، وهو صوت الفرس . والهادر : صفة من الهدير ، وهو صوت الفحل ، وهدر الحمام : كرّر صوته فى حنجرته .

يقول : إن ريح الصّبا هبّت عطرة طيّبة ،واستيقظت الطير ،وخرجت الدوابّ . وهذا كناية عن إدبار الليل ، وطلوع الصبح ، وانتشار مظاهر اليقظة والحياة .

وأضحتِ الأرضُ لفيْضِ الحَيَا ... مَصْقُولَةً يلْهُو بِها النَّاظِرُ(٢)
تَبْـدُو بِها أنْجُمُ زَهْرٍ لَهَا ... مَنَازِلُ يجْهَلُهَا الْخَابِرُ(٣)
كَأنَّمَا أَلْبَسَهَا نَثْرَةً ... مِنَ النُّجُومِ الْفَلَكُ الدَّائِرُ(٤)
فقُمْ بِنا نَلْهُ بِلَذَّاتِنا ... فَإنَّمَا الْعَيْشُ لَهُ آخِرُ(٥)
وَلَا تَقُلْ : نَنْظُرُ مَا فِى غَدٍ ... رُبَّ غَدٍ آمِلُهُ خَاسِرُ(٦)
فَإنَّمَا الْعَيْشُ وَلَذَّاتُهُ ... فى سَاعَةٍ أَنْتَ بِهَا سَادِرُ(٧)
لَا يَغْنَمُ اللَّذَّةَ غَيْرُ امْرِئٍ ... لَيْسَ لَهُ عَنْ لَهْوِهِ زَاجِرُ(٨)

---

(٢) فيض الحيا : كثرة المطر . ومصقولة : مجلوّة ذات بهجة و رواء . ويلهو : يلعب ، يطرب ، أو يُشْغَل بها عن غيرها .

(٣) يبدو : تظهر . وأنجم زهر : أزهار تشبه النجوم والكواكب فى البهاء والإشراق والتلألؤ . ومنازل النجوم : افلاكها ، جمع منزل ، وهو للنجم مجاله ومداره ، ومن كلامهم : القمر يسبح فى منازله .

والمعنى : أن هذه الأزهار التى تشبه النجوم ، لها كما للنجوم منازل وصلت فى الجمال إلى غاية لا يصل إلى إدراكها العالم الخبير .

(٤) النثرة (بفتح فسكون) : الدرع الواسعة السلسة الليس . والفلك : مدار النجوم . والدائر : صفة للفلك ، لتواتر حركاته بعضها فى إثر بعض ، من غير ثبوت ولا استقرار .

يقول : كأن السماء ألبست هذه الأرض درعاً واسعة من نجومها . يشير إلى كثرة الأزهار وبهائها وإشراقها .

(٥) نلهو : نلعب ونستمتع ،(وماضيه كعدا وَرضى) . يدعو إلى اللهو والعبث والتمتع باللذات قبل فوات الفرصة ، وانتهاء الحياة .

(٦) ننظر : ننتظر .

يدعو إلى العجلة وانتهاز الفرصة ، وينهى عن التباطؤ والتسويف ، وانتظار ما يأتى به الغد ، لأنه قد يأتى بغير ما يحبّ المرء ويأمل ، أو لأن الإنسان قد يدركه الموت قبل أن يدرك الغد .

(٧) العيش : المعيشة والحياة . وسادر : لاه ، لا يهتمّ ، ولا يبالى ما صنع . وفى ساعة : خبر لكلمة « العيش ».

يقول : إن متع الحياة ولذاتها إنّما تكون فى الوقت الذى يلهو فيه المرء ، ويجرى فى مجال الخلاعة والاستهتار .

(٨) زاجر : مانع ناهٍ .

قَدْ خَيَّرَ الدَّهْرَ ، فَمَا غَائِبٌ يَجْهَلُهُ مِنْهُ ، وَلَا حَاضِرُ(٩)
يَا سَاقِيَيَّ ، اعْتَوِرَا كَأْسَهَا فَلِي بِهَا عَنْ غَيْرِهَا عَاذِرُ(١٠)
حَمْرَاءُ تُلْقِي بِلَحَاظِ الْفَتَى صِبْغَاَيهِ يَعْتَرِفُ النَّاكِرُ(١١)
تَفْعَلُ بِالشَّارِبِ أَضْعَافَ مَا جَرَّ عَلَى عُنْقُودِهَا الْعَاصِرُ(١٢)
عَتَّقَهَا الدِّهْقَانُ فِي دَيْرِهِ حِيناً ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِهَا شَاعِرُ(١٣)
شَجٍ بِهَا ، يَكْتُمُهَا نَفْسَهُ وَهْوَ لِيَرْضَاهَا غَدًا صَابِرُ(١٤)
حَتَّى إِذَا تَمَّتْ مَوَاقِيتُهَا وَزَالَ عَنْهَا الزَّبَدُ الْمَائِرُ(١٥)

---

(١٠) ياساقِيَّ : نداء لمثنى الساقى ، وقد أضيف إلى ياء المتكلم . واعتورا كأسها : تداولاها بينكما ، أى لتكن فى يد أحدكما مرة ، وفى يد الآخر مرة أخرى .

يقول لساقيه : تداولا كأس الخمر بينكما ، يريد أن يسقيه هذا مرة ، وهذا مرة ، ثم يقول إن له فى الخمر عاذراً يعذره إذا انصرف عن سواها .

(١١) اللحاظ (كسحاب ، أو هو بكسر اللام) : مؤخر العين مما يلى الصدغ . والصبغ : ما يصبغ به والناكر : اسم فاعل من نكر فلان الأمر (من باب فرح) ، أى أنكره وجحده .

يقول : إنها خمر حمراء اللون ، تلقى فى عين شاربها صبغاً أحمر ، لا يستطيع معه إنكارها .

والمعنى : أن أثرها يظهر فى عيون شاربيها ، فيعرفهم من يراهم .

(١٢) يقول : إن الخمر تترك شاربها مسلوب القوة ، مسلوب العقل ، وهى بهذا كأنها تنتقم منه أضعافاً ، بسبب ما فعله العاصر فى عنقودها :

(١٣) عتق الشىء (ككرم ، ونصر ، وضرب) : قدم ، ويعدى بالتضعيف ، فيقال : عتقه تعتيقاً . وتعتيق الخمر : حبسها فى أوعيتها زماناً حتى تطيب وتحسن وتصفو ويذهب عنها الزبد . والدهقان (بكسر الدال وضمها) : التاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم ، والظاهر أن الشاعر يريد به هنا : مطلق الرئيس . والدير (بفتح فسكون) : خان النصارى ، وصومعة الراهب ، وتشتهر الأديرة بخمرها المعتقة الجيدة .

(١٤) شج بها : مشغول مهتم مشوق . ويكتمها نفسه : يخفيها عن نفسه .

يقول : إنه مشغول بها ، مشوق إليها ، وهو مع هذا يحجبها عن نفسه ، ويصبر على ألم بعدها ، ليطول بها القدم ، فيزيد التذاذه بها .

(١٥) تمت مواقيتها : مضى الوقت الكافى لتعتيقها وتصفيتها . والزبد : الرغوة والطفاوة والقذى . والمائر : المضطرب المتحرك المتردد .

جاءَتْ وَقَدْ شَاكَلَهَا كَأْسُهَا ... فَاشْتَبَهَ الْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ(١٦)

بِمِثْلِهَا تُعْجِبُنِى صَبْوَتِى ... وَيَزْدَهِينِى اللَّيْلُ وَالسَّامِرُ(١٧)

فَمَا لِهَذِى النَّاسِ فى غَفْلَةٍ ... عَمَّا إِلَيْهِ يَنْتَهِى السَّائِرُ ؟(١٨)

أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ مَضَتْ قَبْلَهُمْ ... مِنْ أُمَمٍ لَيْسَ لَهَا ذَاكِرُ ؟(١٩)

إِنْ لَمْ يَكُنْ فى الأَمْرِ مِنْ حِكْمَةٍ ... فَفِيمَ هذَا الشَّغَبُ الثَّائِرُ ؟(٢٠)

كُلُّ امْرِئٍ أَسْلَمَهُ عَقْلُهُ ... فَمَا لَهُ مِنْ بَعْدِهِ نَاصِرُ(٢١)

---

(١٦) شاكلها : شابهها . والكأس مؤنثة . والمراد بالباطن : الخمر . والمراد بالظاهر : جسم الكأس .
يقول : إن الخمر رقّت وصفت حتى شاكلها كأسها ، فتشابها فى النقاء والصفاء ، وهذا قريب من قول أبى نواس :

رقّ الزجاج ، وراقت الخمر ... فتشابها ، فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

(١٧) الصبوة : جهلة الفتوة واللهو . ويزدهينى : يستخفنى ويطربنى . والسامر : مجلس السمّار ، وهم القوم يسمرون ، أى يتحدثون بالليل .

(١٨) انتقل الشاعر إلى حال نفسية جديدة ، ينعى فيها على الناس استرسالهم فى الغفلة ، ونسيانهم الموت .

(١٩) « من » فى الشطر الثانى من هذا البيت زائدة .
يعظ الناس ويذكّرهم بالأمم الماضية التى طوى ذكرها ، وزال أثرها .

(٢٠) يريد بالأمر : أمر الحياة ، وحال الناس فى معيشتهم ومماتهم . و «من» فى الشطر الأول زائدة ، وهو يشير بهذا الشطر إلى حكمة الله تبارك وتعالى فى إحياء الناس وتكليفهم ، وإماتتهم وبعثهم وحسابهم . والشغب : تهييج الشرّ . والثائر : المنتشر الظاهر .
والمعنى : أنه إذا لم يكن فى الحياة من غرض سام ، وهو أن يترك الإنسان وراءه ذكراً حسناً ، وحديثاً طيّباً ينفعه فى دنياه وآخرته — فعلام يتسابق الناس فى مضمار الحياة ويتنافسون ؟

(٢١) أسلمه عقله : خذله ، ولم يحمه .

وقال :

وَلَمَّا اسْتَقَلَّ الْحَيُّ فِى رَوْنَقِ الضُّحَى ... وَقَطَّعَ أَنْفَاسَ الْمُقِيمِ الْمُسَافِرُ (١)
تَحَوَّلَ رَاعِى الصَّبْرِ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ ... وَبَاحَتْ بِأَسْرَارِ الْقُلُوبِ النَّوَاظِرُ (٢)

وَقَالَ فِى الْهِجَاءِ :

يَابْنَ الَّذِى رَهَنَ الْخَمَّارَ سُبْحَتَهُ ... يَوْمَ الْعَرُوبَةِ فِى عَدِّ الْقَوَارِيرِ (١)
مَا زَالَ يَشْرَبُ خَمْرًا غَيْرَ مُذَّكِرٍ ... إِثْماً وَيَأْكُلُ سُحْتًا غَيْرَ مَنْحُورِ (٢)
حَتَّى إِذَا نَالَ مِنْهُ السُّكْرُ قَامَ إِلَى ... فَيَّاضَةِ الْقَرْءِ لَمْ تُعْهَدْ بِتَطْهِيرِ (٣)
فَكُنْتَ نُطْفَةَ سُوءٍ قَدْ تَعَجَّلَهَا ... دَاعِى الْغَوَايَةِ مِنْ خَمْرٍ وَخِنْزِيرِ (٤)

---

(١) استقلّ : ذهب وارتحل . ويريد بالحىّ : أهل الحبيب وعشيرته ؛ وأصله واحد أحياء العرب ، كبطونهم وقبائلهم وشعوبهم . والضحى : الوقت حين تشرق الشمس وعتدّ النهار ويرتفع . ورونقها : أوّلها ، أوماؤها وحسنها . وتقطيع أنفاس المقيم : كناية عما أصابه من اللوعة والأسى ؛ بسبب سفر الحبيب وارتحاله .

(٢) راعى الصبر : حافظه ، وهوالقلب . وتحوّله عن مستقرّه : كناية عن الجزع والاضطراب . ويصحّ أن يقال : إن راعى الصبر الذى يرعاه ويحوطه — كما ترعى الماشية — تحوّل عن مكانه فى هذا اليوم ، فلم يجد المودّعون صبراً . وباح بالسرّ : أظهره ، (وبابه قال) . والنواظر : العيون .

والمعنى : أنهم ضعفوا عن احتمال ألم الفراق ، ولم يجدوا صبراً ، وغلبهم البكاء ، فظهر ما كانوا يكتمونه من الحبّ والغرام . والبيتان فى وصف موقف وداع .

(١) رهنت الدائن المتاع بالدين (من باب قطع) : حبسته به ، فالمتاع مرهون ورهن . والخمّار : بائع الخمر . والسبحة (بضم فسكون) : خرزات يعدّ المسبّح بها تسبيحه . ويوم العروبة (بفتح العين وضم الراء) : يوم الجمعة . وفى عدّ القوارير : أى فى القوارير المعدودة ، وهو متعلّق برهن . والقوارير : قنّينات الشراب وآنيته تكون من الزجاج ، واحدتها قارورة .

(٢) إثما : خطيئة وذنباً . والسحت : الحرام الخبيث الذى لايحلّ كسبه ولا أكله . والمراد به هنا : لحم الخنزير . وغير منحور : غير مذبوح .

(٣) فيّاضة : غزيرة كثيرة سائلة . والقرء (بفتح فسكون ، أو بضم فسكون) : الحيض . ولم تعهد : لم تعرف .

(٤) النطفة : ما يخلق منه الإنسان . وتعجلها : استعجلها واستحثّها . والغواية : الفساد والضلال .

وقال :

يَـأَيُّها السَّرِفُ الْمُدِلُّ بِنَفْسِهِ ... كَسَفِينَةٍ فى لُجِّ بَحْرٍ ماخِرَهْ(١)
أَتَظُنُّ أَنَّ الْفَخْرَ ثَوْبٌ مُعْلَمٌ ... تزْهُو بِلِبْسَتِهِ ، وقِدْرٌ باخِرَهْ؟(٢)
هَيْهَاتَ ظَنُّكَ ، فَالْعُلَا أُمْنِيَّةٌ ... مِنْ دُونِ مَبْلَغِها بِحارٌ زَاخِرَهْ(٣)
أَتْلَفْتَ دُنْيَاكَ الَّتِي أُوتِيتَهَا ... وَلَسَوْفَ تَهْلِكُ حَسْرَةً فِى الْآخِرَهْ(٤)
تَاللهِ لَوْ رَاجَعْتَ نَفْسَكَ مَرَّةً ... لَوَجَدْتَهَا مِنْ سُوءِ فِعْلِكَ سَاخِرَهْ(٥)
حَتَّامَ تَفْخَرُ بِالْجُدُودِ ، وَلَمْ تَنَلْ ... مَا أَحْرَزَتْ تِلْكَ الْجُدُودُ الْفَاخِرَهْ؟(٦)

---

(١) السرف (بفتح السين وكسر الراء) : الجاهل الغافل المخطئ ، صفة من السرف (بفتحتين) ، وهو ضد القصد . والمدلّ بنفسه : المعجب المغرور ، من قولهم : أدلّ فلان على قريبه ، وعلى من له عنده منزلة ، أى انبسط ووثق بمحبته ، فأفرط عليه ، وأدلّ على قرنه ، أى استطال ، وهو مدلّ بفضله وشجاعته . ولجّ البحر : معظمه . وماخرة : جارية تشقّ الماء ، وتدفعه بصدرها .

رماه بالسرف والغفلة والجهل ، والبعد عن الاعتدال ، ومجانبة القصد ، ثم بالغرور والإعجاب بالنفس ، وشبّهه بسفينة ماخرة فى بحر لجىّ ، فهى عرضة للغرق والتلف .

(٢) ثوب معلم : مرقوم مرسوم موشى وتزهو : تفخر وتتكبّر . واللبسة (بكسر اللام) : حالة اللبس وهيئته . وباخرة : يرتفع بخارها ، اسم فاعل من بخرت القدر (من باب منع) .

والمعنى : أن الفخر لا يجوز أن يكون بزخرف الحياة وباطلها ، وجيّد الثياب والطعام .

(٣) هيهات : كلمة تبعيد ، وهى مبنيّة على الفتح . وزاخرة : واسعة طامية ممتلئة .

(٤) يريد بإتلاف الدنيا : ما أشار إليه فى الأبيات السابقة من السرف والإدلال بالنفس ، والفخر بما لا يصحّ الفخر به ، والغواية والضلال ، أو المراد : إتلاف المال ، وإنفاقه فى وجوه الفساد . والحسرة : الأسف ، واشتداد الندامة على الشيء الفائت .

(٥) ساخرة : هازئة

(٦) حتّام : حتى الموصولة بما الاستفهامية ، والاستفهام هنا للتوبيخ . والجدود : جمع جدّ (بفتح الجيم) ، وهو أبو الأب وأبو الأمّ ، وأحرزت : جمعت وحازت . والفاخرة : العظيمة الجيّدة ، وهى صفة للجدود قبلها .

يقول موبّخاً : إلام يفخر ذلك السرف بآبائه وجدوده ، وهو لم ينل ما ناله هؤلاء الجدود العظام ، من الصلاح وحسن السيرة وعظم الشأن ؟

فَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ مِنْ فِعَالِكَ شَاهِدًا ... يُغْنِيكَ عَنْ ذِكْرِ الْعِظَامِ النَّاخِرَهْ(٧)

وَقَالَ يذُمُّ :

فَعَلْتُ ، خَيْرًا بِقَوْمٍ ... فَعَامَلُونِى بِضَيْرِ(١)
فَلَا تَلُمْنِى إِذَا مَا ... أَصْبَحْتُ أَلْعَنُ خَيْرِى(٢)

وَقَالَ فِى الزُّهْدِ :

أَلْهَتْكُمُ الدُّنْيَا عَنِ الْآخِرَهْ ... وَهْىَ مِنَ الْجَهْلِ بِكُمْ سَاخِرَهْ(١)
وَغَرَّكُمْ مِنْهَا ـ وَأَنْتُمْ بِكُمْ ... جُوعٌ إِلَيْهَا ـ قِدْرُهَا الْبَاخِرَهْ(٢)
يَمْشِى الْفَتَى تِيهاً ، وَفِى ثَوْبِهِ ... مِنْ مَعْطِفَيْهِ جِيفَةٌ جَاخِرَهْ(٣)

---

(٧) الناخرة : البالية المتفتتة .

والمعنى : اجعل من أفعالك الحسنة ، وأعمالك الصالحة شاهداً يدل على كرم نفسك ، ويغنيك عن الافتخار بالموتى من آبائك وأجدادك .

(١) الضير : الضرّ ، مصدر ضاره يضيره ضيراً ، أى ضرّه ، (وبابه باع وقال) .

(٢) فى خيرى تورية باسم المذموم ، وبالخير الذى فعله ، فكوفئ عليه بالضرّ .

(١) يقول : إن فتونكم بالدنيا قد ألهاكم وشغلكم عن التفكير فى الآخرة والاستعداد لها ، على أن الدنيا التى فتنتم بها تهزأ بكم ، وتسخر من جهلكم .

(٢) الباخرة : الصاعد بخارها ، والمراد بقدرها الباخرة : أسباب فتنتها ومظاهرها الخلابة . ويقال : جاع فلان إلى الشيء : إذا اشتهاه ، وتاق إليه .

يقول : إنه قد غرّكم من الدنيا قدرها الباخرة ، وأنتم جياع إليها ، متهافتون عليها . يريد أن الدنيا تخدع الناس وتغريهم بزينتها ، فلا يزالون حريصين عليها ، مغرمين بها حتى ترديهم وتهلكهم بحرصهم وفتونهم وشهواتهم .

(٣) التيه (بالكسر) : الصلف والكبر . ومعطفاه : جانباه . والجيفة : جثة الميت إذا أنتنت . وجاخرة : كريهة الرائحة .

يقول : إن الفتى يمشى فى حياته مشى مرح وتيه واختيال ، وفى أثوابه جيفة منتنة .

والمعنى : أن جسمه الذى يتيه به ويتكبر يئول بعد موته إلى جثة منتنة ، فهو لو تدبر عاقبة أمره ما تاه ، ولا تكبر .

كَأَنَّهُ فى كِبْرِهِ سَادِرًا سَفِينَةٌ فى لُجَّةٍ ماخِرَهْ(٤)
كَمْ أَنْفُسٍ عَزَّتْ بِسُلْطَانِها فِيما مَضَى وَهْى إِذَنْ داخِرَهْ(٥)
وعُصْبة كَانَتْ لِأَمْوَالِها مَظِنَّةَ الْفَقْرِ بِها ذَاخِرَهْ(٦)
فَأَصْبحَتْ يَرْحَمُهَا مَنْ يَرَى وَقَدْ غَنَتْ فى نِعْمَةٍ فَاخِرَهْ(٧)
فَلا جَوَادٌ صَاهِلٌ عَزَّهُمْ يَوْماً ، وَلَا خَيْفَانَةٌ شَاخِرَهْ(٨)
بَلْ عَمَّ دُنْيَاهُمْ صُرُوفٌ ، لَهَا مِنَ الرَّدَى أَوْدِيَةٌ زَاخِرَهْ(٩)
يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا عَذَابَ اللهِ وَالْآخِرَهْ(١٠)

(٤) السادر : الذى لايهتمّ ولايبالى ما صنع . واللجّة: معظم الماء . وماخرة : جارية تشقّ الماء وتدفعه بصدرها .

يقول : كأن هذا التائه المختال وهو سادر متماد فى كبره وغيه سفينة ماخرة فى بحر لجىّ ، فهى معرّضة للتلف والغرق .

(٥) عزّت : كانت عزيزة قويّة . والسلطان : القوّة والقدرة والسطوة والقهر . وداخرة: ذليلة صاغرة .

(٦) العصبة : الجماعة من الرجال . ومظنّة الشىء (بكسر الظاء) : موضع يظنّ فيه وجوده، والمراد بالمظنّة هنا: الظنّ . وذاخرة : مدّخرة (بصيغة اسم الفاعل) ،أى أنها تجمع المال وتختاره ، وتتّخذه ذخيرة تدفع عنها غائلة الفقر .

(٧) غنت : أقامت ، من قولهم غنى القوم فى ديارهم (من باب رضى) إذا طال فيها مقامهم، واللغة الفصيحة : غنيت (كرضيت) . وفاخرة : جيّدة عظيمة .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : وكم جماعة من الناس كانت تدّخر أموالها خشية الفقر ، فأصبحت فى حال يرثى لها من الفقر والضنك ، وشقيت بالفاقة والحرمان ، بعد أن نعمت طويلا بالغنى واليسار .

(٨) الجواد : الفرس الكريم الجيّد . وصاهل: صفة من الصهيل ، وهو صوت الخيل . وعزّهم : قوّاهم ، أو كان مظهر عزّهم . وخيفانة: فرس سريعة خفيفة ، والخيفانة (فى الأصل) : الجرادة إذا صارت فيها خطوط مختلفة الألوان ، وهى حينئذ أطير ماتكون ، ثم شبّهت بها الناقة والفرس فى السرعة والضمور والخفّة . وشاخرة: صفة من الشخير ، وهو صهيل الفرس ، أو صوته من فمه ، (وفعله كضرب).

(٩) صروف الدهر: أحداثه ونوائبه ونوازله . والردى : الهلاك . وزاخرة : ممتدّة واسعة ممتلئة.

أَنْتُمْ قُعُودٌ ، والرَّدَى قَائِمٌ يُسْقِيكُمْ بِالْكُوبِ وَالصَّاخِرَهْ[١١]
فَانْتَبِهُوا مِنْ غَفَلَاتِ الْهَوَى وَاعْتَبِرُوا بِالْأَعْظُمِ النَّاخِرَهْ[١٢]

وقال :

لَكَ الْحَمْدُ ، إِنَّ الْخَيْرَ مِنْكَ ، وإِنَّنِي لِصُنْعِكَ يَارَبَّ السَّمَوَاتِ شَاكِرُ[١]
فَأَنْتَ الَّذِى أَوْلَيْتَنِى كُلَّ نِعْمَةٍ وَهَذَّبْتَنِى حَتَّى اصْطَفَتْنِى الْعَشَائِرُ[٢]
فَقَرِّبْ لِيَ الْخَيْرَ الَّذِى أَنَا رَاغِبٌ وبَاعِدْنِىَ الشَّرَّ الَّذِى أَنَا حَاذِرُ[٣]
فَلَيْسَ لِمَنْ تُقْصِيهِ فى النَّاسِ نَافِعٌ ولَيْسَ لِمَنْ تُدْنِيهِ فى النَّاسِ ضائِرُ[٤]
وَلَا لِامْرِئٍ أَلْهَمْتَهُ الرُّشْدَ خَاذِلٌ وَلَا لِامْرِئٍ أَوْ رَدْتَهُ الْغَيَّ نَاصِرُ[٥]

---

(١١) قعود : جمع قاعد ، والمراد أنتم مطمئنون غافلون .وسقاه (من باب رمى) وأسقاه إسقاءً . والكوب : قدح من الزجاج ونحوه ، مستدير الرأس ، لا عُرْوَةَ له ، وهو من آنية الشراب ، وجمعه أكواب . والصاخرة : إناء من خزف ، يشرب به .

يقول : إنه يسقيهم بشتى الأكواب والكئوس ، وهذا كناية عن تنوّع أسباب الهلاك وكثرتها.

(١٢) الهوى : ميل النفس إلى شهواتها ، والمراد الميل المذموم . واعتبروا : أمر من الاعتبار ، وهو الاتعاظ . والناخرة : البالية المتفتتة .

والمراد الاتّعاظ بالموتى ، والاعتبار بما كانوا فيه ، وما صاروا إليه .

(١) الصنع : مصدر قولك صنع إليه معروفاً (وفعله كنع).

(٢) أوليتنى : أعطيتنى ، ووهبت لى . واصطفتنى : اختارتنى . والعشائر : قبائل الناس وجماعاتهم الواحدة عشيرة .

(٣) باعدنى الشرّ : باعد الشرّ منّى ، أى أبعده ، والمفهوم من المعجمات أن هذا الفعل يتعدّى إلى المفعول الثانى بمن أو بعن ، ولعلّه ضمنّه معنى جنّبْنى . وحاذر : صفة من الحذر ، وهو الاحتراس والخوف .

(٤) تقصيه : تبعده ، والمراد تبعده من رحمتك . وتدنيه : تقرّبه . وضائر : ضار .

(٥) ألهمه الله تعالى الخير والرشد : لقنّه إياه . والرشد : الرشاد والهدى والصلاح ، وهو ضدّ الغىّ والضلال . وخاذل : اسم فاعل من خذله (من باب قتل) أى ترك نصرته وإعانته .

فَإِنْ أَدْرَكَتْ نَفْسِى الْمَرَامَ وَلَمْ أَقُمْ مَقَامَ ضَلِيعٍ بِالَّذِى أَنْتَ آمِرُ[(٦)]
فَلَا لَاحَ لِى فِى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ كَوْكَبٌ وَلَا طَارَ لِى فِى قُنَّةِ الْعِزِّ طَائِرُ[(٧)]

وقال* :

مَنْ خَالَفَ الْحَزْمَ خَانَتْهُ مَعَاذِرُهُ وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ قَلَّ نَاصِرُهُ[(١)]
وَمَنْ تَرَبَّصَ بِالْإِخْوَانِ بَادِرَةً مِنَ الزَّمَانِ فَإِنَّ اللَّهَ قَاهِرُهُ[(٢)]
لَا يَجْمُلُ الْمَرْءُ فِى ظَرْفٍ وَفِى أَدَبٍ مَا لَمْ تَكُنْ فَوْقَ مَرْآهُ سَرَائِرُهُ[(٣)]

---

(٦) المرام : المطلب . وضليع : قوىّ .

(٧) لاح : ظهر . وذروة الشيء : أعلاه (بكسر الذال وضمها) . والمجد : العزّ والعلاء والشرف ، وقنّة كلّ شيء : أعلاه .

يقول : إذا بلغت مرادى فى غير طاعة الله ، فلا بلّغنى الله ذلك المراد .

* لم يكتب عنوان هذه القصيدة فى أصل الديوان المخطوط ، وقد ترك فراغ كاف لكتابته . وفى المخطوطة قصائد أخرى من هذا القبيل ، أغفلت عنواناتها ، ولم تكتب فى البياض المتروك لها .

ويبدو أن هذه القصيدة وقصائد أخرى مماثلة لها نظمت قبيل الثورة العرابية لما اضطربت قواعد الملك ، وضاق الناس ذرعا بفساد الحكم ، وتمنّوا انقلاباً يستريحون به ، وهدّد قادتهم العسكريّون باستخدام القوّة الحربية لتحقيق ما يتمنّونه من حكم الشورى والإصلاح ، وتقليم أظفار النفوذ الأجنبىّ .

وربّما نظمها فى نهاية الثورة العرابية ، أو فى إبّانها حينما لاحت نذر الهزيمة ، وظهرت بوادر النكبة ، وأقبلت طلائع الاحتلال العسكرىّ الإنجليزىّ . وفى القصيدة تعريض بمن خالفوا الحزم ، ومن تربّصوا بإخوانهم ، ومن يظهرون غير مايضمرون . وفيها إشارات إلى كثير من ظواهر الحالة السيئة التى ضاناها الناس فى ذلك الزمان . وفيها تبرّم بهذا الوطن الذى لا خير فيه لأصحابه وساكنيه . وفى نهايتها أمل ورجاء ، وتهديد ووعيد ، وتكهّن بمايكون .

(١) الحزم : ضبط الإنسان أمره ، والأخذ فيه بالثقة . والمعاذر : جمع معذرة (كمقفرة) ، وهى اسم بمعنى العذر (بضم فسكون) . ومعنى خانته معاذره : لم يجد عذراً ، وكان ملوماً . والهوى : ميل النفس إلى شهواتها ، والمراد الميل المذموم .

(٢) تربّص : انتظر . وبادرة الزمان : شرّه ، وأصلها مايبدر من الإنسان عند الغضب من قول أوفعل .

(٣) الظرف : الكياسة ، أو حسن العبارة ، أوحسن الوجه والهيئة ، أويكون فى الوجه واللسان ، أو ذكاء القلب ، أوالحذق بالشى ومرآه : منظره ومظهره . والسرائر : جمع سريرة ، وهى السرّ . والشطر الثانى كناية عن نقاء الطويّة ، وصفاء السريرة ، والصراحة ، وحسن الخبر ، والبعد عن المواربة والخداع والنفاق .

وَمَا الصَّدِيقُ الَّذِى يُرْضِيكَ بَاطِنُهُ ... مِثْلُ الصَّدِيقِ الَّذِى يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ(٤)
قَدْ لَا يَفُوهُ الْفَتَى بِالْأَمْرِ يُضْمِرُهُ ... وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا تُخْفِى ضَمَائِرُهُ(٥)
أَسْتَوْدِعُ اللهَ عَصْراً قَدْ خَلَعْتُ بِهِ ... عُذْرَ الْهَوَى وَهْوَ غَضَّاتٌ مَكَاسِرُهُ(٦)
لَمْ يَمْضِ مِنْ حُسْنِهِ مَا كُنْتُ أَعْهَدُهُ ... حَتَّى أَصَابَ سَوَادَ الْقَلْبِ نَاقِرُهُ(٧)
كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى حَالٍ نَعِيشُ بِهَا ... وَالدَّهْرُ مَأْمُونَةٌ فِينَا بَوَادِرُهُ ؟(٨)
إِذْ لَا صَدِيقَ يَسُرُّ السَّمْعَ غَائِبُهُ ... وَلَا رَفِيقَ يَرُوقُ الْعَيْنَ حَاضِرُهُ(٩)

---

(٤) المعنى : أنّ الصديق الذى يرضيك باطنه خير من الصديق الذى يرضيك ظاهره .

(٥) لايفوه : لاينطق ، ولايتكلّم ، ولا يلفظ ، (وبابه قال) . ويضمره : يخفيه . وضمائره : سرائره .

يقول : إن المرء قد يبالغ فى إضمار الأمر وكتمانه ، فلا يفتح فمه بكلمة تدلّ عليه ، أو تشير إليه ، ومع ذلك فإن المتأمّل يرى فى هيئة عينيه وحركاتهما ما يدلّ على باطنه ،وفى المثل : « تخبر عن مجهوله مرآته » أى أن ظاهره يدلّ على باطنه .

(٦) العذر : جمع عذار (ككتاب وكتب) وهو السير الذى يكون على خدّ الدابّة من اللجام ، وخلع عذار الهوى : كناية عن ترك الحياء ، والتمادى فى أسباب الحبّ ودواعى الصبا . وهو : أى الهوى . وغضّات : جمع غضّة ، أى ناعمة طريّة ناضرة . والمكاسر : جمع مكسر (كمنزل) وهو موضع الكسر ، ومن كلامهم : عود طيّب المكسر ، أى محمود . وغضاضة مكاسر الهوى : كناية عن نضارته وجدّة عهده .

(٧) حسنه : أى حسن ذلك العصر الذى وصفه فى البيت السابق . وأعهده : أعرفه . وسواد القلب : سويداؤه وحبّته . والناقر : السهم أصاب الهدف .

والمعنى : أن الزمان قلب له ظهر المجنّ ، وبدّله بالنعم والرفاهة شقاء وهمّاً .

(٨) « والدهر مأمونة فينا بوادره » : جملة حاليّة من فاعل نعيش فى الشطر الأول . وبوادره : صروفه ونوائبه وحوادثه ، واحدتها بادرة .

يقول : كيف نستطيع الوصول إلى حال من المعيشة الوادعة ، والحياة الطيّبة التى نأمن فيها بوادر الزمان وخطوبه ونوازله ؟ أى لا سبيل إلى ذلك .

(٩) من مظاهر الحال السيئة التى شكاها فى البيت السابق أنه لا يجد الصديق الذى إذا غاب عنه حفظ غيبته ، ولم يتكلّم فيه بسوء ، ولا الرفيق الذى يعجب العين ، ويملأ النظر بمحضره ومشهده . أو يريد بالغائب ما مضى من سيرته وأعماله ، وبالحاضر ما حضر من صفاته وأعماله أيضاً .

كُنَّا نَوَدُّ انْقِلَابَةً نَسْتَرِيحُ بِهِ ... حَتَّى إِذَا تَمَّ سَاءَتْنَا مَصَايِرُهُ(١٠)
فَالْقَلْبُ مُضْطَرِبٌ فِيمَا يُحَاوِلُهُ ... وَالْعَقْلُ مُخْتَبَلٌ مِمَّا يُحَاذِرُهُ(١١)
قَدْ كَانَ فِي السَّلَفِ الْمَاضِينَ نَافِعَهُ ... فَصَارَ فِي الْخَلَفِ الْبَاقِينَ ضَائِرُهُ(١٢)
ما أَبْعَدَ الْخَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِطَالِبِهِ ... وَأَقْرَبَ الشَّرَّ مِنْ نَفْسٍ تُحَاذِرُهُ !(١٣)
أَكُلَّمَا مَرَّ مِنْ دَهْرٍ أَوَائِلُهُ ... كَرَّتْ بِمِثْلِ أَوَالِيهِ أَوَاخِرُهُ ؟(١٤)
إِنْ دَامَ هَذَا أَضَاعَ الرُّشْدَ كَافِلُهُ ... فِينَا أَرَى، وَأَطَاعَ الْغَيَّ زَاجِرُهُ(١٥)
تَنَكَّرَتْ مِصْرُ بَعْدَ الْعُرْفِ ، وَاضْطَرَبَتْ ... قَوَاعِدُ الْمُلْكِ حَتَّى رِيعَ طَائِرُهُ(١٦)

---

(١٠) مصايره : عواقبه ونهاياته وما صار إليه. ولعله يشير بهذا البيت إلى بعض الأحداث والانقلابات السياسية أيام الثورة العرابية .

(١١) يحاوله : يزاوله ويعالجه ويرومه ويطلبه بالحيلة. واختبله الحزن ونحوه : أفسد عقله ، فالعقل مختبل (على صيغة اسم المفعول) . ويحاذره : يخافه ويخشاه . ويلاحظ أن كلمة القافية هنا ، وهي « يحاذره » متفقة مع كلمة القافية في البيت الثالث عشر «ما أبعد الخير ... الخ » ، وهذا إيطاء لم يعهد في شعر البارودي، فلعل كلمة القافية هنا « مما يخامره » أي مما يخالط العقل من الفزع والحزن ونحوهما .

(١٢) السلف : جمع سالف ، وهو الماضي المنقضي (كخادم وخدم) . ونافعه : أي منفعته ، والضمير للعقل . والخلف : الذين جاءوا من بعد السلف ، وقاموا مقامهم . وضائره : ضاره .

يقول : إن هذا العقل أفاد السلف ونفعهم ، ولكنه أضر بالخلف وآذاهم لما أصابه من الاختبال .

(١٤) كرت : عادت ورجعت . وأواليه: أوائله . والاستفهام في أول هذا البيت للتعجب . والمعنى : أن حوادث الدهر متشابهة ، وخطوبه متوالية متتابعة .

(١٥) الرشد : الهدى والصلاح ، ونقيضه الغي . وكافله: راعيه ، والقائم به ، والداعي إليه . وزاجره : المانع منه ، والناهي عنه .

يقول : إن دام هذا الحال ضاع الرشاد والصلاح ، وعم الفساد والضلال .

(١٦) تنكرت : تغيرت عن حال تسرها إلى حال تكرهها. والعرف ضد النكر، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير ، وتطمئن إليه . وريع: أفزع وأخيف ، وارتياع طائر الملك : كناية عن تزعزعه واضطرابه ، واختلال الأمن ، وشيوع الفوضى والفساد .

فَأَهْمَلَ الْأَرْضَ جَرًّا الظُّلْمِ حارِثُهَا ... واسْتَرْجَعَ الْمَالَ خَوفَ الْعُدْمِ تَاجِرُهُ (١٧)

وَاسْتَحْكَمَ الْهَوْلُ ، حَتَّى مَا يَبِيتُ فَتًى ... فى جَوْشَنِ اللَّيْلِ إِلَّا وَهْوَ سَاهِرُهُ (١٨)

وَيْلُمِّهِ سَكَناً ، لَوْلَا الدَّفِينُ بِهِ ... مِنَ الْمَآثِرِ مَا كُنَّا نُجاوِرُهُ (١٩)

أَرْضَى بِهِ غَيْرَ مَغْبُوطٍ بِنِعْمَتِهِ ... وَفى سِوَاهُ الْمُنَى لَوْلَا عَشَائِرُهُ (٢٠)

يا نَفْسُ لَا تَجْزَعِى ، فَالْخَيْرُ مُنْتَظَرٌ ... وَصَاحِبُ الصَّبْرِ لَا تَبْلَى مَرائِرُهُ (٢١)

لَعَلَّ بُلْجَةَ نُورٍ يُسْتَضَاءُ بِهَا ... بَعْدَ الظَّلَامِ الَّذِى عَمَّتْ دَيَاجِرُهُ (٢٢)

إِنِّى أَرَى أَنْفُساً ضَاقَتْ بِما حَمَلَتْ ... وَسَوْفَ يَشْهَرُ حَدَّ السَّيْفِ شَاهِرُهُ (٢٣)

---

(١٧) جرًّا الظلم : بسببه ومن أجله . والحارث : اسم فاعل من الحراثة ، وهى العمل فى الأرض زرعاً وغرساً ، (وبابه نصر) . والعدم (بضم فسكون) : الفقر وفقدان المال وذهابه .

(١٨) استحكم : وثق (ككرم) واشتدّ . والهول : الفزع والخوف . وجوشن الليل : وسطه أو صدره .

(١٩) ويلمه : أصلها ويل لأمّه ، ثم أضيف ويل إلى الأمّ ، وويل : كلمة عذاب وشر . والدفين : المدفون . والمآثر : جمع مأثرة (بفتح الثاء وضمها) ، وهى المكرمة ، لأنها تؤثر أى ينقلها قرن عن قرن . ويريد بالدفين من المآثر : مكرمات آبائه وأجداده وآثارهم الصالحة . ويريد بالسكن : مصر .

(٢٠) مغبوط : اسم مفعول من الغبطة (بكسر فسكون) ، وهى أن تتمنّى مثل حال المغبوط من غير أن تريد زوالها عنه ، والغبطة أيضاً : حسن الحال والمسرّة . والمنى : الأمانى والآمال ، واحدتها منية (بضم فسكون) . وعشائره : قبائله وأهله ، جمع عشيرة ، وعشيرة الرجل : قبيلته ، أو بنو أبيه الأدنون .

(٢١) لا تجزعى : نهى عن الجزع ، وهو نقيض الصبر . وتبلى : تضعف ، وأصله مضارع بلى الثوب (كرضى) أى خلُق وذهبت جدّته . والمرائر : جمع مريرة ، وهى عزّة النفس ، والعزيمة .

(٢٢) البلجة (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) : الضوء ، أو ضوء الصبح ، يقال : رأيت بلجة الصبح ، إذا رأيت ضوءه آخر الليل عند انصداع الفجر . . والدياجر : جمع ديجور (بفتح فسكون فضم) ، وهو الظلمة (بضم فسكون) .

(٢٣) شهر الرجل سيفه (كمنع) : انتضاه ، وأخرجه من غمده ، فرفعه على عدوّه .

شَهْرَانِ أَوْ بَعْضُ شَهْرٍ إنْ هِيَ احْتَدَمَتْ   وَفِى الْجَدِيدَيْنِ مَا تُغْنِى فَوَاقِرُهُ(٢٤)
فَإِنْ أَصبْتُ فَعَنْ رَأْى مَلَكْتُ بِهِ   عِلْمَ الْغُيُوبِ ،وَرَأْىُ الْمَرْءِ نَاظِرُهُ(٢٥)

وقال* :

أَبَابِلُ رَأْىَ الْعَيْنِ أَمْ هَذِهِ مِصْرُ؟   فَإِنِّى أَرَى فيها عُيُوناً هِىَ السِّحْرُ(١)

---

(٢٤) «أو» هنا : بمعنى الواو. واحتدمت : اشتدّت وتفاقمت ، يريد الأمور ، أو الأزمة السياسية التى عرّض بها فى الأبيات السابقة . والجديدان: الليل والنهار ، والمراد الدهر . والفواقر : جمع فاقرة ، وهى الداهية .

والمعنى : أن أمد هذه الأزمة لا يزيد على شهرين وبعض شهر ؛ ومع هذا فالدهر مملوء بالأحداث والخطوب ، فلعلّ مصائبه تقع على أعدائنا ، فتغنينا عن مكافحتهم .

(٢٥) الرأى : العقل والتدبير والحذق بالأمور .

يقول : إن أصاب فى تقديره الذى أشار إليه فى البيتين السابقين — فإن إصابته عن عقل وتدبير وحذق وحسن رأى يعرف به ما غاب عن سواه ، ثم قال «ورأى المرء ناظره» أى إن الإنسان يتعرّف برأيه الثاقب حقائق الأشياء وخفايا الأمور ، كأنه ينظر إليها بعينيه .

* استجاب الخديو «عباس حلمى الثانى» لرجاء الراجين ، و إلحاف الملحفين ، فعفا عن البارودى ، ثم عمن بقى على قيد الحياة من رفاقه فى المنفى ، وهم : أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، ويعقوب سامى . وفى أول سبتمبر سنة ١٨٩٩ أقلعت السفينة بمحمود سامى البارودى من ميناء «كولومبو» بسرنديب . و وصلت إلى ميناء السويس فى السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ (الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٩م) بعد اغتراب طال سبعة عشر عاماً . وحينما أطلّ على ربوع وطنه نظم هذه الرائية الخالدة ؛ فكانت أنشودة العودة التى تغنّى بها الناس ، وبخاصّة أهل العلم والفكر والأدب فى مصر وسائر البلاد العربية ، وطرب لها الجيل الجديد الذى روى شعر البارودى ، وتأدّب بأدبه ، ولم يسعد برؤيته إلا بعد عودته . ومن معانيها وأغراضها : الغزل والنسيب ، وهو فى حقيقته تغزّل بوطنه الحبيب ، وفرح بالتلاقى والوصال بعد طول القطيعة والفراق . ثم الفخر ببعض مناقبه ومحامده ، ومنها مقدرته البيانيّة ، وانطياع الشعر له . وفيها تعريض بأعدائه ، وهم أعداء الوطن ، وسبب كربه وبلائه ، بل أعداء الإنسانية .

(١) بابل : مدينة من أعظم مدن العالم القديم ، على الجانب الأيسر من نهر الفرات ، كانت واسعة الشهرة ، بعيدة الصيت ، ولا تزال بعض أطلالها ماثلة بالقرب من الحلّة ، وقد اشتهرت فى الأزمان القديمة بالسحر ، وفى القرآن الكريم «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ» الآية ١٠٢ من سورة البقرة . ورأى العين : أى أراها رأى العين .

نَوَاعِس أَيْقَظْنَ الْهَوى بِلَوَاحِظٍ ... تَدِينُ لَهَا بِالْفَتْكَةِ الْبِيضُ وَالسُّمْرُ(٢)
فَلَيْسَ لِعَقْلٍ دُونَ سُلْطَانِهَا حِمًى ... وَلَا لِفُؤَادٍ دُونَ غِشْيَانِهَا سِتْرُ(٣)
فَإِنْ يَكُ مُوسَى أَبْطَلَ السِّحْرَ مَرَّةً ... فَذَلِكَ عَصْرُ الْمُعْجِزَاتِ، وَذَا عَصْرُ(٤)
فَأَيُّ فُؤَادٍ لَا يَذُوبُ صَبَابَةً ... وَمُزْنَةِ عَيْنٍ لَا يَصُوبُ لَهَا قَطْرُ؟(٥)
بِنَفْسِي -وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ- رَبِيبَةٌ ... مِنَ الْعِينِ فِي أَجْفَانِ مُقْلَتِهَا فَتْرُ(٦)

(٢) نواعس: نعت لعيوناً فى البيت السابق ، جمع ناعسة ، صفة من النعاس وهو الوسن ، أى أول النوم ، والمراد أنها فاترة ، والفتور من محاسن عيون النساء ، ودليل الخفر والحياء . والهوى : الحب. والمراد باللواحظ : النظرات الساحرة الفاتنة. وتدين : تخضع وتنقاد . والفتكة : اسم مرة من فتك الإنسان بعدوه (كنصر وضرب) ، أى انتهز منه فرصة فقتله ، أو جرحه مجاهرة . والبيض : السيوف. والسمر : الرماح.

يصف جمال عيونهن ، وما فيها من فتور وسحر وفتنة ، ويقول إنها أيقظت الهوى فى قلوب العشاق بنظرات شديدة التأثير ، دونها فتكات السيوف والرماح .

(٣) السلطان : القدرة والسطوة والسيطرة. والحمى : المكان المحمى المصون ، الذى لا يقترب منه ، ولا يجرأ عليه . وغشيه (كرضيه) غشيانا (بكسر فسكون) : جاءه ، أو لابسه وباشره . والستر (بكسر فسكون) : الحجاب والحاجز .

يقول : إن هذه العيون النواعس مسيطرة على جميع العقول والقلوب ، فليس ينجو من سلطانها عقل ولا قلب .

(٤) يشير إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام ، وما كان من تأييد الله تعالى إياه ، وتصديق دعواه بمعجزات أشهرها العصا ، التى أبطل بها ما تفنن سحرة مصر فى إظهاره ، قال تعالى :
« فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ . فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ » . الآيات ٤٤ - ٤٨ من سورة الشعراء .

(٥) الصبابة : رقة الشوق وحرارته ، أو رقة الهوى . والمزنة : السحابة ، وقد شبه بها العين . ويصوب : ينزل وينصب . والقطر : المطر ، والمراد الدموع الغزيرة.

(٦) بنفسى : أى مفدية بنفسى . وعزت على : كرمت . وربيبة : فعيلة بمعنى مفعولة ، من ربه (كرده) أى رباه ، والمراد ناضجة تامة النمو . والعين : الحسان العيون ، جمع عيناء (كبيضاء) وهى صفة من عين (كفرح) ، أى عظم سواد عينه فى سعة مستحسنة . والأجفان : جمع جفن (بفتح فسكون) ، وهو غطاء العين من أعلاها وأسفلها . والمقلة : العين . والفتر (بفتحتين) الضعف والسكون .

يقول : أفدى بنفسى فتاة حسناء عيناء فاترة الطرف ، وإن كانت نفسى عزيزة على . وفى هذا إشارة إلى أنها أعز عليه من نفسه .

فَتَاةٌ يَرِفُّ الْبَدْرُ تَحْتَ قِناعِها ... وَيَخْطِرُ فى أَبْرَادِهَا الْغُصْنُ النَّضْرُ(٧)

تُرِيكَ جُمانَ الْقَطْرِ فى أُقْحُوَانَةٍ ... مُفَلَّجَةِ الْأَطْرَافِ، قِيلَ لَهَا ثَغْرُ(٨)

تَدِينُ لِعَيْنَيْهَا سَوَاحِرُ «بَابِلٍ» ... وَتَسْكَرُ مِنْ صَهْبَاءِ رِيقَتِها الْخَمْرُ(٩)

فَيَا رَبَّةَ الْخِدْرِ الَّذِى حَالَ دُونَهُ ... ضَرَاغِمُ حَرْبٍ، غَابُهَا الْأَسَلُ السُّمْرُ(١٠)

---

(٧) يرفّ: يتلألأ ويضيء، (وبابه ضرب). والقناع: ما تغطّى به المرأة رأسها ومحاسنها. ويخطر (من باب ضرب): يهتزّ ويتبختر. والأبراد: جمع برد (بضم فسكون) وهو ثوب مخطّط، أو ثوب موشّى. والنضر: الحسن الجميل. شبّهها بالبدر، ثم بالغصن فى الغضاضة والنضارة وحسن التثنى.

(٨) الجمان (بضم الجيم): حبّ يتّخذ من الفضّة على أشكال اللؤلؤ، أو هو اللؤلؤ الصغار. والقطر: جمع القطرة من الماء. وجمان القطر: القطر الشبيه بالجمان. والمراد الأسنان، شبّهها بقطرات الماء اللؤلؤيّة فى الصفاء والنقاء والبريق واللمعان. والأقحوانة: واحدة الأقحوان (بضم الهمزة والحاء) من نبات الربيع مفرّض الورق، دقّيق العيدان، له نور أبيض كأنه ثغر جارية حدثة، أى صغيرة السن. ولذلك تشبّه به الأسنان، وهو البابونج عند الفرس. وفى الصحاح: الأقحوان: نبت طيّب الريح، حواليه ورق أبيض، ووسطه أصفر. ومفلّجة الأطراف: أى أطرافها مفترقة، غير متّصلة، وهو وصف للأقحوانة. والمراد أسنان المتغزّل بها، وقد شبّهها بالأقحوانة. اسم مفعول من التفليج. والمراد الفلج (بوزن الفرح): وهو افتراق الأسنان خلقة. يقال: فلج ثغرها، وفلجت أسنانها؛ فهى فلجاء. والفلج من محاسن ثغور الحسان. والثغر: الأسنان، أو ما تقدّم منها.

يقول: إنّ أسنانها قطرات ماء صافية فى أقحوانة أوراقها غير مجتمعة. وصفها بالبريق والبياض والفلج (بفتحتين)، ثم قال إنّ كلّ هذا يسميه الناس ثغراً.

(٩) تدين: تخضع وتذلّ وتنقاد. وسواحر: جمع ساحرة. والصهباء: الخمر، أو المعصورة من عنب أبيض، إذا كان لونها يضرب إلى البياض. والريقة: الريق والرضاب (بضم الراء)، وهو ماء الفم ولعابه. وصهباء ريقتها: ريقتها الشبيهة بالصهباء.

(١٠) ربّة: صاحبة. والخدر فى الأصل: ستر (بكسر فسكون فيهما) يمدّ للجارية فى ناحية البيت. وضراغم: جمع ضرغم (كجعفر)، وهو الأسد، يشبّه به الرجل القوىّ الشديد الشجاع. والغاب: جمع غابة، وهى الأجمة (بفتحتين) ذات الشجر الكثير المتكاثف. والأسل: الرماح، وهو فى الأصل عيدان تنبت طوالاً دقاقاً مستوية لا ورق لها، واحدته أسلة (بفتحتين)، وتشبّه الرماح بالأسل فى اعتدالها وطولها واستوائها ودقّة أطرافها. والسمر: جمع أسمر، صفة من السمرة، وهى من صفات الرمح، يقال: رمح أسمر، وقناة سمراء، ورماح وقنا سمر (بضم فسكون).

يقول: إنها مخدّرة محجّبة يصعب الوصول إليها، لأنّ أهلها شجعان شداد كالآساد، فى شبه غابة من الرماح.

أَمَا مِنْ وِصَالٍ أَسْتَعِيدُ بِأُنْسِهِ ... نَضَارَةَ عَيْشٍ كَانَ أَفْسَدَهُ الْهَجْرُ؟[١١]
رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِحُبِّكِ عَالِمًا ... بِأَنَّ جُنُونِي فِي هَوَاكِ هُوَ الْفَخْرُ[١٢]
فَلَا تَحْسَبِي شَوْقِي فُكَاهَةَ مَازِحٍ ... فَمَا هُوَ إِلَّا الْجَمْرُ، أَوْ دُونَهُ الْجَمْرُ[١٣]
هَوًى كَضَمِيرِ الزَّنْدِ، لَوْ أَنَّ مَدْمَعِي ... تَأَخَّرَ عَنْ سُقْيَاهُ لَاحْتَرَقَ الصَّدْرُ[١٤]
إِذَا مَا أَتَيْتُ الْحَيَّ فَارَتْ بِغَيْظِهَا ... قُلُوبُ رِجَالٍ حَشْوُ آمَاقِهَا الْغَدْرُ[١٥]
يَظُنُّونَ بِي شَرًّا، وَلَسْتُ بِأَهْلِهِ ... وَظَنُّ الْفَتَى مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وِزْرُ[١٦]
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ إِنْ تَرَنَّمَ شَاعِرٌ ... بِقَافِيَةٍ لَا عَيْبَ فِيهَا، وَلَا نُكْرُ؟[١٧]
أَفِي الْحَقِّ أَنْ تَبْكِي الْحَمَائِمُ شَجْوَهَا ... وَيُبْلَى فَلَا يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ حُرٌّ؟[١٨]

---

(١١) الأنس: الطمأنينة، وهو ضد الوحشة. ونضارة العيش: بهجة الحياة وحسنها وبهاؤها ورونقها.

(١٢) هواك: حبك.

(١٣) الجمر: القطع الملتهبة من النار، الواحدة جمرة (كتمر وتمرة).

(١٤) الزند: العود الذى تقدح به النار، ويريد بضمير الزند: ما فيه من نار كامنة. والسقيا: اسم من سقاه الله الغيث، وأسقاه.

يقول: إن حبه شديد لاعج كالنار، لو تأخر دمعه عن سقيه لاحترق صدره.

(١٥) يريد بالحي حي الحبيبة. وفارت القدر ونحوها: جاشت وغلت. والآماق: جمع مؤق (بضم فسكون، أو بفتح فسكون) وهو طرف العين مما يلى الأنف، أو هو مقدمها، أو مؤخرها.

والمعنى: أن أمارات الغدر تظهر واضحة جلية فى عيونهم.

(١٦) البينة: الحجة والبيان والبرهان. والوزر: الإثم والذنب.

(١٧) ترنم: رجع صوته وغنى. والقافية: من آخر البيت إلى أول متحرك قبل ساكن بينهما، والمراد بالقافية هنا: القصيدة. والنكر: المنكر، وهو العيب والأمر القبيح.

(١٨) الشجو: الهم والحزن. ويبلى: يمتحن ويختبر (بالبناء للمجهول فى الأفعال الثلاثة)، والمراد يبلى بالشر، ويصاب بالأذى والمكروه.

والمعنى: ليس من الحق أن يباح للطير ما لا يباح للإنسان، أو أن تنحط مرتبة الإنسان عن مرتبة الطير.

وَأَىُّ نَكِيرٍ فى هَوًى شَبَّ وَقْدُهُ ... بِقَلْبِ أَخِى شَوْقٍ فَبَاحَ بِهِ الشِّعْرُ؟(١٩)

فَلا يَبْتَدِرْنِى بِالْمَلامَةِ عَاذِلٌ ... فَإِنَّ الْهَوَى فِيهِ لِمُعْتَذِرٍ عُذْرُ(٢٠)

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْحُبِّ فَضْلٌ عَلَى النُّهَى ... لَمَا ذَلَّ حَىٌّ لِلْهَوَى وَلَهُ قَدْرُ(٢١)

وَكَيْفَ أَسُومُ الْقَلْبَ صَبْرًا عَلَى الْهوى ... وَلَمْ يَبْقَ لِى فِى الْحُبِّ قَلْبٌ وَلَا صَبْرُ؟(٢٢)

لِيَهْنَ الْهَوَى أَنِّى خَضَعْتُ لِحُكْمِهِ ... وَإِنْ كَانَ لِى فِى غَيْرِهِ النَّهْىُ وَالْأَمْرُ(٢٣)

---

(١٩) النكير : الإنكار ، وهو تغيير المنكر ، أو استنكاره واستقباحه، والمراد بالتكير هنا : النكر (بضم فسكون) والعيب . والهوى : الحب . وشبّ وقده : اتّقدت ناره . وباح به : أظهره .

(٢٠) يبتدرنى بالملامة : يعاجلنى باللوم . وعاذل : لائم .

ومعنى الشطر الثانى : أن المحبّ العاشق جدير بأن يعذره الناس ، ويرفعوا عنه اللوم .

(٢١) الفضل : الزيادة ، ويراد بها زيادة القوّة: أى للحبّ قوّة زائدة وسلطان يتمكّن به من الغلب ، والسيطرة . والفضل : الإحسان ، والإنعام ، والخير . والنهى :العقول ، واحدتها نُهية (بضم فسكون) . ووقوع اللام فى جواب إذا غير معروف فى فصيح الكلام. ولو قال : ولو لم يكن للحب فضل . . . لاستقامت له العبارة . وله قدر : له شأن ومنزلة وحرمة ووقار .

والمعنى : أن للحب فضلا على عقول المحبّين ، فهو يذكيها ويرهفها، ولولا فضله وخيره لاستنكف ذوو الأقدار من ذله وهوانه .

أو المعنى : أن سلطان الحبّ أعظم من سلطان العقل، ومن أجل هذا يذلّ للحبّ كل عاشق محبّ ، ولو كان رفيع القدر ، عالى الشأن ، ذا حرمة ووقار .

(٢٢) أسومه: أكلّفه وأجشّمه ،وأكثر مايستعمل السوم فى العذاب والشرّ والظلم والمشقّة والسوء .

ومعنى الشطر الثانى : أن الحبّ برّح به وأضناه ، وذهب بقلبه وصبره .

(٢٣) ليهن: أصلها ليهنأ، من قولهم هنأه الطعام (من بابى ضرب وقطع) وكلّ أمر أتى بلا مشقّة ولا تعب فهو هنىء . . . والمصدر المؤوّل « أنى خضعت » فاعل يهنأ . وفى غيره : أى فى غير الهوى .

والمعنى : أنه خضع وانقاد لأحكام الحبّ ، مع عزّة نفسه ، وصلابة عوده ، وأنفته واستطالته على ما عدا الحبّ .

وفى هذا المعنى أو فيما يقرب منه يقول الشاعر :

ما ضَرَّ أنِّى عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً ... وبَنُو الزّمانِ وهنّ من عُبْدانِى

وَإِنِّى امْرُؤٌ تَأْبَى لِىَ الضَّيْمَ صَوْلَةٌ مَوَاقِعُهَا فِى كُلِّ مُعْتَرَكٍ حُمْرُ(٢٤)
أَبِىٌّ عَلَى الْحِدْثَانِ ، لَا يَسْتَفِزُّنِى عَظِيمٌ ،وَلَا يَأْوِى إِلَى سَاحَتِى ذُعْرُ(٢٥)
إِذَا صُلْتُ صَالَ الْمَوْتُ مِنْ وَكَرَاتِهِ وَإِنْ قُلْتُ أَرْخَى مِنْ أَعِنَّتِهِ الشِّعْرُ(٢٦)

وقال :

لِلشِّعْرِ فِى الدَّهْرِ حُكْمٌ لَا يُغَيِّرُهُ مَا بِالْحَوَادِثِ مِنْ نَقْضٍ وَتَغْيِيرِ(١)
يَسْمُو بِقَوْمٍ ، وَيَهْوِى آخَرُونَ بِهِ كَالدَّهْرِ يَجْرِى بِمَيْسُورٍ وَمَعْسُورِ(٢)

---

(٢٤) أبى الشيء يأباه : كرهه ، وعافه ، ولم يرضه . وتأبى صولته الضيم : أى صولته تكره له أن يضام : أى تدفع عنه الضيم ، وترده ، وتسبغ عليه العزة والمنعة . والضيم : الظلم . والصولة : السطوة والبأس . والمواقع : جمع موقع . والمعترك : موضع الاعتراك ، وهو القتال . أو هو مصدر ميمى بمعنى الاعتراك . وحمرة مواقع القتال : كناية عن كثرة ما يسيل فيها من الدماء .

يتمدح بأنه ذو بأس شديد ، وسطوة عظيمة . تكسبه العزة وإباء الضيم .

(٢٥) أبى : ذو إباء ، أى شديد ، جلد ، ممتنع . والحدثان : صروف الدهر ونوائبه وخطوبه . ولا يستفزنى : لا يستخفنى ، ولا يزعجنى . والساحة : الناحية ، وفضاء بين دور الحى ، والموضع المتسع أمام الدار . والذعر : الخوف والفزع .

(٢٦) صال الرجل فى الحرب : هجم ووثب على عدوه ، وصال : سطا وبطش واستطال ، (وبابه قال) . والوكرات : جمع وكرة ، وهى عش الطائر كالوكر (بفتح فسكون فيهما) ، والمراد بوكرات الموت : مكامنه ومواضعه . والأعنة : جمع عنان (ككتاب ، وهو سير اللجام الذى تمسك به الدابة . وإرخاء الشعر أعنته : كناية عن يسره وانقياده للشاعر ، وانطلاق لسانه به ، لأن الفرس إذا أرخى له العنان عدا وانطلق .

(١) يشير إلى افتتان الناس وإعجابهم بالشعر ، واستسلامهم لأحكامه ، وخلود هذه الأحكام على الرغم من تقادم العصور ، وتتابع الحوادث التى تنقض الأشياء وتغيرها . وفى الأبيات الآتية توضيح لهذا المعنى وتفصيل ، وأمثلة من التاريخ العربى فى الجاهلية والإسلام .

(٢) يسمو : يعلو ويرتفع . ويهوى آخرون به : أى يسقطهم ، ويخملهم ، ويهدم مجدهم . والميسور والمعسور : مصدران على وزن مفعول ، بمعنى اليسر والعسر (بضم فسكون فيهما) .

لَه أَوَابِدُ ، لَا تَنْفَكُّ سَائِرَةً فِى الْأَرْضِ مَا بَيْنَ إِدْلَاجٍ وَتَهْجِيرِ[٣]

مِنْ كُلِّ عَائِرَةٍ تَسْتَنُّ فِى طَلَقٍ يَغْتَالُ بِالْبُهْرِ أَنْفَاسَ الْمَحَاضِيرِ[٤]

تَجْرِى مَعَ الشَّمْسِ فِى تَيَّارِ كَهْرَبَةٍ عَلَى إِطَارٍ مِنَ الْأَضْوَاءِ مَسْعُورِ[٥]

تُطَارِدُ الْبَرْقَ إِنْ مَرَّتْ ، وَتَتْرُكُهُ فِى جَوْشَنٍ مِنْ حَبِيكِ الْمُزْنِ مَزْرُورِ[٦]

---

(٣) له : أى الشعر . والأوابد : القوافى الشرّد (بضم الشين وتشديد الراء)، والمراد القصائد الذائعة السائرة فى البلاد ، واحدتها آبدة . والإدلاج : سير الليل، أو هو السير من أول الليل . والتهجير : السير فى الهاجرة ، وهى نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر ، والهاجرة أيضاً : شدّة الحرّ .

والمراد أنها تسرى وتسير فى كلّ وقت ،لا يعوقها حرّ، ولا برد،وهذا كلّه كناية عن ذيوع الشعر وسيرورته وانتشاره وخلوده .

(٤) عائرة: قصيدةسائرة، على التشبيه بالفرس العائرة التىتنطلق مسرعة فى مرح ونشاط كأنهامتفلتة. وتستنّ : تجرى فى قوّة ونشاط . والطلق : الشوط ، والغاية التى يجرى إليها الفرس . ويغتال: يهلك . والبهر (بضم فسكون) :النهج(بفتحتين) وتتابع النفس وانقطاعه من الإعياء والتعب الشديد. والمحاضير : جمع محضير (كسكين) وهو الفرس الشديد الحضر (بضم فسكون) الذى يرتفع فى عدوه. وجملة « يغتال بالبهر . . . » صفة لطلق فى الشطر الأول . والمعنى أنه طلق لاتستطيعه جياد الخيل .

لما شبّه القصيدة السائرة بالفرس العائرة، قال إنها تجرى فى طلق يقطع أنفاس المحاضير .

(٥) فاعل تجرى : ضمير مستتر تقديره هى يعود على «عائرة» فى البيت السابق ، وجريانها مع الشمس فى تيّار الكهرباء يدلّ على سرعة الجرى ، وأعظم درجات الذيوع والانتشار . والإطار (ككتاب) : مايحيط بالشىء كإطار الصورة ونحوها . ومسعور :متوقّد مشتعل، اسم مفعول من سعرت النار ،أى ألهبتها وأوقدتها ، وهو صفة لإطار، والشطر الثانى كناية عن الشهرة والوضوح التامّ .

(٦) الجوشن : الدرع . وحبيك : فعيل بمعنى مفعول من الحبك (بفتح فسكون) وهو الشدّ والإحكام ، وإجادة نسج الثوب، وتحسين أثر الصنعة فيه . والمزن : السحاب، أو أبيضه، والقطعة مزنة (بضم فسكون) . وحبيك المزن: السحاب المجتمع المتراكم الشبيه بالثوب المحبوك .ومزرور :اسم مفعول من زرّ الإنسان القميص (من باب ردّ) إذا شدّ أزراره، وهو صفة لجوشن. لما شبّه المزن بالجوشن وهو الدرع ،وصفه بأنه مزرور .

يقول : إن العائرة عظيمة السرعة، حتى إنها تطارد البرق إن مرّت به ، فتتركه محبوساً فى شبه درع مزرورة من حبيك المزن .

صَحائِفٌ لَمْ تَزَلْ تُتْلَى بِأَلْسِنَةِ   لِلدَّهْرِ فى كُلِّ نَادٍ مِنْهُ مَعْمُورِ (٧)
يُزْهَى بِها كُلُّ سَامٍ فى أَرُومَتِهِ   وَيَتَّقِى الْبَأْسَ مِنْهَا كُلُّ مَغْمُورِ (٨)
فَكَمْ بِها رَسَخَتْ أَرْكَانُ مَمْلَكَةٍ   وَكَمْ بِها خَمَدَتْ أَنْفَاسُ مَغْرُورِ (٩)
وَالشِّعْرُ دِيوانُ أَخْلَاقٍ يَلُوحُ بِهِ   مَا خَطَّهُ الْفِكْرُ مِنْ بَحْثٍ وَتَنْقِيرِ (١٠)
كَمْ شَادَ مَجْدًا ، وَكَمْ أَوْدَى بِمَنْقَبَةٍ   رَفْعاً وَخَفْضاً بِمَرْجُوٍّ وَمَحْذُورِ (١١)

---

(٧) تتلى : تقرأ . والنادى : المجلس ينتدى إليه القوم،أى يجتمعون فيه، قيل: ولا يسمى نادياً حتى يكون فيه أهله . ومعمور : صفة لناد .

يقول : إن الشعر صحائف خالدة لا تزال تقرأ بألسنة الزمان فى كلّ ناد معمور من أنديته ومحافله .

والمعنى : أنها مأثورة باقية على مرّ الأيام، وكرّ الأعوام، يأثرها جيل عن جيل، ويتغنّى بها قبيل بعد قبيل .

(٨) يزهى : يعجب ويفتخر . وسام : مرتفع نابه عظيم القدر . والأرومة (بضم الهمزة وفتحها) : الأصل . والبأس : العذاب والشرّ . ومغمور : خامل خفىّ ساقط لانباهة له .

يقول : إن هذه الصحائف يفخر بها كل رفيع المكانة عظيم فى أصله وقومه ، ويتقى بأسها ، ويخشى شرّها كل خامل مغمور .

والمعنى : أنّ الشعر عظيم الخطر ،عالى المنزلة فى نفوس الناس جميعاً رفيعهم ووضيعهم .

(٩) بها : أى بالصحائف . ورسخت : ثبتت واستقرّت ، ورسوخ أركان المملكة : استقرار الملك وعزّته وقوّته . وخمدت الأنفاس : سكنت،من خمدت النار إذا سكن لهبها ، (وبابه دخل) . ومغرور : مخدوع ، والمراد الجرىء المزهوّ المعجب بنفسه .

يقول : إن الشعر يعزّ الملك ويقويه،ويثبّت أركان الممالك ويرسخها، ويخمل المزهوّ المغرور، ويخمد أنفاسه ويسقطه .

والمعنى : أن الشعر قوة عظيمة ذات أثر شديد فى حياة الناس ؛ فهى تبنى وتهدم، وترفع وتخفض ، وتعزّ وتذلّ .

(١٠) يلوح : يبدو ويظهر. وخطّه : كتبه وأثبته . والتنقير : البحث .

(١١) شاد : رفع . والمجد : العزّ والشرف . وأودى به : ذهب به وأهلكه . والمنقبة : المفخرة . ومحذور : اسم مفعول من حذرت الشىء ، إذا خفته واحترزت منه ، فالشىء محذور .

وفى البيت لفّ ونشر مرتّب، فالشاعر يقول: إن الشعر كثيراً ما يشيد مجد المرء ويرفعه رفعاً=

أَبْقَى زُهَيْرٌ بِهِ مَا شَادَهُ هَرِمٌ مِنَ الْفَخَارِ حَدِيثاً جِدَّ مَأْثُورِ (١٢)
وَفَلَّ جَرْوَلُ غَرْبَ الزِّبْرِقَانِ بِهِ فَبَاءَ مِنْهُ بِصَدْعٍ غَيْرِ مَجْبُورِ (١٣)

= إذا كان مرجوًّا لأمر من الأمور ، أو بسبب ما يرجى منه من الخير ، وكثيراً ما يذهب بمناقب الإنسان ، ويخفضه خفضاً إذا كان محذوراً مخوفاً ، أو بسبب شرّ يتوقع منه ويحذر ، وفى أربعة الأبيات الآتية توضيح لهذا المعنى وتفصيل وتمثيل .

(١٢) زهير بن أبي سلمى المزنى : شاعر جاهلىّ جليل القدر، خالد الذكر، بعيد الصيت ، اشتهر بالصدق ، وكرم الخلُق ، وعفّة القول ، وإيجاز اللفظ ، وغزارة الحكمة ، وتهذيب الشعر ، كما اشتهر بمدح هرم بن سنان بن أبي حارثة المرىّ ، من بنى مرّة بن عوف ، وكان هرم من سادات العرب وأجوادهم فى الجاهلية ، يضرب بجوده المثل ، ومن مأثور فضله وعمله الصالح حسن سعيه هو والحارث بن عوف فى الصلح بين قبيلتى عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، بتحمّلهما ديات القتلى التى بلغت ثلاثة آلاف بعير ، ولهذا ونحوه أعجب زهير بهرم ، ومدحه بمدائح خلّدت اسمه أبد الدهر ، حتى ضرب بمدحه له المثل ، فقال البارودى هذا البيت ، وقال البوصيرى فى بردته :

ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت يدا زهير بما أثنى على هرم

وهرم وزهير كلاهما مات قبيل بعثة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . وبه : أي بالشعر . وشاده : رفعه. والفخار : الفخر والتمدّح بالخصال الحميدة ، والمباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك . وجدّ مأثور : مأثور جدًّا ، أى باق خالد يأثره الناس : أى يذكرونه ، وينقلونه جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً إثر قبيل .

(١٣) فلّ غربه : ثلم حدّه ، وكسر شوكته . وجرول : اسم الحطيئة العبسى الشاعر المشهور الهجّاء المدّاح ، وكان جشعاً ، سؤولا ، ملحفاً ، متبرّماً بالناس ، كثير الشرّ ، قليل الخير ، متنقّلا فى القبائل ، وقد هجا الزبرقان بن بدر التميمىّ السعدىّ صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعامل عمر بن الخطاب على الصدقات ، وهو من سادات العرب ورؤسائهم ، وكان قد أنزل الحطيئة بجواره وأحسن إليه ، فاستماله بغيض بن عامر ، أحد بنى أنف الناقة ، وأنزله عنده ، وحمله على هجاء الزبرقان فهجاه ، وقد مات الحطيئة سنة ٥٩ هـ ، عن أكثر من ثمانين سنة ، وهو مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، ويعدّ أشعر المخضرمين . وتوفى الزبرقان فى عهد معاوية سنة ٤٥ هـ . وباء : رجع . والصدع : الشق فى شىء صلب . ومجبور : اسم مفعول من جبرت العظم (من باب قتل) أى أصلحته

يقول : إن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر ففلّ بالشعر غربه ، وأضعف شوكته ، وصدعه صدعاً لا يجبر ، على الرغم من جلال قدره ، ونباهة شأنه ، وهذا دليل على شدة تأثير الشعر ، وبقاء أثره . ومن أشدّ هجو الحطيئة للزبرقان قوله :

دع المكارم ، لا ترحل لبغيتها واقعد ؛ فإنك أنت الطاعم الكاسى

أخزَى جَرِيرٌ بهِ حَيَّ النُّمَيْرِ ، فَمَا عَادُوا بِغَيْرِ حدِيثٍ مِنْهُ مَشْهُورِ (١٤)
لَوْلَا أَبُو الطَّيِّبِ الْمَأْثُورُ مَنْطِقُهُ ما سَارَ فى الدَّهْرِ يَوْماً ذِكْرُ كَافُورِ (١٥)

وقال :

فُؤَادِي وَالْهَوَى قَدَحٌ وَخَمْرٌ أَمَا فى ذَاكَ لِي طَرَبٌ وسُكْرٌ ؟ (١)
يَلُومُونِى عَلَى كَلَفِي بِلَيْلَى وَلَيْلَى فى سَمَاءِ الْحُسْنِ بَدْرٌ (٢)

---

(١٤) جرير بن عطيّة بن الخطفى : شاعر إسلامىّ ، واسع الشهرة ، من كليب ، وكليب حىّ من يربوع من بنى تميم ، ولد باليمامة فى خلافة عثمان ، ونشأ هجّاء ، فوقعت بينه وبين الفرزدق والأخطل المهاجاة المشهورة ، وكان يختلف إلى البصرة ، ويمدح ولاة العراق كبشر بن مروان ، والحجّاج بن يوسف ، ثم اتّصل بعبدالملك ابن مروان فمدحه ، ومدح بعده الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشاماً ، ومات باليمامة سنة ١١٠ هـ . وحىّ النمير : قبيلة من بنى عامر بن صعصعة من هوزن ، وهوازن من قيس عيلان أحد شعوب مضر ، وسبب هجاء جرير لنمير أن الراعى النميرى شاعر هذه القبيلة كان قد استفزّ جريراً ، وأهانه ، واستخفّ به ، فهجاه جرير ، وهجا قومه بقصيدة طويلة اشتهر منها هذا البيت ، حتى قال فيه بعض علماء الأدب ورواة الشعر : إنه أهجى بيت قالته العرب مع التصوّن من الفحش ، وهو :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ، ولا كلابا

ولاريب أن جريراً بهذا الهجاء اللاذع أخزى الراعى النميرىّ وقومه وأذلّهم وأهانهم ، وانتقم لنفسه منهم شرّ انتقام ، ولقد بقى حديث هذا الهجاء مشهوراً (كما يقول البارودى) إلى اليوم ، وسيبقى كذلك مابقى الأدب العربى الخالد .

(١٥) أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى الشاعر الذائع الصيت ، المتوفى سنة ٣٥٤ هـ . وأبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدىّ من أمراء مصر المشهورين ، وكان عبداً اشتراه الإخشيد ملك مصر فنسب إليه ، ثم أعتقه ، فما زال يتقدّم عنده لعقله وحسن رأيه وشجاعته إلى أن صار من أكبر القوّاد الذين أسّسوا له دولته ، ثم ولى ملك مصر فى أواخر الدولة الإخشيديّة ، وخدمه كبار العلماء ، ومدحه أبو الطيّب المتنبى ، وكان يطمع فى أن يوليه كافور منصباً ، فلماخاب فيه أمله هرب من مصر وهجاه ، ومات كافور سنة ٣٥٧ هـ . والمأثور : المنقول الباقى الذى يأثره الناس بعضهم عن بعض ، ويروونه ويتحدّثون به . والمراد بمنطقه : شعره . والذكر : الصيت والثناء .

(١) الهوى : الحبّ . والقدح : الكأس . والطرب : خفّة تعترى من يشتدّ به السرور .
يقول : إن فؤاده كالقدح ، والهوى كالخمر ، وهو من أجل ذلك فى طرب وسكر .

(٢) الكلف : الولوع والغرام ، مصدر كلف فلان بكذا (من باب طرب) أى أولع به ، ولهج ، وتعلّق .

لَهَا خَدٌّ بِهِ لِلْحُسْنِ وَرْدٌ وَلَحْظٌ فِيهِ لِلْمَلَكَيْنِ سِحْرُ(٣)
تَضِنُّ عَلَىَّ بِالتَّسْلِيمِ تِيهاً وَهَلْ فِى سُنَّةِ التَّسْلِيمِ وِزْرُ؟(٤)
يَلُوحُ جَبِينُهَا فِى طُرَّتَيْهَا كَما أَوْفَى عَلَى الظَّلْمَاءِ فَجْرُ(٥)
وَتَبْسِمُ عَنْ جُمَانٍ فِى عَقِيقٍ يُقَالُ لَهُ بِحُكْمِ الذَّوْقِ : ثَغْرُ(٦)

وقال :

أَبَى الضَّيْمَ ، فَاسْتَلَّ الْحُسَامَ وَأَصْحَرَا وَذُو الْحِلْمِ إِنْ سِيمَ الْهَوَانَ تَنَمَّرَا(١)

---

(٣) اللحظ : النظر بمؤخر العين ، والمراد : عيناها الجميلتان الساحرتان ، أو نظراتها الفاتنة الساحرة. ويريد بالملكين: هاروت وماروت اللذين أشار الله إلى قصتهما فى القرآن الكريم فقال تعالى : « وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ » الآية ١٠٢ من سورة البقرة .

(٤) تيها : عجباً وكبراً . والوزر : الإثم والذنب ، والاستفهام للاستنكار ، أو للنفى .

(٥) يلوح : يبدو ويظهر . والجبين : الجبهة ، أو هو ناحيتها فوق الصدغ ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها . وطرتاها : مثنى طرة ، وهى الشعر الذى تصففه المرأة على جبهتها . وأوفى على الشىء : أشرف عليه .

وصف شعرها بالسواد ، وشبهه بالليل ، كما وصف جبينها ووجهها بالبياض والإشراق والبهاء ، وشبهه بالفجر .

(٦) تبسم (من باب ضرب) : من البسم (بفتح فسكون) وهو أقل الضحك وألطفه وأحسنه كالابتسام. والجمان: اللؤلؤ ، أو هنوات كاللآلئ من الفضة ، الواحدة جمانة ، وتشبه الأسنان بالجمان فى الصفاء والنقاء والبياض واللمعان . والعقيق (كأمير) : حجر كريم أحمر اللون غالباً . والثغر : مقدم الأسنان ، وما يبدو منها عند الابتسام ، ويطلق على الفم . شبه أسنانها بالجمان ، وشفتيها بالعقيق .

(١) أبى : امتنع ، ولم يقبل . والضيم : الظلم . واستل : انتزع وأخرج . والحسام : السيف القاطع . وأصحر : خرج إلى الصحراء ، والمراد : برز وظهر لعدوه لايواريه شىء ، وهذا كناية عن الشجاعة والجرأة وشدة البأس . والحلم : الأناة والصبر . وسيم الهوان : كلف الذل ، وحمل عليه (بالبناء للمجهول فى الأفعال الثلاثة) . وتنمر : تنكر وتغير ، وأوعد وغضب ، لأن النمر لا يرى إلا متنكراً غضبان فاتكاً .

وَطَارَتْ بِهِ فِى مُلْتَقَى الْخَيْلِ عَزْمَةٌ أَعَادَتْ جَبِينَ الصُّبْحِ بِالنَّقْعِ أَكْدَرَا(٢)

فَرَدَّ ذُبَابَ الْمَشْرَفِيِّ مُثَلَّماً وَغَادَرَ صَدْرَ السَّمْهَرِيِّ مُكَسَّرَا(٣)

جِلَادُ امْرِئٍ آلَى بِقَائِمِ سَيْفِهِ عَلَى الْمَجْدِ أَنْ يُولِيهِ نَصْراً مُؤَزَّرَا(٤)

جَدِيرٌ إِذَا مَا هَمَّ ـ أَنْ يَكْسُوَ الْقَنَا وَبِيضَ الظُّبَا ثَوْباً مِنَ الدَّمِ أَحْمَرَا(٥)

وَمَا كُلُّ مَنْ سَاسَ الْأَعِنَّةَ فَارِساً وَلَا كُلُّ مَنْ نَاشَ الْأَسِنَّةَ قَسْوَرَا(٦)

---

(٢) يريد بملتقى الخيل : ساحة الحرب حيث يلتقى الفرسان والأبطال للقتال والنزال . والعزمة : الإرادة القاطعة القويّة . والجبين : الجبهة، أو جانبها فوق الصدغ . والنقع : الغبار الساطع الذى تثيره حركات المتحاربين وسنابك خيلهم . وأكدر : صفة من الكدر ، وهونقيض الصفاء .

يقول : إن عزمته القويّة طارت به فى المعركة ، فغبّر بالنقع جبين الصبح .

والمعنى : أنه صال وجال فى ساحة الحرب .

(٣) ذباب السيف : حدّه ، أو طرفه . والمشرفىّ : السيف، نسبة إلى المشارف ، وهى قرى من أرض اليمن تشتهر بصنع السيوف. ومثلّماً: مفلولا مكسّراً . وغادر : ترك . والسمهرىّ : الرمح الصلب، نسبة إلى رجل اسمه « سمهر » كان يثقّف الرماح ويقوّمها ويبيعها. وصدر السمهرىّ :سنانه وأعلاه .

(٤) الجلاد : القتال بالسيوف . وآلى : أقسم وحلف . وقائم السيف : مقبضه . والمجد : العزّ والشرف . ويوليه: يسدى إليه ويعطيه ، ويهب له ، ويمنحه ، وأصله من الولى (بفتح فسكون) وهو القرب ؛ يقال : أوليت فلاناً الشىء ، أى أدنيتُه منه، وقرّبته إليه. ومؤزّراً: قويًّا بالغاً شديداً .

يقول : إن جلاده فى هذا المعترك كان جلاد امرئ أقسم بمقبض سيفه أن ينصر المجد نصراً عزيزاً ، ويدافع عن العزّ والشرف دفاعاً كريماً مجيداً .

(٥) همّ بالشىء : أراده ، (وبابه ردّ). والقنا : الرماح، الواحدة قناة . والبيض: جمع الأبيض، وهو من صفات السيف . والظبا : جمع ظبة (بضم ففتح) ، وهى حدّ السيف ونحوه .

يقول : إذا ما همّ بأمر من أمور الحرب كان حقيقاً بأن يكسو الرماح والسيوف ثياباً حمراً من دماء أعدائه .

(٦) ساس الأمر : دبّره وقام به ورعاه . والأعنّة: جمع عنان (ككتاب) وهو سير اللجام الذى تمسك به الدابّة . والفارس : راكب الفرس، والمراد المحارب الشجاع . وناشه بيده (من باب قال) : أخذه وتناوله . والأسنّة: جمع سنان (ككتاب) وهو حديدة الرمح التى يكون بها الطعن، والمراد بالأسنّة : الرماح . وقسور(كجعفر) : قوىّ شجاع .

وقال :

حَبَّذَا الرَّاحُ فى أَوَانِ الْبَهَارِ وَاقْتِرانُ الْكُئُوسِ بِالنُّــوَّارِ (١)
وَرَنِينُ الْأَوْتَارِ فى فَلَقِ الصُّبْـ ـحِ ، وَسَجْعُ الطُّيُورِ فى الْأَوْكَارِ (٢)
بَيْنَ جَوٍّ معَ الْغَمَائِمِ سَارِ وَفَضَــاءٍ مَعَ الْجَدَاوِلِ جَارِى (٣)
مَنْظَرٌ يَفْتِنُ الْعُقُولَ ، وَيَجْلُو صَفَحَاتِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ (٤)
إِنَّ عَصْرَ الشَّبَابِ فِينَا مُعَارٌ وَاللَّيَــالِى تَرُدُّ كُلَّ مُعَارِ (٥)
فَاسْرَحَا وَامْرَحَا ، فَقَدْ آذَنَتْنَا نَسَمَاتُ الصَّبَا بِخَلْعِ الْعِذَارِ (٦)

---

(١) الراح : الخمر . والأوان : الحين والزمان . والبهار : نبت طيب الريح ، أو هو أزهار البادية ، أو هو العرار (بفتح العين) الذى يقال له عين البقر ، وهو نبت جعد ، له زهرة صفراء تنبت أيام الربيع ، يقال لها العرارة ، والشاعر يريد بأوان البهار : زمن تفتح الأزهار فى فصل الربيع . والاقتران : الاتصال والاجتماع . والكئوس : أكواب الشراب ، واحدتها كأس . والنوّار : الزهر ، واحدته نوّارة (بضم النون وتشديد الواو فيهما) .

(٢) الرنين : الصوت . والأوتار : أسلاك العود ونحوه من آلات الطرب والموسيقى والغناء ، وهى التى تضرب فينبعث بها الصوت ، واحدها وتر (بفتحتين) كسبب وأسباب . وفلق الصبح : ضوءه . وسجع الطيور : هديلها وتغريدها . والأوكار : جمع وكر (بفتح فسكون) وهو عش الطائر .

(٣) الجوّ : الهواء . والغمائم : السحاب ، الواحدة غمامة . وسار : سائر .

يصف الهواء بأنه يجرى مع السحائب ، وهذا دليل على لطفه واعتداله ، ويصف الفضاء بكثرة أنهاره وجداوله الجارية ، حتى كأنه يجرى معها .

(٤) يفتن (من باب ضرب) : يعجب ويروق ويستميل . ويجلو : يصقل .

(٥) معار : عاريّة ، وهو اسم مفعول من قولهم : استعاره ثوباً ، فأعاره إيّاه .

والمعنى : أن الشباب فينا إلى ذهاب وفناء ، فهو كالعاريّة لا تلبث أن يستردّها صاحبها .

(٦) اسرحا : انطلقا واغدوا ، من قولهم : سرحت الماشية (من باب نفع) بالغداة ، وراحت بالعشى . وامرحا : أمر من المرح (بفتحتين) وهو شدّة الفرح والنشاط ، والمرح أيضاً : التبختر والاختيال . وهو يخاطب صاحبيه . وآذنتنا : أعلمتنا . والصبا (بفتح الصاد) : ريح تهبّ من مطلع الشمس ، وهى أحبّ الرياح إلى العرب ، ومقابلتها الدبور (بفتح فضم) . والعذار (ككتاب) : السير الذى على خدّ الدابّة من اللجام . وخلع العذار : كناية عن الاستهتار والخلاعة .

يقول لصاحبيه : اسرحا وامرحا ؛ فإن أنفاس الصبا تغرينا بالمرح والاستمتاع بمباهج الحياة ولذّاتها .

وَاغْنَما صَفْوَةَ الرَّبيعِ بِدَارًا فَالْأَمَانِى مَعْقُودَةٌ بِالْبِدَارِ[٧]

هُوَ فَصْلٌ تَخْتَالُ فِيهِ غُصُونُ الـ رَّوْضِ فى حِلْيَةٍ مِنَ الْأَزْهَارِ[٨]

مَائِساتٍ مِثْلَ الْعَذَارَى عَلَيْهِـنَّ ثِيابٌ دُرِّيَّةُ الْأَزْرَارِ[٩]

غَمَزَتْهَا يَدُ الصَّبَا ، فَتَلَوَّتْ رَاقِصَاتٍ عَلَى غِنَاءِ الْقَمَارِى[١٠]

رَشَفَتْ خَمْرَةَ النَّدَى مِنْ كُئُوسِ الـ زَّهْرِ حَتَّى تَمَايَلَتْ مِنْ خُمَارِ[١١]

فَانْتَبِهْ يَانَدِيمُ ،واسْتَصْبِحِ السَّا قِى بِكَأْسٍ تَفِيضُ بِالْأَنْوَارِ[١٢]

---

(٧) بداراً : مصدر بادرت إلى الأمر مبادرة وبداراً ، أى عاجلته ، وسارعت إليه .

يقول لصاحبيه : اغتنما صفوة الربيع وبهاءه مبادرين مسارعين ، فالأمانى تنال بالبدار والمسارعة .

(٨) تختال : المراد تهتز وتتمايل ، كالمتبختر المزهوّ المعجب بنفسه. والرّوض : جمع روضة ، وهى أرض ذات مياه وعشب وكلأ وشجر وزهر . والحلية (بكسر فسكون) : الحلى (بفتح فسكون) وهو ما تتزين به المرأة من المصوغات والجواهر ونحوها .

(٩) مائسات : متبخترات ، وهى حال من الغصون فى البيت السابق ، والمراد أنها تهتز وتتمايل كما تميس العذارى وتتهادى وتختال . والعذارى (بفتح الراء وكسرها) : جمع عذراء ، وهى الفتاة البكر . ودرّيّة : نسبة إلى الدرّ ، وهو اللؤلؤ .

يقول : إن هذه الأغصان تهتز وتمايل كما تميس الأبكار ، وعليهن من الأوراق ثياب خضر أزرارها زهر مشرق أبيض متلألئ كأنه الدرّ .

(١٠) غمزتها : مسّتها ، (وبابه ضرب) . وتلوّت : تثنّت . والقمارىّ (بتشديد الياء) : ضرب من الحمام الواحدة قمريّة (بضم فسكون فكسر فياء مشددة) .

(١١) رشفت : مصّت ، من الرشف ، وهو أخذ الماء بالشفتين ، (وبابه ضرب وقتل) . والندى : قطرات الماء التى تسقط على أوراق الزهر والشجر فى الصباح . وخمرة الندى : أى الندى الشبيه بالخمر . وكئوس الزهر : الزهر الشبيه بالكئوس . والخمار (بضم الخاء) : السكر وتأثير الخمر فى شاربها .

(١٢) انتبه : استيقظ . والنديم : من ينادمك ، أى يجالسك على الشراب . واستصبح الساقى : اطلب إليه الصبح (بفتح فسكون) مصدر صبحه ، أى سقاه الصبوح (بفتح فضم) وهى الخمر تشرب فى الصباح . وكأس تفيض بالأنوار : مشرقة متلألئة لنقائها وصفاء ما فيها من الشراب .

وَاسْقِيَانِي ، وَغَنِّيَانِي بِلَحْنٍ ... يَبْعَثُ النَّفْسَ مِنْ إِسَارِ الْوَقَارِ(١٣)

فَلَقَدْ آذَنَ الشِّتَاءُ بِسَيْرٍ ... وَاسْتَهَلَّتْ طَلَائِعُ النُّوبَهارِ(١٤)

وَاسْتَدَارَ النَّهَارُ حَتَّى تَساوَتْ ... كَفَّتَاهُ بَيْنَ الدُّجَى وَالنَّهَارِ(١٥)

وقال يفتخر :

يَلُومُونَنِي فِي الْجُودِ ، وَالْجُودُ مُزْنَةٌ ... إِذَا هَمَلَتْ فِي مَوْضِعٍ نَبَتَ الشُّكْرُ(١)

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُنْفِقْ مِنَ الْمَالِ وُسْعَ مَا ... دَعَتْهُ الْمَعَالِي فَالثَّرَاءُ هُوَ الْفَقْرُ(٢)

---

(١٣) اللحن: واحد الألحان، وهى الأصوات المصوغة الموضوعة للأغانى . والإسار (ككتاب): القدّ (بكسر القاف) وهو سير يشدّ به الأسير ويقيّد، والإسار أيضاً: اسم من أسره (من باب ضرب) أسراً وإساراً . والوقار : الرزانة والحشمة والتصوّن .

(١٤) آذن : أعلم . وآذن الشتاء بسير: انقضى ، وذهبت أيامه . واستهلّت (بالبناء للفاعل ، أو بالبناء للمفعول) : ظهرت ، من قولهم : استهلّ الهلال، إذا ظهر ، أو من قولهم : استهلّ الصبىّ، إذا صاح عند الولادة . وطلائع النوبهار: مقدّمات الربيع وأوائله .

(١٥) النهار : ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وكفّة الميزان (بكسر الكاف وفتحها) ، والمراد بكفتّى النهار : طرفاه . والدجى: جمع دجية وهى الظلمة (بضم فسكون فيهما) ، والمراد بالدجى : الليل. والشاعر يشير إلى اعتدال الليل والنهار فى فصل الربيع ، وتقاربهما فى الطول ، بخلافهما فى فى فصلىْ الصيف والشتاء .

(١) الجود : الكرم والسخاء . والمزنة: السحابة . وهملت: فاضت وسالت، أو دام مطرها فى سكون.

(٢) الوسع (بضم الواو وفتحها وكسرها) : الجهد والطاقة والجدة (بكسر ففتح). والثراء : كثرة المال . يقول : إن المعالى تتطلّب الإنفاق والبذل والسخاء ، فإذا لم ينفق المرء من ماله على قدر ما تتطلّبه المعالى، ويدعو إليه كسب الشرف — كان على كثرة ماله كالفقير المعدم . وهو يشير إلى أن المال لا يظهر أثره ، ولا تبين فائدته إلا فى كسب المعالى ، وبناء المجد .

وقال :

أرَى كُلَّ شَيْءٍ عُرْضَةً لِلتَّغَيُّرِ   فَمَا بَالُنَا بعْدَ الْحَقِيقَةِ نَمْتَرِى؟(١)
تَرَسَّمْ فَضَاءَ الْأَرْضِ شَرْقاً وَمَغْرِباً   عَسَاكَ تَرَى آثَارَ كِسْرى وَقَيْصَرِ(٢)

وقال :

أَلَائِمَتِى كُفِّى الْمَلَامَ عَنِ الَّذِى   أُحَاوِلُهُ مِنْ رِحْلَةٍ وَسِفَارِ(١)
فَلَوْلَا سُرَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ لَعَاقَهُ   عَنِ التِّمِّ لُبْثٌ فى مَغِيبِ سِرَارِ(٢)

(١) البال : الحال والشأن . ونمترى : نشكّ ونرتاب . ومعنى الشطر الثانى : فما بالنا نرتاب فى تغيّر الأشياء، وفناء العالم بعد ظهور هذه الحقيقة ، وقيام الأدلّة عليها فى كلّ زمان . والاستفهام للإنكار .

(٢) ترسّم : تأمّل وانظر . وكسرى (بكسر الكاف وفتحها) : لقب ملك الفرس ، معرّب خسرو (بفتح فسكون ففتح) أى واسع الملك . وقيصر : لقب ملك الروم .

والمعنى : أنك إذا ترسّمت آثار الدول والممالك البائدة علمت أن كلّ شىء إلى تغيّر وفناء وزوال ، وأن الله تعالى يداول الأيام بين الناس .

(١) أحاوله : أريده وأعالجه ، من المحاولة ، وهى طلب الشىء بالحيلة . والرحلة (بكسر الراء وضمها) : اسم من الارتحال وهو الانتقال والسفر ، أوهى بالكسر : الارتحال ، وبالضم : الوجه الذى يقصده المسافر . والسفار : السفر : مصدر سافر مسافرة وسفاراً .

(٢) سرى البدر : سيره . وعاقه : منعه وحبسه وصرفه ، (وبابه قال) . والتّمّ : مصدر تمّ الشىء يتمّ (بالكسر) تمّاً وتماماً (بتثليث التاء فيهما) ، وتمام القمر : أن يمتلىء ويتمّ ويصير بدراً . واللبث (بفتح اللام) مصدر لبث بالمكان (من باب سمع) أى مكث وأقام ، والاسم منه اللبث (بضم اللام) . والسرار (ككتاب وسحاب) : آخر ليلة من الشهر القمرىّ حين يستسرّ القمر ، أى يستتر ويختفى .

ومن الشعر الذى نسب إلى البارودى ، ولم يرد فى ديوانه :

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً   وإذا متّ لست أعدم قبرا
همّتى همّـــة الملوك ، ونفسى   نفس حُرٍّ ترى المذلّة كفرا

وفى هذه النسبة شكّ وارتياب .

قافية الزاى

قَالَ يُقَرِّظُ* دِيوانَ «حافظ بك إبراهيم»** :

هيْهَاتَ ، لَيْسَ لِحافِظٍ مِنْ مُشْبِهٍ فى الْقَوْلِ غَيْرُ سَمِيِّهِ الشِّيرازِى(١)
جَارَاهُ فى حُسْنِ الْبيَانِ ، وَفَاتَهُ فى الْمَنْطِقِ الْعَرَبِىِّ بِالْإِعْجَازِ(٢)

* يقرّظه : يمدحه ، ويثنى عليه .

** حافظ بك إبراهيم الشاعر المصرى المشهور ، كان مستخدماً بوزارة الحربية، ثم وزارة الداخلية ، ثم رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، توفى فى يوليه سنة ١٩٣٢ م وتولّت وزارة المعارف طبع ديوانه سنة ١٩٣٧ بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

وقد جمع «حافظ» فى حياته بعض شعره ، ونشره فى ثلاثة أجزاء : الأول سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١م) والثانى سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧ م) . والثالث سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) :

ويلاحظ أن البارودى عاد من منفاه إلى مصر فى اليوم السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ (الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٩ م) وأنه توفى أصيل يوم الاثنين السادس من شوال سنة ١٣٢٢ هـ (الثانى عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٤ م) ومن هذا يتضح أنه قرظ الجزء الأول من هذا الديوان سنة ١٩٠١ بعد عودته من سرنديب بنحو سنتين ، وقبل وفاته بنحو ثلاث سنوات . ومن مدائح حافظ للبارودى :

أَمِيرَ الْقَوَافِى ، إنَّ لى مُسْتَهَامَةً بِمَدْحٍ ؛ وَمَنْ لى فيه أَنْ أَبْلُغَ الْمَدَى؟
أَعِرْنِى لِمدْحِيكَ الْيَرَاعَ الَّذِى بِهِ تَخُطُّ ، وأَقْرِضْنِى الْقَرِيضَ الْمُسَدَّدا
ومُرْ كُلَّ مَعْنًى فارِسِىٍّ بِطاعَتِى وَكُلَّ نَفُورٍ منه أَنْ يَتَوَدَّدَا
وهَبْ لِىَ مِنْ أَنْوارِ عِلْمِكَ لَمْعَةً على ضَوْئِها أَسْرِى، وأَقْفُو مَنِ اهْتَدَى
وأَرْبُو على ذاكَ الْفَخُورِ بِقَوْلِهِ إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

(١) سميّه : نظيره ، ومن اسمه كاسمه . والشيرازىّ : هو شمس الدين محمد ، الشهير بحافظ الشيرازىّ ، المتوفى سنة ٧٩٢ هـ ، وله ديوان شعر باللغة الفارسية ، يعرف بديوان حافظ ، متداول مشهور ببلاد الفرس ، والناس هنالك يتمثّلون بأبياته ، ويعجبون بشعره .

(٢) جاراه : جرى معه ، وشاكله وشابهه . وفاته : سبقه . وفى هذا البيت إشارة إلى فضل اللسان العربىّ على سائر الألسنة واللغات ، وتفوّقه بالبلاغة والإعجاز .

لَبِق بِتَصْرِيفِ الْكَلَامِ يَسُوقُهُ ... مَا شَاءَ بَيْنَ سُهُولَةٍ وعَزَازِ(٣)

فَإِذَا تَغَزَّلَ فَالنُّفُوسُ نَوَازِعٌ ... وَإِذَا تَحَمَّسَ فَالْقُلُوبُ نَوازِى(٤)

كَالصَّارِمِ الْبَتَّارِ فى إِفْرِنْدِهِ ... وَصِقَالِهِ ، وَالْمَارِنِ الْهَزْهَازِ(٥)

حَاكَ الْقَرِيضَ بِلَهْجَةٍ عَرَبِيَّةٍ ... أَغْنَتْ عَنِ الْإِسْهَابِ بِالْإِيجازِ(٦)

أَلْفَاظُهَا نَمَّتْ عَلَى مَا تَحْتَهَا ... وَصُدُورُهَا دَلَّتْ عَلَى الْأَعْجَازِ(٧)

(٣) لبق : رفيق حاذق . وتصريف الكلام : تنويعه وتقليبه وتوجيهه . والعزاز (كسحاب) : ما صلب من الأرض واشتدّ .

يقول : إنه رفيق حاذق بتصريف الكلام ، مالك لأعنته ، خبير بوجوه القول ومقتضياته ؛ فهو يورده رقيقاً ليّناً سهلا إذا شاء ، ويجعله صلباً قويًّا جزلا إذا أراد .

(٤) تغزّل الشاعر: تحدّث فى شعره بأوصاف النساء ومحاسنهن ، وتغنّى بصبوته إليهنّ ، وذكر أحوالهنّ ، وما يجرى بينه وبينهنّ من هجر ووصال وغير ذلك ، وهو قريب من النسيب والتشبيب . ونوازع : مشتاقة متصابية ، جمع نازع ، وهي صفة من النزوع والنزاع ، بمعنى الشوق والحنين . وتحمّس : اشتدّ وصلب فى قوله ، وحضّ على الحماسة والشجاعة . ونواز : متوثبة متحمسة طامحة .

والمراد أن شعره جيد فى جميع الأغراض ، شديد التأثير فى النفوس .

(٥) الصارم ، والبتّار : السيف القاطع . وإفرند السيف : جوهره ووشيه وماؤه ورونقه . وصقاله : جلاؤه (بكسر الجيم) ، وهو اسم من صقل الصيقل السيف (من باب نصر) أى جلاه وأتمّ صنعه . والمارن : من صفات الرمح ، يقال : رمح مارن ، إذا كان مع صلابته لدناً (بفتح فسكون) أى ليّناً . والهزهاز : المهتزّ .

شبّه كلام الممدوح وشعره بالسيف القاطع فى وشيه ومائه ورونقه وصقاله ، ثم بالرمح المهتزّ فى المرونة والجودة .

والغرض بيان جماله وقوّته وشدّة تأثيره فى النفوس ، كما تقدّم فى البيت السابق .

(٦) حاك القريض: نسج الشعر (بكسرفسكون) ولاءم بين أجزائه ، وأجاد صياغته وتأليفه. والإسهاب : مصدر أسهب المتكلّم ، أى أكثر الكلام وأطاله . والإيجاز : إقلال الكلام فى بلاغة ووفاء بالغرض .

والمعنى : أن الممدوح يحوك الشعر وينسجه على منوال عربىّ سليم ، ويصوغه بأسلوب فصيح ، ولغة خالصة ، تغنى بإيجازها وبلاغتها عن الإسهاب والتطويل .

(٧) ألفاظها : أى ألفاظ اللهجة العربية التى تقدم ذكرها فى البيت السابق . ونمّت على ما تحتها : المراد دلّت دلالة واضحة على معانيها وما يراد منها . وصدورها : أوائلها ، جمع صدر . وأعجازها : أواخرها ، جمع عجز (بفتح فضم) .

فإِذَا تَلاَهَا قَارِئٌ لَمْ يَشْتَبِهْ فِي الْقَوْلِ بَيْنَ حَقِيقَةٍ وَمَجَازِ[٨]
عَبِقَتْ كَأَنْفَاسِ النَّسِيمِ تَعَلَّقَتْ بِالرَّوْضِ غِبَّ الْعَارِضِ الْمُجْتَازِ[٩]
قَدْ كَانَ جِيدُ الْقَوْلِ عُطْلاً قَبْلَهُ فَحَبَاهُ أَحْسَنَ حِلْيَةٍ وطِرَازِ[١٠]
مَلَكَتْ مَوَدَّتُهُ الْقُلُوبَ ، فَأَصْبَحَتْ تَلْقَاهُ بالتَّوْقِيرِ وَالْإِعْـزَازِ[١١]
لَا زَالَ يَبْلُغُ شَأْوَ كُلِّ فَضِيلَةٍ بِمَضَاءِ صَمْصَامٍ ، وصَوْلَةِ بَازِ[١٢]

= والمعنى : أنها فصيحة خالية من الإبهام والغموض ، واضحة غاية الوضوح ، سهلة تشفّ عن معانيها ، ويدلّ أوّلها على آخرها ، فليس فى قوافيها تكلّف ولا اعتساف .

(٨) تلاها : قرأها . يقول : إن ما فيها من الحقيقة والمجاز سواء فى الجمال والروعة والوضوح .

(٩) عبقت : لصقت وبقيت ، من قولهم : عبق به الطيب (كطرب) أى لزق ، والمراد : بقيت فى نفس القارئ آثارها الطيّبة . والنسيم : الريح الطيّبة . وأنفاسها: نسماتها وحركاتها اللطيفة الهادئة . والروض : الحدائق والغياض وماشابهها ، ومنابت الشجر والزهر ، الواحدة روضة (بفتح فسكون) . وغبّ : بعد . والعارض: السحاب يعترض فى الأفق . والمجتاز : اسم فاعل من قولهم : اجتاز فلان الطريق ، أى اجتابه وسلكه . والمراد بالعارض المجتاز : السحاب الذى مرّ بسماء هذه الرياض فأمطرها وجادها ، وكساها ثياب الغضارة والنضارة ، ونمت به أشجارها ، وتفتّحت أزهارها.

(١٠) الجيد (بكسر الجيم) : العنق (بضمتين) . وعطل (بضم فسكون) : خال من الحلى والزينة . وحباه : أعطاه ومنحه . والحلية (بكسر فسكون): ماتتزيّن به المرأة من مصوغ المعدنيّات والحجارة الكريمة ، والحلية أيضاً : الزينة . والطراز (ككتاب) : علم الثوب ، ومايكون فيه من وشى وزينة ، وطرّزت الثوب تطريزاً : جعلت له طرازاً .

والمعنى : أنه سبق إلى إحياء الشعر وتجويده وتنميقه ، وبلغ من ذلك غاية لم يبلغها غيره .

(١١) مودّته: محبّته ، أى محبّة الناس له . والتوقير: الإجلال والإكبار والتعظيم . والإعزاز : الإكرام.

(١٢) الشأو : الأمد والغاية . وسيف صمصام: صارم قاطع لا ينثنى ولا ينبو. والصولة : الوثوب والسطوة . والبازى والباز : ضرب من الصقور ، يضرب المثل بقوّته وإبعاده فى الطيران .

يدعو له بالاستمرار فى بلوغ غايات الفضائل بعزم شديد نافذ يمضى مضاء الصمصام ، وهمّة رفيعة عالية قويّة كصولة البازى

قافية السين

قال يَصِفُ رَوْضَةَ الْمِقْيَاس* :

هَلْ فى الْخَلَاعَةِ وَالصِّبا مِنْ باسِ بيْنَ الْخَلِيجِ وَرَوْضَةِ الْمِقْيَاسِ؟[1]
أَرْضٌ كَسَاهَا النِّيلُ مِنْ إِبْدَاعِهِ وَلِباسِهِ الْمَوْشِيِّ أَىَّ لِباسِ[2]
فَكَأَنَّمَا هَوَتِ الْمَجَرَّةُ بَيْنَهَا فَتَشَكَّلَتْ فى جُمْلَةِ الْأَغْراسِ[3]
يَتَلَهَّبُ النُّوَّارُ فى أَطْرافِها فَتَخَالُهُ قَبَساً مِنَ الْأَقْبَاسِ[4]

---

* روضة المقياس : جزيرة جميلة طيّبة الهواء فى نهر النيل، شرقىّ الجيزة وغربىّ مصر القديمة ، وفى جنوبىّ هذه الجزيرة مقياس تقاس به مياه النيل إبّان فيضانه وانخفاضه .

(١) الخلاعة : الانهماك فى أسباب اللهو ودواعيه ، كأنّ صاحبها خلع عذاره ، وأعطى نفسه هواها. والصبا : جهلة الفتوة ، واللهو من الغزل ، والشوق والحنين إلى النساء ، والانقياد لأسباب الهوى ودواعيه . وبأس : خوف وحرج . والخليج : جدول كان يتفرّع من النيل بالقرب من مصر القديمة وروضة المقياس.

(٢) الإبداع : مصدر أبدع المبدع ، أى أتى بأمر لم يسبقه أحد إليه. والموشىّ : المنقوش المزخرف، المختلف الألوان ، البهيج المنظر. و « أىّ » فى مثل هذا الموضع تفيد التعظيم والتفخيم .

وهو يشير إلى ما أفاضه النيل على هذه الأرض من أسباب الغضارة والنّضارة والبهجة والنعيم، وما أنبته فيها من أنواع النبات والشجر والزهر .

(٣) هوت : سقطت . والمجرّة : نجوم كثيرة تبدو فى السماء دقيقة متقاربة مختلطة الضوء كالبياض المعترض فى السماء . وتشكّلت : تصوّرت ، أى المجرّة. والأغراس : جمع غرس (بفتح فسكون) : وهو الشجر المغروس. والشاعر هنا يتخيّل أن السماء هوت بمجرّتها ونجومها على هذه الروضة ، لكثرة ما بها من أزهار متفتّحة مشرقة .

(٤) يتلهّب : يتّقد . والنوّار: الزهر ، واحدته نوارة (بضم النون وتشديد الواو) . وتخاله : تظنّه . والقبس : الشعلة من النار ، والجمع أقباس (بوزن سبب وأسباب) .

يصف زهرها بالإشراق والتلألؤ والبهاء ، ويشبّهه بقبس النار .

لَوْلَا مِسَاسُ الطَّلِّ أَحْرَقَ ضَوْءُهُ ذَيْلَ الْخَمَائِلِ : رَطْبِها وَالْعَاسِى (٥)
تَصْبُو الْعُيُونُ إِلَى سَنَاهُ ، فَتَرْتَمِى مَهْوَى الْفَرَاشَةِ لَامِعُ النِّبْرَاسِ !؟ (٦)
لَوْ شَامَ بَهْجَتَهَا وحُسْنَ رُوَائِها (فِيمَا أَظُنُّ) لَحَارَ عَقْلُ إِيَاسِ (٧)
مَلْهَى أَخِى طَرَبٍ ، وَمَلْعَبُ صَبْوَةٍ وَثَرَى بُلَهْنِيَةٍ ، وَدَارُ أُنَاسِ (٨)
مَا كُنْتُ فى عُمْرِى لِأَغْدُوَ نَحْوَها حَتَّى أَبِيتَ بِها صَرِيعَ الْكَاسِ (٩)

(٥) مساس : لمس ، مصدر ماسه مماسة ومساساً ، بمعنى مسه . والطل : المطر الضعيف القليل ، والمراد قطرات الندى التى تكون على أوراق الزهر فى الصباح . وضوءه : ضوء النوار . والخمائل : جمع خميلة ، وهى الشجر الكثير المجتمع الملتف . والعاسى : اليابس الجاف .

فى البيت السابق قال : إن النوار يتلهب فى نواحى روضة المقياس كأقباس النار . ويقول فى هذا البيت : لولا ما يتساقط عليه من الندى والطل لأحرق ضوءه أطراف الخمائل رطبها ويابسها . والغرض المغالاة فى تشبيهه بالنار ، وبيان بهائه وإشراقه .

(٦) تصبو : تميل . وسناه : ضوءه ، أى ضوء النوار . ومهوى : اسم مكان بمعنى مسقط ، من هوى يهوى (كرمى يرمى) . والفراشة : حشرة تطير وتتهافت على السراج ، والجمع فراش (بفتح الفاء) . والنبراس : المصباح والسراج .

يقول : إن عيون الرائين تميل إلى ضوء النوار فترتمى عليه ، ولاعجب فإن الفراشة تسقط دائماً على السراج اللامع .

(٧) شامها : نظر إليها ، وتطلع نحوها ببصره ، (وبابه باع) . والبهجة : الحسن والنضارة وجمال اللون . والرواء (بضم الراء) : المنظر الحسن . و « فيما أظن » : جملة معترضة بين شرط « لو » وجوابها . وإياس بن معاوية بن قرة المزنى ، المضروب به المثل فى الألمعية والفطنة والذكاء وصدق الفراسة ، ولى قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز ، وتوفى سنة ١٢٢ هـ .

يقول : إن إياساً لو نظر إلى بهجة هذه الروضة ، وحسن روائها — لبهر ودهش وتحير ، وخفيت عنه أسرار نضارتها وبهائها ؛ على فرط ذكائه ، ورجحان عقله .

(٨) ملهى مكان لهو ولعب . والطرب : خفة تعترى الإنسان عند شدة الفرح ، أو عند شدة الحزن والهم . والصبوة (بفتح فسكون) : جهلة الفتوة . والثرى : الأرض . والبلهنية : الرخاء وسعة العيش . وأناس : أقوام .

والمعنى : أنها مع ما جمعت من الطرب واللهو والنعيم ، هى أيضاً دار ناس أحبهم وأهفو إليهم . والتنكير فى « أناس » هنا بديع ، لأن من عادة العاشق الإبهام والتعمية .

(٩) أغدو : أسير وأذهب ، من الغدو ، وهو سير أول النهار . وصريع : مصروع ، من صرعه ، أى طرحه على الأرض . والكأس : الزجاجة ما دام فيها شراب ، أو الإناء يشرب فيه ، أو هى الخمر نفسها . والمراد أنه يبيت سكران .

يا سَاقِيَيَّ ، تَنَبَّهَا ، فَلَقَدْ بَدَا فَلَقُ الصَّبَاحِ ، وَلَاتَ حِينَ نُعَاسِ (١٠)
طُوفَا عَلَيَّ بِهَا ، فَقَدْ نَمَّ الصَّبَا أَثْنَاءَ رَوْحَتِـهِ بِسِرِّ الْآسِ (١١)
مِنْ خَمْرَةٍ أَفْنَى الزَّمَانُ شَبَابَهَا فِى مُخْدَعٍ بِقَرَارَةِ الدِّيمَاسِ (١٢)
حُبِسَتْ عَنِ الْأَبْصَارِ ، حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَدْرِ غَيْرَ الدَّيْرِ وَالشَّمَّاسِ (١٣)
يَنْزُو لِوَقْعِ الْمَاءِ دُرُّ حَبَابِهَا نَزْوَ الْمَعَابِلِ طِرْنَ عَنْ أَقْوَاسِ (١٤)

(١٠) يا ساقيَّ: نداء لمثنى الساقى ، وهو منادى مضاف إلى ياء المتكلم . وتنبها : استيقظا . وبدا : ظهر . وفلق الصباح : ضوءه . ولات حين نعاس : أى ليس الوقت وقت نوم .

(١١) نم بسره : أظهره وأفشاه . والصبا (بفتح الصاد) : ريح تهب من مطلع الشمس ، وهى مؤنثة ، ولعل الشاعر ذكرها قياساً على الريح ، وهى تذكر وتؤنث . وأثناء روحتها : فى أثناء حركتها وهبوبها ، والأثناء : جمع ثنى (كبئر) وهى طيات الشىء وطاقاته . وليست ظرف زمان ، ولكن المولدين استعملوها بمعنى طيات الزمن ، فنصبوها على الظرفية ، وعلى ذلك جرى الشاعر . والروحة : اسم مرة من الرواح ، وهو الرجوع آخر النهار ، وضده الغدو . والآس ، ضرب من الرياحين ، أوهو شجر ورقه عطر ، وخضرته دائمة أبداً ، ويسمو حتى يكون شجراً عظاماً . والمراد بسر الآس : طيبه ورائحته الذكية .

يقول لساقيه : طوفا على بالخمر ، فقد هبت ريح الصبا لطيفة عطرة ، تحمل عبير الأزهار والرياحين . جعل حمل الصبا لعبير الرياحين والأزهار ، وتنقلها به فى كل مكان ، كمن ينم على غيره ، ويفشى سره .

(١٢) من خمرة : بيان للضمير المجرور بالباء فى البيت السابق . ومعنى أفنى الزمان شبابها : أنها قديمة معتقة جيدة . والمخدع (بتثليث الميم) : الخزانة ، وبيت صغير يحرز فيه الشىء . والقرارة : ماقر فيه الشىء ، أى ثبت وسكن ، والمطمئن من الأرض . والديماس (بفتح الدال و كسرها) : السرب (بفتحتين) . والكن (بكسر الكاف ، وتشديد النون) ، والسجن . وفى الأصل « ديماس » بدون ال .

(١٣) حبست : أى الخمر . والدير (بفتح فسكون) : خان النصارى ، وصومعة الراهب . والشماس (كشداد) : من رءوس النصارى ، وهو الذى يحلق وسط رأسه ، ويلزم البيعة (بكسر الباء) ، وهى متعبدهم ، وجمعه شمامسة .

يقول : إن هذه الخمر حبست زماناً طويلا فى الدير . وقد اشتهرت الأديرة منذ القدم بتعتيق الخمر .

(١٤) ينزو : يثب ، والمراد يطفو . والحباب (كسحاب) : النفاخات والفقاقيع التى تطفو على سطح الماء والشراب كأنها القوارير ، وتسمى اليعاليل . ودر حبابها : أى حبابها الشبيه بالدر ، وهو اللآلئ ، من إضافة المشبه به للمشبه . والمعابل : جمع معبلة (كمكنسة) ، وهى نصل السهم يكون عريضاً طويلا . والمراد بالمعابل : السهام . والأقواس : جمع القوس العربية التى يرمى عنها .

فَإِذَا تَعَاوَرَهَا الْمِزَاجُ تَوَجَّسَتْ حَذَرَ الْمَهَانَةِ أَيَّمَا إِيجاسِ (١٥)
تُشْتَفُّ مِنْ تَحْتِ الْحَبَابِ كَأَنَّهَا ياقُوتَةٌ قَدْ رُصِّعَتْ بِالْمَاسِ (١٦)
مَا حُلَّ بَيْنَ الْقَوْمِ عَقْدُ وِكائها لِلشُّرْبِ إِلَّا آذَنَتْ بِعُطَاسِ (١٧)
لَا يَخْدَعَنَّكَ فِى الْمُدَامَةِ جَاهِلٌ إِنَّ الْمُدَامَةَ نُهْزَةُ الْأَكْيَاسِ (١٨)
إِنَّ الْمُدَامَ أَسَاسُ كُلِّ طَرِيفَةٍ فاجْعَلْ بِناءَ اللَّهْوِ فَوْقَ أَساسِ (١٩)
لَا تَجْمَعُ الْأَيَّامُ كَيْفَ تَصَرَّفَتْ فِى الْقَلْبِ بَيْنَ الْخَمْرِ وَالْوَسْوَاسِ (٢٠)

= يقول : إن الخمر تمزج بالماء ، فيطفو عند وقوع الماء وسقوطه فوقها حباب كالدرّ ، يثب وثوب السهام تطير عن الأقواس . وهذا من أمارات قدمها .

(١٥) تعاورها : تداولها. ومزاج الشراب : مايمزج به . والتوجّس والإيجاس: الإحساس بالفزع والخوف، والتسمّع إلى الصوت الخفىّ من الفزع . والمهانة : الحقارة والذلّة . وأيّما إيجاس : إيجاساً عظيماً .

يقول : إنها تخشى المزاج ، لأنه يذهب بحدّتها وقوّتها .

(١٦) تشتفّ : تشرب، مضارع اشتفّ الشارب مافى الإناء، إذا تقصّى شربه، أى شربه كلّه . والياقوتة : واحدة الياقوت، وهو جوهر كريم معروف ، وأجوده الأحمر الرمّانى . ورصّعت : زيّنت وحلّيت ، من قولهم : تاج مرصّع بالجوهر، وسيف مرصّع. يشير إلى حمرة الخمر ، وبياض الحباب فوقها .

(١٧) العقد : مصدر عقدت الحبل ونحوه (من باب ضرب) أى شددته وربطته . والوكاء (ككساء) : رباط القربة ونحوها، وكلّ سير أو خيط يشدّ به فم السقاء والوعاء ، وكلّ ما شُدّ رأسه من وعاء ونحوه وكاء . وآذنت : أعلمت . والعطاس (كغراب) : الصبح .

والمعنى : أنه كلّما حلّ بين شاربيها وكاؤها المعقود ، ظهرت لهم فى آنيتها نقيّة مشرقة كالصبح المسفر .

(١٨) خدعه يخدعه (من باب قطع): ختله وأراد به المكروه من حيث لايعلم . والمدامة (بضم الميم) : الخمر . والنهزة (بضم فسكون) : الفرصة، وهى اسم للشىء الذى هو لك معرض كالغنيمة . الأكياس : جمع كيس (بفتح فسكون) وهو الظريف العاقل كالكيّس (بالفتح والتشديد) .

(١٩) طريفة : صفة من طرف الشىء (من باب كرم) طرافة، إذا كان مستحدثاً معجباً مستملحاً ، تميل إليه النفس .

(٢٠) كيف تصرّفت : كيف تقلّبت وتغيّرت . والوسواس (بفتح الواو وكسرها) : حديث النفس بما لا نفع فيه ، والمراد الهمّ والبلبال .

يقول : إن الأيام مهما تقلّبت وتغيّرت ، وكثرت صروفها وأحداثها — لا تستطيع أن تجمع فى قلب واحد بين الخمر والهمّ .

والمعنى : أن الخمر (فى زعمه) تزيل هموم القلب وبلابله ووساوسه .

فَاسْتَوْثِقَا (أَخَوَيَّ) مِنْ شَأْنَيْكُمَا ... وَذَرَا الْمَطِيَّ تَمُورُ بِالْأَحْلَاسِ (٢١)
إِنَّ الْفَلَاةَ لَهَا رِجَالٌ غَيْرُنَا ... يَبْغُونَ نَيْلَ الْيُسْرِ بِالْإِفْلَاسِ (٢٢)
إِنَّ الْغِنَى وَالْفَقْرَ فِي هَذَا الْوَرَى ... لَمُقَدَّرٌ ، وَاللهُ ذُو قِسْطَاسِ (٢٣)
فَعَلَامَ يُبْلِي الْمَرْءُ جِدَّةَ عُمْرِهِ ... مُتَقَلِّباً بَيْنَ الرَّجَا وَالْيَاسِ ؟ (٢٤)
أَوَ لَيْسَ أَنَّ الْعَيْشَ لُبْسُ عَبَاءَةٍ ... وَسِدَادُ مَسْغَبَةٍ ، وَنَغْبَةُ حَاسِي ؟ (٢٥)

(٢١) الشأن : الأمر والحال . واستوثق من شأنك. خذ فيه بالثقة. والمراد : فكّرا فى حاليكما ، وخذا بما ينفعكما . أو المعنى: ثقا واطمئنا لما أنتما فيه من لهو ولذّة وشراب . وذرا : اتركا . والمطىّ : جمع مطيّة ، وهى الركوبة من الإبل وغيرها ، وأصلها الناقة التى يركب مطاها ، أى ظهرها . وتمور : تتحرّك وتضطرب ، من قولهم : مارت الناقة فى سيرها ، إذا ماجت وتردّدت . والأحلاس : جمع حلس (بكسر فسكون) وهو كساء يوضع على ظهر الدابّة تحت الرحل والسرج والبرذعة ونحوها .

يدعو صاحبيه إلى الاستيثاق من أمرهما ، والاطمئنان لما هما فيه ، وترك حياة التنقل والسفر والشقاء .

(٢٢) الفلاة : الصحراء . ويبغون : يطلبون . واليسر: الغنى والسعة . وبالإفلاس : بسبب إفلاسهم وذهاب أموالهم .

أو المعنى : أنهم يطلبون نيل الغنى والسعة والثروة بسعى غير مجد ، هو الإفلاس والإخفاق .

(٢٣) الورى : الخلق (بفتح فسكون) . والقسطاس (بضم القاف وكسرها) : أقوم الموازين وأعدلها ، أو هو ميزان العدل . وذو قسطاس . عادل حكيم .

والمعنى : أن حظّ الناس من الغنى والفقر بتقدير الله العادل الحكيم ، لا بكثرة السعى والكدّ .

(٢٤) يبلى : يُخْلِق ، من قولهم : أبليت الثوب ، أى صيّرته بالياً خلَقاً ، وأذهبت جدّته . والجدّة : مصدر جدّ الشىء يجدّ (بالكسر) جدّة فهو جديد ، وهو خلاف القديم البالى . والرجاء من الأمل : نقيض اليأس . واليأس القنوط وانقطاع الرجاء .

(٢٥) العيش : الحياة . واللبس (بضم فسكون) : مصدر لبست الثوب (كفَرِحْتُ) . والعباءة : ضرب من الأكسية الواسعة . والسداد (بكسر السين) : ماتسدّ به الخلّة والحاجة ، من قولهم : سداد من عوز . والمسغبة : الجوع ، أو الجوع مع التعب . والنغبة (بفتح فسكون) : الجرعة ، وقد تضم النون ، أو هى بالفتح اسم مرّة ، وبالضم اسم من قولهم : نغب الطائر (كمنع ، ونصر ، وضرب) : أى حسا من الماء ، ونغب الإنسان فى الشرب ، إذا جرع الشراب وابتلعه . والحاسى : اسم فاعل من حسوت المرق ونحوه (من باب عدا) أى شربته شيئاً بعد شىء .

والمعنى : أن الإنسان ليس له من حياته إلا ما يستّر به جسمه ، ويسدّ جوعه ، ويطفئ عطشه ؛ فلا ينبغى أن يشتدّ حرصه عليها ، ويفنى جدّة عمره فى تحصيلها .

تَاللهِ لَوْ عَلِمَ الرِّجَالُ بِمَكْرِها عِلْمِى - لَباعُوهَا بِغَيْرِ مِكَاسِ (٢٦)
هِىَ سَاعَةٌ تَمْضِى ، وَتَأْتِى سَاعَةٌ وَالدَّهْرُ ذُو غِيَرٍ بِهَذَا النَّاسِ (٢٧)
فَخُذَا مِنَ الأَيَّامِ مَا سَمَحَتْ بِهِ لِلنَّفْسِ قَبْلَ تَعَذُّرٍ وَشِماسِ (٢٨)
وَإِذَا أَرَابَكُمَا الزَّمَانُ بِوَحْشَةٍ فَاسْتَمْخِضَاهُ الْيُسْرَ بِالْإِينَاسِ (٢٩)
إِنَّ الرَّوَائِمَ لَا تَدُرُّ لَبُونُهَا إِلَّا بِلِينِ الْمَسْحِ وَالْإِبْسَاسِ (٣٠)

---

(٢٦) بمكرها : أى بمكر الدنيا وخداعها وسوء منقلبها . والمكاس: مصدر ماكسه فى البيع مماكسة ومكاساً ، أى شاحّه وجادله بنقص الثمن .

والمراد : باعوها بيعاً هيّناً سهلا ، وزهدوا فيها ، وانصرفوا عنها .

(٢٧) غير الدهر : أحداثه ونوازله . وأحواله المتغيّرة .

(٢٨) شماس (بكسر الشين) : صعوبة ، وأصله مصدر شمست الدابة (من باب دخل) أى شردت وجمحت ، ومنعت ظهرها .

(٢٩) أرابكما : ساءكما، وأزعجكما، وأراكما ماتكرهان. والوحشة: الهمّ ، وهى خلاف الأنس والطمأنينة. واستمخضاه اليسر : اطلبا إليه اليسر، واستخرجاه منه، من قولهم : مخضت اللبن، إذا استخرجت زبده بوضع الماء فيه وتحريكه . وإذا لم توجد استمخض فى المعجمات، فإن زيادة الهمزة والسين والتاء للطلب قياسيّة عند جماعة من الصرفيين . والإيناس : خلاف الإيحاش، مصدر آنسه ، أى أدخل عليه الأنس والطمأنينة .

يقول : وإذا ساءكما الزمان ، وانصرف عنكما ، فأقبلا عليه ، وتلطّفا له ، حتّى تعود وحشته أنساً ، وعسره يسراً .

(٣٠) الروائم : النوق والدوابّ التى ترأم أولادها وتحبّها وتألفها وتعطف عليها، الواحدة رائم أو رائمة . وتدرّ : مضارع أدرّت الناقة ونحوها ، أى درّ لبنها وكثر ، أوهى تدرّ ، مضارع درّت الحلوبة (من بابى قتل وضرب) أى سال لبنها ، ونزل بالحلب . واللّبون (بفتح اللام) من الشاء والإبل : ذات اللبن . ولين المسح : أى مسح ضرعها مسحاً رفيقاً ليّناً عند الاستدرار . والإبساس : التلطّف والرفق فى حلبها ، أو هو أن يمسح الحالب ضرع الناقة ونحوها ويسكّنها لتدرّ .

يقول : إن ذات اللبن لا تدرّ إلا بالرفق والتلطّف لها. وهذا مثل ضربه لتعزيز معنى البيت السابق .

فَلَرُبَّ صَعْبٍ عَادَ سَهْلًا بَعْدَمَا قُطِعَتْ عَلَيْهِ مَرَائِرُ الْأَنْفَاسِ (٣١)

مَا كُلُّ مَا طَلَبَ الْفَتَى هُوَ مُدْرِكٌ إِنَّ الْأُمُورَ بِحِكْمَةٍ وَقِيَاسِ (٣٢)

وقال :

وَذِى نَخْوَةٍ نَازَعْتُهُ الْكَأْسَ مَوْهِناً عَلَى غِرَّةِ الْأَحْرَاسِ واللَّيْلُ دَامِسُ (١)

فَمَا زِلْتُ أَسْقِيهِ ، وَأَشْرَبُ مِثْلَهُ إِلَى أَنْ هَفَا سُكْرًا وَإِنِّى لَجَالِسُ (٢)

فَبِتُّ أَقِيهِ السُّوءَ إِذْ كَانَ صَاحِبِى وَأَحْرُسُهُ ،إِنِّى لَدَى الْخَوْفِ حَارِسُ (٣)

لَدَى مَوْطِنٍ لَا يَصْحَبُ الْمَرْءَ قَلْبُهُ حِذَارًا ، وَلَا تَسْرِى إِلَيْهِ الْهَوَاجِسُ (٤)

---

(٣١) المرائر : جمع مرارة، وهى كيس لازق بالكبد يتأثّر بالتعب والإجهاد . والأنفاس : جمع نفس (بفتحتين) . جعل للأنفاس مرائر على المجاز .

والمعنى : أن الصعب البعيد من المطالب قد يعود بالرفق والتلطّف سهلا يسيراً بعدما ينقطع دونه كلّ جهد ، وتذهب كلّ قوّة .

(٣٢) الحكمة: العدل والعلم والحلم . والقياس: مصدر قاس الإنسان الشيء بغيره أو عليه ، إذا قدّره على مثاله .

والمعنى : أن الإنسان قد يخفق فى بعض مطالبه ؛ لأن الأمور تجرى فى هذه الحياة بحكمة ونظام خاصّ . أو المعنى : أن الأمور تنقاد للحكيم العاقل الرفيق ، الذى يحسن فهم الحياة ويقيس الأشياء بأشباهها ونظائرها .

(١) النخوة : الكبر والفخر والعظمة . ونازعته : عاطيته وناولته ، والمنازعة (فى الأصل) : المجاذبة. والموهن : نحو من نصف الليل، أو هو بعد ساعة منه ، أوهو حين يدبر الليل . وعلى غرّة : على غفلة . والأحراس : جمع حارس . ودامس : شديد الظلمة .

(٢) هفا سكراً : تمايل واهتزّ من السكر .

(٤) الموطن : المشهد من مشاهد الحرب والقتال . وحذارا : محاذرة واحتراساً وخوفاً . وتسرى (كترمى) : تسير . والهواجس : الخواطر ، وما يدور فى النفس من الأحاديث والأفكار ، وهذا كناية عن أن القلب قد استطير من الفزع والخوف .

عَدُوٌّ ، وَلَيْلٌ مُظْلِمٌ ، وصَوَاهِلٌ تَجَاذَبُ فِي أَرْسَانِها وَتَمَارَسُ (٥)
فَلَمَّا اسْتَهَلَّ النُّورُ ، وَانْحَسَرَ الدُّجَى قَلِيلًا ، وَحَنَّتْ لِلصَّبَاحِ النَّوَاقِسُ (٦)
دَنَوْتُ أُفَدِّيهِ ، وَأَغْمِزُ كَفَّهُ بِرِفْقٍ ، وَأَدْعُو بِاسْمِهِ وَهْوَ نَاعِسُ (٧)
فَجَاوَبَنِي والسُّكْرُ فِي لَحَظَاتِهِ يُسَائِلُ : مَاذَا تَبْتَغِي؟ وَهْوَ عَابِسُ (٨)
فَقُلْتُ :أَفِقْ ،هَذَاهُوَ الصُّبْحُ مُقْبِلٌ عَلَيْنَا ، وهَذِي فِي الذَّهابِ الْحَنَادِسُ (٩)
وَنَاوَلْتُهُ كَأْساً ، فَمَدَّ بَنَانَهُ إِلَيْهَا عَلَى كُرْهٍ بِهِ وَهْوَ آيِسُ (١٠)
فَمَا ذَاقَهَا حَتَّى تَهَلَّلَ ضَاحِكاً وَأَقْبَلَ مَسْرُوراً بِمَا هُوَ آنِسُ (١١)
ومِنْ شِيَمِي بَذْلُ الْوِدَادِ لِأَهْلِهِ كَذَلِكَ ، إِنِّي فِي الْوِدَادِ أُنافِسُ (١٢)

---

(٥) صواهل : أى خيل صواهل ، جمع صاهل، صفة من الصهيل ، وهو صوت الفرس .وتجاذب: أصلها تتجاذب ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً . وأرسانها: أعنّتها وأزمّتها ، جمع رسن (بفتحتين) وهو الحبل ، وما كان من الزمام على أنف الدابّة . وتمارس: أصلها تتمارس ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، وهى بمعنى تتجاذب وتتضارب .

(٦) استهلّ (بصيغة المبنىّ للمعلوم) ، أو هو بصيغة (المبنىّ للمجهول) : ظهر ، أو أبصر . وانحسر : انكشف . والدجى : جمع دجية (بضم فسكون) ، وهى الظلمة وسواد الليل . وحنّت : المراد صوّتت وصلصلت . والنواقس : جمع ناقوس ، وهو الذى يضرب به النصارى لأوقات الصلوات .

(٧) فدّاه يفدّيه تفدية : قال له : جعلت فداك .

(٨) لحظاته : نظراته . وتبتغى : تريد وتطلب . وعابس: جهم كالح ، قد قطب وجهه من الغضب ونحوه.

(٩) فى الذهاب: أى آخذة فى الذهاب .والحنادس: جمع حندس(بكسر فسكون فكسر) وهو الظلمة.

(١٠) بنانه : أصابعه الواحدة بنانة . وآيس : يائس قانط .

(١١) تهلّل : تلألأ ، والمراد : انبسطت أسارير وجهه واستبشر . وآنس: مطمئنّ ، من الأنس (بضم فسكون) ، وهو ضدّ الوحشة .

(١٢) الشيم: جمع شيمة (بكسر الشين) ،وهى الخلق والغريزة والطبيعة . والوداد : المودّة والحبّ.

وقال :

خَلِّ الْمِرَاءَ لِفِتْيَةِ الدَّرْسِ وَاعْكُفْ عَلَى صَفْراءَ كَالْوَرْسِ (١)
نُورٌ تَوَقَّدَ بَيْنَ آنِيَةٍ كَبَيَاضِ صُبْحٍ شَفَّ عَنْ شَمْسِ (٢)
هِيَ جَوْهَرٌ كَالنَّفْسِ، مَا بَرِحَتْ تُهْدِى السُّرُورَ لِكُلِّ ذِى نَفْسِ (٣)
قَدْ شَاكَلَتْها ، فَهْىَ تَأْلَفُهَا وَالْجِنْسُ يَأْلَفُ صُحْبَةَ الْجِنْسِ (٤)
رَقَّتْ ، وَدَقَّتْ فِى قَرَارَتِها فَسَمَتْ عَنِ الْإِدْرَاكِ بِالْحِسِّ (٥)
يَسْقِيكَهَا خَنِثٌ ، شَمَائِلُهُ تَدْعُو إِلَى التَّقْبِيلِ وَاللَّمْسِ (٦)
فَاهْنَأْ بِعَيْشٍ لَيْسَ يُوجَدُ فِى غَيْرِ الْكَرَى ، أَوْ عَالَمِ الْحَدْسِ (٧)

وقال :

يا رُبَّ لَيْلٍ بِتُّ أُسْقَى بِهِ مَشْمُولَةً صَفْراءَ كَالْوَرْسِ (١)
كَأَنَّهَا فى كَأْسِها شُعْلَةٌ مَقْبُوسَةٌ مِنْ كَوْكَبِ الشَّمْسِ (٢)

---

(١) خلّ : اترك . والمراء : المجادلة . وفتية الدرس: طلّاب العلم . واعكف: أقبل وواظب ، (وبابه ضرب ونصر) . والورس: نبت أصفر يزرع باليمن ويصبغ به ، وهو يشبه الكركم ، وقيل هو صنف منه . والمراد بالصفراء الشبيهة بالورس : الخمر .

(٢) شفّ عن الشىء : أبداه وأظهره . جعل الخمر كالشمس ، وصفاء آنيتها وكئوسها كبياض الصبح .

(٤) شاكلتها : شابهتها ، أى النفس .

(٥) دقّت : خفيت . وقرارتها : مستقرّها ، والمراد آنيتها وأوعيتها . ورقّة الخمر ودقّتها وسموّها عن أن تدرك بالحسّ ؛ كلّ هذا كناية عن صفائها ونقائها وجودتها .

(٦) خنث : ساق فيه انخناث ، أى تكسّر وتثنّ (والفعل من باب فرح) . وشمائله : طبائعه وأخلاقه ، جمع شمال (بكسر الشين) .

(٧) الكرى : النعاس والنوم . والحدس : الظنّ والتخمين .

(١) مشمولة : خمر باردة ، وذلك إذا عرّضت لريح الشمال فبردت . والورس : نبت أصفر .

(٢) مقبوسة : مأخوذة .

وقال :

أَحِمَى الْجَزِيرَةِ مَطْلَعُ الشَّمْسِ ... أَمْ لَاحَ ضَوْءُ غَزَالَةِ الْإِنْسِ؟(١)
خَرَجَتْ إلَى الْبُسْتَانِ لَاهِيَةً ... تَخْتَالُ بَيْنَ كَوَاعِبٍ خُمْسِ(٢)
فَتَبِعْتُ مَسْرَاهَا عَلَى عَجَلٍ ... حَتَّى ظَفِرْتُ بِنَظْرَةٍ خَلْسِ(٣)
فَسَتَرْنَهَا عَنِّى ، وَسِرْنَ بِها ... فى رَوْضَةٍ فَيْنَانَةِ الْغَرْسِ(٤)
فَوَقَفْتُ مَطْوِيًّا عَلَى كَمَدٍ ... وَمَضَتْ عَلَى آثَارِهَا نَفْسِى(٥)
تِلْكَ الَّتِى لَوْلَا هَوَاىَ بِها ... مَا بِتُّ مِنْ أَمَلٍ عَلَى يَأْسِ(٦)

---

(١) الحمى : المكان المحمى الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه ، وحمى الجزيرة : أرضها ، ولعله يريد جزيرة روضة المقياس بنهر النيل ، غربى مصر القديمة . ولاح : بدا وظهر . والغزالة : الظبية تشبه بها الحسناء فى جمال العينين والجيد ، ولطف الحركة والتثنى . والإنس : البشر (بفتحتين) ، المفرد إنسى وإنسية . وغزالة الإنس : أى التى تشبه الغزالة وهى من الإنس .

يستفهم قائلا بعد أن رأى محبوبته تسير فى الجزيرة : أحمى الجزيرة مكان طلوع الشمس ، أم هو ضوء لاح من فتاة حسناء جمعت صفات الحسن التى فى الغزالة وهى من البشر؟ وهذا من تجاهل العارف وفى البيت نظرة إلى قول الشاعر :

بالله يا ظبيات القاع ، قلن لنا : ... ليلاى منكن ، أم ليلى من البشر ؟

(٢) تختال : تزهى وتعجب . وكواعب : جمع كاعب ، وهى الجارية التى كعب ثديها أى نهد وظهر .

(٣) مسراها : سيرها أو مكانه . وخلس : مصدر خلست الشىء (من باب ضرب) : إذا اختطفته بسرعة على غفلة .

(٤) سترنها : أى الكواعب الخمس من صواحبها . والروضة : أرض ذات خضرة ، أو البستان ، أو الموضع يجتمع إليه الماء ، ويكثر فيه النبت . وفينانة : طويلة حسنة كثيرة الأفنان والغصون . والغرس : الشجر الذى يغرس

(٥) كمد : حزن شديد . ومضت على آثارها : ذهبت فى إثرها ، وتبعتها .

(٦) الهوى : الحب . يقول : تلك التى لولا ولوعى بها ما بت على يأس من أمل وصالها . والمعنى : أنه لولا تعلقه بهذه الحسناء ؛ وحبه لها ما بات يعانى آلام الهجر ؛ وتباريح الغرام .

هَيْهَاتَ أَنْسَى حُسْنَ صُورَتها وحَوَادِثُ الأَيَّامِ قَدْ تُنْسِي (٧)

وقال* :

نَزَعْتُ عَنِ الصِّبَا ، وعَصَيْتُ نَفْسِي وَدَافَعْتُ الْغَــوَايَةَ بِالتَّأَسِّي (١)

وَقُلْتُ لِصَبْوَتِي – وَالْعَيْنُ غَرْقَى بِأَدْمُعِهَا – رُوَيْدَكِ ، لَا تَمَسِّي (٢)

فَقَدْ وَلَّى الصِّبَا إِلاَّ قَلِيلًا أُنَازِعُ سُؤْرَهُ بِفُضُولِ كَأْسِي (٣)

وَمَنْ يَكُ جَاوَزَ الْعِشْرِينَ تَتْرَى وأَرْدَفَهَــا بِأَرْبَعَةٍ وخَمْسٍ (٤)

---

(٧) هيهات : كلمة تفيد البعد .

والمعنى : أنه لا ينسى حسن صورتها ، ولايسلو حبها على الرغم من حوادث الأيام التى تنسى المرء كلّ شيء . يريد أنه سيبقى على الدوام وفيًّا لها ، مستهاماً بها ، مهما كثرت حوادث الدهر وتتابعت .

* نظم البارودى هذه السينية سنة ١٨٦٨ وهو فى التاسعة والعشرين ، بعد أن تزوّج « عديلة يكن » بنحو سنة . وفى هذه القصيدة أن يومه وأمسه ، أى حاضره وماضيه متباينان مختلفان ، وأن سنة ١٨٦٨ فصلت بين طورين مختلفين متناقضين من أطوار حياته : طور اللهو والغواية ، وطور الجدّ والهداية .

(١) نزعت عن الشيء : أقلعت عنه وتركته . والصبا (بكسر الصاد) : جهلة الفتوة ، كالصبوة . ودافعت : دفعت وأزلت . والغواية : الجهل والضلال . والتأسّى : التعزّى والتسلّى والتصبّر ، أو هو مصدر تأسّيت بفلان ، أى اقتديت به ، واتّبعت فعله ، وجعلته أسوتى .

يقول : إنه عصى نفسه ، فأقلع عن الصبوة والهوى واللهو والغواية والضلال ، وصبر على ترك هذه اللذات مقتدياً بمن يقتدى به فى هذا .

(٢) رويدك : أمهلى وتأنّى وارفقى . ولاتمسّى : لاتقربينى .

يصوّر الشاعر فى هذا البيت مدافعته لصبوته ، ومغالبته لهواه .

(٣) ولّى : أدبر وذهب . والصبا (بكسر الصاد) : الصغر ، والمراد الفتاء والشباب . وأنازع : أجاذب . وسؤر الصبا : بقيّته . وفضول الكأس : بقاياها ، أى مافضل فيها من الشراب .

يقول : إن شبابه قد ذهب وأدبر ، ولم يبق منه غير بقيّة قليلة ، وهو يحاول المحافظة على القليل الباقى من هذا الشباب بالتسامح فى قليل من اللهو ، عبّر عنه بفضول الكأس .

(٤) تترى : متواترة . وأردفها : أتبعها .

يريد أنه بلغ من العمر تسعاً وعشرين سنة ، وجواب « من » فى البيت الآتى .

فَقَدْ سَفَرَتْ لِعَيْنَيْهِ اللَّيَالِي ... وَبَانَ لَهُ الْهُدى مِنْ بَعْدِ لَبْسِ (٥)
نَظَرْتُ إِلَى الْمِرَآةِ فَكَشَّفَتْ لِي ... قِناعاً لَاحَ فِيهِ قَتِيرُ رَأْسِي (٦)
وَكُنْتُ وَكَانَ فَيْنَاناً أَثِيثاً ... أُنَازِعُ شِرَّتِي ، وأَذُودُ بَأْسِي (٧)
فَعُدْتُ وَقَدْ ذَوَى مِنْ بَعْدِ لِينٍ ... أُدَارِي صَبْوَتِي ، وَأُسِرُّ يَأْسِي (٨)
فَمَا أَمْسِي كَيَوْمِي حِينَ أَغْدُو ... عَلَى كِبَرٍ ، وَمَا يَوْمِي كَأَمْسِي (٩)
وَمَا الْأَيَّامُ إِلَّا صائِبَاتٌ ... تَمُرُّ بِكُلِّ سَابِغَةٍ وتُرْسِ (١٠)

---

(٥) سفرت : اتضحت وظهرت ، من قولهم : سفرت المرأة ، إذا كشفت عن وجهها . والمراد : ظهر له ما كان خفيًّا من أمور الحياة . وبان : ظهر . ولبس : غموض وإبهام واختلاط .

(٦) القناع : مايقنّع به الرأس، أي يغطّى، والمراد الشعر . ولاح : بدا وظهر. والقتير : أول مايظهر من الشيب .

يقول : إنه نظر إلى المرآة ، فأظهرت له ما وخط شعره من الشيب .

(٧) شعر فينان : كثير ، له أفنان كأفنان الشجر، أي أغصانه. وأثيث : كثير طويل، من قولهم: أثّ النبات، إذا كثر والتفّ. والشرّة: النشاط وقوّة الشباب. وأذود: أدفع . والبأس: الشدّة والقوّة والإقدام .

يقول : إنه كان قبل أن يلوح فيه الشيب فينان الشعر أثيثه ، شديد شرّة الشباب ، عظيم القوّة ، كثير الإقدام ، حتى إنه مع جهل الشباب كان يرى أن شرته وإقدامه قد جاوزا الحدّ ، فيعمل على كبحهما .

(٨) عدت : صرت . وذوى : ذبل وضعف، أي الشعر، على تشبيهه بالنبات والأغصان ، كما تقدّم فى البيت السابق. ويريد باللين : النضارة والغضاضة . وأدارى : أخفى . ويريد بالصبوة: الولوع بالشباب، والحسرة على فواته ، والحنين إلى مرحه ودواعيه . واليأس : انقطاع الرجاء بسبب ما صار إليه من ضعف وشيب.

(٩) أغدو على كبر أصير كبيراً ، وتعلو بى السنّ .

والمعنى : أننى حينما تعلو بى السنّ يكون أمسى خيراً من يومى ، ويومى شرًّا من أمسى .

(١٠) صائبات : مصيبات ، من قولهم صاب السهم الغرض (من بابى قال وباع) أى أصابه ، ولم يخطئه . والسابغة : الدرع الواسعة . والترس: المجنّ ونحوه ، مما يتستّر به المقاتل ، لاتّقاء النبال وغيرها.

يقول : ليست الأيام إلا سهاماً صائبة تخترق السوابغ والتروس .

والمعنى : أن الاحتراس والحيطة والوقاية لا تدفع حوادث الأيام ، ولا تصدّ خطوب الزمان .

أَبَادَتْ قَبْلَنَا إِرَماً وَعَادًا وَطَارَتْ بَيْنَ ذُبْيَانٍ وَعَبْسِ (١١)
وَأَلْوَتْ بِالْمُضَلَّلِ ، وَاسْتَمَالَتْ عِمادَ الشَّنْفَرَى ، وَهَوَتْ بِقُسِّ (١٢)
فَلَا «جمشيدُ» دَافِعَ إِذْ أَتَتْهُ بِحَادِثِها ، وَلَا رَبُّ الدِّرَفْسِ (١٣)

---

(١١) أبادت : أهلكت ، أى الأيام . وإرم (كعنب) : قبيلة عاد الأولى ، وهى من القبائل العربية البائدة ، تسمية لها باسم جدها إرم بن سام بن نوح ، وقيل إرم بلدتهم ، وحاضرة ملكهم ، ومقر قوتهم وعظمتهم ، وفى القرآن الكريم «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ» الآيات ٦ — ٨ من سورة الفجر . وعاد : من سلالة إرم السابقة ، وتسمى عاداً الآخرة تسمية لها باسم جدها عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وكانت تسكن الأحقاف شرقى بلاد اليمن ، وقصتها مذكورة فى القرآن الكريم . وطارت بينهم : فرقتهم وأهلكتهم ، أى الأيام . وعبس وذبيان : قبيلتان عظيمتان من العرب المستعربة ، وهما أختان من سلالة قبيلة غطفان ، وغطفان من قيس عيلان ، وقيس عيلان من مضر أعظم القبائل العدنانية وأشهرها ، وكانت بينهما فى الجاهلية حروب طويلة مشهورة ، أشهرها حرب داحس والغبراء ، وقد وصفها زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة ، ومنها :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ، ودقوا بينهم عطر منشم

يخاطب هرم بن سنان الذبيانى المرى ، والحارث بن عوف ، لسعيهما فى الصلح بين القبيلتين.

(١٢) ألوت به الأيام : أهلكته . والمضلل : امرؤ القيس الكندى ، أشهر شعراء الجاهلية ، وكان يلقب بالملك الضليل (كسكين) والمضلل . واستمالت عماده : كناية عن إبادته وإهلاكه . والشنفرى : شاعر جاهلى قحطانى من الأزد ، وكان فاتكا شجاعاً عداء ، ولهذا ضرب به المثل فقيل : «أعدى من الشنفرى» . وهوت به : أهلكته . وقس بن ساعدة الإيادى : خطيب العرب وحكيمها فى الجاهلية ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم يخطب بعكاظ قبيل البعثة ، فأعجب به ، وأثنى عليه .

(١٣) جمشيد : لقب ملك عظيم من ملوك الفرس الأقدمين ، قيل إنه أول من علم الناس اتخاذ الأسلحة ، وكانوا يحاربون قبلها بالحجارة والعصى ، وأول من كشف صناعة النسج ، واستخرج اللآلئ من البحر ، والمعادن من بطن الأرض ، وكان من المعمرين . وأتته : أى الأيام . والدرفس : العلم الفارسى الكبير. ولعل الشاعر يعنى برب الدرفس : كسرى أنوشروان ، من أعظم ملوك الفرس ، وأبعدهم صيتاً ، وأسيرهم ذكراً ، أقام بالمدائن حاضرة ملكه نحو ٤٧ سنة ، وفى أيامه وصلت بلاد فارس إلى غاية مجدها وارتقائها ، وفى عصره ولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإليه ينسب القصر الأبيض والإيوان ، وكان من عجائب الدنيا ، وفى وصفه يقول البحترى فى سينيته المشهورة :

فإذا ما رأيت صورة أنطا كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل ، وأنوشر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس

وصف الشاعر فى هذا البيت وثلاثة الأبيات قبله صولة الأيام ، وبطش الدهر ، ونوازل الزمان ، ومثل ببعض الأمم والملوك ، وبعض ذوى السير الخالدة ، والذكريات الباقية ، وكل هؤلاء فتك بهم الدهر ، وأبادتهم صروف الليالى ، ولم يبق بعدهم غير العبرة لمن أراد أن يعتبر .

عَلَى هذَا يَسِيرُ النَّاسُ طُـرًّا ... وَيَبْقَى اللهُ خَالِقُ كُلِّ نَفْسِ (١٤)

وقال فى تَهْنِئَةِ الخديو «عباس باشا حلمى الثانى»* بِعيدِ الْفِطْرِ :

أَمَوْلَاىَ ، دُمْ لِلْمُلْكِ رَبًّا تَسُوسُهُ ... بِحِكْمَةِ مَطْبُوعٍ عَلَى الْحِلْمِ وَالْبَاسِ (١)

وَلَا زَالَتِ الْأَعْيَادُ تَجْرِى سُعُودُهَا ... عَلَيْكَ ، وَتَحْظَى مِنْ عُلَاكَ بِإِينَاسِ (٢)

فَلَوْلَاكَ مَا فَازَتْ يَدُ الْقُطْرِ بِالْمُنَى ... وَلَا نَشَأَتْ رُوحُ الْعَدَالَةِ فى النَّاسِ (٣)

وَهٰذَا لِسَانُ الشُّكْرِ يَدْعُو مُؤَرِّخاً ... حَوَى الْعِيدُ أَنْوَاعَ الْفَخَارِ بِعَبَّاسِ (٤)

٢٤ ١١٥ ١٢٨ ٩١٢ ١٣٥

١٣١٤ هـ

---

(١٤) طرًّا : جميعاً .

* عباس باشا حلمى الثانى بن الخديو توفيق باشا بن الخديو إسماعيل باشا ، ولى مصر بعد وفاة أبيه فى ٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٩ هـ (٨ من يناير سنة ١٨٩٢ م) ، ثم خلع سنة ١٩١٤ عقب نشوب الحرب العظمى .

(١) الربّ : المالك . وتسوسه : تقوم بما يصلحه ، وترعاه وتدبّر أموره . والحكمة : العلم والحلم والعدل ، وحسن التدبير ، وإتقان الأمور . ومطبوع : مفطور مخلوق . والحلم : الأناة والعقل . والبأس : الشدّة والشجاعة . وفى الشطر الثانى لمحة لطيفة إلى اسم الممدوح ، وتنويه به ، لأن العباس من أسماء الأسد ، والبأس من صفاته ، وفى الحلم إشارة إلى « حلمى » .

(٢) السعود : جمع السعد ، وهو اليمن والبركة والخير . وتحظى : تنال وتظفر ، من قولهم : حظى فلان بالخير والمال (كرضى) . والإيناس : مصدر آنسه : ضد أوحشه .

يدعو له بأن يبقى عالى القدر ، رفيع الشأن ، وأن تعاوده الأعياد والمواسم باليمن والبركة والسعادة .

(٣) المنى : الأمانى والآمال ، الواحدة : منية (بضم فسكون) .

(٤) الفخار : مصدر فخر (من باب قطع) : أى ابتهى ، وتمدّح بما فيه ، وما فى أهله وقومه من المناقب ، والمحامد ، والمكارم . نوّه الشاعر فى هذه الأبيات بكثير من مزايا الممدوح وفضائله . ودعا له فى أكثرها . وفى هذا البيت دعا بلسان الشكر أن يجمع له العيد كل مايفتخر به الفاخرون من المحاسن والمناقب ، والمحامد والمكرمات . والشطر الثانى منه تأريخ لذلك العيد بحساب الجمّل : « حوى العيد أنواع الفخار بعباس » ٢٤ / ١١٥ / ١٢٨ / ٩١٢ / ١٣٥ = ١٣١٤هـ . وهذا العام الهجرى يوافق أوله من التاريخ الميلادى ١٢ من يونية سنة ١٨٩٦ . ويلاحظ أن البارودىّ عاد من سرنديب فى السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ (الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٩ م) ومعنى هذا أنه نظم هذه الأبيات وهو فى منفاه ، وأرسلها إلى الخديو « عباس » قبل عودته من المنفى بنحو ثلاث سنوات .

وقال يَهْجُو :

يَقُولُ أُنَاسٌ - وَالْعَجَائِبُ جَمَّةٌ - مَتَى أَصْبَحَ الْوَزَّانُ رَبَّ مَجَالِسِ(١)؟
نَرى كُلَّ يَوْمٍ عُصْبَةً فى فِنائِهِ تُجَاذِبُهُ أَطْرَافَ تِلْكَ الْوَسَاوِسِ(٢)
فَقُلْتُ لَهُمْ :لا تَعْجَبُوا لاجْتِماعِهِمْ لَدَيْهِ ،فَإِنَّ الْحُشَّ مَأْوَى الْخَنَافِسِ(٣)

وقال :

أَمَّلْتُ رَجَائِى فى غَدٍ ، فَانْتَظَرْتُهُ فَمَا جَاءَ حتَّى طَالَ حُزْنِى عَلَى أَمْسِى(١)
وَقَلَّبْتُ أَمْرِى فِيكَ،حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ وَسَائِلُ مَا آتِى بَكَيْتُ عَلَى نَفْسِى(٢)

(١) جمّة : كثيرة . وربّ مجالس : صاحب أندية ومحافل ، يجلس إليه الناس فيها ويتحدثون .

(٢) عصبة : جماعة . والفناء (بكسر الفاء) : سعة أمام الدار كالساحة . وأطراف الأحاديث : نواحيها ، وما اختير منها ، جمع طرف (بفتحتين) . ويريد بالوساوس : الأحاديث ، وهى فى الأصل : حديث النفس والشيطان بما لانفع فيه ولاخير ، وفى التعبير بها إشارة إلى أن أحاديثهم تافهة فارغة ساقطة .

(٣) الحشّ (بتثليث الحاء) : المرحاض ، وأصله البستان ، لأنهم كانوا يقضون حوائجهم فى البساتين .

(١) أملته : رجوته وترقّبته ، (وبابه طلب) . ورجائى : مرجوّى ، أى الأمر الذى أرجوه وآمله ، وإنّما طال حزنه على أمسه ، أى ماضيه ؛ لأنه خير من حاضره الذى لم يتحقّق فيه رجاؤه .

(٢) يريد بتقليب أمره فى المرجوّ : أنه بذل جميع الحيل ، وطرق كل باب . ومعنى « انقضت وسائل ما آتى » : أن حيله نفدت ، وأنه أخفق ، فلمّا يئس وانقطع رجاؤه بكى على نفسه .

قافية الشين

قال وهو بِسَرنْدِيبَ :

مَتَى تَرِدُ الْهِيمُ الْخَوَامِسُ مَنْهَلًا ... تَبُلُّ بِهِ الْأَكْبَادَ وهْيَ عِطَاشُ ؟ (١)
أَرَى الْغَيْثَ عَمَّ الْأَرْضَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ... ومَوْضِعُ رَحْلِي لَمْ يُصِبْهُ رَشَاشُ (٢)
فَهَلْ نَهْلَةٌ مِنْ جَدْوَلِ النِّيلِ تَرْتَوِى ... بِها كَبِدٌ ظَمْآنَةٌ ومُشاشُ ؟ (٣)
وهلْ مِنْ مَقِيلٍ تَحْتَ أَفْنَانِ سِدْرَةٍ ... لَهَا مِنْ زَرَابِيِّ النَّبَاتِ فِراشُ ؟ (٤)

---

(١) ورد البعير وغيره الماء يرده وروداً : أشرف عليه ، وبلغه ، ووافاه . والهيم : الإبل العطاش ، المفرد أهيم ، أو هيماء . والخوامس : الشديدة الظمأ ، جمع خامسة ، صفة من خمست الإبل ، أي وردت الماء اليوم الخامس ، واسم هذا الضرب من الظمأ : الخمس (بكسر فسكون) ، ومن كلامهم : الخمس شرّ الأظماء . والمنهل : المشرب . وبلّه : ندّاه ، (وبابه ردّ) .

والشاعر يشبّه حاله في غربته ، وانقطاعه عن وطنه وأهله ، وشدّة كلفه بهم ، واشتياقه إليهم بالإبل التي اشتدّ بها العطش ، وطال انقطاعها عن الماء ، وهو يتمنّى عودة تطمئن بها نفسه ، وتندى كبده الحرّى .

(٢) الغيث : المطر . والرحل : المسكن ، وما يستصحبه المرء من الأثاث . والرشاش (بفتح الراء) ماترشّش من الماء ، (وبالكسر) : جمع الرشّ (بفتح الراء وتشديد الشين) وهو المطر القليل .

(٣) نهلة : اسم مرة من النهل (بفتحتين) ، وهو أول الشرب . والمشاش : رءوس العظام الليّنة ، الواحدة مشاشة (بضم الميم) . والمشاش أيضاً : النفس .

(٤) مقيل : اسم مكان من قال (من باب باع) . أو هو مصدر بمعنى القيلولة ، وهي نومة نصف النهار ، أو الاستراحة في هذا الوقت إذا اشتدّ الحرّ . والأفنان : الأغصان ، واحدها فنن (بفتحتين) . والسدرة : شجرة النبق ، وجمعها سدر (بكسر فسكون) . وزرابيّ النبات : النبات الشبيه بالزرابيّ ، وهي البسط (بضمتين) والنمارق ، الواحد زربيّ (بكسر فسكون) ، والزرابي من النبات : مااصفرّ واحمرّ وفيه خضرة .

يتمنّى أن يقيل تحت أغصان سدرة لها فراش من النبات الشبيه بالبسط والنمارق ، فهو يتمنّى العودة إلى وطنه ، لأن السدر يكثر في بعض أراضي مصر

لَدَى أَيْكَةٍ رَيَّا الْغُصُونِ ، كَأَنَّمَا عَلَيْهَا مِنَ الزَّهْرِ الْجَنِيِّ رِيَاشُ(٥)
تَرَى الزَّهْرَ أَلْوَاناً ، يَطِيرُ مَعَ الصَّبَا كَمَا هَاجَ إِبَّانَ الرَّبِيعِ فَرَاشُ(٦)
دِيَارٌ يَعِيشُ الْمَرْءُ فِيهَا مُنَعَّمًا وَأَطْيَبُ أَرْضِ اللهِ حَيْثُ يُعَاشُ(٧)
فَيَارَبِّ ، رِشْنِي كَيْ أَعِيشَ مُسَدَّدًا فَقَدْ يَسْتَقِيمُ السَّهْمُ حِينَ يُرَاشُ(٨)

وقال فى الغزَل :

رَمَيْتُ فَلَمْ أُصِبْ ، وَرَمَتْ فَأَصْمَتْ فَيَا عَجَبًا لِسَهْمٍ لَا يَطِيشُ!(١)
حواجِبُهَا الْقِسِيُّ ، وَلَحْظَتَاهَا بِهَا سَهْمَانِ ، والْأَهْدَابُ رِيشُ(٢)

---

(٥) الأيكة : الشجر الكثير الملتف . وريّا : مؤنث ريّان ، صفة من الرِيّ ، والمراد غضّة ناضرة. والجنىّ : المجتنى ، أى المقتطف مادام غضًّا طريًّا ، والمراد بالزهر الجنىّ : المتفتّح الناضر . والرياش : اللباس الحسن الفاخر ، والزينة .

(٦) الصبا : ريح تهبّ من مطلع الشمس فى بلاد العرب ، وهى أحبّ الرياح إليهم . وهاج : اهتاج وثار . وإبّان الربيع : زمانه . والفراش (بفتح الفاء) : جمع الفراشة التى تتهافت حول السراج ونحوه .
يشبّه الزهر المختلف الألوان يطير مع ريح الصبا بالفراش الذى يهيج ويكثر فى وقت الربيع .

(٨) رشْنى : أمر للدعاء ، من راشه الله تعالى ، إذا أنعشه وأعانه وقوّاه ، وأصلح حاله ، ويسّر أمره . وأصله من راش النابل السهم (من باب باع) إذا ألزق عليه الريش . ومسدّد : موفّق للسداد والقصد والصواب . والسهم : واحد النبل (بفتح فسكون) ، وهو مايرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها .
يدعو الله أن يريشه ، ويقوّى جناحه بالإحسان إليه ، كى يعيش موفّقاً للسداد ، كما يستدّ السهم ويقوى ويستقيم ، ويصيب إذا ريش .

(١) أصميت الصيد : إذا رميته فقتلته وأنت تراه . وطاش السهم عن الهدف يطيش : إذا عدل عنه وانحرف ولم يصبه .

(٢) القسىّ : جمع القوس التى يرمى عنها بالنبل والسهام ونحوها . ولحظتاها : المراد عيناها ، مثنى لحظة ، وهى النظرة بمؤخر العين . والأهداب : جمع هدب (بضم فسكون) ، وهو مانبت من الشعر على أشفار العين . وصفها فى هذا البيت والذى قبله بجمال العينين ، وأن نظراتها فاتنة ساحرة شديدة التأثير فى قلوب العشّاق .

قافية الصاد

قال يَصِفُ غَيْضَةً* احْتَلَّهَا فى «قندِيَةَ**» أيَّامَ الْحرْب :

وَمُرْتَبَعٍ لُذْنَا بِهِ غِبَّ سُحْرَةٍ   وَلِلصُّبْحِ أنْفَاسٌ تَزِيدُ وتَنْقُصُ (١)

وقَدْ مَالَ لِلْغَرْبِ الْهِلَالُ ، كَأَنَّهُ   بِمِنْقَارِهِ عَنْ حَبَّةِ النَّجْمِ يَفْحَصُ (٢)

رَقِيقِ حَوَاشِى النَّبْتِ ، أمَّا غُصُونُهُ   فَرَيَّا ، وَأمَّا زَهْــرُهُ فَمُنَصَّصُ (٣)

إذَا لَاعَبَتْ أفْنَانَهُ الرِّيحُ خِلْتَهَا   سَلَاسِلَ تُلْوَى ، أوْ غَدَائِرَ تُعْقَصُ (٤)

---

* الغيضة : الأجمة ، ومجتمع الشجر فى مغيض ماء .

** قندية مدينة فى شمالىّ « أقريطش » (بفتح أوله وكسر الراء والطاء) ، وهى جزيرة كريد المشهورة ببحر الروم (البحر الأبيض المتوسّط) إلى الجنوبىّ الشرقىّ من بلاد اليونان ، وكان أهلها قد خرجوا على الدولة العثمانيّة ، وأعلنوا العصيان والثورة سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م)، فأرسلت الدولة جيشاً لإخماد هذه الفتنة ، وساعدتها مصر بحملة حربيّة كان البارودىّ من ضبّاطها .

(١) المرتبع : المكان الذى يرتبع فيه القوم ، أى يقيمون به زمن الربيع . ولذنابه : لجأنا إليه ، (وبابه قال) . وغبّ : بعد . والسحرة (بضم فسكون) : آخر الليل قبيل الصبح . وزيادة أنفاس الصبح ونقصانها : كناية عن طلوع الفجر ، وتردّده بين ظلمة الليل وضياء النهار .

(٢) فى هذا البيت إشارة إلى أن الليلة التى يصفها كانت فى آخر الشهر العربىّ ، وقد يسمّى القمر لليلتين من آخر الشهر هلالا ، كما يسمّى لليلتين من أوّله هلالا . وحبّة النجم : النجم الشبيه بالحبّة ، لما شبّه الهلال بالطائر ، ورمز إليه بالمنقار حسن تشبيه النجم بالحبّة . ويفحص : يبحث ، (وبابه منع) .

(٣) رقيق : صفة لمرتبع فى البيت الاول . وحواشى النبت : جوانبه وأطرافه . وريّا : مؤنث ريّان ، صفة من الرىّ ، والمراد أنها غضّة ناضرة . ومنصّص : ظاهر مرفوع ، بعضه فوق بعض .

(٤) خلتها : ظننتها ، أى الأفنان . والغدائر : جمع غديرة ، وهى الذؤابة من الشعر إذا كانت مرسلة ، غير ملويّة ولا معقوصة . وتعقص : تضفر وتلوى .

كَأَنَّ صِحَافَ الزَّهْرِ وَالطَّلُّ ذائبٌ ... عُيُونٌ يَسِيلُ الدَّمْعُ مِنْهَا وَتَشْخَصُ (٥)
يَكَادُ نَسِيمُ الْفَجْرِ إِنْ مَرَّ سُحْرَةً ... بِسَاحَتِهِ الشَّجْرَاءِ لَا يَتَخَلَّصُ (٦)
كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ وَالرِّيحُ رَهْوَةٌ ... إِذَا رُدَّ فِيهِ سَارِقٌ يَتَرَبَّصُ (٧)
يَمُدُّ يَدًا دُونَ الثِّمَارِ ، كَأَنَّمَا ... يُحَاوِلُ مِنْهَا غَايَةً ، ثُمَّ يَنْكُصُ (٨)
عَطَفْنَا إِلَيْهِ الْخَيْلَ فَلَّ مَسِيرَةٍ ... وَلِلْقَوْمِ طَرْفٌ مِنْ أَذَى السُّهْدِ أَخْوَصُ (٩)
فَمَا أَبْصَرَتْهُ الْخَيْلُ حَتَّى تَمَطَّرَتْ ... بِفُرْسَانِهَا ، وَاسْتَتْلَعَتْ كَيْفَ تَخْلُصُ (١٠)

---

(٥) الصحاف : آنية الطعام التى يؤكل فيها ، الواحدة صحفة (بفتح فسكون) وهى أصغر من الجفنة (بفتح فسكون) ، وقد شبّه الشاعر الزهر بالصحاف . والطلّ : الندى ، وقطرات الماء التى تسقط على أوراق الشجر والزهر فى الصباح . وتشخص : تنفتح ، ولا تطرف ، (وبابه خضع) .

(٦) ساحته : ناحيته أى المرتبع . والشجراء الكثيرة الشجر .

يقول : إن نسيم الفجر يمرّ بالمرتبع ، فلا ينطلق فيه ، ويكاد لا يتخلّص منه ، لكثرة أشجاره وتقاربها ، واشتباك فروعها وأغصانها .

(٧) الرهو : الرقيق ، والسير السهل الخفيف . وردّ فيه . رجع أى الشعاع ، والمراد تردّد . والضمير المجرور يعود إلى المرتبع . ويتربّص : ينتظر .

والمعنى : أن أشعّة الشمس تسقط على غصون هذا المرتبع ، فتهزّها الريح اللطيفة الهيّنة الليّنة ، فتتحرّك الأشعّة بتحرّك الغصون ، فتنفذ من خلالها مرّة ، وتحتجب مرّة أخرى ، كأنّها لصّ يتردّد بين الإقدام والإحجام .

(٨) يمدّ : ضمير الفاعل يعود على شعاع الشمس . ويحاول : من المحاولة : وهى طلب الشىء بالحيلة . وينكص : يحجم ويرجع ويتأخّر (وبابه نصر ودخل وجلس) .

(٩) عطفنا إليه الخيل : أملناها إليه : أى إلى المرتبع . وفلّ مسيرة : أى منفلّة منثلمة متعبة من السير . ويريد بالقوم : جماعة الجند . والطرف : العين . والسهد : السهر ، وعدم النوم . وأخوص : ضيّق ، صغير ، غائر ، ضعيف .

يقول : إنهم عرجوا على هذا المرتبع ، ومالوا إليه ، ليستريحوا فيه ، بعد أن أجهدهم السفر ، وقد كانت الخيل متعبة منهوكة من طول المسير ، وكان القوم متعبين كذلك ، تبدو فى عيونهم آثار السهاد والسهر .

(١٠) الضمير المنصوب فى أبصرته يعود إلى المرتبع . وتمطّرت : أسرعت وجرت . والفرسان : جمع=

مَدَى لَحْظَةٍ حَتَّى أَتَتْهُ وَمَاؤُهُ عَلَى زَهْرِهِ ، والظِّلُّ لَا يَتَقَلَّصُ (١١)
فَمَدَّتْ بِهِ الْأَعْنَاقَ تَعْطُو ، وَتَخْتَلِي نِهاباً ، وَتُغْلِي فى النَّباتِ وتُرْخِصُ (١٢)
أَقَمْنَا بِهِ شَمْسَ النَّهَارِ ، وَكُلُّنَا عَلَى مَا بِهِ مِنْ شِدَّةِ الْعُجْبِ يَحْرِصُ (١٣)
فَلَمَّا اسْتَرَدَّ الشَّمْسَ جُنْحٌ مِنَ الدُّجى وَأَعْرَضَ تَيْهُورٌ مِنَ اللَّيْلِ أَعْوَصُ (١٤)
دَعَوْنَا بِأَسْمَاءِ الْجِيَادِ ، فَأَقْبَلَتْ لَوَاعِبَ فى أَرْسَانِهَا تَتَرَقَّصُ (١٥)

=الفارس : وهو راكب الفرس . واستتلعتْ : أى مدّتْ أعناقها متطاولة ، ورفعتْ أبصارها ، وفتحتْ أعينها شاخصة ، لاتَطْرِف : من قولهم : استتلع للخبر : إذا شَخَصَ إليه ، وأقبل عليه . وخلص إلى الشيء (من باب دخل) : وصل إليه .

يقول : إن الخيل لما رأت ذلك المرتبع استشعرت المرح والنشاط ، وأسرعت فى سيرها ، وحاولت مدّ أعناقها ، ورفع رءوسها ، لترى كيف تخلص إليه ، وتغدو مسرعة عليه .

(١١) المدى : الغاية . واللحظة : النظرة ، والمراد الزمن القليل ، والمعنى : أن الخيل وصلت إلى هذا المرتبع فى زمن قليل جدًّا ، قدره مدى لحظة . وماؤه على زهره : يريد أنها أتته وقت الصباح ، قبل إشراق الشمس ، وذهاب الندى . ويتقلّص : ينزوى وينقبض . وظلّه لا يتقلّص : أى ظله ظليل وازف دائم .

(١٢) به : بالمرتبع . وتعطو : تتناول . وتختلى : تقطع الخلى وتأكله ، وهو النبات الرطب الرقيق ، والنهاب : جمع نهب (بفتح فسكون) وهو الغنيمة ، أو مصدر ناهب ، وهو منصوب على الحال ، أى ناهبة . وإغلاؤها وإرخاصها فى النبات : كناية عن تصرّفها فيه ، وتقلّبها فى نواحيه ، فهى ترتع ، وتأكل ، وترعى كيف شاءت .

(١٣) يقول : إننا أقمنا بذلك المرتبع طول النهار ، وكلّ منا يحرص على ما فى نفسه من لذّة الإعجاب بهذا المرتبع .

(١٤) استردّ الشمس : طلب ردّها ، والمراد أخفاها وغيّبها . والجنح (بكسر الجيم وضمها) : الطائفة ، والجانب . والدجى : جمع دجية (بضم فسكون) وهى الظلمة . وأعرض : ظهر . والتيهور : موج البحر المرتفع ، والمراد ظلمات الليل على التشبيه . وأعوص : صعب شديد .

يصف إدبار النهار ، وإقبال الليل بظلماته وأهواله .

(١٥) دعونا : جواب لمّا فى البيت السابق . والجياد : كرام الخيل ، جمع جواد . ولواعب : جمع لاعب أولاعبة . وأرسانها : أزمّتها وأعنّتها ، الواحد رسن (بفتحتين) : وهو الحبل . وتترقّص : ترقص وترتفع وتنخفض فى لعب ومرح .

وَقُمْنَا ، وَكُلٌّ بَعْدَ مَا كَانَ لَاهِيًا ... بِأَظْلَالِهِ كُرْهَ الرَّحِيلِ مُنَغَّصُ (١٦)

يَوَدُّ الْفَتَى أَلَّا يَزَالَ بِنِعْمَةٍ ... وَلَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْلَةِ الدَّهْرِ مَخْلَصُ (١٧)

فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ حُسْنِهِ ... وَمَا أَنَا فِيمَا قُلْتُهُ أَتَخَرَّصُ (١٨)

ظَفِرْتُ بِهِ فِي حِقْبَةٍ ، فَقَنَصْتُهُ ... عَلَى غِرَّةِ الْأَيَّامِ ، وَاللَّهْوُ يُقْتَنَصُ (١٩)

وقال فى الحكمة :

بَادِرِ الْفُرْصَةَ ، وَاحْـذَرْ فَوْتَهَا ... فَبُلُوغُ الْعِزِّ فِى نَيْلِ الْفُرَصْ (١)

---

(١٦) لاهياً : لاعباً مرحاً طروباً . والأظلال : الظلال ، جمع الظلّ . والرحيل : الارتحال والانتقال والسفر . ومنتّص : مكدّر أسف .

يقول : وقمنا من ذلك المرتبع ، وكلّ واحد منا مكدّر بسبب كراهيته الرحيل ، ومغادرة هذا المكان الأنيق ، بعد ما كان ناعماً لاهياً فى ظلاله .

(١٧) صولة الدهر : سطوته وبطشه واستطالته . ومخلص : اسم مكان من خلص الشىء من التلف (من باب دخل) أى نجا وسلم ، أو هو مصدر بمعنى الخلوص والنجاة والسلامة .

يقول : إن الإنسان يحبّ أن تدوم له النعمة ، ولكن النعم لا تدوم ، ولا بدّ من التعرّض لصولة الدهر وبطشه ، ولا نجاة من صروف الزمان وأحداثه .

(١٨) لله عيناه : تركيب يفيد المدح والتعجّب ، لأن الشىء يكمل ، ويعلو قدره ، ويعظم شأنه إذا نسب إلى الله مصدر الكمال والعظمة والجلال . وأتخرّص : أكذب .

يقول : من رأى مثل حسن ذلك المرتبع فلله عيناه ، لأنه رأى ما يبهج ويسرّ ويعجب ويمتع . ولست كاذبا فيما قلته ووصفته به من الروعة والحسن والخصب والجمال والبهاء . وفى رواية : « فلله عينا من أرى مثل حسنه » أى أرى غيره .

(١٩) ظفرت : فزت . وبه : أى بالمربع . والحقبة (بكسر فسكون) : المدّة والزمن . وقنصته : صدته . وعلى غرّة (بكسر الغين) : على غفلة .

(١) بادر الفرصة : عاجلها ، وسارع إليها . وفوتها : فوا وذهابها ، مصدر فاته الشىء (من باب قال).

واغْتَنِمْ عُمْرَكَ إِبَّانَ الصِّبَا ... فَهْوَ إِنْ زَادَ مَعَ الشَّيْبِ نَقَصْ (٢)
إِنَّمَا الدُّنْيَـــا خَيَالٌ عَارِضٌ ... قَلَّمَا يَبْقَى ، وَأَخْبَارٌ تُقَصْ (٣)
تَارَةً تَدْجُو ، وَطَوْرًا تَنْجَلِى ... عَادَةُ الظِّلِّ : سَجَا ، ثُمَّ قَلَصْ (٤)
فَابْتَدِرْ مَسْعَاكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ ... بَادَرَ الصَّيْدَ مَعَ الْفَجْرِ قَنَصْ (٥)
لَنْ يَنَالَ الْمَرْءُ بِالْعَجْزِ الْمُنَى ... إِنَّمَا الْفَوْزُ لِمَنْ هَمَّ فَنَصْ (٦)
يَكْدَحُ الْعَاقِلُ فِى مَأْمَنِهِ ... فَإِذَا ضَاقَ بِهِ الْأَمْرُ شَخَصْ (٧)
إِنَّ ذَا الْحَاجَةِ مَا لَمْ يَغْتَرِبْ ... عَنْ حِمَاهُ مِثْلُ طَيْرٍ فِى قَفَصْ (٨)

---

(٢) اغتنم عمرك : المراد انتفع به ، ولاتضيّعه ، وأصله من اغتنم المرء الشيء ، إذا عدّه غنيمة ، وفاز به بلا مشقّة . وإبّان الصبا : وقت الصغر . ومعنى الشطر الثانى : أن العمر إذا زاد نقصه الشيب وطواه .

يريد الحضّ على الانتفاع بالحياة ، وتقديم صالح الأعمال فى زمن الفتاء والشباب ؛ قبل أن يحلّ المشيب ، فيحلّ معه الضعف والفتور .

(٣) الخيال : كلّ شيء تراه كالظلّ ، وخيال الشيء : صورة تمثاله . وعارض : باد، ظاهر . وتقصّ : تحكى ، ويتحدّث بها .

(٤) تدجو : تظلم ، والمراد تسوء : وتنجلى : تنكشف وتتّضح ، والمراد تحسن وتزدهر ، وتواتى صاحبها . وسجا : امتدّ وسكن ودام . وقلص : انقبض وانزوى وانضمّ .

(٥) ابتدر الإنسان الشيء وبادره : عاجله وسارع إليه . ومسعاك : سعيك فى الخير وصالح الأعمال . والصيد : يكون مصدر صاد (كباع) ويكون اسماً لكل مايصاد . وقنص الصائد الصيد (من باب ضرب) : صاده .

(٦) يريد بالعجز : التوانى وضعف الهمّة . والمنى : الأمانى والآمال ، واحدتها منية (بضم فسكون) وهمّ بالشيء : أراده ، (وبابه ردّ) . ونصّ : المراد أنفذ ماهمّ به ، من قولهم : نصّ الرجل ناقته (من باب ردّ) : إذا استخرج أقصى ماعندها من السير ، ونصّ الشيء : حرّكه . ونصّه : أظهره . ونصّ فلان فلاناً : إذا استقصى مسألته عن الشيء .

(٧) يكدح : يكدّ ويجتهد ، من الكدح ، وهو السعى والكدّ والكسب والشدّة والدءوب فى العمل ، (وبابه قطع) . ومأمنه : مكان أمنه ، والمراد بلده ووطنه . والمراد بضيق الأمر : الفقر والضنك وسوء الحال . وشخص (كذهب) : انتقل وارتحل وهاجر .

(٨) يغترب : ينزح عن وطنه ويبتعد . والحمى : المكان المحظور الذى لايقرب ، والمراد به هنا : الوطن .

وَلْيَكُنْ سَعْيُكَ مَجْدًا كُلُّهُ ... إِنَّ مَرْعَى الشَّرِّ مَكْرُوهٌ أَحَصْ (٩)

وَاتْرُكِ الْحِرْصَ تَعِشْ فِى رَاحَةٍ ... قَلَّمَا نَالَ مُنَاهُ مَنْ حَرَصْ (١٠)

قَدْ يَضُرُّ الشَّىْءُ تَرْجُو نَفْعَهُ ... رُبَّ ظَمْآنَ بِصَفْوِ الْمَاءِ غَصْ (١١)

مَيِّزِ الْأَشْيَاءَ تَعْرِفْ قَدْرَهَا ... لَيْسَتِ الْغُرَّةُ مِنْ جِنْسِ الْبَرَصْ (١٢)

وَاجْتَنِبْ كُلَّ غَبِىٍّ مَائِقٍ ... فَهْوَ كَالْعَيْرِ ، إِذَا جَدَّ قَمَصْ (١٣)

إِنَّمَا الْجَاهِلُ فِى الْعَيْنِ قَذًى ... حَيْثُمَا كَانَ ، وَفِى الصَّدْرِ غَصَصْ (١٤)

واحْذَرِ النَّمَّامَ تَأْمَنْ كَيْدَهُ ... فَهْوَ كَالْبُرْغُوثِ إِنْ دَبَّ قَرَصْ (١٥)

---

(٩) المجد : العزّ والشرف والكرم والعلاء ، ومعنى الشطر الأول : ليكن سعيك كلّه فى سبيل المجد . والمرعى : الكلأ ، أوهو مصدر بمعنى الرعى ، أو هو اسم مكان من الرعى (بفتح فسكون) والكلام على التشبيه . والأحصّ : النكد المشئوم الوبيل الذى لاخير فيه . والأصل : حصّ الشعر (كلّ) : أى تساقط ، وتناثر ؛ فهو أحصّ ، وهى حصّاءُ .

(١٠) الحرص (بكسر فسكون) : الجشع والشره (بفتحتين فيهما) وقد حرص (كضرب ، وسمع) ، فهو حريص . والمنى : الأمانى والآمال والمطالب ، وحدتها منية (بضم فسكون) .

(١١) ظمآن : صفة من الظمأ (بفتحتين) وهو العطش ، أوأشده . وصفو الماء: ماصفا منه ، وهو متعلّق بغصّ . وغصّ بالماء (من باب تعب) : شرق به ، أووقف فى حلقه ، فلم يكد يسيغه .

(١٢) قدر الشىء :مقداره ومبلغه ودرجته . والغرّة : بياض مستحسن فى جبهة الفرس . والبرص (بفتحتين) : بياض يظهر فى ظاهر البدن لفساد مزاج ، وهومن الأدواء البشعة الفظيعة ، (وبابه تعب) .

(١٣) مائق : أحمق ، غبىّ ، سيّئُ الخُلُق . والعير (بفتح فسكون) : الحمار . وجدّ فى السير : أسرع واجتهد . وقمص الحمار ونحوه : اضطرب فى سيره واستنّ ، وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معاً ، ويعجن برجليه ، (وبابه ضرب وقتل) .

(١٤) القذى : مايقع فى العين فيهيجها ويؤذيها . والغصص (بفتحتين) : مصدر غصصت بالطعام والشراب (من باب تعب)، والغصّة(بضم الغين وتشديد الصاد) : ماغصّ به الإنسان من طعام ، وقد يسمى الغيظ غصّة على التشبيه ، وجمعها غصص (كغرفة وغرف) .

(١٥) النمّام : صفة من النمّ والنميمة، وهى رفع الحديث على وجه الإشاعة والإفساد، أو تزيين الكلام بالكذب . والكيد : الختل والخديعة والروغان (بفتحتين) والبرغوث (بوزن العصفور) : ضرب من صغار الهوامّ ، عضوض ، شديد الوثب ، فى صورة الفيل . وجمعه براغيث . ودبّ : سار على هينته (بكسر الهاء وسكون الياء) سيراً ليناً . وقرص : لسع ، (وبابه قتل) .

يَرْقُبُ الشَّرَّ ، فَإِنْ لَاحَتْ لَهُ فُرْصَةٌ تَصْلُحُ لِلْخَتْلِ فَرَصْ (١٦)
سَاكِنُ الْأَطْـرَافِ ، إِلَّا أَنَّهُ إِنْ رَأَى مَنْشَبَ أُظْفُورٍ رَقَصْ (١٧)
وَاخْتَبِرْ مَنْ شِئْتَ تَعْرِفْهُ ، فَمَا يَعْرِفُ الْأَخْلَاقَ إِلَّا مَنْ فَحَصْ (١٨)
هـٰذِهِ حِكْمَةُ كَهْلٍ خَابِرٍ فَاقْتَنِصْها ، فَهْيَ نِعْمَ الْمُقْتَنَصْ (١٩)

وقال فِيمَا يَجِبُ عَلَى الْحَاكِمِ :

إِذَا سُدْتَ فِى مَعْشَرٍ ، فَاتَّبِعْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، وَكُنْ مُخْلِصَا (١)
وَوَالِ الْكَرِيمَ ، ودَارِ السَّفِيهَ وَصِلْ مَنْ أَطَاعَ ، وَخُذْ مَنْ عَصَى (٢)

---

(١٦) يرقب الشرّ (من باب قعد) : ينتظره ويرصده ويتوقّعه . ولاحت : بانت ووضحت وظهرت . والختل : مصدر ختله (من باب ضرب) ، أى خدعه وراد به المكروه من حيث لايعلم . وفرص الفرصة (من باب ضرب) : انتهزها وأصابها واغتنمها .

(١٧) الأطراف : المراد الأعضاء . ومنشب (بوزن مذهب) : اسم مكان من نشب الشىء فى الشىء (من باب فرح) أى علق فيه ، وأمسك به . والأظفور : الظفر (بضم فسكون) والمراد بمنشب الأظفو : مجال الشرّ ، وموضع السعاية والنميمة مهما صغر .

يقول : إن النمام يبدو هادئاً ساكن الأطراف ، ولكنه يرتقب الشرّ ، فإذا رأى مجاله رقص وطرب ، وسارع إليه .

(١٨) فحص : بحث .

(١٩) الحكمة : العلم ، والقول الرائع يتضمّن حكماً صحيحاً مسلّماً . والكهل : الرجل إذا وخطه الشيب ، أى خالطه ، والمراد المجرّب العاقل . وخابر : عالم . واقتنصها : أمر من الاقتناص ، وهو الصيد . والمقتنص : اسم مفعول من الاقتناص

(١) معشر : جماعة . والرشاد : الصلاح والقصد والهدى والصواب . والإخلاص فى العمل : ترك الرياء فيه .

(٢) وال الكريم : تودّد إليه ، ن الموالاة ، وهى ضدّ العداوة . والكريم : صفة من الكرم ، وهو ضدّ اللؤم ، والكرم اسم جامع لكلّ ما يحمد من أنواع الخير والشرف والفضائل . ودار : أمر من المداراة ، وهى المداجاة والملاينة . والسفيه : الجاهل الطائش ، صفة من السفه (بفتحتين) وهو الطيش والحمق وخفّة العقل . وصل : أمر من الوصل ، وهو ضدّ الهجران . وخذ من عصى : المراد عاقبه بذنبه ، وهو العصيان . وعصاه (كرماه) معصية وعصياناً .

وَنَقِّبْ لِتَعْلَمَ غَيْبَ الْأُمُــورِ فَإِنَّ مِنَ الْحَزْمِ أَنْ تَفْحَصَا(٣)
وَلَا تُبْقِيَنَّ عَلَى فَاجِرٍ فَإِنَّ اللِّئَامَ عَبِيدُ الْعَصَا(٤)
وَإِنْ خَفِيَ الْحَقُّ فَاصْبِرْ لَهُ وَبَادِرْ إِلَيْهِ إِذَا حَصْحَصَا(٥)
وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ فِى كُلِّ ما نَوَيْتَ ، تَجِدْ عِنْدَهُ مَخْلَصَا(٦)
فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا خَيَالٌ سَرَى وَظِلٌّ إِذَا مَا سَجَا قَلَّصَا(٧)

وقال مُفْتَخِرًا :

لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا خَفَّتْ حَصَاتِى لِنَازِلَةٍ ، ولا ارْتَعَدَ الْفَرِيصُ(١)
وَمَا قَصَّرْتُ فِى طَلَبِ الْمَعَالِى وَلَكِنْ رُبَّمَا خَابَ الْحَرِيصُ(٢)

---

(٣) نقّب : ابحث وفتّش . وغيب الأمور : ماغاب منها . والحزم: ضبط الإنسان أمره ، والأخذ فيه بالثقة . وتفحص : تبحث ، (وبابه قطع) .

(٤) أبقى عليه : رحمه ، وأشفق عليه ، وعفا عنه . والفاجر : الفاسق الكاذب الشرّير . والمراد بالشطر الثانى : أن اللئام الفجرة تصلحهم العقوبة ، وتردعهم ، وتردّهم إلى الطاعة والاستقامة . ومعنى عبيد العصا : أنهم أذّلاء ، يضربون بالعصا .

(٥) بادر : سارع . وحصحص الحقّ : ظهروبان ، بعد خفاء وكتمان .

يقول : وإن خفى عليك الحقّ ، فلا يحملنّك خفاؤه على أن تتركه ، وتهيم فى ظلمات الباطل ، واستعن بالصبر على إظهاره ، وكشف معالمه . فإذا استبان واتضح ، فسارع إليه ، واسلك سبيله .

(٦) الإخلاص : ترك الرياء . ومخلص (بوزن مذهب) : اسم مكان من خلص الشىء من التلف (من باب قعد) أى نجا وسلم ، أو هومصدر بمعنى الخلوص والسلامة والنجاة .

(٧) سرى : ساروبضى ، والسرى (بضم السين وفتح الراء) فى الأصل : السير ليلا . وسجا الظلّ : سكن وامتدّ . وقلّص : انقبض وانزوى وذهب .

يقول : إن الدهر كالخيال السارى ، أو هو كالظلّ يسجو حيناً ، ثم لا يلبث أن يتقلّص . والغرض الحضّ على الانتفاع بالعمر فى صالح الأعمال ، وانتهاز الفرصة قبل فواتها ، وعدم الإخلاد إلى الكسل والتوانى .

(١) الحصاة : العقل والرزانة والرأى . وخفّة الحصاة : ضعف الرأى والعقل ، وهذا كلّه كناية عن الجزع والاضطراب وعدم الصبر . والنازلة : الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس . وارتعد : ارتعش واضطرب . والفريص : جمع فريصة ، وهى لحمة بين الجنب والكتف ، ترتعد عند الفزع .

(٢) المعالى : جمع المعلاة (بفتح فسكون) ، وهى العلاء والرفعة والشرف . والحريص : المجتهد .

قافية الضاد

قال فى الغَزَل

أَيْنَ لَيَالِينَا بِوَادى الْغَضَى ؟ ذَلكَ عَهْدٌ لَيْتَهُ مَا انْقَضَى (١)
كُنْتُ بِهِ مِنْ عِيشَتِى رَاضِياً حَتَّى إِذَا وَلَّى عَدِمْتُ الرِّضَا (٢)
أَيَّامُ لَهْوٍ وَصِباً ، كُلَّمَا ذَكَرْتُهَا ضَاقَ عَلَىَّ الْفَضَا (٣)
فَآهِ مِنْ دَهْرٍ بِأَحْكَامِهِ جَارَ عَلَيْنَا ، وَقَضَى مَا قَضَى ! (٤)
أَىُّ قِنَاعٍ مِنْ شَبَابٍ سَرَا ؟ وَأَىُّ ثَوْبٍ مِنْ نَعِيمٍ نَضَا ؟ (٥)

---

(١) الغضى : شجر ، وخشبه من أصلب الخشب ، الواحدة غضاة (بفتح الغين) . ووادى الغضى : مكان بنجد ، ويريد به الشاعر : منزل الحبّ ، ومجال اللهو والصبا والهوى . والاستفهام فى أول البيت للتحسّر . والعهد : الزمان . وانقضى : ذهب وانتهى .

(٢) العيشة : الحياة . وولّى : أدبر وذهب ، أى العهد .
يقول : إنه كان راضياً بذلك الزمن من حياته ، فلمّا ذهب أسف على فواته .

(٣) اللهو : اللعب ، وما شغلك من هوى وطرب ونحوهما . والصبا : جهلة الفتوة ، واللهو من الغزل . وضاق عليه الفضاء : كناية عن حسرته وأسفه وحزنه وتبرّمه .

(٤) جار : ظلم ومال عن القصد ، (وبابه قال) .
يشكو ويتوجّع من دهر جار عليه بأحكامه ، وقضى بحرمانه ما كان يستمتع به من لهو وصبا .

(٥) « أىّ » فى الشطر الأول مفعول « سرا » ، وفى الشطر الثانى مفعول « نضا » ، وهى فى الشطرين للاستفهام الذى يراد به التحسّر والتلهّف والتأسّف على فوات شىء عظيم محبوب . والقناع : ما تتقنّع به المرأة ، أى تغطّى به رأسها ومحاسنها ، وقد شبّه الشاعر به سواد شعر الرأس فى عهد الشباب . وسرا الثوب عنه يسرُوه : كشفه وألقاه وخلعه . وكذلك نضاه ينضوه . وفاعل سرا ونضا ضمير الدهر .

قَدْ بَيَّضَ الْأَسْوَدَ مِنْ لِمَّتِي يَالَيْتَــهُ سَوَّدَ ما بَيَّضَا(٦)

عَهْدٌ كَطَيْفٍ زَارَ ، حَتَّى إِذَا أَشْرَقَ صُبْحٌ مِنْ مَشِيبِي مَضَى(٧)

ما كَانَ إِلَّا كَنَسِيمٍ سَرَى وَعَارِضٍ غَامَ ، وبَرْقٍ أَضَا(٨)

وَلَّى ، وَلَمْ يُعْقِبْ سِوَى حَسْرَةٍ بَيْنَ الْحَشَا ، كَالصَّارِمِ الْمُنْتَضَى(٩)

لَوْلَا الْغَضَى ــ وَهْوَ مَطافُ الْهَوَى ــ مَا شَبَّ فى قَلْبِيَ جَمْرُ الْغَضَى(١٠)

---

(٦) اللمّة (بكسر اللام) : الشعر المجاوز شحمة الأذن .

يقول : إن الدهر بيّض شعره وأشابه ، ويتحسّر على ما صار إليه من مشيب وكبر .

(٧) الطيف : الخيال الطائف فى المنام . والمشيب : الشيب وبياض الشعر .

يقول : إن زمن الصبا واللهو والمرح كان كالخيال يطيف بالنائم ، حتى إذا ظهر شبيه الشبيه بالصبح المشرق ذهب الطيف ومضى ؛ لأنه لا يطوف بالنهار .

(٨) النسيم : الريح الطيّبة اللطيفة المعتدلة الهادئة . وسرى : سار . والعارض : السحاب يعترض فى الأفق . وغام : المراد تراكم وأطبق واجتمع ، وفى المصباح وغيره : غامت السماء ، إذا أطبق بها السحاب .

شبّه ذلك العهد المحبوب ببعض ما تميل إليه النفس وتستريح ، كالنسيم يهبّ هبوباً ليّناً لطيفاً ، والسحاب المجتمع المتراكم ، والبرق المضىء اللامع . ثم هو بهذه التشبيهات يشير إلى قصر ذلك العهد ، وسرعة انقضاء أيام اللهو والصبا والشباب .

(٩) ولّى : أدبر وذهب أى العهد . ولم يعقب : لم ينتج ، وفاعله : ضمير العهد ، وسوى : مفعول يعقب . والحسرة : الحزن والندامة ، والتلهّف الشديد على الشىء الفائت . والحشا : ما اجتمعت عليه الضلوع ، وما حواه الجوف . والصارم : السيف القاطع . والمنتضى : المسلول المجرّد من غمده .

(١٠) لولا الغضى : أى وادى الغضى . والغضى: شجر خشبه من أصلب الخشب ، ولهذا يكون فى فحمه صلابة ، وهو من أجود الوقود عند العرب ، ويضرب بناره المثل فى القوّة وطول التوقّد والاشتعال ، وواحدة الغضى : غضاة (بفتح الغين) . والشاعر يشير إلى ماذكره فى مطلع هذه القصيدة من أن وادى الغضى كان مجال لهوه ، ومرتع صباه ومرحه . ومطاف الهوى : مجال الحبّ ، ومنزل الغرام . وشبّ : اشتعل وتوقّد . والجمر : النار المتّقدة ، الواحدة جمرة .

والمعنى : أن ليالى وادى الغضى وذكريات هواه ولهوه وحبّه تطوف به ، وتخطر بباله ؛ فيعظم تلهّفه ، وتشتدّ حسرته ، كأنها نار الغضى تتّقد فى قلبه .

أَسْتَوْدِعُ اللهُ بِهِ شَادِناً عَذَّبنِي بِالصَّدِّ ، بَلْ أَرْمَضَا(١١)

مُعْتَدِلُ الْقَامَةِ ، ذُو لَحْظَةٍ تَعَلَّمَ الْخَطِّيُّ مِنْهُ الْمَضَا(١٢)

ظَبْيُ حِمًى ، مُذْ غَرَبَتْ شَمْسُهُ عَنْ نَاظِرِى بِالْبَيْنِ – مَا غَمَّضَا(١٣)

قَدْ سَرَّنِى حِينَ أَتَى مُقْبِلًا وَسَاءَنِى حِينَ مَضَى مُعْرِضَا(١٤)

حَمَّلَنِى مِنْ وَجْدِهِ لَوْعَةً لَوْ نَهَضَ الدَّهْرُ بِهَا خَفَّضَا(١٥)

قَدْ أَخَذَ النَّوْمَ ، وَمَا رَدَّهُ وَاسْتَلَبَ الْقَلْبَ ، وَمَا عَوَّضَا(١٦)

---

(١١) استودعه الشيء : دفعه إليه ليكون وديعة عنده . وبه : أى بوادى الغضى . والشادن : الظبى إذا قوى واشتد واستغنى عن أمه ، وتشبه به الفتاة الحسناء فى جمال الجيد والعينين، والرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنى . والصد : الإعراض والهجران . وأرمض : يريد أرمضنى ، أى أوجعنى وأحرقنى ، وفاعل عذب وأرمض ضمير الشادن .

(١٢) معتدل القامة : صفة الشادن فى البيت السابق . واللحظة : النظرة بمؤخر العين ، والمراد النظرة الفاتنة الساحرة . والخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط من بلاد البحرين، وكانت تشتهر بتجارة الرماح . والمضاء : مصدر مضى الرمح والسيف ونحوهما ، أى نفذ .

يصف الحبيب باعتدال القامة ، وجمال القد ، وحسن الطول، وأن نظرته ساحرة فاتنة ، وهى أشد فتكاً ومضاء فى قلوب العشاق من الرماح الخطية .

(١٣) الظبى : الغزال . والحمى : المكان المحمى المحظور الذى لا يقرب، ولا يجترأ عليه ، وتشبيه الحبيب بظبى الحمى يفيد أنه مصون محجب مخدر عزيز الجانب . والناظر : العين . والبين : الفراق والبعد . وتغميض العين : إغماضها و إرخاء جفونها ، ومعنى ما غمض : لم ينم .

شبه الحبيب بالغزال فى الرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنى، وجمال العنق والعينين ، وأشار إلى أنه مخدر مصون عزيز محجب، ثم شبهه بالشمس فى الحسن والإشراق والبهاء ، وقال إن بعده أورثه أرقاً وسهداً .

(١٤) معرضاً : صاداً هاجراً .

(١٥) من وجده : من حبه، أى بسبب حبى إياه . واللوعة : حرقة الهوى والحب . ونهض الدهر بها : قام بها وحملها، أى اللوعة . وخفض : المراد خفضها ، أى طرحها وألقاها من العجز والإعياء ، تقول : خفضت الشيء ، إذا ألقيته من يدك وطرحته .

والمعنى : أن الحبيب حملنى من شدة الحب لوعة لا يستطيع الدهر حملها .

(١٦) استلب الشيء : اختلسه وأخذه .

مَا بَالُهُ مَاطَلَ فِى وَعْدِهِ ؟ أَلَمْ يَحِنْ لِلدَّيْنِ أَنْ يُقْتَضَى ؟[١٧]

قَاضَيْتُهُ عِنْدَ مَلِيكِ الْهَوَى فَغَلَّ حَقِّى ، وَأَسَاءَ الْقَضَا[١٨]

فَمَنْ لَهُ أَشْكُو وَقَدْ سَامَنِى جَوْرًا ؟ وَحَقُّ الْجَوْرِ أَنْ يُرْفَضَا[١٩]

تَاللهِ لَوْلَا خَوْفُ هِجْرَانِهِ مَا بَاتَ قَلْبِى عَانِيًا مُحْرَضَا[٢٠]

فَإِنَّ لِى مِنْ عَزْمَتِى صَاحِباً يَمْنَعُنِى فِى الرَّوْعِ أَنْ أَدْحَضَا[٢١]

وَلَسْتُ مِمَّنْ إِنْ دَجَا حَادِثٌ أَلْقَى زِمَامَ الْأَمْرِ أَوْ فَوَّضَا[٢٢]

---

(١٧) البال : الحال والشأن . وماطله بدينه وحقّه مماطلة ومطالاً : سوّفه بوعد الوفاء مرّة بعد أخرى . وحان الشىء يحين (من باب باع) : قرب ، أوجاء حينه ووقته . ويقتضى : يؤدى ويؤخذ . (بالبناء للمجهول فى الأفعال الثلاثة) .

(١٨) قاضيته : حاكمته . ومليك الهوى : ملك الحبّ . وغلّ : خان . وأساء القضاء : أفسد الحكم ، ولم يعدل فيه .

(١٩) سامه الأمر (من باب قال) : حمله عليه ، وأولاه إياه ، أو كلّفه إيّاه ، وأكثر ما يستعمل السوم فى العذاب والشرّ . والجور : الظلم . ويرفض : يترك .

يستفهم فى حيرة وأسف عمن يشكوَ إليه حبيبه بعد أن شكاه إلى مليك الهوى فجار عليه فى الحكم ، ولم ينصفه .

(٢٠) الهجران (بكسر فسكون) : الهجر والقطيعة ،وهو ضدّ الوصل . والعانى : الأسير ، والخاضع المستكين . ومحرض : مدنف ، قد أذابه العشق ، وهو اسم مفعول من أحرضه الحب : أى أفسده .

(٢١) العزمة : الجدّ والاجتهاد فى الأمر، وهى أيضاً اسم مرة من عزم على الشىء (من باب ضرب) إذا أراد فعله ، وقطع عليه ، أى عقد ضميره على فعله . والروع : الفزع والخوف . وأدحض : أزلّ وأسقط ، مضارع دحضت رجله ، أى زلقت ، (وبابه خضع) ، وأدحضها : أزلقها .

يقول : إن له عزمة قوية تصاحبه فى الأهوال والمخاوف ، وتمنعه من الزلل والاضطراب والسقوط .

(٢٢) دجا : أظلم ، ودجا حادث : اشتدّ وصعب واستبهمت معه الأمور ، وصعب المخلص منه والزمام (ككتاب) : المقود (بكسر فسكون) والحبل أو الخيط يزمّ بهالشىء : أى يشدّ ويربط . وإلقاء زمام الأمر : كناية عن التخلّى عنه ، وعدم الاهتمام به . وفوّض الأمر إلى غيره تفويضاً : صيّره إليه ، وجعله الحاكم فيه . يريد أن شدّة الحوادث لاتزعجه ، ولاتقعده عن لقائها والاضطلاع بها .

لَكِنَّنِي أَلْقَى الرَّدَى حَاسِرًا   وَأَصْدَعُ الْخَصْمَ إِذَا عَرَّضَا[٢٣]
أَسْتَحْقِبُ الشَّهْدَ لِمَنْ وَدَّنِي   وَأَنْفُثُ السُّمَّ لِمَنْ أَبْغَضَا[٢٤]
جَرَّدْتُ نَفْسِيَ لِطِلَابِ الْعُلَا   وَالسَّيْفُ لَا يُرْهَبُ أَوْ يُنْتَضَى[٢٥]
وَلِي مِنَ الْقَوْلِ نَصِيرٌ ، إِذَا   دَعَـوْتُهُ فِي حَاجَةٍ أَوْفَضَا[٢٦]
سَلْ عَنِّيَ الْمَجْدَ ، وَلَا تَحْتَشِمْ   فَالْمَجْدُ يَدْرِي أَيَّ سَيْفٍ نَضَا[٢٧]

وَقَالَ يَصِفُ نَاقَةً مِنَ النُّعْمَانِيَّاتِ(*) :

وَرَوْعَاءِ الْمَسَامِعِ مَا تَمَطَّتْ   بِحَمْلٍ بَيْنَ سَائِمَةٍ مَخَاضِ[١]

---

(٢٣) الردى : الهلاك . والحاسر : المنكشف الذى لادرع له ولا بيضة ولا مغفر، وهو خلاف الدارع ، ولقاؤه الردى حاسراً : دليل على قوّته ، وشجاعته ، وشدّة بأسه ، وعدم الاكتراث للنوائب . وأصدع الخصم : أرديه وأهلكه ، والصدع فى الأصل : الشقّ والكسر . وعرّض له وبه : إذا قال قولا وهويعنيه : من التعريض : وهوضدّ التصريح .

(٢٤) أستحقب : أحمل ، وأصله من قولهم : استحقب المسافر الشيء إذا احتمله خلفه . والشهد (بفتح الشين وضمها) : العسل فى شمعها . وودّنى : أحبّنى . وأنفث السمّ : أتفله ، (وبابهما ضرب ونصر) . وأبغضنى : كرهنى .
والمعنى : أنه يسالم من يسالمه ، ويعادى من يعاديه .

(٢٥) جرّدت نفسى : المراد أظهرت عزمى ، وشحذت همّتى ، واجتهدت . والطلاب : مصدر طالبه بكذا ، إذا طلبه بحقّ . ويرهب : يخاف . وينتضى : يسلّ ، أى يخرج من غمده . وأو : بمعنى إلاّ ، أى أنّ السيف لايرهب إلا إذا سلّ من غمده .

(٢٦) أوفض : أسرع . يفتخر بفصاحته ، وشعره ، وقوّة بيانه ، وانقياد القول له ، وإسراعه إليه فى جميع الحاجات والأغراض .

(٢٧) المجد : العزّ والشرف والكرم والسؤدد والعلاء . وتحتشم : تنقبض ، من الاحتشام ، وهو الخجل والانقباض والاستحياء . ونضا السيف : سلّه وجرّده من غمده ، وفاعل « نضا » ضمير المجد .
يتمدّح بأنه ماجد كريم شريف ، وأنه سيف مسلول من سيوف المجد .

(*) النوق النعمانيّات : نسبة إلى النعمان بن المنذر ، من أشهر ملوك الحيرة فى الجاهلية ، وكان له نجائب ، أى إبل كريمة ، يقال لها : عصافير النعمان ، ويروى أنه أمر للنابغة الذبيانىّ بمائة ناقة منها . ولعلّ الشاعر يريد بالنعمانيّات هنا : فتايا النوق ونجائبها .

(١) روعاء : حديدة قويّة ، ترتاع لحدّتها من كلّ ماتسمع . والمسامع : جمع مسمع (كمنبر) وهو—

خَرَجْتُ بِها عَلَى الْبَيْدَاءِ وَهْناً ... خُرُوجَ اللَّيْثِ مِنْ سَدَفِ الْغِياضِ (٢)

تُقَلِّبُ أَيْــدِياً مُتَسَابِقاتٍ ... إلَى الْغَايَاتِ كَالنَّبْلِ الْمَوَاضِى (٣)

مَدَدْتُ زِمَامَهَا والصُّبْحُ بَادٍ ... فَمَا كَفْكَفْتُهَا وَاللَّيْلُ غَاضِى (٤)

فَمَا بلَغَتْ مَغِيبَ الشَّمْسِ حَتَّى ... أَضَافَتْ آتِياً مِنْهُ بِمَاضِى (٥)

أَحَالَ السَّيْرُ جِرَّتَهَا رَمَادًا ... فَراحَتْ وَهْىَ خَاوِيَةُ الْوِفَاضِ (٦)

= الأذن . والتمطّى : التبختر، ومدّ اليدين فى المشى، وهو أيضاً التمدّد. وما تمطت بحمل: ما تمدّد بطنها بحمل ، أوما سارت به تمدّ يديها وتتثاقل كالمتبخترة. والمعنى أنها لم تحمل، فهى فتيّة قويّة. والسائمة : الماشية الراعية ، والمراد الإبل والنوق. والمخاض : الحوامل من النوق.

يصفها بحدّة السمع ، وأنها لم تحمل ، فهى قويّة فتيّة قادرة على السير .

(٢) البيداء : الفلاة والمفازة والصحراء . ووهنا : حين أدبر الليل . والليث : الأسد . والسدف (بفتحتين) : الظلمة . والغياض : جمع غيضة (بفتح فسكون) ، وهى الشجر الكثير الملتفّ .

يقول : إنه ركب هذه الناقة القويّة ، وخرج بها إلى الفلاة فى آخر الليل ، كما يخرج الأسد من ظلمة الغابات .

(٣) الأيدى : جمع اليد ، والمراد بأيديها : قوائمها الأربع . والنبل: السهام العربية ، وهى مؤنثة، ولاواحد لها من لفظها ، بل الواحد سهم ، وهو مايرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . والمواضى : جمع ماض أو ماضية ، بمعنى نافذة . يصفها بسرعة السير ، والدءوب والجد .

(٤) مددت زمامها : بسطته وأرخيته عند سيرها . والزمام : المقود ، أى الحبل الذى تقاد به الدابّة . وباد : ظاهر . وكفكفتها : منعتها . وغاض : مظلم قد ألبس كلّ شىء ، (والفعل من باب سما)

يقول : إنه ركبها وسار فى الصباح ، فلما أتى الليل لم يكفّها عن المسير ، بل بات مسافراً ، وفى هذا دليل على قوّتها وصبرها .

(٥) هذا البيت توضيح وتأكيد لمعنى البيت السابق . يقول : إن هذه الناقة ما بلغت فى سيرها وقت مغيب الشمس حتى أضافت الزمن الآتى إلى الزمن الماضى . والمعنى أنها سارت النهار والليل.

والمفهوم من المعجمات وأساليب العرب أن الفعل « أضاف » يتعدى إلى مفعوله بإلى ، يقال أضفت الشىء إلى الشىء إضافة ، أى ضممته إليه . ولعلّ الشاعر ضمّنه معنى قرن وجمع .

(٦) أحال : صيّر. والجرّة (بكسر الجيم وتشديد الراء): مايجترّه البعير ونحوه ، أى يخرجه من كرشه ليحسن مضغه، ثم يبلعه مرّة أخرى، وكلّ ذى كرش يجترّ . وتكنى العرب عن ذهاب الشىء وفنائه بصيرورته رماداً ، ومن هذا القبيل قول الشاعر هنا: «أحال السير جرّتها رماداً » . وراحت : من=

وَمَا كانَتْ لِتَسْأَمَ ، غَيْرَ أَنِّى رَمَيْتُ بِها اعْتِزامِى واعْتِراضِى (٧)
هَتَكْتُ بِها سُتُورَ اللَّيْلِ ، حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ السَّوادِ إِلَى الْبَياضِ (٨)

وقال يَعْتَذِرُ :

رَبَّ الْفُتُوَّةِ ، لَا تَسْبِقْ إِلَى عَذَلٍ يَبِيتُ مِنْ مَسِّهِ قَلْبِي عَلَى مَضَضِ (١)
فَإِنْ تَكُنْ هَفْوَةٌ أَوْ زَلَّةٌ عَرَضَتْ فَالسَّهْمُ يَصْدِفُ أَحْيَاناً عَنِ الْغَرَضِ (٢)

=الرواح ، هو السير بالعشىّ ، وقد يطلق على السير فى كلّ وقت . وخاوية : خالية . والوفاض : جمع وفضة (بفتح فسكون) ، وهى الخريطة يضع فيها الراعى زاده ، والجعبة من أدم ، والوفاض أيضاً : الجلدة توضع تحت الرحى ، والمكان يمسك الماء ، والكلام على التشبيه .

والمعنى : أن طول السير أجاعها ، وأخلى جوفها من الزاد .

(٧) الاعتزام: العزم ، مصدر اعتزمت كذا ، أى أردت فعله ، وعقدت عليه ضميرى . والاعتراض : مصدر اعترض لعدوّه بسهم : إذا أقبل به قبله (بكسر ففتح) فرماه فقتله ، واعترض الرجل البعير : إذا ركبه وهو صعب .

والمعنى : أنه اتّخذ هذه الناقة مطيّة لأغراضه البعيدة ، وهممه العالية الرفيعة ، فحمّلها بذلك ما لا تطيق .

(٨) هتكت : خرقت ومزّقت ، (وبابه ضرب) . والستور : جمع ستر (بكسر فسكون) وهو مايستر به الشىء ، أى يغطّى ويحجب ، وستور الليل : ظلماته . ويريد بالسواد : ظلمة الليل ، وبالبياض ضوء النهار .

والمعنى : أنه ركبها فسارت به الليل كله .

(١) ربّ الفتوّة . صاحب الكرم ، وهو منادى ، وأداة النداء محذوفة . والعذل : اللوم . ومن مسّه : بسبب مسّه . والمضض : الألم والوجع .

(٢) الهفوة : السقطة ، ومثلها الزلّة . ويصدف : يميل عن القصد ، وينحرف عن الهدف ، (وبابه ضرب) . والغرض : الهدف الذى ينصب فيرمى .

والمعنى : أن ما كان منه خطأ غير مقصود ، كالسهم ينحرف أحياناً ، فلا يصيب الهدف .

وقال :

إذا أَنْتَ أَبْغَضْتَ امْرَأً ،فَاخْشَ ضَرَّهُ فَأَنْتَ لَدَيْهِ مِثْلُ ذَاكَ بَغِيضُ[١]
فَإِنَّ قُلُوبَ النَّاسِ تَمْتَازُ فِطْرَةً فَمِنْهَا لِبَعْضٍ آلِفٌ وَنَقِيضُ[٢]
وَعَاشِرْ مِنَ الْخُلَّانِ مَنْ كَانَ سَالِمًا فَلَيْسَ سَوَاءً سَالِمٌ وَمَرِيضُ[٣]
فَقَدْ لَا يُفِيدُ الْقَوْلُ نُصْحاً وَحِكْمَةً إِذَا حَالَ مِنْ دُونِ الْقَرِيضِ جَرِيضُ[٤]

وقال :

تَحَبَّبْ إِلَى الْإِخْوَانِ بِالْحِلْمِ تَغْتَنِمْ مَوَدَّتَهُمْ ؛ فَالْحِلْمُ لِلشَّرِّ يَرْحَضُ[١]

---

(١) أبغضت : كرهت . والضر (بفتح الضاد) : الضرر ، وهو ضد النفع (وبابه رد) . وبغيض : مكروه ممقوت .

(٢) فطرة : خلقة (بكسر فسكون فيهما) وطبيعة . فمنها لبعض : فمن بعضها لبعض . وآلف : اسم فاعل من ألفته إلفاً (كعلمته علماً) : إذا أنست به وأحببته والاسم الألفة (بضم فسكون) . ونقيض : مخالف.

(٣) الخلان : الأصدقاء ، جمع خليل. وسالماً : المراد السلامة من الأمراض الخلقية ، كالرياء والحقد.

(٤) القريض مايجترّه البعير ونحوه، أي يخرجه من كرشه ليقرضه ويحسن مضغه ،ثم يبلعه مرة أخرى ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، من قرضت الشيء (من باب ضرب) أي قطعته .والجريض: الغصة(بضم الغين وتشديد الصاد) ، وهي مايغص به الإنسان وغيره ، أي ما يعترض وينشب في حلقه من طعام وغيره ؛ من قولهم : « جرضت بريقي » (من باب فرح) ، أي غصصت به . ومعنى الشطر الثاني من هذا البيت : منعت الغصة من الاجترار ، أي منعت الغصة البهيمة من أن تجتر الطعام وتمضغه ، أووقف الجريض واعترض في الحلق ؛ فمنع القريض من أن يصل إلى الجوف . و « حال الجريض دون القريض » مثل عربي يضرب لكل أمر يعوق دونه عائق ، أو لكل أمر كان مقدوراً عليه ، فحال دونه حائل . وهو لعبيد بن الأبرص ، وكان المنذر قد عزم على قتله ، ثم قال له : أنشدني من شعرك ، فقال له عبيد : « حال الجريض دون القريض » . أو هو لجوشن الكلابي ، قاله حين منعه أبوه من الشعر ، فرض حزناً ، فرق له أبوه وقد أشرف ، وقال انطق بما أحببت .

والشاعر يريد الحض على الانتفاع بالحكمة التي ساقها في ثلاثة الأبيات السابقة، والمبادرة إلى حفظها قبل فوات الفرصة ، فإن الإنسان إذا وقع في المحظور ، وحاق به البلاء لا يفيده القول نصحاً ولا حكمة .

(١) تحبب : تودد . والحلم : الأناة والعقل، وهو نقيض السفه والحمق . وتغتنم : تنتهز وتكسب . والمودة : المحبة . ويرحضه : يغسله ، (وبابه نفع) .

فَإِنَّ قَرِينَ السُّوءِ مَا لَمْ تُجازِهِ   بِأَفْعَالِهِ وَافَاكَ بِالْعُذرِ يَرْكُضُ (٢)

وقال :

أَبَيْتُ الرَّدَّ لِلسُّؤَّالِ عِلْمًا   بما فى ذَاكَ مِنْ بَسْطٍ وَقَبْضِ (١)
فَإِمَّا عَائِلٌ فَأَصُونُ مِنْهُ   وإِمَّا فَاجِرٌ فَأَصُونُ عِرْضِى (٢)

وقال :

رَضِيتُ بِالْبَيْنِ إِيثارًا عَلَى سَكَنٍ   فى مَعْشَرٍ وُدُّهُمْ إِنْ أَخْلَصُوا مَرَضُ (١)
فَمَا أَسِيتُ لِشَىءٍ كُنْتُ أَمْلِكُهُ   فى فَقْدِ أَوْجُهِهِمْ عَنْ ثَرْوَتِى عِوَضُ (٢)

---

(٢) القرين : المصاحب . وجازاه بأفعاله : عاقبه . ووافاك : أتاك . ويركض : يعدو ويسرع .
والمعنى : أن صاحب السوء إذا عفوت عنه سارع إليك معتذراً . والغرض الحثّ على الحلم والصفح .

(١) أبيت : امتنعت . والسؤّال : جمع سائل (كجاهل وجهّال) وهو المجتدى . والبسط (فى الأصل) : مصدر بسطت الثوب والفراش ، أى نشرته ، وضدّه القبض .
والمعنى : أنه امتنع عن ردّ السؤال ؛ لأنه يعلم ما يجرّ إليه الردّ من بسط لسان السفيه بالسوء ، وانقباض نفس الفقير الشديد الحاجة .

(٢) عائل : فقير محتاج . وأصون منه : أقيه وأحفظه ، والمراد أقضى بعطائى بعض حوائجه . وفاجر : فاسق كاذب غير محتاج . وأصون عرضى : أحفظه ، والعرض : مايمدح الإنسان على صيانته ، ويذم على التفريط فيه من نفس وحسب وشرف وغير ذلك .
يقول : فإمّا أن يكون السائل فقيراً محتاجاً ، فأسدّ بصلتى شيئاً من مفاقره ، وإمّا أن يكون فاجراً فاسقاً كاذباً ، فأصون منه عرضى .

(١) البين : الفراق والبعد . وإيثاراً : مصدر آثرت الشىء على غيره ، أى قدّمته وفضّلته . وسكن : إقامة واستقرار . ومعشر : جماعة . والودّ (بتثليث الواو) : المودّة والمحبّة . ويريد بالمرض : الرياء والنفاق والملق والمداهنة ونحوها .
يقول : إنه رضى بالفرقة والبعد ، لأنه يؤثر ذلك ويفضّله على الإقامة مع جماعة مداهنين منافقين ، يظهرون المودّة ، ويضمرون العداوة والبغضاء .

(٢) أسيت : حزنت ، (وبابه صَدِىَ) . والشطر الثانى تعليل لمعنى الشطر الأول .
يقول : إنه لم يأسف على ضياع ما كان يملكه فى ديار هؤلاء المرائين ؛ لأن فى فقد أوجههم عوضاً من ثروته .

قافية الطاء

قال يَرُوضُ الْقَوْلَ :

هَلْ فِى الزَّمَانِ لَنَا حُكْمٌ فَنَشْتَرِطُ؟ ... أَمْ تِلْكَ أُمْنِيَّةٌ فِى طَيِّهَا قَنَطُ(١)

نَبْكِى عَلَى غَيْرِ شَىْءٍ ، ثُمَّ يُضْحِكُنَا ... مَا لَيْسَ فِيهِ لَنَا بُقْيَا فَنَخْتَلِطُ(٢)

وَكَيْفَ نَرْجُو مِنَ الْأَيَّامِ عَافِيَةً ... وَصِحَّةُ الْمَرْءِ مَقْرُونٌ بِها السَّقَطُ ؟(٣)

نَرْعَى مِنَ الدَّهْرِ غَيْثاً ، نَبْتُهُ أَسَفٌ ... لِلرَّائِدِينَ، وَرَوْضاً زَهْرُهُ شَطَطُ(٤)

---

(١) الأمنيّة : مايتمنّاه الإنسان ويرجوه ويقدّر حصوله . وفى طيّها: فيما انطوت عليه. وقنط : قنوط ويأس ، مصدرقنط (كفرح) . و« أم » فى الشطر الثانى بمعنى « بل » .

يقول : هل لنا على الزمان حكم وسلطان ، فنشترط عليه أن يجرى كما نحبّ ونهوى ؟ بل تلك أمنيّة تنطوى على اليأس والقنوط ، أى أمل ميئوس منه ، لا رجاء فيه .

(٢) البقيا (بضم فسكون) : اسم بمعنى الإبقاء . ويصحّ أن تقرأ بقياً (بالتنوين مع فتح الباء وسكون القاف) وهو مصدر بقى (كسعى) . ونختلط : من الاختلاط ، وهوفساد العقل .

يقول : إننا فى حياتنا نبكى على غير شىء ، ثم يضحكنا ما يفنى ، ولا نستطيع إبقاءه ، فتفسد عقولنا .

والمعنى : أننا ننخدع بزخرف الحياة الدنيا وباطلها ، فنحزن على ما لا يستحقّ الحزن ، ونفرح بما لا يبقى ، فنوصم بضعف العقل واختلاطه .

(٣) العافية : السلامة من العلل والبلاء . ومقرون : اسم مفعول من قرنت الشىء بالشىء ، إذا وصلته به ، (وبابه ضرب ونصر) . والسقط : العثرات والزلات .

والمعنى : أنه لا يرجى من الأيام استمرار الصحة والعافية والسلامة من العلل والآفات ؛ لأن هذه صفات عارضة غير ثابتة ، تنتهى حتماً إلى المرض والضعف والسقام .

(٤) نرعى : مضارع رعى (كسعى) من قولهم : رعت الماشية الكلأ ، أى أكلته . والغيث : الكلأ ، وأصله المطر . والنبت : النبات . والمراد بنبته: ثمره . والأسف : أشدّ الحزن . والرائد:=

فَلَا يَغُرَّنْكَ مِنْ دَهْرٍ بَشَاشَتُهُ ... فَإِنَّمَا هُوَ بِشْرٌ تَحْتَهُ سخطُ (٥)
لَا يُدْرِكُ الْغَايَةَ الْقُصْوَى سِوَى رَجُلٍ ... ثَبْتِ الْعَزِيمَةِ مَاضٍ حَيْثُ يَنْخَرِطُ (٦)
إِنْ مَسَّهُ الضَّيْمُ نَاجَى السَّيْفَ مُنْتَصِرًا ... أَوْ هَمَّهُ الْأَمْرُ لَمْ يَعْلَقْ بِهِ الشَّبَطُ (٧)
فَاقْذِفْ بِنَفْسِكَ فِى أَقْصَى مَطَالِبِهَا ... إِنَّ النَّجَاحَ بِسَعْيِ الْمَرْءِ مُرْتَبَطُ (٨)
قَدْ يَظْفَرُ الْفَاتِكُ الْأَلْوَى بِحَاجَتِهِ ... وَلَيْسَ يُدْرِكُهَا الْهَيَّابَةُ الْخَلِطُ (٩)
وَإِنْ شَأَتْكَ الْمُنَى فَاقْنَعْ بِأَقْرَبِهَا ... فَلَيْسَ فِى كُلِّ حِينٍ يُدْرَكُ الْوَسَطُ (١٠)

=الذى يرسل فى طلب الكلأ. والروض : جمع روضة ، وهى أرض ذات بقل وعشب وزهر وماء . والشطط : الجور والظلم ومجاوزة القدر فى كل شىء .

يشير إلى أن الدنيا كخضراء الدمن فى حسن المنظر وسوء المخبر، وأنها تخدع أصحابها ، ثم تذيقهم مرارة الحسرة والحرمان.

(٥) لا يغرنك : لايخدعنك . والبشاشة : البشر والفرح وطلاقة الوجه . والسخط : الغضب .

(٦) ثبت : ثابت قوى . والعزيمة : العزم والإرادة . وماض: نافذ مقدام . وينخرط : يتجه ويسرع ، من قولهم : انخرط فى العدو (بفتح فسكون) إذا أسرع .

(٧) مسه الضيم : أصابه الظلم . وناجاه : ساره ، والمراد بمناجاة السيف : الاعتماد عليه فى دفع الظلم . ومنتصراً : اسم فاعل من الانتصار ، بمعنى الانتقام ، أى منتصراً من ظلمه . وهمه الأمر : حزنه وأقلقه . ويعلق : ينشب (وبابهما تعب). والشبط (بفتحتين) : الضعف والتوانى والكسل . (والفعل من باب تعب) .

(٨) مرتبط (بصيغة اسم الفاعل ، أو بصيغة اسم المفعول) : مربوط مشدود بالرباط ، وهذا كناية عن الملازمة وشدة الاتصال .

يحض على السعى والمخاطرة بالنفس فى طلب الغايات البعيدة والمطالب الرفيعة ؛ إذ النجاح موصول بالسعى ، وثمرة من ثماره .

(٩) يظفر : يفوز . والفاتك : الجرىء . والألوى : الجدل (بفتح فكسر) الشديد الخصومة ، والمراد الجرىء الشجاع المقدام . والهيابة : الخائف الجبان . والخلط : الأحمق الضعيف .

(١٠) شأتك: سبقتك ، (وبابه عدا) ، والمراد بعدت عنك، ولم تواتك . والمنى: الأمانى والآمال والمطالب ، واحدتها منية (بضم فسكون) . والوسط : منتصف الشىء الذى بين طرفيه . والوسط أيضاً : الخير . يقال : فلان وسط فى قومه ، وهو من أوساط الناس : أى من خيارهم .

والمعنى : وإن فاتتك الأمانى ، وعز عليك إدراكها ، فاقنع بما واتاك منها ، وقرب مأخذه ، إذ الوصول إلى الغايات ، أو منتصف الغايات – فضلا عن نهايتها – غير ميسور فى كل الأحيان .

لَا تَغْفُلَنَّ إِذَا أُمْنِيَّةٌ عَرَضَتْ فَإِنَّمَا الْعَيْشُ فى هَذَا الْوَرَى لَقَطُ(١١)
إِنِّى وإِنْ كَانَتِ الْأَيَّامُ قَدْ أَخَذَتْ مِنِّى،وأَخْنَى عَلَيَّ الضَّعْفُ والشَّمَطُ(١٢)
فَقَدْ أَذُودُ السَّبَنْتَى عَنْ فَرِيسَتِهِ وَأَفْجَأُ الْبَطَلَ الْحَامِى فَأَخْتَبِطُ(١٣)
وَأَصْدَعُ الْجَيْشَ وَالْفُرْسَانُ مِنْ مَرَحٍ تَحْتَ الْعَجاجِ بِأَطْرَافِ الْقَنَا تُخُطُ(١٤)

(١١) غفل عن الشيء (من باب قعد) : تركه وسها عنه. والأمنية : واحدة الآمانىّ والآمال وعرضت : ظهرت وسنحت . والعيش : المعيشة والحياة . والورى : الخلق (بفتح فسكون) . واللقط (بفتحتين): ما التقط (بالبناء للمجهول) ويصحّ أن تقرأ هكذا : لقط (بضم ففتح) جمع لقطة (كغرفة) وهى : ما يلتقط .

يقول : إذا سنحت لك أمنية فانتهزها واغتنمها ، ولا تغفل عنها حتى تضيع ، فإنما الحياة فى هذا العالم فرص تغتنم .

(١٢) أخذت الأيام منه: أضعفته . وأخنى عليه : بلغ منه، وثقل عليه وطال ، من قولهم :أخنى عليهم الدهر ، إذا بلغ منهم بشدائده وأهلكهم . والشمط (بفتحتين) : بياض شعر الرأس يخالط سواده ، والمراد الشيب .

(١٣) أذود : أدفع وأطرد . والسبنتى: النمر ، أو الأسد لجرأته وشدّة بأسه. والبطل: الشجاع . وأفجؤه : أهجم عليه بغتة . والحامى اسم فاعل من حميت الشيء (من باب رمى) أى منعته ودافعت عنه، والحامى : الشجاع الذى يحمى حوزته . وأختبطه : أضربه ضرباً شديداً ، واختبط الرجل عدوّه : جلده بالسيف .

يقول : إنه وإن نالت منه الأيام ، وأخنى عليه الضعف والشيب ، فقد يدفع الأسد أو النمر عن فريسته ، ويهجم على البطل الشجاع الذى يحمى حوزته ، فيضربه بسيفه .

والمعنى : أنه ما زال قويًّا فاتكاً شجاعاً على الرغم من شيبه ، وضعف جسمه ، وعدوان الأيام عليه .

(١٤) أصدع : أشقّ وأفرّق . والفرسان: جمع فارس، وهو راكب الفرس . والمرح : شدّة الفرح والنشاط ، أو هو التبختر والاختيال . والعجاج : الغبار تثيره سنابك الخيل ، وحركات المتحاربين. والقنا : الرماح ، الواحدة قناة . وتخط (بضمتين) : لاعبون بالرماح شجاعة و بطولة . يقول : إنه جرىء شجاع يخوض غمار الحرب ، ويقتحم نارها ، والفرسان لا يبالون أهوالها ، ولا يكترثون لويلاتها ، كأنهم تحت عجاجها يلعبون بالقنا والرماح من المرح والنشاط .

والمعنى : أنه يستطيع بشجاعته وشدّة بأسه أن يهزم الجيش القوىّ الباسل الشجاع .

فَما بِنَصْلِيَ إنْ لَاقَى ضَرِيبَتَهُ نَنْكَلٌ ، وَلَا فى جَفِيرِى أَسْهُمٌ مُرُطُ(١٥)

وَرُبَّ يَوْمٍ طَوِيلِ الْعُمْرِ قَصَّرَهُ جَرْىُ السَّوَابِقِ والْوَخَّادَةُ النُّشُطُ(١٦)

كَأَنَّمَا الْوَحْشُ مِنْ تَلْهَابِ جَمْرَتِهِ مُبَدَّدًا تَحْتَ أَشْجَارِ الْغَضَى خَبَطُ(١٧)

تَرى بِهِ الْقَوْمَ صَرْعَى لَا حَرَاكَ بِهِمْ كَأَنَّهُمْ مِنْ عَتِيقِ الْخَمْرِ قَدْ سَقَطُوا(١٨)

وَلَيْلَةٍ ذَاتِ تَهْتَانٍ وَأَنْدِيَةٍ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فيهاَ صَارِمٌ سَلِطُ(١٩)

---

(١٥) النصل : حديدة الرمح والسهم والسيف ونحوها . والضريبة : ما ضربته بالسيف ونحوه ، (فعيلة بمعنى مفعولة). ونكل : نبوّ وتباعد ، مصدر نكل عن عدوّه (من باب تعب) إذا جبن ونكص وتأخّر. والجفير : الجعبة (بفتح فسكون) ، وهى كنانة السهام. وأسهم مرط : لا ريش عليها ، المفرد أمرط (كأحمر وحمر).

يتمدّح بتمام أهبته واستعداده ، وقدرته على القتال والجلاد والنزال .

(١٦) السوابق : العاديات من الخيل ، المفرد سابق أو سابقة. والوخّادة : المسرعة ، صفة من الوخد ، وهو سعة الخطو فى المشى مع الإسراع ، أو هو أن يرمى البعير ونحوه بقوائمه كمشى النعام. ونشط : المعروف أن الصفة من الفعل نشط (كسمع) ناشط ونشيط ، وكلاهما لا يجمع على نشط ، والذى يجمع من الصفات على فعل (بضمتين) ما كان على وزن فعول كغفور ، وجاء فى القاموس : والنشط (بضمتين) أناقضو الحبال ، من نشط (من باب ضرب) . فكأنه جمع نشوط ، أما نشط (كسمع) فلا نعرف له وصفاً بهذا الوزن .

والمعنى : أن ماركبوه من سابقات الخيل والإبل المسرعة النشيطة قد قصّر ذلك اليوم الطويل ، فلم يشعروا بطوله ، ولم يحسّوا فى سفرهم تعباً كثيراً .

(١٧) الوحش : مالا يستأنس من دوابّ البرّ . وتلهاب جمرته : اتّقاد ناره واشتعالها ، والضمير المجرور يعود إلى « يوم» فى البيت السابق ، والمراد بتلهاب جمرته : اشتداد حرّه . ومبدّداً : مفرّقاً . والغضى : شجر من نبات الأراضى الرملية ، وخشبه من أصلب الخشب ، الواحدة غضاة . والخبط (بفتحتين) : مايسقط تحت الشجر من ورق ونحوه (فعل بمعنى مفعول).

يقول : كأنما الوحش من شدّة حرّ ذلك اليوم خبط متناثر تحت أشجار الغضى .

(١٨) صرعى : جمع صريع ، وهو المطروح على الأرض . وما به حراك : مابه حركة . وعتيق الخمر : الخمر العتيقة القديمة الجيّدة .

يقول : إنك فى هذا اليوم الشديد الحرّ ترى القوم صرعى لا يتحركون ، كأنهم سكروا بخمر معتّقة ، واشتدّ بهم السكر فسقطوا .

(١٩) التهتان : مطر ضعيف دائم ، أو هو مطر ساعة ، ثم يفتر ، ثم يعود. وأندية : جمع ندى ، وهو البلل . والصارم : السيف القاطع . والسلط (بفتح فكسر) : الذى لا ننبو فى نصله .

لَفَّ الْغَمَامُ أَقَاصِيها بِبُرْدَتِهِ وَانْهَلَّ فى حَجْرَتَيْهَا وَابِلٌ سَبِطُ (٢٠)
بَهْمَاءَ لَا يَهْتَدِى السَّارِى بِكَوْكَبِهَا مِنَ الْغَمَامِ ، وَلَا يَبْدُو بِها نَمَطُ (٢١)
يَكَادُ يَجْهَلُ فِيها الْقَوْمُ أَمْرَهُمُ لَوْلَا صَهِيلُ جِيادِ الْخَيْلِ وَاللَّغَطُ (٢٢)
يَطْغَى بِها الْبَرْقُ أَحْيَاناً ، فَيَزْجُرُهُ مُخْرَنْطِمٌ زَجِلٌ مِنْ رَعْدِهَا خَمِطُ (٢٣)
كَأَنَّمَا الْبَرْقُ سَوْطٌ ، وَالْحَيَا نُجُبٌ يَلُوحُ فى جِسْمِها مِنْ مَسِّهِ حَبَطُ (٢٤)

---

(٢٠) الغمام : السحاب ، الواحدة غمامة . والمراد بالأقاصى : الأطراف والنواحى وآفاق السماء . والبردة : كساء يلتحف به . وانهلّ : انصبّ وسال بشدّة . وحجرتاها . ناحيتاها مثنّى حجرة (بفتح فسكون) . ووابل : مطر غزير شديد . وسبط (بفتح فكسر) : شديد متدارك .

يصفها بكثرة الغمام وانتشاره ، وغزارة المطر وتتابعه وانهماره .

(٢١) بهماء : سوداء مظلمة ، وهى صفة الليلة . والسارى : السائر ليلا . والنمط : الطريق. و« من الغمام » فى الشطر الثانى : تعليل لعدم اهتداء السارى بكوكبها .

يصفها بشدّة الظلمة ، وإطباق الغمام وكثرته وتراكمه .

(٢٢) معنى الشطر الأول : يكاد المرء لايرى أخاه ، فيجهل أمره ومكانه لشدّة الظلمة ، واحتجاب النجوم وراء السحاب المتراكم .

والصهيل : صوت الفرس . وجياد الخيل : كرامها ، وما راعك منها، الواحد جواد . واللغط : الأصوات المبهمة المختلطة والجلبة (بفتحتين) .

(٢٣) يطغى: يزيد ويعظم ويشتدّ. ويزجره: يمنعه وينهاه وينتهره . ومخرنطم: غضبان، وهو اسم فاعل من اخرنطم الرجل ، أى رفع أنفه واستكبر وغضب . وزجل: عالى الصوت . ومن رعدها : بيان لزجل . وخمط : غضوب ثائر .

(٢٤) السوط: الذى يجلد به ، كالمقرعة ونحوها. والحيا: المطر، والمراد السحب. والنجب(بضمتين): كرام الخيل والإبل وعتاقها وجيادها ، المفرد نجيب .ويلوح: يبدو ويظهر. ومن مسّه: بسبب مسّه وأذاه وضربه ، أى السوط . والحبط (بالتحريك) : آثار السياط بالبدن، أو الآثار الوارمة التى لم تشقّق .

جعل البرق وهو يبدو متألقاً فى السحاب ، كالسوط تضرب به نجائب الإبل والخيل ؛ لما يشاهد فى كلا الحالين من حركة سريعة متوالية متقطّعة ، وجعل ما يظهر من غلظ السحب وتراكمها فى بعض نواحى السماء ، كآثار السياط فى أجسام هذه النجب .

كَأَنَّهُ صَارِمٌ يَرْفَضُّ مِنْ عَلَقٍ ... بِالْأُفْقِ يُغْمَدُ أَحْيَاناً وَيُخْتَرَطُ (٢٥)

مَزَّقْتُ جِلْبَابَهَا بِالْخَيْلِ طَالِعَةً ... مِثْلَ الْحَمَائِمِ فِى أَجْيَادِهَا الْعُلُطُ (٢٦)

وَقَدْ تَخَلَّلَ خَيْطُ النُّورِ ظُلْمَتَهَا ... كَمَا تَخَلَّلَ شَعْرَ اللِّمَّةِ الْوَخَطُ (٢٧)

كَأَنَّهَا وَصَدِيعُ الْفَجْرِ يَصْدَعُهَا ... مِنْ جَانِبٍ أَدْهَمٌ قَدْ مَسَّهُ نَبَطُ (٢٨)

وَمَرْبَعٍ لِنَسِيمِ الْفَجْرِ هَيْنَمَةٌ ... فِيهِ ، وَلِلطَّيْرِ فِى أَرْجَائِهِ لَغَطُ (٢٩)

---

(٢٥) كأنه : أى البرق . وصارم : سيف قاطع . ويرفض : يسيل وينهل ويقطر ويترشش ويتفرق . والعلق : الدم . والأفق: ناحية السماء ، وآفاق السماء: نواحيها .ويغمد : يدخل فى غمده (بالبناء للمجهول فيهما) .ويخترط : يسل ويجرد من غمده .

شبه البرق فى طوله ولمعانه وتألقه وتفرق الحمرة فى جوانبه بسيف قاطع يقطر منه الدم ، ثم جعل ظهور البرق واختفاءه كتجريد السيف وإغماده .

(٢٦) الجلباب: القميص ،أو هو ثوب واسع دون الملحفة ، أو هو الملاءة . ويريد بتمزيقه جلباب هذه الليلة : أنه سار فى ظلماتها فى سرعة ومضاء . والحمائم : جمع حمامة . وأجيادها : أعناقها ، جمع جيد (بكسر الجيم) . والعلط (ككتب) : جمع علاط (ككتاب) وهو من الحمامة طوقها فى صفحتى عنقها بسواد ، والعلاط أيضاً : حبل يجعل فى عنق البعير ونحوه .

يقول : إنه مزق جلباب هذه الليلة ، وشق ثيابها بالخيل طالعة كالحمائم، فى خفتها وسرعة جريها، ثم شبه ما يكون فى أجيادها من المقاود والأعنة ونحوها بأطواق هذه الحمائم .

والمعنى : أنه ركب وسافر فى هذه الليلة الليلاء المظلمة الماطرة .

(٢٧) تخلل النور الظلمة: ثقبها وخالطها . ويريد بخيط النور : بياض الصبح. واللمة: ماجاوز شحمة الأذن من شعر الرأس . والوخط : الشيب القليل . والبيت وصف لطلوع الفجر فى تلك الليلة .

(٢٨) كأنها: أى الليلة. والصديع: الفجر، لأن الليل ينصدع ،أى ينشق عنه، والصديع أيضاً: انصداع الصبح، أى انفطاره وانفلاقه . ويصدعها : يشقها . وأدهم : فرس أسود. والنبط (بفتح النون والباء): بياض فى بطن الفرس .

يقول : كأن هذه الليلة ونور الفجر يشقها من بعض جوانبها فرس أدهم فى بطنه بياض .

(٢٩) المربع (كمقعد): الموضع يرتبع القوم فيه، أى يقيمون به زمن الربيع. والهينمة(بفتح فسكون ففتح): صوت كأنه كلام خفى لايفهم ، أو قراءة غير بينة . والأرجاء : جمع رجا ،وهو الناحية واللغط : الجلبة والأصوات المختلطة .

كَأَنَّمَا الْقَطْرُ دُرٌّ فِى جَوَانِبِهِ   يَكَادُ مِنْ صَدَفِ الْأَزْهَارِ يُلْتَقَطُ (٣٠)
وَلِلنَّسِيمِ خِلَالَ النَّبْتِ غَلْغَلَةٌ   كَمَا تَغَلْغَلَ وَسْطَ اللِّمَّةِ الْمُشُطُ (٣١)
وَالرِّيحُ تَمْحُو سُطُورًا ، ثُمَّ تُثْبِتُهَا   فِى النَّهْرِ لَا صِحَّةٌ فِيهَا وَلَا غَلَطُ (٣٢)
وَلِلسَّمَاءِ خُيُوطٌ غَيْرُ وَاهِيَةٍ   تَكَادُ تُجْمَعُ بِالْأَيْدِى فَتُرْتَبَطُ (٣٣)
كَأَنَّهَا وَأَكُفُّ الرِّيحِ تَضْرِبُهَا   سُلُوكُ عِقْدٍ تَوَاهَتْ ، فَهْىَ تَنْخَرِطُ (٣٤)

---

(٣٠) يريد بالقطر : الندى وقطرات الماء التى على أوراق الشجر والزهر . والدرّ : اللآلىء ، الواحدة درّة . والصدف : المحار (كسحاب) ، وصدف الدرّة : غشاؤها الذى يشتمل عليها ويغطّيها ، الواحدة صدفة (بفتحتين) .

شبّه القطر والندى المتناثر فى جوانب هذا المربع بالدرّ فى صفائه ونقائه ولمعانه ، وجعل الأزهار المشتملة على الندى صدفاً لذلك الدرّ وغلافاً ، ثم أغرق فى التشبيه فقال : إن هذا الصدف يكاد يؤخذ ويلتقط من صدف الأزهار .

(٣١) النسيم : الريح الطيّبة اللطيفة ، أو هو نَفَس الريح إذا كان ضعيفاً ، أو هو ابتداء كلّ ريح قبل أن تقوى . وخلال النبت : بينه ووسطه وحواليه . وغلغلة : إمعان وسرعة . وتغلغل : دخل . واللمّة : الشعر المجاوز شحمة الأذن ، والمراد شعر الرأس مطلقاً . والمشط (كعنق) : آلة يمتشط بها الشعر ، أى يسرّح .

يقول : إن النسيم يتغلغل خلال النبات ، كما يتغلغل المشط وسط الشعر .

(٣٢) السطور : جمع السطر (بفتح فسكون) ، وهو الصفّ من الكتابة .

يشير إلى عبث الريح بمياه الجداول والأنهار ، فهى تثبت على سطح الماء موجات خفيفة هادئة تشبه سطور الكتابة ، ثم تمحو ما أثبتته ، وهكذا دواليك . ومعنى « لا صحة فيها ولا غلط » : أنها ليست كتابة ؛ فلا توصف بصحّة ولا غلط .

(٣٣) يريد بخيوط السماء : ماتساقط وتتابع من مطرها كالسلوك . وواهية : ضعيفة . وترتبط : تربط وتشد .

(٣٤) كأنها : أى الأمطار الشبيهة بالخيوط والأسلاك . والأكفّ : جمع الكفّ . والسلوك : الخيوط . والعقد : القلادة . وتواهت : بليت وضعفت ، ولم نجدها فيما بين أيدينا من المعجمات . وتنخرط : تنتثر وتتفرّق ، مطاوع خرط الرجل الشجر ، إذا انتزع الورق منه اجتذاباً .

يقول : إن الريح تضرب بأيديها خيوط المطر ، فتتفرّق وتنتثر ، كأنها سلوك قلادة واهية يتناثر درّها .

فالضَّوْءُ مُحْتَبِسٌ ، وَالْمَاءُ مُنْطَلِقٌ ... وَالْجَوُّ مُنْقَبِضٌ ، والظلّ مُنْبَسِطُ (٣٥)
لُذْنَا بِأَطْرافِهِ وَالطَّيْرُ عَاكِفَةٌ ... عَلَيْهِ ، وَالنُّورُ بِالظَّلْمَاءِ مُخْتَلِطُ (٣٦)
فى فِتْيَةٍ رَضِعُوا ثَدْىَ الْوِفاقِ ، فَمَا ... فيهمْ إِذَاما انْتَشَوْا جَوْرٌ وَلَا شَطَطُ (٣٧)
تَحَالَفُوا فى صَفَاءِ الْوُدِّ ، وَاجْتَمَعُوا ... علَى الْوَفَاءِ طَوَالَ الدَّهْرِ ، وَاشْتَرَطُوا (٣٨)
كَالْغَيْثِ إِنْ وَهَبُوا ، وَاللَّيْثِ إِنْ وَثَبُوا ... وَالْمَاءِ إِنْ عَدَلُوا ، وَالنَّارِ إِنْ قَسَطُوا (٣٩)
تَكَشَّفَ الدَّهْرُ عَنْهُمْ بَعْدَ غُمَّتِهِ ... كَمَا تَكَشَّفَ عَنْ مَكْنُونِهِ السَّفَطُ (٤٠)
مِيلٌ بِأَبْصَارِهِمْ نَحْوِى لِيَسْتَمِعُوا ... قَوْلِى ، وَكُلٌّ لِأَمْرِى طَائِعٌ نَشِطُ (٤١)

(٣٥) محتبس : محجوب . ومنقبض : المراد كدر غير صاف . ومنبسط : ممدود .

(٣٦) لاذبه (من باب قال) : لجأ إليه وعاذ به . وأطرافه : نواحيه ، أى المربع ، الواحد طرف (بفتحتين) . وعاكفة عليه : مقبلة مقيمة به لنضرته وغضارته . ويشير باختلاط النور بالظلماء إلى مطلع الفجر .

(٣٧) فتية : فتيان (بكسر فسكون فيهما) ، جمع فتى . وانتشوا : سكروا . والجور : الظلم ، وهو ضدّ القصد . والشطط : مجاوزة القدر ، والميل عن القصد .

وصف أصحابه بالوفاق والائتلاف ، وكرم الخلق ، وأنهم إذا شربوا لم تظهر الخمر فى أخلاقهم جوراً ، أو خروجاً عن جادّة الطبع الكريم .

(٣٨) تحالفوا : تعاهدوا . والودّ : المحبّة والمودّة . والوفاء : نقيض الغدر ، والخلق الشريف الرفيع العالى . وطوال الدهر : مداه وغايته . واشترطوا : شارط كلّ منهم أصحابه على الودّ والصفاء والوفاء ونحو هذا ، فهو قريب من معنى « تحالفوا » فى أول البيت .

(٣٩) الغيث : المطر . ووهبوا : أعطوا . والليث : الأسد . ووثبوا : المراد هجموا فى الحرب والقتال . وقسطوا : جاروا وظلموا ، والمراد : انتقموا من أعدائهم .

(٤٠) تكشّف : انكشف . والغمّة : الكرب والشدّة . ومكنونه : مستوره وما خفى فيه . والسفط : الذى يعبأ فيه الطيب (بكسر الطاء) وما أشبهه من أدوات النساء .

(٤١) ميل : مائلون ، جمع أميل . وطائع : اسم فاعل من طاع له ، بمعنى انقاد . ونشط : صوابها نشيط ، صفة من النشاط وهو الخفة والسرعة ، وطيب النفس للعمل .

يتمدّح باتجاه أصحابه إليه ، وإقبالهم عليه ، وإنصاتهم لكلامه ، وإطاعتهم لأمره ، فى سرعة وارتياح ونشاط .

إنْ سِرْتُ سَارُوا ، وإنْ أَصْعَدْ إلَى نَشَزٍ ... كَانُوا صُعُودًا ، وَإنْ أَهْبِطْ بِهِمْ هَبَطُوا(٤٢)
يَمْشُونَ حَوْلِى ، كَمَا يَمْشِى الْقَطَا بَدَدًا ... فَإنْ مَضَى بَقَطٌ مِنْهُمْ أَتَى بَقَطُ(٤٣)
إنْ يَكْنُفُونِىَ مِنْ حَوْلِى فَلَا عَجَبٌ ... لَا يَسْقُطُ الطَّيْرُ إلَّا حَيْثُ يَلْتَقِطُ(٤٤)
نَمْشِى بِهِ بَيْنَ أَشْجَارٍ كَأَنَّ عَلَى ... أَفْنَانِها مِنْ بُرُودِ الْيَمْنَةِ الرِّيَطُ(٤٥)
مِثْلِ الطَّوَاوِيسِ فِى أَذْنَابِها عَجَبٌ ... لِلنَّاظِرِينَ ، وَفِى أَجْيَادِهَا عَنَطُ(٤٦)
كَأَنَّهُنَّ جِمَالَاتٌ مُوَقَّرَةٌ ... تَمُورُ مَوْرًا عَلَى أَثْبَاجِها الْغُبُطُ(٤٧)

---

(٤٢) النشز : ماارتفع من الأرض . وصعوداً : مصدر صعد (كسمع) وهو صفة لموصوف محذوف ، أى كانوا قوماً صعوداً ، أى صاعدين ، كماتقول : رجال عدل ، أو أنه أراد المبالغة فى طاعتهم فقال إنهم كانوا الصعود نفسه .

(٤٣) القطا : ضرب من الحمام ، الواحدة قطاة . وبدداً : متفرّقاً ، من قولهم : جاءت الخيل بدداً بدداً ، أى متفرّقة . والبقط : الفرقة (بكسرفسكون) ، والقطعة من الشىء ، والجماعة المتفرّقة .

(٤٤) يكْنفونى : يحيطون بى .

يتمدّح بكرمه وسخائه ، ويقول : إن أصحابه يحيطون به لما تعوّدوه من بذله وعطائه ، كالطير تسقط إذا وجدت ما تلتقطه من الحبّ . وهذا البيت قريب من بيت بشّار المشهور :

تسقط الطّير حيث ينتثر الحـ ... ـبّ ، وتغشى منازل الكرماء

(٤٥) به : أى بذلك المربع . وأفنانها : أغصانها . والبرود : الثياب المرقومة المطرّزة الموشيّة . واليمنة : اليمن ، وكان مشهوراً بصنع البرود الجيّدة . والريطة (بفتح فسكون) : الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ، وهى كل ثوب ليّن رقيق ، وجمعها فى المعجمات ريط (بفتح فسكون) ورياط (بكسر الراء) ويظهر أن الشاعر جمعها على فعل (بكسر ففتح) جرياً على جمع عيبة وخيمة ، ولكنا لانعرف أن هذا قياس.

يقول : إننا نمشى بهذا المربع بين أشجار ، على أغصانها زهر كثير كأنه الرياط من برود اليمن .

(٤٦) مثل : صفة لأشجار فى البيت السابق . والطواويس : جمع الطاوس ، وهو طائر يمتاز بمنظر بهىّ ، وريش جميل ، وذيل عجيب يشبه المروحة إذا بسطه . والأذناب : جمع ذنب (بفتحتين) وهو الذيل . وأمر عجب (بفتحتين) : يتعجّب منه . والأجياد : جمع جيد (بكسر الجيم) وهو العنق . وعنط (بفتحتين) : طول وحسن وملاحة . شبه الأشجار المزهرة بالطواويس فى بهائها وجمال ألوانها .

(٤٧) كأنهن : أى الأشجار . وجمالات : جمع جمال ، وهذه جمع جمل (بفتحتين) . وموقّرة : مثقلة بأحمالها . وتمور : تتحرّك وتهتزّ وتضطرب . وأثباجها : ظهورها ، جمع ثبج (بفتحتين) وهو ما بين =

وَلِلْفَوَاخِتِ فِى أَفْنَانِها هَزَجٌ | قَدْ مَاجَ مِنْ لَحْنِهِنَّ السَّهْلُ والْفُرُطُ (٤٨)
خُضْرُ الْجَنَاحَيْنِ وَالأَطْوَاقِ ، تَحْسَبُهَا | أَطْفَالَ مَلْكٍ لَهَا مِنْ سُنْدُسٍ قُمُطُ (٤٩)
حَتَّى إِذَا حَلَّ ضَاحِى الْيَوْمِ حَبْوَتَهُ | وَكَادَتِ الشَّمْسُ بَيْنَ الْغَرْبِ تَنْهَبِطُ (٥٠)
رُحْنَا نَجُرُّ ذُيُولَ الْعِزِّ ضَافِيَةً | وَكُلُّنَــا بِنَعِيمِ الْعَيْشِ مُغْتَبِطُ (٥١)
يَوْمٌ مِنَ الدَّهْرِ أَهْوَى لَوْ بَذَلْتُ لَهُ | مَا شَاءَ فِى مِثْلِهِ لَوْ كَانَ يَشْتَرِطُ (٥٢)

= الكاهل إلى الظهر . والغبط (بضمتين) : جمع غبيط ، وهو الرحل (بفتح فسكون) يوضع على ظهر البعير ويشدّ عليه الهودج .

يشبّه الأشجار المثمرة بجمال محمّلة ، تهتزّ الرحال على ظهورها ، لثقل أحمالها .

(٤٨) الفواخت : ضرب من الحمام المطوّق ، الواحدة فاختة . وهزج : صوت مطرب . والهزج : من الأغانى وفيه ترنّم . والمراد : هديلها وتطريبها وتغريدها . وماج : اضطرب ، والمراد اهتز طرباً . واللحن : من الأصوات المصوغة الموضوعة ، وجمعه ألحان ولحون ، والمراد غردها (بفتحتين) . والفرط : الأكمة تكون دون الجبل .

(٤٩) خضر : صفة للفواخت فى البيت السابق ، الواحدة خضراء . والأطواق : جمع طوق (بفتح فسكون) وهو حلى يجعل فى العنق ، والمطوق من الحمام : ما كان فى عنقه شبه الطوق من الريش . وتحسبها : تظنها . والسندس : رقيق الديباج ورفيعه : والقمط (ككتب) : جمع قماط (ككتاب) وهو ما يلف فيه الطفل من الثياب .

وصف الفواخت بخضرة ريش الأطواق والجناحين ، وشبّهها بأطفال الملوك لفّت فى قمطها وثيابها الحريريّة الناعمة الرقيقة . وهو يشير بهذا إلى بهاء منظر الفواخت ونعومة ريشها .

وفى الأصل المخطوط : « خضر الجناجن » ؛ وهو تحريف ظاهر .

(٥٠) حلّ العقدة ونحوها (من باب ردّ) : نقضها وفتحها . والضاحى : المشرق المضىء ، وأصله البارز للشمس فى غير ما يظلّه ويكنّه . والاحتباء بالثوب : الاشتمال به ، واحتبى الرجل : إذا جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها . والحبوة (بفتح الحاء وضمها) : اسم من الاحتباء ، وهى أيضا (بكسر الحاء وضمها) الثوب الذى يحتبى به ، وحلّ اليوم حبوته : كناية عن ذهابه و إدباره . وتنهبط : تنزل وتنحطّ .

(٥١) رحنا : عدنا آخر النهار . وضافية : سابغة واسعة . ونعيم العيش : رفاهة الحياة وطيبها ولينها ، ومغتبط : مسرور حسن الحال .

(٥٢) هوى (من باب صَدِىَ) : أحبّ وتمنّى .

والمعنى : أن ذلك اليوم كان يوم لهو ومرح ومتعة ونعيم ، ولهذا يهزى الشاعر ويتمنّى أن يهب له مثله ، على أن يعطيه ما شاء من ثمن ، إذا اشترط عليه ثمناً أو بدلا .

وقال :

تَمَهَّلْ ، وَلَا تَعْجَلْ إِذَا رُمْتَ حَاجَةً فَقَدْ يَلْحَقُ الْخُسْرَانُ مَنْ يَتَوَرَّطُ[١]
فَذُو الْحَزْمِ يَرْعَى الْقَصْدَ فِى كُلِّ حَالَةٍ وَذُو الْجَهْلِ إِمَّا مُفْرِطٌ أَوْ مُفَرِّطُ[٢]

---

(١) تمهّل : اتئد وتأنّ وترفّق . ورمت : طلبت. والخسران: الخسارة والهلاك . ويتورط : يرتبك ويقع فى الورطة (بفتح فسكون)، وهى الشدة ، والأمر الشاقّ الذى يصعب التخلّص منه والمراد : أن الخسران والهلاك قد يصيب من عجل فتورّط.

(٢) الحزم : ضبط الإنسان أمره ، والأخذ فيه بالثقة ،والحازم: العاقل المميّز ذو الحنكة. ويرعى : يلاحظ ويراعى . والقصد : الاعتدال والاستقامة ، والوسط بين الإفراط والتفريط . ومفرط (بتخفيف الراء): اسم فاعل من الإفراط، مصدر أفرط فلان فى الأمر ، إذا جاوز فيه الجدّ . ومفرّط (بتشديد الراء) : اسم فاعل من التفريط ، وهو التقصير . وفى حديث علىّ رضوان الله عليه « لا يرى الجاهل إلا مفرطاً أومفرّطاً » . قال صاحب لسان العرب : هو بالتخفيف المسرف فى العمل، وبالتشديد المقصّر فيه .

قافية الظاء

قَالَ فِى الْغَزَل :

سَكِرَتْ بِخَمْرِ حَدِيثِكِ الْأَلْفَاظُ ... وَتَكَلَّمَتْ بِضَمِيرِكِ الْأَلْحَاظُ [1]

يَا دُمْيَةً لَوْلا التَّقِيَّةُ لَاسْتَوَتْ ... فِى حُبِّهَا الْفُتَّاكُ وَالْوُعَّاظُ [2]

مَالِى مَنَحْتُكِ خُلَّتِى ، وَجَزَيْتِنِى ... نَارًا لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ شُوَاظُ ؟ [3]

هَلَّا مَنَنْتِ إِذِ امْتَلَكْتِ ! ، فَطَالَمَا ... مَنَّ الْكَرِيمُ وَقَلْبُهُ مُغْتَاظُ [4]

---

(١) خمر حديثك : حديثك الشبيه بالخمر ، والمراد أنه عذب شهىّ جذّاب ، حسن التأثير ، فعّال في نفس السامعين ماتفعل الخمر . وألحاظها : نظراتها الفاتنة الساحرة .

ومعنى الشطر الثانى : أن نظرات هذه المحبوبة تدلّ على ما تضمره وتخفيه .

وصفها بعذوبة الحديث ، وجمال العينين ، وأنها تدل على مكنونها بوحى ألحاظها .

(٢) الدمية : الصورة المنقّشة من العاج وغيره ، ويكنى بها عن المرأة الحسناء . والتقيّة : التقوى ، وهى أن تتّقى الله تبارك وتعالى ، وتحفظ نفسك مما يغضبه ويخالف أمره . والفتّاك : جمع فاتك ، وهو القاتل الجرىء . والوعّاظ : جمع واعظ ، وهو الناصح الذى يعظ الناس ، ويلين قلوبهم بالقول المؤثّر ، والحكمة البالغة .

يقول لها : لولا خشية الله تبارك وتعالى لافتتن بك الوعّاظ ، وشغلوا بحبّك ، وتساوى جميع الناس فى هواك والتعلّق بك . يشير إلى أنها فائقة الجمال ، بارعة الحسن .

(٣) منحتك : أعطيتك . وخلّتى : صداقتى المختصّة . وجزيتنى : كافأتنى . والشواظ (بضم الشين وكسرها) : لهب لادخان فيه .

(٤) هلاّ : كلمة حثّ وتحضيض . ومننت : أنعمت ، يريد مننت علىّ بالوصال . وامتلكت : يريد أنها امتلكت أمره ، وسيطرت عليه بسلطان الحب والغرام .

فَلَقَدْ هَجَرْتُ إِلَيْكِ جُلَّ عَشِيرَتِى ... فَقُلُوبُهُمْ أَبَدًا عَلَىَّ غِلَاظُ(٥)
نُفِيتِ عَنْ عَيْنِى الْمَنَامَ ، فَمَالَهَا ... غَيْرَ الْمَدَامِعِ وَالسُّهَادِ لَمَاظُ(٦)
هَذَا ، وَمَا اخْتَضَبَتْ لِغَيْرِكِ أَسْهُمٌ ... بِدَمِى ، وَلَا احْتَكَمَتْ عَلَىَّ لِحَاظُ(٧)
فَعَلَامَ تَسْتَمِعِينَ مَا يَأْتِى بِهِ ... عَنِّى إِلَيْكِ الْحَاسِدُ الْجَوَّاظُ؟(٨)
فَصِلِى مُحِبًّا ، مَا أَصَابَ خَطِيئَةً ... فِى دِينِ حُبِّكِ ، وَالْغَرَامُ حِفَاظُ(٩)

(٥) جلّ الشيء : معظمه . وعشيرتى : أهلى وقومى . وغلاظ : جمع غليظ ، صفة من الغلظة ، وهى ضد الرفق والرحمة والحنان .

يستعطفها بقوله : إنه هجر بسبب حبّه لها أكثر أهله ، وفقد عطفهم ومودّتهم ، ولم يبق بينه وبينهم غير القطيعة والجفاء .

(٦) المنام : النوم والنعاس . والمدامع : المآقى ، وهى أطراف العيون حيث تسيل الدموع ، الواحد مدمع (كمذهب) ، والمراد بالمدامع هنا: الدموع نفسها . والسهاد : الأرق والسهر ، وهو نقيض الرقاد. ولماظ (كسحاب) : شىء تذوقه ، من قولهم : ليس له لماظ ، أى شىء يذوقه ويتلمّظ به .

يقول : إن هيامه بها نفى عنه النوم ، فما تذوق عيناه غير السهاد والدموع ، فهو يبيت ساهراً باكياً .

(٧) الخضاب (بكسر الخاء) : مايختضب به كالحنّاء ونحوه . واختضبت الأسهم بالدم: صبغت به ، كأنه الخضاب فوقها . والأسهم: جمع سهم ، وهو مايرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها ، وتشبّه نظرات الحسان بالسهام فى شدّة تأثيرها فى قلوب العشّاق . واحتكمت علىّ : سيطرت ، وكان لها الحكم والسلطان . ولحاظ (بكسر اللام) : كأنه جمع لحظة (بفتح فسكون) ، اسم مرة من لحظه (كمنعه) لحظاً (بفتح فسكون) ، إذا نظر إليه بمؤخر عينه . والمراد باللحاظ : النظرات الفاتنة الساحرة . ومن كلامهم : فتنته ألحاظها ولحظاتها .

ومعنى البيت : أننى لم أفتتن بغيرك ، ولم أعشق سواك .

(٨) الجوّاظ (كشدّاد) : الكثير الكلام فى الشرّ . يلومها على الاستماع لكلام الوشاة والحاسدين.

(٩) صلى : أمر من الوصل ، وهو ضدّ الهجران ، (وبابه وعد) . وما أصاب خطيئة : ما ارتكب إثماً ولاذنباً. والغرام : الحب والعشق. والحفاظ (بكسر الحاء) : المحافظة على العهد، والدفاع عن المحارم، والوفاء ، والتمسّك بالودّ .

يحضّها على وصاله ومراعاة أمره، ويتمدّح بأن حبّه لها عذرىّ شريف عفيف ، لم يشوّه جماله إثم، ولم ينقص جلاله ذنب ، ويقول فى آخر البيت: إن الغرام ينبغى أن يلازمه الحفاظ والوفاء .

يَهْوَاكِ حَتَّى لَا يَمِيلُ بِطَبْعِهِ ... فِى حُبِّكِ الْإِيذَاءُ وَالْإِحْفَاظُ(١٠)

نَابِى الْمَضَاجِعِ ، لَا تَزُورُ جُفُونَهُ ... سِنَةُ الْكَرَى ، وَأُولُو الْهَوَى أَيْقَاظُ(١١)

مُتَحَمِّلٌ مَا لَوْ تَحَمَّلَ بَعْضَهُ ... أَهْلُ الْمَحَبَّةِ وَالْغَرَامِ لَفَاظُوا(١٢)

فَإِذَا اسْتَهَلَّ تَرَبَّعُوا فِيمَا جَرَى ... مِنْ دَمْعِهِ ، وَإِذَا تَنَفَّسَ قَاظُوا(١٣)

هَذَا هُوَ الْحُبُّ الَّذِى ضَاقَتْ بِهِ ... تِلْكَ الصُّدُورُ ، وَقَلَّتِ الْحُفَّاظُ(١٤)

---

(١٠) يهواك : يحبّك . والإحفاظ : مصدر أحفظه ، أى أغضبه .

ومعنى البيت : أنه يحبّك حبًّا شديداً ، حتى أن الإيذاء والإحفاظ والهجر والإعراض ونحوه لا يميل بطبعه ، ولا يعوّج سجيته وخليقته ، ولاينقص حبّه وغرامه ووفاءه . أو لعلّه يريد ما يصيبه ويعانيه من إيذاء العاذلين ، وإحفاظ اللائمين .

(١١) نبا الشىء : تجافى وتباعد، ونباجنبه عن الفراش : لم يطمئنّ عليه. والمضاجع : جمع مضجع (كمذهب) ،وهو مكان الضجوع ، أى النوم على الجنب . ونابى المضاجع : قلق أرق مسهّد لاينام . والجفون : جمع جفن (بفتح فسكون) وهو غطاء العين من أعلاها وأسفلها . وسنة الكرى : أوائل النوم. وأولو الهوى : العاشقون المحبّون. وأيقاظ: جمع يقظ (بفتح فكسر) صفة من اليقظة (بفتحتين).

(١٢) فاظوا : هلكوا وماتوا .

يقول : إنه يحتمل من لواعج الحبّ وتباريح الغرام ما لا يستطيع احتمال بعضه المحبّون .

(١٣) استهلّ : انصبّ وجرى، أى دمعه، من قولهم : استهلّ المطر إذا اشتدّ انصبابه. وتربّع البعير : أكل الربيع ، أى الكلأ ، وتربّع القوم بمكان كذا : أقاموا فيه زمن الربيع ، والضمير فى« تربّعوا» يعود على أهل المحبّة فى البيت السابق،وتربّعهم فيماجرى من دمعه: كناية عن كثرة بكائه ، وشدّة لوعته ، وغزارة دمعه . وقاظ القوم بالمكان : أقاموا به زمن القيظ ، وهو صميم الصيف حين يشتدّ الحرّ .

ومعنى « وإذا تنفّس قاظوا »: أن أنفاسه حارّة لاعجة محرقة ، لشدّة مايخامره من لواعج الحبّ، وتباريح الوجد والغرام .

(١٤) الحفّاظ : جمع حافظ .

يقول : إن حبه عظيم شديد لاتتّسع له ، ولاتقوى على مثله صدور المحبّين ، ويقلّ من يحفظه ويصونه ويرعاه .

وقال :

مَتَى يَجِدُ الْإِنْسَانُ خِلاًّ مُوافِقًا ... يُخَفِّفُ عَنْهُ كُلْفَةَ الْمُتَحَفِّظِ ؟(١)
فَإِنِّى رَأَيْتُ النَّاسَ بَيْنَ مُخَادِعٍ ... لِإِخْوَانِهِ ، أَو حَاسِدٍ مُتَغَيِّظِ(٢)

وقال :

مَنْ لِقَلْبِى بِشَادِنٍ ... لَمْ يُمَتَّعْ بِحَظِّهِ ؟(١)
قَدْ سَبَانِى بِطَرْفِهِ ... وَشَجَانِى بِلَفْظِهِ (٢)
كُلُّ شَىْءٍ سَيَرْعَوِى ... غَيْرَ قَلْبِى وَلَحْظِهِ (٣)

(١) الخلّ : الصديق المختصّ . والكلفة : المشقّة . والمتحفّظ : المتوقّى المحترس المتيقّظ .
يتمنّى أن يجد صديقاً مخلصاً موافقاً يفضي إليه بسرّه ، ويصرّح له بما فى نفسه ، فى غير كلفة ولا تحفّظ ولا احتراس .

(٢) مخادع : اسم فاعل من خادعه مخادعة ، أى ختله وأراد به المكروه من حيث لايعلم . ومتغيّظ : مغتاظ ، اسم فاعل من التغيّظ ، وهو غضب كامن للعاجز .

(١) الشادن : الغزال إذا قوى وترعرع ، واستغنى عن أمّه . ونائب فاعل « يمتّع » ضمير القلب .
يشبّه محبوبه بولد الظبية فى الرشاقة ، ولطف الحركة ، وجمال الجيد والعينين ، ويتمنّى أن يعان على لقائه ، ويقول : إن قلبه لم يستمتع بحظّه من قرب هذا المحبوب .

(٢) سبانى : أسرنى . والطرف (بفتح فسكون) : العين . وشجانى : طرّبنى وهيّجنى .
يصفه بجمال العينين ، وعذوبة اللفظ ، وسحر البيان .

(٣) يرعوى : يحسن رجوعه عما هو فيه ، من الارعواء ، وهو النزوع عن الجهل ، وحسن الرجوع عن الهوى والضلال . واللحظ : النظر بمؤخر العين .
يريد أن قلبه لن يسلو الهوى ، ولن ينصرف عن الوجد والغرام ، وأن لحظ الحبيب لن يكف عن الفتنة والسحر وسبي العشّاق .

وقال :

أَنْتَ مِنِّى مَا بَيْنَ فِكْرٍ ولَفْظٍ　　فَمَتَى يَشْتَفِى بِقُرْبِكَ لَحْظِى؟[١]
غِبْتَ عَنِّى مَدَى ثَلَاثٍ ، فَزَادَتْ　　حَسَرَاتِى ، وغَابَ أُنْسِى وَحَظِّى[٢]
فَأَجِبْ دَعْوَتِى ، وَلَا تَنْسَ وَعْدًا　　لَكَ بِالْوَصْلِ لَا يَزَالُ بِحِفْظِى[٣]

(١) المعنى : أنه شديد الولوع بالحبيب ، فصورته ماثلة فى فكره ... على لسا... وهو من أجل هذا يرجو قربه ولقاءه ، ليشفى برؤيته عيناً آذاها السهد ، و... بها البكاء

(٢) مدى ثلاث : منذ ثلاث ليال . والحسرات : جمع حسرة ، وهى الحزن والأسف والتـ... الشديد على الشىء الفائت. والأنس (بضم فسكون) : طمأنينة النفس وراحتها ، وهو ضد الوحـ... والحظ : النصيب من الخير والفضل . وهو يريد حظه من رؤية الحبيب والاستمتاع بقربه .

(٣) لايزال بحفظى : لا زلت أحفظه وأرعاه ، وأطلب الوفاء به ، وهو الوعد بالوصال

قافية العين

قَالَ يَرُوضُ الْقَوْلَ* :

مَتَى أَنْتَ عَنْ أُحْمُوقَةِ الْغَيِّ نَازِعُ ... وَفِى الشَّيْبِ لِلنَّفْسِ الْأَبِيَّةِ وَازِعُ؟(١)

أَلَا إِنَّ فِى تِسْعٍ وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... لِكُلِّ أَخِى لَهْوٍ عَنِ اللَّهْوِ رَادِعُ(٢)

فَحَتَّامَ تُصْبِيكَ الْغَوَانِى بِدَلِّهَا ... وَتَهْفُو بِلِيتَيْكَ الْحَمَامُ السَّوَاجِعُ؟(٣)

(*) نظم الشاعر هذه العينية الطويلة الرائعة الخالدة سنة ١٨٦٨ م ، وهو فى التاسعة والعشرين ، بعد عودته من حرب « كريد » ، وبعد أن تزوج « عديلة يكن » بنحو سنة .

(١) الأحموقة : اسم من الحماقة ، وهى قلّة العقل ، ووضع الشىء فى غير موضعه ، مع العلم بقبحه . والغىّ : الجهل والضلال . ونازع : اسم فاعل ، من قولهم : نزع فلان عن الأمر ، إذا كفّ عنه وانتهى . والأبيّة : صفة من الإباء ، وهو كراهية الشىء والامتناع منه . ووازع : اسم فاعل من وزعه ، أى كفّه وزجره ومنعه .

يقول : إن الشيب يزع النفس الأبيّة الكبيرة ، ويكفّها عن الغواية والفساد ، ولهذا كان جديراً بمن ظهر الشيب فى رأسه أن يقلع عن أعمال الحمق والجهل والضلال . وهو يخاطب نفسه ، أو يسوق الكلام على سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، ويوجهه لكل قارئ وسامع .

(٢) حجّة : سنة . واللهو : اللعب ، وما لهوت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما . ورادع : اسم فاعل من ردعه عن الشىء (من باب قطع) أى كفّه وزجره .

والمعنى : أن من بلغ من العمر تسعاً وعشرين سنة كان جديراً بترك اللهو واللعب ، والرجوع إلى الرشد والصلاح .

(٣) تصبيك : تشوقك وتفتنك ، وتدعوك إلى الصبا والحنين والغرام . والغوانى : جمع غانية : وهى المرأة التى غنيت بحسنها عن الزينة . ودل المرأة : حسن حديثها ، وحسن مزحها ، وجمال هيئتها . وتهفو به : تميله وتحركه . والليتان : صفحتا العنق ، مثنى الليت (بكسر اللام) وهو صفحة العنق وجانبه . والسواجع : جمع ساجعة ، اسم فاعل من سجعت الحمامة ، إذا هدلت وطربت فى صوتها ، ووالته على طريق واحد . والشطر الثانى كناية عن طربه وشدة تأثره بالغناء ونحوه .

أَمَا لَكَ فِي الْمَاضِينَ قَبْلَكَ زَاجِرٌ ... يَكُفُّكَ عَنْ هَذَا ؟ بَلَى ، أَنْتَ طَامِعُ(٤)

وَهَلْ يَسْتَفِيقُ الْمَرْءُ مِنْ سَكْرَةِ الصِّبَا ... إِذَا لَمْ تُهَذِّبْ جَانِبَيْهِ الْوَقَائِعُ ؟(٥)

يَرَى الْمَرْءُ عُنْوَانَ الْمَنُونِ بِرَأْسِهِ ... وَيَذْهَبُ يُلْهِي نَفْسَهُ وَيُصَانِعُ(٦)

أَلَا إِنَّمَا هَذِي اللَّيَالِي عَقَارِبٌ ... تَدِبُّ ، وَهَذَا الدَّهْرُ ذِئْبٌ مُخَادِعُ(٧)

فَلَا تَحْسَبَنَّ الدَّهْرَ لُعْبَةَ هَازِلٍ ... فَمَا هُوَ إِلا صَرْفُهُ وَالْفَجَائِعُ(٨)

---

(٤) زاجر : كافّ رادع ، اسم فاعل من زجره عن كذا ، إذا كفّه ونهاه ومنعه .

والمعنى : أن المرء يرى فى سير الماضين وأحوال السابقين من العبر والعظات ما يزجره ويكفّه عن اللهو والعبث والغواية ، ولكنّه مع ذلك يتغافل وينخدع ، لطمعه وشدّة حرصه على ملاهى الحياة ولذّاتها .

(٥) يستفيق : يفيق ويصحو . ويريد بسكرة الصبا : مايفتن المرء ويستميله ويشغله من دواعى الصبا وأحواله كاللهو والغزل ، لأن الإنسان إذا انهمك فى هذه الأحوال كان كالذاهل أو السكران . والتهذيب : التنقية والإصلاح والتطهير . والمراد بالوقائع : صروف الدهر وحوادثه ونوازله .

يقول : إن المرء لايصحو من سكرة الصبا إلا إذا نبّهته حوادث الأيام ، وهذّبت نفسه نوازل الزمان ، وخلّصته المحن من عوامل الغواية والجهل والفساد .

(٦) المنون : الموت (وهى مؤنثة) . وعنوانها : دليلها الذى يظهر أمرها ، ويشير إليها ، ويذكّر بها ، والمراد به الشيب . ويلهى نفسه : يشغلها ، أو يحملها على اللهو . ويصانع : يدارى ويداهن ويخادع ، أى نفسه .

يقول : إن المرء يرى فى رأسه الشيب المؤذن بموته وانتهاء حياته ، ولكنه على الرغم من ذلك يلهى نفسه ويخادعها .

(٧) تدبّ : تسير سيراً ليّنا .

والمعنى : أن الليالى تفجأ الناس بما تخفيه من المكاره ، وأن مثلها فى هذا كمثل العقارب تدبّ فتلسع ، وأن الدهر يخدعهم كأنه الذئب يخدع فرائسه .

(٨) هو : أى الدهر . وصرفه : حدثانه ونوائبه . والفجائع : المصائب الشديدة الفادحة ، الواحدة فجيعة .

يقول : لا تغترّ بالدهر فى أوقات مرحك ونعيمك ظانّاً أنه صفو كلّه ، فإنما هو — لمن حقّق وجرّب — محن وخطوب ، وليست السعادة فيه إلا طيفاً عارضاً .

فَيَارُ بِمَّا بَاتَ الْفَتَى وَهْوَ آمِنٌ ... وَأَصْبَحَ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ الْمَطَالِعُ(٩)

فَفِيمَ اقْتِنَاءُ الدِّرْعِ وَالسَّهْمُ نَافِذٌ ؟ ... وَفِيمَ ادِّخَارُ الْمَالِ وَالْعُمْرُ ضَائِعُ ؟(١٠)

يَوَدُّ الْفَتَى أَنْ يَجْمَعَ الْأَرْضَ كُلَّهَا ... إِلَيْهِ ، وَلَمَّا يَدْرِ مَا اللهُ صَانِعُ(١١)

فَقَدْ يَسْتَحِيلُ الْمَالُ حَتْفاً لِرَبِّهِ ... وَتَأْتِى عَلَى أَعْقَابِهِنَّ الْمَطَامِعُ(١٢)

أَلَا إِنَّمَا الْأَيَّامُ تَجْرِى بِحُكْمِها ... فَيُحْرَمُ ذُو كَدٍّ ،وَيُرْزَقُ وَادِعُ(١٣)

---

(٩) المطالع : المسالك والطرق ومواضع الطلوع ، واحدها مطلع (بفتح اللام وكسرها) وهو اسم مكان من طلع (كنع ونصر) .

والمعنى : أن الدهر متقلّب مخادع ، فقد يمسّى الإنسان بالخير والأمن والطمأنينة ، ويصبّحه بالشر والخوف والهلاك .

(١٠) الدرع : لبوس الحديد ؛ يلبسها المحارب ؛ ليتقّى بها السهام والسيوف والرماح ونحوها. والسهم : واحد النبل ، وهو ما يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها ، والمراد باقتناء الدرع : الاحتراس والحذر والتوقّى ، والمراد بالسهم : قدر الله وقضاؤه الذى لا يردّه شيء .

والمعنى : أنه لا قيمة للحذر والاحتراس وشدّة الحرص على الحياة وجمع المال وادّخاره ، لأن المقدور لا بدّ من وقوعه ، والحياة لا بدّ من زوالها .

(١١) المعنى : أن الإنسان لو علم صنع الله تعالى وقضاءه وتدبيره ما اشتد جشعه ، ولا أفرط فى طمعه وحرصه .

وفى البيت الآتى تفسير وتوضيح لمعنى هذا البيت .

(١٢) يستحيل : يتحول ويصير . وحتفاً : هلاكاً . وربّه : صاحبه ومالكه . وتأتى على أعقابهنّ المطامع : المراد أنها ترتدّ فلا يدركها مؤمّلها .

يقول : إن المال قد يصير مصدر هلاك لصاحبه ، وإن المطامع قد تخيب . وهذا كله لا يعقب غير الحسرة والأسف والندامة .

(١٣) الكدّ : الشدّة فى العمل ، وطلب الكسب ، والإلحاح فى محاولة الشيء . والوادع : الساكن الهادئ

يريد أنه لا فائدة من الجشع والحرص والتكالب على جمع المال ، وأن الخير فى الاعتدال والقصد والقناعة .

فَلَا تَقْعُدَنْ لِلدَّهْرِ تَنْظُرُ غِبَّهُ عَلَى حَسْرَةٍ ، فَاللهُ مُعْطٍ وَمانِعُ (١٤)
فَلَوْ أَنَّ ما يُعْطَى الْفَتَى قَدْرُ نَفْسِهِ لَمَا بَاتَ رِئْبَالُ الشَّرَى وَهْوَجَائِعُ (١٥)
وَدَعْ كُلَّ ذِي عَقْلٍ يَسِيرُ بِعَقْلِهِ يُنَازِعُ مِنْ أَهْوَائِهِ مَا يُنَازِعُ (١٦)
فَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالَّذِى أَنَا عَالِمٌ قَدِيماً ، وَعِلْمُ الْمَرْءِ بِالشَّيْءِ نَافِعُ (١٧)
ولَسْتُ بِعلَّامِ الْغُيُوبِ ، وَإِنَّمَا أَرَى بِلِحَاظِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاقِعُ (١٨)
وَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ، إِنَّمَا هِيَ فِتْنَةٌ لَهُمْ بَيْنَهَا عَمَّا قَلِيلٍ مَصَارِعُ (١٩)

---

(١٤) غبّه : عاقبته وآخره . والحسرة : أشدّ التلهّف على الشيء الفائت .

والمعنى : دع المقادير تجرى فى أعنّتها ، ولا تتحسر على ما فات ، واستسلم لقضاء الله تعالى ، فهو الذى يعطى ، وهو الذى يمنع .

(١٥) الرئبال : الأسد . والشرى : موضع تكثر فيه الأسد (بضم فسكون) وتنسب إليه ، قيل هو جانب الفرات وناحيته حيث تكثر الغياض والآجام ، أو هو جبيل (بصيغة التصغير) بتهامة ، أو طريق فى سلمى (كسكرى) من أراضى نجد .

يقول : لو أن الفتى يعطى من الرزق على قدر قوّته وبأسه ما بات أسد الشرى وهو جائع .

(١٦) ينازع : يجاذب . والأهواء : جمع الهوى ، وهو ميل النفس وإرادتها .

يدعو إلى ترك الناس وشأنهم ، وعدم تكليف النفس ما لا تطيق من الاهتمام بأمور غيرها ، فقد وهب الله لكل ذى عقل عقلا يقوده ويرشده ويهديه ، ويكافح أهواء النفس وتكافحه .

(١٧) يشير إلى أن أحوال الناس متقاربة متشابهة فى قديم الزمان وحديثه ، فأكثرهم يميل بطبعه إلى الفتنة والشرّ والفساد ، ويقول : إن علمه بهم يفيده وينفعه ويحفظه من كيدهم وأذاهم .

(١٨) الرأى : العقل والتدبير والبصيرة والحذق بالأمور ، ولحاظ الرأى : ملاحظته ، وحسن النظر فيه .

يقول : إنه لا يعلم الغيب ، ولكنّه برجحان عقله ، وحسن تدبيره ، وقوّة بصيرته ، وصدق نظره ، وحذقه بالأمور — يستطيع معرفة الشيء قبل وقوعه ، كمن يحسن اسباب النتائج من مقدّماتها ، وقياس الغائب على الحاضر ، والمستقبل على الماضى .

(١٩) ذرهم : اتركهم ، أى الناس . والمعنى : لاتعبأبهم ، ولاتكترث لهم . وخاض الناس فى الحديث : دخلوا فيه وتفاوضوا ، والمراد أنهم يخوضون فى أحاديث الفتنة والشرّ والباطل . والفتنة : الابتلاء والاختبار والامتحان ، وهى أيضاً المحنة واختلاف الناس بالآراء . ومصارع : مهالك ، جمع مصرع ، وهو اسم مكان ، أو مصدر ميمىّ من قولهم : المنيّة تصرع الحيوان ، أى ترديه وتهلكه ، وأصل الصرع (بفتح فسكون) : الطرح على الأرض .

فَلَوْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ مَا هُوَ كَائِنٌ ... لَمَا نَامَ سُمَّارٌ، وَلَا هَبَّ هَاجِعُ(٢٠)

وَمَا هَذِهِ الْأَجْسَامُ إِلَّا هَيَاكِلُ ... مُصَوَّرَةٌ، فِيهَا النُّفُوسُ وَدَائِعُ(٢١)

فَأَيْنَ الْمُلُوكُ الْأَقْدَمُونَ تَسَنَّمُوا ... قِلَالَ الْعُلَا؟ فَالْأَرْضُ مِنْهُمْ بَلَاقِعُ(٢٢)

مَضَوْا، وَأَقَامَ الدَّهْرُ، وَانْتَابَ بَعْدَهُمْ ... مُلُوكٌ، وَبَادُوا، وَاسْتَهَلَّتْ طَلَائِعُ(٢٣)

أَرَى كُلَّ حَيٍّ ذَاهِباً بِيَدِ الرَّدَى ... فَهَلْ أَحَدٌ مِمَّنْ تَرَحَّلَ رَاجِعُ؟(٢٤)

---

(٢٠) السمّار: جمع سامر، اسم فاعل من السمر (كالسهر) وهو حديث الليل. أو هي «سمّار» (بفتح السين وتشديد الميم)، صيغة مبالغة. وهبّ: انتبه واستيقظ. وهاجع: نائم.

يقول: لو علم الإنسان ما يكون من أمور الغيب، وأحوال المستقبل ما نام يقظان، ولا انتبه نائم. والمعنى: لتقطّعت أسباب الأمل، وبطلت حركة الحياة.

(٢١) الهياكل: جمع هيكل (بفتح فسكون ففتح) وهو الضخم من كل شيء، والبناء المشرف العالى، والمراد بالهياكل هنا: الأوعية ونحوها.

يريد أن الأجسام كالأوعية المصوّرة، والنفوس فيها كالودائع التى لا يلبث مودعها أن يستردّها. وهو يشير إلى فناء الأحياء، ومفارقة الأرواح للأجساد.

(٢٢) تسنّموا: ركبوا وعلوا. وقلال العلا: ذراها وأعاليها، جمع قلّة (بالضم والتشديد)، وهى رأس كلّ شيء وأعلاه. وبلاقع: خالية مقفرة، جمع بلقع (كجعفر).

يقول تعزيزاً لمعنى البيت السابق: أين الملوك الأقدمون الذين سموا إلى أرفع درجات العلا؟ لا ريب أنهم هلكوا وبادوا، فالأرض خالية منهم.

(٢٣) انتاب بعدهم ملوك: أى توالى بعدهم ملوك، من قولهم: انتاب فلان القوم، إذا أتاهم مرّة بعد أخرى. وبادوا: هلكوا. واستهلّت: ظهرت، أو رفعت أصواتها. والطلائع: القوم الذين يبعثون ليطّلعوا طلع العدوّ، المفرد طليعة، للواحد والجمع. يقال: هو طليعة الجيش، وهم طليعته، والمراد بالطلائع هنا: جماعات الناس.

يقول: إن هؤلاء الملوك الأقدمين ذهبوا وبادوا وهلكوا، وأقام الدهر على حاله، ثم توالى بعدهم ملوك آخرون فبادوا، ثم ظهرت جماعات أخرى، هم خلائف الموتى، وهم فى طريق الفناء دائبون، وهكذا يفنيهم الدهر جيلا بعد جيل.

(٢٤) الردى: الهلاك والموت. وترحّل: انتقل وذهب، والمراد مات.

والمعنى: أن الأحياء جميعاً يموتون، ولا يعود منهم أحد إلى الحياة الدنيا، سنّة الله فى خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

أُنَادِى بِأَعْلَى الصَّوْتِ ، أَسْأَلُ عَنْهُمُ — فَهَلْ أَنْتَ يَادَهْرَ الْأَعَاجِيبِ سَامِعُ ؟(٢٥)
فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَسْمَعْ نِدَاءً ، وَلَمْ تُحِرْ — جَوَاباً ، فَأَىُّ الشَّىْءِ أَنْتَ أُنَازِعُ ؟(٢٦)
خَيَالٌ لَعَمْرِى ، لَيْسَ يُجْدِى طِلَابُهُ — وَمَأْسَفَةٌ تُدْمَى عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ(٢٧)
فَمَنْ لِى — وَرَوْعَاتُ الْمُنَى طَيْفُ حَالِمٍ — بِذِى خُلَّةٍ تَزْكُو لَدَيْهِ الصَّنَائِعُ ؟(٢٨)

(٢٥) عنهم : عمن مات من الملوك وغيرهم .

يقول : إنه ينادى بأعلى صوته سائلا عن هؤلاء الموتى ، ويتمنّى أن يسمعه الدهر ذو العجائب ، فيجيبه ، ويعرّفه بأحوالهم ، وما صار إليه أمرهم .

(٢٦) لم يحر جوابا : لم يرجع ولم يردّ ، مضارع أحرت عليه جوابه ، أوأحرت له جواباً ، إذارددته. وأنازع : أجاذب وأخاصم ، والمراد أحاور .

يقول مخاطباً الدهر : فإن كنت لا تسمع نداء ، ولا تحير جواباً ، فأىّ شىء أنت ؟ وما حقيقة ذلك الذى أحاوره فلا يجيب ؟ والغرض تصوير عجائب الدهر ، والإشارة إلى خفاء سرّ الموت ، وغموض حقيقته .

(٢٧) الخيال : ماتشبّه لك فى اليقظة أو الحلم من صورة ، وهو أيضاً الشخص والطيف ، وماتراه لكلّ شىء كالظلّ ، وخيال الإنسان فى المرآة وفى المنام : صورة تمثاله. ويجدى : ينفع ويغنى . والطلاب : مصدر طالبه بكذا مطالبة وطلا باً ، والاسم منه الطلب (بفتحتين). والمأسفة : الأسف ، وهو المبالغة فى الحزن والجزع والتلهّف على مافات . وتدمى : تجرح فيسيل منها الدم ، والمراد أن الأسف ، يشتدّ بصاحبه حتى يعضّ أصابعه ويدميها .

رجع الشاعر فى هذا البيت إلى نفسه ، وصحا من ذهوله ، فقال : إن مخاطبة الدهر ، وسؤاله عمن حوتهم القبور خيال لا نفع فيه ، ووهم لا يغنى تطلّبه ولا يفيد ، وليس من ورائه إلا إثارة الأسى وتجديد الأسف والحزن الشديد .

(٢٨) الروعات : جمع روعة : اسم مرة من راعه الشىء ، أى راقه وبهره وأعجبه . والمنى : الأمانىّ والآمال ، وروعات المنى : الأمانىّ الرائعة . والطيف : الخيال الطائف فى المنام . وحالم : اسم فاعل من حلم الإنسان بالشىء (كنصر) إذا رآه فى النوم . والخلّة : الصداقة المختصّة الخالصة . وتزكو : تنمو وتزيد . والصنائع : جمع صنيعة ، وهى العطيّة والكرامة والإحسان واليد والمعروف تسديه إلى إنسان لتصطنعه به ، وجملة « وروعات المنى طيف حالم » جملة حاليّة ، ومعناها أن الأمانى الرائعة التى يعجب بها المرء ، ويتوق إليها كالخيال الطائف فى المنام ، يراه الحالم ، ثم لا يلبث أن تكذبه اليقظة .

أُشَاطِرُهُ وُدِّى ، وَأُفْضِى لِسَمْعِهِ بِسِرِّى ، وَأُمْلِيهِ الْمُنَى وَهْوَ رَابِعُ(٢٩)
لَعَلِّى إِذَا صادفْتُ فِى الْقَوْلِ رَاحَةً نَضَحْتُ غَلِيلاً مَا رَوَتْهُ الْمَشَارِعُ(٣٠)
لَعَمْرُ أَبِى ، وهْو الَّذِى لَوْ ذَكَرْتُهُ لَمَا اخْتَالَ فَخَّارٌ ، وَلَا احْتَالَ خَادِعُ(٣١)

---

(٢٩) أشاطره ودى : المراد أهب له محبّى ووادى ، من قولهم : شاطرته مالى ، أى ناصفته ، فأمسكت شطره ، وأعطيته شطره الآخر . وأفضى إليه بسرى : أظهره عليه . وأمليه المنى : أمتعه بها ، من قولهم : أملاه الله العيش ، أى متّعه به . أو أملى عليه المنى والآمال ، بمعنى أفضى إليه بها ، من قولهم : أمليت الكتاب على الكاتب . ورابع : اسم فاعل من ربع (كذهب) بمعنى وقف وتحبّس وانتظر ، أو بمعنى أقام واطمأن .

(٣٠) صادفت : وجدت . وفى القول ، أى فى حديثى إليه . ويراد بالراحة : الارتياح الذى يحسّه الإنسان إذا شكا أمره إلى ذى مروءة . ونضحت : أرويت. والغليل : شدّة العطش وحرارته ، وربما سمّيت حرارة الحبّ والحزن غليلا . وروته : يريد أروته ، أى أزالت عطشه ، والمفهوم من المعجمات أن الفعل بهذا المعنى لازم ، روى من الماء (من باب رضى) ، ويعدّى بالهمزة والتضعيف ، فيقال : أرويته وروّيته ، فتعدية الفعل هنا إلى الضمير المنصوب العائد على الغليل غير معروف فى فصيح الكلام . وفى لسان العرب : يقال رويت القوم أرويهم ، إذا استسقيت لهم . وتسميتهم المزادة فيها الماء بالراوية ، وهو اسم فاعل من روى — يشفع لاستعمال هذا الفعل متعديا . والمشارع : موارد الشاربة ، والمواضع التى ينحدر المستقى منها إلى الماء ، والمراد بالمشارع : مياهها الغزيرة ، الواحدة مشرعة (بفتح فسكون ففتح) .

يرجو أن يجد ما يريحه فى محادثة هذا الخليل ، وبذلك يروى غليلاً لم تروه المياه الغزيرة .

(٣١) اختال : زهى وتكبّر . وفخّار (بفتح الفاء وتشديد الخاء) صيغة مبالغة من الفخر ، وهو التمدّح بالخصال ، وعدّ القديم ، والمباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغيرهما . واحتال : من الاحتيال ، وهو طلب الحيلة ، أو الحذق وجودة النظر ، والقدرة على التصرّف ، والمراد بالاحتيال هنا : المخادعة . وخادع : اسم فاعل من خدعه (من باب قطع) إذا ختله وأراد به المكروه من حيث لايعلم .

يقسم بأبيه ، ويفتخر بأنه كان رفيع القدر ، جيّد الرأى ، جامعاً للمناقب ، تبهر ذكراه كلّ فخور مختال ، وتسكت كلّ مخادع محتال .

وكان الشطر الثانى من هذا البيت فى الأصل المخطوط : « على الموت لم يجزع من الموت جازع » فضرب عليه ، أى عدل عنه ، وكتب بإزائه فى الهامش بدلا منه : « لما اختال فخّار ، ولا احتال خادع » . وهذا مثال من أمثلة التبديل والتهذيب التى نصادفها فى هذا الأصل .

لَمَا نَازَعَتْنِي النَّفْسُ فِي غَيْرِ حَقِّهَا وَلَا ذَلَّلَتْنِي لِلرِّجَالِ الْمطَامِعُ (٣٢)
ومَا أَنَا ـ وَالدُّنْيَا نَعِيمٌ وَلَذَّةٌ ـ بِذِي تَرَفٍ تَحْنُو عَلَيْهِ الْمَضَاجِعُ (٣٣)
فَلَا السَّيْفُ مَفْلُولٌ ،وَلَا الرَّأْيُ عازِبٌ وَلَا الزَّنْدُ مَغْلُولٌ ،وَلَا السَّاقُ ظَالِعُ (٣٤)
وَلَكِنَّنِي فِي مَعْشَرٍ لَمْ يَقُمْ بِهِمْ كَرِيمٌ ،وَلَمْ يَرْكَبْ شَبَا السَّيْفِ خَالِعُ (٣٥)
لَوَاعِبُ بِالْأَسْمَاءِ يَبْتَدِرُونَهَا سَفَاهاً ، وَبِالْأَلْقَابِ ، فَهْيَ بَضَائِعُ (٣٦)

---

(٣٢) نازعتنى : جاذبتنى وخاصمتنى . وذلّله : أخضعه وحمله على الذلّ والهوان . والمطامع : جمع مطمع (كمذهب) وهو الطمع ، أوالشيء الذى يطمع فيه . و « ما نازعتنى ... » الخ جواب القسم فى البيت السابق ، وجملة « وهو الذى لو ذكرته . . » جملة معترضة بين القسم وجوابه . ولانعرف وجهاً لوقوع اللام فى جواب القسم هنا .

(٣٣) « أنا » فى أول هذا البيت مبتدأ ، خبره «بذى ترف» ، وجملة « والدنيانعيم » جملة حالية . والترف : الرفاهية والتنعّم . وتحنوعليه : تميل إليه ، وتعطف عليه وتشفق . والمضاجع : جمع مضجع (كمذهب) وهومكان الضجوع ،أى النوم ، يقال : ضجع الرجل (كقطع وخضع) أى وضع جنبه بالأرض . يتمدّح بأنه حينما أقبلت عليه الدنيا بنعيمها ولذاتها لم يكن مترفاً رافهاً يؤثر الدعة والراحة فى ظلّ الخمول .

وفى البيت الآتى تفصيل وتوضيح لمعنى هذا البيت .

(٣٤) مفلول : منثلم متكسّر . والرأى : العقل والتدبير ونفاذ البصيرة والحذق بالأمور . وعازب : غائب بعيد . والزند : موصل طرف الذراع بالكفّ ، والمراد اليد . ومغلول : مقبوض مقيّد ممنوع من العمل . والساق من الإنسان : مابين الركبة والقدم ، والمعروف أنها مؤنثة . وظالع : صفة من الظلع (كالمنع) وهو غمز فى المشى يشبه العرج .

يفخر بشجاعته ، وتمام أهبته واستعداده للحروب والدفاع ، ثم بجودة تدبيره ، وحسن رأيه ، وحصافة عقله ، ثم بانبساط يده فى الخير ، وانطلاقها فى المكرمات ، وعدم تأخّره عن الغايات .

(٣٥) المعشر : الجماعة من الناس ، والمراد جماعة من قومه وبنى وطنه . وشباة كلّ شىء : حدّه ، وجمعها شبا ، (كقناة وقنا) . وخالع : المراد شابّ قوىّ قادر على حمل السلاح والمجالدة والقتال . وركوب شبا السيف : كناية عن ركوب الأخطار ، واقتحام المخاوف .

(٣٦) لواعب : جمع لاعبة ، وقد أراد الشاعر جمع لاعب ، والمعروف أن فاعلا لا يجمع على فواعل قياساً إلا إذا كان وصفاً لغير عاقل . ويبتدرونها : يعالجونها ويسارعون إليها . والسفاه : (بفتح السين) الجهل وخفّة العقل والحمق ، وهونقيض الحلم .

يرميهم بالسفاهة والحماقة والاشتغال بما لا يفيد ، والتباهى بالأسماء والألقاب ، فهى بضائعهم وسلعهم التى فيها يتجرون .

وهلْ فى التَّحَلِّى بِالْكُنَى مِنْ فَضِيلَةٍ إذَا لَمْ تُزَيَّنْ بِالْفَعَالِ الطَّبائعُ ؟(٣٧)
أُعاشِرُهُمْ رَغْماً ، وَوُدِّى لَوَ انَّ لِى بِهِمْ نَعَماً أَدْعُو بِهِ فَيُسَارِعُ (٣٨)
فَياقَوْمُ ، هُبُّوا ، إنَّمَا الْعُمْرُ فُرْصَةٌ وَفى الدَّهْرِ طُرْقٌ جَمَّةٌ وَمَنافِعُ (٣٩)
أَصَبْرًا عَلَى مَسِّ الْهَوَانِ ، وَأَنْتُمُ عَدِيدُ الْحَصَى ؟ إنِّى إلَى اللهِ رَاجِعُ (٤٠)

---

(٣٧) التحلّى : التزيّن . والكنى : جمع كنية (بضم الكاف فى المفرد والجمع ، والكسر فيهما لغة ، مثل برمة وبرم ، وسدرة وسدر) ، والمراد بها : مايطلق على الرجل للتعظيم والتوقير . والفعال (بفتح الفاء) : اسم للفعل الحسن من الجود والكرم والمروءة ونحوها ، أو هو الفعال (بالكسر) جمع فعل (بكسر فسكون) والمراد الفعال الصالحة . والطبائع : جمع طبيعة ، وهى الخليقة والسجيّة التى جبل الإنسان عليها .

والمعنى : أن الكنى المشعرة بالتعظيم ، والألقاب الرفيعة — لاتعدّ من الفضائل التى يزدان بها الناس ، وترتفع من أجلها أقدارهم ومراتبهم ، إلا إذا استقامت طبائعهم ، وحسنت أخلاقهم ، وزيّنت بالفعال سجاياهم .

(٣٨) أعاشرهم رغماً : أى أخالطهم وأعيش معهم على كره منى . وبهم : أى بدلهم ، وعوضاً منهم . والنعم : الإبل ونحوها . وأدعو به : أصيح به وأناديه، وهو متعدّ بنفسه ، ولعلّ الشاعر عدّاه بالباء على تضمينه معنى صاح .

يقول : إنه يعاشر هؤلاء الناس على الرغم منه ، ويودّ لو يبدّله الله بهم نعماً يدعوه فيسارع إليه . وهذا قريب من قول طرفة :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثاً حول قبّتنا تخور

والرغوث (بفتح الراء) : كلّ مرضعة . والخوار (بضم الخاء) : صوت البقر ونحوه .

(٣٩) هبّوا : انتبهوا واستيقظوا ، يشير إلى ماهم فيه من غفلة كأنها النوم . والطرق (بضمتين ويجوز تسكين وسطه كما فى البيت) : جمع طريق . وجمّة : كثيرة. والمراد بالطرق الجمّة: الوسائل الكثيرة المختلفة التى يكسب بها العامل المجدّ الشرف والنباهة والعزّة فى الحياة .

يحضّهم على ترك الغفلة والخمول ، وانتهاز فرصة العمر ، والعمل المثمر الصالح ، لكسب المنافع بشتّى الوسائل والأساليب .

(٤٠) الاستفهام فى أول هذا البيت للإنكار والتوبيخ. والهوان: الذلّ والخزى . وعديد الحصى : مثله فى العدد والكثرة ، يقال : هم عديد الحصى ، إذا كانوا لايحصون كثرة ، كما يعزّ الحصى على الإحصاء . .

بعد أن ذكر حالهم من احتمال الذلّ والمهانة مع كثرة عددهم ردّد ما يقوله اليائس الحزين من عبارات الرجوع إلى الله ، والاستسلام لحكمه ، وكأنّه يشير بهذا إلى موت صفات الرجولة فيهم .

وَكَيْفَ تَرَوْنَ الذُّلَّ دَارَ إِقَامَةٍ ... وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ فِى الْأَرْضِ وَاسِعُ (٤١)

أَرَى أَرْؤُساً قَدْ أَيْنَعَتْ لِحَصَادِهَا ... فَأَيْنَ ـ وَلَا أَيْنَ ـ السُّيُوفُ الْقَوَاطِعُ؟ (٤٢)

فَكُونُوا حَصِيدًا خَامِدِينَ ، أَوِ افْزَعُوا ... إِلَى الْحَرْبِ حَتَّى يَدْفَعَ الضَّيْمَ دَافِعُ (٤٣)

أَهَبْتُ ، فَعَادَ الصَّوْتُ لَمْ يَقْضِ حَاجَةً ... إِلَىَّ ، وَلَبَّانِى الصَّدَى وَهْوَ طَائِعُ (٤٤)

فَلَمْ أَدْرِ أَنَّ اللهَ صَوَّرَ قَبْلَكُمْ ... تَمَاثِيلَ لَمْ يُخْلَقْ لَهُنَّ مَسَامِعُ (٤٥)

فَلَا تَدَّعُوا هَذِى الْقُلُوبَ ، فَإِنَّهَا ... قَوَارِيرُ مَحْنِىٌّ عَلَيْهَا الْأَضَالِعُ (٤٦)

وَدُونَكُمُوهَا صَعْدَةً مَنْطِقِيَّةً ... تَفُلُّ شَبَا الْأَرْمَاحِ وَهْىَ شَوَارِعُ (٤٧)

---

(٤١) يوبّخهم على الرضا بالذلّ ، والإقامة فى داره ،والإخلاد إلى الهوان ؛ والحال أن فضل الله ورزقه واسع كثير يملأ الأرض .

(٤٢) أرؤس : جمع رأس . وأينعت : أدركت ونضجت وحان قطافها ،أى الرءوس على تشبيهها بالثمار . والحصاد (بفتح الحاء وكسرها) : مصدر حصدت الزرع والنبات(من بابى ضرب وقتل) أى قطعته بالمنجل ونحوه . ومعنى « أينعت لحصادها » أنها أدركت ، وآن لها أن تحصد . والقواطع : جمع القاطع . و« لا أين » : جملة معترضة يستبعد بها وجود السيوف .

يقول : أرى رءوساً قد أينعت وحان حصادها ، واستحقّت القطاف ، ويتمنّى لو توجد السيوف التى تبترها ، وتستأصل شأفتها ، ولكن لا توجد .

(٤٣) الحصيد : الزرع المحصود، (فعيل بمعنى مفعول) . وخامدين : موتى ساكتين هامدين ، وأصله من خمدت النار (كقعدت)إذا سكن لهبها ، ولم يطفأ جمرها. وافزعوا : الجئوا ، أمر من فزعت إليه أى لجأت . والضيم : الظلم .

(٤٤) أهاب بصاحبه : دعاه وناداه وصاح به . ولبّانى : أجابنى . والصدى : الصوت الذى يرتدّ إليك مماثلا لصوتك فى الجبال ونحوها .

والمعنى : أنه دعا قومه ، وأهاب بهم فلم يفد دعاؤه ، ولم يرجع إليه طائعاً غير صدى صوته .

(٤٥) المسامع : جمع مسمع (كمنبر) وهو الأذن . يرميهم بالصمم وعدم الإحساس .

(٤٦) لاتدعوا : لاتتركوا. والقوارير : جمع قارورة ، وهى الزجاجة يقرّ فيها الشراب ونحوه . ومحنىّ : معطوف . ويريد بالأضالع : أضلاع الصدر التى تنضم على القلب وتنحنى .

يسخر منهم ، ويشبّه قلوبهم بالقوارير فى الضعف .

(٤٧) دونكموها : خذوها ، أى خذوا هذه القصيدة المشتملة على المشورة والنصيحة. والصعدة : القناة التى تنبت مستوية، فلا تحتاج إلى تثقيف . ومنطقيّة: نسبة إلى المنطق أى الكلام . وتفلّ : =

تَسِيرُ بِهَا الرُّكْبَانُ فِى كُلِّ مَنْزِلٍ وَتَلْتَفُّ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهَا الْمَجَامِعُ(٤٨)
فَمِنْهَا لِقَوْمٍ أَوْشُحٌ وَقَلَائِدٌ وَمِنْهَا لِقَوْمٍ آخَرِينَ جَوَامِعُ(٤٩)
أَلَا إِنَّهَا تِلْكَ الَّتِى لَوْ تَنَزَّلَتْ عَلَى جَبَلٍ أَهْوَتْ بِهِ ، فَهْوَ خَاشِعُ(٥٠)

= تثلم وتكسر ، (وبابه ردّ) . وشباة الرمح ونحوه: حدّه وسنانه، والجمع شبا . والأرماح : جمع رمح. وشوارع : مسدّدة موجّهة إلى الأعداء ، مفردها شارع ، وهو اسم فاعل من شرع الرمح ، إذا قرب من المطعون.

جعل هذه القصيدة فى قوّتها وشدّة تأثيرها كالقناة ، ثم قال إنها قناة صلبة قويّة، تثلم أسنّة الرماح وهى مشرعة .

(٤٨) الركبان: جماعة الراكبين فى السفر ، الواحد راكب . وفى كلّ منزل : فى كلّ مكان ينزلون به.وتلتفّ : تجتمع وتزدحم وتتكاثف . والمجامع : جمع مجمع(كمذهب)،وهو اسم للمجتمعين من الناس . وصف قصيدته بالذيوع والانتشار ، وتهافت الناس عليها ، وصغو أسماعهم إليها . .

(٤٩) منها: أى من الصعدة المنطقيّة المكنىّ بها عن هذه القصيدة . والأوشح: جمع وشاح (بكسر الواو وضمها) ، وهو كرسان (بكسر فسكون) ، أى نظمان أو فرعان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما ،معطوف أحدهما على الآخر تتوشّح المرأة به . والوشاح أيضاً: شبه قلادة ينسج من أديم عريضاً ويرصّع بالجوهر وتشدّه المرأة بين عاتقها وكشحها . والذى نعرفه أن مثل «وشاح» لايجمع قياساً على أوشح . والقلائد : جمع قلادة (بكسر القاف) ، وهى مايجعل فى العنق للزينة كالعقد (بكسر فسكون) ونحوه . والجوامع : الأغلال ، وهى الأطواق الحديدية التى تجعل فى الأعناق . الواحدة جامعة .

يقول : إن من قصيدته هذه زينة وجمالا لقوم ، وإن منها أغلالا وأطواقاً لقوم آخرين . وهو يشير بالشطر الثانى إلى ما يتركه شعره البليغ الرائع فى نفوس حاسديه من الضيق والهمّ ، ومضاعفة مايعانيه هؤلاء الحسّاد من الضغينة والحقد .

(٥٠) تنزّلت : نزلت . وأهوت به: أسقطته ، والمراد أثّرت فيه تأثيراً شديداً . وخاشع : ساكن خاضع ، والمراد أنه تصدّع وتداعى واستوى بالأرض .

يشير إلى شدة تأثير شعره ونصحه حتّى فى الجماد . وهذا قريب من معنى قول الله تبارك وتعالى : « لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله » الآية ٢١ من سورة الحشر .

تعليق وجيز :

نظم الشاعر هذه القصيدة ونظائرها بعد أن هذّبت جانبيه الوقائع ، وهاله ما تضانيه بلاده من المذلة والشقاء، وأقضّ عليه مضجعه سوء الأحوال السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية ؛ فاستفاق من سكرة

. . . .

الصبا ، ولهو الشباب ، واستنكف أن يحيا لنفسه وملاهيه وأهوائه ، وآثر أن يحيا لوطنه وعزته ورخائه ؛ فجاشت نفسه بانفعالات وعواطف نهج بها منهج الثائرين الأحرار ، والمكافحين المستبسلين ؛ وأنتج بها مثل هذا الشعر الحماسي الفائر؛ الغزير الثائر . ثم رأى أن يطويه إلى حين إيثاراً للملاينة والمهادنة ، والتربص والاحتراس ؛ فلما توقدت الثورةُ العُرابية ، وحمل الوطنيون السلاح فى وجه الطغيان والعدوان — ظهر مثل هذا الشعر وانتشر ، وأنجد وأتْهم ، وذاع وشاع ، وملأ البقاع والأسماع .

* * *

إن البارودى فى هذه العينية ثار هذه الثورة العارمة حوالى سنة ١٨٦٨ وهو ابن تسع وعشرين ، قبل أن يثور الناس بنحو أربعة عشر عاماً ؛ فرصد الحاكم وإسرافه وانحرافه ، والحكم وفساده واستبداده ، وهجا الحاشية الفاسدة المفسدة ، ورق للفلاح المسخّر المعذّب ، وأشفق على العامل المحروم المظلوم. ونبّه وأيقظ ، وحذّر وأنذر ، وداوى وعالج ، ولان واشتدّ ، وهدد وتوعّد ، ووعظ ونصح . وتمنى وأمل ، وأسف وتحسّر ، وهجا وافتخر ، وشكا وسخر ، وأنّب اللاعبين بالأسماء والألقاب ، وحرّض على دفع الظلم بالكفاح وقوة السلاح ، وندّد بالمقيمين على الضيم والهوان .

وكثير من أبيات هذه القصيدة يجرى مجرى الحكم والأمثال ، وكثير من أبياتها يهزّ العواطف والمشاعر هزّاً عنيفاً ينبّه الغافلين ، ويحمّس المستضعفين ويردّ إلى المتردّد عزمه وحزمه ، ويحمل الخائر الجبان على الإقدام والاستبسال . وبعضها يدفع بصريح العبارة إلى الثورة العامة المسلّحة .

* * *

ومما يسترعى النظر والانتباه ، ويدعو إلى الاعتبار والإكبار أن البارودى صاهر أسرة « يكن » بزوجته : « عديلة يكن » فانعقدت له بهذا الزواج قرابة وصلةٌ وثيقةٌ بالأسرة الخديوية . وقبل هذا وبعده حظى عند الخديو « إسماعيل » ، ونال ثقته وتقديره ، وترقّى فى المناصب والمراتب العسكرية والإدارية ترقيات واسعة متتابعة سريعة كثيرة ، وعاش قبل النفى والاغتراب عيشة المترفين السعداء ، الرافهين الأعزاء ، واستمتع كل الاستمتاع بامتيازات السيادة والجاه ، والغنى والثروة ، والنفوذ والسلطان ؛ فثورته مع هذا كله على الفساد والطغيان تستأهل تقدير الوطن ، وحسن ثناء الناس .

وقد تكون هذه القصيدة من الشعر الذى لم يقصد به الشاعر غير مجاراة نزعته الحماسية الفخرية ، ومحاكاة من أولع بهم من شعراء الحماسة والفخر . ويلاحظ أن البارودى نظم هذه العينية الطويلة تحت عنوان : « قال يروض القول » .

وقال :

أَتُرَى الْحَمَامَ يَنُوحُ مِنْ طَرَبٍ مَعِي ... وَنَدَى الْغَمَامَةِ يَسْتَهِلُّ لِمَدْمَعِي؟(١)

مَا لِلنَّسِيمِ بَلِيلَةً أَذْيَالُهُ ؟ ... أَتُرَاهُ مَرَّ عَلَى جَدَاوِلِ أَدْمُعِي؟(٢)

بَلْ مَا لِهَذَا الْبَرْقِ مُلْتَهِبَ الْحَشَا ؟ ... أَسَمَتْ إِلَيْهِ شَرَارَةٌ مِنْ أَضْلُعِي؟(٣)

لَمْ أَدْرِ هلْ شَعَرَ الزَّمَانُ بِلَوْعَتِي ... فَرَثَى لَهَا ،أَمْ هَاجَتِ الدُّنْيَا مَعِي؟(٤)

فَالْغَيْثُ يَهْمِي رِقَّةً لِصَبَابَتِي ... وَالطَّيْرُ تَبْكِي رَحْمَةً لِتَوَجُّعِي(٥)

خَطَرَاتُ شَوْقٍ ، أَلْهَبَتْ بِجَوَانِحِي ... نَارًا يَدِبُّ أَزِيزُهَا فِي مِسْمَعِي(٦)

---

(١) الهمزة فى أول البيت للاستفهام . وهو من تجاهل العارف . والغرض إظهار اللوعة والصبابة والتوجّع. وترى (بالبناء للمجهول) : تظنّ . ويجوز أن تقرأ « ترى » (بالبناء للفاعل) . ونوح الحمام: سجعه وهديله إذا أشبه نوح المرأة. والطربُ (هنا) :الشوق ،وخفّة تعترى من يشتدّ به الحزن والهم. والندى (هنا) :الغيث والمطر .والغمامة : السحابة . ويستهلّ : يشتدّ انصبابه . والمدمع : مسيل الدمع ، ومجراه من العين ، والمراد به (هنا) : الدمع نفسه .

(٢) النسيم: الريح إذا كانت معتدلة ضعيفة طيّبة . أوهو ابتداء كلّ ريح قبل أن تقوى. وبليلة : مبتلّة نديّة. وتراه (بالبناء للمجهول) : تظنّه . وجداول أدمعى : دموعى الشبيهة بالجداول والأنهار فى الغزارة والكثرة .

(٣) ملتهب : متّقد . والحشا : ما اشتملت عليه الضلوع ، وما حواه الجوف : وسمت . علت وارتفعت . والشرارة : واحدة الشرار (بفتح الشين فيهما) ، وهو ما تطاير من النار .

(٤) اللوعة : حرقة (بضم فسكون) الهوى والوجد والشوق ، وألم من حب أوهم أو مرض. ورثى لها : رقّ وتوجّع. والأسلوب الفصيح أن يكون الاستفهام فى مثل هذا الموضع بالهمزة لا بهل .

(٥) الغيث : المطر . ويهمى : يسقط وينصبّ ويسيل. والصبابة : رقّة الهوى ، وحرارة الشوق. والتوجّع : التفجّع وتشكّى الوجع .

(٦) خطرات الشوق : خواطره وهواجسه ونزعاته ، وما يخطر ببال المشوق ، ويقع فى خلده ، ويتحرّك فى قلبه من وساوس الحبّ ، وحركات الهوى ، ومعانى الغرام . وألهبت : أشعلت وأوقدت . والجوانح أضلاع الصدر ، الواحدة جانحة . ويدبّ : يمشى ويسير . وأزيز النار : صوت التهابها فى الحطب ونحوه . والمسمع : الأذن .

يصف بعض ما يعانيه من حرق الوجد ، وتباريح الغرام .

وَجَوًى كَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ ،لَمْ يَدَعْ   لِلصَّبْرِ بَيْنَ مَقِيلِهِ مِنْ مَفْزَعِ (٧)
يَأَهْلَ ذَا النَّادِى ! أَلَيْسَ بِكُمْ فَتًى   يَرْثِى لِوَيْلَاتِ الْمَشُوقِ الْمُولَعِ ؟ (٨)
أَبْكِى ،فَيَرْحَمُنِى الْجَمَادُ ،وَلَا أَرَى   خِلاًّ يَرِقُّ إِلَى شَكَاتِى ، أَوْ يَعِى (٩)
فَإِذَا دَعَوْتُ بِصَاحِبٍ لَمْ يَلْتَفِتْ   وَإِذَا لَجَأْتُ إِلَى أَخٍ لَمْ يَنْفَعِ (١٠)
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّنِى أَشْكُو الْهَوَى   وَالذَّنْبُ لِى فِى كُلِّ مَا أَنَا مُدَّعِى (١١)
قَدْ طَالَمَا يَاقَلْبُ قُلْتُ لَكَ احْتَرِسْ   أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَخِيبُ مَنْ لَمْ يَسْمَعِ ؟ (١٢)
أَوْقَعْتَ نَفْسَكَ فِى حَبَائِلِ خُدْعَةٍ   لَاتُسْتَقَالُ ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ أَوْدَعِ (١٣)

---

(٧) الجوى : حرقة (بضم فسكون) الهوى ، وشدّة الوجد(بفتح فسكون) . والأسنّة : جمع سنان (بكسر السين) ، وهو نصل (بفتح فسكون) الرمح ، وحديدته التى يطعن بها . ولم يدع : لم يترك . والمقيل (بفتح فكسر) : موضع القيلولة(بفتح فسكون)، وهى الاستراحة فى وسط النهار إذا اشتدّ الحرّ . والمراد بمقيل الجوى : مستقرّه وموضعه من القلب أو النفس . والمفزع : الملجأ .

والمعنى : أن ما يجده من حرق الهوى ولواعج الشوق كوخز الأسنّة ، وأنه لا سبيل إلى الصبر والسلوان.

(٨) النادى : مجلس القوم ومجتمعهم . ويرثى يرقّ ويتوجّع . والويلات : البلايا والمحن والمشقّات والهموم . والمشوق : المشتاق . والمولع : المغرم ، اسم مفعول من أولع الإنسان بالشىء (بالبناء المفعول) بمعنى أغرم به وتعلّق .

(٩) الخلّ : الصديق . ورقّ له : رحمه وأشفق عليه . ورقّ لشكاته : استمع لشكواه فى رحمة وعطف . ويعى : يحفظ ، أى يحفظ الشكاية ويفهمها ويقبلها .

(١٠) دعوت فلاناً وبفلان : ناديته ، وصحت به .

(١١) الهوى : الحبّ والغرام .

يقول: إن اشتكاءه الهوى من العجائب ،لأنه عرّض نفسه لأسبابه ، وانقاد لدواعيه ، وجرى فى مجاله ؛ فهو المذنب والملوم والمسئول عن كلّ ما يدّعيه ويشتكيه من تبريح الوجد به ، وثقل الهموم عليه ، وغلبة الجوى ، وشدّة الصبابة . . . إلخ .

(١٢) عاد بعد البيت السابق يلقى اللوم على قلبه كما جرت عادة الشعراء ، ويتهمه بأنه أوقعه فى شرك الهوى ، وحبائل الغرام ، ولم يقبل نصحاً ، ولم يستمع لتحذير .

(١٣) الحبائل: جمع حبالة (بكسر الحاء) وهى الشرك(بفتحتين) ونحوه مما يصاد به . والخدعة (بضم

يَا ظَبْيَةَ الْمِقْيَاسِ ! هَذَا مَدْمَعِي فَرِدِي ، وَهَذَا رَوْضُ قَلْبِي فَارْتَعِي (١٤)
إِنْ كَانَ لَا يُرْضِيكِ إِلَّا شِقْوَتِي فَلَقَدْ بَلَغْتِ مُنَاكِ مِنْهَا ، فَاقْنَعِي (١٥)
أَنَا مِنْكِ بَيْنَ صَبَابَةٍ لَا تَنْقَضِي أَيَّامُهَا ، وَغَوَايَةٍ لَمْ تُقْلِعِ (١٦)

فسكون) : اسم من خدعه (من باب قطع) أى ختله وأراد به المكروه من حيث لايعلم ، والمراد بالخدعة (هنا) : فتنة الحبّ ، وبلوى الغرام . ولاتستقال : المراد لاتردّ ، ولايرجى التخلّص منها ، من قولهم : أقال الله عثرته ، إذا رفعه من سقوطه ، وأقلته العثرة ، واستقالنيها . فخذ لنفسك أودع : أى خذلنفسك بأسباب التخلّص من الحبّ ، أودع ، فقد عرفت ما ورّطك فيه الغرام ، وأدركت عواقبه .

(١٤) الظبية : الفتيّة من الغزلان (بكسر فسكون) ، تشبّه بها الفتاة فى جمال الجيد (بكسر الجيم) والعينين والرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنّى . وروضة المقياس : جزيرة فى النيل شرقىّ الجيزة وغربىّ مصر القديمة وفى جنوبيها مقياس النيل المشهور ، وقد أكثر الشاعر من ذكرها والتغنّى بها . والمدمع طرف العين حيث يجتمع الدمع ويسيل . وقد يراد بالمدمع هنا : الدمع نفسه . وردى : أمر من ورد الإنسان وغيره الماء يرده ورودًا ، إذا بلغه ووافاه . وروض قلبي : قلبي الشبيه بالروض ، جمع روضة ، وهى أرض ذات ماء وعشب وخضرة ، أوهى البستان الحسن . وارتعى : أمر من رتعت الماشية وغيرها (من باب منع) أى أكلت وشربت رغدًا فى الريف ، ويقال : خرجنا نلعب ونرتع ، أى ننعم ونلهو .

لمّا شبّه حبيبته بالظبية جعل مدمعه مورد ماء ، وقلبه روضًا ، وطلب إليها الورود والرتوع . وفى البيت إشارة إلى بعض ما يجده من آثار الهوى كالبكاء ، وفيه أنها تملّكت قلبه ، واستقرّ فى فؤاده هواها ، وفيه معنى الاستعطاف والكلف والصبابة والهيام .

(١٥) الشقوة (بكسر الشين وفتحها) : اسم من الشقاء ، وهو ضد السعادة . والمنى (بضم ففتح) : الأمانى والآمال ، الواحدة منية (بضم فسكون) . ومنها : من شقوتى ، والمراد ما يجده من الشقاء بسبب صدود الحبيبة وإعراضها .

يقول لها : إن كان لا يرضيك إلا أن أكون شقيًّا بصدودك وإعراضك ، فقد بلغت الغاية من ذلك ، فاقنعى بما بلغته ، وكفىّ عما يزيد شقائى .

(١٦) الصبابة : رقّة الهوى ، وحرارة الشوق . والغواية : الضلال والانهماك فى الجهل ، والمراد بها هنا فتنة الحبّ ، وبلوى الغرام . وتقلع : تنجلى وتنكشف وتزول .

يشكو ما يعانيه من دوام الصبابة ، وفتنة الحبّ ، وبلوى الغرام .

فَثِقِي بِمَا تُمْلِيهِ أَلْسِنَةُ الْهَوَى ... وَهْيَ الدُّمُوعُ ، فَحَقُّهَا لَمْ يُدْفَعِ (١٧)

لَا تَحْسَبِي قَوْلِي خَدِيعَةَ مَاكِرٍ ... إِنَّ الْوَفِيَّ بِعَهْـدِهِ لَمْ يَخْدَعِ (١٨)

إِنِّي لَأَقْنَعُ مِنْ هَوَاكِ بِنَظْرَةٍ ... وَأَعُـدُّهَا صِلَةً إِذَا لَمْ تَمْنَعِي (١٩)

هَذِي مُنَاىَ ، وَحَبَّـذَا لَوْ نِلْتُهَا ... عَنْ طِيبِ نَفْسٍ ، فَهْيَ أَكْبَرُ مُقْنِعِ (٢٠)

---

(١٧) الهوى: الحب ، وقد جعل الدموع ألسنة معبّرة عنه ، ودليلا عليه . وحقّها : صدقها ، أودلالتها الحقّة .

يحضّها على أن تثق بصدق حبّه لها ، وتطمئنّ إلى أنه مستهام بها صبّ ، ويستشهد الدموع ، فهى ألسنة الهوى ، وأثر من آثار الصبابة والهيام .

ومعنى « حقّها لم يدفع » أن دلالة الدموع على الهوى حقّ بيّن واضح ، لا يدفع ، ولا يجحد ، ولا ينكر .

(١٨) لا تحسبى (بفتح السين وكسرها) : لا تظنّى . والخديعة : اسم من خدعه (من باب قطع) ، أى ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلم .

ينفى عن نفسه زخرف القول والخديعة والمكر ، ويشير إلى أنه وفى بعهده لها ، وأقام على حبّها ، وأن الوفاء والخديعة لا يتفقان ولا يجتمعان . و « لم » فى هذا البيت والذى قبله فى موضع « لا » وإنّما اضطرّه إلى ذلك كسر حرف الروىّ .

(١٩) يقول : إنه يكتفى من حبها له بأن تنظر إليه نظرة عطف ومودّة ، ويعدّ هذه النظرة صلة منها له ، وإقبالا عليه .

وفى البيت إشارة إلى ما يعانيه من تمنّعها وصدودها وإعراضها ، وبخلها عليه حتى بالنظر .

(٢٠) هذى: يشير إلى النظرة التى تمنّاها فى البيت السابق . والمنى (بضم ففتح) : جمع المنية (بضم فسكون) (كغرفة وغرف) ، وهى مايتمنّاه الإنسان ، ويتوق إليه ، ويرغب فيه . وأكبر مقنع : أعظم مايقنعه ويرضيه ، فهو لايطمع فى أكثر من هذه النظرة ، اسم فاعل من أقنعه الشىء ، أى كفاه وأرضاه أوهو « مقنع » (كذهب) ، مصدر ميمى بمعنى القناعة والرضا ، وهذا من قولهم : « فلان لنا مقنع » (بفتح فسكون ففتح) أى رضا ، يقنع بقوله وقضائه .

يقول : إنه لا يتمنى أكثر من نظرة تهبها له الحبيبة عن طيب نفس منها ورضا وإقبال .

وقال :

هَلْ مِنْ فَتًى يَنْشُدُ قَلْبِى مَعِى بَيْنَ خُدُورِ الْعِينِ بِالْأَجْرَعِ ؟(١)
كَانَ مَعِى ، ثُمَّ دَعَاهُ الْهَوَى فَمَرَّ بِالْحَىِّ ، ولم يَرْجِعِ(٢)
فَهَلْ إِذَا نَادَيْتُهُ بِاسْمِهِ يُفِيقُ مِنْ سَكْرَتِهِ أَوْ يَعِى ؟(٣)
هَيْهَاتَ يَلْقَى رَشَدًا بَعْدَ مَا أَغْــوَاهُ لَحْظُ الرَّشَإِ الْأَتْلَعِ(٤)

(١) ينشد قلبى (من باب نصر) : يطلبه ، ويبحث عنه ، من قولهم : نشدت الضالّة ، إذا طلبتها ، وعرّفتها ، وناديت ، وسألت عنها . والخدور : جمع خدر ، وهو ستر (بكسر فسكون فيهما) يمدّ للجارية فى ناحية البيت ، وقد يطلق على كل ما واراك من بيت ونحوه . والعين (بكسر العين وسكون الياء) جمع عيناء ، صفة من العين (بفتحتين) وهو عظم سواد العين وسعتها . والأجرع : أرض وملية طيّبة المنبت والهواء ، لا وعوثة فيها ، ولا وخامة .

يتمنى أن يجد من يعينه على نشدان قلبه بين منازل الحسان الجميلات العيون ، فى ذلك المكان الخصيب الممرع الطيّب .

(٢) دعاه : ناداه . والهوى : الحبّ والفتنة والغرام . والحىّ فى الأصل : البطن من بطون العرب ، وهو أصغر من القبيلة ، والمراد به هنا : ديار أولئك العين الحسان اللاتى يتغزّل الشاعر بهنّ .

(٣) الضمير المنصوب فى « ناديته » يعود على القلب فى البيت الأول . ويفيق : يستفيق ويصحو وينتبه . والمراد بالسكرة هنا : ماغشيه ودلّهه ، واستولى عليه من العشق والصبابة والهيام . ويعى : المراد يعى النداء ، ويفطن له ، من قولهم : وعيت الحديث وعياً (من باب وعد) أى حفظته وتدبّرته . هذا ، والمعروف أن « هل » لاتدخل على الشرط .

(٤) هيهات : كلمة تبعيد ، وهى مبنيّة على الفتح . وفاعل يلقى ضمير القلب . والرشد : الهدى والصواب ، وضده الغىّ والضلال . وأغواه : أضلّه وفتنه . واللحظ : النظر بمؤخر العين ، مصدر لحظته ولحظت إليه (من باب نفع) والمراد باللحظ هنا : النظر الفاتن الساحر ، أو العيون الجميلة الساحرة . والرشأ (بفتحتين) : الظبى إذا قوى واشتدّ ، ومشى مع أمّه ؛ وقد جرى الشعراء على تشبيه الحسان من النساء بالظباء والغزلان ، فى جمال العيون واتساعها ، وملاحة الجيد (بكسر الجيم وسكون الياء) والرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنّى . والأتلع : صفة من التلع (بفتحتين) وهو حسن طول العنق .

يستبعد أن يعود قلبه إلى الرشاد والسلوان ، بعد أن افتتن بمحاسن الحبيب .

فَيَا دُمُوعَ الْقَطْرِ سِيلِى دَماً ... وَيَا بَنَاتِ الْأَيْكِ نُوحِى مَعِى(٥)

وَأَنْتِ يَا نَسْمَةَ وَادِى الْغَضَى ... مُرِّى بِرَيَّاكِ عَلَى مَرْبَعِى(٦)

وَأَنْتِ يَا عُصْفُورَةَ الْمُنْحَنَى ... بِاللهِ غَنِّى طَرَباً ، وَاسْجَعِى(٧)

وَأَنْتِ يَا عَيْنُ إِذَا لَمْ تَفِى ... بِذِمَّةِ الدَّمْعِ ، فَلاَ تَهْجَعِى(٨)

صَبَابَةٌ أَغْرَتْ عَلَىَّ الْأَسَى ! ... وَدَلَّتِ السُّهْدَ عَلَى مَضْجَعِى !(٩)

---

(٥) القطر : المطر . والأيك : جمع أيكة (بفتح فسكون) وهى الشجر الكثير الملتف . وبنات الأيك : الطيور . ونوحى : أمر من قولهم : ناحت المرأة على الميت (من باب قال) .

لما يئس من استفاقة قلبه ، وعودته إلى الرشد ، وإقلاعه عن شواغل الحب والغرام – تمنى أن ترثى الطبيعة لحاله ، وتشاركه فى أحزانه ، فدعا السماء أن تمطر دماً ، ودعا بنات الأيك أن تقاسمه همومه ، فتنوح معه .

(٦) النسمة (بفتحتين) : النسيم . وهى الريح الطيبة اللينة المعتدلة اللطيفة. والغضى : نوع من الشجر يكثر بنجد ، وقد اشتهر خشبه بالقوة والصلابة ، كما اشتهر جمره وناره بشدة الاشتعال ، وطول التوقد. والشاعر يشير بوادى الغضى إلى منزل الحب وديار الحبيبة ، أو المراد الديار المصرية ، بدليل ما يأتى فى آخر القصيدة . والريا (بفتح الراء وتشديد الياء) الريح الطيبة ، أو طيب الرائحة . ومربعى : منزلى ومكان إقامتى .

يتمنى أن تمر بمربعه نسمة من منزل الحب ، فيشم رياها ، لأن العاشق والمحزون والعليل ونحوهم يجدون راحة فى تنسم النسيم واستنشاقه ، وبخاصة إذا هب من حيث يحبون .

(٧) المنحنى : منعرج الوادى (بصيغة اسم المفعول فيهما) حيث ينعطف ويميل . والطرب هنا : خفة تصيب من يشتد به الحزن والحنين. واسجعى : أمر من سجعت الحمامة (من باب قطع) أى هدرت وردّدت صوتها على وجه واحد .

(٨) ذمة الدمع : حقه ، والمراد ما يجب أن يكون عليه من غزارة وتتابع . ولا تهجعى: لا تنامى ، والمراد الدعاء عليها بعدم الهجوع .

(٩) الصبابة : رقة الهوى ، وحرارة الشوق. وأغرت علىّ الأسى : جعلتنى محزوناً كثير الهم والكآبة ، والمفهوم من المعجمات أن الفعل « أغرى » يتعدّى إلى المفعول الثانى بالباء لا بعلى ، يقال : أغريت الكلب بالصيد ، أى أولعته به ، ولعل الشاعر ضمنه معنى « حضن » ونحوه فعداه بعلى . والسهد : الأرق والسهر (بفتحتين فيهما) . والمضجع (كمذهب) : مكان الضجوع ، وهو النوم على الجنب .

والمعنى : أن ما يكابده ويعانيه من الصبابة والشوق والهيام قد جعله محزوناً دائم الهم ، كثير الأرق والسهاد .

وَيْلَاهُ مِنْ نَارِ الْهَوَى ! إِنَّهَا ... لَوْلَا دُمُوعِي أَحْرَقَتْ أَضْلُعِي (١٠)

أَبِيتُ أَرْعَى النَّجْمَ فِي سُدْفَةٍ ... ضَلَّ بِهَا الصُّبْحُ ، فَلَمْ يَطْلُعِ (١١)

لَا أَهْتَدِي فِيهَا إِلَى حِيلَةٍ ... تَقِي حَيَاتِي مِنْ يَدَيْ مَصْرَعِي (١٢)

طَوْرًا أُدَارِي لَوْعَتِي بِالْمُنَى ... وَتَارَةً يَغْلِبُنِي مَدْمَعِي (١٣)

فَهَلْ إِلَى الْأَشْوَاقِ مِنْ غَايَةٍ ؟ ... أَمْ هَلْ إِلَى الْأَوْطَانِ مِنْ مَرْجِعِ ؟ (١٤)

لَا تَيْأَسْ يا قَلْبُ عَلَى مَا مَضَى ... لَا بُدَّ لِلْمِحْنَةِ مِنْ مَقْطَعِ (١٥)

---

(١٠) ويل : كلمة عذاب . ونار الهوى: المراد لواعج الحبّ، وتباريح الشوق. والأضلع: جمع الضلع (بكسر ففتح ، أو بكسر فسكون) .

يتوجّع من حرق الوجد ، ولواعج الشوق ، وتباريح الغرام ، ويقول : إنها كانت جديرة بأن تحرق ضلوعه لولا أن دموعه تخفّفها ، وتدفع شيئاً من ضررها . ولعلّه يشير إلى أثر البكاء فى تخفيف الحزن ، فالمحزون يجد فى البكاء بعض الراحة .

(١١) أرعى النجم : أراقبه وأنتظر مغيبه . والسدفة : الظلمة . وضلّ بها الصبح : ضلّ بسبب السدفة عن طريقه ، ولم يهتد إلى مطلعه . وفى هذا حسن تعليل لطول الليل .

يشكو ما يقاسيه من الأرق والسهاد ، وطول الليل ، وتكاثر الهموم .

(١٢) فيها : أى فى السدفة التى اشتكى منها فى البيت السابق: وتقى حياتى: تصونها وتحفظها وتدفع عنها السوء. والمصرع : مصدر ميمىّ بمعنى الصرع (بفتح فسكون) وهو الطرح على الأرض (وبابه قطع) ، والمراد به هنا : الموت والهلاك .

يقول : إنه لا يهتدى فى هذه الظلمة إلى حيلة تحفظ حياته ، وتدفع عنه ما يحيط به ويتهدّده من أسباب الهلاك .

(١٣) طوراً : تارة . وأدارى : ألاين وألاطف ، والمراد أخفّف . واللوعة : ما يجده المحبّ والمشوق والحزين والمهموم وأمثالهم من حرقة (بضم فسكون) ووجع وألم . والمنى : الأمانى والآمال . والمدمع (كمذهب) : مجتمع الدمع ومسيله من العين ، والمراد به هنا : الدمع نفسه .

والشاعر يصوّر فى هذا البيت ما كان يتناوبه فى منفاه من عوامل الرجاء واليأس .

(١٤) المرجع (بفتح فسكون فكسر) : مصدر ميمىّ بمعنى الرجوع .

يتمنّى أن تنتهى أشواقه إلى غاية تقف عندها ، وأن يعود إلى وطنه .

(١٥) لاتأس: لاتحزن. والمحنة : البلوى . والمقطع : مصدر ميمىّ بمعنى القطع (بفتح فسكون). يصبّر نفسه ويسلّيها بما يرجوه من ذهاب هذه البلوى ، وانتهاء أمرها .

وَقَالَ :

فُؤَادٌ بِأَقْمَارِ الْأَكِلَّةِ مُولَعُ ... وَعَيْنٌ عَلَى إِثْرِ التَّفَرُّقِ تَدْمَعُ(١)
وَشَوْقٌ كَنَصْلِ السَّيْفِ ،لَوْشِمْتُ حَدَّهُ ... عَلَى بَطَلٍ لَانْقَدَّ مِنْهُ الْمُقَنَّعُ(٢)
أُحَاوِلُ كِتْمَانَ الْهَوَى ، فَتَشِي بِهِ ... غُرُوبٌ مِنَ الْعَيْنِ الْقَرِيحَةِ تَهْمَعُ(٣)
وَمَا الْحُبُّ إِلَّا نَفْثَةٌ بَابِلِيَّةٌ ... يَكَادُ الصَّفَا مِنْ مَسِّهَا يَتَصَدَّعُ(٤)

(١) أقمار : جمع قمر . والأكلّة : جمع على غير قياس للإكليل (بكسر فسكون فكسر) ، وهومنزل من منازل القمر . ومولع : مغرى مغرم ، اسم مفعول من أولع بالشيء (بالبناء للمجهول) أى أغرم به وعلق. وعلى إثر التفرّق : بعد الفراق وعقبه .

يقول : إن قلبه مغرم بحسان جميلات كالأقمار فى بروجها ومنازلها ، وإن فراقهن قد أثر فى نفسه ، وأسال عبراته .

(٢) نصل السيف : حديدته القاطعة . وشمت السيف (من باب باع) : سللته ، أى انتزعته وأخرجته من غمده . وحدّ السيف ونحوه : نهايته المسنونة القاطعة . والبطل : الشجاع . وانقدّ : انشقّ وانقطع . والمقنّع : المتغطّى ، والمراد الرأس المغطّى بالمغفر والخوذة ونحوهما .

يقول : إن شوقه إلى هؤلاء الحسان الشبيهات بالأقمار شديد مبرّح ، كالسيف القاطع البتّار الذى لو سللته على بطل شجاع لقدّ رأسه ، ومزّق ما يستره ويقيه من الحديد .

(٣) أحاول : أروم وأطلب وأعالج ، وكلّ من رام أمراً بالحيلة فقد حاوله . والهوى : الحبّ والغرام . ووشى به (من باب وعد) : نمّ عليه وأظهره . والغروب : الدموع حين تخرج من العين، المفرد غرب (بفتح فسكون) . وقريحة : مجروحة ، والكلام الفصيح عين قريح ، لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكّر والمؤنث . وتهمع : تسيل، (وبابه قطع وخضع) . وجملة « تهمع » نعت لغروب .

يقول : إنه كلّما حاول ستر الحبّ ، وإخفاء الوجد والغرام أظهرته دموع غزيرة تنسكب وتنصبّ من عينين قرّحهما كثرة البكاء .

(٤) النفثة : اسم مرة من النفث (بفتح فسكون) وهوشبه نفخ لطيف بلا ريق ، يكون من الراقى والساحر . وفى القرآن الكريم : « . . . ومن شرّ النفّاثات فى العقد» وهن السواحر حين ينفثن فى العقد بلا ريق . وبابليّة : منسوبة إلى « بابل » ،وهى مدينة من أعظم مدن العالم القديم ،على الجانب الأيسر من نهر الفرات ، ولاتزال بعض آثارها ماثلة بالقرب من الحلّة ، وقد اشتهرت فى الأزمان القديمة بالثروة والحضارة ، وإليها ينسب السحر والخمر . والصفا : جمع صفاة (كحصاة وحصى) وهى صخرة عريضة ملساء، أو هى الحجر الصلد (بفتح فسكون) الضخم الذى لاينبت شيئاً. ويتصدّع : ينشقّ ويتكسّر .

يشبّه الحبّ بالسحر البابلىّ المشهور ، ويصوّر فى الشطر الثانى ماله من أثر بالغ شديد .

خَلِيلَىَّ ! هَلْ بَعْدَ الصَّبَابَةِ سَلْوَةٌ ؟ ... وَهَلْ لِشَّبَابِ فَاتَ بِالْأَمْسِ مَرْجِعُ ؟(٥)

أَبِيتُ أُمَنِّى النَّفْسَ طَوْرًا فَتَرْعَوِى ... وَأَتْلُو عَلَيْهَا الْيَأْسَ طَوْرًا فَتَجْزَعُ(٦)

وَمَا ذِكْرُ رَيْعَانِ الصِّبَا غَيْرُ حَسْرَةٍ ... تَذِلُّ لَهَا نَفْسُ الْعَزِيزِ وَتَخْضَعُ(٧)

فَلَا رَحِمَ اللّٰهُ الْمَشِيبَ وَعَصْرَهُ ... وَإِنْ كَانَ فِى أَثْنَائِهِ الْحِلْمُ أَجْمَعُ(٨)

---

(٥) خليلىّ : منادى مضاف لياء المتكلم ، مثنى خليل ، وهو الصديق ، صفة من الخلّة (بضم الخاء وتشديد اللام المفتوحة) وهى الصداقة المختصّة ، لاخلل فيها . ونداء الصديقين ، ومخاطبة الرفيقين من مزايا لغة الشعر ، كما فى قول المتنبى :

خليلىّ ! إنى لاأرى غير شاعر * فلِمْ منهم الدعوى ، ومنى القصائد

فلا تعجبا أن السيوف كثيرة * ولكنّ سيف الدولة اليوم واحد

والصبابة : رقّة الهوى ، وحرارة الشوق . والسلوة : اسم مرّة من سلاه وسلا عنه ، أى نسيه ، وصبر على غيابه وفراقه . ومرجع : مصدر ميمىّ بمعنى الرجوع . والاستفهام فى شطرى البيت معناه النفى ، وقد يكون للتمنّى .

والمعنى : أن سلوان الصبّ المحبّ العاشق غير ممكن ، كما لا يمكن رجوع الشباب بعد فواته . أو المعنى : أنه يتمنّى أن يسلو ، فيخلص من لواعج الحبّ وآلامه ، وأن يعود إليه ما فات من لذّة الشباب ومرح الصبا .

(٦) منّاه الشىء وبالشىء تمنية : جعله له أمنيّة ، ومنه قوله تعالى : « ولأضلّنّهم ولأمنّينّهم » . وطوراً : تارة . وترعوى : تكفّ وتنصرف عمّا هى فيه من همّ وضجر . وأتلو : أقرأ . واليأس : القنوط وانقطاع الأمل . وتجزع : يذهب صبرها ، من الجزع (بفتحتين) وهو نقيض الصبر .

يصف ما يعتوره ويتداوله ويتناوبه من رجاء يهدئه ويطمئنه ، ويأس يجزعه ويزعجه .

(٧) ريعان كلّ شىء : أوّله وأفضله . والصبا (بكسر الصاد) : الصغر ، والمراد بريعان الصبا : زمن الشباب . والحسرة : أشدّ التلهف على الشىء الفائت . وتذلّ : تخضع وتضعف ، من الذل (بضم الذالّ وتشديد اللام) وهو نقيض العزّ . والعزيز : القوىّ المنيع .

والمعنى : أن تذكّر أيام الصبا وأحوال الشباب يعقب النفس غمّا وهمّا ، ويورثها حسرة شديدة تذلها ولو كانت عزيزة مستعصية قويّة .

(٨) المشيب : الشيب . والعصر : الدهر والزمان . وأثناء الشىء : تضاعيفه ، واحدها ثنى (بكسر فسكون) . والحلم : الأناة والعقل .

يتبرّم بالمشيب وعصره ، ويدعو عليه بأن تجانبه رحمة الله ، ولو انطوى على الحلم كلّه والأناة وسعة العقل .

نَهَارُ مَشِيبٍ سَاءَنِي وَهْوَ أَبْيَضٌ وَلَيْلُ شَبَابٍ سَرَّنِي وَهْوَ أَسْفَعُ(٩)
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ شَابَ فُؤَادُهُ وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ لِلْبَشَاشَةِ مَوْضِعُ(١٠)
وَأَيُّ نَعِيمٍ فِي مَشِيبٍ وَرَاءَهُ هُمُومٌ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْقَلْبِ يَفْزَعُ؟(١١)
لِيَبْكِ الصِّبَا قَلْبِي وَطَرْفِي كِلَاهُمَا وَقَلَّ لَهُ مِنِّي نَجِيعٌ وَأَدْمُعُ(١٢)

---

(٩) ساءه يسوءه : حزنه ، وفعل به مايكره . وأسفع : أسود ، صفة من السفعة (بضم فسكون) وهي سواد أشرب حمرة .

شبّه بياض المشيب ببياض النهار ، وسواد شعر الإنسان زمن الشباب بسواد الليل ، وقال: إن نهار الشيب ساءه وحزنه ، وليل الشباب سرّه وأفرحه ، على الرغم من أن النفس تستريح وتطمئنّ عادة لرؤية الشيء الأبيض ، وتبتئس وتضجر لرؤية الشيء الأسود ، وهي في النهار تستشعر المرح والسرور ، وفي الليل تجد الوحشة والكآبة .

(١٠) كنى بشيب الفؤاد عن الضعف وسوء الحال ، والانكسار من الحزن . وفيه : في المرء ، أو في فؤاده . والبشاشة : طلاقة الوجه والفرح .

يشير إلى ما يعقب الشيب أو يصاحبه عادة من الضعف والكآبة ، واستدبار متع العيش ولذات الحياة .

(١١) النعيم : التنعّم والتمتّع والرفاهية والخفض والدعة ، واتّساع العيش ولينه . والهموم : جمع همّ وهو الحزن . ويفزع : يخاف ، من الفــزع (بفتحتين) وهو الذعر والفرق والخوف . والاستفهام في أول البيت للإنكار .

ينكر أن يكون في المشيب نعيم ؛ لأن المشيب يجلب إلى النفس هموماً كثيرة ، ويعقب أحزاناً متنوّعة ، يفزع القلب من مجرّد مرورها به فالأشيب في همّ وبؤس ، والنعيم والبؤس لا يجتمعان .

(١٢) بكاه ، وبكى عليه بمعنى. والصبا (بكسر الصاد) : الصغر ، والمراد زمن الشباب واستقبال الحياة . والطرف (بفتح فسكون) : العين . والنجيع: الدم ، أودم الجوف خاصّة ، أو الدم المصبوب، أوما كان منه إلى السواد . وقلبي فاعل يبكي ، والصبا مفعوله .

يقول : ليبك قلبي وطرفي كلاهما على الصبا ، ثم صوّر بكاء القلب بما يحرقه الحزن من نجيعه ودمه ، وقال إن ما أبذله بسبب الحسرة على الشباب من دمي ودموعي يبدو قليلا على كثرته إذا ووزن بمصيبتي . فهو يستحثّ قلبه وعينيه على الحزن والبكاء ، ويستقلّ ما يبذله من دمه ودموعه لعظم المفقود ، وشدّة الفجيعة .

زَمَانٌ تَوَلَّى غَيْرَ أَعْقَابِ ذُكْرَةٍ إِذَا خَطَرَتْ كَادَتْ لَهَا النَّفْسُ تُنْزَعُ (١٣)

وَقَالَ فِي الْغَزَلِ :

كَتَمْتُ الْهَوَى خَوْفَ إِفْشَائِهِ فَأَلْهَبَ نَارَ الْغَضَى فِي ضُلُوعِي (١)

فَلَمَّا خَشِيتُ عَلَى مُهْجَتِي أَذَعْتُ الْهَوَى بِلِسَانِ الدُّمُوعِ (٢)

وَقَالَ :

أَلَا بِأَبِي مَنْ حُسْنُهُ وَحَدِيثُهُ إِذَا مَا الْتَقَيْنَا لَذَّةُ الْعَيْنِ وَالسَّمْعِ (١)

---

(١٣) تولّى : أدبر وأعرض وذهب. وأعقاب الشيء : أواخره ونهاياته وعواقبه، أوما تولّد عنه ونشأ، جمع عقب (بفتح فكسر) ، أوعقب (بفتح فسكون) ، وكلّ شيء جاء بعد شيء وخلفه فهو عقبه أو هي إعقاب (بكسر الهمزة) مصدر أعقب . يقال أعقبته سقماً ونداماً وغماً ، أى أورثته إيّاه ، ومنه قوله تعالى: « فأعقبهم نفاقاً » أى أورثهم بخلهم نفاقاً . والمعنى هنا أن ذلك الزمان تولّى وذهب ، غير أنه أورثه ذكرة . والذكرة (بضم فسكون) : نقيض النسيان ، كالذكر والذكرى (بكسر فسكون فيهما) . وخطر الشيء ببالى وعلى بالى: وقع فى خلدى (بفتحتين) وتوهّمته . وكاد يفعل كذا: قارب الفعل ولم يفعل . ولها : من أجلها ، وبسببها . وتنزع : تنتزع وتقتلع (بالبناء للمجهول فيهما) وتزهق .

يتحسّر على فوات زمن الصبا والشباب ، ويقول: إنه لم يبق من ذلك العهد غير بقايا ذكريات تكاد تهلكه إذا خطرت بباله .

(١) الهوى : الحبّ والغرام . والإفشاء : مصدر أفشيت السرّ ونحوه ، أى أظهرته . وألهبت النار : أوقدتها وأضرمتها وأشعلتها . والغضى : نوع من الشجر خشبه من أصلب الخشب ، ولهذا يكون فى فحمه صلابة ، وفى ناره شدّة وقوّة .

شبّه تباريح الوجد ولواعج الحبّ وحرق الهوى بنار الغضى تلتهب فى ضلوعه .

(٢) المهجة : الروح والنفس ، ولا بقاء للنفس بعد ماتراق مهجتها . وأذعت السرّ ونحوه : أفشيته وأظهرته .

ومعنى البيتين: أنه كان حريصاً على إخفاء حبّه، فكتمه زماناً، ثم برّح به الحبّ، واشتدّ عليه الوجد ، حتى خشى التلف ، وخاف الهلاك ؛ فنفّس كربته بالبكاء ، فدلّت الدموع على أمره ، وأظهرت ما كان يخفيه .

(١) ألا : حرف استفتاح ، والغرض منه تنبيه نفس السامع والقارئ على مايأتى بعده من الكلام . بأبى: أفديه بأبى، أى المتغزّل به . وفى البيت لفّ ونشر مرتّب : فحسن الحبيب لذّة العين ، وحديثه لذّة السمع .

رَأَى مُقْلَتِي تَرْعَى رِيَاضَ جَمَالِهِ ... فَعَاقَبَهَا حَدَّيْنِ : بِالسُّهْدِ وَالدَّمْعِ (٢)

وَقَال فِى العِتَاب :

أَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ تَسْمَعَا ؟ ... فَأَشْكُو إِلَيْكَ نَمُوماً سَعَى (١)

أَطَاعَ لَهُ الْمَاءُ حَتَّى اسْتَقَى ... وَأَمْكَنَهُ الرِّعْىُ حَتَّى رَعَى (٢)

---

(٢) المقلة : شحمة العين التى تجمع بياضها وسوادها . وترعى : من قولهم : رعت الماشية الكلأ ، أومن قولهم : رعيت النجوم ، إذا تأمّلتها ، وأطلت النظر إليها . ورياض جماله : جماله الشبيه بالرياض جمع روضة ، وهى أرض معجبة بالبقل والعشب والماء والزهر . وعاقبه بذنبه : آخذه وجازاه . وعاقبها حدّين : عاقبها عقابين ، مثنّى حدّ (بفتح الحاء وتشديد الدال) وهو فى الأصل المنع ، ثم أطلق على العقوبة ؛ لأنها تمنع عن الإقدام والمعاودة . وحدّين : مفعول مطلق لعاقب ، أو هو منصوب على نزع الخافض ، والأصل عاقبها بحدين ، والسهد والدمع متعلّقان بعاقب على الأول ، وبدل من حدّين على الثانى . والسهد : الأرق والسهر (بفتحتين فيهما) .

يقول : إن المحبوب رأى عينيّ ترعيان رياض جماله ، فعاقبهما عقوبتين ، هما السهر والدمع .

والمعنى : أنه لمّا رأى هذا الإنسان الجميل هويه وأحبّه واشتغل به قلبه ، وظهر أثر هذا الاشتغال فى أرقه وبكائه .

(١) النموم : النمّام ، صيغة مبالغة من النميمة ، وهى تزيين الكلام بالكذب ، والتوريش والإغراء ، والسعى بين الناس بالفتنة والتفرقة والفساد . وسعى : من السعاية (بكسر السين) وهى كالنميمة والوشاية (بكسر الواو) . والاستفهام فى أول البيت للتقرير .

يقول لمن يعاتبه ويلومه : من العدل أن تستمع لقولى ، فأشكو إليك ذلك النمّام الذى وشى بى عندك ، وسعى بالتفرقة والفساد بينى وبينك .

(٢) تقول العرب : طاع لفلان المراد ، وأطاع ، أى انقاد له ، وأتاه طائعاً سهلا . وطاع الكلأ للماشية وأطاع ، إذا اتسع وأمكن رعيه حيث شاءت . واستقى من النهر والبئر ونحوهما : أخذ من مائهما . والرعى (بكسر الراء) : الكلأ والمـرعى الذى ترعاه الدوابّ . وأمكنه الأمر : سهل عليه وتيسّر . ومعنى قولهم « أمكننى الأمر » : أمكننى من نفسه . ورعت الماشية الكلأ : رتعت فيه وأكلت .

يقول : إن الماء قد انقاد وقرب من ذلك النمّام الواشى حتى استقى منه ، وسهل عليه المرعى وتيسّر له ، حتى رتع فيه ورعى .

والبيت كناية عن أن ذلك النمّام قد وجد فى المعاتب (بصيغة اسم المفعول) استعداداً لسماع النميمة ، وقبول الوشاية ، وتصديقها والتأثّر بها . ومن الجائز أن يكون المستعمل هنا الفعل الثلاثى « طاع » والهمزة قبله للاستفهام المراد به الإنكار واللوم .

أَتَاكَ فَأَغْشَيْتَهُ مَنْزِلاً رَحِيبــاً ، وَأَرْعَيْتَهُ مِسْمَعَا[٣]
فَأَبْدَعَ مَا شَاءَ فِى فِرْيَةٍ تَأَنَّقَ فِى صُنْعِهَا وَادَّعَى[٤]
صَنَاعُ اللِّسَانِ ، خَلُوبُ الْبَيَا نِ ، يَخْلُقُ مِنْ ضِحْكِهِ أَدْمُعَا[٥]
حَرِيصٌ عَلَى الشَّرِّ ، لاَ يَنْثَنِى عَنِ الْقَصْدِ مَا لَمْ يَجِدْ مَنْزَعَا[٦]

---

(٣) أغشيته منزلاً : أنزلته به ، وجعلت المنزل يغشاه ويحويه . ورحيباً . واسعاً . وأرعيته مسمعاً : استمعت إليه وأصغيت وأنصتّ . والمسمع (بكسر فسكون ففتح) : الأذن .

يلومه على الترحيب بالنموم ، والاستماع لنميمته ، والتأثر بسعايته .

(٤) أبدعت الشيء : اخترعته لاعلى مثال . والفرية : اسم من افترى عليه كذباً ، أى اختلقه . وتأنّق فى الأمر : أجاده ، وأتقنه وأحكمه . وادّعى كذا : زعم أنه له ، حقّاً أو باطلا .

يصف قدرة هذا النموم على افتراء الكذب وتزيينه ، وابتداع أساليبه ، وإحكام الوشاية : وإتقان وسائلها ، وصنع الدعاوى الباطلة وتزويرها .

(٥) صناع اللسان : لبق ماهر فصيح بليغ حاذق فى صناعة الكلام . وخلوب : خدّاع . والبيان : الفصاحة واللسن (بفتح اللام والسين) والمنطق الفصيح ، والكلام الواضح البليغ .

وفى الشطر الثانى تصوير لمقدرته على الخداع والخلابة والتلوّن ، فهو يعمد إلى ما يثير الضحك ، فيصوّره باعثاً للبكاء ، أو هو لإمعانه فى الخداع يظهر البكاء ، ويرسل الدموع الكاذبة فى حين أنه يضحك من محدّثه ويغشّه ، ليحمله على التأثر والتصديق .

وصفه فى الشطر الأول بخلابة القول ، وفى الشطر الثانى بالقدرة على التشكّل والتلوّن ، فهو يخدع محدّثه بكذب القول ، وكذب المظهر .

(٦) لاينثنى : لايكفّ ، ولا ينصرف . والمراد بالقصد هنا : مايقصده من الشرّ والسعاية والنميمة . ومنزع (وزان مجلس) : اسم مكان من نزع فلان عن الأمر ، أى كفّ عنه وانتهى وانثنى وامتنع وانصرف (وبابه جلس) ، أو هو منزع (على وزن مذهب) ، مصدر ميمىّ بمعنى النزوع ، أو هو منزع (كمنبر) بمعنى السهم البعيد المرمى ، أو بمعنى الرجل الشديد النزع (بفتح فسكون) .

يقول : إنه حريص على الشرّ ، لاينصرف عما يقصده منه إلا إذا وجد منصرفاً عنه ومتحوّلا ، والمراد : أنه ليس له من نفسه أو من ضميره مايصرفه عن الشرّ ويكفّه عن السعاية والنميمة ، وإنما ينصرف ويكفّ عن هذا بالقوّة الباطشة ، والسلطان القاهر .

يَسِيرُ مَعَ الرِّفْقِ ، حَتَّى إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ فُرْصَةٍ أَوْضَعَا(٧)
وَمَا كَانَ لَوْلَا خِلَاجُ الظُّنُونِ لِيَرْغَبَ فِي الْقَوْلِ ، أَوْ يَطْمَعَا(٨)
وَلَا وَحِفَاظِكَ ، وَهْوَ الْيَمِيـ نُ مَا حُلْتُ عَنْ عَهْدِكُمْ إِصْبَعَا(٩)
وَلَكِنَّهَا نَزَغَاتُ الْوُشَاةِ أَصَابَتْ هَوًى ، فَلَوَتْ أَخْدَعَا(١٠)

---

(٧) الرفق : ضدّ العنف . وأوضع : أسرع .

والمعنى : أنه يسير فى سعايته برفق ولين وتؤدة ولطف ، حتى إذا أمكنته الفرصة ، ووجد من الموشىّ إليه استماعاً لقوله ، وتأثراً به ، وتصديقاً له ، أوضع فى الفتنة ، وأمعن فى الشرّ ، وأسرع إلى ما يقصده من التفرقة والوشاية والإفساد .

(٨) خلاج الظنون : اضطرابها وتحرّكها فى نفس الإنسان ، من قولهم : خالج قلبى أمر ، أى نازعنى منه فكر ، وتخالجنى هم ، وتخالجتنى الهموم : تجاذبتنى ، همّ فى ناحية ، وهمّ فى أخرى . والمراد بالظنون : الظنون السيئة ، وترجيح جانب الشرّ فى المظنون به . ورغبت فى الشىء : أردته ، وهو ضد رغبت عنه .

والمعنى : أن مخالجة الظنون السيئة للمعاتب (بصيغة اسم المفعول) وميله إلى اتّهام الموشىّ به قد يسّر لهذا الواشى سبيل الوشاية ، ورغّبه فى النميمة والسعاية ، وأطمعه فى الإفساد والتفرقة .

(٩) وحفاظك : الواو للقسم (بفتحتين) ، والحفاظ : الدفاع عن الحرم (بضم ففتح) والمحافظة عليها . وحلت : تحوّلت وانحرفت . والعهد : الحفاظ ورعاية الحرمة (بضم فسكون) والوفاء . والمراد بقوله : « وهو اليمين » : أن القسم (بفتحتين) بحفاظه هو أفضل الأيمان ، وخير أنواع القسم فى مثل هذا المقام .

يقسم بما ينبغى أن يحافظ عليه من حق المعاتب وحرمته إنه ما تحوّل عن عهده ، ولا انحرف عن الوفاء له قليلا ولا كثيراً .

(١٠) النزغات : جمع نزغة ، اسم مرة من النزغ (بفتح فسكون) وهو الإفساد بين الناس ، وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم ، وهو أشبه بالسعاية والنميمة . والوشاة : جمع الواشى ، اسم فاعل من وشى به إلى السلطان ، أى نمّ عليه ، وسعى به . وأصابت هوى : وجدت ميلا إليها . ولوت : أمالت . والأخدع : عرق فى جانب العنق قد خفى وبطن ، وهما أخدعان فى جانبى الرقبة . ومن كلامهم : لوى فلان أخدعه ، يكنون بهذا عن إعراضه وتكبّره .

يقول : إنه لم يحل عن عهد صاحبه ، ولكن الوشاة نزغوا بينه وبين المعاتب ، فأصابت نزغاتهم هوى فى نفسه ، ووجدت وشاياتهم ميلا إلى تصديقها والتأثّر بها ، فلوت أخدعه وحملته على الإعراض والقطيعة والجفاء .

وَلَيْسَ مَلَامِي عَلَى مَنْ وَشَى ... وَلَكِنْ مَلَامِي عَلَى مَنْ وَعَى (١١)
أَيَجْمُلُ بِالْعَهْدِ أَنْ يُسْتَبَاحَ ... لِوَاشٍ ، وَلِلْوُدِّ أَنْ يُقْطَعَا ؟ (١٢)
فَشَتَّانَ مَا بَيْنَنَا فِي الْوِدَا ... دِ : خِلٌّ أَضَاعَ ، وَخِلٌّ رَعَى (١٣)
وَمَنْ أَشْرَكَ النَّاسَ فِي أَمْرِهِ ... دَعَتْهُ الضَّرُورَةُ أَنْ يُخْدَعَا (١٤)
فَخُذْهَا إِلَيْكَ عِتَابِيَّةً ... تَرُدُّ عَصِيَّ الْمُنَى طَيِّعَا (١٥)
وَلَوْلَا مَكَانُكَ مِنْ مُهْجَتِي ... لَمَا قُلْتُ لِابْنِ عِثَارٍ لَعَا (١٦)

---

(١١) الملام : اللوم . ووعى : حفظ وفهم .
يقول : إنه لا يلوم الواشي ، ولكن يلوم من قبل الوشاية ، وصدّقها وتأثّر بها .

(١٢) العهد : الموثق والحفاظ ورعاية الحرمة والوفاء. ويستباح : يستحلّ ويسلب وينتهب (بالبناء للمجهول) . والودّ (مثلثة الواو) : المودّة والمحبّة . والاستفهام فى أول البيت للإنكار واللوم .

والمعنى : ما كان يحسن بك أن تستبيح عهدنا ، وتقطع أواصر الحبّ بيننا من أجل وشاية واش ، ونميمة نمام .

أو المعنى : ما كان يجمل بك أن تمكّن ذلك الواشي من استباحة عهدنا ، وتقطيع الودّ بيننا ، بالاستماع لوشايته ، وتصديقها والتأثّر بها .

(١٣) شتّان : كلمة تفيد البعد (بضم فسكون) . والوداد : الحبّ كالودّ . والخلّ : الصديق . وأضاع : المراد أضاع الوداد . ورعى : المراد رعى الوداد ، وصانه وحافظ عليه .

والمعنى : ابتعد ما بيننا فى أمر الوداد : فأنا رعيته ، وأنت ضيّعته .

(١٤) أشرك الناس فى أمره : جعلهم شركاءه فيه . والأمر : الشأن والحال . والمراد أطلع الناس على أموره وشؤونه ، واستمع لأقوالهم ، وصدّقهم . ووثق بهم فى غير تمحيص ولا احتراس .

يقول : إن الذى يشرك الناس فى أمره يضطر إلى الاغترار بزخرفهم ، والانخداع بأباطيلهم .

(١٥) عتابيّة : منسوبة إلى العتاب ، ويريد بالعتابيّة هذه القصيدة التى عاتبه بها . وتردّ : ترجع وتحوّل وتصيّر . وعصيّ : عاص ، (فعيل بمعنى فاعل) . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) وهى ما يتمناه الإنسان ويريده ، ويقدر حصوله ، كالأمنيّة وطيّع : طائع منقاد .

يشيد بأبياته فى العتاب ، ويقول إنها جديرة بأن تجعل عصيّ الأمانيّ طائعاً منقاداً . والغرض أنها كفيلة بمحو آثار السعاية والنميمة ، ورتق آصار المودّة والوفاء ، وإعادة أسباب الحبّ والولاء .

(١٦) مهجتى : نفسى . وعثار (ككتاب) : اسم من عثر الماشى فى سيره ، إذا زلّ وكبا وسقط ، وابن العثار : العاثر . ولعا (كفتى) : كلمة يدعى بها للعاثر ، يقولون له : « لعاًلك » إذا أرادوا الدعاء له =

وَقَالَ فِى الْوَدَاعِ :

إِنَّ قَلْبِى – وَهْوَ الْأَبِىُّ – دهَتْهُ فُرْقَةٌ صَيَّرَتْهُ نَهْباً مُشَاعَا(١)

لَا تَرَى غَيْرَ وَاقِفٍ يَسْفَحُ الدَّمْـ ـعَ ، وَسَاهٍ لَا يَسْتَطِيعُ زَمَاعَا(٢)

وُصْلَةٌ قَرَّبَتْ بِعَادًا ، وَبَيْنٌ مِنْ حَبِيبٍ أَجَدَّ فِيهِ اجْتِماعَا(٣)

كُنْتُ أَخْشَى الْوَدَاعَ ، حَتَّى إِذَامَا فَارَقُونِى أَمْسَيْتُ أَرْجُو الْوَدَاعَا(٤)

= بالانتعاش والارتفاع . والمراد بابن العثار هنا : المعاتب (بصيغة اسم المفعول) ، كأنه عثر وكبا باستماعه الوشاية ، وتصديقه الوشاة . وقلت له لعا : إشارة إلى ذلك العتاب اللطيف الذى نعشه وأقامه ، وأبان له وجه الحق ، ورده إلى الهدى والصواب .

والمعنى : لولا أنك مكين عندى ما وجّهت إليك هذا العتاب .

(١) الأبىّ : الشديد الإباء (بكسر الهمزة) الممتنع القوىّ العزيز ، الذى يأبى الضيم ، ويستنكف من الذّل والمهانة . ودهته : أصابته ، يقال : دهته داهية ، أى أصابه من مأمنه أمر منكر عظيم . والفرقة (بضم فسكون) : اسم بمعنى الافتراق . والنهب : الغنيمة والشىء الذى ينهب . ومشاع : شائع مفرّق غير مقسوم ، وهو اسم مفعول من أشيع المال بين القوم .

يصف ما تركته فرقة أحبّائه من أثر شديد فى نفسه ، فقد أغرت بقلبه الهموم ، ودلّت عليه الأحزان ، وصيّرته بينها كالمال المنهوب المشاع الذى أبيح للناس انتهابه واغتنامه ، وذلك على الرغم من إبائه وامتناعه ، وقوّته ومقدرته على احتمال الخطوب ، ومكافحة النوائب .

(٢) يسفح الدمع : يذرفه ويرسله ويصبّه . وساه : ذاهل غافل ، اسم فاعل من السهو (بفتح فسكون) وهو نسيان الشىء ، والغفلة عنه لاشتغال القلب بغيره . والزماع (كسحاب وكتاب) : المضاء فى الأمر ، والعزم عليه ، من قولهم : فلان زميع (كأمير) ، أى سريع شجاع جيّد الرأى ، مقدم على الأمور ، إذا أزمع أمراً لم يثنه شىء .

يصف موقف الوداع ، فيقول : إنك لا ترى فيه غير واقف يبكى ، وذاهل لا يمكنه ضبط أمره ، ولا يجد لنفسه عزماً ولا يستطيع على الفراق صبراً .

(٣) الوصلة (بضم فسكون) : الاتصال والذريعة والوسيلة ، وكلّ شىء اتّصل بشىء ، فالذى بينهما وصلة وسبب . والبعاد : البعد . والبين : الفراق . وأجدّ فلان الأمر : أحدثه ، أو صيّره جديداً .

يقول : إن الوداع صلة بين المحب والحبيب تقرّب ساعة البعاد ، وهو بين وفراق جدّد فيه الحبيب قرباً واجتماعاً .

(٤) الوداع : اسم من ودّع المسافر أهله توديعاً ، وودّعه أهله ، أى شيّعوه عند سفره ، ودعوا =

وقال :

إِذَا كَانَ أَمْرُ اللهِ حَتْماً مُقَدَّرًا   فَمَاذَا يُفِيدُ الْحِرْصُ وَالْأَمْرُ وَاقِعُ؟(١)

وقال :

إِنَّ النَّصِيحَةَ لَا تَحُضْـ   ـضُ عَلَى الْأَذَى إِنْ لَمْ تَزَعْ(١)
فَاسْمَعْ ، فَإِنْ خَيْرًا أَصَبْـ   ـتَ فَخُذْ ، وَإِنْ شَرًّا فَدَعْ(٢)

= كلّ منهما لصاحبه بالدعة والراحة والطمأنينة وخفض العيش .

يقول : كنت أخاف أن يفارقني أحبائي ، فأقف موقف الوداع ، حتى إذا فارقوني صرت أرجو أن ألقاهم ، ولو لقاء قصير الأمد ينتهي بالارتحال والوداع .

(١) أمر الله تعالى : قضاؤه ، وما يأمر به ، كالصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والحياة والموت . وحتماً : واجباً لازما ثابتاً ، لابدّ منه ، ولا مفرّ . ومقدّراً : مقدوراً مقضيّاً ، يجرى بقدر الله تعالى وقضائه وحكمه . والحرص : الجشع (بفتحتين) . يقال : حرص على الشيء (من باب ضرب) إذا رغب فيه رغبة مذمومة .

والمعنى : أنه لا فائدة للحرص والجشع في هذه الحياة ؛ لأن الأمور كلّها تجرى بقدَر الله تعالى ، ولا يستطيع الحريص بحرصه أن يمنع وقوعها ، أو يحوّل مجراها .

(١) النصيحة : اسم من نصحه ، ونصح له نصحاً (بضمّ فسكون) أى أخلص له ، وصدقه ، وأشار عليه بالمصلحة والهدى والسداد . ولا تحضّ على الأذى : لا تحثّ على الضرّ ، ولا تدعو إلى الشرّ ، ولا تحرّض عليه . وتزع : تكفّ وتنهى وتمنع .

يقول : إن النصيحة إن لم تزع المنصوح وتكفّه عن الهوى ، وتمنعه من الفساد — فهى على أىّ حال لا تحمله على الشرّ ، ولا تدعوه إلى الأذى . والغرض من البيت بيان أخصّ مميّزات النصيحة .

(٢) فاسمع : المراد فاسمع القول . وأصبت : وجدت . ودع : اترك .

يقول : استمع لمن يدّعى النصح ، فإن وجدت فيه خيراً فخذه ، وإن وجدت شرًّا فاتركه ، واعلم أنه غاشّ غير ناصح .

وقال :

لِكُلِّ قَوْلٍ مَنَارٌ يَسْتَقِيمُ بِهِ عِنْدَ الْخِطَابِ : فَمَلْفُوظٌ وَمَسْمُوعُ(١)
فَالْعَتْبُ إِنْ جَازَ حَدَّ الْعَدْلِ مَقْطَعَةٌ وَالنُّصْحُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي السِّرِّ تَقْرِيعُ(٢)

وَقَالَ * يَرْثِي صَدِيقَهُ «أَحْمَدَ فَارِس» ** ، وَيُعَزِّي ابْنَهُ :

مَتَى يَشْتَفِي هَذَا الْفُؤَادُ الْمُفَجَّعُ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ رَاحِلٌ لَيْسَ يَرْجِعُ؟(١)

---

(١) المنار : علم الطريق (بفتح العين واللام) ، والحدّ يوضع بين الشيئين ليتميّز أحدهما من الآخر. ويراد بالمنار هنا : الأوصاف والعلامات التي تدل على إخلاص القائل ، أو خبثه وسوء نيّته . ويستقيم : يقوم ويعتدل ، وفاعله ضمير يعود إلى القول ، والمراد : يفهم على حسبه ، ولو قال «يستقام» بمعنى يقوّم ويقدّر (بالبناء للمجهول) لكان أحسن ، وهذا من قولهم : استقمت المتاع ، أي قدّرته وعرفت قيمته . وبه : بالمنار . وملفوظ : المراد مطروح مرمى ساقط غير مقبول ؛ ففي الكلمة تورية . ومسموع : المراد مقبول نافع .

يقول : لكلّ قول علامات وصفات تميزه من غيره ، وتعرف بها قيمته عند النطق به ، وتوجيهه إلى المخاطب ، فمنه المردود الساقط الذي لم يسقه الإخلاص ، ولم تدفع إليه الرعاية ، ومنه النافع المقبول .

(٢) العتب : لومك غيرك على إساءة وقعت منه . وجاز حدّ العدل : تعدّاه ، وخرج عن القصد ، وجاوز الاعتدال . وحدّ كلّ شيء : منتهاه . ومقطعة : يحمل على القطيعة والهجران ، من قولهم : الهجر مقطعة للودّ . والتقريع : التأنيب والتعنيف ، والإيجاع باللوم ، والتوبيخ ، والعذل الشديد .

* نفي البارودي إلى جزيرة «سرنديب» «سيلان» سنة ١٣٠٠هـ (٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٨٢م) ، ونظم هذه المرثاة في منفاه سنة ١٨٨٧ م ؛ فهي من سرنديبيّاته .

** أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشهير بالشدياق (١٢١٩ – ١٣٠٤ هـ / ١٨٠٤ – ١٨٨٧ م) عالم لغويّ أديب كاتب شاعر ، ولد في إحدى قرى لبنان ، وتأدّب في مصر ، وتنقّل بين مالطة وأوربا ، ثم سافر إلى تونس ، واعتنق فيها الدين الإسلاميّ ، ثم دعي إلى القسطنطينية ، فأقام بها حتى مات ، وأصدر بها «جريدة الجوائب» المشهورة ، وله مؤلفات كثيرة منها «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب» و «الجاسوس على القاموس» و «الساق على الساق فيما هو الفارياق» ، و «الواسطة في أحوال مالطة» .

(١) يشتفي : يشفى ويعافى (بالبناء للمجهول فيهما) ويبرأ . والمفجّع : اسم مفعول من فجّعته المصيبة تفجيعاً ، أي أوجعته . وراحل : اسم فاعل من الرحيل ، وهو السفر والانتقال والارتحال . والمراد بالراحل الذي ليس يرجع : الميّت . والاستفهام في أول البيت للنفي ، أو الإنكار ، أو لإظهار التحزّن والتحسّر. =

نَمِيلُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى ظِلِّ مُزْنَةٍ   لَهَا بَارِقٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ(٢)
وَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ وَالْمَرْءُ قَائِمٌ   عَلَى حَذَرٍ مِنْ هَوْلِ مَا يَتَوَقَّعُ!؟(٣)
بِنَا كُلَّ يَوْمٍ لِلْحَوَادِثِ وَقْعَةٌ   تَسِيلُ لَهَا مِنَّا نُفُوسٌ وَأَدْمُعُ(٤)
فَأَجْسَادُنَا فِى مَطْرَحِ الْأَرْضِ هُمَّدٌ   وَأَرْوَاحُنَا فِى مَسْرَحِ الْجَوِّ رُتَّعُ(٥)

= يرثى لفؤاده المفجوع بموت من يكرم عليه ، ويستبعد أن يُشْفَى مما هو فيه من همّ وغمّ وكمد وحزن ، أو هو ينكر هذا وينفيه ؛ لأن الفجائع والرزايا تتوالى عليه وتتكاثر .

(٢) نميل إلى كذا : نقبل عليه ، ونتجه إليه. والمزنة (بضم فسكون) : السحابة ، أو السحابة البيضاء ولها : للمزنة . وبارق : اسم فاعل من برق البرق ، أى بدا وظهر وتلألأ ولمع ، والمراد : لها برق بارق ، والمنيّة : الموت . وتلمع : تبرق وتضىء .

شبّه ما ننخدع به من مباهج الدنيا ومحاسنها بسحابة بارقة تظهر فيها أسباب الهلاك والدمار .

(٣) يطيب : يحسن ويلذّ ويزكو . والعيش : المعيشة والحياة . والحذر (بفتحتين) : الخوف والتحرّز والاحتراس . والهول : الأمر الشديد المخوف ، مصدر هالنى الشىء ، أى أفزعنى . ويتوقّع (بالبناء للفاعل ، أو للمفعول) : يترقّب وينتظر . والاستفهام فى أول البيت للنفى أو الإنكار .

والمعنى : أن الإنسان فى هذه الحياة الدنيا دائم الحذر ، يترقّب كلّ ساعة ما يهوله ويفزعه من الحوادث والخطوب ، ولا يجد السكينة والأمن والطمأنينة ؛ ولهذا لا تطيب له الحياة ، ولا يلتذّ بالمعيشة .

(٤) حوادث الدهر : نوبه (بضم ففتح) ونوازله وأحداثه . والوقعة : صدمة الحرب . وتسيل النفوس : تزهق ؛ يقال : سالت نفس فلان ، أى خرجت روحه .

يقول : إن أحداث الدهر ونوبه ونوازله توقع بنا كلّ يوم ، كما يوقع العدوّ بعدوّه ، ثم تنجلى عن موتى كثيرين ، وباكين على هؤلاء الموتى .

أو المعنى : أن من الحوادث التى تتوالى علينا ، وتقع بنا كل يوم ما يهلك ويميت ، ومنها ما يوجع ويبكى .

(٥) المطرح : اسم مكان من الطرح (بفتح فسكون) وهو الرمى والإبعاد ، والمراد بمطرح الأرض : القبور التى تطرح فيها أجساد الموتى . وهمّد : جمع هامد ، صفة من الهمود ، وهو السكوت والسكون والموت ، وهمدت النار (من باب قعد) : ذهب حرّها ، ولم يبق منها شىء ، وهمد الثوب بلى ، والهامد : البالى من كلّ شىء . والمسرح : اسم مكان من سرحت الماشية ، أى رعت ، وتنقّلت فى مواضع الكلأ والعشب (بضم فسكون) . والجوّ : الهواء ، وما بين السماء والأرض . ورتّع (بضم الراء وتشديد التاء المفتوحة) : جمع راتع وراتعة ، صفة من رتعت الماشية (من بابى نفع وخضع) أى رعت كيف شاءت =

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّا نُسَاءُ وَنَرْتَضِى ... وَنُدْرِكُ أَسْبَابَ الْفَنَاءِ وَنَطْمَعُ(٦)
وَلَوْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ عُقْبَانَ أَمْرِهِ ... لَهَانَ عَلَيْهِ مَا يَسُرُّ وَيَفْجَعُ(٧)
تَسِيرُ بِنَا الْأَيَّامُ ، وَالْمَوْتُ مَوْعِدٌ ... وَتَدْفَعُنَا الْأَرْحَامُ ، وَالْأَرْضُ تَبْلَعُ(٨)
عَفَاءٌ عَلَى الدُّنْيَا ، فَمَا لِعِدَاتِهَا ... وَفَاءٌ ، وَلَا فِى عَيْشِهَا مُتَمَتَّعُ(٩)

= وأكلت ماشاءت، وذهبت وجاءت وتنقّلت فى المرعى، ولا يكون الرتوع إلا فى الخصب والسعة. والمراد برتوع الأرواح : انطلاقها وتنقّلها .

يصف هذا البيت ما يعقب سيل النفوس فى البيت السابق ، فأجساد الموتى هامدة ساكنة بالية فى القبور ، وأرواحهم تسرح وترتع منطلقة متنقّلة فى عالمها الوسيع الفسيح .

(٦) ساءه : فعل به مايكره ، وهونقيض سرّه ، (وبابه قال) . ونرتضى : نرضى ، رضيت الشىء، ورضيت به ، وارتضيته ، كلّها بمعنى واحد . والفناء : الهلاك ، وهونقيض البقاء .

يقول : مما يدعو إلى العجب أن الدنيا تسوءنا بأحداثها ، ونحن مع ذلك نرتضيها ، ونركن إليها ، ونختارها ، ونسرّ بها ، ومما يدعو إلى العجب كذلك أننا نطمع فى البقاء مع إدراكنا ما يحيط بنا من أسباب الفناء .

(٧) عقبان كلّ شىء : آخره ونهايته . وهان : سهل . ويفجع : يوجع ويسوء ويحزن ، من الفجع (بفتح فسكون) وهوأن يوجع الإنسان بشىء يكرم عليه ، فيعدمه .

والمعنى : لوعلم الإنسان أن عاقبة أمره الهلاك ما اكترث لمسرّات الحياة وفواجعها . وهو فى حال اهتمامه بأمور الدنيا يبدو كالجاهل بعاقبة أمره ، الغافل عما يصير إليه .

(٨) الأرحام : جمع رحم (بفتح فسكون أو بكسر فسكون أو بفتح فكسر) ، وهى منبت الجنين ، ووعاء الولد فى بطن أمّه .

يصوّر الشاعر فى كلّ شطر من شطرى هذا البيت حياة الناس وموتهم ، فيقول : إن الأيام تسير بنا وتسوقنا إلى ميعاد هو الموت الذى تنتهى به الحياة ، وإن أرحام الأمهات تدفعنا وتخرجنا إلى الدنيا فنحيا ، ثم نموت ، وتبلعنا الأرض .

(٩) العفاء : الدروس والامحاء والهلاك والفناء ، والعفاء أيضاً : التراب . والعدات : جمع عدة (بكسر ففتح) وهى الوعد (بفتح فسكون) . ومتمتّع : مصدر ميمى بمعنى الاستمتاع ، من تمتّعت بالشىء أى وجدت فيه المتعة (بضم فسكون) والنفع .

يحتقر الدنيا ، ويدعو عليها بالعفاء ، لأنها كاذبة خادعة غادرة لا تفى بوعد ، ولا يستمتع (بالبناء للمجهول) بعيشها المشوب بالأكدار والأحزان .

أَبَعْدَ سَمِيرِ الْفَضْلِ «أَحْمَدَفارِسٍ» تَقِرُّ جُنُوبٌ ، أَوْ يُلاَئِمُ مَضْجعٌ؟(١٠)
كَفَى حَزَناً أَنَّ النَّوَى صَدَعَتْ بِهِ فُؤَادًا مِنَ الْحِدْثَانِ لَا يَتَصَدَّعُ(١١)
وَمَا كُنْتُ مِجْزَاعاً ، وَلَكِنَّ ذَا الْأَسَى إِذَا لَمْ يُسَاعِدْهُ التَّصَبُّرُ يَجْزَعُ(١٢)
فَقَدْنَاهُ فِقْدَانَ الشَّرَابِ عَلَى الظَّمَا فَفِى كُلِّ قَلْبٍ غُلَّةٌ لَيْسَ تُنْقَعُ(١٣)

---

(١٠) السمير : المسامر ، صفة من المسامرة وهى الحديث بالليل . وسمير الفضل : قرينه وجليسه ومحدثه ، والمراد أن المرثى كان فاضلا خيراً كريماً . وتقر (بكسر القاف وفتحها مع تشديد الراء) : تسكن وتطمئن . والجنوب : جمع الجنب (بفتح فسكون) . ويلائم : يوافق . والمضجع : مكان الضجوع ، وهوالنوم على الجنب (وبابه نفع) . والاستفهام فى أول البيت للنفى ، أوالإنكار.

يصف ما اعتور الناس وأصابهم بعد موت المرثى من القلق والضجر والانزعاج ؛ فجنوبهم لا تستقر من الحزن ، والمضاجع لاتلائمها .

(١١) النوى : البعد (بضم فسكون) ، أو هى الوجه الذى ينويه المسافر من قرب أو بعد. وصدعت : شقت وفرقت . وحدثان الدهر : نوبه ونوازله وأحداثه وخطوبه . ولا يتصدع : لاينشق ولايتفرق .

والمعنى : أن فراق المرثى قد حزنه حزناً شديداً ، وأثر فى فؤاده تأثيراً كبيراً على الرغم من قوته وصلابته وتجلده للنوازل والخطوب .

(١٢) مجزاع : صيغة مبالغة اشتقها الشاعر من الجزع (بفتحتين) وهونقيض الصبر ، يقال جزع الرجل (من باب تعب) إذا ضعفت قوته عن حمل ما نزل به ، ولم يجد صبراً. والأسى: الأسف والحزن . والتصبر : تكلف الصبر .

يقول : إنه ما كان ليجزع من الخطوب والكوارث ، ولكن الحزين يجزع إذا لم يعاونه الصبر على احتمال ما حزنه . والغرض وصف مصابه فى المرثى بأنه فادح ثقيل شديد ، يجل عن الصبر ، ويتعصى على التجلد .

(١٣) الفقدان (بكسر الفاء وضمها) : مصدر فقدت الشىء (من باب ضرب) فقداً (بفتح فسكون) وفقداناً . والشراب : اسم لكل ما يشرب . والظمأ : العطش ، أوأشده ، وتخفيف الهمزة هنا لضرورة وزن الشعر . والغلة : شدة العطش وحرارته. وتنقع (بالبناء للمجهول) : تذهب ، يقال نقع الماء العطش (من بابى قطع وخضع) أى سكنه وأذهبه .

يقول : إننا فقدناه مع شدة حاجتنا إليه ، كما يفقد العطشان الماء ، ففى كل قلب حرقة وأسى لا يخففه التأسى . وفى البيت تصوير لعظم قدر المرثى ، وعظم مصاب الناس فيه .

وَأَيُّ فُؤَادٍ لَمْ يَبِتْ لِمُصَابِهِ ... عَلَى لَوْعَةٍ ، أَوْ مُقْلَةٍ لَيْسَ تَدْمَعُ ؟(١٤)

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلدَّمْعِ فِي الْخَدِّ مَسْرَبٌ ... رَوِيٌّ ـ فَمَا لِلْحُزْنِ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعُ(١٥)

مَضَى ، وَوَرِثْنَاهُ عُلُوماً غَزِيرَةً ... تَظَلُّ بِهَا هِيمُ الْخَوَاطِرِ تَشْرَعُ(١٦)

إِذَا تُلِيَتْ آيَاتُهَا فِي مَقَامَةٍ ... تَنَافَسَ قَلْبٌ فِي هَوَاهَا وَمِسْمَعُ(١٧)

سَقَى جَدَثاً فِي أَرْضِ «لُبْنَانَ» عَارِضٌ ... مِنَ الْمُزْنِ فَيَّاضُ الْجَدَاوِلِ مُتْرَعُ(١٨)

---

(١٤) المصاب : الإصابة ، والمصيبة . واللوعة : حرقة الحزن . والمقلة : العين . ودمعت العين (من بابى قطع وطرب) : صبّت دمعها .

(١٥) مسرب : اسم مكان من سرب الماء (من باب قعد) أى جرى على وجه الأرض . وروىّ : غزير كثير .

والمعنى : أن البكاء وجريان الدمع دليل على الحزن، وأن الحزن الشديد يتطلّب بكاء شديداً ، ودمعاً غزيراً، فإذا قلّ البكاء والدمع ، أولم يوجدا ـ كان هذا برهاناً على أن الحزن لم يؤثّر فى النفس؛ ولم يصل إلى القلب .

(١٦) غزيرة : كثيرة . وتظلّ : تبقى وتستمرّ، تقول العرب: ظلّ فلان يعمل كذا (من باب سمع) إذا عمله بالنهار . و بها: المراد فيها ، أومنها : وهيم : عطاش (بكسر العين) ، جمع أهيم (كأبيض)، صفة من الهيام (بضم الهاء) وهو أشدّ العطش . والخواطر : جمع خاطر ، وهو الهاجس ، وكلّ مايخطر فى القلب من تدبير أو أمر ، والمراد بالخواطر هنا : العقول والأفكار . وشرعت الدوابّ فى الماء (من بابى قطع وخضع) : خاضت ودخلت ، وشرع الوارد ، أى تناول الماء بفيه .

يقول : مضى المرثىّ وذهب ، وورثنا عنه علوماً كثيرة نافعة كالينابيع وموارد الماء ، تستقى منها العقول العطشى ، وترتوى منها الأفكار الظماء .

(١٧) تليت: قرئت. وآياتها : عباراتها ، على التشبيه بآى الذكر الحكيم، والآية فى الأصل : العلامة . والمقامة : الجماعة من الناس يجتمعون فى مجلس ، ومقامات الناس : مجالسهم ومجتمعاتهم . والتنافس : المباراة والمسابقة فى تحصيل الشىء النفيس الجيّد. والهوى : الحبّ . والمسمع (بكسر فسكون ففتح) : الأذن (بضمتين) .

يقول: إذا تليت آيات هذه العلوم النافعة الغزيرة فى مجلس من المجالس، عرف الناس قدرها ، وأعجبوا بها ، وتنافست قلوبهم ومسامعهم فى حبّها والتعلّق بها .

(١٨) الجدث (بفتحتين) : القبر . والعارض : السحاب الذى يعترض فى أفق السماء . والمزن (بضم فسكون) : السحاب ، أو أبيضه، أو الممطر منه ، الواحدة مزنة (بضم فسكون) . وفيّاض : غزير كثير ، صيغة مبالغة من فاض الماء (من باب باع) أى كثر حتى سال على ضفّة الوادى . والجداول : =

فَإِنَّ بِهِ لِلْمَكْرُمَاتِ حُشَاشَةً طَوَاهَا الرَّدَى ،فَالْقَلْبُ حَرَّانُ مُوجَعُ (١٩)
فَإِنْ يَكُنِ «الشِّدْيَاقُ» خَلَّى مَكَانَهُ فَإِنَّ ابْنَهُ عَنْ حَوْزَةِ الْمَجْدِ يَدْفَعُ (٢٠)
وَمَا مَاتَ مَنْ أَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ فَاضِلًا يُؤَلِّفُ أَشْتَاتَ الْمَعَالِي وَيَجْمَعُ (٢١)
رَزِينُ حَصَاةِ الْحِلْمِ ، لَا يَسْتَخِفُّهُ إِلَى اللَّهْوِ طَبْعٌ ، فَهْوَ بِالْجِدِّ مُولَعُ (٢٢)

=جمع جدول (كجعفر)، وهو النهر الصغير . ومترع (على صيغة اسم المفعول): مملوء . وفيّاض ومترع صفتان لعارض ، والمراد عارض غزير الماء ، كثير المطر ، تمتلىء بمائه الأنهار وتفيض .

دعا الشاعر لقبر المرثى فى أرض لبنان بالسقيا على عادة العرب فى الرثاء .

(١٩) به: بالجدث . والمكرمات: جمع مكرمة (بفتح فسكون فضم) وهى اسم من الكرم ، وفعل الخير مكرمة ،أى سبب للكرم ، أو التكريم . والحشاشة : بقيّة الروح فى المريض المحتضر (بصيغة اسم المفعول) ، وقد تطلق على كلّ بقيّة ، ومن كلام العرب : مابقى من المروءة إلا حشاشة تتردد فى أحشاء محتضر ،ويقولون : جئت ومابقى من الشمس إلا حشاشة نازع . وطواها : أخفاها وذهب بها ، على التشبيه بطىّ الثوب . والردى : الهلاك والموت . وحرّان : شديد العطش ، والمراد أصابته حرقة الأسى ، وحرارة الحزن . وموجع : اسم مفعول من أوجعه ، أى آلمه .

(٢٠) الشدياق : لقب المرثى . وخلّى مكانه: مات . والحوزة : الناحية ، يقال : فلان مانع لحوزته ،أى لما فى حيّزه وناحيته ، ومن كلامهم : فلان يحمى حوزة الإسلام ، أى حدوده ونواحيه . والمجد : العزّ والشرف والكرم . ويدفع : يدافع و يحمى .

يتعزّى عن موت «الشدياق» بأن ابنه «سليما» يصون مجد أبيه ويحميه ، ويجرى فى المكرمات على سنّته . و«سليم الشدياق» هو الذى اختار بعض مقالات أبيه فى الجوائب. وسمّاها «كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب» وطبعها فى سبعة مجلّدات .

(٢١) يؤلّف: يجمع ويضم. وأشتات المعالى: ماتفرّق منها . والمعالى : جمع معلاة (بفتح فسكون) وهى الرفعة والشرف ، كالعلاء .

يشير إلى بقاء ذكر المرثى فى ابنه الفاضل الكريم ، الذى يجمع ما تفرّق فى الناس من صفات الرفعة والشرف . أو المعنى : أنه يجدّ فى تحصيل أسباب العلا والمجد .

(٢٢) رزين: صفة من الرزانة (بفتح الراء) وهى الحلم والوقار ، وهى الثبات والسكون ،أو هى أصالة الرأى وجودته . والحصاة : العقل والرزانة والوقار ، يقال : فلان ثابت الحصاة ، إذا كان عاقلا ، وفلان ذو حصاة ،أى وقور ذو عقل ورأى وتدبير ، أوهو إذا كان حازماً كتوماً على نفسه يحفظ سرّه . والحلم : الأناة والعقل . ورزين حصاة الحلم : ثابت الرأى ، راجح العقل ، جيّد التدبير ، صبوروقور . واستخفّه الشىء : حمله على الخفّة (بكسر الخاء) والطيش ، واستخفّه طبعه إلى اللهو : حمله على أن يخفّ له ويستطير . والجدّ: نقيض الهزل ،وضدّ اللهو . ومولع : اسم مفعول من أولعته بالشىء ،أى أغريته به، وحفزته إليه ، وحملته عليه ، وأولع فلان بكذا (بالبناء للمجهول) : علق به وأحبّه .

تَلُوحُ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلٌ ... تَدُلُّ عَلَى طِيبِ الْخِلَالِ ، وَتَنْزِعُ (٢٣)
فَصَبْرًا جَمِيلاً «يَا سَلِيمُ» ، فَإِنَّمَا ... يُسِيغُ الْفَتَى بِالصَّبْرِ مَا يَتَجَرَّعُ (٢٤)
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ ... فَمَاذَا تُرَاهُ فِي الْمُقَدَّرِ يَصْنَعُ ؟ (٢٥)
وَمِثْلُكَ مَنْ رَازَ الْأُمُورَ بِعَقْلِهِ ... وَأَدْرَكَ مِنْهَا مَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ (٢٦)
فَلَا تُعْطِيَنَّ الْحُزْنَ قَلْبَكَ ، وَاسْتَعِنْ ... عَلَيْهِ بِصَبْرٍ ، فَهْوَ فِي الْحُزْنِ أَنْجَعُ (٢٧)
وَهَاكَ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ قَرِيبَةً ... إِلَى النَّفْسِ ، يَدْعُوهَا الْوَفَاءُ فَتَتْبَعُ (٢٨)

---

(٢٣) تلوح: تبدو وتظهر. وشمائل: جمع شمال (بكسر الشين) بمعنى الطبع والخلق (بضمتين). والخلال: الخصال (بكسر الخاء فيهما)، الواحدة خلّة (بفتح الخاء وتشديد اللام المفتوحة). وتنزع: تحنّ وتميل (وبابه ضرب)، من قولهم: نزع الولد إلى أبيه، أى ذهب إليه وأشبهه.

مدحه بطيب الخلال، وكرم الخصال، وقال إنه يشابه أباه فى ذلك.

(٢٤) الصبر الجميل: حبس النفس عند الجزع، والتجلّد للخطوب فى غير شكوى ولا ضجر. وساغ الشراب والطعام: سهل مدخله فى الحلق، وأسغته، وسغته (من بابى قال وباع): سهّلت مدخله. وتجرّعت الشراب: ابتلعته، وقيل التجرّع: الشرب فى عجلة، وقيل هو الشرب قليلا قليلا.

والشاعر فى الشطر الثانى يلمح قول الله تبارك وتعالى: «يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ». والمراد أن الصبر يعين على احتمال المكاره، ومكافحة الخطوب.

يحثّه على الصبر الجميل، ويشير إلى بعض فوائده.

(٢٥) يراد بالمقدّر: مايقدّره الله تعالى على الإنسان من البلايا والنوازل والخطوب.

والمعنى: إذا لم يدّرع الإنسان الصبر لم يستطع احتمال ما يبلوه الله به من المكاره.

(٢٦) راز الأمور: جرّبها وخبرها، وامتحنها وقدّرها، (وبابه قال).

ومما يشير إليه الشاعر بالشطر الثانى أن الممدوح يعرف بعقله الحصيف الراجح ضرر الجزع، وفائدة الصبر.

(٢٧) لا تعطينّ الحزن قلبك: لاتستسلم للحزن، ولا تمكّن الجزع من قلبك. وأنجع: اسم تفضيل من نجع الدواء والطعام ونحوهما فى الإنسان، أى نفع وأفاد (وبابه منع).

والمعنى: أن الصبر أشفى للحزن، وأجزل فائدة، وأعظم نفعاً، وأبلغ أثراً.

(٢٨) هاك: خذ. والمزار: الزيارة، أو موضعها. وقريبة: مفعول «هاك»، أى قصيدة قريبة إلى النفس. ويدعوها: يناديها. وتتبع الوفاء (من باب طرب): تسير فى إثره، وتمشى خلفه وتلحقه، أو تمضى معه، فالوفاء يقدمها ويسير بين يديها، ويقودها إلى الممدوح (بصيغة اسم المفعول).

رَعَيْتُ بِهَا حَقَّ الْوِدَادِ عَلَى النَّوَى ... وَلِلْحَقِّ فِى حُكْمِ الْبَصِيرَةِ مَقْطَعُ (٢٩)

وَقَالَ يُجِيبُ الأَمِيرَ « شكيب أرسلان » عَنْ قَصِيدَةٍ لَهُ :

رُدِّى التَّحِيَّةَ يَا مَهَاةَ الأَجْرَعِ ... وَصِلِى بِحَبْلِكِ حَبْلَ مَنْ لَمْ يَقْطَعِ (١)

وَتَرَفَّقِى بِمُتَيَّمٍ عَلِقَتْ بِهِ ... نَارُ الصَّبَابَةِ فَهْوَ ذَاكِى الأَضْلُعِ (٢)

طَرِبِ الْفُؤَادِ ، يَكَادُ يَحْمِلُهُ الْهَوَى ... شَوْقاً إِلَيْكِ مَعَ الْبُرُوقِ اللُّمَّعِ (٣)

= والمراد أن الشاعر نظم هذه القصيدة ، وساقها إلى ابن المرثىّ تلبية لعاطفة الوفاء . وفى البيت الآتى توضيح لهذا المعنى .

(٢٩) رعيت : حفظت . والوداد : المودّة والمحبّة . والنوى : البعد . والبصيرة : الاستبصار فى الشىء والعقل ، والعلم والخبرة . وحكمها : قضاؤها وفصلها بين الأشياء . ومقطع الحق : مايقطع به الباطل ، أوما يكون به ظهور الحق وتمييزه ووضوحه ، وانقطاعه من كلّ مايشوبه ويخفيه .

يقول : إنه حفظ بهذه المرثية حقّ المودّة بينه وبين المرثىّ على الرغم من شحط الدار ، وبعد المزار ، وللحقّ تميّز ووضوح فى حكم البصيرة والعقل .

(١) التحيّة : السلام ، وما يحيّى الناس به بعضهم بعضاً إذا تلاقوا ، وأصلها الدعاء بالحياة . وردّها : رجعها ، والإجابة بمثلها ؛ لأن المجيب يردّ قول المسلّم ويكرّره . والمهاة : البقرة الوحشيّة ، تشبّه بها الحسناء من النساء فى جمال العيون واتساعها . والأجرع : المكان الواسع الذى فيه حزونة وخشونة ، أو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، أو الرملة السهلة المستوية . وقد كنّى الشاعر بمهاة الأجرع عن الفتاة الحسناء التى يتغزّل بها ، ودعاها فى الشطر الثانى إلى وصال من علق بها وأحبّها ، ولم يقطع حبل ودادها ، يعنى نفسه .

(٢) ترفّقى : أمر من الترفّق بمعنى الرفق (بكسر فسكون) ، وهو اللطف ولين الجانب ، وضدّه العنف (بضم فسكون) . ومتيّم : اسم مفعول من تيّمه الحبّ ، أى عبّده وذلّله ، أواستولى عليه ، وذهب بعقله . وعلق الشىء بالشىء : نشب به وتعلّق ، (وكلاهما من باب تعب) . والصبابة : رقّة الهوى ، وحرقة الحبّ ، وحرارة الشوق . وذاكٍ : اسم فاعل من ذكت النار (من باب سما) إذا اشتدّ لهبها واشتعلت .

يطلب إليها أن ترفق به ، وتحنو عليه ؛ لأن الحبّ تيّمه ، وذكت نار الصبابة بين جوانحه وضلوعه .

(٣) طرب : نعت لمتيّم فى البيت السابق ، وهو صفة من الطرب (بفتحتين) ، والطرب (هنا) : خفّة تصيب من يشتدّ به الحزن أو الشوق . والهوى : الحبّ والعشق . والشوق : نزاع النفس إلى الشىء ، وهو حركة الهوى ودليله ومظهره . والبروق : جمع برق . واللّمع : جمع لامع ، صفة من لمع البرق (من باب منع) أى برق وتلألأ وأضاء .

يصف شدّة تأثير العشق فى نفسه : فهو طرب الفؤاد ، قد برّح به الشوق ، واستخفّه الهوى ، وكاد يطير به مع البروق التى تلمع من ناحية ديار المحبوبة .

لَا يَسْتَنِيمُ إِلَى الْعَزاءِ ، ولَا يَرَى ... حَقًّا لِصَبْوَتِهِ إِذَا لَمْ يَجْزَعِ (٤)
ضَمَّتْ جَوَانِحُهُ إِلَيْكِ رِسَالَةً ... عُنْوَانُهَا فِى الْخَدِّ حُمْرُ الْأَدْمُعِ (٥)
فَمَتَى يَبُوحُ بِمَا أَجَنَّ ضَمِيرُهُ ... إِنْ كُنْتِ عنْهُ بِنَجْوَةٍ لَمْ تَسْمَعِى؟ (٦)
أَصْبَحْتُ بَعْدَكِ فِى دَيَاجِرِ غُرْبَةٍ ... مَا لِلصَّبَاحِ بِلَيْلِهَا مِنْ مَطْلَعِ (٧)
لَا يَهْتَدِى فِيهَا لِرَحْلِىَ طَارِقٌ ... إِلَّا بِأَنَّةِ قَلْبِىَ الْمُتَوَجِّعِ (٨)

---

(٤) لايستنيم : لايسكن ولايستقرّ . والعزاء : الصبر والسلوان . والصبوة : الهوى والغرام . والجزع : نقيض الصبر ، جزع جزعاً (من باب تعب) إذا ضعفت قوّته عن حمل مانزل به ،ولم يجد صبراً.

والمعنى : لا يتعزّى ، ولا يسلو ، ولا يصبر على فراق محبوبته ، لأنه يرى الجزع من لوازم الصبوة ، فهو يدلّ عليها ، وهو بعض آثارها ، وهى لا تكون حقاً إلا به .

(٥) الجوانح : ضلوع الصدر، سمّيت بذلك لمافيهامن جنوح وميل وتقوّس وانحناء . ويريد بالرسالة : الصبوة والحب والهوى والصبابة . وحمر الأدمع : الدموع الحمر ، فهومن إضافة الصفة للموصوف . وحمرة الدموع دليل شدّة الحرقة ، وعظم الوجد ، وكثرة البكاء ، وتقرّح المآق .

جعل ما يكنّه ويضمره من الهوى والحبّ رسالة عنوانها ما يسيل على خدّه من دموع حمر .

(٦) يبوح بالسرّ : يظهره . وأجنّ الشيء : ستره وأخفاه . والضمير : ماتضمره وتخفيه فى قلبك ، والمراد به هنا : القلب على التجوّز . والنجوة : ماارتفع من الأرض ، فلم يعله السيل ، ولم يصل إليه ، والمراد بقوله « إن كنت عنه بنجوة » : إن كنت عنه بمعزل (كمجلس) ، وضربت بينه وبينك الحجب والستور .

يسأل مستبطئاً ، متى يبوح بما يكنّه قلبه من الهوى والصبابة والحبّ ، وهى محجوبة عنه ، لا تسمع قوله ، فهو يتمنّى لقاءها ، ليظهر لها ما لا يستطيع أن يظهره لغيرها من الصبوة والغرام .

(٧) الدياجر : الظلمات ، الواحد ديجور (بفتح فسكون فضم) . والغربة : اسم من الاغتراب ، وهو النزوع عن الوطن ، والبعد عن الأهل والسكن . ومطلع : مصدرميمىّ ، أواسم مكان ، أواسم زمان من الطلوع ، و« من » قبله زائدة .

يقول : إنه بعد فراقها أصبح فى ديار غربة طالت لياليها عليه ، حتى كأنها لا تنتهى إلى صباح .

(٨) فيها : فى دياجر الغربة . والرحل (بفتح فسكون) : منزل الإنسان ومسكنه وبيته. وطارق اسم فاعل من طرقت القوم (من بابى نصر وقعد) إذا أتيتهم ليلا ، وأصله من الطرق وهو الدّقّ (بفتح فسكون فيهما) لأن الآتى بالليل يحتاج إلى طرق الباب ودقّه . والأنّة (بفتح الهمزة وتشديد النون المفتوحة) : اسم مرّة من الأنين ، وهو التأوّه ، وصوت المريض والمتوجّع ونحوهما. والمتوجّع : اسم فاعل من توجّع =

أَرْعَى الْكَوَاكِبَ فِى السَّمَاءِ ، كَأَنَّ لِى عِنْدَ النُّجُومِ رَهِينَةً لَمْ تُدْفَعِ (٩)
زُهْرٌ تَأَلَّقُ بِالْفَضَاءِ ، كَأَنَّهَا حَبَبٌ تَرَدَّدَ فِى غَدِيرٍ مُتْرَعِ (١٠)
وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْمَجَرِّ حَمَائِمٌ بِيضٌ عَكَفْنَ عَلَى جَوَانِبِ مَشْرَعِ (١١)
وَتَرَى الثُّرَيَّا فِى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا حَلَقَاتُ قُرْطٍ بِالْجُمَانِ مُرَصَّعِ (١٢)

= أى تألم من الوجع (بفتحتين) ، وهو اسم جامع لكل مرض مؤلم .

يصف أنات قلبه المتوجع بأنها عالية يسمعها السارى فى الظلمات ، فيهتدى بها إلى مكان الشاعر ومنزله .

(٩) أرعى الكواكب : أراقبها ، وأنتظر مغيبها ، ورعى الكواكب من أمارات السهاد والهم . والرهينة : الرهن (بفتح فسكون) بمعنى المرهون ، وهو اسم لما يضعه الراهن عند غيره ، لينوب مناب ما أخذه منه ، يقال : رهنت فلاناً حلياً ، إذا أخذت منه مالا مثلا ، وجعلت الحلى رهينة عنده نظير ما أخذته من المال.

شبه نفسه وهو يطيل النظر إلى النجوم ، ويراقبها وينتظر مغيبها ، وقد ساورته الهموم ، بمن يرقب رهينة له عند غيره ، فهو يهتم بها ، ويطيل النظر إليها ، والتفكير فى أمرها .

(١٠) زهر (بضم فسكون) : بيضاء مضيئة لامعة ، جمع أزهر وزهراء ، وهى خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هى» أى الكواكب والنجوم . وتألق : أصلها تتألق ، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، ومعناها تلمع وتضىء . وحبب الماء : نفاخاته وفقاقيعه التى تطفو على سطحه كأنها القوارير ، واسمها اليعاليل . وتردد : اضطرب وتحرك . والغدير : القطعة من الماء يغادرها السيل ، أى يتركها ، (فهو فعيل فى معنى مُفاعَل) . ومترع : مملوء .

(١١) المجر : المجرة ، وهى البياض المعترض فى السماء الناشئ عن أشعة نجوم كثيرة متقاربة خفية. والحمائم : جمع حمامة ، وتقع على الذكر والأنثى . وعكف على الشىء : أقبل عليه وأقام وواظب ، (وبابه دخل وجلس) . والمشرع (كمقعد) : الموضع الذى ينحدر منه المستقى إلى الماء ، والمراد به هنا : الغدير أو النهر .

فى البيت السابق شبه النجوم المتألقة فى الفضاء بالحباب واليعاليل المترددة فى غدير مترع ، يشير بهذا إلى ما يبدو من اهتزاز ضوئها وتحركه فى الفضاء . وفى هذا البيت يشبهها حول المجرة بحمائم بيض عاكفة على جوانب مشرع .

(١٢) الثريا : علم على سبعة كواكب معروفة فى السماء ، أو على أربعة وعشرين نجماً ، سميت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مرآها ، فكأنها كثيرة العدد بالإضافة إلى ضيق المحل ، وفى خلال أنجم الثريا الظاهرة كواكب خفية كثيرة العدد . وقد ورد ذكرها فى الشعر كثيراً ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت * تعرض أثناء الوشاح المفصل

بيْضَاءُ نَاصِعَةٌ كَبيْضِ نَعَامَةٍ فِى جَوْفِ أُدْحِىٍّ بِأَرْضٍ بَلْقَعِ (١٣)
وَكَأَنَّهَا أُكَرٌ تَوَقَّدَ نُورُهَا (بِالْكَهْرَبَاءَةِ) فِى سَمَاوَةِ مَصْنَعِ (١٤)
وَاللَّيْلُ مَرْهُوبُ الْحَمِيَّةِ ، قَائِمٌ فِى مِسْحِهِ ، كَالرَّاهِبِ الْمُتَلَفِّعِ (١٥)
مُتَوَشِّحٌ بِالنَّيِّرَاتِ ، كَبَاسِلٍ مِنْ نَسْلِ حَامٍ ، بِاللُّجَيْنِ مُدَرَّعِ (١٦)

وقال أبوقيس بن الأسلت :

وقد لاح فى الصبح الثريّا كما ترى * كعنقود ملاّحيّة حين نوّرا

وقال الشاعر :

كأنّ الثريّا راحة تشبر الدجى * لتنظر طال الليل ، أم قد تعرّضا

والقرط (بضم فسكون) : ما يعلّق فى شحمة الأذن من الحلى . والجمان (بضم الجيم) : حبّ يتّخذ من الفضّة على أشكال اللؤلؤ ، أو هو صغار اللؤلؤ ، الواحدة جمانة (بضم الجيم) . ومرصّع : محلّى مزيّن .

(١٣) بيضاء ناصعة : نقيّة صافية خالصة البياض ، أى النجوم . والأدحىّ : (بضم الهمزة وكسرها) : الموضع الذى تبيض فيه النعامة وتفرخ ، وتتّخذه عادة فى رمال الصحراء . وأرض بلقع (كجعفر) : خالية ملساء قفر لاشىء فيها .

(١٤) أكر (كغرف) : جمع أكرة (بضم فسكون) ، لغة فى الكرة . وتوقّد : اتّقد واشتعل . والسماوة : السقف (بفتح فسكون) . والمصنع : القصر العظيم .

شبّه النجوم المتلألئة فى الليل البهيم بمصابيح كهربيّة كرويّة الشكل يتوقّد نورها فى سقوف قصر عظيم .

(١٥) مرهوب : مخوف ، اسم مفعول من رهبته (من باب تعب) أى خفته . والحميّة : الأنفة (بفتح الهمزة والنون والفاء) والاستنكاف والاستكبار . والمسح (بوزن الملح) : ثوب غليظ من الشعر ، يلبسه الرهبان عادة . والراهب : المتعبّد فى صومعته ، وجمعه رهبان (كراكب وركبان) . والمتلفّع : اسم فاعل من تلفّعت بالثوب ، أى اشتملت به والتحفت وتغطّيت .

يشير إلى ما يستشعره الإنسان فى الليل المظلم من الرهبة والوحشة ، ويشبّهه بالراهب المتعبّد وقد تجلّل بمسوحه السود .

(١٦) متوشّح : مشتمل متلفّف متغطّ ، اسم فاعل من توشّحت المرأة ، أى تزيّنت بالوشاح ، وتوشّح الرجل بثوبه ، وهو أن يدخله من تحت يده اليمنى ، فيلقيه على منكبه الأيسر ، كما يفعل المحرم فى الحجّ . والنيّرات : النجوم المنيرة المشرقة . وباسل : شجاع . والنسل (بفتح فسكون) : الولد والذريّة . وحام : أحد أولاد نبىّ الله نوح عليه السلام ، وهو أبو السودان . واللجين : الفضّة . ومدرّع : عليه الدرع ، وهى لبوس الحديد ، يتّقى بها المحارب ضربات السيوف وطعنات الرماح ، اسم مفعول من درّعته بالدرع ، أى ألبسته إياها .

حَسِبَ النُّجُومَ تَخَلَّفَتْ عَنْ أَمْرِهِ فَوَحَى لَهُنَّ مِنَ الْهِلالِ بِإِصْبَعِ (١٧)
مَا زِلْتُ أَرْقُبُ فَجْرَهُ حَتَّى انْجَلَى عَنْ مِثْلِ شَادِخَةِ الْكُمَيْتِ الْأَتْلَعِ (١٨)
وَتَرَنَّمَتْ فَوْقَ الْأَرَاكِ حَمَامَةٌ تَصِفُ الْهَوَى بِلِسَانِ صَبٍّ مُولَعِ (١٩)
تَدْعُو الْهَدِيلَ ، وَمَا رَأَتْهُ ، وَتِلْكَ مِنْ شِيَمِ الْحَمَائِمِ بِدْعَةٌ لَمْ تُسْمَعِ (٢٠)

= شبّه الليل بباسل من نسل حام ، وجعل مابه من الكواكب المتلألئة درعاً فضيّة يتدرّع بها هذا الأسود .

(١٧) حسب : ظن ، أى الليل ، والنجوم مفعوله . وتخلّفت : تأخّرت . ووحى : أومأ وأشار . ولهن : للنجوم . والهلال : القمر لليلتين من أول الشهر ، وليلتين من آخره .

تخيّل أن الليل ظنّ النجوم تخلّفت عن أمره ، فأشار بإصبعه إليها ، لتتبعه وتطيع أمره . وإنما جعل هلال الليل إصبعاً ، لأن الإصبع تبدو مقوّسة كالهلال إذا أشار بها الإنسان إلى متخلّف ليتبعه ويلحقه .

(١٨) أرقبه : أرتقبه وأنتظره (وبابه دخل) . وانجلى : انكشف وظهر . والشادخة : غرّة (بضم الغين وتشديد الراء المفتوحة) الفرس إذا سالت واتّسعت وطالت وانتشرت ، وغشّت الوجه من الناصية إلى الأنف ، أو ملأت الجبهة . والكميت من الخيل : ماكان لونه بين السواد والحمرة . والأتلع : الطويل العنق .

يقول : ما زلت أترقّب فجر هذا الليل وأنتظره حتى ظهر منتشراً واسعاً مستطيلا كشادخة فى جبهة فرس كميت طويل العنق . فهو يشبّه الليل المظلم بالفرس الكميت ، وضياء الفجر ببياض جبهته إذا سال وانتشر وطال واتّسع .

(١٩) ترنّمت : هدرت ورجّعت صوتها وصدحت ، من الترنّم وهو تطريب الصوت والتغنّى . والأراك : شجر طويل ، أخضر ناعم ، كثير الورق والأغصان ، خوّار العود ، يستاك بفروعه ، وله حمل كعناقيد العنب ، واحدته أراكة . والهوى : الحبّ والغرام . وصبّ : عاشق مشوق ، صفة من الصبابة ، وهى رقّة الهوى وحرارة الشوق . ومولع : مغرم ، اسم مفعول من أولعه بالشىء ، أى أغراه به .

يشير إلى ما يسمع عقب طلوع الفجر من هدير الحمام ، وتغريد الطير ، وقد جعل الحمامة التى سمع هديرها محبّة عاشقة ، قد برّح بها الشوق والصبابة ، فهى تترنّم فوق شجر الأراك ، وتعبّر بترنّمها وتطريبها عما تحسّه من الهوى والغرام والصبابة والهيام .

(٢٠) الهديل (فيما تزعم العرب) : فرخ للحمام كان على عهد نوح عليه السلام ، فمات ضيعة وعطشاً أوصاده جارح من جوارح الطير ، فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه . وتلك : إشارة إلى دعاء الحمامة للهديل ، والبكاء عليه . وشيم (بكسر ففتح) : جمع شيمة (بكسر الشين وسكون الياء) وهى الجبلّة والغريزة =

رَيَّا الْمَسَالِكِ ، حَيْثُ أَمَّتْ صَادَفَتْ مَا تَشْتَهِي مِنْ مَجْثَمٍ أَوْ مَرْتَعِ (٢١)
فَإِذَا عَلَتْ سَكَنَتْ مَظَلَّةَ أَيْكَةٍ وَإِذَا هَوَتْ وَرَدَتْ قَرَارَةَ مَنْبَعِ (٢٢)
أَمْلَتْ عَلَيَّ قَصِيدَةً فَجَعَلْتُهَا «لِشَكِيبَ» تُحْفَةَ صَادِقٍ لَمْ يَدَّعِ (٢٣)
هِيَ مِنْ أَهَازِيجِ الْحَمَامِ ، وَإِنَّمَا ضَمَّنْتُهَا مَدْحَ الْهُمَامِ الْأَرْوَعِ (٢٤)
هُوَ ذَلِكَ الشَّهْمُ الَّذِي بَلَغَتْ بِهِ مَسْعَاتُهُ أَمَدَ السِّمَاكِ الْأَرْفَعِ (٢٥)

= والطبيعة .والحمائم :جمع حمامة .والبدعة (بكسر فسكون): الأمر المستحدث أو العجيب ، وهى اسم من الابتداع ، بمعنى الاختراع (كالرفعة من الارتفاع) . ولم تسمع : المراد لم تسمع فى غير الحمام .

(٢١) ريّا : صفة من الريّ، هو ضدّ العطش، يقال رجل ريّان، وامرأة ريّا . والمسالك : المذاهب والطرق،المفرد مسلك (كمذهب) اسم مكان من سلكت الطريق ، أى ذهبت فيه .و ريّا المسالك : مسالكها (أى الحمامة) ريّا عامرة بالماء والغذاء . وأمّت : قصدت . وصادفت : لقيت ووجدت . والمراد بالمجثم: الوكر (بفتح فسكون) والعشّ (بضم العين)، وأصله اسم مكان من جثم الطائر ، أى تلبّد بالأرض (وبابه دخل وجلس) . والمرتع : موضع الرتوع ،وهوالأكل والشرب رغداً فى الريف (وبابه خضع) . وفى البيت الآتى توضيح وتفصيل لمعنى هذا البيت .

(٢٢) علت: سمت وارتفعت ، أى الحمامة . والمظلّة (بفتح الميم وكسرها) : بيت كبير للأعراب ، يكون من الشعر أو الثياب ،وهى أوسع من الخباء (بكسر الخاء) ،وقد تطلق المظلّة على الخيمة والعريش المتّخذ من جريد النخل المستور بالثمام .والأيكة : واحدة الأيك (بفتح فسكون) وهوالشجر الكثير الملتفّ ،وقد شبّه الشاعر الأيكة بالمظلّة. وهوت: هبطت ، وهو ضدّ علا. وورد الإنسان وغيره الماء (من باب جلس) : أشرف عليه ، أوبلغه ووافاه . والقرار : أرض مطمئنة يندفع إليها الماء ، ويستقرّ فيها ، أوهى القاع المستدير . ومنبع الماء : موضع نبوعه وخروجه وتفجّره (وبابه قعد ونفع وجلس) .

(٢٣) أملت : ألقت ، من الإملاء ، وهوأن تلقى على الكاتب مايكتبه. والتحفة : ما أتحفت به صاحبك من البرّ واللطف . ولم يدّع : المراد لايدّعى الحبّ والوداد .

(٢٤) الأهازيج : الأغانى ،وقد ورد هذا الجمع كثيراً فى شعرالعرب، ولم نعثر على مفرده ،وكأنه جمع أهزوجة ، كأنشوده وأناشيد،وأغنيّة وأغانىّ ، وأمنيّة وأمانىّ، من الهزج(بفتحتين) وهو التطريب وتدارك الصوت وتقاربه فى خفّة وسرعة ، وأهازيج الحمام : هديرها وسجعاتها المتوالية المتقاربة . وضمّنتها: أودعتها ، تقول ضمّنت الوعاء المتاع ،أى جعلته فيه. والهمام: السيد العظيم الهمّة ،أو الشجاع السخىّ . والأروع : الذكىّ ، أومن يروعك ويعجبك بحسنه وجهارة منظره ،أو بشجاعته ، كالرائع .

(٢٥) الشهم : الذكىّ الفؤاد، المتوقّد، الجلد (بفتح فسكون) ،أوالسيد النجيد النافذ فى الأمور. والمسعاة : واحدة المساعى ، وهى مآثر أهل الشرف والفضل، لسعيهم فيها ، كأنها مكاسبهم وأعمالهم .=

نِبْرَاسُ دَاجِيَــةٍ ، وَعُقْلَةُ شَارِدٍ   وخَطِيبُ أَنْدِيَةٍ ، وَفَارِسُ مَجْمَعِ (٢٦)

صَدْقُ الْبَيَانِ ،أَعَضَّ « جَرْوَلَ » بِاسْمِهِ   وَثَنَى « جَرِيرًا » بِالْجَرِيرِ الْأَطْوَعِ (٢٧)

لَمْ يَتَّخِذْ بَدْرَ « الْمُقَنَّعِ » آيَةً   بَلْ جَاءَ خَاطِرُهُ بِآيَةِ « يُوشَعِ » (٢٨)

= والأمد : الغاية ، كالمدى (بفتح الميم والدال). والسماك (ككتاب) : كوكب نيّر لامع ، يضرب به المثل فى الارتفاع ، وهما سما كان : السماك الأعزل ، والسماك الرامح .

يشيد بذكائه وتوقّد فؤاده ، ونجدته ، ومساعيه ومكرماته التى رفعت قدره ، وأعلت شأنه .

(٢٦) النبراس : السراج والمصباح . والداجية : الظلمة (بضم فسكون) ، وليلة داجية : مظلمة. وعقلة شارد : المراد أنه يعتقله ويقيّده ، عقل الرجل البعير (من باب ضرب) أى ثنى وظيفه مع ذراعه فشدّهما فى وسط الذراع ، ومن كلامهم : لفلان عقلة يعتقل بها الناس فى الصراع . وشارد : اسم فاعل من شرد البعير ونحوه ، أى نفر واستعصى وذهب على وجهه . والأندية : جمع الندىّ (على زنة فعيل) وهو مجلس القوم ومتحدّثهم ، كالنادى والمنتدى . والفارس : العالم بركوب الخيل وركضها ، الثابت عليها ، الحاذق بأمرها ، صفة من الفروسيّة . والمجمع (كمقعد ومنزل) : مكان اجتماع الناس .

كنى بقوله : « نبراس داجية » عن جودة رأيه ، وهدايته للناس ، وقدرته على حلّ المشكلات وكنى بقوله : « عقلة شارد » عن إحاطته بشوارد اللغة وأوابدها .

(٢٧) صدق (بفتح فسكون) : صادق كامل ، من قولهم رجل صدق اللقاء والنظر . والبيان : القول الواضح البليغ . وجرول (كجعفر) : لقب الحطيئة الشاعر المخضرم المشهور المتوفى سنة ٥٩ هـ . والجرول (فى الأصل) : الأرض ذات الحجارة ، أو هو الحجارة . وأعضّه باسمه : جعله يعضّ الحجر ، وهذا كناية عن إخماله والتفوّق عليه ، يقال : أعضّ فلان خصمه الحجر ، وألقمه حجراً ، إذا غلبه فى الخصومة ونحوها . وجرير : هو أبو حزرة جرير بن عطيّة بن الخطفى التميمىّ اليربوعىّ ، أحد فحول الشعراء الإسلاميين ، ولد باليمامة ، ونشأ بالبادية ، واتصل بالحجّاج ، ثم بعبد الملك بن مروان ، ووقعت بينه وبين الفرزدق والأخطل تلك المهاجاة والملاحاة المشهورة ، ومات سنة ١١٠ هـ. والجرير : الحبل يقادبه البعير ونحوه ، أو هو حبل يجعل للبعير بمنزلة العذار للفرس . والأطوع : اسم تفضيل من طاع له يطوع (من باب قال) بمعنى انقاد. والشاعر يكنى بالشطر الثانى عن أن الممدوح أذلّ جريراً وغلبه ، بحسن بيانه ، وروعة شعره .

(٢٨) البدر : القمر الممتلىء إذا تمّ ضياؤه فى منتصف الشهر العربى . والمقنّع : لقب دجّال من بنى الشيطان ، اسمه ثور بن عميرة ، ادّعى الألوهيّة ، أو النبوّة بخراسان فى منتصف القرن الثانى الهجرىّ ، وكان يوهم الناس أنه يطلع البدر كلّ ليلة ، ويريهم فى الجوّ شيئاً يشبهه ، ويظهره لهم احتيالا ، ولمّا اشتهر أمره ، واتّضح كذبه قصده الناس ، وحاصروه فى قلعته ، فلمّا استيقن الهلاك قتل نساءه وأهله بالسمّ ، ثم قتل نفسه به . وآية : علامة . والخاطر : مايتحرّك فى القلب من رأى أو معنى ، والمراد به هنا : الذهن والبال والعقل . ويوشع بن نون بن عازر ، صاحب موسى ووصيّه ، وابن اخته وفتاه المذكور فى قول الله تعالى : « وإذْ قالَ موسَى لفتاه لاأبْرَحُ حتى أبْلُغَ مجمعَ البحرين أو أمضى حُقُباً » . وآية يوشع التى يشير إليها=

أَحْيَا رَمِيمَ الشِّعْرِ بَعْدَ هُمُودِهِ ... وَأَعَادَ لِلأَيَّامِ عَصْرَ «الأَصْمَعِي»(٢٩)

كَلِمٌ لَهَا فِي السَّمْعِ أَطْرَبُ نَغْمَةٍ ... وَبِحُجْرَةِ الأَسْرَارِ أَحْسَنُ مَوْقِعِ(٣٠)

كَالزَّهْرِ خَامَرَهُ النَّدَى ، فَتَأَرَّجَتْ ... أَنْفَاسُهُ بِالعَنْبَرِ المُتَضَوِّعِ(٣١)

يَعْنُو لَهَا الخَصْمُ الأَلَدُّ ، ويغتَذِى ... بِلِبَانِهَا ذِهْنُ الخَطِيبِ المِصْقَعِ(٣٢)

= الشاعر هى الشمس، وكان يوشع قد سأل الله أن يؤخّر غروبها ساعة حتى ينتهى من قتال أعداء الله الجبّارين ، فأجاب الله دعاءه .

والمعنى : أن بيانه بيان صادق بلغ درجة الإعجاز ، فلم يكن فيه تغرير وتمويه ، وانّما كان صادق الحجّة ، قوىّ الإلهام .

(٢٩) الرميم : البالى . والهمود : الموت، والأصل همدت النار (من باب قعد) همودا ، أى طفئت وذهبت البتة . والأصمعىّ (١٢٢ – ٢١٦ هـ): هو أبو سعد عبدالملك بن قريب ، ونسبته إلى جدٍّ له اسمه « أصمع » ، وكان الأصمعىّ إماما فى الأخبار والنوادر والملح والغرائب واللغة ورواية الشعر ، وكان كثير التطواف فى البوادى يقتبس علومها ، ويتلقّى أخبارها ، ويتحف بها الخلفاء، وله مؤلفات كثيرة فى اللغة .

(٣٠) الكلم : اسم جنس جمعىّ ، مفرده كلمة ، والمراد بالكلم : بيان الممدوح وشعره ، وقصيدته التى أرسلها إلى الشاعر . وأطرب : اسم تفضيل من الطرب (بفتحتين) وهو خفّة تصيب الإنسان لشدّة حزن أو سرور . والنغمة : (بفتح فسكون) جرس الكلمة ، وحسن وقعها فى النفس ، والمراد أن لبيانه وشعره نغمات حلوة شديدة التأثير فى النفس ، وأن سامعه يطرب له أشدّ الطرب . والمراد بحجرة الأسرار : القلب . وموقع : مصدر ميمىّ بمعنى الوقوع ، أو هو اسم مكان .

وصف بيانه وشعره بحسن الموقع ، وشدّة التأثير فى الأسماع والقلوب .

(٣١) خامره : خالطه . والندى : المطر القليل ، أو قطرات الماء تسقط آخر الليل ، أو هو ما أصاب من بلل . وتأرّجت أنفاسه : فاحت رائحته الطيبة وانتشرت . والعنبر : نوع من الطيب . والمتضوّع . اسم فاعل من تضوّع المسك والطيب ونحوه ، أى تحرّك فانتشرت رائحته .

(٣٢) يعنو : يخضع . والخصم : المخاصم المجادل (بصيغة اسم الفاعل فيهما) . والألدّ : الشديد الخصومة. ويغتذى : يتغذّى . واللبان (بكسر اللام): اللبن (بفتح اللام والباء) . والذهن : الفهم والعقل ، والفطنة والحفظ . وخطيب مصقع (بكسر فسكون ففتح) : بليغ تنقاد له المعانى والألفاظ ، أو رفيع الصوت ، أو يذهب فى كلّ صقع (بضم فسكون) من الكلام ، أى ناحية .

يقول : إن كلمات الممدوح يخضع لها الخصم العنيد ، أى ينبهر إذا سمعها ، ولا يسعه إلا الاستسلام والانقياد، وهى غذاء نافع طيّب لذهن الخطيب البليغ الماهر ، يستعين بها ، ويقتبس منها .

هِيَ نُجْعَةُ الْأَدَبِ الَّتِي مَنْ أَمَّهَا ... أَلْقَى مَرَاسِيَهُ بِوَادٍ مُمْرِعِ (٣٣)

مَلَكَتْ هَوَى نَفْسِي، وَأَحْيَتْ خَاطِرِي ... وَرَوَتْ صَدَى قَلْبِي، وَلَذَّتْ مِسْمَعِي (٣٤)

فَاسْلَمْ «شَكِيبُ» وَلَا بَرِحْتَ بِنِعْمَةٍ ... تَحْنُو عَلَيْكَ بِأَيْكِهَا الْمُتَفَرِّعِ (٣٥)

فَلَأَنْتَ أَجْدَرُ بِالثَّنَاءِ لِمِنَّةٍ ... أَوْلَيْتَهَا، وَالْبِرُّ أَفْضَلُ مَا رُعِي (٣٦)

---

(٣٣) هي : أى كلم الممدوح وبيانه وأدبه وشعره . والنجعة : اسم من الانتجاع ، وهو طلب الكلأ فى موضعه ، يقال : انتجع القوم ، إذا ذهبوا لطلب الكلأ فى موضعه ، وقد تطلق النجعة على مسقط الغيث ، وموضع الكلأ والعشب . وأمّها : قصدها . والمراسي : جمع مرساة (بكسر فسكون) وهى أنجر السفينة الذى يشدّ بالحبال ، ويرسل فى الماء ، فيرسيها ، ويمسكها حتى لا تسير . وألقى مراسيه : كناية عن الاستقرار والاطمئنان والثبات . وواد ممرع : خصيب كثير المرعى والكلأ .

والمراد أن أدب الممدوح رفيع ممتع شائق نافع كثير خصيب ، يغنى عن كلّ ما عداه ، كالوادى المخصب الممرع ، الذى يستقرّ فيه من قصده ، ولا يبغى عنه حولا .

(٣٤) ملكت : أى الكلم المراد بها بيان الممدوح وأدبه وشعره وقصيدته التى أرسلها إلى الشاعر . وهوى النفس : ميلها . والخاطر : كلّ ما خطر وتحرّك فى القلب من رأى أو معنى ، أو تدبير أو أمر . وروت : المراد أروت ، وفى لسان العرب : يقال رويت القوم أرويهم ، إذا استقيت لهم . . . ، ورويت على أهلى ولأهلى ريًّا : أتيتهم بالماء اهـ (وبابه رمى) . وقد سمّت العرب البعير أو البغل أو الحمار الذى يستقى عليه راوية ، كما أطلقوا الراوية على المزادة التى فيها الماء ، وهى فى الأصل اسم فاعل من روى ، وهذا كله يرجّح صحة استعمال روى بمعنى أروى . والصدى : شدّة العطش ، (وبابه تعب) . والمسمع : الأذن (بضمتين) .

يشيد بشعر الممدوح وبيانه ، ويصف أثره الشديد الجميل المحمود فى نفسه وخاطره ، وقلبه ومسمعه .

(٣٥) اسلم : أمر يراد به الدعاء بالسلامة . وتحنو : تعطف وتميل . والأيك : جمع أيكة ، وهى الشجر الكثير الملتفّ . والمتفرّع : الكثير الفروع والأغصان .

دعا له بالسلامة من الآفات ، والاستمرار فى الخفض والدعة والنعمة السابغة الواسعة .

(٣٦) أجدر : أحقّ وأولى . والمنّة : النعمة والإحسان والصنيعة والمعروف ، والمراد بالمنّة هنا : القصيدة التى بعث بها الممدوح إليه مثنياً فيها عليه . وأوليتها : أسديتها وقدّمتها ، وأصل الإيلاء الإدناء والتقريب . والبرّ : الخير . ورعى : حفظ (بالبناء للمجهول فيهما) .

يشكر للممدوح قصيدته التى بعث بها إليه ، ويعدّها منه برًّا وخيراً ينبغى أن يصان ويرعى ، ويشاد به .

أَرْهَفْتَ حَدِّى ، فَهْوَ غَيْرُ مُفَلَّلٍ وَرَعَيْتَ عَهْدِى ،فَهْوَ غَيْرُ مُضَيَّعِ (٣٧)

وَبَثَقْتَ لِى مِنْ فَيْضِ بَحْرِكَ جَدْوَلاً غَمَرَ الْبِحَارَ بِسَيْلِهِ الْمُتَدَفِّعِ (٣٨)

عَذُبَتْ مَوَارِدُهُ ، فَلَوْ أَلْقَتْ بِهِ هِيمُ السَّحَابِ دِلَاءَهَا لَمْ تُقْلِعِ (٣٩)

وَزَهَتْ فَرَائِدُهُ ، فَصَارَتْ غُرَّةً لِجَبِينِ كُلِّ مُتَوَّجٍ وَمُقَنَّعِ (٤٠)

---

(٣٧) إرهاف السيف : سنّه وترقيق حدّه . وحدّ كلّ شيء طرف شباته ، أو مارقّ من شفرته ، كحدّ السكّين والسيف والسنان والسهم . وأرهفت حدّى : قوّيت عزمى ، وضاعفت همّتى . ومفلّل : مثلّم مكسّر . ورعيت : حفظت وصنت . والعهد : الميثاق والحقّ والحرمة والوفاء .

(٣٨) بثقت : أجريت ، من البثق (بفتح فسكون) ، وهو كسرك شطّ النهر ، لينبثق الماء ويسيل ويجرى . وفيض بحرك : بحرك الفيّاض الطامى الكثير الماء ، وهو مصدر فاض الماء (من باب باع) ، أى كثر حتى سال على ضفّة الوادى . والجدول : مسيل الماء . وغمر البحار : ملأها وعلاها وغطاها . والسيل : الماء الكثير السائل الجارى . والمتدفّع : المنصبّ الغزير السريع الذى يدفع بعضه بعضاً . جعل ذهن الممدوح الخصيب ، وخاطره الفيّاض ، وملكته البيانيّة القويّة كالبحر الطامى ، وجعل القصيدة التى بعث بها الممدوح إليه كالجدول المنبثق من ذلك البحر العظيم ، ثم وصف هذا الجدول بغزارة الماء وكثرته وفيضانه ، حتى إنه ملأ بسيله المتدفّع البحار وغمرها وغطّاها . والمعنى : أن قصيدة الممدوح فرعت غيرها من الشعر وفاقته .

(٣٩) عذبت : طابت وساغت . وموارده : موارد الجدول المشبهة به قصيدة الممدوح ، جمع مورد ، أو موردة (بفتح فسكون فكسر فيهما) ، اسم مكان من ورد الإنسان وغيره الماء ، أى بلغه ووافاه ، أو أتاه ليشرب منه ، فالمورد والموردة : مأتاة الماء ، والطريق إليه ، وموضع أخذه . وعذوبة موارد الشعر : جودته ، وحسن قبوله ، وارتياح النفس له . والهيم (فى الأصل) : الإبل العطاش ، المفرد أهيم وهيماء (كأبيض وبيضاء) . والدلاء : جمع دلو (بفتح فسكون) ، وهى التى يستقى بها ، أى يستخرج بها الماء من الآبار ونحوها . ولم تقلع : لم تكفّ ، ولم تترك ، والمراد لم تكفّ عن الشرب ، فهى إذا اتصلت بهذا الجدول ظلّت تشرب منه لاتريم . وقد جرى البارودىّ فى هذا البيت على ماكان يزعمه العرب من أن السحائب تشرب الماء من البحار وغيرها ، ثم تلقيه مطراً ، قال أبو ذؤيب يصف السحاب :

شربن بماء البحر ، ثم ترفّعت متى لجج خضر لهنّ نئيج

و « متى » فى هذا البيت بمعنى « من » .

وصف شعر الممدوح بأنه عذب سائغ جيّد بليغ ، غزير المعنى ، خصيب الخيال ، وجعله كالمورد المتفجّر ، والينبوع الفيّاض .

(٤٠) زهت : لمعت وأشرقت وأضاءت . والفرائد : اللآلئ والدرر التى تفصل بين الذهب فى القلادة المفصّلة ، الواحدة فريدة . لمّا شبّه ذهن الممدوح وملكته البيانيّة بالبحر الفيّاض حسن تشبيه كلماته البليغة =

هُوَ ذَلِكَ النَّظْمُ الَّذِى شَهِدَتْ لَهُ ... أَهْلُ الْبَرَاعَةِ بِالْمَقَالِ الْمُبْدَعِ (٤١)
أَبْصَرْتُ مِنْهُ أَخَا «إِيادٍ» خَاطِبًا ... وَسَمِعْتُ «عَنْتَرَةَ الْفَوَارِسِ» يَدَّعِى (٤٢)
وحَلَمْتُ أَنِّى فِى خَمَائِلِ جَنَّةٍ ... وَمِنَ الْعَجَائِبِ حَالِمٌ لَمْ يَهْجَعِ (٤٣)

= بالفرائد واللآلئ المشرقة. والغرّة : بياض مستحسن مستدير فى وسط جبهة الفرس . والجبين : ناحية الجبهة فوق الصدغ ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، وقد يطلق الجبين ويراد به الجبهة . والمتوّج : اسم مفعول من توجّه ، أى ألبسه التاج ، وقد تسمّى العرب العمامة تاجاً. والمقنّع : المغطّى بالقناع ، وهو ماتغطّى به المرأة رأسها .

يشبّه شعر الممدوح باللآلئ الفريدة التى تزين جبين كلّ ملك وكلّ متزيّنة من النساء . أو المعنى : أن هذا الشعر مشرق الديباجة ، ناصع البيان، وهو زينة وجمال لكلّ من رواه وتمثّل به وتأدّب من الرجال والنساء .

(٤١) هو : أى الجدول المشبّهة به قصيدة الممدوح . والنظم : الكلام المنظوم . وأهل البراعة : أهل الفضل والتفوّق ، مصدر برع الرجل ، أى فاق أصحابه فى العلم وغيره . والمقال : القول . والمبدع : البديع الطريف الرائع ، اسم مفعول من أبدعت الشيء إبداعاً ، أى اخترعته لاعلى مثال .

(٤٢) أخو إياد : قسّ بن ساعدة بن عمرو بن عدىّ بن مالك، من بنى إياد، أحد حكماء العرب فى الجاهليّة ، وخطيبهم وواعظهم المضروب به المثل فى اللّسن والفصاحة والبلاغة ، وكان يفد على قيصر الروم زائراً ، فيكرمه ويعظّمه ، وسمعه النبى صلّى الله عليه وسلّم قبل البعثة يخطب فى عكاظ ، فعجب من حسن كلامه ، وأثنى عليه ، وعمّر طويلا ، ومات نحو سنة ٢٣ ق . هـ. وخاطباً : اسم فاعل من خطب يخطب خطابة. وعنترة الفوارس : عنترة بن عمرو بن شدّاد العبسىّ ، من أهل نجد ، كان من فرسان العرب المعدودين ، وشعرائهم المشهورين ، ومن أحسنهم شيمة ، وأعلاهم همّة ، وأعزّهم نفساً ، وكان مع شدّة بطشه حليماً كريماً ، شديد النخوة، لطيف المحاضرة ، رقيق الشعر ، بصيراً بأساليبه وفنونه ، حسن التصرّف فى معانيه، وقد اجتمع فى شبابه بامرئ القيس الكندىّ الشاعر المشهور ، وعاش طويلا ، ومات مقتولا حوالى سنة ٢٢ ق. هـ. وفلان يدّعى بكرم فعاله : يخبر عن نفسه بذلك .

يشبّه بيان الممدوح ببيان قسّ بن ساعدة الإيادىّ ، وعنترة بن شدّاد العبسىّ .

(٤٣) حلمت (كنصرتُ): من الحلم (بضم فسكون ، أو بضمتين) وهو رؤيا النائم. والخمائل جمع خميلة ، وهى الشجر الكثير المجتمع الملتفّ . والجنّة : الحديقة ذات الشجر والنخيل والأعناب . ولم يهجع : لم ينم.

والمعنى : أنه لمّا قرأ شعر الممدوح استشعر اللّذة والنعيم، فتخيّل أنه فى جنّة يتمتّع بما فيها من بهاء وجمال وسعادة ، ثم يعجب بعد ذلك من أنه يحلم وهو يقظان .

فَضْلٌ رَفَعْتَ بِهِ مَنَارَ كَرَامَةٍ صَرَفَ الْعُيُونَ عَنِ الْمَنَارِ «لِتُبَّعِ» (٤٤)
فَمَتَى أَقُومُ بِشُكْرِ مَا أَوْلَيْتَنِي وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ غَايَةً مِنْ مَنْزِعِي (٤٥)
فَاعْذِرْ إِذَا قَصَرَ الثَّنَاءُ، فَإِنَّنِي رُزْتُ الْمَقَالَ فَلَمْ أَجِدْ مِنْ مَقْنَعِ (٤٦)
لَا زِلْتَ تَرْفُلُ فِي وِشَاءِ سَعَادَةٍ وَحَبِيرِ عَافِيَةٍ، وَعَيْشٍ أَمْرَعِ (٤٧)

---

(٤٤) المنار: أعلام الطريق التي يهتدي بها المسافرون في الصحارى ونحوها. والكرامة: اسم من الإكرام أو التكريم، أو المصدر من قولهم: كرم (كشجع) علينا فلان كرامة، ورفع منار الكرامة: كناية عن إظهارها إظهاراً تاماً. ومنار «تبّع» أعلامه التي كان يقيمها على طريقه في مغازيه وحروبه ليهتدي بها، ولقّب بذي المنار؛ لأنه أوّل من أقامها في الطرق والمسالك للهداية، وهو من تبابعة اليمن، أي ملوكها في الجاهلية، وكانوا كأكاسرة الفرس وقياصرة الروم، واسمه أبرهة بن الحارث.

(٤٥) أوليتني: أسديت إليّ وأعطيتني. ومنزع (كمجلس): اسم مكان من نزعت إلى الشيء، أي ملت إليه واتّجهت.

يريد أنه يتوق إلى القيام بشكر الممدوح، وإيفائه حقّه من الثناء، ولكنّه لا يستطيع القيام بكلّ حقّه، ويرى النجم أقرب مما ينزع إليه ويميل، وفي البيت الآتي تكملة وإيضاح لمعنى هذا البيت.

(٤٦) قصر (من باب دخل): عجز عن بلوغ الغاية، أو هي قصر (ككرم) بمعنى لم يطل. ورزت المقال: اختبرت القول، وقدّرته، وامتحنته، (وبابه قال)، و«من» في الشطر الثاني زائدة. ومقنع: مصدر ميمي بمعنى القناعة والرضا، أو هي مقنع، اسم فاعل من أقنعه الشيء، أي أرضاه.

يريد: لم أجد في القول ما يقنعني ويرضيني، ويعينني على ما أبتغيه من إتمام الثناء عليك، وإيفائك ما تستحقّه من الشكر.

(٤٧) رفل في ثيابه (كنصر وفرح): جرّ ذيله، وركضه برجله متبختراً، وهو كناية عن الغبطة والنعيم والرفاهة. والوشاء: الثياب الموشّاة المختلفة الأصباغ والألوان. والحبير من البرود والثياب: الجديد الناعم، أو ما كان منها موشّياً مخطّطاً منقوشاً. والعافية: السلامة من الأسقام والآفات. والعيش: المعيشة والحياة. وأمرع: المراد مريع أو ممرع، من قولهم: مرع المكان وأمرع، أي أخصب، وكثر فيه العشب والكلأ والنبات.

دعا له بأن يبقى رافلاً في ثياب السعادة والعافية، والحياة الناعمة الهانئة الطيّبة.

وقال :

هَلْ بِالْحِمى عَنْ سَرِيرِ الْمُلْكِ مَنْ يَزَعُ؟ ... هيْهَاتَ ، قَدْ ذَهَبَ الْمَتْبُوعُ والتَبَعُ (١)
هَذِى «الْجَزِيرَةُ» فَانْظُرْ هَلْ تَرَى أَحَدًا ... يَنْأَى بِهِ الْخَوْفُ ، أَوْ يَدْنُو بِهِ الطَّمَعُ؟ (٢)
أَضْحَتْ خَلَاءً ، وَكَانَتْ قَبْلُ مَنْزِلَةً ... لِلْمُلْكِ ، مِنْهَا لِوَفْدِ الْعِزِّ مُرْتَبَعُ (٣)
فَلَا مُجِيبَ يَرُدُّ الْقَوْلَ عَنْ نَبَإٍ ... وَلَا سَمِيعَ إِذَا نَادَيْتَ يَسْتَمِعُ (٤)
كَانَتْ مَنَازِلَ أَمْلَاكٍ ، إِذَا صَدَعُوا ... بِالْأَمْرِ كَادَتْ قُلُوبُ النَاسِ تَنْصَدِعُ (٥)
عَاثُوا بِهَا حِقْبَةً ، حَتَّى إِذَا نَهَضَتْ ... طَيْرُ الْحَوَادِثِ مِنْ أَوْكَارِهَا وَقَعُوا (٦)

(١) الحمى : المكان المحمىّ الذى لايقرب ولايجترأ عليه ، وأصله أن الشريف أو السيد من سادات العرب فى الجاهلية كان يستأثر ويختص ببعض الأمكنة والوديان المرعة المخصبة ذات العشب والكلأ ، فلا ترعى فيه غير ماشيته ، ولا يشاركه فيه غيره ، وكان يقال لذلك المكان أو الوادى : هو حمى فلان. ويزع : يكفّ : ويمنع ، ويدافع ، وهيهات : كلمة تبعيد ، وهى مبنيّة على الفتح. والمراد بالمتبوع الحاكم والمالك الذى يتبعه الناس ، ويدخلون فى طاعته . والتبع : التابعون ، وهم الرعيّة والمحكومون .

(٢) ينأى : يبعد . ويدنو : يقرب .

والمراد أن الجزيرة خلت ممن كانوا يرهبون سطوة أصحاب السلطان فينأون عنهم ، وممن كانوا يطمعون فى عطائهم فيتقرّبون إليهم .

(٣) أضحت : صارت ، أى الجزيرة . وخلاء : خالية . ومنزلة : منزل ومستقرّ . والوفد : جمع وافد (كصاحب وصحب) اسم فاعل من وفد فلان على الملك والأمير ، أى قدم وورد رسولا . والمرتبع : المكان الذى ينزل فيه الناس أيام الربيع ، كالمصيف من صاف ، والمشتّى من شتا ، والمراد بالمرتبع المكان الخصيب.

يقول : إنها صارت خالية من أسباب الحياة والعمران ، وكانت قبل اليوم منزلا ومستقرًّا للملك ، ومقاماً لمظاهر العزّ والقوّة والسلطان .

(٤) يردّ القول : يجيب . والنبأ : الخبر ، والجمع أنباء . ويستمع : يسمع .

(٥) كانت : أى الجزيرة . وأملاك : ملوك ، جمع ملك (بفتح فكسر) . وصدعوا بالأمر : جهروا به ، وأعلنوه . وتنصدع : تنفطر وتنشقّ .

يصف عظمة هؤلاء الملوك ، وقوّة سلطانهم ، وشدّة بأسهم ، وما كان لهم فى قلوب الناس من رهبة.

(٦) عاثوا : أفسدوا (وبابه باع) وقد تكون محرّفة عن «عاشوا» (وبابه باع) . والحقبة من الدهر : مدة غير محدودة . ونهض الطائر : بسط جناحيه ليطير . وحوادث الدهر : نوبه (بضم ففتح) ونوازله . والأوكار : جمع وكر (بفتح فسكون) ، وهو عشّ الطائر .

لَوْ أَنَّهُمْ عَلِمُوا مِقْدَارَ مَا فَغَرَتْ ... بِهِ الْحَوَادِثُ مَا شَادُوا ، وَلَا رَفَعُوا(٧)

دَارَتْ عَلَيْهِمْ رَحَى الْأَيَّامِ ،فَانْشَعَبُوا ... أَيْدِى سَبَا ، وَتَخَلَّتْ عَنْهُمُ الشِّيَعُ(٨)

كَانَتْ لَهُمْ عُصَبٌ يَسْتَدْفِعُونَ بِهَا ... كَيْدَ الْعَدُوِّ ، فَمَا ضَرُّوا ، وَلَا نَفَعُوا(٩)

أَيْنَ الْمَعَاقِلُ ،بَلْ أَيْنَ الْجَحَافِلُ ،بَلْ ... أَيْنَ الْمَنَاصِلُ وَالْخَطِّيَّةُ الشُّرَّعُ(١٠)

لَا شَيْءَ يَدْفَعُ كَيْدَ الدَّهْرِ إِنْ عَصَفَتْ ... أَحْدَاثُهُ ، أَوْ يَقِى مِنْ شَرِّ مَا يَقَعُ(١١)

---

(٧) فغر فاه : فتحه ، وفغر الفم : انفتح ، يتعدّى ولايتعدّى . وشادالقصر : رفعه ، أو طلاه بالشيد (بكسر الشين وسكون الياء) وهوالجصّ ونحوه .

(٨) دارت عليهم رحى الأيام : المراد اشتدّت عليهم الخطوب والنوازل ، كمايقال دارت رحى الحرب ، إذا قامت على ساقها ، وتأجّجت نيرانها ، وكما يقال دارت عليهم الدوائر ، إذا نزلت بهم الدواهى . وانشعبوا : تشتّتوا وتفرّقوا وتبدّدوا. وسبأ: لقب عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان أبى القبائل اليمنيّة ، أوبلدة بلقيس ،أومدينة مأرب ، وكانت على مسيرة ثلاث ليال من صنعاء ، والمراد بسبأ: القبائل اليمنيّة القديمة ، والعرب تضرب بهم المثل فى الفرقة ، لأنهملما غرقت بلادهم فى الجاهلية بسيل العرم ، وذهبت جنّاتهم تبدّدوا فى البلاد، ومزّقهم الله كلّ ممزّق ، فأخذت كلّ طائفة منهم طريقاً على حدة . والأيدى : جمع اليد ، بمعنى الطريق ، أى فرّقتهم طرقهم التى سلكوها ،أو الأيدى : الفرق والجماعات ، والمعنى تفرّقوا تفرّق جماعات سبأ ، والعرب لاتهمز سبأ فى هذا الموضع . وتخلّت عنهم : تركتهم ، وأعرضت عنهم . والشيع : الأتباع والأنصار .

والمعنى : اشتدّت عليهم الخطوب والنوازل فبدّدت شملهم ، ولم ينفعهم أعوانهم .

(٩) عصب : أشياع وأنصار ، جمع عصبة(بضمفسكون) وهم جماعة الناس . ويستدفعون : يدفعون ويصدّون ، والمفهوم من اللسان وغيره أن هذا الفعل يتعدّى بنفسه إلى مفعولين ، يقال : استدفعت الله تعالى الأسواء ، أى طلبت منه أن يدفعها عنى . وكيد العدوّ : خداعه ومكره وشرّه . والضمير فى « ضرّوا » و« نفعوا » يعود على العصب .

والمعنى : أن جنودهم وأشياعهم وأتباعهم لم يدفعوا عنهم كيد الخطوب وعدوان الزمان .

(١٠) المعاقل : الحصون ، مفردها معقل (كمسجد) . والجحافل جمع جحفل (كجعفر) وهو الجيش الكثير يتألّف من الفرسان والمشاة . والمناصل: السيوف ، جمع منصل (بضم فسكون فضم ، أو بضم فسكون ففتح) . والخطّيّة: الرماح ، نسبة إلى الخطّ (بفتح الخاء وتشديد الطاء) وهو مرفأ السفن بالبحرين على خليج فارس ، وكانت الرماح تباع فيه . والشرع (فيما نستظهره) : جمع شارع (كخادم وخدم) اسم فاعل من شرع الرمح ، أى تسدّد ، يقال: شرعت نحوه الرمح ، أى سدّدته إليه ، فشرع (كمنع) ، أى تسدّد واتّجه .

(١١) عصفت : اشتدّت ، من عصف الريح ، أى اشتدادها (وبابه ضرب) . وأحداث الدهر : نوبه ونوازله وخطوبه .

زَالُوا ، فَما بَكَتِ الدُّنْيَا لِفُرْقَتِهِمْ ... وَلاَ تَعَطَّلَتِ الأَعْيَادُ وَالْجُمَعُ (١٢)

وَالدَّهْرُ كَالْبَحْرِ لَا يَنْفَكُّ ذَا كَدَرٍ ... وَإِنَّمَا صَفْوُهُ بَيْنَ الْوَرَى لُمَعُ (١٣)

لَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ فِكْرٌ فِي عَوَاقِبِهِ ... مَا شَانَ أَخْلاَقَهُ حِرْصٌ وَلَا طَبَعُ (١٤)

وَكَيْفَ يُدْرِكُ مَا فِي الْغَيْبِ مِنْ حَدَثٍ ... مَنْ لَمْ يَزَلْ بِغُرُورِ الْعَيْشِ يَنْخَدِعُ (١٥)

دَهْرٌ يَغُرُّ ، وَآمَالٌ تَسُرُّ وَأَعْ ... مَارٌ تَمُرُّ ، وَأَيَّامٌ لَهَا خُدَعُ (١٦)

يَسْعَى الْفَتَى لِأُمُورٍ قَدْ تَضُرُّ بِهِ ... وَلَيْسَ يَعْلَمُ مَا يَأْتِي وَمَا يَدَعُ (١٧)

يَأَيُّهَا السَّادِرُ الْمُزْوَرُّ مِنْ صَلَفٍ ... مَهْــلًا ، فَإِنَّكَ بِالأَيَّامِ مُنْخَدِعُ (١٨)

---

(١٢) زالوا : هلكوا وماتوا . والفرقة : الفراق .

(١٣) الورى : الخلق (بفتح فسكون). واللمع : جمع لمعة (بضم فسكون) وهى النقطة من أى لون فى لون يخالفه ، يقال : به لمعة من سواد ، أو بياض ، أو أىّ لون كان .

والمراد أن صفو الدهر يأتى قليلا متقطّعاً ، كما تبدو النقط المتفرّقة فى لون يخالفها .

(١٤) شان : عاب . والطبع (بفتح الطاء والباء) : الشين والدنس والعيب .

يقول : لو فكّر الإنسان فى العواقب لاتّعظ واعتبر ، وظلت أخلاقه سليمة خالصة من العيب والحرص والجشع والدنس .

(١٥) المعنى : أن الذى ينخدع بزخرف الحياة الدنيا ، ويطمع فى باطلها ، لا يدرك ما تضمره الأيام من الأحداث والنوازل ، لأن انغماسه فى متع الحياة يحول بينه وبين التفكير فيما قد يفجؤه به القدر .

(١٦) غرّه : خدعه ، وأطمعه بالباطل ، وأراد به المكروه من حيث لايعلم ، وأظهر له خلاف مايبطن . والخدعة (بضم فسكون) : الاسم من الخداع ، والجمع خدع (كغرفة وغرف) ، أو الخدعة : مايخدع به الإنسان ، مثل اللّعبة لما يلعب به .

(١٧) يدع : يترك .

والمعنى : أن الإنسان لايعرف وجه الضرّ والنفع فيما يزاوله أو يتركه من الأعمال ، ولهذا قد يسعى لأمور تضرّه وتؤذيه .

(١٨) السادر : الذى لايهتمّ لشيء ، ولايبالى ماصنع . والمزورّ : المنحرف المائل ، اسم فاعل من ازورّ عن الشيء ، أى عدل عنه وانحرف ومال . والصلف : التكبّر ، أو أن يتمدّح الإنسان بما ليس عنده ، أو مجاوزة قدر الظرف ، والادّعاء فوق ذلك تكبّراً .

دَعْ مَا يَرِيبُ ، وَخُذْ فِيمَا خُلِقْتَ لَهُ ... لَعَلَّ قَلْبَكَ بِالْإِيمانِ يَنْتَفِعُ[١٩]
إنَّ الْحَيَاةَ لَثَوْبٌ سَوْفَ تَخْلَعُهُ ... وَكُلُّ ثَوْبٍ إِذَا مَا رَثَّ يَنْخَلِعُ[٢٠] *

وقَالَ وَهُوَ بِسَرَنْدِيب ** :

لَبَّيْكَ يَا دَاعِيَ الْأَشْوَاقِ مِنْ داعِي ... أَسْمَعْتَ قَلْبِي وَإِنْ أَخْطَأْتَ أَسْمَاعِي[١]
مُرْنِي بِمَا شِئْتَ أَبْلُغْ كُلَّ مَا وَصَلَتْ ... يَدِي إِلَيْهِ ، فَإِنِّي سَامِعٌ وَاعِي[٢]

(١٩) دع : اترك واجتنب . ويريب : يوقع فى الريبة (بكسر الراء وسكون الياء) وهى الظنّة والتهمة والارتياب والشكّ ، تقول : رابنى من فلان كذا (من باب باع) ، وأرابنى . إذا رأيت منه ما يريبك وتكرهه . وفى الحديث : « دع مايريبك إلى مالا يريبك » أى دع ماتشكّ فيه إلى مالا تشكّ فيه ، والمراد الحضّ على اجتناب مواطن الإثم والشبهات . وخذ فيما خلقت له : أقبل على الطاعة والعبادة ، وفيه إشارة إلى قول الله تبارك وتعالى « وما خَلَقْتُ الجنّ والإنسَ إلّا ليَعْبُدونِ » .

(٢٠) رثّ : بلى وَخَلَقَ وذَهَبَتْ جِدّته .

* بعد عودة البارودىّ من حرب « كريد » سنة ١٨٦٧ م نقل من آلاى فرسان الجيش وعيّن ياوراً للخديو « إسماعيل » ، ولبث فى المعيّة الخديوية نحو ثمانية أعوام . وقبيل وفاته سنة ١٩٠٤ مرّ بقصر الجزيرة الذى قضى فيه ردحاً من حياته المترفة الناعمة اللاهية وهوياور « للخديو إسماعيل » ؛ فهاجته ذكريات ذلك العهد السعيد ، وهوفى ريعان شبابه ، وعنفوان فتوّته (بين الثامنة والعشرين والسادسة والثلاثين من عمره) ؛ فنظم هذه العينيّة الخالدة ، .وقد نشرتها مجلة المنار للشيخ « محمد رشيد رضا» فى عددها رقم ٢١ من المجلد السابع ، بتاريخ يناير سنة ١٩٠٥ وقدّمت لها بقولها : « ومرّ بقصر الجزيرة بعد عودته من « سيلان » ؛ فتذكّر أيام إسماعيل ، ونظم معتبراً ومذكّراً وهى من أواخر مانظمه » .

** سرنديب « سيلان » : جزيرة من أراضى الهند ، فى جنوبيّها ، وكان الشاعر قد نفى إليها عقب الثورة العرابية فى صفرسنة ١٣٠٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) .

(١) لبّيك : لزوماً لطاعتك ، أوأنا مقيم على طاعتك . وداع : اسم فاعل من دعاه ، أى ناداه. وأخطأت أسماعى : من قولهم : أخطأ المسافر الطريق ، أى عدل عنه وانحرف ومال ، وأخطأ الرامى الغرض : إذا لم يصبه .

يتخيّل أن الأشواق تدعوه وتناديه نداء يعيه القلب ، ولا تسمعه الأذن ، فهو يجيب دعاءها ، ويلبى نداءها ، ويقيم على طاعتها .

(٢) كلّ ما وصلت يدى إليه : كلّ مااستطعته وقدرت عليه . وواع : حافظ ، اسم فاعل من وعيت الحديث ، أى حفظته وفهمته وقبلته .

يقول لداعى الأشواق : مرنى بما شئت أطعك فى كلّ ما استطعته ، وقدرت عليه ، فإنى سامع لدعائك ، واع لندائك ، مطيع لأمرك .

فَلَا وَرَبِّكَ مَا أُصْغِى إِلَى عَــذَلٍ   وَلَا أُبِيحُ حِمَى قَلْبِى لِخَدَّاعِ (٣)

إِنِّى امْرُؤٌ لَا يَرُدُّ الْعَذْلُ بَادِرَتِى   وَلَا تَفُلُّ شَبَاةُ الْخَطْبِ إِزْمَاعِى (٤)

أَجْرِى عَلَى شِيمَةٍ فِى الْحُبِّ صَادِقَةٍ   لَيْسَتْ تَهُمُّ إِذَا رِيعَتْ بِإِقْلَاعِ (٥)

لِلْحُبِّ مِنْ مُهْجَتِى كَهْفٌ يَلُوذُ بِهِ   مِن غَدْرِ كُلِّ امْرِئٍ بِالشَّرِّ وَقَّاعِ (٦)

---

(٣) فلا وربّك: فأقسم بربّك، و« لا » مزيدة لتأكيد معنى القسم. وأصغى: أميل بسمعى، مضارع أصغى إلى حديثه (كأكرم) أى مال بسمعه نحوه، ويجوز أن يكون مضارع « صغى » الثلاثى، بمعنى مال، (وبابه عدا وسما ورى وصدى). والعذل (بسكون الذال وفتحها): اللوم. وأبحتك الشىء: أحللته لك. وحمى قلبى: قلبى الشبيه بالحمى، وهو المكان المحمىّ الذى لايقرب، ولا يجترأ عليه. وفى الشطر الثانى إشارة إلى أن العذل فى مثل هذه الحال نوع من الخداع.

يقسم بالله إنه يبقى على شوقه وحبّه، وإن سمعه وقلبه لن يتأثرا بعذل عاذل، ولا بخداع خدّاع.

(٤) البادرة: مايبدر من الإنسان عند حدّته وغضبه من قول أو فعل، والمراد بالبادرة هنا: شدّة العزم، وقوّة الإرادة. وتفلّ: تكسر وتضعف (وبابه ردّ). وشباة السنان والسيف ونحوهما: حدّه وشفرته. والخطب: النازلة الشديدة من نوازل الدهر. والإزماع: العزم، مصدر أزمعت الأمر، أى عزمت عليه، ومضيت فيه.

يفخر بأنه شديد البأس، قوىّ العزم، قاطع الإرادة، لايردّه العذل، ولايصرفه اللوم، ولا تضعفه حدّة الخطوب، وشدّة النوازل.

(٥) جرى الإنسان على الشىء: أخذ فيه، ودام عليه، حتى صار من عادته وطبيعته. وشيمة: خلق وطبيعة. وريعت: أخيفت. والإقلاع عن الأمر: تركه والكفّ عنه.

يقول: إنه يجرى فى حبّه على طبيعة صادقة قويّة، لا تهمّ بالإقلاع إذا أخيفت.

والمعنى: أن حبّه مكين ثابت، لا يزعزعه شىء.

(٦) المهجة: دم القلب والنفس والروح، والمراد بها هنا: القلب. والكهف: كالمغارة والبيت المنقور فى الجبل. ويلوذ به: يلجأ إليه، ويعوذ به. ووقّاع: يغتاب الناس، من الوقيعة، وهى الغيبة (بكسر الغين).

يقول: إن الحبّ يجد فى قلبه ملجأً وملاذاً يفرّ إليه من غدر الغادرين، وشرّ الأشرار.

والمعنى: أنه متمكّن من نفسه لايضعفه غدر غادر، ولا وقيعة وقّاع يسعى بين الناس بالشرّ والتفرقة والفساد.

بَذَلْتُ فِى الْحُبِّ نَفْسِى وَهْىَ غَالِيَةٌ ... لِبَاخِلٍ بِصَفَاءِ الْوُدِّ مَنَّاعِ (٧)
أَشْكُو إِلَيْهِ ، وَلَا يُصْغِى لِمَعْذِرَتِى ... مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ جَنَتْهُ النَّفْسُ أَوْ دَاعِى (٨)
وَيْلَاهُ مِنْ حَاجَةٍ فِى النَّفْسِ هَامَ بِهَا ... قَلْبِى ، وَقَصَّرَ عَنْ إِدْرَاكِهَا بَاعِى (٩)
أَسْعَى لَهَا وَهْىَ مِنِّى غَيْرُ دَانِيَةٍ ... وَكَيْفَ يَبْلُغُ شَأْوَ الْكَوْكَبِ السَّاعِى ؟ (١٠)
يَا حَبَّذَا جُرْعَةٌ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ ... وَضَجْعَةٌ فَوْقَ بَرْدِ الرَّمْلِ بِالْقَاعِ ! (١١)
وَنَسْمَةٌ كَشَمِيمِ الْخُلْدِ قَدْ حَمَلَتْ ... رَيَّا الْأَزَاهِيرِ مِنْ مِيثٍ وَأَجْرَاعِ (١٢)

---

(٧) باخل : صفة من البخل . ومنّاع : صيغة مبالغة من المنع .

يقول : إنه جاد بنفسه الغالية ، وبذلها فى الحبّ ، ولكنه لم يجد ممن أحبّه غير الإعراض والمنع ، والبخل بصفاء المودّة وخالص المحبّة .

(٨) أشكو إليه : أظهر له ما أكابده وأعانيه . والمعذرة : العذر والحجّة .

يقول : إنه يشكو لهذا الباخل المنّاع ما يكابده ويعانيه من تبريح الشوق وحرقة الوجد ، وإنه حينًا يعتذر إليه لا يجد منه استماعاً على الرغم من براءة ساحته ، وظهور حجته .

(٩) ويل : كلمة عذاب . والمراد بالحاجة : قربه من ديار الحبيب ، وهى مصر . وهام بها : أغرم بها وتعلّق . وقصّر : عجز ، ولم يقدر . والباع : مسافة مابين الكفين إذا بسطتهما يميناً وشمالا ، أو قدر مدّ اليدين ، والمراد به : الجهد والقدرة .

(١٠) لها : للحاجة. وغير دانية : غير قريبة. و « منّى» متعلّق بدانية . والشأو : الغاية والأمد وهو مفعول « يبلغ » و « الساعى » فاعله .

(١١) الجرعة من الماء: كاللقمة من الطعام ، وهى مايجرع ، أى يبلع مرّة واحدة، أوهى الجرعة (بفتح فسكون) اسم مرّة منه . والمحنية من الوادى: منعرجه ومنعطفه ، أى الموضع الذى ينحنى فيه وينعطف ، قال كعب بن زهير :

شجّت بذى شَبَمٍ من ماء محنية * صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

والضجعة : اسم مرّة من الضجوع ، وهو النوم . والقاع : أرض واسعة سهلة مستوية مطمئنّة .

(١٢) النسمة (بفتح السين، وسكنت هنا لضرورة وزن الشعر) : الريح الطيّبة اللطيفة المعتدلة اللينة ومثلها النسيم ، وهى معطوفة على «جرعة» فى البيت السابق. وشميم : مصدر شممت الشىء (من بابى تعب وردّ). والخلد : دوام البقاء ، والمراد بشميم الخلد : نسيم الجنّة دار الخلود والبقاء . أو الكلام على حذف بعض المضافات ، والتقدير : وحبّذا شميم نسمة كشميم نسمة دار الخلد . وريّا الأزاهير : ريحها الطيّبة . والميث : جمع ميثاء ، وهى الأرض السهلة الدمثة الليّنة من غير رمل ، وتميّثت الأرض: مطرت فلانت=

يَا هَلْ أَرَانِى بِذَاكَ الْحَىِّ مُجْتَمِعاً ... بِأَهْلِ وُدِّى مِنْ قَوْمِى وَأَشْيَاعِى؟(١٣)
وَهَلْ أَسُوقُ جَوَادِى لِلطِّرَادِ إِلَى ... صَيْدِ الْجَآذِرِ فِى خَضْرَاءَ مِمْرَاعِ؟(١٤)
مَنَازِلٌ كُنْتُ مِنْهَا فِى بُلَهْنِيَةٍ ... مُمَتَّعــاً بَيْنَ غِلْمَانِى وَأَتْبَاعِى(١٥)
إِذَا أَشَرْتُ لَهُمْ فِى حَاجَةٍ بَدَرُوا ... قَضَاءَهَا قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلْمَاعِى(١٦)
يَخْشَى الْبَلِيغُ لِسَانِى قَبْلَ بَادِرَتِى ... وَيُرْعَدُ الْجَيْشُ بِاسْمِى قَبْلَ إِيقَاعِى(١٧)

=وبَرَدَتْ ، أو هى الرملة السهلة ، أو الرابية الطيّبة . والأجراع : جمع جرع (كجبل) وهو الأرض الرمليّة السهلة الطيّبة المنبت .

يحنّ فى هذا البيت والذى قبله إلى أرض الوطن ، ويمدح مياهه وأراضيه ونسيمه وريّا أزهاره.

(١٣) الحىّ من أحياء العرب: جماعة ينسبون إلى أب واحد كالقبيلة ، وكثيراً مايطلق ويراد به المنازل والديار ، والمراد به هنا : الديار المصرية. وأهل ودّى : أحبّائى. وأشياعى : أتباعى وأنصارى .

يتمنّى أن يعود إلى وطنه ، ويلقى أحبّاءه وعشيرته وأهله وأتباعه .

(١٤) الجواد: الفرس الجيّد الكريم الرائع. والطّراد . مطاردة الوحش وصيده. والجآذر : جمع جؤذر (بضم فسكون ففتح ، أو بضم فسكون فضم) وهو ولد البقرة الوحشية . وخضراء : أرض خضراء بنباتها . وممراع : خصيبة ذات عشب وكلأ .

(١٥) البلهنية : الرخاء والرفاهية وسعة العيش وطيب الحياة .

(١٦) بدر إلى الشىء : أسرع (وبابه دخل) . وكلمة « قضاء » إما أن تكون منصوبة على نزع الخافض ، أى بدروا إلى قضائها ، وإمّا أن يكون الفعل « بدر » مضمّناً معنى « أنجز » . والإلماع : مصدر ألمع بيده إلى الشىء : أى أشار .

يقول : إنه إذا أشار إلى غلمانه وأتباعه فى حاجة سارعوا إلى قضائها قبل أن ترتدّ إليه إشارته ، والشاعر هنا يلمح قول الله تبارك وتعالى فى قصّة بلقيس وسليمان عليه السلام : « قال الّذى عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيكَ به قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إليك طَرْفُكَ » الآية ٤٠ من سورة النمل .

(١٧) البليغ : الفصيح ، الطلق اللسان ، الحسن البيان ، الذى يبلغ بعبارته كنه مافى قلبه ، صفة من البلاغة ، وهى القول المحيط بالمعنى المقصود ، المطابق لمقتضى الحال ؛ مع اختيار الكلام ، وحسن النظام ، وفصاحة اللسان. والبادرة : مايبدر من الإنسان عند حدّته وغضبه ، يقال : بدرت منه بادرة غضب ، أى سبقت ، ومن كلامهم : هو مخشىّ البادرة ، والبادرة أيضاً : البديهة ، والمراد بها هنا : مايبده به الشاعر غيره فى حال الخصومة والجدل ونحوهما . ويرعد : يرتعد ويضطرب من الفزع والخوف. والإيقاع : مصدر أوقعت بالعدوّ ، أى قتلت وأثخنت ، والاسم الوقيعة .

يتمدّح بقوّة بيانه ، وفصاحة قوله ، وبلاغة منطقه فى الخصومة والجدال ، وعظم سطوته ، =

فَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ لَا سَهْمِي بِذِي صَرَدٍ إِذَا رَمَيْتُ ، وَلَا سَيْفِي بِقَطَّاعِ (١٨)
أَبِيتُ فِي قُنَّةٍ قَنْوَاءَ قَدْ بَلَغَتْ هَامَ السِّمَاكِ ، وَفَاتَتْهُ بِأَبْوَاعِ (١٩)
يَسْتَقْبِلُ الْمُزْنُ لِيتَيْهَا بِوَابِلِهِ وَتَصْدِمُ الرِّيحُ جَنْبَيْهَا بِزَعْزَاعِ (٢٠)
يَظَلُّ شِمْرَاخُهَا يَبْساً ، وَأَسْفَلُهَا مُكَلَّلاً بِالنَّدَى يَرْعَى بِهِ الرَّاعِي (٢١)

= وفائق شجاعته ، وشدّة بأسه فى الحرب والقتال ، وقد غالى فى تصوير هذا المعنى ، فجعل لسانه يرهب البليغ ، واسمه يخيف الجيش ، قبل أن يكون منه كلام أو إيقاع .

(١٨) السهم : مايرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . وصرد : مصدر صرد السهم (من باب فرح) أى أصاب ونفذ ، يقال سهم صارد ، أى خرجت شباة حدّه من الرميّة ، وسهم نافذ ، أى خرج بعضه ، وسهم مارق ، أى خرج كلّه .

يقول : أصبحت اليوم لا نفاذ لسهمى إذا رميت ، ولا يقطع سيفى إذا ضربت . وهذا كناية عما صار إليه فى أسره من الضعف والكبر .

(١٩) القنّة : أعلى الجبل ، أو هى الجبل المنفرد المستطيل فى السماء . وقنواء : عالية مرتفعة ، صفة من القنا ، وهو ارتفاع أعلى الأنف ، واحديداب وسطه ، وسبوغ طرفه ، أو نتوّ وسط القصبة ، وضيق المنخرين ، أو هو احديداب بين القصبة والمارن . وهام : جمع هامة ، وهى رأس كلّ شىء وأعلاه . والسماك : نجم نيّر ، يضرب به المثل فى الارتفاع ، وهما سماكان ، يقال لأحدهما : السماك الأعزل ، وللآخر السماك الرامح . والأبواع : جمع الباع أو البوع (بفتح الباء ، وضمها مع سكون الواو) وهو مسافة مابين الكفّين إذا بسطتهما ، أو قدر مدّ اليدين وما بينهما من البدن .

يصف منزله فى منفاه بأنه سحيق ذاهب فى السماء ، مرتفع غاية الارتفاع .

(٢٠) المزن : السحاب ، أو أبيضه ، أو ذو الماء منه ، الواحدة مزنة (بضم فسكون) . والليتان : صفحتا العنق عليهما ينحدر القرطان ، مثنّى ليت (بكسر اللام وسكون الياء) . والوابل : المطر الغزير ، الشديد الانهمار ، الضخم القطر . والصدم : ضرب الشىء الصلب بشىء مثله (وبابه ضرب) . وريح زعزع (كجعفر) وزعزاع ؛ : شديدة تزعزع الأشياء وتحرّكها .

يصف ما ينهمر على جوانب القنّة من المطر الغزير ، وما يصدمها من الريح العاصف .

(٢١) يظلّ : يبقى . وشمراخها : رأسها وأعلاها ، أى القنة . ويبس (بفتح فسكون) : يابس ، والمراد صلب لاينبت . ومكلّل : اسم مفعول من كلّله ، أى ألبسه الإكليل ، وهو شبه عصابة تزيّن بالجواهر ، وقد يسمّى التاج إكليلا ، ومن كلامهم روضة مكلّلة أى محفوفة بالنور والزهر . والندى : البلل . والراعى يرعى الماشية ، أى يحوطها ويحفظها وهى ترعى الكلأ ، وتأكل العشب .

وصف رأس القنّة باليبس والصلابة ، والجفاف وعدم الإنبات ، ووصف أسفلها بأنه مندّى خصيب ، ينبت العشب والكلأ والنبات .

إِذَا الْبُرُوقُ ازْمَهَرَّتْ خِلْتَ ذِرْوَتَهَا شَهْماً تَدَرَّعَ مِنْ تِبْرٍ بِأَدْرَاعِ (٢٢)
تَكَادُ تَلْمِسُ مِنْهَا الشَّمْسَ دَانِيَةً وَتَحْبِسُ الْبَدْرَ عَنْ سَيْرٍ وَإِقْلَاعِ (٢٣)
أَظَلُّ فِيهَا غَرِيبَ الدَّارِ مُبْتَئِساً نَابِي الْمَضَاجِعِ مِنْ هَمٍّ وَأَوْجَاعِ (٢٤)
لَا فِي «سَرَنْدِيب» خِلٌّ أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْهُمُومِ إِذَا هَاجَتْ ، وَلَا رَاعِي (٢٥)
يَظُنُّنِي مَنْ يَرَانِي ضَاحِكاً جَذِلًا أَنِّي خَلِيٌّ ، وَهَمِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي (٢٦)
وَلَا ، وَرَبِّكَ مَا وَجْدِي بِمُنْدَرِسٍ عَلَى الْبِعَادِ وَلَا صَبْرِي بِمِطْوَاعِ (٢٧)

---

(٢٢) ازمهرّت : لمعت . وخلت : ظننت . وذروة كلّ شيء (بضم الذال وكسرها) : أعلاه . والشهم : الجلد (بفتح فسكون) الشجاع ، الذكيّ الفؤاد . وتدرّع : لبس الدرع (بكسر فسكون)وهي لبوس الحديد يتّقى بها المحارب ضربات السيوف ونحوها ، وجمعها دروع وأدرع وأدراع . والتبر : الذهب . يشبّه ذروة القنّة إذا لمع فيها البرق بشهم محارب تدرّع بدرع من الذهب .

(٢٣) منها : من القنّة . ودانية : قريبة . وإقلاع : تحوّل وانتقال .

يقول : إنك إذا علوتها تكاد تلمس الشمس وتمسّها بيدك لشدّة قربها ، وتكاد كذلك تمسك القمر ، وتحبسه عن سيره وحركته وانتقاله . والمراد أنها فى نهاية العلوّ ، وغاية الارتفاع .

(٢٤) مبتئساً : حزيناً كارهاً. وناب: اسم فاعل من نبا الشيء عنه ، أى تجافى وتباعد (وبابه سما) والمضاجع : جمع مضجع ، اسم مكان من الضجوع: وهو النوم ، ونبوّ المضاجع : كناية عن القلق وعدم النوم . والهمّ : الحزن .

(٢٥) الخلّ ، الصديق المختصّ . وهاجت : ثارت واشتدّت . وراع : اسم فاعل من رعاه يرعاه أى حفظه وصانه ، وولى أمره .

(٢٦) جذلا : فرحاً. وخليّ: خال فارغ من الهمّ والحزن، وهو خلاف الشجى ، وفى المثل « ويل للشجى من الخلى » .

والمعنى : أنه يتكلّف الضحك ، ويتصنّع الفرح أحياناً، فيحسبه من يراه على هذه الحالة خالياً من الهمّ ، والحقيقة أنه يخفى همّه بين ضلوعه .

(٢٧) الوجد : الهمّ والحزن ، والهوى والحبّ الشديد. ومندرس: ذاهب زائل ، درسه فاندرس ، أى محاه وطمسه وأزاله . ومطواع : مطيع منقاد .

والمعنى : أنه لا يجد فى تلك الغربة صبراً على ما يقاسيه من وجد متجدّد ، وهمّ وحزن ، وشوق وحنين إلى الوطن .

لَكِنَّنِي مَالِكٌ حَزْمِي ، وَمُنْتَظِرٌ ... أَمْرًا مِنَ اللهِ يَشْفِي بَرْحَ أَوْجَاعِي (٢٨)
أَكُفُّ غَرْبَ دُمُوعِي وَهْيَ جَارِيَةٌ ... خَوْفَ الرَّقِيبِ وَقَلْبِي جِدُّ مُلْتَاعِ (٢٩)
فَإِنْ يَكُنْ سَاءَنِي دَهْرِي ، وَغَادَرَنِي ... رَهْنَ الأَسَى بَيْنَ جَدْبٍ بَعْدَ إِمْرَاعِ (٣٠)
فَإِنَّ فِي مِصْرَ إِخْوَاناً يَسُرُّهُمُ ... قُرْبِي ، وَيُعْجِبُهُمْ نَظْمِي وَإِبْدَاعِي (٣١)

(٢٨) الحزم : ضبط الإنسان أمره ، والأخذ فيه بالثقة . والبرح : الشدّة . والمعنى : أنه متجلّد صابر ، ضابط لأمره ، غير مستسلم للجزع ، يرجو من الله أن يبدّل عسره يسراً ، ويذهب عنه الهمّ والحزن والألم .

(٢٩) أكفّ : أمنع . وغرب دموعي : انهمالها وفيضانها . والرقيب : من يراقبك ويراك . والتاع فؤاده : احترق من الشوق والهمّ ، فهو ملتاع ، وجدّ ملتاع : قد تناهى ، وبلغ غاية الالتياع .

(٣٠) ساءه يسوءه : فعل به مايكره ، وهو نقيض سرّه . وغادرني : تركني . ورهن الأسى : دائم الحزن . والجدب : المحل (بفتح فسكون) وهو انقطاع المطر، ويبس الأرض ، وخلوّها من الكلأ والنبات ، ونقيضه الخصب والإمراع ، يقال : أمرع القوم ، إذا أخصبوا ، وأصابوا الكلأ والعشب . والمراد بقوله « بين جدب بعد إمراع » : أنه أصبح فى شقاء بعد سعادة .

(٣١) الإبداع : مصدر أبدعت الشيء ، أى اخترعته لاعلى مثال .

يعزّي نفسه بأن له فى البلاد المصرية إخواناً وخلاّناً يسرّهم قربه ، ويعجبهم بديع نظمه ، ورائع شعره ، وسحر بيانه .

وإنك لتلحظ فى هذه القصيدة ظلمة اليأس التى لفّت البارودىّ ورفاقه فى المنفى بعد إخفاق المساعى التى بذلها بعض أصدقائهم من الإنجليز لاستصدار عفو عنهم ، أو نقلهم إلى جزيرة « قبرص » . وتلحظ مثل هذه الظلمة فى لاميّته التى مطلعها :

رُدُّوا عَلَيَّ الصِّبا من عَصْرِيَ الخالي ... وَهَلْ يَعُودُ سَوَادُ اللِّمَّةِ البالى ؟

بعنوان : « وقال يذكر مقامه فى « سيلان » ، و يتشوّق إلى الأهل والأوطان » . وتراها فى الجزء الثالث من شرحنا لديوان البارودى ، فى خمسين بيتاً .

ومن الشعر الذى نسب إلى البارودى ، ولم يرد فى ديوانه :

نَفِسُوا عَلَيَّ حَمِيَّتِي ، فتألَّبُوا ... حِزْباً عَلَيَّ ، وأَجْمَعُوا ما أَجْمَعُوا
وسَعَوْا بِفِرْيَتِهِمْ ، فَلَمَّا صادَفُوا ... سَمْعاً يَمِيلُ إلى المَلاَمِ تَوَسَّعُوا
لا عيْبَ فِيَّ سِوَى حَمِيَّةِ ماجد ... والسيفُ يَغْلِبُهُ المَضَاءُ ، فَيَقْطَعُ

. . . .

ثلاثة أبيات عينيّة نسبها إليه بعد وفاته صديقاه الشيخان : ياقوت المرسى وعطية حسنين فى ترجمة له ، كتباها فى مقدمة « مراثى الشعراء » التى جمعها ، وطبعها ، ونشرها صديقه « خليل مطران » سنة ١٩٠٥ ولبيان تاريخ نظم هذه الأبيات ، وجوّها النفسىّ رجعت إلى ماذكره الشيخان فى مقدّمة كتاب : « مراثى الشعراء » ، وإلى كتاب« تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة» لمحمد رفعت . وهذه خلاصة ماجاء فى هذين المرجعين :

أسرف «عثمان رفقى» الجركسىّ الأصل فى محاباة الجراكسة والأتراك من ضبّاط الجيش المصرى ، وتقديمهم على زملائهم الضبّاط المصريين فى الترقيات ؛ فسخط هؤلاء عليه ، واجتمعوا برياسة «أحمد عرابى » وطلبوا عزله بشكوى شديدة اللهجة رفعوها إلى الخديو «توفيق » ،فى وزارة « مصطفى رياض» سنة ١٢٩٨ هـ (١٧ من يناير سنة ١٨٨١ م) وكان « محمود سامى البارودى » وزيراً للأوقاف فى تلك الوزارة . وحاولت الحكومة محاكمة زعماء الضباط الثائرين بعد القبض عليهم ؛ فهجم آلاى من الجيش على ثكنة قصر النيل ، فى مظاهرة عسكرية ساخطة ، وفكّ المتظاهرون أسر زعمائهم ، وساروا إلى قصر عابدين ، وأصروا على ضرورة عزل « عثمان رفقى » ؛ فاضطرّ الخديو« توفيق » إلى العفو عنهم ، وإجابة مطالبهم . وبتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ (٦ من فبراير سنة ١٨٨١ م) صدر الأمر بعزل « عثمان رفقى » ، وإسناد وزارة الجهادية إلى « محمود سامى البارودى» زيادة على وزارة الأوقاف التى كان يشغلها من قبل ؛ فاجتهد فى تصفية الجوّ ، وحفظ الأمن ، وإقامة العدل والمساواة، وأصلح كثيراً من خلل وزارة الجهادية .

ولكنه أحسّ أن الخديو « توفيقاً » يسىء به الظنّ ، ويستمع للنمائم والوشايات التى تتهمه بممالأة الضباط الثائرين ؛ فاستعفى من وزارتى الجهادية والأوقاف فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢٩٨ هـ (٢ من أغسطس سنة ١٨٨١ م) بعد نحو سبعة أشهر من توليه وزارة الجهادية .

وبهذه الأبيات الثلاثة العينية عرّض بالحاسدين المتألّبين النافسين عليه فضائله ومزاياه كالحميّة والأنفة ، والإباء والمجد ؛ إنهم سعوا به لدى الخديو « توفيق » فلمّا وجدوا سمعاً يميل إلى لومه توسّعوا فى النميمة والوشاية ، والافتراء والكذب ؛ فلم يسعه إلا أن يستقيل ، تبرّماً بهذا الجوّ الوبيل المسموم .

قافية الفاء

وَقَالَ يُجِيبُ بَعْضَ السَّادَةِ عَنْ قَصِيدَةٍ أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ مِنَ الْهِنْدِ يَخْطُبُ بِهَا مَوَدَّتَهُ * :

قَلِيلٌ بِآدَابِ الْمَوَدَّةِ مَنْ يَفِي ... فَمَنْ لِي بِخِلٍّ أَصْطَفِيهِ وَأَكْتَفِي؟(١)

بَلَوْتُ بَنِي الدُّنْيَا ، فَلَمْ أَرَ صَاحِباً ... يَدُومُ عَلَى وُدٍّ بِغَيْرِ تَكَلُّفِ (٢)

فَهَلْ مِنْ فَتًى يَسْرُو عَنِ الْقَلْبِ هَمَّهُ ... بِشِيمَةِ مَطْبُوعٍ عَلَى الْمَجْدِ مُسْعِفِ؟(٣)

---

* كان البارودى – بطبعه الشاعر ، وإحساسه المرهف – حفيًّا بالأدباء ، ورواة شعره ، والمتودّدين إليه . ولما نفى إلى « سرنديب» اشتدّت حفاوته بهم لشدّة احتياجه إلى من يواسيه ، ويصفيه الودّ والإخاء فى غربته ومنفاه ، وكثر التراسل بينه وبين أهله وصحبه بمصر ، والمعجبين بأدبه فى شتّى بقاع الأرض وأقطارها . ومن هؤلاء أديب شاعر هندىّ ، اسمه « علىّ » أرسل إليه من الهند قصيدة من شعره يخطب بها مودّته ، فأجاب البارودىّ عنها بهذه القصيدة الطويلة الرائقة ، شاكراً له ، مثنياً عليه ، منوّهاً بأدبه وفضله وسحر بيانه ، وتوقد ذكائه ، متوسّماً فيه الخير قبل لقائه .

(١) المودّة : المحبّة . وآداب المودّة : محامدها ومحاسنها ومقتضياتها . والخلّ : الصديق المختصّ . وأصطفيه : أختاره . وأكتفى به : أستغنى به .

(٢) بلوت : اختبرت وامتحنت وجرّبت . والودّ : المودّة والمحبّة . والتكلّف : مصدر تكلّفت الشىء ، أى تجشّمته ، وحملته على مشقّة .

يقول : إنه جرّب الناس واختبرهم ، فلم ير صاحباً يدوم على ودّ خالص من شوائب التكلّف والتصنّع والرياء .

(٣) يسرو : يكشف ويزيل . والهمّ : الحزن . والشيمة : الخلق (بضمتين) . ومطبوع : مفطور مخلوق ، اسم مفعول من طبعه الله على الأمر (من باب منع) أى فطره وخلقه . والمجد : العزّ والشرف والرفعة والعلاء . ومسعف : معين مساعد ، اسم فاعل من أسعفته ، أى أعنته على أمره ، وأسعفته بحاجته ، أى قضيتها له . والاستفهام فى أول البيت للتمنّى .

يتمنّى فتى ماجداً كريماً يعينه ويساعده ، ويكشف عنه همّه وحزنه ، بما جبل عليه من كرم ومروءة ومجادة .

رَضِيتُ بِمَنْ لَا تَشْتَهِي النَّفْسُ قُرْبَهُ ... وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَنْدُوحَةً يَتَكَلَّفِ (٤)
ولَوْ أَنَّنِى صَادَفْتُ خِلاً يَسُرُّنِى ... عَلَى عُدَوَاءِ الدَّارِ لَمْ أَتَلَهَّفِ (٥)
وَلَكِنَّنِى أَصْبَحْتُ فِى دَارِ غُرْبَةٍ ... مُقِيماً لَدَى قَوْمٍ عَلَى الْبُدِّ عُكَّفِ (٦)
زَعَانِفُ هَدَّاجُونَ فِى عَرَصَاتِهِمْ ... كَخَيْطِ نَعَامٍ بَيْنَ جَرْدَاءَ صَفْصَفِ (٧)
حُفَاةٌ عُرَاةٌ غَيْرَ أَخْلَاقِ صُدْرَةٍ ... تَطِيرُ كَنَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ الْمُسَدَّفِ (٨)

---

(٤) مندوحة : سعة وفسحة . وتكلّف المرء الشيء : احتمله على مشقّة ، أو قام به ، وأدّاه وهو لا يجد من نفسه ميلاً إليه ، ولا رغبة فيه .

يقول : إنه رضى بصحبة من لا يودّ صحبته ، ولا يميل إليه ، وإن الإنسان قد يتكلف الشيء الذى لا يهواه إذا لم يكن له عنه مندوحة ، ولم يجد منه بداً .

(٥) صادفت : وجدت ولاقيت . والخلّ : الصديق المختص ، كالخليل . وعدواء الدار : بعدها. وأتلهّف : أتحسّر وأحزن .

(٦) دار الغربة : المنفى ، وهو سرنديب. والبدّ (بضم الباء) : الصنم ، (فارسية معرّبة). وعكّف : جمع عاكف (كراكع وركّع) اسم فاعل من عكف المرء على الشيء (من بابى دخل وجلس) أى أقبل عليه مواظباً.

يأسى لما صار إليه من بعد واغتراب ، ويتبرّم بإقامته بين الوثنيين .

(٧) زعانف : أرذال ، أو أدعياء ، أو ليسوا من أصل واحد ، أو قصار القامات ، والزعانف (فى الأصل) : أطراف الأديم ، وأجنحة السمك ، الواحدة زعنفة (بكسر فسكون فكسر) . وهدّاجون : يمشون فى ارتعاش واضطراب كمشية الشيخ الهرم ، جمع هدّاج ، صفة من هدج الظليم (من باب ضرب) هدجاناً (بفتح الهاء والدال) أى مشى فى ارتعاش . والعرصات : جمع عرصة (بفتح فسكون) وهى كلّ بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، أو هى ساحة الدار ووسطها ، أو هى كلّ موضع واسع لا بناء فيه . والخيط (بفتح الخاء أو كسرها مع سكون الياء) : الجماعة من النعام . وأرض جرداء : واسعة لا نبات فيها. وصفصف : ملساء مستوية لا نبات فيها .

يصفهم بالقصر والحقارة وقبح المشية ، وكأنه يلمح فى هذا البيت قول الفرزدق فى هجاء قوم جرير :

قنافذ هدّاجون حول بيوتهم ... بما كان إيّاهم عطيّة عوّدا

(٨) حفاة : جمع حاف ، وهو من يمشى بلا نعل . وعراة : جمع عار ، بمعنى عريان (بضم فسكون) . وأخلاق : جمع خلق (بفتحتين) ، وهو الثوب القديم البالى ، وقد يوصف به الواحد فيقال : ثوب أخلاق ، وملاءة أخلاق ، أى نواحيها وأجزاؤها أخلاق . والصدرة (بضم فسكون) : القميص الصغير ، أو هى ثوب يغطّى الصدر والظهر ، كالصدار (وزان كتاب) . ونسج العنكبوت : بيتها الذى تنسجه من خيوط غاية فى الدقّة والبلى ، =

يمُجُّون مِنْ أفْوَاهِهِمْ رَشْحَ مُضْغَةٍ كَنَضْحِ دَمٍ يَنْهَلُّ مِنْ أنْفِ مُرْعَفِ (٩)

إذَا رَاطَنُوا بَعْضاً سَمِعْتَ لِصَوْتِهِمْ عَزِيفاً كَجِنٍّ فِى الْمَفَاوِزِ هُتَّفِ (١٠)

فَهَا أنَا مِنْهُمْ بَيْنَ شَمْلٍ مُبَدَّدٍ وَمِنْ حَسَرَاتِى بَيْنَ شَمْلٍ مُؤَلَّفِ (١١)

أَحِنُّ إِلَى أهْلِى ، وَأَذْكُرُ جِيرَتِى وَأَشْتَاقُ خُلَّانِى ، وَأَصْبُو لِمَأْلَفِى (١٢)

فَلَا أنَا أسْلُو عَنْ هَوَاىَ فَأَنْتَهِى وَلَا أنَا أَلْقَى مَنْ أُحِبُّ فَأَشْتَفِى (١٣)

وبه يضرب المثل فى الوهن والضعف ، قال تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ، وإنَّ أوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون » الآية ٤١ من سورة العنكبوت. والمسدّف : المقطّع الممزّق (بصيغة اسم المفعول) .

(٩) يمجّون : يخرجون ويرمون ، مجّ الشراب والشىء من فيه ، (من باب ردّ) : رمى به . والرشح (فى الأصل) : العرق (بفتحتين) ، والمراد به هنا : اللعاب الذى يسيل من أفواههم. والمضغة : مايمضغ . ونضح الدم : ماترشّش منه وتفرّق . وينهلّ : ينصبّ ويسيل . ومرعف : شخص أصيب بالرعاف (بضم الراء) ، وهو خروج الدم من الأنف ..

كأنه يصف فى هذا البيت عادة هنديّة : هى كلف الهنود بمضغ نوع من النبات ، له صبغ يلوّن لعابهم بالحمرة .

(١٠) راطنه : كلّمه بلسان أعجمىّ لاتفهمه العرب ، والكلام الفصيح : راطن بعضهم بعضاً . والعزيف : جرس (بفتح فسكون) يسمع بالمفاوز فى الليل ، تزعم العرب أنه صوت الجنّ . والمفاوز : جمع مفازة ، وهى الفلاة والصحراء . وهتّف : جمع هاتف ، اسم فاعل من الهتاف ، وهو الصياح والصوت .

(١١) الشمل : الاجتماع ، أو هو مجتمع عدد القوم وأمرهم ، أو هو الأمر والحال ، يقال: جمع الله تعالى شمله ، أى ماتفرّق من أمره ، وفرّق الله شمله ، أى مااجتمع من أمره . ومبدّد: مفرّق مشتّت . والحسرات : جمع حسرة ، وهى أشدّ التلهّف على الشىء الفائت . ومؤلّف : مجتمع .

والمعنى : أنه لايرى فيهم من يأنس به ، ويستريح إليه ، ويعينه على احتمال آلام الغربة والنزوح عن الأهل والوطن ، فهو بينهم غريب نازح الدار ، مبدّد الشمل ، كثير الهمّ ، دائم الحسرات .

(١٢) أحنّ : أصبو وأشتاق ، من الحنين ، وهو الشوق وتوقان النفس . وأهل المرء : عشيرته وذوو قرباه . والجيرة : الجيران (بكسر الجيم فيهما) ، جمع جار . وخلّان : جمع خليل ، وهو الصديق المختصّ . وأصبو : أحنّ وأنزع وأشتاق وأميل . والمألف : اسم مكان من ألفت الشىء (من باب علم) ، أى أنست به وأحببته واطمأننت إليه ، ويراد بالمألف هنا : الوطن .

(١٣) سلاه ، وسلا عنه : نسيه . والهوى : الحبّ . وأنتهى : أكفّ وأمتنع . وأشتفى : أبرأ من علتى وأشفى (بالبناء للمجهول) .

وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْ سَرَفِ النَّوَى ... لَبَاقٍ عَلَى وُدِّي لِمَنْ كُنْتُ أَصْطَفِي (١٤)
سَجِيَّةُ نَفْسٍ لَا تَمِيلُ مَعَ الْهَوَى ... وَذِمَّةُ عَهْدٍ بَيْنَ سَيْفٍ وَمُصْحَفِ (١٥)
وَمَا كُلُّ مَوْشِيِّ الْحَدِيثِ بِصَادِقٍ ... وَلَا كُلُّ مَنْسُوبٍ إِلَى الْوُدِّ بِالْوَفِي (١٦)
تَشَابَهَتِ الْأَخْلَاقُ إِلَّا بَقِيَّةً ... بِهَا يُعْرَفُ الْمَاضِي مِنَ الْمُتَخَلِّفِ (١٧)
وَمَا شَرَفُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِنَفْسِهِ ... وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ تَلِيدٍ وَمُطْرَفِ (١٨)

= يشكو ما يعانيه ويكابده من لواعج الشوق ، وتباريح الحبّ ، وأنه لا يستطيع السلوان ، فينتهي عن الهوى ، ولا يجد سبيلاً إلى لقاء الحبيب فيشتفي بلقائه .

(١٤) السرف : مجاوزة الحدّ ، وهو ضدّ القصد والاعتدال . والنوى : البعد . والودّ : المودّة والمحبّة . وأصطفي : أختار .

(١٥) السجيّة : الغريزة والطبيعة والخلق . والهوى : ميل النفس إلى شهواتها ، وانحرافها عن الهدى والرشاد . والذمّة : الحقّ والحرمة . . والعهد : الميثاق والوفاء والحفاظ ورعاية الحرمة . والمصحف (بضم الميم وكسرها وفتحها) . وأصله الضم ؛ لأنه مأخوذ من أُصْحِف ، أي جُمِعَت فيه الصحفُ . وكنى بالشطر الثاني عن شدة محافظته على صيانة العهود والحرمات .

يفخر بأن مودّته لأصفيائه وأحبّائه باقية على الرغم من سرف النوى ، وشدّة البعد ، ونزوح الدار ، وأنه يجري في ذلك على طبيعته وسجيّة نفسه التي لا تميل مع الهوى ، ولا تخفر ذماماً ، ولا تنقض عهداً ، والتي يعصمها شرف الجنديّة ، ووازع الدّين .

(١٦) موشيّ الحديث : كلامه مزخرف مزيّن ؛ اسم مفعول من الوشي ، وهو خلط لون بآخر ، وتحسين الثوب ونمنمته ونقشه وزخرفته . والوفيّ : صفة من الوفاء ، وهو نقيض الغدر .

والمعنى : أن المرء قد يزخرف القول ولا يصدق ، وقد ينتسب إلى الودّ ولا يفي .

(١٧) بقيّة : المراد بقيّة من فهم وتمييز ، أو من فضل وخير . والمراد بالماضي : الهمام الصاعد في مراتب الفضل والشرف والعلا . والمتخلّف : ضدّ الماضي : اسم فاعل من تخلّف ، أي تأخّر .

يشير إلى شيوع التصنّع والمداهنة والنفاق ، حتى تشابهت الأخلاق ، واختلط الصالح بالطالح ، وأشكل الأمر والتبس ، لولا بقيّة من فهم وتمييز ، أو من فضل وخير يعرف بها الماضي من المتخلّف .

(١٨) شرف الإنسان ، (بإضافة الشرف إلى الإنسان) ، أو هي شرف (ككرم) والإنسان فاعلها. والمال التليد : القديم الموروث ، وهو نقيض الطريف المستحدث ، والعرب تسمى ما ولد عندك من الإبل والماشية ، وما ورثته من المال تالداً وتليداً . والمطرف (بضم فسكون ففتح ، أو بضم فسكون فكسر) . المال الجديد المستحدث ، كالطارف والطريف ، وهو نقيض التالد والتليد .

يقول : إن الإنسان إنما يشرف بنفسه ، وكرم أخلاقه ، وحسن سجاياه ، لا بكثرة ماله .

وَلَوْ كَانَ نَيْلُ الْفَضْلِ سَهْلًا لَزَاحمتْ ... رِجَالُ الْخَنَا أَهْلَ الْعُلَا وَالتَّعَطُّفِ(١٩)

فَإِنْ أَخْلَفَتْ نَفْسٌ طَوِيَّةَ مَا وَأَتْ ... فَلِى مِنْ «عَلِىٍّ» صَاحِبٌ غَيْرُ مُخْلِفِ(٢٠)

هُمَامٌ ، دَعَا بِاسْمِى ، فَلَبَّيْتُ صَوْتَهُ ... بِيَا مَرْحَبَاهُ مِنْ فُؤَادٍ مُكَلَّفِ(٢١)

وَلَــوْ صَاحَ بِى فِى غَارَةٍ لَوَزَعْتُهَا ... عَلَى مَتْنِ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ بِمُرْهَفِ(٢٢)

وَلَكِنَّنِى لَبَّيْتُ دَعْوَةَ نَظْمِهِ ... بِأَسْمَرَ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ مُحَرَّفِ(٢٣)

(١٩) المراد بالفضل هنا : الشرف والسيادة والرفعة . والخنا : الفحش (بضم فسكون) . والمراد برجال الخنا : ذوو الأخلاق الوضيعة الدنيئة . وأهل العلا : أصحاب الصفات العلا (جمع العليا) والأخلاق الرفيعة الكريمة . والتعطّف : العطف والبرّ والصلة والرحمة والخير والإحسان ، مصدر تعطّف عليه ، أى أشفق عليه ، ورحمه ، ورقّ له .

(٢٠) أخلف الوعد : لم يف به ، والإخلاف فى المستقبل كالكذب فى الماضى . والطويّة : النيّة والضمير . ووأت : وعدت ، من الوأى (بفتح فسكون) وهو الوعد الذى يوثقه المرء على نفسه ، ويعزم على الوفاء به . والمراد بقوله « أخلفت نفس طويّة ماوأت » : لم تنجز ما أضمرته ونوته ، وعزمت عليه من العدات. والمعنى : إذا أخلف الناس ما وعدوا ، فالممدوح صاحب وفىّ لا يخلف وعده .

(٢١) همام : سيد شجاع سخىّ ، عظيم الهمّة. ودعا باسمى : سمّانى به ، وصاح بى ، ونادانى. ولبّيت صوته: أجبت نداءه . وبيامرحباه : بقولى : يامرحباً به ، والعرب تقول فى تحيّة استقبال الضيف ونحوه : أهلاً ومرحباً ، أى صادفت أهلاً لا غرباء ، ونزلت مكاناً واسعاً رحيباً سهلاً ، فاستأنس ، ولا تستوحش . وفؤاد مكلّف : قلب محبّ لك ، مغرم بك ، يقال : كلف فلان بالشىء (كفرح) ، أى لهج به وأغرم وأولع ، واشتدّ حبه له ، فهو كلف (كفرح) ومكلّف (بضم الميم وفتح الكاف وتشديد اللام المفتوحة).

(٢٢) صاح بى : نادانى . والغارة : الخيل المغيرة ، أو هى اسم من أغرنا على العدوّ إغارة ، أى هجمنا عليه ، ودفعنا عليه الخيل . ووزعتها : كففتها ودفعتها ورددتها . والمتن : الظهر . ومحبوك : شديد قوىّ محكم الخلق (بفتح فسكون) ، وهو اسم مفعول من حبكت الثوب ، أى أتقنت صناعته ، وأحكمت نسجه ، وفرس محبوك المتن : مدمج الظهر ، فيه استواء مع ارتفاع . والسراة : الظهر ، وسراة كلّ شىء : أعلاه ، أو ظهره ، أو وسطه . والمرهف : السيف المرقّق الحادّ القاطع المسنون .

يقول : ولو استنجدنى الممدوح فى غارة عليه لأنجدته ، ودفعتها عنه بسيف قاطع بتّار ممتطياً فرساً قويّاً شديداً محكم الخلق ، مدمج الظهر .

(٢٣) دعانى فلبيته : نادانى فقلت له لبّيك ، أى أنا ملازم طاعتك ، مقيم عليها ، مستمع لدعوتك مجيب لها . ودعوة نظمه : دعوة الودّ التى وجّهها إلىّ فى قصيدته . وأسمر : صفة من السمرة ، وهى منزلة بين البياض والسواد ، وكنى بالأسمر المشقوق اللسان عن القلم . والمراد باللسان : الموضع المبرىّ من القلم ، على التشبيه باللسان جارحة الكلام . ومحرّف : اسم مفعول من حرّفت القلم تحريفاً ، أى قططته محرّفاً مائلا غير مستو .

يقول : إننى أجبت دعوة الودّ التى وجّهها إلىّ هذا الصديق فى قصيدته ، بقلم أسمر مشقوق اللسان محرّف . والمراد أنه أجابه بأن كتب إليه هذه القصيدة .

إِذَا حَرَّكْتُهُ رَاحَتِي فَوْقَ مُهْرَقٍ ... بِذِكْرٍ عُلاَهُ بَذَّ كُلَّ مُثَقَّفِ(٢٤)

هُوَ الْبَطَلُ السَّبَّاقُ فِى كُلِّ غَايَةٍ ... يَهَابُ رَدَاهَا الْمَرْءُ قَبْلَ التَّعَسُّفِ(٢٥)

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ بَيَاناً لِقَائِلٍ ... وَإِنْ سَارَ لَمْ يَتْرُكْ مَجَالاً لِمُقْتَفِى(٢٦)

لَهُ قَلَمٌ لَوْ كَانَ لِلسَّيْفِ حَدُّهُ ... لَفَلَّ حَبِيكَ السَّرْدِ فِى كُلِّ مَوْقِفِ(٢٧)

---

(٢٤) الضمير المنصوب فى «حرّكته» راجع إلى الأسمر المشقوق اللسان المكنّى به عن القلم. والراحة : الكفّ ، أو بطنها ، والمراد اليد . والمهرق : الصحيفة البيضاء ، وورق الكتابة ، وهى من الكلمات الفارسيّة المعرّبة. وبذّ : غلب وسبق وفاق. ومثقّف: اسم مفعول من ثقّفت الرمح ونحوه ، أى سوّيته وقوّمته وعدّلته ، والمراد بالمثقّف : الرمح .

يقول : إذا حرّكت يدى قلمى على صحيفة بذكر علا الممدوح ، وبيان فضله وشرفه ، فاق ذلك القلم فى قوّته وسداده كلّ رمح .

(٢٥) البطل : الشجاع المقدام . ويهاب : يخاف . والردى : الهلاك . والتعسّف: ركوب الأمر بلاتدبير ، ولا رويّة ، أو السير بغير هداية ، والأخذ على غير الطريق ، والمراد بالتعسّف هنا : اقتحام الأمر ، والإقدام عليه .

يقول : إن الممدوح جرىء ، شجاع مقدام سبّاق فى الحروب ونحوها من الغايات المخوفة المردية المهلكة ، التى يخشاها غيره من الناس قبل الإقدام عليها .

(٢٦) المجال : موضع الجولان والتطواف . والمقتفى : اسم فاعل من اقتفى أثره ، أى تبعه ولحقه وسار فى طريقه .

مدحه فى الشطر الأول بالبراعة والتفوّق فى اللسن والفصاحة والبيان ، وفى الشطر الثانى بأنه منقطع النظير ، لا يشقّ له غبار إذا تنقّل فى مدارج العلا .

(٢٧) فلّه (من باب ردّ) : ثلمه وكسره . وحبيك : (فعيل بمعنى مفعول) أى محبوك موثق مشدود محكم متين قوىّ ، وقد يطلق الحبيك على المغافر والخوذات وبيضات الحديد التى يجعلها المحارب فوق رأسه ليتّقى بها السيوف وغيرها ، الواحدة حبيكة. والسرد : اسم جامع للدروع الحديدية وسائر الحلق ، وكلّ مايلبسه المحارب من الحديد ليتّقى به الطعن والضرب ، سمّى سرداً لأنه يسرد ، أى يثقب طرفا كلّ حلقة منه بالمسمار . وفى كلّ موقف : المراد مواقف الجلاد والقتال .

مدحه بأن قلمه أمضى من السيف القاطع البتّار. والمراد أنه يبلغ بقوّة قلمه وسحر بيانه مالا يبلغه المحارب الشجاع بسيفه البتّار .

وَشُعْلَةُ فِكْرٍ لَوْ بِمِثْلِ ضِيَائِهَا أَنَارَ سِرَاجُ الأُفْقِ مَا كَانَ يَنْطَفِي(٢٨)
فَسِيحُ مَجَالِ الْفِكْرِ ، ثَبْتٌ يَقِينُهُ بَعِيدُ مَنَاطِ الْهَمِّ ، حُرُّ التَّصَرُّفِ(٢٩)
أَدِيبٌ ، لَهُ فِي جَنَّةِ الشِّعْرِ دَوْحَةٌ أَفَاءَتْ عَلَى الدُّنْيَا بِأَجْمَلِ زُخْرُفِ(٣٠)
إِذَا نَوَّرَتْ أَفْنَانُهَا غِبَّ دِيمَةٍ مِنَ الْفِكْرِ جَاءَتْ بِالْبَدِيعِ الْمُفَوَّفِ(٣١)
تَرَنَّمَ فِيهَا مِنْ ثَنَائِى بُلْبُلٌ بِلَحْنٍ لَهُ فِى السَّمْعِ نَبْرَةُ مِعْزَفِ(٣٢)

(٢٨) الشعلة : شبه الجذوة ، وهى قطعة خشب تشعل فيها النار ، ومثلها القبس والشهاب. والسراج : المصباح الزاهر. والأفق : مايظهر من نواحى الفلك وأطراف الأرض ، وآفاق السماء : نواحيها . والمراد بسراج الأفق : الشمس . وانطفاؤها : أفولها وغيابها .

مدحه بحدّة الذهن ، وتوقّد الذكاء ، وثقوب الفكر ، وقال إن لفكره ضياء شديداً ، لو كان للشمس مثله ما اعتورها أفول ، ولا انطفأ لها نور .

(٢٩) فسيح مجال الفكر : فكره حرّ طليق ، يسبح فى مجال فسيح وأفق وسيع. وثبت : ثابت مستقرّ صحيح قوىّ . واليقين : العلم وزوال الشكّ ، أو العلم الحاصل عن نظر واستدلال . والمناط : موضع النوط (بفتح فسكون) وهو التعليق ، ناط الشيء (من باب قال) أى علّقه . والهمّ : أول العزيمة ، وهممت به ، أى أردته ، والمراد به هنا : الهمّة والعزم القوىّ . والتصرّف : مصدر تصرّف ، من قولهم : صرّفه فى أعماله وأموره فتصرّف ، والمراد أنه يتصرّف ويتنقّل فى فنون القول وأنواع الكلام كيف شاء .

مدحه بسعة الفكر ، وثبات اليقين ، وعلوّ الهمّة ، وحرّية التصرّف فى فنون الكلام .

(٣٠) جنّة الشعر : الشعر الشبيه بالجنّة ، وهى البستان والحديقة ذات الشجر والنخيل والأعناب. والدوحة : الشجرة العظيمة . وأفاءت : رجعت ، وفى القاموس : الفىء : الرجوع كالإفاءة ، وفى اللسان : وفاء إلى الأمر رجع إليه ، وأفاءه غيره رجعه . وأكبر الظنّ أن الشاعر استعمل « أفاء » فى موضع « فاء » ، يقال : فاء عليه الظلّ ، أى امتدّ وانتشر ، ويقوّى هذا الظنّ استعماله كلمة « دوحة » ، والدوحة مصدر الفىء والظلّ . والزخرف : الزينة ، وكمال حسن الشيء .

والمعنى : أن شعر الممدوح ردّ إلى الدنيا جمالها وزينتها ، وعاد عليها بالزخرف والبهاء .

(٣١) نوّرت : أزهرت ، وهى الدوحة . وأفنانها : أغصانها ، الواحد فنن (كسبب وأسباب) . وغبّ دائمة : بعدها . والديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق . والبديع : المبتدع الطريف العجيب المخترع . والمفوّف : الموشّى المزيّن ، من قولهم : برد مفوّف ، أى رقيق ، أو فيه خطوط ببيض.

والمعنى : أنه يجلو بفكره محاسن القريض ، وينظم البديع الرائع المعجب من الشعر .

(٣٢) ترنّم : غرّد ، من الترنّم ، وهو التطريب والتغنّى وتحسين الصوت. وفيها : فى الدوحة. والبلبل : طائر حسن الصوت ، يسمّى العندليب. واللحن : واحد الألحان واللحون ، وهى الأصوات الموسيقيّة المصوغة =

حَفِيتُ لَهُ بِالْوُدِّ مِنِّي ، وَكَيْفَ لَا ... أُسَابِقُهُ فِي وُدِّهِ وَهْوَ بِي حَفِي؟(٣٣)
تَأَلَّفَ نَفْسِي بَعْدَ مَا زَالَ أُنْسُهَا ... وَنَوَّهَ بِاسْمِي بَعْدَ مَا كَادَ يَخْتَفِي(٣٤)
وَحَرَّكَ أَسْلَاكَ التَّرَاسُلِ بَيْنَنَا ... بِسَيَّالِ وُدٍّ لَفْظُهُ لَمْ يُحَرَّفِ(٣٥)
وَفِي النَّاسِ مَعْطُوفٌ عَلَى الْوُدِّ قَلْبُهُ ... وَمِنْهُمْ سَقِيمُ الْعَهْدِ بَادِي التَّحَرُّفِ(٣٦)
تَوَسَّمْتُ فِيهِ الْخَيْرَ قَبْلَ لِقَائِهِ ... وَأَحْمَدْتُ مِنْهُ الْخُبْرَ بَعْدَ التَّعَرُّفِ(٣٧)

= الموضوعة للأغانى. ومن كلامهم: هذا لحن معبد وألحانه ولحونه: لما مال إليه من الأغانى واختاره. ولحّن فى قراءته تلحيناً، أى طرّب فيها وغرّد ، وقرأ بألحان ولحون . والنبرة : الصوت . والمعزف : من آلات اللهو والطرب التى يضرب بها ، كالعود والطنبور والدفّ .

والمعنى : أن الممدوح ضمّن قصيدته التى بعث بها إلى البارودىّ ثناء عليه ، ومديحاً له وقع حسن ، وأثر جميل فى السمع والنفس .

(٣٣) حفِى به (كرضى) حفاوة : تلطّف به ، وبالغ فى إكرامه ، وحفِى إليه بالوصية : بالغ ، وهو حفىّ به (على زنة فعيل) : مبالغ فى برّه وإكرامه ، وفى القرآن الكريم: « إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ». والودّ (بتثليث الواو) : المودّة والمحبّة .

والمعنى : أن كلّ واحد منهما بالغ فى التودّد إلى صاحبه ، والحفاوة به .

(٣٤) تألّف نفسى: آنسها . والأنس: الطمأنينة ، اسم من أنس بالشىء (من بابى علم وضرب) أى سكن إليه قلبه ، واطمأن ، ولم ينفر . ونوّه باسمى : أشاد به ، ورفع ذكرى ، وأظهره وشهره .

(٣٥) الأسلاك : جمع سلك (بكسر فسكون) وهو الخيط الذى يخاط به الثوب ، والمراد به هنا : سلاك البرق . وسيّال : صيغة مبالغة من سال الماء ونحوه ، أى جرى . ولم يحرّف : لم يغيّر ولم يبدّل ، من التحريف ، وهو التغيير والتبديل .

(٣٦) معطوف : مائل منحن مطوىّ . وسقيم : مريض معتلّ . والعهد : الوفاء والموثق والحفاظ ورعاية الحرمة . وباد : ظاهر . والتحرّف : الانحراف والميل .

يشير إلى أن الممدوح ممن انطوت على المودّة قلوبهم ، وانعطفت على البرّ أفئدتهم ، وجبلوا على اللطف والرّفق والوفاء والإحسان ، وليس من أولئك الذين بليت عهودهم ، وقلّ وفاؤهم ، وظهر انحرافهم عن الفضل ومكارم الأخلاق .

(٣٧) توسّمت فيه الخير : تفرّست ، وتبيّنت فيه أثره ، والضمير المجرور يعود على الممدوح . وأحمده : وجده محموداً . والخبر : الخبرة والعلم والمعرفة والاختبار .

يقول : إنه توسّم الخير وتفرّسه فى الممدوح ، وتبيّن فيه آثار الفضل والمروءة قبل أن يلقاه ، فلمّا لقيه وعرفه وجده أهلاً للحمد ، جديراً بالثناء ، وصدّق الخَبَرَ الخُبْرُ .

وَمَا حرَكَاتُ النَّفْسِ إلّا دِلَالَةٌ عَلَى صِدْقِ مَا قَالُوا بِهِ فى التَّعَيُّفِ(٣٨)
فَقَدْ تَكْذِبُ الْعَيْنُ الْفَتَى وَهْوَ غَافِلٌ وَيَصْدُقُ ظَنٌّ الْعَاقِلِ الْمُتَشَوِّفِ(٣٩)
وَفَيْتُ بِوَعْدِى فِى الثَّنَاءِ وَإِنْ يَكُنْ مَقَالِى بِهَاتِيكَ الْفَضَائِلِ لَا يَفِى(٤٠)
وَكَيْفَ وَإِنْ أُوتِيتُ فى النَّظْمِ قُدْرَةً أَضُمُّ شَتَاتَ الْكَوْنِ فِى بَعْضِ أَحْرُفِ؟(٤١)

---

(٣٨) يريد بحركات النفس : الإحساس الخفىّ ، وصدق الحدس ، وصواب الظنّ ، وسداد التخمين ، وهو ماعبّر عنه فى البيت السابق بالتوسّم . وقالوا به : حكموا به ، وذهبوا إليه . والتعيّف : التكهّن ، ومحاولة تعرّف الغيب بزجر الطير ، وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأصواتها فتتيمّن أو تتشاءم ، وقد تكون العيافة بالحدس والتخمين ، ولم نجد كلمة « التعيّف » فيما لدينا من المعجمات ، ولكن الحريرىّ استعملها فى المقامة البكرية فقال : « غدوت غدوّ المتعرّف ، وابتكرت ابتكار المتعيّف » وقد فسّره الشارح بقوله : هو الذى يزجر الطير للفأل ، وسُمّى متعيّفاً لكونه يعاف مايتطيّر منه ، أى يكرهه . اهـ .

يشير إلى أن الإنسان قد يصل إلى بعض حقائق الغيب بالتأثّرات النفسيّة ، والتوسّم والتفرّس ، وصدق الظنّ ، ونحو ذلك من الوسائل .

(٣٩) كذبتك عينك : أرتك مالا حقيقة له . وغافل : اسم فاعل من الغفلة ، وهى غيبة الشىء عن بال الإنسان ، وعدم تذكّره له . والمتشوّف : اسم فاعل من تشوّفت للشىء ، إذا طمح بصرك إليه ، وتطلّع وتطاول ، وأنعم النظر .

يقول : إن العين قد يخطئ حسّها ، وترى صاحبها مالا حقيقة له ، إذا لم تسعدها الفطنة ، وحسن التبصّر ، وقوّة الإدراك ، وقد يصدق ظنّ المرء إذا ساعده العقل والبصيرة ، وطول التأمّل ، وصدق النظر .

(٤٠) يقول : إنه وفى بوعده فى الثناء على الممدوح ، وإظهار محامده ، وإن كان يرى أن قوله لا يفى بفضائله ، ولا يقوى على تصوير مكرماته .

(٤١) أضمّ : أجمع . وشتات : اسم من شتّ الشىء (من باب ضرب) أى تفرّق .

والمعنى : أن الممدوح جمع ماتفرّق فى الناس من المحامد والفضائل ، وأنه لعظم نفسه قد ضمّ ما حواه الكون من صفات الخير والكمال ، فكيف يستطيع الشاعر وإن وهب القدرة على الوصف أن يجمع تلك الصفات فى كلمات ؟ . وكأنه يلمح فى هذا البيت قول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم فى واحد

وَقَالَ فِى الْغَزَلِ :

لَوَى جِيدَهُ وَانْصَرَفْ فَمَا ضَرَّهُ لَوْ عَطَفْ؟(١)
غَزَالٌ لَـهُ نَظْرَةٌ أَعَانَتْ عَلَىَّ الْكَلَفْ(٢)
تَبَسَّمَ عَنْ لُؤْلُؤٍ لَهُ مِنْ عَقِيقٍ صَدَفْ(٣)
وَتَاهَ فَلَمْ يَلْتَفِتْ وَشَأْنُ الْجَمَالِ الصَّلَفْ(٤)
جَرَى الْبَنْدُ فِى خَصْرِهِ عَلَى حَرَكَاتِ الْهَيَفْ(٥)

(١) لوى : أمال . والجيد : العنق ،وليّ الجيد : كناية عن الصدّ والإعراض . وعطف عليه : حنا عليه ، ومال إليه .

(٢) الغزال من ولد الظباء : الشادن إذا تحرّك ومشى وقوى واستغنى عن أمّه . وفى الغـزَل ، أو النسيب ، أو التشبيب يشبّه الشاعر المتغزّل حبيبته بالغزال فى جمال الجيد واتساع العينين وحسنهما ، والرشاقة ولطف الحركة وحسن التثنّى . والكلف : الغرام والهوى والحبّ الشديد ، مصدر كلف المرء بالشىء (من باب تعب) أى لهج به وأولع وأغرم .

يشبّه الحبيب بالغزال ، ويصف نظرته بأنها فاتنة ساحرة ، جعلته أسير الهوى، صريع الغرام

(٣) التبسّم : أقلّ الضحك وأحسنه . واللؤلؤ : الدرّ ، وتشبّه به الأسنان فى البياض والنقاء والصفاء الواحدة لؤلؤة . والعقيق : حجر كريم تتّخذ منه فصوص الخواتم ،ويكثر باليمن ، وأجود أنواعه الأحمر . والصدف : غشاء الدرّ وغلافه ، الواحدة صدفة (بفتحتين) وهى المحارة (بفتح الميم) .

شبّه أسنان الحبيب باللؤلؤ ، وشفتيه بالعقيق الأحمر .

(٤) تاه: تكبّر ، من التيه (بكسر التاءوسكون الياء) وهوالكبر ،(وبابه باع) .والشأن :الأمر والحال.والصلف: التمدّح بما ليس عندك،أو هو مجاوزةقدر الظرف ، والادّعاء فوق ذلك تكبّراً ، ويراد به هنا : : التيه والكبر .

يقول : إنه انصرف عنى ، ولم يلتفت إلىّ تيهاً وكبراً ، وفى الشطر الثانى شبه بيان لعذر هذا الحبيب ، إذ الجمال يغرى صاحبه بالعجب والصلف والتيه والخيلاء .

(٥) البند : كلمة فارسية معرّبة ، ويراد بها هنا : المنطقة والحزام وشبههما . والخصر : وسط الإنسان . والهيف : رقّة الخصر ، وضمور البطن، وهو من محاسن النساء .

وصفه برقّة الخاصرة ، وضمور البطن ، واهتزاز البند فى وسطه ، تبعاً لاهتزاز الخاصرة ، وحركات الرشاقة .

وما ذَاكَ خَالٌ بَدَا ولَكِنْ وِسَامُ التَّرَفْ(٦)
رَآنِي بِهِ مُولَعاً فَعاتَبَنِي وَانْحَرَفْ(٧)
وَلَمْ يَدْرِ أَنِّي بِهِ عَلَى جمَراتِ التَّلَفْ(٨)
فَقُلْتُ لَهُ : سَيِّدِي ! تَرَفَّقْ بِصَبٍّ دَنِفْ(٩)
فَقَال : أَخَافُ الْعِدَا فَقُلْتُ لَهُ : لَا تَخَفْ(١٠)
فَإِنِّي عفِيفُ الْهَوَى وَمَا كُلُّ صَبٍّ يَعِفْ(١١)
وَأَنْشَدْتُهُ قِطْعَةً وَشِعْرِيَ إِحْدَى الطُّرَفْ(١٢)

---

(٦) الخال : شامة أو نكتة سوداء تكون فى خدّ الإنسان ، وقد تضعه المرأة للزينة. وبدا : ظهر. والوسام (فى الأصل) : العلامة توسم بها الدابة ، ومثله السمة ، يقال: ماسمة دابّتك ؟ وماسمات إبلك؟ وقد استعمل الوسام حديثاً فيما ينعم به الملوك على من يستحقّون التكريم ، كالأنواط ونحوها . والترف : النعيم والرفاهية .

جعل الشامة السوداء الظاهرة على خدّ الحبيب وساماً وعلامة على ترفه وتنعّمه .

(٧) مولعاً : مغرماً ، من الولوع (كصبور) وهو الإغرام وشدّة التعلّق بالشىء . وانحرف : مال وانصرف . وإنما عاتبه لأنه يشهره ، ويهتف باسمه .

(٨) به : بسبب تعلّقى به ، وحبّى إيّاه . والجمرات : قطع النار المتّقدة ، الواحدة جمرة (كسجدة وسجدات) . والتلف : الهلاك والعطب .

(٩) صبّ : عاشق مشتاق ، صفة من الصبابة، وهى حرارة الشوق ، ورقّة الهوى . ودنف : براه المرض حتى أشفى على الموت ، صفة من الدنف (بفتح الدال والنون) وهو المرض الملازم المخامر ، وأكثر مايستعمل فيمن برّح به الهوى والحبّ ، وأضنته الصبابة والغرام .

(١٠) العدا : الأعداء ، وهو جمع لا نظير له ، أو هو اسم جمع لعدوّ .

(١١) عفيف : صفة من العفّة ، وهى الكفّ عما لايحلّ ولا يجمل ، يقال: عفّ المرء عن المحارم والدنايا يعف (كخفّ يخفّ)أى كفّ نفسه عنها ، فهو عفيف . والهوى : الحبّ والعشق .

يقول : إن هواه عذرىّ عفيف لا تشوبه ريبة .

(١٢) أنشد الشعر : قرأه بصوت مسموع . والطرف : جمع طرفة (كغرفة وغرف) وهى الشىء المستحدث الطريف الممتع المعجب .

يقول : إنه أنشد هذا المحبوب مقطوعة من شعره الطريف البديع المعجب الرائع .

فَأَصْغَى لَهَا بَاسِماً وَبَانَ عَلَيْهِ الْأَسَفْ[١٣]
وَنَمَّتْ بِهِ خَجْلَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَا اقْتَرَفْ[١٤]
وَقَالَ : أَهَذَا الضَّنَى جَنَاهُ عَلَيْكَ الشَّغَفْ ؟[١٥]
فَقُلْتُ : نَعَمْ ، سَيِّدِي! وَأَبْرَحُ مِمَّا أَصِفْ[١٦]
فَصَدَّقَ ، لَكِنَّهُ تَجَاهَلَ لَمَّا عَرَفْ[١٧]
وَقَالَ : أَطَعْتَ الْمُنَى وَبَعْضُ الْأَمَانِي سَرَفْ[١٨]
وَمَا كُلُّ ذِي حَاجَةٍ يَفُوزُ بِهَا إِنْ عَكَفْ[١٩]

(١٣) أصغى لها : مال بسمعه إليها، أى إلى المقطوعة الشعرية. وبان: ظهر واتضح .والأسف الحزن الشديد . ويظهر أن القطعة كانت تتضمن وصف مايلاقيه الشاعر من الوجد واللوعة .

(١٤) نمت : ظهرت. وخجلة: اسم مرة من الخجل(بفتحتين) وهو التحير والدهش من الاستحياء. واقترف الإنسان الذنب وغيره : اكتسبه وأتاه وفعله .

والمعنى : أن الحبيب لما سمع شعره تأثر به فاستحيا وخجل ، وأسف على ما اقترفه من تعذيبه بالصد والإعراض والهجران .

(١٥) الضنى: مرض مخامر كلما ظن برؤه نكس. وجناه عليك : جره عليك ، وجلبه إليك . والشغف : مصدر شغفه الحب ، أى أحرق قلبه، أو أمرضه ، أو اخترق شغاف قلبه (بفتح الشين) وهو غلافه وحجابه وغطاؤه .

(١٦) أبرح : أشد برحاً (بفتح فسكون) وشدة وعذاباً ، وهو اسم تفضيل على غير قياس من قولهم : برح به الشوق والهوى ، أى قوى وشق واشتد ، وجاوز الحد .

(١٧) تجاهل : أظهر الجهل ، أو أرى من نفسه الجهل وليس به .

والمعنى : أنه عرف حقيقة أمرى ، فصدق وآمن ، ولكنه أظهر الجهل دلالاً أو صدوداً .

(١٨) المنى : جمع منية(بضم فسكون)وهى مايتمناه الإنسان ، ويتوق إليه، ومثلها الأمنية ، وجمعها الأمانى (بتشديد الياء فى المفرد والجمع ،وقد يخفف الجمع بترك التشديد). والسرف : مجاوزة القصد ، وضد الاعتدال ، كالإسراف .

والمعنى : أنه تعلق بأمنية بعيدة المنال ، وأمل لا يرجى تحققه ، وهو التلاقى والوصال .

(١٩) عكف على الشيء : أقبل عليه مثابراً مواظباً (وبابه دخل)
يشير إلى أن أمله فى وصاله من الحاجات البعيدة الممتنعة التى لايظفر بها ، ولا يصل إليها ، ولو عكف عليها ، واهتم بها ، وثابر على أسبابها .

فَأَشْفَقْتُ مِنْ قَوْلِهِ وَلَكِنَّ رَبِّي لَطَفْ(٢٠)
فَلَمَّا رَأَى أَدْمُعِي تَوَالَتْ ، وَقَلْبِي رَجَفْ(٢١)
تَبَسَّمَ لِي ضَاحِكاً وَمَانَعَ ، ثُمَّ انْعَطَفْ(٢٢)
فَأَغْرِمْتُهُ قُبْلَةً (عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفْ)(٢٣)

وقال :

مَنْ لِي بِظَبْيَةِ خِدْرٍ كُلَّمَا وَعَدَتْ بِزَوْرَةٍ أَعْقَبَتْ لِلْوَعْدِ إِخْلَافَا(١)
تَحْكِي الْغَزَالَةَ أَلْحَاظاً إِذَا نَظَرَتْ وَالْوَرْدَ خَدًّا ، وَغُصْنَ الْبَانِ أَعْطَافَا(٢)

---

(٢٠) أشفقت : خفت وجزعت . ولطف : رفق ، من اللطف ، بمعنى الرحمة والرفق والإحسان .

(٢١) توالت : تتابعت . ورجف : خفق واضطرب .

(٢٢) تبسّم : جواب لمّا فى البيت السابق. وانعطف : مال ، وهو مطاوع عطفه ، أى أماله وحناه.

(٢٣) أغرمته قبلة : المراد قبّلته ولثمته ، وقد جعل القبلة كالغرامة التى يلزم أداؤها . وسلف : مضى وذهب . والشطر الثانى اقتباس من القرآن الكريم ، قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » الآية ٩٥ من سورة المائدة .

(١) الظبية : الغزالة ، وتشبّه بها الحسناء فى ملاحة الجيد ، وجمال العينين واتساعهما ، وفى الرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنّى. والخدر: ستر (بكسر فسكون فيهما) كان يمدّ للجارية فى ناحية البيت ، ثم أطلق على كلّ ماوارى وستر من بيت ونحوه . والزورة : اسم مرة من الزيارة . وأعقبت الوعد إخلافاً : جعلت الإخلاف يعقب الوعد ويليه ، ويأتى عقبه ، والمراد أنها تعد كثيراً بالزيارة ، ولكنها لا تنجز وعداً .

(٢) تحكى : تشبه . والألحاظ : جمع اللحظ ، مصدر لحظه ، مصدر لحظه (كنعه) ولحظ إليه ، أى نظر إليه بمؤخر عينه ، من أىّ جانبيه كان يميناً أو شمالا ، أو هو النظر من جانب الأذن ، والمراد بالألحاظ : النظرات الوادعة الفاتنة ، ومن كلامهم : فتنته لحظاتها وألحاظها . والبان: شجر يسمو ويطول فى استواء ، مثل نبات الأثل ، وله هدب طوال شديدة الخضرة ، وثمرته تشبه قرون اللوبياء ، إلا أن خضرتها شديدة ، ولها حبّ يستخرج منه دهن البان ، والشعراء يشبّهون الحسناء الناعمة المعتدلة القامة بالبان ، فيقولون : كأنها بانة ، أو كأنها غصن بان ، فى الاستواء والاعتدال ، وحسن الطول ، واللّين والنعومة . والأعطاف : جمع عطف (بكسر فسكون) وهو الجانب ، وعطفا الإنسان : جانباه .

تَاهَتْ بِنُقْطَةِ خَالٍ فَوْقَ وَجْنَتِها　　زِيدَتْ بِهَا عَشَرَاتُ الْحُسْنِ أَضْعَافَا(٣)

وقال :

بَكَرَ النَّدَى ، وَتَرَفَّـعَ السَّدَفُ　　وَأَتَتْ وُفُـودُ اللَّهْوِ تَخْتَلِفُ(١)
وَدَعَتْ إِلَى شُرْبِ الصَّبُوحِ ـ وَقَدْ　　رَقَّ الظَّلَامُ ـ حَمَائِمٌ هُتُفُ(٢)
فَانْهَضْ عَلَى قَدَمِ الرَّبِيعِ ، فَمَا　　فِى نَيْلِ أَيَّامِ الصِّبا سَرَفُ(٣)

---

(٣) تاهت : زهيت وتكبّرت ، من التيه (بكسر التاء وسكون الياء) وهو الكبر (بكسر فسكون) . والخال : شامة أو نكتة سوداء تكون فى خدّ الإنسان ، وتسميه العامّة « حسنة » (بفتح الحاء والسين) . والوجنة : مانتأ وارتفع من لحم الخدّين . والأضعاف : جمع ضعف (بكسر فسكون) ، وضعف الشيء : مثله أو مثلاه أو أمثاله ، وهو زيادة غير محصورة . ويظهر أن البارودىّ قد أخطر بباله عند ذكر الخال كلمة الحسنة ، لذلك تراه يقول : إن هذه الحسنة قد ضاعفت عشرات الحسن ، وهو يلمح الآية الكريمة :

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »

(١) بكر الندى : سقط ونزل فى البكرة (بضم فسكون) وهى أول النهار . والندى : البلل والمطر القليل يسقط آخر الليل وأول النهار . وترفّع : ارتفع ، والمراد زال وانقشع . والسدف : ظلمة الليل . ووفد عليه وإليه (كوعد) : قدم ، فهو وافد ، والجمع وفد (كصاحب وصحب) وجمع الوفد وفود . وتختلف : مختلفة ، كثيرة الأنواع ، أو هو من الاختلاف بمعنى التردّد ، يقال : اختلفت إلى موضع كذا ، أى تردّدت إليه مرّة بعد أخرى . والمراد بوفود اللهو : دواعى اللعب ، وأسباب الهوى والطرب .

(٢) الصبوح : الخمر تشرب فى الصباح . ورقّ الظلام : ضعف فلم يبق منه إلا القليل ، وذلك إذا أخذ فى الانقشاع وقت الفجر ، والجملة حالية . وحمائم : فاعل دعت ، جمع حمامة . وهتف جمع هتوف (كصبور وصبر) أى كثيرة الهتاف ، وهو الصوت ، والمراد صوت الحمام وهديله .

والمعنى : أن الحمائم بهتافها وهديلها قد نبّهته على ذهاب الليل ، وحلول وقت اللهو والشرب .

(٣) على قدم الربيع : على أثره ، أوفى إبّانه . ونيل أيام الصبا : المراد نيل المتع واللذّات فى أيام الصبا والشباب . والسرف : الإسراف ومجاوزة القصد ، وهو ضدّ الاعتدال .

يستحثّه ويستنهضه لانتهاز فرصة الربيع للاستمتاع بلهو الصبا ولذّات الشباب ، ويقول : ليس فى هذا سرف ، ولا مجاوزة للقصد والاعتدال ، لأن الصبا يدعو إلى المرح واللهو ، والمتعة والعيش ، وهو زمن الهوى والطرب واللذّة والنشاط .

وَانْظُرْ ، فَثَمَّ غَمَامَةٌ أُنُفٌ ... تُولِي الْجَمِيلَ وَرَوْضَةٌ أُنُفُ (٤)

زَهَرٌ يَرِفُّ عَلَى كَمَائِمِهِ ... وَنَدًى يَشِفُّ ، وَمُزْنَةٌ تَكِفُ (٥)

فَالطَّلُّ مُنْتَثِرٌ ، وَمُنْتَظِمٌ ... وَالْغُصْنُ مُفْتَرِقٌ ، وَمُؤْتَلِفُ (٦)

وَالرَّوْضُ يَرْفُلُ فِي مُعَصْفَرَةٍ ... بِالزَّهْرِ لِلْأَبْصَارِ تَخْتَطِفُ (٧)

عُنِيَ الرَّبِيعُ بِنَسْجِ بُرْدَتِهَا ... إِنَّ الرَّبِيعَ لَصَانِعٌ ثَقِفُ (٨)

---

(٤) ثَمَّ : إشارة إلى المكان البعيد . والغمامة : السحابة ، والجمع غمائم وغمام . وأُنُف : ملأى ، من قولهم : كأس أُنُف ، ومنهل أُنُف ، والمراد ماطرة . وتولى : تهب وتعطى وتسدى . والجميل : المعروف والصنيعة والبر والخير والإحسان ، والمراد المطر الذى يعقب الخصب والنماء والنضرة والبهاء . والروضة : أرض ذات كلأ ونبات وشجر وزهر وماء . وأُنُف : جديدة النبت ، لم يرعها أحد .

يدعوه إلى تأمل بعض مشاهد الطبيعة المغرية بالمرح والنشاط ، كالرياض البهيجة المعجبة ، والغمام والمطر .

(٥) يرف : يهتز نضارة وحسناً ، ويتلألأ ويشرق ماؤه . والكمائم : جمع كِمامة (بكسر الكاف) وهى وعاء الزهرة وغطاؤها . والندى : البلل ، والمطر القليل يسقط آخر الليل وأول النهار . ويشف : يرق ويصفو ، حتى يرى ما خلفه . والمزنة : السحابة ، أو السحابة البيضاء ، أو ذات الماء ، والجمع مُزن (بضم فسكون) . وتكف : تسيل وتنصب شيئاً فشيئاً (وبابه وعد) .

(٦) الطل : أخف المطر وأضعفه ، وقد يسقط من السماء وهى صحو . ومنتثر : متفرق . ومنتظم : مجتمع مؤتلف . ومفترق : متفرق ، وهو ضد الائتلاف والاجتماع .

يريد أن الريح تعبث بقطرات الطل ، وغصون الشجر ، فتفرقها مرة ، وتجمعها مرة أخرى وهكذا دواليك .

(٧) الروض : جمع روضة . ويرفل : يزهى ويتبختر ، رفل فى ثيابه (من باب نصر) أى أطالها وجرها متبختراً مرحاً معجباً بنفسه . وفى معصفرة : فى ثياب معصفرة ، أى مصبوغة بالعصفر (بضم فسكون فضم) ، وهو نبات تصبغ به الثياب ونحوها ، والمراد بمعصفرة هنا : موشاة مزينة . وتختطف : تجتذب وتستلب ، وتأخذ فى خفة وسرعة ...

(٨) عنى : لعنى واهتم . والبردة : كساء يلتحف به ، أو الشملة المخططة ، أو كساء مربع صغير ، والضمير المجرور فى «بردتها» يعود على «معصفرة» فى البيت السابق .

والمراد أن ما ينتشر فى الرياض ويغشيها من الأزهار الرائعة الباهرة الشبيهة بالثياب المعصفرة — من نسج الربيع وحياكته . وثقف (بفتح فكسر) : حاذق ماهر .

لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْ بُلَهْنِيَةٍ ... فِي الْعَيْشِ قَلَّدَ جِيدَهَا الشَّغَفُ(٩)
وَعِصَابَةٍ غَلَبَ الْكَمَالُ عَلَى ... أَخْلَاقِهِمْ وَغَـذَاهُمُ التَّرَفُ(١٠)
نَازَعْتُهُمْ طَرَفَ الْحَدِيثِ وَقَدْ ... جَرَتِ الْكُؤُوسُ بِنَا ، فَما اخْتَلَفُوا(١١)
قَلْبِي بِهِمْ كَلِفٌ ، وَنَاظِرَتِي ... عَنْ حُسْنِهِمْ تَاللهِ تَنْحَرِفُ(١٢)
فَمَحَبَّتِي لَهُمُ كَمَا عَرَفُوا ... صِدْقٌ ، وَوَجْدِي فَوْقَ مَا أَصِفُ(١٣)

---

(٩) البلهنية : سعة العيش ورفاهيته ونعومته ، وطيب الحياة . والعيش : المعيشة والحياة . والجيد : العنق . والشغف : الهوى والحبّ ، مصدر شغفه الحبّ ، أي بلغ شغاف قلبه ، وهو غلافه وحجابه ، وقلّد جيدها الشغف : زينها الحبّ والعشق ، كما تزين القلادة جيد لابسها .

يقول : لا شيء أحسن في الحياة من بلهنية وسعة ورفاهية يجمّلها العشق والغرام .

(١٠) العصابة : الجماعة من الناس وغيرهم ، وهي من العشرة إلى الأربعين . والواو قبلها : واو ربّ ، أي وربّ عصابة . وغذاه يغذوه : أطعمه وسقاه ، والغذاء (ككتاب) : مايكون به نماء الجسم وقوامه من الطعام والشراب . والترف : التنعّم والرفاهية وطيب العيش وسعته ولينه ، (وفعله كفرح) .

(١١) نازعتهم : جاذبتهم . وطرف كلّ شيء : منتهاه ، أوجانبه وناحيته ، أو الطائفة منه ، والمختار من الشيء ، والجمع أطراف (كسبب وأسباب) ، قال الشاعر :

ولمّا قضينا من منى كلّ حاجة ... ومسّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

قال ابن سيدة : عنى بأطراف الحديث مختاره ، وهو مايتعاطاه المحبون ، ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيّمون من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح ؛ وذلك أحلى وأخفّ وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهة وكشفاً ومصارحة وجهراً . والكؤوس : جمع كأس ، قيل ولا تسمّى كأساً إلا وفيها الشراب .

يصف ما كان بينه وبين هؤلاء الندماء من حديث ومشاربة وألفة ووفاق .

(١٢) كلف (بفتح فكسر) : مولع مغرم ، شديد الحبّ والتعلّق . والناظرة : العين . وتنحرف : تميل ، والمراد : لاتنحرف ، فالفعل هنا منفى غير مثبت ، بدليل أنه لم يؤكّد بعد القسم .

(١٣) لهم : للعصابة . والوجد : الهوى والحبّ .

يقول : إن محبته لهؤلاء الندماء والخلاّن صادقة خالصة ، وإن وجده بهم شديد ، يجلّ عن الوصف والتصوير .

لِلهِ أَيَّامٌ بِهِمْ سَلَفَتْ ... لَوْ أَنَّهَا بِالْوَصْلِ تُؤْتَنَفُ(١٤)
إِذْ لِمَّتِي فَيْنَانَةٌ ، وَيَدِي ... فَوْقَ الأَكُفِّ ، وَقَامَتِي أَلِفُ(١٥)
أَجْرِي عَلَى إِثْرِ الشَّبَابِ ، وَلَا ... يَمْشِي إِلَى سَاحَاتِيَ الْجَنَفُ(١٦)
ضَافِي الْغَدِيرَةِ ، عَارِمٌ شَرِسٌ ... صَعْبُ الْمَرِيرَةِ ، سَادِرٌ أَنِفُ(١٧)
إِنْ سِرْتُ سَارَ النَّاسُ لِي تَبَعاً ... وَإِذَا وَقَفْتُ لِحَاجَةٍ وَقَفُوا(١٨)

---

(١٤) لله كذا : أسلوب يفيد المدح والتعجّب . وسلفت : ذهبت ومضت . وتؤتنف : تستأنف وتستعاد ، من قولهم : استأنفت الشيء ، وأتنفته ، أى أخذت فيه وابتدأته ، أو استقبلته .
يتحسّر على ما مضى من أيام القرب والوصال ، ويتمنّى أن تعود وتتجدّد .

(١٥) اللمّة : الشعر يلمّ بالمنكب ، أى يقرب منه ، أو هى الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن . وشعر فينان : طويل حسن ، كأفنان الشجر . والأكفّ : جمع كفّ ، وهى اليد ، وكنى بقوله « يدى فوق الأكفّ » عن تفوّقه على أقرانه ولداته فى القوّة والفتوّة . وقامة الإنسان : قدّه وقوامه ، يقال : هو طويل القامة ، حسن القوام ، معتدل القدّ . والألف : حرف الهجاء المعروف ، يشبّه به الشىء فى الاستقامة والاعتدال .
يصف بعض ما كان يمتاز به فى أيام الصبا ونضرة الشباب ، من غزارة الشعر وحسنه وطوله ، وتفوّقه على لداته وأقرانه فى القوّة والفتوّة ، واعتدال قامته ، واستقامة قدّه ، وفى البيت إشارة إلى ما صار إليه فى شيخوخته من تساقط الشعر وقلّته ، وضعف البنية ، وتقوّس الظهر .

(١٦) أجرى على إثر الشباب : أنقاد لدواعيه ، من قولهم : خرج على إثره (بفتحتين ، أو بكسر فسكون) أى لحق به ، وتبعه عن قرب . والساحات : جمع ساحة ، وهى الناحية ، أو باحة الدار ، والموضع المتّسع أمامها ، أو فضاء يكون بين دور الحى . والجنف : الميل والجور والحيف (بفتح فسكون) ، يقال : جنف علينا فى الحكم (من باب تعب) أى مال وجار ، وهو من أهل الحيف والجنف . ولا يمشى إلى ساحاتى الجنف ، لا يجار علىّ ، ولا يمسّنى ضرّ ولا عدوان ، أو المراد أنه ينقاد لدواعى الفتاء ، وصبوة الحداثة والشباب ، فى غير ميل ولا جور ، ولا انحراف عن الجادّة .

(١٧) ضاف : اسم فاعل من ضفا الشعر ونحوه (من باب سما) أى كثر وطال . والغديرة : الذؤابة ، وهى الضفيرة من الشعر ، إذا كانت مرسلة ، غير ملويّة ولا معقوصة ، وضافى الغديرة : طويل الشعر كثيره وهو فى معنى قوله « لمّتى فينانة » . وعارم : شديد قوىّ . وشرس : عسر شديد صعب . والمريرة : العزيمة ، وعزّة النفس ، وصعب المريرة : قوىّ الشكيمة ، مستحكم الأمر ، لا يلين ، ولا ينقاد . وسادر : لا يهتمّ لشىء ، ولا يبالى ما صنع . وأنف : صفة من قولهم : أنف فلان من الشىء (من باب تعب) أى تنزّه عنه واستنكف منه وكرهه ، واجتنبه أنفة واستكباراً .

(١٨) تبعاً : تابعين . يتمدّح بأنه كان متبوعاً مهيباً مرهوباً ، عظيم الجاه ، رفيع القدر ، شديد البأس . وهذا مأخوذ من قول الفرزدق :

ترى الناس ماسرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

فَالْآنَ أُصْبِحُ طائِرِى وَقِعٌ   بَعْدَ السُّمُوِّ وَصَبْوَتِى أَسَفُ(١٩)
وَغَدَوْتُ بَعْدَ الْكِبْرِياء عَلَى   كُلِّ الْوَرَى بِالْعَجْزِ أَعْتَرِفُ(٢٠)
وَكَذَلِكَ الْأَيَّامُ ، آخِرُهَا   بَعْدَ الشَّبَابِ الضَّعْفُ وَالْخَرَفُ(٢١)
وَالْمَرْءُ مَهْمَا طَالَ طَائِلُهُ   يَوْماً لِصَائِبَةِ الرَّدَى هَدَفُ(٢٢)
فَلَبِئْسَ مَا قَدِمَ الْمَشِيبُ بِهِ   وَلَنِعْمَ مَا وَلَّى بِهِ السَّلَفُ(٢٣)

---

(١٩) وقع : الذى فى اللسان وغيره ، وقع الطائر يقع وقوعاً ، نزل عن طيرانه ، فهو واقع ، وإنه لواقع الطير ، أى ساكن ليّن . والسموّ : مصدر سما ، أى علا وارتفع . والصبوة : جهلة الفتوّة واللهو من الغزل ، مصدر صبا يصبوصبوة وصبوًّا (كسموّ) أى مال إلى الجهل واللهو والفتوّة والهوى ، وبى صبوة إلى كذا ، أى ميل وحنين وشوق . والأسف : أشدّ الحزن (وفعله كفرح) .

يشكو ما صار إليه بعد فوات الشباب من الضعف والهرم والشيخوخة ، وأنه استبدل بصبوة الفتاء ومرحه ، وهوى الحداثة ولهوها أسفاً وحسرة وحزناً شديداً .

(٢٠) غدا : صار . والورى : الخلق (بفتح فسكون) .

والمعنى : أن ما انتهى إليه أمره من الشيب والهرم جعله يعترف بالعجز ، ويقرّ بالضعف ، ويذلّ وينقاد ، بعد أن كان يستشعر العظمة والكبرياء .

(٢١) الخرف : فساد العقل من الكبر (وبابه طرب) .

(٢٢) الطائل : الفضل والقدرة والغنى والسعة والعلوّ ، ومهما طال طائله : المراد مهما طال عمره وامتدّ . وصائبة : اسم فاعل من صاب السهم (من بابى قال وباع) أى وصل إلى الرميّة ، ولم يخطئ الهدف ، ولم يتجاوز الغرض ، ومثله أصاب . والردى : الموت والهلاك . والمراد بصائبة الردى : سهام الموت الصائبة التى لا تخطئ ، ولا تنحرف . والهدف : الغرض الذى يقصد ويرمى .

يقول : إن الإنسان مهما طال عمره ، وامتدّ أجله لابدّ أن يكون يوماً هدفاً لسهام الموت الصائبة ، وهذا قريب من قول طرفة بن العبد فى معلّقته :

لعمرك إن الموت – ما أخطأ الفتى –   لكا لطّول المرخى وثنياه باليد

(٢٣) المشيب : الشيب . وولّى : أدبر وذهب وانصرف . والسلف : جمع سالف (كخدم وخادم) اسم فاعل من سلف الشىء (من باب قعد) أى مضى وانقضى ، وقد يطلق السلف على السالف الماضى ، والمراد به هنا : الشباب .

يذمّ ما جاء به المشيب من الضعف والعجز ، ويمدح ما تولّى به الشباب من القوّة ونضرة الحياة ، ولذّة العيش .

وَقَالَ يَصِفُ غَيْثاً :

وَذِى نَعَرَاتٍ يَقْطَعُ الْأَرْضَ سَارِياً عَلَى غَيْرِ سَاقٍ وَهْوَ بِالْأَرْضِ أَعْرَفُ(١)

لَهُ فَوْقَ أَعْنَاقِ الرِّيَاحِ سَبَائِبٌ مُحَبَّرَةٌ ، مِنْهَا قَصِيرٌ وَمُسْدَفُ(٢)

كَأَنَّ «سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ» فَوْقَهُ عَلَى عَرْشِهِ ، وَالْجِنُّ بِالْجِنِّ تَعْزِفُ(٣)

(١) نعرات : أصوات ، جمع نعرة (بفتح فسكون) وهى صوت فى الخيشوم . وذى نعرات : وربّ سحاب ذى رعد. ويقطع الأرض : يجتازها ويجوبها ويسير فيها .وسارياً : سائراً . والساق من الإنسان : ما بين الركبة والقدم ، ومن الخيل والبغال والحمير والإبل : مافوق الوظيف ، ومن البقر والغنم والظباء : مافوق الكراع .

يصف السحاب بأنه راعد ، يجوب الأرض ، ويسير فيها على غير قدم وساق ، وهو أعرف من سواه بحاجتها إلى الماء والرىّ .

(٢) له : لذى النعرات ، أى السحاب الراعد . وفوق أعناق الرياح : يشير إلى أن الرياح تحمل السحاب وتسوقه وتثيره . وسبائب : جمع سبيبة ، وهى الذؤابة والخصلة من الشعر . ومحبّرة : محسّنة . ومسدف : مرسل مرخى ، اسم مفعول من أسدفت المرأة القناع ، أى أرسلته .

يشبّه أطراف السحاب تحملها الرياح بخصل الشعر فى أعناق الخيل منها القصير ، ومنها الطويل المرخى المرسل .

(٣) سليمان بن داود : من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وكلّهم من أنبياء الله ، صلوات الله عليهم أجمعين . وفوقه : فوق السحاب . وعرشه : سرير ملكه . وتعزف : تصوّت ، من العزيف ، وهو – فيما تزعم العرب – جرس أصوات الجنّ . وفى القرآن الكريم إشارة إلى قصّة سيدنا سليمان عليه السلام ، وما كان له من ملك عظيم ، وسيطرة على الرياح والشياطين ، قال تعالى :

«وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِى مُلْكاً لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ . » ٣٤ –٣٨ سورة ص .

تخيّل الشاعر أن سليمان بن داود يجلس على عرشه فوق السحاب ، وأن ما نسمعه من زمجرة الريح عزيف الجنّ المسخّرة لسليمان ، السائرة فى ركبه ، يصيح بعضهم ببعض .

يَجِدُّ بِنَا فِي أَمْرِهِ وَهْوَ لاعِبٌ ... وَيَضْحَكُ أَحْيَاناً وَعَيْنَاهُ تَذْرِفُ(٤)

تَلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ وَالْمَاءُ سَافِحٌ ... فَلَا الْمَاءُ يُطْفِيهَا ، وَلَا النَّارُ تَضْعُفُ(٥)

إِذَا سَارَ عَنْ أَرْضٍ غَدَتْ وَهْيَ جَنَّةٌ ... وَإِنْ حَلَّ أُخْرَى عَمَّهَا مِنْهُ زُخْرُفُ(٦)

يَكُونُ حَيَاةً لِلنُّفُوسِ ، وَرُبَّمَا ... ضَبَتْ مِنْهُ نَارٌ ، أَوْسَطَا مِنْهُ مُرْهَفُ(٧)

لَهُ زَفْرَةٌ تَتْرَى ، وَعَيْنٌ سَخِيَّةٌ ... وَقَلْبٌ كَزَهْرَاءِ الْمَصَابِيحِ يَرْجُفُ(٨)

---

(٤) يجدّ : مضارع من الجدّ (بكسر الجيم وتشديد الدال) وهو ضدّ الهزل (والفعل كخفّ وردّ) والأمر : الشأن والحال. ويضحك : المراد يلمع فيه البرق ، والعرب تسمّى السحاب إذا برق ضاحكاً على سبيل المجاز . وذرفت العين (من باب ضرب) : جرى دمعها وسال وانصبّ ، وقد أسند الشاعر هذا الفعل إلى ضمير المفردة ، فقال : « وعيناه تذرف » بدلا من « وعيناه تذرفان » . والعرب قد تعيد الضمير بلفظ الواحد إلى كلّ اثنين لايكادان يفترقان ، كاليدين ، والرجلين ، والعينين ، قال الفرزدق :

ولو بخلت يداى به وضنّت ... لكان علىّ للقدَر الخيار

والمعنى : أن السحاب يتحرّك ويضطرب ، فيبدو فى هيئة اللاعب وهو جادّ فى أمره ، ويلمع البرق فى ثناياه أحياناً مع انهمار المطر ، فيظهر فى صورة الضاحك وعيناه تذرفان الدمع .

(٥) تلهّب : تتقد وتشتعل ، وأصله تتلهّب ، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً . وفيه : فى السحاب والمراد بالنار : البرق اللامع . وسافح : منصبّ سائل مهراق .

يصف لمعان البرق مع سقوط المطر وانصبابه ، ويتخيّله ناراً تلهب فى ماء جار ، فلا الماء يطفئها ، ولا هى تضعف وتخمد .

(٦) فاعل « سار » ضمير السحاب . وغدت : صارت . وحلّ : نزل . وعمّها : شملها . وزخرف : زينة ونضرة وبهاء .

يصف أثر الغيث فى إحياء الأرض وإخصابها وتزيينها بمختلف أنواع الشجر والزهر والنبات.

(٧) يكون : أى السحاب والغيث والمطر . وضبته النار تضبوه : أحرقته وشوته . وسطا عليه ، وبه يسطو : صال وتطاول وقهر وبطش . ومرهف : سيف بتّار حادّ قاطع .

يشير بالشطر الأول إلى معنى قول الله تبارك وتعالى : « وجعلنا من الماء كلّ شىء حىّ » . ويشير بالنار الضابية المتولّدة من السحاب إلى الصواعق الكهربيّة . ويريد بالسيف المرهف : البرق المستطيل ، اللامع الخاطف .

(٨) له : السحاب . والزفرة : اسم من زفر الإنسان (كضرب) يزفر زفرا وزفيراً ، أى أخرج نفسه بعد مدّه إيّاه ، كما يفعل المغموم ونحوه . وتترى : متواترة متوالية ، واحدة بعد واحدة . وعين سخيّة : كريمة تجود بالدمع الغزير . وزهراء المصابيح : المصابيح المنيرة المضيئة . ويرجف : يخفق ويضطرب اضطراباً شديداً =

يَسِيرُ عَلَى مَتْنِ الْهَوَاءِ ، وَتَارَةً ... يُخَضْخِضُ سَجْلًا فِي الْبِحَارِ فَيَغْرِفُ (٩)

أَضَرَّ بِأَعْنَاقِ النَّعَائِمِ حَمْلُهُ ... فَأَلْقَتْ بِهِ عَنْ ظَهْرِهَا ، فَهْوَ يَرْسُفُ (١٠)

لَهُ هَيْدَبٌ مِلْءُ الْفَضَاءِ ، كَأَنَّهُ ... مَنَاكِبُ أَطْوَادٍ عَلَى الْأَرْضِ تَزْحَفُ (١١)

فَزِعْنَا إِلَيْهِ ، نَحْسَبُ الْجَوْنَ عَسْكَرًا ... يَسِيرُ ، فَشِمْنَا بَرْقَهُ وَهْوَ يَخْطَفُ (١٢)

جعل السحاب يزفر زفرات متوالية متتابعة مشيراً بذلك إلى الرعد ، ثم جعل له عيناً تسخو وتجود بالدمع الغزير مشيراً بذلك إلى المطر ، ثم جعل له قلباً راجفاً مضطرباً كالمصابيح الزهر المضيئة مشيراً بذلك إلى البرق الذى يلمع لماناً مضطرباً وسط السحاب .

(٩) فاعل « يسير » ضمير السحاب . والمتن : الظهر . وتارة : مرة . ويخضخض : يحرك ، من الخضخضة ، وهى تحريكك الماء إذا غرفت منه شيئاً . والسجل : الدلو العظيمة إذا كان فيها ماء ، وهو مذكر . ويغرف الماء : يأخذه (وبابه ضرب) . والبارودى يردد فى هذا البيت ما كان يزعمه العرب من أن السحب تغترف ماءها من البحر ، ثم ترسله مطراً ، قال أبو ذؤيب يصف السحاب :

شربن بماء البحر ، ثم ترفعت * متى لجج خضر لهن نئيج

و « متى » فى هذا البيت بمعنى « من » .

(١٠) النعائم: جمع النعامى (بضم النون وفتح الميم) ، وهى ريح الجنوب ، لأنها أبل الرياح وأرطبها أو هى ريح تهب بين الصبا والجنوب وبه : بالسحاب . ورسف المقيد فى قيده (من بابى ضرب وقتل) : مشى فيه رويداً كالمتحامل .

يقول : إن الرياح الجنوبية كانت تحمل السحاب ، فلما أضر بها حمله طرحته ، فصار يمشى رويداً كالراسف المقيد المتثاقل المتحامل .

(١١) له : السحاب . وهيدب السحاب : ذيوله وأطرافه ، أوما يتدلى منه ويدنو ، كأنه هدب القطيفة . وملء الفضاء : يملأ الجو ، وينتشر فيه . ومناكب : جمع منكب (كمسجد) ، وهو مجتمع عظم العضد والكتف من الإنسان وغيره . والأطواد : الجبال العظيمة ، الواحد طود (بفتح فسكون) . وتزحف ، تمشى رويداً ، قليلا قليلا .

شبه هيدب السحاب المنتشر فى الفضاء بمناكب جبال عظيمة تسير على الأرض فى تمهل وتؤدة وبطء حركة . وفى البيت إشارة إلى كثرة هذا السحاب ، وغزارة مائه .

(١٢) فزعنا إليه: استغثنا بهذا السحاب ، ولجأنا إليه عند الفزع . ونحسب: نظن . والجون : الأبيض ، والأسود ، فهو من الأضداد ، أوهو من الألوان سواد فيه حمرة ، وهو هنا وصف للسحاب . والعسكر : الجيش . وشمنا برقه (من باب باع) : نظرنا إليه لنعرف أين يقصد ، وأين يمطر . والخطف : الأخذ فى سرعة واستلاب ، أوسرعة الاجتذاب . وقد خطفه (من باب فهم) . وفى القرآن الكريم : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » .

صَلَفٌ لَا يَبُلُّ غُلَّةَ صَادٍ ... وَمَرَاعٍ هَشِيمُهَا لَا يُشَامُ (١٦)

أَطْلُبُ الصِّدْقَ فِي الْوِدَادِ، وَأَنَّى ... يَصْدُقُ الْوُدُّ وَالْعُهُودُ رِمَامُ؟ (١٧)

كُلَّمَا قُلْتُ قَدْ أَصَبْتُ خَلِيلًا ... أَضْحَكَتْنِي مِنْ غَدْرِهِ الْأَيَّامُ (١٨)

= على هذه الإضافة الحمدُ والرضا ، أو الذمّ والسخط . وإذا كان بعضهم قد حمده وارتضاه ، فإن الشاعر جرب دهره وبلاه ، فلم يجد فيه ، أو فى الناس ما يحمده ويرتضيه . والقسَم الذى فى صدر البيت يؤكد هذا ويقويه . وقد يكون المعنى : أن الأقوام الذين يعنيهم الشاعر بكلامه فسدت طباعهم وأخلاقهم ، واختلت عقولهم وموازينهم ؛ فاعتادوا ما لا يحمد من الشر والأذى ، والذل والضيم ، والهوان والضعف ، والفساد والإفساد.

(١٦) صلف (بفتح فكسر ، أو بفتحتين) : صفة ، أو مصدر صلف الشيء (من باب تعب) صَلَفاً : أى قلّ خيره وغَناؤه. والغُلّة : شدة العطش وحرارته . والصادى : العطشان . والمراعى : جمع المرْعَى : وهو ما ترعاه الماشية من النبات والكلأ . أو هو موضع الرعى . والهشيم : المهشوم المتكسر من النبات الأجوف اليابس الجاف الهالك القديم البالى . وما يجمعه الحاطب من حثالة النبات ، وحطام الأغصان اليابسة . ولا يشام : لا يعتدّ به ، ولا يؤبه له ، ولا يرجى فيه خير أو غناء .

فى البيت السابق اختبر دهره وجربه ، فلم يجد فيه خيراً يحمده ويرتضيه . وهذا البيت تأكيد لعقم الدهر ، وقلة خيره . أو قلة الخير فى الناس ، وغلبة الشر والفساد . والبيتان الآتيان يوضحان هذا المعنى ويؤكدانه .

(١٧) «أنى» : اسم استفهام يأتى لعدة معان : فيكون بمعنى كيف . وبمعنى متى . وبمعنى من أين . ويراد به هنا : الاستبعاد ، أو النفى . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . والعهود : جمع عهد : وهو الموثق ، واليمين ، والذمة ، والوفاء ، والحفاظ ، والأمان ، وكل ما يجب حفظه وتعهده ومراعاته حالاً بعد حال. وعلى هذا يعدّ الود من العهد. ورمام : خَلَق ، بالية : من قولهم : حبل رمام : أى بال متقطّع مستهلك. أو هو جمع رمّة : للقطعة من الحبل البالى ، والعظام البالية . أو هو جمع رميم . يقال : عظم رميم ، وعظام رمام . أو هو رمام (بضم الراء) : بمعنى رميم بال .

يطلب صدق الوداد ؛ وكأنما يطلب المحال ؛ فإن المودّات بين الناس واهية كاذبة ، والعهود لا وفاء بها ، ولا احترام لها . وكيفما كان تفسير العهد ، فإن الصلة بينه وبين الود وثيقة ؛ فإذا أصاب الكذب أحدهما أصاب الآخر ، وإذا انحلّت العهود انحلّت بانحلالها الصلات والمودّات ، ولم يبق بعدها غير الرياء والنفاق ، والمخاتلة والخداع

(١٨) الخليل : الصديق الخالص المختصّ : فعيل بمعنى مفاعل ، من المخالّة : وهى المصادقة . والخُلّة : الصداقة والمحبة التى تخللت القلب : أى صارت خلاله : أى فى باطنه . أو التى لا يعتريها خلل ، أو وهن . وضحك منه. وضحك به: سخر منه ، واستهزأ به . أو عجب منه ، أو فزع. =

فَتَفَرَّدْ تَعِشْ بِنَفْسِكَ حُرًّا ... رُبَّ فَرْدٍ يَخْشَاهُ جَيْشٌ لُهَامُ(١٩)

وَاحْذَرِ الضَّيْمَ أَنْ يَمَسَّكَ ؛ فَالضَّيْـ ... ـمُ حِمَامٌ يَفِرُّ مِنْهُ الْحِمَامُ(٢٠)

ضَلَّ قَوْمٌ تَوَهَّمُوا الصَّبْرَ حِلْمًا ... وَهْوَ - إِلَّا لَدَى الْكَرِيهَةِ - ذَامُ(٢١)

= يقول : كلما ظن أنه عثر على صديق صادق الود أخلفت الأيام ظنه ، وخيبت التجربة رجاءه ، وأظهرتْ له أن هذا الصديق كاذب فى وداده ، منافق خائن غدّار ؛ فضحك سخرية ،أو فزعاً ، أو عجباً من عقم الدهر ، وضياع الوفاء ، وشيوع الكذب ، وقلة الصدق فى الناس .

(١٩) تفرّد : أمر من التفرّد : وهو الانفراد والتوحّد ، والاعتزال عن الناس . والأمر هنا : للنصح والإرشاد. ورب : حرف خافض يختص بالنكرة. ويفيد هنا التقليل. والفرد: المنفرد المتوحّد المفرد. ويقابله الجمع . وجيش لهام (بوزن غراب) : عظيم ، كثير ، قوىّ ، جرّار ؛ كأنه يلتهم كل شىء .

فى خمسة الأبيات السابقة شكا الشاعر كثرة الغدر والخيانة ، وقلة الصدق والوفاء فى كثير ممن عرفهم من الناس . ويبدو أنه أوذى بغدرهم ، ولقى منهم الأمرّين ، فلم يسعه إلا أن ينصح لنفسه ولغيره، ويحضّ على اعتزالهم ، والابتعاد عنهم ، ويرغّب فى التوحّد والانفراد ؛ فإن الوحدة خير من جليس السوء ؛ واعتزال اللئام الأشرار يهيىّ المعتزل فى عزلته جواً من العزة والحرية ورخاء البال ، ويبعده عما يسوءه ويكدر حياته . والشطر الثانى تذييل يجرى مجرى المثل ، ويعزز هذا المعنى ويؤكده ؛ كأنه يقول : ولا ضير فى انفرادك ؛ فإن الجيش اللهام قد يخشى مثل هذا المتفرد الذى نجا بنفسه من ختل اللئام وكيدهم ، واستردّ بالعزلة حريته وقوّته ، وأهبته ، واستعداده ، وبأسه ، وإباءه .

والحضّ هنا على العزلة ، والترغيب فيها ، والتنفير من الجمع بين احتمال الأذى ورؤية المؤذى يذكّرنا بقول أبى الطيب المتنبى فى قصيدته التى تماثل هذه القصيدة فى وزنها ورويّها وبعض معانيها :

واحتمال الأذى ، ورؤية جانيـ ... ـه غذاء تضوى به الأجسام

(٢٠) الضيم : الظلم ، والقهر ، والضير ، والهضم ، والجور ، والإذلال . (وبابه باع) . والحمام : الموت .

جعل الضيم أفظع وأنكى من الموت ، وحذّر قبوله ، والرضا به، وأوجب مكافحته ودفعه بكل الوسائل . ولعل صلته بالبيت السابق أن التفرد ، وطلب الحياة الحرة العزيزة الكريمة لا يكون إلا من أباة الضيم . ويقرب من هذا قول أبى الطيب المتنبى :

ذلّ مـن يغبط الذليل بعيش ... ربّ عيش أخفّ منه الحمام

ولا ريب أن الذليل مستضام ، وعيشه عيش ضيم ومذلة وهوان .

(٢١) ضلّ : ضاع، وتلف ، وهلك . وضل عن طريق ، أوقصد، أو حق : زلّ عنه ، وجار ، ولم يهتد إليه. والضلال : الباطل والغىّ . وضده الهدى والرشاد. وتوهّم الشىء : ظنه . أو تمثّله وتخيّله . والحلم : الأناة، والصفح ، والستر ، والعقل، والرزانة ، والوقار ، وضبط النفس ، ومكافحة ثورتها =

يَحْسَبُونَ الْحَيَاةَ فِى الذُّلِّ عَيْشًا   وَهْوَ مَوْتٌ يَعِيشُ فِيهِ اللِّئَامُ(٢٢)

وَقَالَ :

يَا نَدِيمَىَّ فِى «سَرَنْدِيبَ» كُفَّا   عَنْ مَلَامِى ؛ فَلَيْسَ يُغْنِى الْمَلَامُ(١)

= عند الغضب . وهو : أى الصبر . و « لدى » : ظرف مكان بمعنى « عند » . وقد يستعمل فى الزمان . والكريهة : الحرب . أو الشدة فيها . وذام : عيب ، ونقص ، ومذمة .

يقول : إن الصبر لا يحمد إلا فى الحروب ؛ فبه يكون النصر ، وهو قوام البطولة . ومن ظن أن الصبر على الضيم من الحلم فقد ضلّ سبيل الرشاد . والمتنبى يصم باللؤم من ادّعى الحلم وهو ضعيف عاجز ، فيقول :

كل حلم أتى بغير اقتـــدار   حجة لاجئٌ إليها اللئـــام

(٢٢) يحسبون : يظنون . والعيش : معيشة والحياة . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال . والجملة بعدها حالية . وهو : أى الذل ، أو عيش الذليل . واللئام : جمع اللئيم : صفة من اللؤم : وهو أن يجتمع فى الشخص الشحّ والبخل ، وخسّة النفس ، ودناءة الطبع ، ومهانة الآباء ، ونحو ذلك من النقائص والمثالب وذميم الخصال . وضده الكرم بمعناه العام .

يقول : إن الذين توهموا الصبر حلماً ؛ فاحتملوا الذل ، وأقاموا على الضيم — يظنون أن حياتهم فى قيود المذلة والمهانة عيشة مرضية ؛ وهى فى حقيقة أمرها عيشة سوء ، تساوى الموت . ولا يحياها أو يرتضيها إلا الأوغاد اللئام ، الممعنون فى الغىّ والضلال .

فى البيت السابق جعل الصبر على الذل من المثالب والمعايب ، وسفّه الذين توهموه حلماً ، وضللهم ، ناظراً إلى قول أبى الطيب المتنبى : إن الحلم لا يحمد إلا من القوىّ المقتدر ؛ فإذا احتجّ به الضعيف العاجز كان — إلى ضعفه وعجزه — لئيماً مهيناً . وفى هذا البيت حضّ على إباء الضيم ، والترفّع عن الهوان ، ومكافحة البغى والطغيان ، والحرص على العزة والكرامة ، وقال : إن الذليل الراضى بالذل وغد لئيم ، وحياته شرّ من الموت . وهو تكرار أو شبه تكرار لمعنى البيت العشرين .

* * *

(١) نداء النديمين ، والتوجّه إليهما بالخطاب والحوار من لغة الشعر ، ومن أخيلة الشعراء . ونديمك : منادمك : أى مجالسك على الشراب : فعيل : بمعنى مفاعل : من نادمه منادمة ونداماً . ويطلق النديم على الرفيق والصاحب والمسامر ، ولو لم يكن بين المتنادمين شراب .

و « سرنديب » أو « سيلان » : جزيرة كبيرة من أرض الهند ، فى جنوبيها الشرقى . وهى الآن مستقلة بحكومتها وإدارتها وأمورها . وكانت مستعمرة إنجليزية . وإليها نفى الشاعر وستة من رفاقه قادة الثورة العرابية بعد إخفاقها فى شهر صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ديسمبر سنة ١٨٨٢ م . وفيها نظم البارودىّ أجود شعره ، وأشده تأثيراً فى النفس . وقد لبث فى ذلك المنفى السحيق زهاء سبعة عشر عاماً . وكفّ عن الشىء : انصرف عنه وامتنع . والملام : اللوم . ويغنى : يفيد وينفع . =

أَنَا فِى هَـٰذِهِ الدِّيَارِ غَـرِيبٌ وَغَرِيبُ الدِّيَارِ لَيْسَ يُلَامُ(٢)

وَاذْكُرَا لِى «فُسْطَاطَ» مِصْرَ؛ فَإِنِّى بِهَوَاهَـا مُتَيَّمٌ مُسْتَهَـامُ(٣)

= اشتد حنين الشاعر إلى وطنه وأهله وأحبائه ، وبرّح به الوجد والشوق ، وأضناه الهمّ والوحشة ؛ فلامه نديماه رحمة به ، وإشفاقاً عليه ؛ فتبرم بلومهما ، ودعاهما إلى الكف عنه ، وأيأسهما من غنائه وجدواه . وفى البيتين الآتيين زيادة إيضاح لهذا المعنى ، وفيهما أقام الشاعر حجته ، وأظهر عذره .

(٢) احتجّ الشاعر لنفسه ، واستنكر أن يلومه لائم ؛ فإنه غريب فى «سرنديب» ، بعيد عن وطنه وأهله ، منكوب بالنفى والإبعاد . ولائمه يظلمه ويعاسره ، وإن كان مشفقاً راحماً ؛ لأنه يجمع عليه مرارة اللوم والتثريب ، ومرارة الغربة والبعد ، وحسرة الفراق والحرمان .

(٣) الفسطاط (فى الأصل) : السرادق . والبيت من الشعر ، ومجتمع أهل الكورة : وهى الصقع ، والناحية ، والبقعة التى تجمع طائفة من القرى والمساكن والمحالّ . ثم صار علماً لمصر القديمة التى أسسها عمرو بن العاص فى موضع فسطاطه بعد فتحه مصر سنة ٢١ هـ (٦٤١م) . وبهواها : بحبها : أى بحب مصر . وهو متعلق بـ «متيم» : أى متيم مستهام بسبب هواها : الأول من تيّمه الحب أو الحبيب : أى استعبده ، وأسره ، وولهّه ودلهّه ، وذهب بعقله . والثانى تأكيد له ، مرادف ، أو شبه مرادف لمعناه : اسم مفعول من استهيم فؤاد المحب . وهو هائم بحبيبه ، ومستهام به : أى اشتد تعلقه به ، حتى أصابه الهيام : وهو جنون الحب والعشق والغرام .

فى البيت الأول طلب من نديميه أن يكفّا عن لومه ؛ فإن اللوم لا يكاد يغنى : ولا يكاد يفيد . وفى البيت الثانى احتجّ واستنكر ، وأوضح عذره ، وأكد مطلبه . وفى هذا البيت طلب إليهما أن يتغنّيا له بمصر ، ويذكراها بما تستحقه من الإمجاد والتعظيم ، ويقدرا تعلّقه بها وحنينه إليها ؛ كأنه يرغب إليهما أن يشاركاه فى وجده وهيامه ، ويخففا بهذه المشاركة لوعاته وحسراته ، وهمومه وأوصابه .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قافية النون

وقَالَ يَذْكُرُ وَدَاعَهُ لِلْوَطَنِ * ، وَيَشْكُرُ صَاحِباً عَلَى صِدْقِ وِدَادِهِ :

مَحَا الْبَيْنُ مَا أَبْقَتْ عُيُونُ الْمَهَا مِنِّى ... فَشِبْتُ وَلَمْ أَقْضِ اللُّبَانَةَ مِنْ سِنِّى (١)

---

* فى ٣ من ديسمبر سنة ١٨٨٢م حكمت المحكمة العسكريّة المصريّة بالإعدام على سبعة من قادة الثورة العرابيّة ، أولهم « أحمد عرابى » ، وثانيهم « محمود سامى البارودى » . وما لبث الخديو «توفيق» أن خفّف هذا الحكم ، فاستبدل به النفى المؤبّد . وقبل فجر اليوم الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٨٢م أقلّت إحدى السفن الإنجليزية هؤلاء المنفيين ، ولم يسمح لأحد بتوديعهم ، ولم يصحب البارودى غير خادمه الأسود «كافور» . شقّت بهم الباخرة طريقها من ميناء السويس إلى « سيلان » ، واسمها أيضاً «سرنديب» : وهى جزيرة كبيرة فى المحيط الهندى إلى الجنوب الشرقى من الهند ، استعمرتها بريطانيا من سنة ١٧٩٥ إلى سنة ١٩٤٨ .

وفى ذلك اليوم العصيب نظم البارودى هذه القصيدة الخالدة . وله كتاب نثرىّ مسجوع ، كتبه فى منفاه ، وضمّنه كثيراً من أخباره، وتاريخ حياته ، وخواطره ، وتجاربه . وقد نقلنا منه قصة ذلك الفراق الفاجع ، ونشرناها فى الجزء الأول من شرحنا للديوان تحت عنوان : «نموذج من خط البارودى وفنّه الكتابى . ويبدو أنه كتب هذه القصة على إثر وصوله إلى « سرنديب » . وقد ضمّنها أبياتاً متفرّقة من شعره لم ترد فى ديوانه .

وفى هذه النونيّة الطويلة عرّض الشاعر بأخدان بلاهم فلم يحمد صحبتهم ؛فإن كان يقصد رفاقه فى الثورة فهو أثر سيِّئ من آثار الدعاية الخبيثة ، والحرب النفسيّة العارمة التى شنّها الإنجليز وأذنابهم فى مصر على الثورة العرابية وقادتها قبل الهزيمة وبعدها، ففرّقوا بها جمعهم ، وقطّعوا أواصر الودّ بينهم . وفى هذه الأزمة النفسيّة ، وفى هذا الجوّ القاتم نظم البارودى هذه القصيدة وأمثالها. ولو فطن لدهاء الغزاة المحتلّين المعتدين لسلّط عليهم أهاجيه اللاذعة بدلاً من صحابه فى المخاطرة والمغامرة ، والجهاد والجلاد .

(١) محاه (كعدا ، ورمى ، ونعى) : أزاله ، وأذهب أثره . وفاعله « البين » : وهو الظعن والارتحال ، والبعد والفراق . (وبابه باع) . ومفعوله « ما » . والمها : البقر الوحشى . الواحدة مهاة (بوزن قناة) . وبها تشبّه الحسناء من النساء فى جمال العينين، وحسن اتساعهما. وشاب (من باب باع): ابيضّ شعره . وشيّبه الحزن ونحوه وأشابه: إذا هرّمه، وبيّض شعره ، وأثر فيه تأثيراً سيئاً شديداً =

عَنَاءٌ ، وَيَأْسٌ ، وَاشْتِيَاقٌ ، وَغُرْبَةٌ ❊ أَلَا ، شَدَّ ما أَلْقَاهُ فِي الدَّهْرِ مِنْ غَبْنِ (٢)

فَإِنْ أَكُ فَارَقْتُ الدِّيَارَ فَلِي بِهَا ❊ فُؤَادٌ أَضَلَّتْهُ عُيُونُ الْمَهَا مِنِّي (٣)

= وفي القرآن الكريم: « فكيف تتقون – إن كفرتم – يوماً يجعل الولدان شيباً »[الآية رقم ١٧ من سورة المزمل] . وقضى وطره أو بغيته أو حاجته (من باب رمى) : انتهى إليها ، وبلغها ، ونالها ، وظفر بها ، وفرغ منها . واللُّبانة (بضم اللام) : الحاجة من غير فاقة . والسنّ : العمر.

أقلعت السفينة بالشاعر عن وطنه الحبيب ، وفارقه فراقاً مؤبداً ؛ فشقّ عليه الأمر ، وذهب بالبقية الباقية من تجلّده وقواه ، وعجّل بشيبته وشيخوخته قبل أن يبلغ من الحياة أوطاره ، ويحقق مآربه وآماله . وفي البيت إشارة إلى أن العين الحسان من نساء وطنه قد فتنّه من قبل وطنّه ، وذهبن بأكثر قواه النفسية والجسمانية ، فلما ابتلى بهذا البين المشتّ ، والحادث الجلل أفقده رمقه ، ومحا البقية القليلة الباقية من قوّته وجلادته . أو لعله يكنى بعيون المهاعن مفاتن وطنه ومحاسنه. أو لعله يريد عينيه ، وأضافهما إلى المها لبيان تمام سلامتهما ، وقوة إبصارهما قبل هذه الكارثة ، فلما نزلت به ، واشتد أثر الفراق في نفسه ، وبرّح به الوجد والحزن – ضعفت عيناه ضعفاً شديداً ، وامحى ما كان لهما من موفور الصحة والسلامة ، وقوة النظر والإبصار . والغرض من البيت تصوير جزعه وهلعه من هذا الفراق القسرىّ ، والنفى الأبدىّ .

(٢) العناء (بفتح العين) : التعب والمشقة ، والاستئسار : أى الوقوع فى الأسر (والفعل كرضى) . واليأس : القنوط ، وانقطاع الأمل . وضده الرجاء . والاشتياق والشوق : حركة الهوى ، ونزاع النفس إلى الشيء ، ورغبتها فيه ، وتعلقها به ، وقلة صبرها على بعده وفراقه. والغربة (بضم فسكون) : الاغتراب : وهو النزوح عن الوطن ، والبعد عن السكن . و « ألا » : حرف استفتاح : أى أداة تبتدأ بها الجملة ، وتفيد التنبيه . وشدّ الشيء : ثقل ، وصعب ، واشتدّ. واستعمال هذا الفعل فى مثل هذا المقام يفيد التعجب : أى ما أشدّ ، وما أثقل ، وما أقسى ، وما أصعب . وفى الدهر : أى فى دهر الشاعر : أى فى حياته . و « من » : بيانية . والغبن (بفتح فسكون) : الشر ، والخسران ، والأذى ، والعدوان ، والعنت ، والهوان . وأصله : مصدر غبنه فى البيع والشراء (من باب ضرب) : أى خدعه ، وختله ، ونقصه ، وبخسه ، وغلبه ، وسلبه ؛ فالغبن : أن تبخس صاحبك فى معاملة بينك وبينه ، بضرب من الإخفاء ، والختل ، والدهاء .

وهذا البيت شبه تفصيل لما أجمله فى البيت الأول . أو بيان لما شيّبه وأجزعه . أو توضيح لبعض آثار البين المشتّ : كالعناء ، واليأس ، والاغتراب ، والاشتياق . وقد جمعتها كلمة « الغبن » فى نهاية البيت . واشتدّ عليه ما لقيه من دهره ، وثقل ، وشقّ ، وصعب ، وتجاوز المألوف ، وخرج عن أشباهه ونظائره ، وخفى سببه ؛ فاستعظمه ، وتعجب منه .

(٣) فإن « أك » : أصله فإن « أكن » : مضارع « كان » ، وحذفت لامه : أى النون للتخفيف ، وكثرة الاستعمال ، ويراد بالديار التى فارقها : وطنه وبلاده وسكنه . وأصله : أخفاه وغيّبه . وفى القرآن الكريم : « ثم قيل لهم - أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا » =

بَعَثْتُ بِهِ يَوْمَ النَّوَى إِثْرَ لَحْظَةٍ فَأَوْقَعَهُ الْمِقْدَارُ فِي شَرَكِ الْحُسْنِ (٤)

فَهَلْ مِنْ فَتًى فِي الدَّهْرِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ؟ فَلَيْسَ كِلَانَا عَنْ أَخِيهِ بِمُسْتَغْنِ (٥)

وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ ، وَأَسْبَلَتْ مَدَامِعُنَا فَوْقَ التَّرَائِبِ كَالْمُزْنِ (٦)

= [٧٣ – ٧٤ من سورة غافر] . وضلوا عنا : أى غابوا عنا ، واستخفوا منا .

عاد الشاعر فى هذا البيت إلى «عيون المها » أى الحسان العين الفواتن اللاتى ذكرهن فى البيت الأول . وفى هذا البيت : أنهن تيّمنه، ودلّهنه، وسلبنه عقله، وغيّبن عنه فؤاده ؛ ففارقهن مسلوب القلب، مشترك اللب، لا يملك من أمره شيئاً ، ولا يجد على فراقهم صبراً . والغرض تصوير شدة تعلقه بأهله وصحبه ووطنه ، وفرط جزعه وهلعه لفراقهم .

(٤) به : أى بفؤادى . والنوى : البعد والافتراق . وجاء فى إثره (بكسر فسكون) . وفى أثره (بفتحتين) : أى تبعه عن قرب ، أو جاء فى عقبه . ولحظة : نظرة : اسم مرة من لحظه ، ولحظ إليه (من باب قطع) أى نظر إليه بمؤخر عينه . والمقدار : القضاء والحكم : أى قدّره الله الذى لا مناص عنه ، ولا مفرّ منه ، وهو الذى كتبه الله عليه ، وقدّره ، وأراده ، وحكم به . أو المراد : ما تقضى به مثل هذه الحالة ، وتفرضه ، وتفضى إليه ، وهو أن تفتن نظرة الحسناء حبيبها ، فلا يلبث أن يقع صريع الحب ، أسير الغرام . والشرك : حبالة الصيد ، وجمعه أشراك (بوزن سبب وأسباب) . أو الشّرَك : جمع شَرَكة (بوزن قصبة وقصب) . ويراد بالحسن : حسن الحسان الفاتنات اللاتى أشار إليهن فى البيتين الأول والثالث بـ « عيون المها » .

ما زال الشاعر معنيًّا بتصوير يوم النوى والبين والفراق ؛ فقد لحظ ساعة الوداع حبيباته العزيزات عليه ، الأثيرات لديه ، أو لحظنه ، أو تبادل وإياهن النظرات . وفى إثر هذه اللحظة ، أو إبانها فارقه قلبه إلى غير عودة ؛ إذ أوقعه القدر القاهر فى أشراك الحسن الباهر ، وحبائل الجمال الساحر ، وهيهات أن يرجى له منها خلاص، أو يجد عنها مناصاً . والشاعر فى الحقيقة يصف ما تملكه من الأسى والوجد والالتياع لفراق أهله وأحبائه ووطنه .

(٥) الاستفهام فى أول البيت : معناه التمنى . و « من » بعد « هل » زائدة . والغرض من زيادتها هنا : التنصيص على العموم . والفتى (فى الأصل) : الشاب أول شبابه فى طراءة السن بين المراهقة والرجولة . وكثيراً ما تطلق العرب الفتى ، وتريد به الرجل بصرف النظر عن سنّه ، أى من غير تمييز بين الشيخ ، والكهل ، والشاب . وهو هنا : اسم « من الفتوّة » : بمعنى النجدة ، والكرم ، والشهامة : أى فهل يتاح لنا شهم كريم من ذوى النجدة يجمع بيننا ؟ أى يجمع بينى وبين فؤادى الذى أضلته عيون المها عنى ، وأوقعه المقدار فى شرك الحسن ؟ والشطر الثانى تذييل يؤكد ضرورة ما تمناه فى الشطر الأول ، ويعمق أثره فى نفس القارئ والسامع ، وهو أن يجمع ذو نجدة بينه وبين قلبه ؛ فإن المرء وقلبه إلفان مؤتلفان ملتزمان ، لا يستغنى أحدهما عن الآخر .

(٦) « لما » : ظرف بمعنى « حين » . أو بمعنى « إذ » . أو حرف وجود لوجود ، وتقتضى جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما . والجملة الأولى : « وقفنا للوداع » والجملة الأخرى فى أول البيت التالى : =

هَبْتُ بِصَبْرِى أَنْ يَعُودَ ، فَعَزَّنِى وَنَادَيْتُ حِلْمِى أَنْ يَثُوبَ ، فَلَمْ يُغْنِ (٧)

لَمْ تَمْضِ إِلَّا خَطْرَةٌ ، ثُمَّ أَقْلَعَتْ بِنَا عَنْ شُطُوطِ الْحَىِّ أَجْنِحَةُ السُّفْنِ (٨)

= « أهبت بصبرى » . والوداع (بفتح الواو) : اسم من ودّعت المسافر توديعاً : أى شيّعته بالتحية ، بعوت له بالدعة : وهى خفض العيش ، وسهولته ، ولينه ، وتيسره ، واتساعه . كما أن التسليم : عاء له بالسلامة . وودّع المسافر أهله وصحبه : فارقهم محيياً لهم . وأسبلت (بالبناء للفاعل) : سالت ، جرت ، وانهمرت ، وهطلت ، وانصبّت فى كثرة ، من قولهم : أسبل المطر إسبالاً : أى أرسل دفعه تكاثف ، كأنما أسبل ستراً . أو هو بالبناء للمفعول : من قولهم : أسبل الرجل الماء : إذا صبه : أى لما وقفنا للوداع أسبلت عيوننا مدامعنا فى هذا الموقف العصيب . والمدامع : المآقى : وهى أطراف لعين . واحدها مدمع (بوزن مذهب) : وهو مسيل الدمع . أو مجتمع الدمع فى نواحى العين . ويراد بالمدامع هنا : الدموع . والترائب : عظام الصدر . أو موضع القلادة منه . أو ما بين الثديين والترقوتين . الواحدة تريبة (بوزن كتيبة) . والمزن : جمع مزنة (بضم فسكون فيهما) : وهى المطرة . أو السحابة تحمل الماء . أو السحابة البيضاء . ويراد بالمزن هنا : المطر الغزير .

(٧) أهاب بصبره : دعاه وناداه . من قولهم : أهاب الراعى بالغنم : أى زجرها ، أو صاح بها لتقف ، أو لترجع . وعزنى : غلبنى ، واستعصى علىّ ، ولم يأبه لى . والحلم : الأناة ، والتأسى ، والتصبر ، وضبط النفس . ويثوب : يعود ويرجع (وبابه قال) . ولم يغن : لم يكفِ : أى لم ينفع النداء المستفاد من « ناديت » . يقال : أغنانى كذا : أى كفانى . وما يغنى عنك هذا : أى لا يجزئ عنك ، ولا ينفعك . وفى التنزيل العزيز : « ما أغنى عنه ماله وما كسب » : أى لم ينفعه . الآية رقم ٢ من سورة المسدّ ، واسمها أيضاً سورة أبى لهب .

أسلفنا أن الباخرة أقلعت فى جنح الليل من ميناء السويس بالبارودى وصحبه المحكوم عليهم بالنفى ، وأنه لم يسمح لأحد بتوديعهم . وفى هذا البيت والذى قبله وصف الشاعر موقفه وموقف رفقائه وهم يودّعون وطنهم الحبيب ، ويلقون على ربوعه نظراتهم الأخيرة ، باكين بكاء حاراً بدموع غزيرة فياضة ، انهمرت على صدورهم متتابعة كالمطر . لقد حاولوا الاعتصام بشىء من الحلم والصبر ، فغلبهم الوجد والأسى ، واستبدّ بهم الجزع والهلع .

(٨) الخطرة (بفتح فسكون) : الحين ، والوقت ، والمدة ، والبرهة . ويراد بالخطرة هنا : البرهة القصيرة . يقال : ما ألقاه إلا خطرة بعد خطرة : أى إلا حيناً بعد حين . وأقلعت : ارتحلت ، وسارت ، من قولهم : أقلع عن الأمر : إذا تركه . وأقلعت عنه الحمى : إذا انصرفت عنه . والشطوط : جمع شط (بفتح الشين وتشديد الطاء) : وهو جانب النهر وشاطئه . والحىّ (فى الأصل) : البطن من بطون العرب ، وهو أصغر من القبيلة . وجمعه أحياء . وقد تطلق الأحياء ، ويراد بها الديار والمنازل . ويراد بشطوط الحىّ هنا : السواحل المصرية ، أو الميناء والمرفأ الذى أقلعت عنه السفينة التى أقلّت الشاعر ورفقاءه . والسفن (بوزن الصحف) : جمع سفينة . وتسكين الفاء هنا لضرورة الوزن . وأجنحة =

فَكَمْ مُهْجَةٍ مِنْ زَفْرَةِ الْوَجْدِ فِى لَظًى وَكَمْ مُقْلَةٍ مِنْ غَزْرَةِ الدَّمْعِ فِى دَجْنِ (٩)

وَمَا كُنْتُ جَرَّبْتُ النَّوَى قَبْلَ هَٰذِهِ فَلَمَّا دَهَتْنِى كِدْتُ أَقْضِى مِنَ الْحُزْنِ (١٠)

وَلَكِنَّنِى رَاجَعْتُ حِلْمِى ، وَرَدَّنِى إِلَى الْحَزْمِ رَأْىٌ لَا يَحُومُ عَلَى أَفْنِ (١١)

= السفن : قلاعها، وأشرعتها التى تنشر وتبسط ، فتصفقها الريح، فتسير السفينة ، على التشبيه بأجنحة الطير ؛ فإن الطائر يطير بجناحيه، والسفينة تسير بشراعها. ويلاحظ أن إقلاع أجنحة السفن عن شطوط الحىّ من الصور القديمة التى تكثر فى شعر البارودى ، ويحاكى بها قدامى الشعراء . والحقيقة أن الفلك الذى أقلّ الشاعر وصحبه من ميناء السويس إلى جزيرة « سرنديب » « سيلان » كان من البواخر : أى السفن التى تسير بقوة البخار ، لا بالأشرعة والقلاع .

(٩) « كم » فى شطرى البيت : خبرية : بمعنى كثير . وتمييز الأولى : « مهجة » . وتمييز الثانية « مقلة » . والمهجة (بضم فسكون) : دم القلب ، أو الروح . ويراد بها هنا : القلب . والوجد (بفتح فسكون): الأسى والحزن . وزفرته : لوعته ، وحرقته ، وحرارته .وهى اسم من زفر (كضرب) زفيراً : إذا أخرج نَفَسه ممدوداً طويلاً . والزفير : تردّد النَّفَس حتى تنتفخ منه الضلوع. وزفرت النار : أى سمع لتوقّدها صوت . واللظى : النار . أو لهبها الخالص الذى لادخان فيه . والمقلة : العين . وغزرة الدمع : كثرته وغزارته . والدجن (بفتح فسكون) : المطر الكثير . و « من » فى شطرى البيت : بيانية أو تعليلية . والترتيب الأصلى لهذا الكلام : فكم مهجة فى لظى من زفرة الوجد ، وكم مقلة فى دجن من غزرة الدمع .

والشاعر ينبه الوجدان الإنسانى على كثرة القلوب التى برّح بها الأسى والوجد ، وصليتْ بنار هذا الفراق القسرىّ ، وكثرة العيون التى اشتدّ بكاؤها ، فغرقتْ فى دموعها المنهمرة الغزيرة ، وهو يشير إلى المنفيين وأهليهم وصحابهم ، وكل من له سلة وثيقة بالإنسانية ، وعطف صادق على المبعدين الأحرار .

(١٠) النوى : البعد ، والفُرْقة ، وهى مؤنثة . ودهاه الأمر يدهاه (من باب سعى): نزل به ، وأصابه . ومنه الداهية : وهى النائبة ، والنازلة ، والكارثة ، والمصيبة . وفاعل « دهتنى » : ضمير « النوى» . وكاد : من أفعال المقاربة . وقضى يقضى (من باب رمى) : هلك ومات. وكدت أقضى : أى أشرفت على الهلاك . و « من » تعليليّة : أى أشرفتُ على الموت لفرط الحزن .

والبارودى اغترب منقبل ، ونأى عن وطنه ، فسافر إلى الآستانة سنة ١٨٥٧ وأقام بها إلى سنة١٨٦٣. ثم شارك فى حرب « كريد » «أقريطش » من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٦٧ .ثم خاض غمار الحرب الروسية التركية من سنة ١٨٧٧ إلى سنة ١٨٧٨ . وإذا قال فى هذا البيت :« وما كنت جرّبت النوى قبل هذه » فالمقصود أنه لم يجرّب مثل هذه النوى : وهى الإبعاد القهرىّ ، والنفى الأبدىّ .

(١١) راجعت حلمى : أى رجعت إليه ، وغلّبته . والحلم (بكسر فسكون) :العقل ، والأناة ، وضبط النفس . ومن الحلم : الصبر على المكاره ، والتجلّد للخطوب. والحزم: ضبط الأمر ، والأخذ فيه =

وَلَوْلَا بُنَيَّاتٌ وَشِيبٌ عَوَاطِلٌ لَمَا قَرَعَتْ نَفْسِي عَلَى فَائِتٍ سِنِّي (١٢)
فَيَا قَلْبُ صَبْرًا إِنْ جَزِعْتَ، فَرُبَّمَا جَرَتْ سُنُحاً طَيْرُ الْحَوَادِثِ بِالْيُمْنِ (١٣)

= بالثقة . وحزم الرجل رأيه، أو أمره : ضبطه ، وأحكمه، وأتقنه . والرأى: العقل، والتدبير . ورجل ذو رأى : أى ذو بصيرة ، وحذق بالأمور . وحام الطائر على الماء وغيره (من باب قال) : دوّم عليه ، ودار حوله . والأفن : الضعف ، والفساد ، ونقص العقل (وفعله من باب ضرب) . ومنه المأفون : وهو الضعيف الرأى والعقل . ورأى لا يحوم على أفن : أى رأى صائب قوىّ سديد ، لا يعتوره خلل ، أو وهن ، أو ضعف ، أو فساد .

تمّت الأبيات العشرة الماضية على جزع الشاعر ، وعجزه عن احتمال ما نزل به. وهو فى هذا البيت يحاول أن ينهض بنفسه ، ويسترد قواه ، ويعود إلى تجلّده وحلمه ، ويعتصم بثباته وحزمه ، ويحتز برأيه ، وحسن تدبيره .

(١٢) «لولا»: حرف يدل على امتناع شىء لوجود غيره . والموجود هنا : البنيات العواطل والشيب . والممتنع عدم القرع . ومعنى هذا أن القرع ثابت ؛ لأن نفى النفى إثبات . وبنيات: جمع بنيّة : تصغير «ابنة» . والشيب (بكسر الشين) : جمع الأشيب: وهو الذى ابيضّ شعره . يقال : رجل أشيب ، وقوم شيب . وعطلت المرأة (من باب طرب) : خلت من الحلى ، فهى عاطل .والجمع عواطل . وعطلت الإبل ونحوها: تركت بلاراع. وهذا المعنى هوالمراد هنا ؛ فإن البارودى نفى فى آخرسنة ١٨٨٢، وترك - بلا راع ، ولا حام - زوجته «عديلة يكن» وأطفاله منها وصباياه ، وهم ابن واحد ، وأربع بنيّات ، كلهن دون الرابعة عشرة . وقرع عليه سنه (من باب قطع): صكّها ندماً وحسرة وأسفاً . وفائت : اسم فاعل من فاته الأمر (من باب قال) : أى أعوزه . أو أفلت منه ، أو سبقه فلم يدركه . و «نفسى» . فاعل «قرع» . و «سن» : مفعوله : وهى واحدة أسنان الفم .

فى البيت السابق قال : إنه ضبط أمره ، واستردّ ماندّ من صبره وحلمه، واعتصم برأيه وحزمه ؛ فبدا رابط الجأش ، قوىّ النفس ، ثابت القلب ، متجلّداً للشدائد . وفى هذا البيت شبه اعتذار عما كان من جزعه، وضعف مُنّته فى عشرة الأبيات الأولى ؛ فإنه لم يقرع سنّه على فائت ، ولم يستشعر الأسى والحسرة إلا من أجل بنيّاته وأطفاله وأهله الذين حرموا عائلهم وناصرهم، وهم فى ضعف الطفولة، وضعف الأنوثة ، وضعف الشيخوخة . وفى البيت إلى هذا معنى الاستعطاف والاسترحام . وفى البيتين الآتيين يتعلّق بالأمل ، ويرقب اليسر من العسر :

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

(١٣) الجزع : حزن شديد يصرف الإنسان عما هو بصدده ، ويقطعه عنه (وفعله من باب تعب) . وربما : «ربّ» : حرف جر ، زيدت بعده «ما» ، فكفّته عن العمل، وهيّأته للدخول على الجملة الفعلية . ويفيد التقليل ، أو التكثير ، بحسب سياق الكلام ، وما يقتضيه المقام . وهو هنا للتكثير ؛ لأن المقام مقام تفاؤل، وتعلّق بالآمال ، وارتقاب للفرْجة واليسر . وسنح (بضمتين) : =

فَقَدْ تُورِقُ الْأَغْصَانُ بَعْدَ ذُبُولِهَا ... وَيَبْدُو ضِيَاءُ الْبَدْرِ فِى ظُلْمَةِ الْوَهْنِ (١٤)

وَأَىُّ حُسَامٍ لَمْ تُصِبْهُ كَهَامَةٌ ... وَلَهْذَمُ رُمْحٍ لَا يُفَلُّ مِنَ الطَّعْنِ ؟ (١٥)

وَمَنْ شَاغَبَ الْأَيَّامَ لَانَ مَرِيرُهُ ... وَأَسْلَمَهُ طُولُ الْمِرَاسِ إِلَى الْوَهْنِ (١٦)

= جمع سنيح (بوزن فصيح) : صفة من سنح الطائر وغيره (من باب خضع) : إذا مرّ من مياسرك إلى ميامنك، فولاّك ميامنه . والعرب يتيمّنون به ويتبرّكون . والسنح (بضم فسكون) : اليمن والبركة والسعد . والحوادث : جمع الحادث والحادثة . وحوادث الدهر : كوارثه ، ونوائبه ، وشدائده ، وبلاياه . واليمن (بضم فسكون) : البركة والخير والسعد ، وهو تأكيد لمعنى « سنحاً » : أى جرت طير الحوادث سانحات باليمن ، أو جرت باليمن سانحات .

دعا قلبه إلى الصبر والتجلّد ، والإقلاع عن الأسى والجزع ؛ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً . وقد يحمل الشرّ الخير فى مطاويه ، وينتهى الأمر إلى ما نأمله ونرتجيه :

ربّما تكرَهُ النفوسُ من الأمْـ ... ـرِ له فَرْجَةٌ كحَلِّ العِقالِ

(١٤) أورق الشجر إيراقاً : خرج ورقه . أو ظهر ظهوراً تاماً . والأغصان : ما تشعّب من ساق الشجرة . الواحد غصن (بضم فسكون) . وذبل النبات (كنصر ، وكرم ، ودخل) ذبْلاً ، وذبولاً : ذوى ، وذهبتْ نُدُوَّته ونَضْرته . والوهن (بفتح فسكون) : نحوٌ من نصف الليل ، أو بعد ساعة منه ، أو حين يدبر . ومثله الموهن (بوزن الموعد) .

وهذا البيت تكرار وتأكيد لمعنى الشطر الثانى من البيت السابق :

. . . . فربما ... جرتْ سُنُحاً طيرُ الحوادثِ باليُمْنِ

(١٥) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى ؛ فالحسام تصيبه الكهامة والكلالة ، ولهذم الرمح يفلّ ويتكسّر من كثرة الطعن . والحسام: السيف القاطع . وحسام السيف: طرفه الذى يضرب به . وكهامة (بفتح الكاف) : كلالة وضعف . وسيف كهام (كسحاب) : كليل ، لا يقطع . (والفعل كقتل ، وكرم) . ولهذم الرمح : سنانه : أى حديدته القاطعة . والرمح : قناة فى رأسها سنان من الحديد الصلب الحادّ، يطعن به . وفلّه (من باب ردّ) : ثلمه ، وكسره . والطعن: مصدر طعنه بالرمح ونحوه (من بابى قطع وقتل) : أى وخزه . أو ضربه بلهذمه وسنانه . وفى الأصل المخطوط : « وأى حسام لا تصبه » . وإنما يستقيم وزن البيت . بـ « لم » الجازمة للفعل الذى بعدها .

وفى البيت فخر وعزاء ؛ فمضاؤه فى الأمور مضاء الحسام واللهذم . وقد جاهد وجالد ، وناضل وطاعن حتى تفللتْ مضاربه ، ونفدت ذخيرته ، وأعذر كلّ الإعذار ، وسقط فى حومة القتال سقوط الكرام الأبطال .

(١٦) شاغب الأيام : شارّها ، وخاصمها ، وعاسرها ، وعاداها . والشغب (بفتح فسكون) الجلبة ، والخصام، والاضطراب، وتهييج الشر ، وإثارة الفتنة . ويراد بالأيام: الناس . أو ما يتخيّله =

وَمَا الْمَرْءُ فِى دُنْيَاهُ إِلَّا كَسَالِكٍ مَنَاهِجَ لَا تَخْلُو مِنَ السَّهْلِ وَالْحَزْنِ[17]

فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا تَوَلَّتْ بِخَيْرِهَا فَأَهْوِنْ بِدُنْيَا لَا تَدُومُ عَلَى فَنِّ![18]

= مثل هذا الشاعر فى طبع الليالى والأيام من معاسرة الكرام الأحرار ، ومياسرة اللئام الأشرار. ولان : سهل، وانقاد . واللين (بكسر اللام) : ضدّ الخشونة . والمرير : العزيمة والقوة والبأس . وأسلمه إلى كذا : دفعه إليه ، ورماه فيه . وأسلمه للهلكة : أى انتهى به إليها ؛ فكانت مصيره وخاتمته . والمراس (بكسر الميم) : مصدر مارس الإنسان الشىء : إذا عالجه وزاوله . ويراد بطول المراس هنا : طول التمرس بمشارّة الأيام، ومعاداة الزمان ، ومكافحة الشرور والمفاسد والآفات، ومحاولة تعديل المعوجّ من الأمور العامة ؛ فإن الشاعر مارس هذا كله ، وكافحه ، وقاومه ، وجالده ، وحاول جاهداً إصلاح فساد الحكم ، وردّه إلى الشورى والعدل ، وحمله على الاستقامة والصلاح . والوهن (بفتح فسكون) : الضعف ، وذبول الحيوية .

وهذا البيت وثيق الاتصال بالذى قبله ، والفكرة فيهما واحدة ، وهى الفخر والعزاء ؛ فإن الشاعر حاول تعديل المعوجّ من الأمور العامة ، كما حاول ردّ نظام الحكم إلى الشورى والعدل ، وحمله على الاستقامة والصلاح، وطال فى هذا السبيل مراسه ، وعنفتْ مشاغبته للأيام حتى لانت مرّته ، ونفدت قوّته، وانتهى أمره ، إلى الانقياد والاستسلام . ولا ريب أن الشاعر يعزّى نفسه وأمثاله بمثل هذه الأبيات التى أجراها مجرى الحكم والأمثال .

(١٧) سلك الطريق (من باب دخل) : سار فيه وذهب . وسالك : اسم فاعل منه . والمناهج : الطرق. واحدها منهج (بوزن مذهب). والحزن (بفتح فسكون) : ما غلظ من الأرض وصلب. وجمعه حزون. وضده السهل : وهو أرض منبسطة سهلة ، لا تبلغ الهضبة ، وجمعه سهول (بوزن شأن وشئون فيهما) . والأسلوب فى هذا البيت : أسلوب قصر ، أو حصر ، أو تخصيص؛ وطريقته النفى بـ « ما »؛ والاستثناء بـ « إلا » . والمقصور « المرء » . والمقصور عليه « سالك » ؛ فالانسان فى حياته ، وتقلبه فى أمورها لا يعدو سلوك المسالك، والطرق المعيشية ؛ وفيها الهين اللين، السهل اليسير ، والشاقّ الصعب، المعوّق العسير .

كثرتْ الحكم والأمثال فى هذا القصيدة ، ولا غرو ؛ فإن المحن والشدائد من شأنها أن تفجّر ينابيع الحكمة لمثل هذا الشاعر الملهم المطبوع ، وتصبغ نظرته وفكرته بالعمق والسعة والشمول . وهل كانت حكم الحكماء إلا نتيجة طبيعية لما كابدوه من شدائد الحياة ، ومتاعب الزمان ، ومرارات التجارب ؟

(١٨) تولت : أدبرت وذهبت . وتولى عنه : أعرض عنه ، وتركه . وأهون بدنيا : أسلوب تعجب . والتعجب : استعظام أمر لوصف فيه زائد على المألوف مع خفاء السبب . ومثله : « ما أهون الدنيا » : أى ما أحقرها! وما أذلها ! من هان الشىء يهون هواناً : أى ذلّ وحقر. والفنّ : الحال ، وجمعه أفنان، وفنون

أقبلت الدنيا على البارودى كل الإقبال ، فأولته المنصب والجاه ، والثراء والرياسة ، والخير الكثير ، والنعم الواسعة ، وما لبثتْ أن أعرضتْ عنه، وسلبتْ كل ما وهبتْ ؛ فذاق مرارة الهزيمة، وذلّ الإسار ، وجرّد من أمواله وألقابه، ونفى وأبعد عن أهله ووطنه؛ فعزّى نفسه بهذا البيت وأشباهه من الأبيات التى =

تَحَمَّلْتُ خَوْفَ الْمَنِّ كُلَّ رَزِيئَةٍ ... وَحَمْلُ رَزَايَا الدَّهْرِ أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ(١٩)

وَعَاشَرْتُ أَخْدَانًا ، فَلَمَّا بَلَوْتُهُمْ ... تَمَنَّيْتُ أَنْ أَبْقَى وَحِيدًا بِلَاخِدْنِ(٢٠)

إِذَا عَرَفَ الْمَرْءُ الْقُلُوبَ وَمَا انْطَوَتْ ... عَلَيْهِ مِنَ الْبَغْضَاءِ ـ عَاشَ عَلَى ضِغْنِ(٢١)

= أجراها مجرى الحكم والأمثال . إنه احتقر الدنيا ، واستهان بها ، ولم يكترث لإدبارها. وقال: إنها متقلبة متغيرة ، لا تدوم على حال . وعبّر عن هوانها بأسلوب التعجب ، وهو من أبلغ الأساليب .

(١٩) حمل الشيء (من باب ضرب) ، واحتمله ، وتحمّله : يكون فى الأثقال المحمولة فى الظاهر ، كالشيء المحمول على الظهر ، وفى الأثقال المحمولة فى الباطن ، ومنها بلايا الدهر ورزاياه : جمع رزيّة : وهى المصيبة . وأصلها الهمز : « رزيئة » ، والهمز والتسهيل فيها مستعملان ، والمن : مصدر مَنَّ المرء على غيره (من باب رد) : إذا فخر بنعمته عليه ، حتى كدّرها بفخره ؛ ولهذا قيل : « المنّة تهدم الصنيعة » . وفى القرآن الكريم: « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » الآية رقم ٢٦٤ من سورة البقرة . وأحلى من المنّ : المراد : أهون ، وأخفّ ، وأيسر . واسم التفضيل هنا من قبيل قولهم : « الصيف أحرّ من الشتاء ». و « العسل أحلى من الخلّ » : أى حرارة الصيف أشدّ من برودة الشتاء ، وحلاوة العسل أشدّ من حموضة الخلّ ؛ فرزايا الزمان فى نظر الشاعر حلوة إذا ترفّع بها عن امتنان الناس عليه. وحلاوتها أشدّ من مرارة المنّ ، وسوء وقعه فى نفوس أمثاله من الأباة الأحرار .

والبيت — مع جريانه مجرى الحكم والأمثال — من فخريات البارودى الشائعة فى شعره . وهو تصوير صحيح صادق لمزيّة من مزاياه ، وفضيلة من فضائله النفسية ، وهى عزة نفسه ، وكبرياؤه المحمودة :

خُلِقْتُ عَيُوفاً ، لا أرَى لابْنِ حُرَّةٍ ... عَلَىَّ يَداً أغْضِى لهَا حِينَ يَغْضَبُ

(٢٠) الأخدان : جمع خدن (بكسر فسكون) : وهو الصديق ، أو المصاحب . وبلوتهم اختبرتهم ، وجربتهم . (وبابه عدا) .

أخفقت الثورة العرابية ؛ فتجرع قادتها وزعماؤها مرارة الهزيمة والخذلان ، واستغلّ أعداؤها هذه النتائج القاسية ؛ فشنوا عليهم حرباً نفسية عاتية ، وسعوا بينهم بالتوريش والإفساد ، حتى خارت قواهم ، وانحلّتْ روابطهم ، وساء ظن بعضهم ببعض ، ويبدو أن البارودى نظم هذه القصيدة ونظائرها إبّان هذه الأزمة النفسية الحادة ، وأشار بهذا البيت والبيتين اللذين بعده إلى بعض أعراض هذه الأزمة ؛ فتمنى الوحدة والانفراد ، واعتزال الناس ، بعد أن خالط أخداناً وصحاباً ، وثق بهم ، واطمأن إليهم . ثم كشفتْ له التجربة فساد بواطنهم ، وانطواء قلوبهم على البغضاء .

(٢١) البغضاء : شدة البغض والكراهية . والضغن (بكسر فسكون) : الحقد الشديد : وهو الانطواء على العداوة والبغضاء . وجمعه أضغان . ومثله الضغينة . وجمعها ضغائن .

والمعنى : إذا استبان الإنسان ما يضمره له بعض خلطائه ومعاشريه من المقت والضغينة — عاش على احتراس من أحقادهم وضغائنهم . أو أضمرلهم مثل ما يضمرون له ؛ ليسلم من شرهم ، ويتقى أذاهم . =

يَرَى بَصَرِى مَنْ لَا أَوَدُّ لِقَاءَهُ وَتَسْمَعُ أُذْنِى مَا تَعَافُ مِنَ اللَّحْنِ (٢٢)

وَكَيْفَ مُقَامِى بَيْنَ أَرْضٍ أَرَى بِهَا مِنَ الظُّلْمِ مَا أَخْنَى عَلَى الدَّارِ وَالسَّكْنِ (٢٣)

فَسَمْعُ أَنِينِ الْجَوْرِ قَدْ شَاكَ مِسْمَعِى وَرُؤْيَةُ وَجْهِ الْغَدْرِ حَلَّ عُرَا جَفْنِى (٢٤)

= وصلة هذا البيت بما سبقه وما لحقه واضحة وثيقة ؛ فالشاعر متبرّم أشدّ التبرّم بخلطاء أو صحاب عاشرهم ، فلم يحمد عشرتهم ، وتكشّفتْ له أحقادهم ، فكره أن يلقاهم ، أو يراهم ، أو يسمع كلامهم.

(٢٢) تعاف : تكره . ويراد باللحن هنا : الكلام مطلقاً .

اشتدّ امتعاض الشاعر من هؤلاء الصحاب ، وزاد تبرمه بهم ، وعظم سخطه عليهم ؛ فكره لقاءهم وكلامهم ، وأعلن أنه يتأذّى برؤيتهم .

(٢٣) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفى ، أو الإنكار والاستهجان ؛ فهو يرفض الإقامة فى أرض الظلم ، ولا يرتضيها. أوهو ينكر الإقامة ويستهجنها. وقد كره أرض الظلم ، واستحبّ البعد عنها. والمقام (بضم الميم) : الإقامة : مصدر ميمى من أقام بالمكان إقامة : أى استقرّ به ، واتخذه وطناً. وبين أرض : أى فى أرض ، أو بأرض . أو بين أجزاء هذه الأرض ونواحيها . أو بين أهلها وسكانها ؛ فإن «بين» ظرف مبهم ، يضاف إلى اثنين فصاعداً ، أو إلى ما يقوم مقام ذلك . ويريد بالأرض : أرض مصر التى فشا فيها الظلم والفساد . أو يريد الظالمين المفسدين من حكامها ، وولاة الأمر فيها . وأخنى عليه : أفسده . أو أهلكه وأرداه : من قولهم : «أخنى عليهم الدهر» : إذا بلغ منهم بشدائده ، وأتى عليهم ، وأهلكهم . والسكن (بفتح فسكون) : أهل الدار وسكانها . والترتيب الأصلى لهذا الكلام : وكيف مقامى بين أرض أرى بها ما أخنى على الدار والسكن من الظلم . و «من» : بيانية . وما بعدها ، وهو الظلم : بيان لما قبلها ، وهو «ما» . ومعناها : «الذى» : أى أرى بها الظلم الذى أخنى على الدار والسكن .

هوّن الشاعر على نفسه مفارقته القسرية لوطنه العزيز ، فصوّر الجانب المعتم الكريه من جوانبه ، وندّد بظلمات الظلم الذى عمّ وامتدّ ، وأخنى على الديار والسكان . والبيت الآتى تفصيل لمعنى هذا البيت . وفيه بعض ما زهّده فى أرض الظلم ، ونفّره منها ، وحبّب إليه البعد عنها ، وهوّن عليه النفى والاغتراب .

(٢٤) السمع : مصدر سمعت الشىء (من باب فهم) . ومثله السماع . والأنين : التأوّه ، وصوت التألم والتوجّع. والجور : الظلم (وفعله من باب قال) . وشاكه (من باب قال) : أضرّ به . وآذاه . والأصل : شاكته الشوكة : إذا أصابت جلده ، أو دخلتْ فى جسمه . والمسمع (بكسر فسكون ففتح) : الأذن . ومثله السامعة . والغدر : الإخلال بالموثق ، ونقض العهد ، وترك الوفاء (والفعل من باب ضرب) . وحلّ العقدة ونحوها (من باب ردّ) : فكّها ونقضها. والعرا (بضم العين) : جمع عروة (بضم فسكون) : وهى من الثوب والقميص ونحوهما : مدخل زرّه . ومن الكوز ونحوه : أذنه ، ومقبضه . وتستعار العروة لكل ما يُستمسك به ، ويُتعلق ، ويُعتصم . والجفن (بفتح فسكون) : غطاء العين من أعلاها وأسفلها . وجمعه أجفان وجفون . وعرا الجفون : رُبطها التى تشدّها ، وبها تنطبق ، وينضم =

وَصَعْبٌ عَلَى ذِى اللُّبِّ رِئْمَانُ ذِلَّةٍ يَظَلُّ بِهَا فِى قَوْمِهِ وَاهِيَ الْمَتْنِ(٢٥)

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْمِ الْهَنَاةَ بِمِثْلِهَا تَخَطَّى إِلَيْهِ الْخَوْفُ مِنْ جَانِبِ الْأَمْنِ(٢٦)

= بعضها إلى بعض . وانحلال عرا الجفون : كناية عن الأرق والسهاد ، والهم والغم ، والضجر والقلق ، والأسى والبكاء .

لعله يشير هنا إلى ما ابتليت به مصر قبل الثورة العرابية وبعدها . أو قبل الاحتلال الإنجليزى وبعده من ضروب المحن والبلايا والرزايا والشرور والآفات . وقد أمضّه وأرّقه ما كان يراه من وجوه الغدر والختل ، والخيانة والإجرام . وآذى سامعتيه ما كان يسمعه من أنات المظلومين ، وتأوّهات المتوجّعين تحت وطأة الإيذاء والإضرار ، والبغى والعدوان ، والإفساد والاستبداد . ولعله — بهذا البيت وأمثاله — يخفف عن نفسه ، ويهوّن عليها كارثة النفى والتشريد ، والتجريد ، والإبعاد ؛ فإن البلوى إذا عمّت خفّت .

(٢٥) صعب عليه الأمر صعوبة : شقّ عليه ، واشتدّ ، وعسر ؛ فهو صعب : أى شاقّ ، عسير ، غير محتمل . وذو اللب : العاقل . واللب : العقل . وجمعه ألباب . ورئمان الذلة : الرضا بالذل ، والإقامة على الضيم ، واعتياد الانكسار ، وملازمة الهوان : مصدر رئم الإنسان والحيوان الشيء (من باب سمع) : إذا ألفه ، واعتاده ، ولزمه ، وأحبه ، وتعلّق به ، وارتضاه :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذَلَّانِ : عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ ، فَلَا يَرْثِى لَهُ أَحَدُ

ويظلّ : يبقى ، ويستمر . وفاعله : ضمير «ذى اللب» . وبها : أى بالذلة : أى بسببها ، أو فيها . والواهى : الضعيف : اسم فاعل من وهى (من باب وعى) : أى ضعف ، وذهبت قوّته . والمتن : الظهر (يذكّر ويؤنّث) .

والمعنى : أن اللبيب العاقل يحرص أشدّ الحرص على حريته وعزته ، فإذا أصابته مذلة شقّ عليه أمرها ، وسعى بكل جهده إلى نفض غبارها ، والتخلص من عارها ؛ لأنه إن ارتضاها قصمت ظهره ، وأهدرت كرامته ، وظلّ بها فى قومه كسير النفس ، مهيض الجناح . وهذا البيت من أبيات الحكمة البالغة الشائعة فى هذه القصيدة . ومن شأن الحكم والأمثال أن تخفّف عن الشاعر ، وتهوّن المصيبة عليه ، وتردّ السكينة إليه .

(٢٦) الهناة : الداهية ، أى النائبة ، والنازلة ، والأمر المنكر العظيم . ودواهى الدهر : ما يصيب الناس من عظيم نوبه . ويجمع الهناة هنوات (بوزن قناة وقنوات) . ورمى الهناة بمثلها : دفع الشر بالشر ؛ فإنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد ، وتخطّى إليه الخوف : أى مشى إليه ، واستولى عليه ، ويقال : تخطّى إليه بالمكروه . ومعنى الشطر الثانى : أن الخوف يفاجئ المرء من مأمنه . أو أنه إن انخدع به فإنما ينخدع بأمن كاذب ، وسلام زائف ، لا يلبث أن ينقلب عليه حرباً شعواء ، وفزعاً ، وفرقاً ، وخوفاً شديداً .

يحض على رد الشر بالشر ، وملاقاة العدوان بالعدوان ، ودفع الظلم والطغيان بالقوة القاهرة الظافرة ، الرادعة . ويحبط مزاعم الذين يزعمون أن الأمن والسلامة فى مسالمة المعتدى وملاينته . ويقول لهم : إنه أمن خادع كاذب ، وسلامة زائفة خاتلة ، تحمل فى مطاويها الخوف والفزع ، والردى والهلاك .

فَلَا تَعْتَرِفْ بِالذُّلِّ خِيفَةَ نِقْمَةٍ ... فَعَيْشُ الْفَتَى فِى الذُّلِّ أَدْهَى مِنَ السِّجْنِ (٢٧)

وَكُنْ رَجُلًا ، إِنْ سِيمَ خَسْفاً رَمَتْ بِهِ ... حَمِيَّتُهُ بَيْنَ الصَّوَارِمِ وَاللُّدْنِ (٢٨)

فَلَاخَيْرَ فِى الدُّنْيَا إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعِشْ ... مَهِيباً ، تَرَاهُ الْعَيْنُ كَالنَّارِ فِى دَغْنِ (٢٩)

(٢٧) اعترف بالشيء: أقرّ به . والمراد هنا : رضى به ، وسكن إليه . واعترف للأمر : صبر عليه . والخيفة والمخافة : الخوف والاهتياب . والنقمة (بكسر فسكون) : العقوبة . وجمعها نقم (بوزن محنة ومحن) . وأدهى: أنكى وأشد ، وأمرّ، وأصعب : من قولهم : دهاه الأمر يدهاه : إذا نزل به ، وأصابه ، والسجن (بكسر فسكون) : المحبس . وجمعه سجون . أو هى السجن (بفتح فسكون) : مصدر سجنه (من باب قتل) : أى حبسه .

يعترف الذليل بالذل ، ويرضى به ، ويصبر عليه خوفاً من النقم والعقوبات القاسية التى يردعه بها مذله وظالمه لوحاول الانتقاض عليه، والثورة فى وجهه. والشاعر هنا يعالج فى الأذلاء الضعفاء هذا الخوف فيقول لهم : إن حياة المذلة والمهانة شر من حياة السجناء فى سجونهم ؛ فلا ينبغى أن يساورك الخوف من بطش مذلك وقاهرك . والغرض التحريض على إباء الضيم ، والإقدام على مكافحة الطغاة المستبدين بكل المستطاع من قوى الكفاح ووسائله . وأبلغ من هذا قول أبى الطيب المتنبى فى هذا المعنى، أو فى هذا الغرض .

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ ... رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ ... مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

(٢٨) سامه خسفاً : أولاه ذلاً ، وأراده على الهوان . والأصل : خسف المكان ، وخسفت الأرض : إذا ساخت بما عليها . وخسف القمر : إذا ذهب ضوءه . والحمية : الأنفة ، والعزة ، والقوة الغضبية إذا ثارت واشتدت وكثرت . ومن الحمية : إباء الضيم ، ومكافحة الظلم ، والثورة فى وجه الضائم ، والمحافظة على المحارم . والصوارم : السيوف المواضى القواطع : جمع صارم . واللدن : الرماح . يقال رمح لدن (بفتح فسكون) : أى فيه لدانة ، أو لدونة : وهى اللين والمرونة . ورماح لدن (بضم فسكون) ، ورماح لدان (بوزن سهام) . واللدانة من صفات الجودة فى الرماح .

يمتدح فى الرجال الأنفة والحمية ، ويحض على إباء الضيم، ومناهضة المذلة ، ودفع الخسف والهوان بالشجاعة والإقدام ، والكفاح ، وقوة السلاح .

(٢٩) هابه : أجلّه وعظّمه . أو حذره وخافه . ومهيب: أى يهابه الناس ويجلّونه: اسم مفعول من الهيب أو الهيبة . والدغن : الدجن (بفتح فسكون فيهما) : أى الظلمة : مصدر دغن اليوم (من بابى نصر ودخل) : أى دجن وأظلم . ولا ريب أن الدغن هنا يضاعف قيمة النار . وهى مثال للشيء المهيب المخيف . يضاف إلى هذا ما تمّ عليه النار ، وتشير إليه من نباهة الشأن ، وبعد الصيت . ما زال الشاعر يمتدح ما يتصل بالأنفة والحمية ، ويمجّد من يحيا حياة العزة والكرامة ، ومن يعيش قوياً مهوباً ، يخشاه الطغاة ، ويلقاه الناس بالإجلال والتعظيم ، ويرونه كالنار فى الظلمات . ويقول : إن خير الدنيا كله فى هذه الحياة العزيزة الكريمة ، فإن ذهبت ذهبت معها الدنيا بخيرها .

نَهْمَانُ يَعْتَلِقُ الْقَطَا بِمَخَالِبٍ حُجْنٍ ، لَهُنَّ بِوَقْعِهَا تَصْعَاقُ(٤٠)
لَا يَسْتَقِرُّ بِهِ الْجَنَاحُ ، وطَرْفُهُ مُتَقَلِّبٌ يَسْمُو بِهِ الإِرْشَاقُ(٤١)
بَيْنَا كَذَلِكَ إِذْ أَصَابَ عِصَابَةً لِلطَّيْرِ أَرْسَلَهَا صَدًى مِحْرَاقُ(٤٢)
فَسَمَا ، فَحَلَّقَ ، فَاسْتَدَارَ ، فَصَكَّهَا بِمُذَرَّبٍ تَمْكُو لَهُ الأَعْنَاقُ(٤٣)

(٤٠) النهم (بفتحتين) : إفراط الشهوة فى الطعام، وألا تمتلئ عين الآكل، ولايشبع (وفعله كفرح وعنى) ، فهو نهم (كفرح) ونهيم ومنهوم ، أما « نهمان» فلم نرها فيما بين أيدينا من المعجمات. واعتلق الرجل المرأة: أحبها، وأصله من علق الشيء بالشيء، بمعنى استمسك به وتعلق؛ لأن الحب يستلزم تمسك المحب بحبيبه ، فالمراد بيعتلق هنا ، يمسك ويقبض . والقطا : نوع من الحمام ، الواحدة قطاة . والمخالب : جمع مخلب (بكسر فسكون ففتح) ، وهو لجوارح الطير والسباع كالظفر للإنسان . وحجن (بضم فسكون) : معوجة ، يقال : عود أحجن ، وعصا حجناء بينة الحجن (بفتحتين) ولهن : للقطا . والضمير المجرور فى وقعها يعود على المخالب . والوقع : الوقوع والسقوط . والتصعاق : مصدر صعق (كسمع) أى غشي عليه ، ومات .

يصف الصقر بالنهم ، وأنه ينشب مخالبه القوية المعقوفة المعوجة بما يصيده من القطا ونحوه فيصعقه ويهلكه .

(٤١) لايستقر به الجناح : لايثبت ، ولايهدأ ، وهذا كناية عن نشاطه ودوام حركته ، وعدم إخلاده إلى الكسل والتوانى والفتور . والطرف : البصر ، لايثنى ولايجمع ، لأنه فى الأصل مصدر . ويسمو به : يرفعه ويعليه . والإرشاق : إحداد النظر ، مصدر أرشقت إلى الشيء ، أى حددت النظر إليه .

يصفه بالنشاط ودوام الحركة ، وتقليب البصر وإحداده باحثاً عما يصيده من الطير .

(٤٢) بينا كذلك : بينما هو أى الصقر يقلب طرفه ، ويسمو به الإرشاق إذ أصاب عصابة . . . وأصاب : وجد . وعصابة للطير : جماعة من الطير . والصدى : العطش الشديد . ومحراق : صيغة مبالغة من حرقه بالنار (من باب ضرب) .

والمعنى : أنه بين أوقات تقلب طرفه ، وسمو الإرشاق به وجد جماعة من جماعات الطير قد أرسلها من أوكارها عطش شديد محرق ، فهى تطير فى طلب الماء .

(٤٣) سما : علا وارتفع. وحلق الطائر : ارتفع فى طيرانه . واستدار : دار وطاف .. وصكها : ضربها ضرباً شديداً (وبابه رد) . ومذرب : حاد قاطع ، اسم مفعول من ذربت السنان والسيف ونحوهما تذريباً ، أى أحددته وسننته . ومكا الجرح يمكو: فهق (كفرح) ونفح (كقطع) بالدم أى سال منه الدم وتصبب . وله : للمذرب ، أى بسببه . والأعناق : جمع العنق . وتمكوله الأعناق : تتمزق الأعناق بمخلبه المذرب ، ويتفجر منها الدم ، قال عنترة يصف رجلا طعنه طعنة شديدة تنفح بالدم :

وحليل غانية تركت مجدلا * تمكو فريصته كشدق الأعلم =

تَسْمُو ، فَيَتْبَعُهَا ، فَتَهْوِى وَهْوَ فِى ... آثَارِهَا مَرَّ الشِّهَابِ حِرَاقُ (٤٤)

مَذْعُورَةٌ تَبْغِى الْفِرَارَ مِنَ الرَّدَى ... إِنَّ الْفِرَارَ مِنَ الْمَنُونِ وَثَاقُ (٤٥)

حَتَّى إِذَا فَتَرَتْ ، وَحَطَّ بِهَا الْوَنَى ... سَقَطَتْ ، فَلَيْسَ لِنَفْسِهَا أَرْمَاقُ (٤٦)

فَأَتَى ، فَمَزَّقَهَا كَمَا حَكَمَ الرَّدَى ... وَلِكُلِّ نَفْسٍ مَرَّةً إِزْهَاقُ (٤٧)

أَفَذَاكَ ، أَمْ ضِرْغَامُ خِيسٍ مُدْهِسٍ ... تَنْجَابُ عَنْ أَنْيَابِهِ الْأَشْدَاقُ ؟ (٤٨)

= يقول : إنه لما رأى عصابة الطير سما إليها ، وحلّق واستدار ، وضربها بمخلب حادّ قاطع ، أنشبه فى أعناقها ، فسالت دماؤها .

(٤٤) تهوى : تسقط وتقع ، أو تنحطّ وتهبط . وهو فى آثارها : وهو فى إثرها يتبعها ويتعقّبها . والشهاب : ماينقضّ من أجرام الكواكب ، يضرب به المثل فى سرعة الانقضاض . وحراق (بكسر الحاء) : شديد ، من قولهم : نار حراق (ككتاب) أى لاتبقى شيئاً ، ورمى حراق ، أى شديد ، أو هو حراق (بضم الحاء) من قولهم : فرس حراق العدو ، أى يكاد يحترق لشدّة عدوه .

يقول : إن الطير تسمو وترتفع أحياناً ، وتهوى وتهبط أحياناً ، والبازى يتبعها ، ويشتدّ ويسرع ، ويمرّ فى إثرها مرّ الشهاب .

(٤٥) مذعورة : مفزّعة خائفة ، خبر لمبتدأ محذوف ، أو هى بالنصب حال من فاعل تسمو وتهوى فى البيت السابق . وتبغى : تطلب . والفرار : الهرب . والردى : الهلاك والموت . والمنون . المنيّة والموت ، وهى مؤنثة . والوثاق (بفتح الواو وكسرها) : مايشدّ به الأسير ونحوه من قيد وحبل ونحوه . ومعنى الشطر الثانى : أن الفرار من الموت لايجدى ، ولايفيد .

(٤٦) فترت : انكسرت وضعفت ، وفاعله ضمير عصابة الطير ، يقال : فتر الشىء ، إذا سكن بعد حدّة ولان بعد شدّة . وحطّ بها : حلّ بها ، وأصابها . والونى : الضعف والفتور والكلال والإعياء والتعب . والأرماق : جمع رمق (كسبب وأسباب) ، وهو بقيّة الحياة فى الجريح والمذبوح والمحتضر .

ومعنى الشطر الثانى أنها وقعت هالكة .

(٤٧) أتى : أى البازى أو الصقر . والضمير المنصوب فى « مزّقها » يعود على عصابة الطير . والردى : الهلاك . والإزهاق : مصدر أزهق الله تعالى نفس الحىّ ، أى أخرج روحه وأماته .

(٤٨) أفذاك : ذا اسم إشارة ، والمشار إليه السيذاق ، أى الصقر ، أو البازى الذى وصفه الشاعر فى عشرة الأبيات السابقة . والضرغام : الأسد ، أو الضارى الشديد المقدام من الأسود . والخيس (بكسر الخاء) : الأجمة ، والشجر الكثير المجتمع الملتفّ ، أو ما كان حلفاء وقصباً ، والخيس أيضاً : عرين الأسد ومأواه . ومدهس : اسم فاعل من أدهس الإنسان وغيره إدهاساً ، أى سار فى الدهس (بفتح فسكون) ، وهو الأرض يثقل فيها المشى ، أو هو المكان السهل الليّن لايبلغ أن يكون رملا ، وليس هو بتراب ولاطين ، =

مَنَعَ الطَّرِيقَ ، فَمَا تَجُوسُ خِلاَلَهُ ... فِى سَيْرِهَا الطُّرَّاقُ وَالْمُرَّاقُ(٤٩)

غَضْبَانُ ، يَضْرِبُ ذَيْلَهُ ، وَيَلُفُّهُ ... مِنْ جَانِبَيْــهِ ، كَأَنَّهُ مِخْرَاقُ(٥٠)

عَصَفَتْ عَلَيْهِ النَّائِجَاتُ ،وَخَابَ مِنْ ... هَامِ الْوُحُوشِ لَهُ حَشًا وَصِفَاقُ(٥١)

فَسَمَا ، فَأَبْصَرَ رَاعِيَيْنِ تَخَلَّفَا ... بِالْعِيرِ ، تَصْدَحُ بَيْنَهُنَّ نِيَاقُ(٥٢)

=أو هو كما فسرّه صاحب الأساس : رمل لاتغيب فيه القوائم ا هـ . ولانرى لهذا الوصف هنا قيمة كبيرة ، ولعلّه « أدهس » صفة من الدهسة (بضم فسكون) ، وهى لون الرمل يعلوه أدنى سواد ، وهذا هو لون الأسد . وتنجاب: تنكشف ، من قولهم : انجاب عنه الظلام ، أى انشقّ وانكشف . والأنياب : جمع ناب، وهى السنّ التى خلف الرباعية . والأشداق : جمع شدق (بكسر فسكون) ، وهو جانب الفم ، وانجياب أشداق الأسد عن أنيابه : كناية عن ضراوته ، أو غضبه واستعداده للفتك ، قال الشاعر :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنّن أنّ الليث يبتسم

والمعنى : أنه إذا كان الصقر على قوّته لا يسلم من الموت، فإن الأسد وهو أقوى منه لايسلم من الموت ، ولا ينجو من الهلاك أيضاً .

ثم جعل يصف الأسد فى هذا البيت وتسعة الأبيات الآتية .

(٤٩) منع الطريق: قطعها ،وحال دون سلوكها والسير فيها ، والطريق يذكّر ويؤنّث. وجاس المرء خلال المكان (من باب قال) : سار فيه ، وتردّد بين أجزائه جيئة وذهاباً . والطرّاق : جمع طارق ، اسم فاعل من طرق فلان القوم ، أى جاءهم ليلا . والمرّاق : جمع مارق ، اسم فاعل من المروق ، وهو سرعة الخروج من الشىء ، يقال : مرق السهم من الرميّة (من باب دخل) ، أى خرج من الجانب الآخر .

(٥٠) يضرب ذيله: المراد يحرّكه ويبسطه ويطويه. ويلفّه يضمّه ويجمعه، وضدّه ينشره (وبابه ردّ) . والمخراق : المنديل ونحوه يلفّ ليضرب به ، وجمعه مخاريق ، وهى ما يتلاعب به الصبيان من الخرق المفتولة . والضمير فى جانبيه يعود على الذيل .

(٥١) عصفت : اشتدّت . والنائجات: الرياح تمرّ مرًّا سريعاً ، ولها صوت، صفة من النئيج . والهام : جمع هامة، وهى الرأس . والوحوش : جمع وحش ، وهو مالا يستأنس من دوابّ البرّ . والحشا : المعى (بكسر الميم وفتح العين) والكرش . والصفاق (وزان كتاب) : الجلد الأسفل تحت الجلد الذى عليه الشعر ، أو مابين الجلد والمصران .

يشير إلى ما كان ذلك الأسد يعانيه من الحرمان والجوع ، وعصف الرياح ، وشدّة بردها .

(٥٢) سما : نظر رافعاً بصره . والراعيان : مثنى راع ، وهو من يرعى الماشية ، أى يصونها ويحوطها ، ويحفظها ويقوم عليها. وتخلّفا : تأخّرا . والعير : الإبل التى تحمل الميرة ، أو الإبل مطلقاً . وتصدح : المراد ترغو وتصوّت: من الصدح ، وهو شدة الصوت وحدّته (وبابه منع) . ونياق : جمع ناقة ،وهى الأنثى من الإبل .

يقول : إن هذا الأسد رفع بصره ، فرأى راعيين تخلّفا بطائفة من الإبل ترغو نوقها .

فَأَجَمَّ قُوَّتَهُ ، وَشَدَّ بِوَثْبَةٍ صُمٌّ الصُّخُورِ لِوَقْعِهَا أَفْلَاقُ(٥٣)

حَتَّى إِذَا اعْتَرَضَ الرِّحَالَ إِذَا بِهَا يَقِظٌ تَلِينُ لِكَفِّهِ الْأَرْزَاقُ(٥٤)

مُتَقَلِّدٌ سَيْفاً تَرِفُّ مُتُونُهُ رَفَّ الْمَصَابِحِ شَفَّهُنَّ لِيَاقُ(٥٥)

فَتَصَاوَلَا ، حَتَّى إِذَا مَا اسْتَنْفَدَا مَا كَانَ عِنْدَهُمَا ، وَضَاقَ خِنَاقُ(٥٦)

---

(٥٣) أجمّ : جمع . وشدّ : حمل وهجم ، من قولهم : شدّ المحارب على عدوّه فى القتال ، أى حمل عليه وهجم . والوثبة : الطفرة والقفزة . وصمّ . جمع أصمّ وصمّاء ، يقال صخرة صمّاء ، وحجر أصمّ ، إذا كان صلبا مصمتاً شديداً قويًّا . وأفلاق : متفلّق متشقّق ، وجملة « صمّ الصخور لوقعها أفلاق » صفة لوثبة .

يقول : إنه جمع قوّته ، وحمل على العير بوثبة عيفة شديدة ، تفتّت لوقوعها الصخور الصمّ وتتفلّق .

(٥٤) اعترض : تعرّض وتصدّى . والرحال : جمع رحل (بفتح فسكون)وهو مركب البعير يشدّ على ظهره ، كالسرج للفرس ، أو هو كلّ شىء يعدّ للرحيل من وعاء للمتاع ، ومركب للبعير ، وحلس ورسن ، والمراد باعتراض الأسد للرحال : أنه وقف فى طريق العير ، وتصدّى لها ، وأراد افتراسها . ويقظ (بفتح الياء وضم القاف أو كسرها) : صفة من اليقظة . ولين الأرزاق لكفّه : كناية عن قوّته وقدرته على الكسب والارتزاق .

يقول : إن الأسد لمّا اعترض العير ، وحمل عليها ، فوجئ برجل يقظ منتبه ، قوىّ ، شديد البأس .

(٥٥) متقلّد : اسم فاعل من تقلّد الرجل السيف ، إذا احتمله ، ووضع نجاده على منكبه ، أو ألقى حمالته فى عنقه . وترفّ : تبرق وتتلألأ وتلمع ، ومصدره الرفّ والرفيف . والمتون : جمع متن (بفتح فسكون) وهو ظهر الحيوان ، ووسط الرمح والسهم ، والمراد بمتون السيف : ماصلب واشتدّ من صفحته . والمصابح : المصابيح ، جمع مصباح ، والكوفيون يجيزون حذف الياء من مماثل مفاعيل ، فيقال فى عصافير عصافر ، وفى قول الله تبارك وتعالى : « وعنده مفاتح الغيب » شاهد على هذا ، إذا جعلت مفاتح جمع مفتاح . وشفّهن : أضعفهن . واللياق (وزان كتاب) : شعلة النار ، والمراد اشتعالها .

وصف الراعى بأنه كان متقلّداً سيفاً برّاقاً ، لامع الصفحتين ، يرفّ رفيف المصابيح إذا أخذت فى الضعف لطول اشتعالها ، فاختلج ضوؤها واضطرب .

(٥٦) تصاولا : صال كلّ منهما على الآخر ، وسطا عليه ، ووثب . واستنفد كلّ منهما ما كان عنده : أفرغ جهده ، وأنفده وأذهبه وأفناه . والخناق (ككتاب) : مايختنق به من حبل وغيره ، وضيق الخناق : كناية عن الجهد والشدّة والمشقّة ، ونفاد الحيلة ، كما يقال : « ضاق فلان بالأمر ذرعاً » ، إذا لم يطقه .

يصف طول تصاولهما وشدّته ، وإفراغ كلّ منهما جهده وطاقته وحيلته فى التغلّب على صاحبه ، وما انتهى إليه أمرهما من الضيق والإعياء .

هَمَّا بِبَعْضِهِمَا ، فَمَاتَا مِيتَةً لَهُمَا بِهَا حَتَّى الْمَعَادِ وِفَاقُ(٥٧)
أَمْ أَرْقَشُ مَرِسٌ يَسِيلُ كَأَنَّهُ بَيْنَ الْخَمَائِلِ جَدْوَلٌ دَفَّاقُ(٥٨)
يَتَنَاذَرُ الرَّاقُونَ سُمَّ لُعَابِهِ رُعْباً ، فَلَيْسَ لِمَسِّهِ دِرْيَاقُ(٥٩)
تَسِمُ الظَّلَامَ ذُبَالَتَانِ بِرَأْسِهِ تَقِدَانِ لَيْسَ عَلَيْهِمَا أَطْبَاقُ(٦٠)

---

(٥٧) همّا ببعضهما: همّ كلّ منهما بقتل صاحبه والقضاء عليه، أي نوى وأراد وقصد وعزم ، والتعبير الصحيح همّ أحدهما بالآخر . والميتة (بكسر الميم وسكون الياء) : الهيئة والحال من أحوال الموت . ولهما : للراعي والأسد . وبها : بالميتة ، أي بسببها . والمعاد (بفتح الميم) : العودة والمرجع والمصير إلى الله تعالى يوم القيامة ، ومن المأثور : « الآخرة معاد الخلق » . والوفاق : الموافقة ، مصدر وافقه . وجملة « لهما بها وفاق حتى المعاد » نعت لميتة .

والمعنى: أنهما سقطا صريعين متجاورين فى مكان واحد ، وسلبهما الموت أسباب النزاع والخصام ، وتركهما هامدين خامدين حتى تقوم الساعة ؛ لأن الموت يقطع كلّ أسباب الحياة .

(٥٨) أرقش : فيه نقط سواد وبياض . ومرس : قوىّ شديد البأس . ويسيل : يجرى ، وقد حسّن التعبير بهذا الفعل تشبيه الأرقش بالجدول . والخمائل : جمع خميلة ، وهى الروضة الطيّبة المشرقة . أو الشجر الكثير الملتفّ ، أو الموضع الكثير الشجر . والجدول (بفتح الجيم وكسرها) : النهر الصغير . ودفّاق : ممتلئ فيّاض .

وصف الشاعر الأسد فى عشرة الأبيات السابقة ، وهو فى هذا البيت يبدأ بوصف أسود أى حيّة كبيرة ، فيعود إلى فكرته الأولى ، وهى أن الصقر على قوّته لاينجو من الموت ، وكذلك الأسد ومثلهما الحيّة الرقشاء تنساب بين الخمائل والرياض ، كأنها جدول ممتلئ فيّاض .

(٥٩) يتناذر الراقون : ينذر بعضهم بعضاً ، أى يحذّر ويخوّف . قال النابغة الذبيانىّ يصف توعّد النعمان له ، وأنه بات بسبب هذا الوعيد كأنه لديغ يتململ على فراشه :

فبتّ كأنّى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السمّ ناقع
تناذرها الراقون من سوء سمّها * تطلّقه طوراً ، وطوراً تراجع

والراقون : جمع الراقى ، اسم فاعل من الرقية ، وهى العوذة (بضم فسكون فيهما) وكانت العرب تفزع بالملدوغ إلى الراقى ، فيرقيه ويعوّذه . والسمّ (بتثليث السين ، والضمّ أفصح) . واللّعاب (بضم اللام) : الريق . والرعب : الفزع والخوف . والدرياق (بكسر الدال وفتحها) : الترياق ، وهو دواء السموم .

يقول : إن السمّ الجارى مع لعاب هذا الأرقش مهلك قاتل ، لا ينجع فيه دواء ، ولهذا يتناذره الرّاقون من الرعب ، وإذا تناذره الرّاقون ، فغيرهم أولى وأجدر .

(٦٠) تسم الظلام: تعلمه ، وتترك فيه أثراً ، والمراد تثقبه وتضيئه ، من قولهم : وسم الرجل دابّته بالميسم وسماً وسمة (كوعدوعدة) . والذبالتان : مثنّى ذبالة (بضم الذال) ، وهى فتيلة المصباح التى توقد فتضىء ، =

يَسْرِى فَيَقْتَحِمُ السِّرَارَ ، وَيَرْتَمِى   بِسَنَاهُمَا الْمُتَنَبِّلُ الْمِرْشَاقُ(٦١)
تَرَكَ الْوُحُوشُ لَهُ الْفَلَاةَ ، وَأَوْغَلَتْ   طَلَبَ النَّجَاةِ ، فَجَمْعُهَا أَحْذَاقُ(٦٢)
حَتَّى إِذَا ظَنَّ الظُّنُونَ بِنَفْسِهِ   تِيهاً بِهَا ، وَخَلَتْ لَهُ الْأَعْمَاقُ(٦٣)
أَنْحَى فَأَقْصَدَهُ الزَّمَانُ بِسَهْمِهِ   إِنَّ الزَّمَانَ لَنَابِلٌ مِيفَاقُ(٦٤)

= والمراد بالذبالتين هنا : عينا الأرقش . وتقدان : تتّقدان وتشتعلان : والأطباق : جمع طبق (كسبب) وهو غطاء كلّ شىء ، والمراد بالأطباق هنا : الأجفان .

يصف عينى الأرقش بالتوقّد، وأنه ينبعث منهما شعاع يثقب الظلام، وأنهما مجرّدتان من الأجفان .

(٦١) يسرى : يسير ليلا، من السرى (بضم ففتح) وهو سير الليل. ويقتحم السرار : يدخل فيه ، ولا يباليه . والسرار (بفتح السين وكسرها) : آخر ليلة من الشهر حين يستسرّ القمر، أى يختفى ويستتر . ويرتمى : يرمى ، يقال: ارتمى الصائد الصيد ، وخرج يرتميه . وبسناهما : بسبب سنا عينيه . والسنا : الضوء . والمتنبّل : حامل النبل (بفتح فسكون) وهى السهام العربية، ولاواحد لها من لفظها. والمرشاق: صيغة مبالغة من رشقه بالنبل وغيره (من باب نصر) أى رماه به .

يقول : إن المتنبّل المرشاق يسير ليلا فى ضوء عينى الأرقش ، فيقتحم الظلمات ، ويرتمى ما يبغيه من الصيد .

(٦٢) الفلاة : المفازة والقفر من الأرض، أوهى الصحراء الواسعة، أو الأرض لاماء فيها ، ولاأنيس، وأوغلت: ذهبت وأبعدت ، وأمعنت فى السير وأسرعت . وأحذاق : مقطّع ، من قولهم : حبل أحذاق ، أى أخلاق بال متقطّع .

يقول : إن الوحوش خافت هذا الأرقش ، فتركت له الفلاة ، وأوغلت طالبة النجاة والسلامة ، وبذلك تفرّق جمعها ، وتبدّد شملها .

(٦٣) ظنّ الظنون بنفسه: المراد اغترّ بقوّته وانخدع، وظنّ أنه ناج من ريب الزمان، أو أنه مخلّد لايدركه الموت . والتيه (بكسر فسكون) : الصلف (بفتحتين) والكبرياء والعجب (بضم فسكون) . وأعماق الأرض : نواحيها .

(٦٤) أنحى عليه: أقبل عليه ، واتّجه إليه، وقصده . وأقصده : رماه فلم يخطئه، أو أصابه فقتله مكانه، من الإقصاد ، وهو أن تضرب الصيد ونحوه ، أو ترميه ، فيموت مكانه . والسهم : واحد النبل، (بفتح فسكون) ، وهو مايرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . ونابل : صاحب نبل . وميفاق : يحسن الرمى بالنبال ، أو موفّق فى أمره ، يصادفه موافقاً لمراده ، ولم نعثر على هذه الصفة بهذا المعنى فيما لدينا من المعجمات ، والذى فى اللسان وغيره : « أتانا لوفق الهلال وميفاقه . . . أى لطلوعه ووقته » اهـ . والظاهر أنها صيغة مبالغة على وزن مفعال، من وفقت أمرك (كوثقت)أى وفّقت فيه ، أو صادفته موافقاً =

حِكَمٌ تَحَيَّرَتِ الْبَرِيَّةُ دُونَهَا وَتَنَازَعَتْ أَسْبَابَهَا الْحُذَّاقُ(٦٥)

فَاسْمَعْ ، فَمَا كُلُّ الْكَلَامِ بِطَيِّبٍ وَلِكُلِّ قَوْلٍ فِي السَّمَاعِ مَذَاقُ(٦٦)

نَزَلَ الْكَلَامُ إِلَيَّ مِنْ شُرُفَاتِهِ وَتَمَثَّلَتْ بِحَدِيثِيَ الْآفَاقُ(٦٧)

= لمرادك . أوهى من وفق الإنسان الشيء (من باب وثق) بمعنى فهمه ، أوهى صيغة مبالغة على غير قياس من أوفق الرامى السهم ، أى وضع فوقه (بضم فسكون) فى الوتر ليرمى ، أوهى من فاق الرامى السهم يفوقه (من باب قال) بالمعنى السابق فهو فائق ، وصيغة المبالغة « مفواق » . ثم جعلت الواو فى موضع الفاء « موفاق » ثم قلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها .

يقول : إن هذا الأرقش لما خلت له أعماق الأرض ونواحيها ، وظن الظنون بنفسه ، واغتر بقوته وشدة بأسه ، واستشعر التيه والصلف — أنحى عليه الزمان فأقصده ، ثم ذيل الكلام بقوله : إن الزمان لنابل موفق ، يحسن الرماية ، ويصيب الغرض .

(٦٥) الحكم : جمع حكمة (بكسر فسكون) ، وهى فى الأصل إحكام القول والفعل وإتقانهما ، ووضع الشيء فى موضعه ، وصواب الأمر وسداده ، وتطلق على القول الرائع الذى يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً . والشاعر يريد بالحكم هنا : ما اشتمل عليه الكون من عجائب وغرائب وعظات بالغة ، وسنن مطردة ، لاتبديل فيها ولاتغيير . وتحيرت : حارت ودهشت ولم تهتد لسبيلها . والبرية : الخلق (بفتح فسكون) والناس . ودونها : المراد حيالها وإزاءها . وتنازعوا الشيء : تناولوه وتجاذبوه . والأسباب : جمع سبب ، وهو كل شيء يتوصل به إلى شيء آخر ، أو هو مايحتاج إليه الشيء ، ومثله العلة . والحذاق : جمع حاذق ، اسم فاعل من الحذق (بكسر فسكون) وهو المهارة .

يقول : إن هذه الحكم تدهش العقول ، وتحير الأفهام ، وإنها من الأمور التى يصعب إدراك أسرارها ، وتفهم عللها وأسبابها .

(٦٦) اسمع : المراد استمع لماقلت ، وانتفع به . وطيب : حسن بليغ مفيد . والمذاق : طعم الشيء ، مصدر ذقت الشيء أذوقه (وبابه قال) .

ومعنى الشطر الثانى : أن الأقوال تختلف صورها ، وتتفاوت درجاتها ، فيختلف من أجل ذلك تذوق السمع لها ، وحس الأذن بوقعها ، وتأثر النفس بها .

(٦٧) شرفات القصر : أعاليه ، وما أشرف وارتفع من بنائه ، وما بنى فى أعلى الحائط منفصلاً بعضه عن بعض ، على هيئة معروفة ، والواحدة شرفة (بضم فسكون) . وتمثلت بالحديث : ضربته مثلاً ، من قولهم : هذا البيت مثل تتمثله عندنا ، ونتمثل به . والآفاق : النواحى والأقطار .

يفخر بأن الكلام نزل عليه من مراتبه العليا ، ودرجاته الرفيعة ، وأنه يقع من نفوس الناس موقعاً حسناً ، ويتمثلون به فى آفاق الأرض ونواحيها .

وَقَالَ فِى الْغَزَلِ :

عُودِى بِوَصْلٍ ،أَوْ خُذِى مَا بَقِى فَقَدْ تَدَاعَى الْقَلْبُ مِمَّا لَقِى(١)
أَىُّ فُؤَادٍ بِكِ لَمْ يَعْلَقِ وَأَنْتِ صِنْوُ الْقَمَرِ الْمُشْرِقِ؟(٢)
عَلَّمْتِنِى الذُّلَّ ، وَكُنْتُ امْرأً أَفْعَلُ مَا شِئْتُ ، وَلَا أَتَّقِى(٣)
فَارْحَمْ فُؤَادًا أَنْتَ أَبْلَيْتَهُ وَمُقْلَةً لَوْلَاكَ لَمْ تَأْرَقِ(٤)
لَمْ أَدْرِ حَتَّامَ أُقَاسِى الْجَوَى يَا وَيْحَ قَلْبِى مِنْكَ !مَاذَا لَقِى؟(٥)
إِذَا تَذَكَّرْتُكَ فِى خَلْوَةٍ هَوَتْ بِدَمْعِى زَفْرَةٌ تَرْتَقِى(٦)

(١) الوصل : ضد الإعراض ، ونقيض الهجران . وتداعى : ضعف وأشرف على الهلاك ، من قولهم : تداعت الحيطان ، إذا تصدّعت ، وتأذّنت بالسقوط . ومابقى : المراد مابقى فىّ من رمق. ومما لقى: بسبب مالقيه من حرقة الوجد، وتباريح الشوق ، ولواعج الهوى ، ومن الصدّ والإعراض والهجران و . . . .

(٢) علقه وعلق به (من باب فرح) : هويه وتعلّق به وأحبّه . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال . وصنو : شبه ومثل (بكسر فسكون فيهما) من قولهم : هو شقيقه وصنوه ، وشجر صنوان (بكسرفسكون) أى من أصل واحد، وكل واحد صنو. والمشرق : المضئ المتلألئ .

يقول : إنه لم يبق فؤاد إلا شغف بها، وأحبّها لما امتازت به من جمال ساحر ، وحسن باهر ، لا يشبهه إلا حسن القمر ، وإشراقه وبهاؤه .

(٣) لا أتقى : لا أتوقّى ، ولا أحترس ، ولا أخاف .

والمعنى: أن الحب تيّمه وعبّده وأذلّه، وقد كان حرًّا عزيزاً ، يفعل مايريد بلا توقّ، ولا احتراس.

(٤) أبليت الثوب ونحوه : أخلقته، وأذهبت جدّته ، والمراد أن الحبيب أضنى قلبه . والمقلة : شحمة العين التى تجمع سوادها وبياضها ، أو هى العين . وتأرق : تسهر(وبابه تعب) .

يسترحم حبيبه ، ويشكو إليه ما يعانيه من حرقة الجوى ، ولواعج الوجد ، وطول السهاد .

(٥) أقاسى : أكابد وأعانى . والجوى : الهوى الباطن ، والحرقة ، وشدّة الوجد، قال أبوصخر الهذلىّ :

فيا حبّها ، زدنى جوًى كلّ ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

وويح : كلمة رحمة ، أوهى بمعنى ويل ، وويل كلمة عذاب . وماذا لقى : المراد أىّ شىء لقيه من الجوى ، وشدّة الوجد ، وتباريح الهوى ، ولواعج الغرام . والاستفهام هنا للتوجّع ، أو التهويل .

(٦) خلا الإنسان بنفسه : انفرد . وتذكّره فى خلوة : تذكّره فى حال الوحدة والانفراد. وهوت : سقطت وانحدرت . والزفرة : تنفّس طويل ممدود من شدّة الغمّ والحزن والهمّ . وترتقى : تعلو وتصعد . وجملة « ترتقى » نعت لزفرة .

تَاللهِ مَا أَنْصَفَ مَنْ لَامَنِي فِيكَ ،وَهَلْ لَوْمٌ عَلَى مُشْفِقِ؟(٧)

وَكَيْفَ لَا أَعْشَقُ مَنْ حُسْنُهُ يَدْعُو إِلى الصَّبْوَةِ قَلْبَ التَّقِى ؟(٨)

لَكَ الْجَمَالُ التِّمُّ دُونَ الْوَرَى وَلَيْسَ لِلْبَدْرِ سِوَى رَوْنَقِ (٩)

فَاعْطِفْ عَلَى قَلْبٍ بِهِ لَوْعَةٌ يَنْزُو لَهَا فِى الصَّدْرِ كَالزِّئْبَقِ (١٠)

يَكَادُ يَرْفَضُّ هَوًى كُلَّمَا لَاحَ لَهُ الْبَرْقُ مِنَ الْأَبْرَقِ (١١)

(٧) ماأنصف من لامنى : ماعدل، وما كان محقاً فى لومه . ومشفق : اسم فاعل من الإشفاق ، وهو حنان وعطف ، ورحمة ورقّة ،وخوف من حلول المكروه بمن تشفق عليه مع نصح . والاستفهام فى الشطر الثانى يراد به النفى أو الإنكار .

والمعنى : أنه لاينبغى أن يلام مثلى من المحبين المشفقين على من يحبّون، كأنه يشير إلى أن الحبّ والإشفاق والرحمة والحنان من الفضائل التى ينبغى أن تقابل بالتشجيع ، وحسن الثناء والإطراء .

(٨) الصبوة : الميل إلى الجهل والفتوّة ، واشتغال قلب العاشق بالمعشوق ، ومنه صبا المحبّ إلى الحبيب ، أى مال وحنّ إليه. والتقّ : صفة من التقوى ،وهى الاحتراز بطاعة الله من عقوبته ، أو صيانة النفس مما تستحقّ به العقوبة .

(٩) التمّ (بتثليث التاء) : التّامّ الوافر . والورى : الخلق (بفتح فسكون) . والبدر : القمر إذا امتلأ فى منتصف الشهر القمرىّ . والرونق : الطلاوة والحسن والإشراق .

يصفه بالجمال التامّ الوافر ، والحسن الساحر الباهر ، الذى انفرد به دون الخلق أجمعين ، وفاق البدر ، لأنّ جمال المتغزّل به جمال حقيقىّ تامّ ، أمّا جمال البدر فمقصور على البهجة الظاهرة .

(١٠) اللوعة : وجع القلب من الحبّ وغيره، أو حرقة الوجد والهوى . وينزو : يثب ويضطرب (وبابه عدا) . ولها : بسببها ، أى اللوعة . والزئبق (كدرهم ، ومنهم من يقوله بكسر الباء) : مادّة معدنيّة معروفة ، من خواصّها سهولة الحركة والاهتزاز .

يستعطف الحبيب على قلبه الموجع الملتاع ، الخافق المضطرب فى صدره اضطراب الزئبق .

(١١) يرفضّ : يسيل ويتفرّق . والهوى : الحبّ . ولاح : بدا وظهر وتلألأ . والأبرق (فى الأصل): أرض غليظة ، فيها حجارة ورمل وطين مختلطة ، وعلم على مواضع كثيرة فى شبه جزيرة العرب ، تغنّى ببعضها الشعراء الغزلون ، وأكثروا من الحنين إليها ، وذكروها فى معرض التشبيب ، كقول الهذلىّ :

لمن الديار بأبرق الوضّاح أقوين من نجل العيون ملاح =

حِمًى بِهِ مَا شِئْتَ مِنْ صَبْوَةٍ ... لَوْ كَانَ فِيهِ مَنْ يَفِي أَوْ يَفِي (١٢)

خَالَطَتْ بِهِ الْفُرْسَانُ حُورَ الْمَهَا ... يَا مَنْ رَأَى الرَّبْرَبَ فِي الْفَيْلَقِ (١٣)

مِنْ كُلِّ هَيْفَاءَ كَخُوطِ الْقَنَا ... بِلَحْظَةٍ كَاللَّهْذَمِ الأَزْرَقِ (١٤)

= وقول غيره ::

خليليَّ مرَّا بى على الأبرق الفرد ... عهوداً لليلى ، حبّذا ذلك من عهد

والشاعر يريد بالأبرق هنا :: منزل الحبيب .

يصف ما يعروه كلما لاح له البرق من ناحية منزل الحبيب ، فيقول : إن قلبه يكاد يتفرق من الهوى ..

(١٢) الحمى :: المكان المحميّ الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه ، والمراد به منزل الحبيب ، كالأبرق فى البيت السابق .. والصبوة :: جهلة الفتوة واللهو من الغزل . ووفى بالعهد والوعد : أتمّه ، وحافظ عليه ، وأنجزه . ووقاه يقيه :: صانه وحفظه ..

يقول : إن هذا الحمى كان جديراً أن يجد فيه العاشق ما يريده من الصبوة ومتع الحب ، وأسباب الهوى والغزل ، لو وفت حسانه بالوعد ، أو وجد العاشق من يقيه بأس أهلهن .

(١٣) خالطت :: كالأت ورعت ، وصانت وحفظت . والفرسان : جمع فارس ، وهو راكب الفرس . وحور : جمع أحور وحوراء ، صفة من الحور (بفتحتين) وهو أن يشتد بياض العين وسوادها ، وتستدير حدقتها ، وترق جفونها ، ويبيض ما حواليها ، أو هو شدة سواد المقلة ، فى شدة بياضها ، فى شدة بياض الجسد (وفعله كفرح) . والمها : جمع مهاة (كحصاة وحصى) ، وهى البقرة الوحشية تشبّه بها الحسناء من النساء فى حور العيون . والربرب (كجعفر) :: القطيع من بقر الوحش أو الظباء . والفيلق : الجيش ، أو الكتيبة العظيمة منه ..

يشير إلى تمنّع هؤلاء الحسان ببأس أهلهن ، وصعوبة الوصول إليهن ، ويشبههن بقطيع من المها والظباء فى وسط جيش يصونه ويحميه ..

(١٤) هيفاء : صفة من الهيف (بفتحتين) وهو رقّة الخصر ، وضمور البطن . والخوط : الغصن الناعم ، والعرب تشبّه به قدّ الحسناء فى اللين والمرونة ، والنعومة ، والتصرف ، والاعتدال . والقنا : جمع قناة ، وهى الرمح ، وكل عصا مستوية . واللحظة :: النظرة الفاتنة الساحرة ، ومن كلامهم : « فتنته لحظاتها » . واللهذم (كجعفر) :: القاطع من الأسنّة ، يقال سنان لهذم ، وسيف لهذم . والزرقة من الصفات المستحسنة فى الأسنّة والنصال ، الدالّة على جودتها ، يقال : نصل أزرق ، إذا كان بيّن الزرقة ، شديد الصفاء .

وصفها بالهيف ، وشبّه قدّها بالغصن الناعم الذى تتخذ منه القنا والرماح ، وشبّه نظرتها الفاتنة باللهذم الأزرق ..

تَخْطِرُ فِي الْفَيْنَانِ مِنْ فَرْعِهَا ... فَهْيَ عَلَى التَّمْثِيلِ كَالْبَيْرَقِ (١٥)
أَرْنُو إِلَيْهَا وَهْيَ فِي شَأْنِهَا ... كَنَظْرَةِ الْعَانِي إِلَى الْمُطْلَقِ (١٦)
فَمَا تَرَانِي صَانِعاً وَهْيَ لَا ... تَسْمَعُ ما أَسْرُدُ مِنْ مَنْطِقِي؟ (١٧)
يَا رَبَّةَ الْقُرْطَقِ ! هَلْ نَظْرَةٌ ... أَحْيَا بِهَا؟ يَا رَبَّةَ الْقُرْطَقِ! (١٨)
إِنْ كَانَ يُرْضِيكِ ذَهَابُ الَّذِي ... أَبْقَيْتِ مِنِّي ،فَخُذِي مَابَقِي (١٩)

(١٥) تخطر في مشيتها : تتمايل وتتبختر . وشعر فينان: له خصل (بضم ففتح) وأفنان كأفنان الشجر .وفرع المرأة: شعرها التام .والتمثيل: التشبيه. والبيرق (كجعفر) : كلمة فارسية، معناها العلم (بفتحتين) والراية . شبهها بالبيرق لاعتدال قوامها ، وحسن خطراتها ، ولطف اهتزازها، وجمال حركاتها ، وطول شعرها الذي يشبه ماطال وتهدل من حزير البيرق وأهدابه .

(١٦) أرنو إليها : أديم النظر إليها مع سكون الطرف (وفعله كدنا).وهي في شأنها : جملة حالية . والشأن : الأمر والحال ، والمراد : وهي معرضة عنه ، غير ملتفتة إليه . والعاني : الأسير المحبوس ، اسم فاعل من عنا (كدنا) أي ذل واستكان وخضع . والمطلق: ضد العاني ، اسم مفعول من أطلقه إطلاقاً .

يقول : إنه ينظر إليها نظرة حب وغرام وإعجاب وهي لاهية عنه،غير معنية به ، ثم شبه نظرته إليها بنظرة العاني إلى المطلق ، لأن الحب تيمه وعبده دونها.ويجوز أن تقرأ المطلق(بكسر اللام) كأنه يشير إلى أن في يدها إطلاقه من أسر الحب إذا وصلته ، وعطفت عليه .

(١٧) تراني (بفتح التاء) . أوهي (بضم التاء) بمعنى تظنني . وأسرد المنطق: أقص الحديث،وأتابع الكلام ، يقال : سرد فلان الحديث والقراءة ، إذا جاء بهما على ولاء (بكسر الواو) ، وفلان يسرد الحديث سرداً ، إذا كان جيد السياق له .

يستفهم في حيرة وأسف عما يصنعه لاستمالتها وتوجيه نظرها إليه وهي لا تستمع لما يقول ، ولا تلقي شكواه وأحاديث حبه وغرامه إلا بالصد والإعراض والهجران.أو المعنى :أن بينه وبينها حجاباً من بأس أهلها ، فكلامه لا يصل إلى مسمعيها .

(١٨) القرطق (بضم فسكون ففتح ،أو بضم فسكون فضم،أوبفتح فسكون ففتح): ملبوس يشبه القباء (بفتح القاف) ، وهو من ملابس العجم ، فارسي معرب . والاستفهام في البيت معناه التمني . يتمنى أن تنظر إليه نظرة تنعشه وتحييه .

(١٩) يشير إلى أن الحب قد أضناه وأذابه ،ولم يبق منه إلا حشاشة، وأنه يرضى أن يجود ببقية نفسه إذا كان ذلك يرضي محبوبته .

لَمْ تُبْقِ مِنِّي صَدَمَاتُ الْهَوَى ... غَيْرَ صَدًى بَيْنَ حَشاً مُحْرَقِ (٢٠)
قَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْحُبِّ ذَا تُدْرَإٍ ... أَقْتَحِمُ الْهَوْلَ وَلَمْ أَفْرَقِ (٢١)
فَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ عَدِيمَ الْقُوَى ... يَسْبِقُنِي الذَّرُّ وَلَمْ أَلْحَقِ (٢٢)
وَالْحُبُّ مَلْكٌ نَافِذٌ حُكْمُهُ ... مِنْ مَغْرِبِ الْأَرْضِ إِلَى الْمَشْرِقِ (٢٣)
فَلْيَقُلِ الْعَاذِلُ مَا شَاءَهُ ... فَالْعِشْقُ دَأْبُ الشَّاعِرِ الْمُفْلِقِ (٢٤)
لَوْ لَمْ أَكُنْ ذَا شِيمَةٍ حُرَّةٍ ... لَمْ أَقْرِضِ الشِّعْرَ ،وَلَمْ أَعْشَقِ (٢٥)

(٢٠) صدمات : جمع صدمة (بفتح فسكون) ، اسم مرّة من صدمه صدماً (من باب ضرب) أى ضربه بجسده ، أو دفعه ، أو الصدم : ضرب الشىء الصلب بشىء مثله . والهوى : الحبّ ، والمراد بصدمات الهوى : مايعانيه العاشق من لواعج الحبّ ، وحرق الوجد ، وتباريح الغرام. والصدى : العطش الشديد ، ومن المجاز : أنا صديان إلى حديثك ، ولى أحشاء صواد إليك ، فالمراد بالصدى هنا : مايضمره العاشق من الحنين والوجد والشوق المبرّح . والصدى أيضاً : الصوت ، أو الصوت الذى يسمعه المصوّت عقب صياحه راجعاً إليه من الجبل ونحوه ، وعلى هذا يكون المعنى أن صدمات الهوى لم تبق منه غير صوت ضعيف يتردّد بين أحشائه المحرقة . والحشا : ما اجتمعت عليه الضلوع ، وما حواه الجوف ، كالقلب والكبد وغيرهما . ومحرق : اسم مفعول من الإحراق ، والمراد أن حرق الوجد قد اشتدّت عليه ، وبرّحت به .

(٢١) ذو تدرإ : ذو عدّة وقوّة على دفع أعدائه ، لايتوقّى ، ولايهاب . واقتحم الإنسان الأمر العظيم ، أقدم عليه وهجم ، أو رمى بنفسه فيه من غير رويّة. والهول : الخوف والفزع ، مصدر هالنى الأمر (من باب قال) ، والمراد مواطن الهول ، ومن كلامهم : ركب فلان هول الليل ، وهول البحر .والفرق (بفتحتين) : الخوف (وبابه فرح) .

(٢٢) فاليوم : فى هذا الوقت ، أى بعد أن برّح به الهوى ، وأضناه الحبّ . وأصبحت : صرت . وعديم : فاقد ، (فعيل بمعنى فاعل) . والقوى : جمع قوّة . والذرّ : صغار النمل ، الواحدة ذرّة (بفتح الذال وتشديد الراء) .

(٢٣) يشير إلى سيطرة الحبّ ، واتّساع سلطانه ، وخضوع الناس لأحكامه فى كلّ مكان . وكأنّ الشاعر يقيم بهذا البيت حجّة المحبّين ، ويمهّد عذرهم .

(٢٤) العاذل : اللائم ، اسم فاعل من عذله (من بابى ضرب وقتل) . وشاءه : أراده . والدأب : العادة الملازمة . والمفلق : المجيد المبدع ، اسم فاعل من أفلق الشاعر ، أى أتى بالفلق (بكسر فسكون) وهو الأمر العجَب (بفتحتين) .

(٢٥) الشيمة : الطبيعة والخلق (بضمتين) . وحرة : كريمة . والقرض (بفتح فسكون) : قول الشعر ، (وبابه ضرب) والشعر قريض (فعيل بمعنى مفعول) .

وقال :

أَىُّ قَلْبٍ عَلَى صُدُودِكَ يَبْقَى؟ أَوَ لَمْ يَكْفِ أَنَّنِى ذُبْتُ عِشْقًا ؟(١)
لَمْ تَدَعْ مِنِّىَ الصَّبَابَةُ إِلَّا شَبَحاً شَفَّهُ السَّقَامُ فَدَقَّا(٢)
وَدُمُوعاً أَسَالَهَا الْوَجْدُ حَتَّى غَلَبَتْ أَدْمُعَ الْغَمَامَةِ سَبْقَا(٣)
فَتَصَدَّقْ بِنَظْرَةٍ مِنْكَ تَشْفِى داءَ قَلْبٍ مِنَ الْغَرَامِ مُلَقَّى(٤)
كَانَ أَبْقَى مِنْهُ الْغَرَامُ قَلِيلًا فَأَذَابَ الصُّدُودُ مَا قَدْ تَبَقَّى(٥)

= يشير إلى أنّ العشق وقول الشعر من الأمور التى تنمّ على كرم الخلال، ورقّة الطبع، وحسن الشيم.

(١) الصدود : الإعراض والصدوف والهجران . والعشق : إفراط الحب (وفعله من باب علم) ، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن أوّل مراتب الحبّ الهوى ، ثم العلاقة ، ثم الكلف (بفتحتين) ، ثم العشق ، ثم الشغف (بفتحتين) ، ثم التيم (بفتح فسكون) ، ثم التبل (بفتح فسكون)، ثم الوله (بفتحتين) ، ثم الهيام (بضم الهاء) .

والمعنى : أن قلبه لا يقوى على البقاء والحياة مع صدود الحبيب وإعراضه وهجرانه، وأن العشق قد برّح به ، وأذابه وأضعفه وأضناه .

(٢) لم تدع : لم تترك . والصبابة : رقّة الهوى ، وحرارة الشوق . والشبح : الشخص . وشفّه : أنحله وهزله ، وأوهنه وأضعفه . والسقام : المرض . ودقّ : هزل وضعف ، من الدقّة ، وهى الغموض والصغر ، وفاعل دقّ ضمير الشبح .

(٣) الوجد : الحبّ . والغمامة : السحابة ، وأدمعها : المطر ، على التجوّز .

يشكو ما فعلت به الصبابة والوجد من الضنى والهزال والهمّ والبكاء .

(٤) مُلَقَّى : لايزال يلقاه مكروه ، أو ممتحن مبتلى ، وهى صفة لقلب .

يسأله أن يتفضّل عليه بنظرة عطف وإقبال تشفى ما يعانيه من الجوى وحرق الوجد وتباريح الغرام .

(٥) منه : من قلبه المُلَقَّى .

يقول : إن صدود الحبيب وإعراضه أفنى ما أبقاه الحبّ والغرام من قوّة قليلة، وحياة ضئيلة كانت فى قلبه الملقّى المعنّى ؛ فهو قتيل الحبّ ، صريع الغرام .

لاَ تَسَلْنِي عَنْ بَعْضِ مَا أَنَا فِيهِ ... مِنْ غَرَامٍ ، فَلَسْتُ أَمْلِكُ نُطْقَا (٦)
سَلْ إِذَا شِئْتَ أَنْجُمَ اللَّيْلِ عَنِّي ... فَهْيَ أَدْرَى بِكُلِّ مَا بِتُّ أَلْقَى (٧)
نَفَسٌ لَا يَبِينُ ضَعْفاً ، وَجِسْمٌ ... سَارَ فِيهِ الضَّنَى ، فَأَصْبَحَ مُلْقَى (٨)
فَتَرَفَّقْ بِمُهْجَةٍ شَفَّهَا الْوَجْـ ... ـدُ ، فَذَابَتْ ، وَأَدْمُعٍ لَيْسَ تَرْقَا (٩)
إِنْ يَكُنْ دَأْبُكَ الصُّدُودَ فَقَلْبِي ... عَنْكَ رَاضٍ ، وَإِنْ غَدَا بِكَ يَشْقَى (١٠)
فَعَلَيْكَ السَّلامُ مِنِّي ؛ فَإِنِّي ... مِتُّ شَوْقاً ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١١)

---

(٦) يشير إلى تبريح الهوى به ، وإضناء الغرام له ، حتى صار من الضعف بحيث لا يقوى على النطق ، ولا يستطيع الإجابة إذا سئل .

(٧) أدرى : أعلم وأعرف .

يصف ما يعانيه بسبب الحبّ والغرام من السهاد والسهر ورِعْيَة النجوم ، ولهذا يقول لمن يخاطبه : إذا أردت أن تسأل عني فسل نجوم الليل ، فهي أدرى بما أجده وألاقيه وأقاسيه طوال الليالي من همّ ووجد وأرق وجوى والتياع و . . .

(٨) يبين : يظهر ويتّضح . وضعفاً : من الضعف ، أي بسببه . والضنى : المرض والهزال والضعف . وأصبح : صار . وملقى : مطروح مرميّ .

يقول : إنّ نفسه (بفتح النون والفاء) لا يظهر إذا تنفّس ؛ لضعفه ونفاد قوّته ، وإنّ جسمه قد سار فيه الضنى ، ونهكه المرض ، وأذابه العشق والصبابة : فأصبح ملقى مطروحاً ، كأنه هالك .

(٩) المهجة : الروح والنفس . وشفّها : أضعفها وأذابها . والوجد : الحبّ . وليس ترقا : ليست ترقأ (بالهمز) ، بمعنى تجفّ وتنقطع ، أي الدموع (وبابه نفع) .

(١٠) غدا : صار .

يقول : إن يكن صدودك وإعراضك من دأبك وعادتك ، فقلبي راضٍ عنك ، غير متبرّم بك ، على رغم ما يكابده ويقاسيه من تعس وشقاء ، بسبب ذلك الصدود والإعراض .

(١١) يودّعه بالتحيّة والسلام توديع المرتحل المفارق ، وقد جعل ارتحاله وفراقه موتاً سببه الشوق والصبابة ، ثم ذيّل الكلام بقوله : « والله خير وأبقى » وهو تذييل لا يظهر لنا وجه اتصاله بما سبقه من الكلام ، إلاّ أن يريد أنه بعد موته سيكون في الدار الآخرة متمتّعاً بعطف الله ورحمته ، وذلك خير له وأبقى من الدنيا ومن فيها .

وَقَالَ :

أَلَيْلَى ! مَا لِقَلْبِكِ لَيْسَ يَرْثِي ... لِمَا أَلْقَاهُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ ؟[1]

كَتَمْتُ هَوَاكِ حَتَّى نَمَّ دَمْعِي ... وَذَابَتْ مُهْجَتِي مِمَّا أُلَاقِي[2]

وَرَقَّتْ لِي قُلُوبُ النَّاسِ حَتَّى ... بَكَى لِي كُلُّ سَاقٍ فَوْقَ سَاقِ[3]

تَلُومِينِي عَلَى عَبَرَاتِ عَيْنِي ؟ ... وَلَوْلَا الْحُبُّ لَمْ تَجْرِ الْمَآقِي[4]

وَمِنْ عَجَبِ الْهَوَى يَا لَيْلُ أَنِّي ... فَنِيتُ صَبَابَةً وَهَوَاكِ بَاقِي[5]

---

(١) الهمزة فى أول البيت للنداء ، وهى لنداء القريب. وليلى : اسم محبوبته التى يتغزّل بها . وليس يرثى لما ألقاه : لايبالى ، ولايهتمّ بى ، ولا يتوجّع ، ولا يرقّ لى .

يقول : إنه قد آلمه فراقها ، وإنها لم تبال به ، ولم ترقّ له ، ولم ترحمه .

(٢) الهوى : الحبّ . ونمّ الإنسان الحديث : أظهره وأفشاه ، (وبابه نصر وضرب) . والمهجة : الروح والنفس ، والمهجة أيضاً : دم القلب ، وقد يراد بها القلب نفسه .

يقول : إنه ستر حبّه لها وأخفاه حتّى اشتدّ عليه الأمر ، وغلبه الوجد والبكاء ، وسرى فيه الضعف والهزال بسبب ما يلاقيه من ألم الفراق ، وحرق الصبابة ، وتباريح الهوى ، ولواعج الغرام ؛ فظهر ما كان مكتوماً من حبّه ، وانكشف ما حرص على إخفائه .

(٣) رقّت له القلوب : رثت له ، وأشفقت عليه ورحمته . والساق : الحمام الذكر ، أوالذكر من القمارىّ ، واسمه ساق حرّ (بضم الحاء وتشديد الراء) ، واسمه أيضاً الورشان (بفتح الواو والراء) . والساق (فى آخر البيت) : جذع الشجرة ، فاللفظان متشابهان فى النطق لافى المعنى ، وهذا مايسمّى فى علم البديع بالجناس ، ويماثله قول الشمّاخ :

كادت تساقطنى والرحل إذ نطقت ... حمامة فدعت ساقاً على ساق

وقول الكميت :

تغـــريد ساق على ساق يجاوبها ... من الهواتف ذات الطوق والعطل

(٤) تلومينى : استفهام يراد به الإنكار ، والأصل أتلومينى ؟ فحذفت الهمزة ، وحذفت نون الرفع ، وهـــذا جائز ، ويصحّ أن يكون خبراً . والعبرات : جمع عبرة (بفتح فسكون) وهى الدمعة ، أو الدمعة قبل أن تفيض ، أو أن ينهمل الدمع ولايسمع البكاء . والمآقى : جمع المأق (بفتح فسكون فكسر) أو المؤق (بضم فسكون فكسر) وهو مجرى الدمع من العين ، أو طرفها مما يلى الأنف ، والمراد بالمآقى هنا : الدموع ، على التجوّز .

(٥) العجب (كسبب) : أن تنكر مايرد عليك لقلّة اعتياده . ومن عجب الهوى : مما يدعو إلى العجب من أمور الهوى . والهوى : الحبّ . ويا ليل : ياليلى ، فهو منادى مرخّم ، والترخيم حذف=

وَمَا إِنْ عِشْتُ بَعْدَ الْبَيْنِ إِلَّا لِمَا أَرْجُوهُ مِنْ وَشْكِ التَّلَاقِى[٦]
وَلَوْلَا أَنَّنِى فِى قَيْدِ سُقْمٍ لَطِرْتُ إِلَيْكِ مِنْ فَرْطِ اشْتِيَاقِى[٧]

وقال :

رَبِّ ، خُذْ لِى مِنَ الْعُيُونِ بِحَقِّى وَأَجِرْنِى مِنْ ظَالِمٍ لَيْسَ يُبْقِى[١]
قَدْ تَوَقَّيْتُ مَا اسْتَطَعْتُ مِنَ الْحُبْ بِ ، وَلَكِنْ ماذَا يَرُدُّ التَّوَقِّى؟[٢]
وَتَرَفَّقْتُ بِالْفُؤَادِ ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ لَوْعَةُ الصَّبَابَةِ رِفْقِى[٣]
لَا تَلُمْنِى عَلَى الْهَوَى ، فَغُمُوضُ الْ حَقِّ عُذْرٌ يَرُدُّ كُلَّ مُحِقِّ[٤]

= حرف أو أكثر من آخر الاسم للتخفيف ، وهو مختص بالمنادى العلم . والصبابة : رقة الهوى ، وحرارة الشوق.

(٦) « إن » زائدة . والبين : الفراق . ووشك التلاقى : قرب اللقاء وسرعته .

يقول : إنه لم يعش بعد فراقها إلا لما يأمله ويرجوه من عودة التلاقى ، وقرب الوصال .

(٧) السقم : المرض . والفرط : اسم من الإفراط ، وهو مجاوزة الحد فى الأمر.

يقول : إن الحب أسقمه وأضعفه وقيده ، ولولا هذا لطار إلى محبوبته من فرط اشتياقه إليها ، وغلبة وجده ، وشدة حنينه .

(١) أجرنى : أنقذنى ، يقال : أجاره الله من العذاب ، أى أنقذه وأعاذه وأغاثه . ويبقى : يرحم يقال : أبقيت عليه إبقاء ، إذا رحمته وأشفقت عليه .

يدعو الله تعالى أن يأخذ له بحقه من عيون الحسان الساحرة الفاتنة ، وأن يجيره ويغيثه من معشوق ظالم لا يرحمه ، ولا يشفق عليه .

(٢) توقيت : حذرت واحترست ، ومصدره التوقى ، والمفهوم من اللسان والأساس أن هذا الفعل يتعدى إلى المفعول بنفسه .

يقول : إنه قد بذل جهده فى توقى الحب ، واجتناب أسبابه ؛ فلم يفده التوقى ، ولم ينفعه الاحتراس.

(٣) لوعة الصبابة : حرقة الحب ، وتبريح الشوق .

(٤) محق : اسم فاعل من أحق الرجل ، أى قال حقا ، أو ادعاه .

والمعنى : أن الهوى والحب من الأمور الخفية ، والحقائق الغامضة التى لا يفهمها ، ولا يقدرها إلا من تذوقها ؛ ولهذا لا يسهل على العاشق إظهار حقيقة الحب لمن لم يتذوق الحب ؛ ولا الدفاع عنها لديه ، فلا ينبغى أن يلومه على الحب لائم ، أو يعذله عاذل .
=

سَلْ دُمُوعِي ، فَهُنَّ يُنْبِئْنَ عَمَّا فِي ضَمِيرِي ، وَيَعْتَرِفْنَ بِصِدْقِ (٥)
كَيْفَ لِي بِالنَّجَاةِ مِنْ شَرَكِ الْحُبْـ ـبِ سَلِيماً ، وَالْحُبُّ مَالِكُ رِقِّي ؟ (٦)
قَدْ تَلَقَّيْتُ لَوْعَتِي مِنْ عُيُونٍ عَلَّمَتْنِي دَرْسَ الْهَوَى بِالتَّلَقِّي (٧)
وَرَشَوْتُ الْهَوَى بِلُؤْلُؤِ دَمْعِي وَالرُّشَا وُصْلَةٌ لِنَيْلِ التَّرَقِّي (٨)
فَلَعَلِّي أَفُوزُ يَوْماً بِوَصْلٍ أَتَـوَلَّى بِهِ إِمَارَةَ عِشْقِ (٩)

= أو المعنى : لا تلمنى أيها العاذل على العشق والغرام ، فإنّ ما تزعمه من الحقّ فى لومى ووجوب انصرافى عن الحبّ لا يزال غامضاً فى نفسك غير واضح ، وهذا عذر جدير بردّك عن ملامى ، وصرفك عما تزعمه حقًّا .

(٥) ينبئن : يخبرن ، أى الدموع . وعمّا فى ضميرى : عمّا أضمره وأخفيه من أمور الهوى ، وشؤون الحبّ .

يقول : إنّ دموعه تنبئ بما يضمره ، وتظهر ما يستره ، وتدلّ على صدقه .

(٦) الشرك (بفتحتين) : حبـائل الصيد ، وما ينصب للطير ، وما يصاد به . والرقّ (بكسر الراء وتشديد القاف) : العبوديّة ، اسم من استرقّ السيد مملوكه ، أى استعبده . والاستفهام فى أول البيت معناه النفى .

يقول : إنه لا نجاة له من شرك الحبّ ، ولا سلامة من حبائل الهوى ، لأنّ الحبّ قد تعبّده واسترقّه ، وملك أمره .

(٧) يشير إلى ما فى عيون الحبيبة من جمال وسحر وفتنة كانت سبب عشق الشاعر لها وهيامه بها ، وسبب ما يكابده من لوعة وجوى وحرقة وصبابة . . .

(٨) رشاه (من باب عدا) : أعطاه الرشوة (بتثليث الراء وسكون الشين) وهى ما يعطى لإبطال حقّ ، أو إحقاق باطل ، وما تعطيه الحاكم وغيره ليحكم لك ، ولهذا حرّمها الله تعالى ؛ ولعن الراشى والمرتشى ، وجمعها الرشا (بكسر الراء وضمها) . ولؤلؤ دمعى : دمعى الشبيه باللؤلؤ — وهو الدرّ — فى الصفاء والنقاء . والوصلة : الصلة والذريعة والوسيلة . والترقّى : مصدر ترقّى الإنسان فى السلّم ونحوه ، وترقّى السطح والجبل ونحوهما ، أى صعد وارتفع ، ومن المجاز : ترقّى فى العلم والملك ، أى رقى درجة درجة ، والمراد بالترقّى هنا : التقرّب إلى الحبيب ، والظفر بوصاله ، وإن لم يخل الكلام من إشارة لاذعة إلى حال الحكم فى أيّامه .

والمعنى : أنه حاول أن يستعطف الحبيب ويستميله بما يذرفه من لآلئ دمعه ، وقد جعلها كالرشا ، وقال إنها ذريعة إلى وصال الحبيب ، ووسيلة إلى الظفر بقربه .

(٩) فاز بالشىء : ظفر به وناله . والوصل : ضدّ الهجر . وتولّى الأمر : تقلّده ، وقام به . والإمارة : الولاية والحكم والسلطان . =

وَقَالَ وَهُوَ بِسَرَنْدِيبَ(*) يَتَشَوَّقُ إِلَى وَطَنِهِ :

هَلْ مِنْ طَبِيبٍ لِدَاءِ الْحُبِّ ، أَوْرَاقِ ؟ يَشْفِي عَلِيلاً أَخَا حُزْنٍ وَإِيرَاقِ(١)

قَدْ كَانَ أَبْقَى الْهَوَى مِنْ مُهْجَتِي رَمَقاً حَتَّى جَرَى الْبَيْنُ ، فَاسْتَوْلَى عَلَى الْبَاقِي(٢)

حُزْنٌ بَرَانِي ، وَأَشْوَاقٌ رَعَتْ كَبِدِي يَا وَيْحَ نَفْسِيَ مِنْ حُزْنٍ وَأَشْوَاقِ(٣)

= يرجو أن يفوز يوماً بوصال حبيبه ، فيخرج بهذا الوصال من ضيق الهجر ، وأسر الصبابة ، وسيطرة الهوى ، ويتولّى مقاليد إمارة العشق ، ويتصرّف فى أمورها ، ويستمتع بالمعشوق ، ويلتذّ بقربه ، فيصبح أميراً . بعد أن كان أسيراً .

أو المعنى : أنه بهذا الوصال يصير أمير العشّاق ؛ لأن جمال محبوبه أمير الجمال .

(*) سرنديب (سيلان) : جزيرة من أراضى الهند فى جنوبيّها ، وكان الشاعر قد نفى إليها عقب الثورة العرابية فى صفر سنة ١٣٠٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) .

(١) الاستفهام فى أول البيت للتمنّى ، أو هو للتوجّع والتحزّن . و « من » زائدة . وراق : اسم فاعل من رقاه يرقيه (من باب رمى) أى عوّذه ، أو قرأ عليه بعض الأدعية . والعليل : المريض . والإيراق : السهاد والسهر ، مصدر آرقه بمعنى أسهره ، كأرّقه تأريقاً . أو الإيراق : الإخفاق ، مصدر أورق الحابل ، إذا لم يقع فى حبالته صيد ؛ وأورق الصائد ، إذا لم يصد ، وأورق الغازى ، إذا لم يغنم وأورق الطالب ، إذا لم ينل .

يشكو ما أصابه من العلّة والمرض ، والحزن والهمّ ، والأرق والسهاد ، بسبب ما يستشعره من الوجد والحبّ والصبابة وشدّة الحنين إلى وطنه وأهله ، ويتمنّى أن يجد طبيباً يشفيه ، أو راقياً يرقيه من ذلك الحبّ اللاذع المبرّح ، والهوى المضنى المؤرّق .

(٢) الهوى : الحبّ . والمهجة : الروح والنفس . والرمق : بقيّة الحياة ، أو بقيّة الروح فى المذبوح والمحتضر ونحوهما . وجرى : وقع وحدث وثبت . والبين : الفراق . واستولى عليه : سلبه وأخذه وتمكّن منه . ويريد بالباقى : ذلك الرمق الذى أبقاه الهوى من مهجته .

يقول : إن الهوى كان قد برّح به ، ولم يبق من مهجته غير بقيّة ضئيلة قليلة ، فلمّا فارق أهله ووطنه ذهب الفراق بما بقى من مهجته ، واشتدّ عليه الأمر ، حتى أشرف على الهلاك .

(٣) برانى : هزلنى وأضعفنى . ورعت : أضعفت وأضمرت ، من قولهم : رعت الماشية الكلأ ، أى سرحت فيه وأكلته . وويح : كلمة رحمة ، تقولها لمن وقع فى بليّة ، متوجّعاً له ، مترحّماً عليه ، داعياً له بالتخلّص ممّا وقع فيه . أو هى كلمة عذاب ، بمعنى « ويل » .

يصف ما يساوره فى غربته وخلوته ومنفاه من حزن مضن ، وهمّ شديد ، وشوق مبرّح ، ويترحّم على نفسه ويتوجّع ، ويرجو الخلاص ممّا يكابده ويعانيه .

أُكَلِّفُ النَّفْسَ صَبْرًا وَهْيَ جَازِعَةٌ ... وَالصَّبْرُ فِى الْحُبِّ أَعْيَا كُلَّ مُشْتَاقِ(٤)
لَا فِى «سَرَنْدِيبَ» لِى خِلٌّ أَلُوذُ بِهِ ... وَلَا أَنِيسٌ سِوَى هَمِّى وَإِطْرَاقِى(٥)
أَبِيتُ أَرْعَى نُجُومَ اللَّيْلِ مُرْتَفِقاً ... فِى قُنَّةٍ عَزَّ مَرْقَاهَا عَلَى الرَّاقِى(٦)
تَقَلَّدَتْ مِنْ جُمَانِ الشُّهْبِ مِنْطَقَةً ... مَعْقُودَةً بِوِشَاحٍ غَيْرِ مِقْلَاقِ(٧)

(٤) جازعة: اسم فاعل من الجزع، وهو أن يضعف الإنسان، ولا يقوى على احتمال ما نزل به من المكروه، فالجزع نقيض الصبر، وقيل هو أشد الحزن، (وفعله من باب فرح). وأعياه: أتعبه، أو أعجزه
يقول: إنه يأمر نفسه بما يشق عليها، ويحملها على ما يرهقها من الصبر، وهى فى جزع وحزن شديد، وهم دائم، ولا غرو، فهو محب مشتاق، ولا سبيل إلى صبر أمثاله من ذوى الحب والصبابة والشوق.

(٥) الخل: الصديق المختص. وألوذ به: أعوذ به، وألجأ إليه. والأنيس: المؤانس والأليف والرفيق الذى تذهب به الوحشة، ويطمئن إليه القلب. والهم: الحزن والوحشة والضجر. والإطراق: مصدر أطرق المرء، إذا أرخى عينيه، ونظر إلى الأرض، وسكت ولم يتكلم.

يشكو ما يعانيه فى غربته ومنفاه من الانفراد والخلوة والوحشة والهم والضجر، وكثرة الإطراق والتفكير، وفقدان الخليل والأنيس والأليف.

(٦) أرعى نجوم الليل: أراقبها وأنتظر مغيبها، وهذا كناية عن الأرق والهم، كما فى قول الخنساء:
أرعى النجوم ،وما كلفت رعيتها ... وتارة أتغشى فضل أطمارى

ومرتفقاً: متكئاً على مرفق (كمبرد ومسجد) وهو موصل الذراع فى العضد، والارتفاق من أمارات الهم والغم والحزن. والقنة: أعلى الجبل، أو هى الجبل المنفرد المستطيل فى السماء. وعز: شق وصعب واشتد. والمرقى: اسم مكان، أو مصدر ميمى، من رقيت الجبل ونحوه (كرضى): أى علوته، وصعدت فيه. والراقى: اسم فاعل منه.

يقول: إنه يبيت الليل ساهراً مرتفقاً، يرعى النجوم فى أعلى جبل صعب المرتقى.

(٧) تقلد الرجل السيف: احتمله، ووضع نجاده على منكبه، وتقلدت المرأة القلادة، جعلتها فى عنقها، ويظهر لنا أن الشاعر استعمل هنا «تقلد» بمعنى انتطق، أى شد وسطه بالنطاق. وجمان الشهب: الشهب الشبيهة بالجمان، وهو اللؤلؤ، أو هنوات تصنع من الفضة على هيئة اللؤلؤ. والشهب: النجوم السبعة المعروفة بالدرارى، والمراد بها هنا: النجوم مطلقاً. والمنطقة (بوزن المطرقة): ما يشد به الإنسان وسطه شبيهاً بالإزار أو الحزام. ومعقودة: مربوطة مشدودة. والوشاح: أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها. وغير مقلاق: ثابت محكم الوضع، غير قلق ولا مضطرب، ومن كلامهم: جارية قلق وشاحها، وهى مقلاق الوشاح، إذا كان لا يثبت على خاصرتها من رقتها وضمورها.

يصف تلك القنة بأن الشهب والنجوم قد اكتنفتها، وأحاطت بها إحاطة المنطقة بالخصر، وأن طائفة من النجوم اعترضتها من الوسط إلى القمة اعتراض الوشاح. وفى البيت إشارة إلى ضخامة القنة، وشدة ارتفاعها.

كَأَنَّ نَجْمَ الثُّرَيَّا وَهْوَ مُضْطَرِبٌ دُونَ الْهِلَالِ سِرَاجٌ لَاحَ فِى طَاقِ (٨)
يَا «رَوْضَةَ النِّيلِ» لَا مَسَّتْكِ بَائِقَةٌ وَلَا عَدَتْكِ سَمَاءٌ ذَاتُ أَغْدَاقِ (٩)
وَلَا بَرِحْتِ مِنَ الْأَوْرَاقِ فِى حُلَلٍ مِنْ سُنْدُسٍ عَبْقَرِىِّ الْوَشْىِ بَرَّاقِ (١٠)
يَا حَبَّذَا نَسَمٌ مِنْ جَوِّهَا عَبِقٌ يَسْرِى عَلَى جَدْوَلٍ بِالْمَاءِ دَفَّاقِ (١١)

---

(٨) الثريّا : علَم على سبعة كواكب ، أو أربعة وعشرين نجماً ، سمّيت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مرآها ، ويقال إن بين أنجمها الظاهرة نجوماً كثيرة خفيّة . وتبدو الثريّا فى السماء كأنها عنقود من العنب الأبيض . ومضطرب : اسم فاعل من اضطرب الشئ ، أى ماج وتحرّك وضرب بعضه بعضاً ، والمراد ، خفّاق متقطّع الضوء . ودون : أمام ، أو قرب . والهلال : غرّة القمر ، أو القمر إلى ليلتين ، أو إلى ثلاث ليال من أول الشهر القمرىّ ، ولليلتين من آخر الشهر القمرىّ كذلك . والسراج : المصباح الزاهر . ولاح : أومض ولمع وظهر . والطاق : تجويف فى الحائط يشبه الكوّة والمشكاة .

يشبّه نجم الثريّا أمام الهلال ، أو على مقربة منه ، أو فى حيّزه وكنفه بسراج يومض ويلمع فى طاق . فحيّز الهلال أو هالته ودارته حول الثريا كاستدارة الطاق حول السراج .

(٩) الروضة : البستان الناضر ، أو أرض ذات مياه وأشجار وأزهار طيّبة ، والمراد بروضة النيل ، روضة المقياس التى طالما حنّ الشاعر إليها ، وتغنّى بها ، وقد يراد بها الأراضى المصريّة المدينة لنهر النيل بخضرتها ونضرتها وبهائها . ولامسّتك : لا أصابتك . والبائقة : الداهية والبليّة والشرّ . ولا عدتك : لاتجاوزتك . والمراد بالسماء : السحب والأمطار ، على التجوّز ، والأغداق : جمع غدق (بفتحتين) ، وهو الماء الكثير ، أو المطر الكثير العامّ ، أو هى « إغداق » (بكسر الهمزة) مصدر أغدق المطر ، إذا كثر واتسع

يدعو لروضة المقياس أو لمصر بالسقيا — على عادة العرب — والسلامة من الآفات والبوائق .

(١٠) لا برحت : لازلت . والحلل : جمع حلّة (بضم الحاء وتشديد اللام) ، وهى إزار ورداء ، ولاتكون حلّة إلا من ثوبين ، أومن ثوب له بطانة ، أو هى الثوب الساتر لجميع البدن . والسندس : رقيق الديباج ورفيعه . وعبقرىّ : نسبة إلى عبقر (كجعفر) ، وهو — فيما تزعم العرب — واد ، أو قرية ، أوموضع فى البادية يسكنه الجنّ ، ثم نسبوا إليه كلّ شىء تعجّبوا من حذقه ، أو جودة صنعه ، أوقوّته ، فكلّما رأوا شيئاً فائقاً غريباً ممّا يصعب عمله ويدقّ ، أو شيئاً عظيماً فى نفسه نسبوه إلى عبقر . وقيل : عبقر قرية باليمن ، أو بالجزيرة كانت توشّى فيها الثياب والبسط ، وكانت ثيابها فى غاية الحسن والجودة ، ولهذا صارت مثلا ينسب إليه كلّ شىء ثمين نفيس رفيع ، فكلّما بالغوا فى نعت شىء نسبوه إلى هذه القرية . والوشى : النقش والنمنمة والزخرفة والتحسين ، أوهو خلط لون بآخر . وبرّاق : شديد اللمعان والتلألؤ .

يدعو أن تظلّ أشجارها مكتسية بالأوراق النضيرة والأزهار الباسمة .

(١١) النسم : نفس الريح (بفتح النون والفاء) إذا كان ضعيفاً ، أو أوّلها حين تقبل بلين قبل أن تشتدّ والجوّ : الهواء . وعبق : طيّب عطر ، قد لصق به الطيب وتعلّق . ويسرى : يسير ويدبّ ويمرّ . والجدول (بفتح الجيم وكسرها) : النهر الصغير . ودفّاق : ممتلئ كثير الدفق ، يفيض منه الماء .

=

بَلْ حَبَّذَا دَوْحَةٌ تَدْعُو الْهَدِيلَ بِهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ قَمَارِىٌّ بِأَطْوَاقِ [١٢]
مَرْعَى جِيَادِى ، وَمَأْوَى جِيرَتِى ،وَحِمَى قَوْمِى ، وَمَنْبِتُ آدَابِى وَأَعْرَاقِى [١٣]
أَصْبُو إِلَيْهَا عَلَى بُعْدٍ ، وَيُعْجِبُنِى أَنِّى أَعِيشُ بِهَا فِى ثَوْبِ إِمْلَاقِ [١٤]
وَكَيْفَ أَنْسَى دِيَارًا قَدْ تَرَكْتُ بِهَا أَهْلًا كِرَامًا لَهُمْ وُدِّى وَإِشْفَاقِى ؟ [١٥]

= يمدح نسيمها العطر البليل ، وهواءها العبق العليل . المطيّب بعبير الزهر والشجر ، ويشير إلى امتلاء جداولها ، وفيضان أنهارها ، وغزارة مياهها ، وكثرة خصبها وخيرها .

(١٢) بل : حرف إضراب ، يراد به الانتقال من معنى إلى آخر . والدوحة : الشجرة العظيمة المتّسعة . وتدعو الهديل : تصيح به ، وتناديه. والهديل : ذكر الحمام ، أو فرخها ، أو هو — فيما تزعم العرب — فرخ للحمام كان على عهد نوح عليه السلام ، فمات ضيعة ، أو عطشاً ، أو صاده جارح من جوارح الطير ، فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه. والقمارىّ (بفتح القاف) : جمع قمريّة (بضم القاف وسكون الميم وكسر الراء ، وتشديد الياء) ، اسم لنوع جميل من الحمام ، حسن التغريد والتطريب ، وقد يقال للأنثى من هذا النوع قمريّة ، والذكر ساق حرّ . وأطواق ، جمع طوق (بفتح فسكون) وهو حلى للعنق يحيط به ، والمراد به هنا : مايحيط بعنق القمريّة من ريش متميّز بلون خاصّ .

يتغنّى بأدواح مصر وأشجارها ، وتطريب الحمائم فوقها وقت الصباح .

(١٣) مرعى : اسم مكان من رعت الماشية الكلأ ، أى سرحت فيه وأكلته . والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس الرائع الجيّد الكريم السبّاق . والمأوى : المنزل ، والمكان الذى تأوى إليه. والجيرة : الجيران ، جمع جار . والحمى : المكان المحمىّ الذى لايقرب ، ولايجترأ عليه . والمنبت (كمجلس ومقعد) . موضع النبات . والآداب : جمع أدب (كسبب وأسباب) ، وهو كلّ رياضة يتخرّج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل ، أو هو حسن الأخلاق ، وفعل المكارم . والأعراق : جمع عرق (بكسر فسكون) وهو اصل كلّ شىء ، ومن كلامهم : « تداركته أعراق صدق ، وأعراق سوء » .

دعا الشاعر فى أربعة الأبيات السابقة لروضة النيل ، وتغنّى بها ، ومدح بعض مظاهر الطبيعة فيها ، وكأنه فى هذا البيت يظهر سبب هيامه بها ، فيقول : إنها مرعى جياده ، ومأوى جيرانه ، وحمى قومه ، ومنها اكتسب فضائله وآدابه ، وفيها نبتت أصوله ، وعاش آباؤه .

(١٤) أصبو : أحنّ وأشتاق وأميل . و إليها : إلى روضة النيل . وعلى بعد : لبعدى عنها ، أومع بعدى . ويعجبنى : يسرّنى ويروقنى . والإملاق : مصدر أملق المرء ، أى افتقر واحتاج .

يقول : إنه يحنّ إلى روضة النيل مع بعده عنها ، أو على الرغم من هذا البعد ، أو هو يصبو إليها بسبب بعده عنها ، ويسرّه أن يعيش بها ، ولو كان مملقاً فقيراً .

(١٥) الودّ (مثلّثة الواو) : الحبّ . والإشفاق : عناية مختلطة بخوف ، لأن المشفق يحبّ المشفق عليه ، ويرقّ له ويرحمه ، ويخاف أن يلحقه سوء أو مكروه . والاستفهام فى أول البيت معناه النفى .

إِذَا تَذَكَّرْتُ أَيَّاماً بِهِمْ سَلَفَتْ تَحَدَّرَتْ بِغُرُوبِ الدَّمْعِ آمَاقِى(١٦)
فَيَا بَرِيدَ الصَّبَا بَلِّغْ ذَوِى رَحِمِى أَنِّى مُقِيمٌ عَلَى عَهْدِى وَمِيثَاقِى(١٧)
وَإِنْ مَرَرْتَ عَلَى «الْمِقْيَاسِ» فَاهْدِ لَهُ مِنِّى تَحِيَّةَ نَفْسٍ ذَاتِ أَعْلَاقِ(١٨)
وَأَنْتَ يَا طَائِرًا يَبْكِى عَلَى فَنَنٍ نَفْسِى فِدَاؤُكَ مِنْ سَاقٍ عَلَى سَاقِ(١٩)
أَذْكَرْتَنِى مَا مَضَى وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ «بِمِصْرَ» وَالْحَرْبُ لَمْ تَنْهَضْ عَلَى سَاقِ(٢٠)

(١٦) سلفت: ذهبت ومضت . وتحدّرت: انحدرت ونزلت. والغروب: الدموع حين تخرج وتنهلّ وتسيل من العين، أوهى الدلاء العظيمة ، مفردها غرب (بفتح فسكون) ، والمراد بغروب الدمع : الدمع الغزير الكثير. والآماق : جمع مؤق (بضم فسكون)أو مأق (بفتح فسكون) وهو طرف العين مما يلى الأنف، وهو مجرى الدمع من العين .

يقول : إذا تذكّرت أيام اجتماعى بأهلى فيما مضى من الزمان غلبنى البكاء، وفاضت بالدموع آماقى .

(١٧) الصبا (بفتح الصاد) : ريح تهبّ فى شبه جزيرة العرب من ناحية المشرق،وكانت أحبّ الرياح إليهم . وقيل سمّيت صبا ؛ لأنها تستقبل البيت ، فكأنها تصبو إليه : أى تحنّ إليه . وذوو الرحم : الأقارب . ومقيم : ثابت . والعهد والميثاق بمعنى واحد ، ويراد بهما : المودّة والوفاء والحفاظ ورعاية الحرمة ونحو ذلك .

اتّخذ الصبّا بريداً ورسولا ،وطلب إليها أن تبلغ أقاربه وأهله أنه وفىّ بالعهد والميثاق ، مقيم على مودّتهم والوفاء لهم .

(١٨) يريد بالمقياس: روضة المنيل التى أكثر من ذكرها،والتغنّى بها ، والحنين إليها، وتقع فى وسط النيل ، شرقىّ الجيزة وغربىّ مصر القديمة ،وفى جنوبيّها مقياس قديم كانت تقاس به مياه النيل .وأهد (بقطع الهمزة) : أمر من الإهداء، وحذف الهمزة هنا غير سائغ ،ولم يجئ هدى بمعنى أهدى إلا فى العروس. قالوا: هدى العروس إلى بعلها . بمعنى زفّها . وذات أعلاق : ذات هوى وحبّ ، يقال : نظرة من ذى علق (بفتحتين) أى من ذى علاقة ، وهى الهوى .

(١٩) الفنن : الغصن . والساق (الأولى) :الحمام الذكر ، أو الذكر من القمرىّ ، واسمه ساق حرّ (بضم الحاء وتشديد الراء) . والساق (فى آخر البيت): جذع الشجرة ، فبين الكلمتين جناس تامّ . و« من » فى الشطر الثانى من البيت بيانيّة .

(٢٠) شمل القوم : أمرهم وعددهم . ولم تنهض : لم تقم . والساق: مستعار من ساق الإنسان ، وهى مابين الكعب والركبة ، ونهوض الحرب على ساقها : كناية عن اشتدادها ، وفظاعة أمرها .

يقول : إن بكاء هذا الطائر ذكّره مامضى من أحواله بمصر قبل أن تستعر نار الحرب العرابيّة ، ويتبدّد شمله بالفرقة والنوى .

أَيَّامَ أَسْحَبُ أَذْيَالَ الصِّبَا مَرِحاً ... فِى فِتْيَةٍ لِطَرِيقِ الْخَيْرِ سُبَّاقِ (٢١)
فَيَا لَهَا ذُكْرَةً ! شَبَّ الْغَرَامُ بِهَا ... نَاراً سَرَتْ بَيْنَ أَرْدَانِى وَأَطْوَاقِى (٢٢)
عَصْرٌ تَوَلَّى ، وَأَبْقَى فِى الْفُؤَادِ هَوًى ... يَكَادُ يَشْمَلُ أَحْشَائِى بِإِحْرَاقِ (٢٣)
وَالْمَرْءُ طَوْعُ اللَّيَالِى فِى تَصَرُّفِهَا ... لَا يَمْلِكُ الْأَمْرَ مِنْ نُجْحٍ وَإِخْفَاقِ (٢٤)
عَلَىَّ شَيْمُ الْغَوَادِى كُلَّمَا بَرَقَتْ ... وَمَا عَلَىَّ إِذَا ضَنَّتْ بِرَقْرَاقِ (٢٥)

---

(٢١) سحب ذيله : جرّه على وجه الأرض.وأسحب أذيال الصبا : أمشى متبختراً مزهواً معجباً بنفسى فى أيام الصبا والشباب . ومرحاً صفة من المرح (بفتحتين) وهو الاختيال والنشاط والتبختر (وفعله كفرح) . و« فى » بمعنى مع . وفتية : جمع فتى . وسبّاق : جمع سابق.

يقول : إن هذا الطائر أذكره بهديله ما كان من مرحه واختياله ونشاطه بمصر فى عهد الفتاء وحداثة السنّ ، مع فتيان أخيار من أصحابه ولداته .

(٢٢) يالها ذكرة : تركيب يفيد التعجّب. والذكرة : ضدّ النسيان ، والمراد بها : ماتذكّره من ماضيه السعيد بسبب هديرالطائر وسجعه وحنينه . وشبّ : أوقدوأشعل .والغرام: الولوع والحبّ المعذّب للقلب . وبها : بسببها ، أى بسبب هذه الذكرة. وسرت: سارت . والأردان : جمع ردن (كقفل) وهو الكمّ (بضم الكاف وتشديد الميم) ، أو أصله ، أو مقدّمه ، أو أسفله . والأطواق : جمع طوق (بفتح فسكون) وهوحلىللعنق ، وكلّ مااستدار بشىء ، ولعلّ المراد بالطوق هنا : جيب القميص، ليناسب الردن . ولعلّه يريد بما بين أردانه وأطواقه : قلبه المعذب بنار الصبابة ، وحرق الشوق ، ولواعج الحبّ ، وتباريح الغرام .

(٢٣) العصر : الزمن والدهر . وتولّى : ذهب ومضى . والهوى : الحبّ . ويشمل : يصيب ويعمّ . والأحشاء : جمع حشاً ، وهو ما اشتملت عليه الضلوع ، وما حواه الجوف من القلب والكبد وغيرهما . يأسف على فوات ذلك العصر السعيد المشرق الزاهر ، ويصف ما تركه فى نفسه من حبّ شديد ، وشوق مبرّح.

(٢٤) طوع الليالى : منقاد طائع لها ، من قولهم : « أناطوع يدك » . وفى تصرّفها : فى تقلّبها واختلاف أحوالها . والأمر . الشأن والحال . « ومن » : بيانيّة . والإخفاق : مصدر أخفق الرجل إذا غزا ولم يغنم ، أو طلب حاجة ولم يدركها .

يسلّى نفسه بأن الإنسان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ، وإنّما هو منقاد للدهر يسيّره ويصرّفه.

(٢٥) شيم : مصدر شام الإنسان البرق (من باب باع) إذا نظر إلى سحابته أين تقصد ، وأين تمطر. والغوادى : جمع غادية ، وهى السحابة تنشأ غدوة (بضم فسكون) أى فى أول النهار . وبرقت : بدا فيها البرق ولمع . وشيم البرق والسحاب من العادات العربية القديمة . وضنّت : بخلت . ورقراق : ماء يجرى جرياً سهلاً .

يقول : عليه أن يشيم السحب ، وينظر إليها ، ويتعرّف أحوالها واتجاهاتها ، وأمارات=

فَلَا يَعِبْنِي حَسُودٌ أَنْ جَرَى قَدَرٌ ... فَلَيْسَ لِي غَيْرُ مَا يَقْضِيهِ خَلَّاقِي (٢٦)
أَسْلَمْتُ نَفْسِي لِمَوْلًى لَا يَخِيبُ لَهُ ... رَاجٍ عَلَى الدَّهْرِ ،وَالْمَوْلَى هُوَ الْوَاقِي (٢٧)
وهَوَّنَ الْخَطْبَ عِنْدِي أَنَّنِي رَجُلٌ ... لَاقٍ مِنَ الدَّهْرِ مَا كُلُّ امْرِئٍ لَاقِي (٢٨)
يَا قَلْبُ صَبْرًا جَمِيلًا ، إِنَّهُ قَدَرٌ ... يجْرِي عَلَى الْمَرْءِ مِنْ أَسْرٍ وَإِطْلَاقِ (٢٩)
لَا بُدَّ لِلضِّيقِ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْ فَرَجٍ ... وَكُلُّ دَاجِيَةٍ يَوْماً لِإِشْرَاقِ (٣٠)

= إمطارها ، ولا حرج عليه إذا أخلفت ظنّه ، ولم تمطر .

والمعنى : أنني أعددت للنجاح أسبابه ، وتذرّعت بكلّ وسائله ، فإذا لم تواتني الأيام ،وجرت بي إلى النفي والبعد عن وطني وأهلي ، فليس ذلك من تقصيري .

(٢٦) جرى : وقع وحدث .والقدَر : قضاء الله وحكمه .ويقضيه : يقدره ويحكم به ، أو يحتمه ويوجبه.

والمعنى : لا ينبغي أن يعيبني حسود ويعيّرني بما جرى عليّ من حكم الله تعالى وقضائه ؛لأن الإنسان لا يلقى إلا ما قدره له خالقه سبحانه وتعالى ، أو هو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه قضاء الخالق عزّ وجلّ .

(٢٧) المولى : الربّ . وراج : اسم فاعل من الرجاء . والواقي:اسم فاعل من وقاه ،أى صانه وحفظه . وعلى الدهر : أبد الدهر ، أو طوال الدهر .

يقول : إنه أسلم نفسه ،وفوّض أمره إلى الله الذى لا يخيب أبداً من يرجوه ويؤمّله . ثم ذيّل الكلام بقوله : « والمولى هو الواقى » ، فهو يرجو أن يحفظه الله ويقيه ،ويكلأه فى غربته ويرعاه.

(٢٨) هوّن : سهّل وخفّف . والخطب: الأمر المكروه،والنازلة الشديدة من نوازل الدهر .

والمعنى : وقد هوّن عليّ أمر النفي والتشريد أنني رجل لقي من خطوب الدهر وشدائد الزمان ما يلقاه كلّ إنسان .

(٢٩) الأسر: مصدر أسره (من باب ضرب) أى شدّه بالإسار، أو قبض عليه ، وقيّده وسجنه .والإطلاق مصدر أطلقت الأسير ، أى خلّيت سبيله . و« من » فى الشطر الثانى لبيان القدر فى الشطر الأول .

يدعو نفسه إلى التجمّل بالصبر ،والتجلّد للخطوب ، إذ الأسر والإطلاق ونحوهما من الأمور التى تجرى على الإنسان بقضاء الله وقدره ، ولا حيلة له فى كسبها أو دفعها .

(٣٠) داجية : مظلمة . والإشراق : مصدر أشرقت الشمس ، أى أضاءت .

يقول : إنه لا بدّ،ولا محالة،ولا مناص من أن يعقب الفرج الضيق ،ويتبع الرخاء الشدّة ، كما يعقب إشراق الصبح ظلمة الليل . أو هو يكنى بالداجية عن الكارثة والداهية المدلهمّة ، ويكنى بالإشراق عن انقشاعها وانكشافها ، فكلّ كارثة صائرة إلى الانقشاع والزوال يوماً ما .

وَقَالَ يَصِفُ رَوْضَةً كَثِيرَةَ الْأَشْجَارِ غَزِيرَةَ الْمِيَاهِ فِى «كَنْدِى*» مِنْ جَزِيرَةِ «سَرَنْدِيبَ» :

دَعَانِى إِلَى غَىِّ الصِّبَا بَعْدَ مَا مَضَى مَكَانٌ كَفِرْدَوْسِ الْجِنَانِ أَنِيقُ(١)
فَسِيحُ مَجَالِ الْعَيْنِ ، أَمَّا غَدِيرُهُ فَطَامٍ ، وَأَمَّا غُصْنُهُ فَرَشِيقُ(٢)
كَسَا أَرْضَهُ ثَوْباً مِنَ الظِّلِّ بَاسِقٌ مِنَ الْأَيْكِ فَيْنَانُ السَّرَاةِ وَرِيقُ(٣)

(*) كندى : من بلاد جزيرة سرنديب ، وفى وسطها تقريباً ، وهى إلى الساحل الجنوبى الغربى أقرب ، وتقع فى بقعة تعدّ من محاسن الدنيا ، وأجمل بقاع الأرض وأخصبها ، وفى منطقتها حديقة حكومية لأنواع النبات ، ويربطها بساحل الجزيرة الغربى سكة حديد ، ويؤمها كثير من الزائرين للاستمتاع بمناظرها الخلابة.

(١) غىّ الصبا : جهل الفتاء ، ولهو الشباب . والفردوس : البستان الواسع الحسن الذى يجمع كلّ ما يكون فى البساتين من ضروب النبت والشجر والكروم وغيرها . والجنان : جمع جنّة (بفتح الجيم وتشديد النون) وهى الحديقة ذات النخل والشجر . والمراد بفردوس الجنان : خير الجنّات ، وأجمل البساتين ، أو فردوس جنّات عدن التى أعدّها الله لنعيم المتّقين فى الدار الآخرة ، قال تعالى : « الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » . وأنيق : حسن معجب محبوب .

يشبّه ذلك المكان الأنيق المعجب الرائع بفردوس الجنان ، ويقول : إنه دعاه إلى غىّ الصبا ، ومرح الشباب ، بعد أن مضى ذلك العهد . والمعنى : أنه لمّا رأى ذلك المكان استخفّه الطرب والسرور ، واستشعر المرح والنشاط ، وعاد إلى لهو الصبا وجهل الشباب ، على الرغم من تقدّم سنّه ، ووقار شيخوخته .

(٢) فسيح : وسيع . ومجال العين : ما يمتدّ إليه النظر ، ويحيط به ، اسم مكان من جال يجول (من باب قال) : إذا طاف ودار . والغدير : القطعة من الماء يغادرها السيل ، وقد يطلق على النهر ونحوه . وطام : ممتلئ زاخر ، اسم فاعل من طما الماء (من بابى سما ومضى) إذا ارتفع وملأ النهر . ورشيق : معتدل جميل .

وصفه بالاتساع ، وغزارة المياه ، ورشاقة الأغصان .

(٣) باسق : طويل مرتفع عال . والأيك : الشجر الكثير الملتفّ ، الواحدة أيكة . وفينان : كثير الأفنان والأغصان . والسراة : أعلى كلّ شىء . ووريق : كثير الأوراق .

وصف أيكه وأشجاره بالبسوق والارتفاع وامتداد الظلّ واتساعه وكثرة الغصون والأوراق .

سَمَتْ صُعُدًا أَفْنَانُهُ ، فَكَأَنَّمَا   لَهَا عِنْدَ إِحْدَى النَّيِّرَاتِ عَشِيقُ(٤)
يَمُدُّ شُعَاعُ الشَّمْسِ فِى حَجَرَاتِهَا   سَلَاسِلَ مِنْ نُورٍ لَهُنَّ بَرِيقُ(٥)
وَيَشْدُو بِهَا الْقُمْرِىُّ حَتَّى كَأَنَّهُ   أَخُو صَبْوَةٍ ، أَوْ دَبَّ فِيهِ رَحِيقُ(٦)
تَمُرُّ طُيُورُ الْمَاءِ فِيها عَصَائِباً   كَرَكْبٍ عِجَالٍ ضَمَّهُنَّ طَرِيقُ(٧)
إِذَا أَبْصَرَتْ زُرْقَ الْمَوَارِدِ رَفْرَفَتْ   عَلَيْهَا : فَطَافٍ فَوْقَهَا ، وَغَرِيقُ(٨)

(٤) سمت : ارتفعت وعلت . وسمت صعداً (بضم الصاد والعين) : عظم ارتفاعها ، وزاد علوّها ، من قولهم : ذهب السهم صعداً ، وهذا النبات ينمو صعداً ، أى يزداد طولا وصعوداً وارتفاعاً . وأفنانه : أغصانه ، والنيّرات : النجوم والكواكب ، يقال : نار الشيء ينور (من باب قال) أى أضاء ، فهو نيّر (بفتح النون وتشديد الياء المكسورة) وهى نيّرة . وعشيق : معشوق محبوب (فعيل بمعنى مفعول) .

يصف أغصان الأيك فى ذلك المكان بالعلوّ والارتفاع ، والذهاب فى السماء ، وقد بالغ فى الوصف حتى جعلها تكاد تبلغ النجوم .

(٥) يمدّ : يبسط وينشر . وشعاع الشمس : ما انتشر من ضوئها، أو ما تراه ممتداً من نورها بُعَيْد طلوعها كأنه الحبال، أو القضبان ، أو الرماح أو نحوها، الواحدة شعاعة (بضم الشين) . وفى حجراتها : فى حجرات الأفنان ، أى نواحيها ، الواحدة حجرة (بفتح فسكون) . ولهنّ : للسلاسل . وبريق : تلألؤ ولمعان .

يصف ما ترسله أشعة الشمس بين الأغصان من ضوء مستطيل لامع كالسلاسل .

(٦) يشدو : يطرّب ويغرّد . وبها : بالأفنان . والقمرىّ : نوع من الحمام المطوّق ، حسن التغريد ، جميل التطريب . وأخو صبوة : عاشق مستهام ، والصبوة : جهلة الفتوّة ، واللهو من الغزل . ودبّ : سرى . والرحيق : الخمر ، أو أطيبها وأفضلها وأعتقها ، أو صفوتها والخالص منها .

يصف شدو القمرىّ على أغصان الأيك ، وحسن تغريده فى ذلك الروض الأريض ، ويشبّهه بالعاشق أو الثمل .

(٧) عصائب : جماعات ، الواحدة عصابة (بكسر العين) . والركب : جماعة الراكبين ، وأكثر مايطلق الركب على ركبان الإبل . وعجال : مسرعون .

يقول : إن الطيور المائية تمرّ بين أغصان هذا الروض جماعات مسرعة فى طيرانها ، كجماعة من الراكبين مسرعين فى سيرهم وقد ضمّهم طريق واحد .

(٨) زرق الموارد : الموارد الزرق ، والموارد : جمع مورد (كمجلس) وهو موضع ورود الماء ، اسم مكان من ورد الإنسان وغيره الماء ، أى حضره ليشرب . وزرق : جمع أزرق ، والعرب تريد بزرقة الماء صفاءه ونقاءه ، يقال : ماء أزرق ، أى صاف نقىّ . ورفرف الطائر : حرّك جناحيه فى الهواء ، أو بسطهما عندما يريد الوقوع على شىء يحوم عليه . وطافٍ : اسم فاعل من طفا الشىء على سطح الماء =

غَدَوْنَا لَهُ وَالْفَجْرُ يَنْصَاحُ ضَوْءُهُ فَيَنْمُو، وَأَقْطَارُ الظَّلَامِ تَضِيقُ(٩)
وَلِلطَّيرِ فِى مَهْدِ الْأَرَاكَةِ رَنَّةٌ وَلِلطَّلِّ فِى ثَغْرِ الْأَقَاحَةِ رِيقُ(١٠)
مَلَاعِبُ زَانَتْهَا الرِّفَاقُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَحْسُنَ لَهْوٌ لَمْ يَزِنْهُ رَفِيقُ(١١)
وَمَنْزِلُ أُنْسٍ قَدْ عَقَدْنَا بِجَوِّهِ رَتَائِمَ لَهْوٍ عَقْدُهُنَّ وَثِيقُ(١٢)

=(من باب سما) أى ظهر وعلا و لم يرسب. وغريق: صفة من الغرق، ويراد به هنا : الرسوب تحت سطح الماء من غير موت .

يقول : إذا أبصرت الطيور المائيّة موارد المياه الصافية رفرفت عليها، ووقعت فوقها ، وكانت بين عائمة وغاطسة .

(٩) غدونا له : قصدنا ذلك المكان، وسرنا إليه غدوة ، أى فى أول النهار(وبابه سما) .وينصاح: ينشقّ وينتشر ويفيض . وينمو : يزيد ويكثر ويتّسع . والأقطار : النواحى والجوانب ، المفرد قطر (كقفل) .

يقول : إنهم بكروا إلى ذلك المكان وقت انبثاق الفجر ، وانطواء صفحة الظلام .

(١٠) المهد : الفراش يبسط للصبىّ ويوطّأ، أو الموضع يهيّأ له ويمهّد .والأراكة : شجرة طويلة ناعمة ، كثيرة الورق والأغصان ، خوّارة العود، يستاك بقضبانها، ولها ثمر كعناقيد العنب ،يسمّى البرير ، يملأ العنقود الكفّ ، والجمع أراك (كسحابة وسحاب) وهو من شجر الحمض (بفتح فسكون) .ومهد الأراكة: الأراكة الشبيهة بالمهد ،وقد جعل الأراكة مهداً للطير ، لأنها تستمهدها، وتسكن فيها. والرنّة : الصوت . والطلّ : أخفّ المطر وأضعفه ، أو الندى . والثغر : مقدّم الأسنان ،وما يبدو منها عند الابتسام . والأقاحة : لم نعثر عليها فيما لدينا من المعجمات ، والشاعر يريد بها : الأقحوانة ، واحدة الأقحوان (بضم فسكون فضم) من نبات الربيع مفرّض الورق ، دقيق العيدان، له نور أبيض، كأنه ثغر جارية حدثة السنّ ،ولهذا تشبّه به الأسنان، وهو القرّاص (كرمّان) عند العرب، والبابونج عند الفرس ، وقد عرّفه صاحب الصحاح بأنه نبت طيّب الريح ، حواليه ورق أبيض، ووسطه أصفر ، ويجمع على أقاحىّ وأقاح (بفتح الهمزة فيهما) .ولعلّ الشاعر توهمّ أن كلمة أقاح اسم جنس جمعىّ يفرق بينه وبين واحده بالتاء، فسوّغ لنفسه أن يقول أقاحة . والريق : الرضاب ، وماء الفم .

يصف شقشقة الطير وتغريدها وتطريبها على الأراك فى الصباح ، وما يتساقط من الندى على أوراق الأقحوان ، ولمّا شبّه الأقحوان بالثغر حسن تشبيه الطلّ بالريق .

(١١) الملاعب : مواضع اللعب ، واحدها ملعب (كمقعد) . وزانه يزينه زيناً : جمّله وحسّنه، وهو ضدّ شانه يشينه شيناً (وبابهما باع) . واللهو : اللعب والاستمتاع باللذّات .

(١٢) الأنس (بضم فسكون) : اسم من أنست بالشيء (من باب طرب) أى سكن إليه القلب ، واطمأنّت النفس ،وضدّه الوحشة (بفتح فسكون) . وعقد الإنسان الحبل ونحوه (من باب ضرب) : =

جَمعْنَا بِهِ الْأَشْتَاتَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ ... وَمَا كُلُّ يَوْمٍ بِالسُّرُورِ حَقِيقُ(١٣)
وَغَنَّى لَنَا شَادٍ أَغَنُّ مُقَرْطَقٌ ... رَفِيقٌ بِجَسِّ الْمِلْهِيَاتِ لَبِيقُ(١٤)
إِذَا مَدَّ مِنْ صَوْتٍ وَرَجَّعَ أَقْبَلَتْ ... عَلَيْنَا وُجُوهُ الْعَيْشِ وَهْوَ رَقِيقُ(١٥)
فَيا حُسْنَهُ مِنْ مَنْزِلٍ لَمْ يَطُفْ بِهِ ... غَوِيٌّ ، وَلَمْ يَحْلُلْ حِمَاهُ لَصِيقُ(١٦)
جَعَلْنَاهُ تَارِيخاً لِأَيَّامِ صَبْوَةٍ ... إِذَا ذُكِرَتْ مَسَّ الْقُلُوبَ حَرِيقُ(١٧)

= شدّه وأحكمه ، والعقد ضدّ الحلّ . وجوّ المنزل ونحوه : حيّزه . والرتائم : جمع رتيمة (كسفينة) وهى خيط يعقد على الإصبع أو الخاتم لتستذكر به الحاجة . ووثيق : محكم قوى متين .

وهذا كناية عن أنهم حرصوا كلّ الحرص على الاستمتاع بأنواع اللهو واللذّة والسرور والمرح فى ذلك المكان المؤنس الطيّب الجميل .

(١٣) أشتات اللذّة : أنواعها وما تفرّق منها . وحقيق : خليق جدير .

(١٤) الشادى : المغنّى ، اسم فاعل من شدا يشدو شدواً (من باب عدا) أى غنّى وترنّم . وأغنّ : صفة من الغنّة (بضم الغين وتشديد النون) وهى صوت فى الخيشوم ، أوصوت فيه ترخيم من نحو الخيا شيم يعون من نفس الأنف ، أو أن يجرى الكلام فى اللهاة ، والنون أشدّ الحروف غنّة . ومقرطق : عليه قرطق (بضم فسكون ففتح ، وكقنفذ ، وجعفر) ، وهو ملبوس من ملابس العجم يشبه القباء ، يقال قرطقته فتقرطق ، أى ألبسته القرطق فلبسه . ورفيق : ماهر حاذق ، وضدّه الأخرق ، وهو الذى لايحسن صنعته ، ولايتقن عمله . وجس الشىء : مسّه باليد (وبابه ردّ) . والملهيات : آلات اللهو ، وأدوات الغناء والطرب ، أو هى الملهيات (بضم فسكون فكسر) جمع ملهية ، اسم فاعل من ألهاه . ولبيق : رفيق حاذق ماهر

يصف حسن غناء ذلك المغنّى ورفقه ولباقته وحذقه فى الإيقاع ، ومهارته فى استخدام الآلات الموسيقيّة .

(١٥) مدّ الصوت : مطّه وأطاله ، و « من » زائدة (على رأى من يجيز زيادتها فى الإثبات) ، أوهى بمعنى « بعض » . ورجّع المغنّى صوته : ردّده . والعيش : المعيشة والحياة . ورقيق : رغيد ليّن متّسع ناعم .

(١٦) من منزل : بيان للضمير فى « حسنه » . ولم يطف به : لم يدر حوله ، ولم يقترب منه . وغوىّ : صفة من الغواية أو الغىّ ، وهو الضلال والخيبة والانهماك فى الجهل والفساد ، وضدّه الرشد . وحللت المكان وبالمكان : نزلت به (وبابه قعد وضرب) . والحمى : المكان المحمىّ المصون الذى لايقرب ولايجترأ عليه . ولصيق : دعىّ دخيل .

(١٧) جعلناه تاريخاً أى جعلنا حلولنا بذلك المنزل تاريخاً . . . والصبوة : جهلة الفتوّة ، ولهو الشباب ومرحه . ومسّ (من بابى فهم وردّ) : أصاب .

والمعنى : أنهم جعلوا حلولهم بذلك المنزل تاريخاً لأيام حلوة طيّبة ، استمتعوا فيها بلهو الصبا ومرح الشباب ، وكلّما تذكّروها بعد فواتها كادت قلوبهم تحترق من شدّة الوجد ، وفرط الحنين .

أَقَمْنَا بِهِ يَوْماً طَلِيقاً ، وَلَيْلَةً   دُجَاهَا بِلَأْلَاءِ الْمُدَامِ طَلِيقُ (١٨)
فَلَمَّا اتَّعَدْنَا لِلرَّوَاحِ تَرَوَّعَتْ   قُلُوبُ النَّدَامَى ، وَالْمُحِبُّ شَفِيقُ (١٩)
فَلِلَّهِ قَلْبٌ بِالْفِرَاقِ مُرَوَّعٌ   حَزِينٌ ، وَجَفْنٌ بِالدُّمُوعِ شَرِيقُ (٢٠)
وَقَالَ لِيَ الْخُلَّانُ : صِفْ حُسْنَ يَوْمِنَا   فَأَنْتَ بِنَجْدِيِّ الْكَلَامِ خَلِيقُ (٢١)
فَرَوَّيْتُ شَيْئًا ، ثُمَّ جِئْتُ بِمَنْطِقٍ   ذَكِيٍّ يَفُوقُ الْمِسْكَ وَهْوَ فَتِيقُ (٢٢)

---

(١٨) به : بذلك المنزل. ويوم طليق : المراد ضاحك مشرق ، لاحرّ فيه ، ولا قرّ. والدجى : الظلمة جمع دجية (بضم فسكون) . والمدام : الخمر. ولألاؤها : صفاؤها ونقاؤها وإشراقها ولمعانها .

يصف يوم إقامته مع رفاقه بذلك المنزل بالطلاقة والإشراق والبهاء ، واعتدال الجوّ، ويصف الخمر بالتلألؤ واللمعان والصفاء والنقاء ، وأن لألاءها أضاء الليل وبدّد ظلماته .

(١٩) اتّعدنا : تواعدنا ، أى وعد بعضنا بعضاً ، وأكثر مايستعمل الاتّعاد فى الشرّ كالإيعاد والوعيد، والمراد هنا : العزم والتأهّب والاستعداد . والرواح : العودة آخر النهار ، وضدّه الغدوّ ، وكثيراً ما يراد بهما السير والذهاب والانطلاق فى أىّ وقت من ليل أونهار ، يقال : راح القوم رواحاً ، إذا ساروا أىّ وقت كان. وتروّعت : ارتاعت وفزعت وخافت . والندامى جمع ندمان (كسكران) وهو من يشاربك ، وقد يطلق على الرفيق والمصاحب والمسامر . وشفيق : حذر خائف ، من قولهم : أشفقت عليه أن يناله مكروه ، ولى عليه شفقة ، أى رحمة ورقّة ، وخوف من حلول المكروه به مع نصح .

والمعنى : فلمّا عزمنا وتأهّبنا لمغادرة ذلك الروض الأريض ارتاعت قلوب الندامى وفزعت ، ولا غرو ، فقد أحبّوا ذلك المنزل ، وأغرموا باللقاء والاجتماع فيه ، والمحبّ يستشعر الشفقة والخوف من ألم الفراق .

(٢٠) مروّع : اسم مفعول من روّعه ترويعاً ، أى أفزعه وخوّفه . ومروّع بالفراق : مروّع بسبب الفراق . والجفن : غطاء العين . وشريق : المراد مغرورق ، ولم نعثر على هذا الوصف بهذا المعنى فيما لدينا من المعجمات ، والذى فى اللسان وغيره أنّ الشرق بالماء والريق ونحوهما كالغصص بالطعام ، وأن فعله من باب تعب ، وأن الوصف منه شرق (بفتح فكسر) ومن المجاز : جفنه شرق بالدمع .

(٢١) الخلاّن : جمع خليل ، وهو الصديق المختصّ . ونجدىّ الكلام : الكلام النجدىّ ، نسبة إلى نجد ، وهو من جزيرة العرب كلّ ما ارتفع عن تهامة إلى أرض العراق، وكانت تسكنه ، وتتنقّل فى نواحيه قبائل كثيرة من أفصح القبائل العربية ، فالمراد بنجدىّ الكلام : الكلام الفصيح البليغ ، والوصف الممتع الرائع . وخليق : حقيق وجدير .

(٢٢) روّيت فى الأمر : نظرت وفكّرت . والمنطق : الكلام . وذكىّ : ساطع الرائحة ، والمراد بالمنطق الذكىّ : الكلام البليغ ، المعجب الرائع ، الشديد التأثير فى النفس. ويفوق : يفضل ويعلو .=

وَكَيْفَ يَغُبُّ الْقَوْلُ عَنِّى وَفِى فَمِى لِسَانٌ كَغَرْبِ الْمَشْرَفِىِّ ذَلِيقُ ؟(٢٣)

وَقَالَ يُعَرِّضُ بِرُؤَسَاءِ الْجُنْدِ الَّذِينَ تَخَاذَلُوا فِى الثَّوْرَةِ الْعُرَابِيَّةِ* :

لِأَىِّ خَلِيلٍ فِى الزَّمَانِ أُرَافِقُ وَأَكْثَرُ مَنْ لَاقَيْتُ خِبٌّ مُنَافِقُ ؟(١)

=والمسك : نوع معروف من الطيب ، وهو أطيب الطيب عند العرب ، وكانت تسميه المشموم . وفتيق : مخلوط بغيره من أنواع الطيب ، (فعيل بمعنى مفعول) من فتقت المسك بالعنبر أو غيره ، إذا استخرجت رائحته بشيء تدخله عليه (وبابه نصر) .

يقول : إنه روّى وفكّر قليلاً ، ثم أتى بكلام رائع معجب ، يفوق المسك الذى استخرجت بالفتق رائحته ، وأذكيت نفحته .

(٢٣) الاستفهام فى أول البيت معناه النفى . ويغبّ : يغيب ، أو يبعد ، من قولهم ، غبّ فلان عن القوم (من بابى نصر وضرب) ، أى جاء يوماً وترك يوماً . والمشرفىّ : السيف ، نسبة إلى المشارف ، وهى قرى من أرض اليمن ، أو من أرض العرب تدنو من الريف ، أو هو منسوب إلى مشارف الشام ، أى قراه . وغرب المشرفىّ : حدّه القاطع . وذليق : فصيح ، صفة من الذلاقة .

* فى تاريخ الثورة العرابية أن العرابيين اتجهوا إلى إقامة بعض الاستحكامات وخطوط الدفاع فى الميدان الشرقىّ : فى التلّ الكبير والصالحيّة ، ونقط أخرى ، بعد أن سقطت الإسكندرية فى قبضة جيش الاحتلال الإنجليزىّ ، وسيطرت السفن الحربية البريطانية على قناة السويس . وكان البارودى يقود قوّات غير نظاميّة فى مواقع الصالحيّة . ثم استدعى للمشاركة فى موقعة القصّاصين بتاريخ ٢٨ من أغسطس سنة ١٨٨٢ فضلّ الطريق ؛ فتأخّر عن موعده ، وفاجأه العدوّ بنيران مدافعه ؛ فتخاذل جنده ، وجدّوا فى الفرار ، وولّى الأمرّين من الخيانة ، والجهل والجبن ، والتخاذل ، ونصح وحذّر صادقاً ، فلم يُستمع لنصحه ، وكانت له فى السياسة والحرب خطط وآراء لم يؤخذ بها . وفى هذا الجوّ النفسىّ ، وفى ذلك التاريخ أو فيما يقرب منه نظم هذه القصيدة . وفيما كتب عن تلك الحرب بيان وتفصيل لأسباب انتصار الإنجليز ، وانهزام العرابيين .

(١) الخليل : الصديق . وأرافق : أصاحب ، وهو متعدّ بنفسه ، وتعديته هنا إلى المفعول به وهو « أىّ » باللام ؛ لضعفه بتأخّره عن المعمول ، كما فى قول الله تبارك وتعالى فى سورة سيدنا يوسف عليه السلام حكاية عن ملك مصر : « يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون » . أو على تضمينه معنى أميل ، أو أطمئنّ ، أو نحوهما . والخب (بفتح الخاء وكسرها) : الخدّاع . ومنافق : مخادع ، يظهر خلاف مايضمر .

والمعنى : أنه لايجد فى زمانه من الأخلاّء من يرافقه ويطمئنّ إليه ، لشيوع الخبّ والخديعة والنفاق بين الناس . .

بَلَوْتُ بَنِي الدُّنْيَا ، فَلَمْ أَرَ صَادِقاً فَأَيْنَ ـ لَعَمْرِى ـ الْأَكْرَمُونَ الْأَصَادِقُ ؟[٢]

أُحَاوِلُ أَمْرًا قَصَّرَتْ دُونَهُ النُّهَى وَشَابَتْ وَلَمْ تَبْلُغْ مَدَاهُ الْمَفَارِقُ[٣]

وَأَعْظَمُ مَا تَرْجُوهُ مَا لَا تَنَالُهُ وَأَكْثَرُ مَنْ تَلْقَاهُ مَنْ لَا يُوَافِقُ[٤]

وَمَا كُلُّ مَنْ حَدَّ الرَّوِيَّةَ حَازِمٌ وَلَا كُلُّ مَنْ رَامَ السَّوِيَّةَ فَارِقُ[٥]

---

(٢) بلوت : خبرت وجرّبت وامتحنت . والأكرمون : جمع الأكرم ، اسم تفضيل من الكرم بمعنى البرّ والخير ، وضدّه اللؤم . والأصادق : جمع الأصدق ، اسم تفضيل من الصدق ، أو هو جمع جمع لصديق.

(٣) حاولت الشيء : عالجته ، وطلبته بالحيلة . والأمر : الشأن والحال : وقصّرت دونه : عجزت عن الوصول إليه . والنهى : العقول ، والمفرد نُهية (بضم فسكون) . ومداه : حدّه وغايته ومنتهاه . والمفارق : جمع مفرق (كمسجد ومذهب) ، وهو وسط الرأس حيث يفرق الشعرُ . وشيب المفارق : كناية عن الهرم والكبر ، والضعف ونفاد القوّة .

والمعنى : أنه يحاول الاهتداء إلى الخل الوفىّ ، والصديق الصادق ، وهذا أمر عسير ، ومطلب بعيد ، تعجز العقول عن الوصول إليه ، وتشيب المفارق قبل أن تبلغه ، أو هو يريد بالأمر : المطلب العظيم ، فيكون المعنى : أنه يبتغى من معالى الأمور ، وعظيم المطالب ما تعجز العقول عن الوصول إليه ، وتشيب المفارق دون إدراكه .

(٤) يريد أن الإنسان إذا اتّسعت آماله ، وعظمت مطالبه صعب نيلها ، وأنه قلّما يظفر فى حياته بخل موافق . أو معنى الشطر الأول : أن المرء يرجو فى حياته أشياء كثيرة ، ولا ينال منها إلا القليل . أو المعنى : أن الشيء المرجوّ إذا عزّ نيله زاد تعلّق النفس به ، واشتدّت رغبتها فيه . وهذا قريب من قول الشاعر : :

وزادنى كلَفاً بالحبّ أن منعت وحبّ شيءٍ إلى الإنسان ما منعا

(٥) حدّ الرويّة : أجال الفكر ، وأطال التدبّر ، من قولهم : حدّ الإنسان السكّين ونحوه ، أى شحذه وسنّه . وحازم : اسم فاعل من الحزم ، وهو أن يتقن المرء رأيه ، ويضبط أمره ، ويأخذ فيه بالثقة . ورام : قصد وأراد وطلب . والسويّة : العدل والنصفة (بفتحتين) . وفارق : اسم فاعل من فرق الإنسان بين الشيئين ، أى ميّز بينهما ، وفصل أحدهما عن الآخر ، ويريد بالفارق : الفاصل بين الحقّ والباطل .

يقول : إنه ليس كلّ من اجتهد فى التفكير ، وإصابة شاكلة الصواب يصيب فيما يفكّر فيه ، وليس كلّ من حاول العدل والإنصاف واصلاً إليهما ، أى أن الإنسان فى هذه الدنيا محتاج إلى توفيق الله ومعونته .

أَضَعْتُ زَمَانِى بَيْنَ قَوْمٍ لَوَ انَّ لِى ... بِهِمْ غَيْرَهُمْ مَا أَرْهَقَتْنِى الْبَوَائِقُ(٦)
فَإِنْ أَكُ مُلْقَى الرَّحْلِ فِيهِمْ فَإِنَّنِى ... لَهُمْ بِالْخِلاَلِ الصَّالِحاتِ مُفَارِقُ(٧)
مَعَاشِرُ سادُوا بِالنِّفَاقِ ، وَمَا لَهُمْ ... أُصُولٌ أَظَلَّتْهَا فُرُوعٌ بَوَاسِقُ(٨)
فَأَعْلَمُهُمْ عِنْدَ الْخُصُومَةِ جاهِلٌ ... وأَتْقَاهُمُ عِنْدَ الْعَفَافَةِ فَاسِقُ(٩)

(٦) أرهقتنى : ثقلت علىّ ، وحمّلتنى مالا أطيق . والبوائق : جمع البائقة ، وهى الداهية والنازلة والشرّ الشديد ، وفى الحديث : « لا يدخل الجنّة من لا يأمن جاره بوائقه ».

يذمّ أولئك الذين خدعوه وخذلوه وأعسروه ، وأرهقته بسببهم البوائق . ويقول : إنه ضيّع زمانه بينهم ، ولم يفد من عشرتهم غير الأذى والشرّ ، ولو كان بين أناس غيرهم ما أصابه سوء ، ولا نزلت به النوازل ، ولا تعرض للأسر والنفى والتشريد .

(٧) ملقى : اسم مفعول من ألقى الشىء (بالبناء للمجهول) إلقاء ، أى طرح ورمى . والرحل : كلّ شىء يعدّ للرحيل والسفر ، من وعاء المتاع ، ومركب البعير ، وحلس ورسن ، وإلقاء الرحل : كناية عن الإقامة ، كما يقال : ألقى فلان عصاه . والخلال : الخصال والسجايا والأخلاق .

والمعنى : أنه لا يشابههم ، ولا يعدّ منهم على الرغم من إقامته فيهم ، فهو يمتاز بخصاله الطيّبة ، وخلاله الكريمة ؛ وهذا قريب من قول المتنبى :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام

(٨) المعاشر : جماعات الناس ، الواحد معشر (بفتح فسكون ففتح) . وأظلّتها : بسطت ظلّها فوقها وبواسق : جمع باسق ، أى طويل عال ممتدّ .

يذمّهم بأنهم إنما وصلوا إلى مراتب السيادة والحكم والزعامة بالنفاق والكذب والمداهنة والخداع ، وأنهم ليسوا من أشراف الناس ونبلائهم الذين كرمت أصولهم ، وزكت فروعهم . والكلام فى الشطر الثانى على التشبيه بأصول الأشجار وفروعها .

(٩) الخصومة : الجدل (بفتح الجيم والدال) ، وهو اسم من خاصمته مخاصمة وخصاماً . وأتقى : اسم تفضيل من التقوى : وهى أن يطيع المرء ربّه ، ويحفظ نفسه مما يغضبه ، (وفعله كقضى) . والعفافة : أن يكفّ المرء عما لا يحلّ ولا يجمل ، ومثلها العفاف (بفتح العين) والعفّة (بكسر العين) . وفاسق : اسم فاعل من الفسوق ، وهو عصيان الله تعالى ، والخروج عن طاعته (و بابه قعد) .

والمعنى أنّ من يدّعى أو يدّعى له العلم من هؤلاء المذمومين يبين جهله عند الخصومة والجدل ، حيث يحتاج المرء إلى دعم قوله ، وتأييد حجّته بالعلم والمنطق ، وكذلك يظهرون التقوى والعفّة والصلاح ، ويضمرون الفسق والفجور والإفساد .

طَلَاقَةُ وَجْهٍ تَحْتَهَا الْغَيْظُ كَاشِرٌ ... وَنَغْمَةُ وُدٍّ بَيْنَهَا الْغَدْرُ نَاعِقُ(١٠)
وَأَخْلَاقُ صِبْيَانٍ إِذَا مَا بَلَوْتَهُمْ ... عَلِمْتَ بِأَنَّ الْجَهْلَ فِي النَّاسِ نَافِقُ(١١)
تَعَلَّمْتُ كَظْمَ الْغَيْظِ فِيهِمْ ، وَإِنَّهُ ... لَحِلْمٌ ، وَلَكِنْ لِلْحَفِيظَةِ مَاحِقُ(١٢)
دَعَوْنِي إِلَى الْجُلَّى ، فَقُمْتُ مُبَادِرًا ... وَإِنِّي إِلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَسَابِقُ(١٣)
فَلَمَّا اسْتَمَرَّ الْجِدُّ سَاقُوا حُمُولَهُمْ ... إِلَى حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْهُ حَادٍ وَسَائِقُ(١٤)

---

(١٠) طلاقة الوجه : البشاشة . وكاشر . كاشف عن أنيابه للاغتيال ، من قولهم : كشر السبع والعدوّ عن أنيابه (من باب ضرب) أى أبداها .والنغمة (بفتح فسكون) : جرس الكلام (بفتح الجيم وسكون الراء)، وحسن الصوت . والودّ : المحبّة والمودّة . وناعق : اسم فاعل من النعاق أو النعيق (كالصراخ والصفير)، وهو صوت الغراب ، والمراد أنّ غدرهم ظاهر محسوس .

والمعنى : أنهم يظهرون البشاشة وطلاقة الوجه والمودّة والحبّ ، ويضمرون الغيظ والحقد والضغينة والغدر والخيانة ، على أن ما يضمرونه من هذه النقائص بيّن ظاهر محسوس واضح .

(١١) بلوتهم : خبرتهم وجرّبتهم . وعلم : يتعدّى بنفسه إلى مفعولين إذا كان بمعنى اليقين ، ويتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى عرف ، وقد يضمّن معنى شعر ، فيتعدّى بالباء ، كما يقال : شعرت بالشيء . ونافق : رائج شائع منتشر ، من قولهم : نفقت السلعة (كنصر) نفاقاً (بفتح النون) ، إذا راجت وكثر طلابها .

(١٢) كظم الغيظ : ردّه وحبسه . والحلم : الصفح والتجاوز عن إساءة المسيء . والحفيظة : الحميّة والغضب عند حفظ الحرمة . وماحق : اسم فاعل من محقه ، أى أبطله ومحاه .

يقول : إنه تعلّم أن يحلم عن هؤلاء المذمومين ، ويكظم غيظه ، ويصفح عن نقائصهم وسيئاتهم ، ولكنّ حلمه هذا يذهب الغيرة ، ويمحو الغضب للشرف ؛ فهو حلم غير مشكور ؛ لأنه جاوز حدّه ، وصار قريباً من التفريط .

(١٣) الجلّى : الأمر الشديد ، والخطب العظيم . ومبادر : اسم فاعل من بادرت إلى الشيء مبادرة وبداراً (بكسر الباء) أى سارعت إليه .

يقول : إن هؤلاء المذمومين دعوه إلى حمل راية الجهاد فى تلك الحرب الوطنية . فسارع إلى ما دعي إليه ، ثم يفخر بالسبق إلى اقتحام الشدائد والخطوب .

(١٤) الجدّ فى الأمر : الاجتهاد فيه ، والجدّ : ضدّ الهزل ، والمراد باستمرار الجدّ : شدّة الأمر ، واستعار نار الحرب . والحمول : الإبل التى عليها الهوادج ، وسوق الحمول هنا : كناية عن التخاذل والفرار . وحاد : اسم فاعل من الحدو (بفتح فسكون) ، وهو سوق الإبل والغناء لها .

والمعنى : فلمّا حمى الوطيس ، واشتدّت الحرب ، تخاذلوا ، وجدّوا فى الفرار .

فَلَا رَحِمَ اللهُ امْرَأً بَاعَ دِينَهُ ... بِدُنْيَا سِوَاهُ وَهْوَ لِلْحَقِّ رَامِقُ (١٥)
عَلَى أَنَّنِي حَذَّرْتُهُمْ غِبَّ أَمْرِهِمْ ... وَأَنْذَرْتُهُمْ لَوْ كَانَ يَفْقَهُ مَائِقُ (١٦)
وَقُلْتُ لَهُمْ : كُفُّوا عَنِ الشَّرِّ تَغْنَمُوا ... فَلِلشَّرِّ يَوْمٌ ـ لاَ مَحَالَةَ ـ مَاحِقُ (١٧)
فَظَنُّوا بِقَوْلِي غَيْرَ مَا فِي يَقِينِهِ ... عَلَى أَنَّنِي فِي كُلِّ مَا قُلْتُ صَادِقُ (١٨)
فَهَلْ عَلِمُوا أَنِّي صَدَعْتُ بِحُجَّتِي ... وَقَدْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْخَفَاءِ الْحَقَائِقُ ؟ (١٩)
فَتَبًّا لَهُمْ مِنْ مَعْشَرٍ لَيْسَ فِيهِمُ ... رَشِيدٌ ، وَلَا مِنْهُمْ خَلِيلٌ مُصَادِقُ (٢٠)
ظَنَنْتُ بِهِمْ خَيْرًا ، فَأُبْتُ بِحَسْرَةٍ ... لَهَا شَجَنٌ بَيْنَ الْجَوَانِحِ لاَصِقُ (٢١)

---

(١٥) رامق : اسم فاعل من رمقت الشيء (من باب نصر) أى أطلت النظر إليه .

يدعو عليهم بأن تباعدهم رحمة الله ، و يرميهم بتضييع الدين ، ومجانبة الحقّ وهم يعرفونه .

(١٦) غبّ أمرهم : مغبّته وعاقبته ونهايته . ويفقه : يفهم ويفطن ويعلم . ومائق: أحمق، اسم فاعل من الموق (بضم فسكون) وهو الحمق فى غباوة .

يقول : إنه حذّرهم ، وبيّن لهم عاقبة ما أقدموا عليه، فلم يطيعوه . وقد وصمهم فى آخر البيت بالحماقة وسوء الفهم . ويظهر من هذا أن الثورة أو تعجيلها لم يكن من رأى البارودىّ .

(١٧) كففت عن الشيء : تركته واجتنبته (وبابه ردّ). ولامحالة : لابدّ منه ، ولا تجدى فى اجتنابه حيلة . وماحق . : مهلك ، اسم فاعل من محقه (من باب قطع) أى أبطله ومحاه .

(١٨) المعنى: أنهم لم يفيدوا من تحذيره وإنذاره، ولم ينتفعوا بنصحه ؛ لأنهم أساءوا تأويل قوله، ولم يحسنوا فهمه ، وقد كان فى كلّ ماقاله صادقاً صريح القول .

(١٩) الحجّة : الدليل والبرهان ، وصدعت بها : بيّنتها وأظهرتها، من قولهم: صدع الرجل بالحقّ ، إذا جهر به وصرّح مفرّقاً بينه وبين الباطل ، وفى القرآن الكريم : « فاصدع بما تؤمر » . والاستفهام فى أول البيت للتوبيخ .

(٢٠) تبًّا لهم : هلاكاً لهم وخسراناً . والمعشر : الجماعة من الناس . ورشيد : صفة من الرشد ، وهو الصلاح وإصابة الصواب ،وضدّه الغيّ والضلال . والخليل : الصديق . ومصادق : صادق الودّ ، برىء من الكذب والملق والنفاق ، اسم فاعل من صادقه ، أى لم يكاذبه ،أوهو بمعنى صديق من قولهم : صادقته فكان خير صديق ، وهوصديق ومصادق .

(٢١) أبت : رجعت (وبابه قال) . والحسرة : التأسّف والتلهّف الشديد على الشيء الفائت ، وهى اسم من حسرت على الشيء حسراً (من باب تعب) . والشجن : الحزن . والجوانح : أضلاع الصدر ، أو الأضلاع التى تحت الترائب ، وهى ممّا يلى الصدر كالضلوع ممّا يلى الظهر ، الواحدة جانحة .

فَيَالَيْتَنى رَاجَعْتُ حِلْمِى ، ولَمْ أَكُنْ زَعِيماً ، وَعَاقَتْنى لِذَاكَ الْعَوَائِقُ(٢٢)

وَيَا لَيْتَنِى أَصْبَحْتُ فِى رَأْسِ شَاهِقٍ وَلَمْ أَرَ مَا آلَتْ إِلَيْهِ الْوَثَائِقُ(٢٣)

هُمُ عَرَّضُونِى لِلْقَنَا ، ثُمَّ أَعْرَضُوا سِراعاً وَلَمْ يَطْرُقْ مِنَ الشَّرِّ طَارِقُ(٢٤)

وَقَدْ أَقْسَمُوا أَلَّا يَزُولُوا ، فَمَا بَدَا سَنَا الْفَجْرِ إِلَّا وَالنِّسَاءُ طَوَالِقُ(٢٥)

مَضَوْا غَيْرَ مَعْذُورِينَ ، لَا النَّقْعُ سَاطِعٌ وَلَا الْبِيضُ فِى أَيْدِى الْكُمَاةِ دَوَالِقُ(٢٦)

---

(٢٢) الحلم : الأناة والعقل. والزعيم الكفيل ، وسيد القوم ، ورئيسهم ، والمتكلم عنهم . وعاقه عن كذا : حبسه عنه ، وصرفه ، ورده (وبابه قال) ، واسم الفاعل منه عائق وعائقة ، والجمع عوائق.

يندم على تسرعه إلى مجاراتهم ، ويتمنى لو راجع حلمه وعقله ، واعتصم بالأناة والصبر ، وفكر فى الأمر طويلا قبل الإقدام عليه ، وعاقته العوائق عن قبول زعامتهم ، والتصدى لقيادتهم .

(٢٣) فى رأس شاهق : فى قمة جبل عال ، ممتنع طولا . وآلت : رجعت وصارت (وبابه قال) . والوثائق : جمع وثيقة ، وهى إحكام الأمر ، والأخذ فيه بالثقة ، يقال أخذ بالوثيقة فى أمره أى بالثقة ، ويراد بالوثائق : العهود والمواثيق .

يأسف على ما صارت إليه مواثيق هؤلاء المذمومين وعهودهم من نقض وغدر ، ويتمنى لو أنه اعتزلهم ، وابتعد عنهم .

(٢٤) القنا : الرماح ، الواحدة قناة . وطرق (من باب دخل) فهو طارق : إذا جاء ليلاً ، وطرقت الباب طرقاً (من باب قتل) : قرعته .

يقول : إنهم عرضوه للقنا والرماح ، وقدموه للمجالدة والطعان والكفاح ، ثم أعرضوا عنه مسرعين ؛ وخذلوه ؛ وفروا من الميدان قبل أن يطرق طارق الشر ، ويشتد القتال .

(٢٥) أقسموا : حلفوا . وزال عن موضعه يزول زوالا : برحه وغادره . وبدا : ظهر . وسنا الفجر : ضوؤه . وطوالق : جمع طالق أو طالقة ، اسم فاعل من طلقت المرأة (من بابى قتل وكرم) أى انقطعت الصلة بينها وبين زوجها بالطلاق .

والمعنى : أن هؤلاء المذمومين كانوا قد أقسموا بالطلاق أن يصمدوا لأعدائهم ، ويثبتوا فى ميدان القتال ، ولكنهم سرعان ما حنثوا فى أيمانهم ، وتخاذلوا ، وفروا فطلقت نساؤهم .

(٢٦) النقع : الغبار ، ويراد به هنا : ماتثيره سنابك الخيل وحركات المتحاربين من الغبار ، وكذلك الدخان المنبعث من بعض القذائف المتفجرة والمدافع وغيرها . وساطع : مرتفع ثائر . والبيض : السيوف . والكماة : جمع الكمى (كالغنى) وهو الشجاع الذى كمى (كرمى) نفسه بالسلاح ، أى سترها . ودوالق : جمع دالق ، اسم فاعل من دلق السيف (كدخل) دلوقاً ، أى خرج من غمده .

وَلَكِنْ دَعَتْهُمْ نَبْأَةٌ ، فَتَفَرَّقُوا كَمَا انْقَضَّ فِي سِرْبٍ مِنَ الطَّيْرِ بَاشَقُ (٢٧)

فَكَمْ آبِقٍ تَلْقَاهُ مِنْ غَيْرِ طَارِدٍ وَكَمْ وَاقِفٍ تَلْقَاهُ وَالْعَقْلُ آبِقُ (٢٨)

إِذَا أَبْصَرُوا شَخْصاً يَقُولُونَ جَحْفَلٌ وَجُبْنُ الْفَتَى سَيْفٌ لِعَيْنَيْهِ بَارِقُ (٢٩)

أُسُودٌ لَدَى الْأَبْيَاتِ بَيْنَ نِسَائِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ عِنْدَ الْهِيَاجِ نَقَانِقُ (٣٠)

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْهَضْ بِقَائِمِ سَيْفِهِ فَيَالَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ تُحْمَى الْحَقَائِقُ (٣١)

= والمعنى : أنهم تركوا ساحة الوغى ، وفرّوا من ميدان القتال بلا عذر قبل أن يجدّ الجدّ ، ويحمى الوطيس ، ويستحرّ بينهم وبين أعدائهم الجلاد والكفاح .

(٢٧) نبأة : صوت. وانقضّ الطائر ونحوه على فريسته : هوى وسقط عليها فى عنف وشدّة. والسرب : الجماعة من الطير والظباء والوحش والخيل والحمر والنساء وغيرها . والباشق (بفتح الشين ، أو هو بفتح الشين و كسرها ، كالخاتم والطابع والدانق) : طائر من الجوارح ، أى الطيور التى تجرح وتصيد وتفترس .

والمعنى : أنهم سمعوا صوتاً ضعيفاً ؛ فاستولى عليهم الفزع ، وتملّكهم الخوف ، وتفرّق جمعهم وتبدّد شملهم ، وفرّوا مذعورين مسرعين ، كما تتفرّق الطير إذا انقضّ عليها جارح من الجوارح.

(٢٨) آبق : هارب ، اسم فاعل من أبق العبد ، أى هرب من سيّده من غير خوف ، ولا كدّ عمل. وطارد : اسم فاعل من طرده : أى أبعده ونحّاه ، والمراد من غير أن يحمل عليه قرنه ويقاتله .

جعلهم بين هارب من ميدان القتال قبل المطاردة والجلاد والنزال ، وبين واقف فى حال ذهول وغفلة ودهش وذعر شديد .

(٢٩) الجحفل (كجعفر) : الجيش الكثير . وبارق : لامع .

(٣٠) أسود : جمع أسد . والأبيات : جمع بيت . والهياج (بكسر الهاء) : اسم من هاج الشىء (كباع) أى ثار ، والمراد عند استحرار القتال ، وتوقّد نار الحرب . والنقانق : جمع نقنق (بكسر فسكون فكسر) ، وهو الظليم ، أى الذكر من النعام ، ويضرب به المثل فى الجبن وسرعة الفرار.

والمعنى : أنهم يدّعون الشجاعة فى مواطن الدعة والأمن ، فإذا جدّ الجدّ تملّكهم الخوف والجبن ، وسارعوا إلى الهرب ، وجدّوا فى الفرار .

(٣١) قائم السيف : مقبضه ، كقائمته . وليت شعرى : ليتنى أشعر وأعلم. وتحمى : تصان وتحفظ. والحقائق : جمع الحقيقة ، وهى ما يلزمك حمايته والدفاع عنه من أهل وعرض وغيرهما .

والمعنى : أن المرء لا يستطيع أن يحمى حقيقته ، ويدافع عن عرضه إلا إذا كان باسلاً شجاعاً ، يعتمد على سيفه وقوّته وشدّة بأسه .

وقال :

إنَّ ابْنَ آدَمَ ذُو طَبَائعَ أَرْبَعٍ   مَجْمُوعَةِ الْأَجْزَاءِ فِى أَخْلَاقِهِ[1]
تَبْدُو فَوَاعِلُهَا عَلَى حَرَكَاتِهِ   فِى بَطْشِهِ وَسُكُونِهِ وَنِزَاقِهِ[2]
فَإِذَا تَغَلَّبَ وَاحِدٌ مِنْهَا عَلَى   أَقْرَانِهِ أَدَّى إِلَى إِقْلَاقِهِ[3]
بَيْنَا تَرَاهُ كَالزُّلَالِ لَطَافَةً   أَلْفَيْتَهُ كَالنَّارِ فِى إِحْرَاقِهِ[4]

(١) الطبائع : الخلائق والسجايا التى جبل الإنسان عليها ، أى فطر وخلق ، الواحدة طبيعة ، والشاعر يريد بالطبائع هنا : الأمزجة التى كان الأقدمون ينسبونها إلى النار ، والهواء ، والماء ، والتراب ، وهذه هى العناصر الأربعة عندهم ،أو الأمهات ، أو الأصول ، أو المواد ، أو الأركان .

والمعنى : أن أخلاق الناس تتباين وتتفاوت وتختلف ، وتتأثر تأثراً بيّناً واضحاً بهذه الطبائع الأربع المجتمعة فى كل واحد من بنى الإنسان ، وإنما ينجم اختلاف الأخلاق وتباينها من اعتدال هذه الطبائع واتزانها ، أو غلبة بعضها على بعض . وفى الأبيات الآتية إيضاح وشرح وتفصيل لهذا المذهب .

(٢) تبدو : تظهر . وفواعلها : المراد تأثيراتها . وحركاته : المراد أعماله وتصرفاته التى تشمل الحركة والسكون . والبطش : مصدر بطش به (كضرب ونصر) أى أخذه بالعنف والسطوة والشدة . والنزاق : النزق (بفتحتين) ، وهو الطيش والخفة .

والمعنى : أن آثار هذه الطبائع ، ونتيجة امتزاجها واختلاطها ، تظهر فى أعمال المرء كلها من حركة وسكون ، وشدة ولين ، وطيش وحلم .

(٣) واحد منها : أحد هذه الأشياء ، وهى الطبائع ، وكان مقتضى السياق أن يقول : « فإذا تغلبت واحدة منها . . . » . والأقران : جمع قرن (بكسر فسكون) وهو الكفء والنظير والمثيل . و إقلاقه : إزعاجه واضطراب أمره .

يقول : فإذا تغلبت إحدى هذه الطبائع ، وطغت وجارت على سائرها — أدى هذا التغلب إلى قلق المرء وانزعاجه ، واختلال أمره ، واضطراب حاله . ومفهوم البيت أن الخير فى اتزان هذه الطبائع واعتدالها وتناسبها ، كما سيأتى .

(٤) بينا : أصلها بين ، فأشبعت الفتحة ، فصارت ألفاً ، ومثلها بينما ، وهما ظرفا زمان بمعنى ، المفاجأة ، ويضافان إلى جملة فعلية أو اسمية ، ويحتاجان إلى جواب يتم به المعنى ، والجواب هنا : « ألفيته » وقد تأتى إذ أو إذا فى جوابهما ، والأفصح خلوه منهما . والزلال : الماء العذب الصافى البارد السائغ السهل السلس . ولطافة مصدر لطف (ككرم) ، ويراد باللطافة هنا : الرقة والسهولة واللين ، ومثلها اللطف (بضم اللام) ، . وألفيته : وجدته وصادفته ولقيته .

أَوْ كَالتُّرَابِ يَهِيلُ مِنْ عَقَدَاتِهِ أَوْ كَالْهَوَاءِ يَجُولُ فِى آفَاقِهِ[٥]
فَإِذَا تَعَادَلَ جَمْعُهَا ، وَتَوَازَنَتْ حَرَكَاتُهَا كَانَتْ دَلِيلَ وِفَاقِهِ[٦]
وَالْمَرْءُ مَهْمَا كَانَ فِى أَفْعَالِهِ لَا يَنْتَهِى إِلَّا إِلَى أَعْرَاقِهِ[٧]

وَقَالَ :

أَضِنُّ بِصَاحِبِى ، وَأَذُودُ عَنْهُ وَأَمْنَحُهُ السَّوِيَّةَ فِى الْحُقُوقِ[١]

---

(٥) هال عليه التراب يهيله (من باب باع) : أرسله وصبّه ودفعه ، فانهال أى انصب وسقط ، فالفعل متعدّ فى كلام العرب ، والشاعر يريد اللازم المطاوع وهو «ينهال» . ويذمّ الرجل ، فيقال : « جرف (بضم فسكون) منهال (بضم فسكون) » أى ليس له حزم ولا عقل . وعقدات الرمل والتراب : ماتعقّد منه واجتمع وتراكم ، والواحدة عقدة (بفتح فسكون) . ويجول : يدور ويطوف . والآفاق : النواحى ، واحدها أفق (بضمتين ، أو بضم فسكون) .

بيّن فى هذا البيت والذى قبله أثر الطبائع أو الأمزجة الأربعة فى الإنسان ، فإذا تغلّب عليه العنصر المائى ، رأيته كالماء الزلال رقّة وليناً ولطفاً وسجاحة خُلُق ، وإذا تغلّب عليه العنصر النارىّ ، وجدته شديداً حادّ الطبع كالنار المحرقة ، وإذا تغلّب عليه العنصر الترابىّ ، كان ضعيف الهمّة ، واهى القوّة ، قليل الحزم ، كالتراب الذى ينهال وتتساقط عقداته وكوماته ، وإذا تغلّب عليه العنصر الهوائىّ ، صار كثير التقلّب ، قليل الرزانة والثبات ، كالهواء يجول فى آفاقه .

(٦) تعادل جمعها : اعتدلت هذه الطبائع جميعها ، وتساوت وتناسبت واتّزنت ، ومثلها توازنت. والوفاق : ضدّ الخلاف .

والمعنى : أنّ المرء يكون موفّقاً رشيداً ، مستقيم الطبع ، معتدل المزاج إذا اتّزنت فيه هذه الطبائع الأربع ، وتناسبت ، ولم تطغ واحدة منها .

(٧) أعراقه : أصوله ، الواحد عرق (بكسر فسكون) .

يقول : إنّ المرء لا ينتهى فى أفعاله إلاّ إلى أعراقه ، ولا يصدر فيها إلا عن أصوله ، فأفعاله — كيفما كانت — وثيقة الاتصال بتلك الأعراق والأصول . ولعلّه يشير بهذا إلى الوراثة ، وعظم تأثيرها فى حياة الإنسان وأخلاقه .

(١) ضننت بالشىء (من بابى تعب وضرب) : بخلت به ، وحرصت عليه . وأذود : أدفع وأصدّ . وأمنحه : أعطيه . والسويّة : الاستواء والاعتدال والإنصاف .

يفخر بأنه يتمسّك بإخاء صاحبه ، ويحرص عليه ، ويحميه ويدفع عنه السوء ، ويجعله مساوياً له فى الحقوق .

وَإِنْ غَدَرَ الزَّمَانُ بِهِ فإِنِّى ... أَقُومُ بِنَصْرِهِ فِعْلَ الصَّدِيقِ (٢)
إِذَا ما الْمَرْءُ لَمْ يَنْفَعْ أَخَاهُ ... عَلَى الْحَالَيْنِ فِى سَعَةٍ وَضِيقِ (٣)
فَدَعْهُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ ... فَخَيْرٌ مِنْهُ إِخْوَانُ الطَّرِيقِ (٤)

وَقَالَ :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْمِ الْهَنَاةَ بِمِثْلِهَا ... لِيَدْفَعَ ضَيْمًا ، فَهْوَ بِالذُّلِّ أَخْلَقُ (١)
وَمَنْ شَهِدَ الْهَيْجَاءَ مِنْ غَيْرِ آلَةٍ ... يَذُودُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، فَهْوَ أَحْمَقُ (٢)

وَقَالَ :

أُكْتُمْ ضَمِيرَكَ مِنْ عَدُوِّكَ جَاهِدًا ... وَحَذَارِ لَا تُطْلِعْ عَلَيْهِ رَفِيقَا (١)

---

(٢) غدر الزمان به : خانه ، ونزلت به أحداثه وخطوبه . وأقوم بنصره : أتولّى نصرته وإعانته وتخليصه و إنجاده .

(٣) « ما » : زائدة بعد « إذا » . والمرء : الإنسان ، أو الرجل . والأخ هنا : الصاحب والصديق.

(٤) دعه : اتركه . ومأسوف : اسم مفعول من الأسف بمعنى الحزن . والمراد بإخوان الطريق: من يعرفهم المرء فى طريقه معرفة عارضة لايرجى منها خير كثير ، ولاتنعقد بها أواصر صداقة صادقة .

يقول : إذا لم ينفعك صاحبك فى حالى اليسر والعسر ، والرخاء والشدّة ، والغنى والفقر ، والصحّة والمرض ... — فاتركه واجتنب صحبته ، ولا تحزن عليه ؛ لأنّ إخوان الطريق خير منه فى هذه الحال .

(١) الهناة : الداهية ، ويرى الهناة بمثلها : يقابل العدوان بالعدوان ، ويدفع الشرّ بمثله . والضيم : الظلم . وأخلق : أحقّ وأولى وأجدر.

يقول : إذا المرء لم يقابل العدوان بمثله ، ويرم الشرّ بالشرّ ، ليدفع عن نفسه وأهله وقومه الضيم والظلم — فهو جدير بالذلّ ، خليق بالهوان .

(٢) شهد : حضر . والهيجاء : الحرب . ويذود : يدفع. وأحمق : قليل العقل، سيّئ التصرّف.

(١) الضمير : السرّ ، وهو بالإضافة إلى العدوّ : مقدار ما تخفى له من الكيد والعداوة ، وبالإضافة إلى الرفيق : أسرارك التى لاتحبّ أن تذاع . وجاهداً : مجتهداً ، اسم فاعل من جهد المرء فى كذا (من باب منع) أى جدّ فيه واجتهد وبالغ ، أوطلب حتى بلغ غايته فى الطلب . وحذار : اسم فعل بمعنى احذر واحترس . والرفيق : المرافق ، ويراد به هنا : الصديق .

فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ مُعَادِياً وَلَرُبَّمَا رَجَعَ الْعَدُوُّ صَدِيقَا[٢]

* قَالَ يَفْتَخِرُ بِشِعْرِهِ :

تَرَنَّمْ بِأَشْعَارِى ، وَدَعْ كُلَّ مَنْطِقٍ فَمَا بَعْدَ قَوْلِى مِنْ بَلَاغٍ لِمُفْلِقِ[١]

هُوَ الْعَسَلُ الْمَاذِىُّ طَوْرًا ، وَتَارَةً يَثُورُ الشَّجَا مِنْهُ مَكَانَ الْمُخَنَّقِ[٢]

يُغَنِّى بِهِ شَادٍ ، وَيَحْدُو رِكَابَهُ بِهِ كُلُّ حَادٍ بَيْنَ بَيْدَاءَ سَمْلَقِ[٣]

---

(٢) ينصح بكتمان السرّ ، وضبط النفس حيال العدوّ والصديق؛ إذ العداوة والصداقة من الأمور التى يعتورها التبدّل والتغيّر ؛

ومعنى هذين البيتين مأخوذ من الأثر المشهر : « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » .

(١) ترنّم : أمر من الترنّم ، وهو التطريب ، وتحسين الصوت والغناء . والمنطق : الكلام . و « من » فى الشطر الثانى زائدة . وبلاغ (بفتح الباء) : كفاية وغناء ومنه قول الله تبارك وتعالى : « إنّ فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » ، أو هو (بكسر الباء) مصدر بالغ المرء فى الأمر مبالغة وبلاغاً ، إذا اجتهد ، ولم يقصّر فيه . ومفلق : اسم فاعل من أفلق الشاعر ، إذا أتى بالفلق (بكسر فسكون) ، أى الأمر العجيب ، والقول الرائع البديع .

يفخر بأن أشعاره تفوق غيرها من فصيح القول ، وبليغ الكلام ، وأنها جديرة بأن يترنّم بها ويتغنّى ، وأنها معجزة للمفلقين من الشعراء ، فلا يستطيع شاعر مفلق أن يأتى بعدها بكلام فيه بلاغ وكفاية . أو المعنى : أن أىّ شاعر مفلق لا يستطيع أن يأتى لأشعارى بمثيل مهما بالغ وجوّد .

(٢) هو : أى قوله ومنطقه وشعره . والماذىّ : الأبيض الليّن الرقيق . والطور والتارة : الحين والمرّة . ويثور : يهيج . والشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم وغيره ؛ فمنع من البلع ، قال الشاعر :

ويرانى كالشجا فى حلقه عسراً مخرجه ، ما ينتزع

ومنه : بسببه . والمخنّق : الحلق .

يقول : إن شعره يكون مرّة سائغاً حلواً لطيفاً ليّناً كالعسل الماذىّ ، ويكون مرّة أخرى مرّاً عسراً كالشجا والغصّة تعترض فى الحلق .

والغرض وصف شعره فى حالى رضاه وغضبه ، ولينه وشدّته ، أو وصف وقعه فى نفوس أوليائه وأعدائه ، وهو قريب من قول الشاعر :

وإنّ لسانى شهدة يشتفى بها وهو على من صبّه الله علقم

(٣) الشادى : المغنّى . ويحدو : يسوق ويغنّى ، من الحداء (بضم الحاء وكسرها) ، وهو سوق الإبل ، والغناء لها (وفعله كعدا) ، واسم الفاعل منه حاد . والركاب : الإبل التى يسار عليها ، الواحدة =

فَطَوْرًا تَرَاهُ زَهْرَةً بَيْنَ مجْلِسٍ وَطَوْرًا تَرَاهُ لَهْذَماً بَيْنَ فَيْلَقِ (٤)
وَمَا كَلَفِي بِالشِّعْرِ إِلَّا لِأَنَّهُ مَنَارٌ لِسَارٍ ، أَوْ نَكَالٌ لِأَحْمَقِ (٥)
عَلِقْتُ بِهِ طِفْلاً ، وَشِبْتُ وَلَمْ يَزَلْ شَدِيدًا بِأَهْدَابِ الْكَلَامِ تَعَلُّقِي (٦)
إِذَا قُلْتُ بَيْتاً سَارَ فِي الدَّهْرِ ذِكْرُهُ مَسِيرَ الْحَيَا مَابَيْنَ غَرْبٍ وَمَشْرِقِ (٧)
يَهِيمُ بِهِ رَبُّ الْحُسَامِ حَمَاسَةً وَتَلْهُو بِهِ ذَاتُ الْوِشَاحِ الْمُنَمَّقِ (٨)

= راحلة ، ولا واحد لها من لفظها . والبيداء : الفلاة والصحراء . والسملق (كجعفر) : القاع الصفصف المستوى الأملس ، والقفر الأجرد الذى لا شجر فيه ، ولا نبات .

يقول : إن شعره يغنّى به المغنّى ، ويحدو به الحادى إبله ورواحله بين أجزاء صحراء جرداء مقفرة . والمعنى : أنّ شعره بليغ شديد التأثير فى نفس الإنسان والحيوان .

(٤) اللهذم (كجعفر) : الحادّ القاطع من الأسنّة . والفيلق (كصيقل) : الجيش العظيم . يصف شعره فى فنونه المختلفة ، فهو فى الأغراض المتصلة بالرضا والسرور زهرة تتعطّر بها المجالس والأندية ، وهو فى أغراض الغضب والحماسة ووصف الحرب له قوّة السلاح الماضى فى ساحة الوغى .

(٥) كلفى : ولوعى وإغرامى وتعلّقى (وفعله من باب فرح) ، يقال كلف فلان بالشىء إذا أحبّه حبًّا شديداً ، ولهج به وأغرم وأولع . والمنار : موضع النور ، والعلم (بفتحتين) ، ومحجّة الطريق . والسارى : اسم فاعل من سرى يسرى (كرمى يرمى) إذا سار عامّة الليل. والنكال : شبه العقوبة والانتقام والعبرة ، يقال : نكّلت به تنكيلا ، إذا جعلت غيره ينكل أن يفعل مثل فعله ، أى يحجم ويمتنع . وأحمق : ناقص العقل ، سيّئ التصرّف .

يشير إلى ما للشعر من نفع جليل ، وفائدة كبيرة فى هداية النفوس ، وإرشادها للفضائل والآداب ، وفى زجرها وعقابها ، وردّها عن الرذيلة والشرّ والفساد .

(٦) علقت به : أحببته وأغرمت به . وأهداب الكلام : حواشيه وأطرافه ، على التشبيه بأهداب الثوب . ويراد بالكلام هنا : الشعر ، أو المراد البيان ، والقول الفصيح البليغ ، والأدب شعره ونثره .

والمعنى : أنّه هوى الشعر وأحبّه ، واشتدّ تعلّقه به فى أطوار حياته كلّها : فى طفولته وشيخوخته .

(٧) مسير : مصدر ميمىّ بمعنى السير . والذكر : الصيت (بكسر الصاد وسكون الياء) . والحيا : المطر ، ويراد به هنا : السحاب . يشيد بسيرورة شعره ، وينوّه باشتهاره فى مشارق الأرض ومغاربها .

(٨) يهيم به : يهواه ، ويغرم به ، ويحبّه حبًّا شديداً ، من قولهم : هو هائم بفلانة ، أى عاشق لها. وربّ الشىء : صاحبه ومالكه. والحسام : السيف القاطع. والحماسة : الشجاعة والبسالة . وتلهو به : =

بَلَغْتُ بِشِعْرِى مَا أَرَدْتُ ،فَلَمْ أَدَعْ بَدَائِعَ فِى أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ(٩)
فَهَذَا نَمِيرُ الشِّعْرِ ، فَاقْصِدْ حِيَاضَهُ لِتَرْوَى،وَهَذَا مُرْتَقَى الْفَضْلِ فَارْتَقِ(١٠)*

= تولع به ، وتعجب ، وتأنس . والوشاح (بكسر الواو وضمها) : كرسان (بكسر فسكون) ، أى نظمان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما ، معطوف أحدهما على الآخر ، تتوشح المرأة به ، وهو من حلى النساء ، والوشاح أيضاً : أديم عريض يرصّع بالجواهر تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحها . والمنمّق : اسم مفعول من التنميق ، وهو النقش والتزيين والتحسين .

يفخر بأن شعره حاز إعجاب الرجال والنساء ، وفتنهم أجمعين ، فربّ الحسام يهيم به ؛ لأنه يفيد من شعره الحماسىّ حماسة وبسالة ، والحالية الناعمة من النساء تجد فى غزليّاته المتعة والأنس ودواعى السرور والإعجاب .

(٩) بدائع : جمع بديعة ، مؤنث بديع ، وهو المبتدع المخترع ، يقال : أبدعت الشىء إبداعاً أى اخترعته لاعلى مثال سابق . والأكمام : جمع كِمّ (بكسر الكاف وتشديد الميم) ، وهو غطاء النور (بفتح فسكون) ، والغلاف الذى ينشق عن الثمر ، ويحيط به ، سمّى كمّاً لأنه يكمّ ماتحته (من باب ردّ) ، أى يستره ويغطّيه . وفتق فلان الشىء (من باب نصر) : شقّه ، ومثله فتّقه تفتيقاً ، فانفتق وتفتّق ، وتفتّق هنا (بالبناء للمجهول ، أوهى بالبناء للفاعل) ، والأصل تتفتّق ، ثم حذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

والمعنى : أنّه وصل بشعره إلى ما أراده من الإعجاز والإبداع ، وحسن التأثير ، وأنه لم يترك بديعة من بدائع الأخيلة والمعانى والأساليب إلا أظهرها وجلاّها .

(١٠) النمير : الماء الزاكى الكثير الناجع المروى . والحياض جمع حوض ، وهو مجتمع الماء ، وروى من الماء يروى (كرضى يرضى) : شرب وشبع ، من الرىّ ، وهو ضدّ الظمأ . والمرتقى : موضع الارتقاء إلى الجبل ونحوه . والفضل : الخير والنفع .

جعل الشعر كالماء النمير المروى ، وحضّ على طلب الرىّ من حياضه ، ثم جعله وسيلة لبلوغ الفضل ، وذريعة للوصول إلى الخير ، ومرتقى يرتقى به إلى المجد ، ودعا إليه ، ورغّب فيه .

* هذه القصيدة اثنا عشر بيتاً فى الأصل المخطوط . والبيت الحادى عشر منها مضروب عليه ، وقد حرّفه الناسخ وصحّفه ؛ فأفسد وزنه ومعناه . ويمكن تصحيحه وإصلاحه على الوجه الآتى :

أَفُلّ بقولى كلّ لبّ ومهجة وأفرى برمحى كلّ درع ويلمق

فلّه (من باب ردّ) : ثلمه ، وكسره . وفلّ الجيش ، أو القوم : هزمهم . واللبّ : العقل . والمهجة : دم القلب . ويراد بها هنا : القلب . وفراه يفريه (من باب رمى) . وأفراه إفراء : شقّه ، أو قطعه ، أو فتّته . والرمح : من أدوات القتال والطعان : وهو قناة : أى عود طويل ، فى رأسه سنان : أى حربة من الحديد الصلب ، محدّدة الرأس ، يطعن بها . والدرع : الزرديّة : وهى قميص من حلقات حديديّة متشابكة ، يلبسها المحارب ؛ ليتّقى بها سلاح عدوّه . واليلمق : القباء : وهو ثوب يلبس فوق الثياب . أوفوق القميص . ويتمنطق عليه . ويراد بالدروع واليلامق : =

وقال :

سَلِ الْفَلَكَ الدَّوَّارَ إِنْ كَانَ يَنْطِقُ ... وَكَيْفَ يُجِيرُ الْقَوْلَ أَخْرَسُ مُطْرِقُ؟(١)

نُسائِلُهُ عَنْ شَأْنِهِ وَهْوَ صَامِتٌ ... وَنَخْبُرُ مَا فِى نَفْسِهِ وهْو مُطْبَقُ(٢)

فَلَا سِرُّهُ يَبْدُو ، وَلَا نَحْنُ نَرْعَوِى ... وَلَا شَأْوُهُ يَدْنُو ، وَلَا نَحْنُ نَلْحَقُ(٣)

= مايكمى به المحارب نفسه من الدروع والخوذات والمغافر والبيضات ونحوها من أدوات وقاية الرأس والجسم من أسلحة الأعداء .

يريد بالشطر الأول : أنه ببلاغة قوله ، وسحر بيانه يفوق ما تنطلق به ألسنة ذوى الألباب والقلوب . أو أنه يؤثّر بقوله وشعره تأثيراً شديداً فى عقول الناس وأفئدتهم .

ويفخر فى الشطر الثانى بأنه محارب شديد البأس ، قوىّ المراس ، متمرّس باستخدام أسلحة القتال والطعان ، متفوّق فى الحروب على أعدائه . وفى استطاعته أن يمزّق بسلاحه مايتكمّون فيه من الدروع والبيضات ونحوها .

أمّا البيت الثانى عشر (وهو البيت الأخير فى هذه القصيدة القافيّة الفخريّة) فلم يضرب عليه . ونصّه فى الأصل المخطوط :

فهذى حياض الشعر فانقع ببردها ... صداك . وهذا مرتقى المجد ، فارتق

ويلاحظ أنه تكرار للبيت العاشر من هذه القصيدة فى معناه ، وفى نصف عدد كلماته . ولا ريب أنّ الشاعر اختار البيت العاشر ، وفضّله على هذا البيت .

(١) الفلك : مدار النجوم ، وقد يراد به النجوم . والدوّار : السيّار المتنقّل . ويظنّ بعضهم أن الفلك يدور بما يجرى فى العالم من خير وشرّ ، ولعلّ الشاعر يريد بالفلك هنا : ماخفى من أحوال القضاء ، وصروف القدر . ويجير : يردّ ويجيب . وأخرس : صفة من الخرس (بفتحتين) ، وهو انعقاد اللسان عن الكلام خلقة . ومطرق : اسم فاعل من الإطراق ، وهو السكوت ، وعدم الكلام .

(٢) نسائله : نسأله ونستخبره . والشأن : الأمر والحال . ونخبر (من باب نصر) : نبلو ونختبر ونمتحن . ومطبق : اسم مفعول من الإطباق ، بمعنى التغطية .

والمعنى : أنه لا فائدة من سؤال الفلك عن أمره وحاله ؛ لأنه صامت ساكت ، لا يجير ، ولا يجيب ، ولا فائدة كذلك من محاولة اختبار ما فى نفسه ، وتعرّف ضميره وغيبه ؛ لأنه كالشىء المغطّى المحجوب المختوم ، الذى لا سبيل إلى فضّه وإظهاره .

(٣) يبدو : يظهر . ونرعوى : نكفّ ونرجع . والشأو : الغاية والأمد . ويدنو : يقرب .

وَكَيْفَ تَنَالُ النَّفْسُ مِنْهُ لُبَانَةً ... وَأَقْرَبُ مَا فِيهِ عَنِ الظَّنِّ أَسْحَقُ؟(٤)

فَضَاءٌ يَرُدُّ الْعَيْنَ حَسْرَى ، وَمَسْرَحٌ ... يَقُصُّ جَنَاحَ الْفِكْرِ وَهْوَ مُحَلِّقُ(٥)

أَقَامَ عَلَى رَغْمِ الْفَنَاءِ ، وَكُلُّ مَا ... تَرَاهُ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطَةِ يَنْفُقُ(٦)

فَكَمْ ثَلَّ عَرْشاً ، وَاسْتَبَاحَ قَبِيلَةً ... وَفَرَّقَ جَمْعًا وَهْوَ لَا يَتَفَرَّقُ(٧)

(٤) اللبانة: الحاجة . وفيه : فى الفلك الدوّار . وأسحق: اسم تفضيل من السحق (بضم فسكون) : وهو البعد ، والمراد سحيق ، أو أسحق مما عداه .

والمعنى : أن النفس لا تستطيع أن تنال من ذلك الفلك الدوّار لبانتها ، ولا تقوى على تعرّف سرّه ، وإدراك شأوه ؛ لأن أقرب شيء فيه بعيد عن ظنّ الإنسان ووهمه ، أو هو أبعد شيء عن ظنّه ووهمه ، ولا ريب أن الإنسان يذهب ظنّه ووهمه إلى مدى بعيد جدًّا ، ويطوف به فى مجال فسيح جدًّا ، فإذا بعد شيء عن مدى ظنّه ، وخرج عن مجال وهمه كان أمره معجزاً له ، واستحال عليه إدراك كنهه .

(٥) عين حاسر ، وحاسرة ، وحسير : أصابها الحسور (كالجلوس) ، وهو الإعياء والكلال والتعب وانقطاع النظر من طول مدى ، وما أشبه ذلك ، وفى القرآن الكريم : « ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » ، والمفهوم من اللسان وغيره أن حسرى جمع حسير (كقتيل وقتلى) ، وعلى هذا يكون الشاعر قد استعمل الجمع هنا فى موضع المفرد ، ولو قال « حيرى » لسلم له الكلام . والمسرح : المرعى ، اسم مكان من سرحت الماشية (من باب خضع) أى رعت ، والمراد به الموضع والمجال الذى يسرح فيه الفكر ، أى يجول وينطلق . وتحليق الطائر . ارتفاعه فى طيرانه واستدارته كالحلقة .

والمعنى : أن بصر الناظر وفكره يعجزان عن إدراك ما يحيط بالفلك الدوّار من فضاء وسيع ، ومجال فسيح .

(٦) أقام : استقرّ وثبت ودام ، أى الفلك الدوّار . ووجه البسيطة : ظهر الأرض وسطحها . وينفق : (من باب دخل) يفنى ويزول ويهلك ويموت .

(٧) ثلّ : هدم وأسقط . والعرش : سرير الملك ، يقال : استوى على عرشه ، إذا ملك ، وثلّ عرشه ، إذا هلك . واستباح الشئ : استحلّه ، أى عدّه مباحاً حلالاً ، واستباحهم : استأصلهم .

والمعنى : أنه كثيراً ما ثلّ العروش ، وأباد الملوك ، وأفنى الممالك ، واستأصل القبائل ، وقطع دابر الشعوب ، وفرّق جموع الناس ، وبدّد شملهم ، فى حين أنه ثابت مستقرّ ، مجتمع الشمل ، لا يصيبه تفرّق ولا انحلال .

تَحَسَّى مَرَارَاتِ الْكُبُودِ ، فَلَمْ تَزَلْ ... بِهِ صِبْغَةٌ مِنْ لَوْنِهَا ، فَهْوَ أَزْرَقُ (٨)
نَهَارٌ وَلَيْلٌ يَدْأَبَانِ ، وَأَنْجُمٌ ... تَغِيبُ إِلَى مِيقَاتِهَا ، ثُمَّ تَشْرُقُ (٩)
تَرِفُّ كَزَهْرٍ طَوَّحَتْهُ عَوَاصِفٌ ... بِلُجَّةِ مَاءٍ ، فَهْوَ يَطْفُو وَيَغْرَقُ (١٠)
سَوَابِحُ لَا تَنْفَكُّ تَجْرِى لِغَايَةٍ ... يُقَصِّرُ عَنْهَا الْكَاهِنُ الْمُتَعَمِّقُ (١١)
فَيَأَيُّهَا السَّارِى عَلَى غَيْرِ هُدْيَةٍ ... رُوَيْدًا ، فَإِنَّ الْبَابَ دُونَكَ مُغْلَقُ (١٢)

---

(٨) تحسّيت الشراب شربته فى مهلةوتؤدة . والمرارات : جمع مرارة ، وهى هنة شبه كيس ، لازقة بالكبد ، تتكوّن فيها مادّة تعرف بالمرّة (بكسر الميم وتشديد الراء). والكبود : جمع كبد ، ولعلّ المراد بمرارات الكبود : دماؤها الوريديّة المائلة إلى الزرقة . والصبغة : ما يصبغ به ، ومثلها الصبغ (بكسر فسكون فيهما) .

يتخيّل أنّ زرقة الجوّ المحيطة بالفلك ناشئة عن كثرة أكله كبود البشر الذين أفناهم وأبادهم ، وهو فى هذا ينحو نحو المعرّىّ فى قوله :

وعلى الأفق من دماء الشهيديـ ... ـن : علىّ ونجله شاهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا ... ن ، وفى أولياته شفقان

(٩) يدأبان : المراد يتعاقبان باستمرار ، من قولهم : دأب المرء فى عمله (من باب منع) ، أى جدّ وتعب واستمرّ . وإلى ميقاتها : فى وقتها وميعادها . وتشرق : تطلع ، مضارع شرقت الشمس (من بابى نصر ودخل) أى طلعت ، وأشرقت : أضاءت ، أوهما بمعنى .

(١٠) ترفّ : تهتزّ وتضطرب فى ضياء وتلألؤ ، والضمير للأنجم فى البيت السابق . وطوّحه تطويحاً : رماه وطرحه ، وذهب به هنا وهناك . والعواصف : الرياح الشديدة ، مفردها عاصف ، أو عاصفة . ولجّة الماء : معظمه . ويطفو : يعلو ويظهر .

يشبّه النجوم فى رفيفها واضطرابها وتردّدها بين الظهور والخفاء بأزهار ألقتها الرياح الشديدة الهوجاء فى بحر لجىّ متموّج ، فهى تطفو وترسب .

(١١) سوابح : تسير وتجرى جرياً سهلاً لطيفاً ، مستعار من السبح فى الماء ، أو من سبح الخيل ونحوها ، والمفرد سابح . ولا تنفكّ : لاتزال . ويقصّر عنها : يعجز عن إدراكها . والكاهن : من يخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ، ويدّعى معرفة الأسرار ، ومطالعة علم الغيب . والمتعمّق : المبالغ فى الأمر ، المتشدّد فيه ، الذى يطلب أقصى غايته .

(١٢) السارى : السائر ، والسرى فى الأصل ، سير عامّة الليل . وهدية الأمر (بتثليث الهاء) : جهته ، والهدية أيضاً : القصد ، يقال : ذهب على هديته ، أى على قصده ، ولمّا جعله على غير هدية حسن التعبير بالسارى ؛ لأن السارى كثيراً ما يضلّه ظلام الليل ووحشته . ورويداً : تمهّل وتأنّ وارفق ، =

أَتَحْسَبُ أَنَّ الظَّنَّ يُدْرِكُ بَعْضَ مَا ... تُحَاوِلُهُ وَالظَّنُّ لِلْمَرْءِ مُوبِقُ؟(١٣)

وَكَيْفَ يَنَالُ الْحِسُّ وَهْوَ مُحَدَّدٌ ... سَرِيرَةَ غَيْبٍ دُونَهَا الْحِسُّ يَصْعَقُ؟(١٤)

فَلَا تَتْبِعْ رَيْبَ الظُّنُونِ ، فَكُلُّ مَا ... تَصَوَّرَهُ الْإِنْسَانُ وَهْمٌ مُلَفَّقُ(١٥)

وَلَا تَحْسَبَنَّ الْحَدْسَ يُدْرِكُ مَانَأَى ... فَمَا كُلَّ حِينٍ قَائِفُ الْحَدْسِ يَصْدُقُ(١٦)

= والأصل سر سيراً رويداً . ودونك : أمامك .

يشير إلى عجز الإنسان عن تمزيق حجب الغيب ، وإدراك كنه الوجود ، ومعرفة سرّ الفلك على الرغم من طول النظر والتفكير ، والانهماك فى البحث والاستدلال .

(١٣) الاستفهام فى أول البيت للاستنكار . وتحسب : تظنّ . وحاولت الشىء : رمته وأردته ، وطلبته بالحيلة . وموبق : مهلك .

يستنكر محاولة بعض الناس إدراك الغيب ، ويقول : إنهم لا يجدون سبيلاً إلى ذلك إلا الظنّ ، والظنّ مهلك مضل .

(١٤) الحسّ : الإدراك بالحواسّ . ومحدّد : محدود ، أى له حدّ ونهاية . والسريرة : السرّ الذى يكتم . والغيب : كلّ ماغاب عنك ، ويراد به : ما استأثر الله تعالى بعلمه ، وبجعله مستوراً خفياً عن الناس . ويصعق (كيتعب) : يغشى عليه ويهلك ويموت . وفى القرآن الكريم : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » . أو هو « يصعق » (بالبناء للمجهول) من قولهم : صعقتهم السماء (من باب قطع) إذا ألقت عليهم الصاعقة . والكلام على المجاز . والمراد أن الحس ينقطع قبل الوصول إلى سريرة الغيب .

والمعنى : أنّ الإنسان لا يستطيع أن يدرك ما استأثر الله تعالى به من أمور الغيب ، وأسرار الكون ؛ لأن الإنسان يحسّ ويفكّر فى دائرة محدودة ، من المحال أن تصل إلى مدارك الغيب التى لا تحدّ .

(١٥) الريب : الشكّ . وتصوّره : تخيّله وتوهّم صورته . والوهم : مايقع فى القلب من الخاطر ، أو هو مرجوح طرفى المتردّد فيه . وملفّق : مزخرف مموّه بالباطل .

(١٦) الحدس : الظنّ والتخمين والتوهّم . ونأى : بعد . والقائف : الذى يتتبّع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه ، وقد يطلق على من يعرف النسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود . وقائف الحدس : من يتعرّف الآثار بطريق الحدس والتخمين .

ينهى عن الرجم بالغيب ، واتخاذ التخمين وسيلة لإدراك ما بعد عن فكر الإنسان من أمور الغيب وأسرار الكون ، والشطر الثانى تذييل يراد به تشبيه من يحاول إدراك هذه الأمور بطريق الحدس بمن يقوف الأثر بطريق الحدس ، فإنه لا يصدق فى كلّ حين .

وَأَيْنَ مِنَ الْمَخْلُوقِ إِدْرَاكُ حِكْمَةٍ ... بِهَا يُنْشِئُ اللهُ الْقُرُونَ وَيَمْحَقُ ؟(١٧)

فَلَوْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ حَالَةَ نَفْسِهِ ... كَفَاهُ ، وَلَكِنَّ ابْنَ آدَمَ أَخْرَقُ(١٨)

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَمْلِكْ بَوَادِرَ وَهْمِهِ ... عَنِ الْقَوْلِ فِيمَا لَمْ يُفِدْ فَهْوَ أَحْمَقُ(١٩)

فَإِيَّاكَ وَالدُّنْيَا ، فَإِنَّ نَعِيمَهَا ... يَزُولُ ، وَمَلْبُوسُ الْجَدِيدَيْنِ يَخْلُقُ(٢٠)

فَإِنْ هِيَ أَعْطَتْكَ اللِّيَانَ فَإِنَّهَا ... سَتَخْشُنُ مِنْ بَعْدِ اللِّيَانِ وَتَخْرُقُ(٢١)

فَلَا وُدُّهَا يَبْقَى ، وَلَا صَفْوُ عَيْشِهَا ... يَدُومُ ، وَلَا مَوْعُودُهَا يَتَحَقَّقُ(٢٢)

---

(١٧) أين من المخلوق . . . استفهام يدلّ على بعد ما يحاوله المخلوق، (أى الإنسان) من إدراك حكمة الله تعالى فى الحياة والموت ، والإيجاد والإعدام والحكمة : العدل والعلم ، ووضع الشىء فى موضعه ، وصواب الأمر وسداده ، وهى فى الأصل إتقان القول والفعل وإحكامهما . وينشئ : يخلق ويوجد. والقرون : الأمم والشعوب والأجيال ، المفرد قرن (بفتح فسكون) وهم أهل زمن مخصوص . ويمحق (من باب قطع) : يهلك ويعدم .

(١٨) أخرق : جاهل أحمق .

والمعنى : لو علم الإنسان حقيقة أمره ، وما فطر عليه من عجز وقصور وضعف — لكفاه علمه هذا ، وأغناه عن محاولة ما لا يمكن إدراكه من أسرار الغيب ، وحكمة الإيجاد والإعدام... ولكنه يتمادى فى هذا الأمر لحماقته وجهله .

(١٩) البوادر فى الأصل : جمع بادرة ، اسم فاعل من بدر الإنسان وغيره إلى الشىء ، أى أسرع ، وتطلق على ما يبدر من الغاضب عند حدّته وغضبه من قول أو فعل بلا رويّة ولا تدبّر ، ويراد ببوادر الوهم ، هنا : التصوّرات أو الخواطر السريعة الخاطئة البعيدة عن التدبير والرويّة ، والقائمة على الوهم لا التفكير الصحيح . ويملك : المراد يحبس أو يمنع .

(٢٠) إيّاك والدنيا : تركيب يفيد تحذير المخاطب من الدنيا، وتنبيهه على الاحتراس منها ، وعدم الاغترار بها . والملبوس : ما يلبس ، اسم مفعول من لبست الثوب ونحوه . والجديدان : الليل والنهار ، وملبوس الجديدين : ما يلبسه الجديدان ، ويتعاقبان عليه من الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وكلّ ما فى الحياة الدنيا من عتاد ومتاع . ويخلق: يبلى وتذهب جدّته (وفعله كنصر وكرم وسمع) ، وأخلق إخلاقاً مثله.

(٢١) هى : أى الدنيا . والليان (ككتاب) : ضدّ الخشونة ، وهو اسم من لان الشىء يلين ليناً (بكسر فسكون) ، أو هو الليان (كسحاب) مصدر لان ، كما فى القاموس ، ويطلق مجازاً على لين العيش ورخائه ونعمته. وتخرق : (من بابى نصر وضرب) تكذب ، أو هو من الخرق (بضم فسكون): ضدّ الرفق (بكسر فسكون ، وفعله كفرح وكرم) . والمراد أنها تتنكّر لك ، وتعنف بك وتشتدّ .

(٢٢) الودّ : المودّة والمحبّة ، ويراد به هنا : إقبال الدنيا ومسالمتها. وصفو العيش: رخاء المعيشة=

فَكَمْ أَخْلَفَتْ وَعْدًا ،وَمَلَّتْ صَحَابَةً ... وَخَانَتْ وَفِيًّا ، فَهْيَ بَلْهَاءُ تَنْزَقُ(٢٣)
وَكَيْفَ يَعِيشُ الدَّهْرَ خِلْوًا مِنَ الْأَسَى ... سَقِيمٌ يُغَادَى بِالْهُمُومِ وَيُطْرَقُ ؟(٢٤)
لَعَمْرُ أَبِي إِنَّ الْحَيَاةَ وَإِنْ صَفَتْ ... مَسَافَةَ يَوْمٍ – فَهْوَ صَفْوٌ مُرَنَّقُ(٢٥)
فَفِيمَ يَوَدُّ الْمَرْءُ طُولَ حَيَاتِهِ ... وَفِي طُولِهَا شَمْلُ الْهَنَاءِ مُفَرَّقُ؟(٢٦)

= وطيب الحياة ، وضدّه الكدر . وموعودها : وعدها ، أو ما تعد به من الودّ والصفاء والإقبال ونحوه . ويتحقّق : يصحّ ويثبت .

(٢٣) ملّ الإنسان الشيء، ومن الشيء (من باب تعب) : سئمه، وضجر منه ، وبرم به.والصحابة (بفتح الصاد وكسرها) : الصحبة (بضم فسكون) والمعاشرة ،مصدر صحبه (كسمعه) ، أو هو جمع ، صاحب . والوفيّ : ضدّ الغادر الخائن، صفة من وفى الإنسان بالوعد يفى وفاء ،أى أتمّه وحافظ عليه ، وبلهاء : حمقاء ، صفة من البله (بفتحتين) وهو الحمق وضعف العقل . وتنزق : تطيش وتسيء التصرّف ، من النزق (بفتحتين) ، وهو الطيش والخفّة عند الغضب ، أو هو خفّة فى كلّ أمر ، وعجلة فى جهل وحمق (والفعل كفرح وضرب) .

يقول : إنّ الدنيا كثيراً ما أخلفت وعودها ، ونقضت عهودها ، وسئمت صحبة أصحابها، وبرمت بهم ، وخانت الأوفياء ، وغدرت بهم ، ثم يصمها بالبلاهة والنزق .

(٢٤) الدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، وهو هنا منصوب على الظرفية . وخلواً : خالياً . والأسى : الحزن . وسقيم : مريض . ويغادى : يباكر (بالبناء للمجهول فيهما) أى تغاديه الهموم وتباكره وتنتابه وتصيبه غدوة (بضم فسكون) أى صباحاً . ويطرق : ينزل به ليلاً ، يقال : طرقنا طارق (من باب دخل) إذا جاء ليلاً . والهموم : الأحزان .

والمعنى : أنّ الإنسان يعيش فى الدنيا كالسقيم تغاديه الهموم وتراوحه . وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن يحيا دهره ، ويمضى عمره خالياً من الأسى والهمّ ، بعيداً عن الحزن والغمّ ، ولا يمكن أن يصفو على الدوام عيشه ، وتطيب حياته .

(٢٥) العمر : الحياة ، ولعمر أبى: قسم بحياة أبيه ، وهو مبتدأ محذوف الخبر ، والتقدير لعمر أبى قسمى ، أو المحلوف به ، أو ما أقسم به . ومرنّق : مكدّر ، اسم مفعول من رنّقت الماء ترنيقاً ، أى كدّرته وعكّرته .

والمعنى : أن الحياة لا يمكن أن تطيب لامرئ وتحلو وتصفو من الهموم والأوجاع ، وإذا صفت له يوماً فصفوها مشوب بأكدارها السابقة والمتوقّعة .

(٢٦) فيم : لأىّ شيء . والهناء : يراد به السرور ، وصفو الحياة ، وطيب العيش، وهو فى الأصل اسم من هنأنى الطعام، وهنأ لى ، أى ساغ وطاب وكان هنيئاً . وشمل الهناء: ما اجتمع من دواعيه وأسبابه .=

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مُسْتَعِدٌّ لِوَثْبَةٍ فَحِذْرَكَ مِنْهُ ، فَهْوَ غَضْبَانُ مُطْرِقُ (٢٧)
كَأَنَّ هِلَالَ الْأُفْقِ سَيْفٌ مُجَرَّدٌ عَلَيْنَا بِهِ ، وَالنَّجْمَ سَهْمٌ مُفَوَّقُ (٢٨)
أَبَادَ بَنِيهِ ظَالِمًا غَيْرَ رَاحِمٍ فَيَا عَجَبًا مِنْ وَالِدٍ لَيْسَ يُشْفِقُ (٢٩)
فَلَا تَبْتَئِسْ بِالْأَمْرِ تَخْشَى وُقُوعَهُ فَقَدْ يَأْمَنُ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ يَفْرَقُ (٣٠)

= والمعنى : لأىّ شىء يحبّ الإنسان أن يطول عمره ، ويتمنّى فسحة الأجل فى حياة مقفرة من الهناءة ، خالية من الراحة .

(٢٧) حذرك منه : الزم حذرك منه ، والحذر : التحرّز والتيقّظ والتوقّى والاحتراس. ومطرق : اسم فاعل من أطرق الإنسان إطراقاً ، أى أرخى عينيه ونظر إلى الأرض ، وسكت ولم يتكلّم .

والمعنى : أنّ الدهر كالأسد ونحوه يستر غضبه بإطراقه ، ويخفى ما يتأهّب له من الوثوب والبطش ؛ ولهذا وجب أن نحذره ونحترس منه ، ولا نغترّ بهدوئه الموقوت ، وهذا شبيه بقول الشاعر :

وما الدهر فى حال السكون بساكن ولكنّه مستجمع لوثوب

(٢٨) الهلال : غرّة القمر ، أو القمر لليلتين ، أو إلى ثلاث ليال ، ولليلتين من آخر الشهر تُبَيْلَ السرار . والأفق : ما ظهر من نواحى الفلك ، أو الناحية من الأرض ، ومن السماء. ومجرّد : مسلول مخرج من غمده ، وذلك عند الكفاح والقتال . وبه : من الدهر ، أو بسببه . والسهم : مايرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها . وتفويق السهم : كتجريد السيف ، أى إعداده للرّمى بوضعه فى وتر القوس ، وفى أساس البلاغة : « وفوّق السهم : جعل الوتر فى فوقه (بضم فسكون) عند الرمى » اهـ ، ومفوّق اسم مفعول من هذا .

يتخيّل الشاعر أنّ هلال الأفق سيف مسلول علينا من الدهر ، وأن النجم سهم مفوّق إلينا منه .

(٢٩) أباد : أهلك وقتل . وقد جعل الناس أبناء الدهر على التجوّز ؛ لأنهم يحيون فيه ، وفيه يولد الطفل وينمو ويترعرع ، ثم يشبّ ويقوى ، ثم يشيب ويهرم ويضعف . ويشفق : يرحم ، من الإشفاق ، وهو رحمة ورقّة وخوف من حلول المكروه بالمشفق عليه مع نصح .

(٣٠) لاتبتئس : لاتحزن ، ولا تهتمّ . وتخشى : تخاف وتتّقى . ويفرق : يفزع ويخاف (وبابه تعب) .

يقول : لا تحزن ، ولا تهتمّ بما تخشى وقوعه ، وتخاف نزوله بك من أمور الدهر ، وأحوال الحياة ، فكثيراً ما يجد الإنسان أسباب الأمن والطمأنينة والسلامة فى مواضع الفزع والوحشة والهلاك .

فَمَا كُلُّ مَا تَهْوَاهُ يَأْتِيكَ بِالْمُنَى ... وَلَا كُلُّ مَاتَخْشَاهُ فِى الدَّهْرِ يَطْرُقُ(٣١)

وَكُنْ وَاثِقًا بِاللهِ فِى كُلِّ مِحْنَةٍ ... فَلَلَّهُ أَوْلَى بِالْعِبَادِ وَأَرْفَقُ(٣٢)

وَقَالَ* وَهُوَ « بِسَرَنْدِيبَ » :

أَسَلَّةُ سَيْفٍ ، أَمْ عَقِيقَةُ بَارِقِ ... أَضَاءَتْ لَنَا وَهْناً سَمَاوَةَ بَارِقِ(١)

لَوَى الرَّكْبُ أَعْنَاقاً إِلَيْهَا خَوَاضِعاً ... بِزَفْرَةِ مَحْزُونٍ ، وَنَظْرَةِ وَامِقِ(٢)

---

(٣١) تهواه : تحبّه وتشتهيه . والمنى : جمع منية (بضم فسكون) وهى مايتمنّاه الإنسان و يبتغيه و يتوق إليه . ويطرق (من باب دخل) : يأتى ، من الطروق ، وهو الإتيان ليلاً .

والمعنى : أن الإنسان قد يهوى الأمر ويحبّه ويشتهيه ، ولكنه مع ذلك لا يحقّق له منية ولا أملاً ، وقد يخشى الأمر ويخافه ويكرهه ، ولكنه مع ذلك لا يطرقه ، ولا يصيبه منه سوء .

(٣٢) المحنة : اسم من محنه (من باب منع) أى امتحنه وابتلاه واختبره. وأولى: أحقّ وأجدر . وأرفق : اسم تفضيل من الرفق (بكسر فسكون) وهو اللطف والبرّ والرحمة .

* جاءت هذه القصيدة فى واحد وخمسين بيتاً ، نشر منها فى الطبعات السابقة أربعة وأربعون بيتاً . ونشرت فى هذه الطبعة تامة كاملة بإضافة سبعة الأبيات : (٣٣ — ٣٩)

(١) الهمزة فى أول البيت للاستفهام ، وهو من تجاهل العارف . وسلّة : اسم مرّة من سلّ الرجل سيفه (من باب ردّ) ، أى انتزعه وأخرجه من غمده . والعقيقة : مايبقى فى السحاب من شعاع البرق ، أوهى البرقة التى تستطيل وتمتدّ فى عرض السحاب . والبارق : سحاب ذو برق . ووهناً : فى نصف الليل ، أو بعد ساعة منه ، أو الوهن : حين يدبر الليل . والسماوة: السماء . وبارق : موضع قريب من الكوفة ، وقد أراد به الشاعر هنا : وطنه وديار أهله .

رأى الشاعر وهو فى منفاه ، أو وهو فى طريقه إليه بعد ساعات من الليل برقة مستطيلة فى عرض السحاب ، تلمع فى الأفق ، من ناحية الديار المصرية ، فسأل متجاهلاً : أهى سيف لامع مسلول ، أم برقة مستطيلة سطعت فى سماء مصر ، فذكّرته أهله ، وأذكت حنينه إليهم .

(٢) الركب : ركّاب الإبل فى السفر ، وهم العشرة فما فوقها ، وقد يطلق على ركبان الخيل وغيرها مفرده راكب (كصاحب وصحب) . و إليها : إلى البرقة المستطيلة التى سطعت فى « سماوة بارق » . ولىّ جماعة الراكبين أعناقهم إليها : كناية عن هيامهم ، وشدّة تعلّقهم ، وفرط اشتياقهم . وخواضع : جمع خاضع أو خاضعة ، وهو نعت لأعناق. والزفرة : إخراج النفَس طويلاً ممدوداً ، كما يفعل المهموم والمحزون . وو امق : اسم فاعل من ومقه (كورثه) ، أى أحبّه وأغرم به وتعلّق .

يشير إلى شدّة تعلّقهم بالديار التى غادروها على الرغم منهم ، فهم يلوون إليها أعناقهم ، ويزفرون زفرات الحسير المحزون الآسف على الفراق ، وهم ينظرون إليها نظرة المحبّ الوامق .

وفى حَرَكَاتِ الْبَرْقِ لِلشَّوْقِ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى مَا جَنَّهُ كُلُّ عَاشِقِ (٣)
تَفُضُّ جُفُوناً عَنْ دُمُوعٍ سَوَائِلٍ ... وَتَفْرِى صُدُورًا عَنْ قُلُوبٍ خَوَافِقِ (٤)
وكَيْفَ يَعِى سِرَّ الْهَوَى غَيْرُ أَهْلِهِ ... وَيَعْرِفُ مَعْنَى الشَّوْقِ مَنْ لَمْ يُفَارِقِ (٥)
لَعَمْرُ الْهَوَى إِنِّى لَدُنْ شَفَّنِى النَّوَى ... لَفِى وَلَهٍ مِنْ سَوْرَةِ الْوَجْدِ مَاحِقِ (٦)
كَفَى بِمُقَامِى فِى «سَرَنْدِيبَ» غُرْبَةً ... نَزَعْتُ بِهَا عَنِّى ثِيَابَ الْعَلَائِقِ (٧)

---

(٣) آية : علامة . وجنّه : ستره وأخفاه (و بابه دخل) .

والمعنى : أنّ حركات البرق وخفقاته تهيج شوق المشوق، وتظهر ما يحرص كلّ عاشق على إخفائه من حرق الوجد ، وتباريح الغرام .

(٤) تفضّ : تزيل وتكشف ، والفضّ فى الأصل : الكسر بالتفرقة ، تقول : فضضت ختم الكتاب وغيره (و بابه ردّ) . والجفون : جمع جفن (بفتح فسكون) وهو غطاء العين من أعلاها وأسفلها . وسوائل : جمع سائل . وتفرى : تشقّ وتقطع (و بابه رمى) . وخوافق : جمع خافق ، اسم فاعل من خفق القلب (كنصر وضرب) ، أى اضطرب .

والمعنى : أنّ حركات البرق التى جعلها الشاعر فى البيت السابق مثاراً للشوق، ودليلاً على ما يخفيه كلّ مشوق عاشق — تغرى هؤلاء العاشقين بالبكاء ، وتظهر خفقان قلوبهم .

(٥) يعى : يحفظ و يعرف . والهوى : الحبّ .

يقول : إنه لا يدرك سرّ الهوى إلاّ المحبّون، ولا يعرف معنى الشوق إلا المشتاق الذى فارق حبيبه ، وذاق ألم الفرقة ، وحرقة الصبابة .

(٦) لعمر الهوى : قسم بحياة الهوى . ولدن : ظرف زمانىّ بمعنى منذ . وشفّنى : هزلنى وأضنانى وأضعفنى . والنوى : البعد . والوله : شدّة الحزن ، أو ذهاب العقل من الحزن . والوجد : الحبّ والصبابة والشوق . وسورة الوجد : حدّته وشدّته . وماحق : مهلك ، اسم فاعل من محقه (من باب نفع) ، أى أزاله ومحاه .

(٧) مقامى : إقامتى ، وهو مصدر ميمىّ من أقمت بالمكان ، أى اتّخذته وطناً . والغربة : الاغتراب وهو الابتعاد عن الوطن . والعلائق : الصلات والروابط ، الواحدة علاقة (بفتح العين) ، والعلاقة أيضاً : الصداقة ، والخصومة ، وما يتعلق به الرجل فى معيشته من حرفة أو ضيعة ، أو صناعة وغيرها ، وما يتبلّغ به من عيش .

يريد أن سرنديب مكان سحيق بعيد ، وأن إقامته بها غربة ليس مثلها غربة وقد قطعت ما كان بينه وبين وطنه وأهله من روابط وصلات وأسباب .

وَمنْ رَامَ نَيْلَ الْعِزِّ فَلْيَصْطَبِرْ عَلَى ... لِقَاءِ الْمَنَايا ، وَاقْتِحَامِ الْمَضَايِقِ (٨)

فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ رَنَّقْنَ مَشْرَبِي ... وَثَلَّمْنَ حَدِّي بِالْخُطُوبِ الطَّوَارِقِ (٩)

فَمَا غَيَّرَتْنِي مِحْنَةٌ عَنْ خَلِيقَتِي ... وَلَا حَوَّلَتْنِي خُدْعَةٌ عَنْ طَرَائِقِي (١٠)

وَلَكِنَّنِي بَاقٍ عَلَى مَا يَسُرُّنِي ... وَيُغْضِبُ أَعْدَائِي، وَيُرْضِي أَصَادِقِي (١١)

فَحَسْرَةُ بُعْدِي عَنْ حَبِيبٍ مُصَادِقٍ ... كَفَرْحَةِ بُعْدِي عَنْ عَدُوٍّ مُمَاذِقِ (١٢)

فَتِلْكَ بِهَذِي ، وَالنَّجَاةُ غَنِيمَةٌ ... مِنَ النَّاسِ ، وَالدُّنْيَا مَكِيدَةُ حَاذِقِ (١٣)

---

(٨) رام : أراد وطلب (وبابه قال) . والمنايا : جمع منيّة ، وهى الموت . والاقتحام : مصدر اقتحم فلان عقبة أو وهدة أو نهراً ، أى رمى بنفسه فيها على شدّة ومشقّة . والمضايق : الصعاب والشدائد ، المفرد مضيق (بفتح فكسر فسكون) .

(٩) رنّقن : كدّرن وعكّرن . وثلّمن : فللن وكسرن . وحدّى : بأسى وقوّتى ، من قولهم : لفلان جدّ وحدّ . والخطوب : النوازل والشدائد ، الواحد خطب (بفتح فسكون) . والطوارق : جمع طارق ، اسم فاعل من طرق الطارق الباب ، أى قرعه ، أو من طرقنا فلان طروقاً ، أى جاءنا ليلاً ، ومن المجاز طرقه الهمّ ، وطرقه الزمان بنوائبه ، وأصابته طارقة من الطوارق . ونعوذ بالله من طوارق السوء . وترنيق الأيام مشربه : إساءة الدهر إليه ، وتعكيره عيشه ، وتكديره صفو حياته .

(١٠) المحنة : البلوى ، وهى اسم من محنته محناً (من باب نفع) أى اختبرته وبلوته وامتحنته . والخليقة : الطبيعة . والخدعة (بفتح الخاء وضمها و كسرها) : الخديعة ، وهى اسم من خدعه (كمنعه) . أى ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . والطرائق : جمع طريقة ، وهى المذهب ، يقال : ما زال فلان على طريقة واحدة ، أى حالة واحدة .

(١١) أصادق : أصدقائى وأحبّائى .

(١٢) الحسرة : الأسف والحزن ، أوهى أشدّ التلهّف على الشىء الفائت . ومماذق : غير مخلص ، اسم فاعل من ماذقه فى الوداد مذاقاً ، أى كذب ونافق ولم يخلص .

يقول : إنّ ما يجده فى منفاه من الحسرة والأسف على فراق أحبّائه المخلصين مثل ما يجده من الفرح والسرور ببعده عن أعدائه المنافقين .

(١٣) تلك : إشارة إلى الحسرة فى البيت السابق . وهذى : إشارة إلى الفرحة . والمكيدة : اسم من كاده كيداً (من باب باع) ، أى خدعه ، ومكر به . وحاذق : صفة من الحذق ، وهو المهارة ، يقال : حذق الرجل فى صناعته ، إذا مهر فيها ، وعرف غوامضها ودقائقها ، وحذق الصبىّ القرآن أى أتمّ قراءته ، وحذق العامل العمل (كضرب وعلم) .

يقول : إذا وازن بين ألمه لبعده عن أحبّائه ، وسروره لبعده عن أعدائه ، تعادلت الكفّتان ، =

أَلَا ، أَيُّهَا الزَّارِى عَلَىَّ بِجَهْلِهِ ... وَلَمْ يَدْرِ أَنِّى دُرَّةٌ فِى الْمَفَارِقِ (١٤)

تَعَزَّ عَنِ الْعَلْيَاءِ بِاللُّؤْمِ ، وَاعْتَزِلْ ... فَإِنَّ الْعُلَا لَيْسَتْ بِلَغْوِ الْمَنَاطِقِ (١٥)

فَمَا أَنَا مِمَّنْ تَقْبَلُ الضَّيْمَ نَفْسُهُ ... وَيَرْضَى بِمَا يَرْضَى بِهِ كُلُّ مَائِقِ (١٦)

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْهَضْ لِمَا فِيهِ مَجْدُهُ ... قَضَى وَهْوَ كَلٌّ فِى خُدُورِ الْعَوَاتِقِ (١٧)

= وبقى له فوق هذا أنه غنم النجاة والسلامة من معاشرة الناس ومخالطتهم، ووجد راحته فى العزلة والانفراد . ثم ذيّل الكلام بما يدلّ على تحقيره للدنيا ، وهوانها عليه ، فقال : إنها خدعة ومكيدة دبّرها ماكر حاذق ، فلا ينخدع بها إلا الغافلون .

فى الأصل المخطوط : « والدنيا خديعة ماذق » . وفى الهامش بإزاء هذا البيت : « مكيدة حاذق » . ولاريب أن العبارة الأولى معدول عنها إلى الثانية. وهذا مثال من أمثلة التنقيحات التى جاءت فى الأصل المخطوط ، ورأينا أن يقف عليها القارئ والدارس . ومذق الودّ (من باب نصر) : شابه ، ولم يخلصه . وماذق ، ومماذق : أى منافق مخادع ، كاذب الودّ .

(١٤) الزارى : اسم فاعل من زرى عليه (من باب رمى) : أى عابه ، أواستهزأ به ، أوأنكرعليه فعله. وبجهله : بسبب جهله ، وقلّة درايته ، ونقص خبرته . والدرّة : اللؤلؤة العظيمة . والمفارق: جمع مفرق (كمسجد ومقعد) ، وهو وسط الرأس حيث يفرق الشعر .

يصم الزارى عليه بالجهل وقلّة الدراية ، ويفخر بأنه درّة فى المفارق ، وهذا كناية عن الرفعة والشهرة وجلال الشأن .

(١٥) تعزّ : أمر من التعزّى ، وهو التصبّر والتسلّى والتأسّى. واللغو : أخلاط الكلام وباطله والمناطق : جمع منطق ، وهو القول .

والمعنى : أن الشرف والرفعة والعلا ليست لغواً من القول وباطلا ، وإنّما هى منازل رفيعة ، ودرجات فى الحياة عالية ، لا يدركها إلا كريم . وإذ كان الزارى عليه لئيماً فى رأيه ، فقد هجاه بقوله : تعزّ بلؤمك عن العلياء واجتنبها ؛ فإنها لا تنال بما يشين مثلك من الهذر ولغو القول و باطل الكلام .

(١٦) الضيم : الظلم . ومائق : أحمق غبىّ .

يفخر بإباء الضيم ، وعزّة النفس ، والترفّع عن الدنايا والنقائص وسفساف الأمور .

(١٧) المجد : العزّ والشرف والرفعة والعلاء . وقضى: هلك ومات . وكلٌّ: ثقيل ، لاخير فيه . وخدور : جمع خدر ، وهو الستر (بكسر فسكون فيهما) ، ويطلق الخدر على البيت إن كان فيه امرأة ، ومنه جارية مخدّرة ، إذا لزمت الخدر . والعواتق : جمع عاتق، وهى الشابّة أول ماأدركت ، أو الجارية التى لم تتزوّج ، أو التى بين الإدراك والتعنيس .

وَأَيُّ حَيَاةٍ لِامْرِئٍ إِنْ تَنَكَّرَتْ لَهُ الْحَالُ لَمْ يَعْقِدْ سُيُورَ الْمَنَاطِقِ؟(١٨)
فَمَا قُذُفَاتُ الْعِزِّ إِلَّا لِمَاجِدٍ إِذَا هَمَّ جَلَّى عَزْمُهُ كُلَّ غَاسِقِ(١٩)
يَقُولُ أُنَاسٌ ، إِنَّنِي ثُرْتُ خَالِعاً وَتِلْكَ هَنَاتٌ لَمْ تَكُنْ مِنْ خَلَائِقِي(٢٠)
وَلَكِنَّنِي نَادَيْتُ بِالْعَدْلِ طَالِباً رِضَا (اللهِ) ،وَاسْتَنْهَضْتُ أَهْلَ الْحَقَائِقِ(٢١)
أَمَرْتُ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَنْكَرْتُ مُنْكَرًا وذَلِكَ حُكْمٌ فِي رِقَابِ الْخَلَائِقِ(٢٢)
فَإِنْ كَانَ عِصْيَاناً قِيَامِي ، فَإِنَّنِي أَرَدْتُ بِعِصْيَانِي إِطَاعَةَ خَالِقِي(٢٣)

(١٨) تنكّرت : تغيّرت ، يقال : تنكّر لي فلان ، أي لقيني لقاء بشعاً. والسيور : جمع سير (بفتح فسكون) وهو مايقدّ من الجلد . والمناطق : جمع منطق أومنطقة (بكسر فسكون ففتح فيهما) ، وهو كلّ ماشددت به وسطك، ومثلهما النطاق (ككتاب) ، وقريب منه الحزام ، و إنما يكون الانتطاق عند معاناة الأشغال . وعقد سيور المناطق : كناية عن الاستعداد للأمر ، ومن كلامهم : شددت لهذا الأمر حزامي ، أي استعددت له ، وتشمّرت ، وتهيّأت لملاقاته .

والمعنى : أنّ الإنسان لا يحيا حياة طيّبة صالحة عزيزة رفيعة ،إلا إذا كان شجاعاً مقداماً، يلقى الأمور بيأس شديد ، وعزم حديد ، كلّما تنكّرت له الحال ، ولقيته الحوادث بما لا يحبّ.

(١٩) العزّ : الرفعة والشرف والعلاء، وضدّه الذلّ . وقذفاته : أعاليه ، ومراتبه الرفيعة ، ودرجاته السامية ، وهو مستعار من قذفات الجبل ، وهي أعاليه ونواحيه البعيدة ، وقذفات القصور والمساجد ونحوها ، وهي شرفاتها، الواحدة قذفة (بضم فسكون) . وماجد : صفة من المجد . وهمّ بالشيء : أراده (وبابه ردّ) .وجلّى: كشف . والعزم : الإرادة القويّة القاطعة . وغاسق : مظلم .

(٢٠) خالعاً : خارجاً عن الطاعة . وهنات: خصال سوء . وخلائقي : طبائعي ، الواحدة خليقة ، وهي الطبيعة والخلُق والسجيّة .

(٢١) في الأصل المخطوط نقص. ولفظ الجلالة (الله) تكملة أقمنا بها وزن البيت، وأتممنا بها معناه . واستنهضته للأمر : دعوته إليه ، وحضضته عليه : والحقائق : جمع الحقيقة ، وهي مايحقّ عليك أن تحميه ، وما يلزمك الدفاع عنه ، والمراد بأهل الحقائق : حماة البلاد ، والذائدون عن الوطن والحافظون لحقوقه ، أوهو يريد : أهل الحقّ الذين يعرفونه ، ويستجيبون له ، أو المراد : الذين يعرفون حقائق الأمور .

(٢٢) ذلك : يشير إلى الأمر بالمعروف ، وإنكار المنكر ، والنهي عنه . وحكم : المراد أمر مقضيّ، وشيء واجب الأداء . والخلائق: جمع الخليقة ، وهي الخلق (بفتح فسكون) والناس .

(٢٣) المعنى : فإن عدّ بعض الناس ما قمت به ثورة وعصياناً ، فما أردت بهذا العصيان إلاطاعة الله تعالى ، من المناداة بالعدل ، والأمر بالمعروف، وإنكار المنكر ، والدعوة إلى الشورى .

وَهَلْ دَعْوَةُ الشُّورَى عَلَيَّ غَضَاضَةٌ ... وَفِيهَا لِمَنْ يَبْغِي الْهُدَى كُلُّ فَارِقِ؟(٢٤)

بَلَى ، إِنَّها فَرْضٌ مِنَ اللهِ وَاجِبٌ ... عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْ مَسُوقٍ وَسَائِقِ(٢٥)

وَكَيْفَ يَكُونُ الْمَرْءُ حُرًّا مُهَذَّباً ... وَيَرْضَى بِمَا يَأْتِي بِهِ كُلُّ فَاسِقِ؟(٢٦)

فَإِنْ نَافَقَ الْأَقْوَامُ فِي الدِّينِ غَدْرَةً ... فَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ غَيْرُ مُنَافِقِ(٢٧)

عَلَى أَنَّنِي لَمْ آلُ نُصْحاً لِمَعْشَرٍ ... أَبَى غَدْرُهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا قَوْلَ صَادِقِ(٢٨)

---

(٢٤) الشورى : اسم من تشاور القوم ، واشتوروا ، وشاورته فى كذا ، واستشرته ؛ أى راجعته ؛ لأرى رأيه فيه ، فأشار علىّ بكذا ، أى أرانى ماعنده فيه من المصلحة ، وفى القرآن الكريم : « وأمرهم شورى بينهم » أى لايستأثر أحد منهم بالرأى دون غيره . وغضاضة : نقص وعيب ، من قولهم : ليس عليه فى هذا الأمر غضاضة ، ولحقته من كذا غضاضة ، أى ذلّة ومنقصة وعيب . وفيها : فى الشورى ويبغى : يريد ويطلب والهدى : الرشاد والدلالة والصلاح . وكلّ فارق : المراد كلّ فارق بين الحقّ والباطل ، والهدى والضلال ، والصلاح والفساد ..

والمعنى : أنه لايرى فى دعوته إلى حكم الشورى عيباً ولا نقصاً ؛ لما فى هذا الحكم من تمحيص للآراء ، وتفرقة بين الحقّ والباطل ، وإصابة شاكلة الصواب فى أمور الناس ومصالحهم .

(٢٥) بلى : حرف جواب ويريد بالمسوق : المحكوم ، وبالسائق : الحاكم

يقول : إنّ الشورى فرض حتمه الله تعالى وأوجبه على الناس جميعاً محكومين وحاكمين ، ولعلّه يشير إلى قول الله تعالى مخاطباً نبيّه محمداً صلّى الله عليه وسلّم :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » ١٥٩ ــ سورة آل عمران . وقوله تعالى فى سياق مدح المؤمنين : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » ٣٨ ــ سورة الشورى .

(٢٦) فاسق : اسم فاعل من الفسوق ، وهو مخالفة أمر الله تعالى ، والخروج عن طاعته

(٢٧) نافق : أظهر غير مايضمر ، وقد جعل رضاهم بما يأتى به الفاسقون نفاقاً فى الدين ؛ لأنهم رضوا بما حرّم الله ، فكأنهم منافقون لم يصل الإيمان إلى قلوبهم

(٢٨) لم آل نصحاً : لم أقصّر فى إسداء النصح . والمعشر : الجماعة من الناس .

رَأَوْا أَنْ يَسُوسُوا النَّاسَ قَهْرًا ، فَأَسْرَعُوا   إِلَى نَقْضِ مَا شَادَتْهُ أَيْدِي الْوَثَائِقِ (٢٩)
فَلَمَّا اسْتَمَرَّ الظُّلْمُ قَامَتْ عِصَابَةٌ   مِنَ الْجُنْدِ تَسْعَى تَحْتَ ظِلِّ الْخَوَافِقِ (٣٠)
وَشَايَعَهُمْ أَهْلُ الْبِلَادِ ، فَأَقْبَلُوا   إِلَيْهِمْ سِراعاً بَيْنَ آتٍ وَلَاحِقِ (٣١)
يَرُومُونَ مِنْ مَوْلَى الْبِلَادِ نَفَاذَ مَا   تَأَلَّاهُ مِنْ وَعْدٍ إِلَى النَّاسِ صَادِقِ (٣٢)
فَلَمَّا أَبَى الْحُكَّامُ إِلَّا تَمَادِياً   وَحَالَ طِلَابُ الْحَقِّ دُونَ التَّوَافُقِ (٣٣)

---

(٢٩) يسوسون الناس : يحكمونهم ، ويقومون بأمورهم ، ويدبّرون شئونهم ، ويتولّون رياستهم وقيادتهم . (وفعله كقال ، ومصدره السياسة) . والقهر : القسر والغلبة والإكراه ، مصدر قهره (كمنعه) . والنقض : مصدر نقضت البناء ونحوه (وبابه نصر) . وشاد الإنسان القصر ونحوه (من باب باع) : رفعه ، أو طلاه بالشيد (بكسر الشين) وهو الجصّ (بكسر الجيم وفتحها) . والوثائق : جمع وثيقة ، وهى إحكام الأمر ، والأخذ فيه بالثقة ، ويراد بالوثائق هنا : المواثيق والعهود .

(٣٠) عصابة : جماعة . ويراد بالخوافق : الرايات والأعلام ، جمع خافق أو خافقة ، اسم فاعل من خفقت الراية ونحوها ، أى تحرّكت واضطربت . والسعى تحت ظلّ الخوافق : كناية عن الالتجاء إلى القوّة . أو هو وصف لتجمهر الجنود المصريين وقد بسطوا أعلامهم ورفعوها فوقهم .

(٣١) شايعهم : تابعهم .

(٣٢) يروم : يريد ويطلب . ومولى البلاد : سيّدها وحاكمها ، والمراد به الخديو « توفيق باشا » . وتألاّه : أقسم عليه وحلف .

(٣٣) « لمّا » : ظرف لفعل وقع لوقوع غيره . أو حرف يختصّ بالماضى ، ويقتضى جملتين ، وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما . والجملة الثانية هنا محذوفة . والتقدير : فلمّا أبى الحكّام ... اتّقدت الثورة . ويريد بالحكّام : بطانة الخديو توفيق ووزراءه الذين أعانوه على خلف الوعد ، وزيّنوا له الاستبداد بالحكم ، والتنكّر لدعاة الشورى . وتمادى فى غيّه تمادياً : لجّ فيه ، ودام عليه ، وبلغ مداه ، أى غايته . والتوافق : التقارب والاتفاق . ومعنى الشطر الثانى : أن المطالبة بالحقوق الوطنية منعت الاتفاق بين المطالبين بها والمنكرين لها ، وأشعلت نار الفتنة .

فى ثلاثة الأبيات السابقة : أنه لمّا استمرّ الظلم ثار الجيش بتأييد من أهل البلاد ، وطلب من الخديو توفيق الوفاء بما وعد به ، وأقسم عليه من إقامة الحكم على أساس العدل والشورى . وفى هذا البيت : أن الحكّام كرهوا الحقّ ، وتمادوا فى الغىّ ، فتعصّى الاتفاق ، واتّقدت الثورة ، وساءت العاقبة .

أُنَاسٌ شَرَوْا خِزْيَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى نِفَاقاً ، وَبَاعُوا الدِّينَ مِنْهُمْ بِدَانِقِ (٣٤)
فَجَاءُوا إِلَيْهِمْ يَنْصُرُونَ ضَلَالَهُمْ بِخُدْعَةِ مُغْتَالٍ ، وَحِيلَةِ سَارِقِ (٣٥)
فَلَمَّا اطْمَأَنُّوا فِي الْبِلَادِ ، وَأَيْقَنُوا بِعَجْزِ الْمُحَامِي دُونَهَا وَالْمُوَاثِقِ (٣٦)
أَقَامُوا ، وَقَالُوا : تِلْكَ يَاقَوْمُ أَرْضُنَا وَمَا أَحَدٌ مِنَّا لَهَا بِمُفَارِقِ (٣٧)

---

(٣٤) الأناس : الناس : ويراد بهم « الحكّام » : أى حاشية الخديو توفيق الذين شايعوه ومالئوه على الظلم . وشروا : اشتروا . والخزى : الذلّ والهوان ، والشرّ والبلاء ، والافتضاح والانكسار (وفعله من باب علم) . وخزى الضلالة : الضلالة المخزية المردية . ونافق نفاقاً : أظهر خلاف ما يبطن. والدانق (بفتح النون وكسرها) : سدس الدرهم . والدرهم : قطعة من فضّة مضروبة للمعاملة . وباعوا الدين منهم بدانق : أى باعوا دينهم بثمن بخس .

وصمهم بالخزى والهوان ، والنفاق والرياء ، والانحراف عن الحقّ والدّين ، واجتناب الهدى والرشاد ، والتجرّد من الصدق والإخلاص .

(٣٥) الخدعة (مثلثة الخاء) : الحيلة الممقوتة ، والمكر السيّئ ، وما يخدع به الإنسان : من خدعه (من باب قطع) : أى ختله ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وألحق به المكروه من حيث لا يعلم . ومغتال : اسم فاعل من اغتاله اغتيالا : أى أخذه من حيث لا يدرى ، وقتله غيلة : أى بالخديعة . أو أهلكه على غرّة : أى على غفلة .

فى البيتين السابقين ندّد بمخازى الحكّام المنافقين المتمادين فى الغىّ والضلال . وفى هذا البيت قال : إن الإنجليز وأمثالهم من الطامعين فى احتلال البلاد وإذلالها ونهب كنوزها وخيراتها — أقبلوا على الخديو توفيق وحاشيته وهؤلاء الحكّام بخدع المغتالين ، وحيل اللصوص السارقين ، ينصرون ضلالهم ، ويؤيّدون باطلهم ، ويشجّعونهم على خيانة وطنهم ، والكيد لأبنائه المخلصين.

(٣٦) المحامى : المدافع : اسم فاعل من حامى عنه محاماة : أى دافع عنه ، وانتصر له . والمواثق : المعاهد : اسم فاعل من واثقه : أى عاهده ، وحالفه ، وعاقده ، وأعطاه الموثق والضمان ، والذمّة والأمان . ويراد بالمحامين والمواثقين : الوطنيون المخلصون الصادقون من رجال الثورة العرابية الذين تواثقوا على الدفاع عن وطنهم ، ونصرته وحمايته ، والجهاد فى سبيل عزّته .

(٣٧) معنى هذا البيت والذى قبله : أن الإنجليز استغلّوا ضلالة الحكّام الذين ندّد بهم الشاعر فى ثلاثة الأبيات السابقة (٣٣ — ٣٥) ، واستعانوا بهم على تثبيت احتلالهم العسكرىّ للبلاد ، وكسر شوكة المدافعين عنها ، والمنتصرين لها من رجالها المخلصين الصادقين ؛ وبهذا =

وَعَاثُوا بِهَا ،يَنْفُونَ مَنْ خِيفَ بَأْسُهُ عَلَيْهِمْ ،وَكَانَتْ تِلْكَ إِحْدَى الْبَوَائِقِ (٣٨)

وَأَصْبَحَ وَادِي النِّيلِ نَهْباً ،وَأَصْبَحَتْ إِمَارَتُهُ الْقَعْسَاءُ نُهْزَةَ مَارِقِ (٣٩)

= اطمأنوا فيها ، واستقرّ بهم المقام ، وزعموا أن الأرض أرضهم ، وأن إقامتهم فيها باقية دائمة ، ولن يفارقها أحد منهم . وقد يكون الهجاء فى الأبيات السابقة واللاحقة لبطانة الخديو « توفيق » ومن أسند إليهم الحكم من المصريين المنافقين ، وهذا ظاهر راجح .

(٣٨) عاثوا : أفسدوا (وبابه باع) . والبأس : الشجاعة والقوّة والشدّة . والبوائق : الشرور ، والغوائل والدواهى : جمع بائقة : وهى الغَشْم ، والظلم ، والنازلة ، والداهية ، والشرّ الشديد . و « تلك » : إشارة إلى نفيهم من خافوا بأسه وشجاعته وانقضاضه عليهم .

عرّض الشاعر بمساوى المحتلّين الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وأبعدوا عنها من خافوا بأسه من الوطنيين ، وكان النفى والإبعاد من ظواهر حكمهم الغاشم ، وسياستهم العاتية ، ومن بوائقهم وشرورهم الشديدة . وقد يكون التعريض بالحكّام المصريين الذين امتطاهم المحتلّون ، وسخّروهم لنفى ذوى البأس من الوطنيين ، والتنكيل بالأعزّة الكرام الأحرار . ومنهم البارودىّ .

(٣٩) وادى النيل : مصر والسودان ، وملحقاته ، وما كان تحت سيطرة مصر من البلاد الإفريقية. والنهب : الغنيمة ، والشىء المنهوب . ونهب الشىء (من باب نفع) : أخذه قهراً . والإمارة : الولاية والحكم والسلطان . أو منصب الأمير : وهو الوالى والحاكم والملك . والقعساء : العزيزة المنيعة الثابتة . والنهزة : الفرصة (بضمّ فسكون فيهما) . ومن كلامهم : « هو نهزة المختلس » : أى صيد لكل أحد . ومارق : اسم فاعل من مرق من دينه (من باب خرج) : أى خرج منه بضلالة أو بدعة .

أخفقت الثورة العرابيّة ، فوقعت مصر فى قبضة الاحتلال العسكرىّ الإنجليزىّ ، وأصبح وادى النيل غنيمة باردة لكلّ مختلس وناهب ، وهانت إمارته ومناصب الحكم فيه بعد عزازة ومناعة ؛ فانتهزها كلّ مارق ضالّ .

وفى معنى كلمة « مارق » تكرار أو تلخيص لما أشار إليه الشاعر فى الأبيات (٣٣ — ٣٥) من كراهية الحكّام للحقّ وإمعانهم فى الضلال ، وتفريطهم فى الدين ، وانخداعهم بدعايات المعتدين ، وحيل السارقين ، وخدائع المغتالين .

وإن صحّ أن هذا البيت والأبيات السابقة تحمل تعريضاً بالإنجليز فإنه غير واضح ولهذا رجّحنا أن الشاعر يعرّض بمن يمقتهم من الحكّام المصريين وبطانة الخديو توفيق .

هذه سبعة أبيات (٣٣ — ٣٩) (فلمّا أبى الحكام . . . . . نهزة مارق) لم تنشر فى الطبعات السابقة . وبنشرها اليوم تمّت هذه القصيدة وعدد أبياتها واحد وخمسون بيتاً .

وقد اجتهدنا أن تكون هذه الطبعة وافية مستوعبة لكلّ مالم ينشر من شعر البارودىّ .

فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ،فَلَا تَسَلْ سِوَاىَ؛ فَإِنِّى عَالِمٌ بِالْحقَائِقِ(٤٠)
فَيَا «مِصْرُ» !مَدَّاللهُ ظِلَّكِ ، وَارْتَوَى ثَرَاكِ بِسَلْسَالٍ مِنَ النِّيلِ دَافِقِ(٤١)
وَلَا بَرِحَتْ تَمْتَارُ مِنْكِ يَدُالصَّبَا أَرِيجاً يُدَاوِى عَرْفُهُ كُلَّ نَاشِقِ(٤٢)
فَأَنْتِ حِمَى قَوْمِى ، وَمَشْعَبُ أُسْرَتِى وَمَلْعَبُ أَتْرَابِى،وَمَجْرَى سَوَابِقِى(٤٣)
بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِى وَنَاطَ نِجَادَ الْمَشْرَفِىِّ بِعَاتِقِى(٤٤)
إِذَا صَاغَهَا بَهْزَارُ فِكْرِى تَصَوَّرَتْ لِعَيْنِىَ فِى زِىٍّ مِنَ الْحُسْنِ رَائِقِ(٤٥)

(٤٠) المبين : الواضح الظاهر .

(٤١) مدّ الله ظلك: دعاء لها بزيادة الخضرة والنضرة، واتساع الرقعة . وارتوى : روى (كرضى) وضدّه عطش . والثرى : الأرض . وسلسال : ماء عذب . ودافق : كثيرمنصبّ .

(٤٢) تمتار : تستفيد ، وهومستعار من قولهم : امتار فلان لأهله ، أى جلب لهم الميرة (بكسر فسكون) وهى الطعام . والصبا (بفتح الصاد): ريح تهبّ فى بلاد العرب من مطلع الشمس ، وهى أحبّ الرياح إليهم ، ومقابلتها الدبور (بفتح فضم) . والأريج : توهّج ريح الطيب. والعرف (بفتح فسكون) : الرائحة الطيّبة وناشق : اسم فاعل من نشق (كتعب) أى شمّ ، ومثله استنشق . يدعو لمصر بأن تبقى على الدوام ناضرة مخصبة ، كثيرة النبات ، طيّبة الزّهر .

وفى الأصل المخطوط : «يدوى» ، وهومن أخطاء الناسخ

(٤٣) الحمى : المكان المحمىّ المصون ، الذى لايقرب ولايجترأ عليه . ومشعب : مجمع ، اسم مكان من شعبت الشىء ، أى جمعته (وبابه قطع) . أو هو اسم مكان من شعبت القوم ، أى فرّقتهم ، والمراد أن أسرته نمت فى مصر وانشعبت وتفرّعت . والأتراب: جمع ترب (بكسر فسكون) ، وهو اللدة(بكسرففتح)، أى من ولد معك، وكانت سنّه مثل سنّك، ويطلق الترب على الذكر والأنثى ، فيقال : هو تربى ، وهى تربى . والمجرى : مكان الجرى . والسوابق: جمع سابق ، صفة من السبق ، ويريد بالسوابق : خيله الجياد.

(٤٤) التمائم: جمع تميمة ، وهى عوذة (بضم العين وسكون الواو) تعلّق على الإنسان فى طفولته؛ لتدفع عنه العين (فى زعم العرب)، أوهى خرزة رقطاء تنظم فى السير، ثم يعقد فى العنق ، وحلّ التمائم : كناية عن مجاوزة الإنسان طور الطفولة . وناط فلان الشىء بالشىء : علّقه به (وبابه قال) . ونجاد السيف : حمالته وعلاقته ، وهى السير الذى تقلّده المتقلّد . والمشرفىّ : السيف المنسوب إلى مشارف الشام ، أى قراها وبلادها ، وكانت تشتهر بصنع السيوف . والعاتق : مابين المنكب والعنق، وهو موضع الرداء.

(٤٥) صاغها : استحضر صورتها ، والصوغ فى الأصل : الخلق والتزيين ، يقال: صاغ الله تعالى=

تَرَكْتُ بِهَا أَهْلاً كِراماً ، وَجِيرَةً لَهُمْ جِيرَةٌ تَعْتَادُنِي كُلَّ شَارِقِ(٤٦)

هَجَرْتُ لَذِيذَ الْعَيْشِ بَعْدَ فِرَاقِهِمْ وَوَدَّعْتُ رَيْعَانَ الشَّبَابِ الْغُرَانِقِ(٤٧)

فَهَلْ تَسْمَحُ الْأَيَّامُ لِي بِلِقَائِهِمْ وَيَسْعَدُ فِي الدُّنْيَا مَشُوقٌ بِشَائِقِ؟(٤٨)

لَعَمْرِي لَقَدْ طَالَ النَّوَى ، وَتَقَطَّعَتْ وَسَائِلُ كَانَتْ قَبْلُ شَتَّى الْمَوَاثِقِ(٤٩)

فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ سَاءَتْ صُرُوفُهَا فَإِنِّي بِفَضْلِ اللهِ أَوَّلُ وَاثِقِ(٥٠)

فَقَدْ يَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ وَيَرْجِعُ لِلْأَوْطَانِ كُلُّ مُفَارِقِ(٥١*)

= فلاناً صيغة حسنة ، أى خلقه ، وصاغ فلان الشيء ، أى هيأه على مثال مستقيم ، وصاغ فلان الكلام ، أى حبّره . وبهزار : الذى فى القاموس أن البهزر (كجعفر) الحصيف العاقل ، والشريف . أو هو « بهزاد » : أى فكرى الشبيه ببهزاد (١٤٥٠ — ١٥٣٧) (كمال الدين أستاذ) : مُصَوِّر رسّام فنّان خطّاط . ولد فى « هراة » وهو أشهر مُصَوِّرِي الفُرْس . وتصوّرت : مطاوع صوّرْتُ الشيء فتَصَوَّرَ ، أى ظهرت صورته و كملت . والزىّ : الهيئة . ورائق : معجب رائع ، اسم فاعل من راقنى الشيء (من باب قال) ، أى أعجبنى .

(٤٦) الجيرة فى الشطر الأول : جمع جار . والجيرة فى الشطر الثانى : نوع من المجاورة . وتعتادنى : تعود إلىّ تارة بعد أخرى . والشارق : الشمس حين تشرق ، والمراد وقت الشروق .

يقول : إن ذكرى من تركهم بمصر من أهله وجيرانه تجاوره وتعاوده كل مطلع شمس ، فهو يحنّ إليهم ، ويشتاق إلى لقائهم .

(٤٧) العيش : المعيشة والحياة . وريعان الشباب : أفضله وأوّله ومقتبله . والغرانق : التامّ الجميل الناعم .

(٤٨) الاستفهام للتمنّى . وبلقائهم : بلقاء الأهل والجيرة . ومشوق : اسم مفعول من الشوق . وشائق : اسم فاعل منه .

(٤٩) لعمرى : أقسم بحياتى . والنوى : الفرقة والبعد . والوسائل : الذرائع والأسباب والروابط ، الواحدة وسيلة ، وهى مايتقرّب به إلى الشيء . وشتّى : متفرّقة مختلفة ، والمراد كثيرة منوّعة . والمواثق : جمع موثق (كمجلس) وهو الميثاق والعهد .

يقول : لقد طالت غربتى ، وبعدى عن وطنى ، وفرقتى لأهلى ، وتقطّعتْ بيننا وسائل وأسباب كانت قبل ذلك البعد قويّة متينة .

(٥٠) صروف الأيام : أحداثها ونوائبها . وفضل الله : خيره ورحمته وبرّه وإحسانه .

(٥١) الأمر : الحال والشأن .

. . . .

* فى هذه القصيدة: شوق ، وشكوى، وفخر ، وهجاء، وحكمة ،وأدب ، ودعاء ،وأمل، وخُلُقٌ ودين . وفيها قصّة الثورة العرابية ، وما كان لها من أهداف وطنية ، وتأييد واسع ، وما أوقد نارها من مساوى الحكّام ، وتماديهم فى الظلم، وسياسة القهر . وما انتهى إليه أمرها، وأمر الضاربين فى غمرتها . وقد دافع البارودىّ عن نفسه، وفنّد مارمى به من التّهم، وأحبط الدعايات والحملات التى شنّها على الثورة بعد إخفاقها أعداؤها وأعداء الوطن . وقد أسلفنا أننا أتممنا هذه القصيدة فى هذه الطبعة بنشر سبعة أبيات منها (٣٣ - ٣٩) لم تنشر فى الطبعات السابقة ، كما اجتهدنا أن تكون هذه الطبعة وافية مستوعبة لديوان البارودىّ كلّه . وماتوفيقنا إلا بالله .

قافية الكاف

قَالَ فِي الْغَزَلِ :

غَلَبَ الْوَجْدُ عَلَيْهِ ، فَبَكَى وَتَوَلَّى الصَّبْرُ عَنْهُ ؛ فَشَكَا(١)
وَتَمَنَّى نَظْرَةً يَشْفِي بِهَا عِلَّةَ الشَّوْقِ ، فَكَانَتْ مَهْلَكَا(٢)
يَا لَهَا مِنْ نَظْرَةٍ ! مَا قَارَبَتْ مَهْبِطَ الْحِكْمَةِ حَتَّى انْهَتَكَا(٣)
نَظْرَةٌ ضَمَّ عَلَيْهَا هُدْبَهُ ثُمَّ أَغْرَاهَا ، فَكَانَتْ شَرَكَا(٤)

(١) الوجد : الحبّ ، والوجد أيضاً : الهمّ والحزن . وتولّى : أدبر وذهب .

والمعنى : أن الحبّ والهيام بالحبيب ، أو الحزن والهمّ الناجم عن العشق قد غلبه ، واشتدّ عليه ، فبكى ، وأنه لم يجد صبراً على هذا الأمر ؛ فشكا ما يكابده ويعانيه من تبريح الشوق ، ولواعج الحبّ ، وهجر الحبيب . . .

(٢) هلك الشيء هلاكاً ومهلكاً (بتثليث اللام) : مات وفنى .

يقول : إنه تمنّى أن يظفر من الحبيب بنظرة يشفي به علّة اشتياقه إليه ، فكانت سبب موته وهلاكه .

والمعنى : أنها ضاعفت وجده وهيامه ، وزادت شوقه وغرامه .

(٣) يالها من نظرة : تركيب يفيد التعجّب ، وفرط انفعال النفس وتأثّرها بالمتعجّب منه ، وهو النظرة . والمهبط (كمنزل) : موضع الهبوط ، وهو النزول . والحكمة : العلم والحلم ، وقد كنى بمهبط الحكمة عن القلب . وانهتك : انشقّ وتقطّع وتمزّق .

يعجب من هذه النظرة الفاتنة الساحرة التى لم تكد تصل إلى قلبه حتى هتكته ، والمراد أنها أوقعته فى شرك الهوى ، وحبائل الغرام ، وأثّرت فى نفسه تأثيراً شديداً ، وتيّمته ، وشغلت باله ...

(٤) هدب العين : ما نبت من الشعر على أشفارها . وأغراها : المراد سلّطها على المحبّ ، ووجّهها إليه ، من قولهم : أغريت الكلب بالصيد ، أى ولّعته به ، ودعوته إليه ، وحضضته عليه . والشرك : حبائل الصيد ، وما ينصب للطير .

يقول : إن الحبيب ضمّ أهدابه على تلك النظرة ، ثم أغراها به ، ووجّهها إليه ، فكانت شركاً له ، وكانت سبب الفتنة والحب والغرام .

غَرَسَتْ فِى الْقَلْبِ مِنِّى حُبَّهُ وَسَقَتْهُ أَدْمُعِى حَتَّى زَكَا(٥)
آهِ مِنْ بَرْحِ الْهَوَى ! إِنَّ لَهُ بَيْنَ جَنْبَىَّ مِنَ النَّارِ ذَكَا(٦)
كَانَ أَبْقَى الْوَجْدُ مِنِّى رَمَقًا فَاحْتَوَى الْبَيْنُ عَلَى مَا تَرَكَا(٧)
إِنَّ طَرْفِى غَرَّ قَلْبِى ، فَمَضَى فِى سَبِيلِ الشَّوْقِ حَتَّى هَلَكَا(٨)
قَدْ تَوَلَّى إِثْرَ غِزْلَانِ النَّقَا لَيْتَ شِعْرِى ، أَىَّ وَادٍ سَلَكَا؟(٩)

---

(٥) غرست : أثبتت ، أى النظرة الفاتنة الساحرة التى وجّهها إليه الحبيب ، وهو مستعار من غرس الشجر . وزكا : نما وترعرع .

يقول : إنّ نظرة الحبيب إليه غرست حبّه فى قلبه ، ثم إنه سقى شجرة ذلك الحب بماء عينيه حتى نمت وزكت .

والمعنى : أن نظرة الحبيب إليه كانت سبب تعلّق الشاعر بهذا الحبيب ، وحبّه إيّاه ، ثم كانت علة ما ترتّب على ذلك الحبّ من صبابة ووجد وهمّ وبكاء .

(٦) آه : كلمة تقال عند الشكاية ، أو عند التوجّع والتحزّن . وبرح الهوى : شدّة الوجد ، وتبريح الغرام . وذكا (كفتًى) : مصدر ذكت النار (من باب سما) أى اشتدّ لهبها ، وعظم اتّقادها .

(٧) الرمق : بقيّة الحياة فى المحتضر والمذبوح ونحوهما . واحتواه ، واحتوى عليه : جمعه ، وأحرزه ، وحازه ، واشتمل عليه ، والبين : الفرقة (بضم فسكون) .

والمعنى : أن الوجد والهمّ والهيام والعشق أضناه وهزله وأذابه وبرّح به ، حتى لم يبق منه إلاّ رمق من الحياة ، ثمّ إنّ الحبيب فارقه ؛ فذهب الفراق بذلك الرمق ، وتركه قتيل الحبّ ، صريع الغرام .

(٨) الطرف : العين . وغرّه : خدعه ، وأطمعه بالباطل .

يقول : إن عينه نظرت إلى هذا الحبيب ، فخدعت بذلك النظر قلبه ومنّته الأمانىّ الكاذبة فاغترّ ، وسار فى طريق الشوق والصبابة والغرام حتى هلك .

والغرض الإشارة إلى ما ترتّب على رؤية الحبيب من تعلّق قلب ، واشتغال بال ، وحبّ وهيام ، وفتنة وغرام ، وشوق مبرّح . . .

(٩) تولّى : ذهب . وإثره : عقبه وبعده ، من قولهم : جاء على إثره ، وخرج فى إثره ، وكان هذا إثر ذاك ، أى بعده . وغزلان : جمع غزال (بفتح الغين) ، وهو ولد الظبية حين يتحرّك ويترعرع و يمشى ، وبه تشبّه الحسناء من النساء فى الرشاقة ولطف الحركة ، وجمال الجيد والعينين ، وفى التشبيه إشارة إلى حداثة سنّ المشبّه ، وهذا أكمل فى الجمال . والنقا : الكثيب من الرمل ، أو القطعة منه تنقاد محدودبة . وليت شعرى : ليتنى أشعر وأعلم . وسلك الطريق : ذهب فيه وسار (وبابه دخل) .

لَمْ يَعُدْ بَعْدُ ، وَظَنِّى أَنَّهُ لَجَّ فِى نَيْلِ الْمُنَى فَارْتَبَكَا(١٠)
وَيْحَ قَلْبِى مِنْ غَرِيمٍ مَاطِلٍ كُلَّمَا جَدَّدَ وَعْدًا أَفَكَا(١١)
ظَنَّ بِى سُوءًا وَقَدْ سَاوَمْتُهُ قُبْلَةً ، فَازْوَرَّ حَتَّى فَرِكَا(١٢)
فَاغْتَفِرْهَا زَلَّةً مِنْ خَاطِئٍ لَمْ يَكُنْ بِاللهِ يَوْماً أَشْرَكَا(١٣)
يَا غَزَالًا نَصَبَتْ أَهْدَابُهُ بِيَدِ السِّحْرِ لِضَمِّى شَبَكَا(١٤)

---

(١٠) لجّ فى الأمر: لازمه، وواظب عليه ، وأمعن فيه ، وألحّ (وبابه تعب). والمنى: الأمانىّ والآمال، الواحدة منية (بضم فسكون) . وارتبك المرء فى أمره :نشب فيه ، واختلط عليه ، ولم يكد يتخلّص منه ، وارتبك الصيد فى الحبالة : اضطرب .

(١١) ويح : كلمة رحمة . أوهى كلمة عذاب، بمعنى « ويل » . والغريم (هنا) : الذى عليه الدّين (بفتح نسكون) ، وقد يستعمل الغريم بمعنى الدائن ، كقول كثيّر عزّة :

قضى كلّ ذى دين ، فوفّى غريمه وعزّة ممطول معنًّى غريمها

وماطل : اسم فاعل من مطله بدينه (من باب نصر) أى سوّفه بوعد الوفاء مرّة بعد أخرى . وأفك (كضرب وعلم) : كذب .

جعل المحبوب مديناً يمطله بالوصال ، ويكرّر الوعد بلا وفاء ، وطلب لقلبه الرحمة من أوصاب الهجر ، وحسرات المطال .

(١٢) ساومته قبلة: أردتها منه ،وعرضتها عليه ،وهو مستعار من المساومة فى البيع والشراء . وازورّ: انحرف وأعرض . وفرك : أبغض وكره (وبابه سمع) ، يقال : فلانة فارك من الفوارك ، وهى خلاف العروب (بوزن العروس) ، وقد فركت زوجها فركاً ، نقيض عشقته عشقاً .

(١٣) اغتفرها : تجاوز عنها ، ولا تؤاخذنى بها . والزلّة : الخطيئة والسقطة. وخاطئ: مذنب. والشاعر فى الشطر الثانى من هذا البيت يلمح قول الله تبارك وتعالى :

« إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »

(١٤) الأهداب: مانبت من الشعر على أشفار العين ، جمع هدب (بضم فسكون) . والضمّ : الجمع ، وضمّت الشبكة الصيد، أى احتوته ، وانطوت عليه ، ويراد بالضمّ هنا : الاستمالة، وتأثير المعشوق فى نفس العاشق . والشبك : جمع شبكة (بفتحتين) ،وهى ماينصب لصيد الطير والسمك وغيره ، ومثلها الشركة (بفتحتين أيضاً) .

يشير إلى رشاقة المحبوب، ولطف حركته ، وحسن تثنّيه ، وحداثة سنّه ، وجمال جيده ، وأن أسباب الفتنة والسحر والإعجاب والغرام تنبعث من عينيه وأهدابه .

قَدْ مَلَكْتَ الْقَلْبَ ، فَاسْتَوْصِ بِهِ إِنَّهُ حَقٌّ عَلَى مَنْ مَلَكَا (١٥)

لَا تُعَذِّبْهُ عَلَى طَاعَتِهِ بَعْدَ مَا تَيَّمْتَهُ ، فَهْوَ لَكَا (١٦)

غَلَبَ الْيَأْسُ عَلَى حُسْنِ الْمُنَى فِيكَ ،وَاسْتَوْلَى عَلَى الضَّحْكِ الْبُكَا (١٧)

فَإِلَى مَنْ أَشْتَكِي مَا شَفَّنِي مِنْ غَرَامٍ ، وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى ؟ (١٨)

سَلَكَتْ نَفْسِي سَبِيلًا فِي الْهَوَى لَمْ تَدَعْ فِيهِ لِغَيْرِي مَسْلَكَا (١٩)

وَقَالَ فِي الْغَزَلِ أَيْضاً :

يا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ هَوَى شَادِنٍ غَازَلَ قَلْبِي لَحْظُهُ فَانْهَتَكْ (١)

---

(١٥) استوصى به : قَبِلَ الوصيّة . ويقال : استوصى به خيراً : أى أراد الخير له ، وفعَلَه . وحقّ : ثابت واجب . يقول للمحبوب : إنك قد ملكت قلبي ، واستوليت عليه ، فاستوص به خيراً ، فإنه من الواجب على المالك أن يستوصي بالمملوك ، ويرحمه ويحسن إليه . والضمير فى « إنه » يعود على الاستيصاء المفهوم من الشطر الأول .

(١٦) تيّمته : عبّدته وذلّلته .

(١٧) المعنى : أنه كان يمنّي نفسه بوصال هذا الحبيب ، ويترقّب إقباله ضاحكاً مستبشراً ، فلمّا لم يتحقّق شيء من هذه الأمانىّ الحسان — انقطع أمله ورجاؤه ، واستولى عليه اليأس والقنوط ، وساوره الهمّ والغمّ ، وغلبه الحزن والبكاء .

(١٨) شفّه الهمّ والمرض (من باب ردّ) : هزله وأوهنه وأضناه وأضعفه . والغرام : الحبّ المعذّب للقلب . والمشتكى : مصدر ميمىّ بمعنى الاشتكاء أو الشكوى .

والمعنى : أنه لا يجد أحداً غير الحبيب يبثّه وجده ، ويشكو إليه ماهزله وأضناه من لواعج الحبّ ، وحرق الصبابة ، وتباريح الغرام .

(١٩) يقول : إنه سلك فى حبّه سبيلاً لم يترك فيه موضعاً لسلوك أحد غيره . ولعلّ المعنى : أنه احتمل بسبب العشق ما لا يقوى على احتماله عاشق سواه . أو أنه انفرد بنوع من الهوى لم يعرفه غيره من المحبّين . أو أنّ ما كابده وعاناه من أوصاب الهوى وآلام الغرام يجعل غيره يحجم عن سلوك هذا السبيل .

(١) ويح : كلمة ترحمة أو هى كلمة عذاب ، بمعنى «ويل» . والشادن : ولد الظبية إذا قوى وترعرع واستغنى عن أمّه ، ومثله أو قريب منه الغزال ، وبه تشبّه الحسناء من النساء فى الرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثنّى ، وجمال الجيد والعينين ، وفى التشبيه إشارة إلى حداثة سنّ الحسناء ، وهو أتمّ فى الجمال ؛ وغازل قلبي : المراد توجّه إليه ، وأقبل عليه ، واستماله بمحاسنه ، والمغازلة فى الأصل : محادثة النساء =

ذِى نَظْرَة كَالسِّحْرِ ، لَوْ صَادَفَتْ غَمْزَتُهَا لَيْثَ وَغًى مَا فَتَكْ[٢]
فَكَيْفَ أَحْمِى مُهْجَتِى بَعْدَمَا خَامَرَهَا الْوَجْدُ ؛ فَطَارَتْ بِتَكْ؟[٣]
فَلَا يَلُمْنِى غَافِلٌ ؛ فَالْهَوَى سَيْفٌ إِذَا مَرَّ بِشَىْءٍ بَتَكْ[٤]
مَاذَا عَلَى مَنْ بَخِلَتْ نَفْسُهُ بِالْوَصْلِ لَوْقَبَّلْتُ طَرْفَ الْأَتَكْ ؟[٥]

وَقَال :

تَاللهِ لَسْتَ بِهَالِكٍ جُوعاً ، وَلَا لَاقٍ ـ وَإِنْ طَوَّفْتَ ـ إِلَّا رِزْقَكَا[١]
إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِالَّذِى خَلَقَ الْوَرَى وَأَقَاتَهُ ، فَعَلَامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَا؟[٢]

= والتودّد إليهنّ ، واللهو معهنّ ، والاسم الغزل (بفتحتين) . ولحظه : نظره الفاتن الساحر ، واللحظ فى الأصل : مصدر لحظه (كمنعه) أى نظر إليه بمؤخر عينه ، عن يمين ويسار ، وهو نظر فيه إعراض ، أو غضب ، أو دلال . وانهتك : انشقّ أو تقطّع وتمزّق .

(٢) ذى : صاحب ، وهو نعت لشادن فى البيت السابق . وغمزتها : إشارتها وحركتها . والليث : الأسد ، وهو مستعار هنا للرجل الشجاع . والوغى : الحرب . وفتك : جرؤ وأقدم وحارب وقتل وجرح .

يقول : إن لهذا الشادن نظرة كالسحر فى غرابتها ولطافتها وشدّة تأثيرها فى القلوب ، وإن غمزتها لو وجدت بطلاً من أبطال الحرب لأقعدته عن الفتك والقتال .

والمعنى : أن نظرة الحبيب الفاتنة الساحرة تؤثّر تأثيراً شديداً حتى فى ذوى البأس من الأبطال والشجعان .

(٣) كيف . . . : استفهام يراد به النفى . وأحمى : أحفظ وأصون وأقى . ومهجتى : نفسى . وخامرها : خالطها وداخلها . والوجد : الحبّ . وبتك (كعنب) : جمع بتكة (بكسر فسكون) ، وهى القطعة من الشىء المبتوك ، أى المقطوع ، من ريش أو شعر أو غيرهما . قال زهير :

حتى إذا ماهوت كفّ الغلام لها طارت وفى كفّه من ريشها بتك

والتقدير (فى بيت البارودىّ) فطارت بتك منها . وكان المتبادر أن يقول : فطارت بتكاً ، أى طارت مهجتى قطعاً .

(٤) الهوى : الحبّ . و بتك : قطع ، (وبابه ضرب ونصر) .

(٥) الأتك : الذيل ، وهى كلمة غير عربيّة .

(١) طوّفت : أكثرت الطواف والتجوال ، والمراد الاجتهاد وكثرة السعى فى طلب الرزق .

(٢) الورى : الخلق (بفتح فسكون) . وأقاته : حفظه ورزقه ، وأعطاه ما يمسك رمقه ، و يحفظ =

وَقَالَ* فِى الزُّهْدِ** :

يَا قَلْبُ مَالَكَ لَا تُفِيـ ـقُ مِنَ الْهَوَى ؟ يَا قَلْبُ مَالَكْ ؟(١)

أَوَ مَا بَدَا لَكَ أَنْ تَعُو دَ عَنِ الصِّبَا ؟ أَوَ مَا بَدَا لَكْ ؟(٢)

= حياته : من القوت ، وهو الغذاء . وعلام : لأىّ شىء . . وقتل النفس هنا : إجهادها فى وجوه الكسب ، وإتعابها فى طلب المعاش .

* هذه القصيدة كافيّة ، أى رويّها الكاف . وقد التزم الشاعر قبله اللام ، وهو من لزوم ما لا يلزم . ويجوز أن تكون لاميّة ، أى رويّها اللام ، والكاف بعده حرف وصل ؛ فالوجهان جائزان صحيحان . والثانى مستحسن راجح .

** زهد فيه (كمنع ، وسمع ، وكرم) زهداً ، وزهادة : أعرض عنه ، وتركه، لاحتقاره ، أو لتحرّجه منه ، أو لقلّته وتفاهته. وزهد فى الدنيا : ترك حلالها مخافة حسابه ، وترك حرامها مخافة عقابه . وأدب الزهد (شعره ، ونثره) يقصد به التزهيد فى الدنيا ، والترغيب فى الآخرة . والزهد فى شعر البارودىّ غير قليل ، ومكانته فى البلاغة مكانة سائر شعره . وأصدقه وأعمقه وأشدّه تأثيراً فى النفس ما نظمه وهو فى منفاه .

(١) « يا » فى أول البيت لنداء البعيد. وقد نزّل القريب هنا (وهو قلبه) منزلة البعيد إشارة إلى غفلته ، وانهماكه فى الهوى ، وإبعاده فى الغىّ . والغرض من النداء الزجر . و « مالك » : « ما » : اسم استفهام مبتدأ . والجارّ والمجرور « لك » خبره . وأفاق يفيق إفاقة : انتبه ، وصحا . يقال : أفاق المريض من مرضه ، والسكران من سكره ، والنائم من نومه . والهوى (فى الأصل) : مصدر هوى الإنسان الشىء (من باب صدى) : أى مال إليه ، ورغب فيه . ثم كثر استعماله فى ميل النفس إلى الشهوات. وجمعه أهواء . وربّما أطلق على الشىء المهوىّ ، أى المرغوب فيه. وقد ذمّ القرآن الهوى ، ونهى عن اتّباعه؛ قال تعالى : «وأمّا من خاف مقام ربّه ، ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنّة هى المأوى». وقال تعالى : « ولا تطع مَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتّبع هواه ، وكان أمره فرطاً » .

كرّر الشاعر النداء والاستفهام : « يا قلب ، مالك ؟ » مرّتين ، لتأكيد المعنى ، والإلحاح به ؛ فهو بالنداء ينبّه قلبه ويزجره ، وبالاستفهام يلومه فى تعجّب ، ويأمل أن يفيق من الهوى ، ويعود إلى الرشاد .

وهو فى هذا البيت وستة الأبيات بعده يخاطب قلبه واعظاً ، ناصحاً ، مرشداً ، مبصّراً بالعواقب ، داعياً إلى الهدى والتقى ، وتسليم الأمر لله .

(٢) الهمزة فى أول البيت للاستفهام المراد به التوبيخ . و« الواو » بعدها عاطفة. والمعطوف عليه محذوف ، أى « أتماديت فى الصبا ، وما بدا لك أن تعود عنه ؟ » . وبدا (من باب سما) : ظهر ، وبان ، واتّضح . وتعود عن الصبا : أى تقلع عنه ، وترجع ، وتكفّ ، وتنصرف . =

أَمْ خِلْتَ أَنَّ يَدَ الزَّمَا ن قَصِيرَةٌ عَنْ أَنْ تَنَالَكْ[٣]
هَيْهَاتَ ، صَدَّ بِكَ الْهَوَى عَنْ أَنْ تَرِيعَ ، وَلَنْ إِخَالَكْ[٤]
سَلِّمْ أُمُورَكَ لِلَّذِى أَنْشَاكَ مِنْ عَدَمٍ ، وَعَالَكْ[٥]

= والصبا : مصدر صبا (كَعَدا ، وسَمَا) : أى مال إلى اللهو واللعب ، والجهل والفُتوّة ، وفَعَلَ فِعْلَ الصِّبْيان ، وانطاع لدواعى الهوى ، وعبث الشباب . وصبا إلى المرأة : تعلّق بها ، ونزع إليها ، وحنّ ، واشتاق . وفى القرآن الكريم : « وإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

كرّر الشاعر « أو ما بدَا لك » مرّتين، كما كرّر فى البيت السابق « ياقَلْبُ ، مالَكَ ؟ »

ويلاحظ أن معنى العودة عن الصبا فى هذا البيت تكرار ، أو شبه تكرار لمعنى الإفاقة من الهوى فى البيت السابق . وفى الاستفهام معنى اللوم والإنكار ، فهو ينكر على قلبه تماديه فى الصّبا ، ويعيبه ، وينهاه عنه .

(٣) « أم » هنا : بمعنى « بل » . وتفيد الانتقال من معنى إلى معنى آخر ، هو فى الغالب أهمّ من المعنى السابق ، وأحقّ منه بالانتباه والاحتفال. وخال الشيء يخاله (من باب نال) : أى ظنّه . يقول : بل ظننت أن الزمان عاجز عن أن يدركك بآفاته وأسوائه . وهو أسلوب آخر من الوعظ والنصح والإرشاد والتحذير أشدّ من أسلوب البيتين السابقين ؛ كأنّه يقول : أفق من الهوى ، وارجع عن الصبا قبل أن تفجعك فواجع الزمان ، وتردعك نوازل الحدثان .

(٤) « هيهات » (بتثليث التاء) : اسم فعل بمعنى بَعُدَ : أى بعد ماآمله من إفاقتك ، وإقلاعك عن الهوى . وصدّه عن كذا : منعه ، وكفّه ، وصرفه عنه . وصدّ بك الهوى : أى أمعنتَ فيه ، فابتعد بك . وراع يريع (من باب باع) : عاد ، ورجع . و « لن إخالك » : أى ولن أظنك مقلعاً عن الهوى ، عائداً إلى الهدى . وطيّئ تكسر همزة « إخال» على غير قياس . وبنو أسد يفتحونها على القياس . والكسر أكثر وأشهر .

يقول : إن الهوى استبدّ بقلبه ، وتمكّن منه، وسيطر عليه ؛ فحال بينه وبين العودة إلى الهدى . وقد أكّد هذا المعنى بـ « هيهات » وهى كلمة تبعيد . ثمّ بقوله : « ولن إخالك » . وهو كالبيت الذى قبله أسلوب شديد من أساليب الوعظ والإرشاد . وفى ثلاثة الأبيات الآتية عظة ونصح وأمل فى الإقلاع عن الأهواء ، والإنابة إلى الله .

(٥) الأمر فى أول هذا البيت ، وفى أول البيت الآتى : « سلّم » و « دع » . معناه النصح والإرشاد . والأمور : جمع الأمر : بمعنى الشأن والحال . وفى القرآن الكريم : « وأفوِّضُ أمْرِى إلى =

وَدَعِ التَّعَلُّقَ بِالْمُحَا لِ ؛ فَإِنَّهُ يَبْرِى مِحَالَكْ[٦]
فَعَسَاكَ تَنْزِعُ مِنْ يَدِ الْ أَهْوَاءِ - يَا قَلْبِى - حِبَالَكْ[٧]

وقال* :

يا بَانَةً ، مَنْ لِي بِضَمِّكْ ؟ يَا زَهْرَةً ، مَنْ لِي بِشَمِّكْ ؟[١]

الله ؛ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » . وأنشاك : أصله الهمز : من الإنشاء : وهوالخلق والإيجاد . وعالك : كفلك ، ورزقك ، ويسّر لك أسباب المعيشة والحياة . (وبابه قال) .

ولاريب أن الخير كلّه فى التسليم الذى دعا إليه الشاعر ، وحضّ عليه ؛ فالله تبارك وتعالى هو الخالق المقتدر الذى أنشأ الإنسان من العدم، ووهب له نعمة الوجود ، ورزقه وعاله ، ورعاه وربّاه . وتفويض الأمور إليه من التقوى والإيمان الذى يضىء القلب ، ويدعو إلى تحرّى الرشد فى الأقوال والأعمال ، ويعالج ماشكاه الشاعر فى الأبيات السابقة من سيطرة الهوى ، والانطياع للهوالصبا، وجهل الشباب .

(٦) دع : اترك واجتنب . والمحال (بضم الميم) : ما اقتضى الفساد من كلّ وجه . ومن معانيه : الباطل ، والمعوجّ ،وغير الممكن . ويبرى : يُضْعِفُ ، أو يَهْدِم (وبابه رمى) . وهو من مجاز اللغة . والأصل : بريت القلم ونحوه . والمحال (بكسر الميم وفتحها) : القوّة والقدرة .

وهذا البيت وثيق الاتصال بالأبيات السابقة ؛ فإنّ الهوى والصّبا من الأباطيل والمفاسد . ولاريب أن التشبّث بها يضعف أو يتلف ما أنعم الله به على الإنسان من قوى الروح ، والعقل ، والجسم ، والحواسّ ، ويفسد الأخلاق ، وينتهى بالمرء إلى البوار والخسران .

(٧) « عسى» : فعل ماضٍ جامد ، معناه الترجّى ،ويفيد الطمع . أو هو حرف بمعنى « لَعَلَّ » ويفيد الترجّى والتوقّع . وتنزع (من باب ضرب) : تنتزع ، وتقتلع . ونزع الحبال من يد الأهواء : كناية عن الإفاقة منها ، والإقلاع عنها ، واجتناب اللهو والمجانة .

* هذه القصيدة كافيّة إن عَدَدْنا الكاف رويًّا . وقد التزم الشاعر قبله الميم ، وهو من لزوم مالا يلزم . ويصحّ أن يكون رويُّها الميم ، والكاف بعده حرف وصْل ؛ وعلى هذا تُدْرَج القصيدة فى قافية الميم . والخلاصة أن الأمرين جائزان صحيحان . والثانى مستحسن راجح .

(١) البانة : واحدة البان : وهوضرب من الشجر ، سَبْط القوام . وفيه مع السُّبوطة والاعتدال لين ومرونة . وورقه كورق الصَّفصاف . وبالبان تشبّه حسان النساء فى حسن الطول ، وجمال القدّ ، واعتدال القوام ، والمرونة . و « منْ » فى شَطْرى البيت : اسم استفهام يراد به =

يَا بِنْتَ سَيِّدَةِ النِّسَا ءِ تَرَفَّقِى بِحَيَاةِ أُمِّكْ (٢)
مَا فِىَّ مَنْبِتُ شَعْرَةٍ إلاَّ بِهِ أَثَرٌ لِسَهْمِكْ (٣)
كَلَّا ، وَلَا فِى مُهْجَتِى مِنْ طُولِ صَدِّكِ غَيْرُ هَمِّكْ (٤)

=التمنّى ؛ فالشاعر يرغب فى ضمّ من يتغزّل بها ، وشمّها . ويتمنّى أن يجد من يعينه على تحقيق تلك الرغبة وبين الزهرة والشمّ ائتلاف قوىّ ، وتناسب واضح . وفى الزهرة — إلى ذكاء الرائحة ، وطيب الأريج — معنى النضرة ، والبهاء ، والإشراق ، والغضارة ، والرونق ، والرواء . وفى البانة — مع السبوطة والاعتدال — معنى المرونة ، والرّخاصة ، وحسن اللين ، وجمال التثنّى .

شبّه المتغزّل بها بالبانة ، ثمّ بالزهرة . وتمنّى أن يعان على عناقها وشمّها .

(٢) بحياة أمّك : الباء : حرف قسم . وحياة أمّها : مقسم به .

استحلف معشوقته بحياة أمّها أن ترفّق به ، وترحمه ، وترقّ له ، وتعطف عليه .

(٣) المنبت (بوزن المجلس) : موضع النبات : أى المكان الذى ينشأ منه ، ويظهر فيه . (وفعله من باب نصر) . ومنبت الشعرة فى الجسم : أصلُها ، ومستقرّها . ويراد بمنابت الشعر : الجسم كلّه : ظاهره ، وباطنه . والسهم : عود من خشب يسوّى ، ويركّب فى طرفه نصل محدّد ، يرمى به عن القوس العربية ، وكانت من أدوات الصيد والقتال عندهم . ويرد السهم كثيراً فى لغة الشعر ، وبخاصّة فى باب الغزل والنسيب . وسهام الحسناء : محاسنها ، ومفاتنها ، ونظراتها الساحرة التى تستهوى بها العاشق ، وتُدلّهه .

والمعنى : أن قلبه ، ووِجْدانه ، وعواطفه ، ومشاعره تأثّرت كلّ التأثّر بمحاسن المتغزّل بها ، ونظراتها الساحرة ؛ فوقع صريع الحب ، أسير الغرام .

(٤) « كلاّ » : حرف جواب : بمنزلة « إى » : أى « نعم » . والجواب هنا لتصديق المخبر : أى تأكيد معنى البيت السابق . أو هى بمعنى « ألا » الاستفتاحيّة التى يبتدأ بها الكلام ، وتفيد التنبيه . أو هى بمعنى « حقّاً » : مصدر حقّ الأمر : بمعنى صحّ ، وثبت ، وصدق . والمهجة : النفس ، والروح ، ودم القلب . وقد تطلق ويراد بها القلب . و « من » هنا : تعليليّة ، كما فى قول الله تبارك وتعالى : « ممّا خطيئاتهم أغرقوا » . والصدّ ، والصدود : الإعراض ، والقطيعة ، والصدوف ، والهجران . وضدّه الإقبال ، والوصال ، واللقاء ، والاحتفال . والهمّ : الحزن ، والقلق .

فى البيت السابق قرّر أن سهامها أصابته إصابات شاملة ؛ فوقع أسير الهوى ، صريع الغرام .

وفى هذا البيت أن طول إعراضها عنه أذابه وأضناه ، ولم يبق فى قلبه غير الهموم والأحزان .

أَصْبَحْتُ مُمْتَنِعَ الْكَرَى لَمَّا جَفَانِى بَدْرُ تِمِّكْ(٥)
إِنْ لَمْ تَجُودِى بِاللِّقَا ءِ عَلَى الْمُحِبِّ ، وَلَا بِلَثْمِكْ(٦)
فَتَسَامَحِى لِىَ مَرَّةً حَتَّى أَفُوزَ بِلَثْمِ كُمِّكْ(٧)

(٥) الكرى : النوم ، والنعاس . وجفانى : أعرض عنى ، وهجرنى . والبدر : القمر ليلة كماله ، وتمام ضيائه فى منتصف الشهر العربى . وبدر تمّك (بتثليث التاء) : بدرك التامّ ، فالتمّ تأكيد لمعنى البدر . وقد جرى المتغزّلون على تشبيه الحسناء بالبدر فى الإشراق والبهاء والرواء ، وحسن الطلعة ، وجمال المحيّا ، واكتمال المحاسن .

شبّهها بالقمر الممتلئ المشرق البهىّ ، الباهر التامّ ، وقال : إنها جفته ، وأعرضت عنه ؛ فشقّ عليه الجفاء والإعراض ، ولازمه الهمّ والضنى ، والأرق والسهاد .

(٦) اللثم : التقبيل . (وفعله من بابى فهم ، وضرب) . وجواب « إن » الشرطيّة فى البيت الآتى : « فتسامحى ... »

(٧) تسامح فى كذا : تساهل . والكُمّ : مدخل اليد ، ومخرجها من الثوب . وجمعه أكمام .

* * *

محتويات المجلد الاول

صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٢/٨٣٨١

ISBN 977 - 01 - 3154 - 7

محمود سامى البارودى رائد النهضة الشعرية فى الوطن العربى . بدأ إنجازه الإبداعى بإحياء التقاليد الأصيلة للشعر العربى ، تلك التقاليد التى حفرت للشعر العربى خصوصيته ، وأسّست له قيمته ، فاستبدل بتراث التخلف تراث التقدم ، وبتقاليد الاتّباع تقاليد الإبداع ، وبقصيدة الزخرفة المغلقة قصيدة النفوس المنطلقة . لقد واكب ابداعه انطلاق الروح الخلاّق للتنوير فى عصر النهضة ، وارتبط بأعلام التنوير من زعماء الإصلاح ، كما أضاف هذا الإبداع للتنوير بعده الوجدانى ، وأتاح له من عمق الشعور والوعى وضرورة الإضافة ما فتح أمام التنوير آفاق المستقبل . ولذلك كان شعر البارودى الأصل الحىّ المباشر الذى تفرعت منه أغصان دوحة الشعر العربى الحديث والمعاصر ، إبتداءً من أحمد شوقى والرصافى وانتهاءً بأحمد عبد المعطى حجازى وبدر شاكر السياب .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب